شَرْحُ مَسَائِلِ الْجَاهِلِيَّةِ

الّتِي خَالَفَ فِيهَا رسُولُ اللَّهِ ﷺ أهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ

لِشيْخِ الْإِسْلامِ

مُحمّدِ بْنِ عبد الوهّابِ بْنِ سُليْمان بْنِ علِيٍّ آل مُشرّفٍ التّمِيْمِيِّ

أجْزل اللَّهُ لَهُ الْمثُوبة وَالْمغْفِرة

الشّرْحُ لِفضِيلةِ الشّيْخِ الدُّكْتُورِ

ياسِرِ بْنِ حُسيْنِ بْنِ محْمُودٍ بُرْهامِي

غفر اللَّهُ لَهُ ولِوالِديْهِ وَلأهْلِ بيْتِهِ

تحْقِيْقُ وعِنايةُ

عادِلِ بْنِ مُحمّدٍ مُرْسِي رِفاعِي

غفر اللَّهُ لَهُ ولِوالِديْهِ ولأهْلِ بيْتِهِ ولِمشايِخِهِ

الجزء الأول

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ النَّاشِرِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، وبعد:

فإن خير الحديث كتاب الله ﷻ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة، ولا يدرك هذا الخير ويجتنب هذا الشر إلا بتوفيق الله ﷻ للعبد لاتباع كتابه وهدي نبيه في العلم والعمل، ولقد بعث الله محمداً ﷺ على حين فترة من الرسل وعلى حين تفرق من الناس، فأنعم الله عليهم بأن بعث إليهم نبي الهدي ورسول الرحمة بالهدي ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، وأظهر الله دينه، وجمع عليه المسلمين أمة واحدة اجتمعت قلوبهم على الصراط المستقيم، وألف بينهم بهذه النعمة العظيمة، ورسوله، ودينه.

ولكن مع كثرة المحدثات وغلبة الجهل يصبح الإسلام غريباً، وتتفرق كلمة المسلمين، فيصيرون فرقاً كثيرة بعد أن كانوا أمة واحدة، كما هو حاصل اليوم، وطريق العودة إلى وحدتهم بيِّن واضح، وهو طريق السلف الصالح جيلاً بعد جيل، دون من وصف بالبدعة؛ كالروافض، والخوارج، وغيرهما من أهل البدع المذمومة.

ومع غربة هذا الدين، وكلما جاء زمان كان الذي بعده شراً منه، وكانت غربة الإسلام فيه أشد؛ كما قال ﷺ: «**بدأ الْإِسْلامُ غرِيبًا، وسيعُودُ كما بدأ غرِيبًا، فطُوبى لِلْغُرباءِ**»(١).

ولما كان رب العالمين جعل دين محمد ﷺ باقياً إلى قيام الساعة، فلم تخل الأرض من قائم له بحجته أبداً؛ كما قال ﷺ: «**لا يزالُ الدِّينُ قائِمًا حتّى تقُوم السّاعةُ**»(٢).

وكذا روى البخاري في «المناقب» عن معاوية رضي الله عنه يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يزالُ مِنْ أُمّتِي أُمّةٌ قائِمةٌ بِأمْرِ اللّهِ، لا يضُرُّهُمْ منْ خذلهُمْ ولا منْ خالفهُمْ، حتّى يأْتِيهُمْ أمْرُ اللّهِ وهُمْ على ذلِك**»(٣).

وممن يقيم الحجة لله على خلقه الأئمة المجددون، فكلما جاء قرن من القرون التي تنطمس فيها معالم الدين، ويكاد تتعطل معظم أصوله ودعائمه بعث الله عز وجل لهم من يجدد لهم دينهم، ويردهم إلى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم وأهل القرون المفضلة، مصداقًا لقوله ﷺ: «**إِنّ اللّه يبْعثُ لِهذِهِ الْأُمّةِ على رأْسِ كُلِّ مِائةِ سنةٍ منْ يُجدِّدُ لها دِينها**»(٤).

وقال الإمام أحمد في خطبة كتابه: (**الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله**).

(١) أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٢).
(٣) أخرجه البخاري (٣٦٤١) من حديث معاوية رضي الله عنه.
(٤) أخرجه أبو داود (٤٢٩١)، والطبراني في الأوسط (٦/ ٣٢٣)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٦٧، ٥٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الْحمْدُ لِلّهِ الّذِي جعل فِي كُلِّ زمانٍ فتْرةٍ مِن الرُّسُلِ، بقايا مِنْ أهْلِ الْعِلْمِ، يدْعُون منْ ضلّ إِلى الْهُدى، ويصْبِرُون مِنْهُمْ على الْأذى، يُحْيُون بِكِتابِ اللّهِ الْموْتى، ويُبصِّرُون بِنُورِ اللّهِ أهْل الْعمى، فكمْ مِنْ قتِيلٍ لِإِبْلِيس قدْ أحْيوْهُ، وكمْ مِنْ ضالٍّ تائِهٍ هدوْهُ، فما أحْسن أثرهُمْ على النّاسِ! وما أقْبح أثر النّاسِ عليْهِمْ! ينْفُون عنْ كِتابِ اللّهِ تحْرِيف الْغالِين وانْتِحال الْمُبْطِلِين وتأْوِيل الْجاهِلِين، الّذِين عقدُوا ألْوِية الْبِدْعةِ وأطْلقُوا عِنان الْفِتْنةِ، فهُمْ مُخْتلِفُون فِي الْكِتابِ، مُخالِفُون لِلْكِتابِ، مُجْمِعُون على مُخالفةِ الْكِتابِ، يقُولُون على اللّهِ وفِي اللّهِ بِغيْرِ عِلْمٍ، يتكلّمُون بِالْمُتشابِهِ مِن الْكلامِ، ويخْدعُون الْجُهّال بِما يُشبِّهُون عليْهِمْ، فنعُوذُ بِاللّهِ مِنْ فِتنِ الْمُضِلِّين[١].

وليس من شرط المجدد أن يكون واحداً بعينه، أو صنفاً خاصاً من الناس، بل الأمر كما ذكر سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ أن الحافظ ابن كثير قال في «النهاية» لما ذكر هذا الحديث ما نصه: (وقد ادعى كل قوم في إمامهم أنه المراد بهذا الحديث، والظاهر - والله أعلم - أنه يعم حملة العلم من كل طائفة وكل صنف من أصناف العلماء من محدثين ومفسرين وفقهاء ونحاة ولغويين إلى غير ذلك من الأصناف، والله أعلم).

ويقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن - رحمهم الله - عن المجدد: وليس من شرطه أن يقبل منه ويستجاب، ولا أن يكون معصوماً في كل ما يقول، فإن هذا لم يثبت لأحد دون الرسول ﷺ.

(١) انظر: الرد على الجهمية (ص٥٥).

ويقول أيضاً في كلام نفيس جداً رحمه الله:

ولهذا المجدد علامة يعرفها المتوسمون وينكرها المبطلون، وأوضحها وأجلاها وأصدقها محبة الرعيل الأول من هذه الأمة، والعلم بما كانوا عليه من أصول الدين وقواعده المهمة، التي أصلها الأصيل وأُسُّها الأكبر الجليل معرفة الله بصفاته، بصفات كماله ونعوت جلاله . . . إلى أن قال رحمه الله: وأن يعبدوه وحده لا شريك له، ويكفروا بما سواه من الأنداد والآلهة. هذا أصل دين الرسل كافة، وأول دعوتهم وآخرها، ولب شعائرهم، وحقيقة ملتهم، وفي بسط هذه الجملة من العلم به وبشرعه ودينه وصرف الوجوه إليه مالا يتسع له هذا الموضع، وكل الدين يدور على هذا الأصل ويتفرع عنه. ا. هـ[(١)][(٢)].

وقال الإمام أحمد رحمه الله: تعهد الله أن يجدد لهذه الأمة أمر دينها، فنظرنا فإذا على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وعلى رأس المائة الثانية الإمام الشافعي رحمه الله.

وأقول: نظرنا أيضاً فوجدنا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله على رأس المائة السابعة، وقد أبلى بلاءً حسناً في الدفاع عن الإسلام، وصد غارات أهل البدع، وكفانا من حسناته تلميذه العلامة ابن القيم رحمه الله وآخرون كما سيأتي.

---

(١) انظر: مجموعة الرسائل والمسائل النجدية (٣ / ١٥٣- ١٥٤).

(٢) انظر: مقدمة (عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي) لفضيلة الشيخ الدكتور صالح بن عبد الله العبود- حفظه الله- (٣/ ١٥٣).

ونظرنا على رأس المائة الثانية عشر، فإذا بالمجدد شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا الشيخ عبد الرحمن بن قاسم يذكر أن أكابر عصر الشيخ شهدوا له بالعلم والدين، وأنه من جملة المجددين لما جاء به رسول رب العالمين(١).

وقد منّ الله على شيخنا فضيلة الشيخ الدكتور ياسر حسين برهامي بشرح كتاب:

مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية

لِشَيْخِ الإِسْلامِ

محمدِ بنِ عبد الوهّابِ بنِ سُلَيْمان بنِ علي آل مُشرّفٍ التّمِيْمِيِّ

أجْزَل اللهُ له المثُوبة والمغْفِرة

وعهد إلي بالعناية بهذا الشرح المبارك - جزاه الله خيرًا - فاستعنت بالله وتوكلت عليه، شاكرًا لشيخنا حسن ظنه بي، وشرعت في ترتيبه ليخرج لك أخي القاري الكريم في أبهى حلة، فنسأل الله ﷻ أن ينفع بهذا الشرح المبارك، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، إنه خير مسئول وأكرم مأمول، كما أحمد الله ﷻ أن شرح صدر شيخنا الجليل لتشريفي بالعمل على هذا الشرح المبارك، كما أسأله ﷻ أن يجعل شيخنا إمام هدى ورشاد وأن يعز به ويصلح، وأن يبارك في عمره وعمله، وأن يغفر له ولوالديه ولذريته ولأهل بيته، وأن يقيه شر الحاسدين، وأسأله ﷻ أن يرفع بهذا

(١) انظر: الدرر السنية (١٢/ ٩).

الشرح ذكره ويثقل به موازين أعماله، وأن يجمعه ووالديه وذريته وأهل بيته تحت لواء الحمد وفي جنات النعيم، وفي زمرة السابقين مع النبي الأمين وصحابته الغر الميامين، وأن يجعل لي من الخير نصيبًا، وصلى الله وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا مزيدًا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

✐ **كتبه**

عادل بن محمد مرسي رفاعي

الاسكندرية ١٤٣٣/٧/١٥هـ

ترجمة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

★ **نسبه**: هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي آل مشرف التميمي النجدي.

★ **مولده**: في بلده العبينة سنة ١١١٥هـ في بيت علم وشرف ودين، فأبوه عالم كبير، وجده سليمان عالم نجد في زمانه، وعمه إبراهيم من أهل العلم في زمانه.

★ **نشأته**: تعلم القرآن وحفظه عن ظهر قلب قبل بلوغه عشر سنين، وكان حاد الفهم، وقاد الذهن، ذكي القلب، سريع الحفظ، وكان رحمه الله في صغره كثيرة المطالعة في كتب التفسير والحديث وكلام العلماء في أصل الإسلام، فشرح الله صدره في معرفة التوحيد وتحقيقه ومعرفة نوا قضه المضلة عن طريقه.

وجد في طلب العلم وأدرك وهو في سن مبكر حظاً وافراً من العلم، حتى أن أباه كان يتعجب من فهمه ويقول: لقد استفدت من ولدي محمد فوائد من الأحكام قبل أن يبلغ.

★ **رحلة الشيخ العلمية**: بلغ الشيخ الاحتلام قبل إكمال اثنتي عشرة سنة من عمره ورآه أهلاً للصلاة بالناس إماماً للناس لمعرفته بالِإحكام،

وزوجه بعد البلوغ مباشرة، ثم طلب من أبيه حج البيت الحرام فأذن له بالحج، فحج وقصد المدينة النبوية وأقام فيه شهرين، ثم رجع بعد ذلك إلى أبيه في العيينة، وأخذ يدرس الفقه على مذهب الإمام أحمد على والده، ورزق مع قوة الحفظ سرعة الكتابة، بحيث أنه كان يخط كراساً واضحاً في الجلسة الواحدة بلا سأم ولا تعب مما يحير أصحابه، ويقول الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ: وقد كتب بخط يده كثيراً من مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ وأجزل له المثوبة، لا يزال بعضها موجوداً بالمتحف البريطاني في لندن.

رحل الشيخ إلى مكة ثم المدينة ثم عاد للعيينة ثم إلى البصرة ثم إلى الإحساء ثم رجع إلى البصرة ثم إلى العيينة.

مشايخه والعلوم التي درسها:

في نجد درس على أبيه وعمه، ودرس - كما ذكر سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ﷺ - على بعض علماء مكة، ودرس على عبد الله بن سالم البصري إمام عصره في الحديث، وأبرز مشايخه عبد الله بن سيف النجدي، حيث درس عليه الفقه والحديث، واستفاد منه التوسع في قراءة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، ثم تتلمذ على الشيخ محمد حياة السندي، وتعلم منه الاجتهاد ونبذ التقليد الأعمى والاشتغال بالكتاب والسنة وتوجيهه إلى الإخلاص توصيل عبادة الله، وتتلمذ أيضاً على الشيخ محمد المجموعي، ودرس عليه الفقه والحديث واللغة العربية وكثير من الكتب اللغة والحديث، واستمرت رحلته العلمية بين ١١٣٩ هـ إلى ١١٤٩هـ

★ **الأسس الثلاث التي ارتكزت عليها الدعوة السلفية المباركة:**

١ - الاهتمام بالتوحيد ونشر مسائله والتلازم بين العقيدة والشريعة.

٢ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣ - الالتصاق التام بين العلماء الراسخين وولاة الأمور.

★ **وفاته**: بالدرعية وذلك عام **١٢٠٦** هـ عن **٩١** عاماً تقريباً.

★ **أهم مؤلفات الشيخ** رَحِمَهُ اللَّهُ:

كتاب التوحيد - كشف الشبهات - أصول الإيمان - فضل الإسلام - فضائل القرآن - السيرة المختصرة - السيرة المطولة - مجموع الحديث على أبواب الفقه - مختصر الإنصاف والشرح الكبير - مختصر الصواعق - مختصر فتح الباري - مختصر الهدي - مختصر العقل والنقل - مختصر المنهاج - مختصر الإيمان - آداب المشي إلى الصلاة - القواعد الأربع . . . وغير ذلك من الرسائل طبعتها جامعة الإمام في **١٢** مجلد تقريباً.

★ **التأليف عند شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب** رَحِمَهُ اللَّهُ:

كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يؤلف بحسب ما تقتضيه وتستدعيه حاجات الناس ومصالحهم، ويُلجئ إليه واقع حياتهم وحالتهم الاعتقادية والواقع المؤلم للتصحيح والإصلاح بعقيدة السلف الصالح في الأصول والفروع، فهذا جعله يهتم بالأهم فالمهم وما يناسب أهل زمانه ويلائمهم، ولقد خاطبهم بما يعقلون ويفهمون بلغتهم وأسلوبهم على أتم وجه وأكمله، ونفع الله بعلمه وعمله، وكان متمسكاً بما في «صحيح البخاري» في كتاب الأدب

باب (قول النبي ﷺ يسروا ولا تعسروا) وكان يحب التخفيف واليسر على الناس.

فكان رحمه الله لا يكتب لأجل التفنن والمكاثرة وإثبات براعته العلمية في المقدمة، بل يكتب بقدر حاجة الناس ومراعياً لحالهم، رحيماً بالمدعو، متلطفاً به، يدعو له بالرحمة أو التوفيق والرشاد في معظم رسائله، فإن مبنى هذا العلم والدعوة على الرحمة والتراحم، رحمة وتراحم بين العالم والمتعلم، بين الداعي والمدعو، وهذه الرحمة هي سبب التواصل، قال عز وجل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾.

انظر في مصادر ترجمته رحمه الله:

عنوان المجد في تاريخ نجد (١: ٣١ وما بعدها)، و(الإمام محمد بن عبد الوهاب دعوته وسيرته) لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله، و(من أعلام المجددين) للشيخ صالح الفوزان - وفقه الله - (ص٨٣ - ١٢٧)، و(حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحقيقة دعوته) للدكتور سليمان بن عبد الرحمن الحقيل، و(الشيخ محمد بن عبد الوهاب المجدد المفترى عليه) لأحمد بن حجر آل بو طامي، و(علماء نجد خلال ثمانية قرون) للشيخ عبد الله البسام رحمه الله (١: ١٢٥ - ١٦٨)، و(عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي) لفضيلة الشيخ الدكتور صالح بن عبد الله العبود - حفظه الله -، و(اعتماد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الكتاب والسنة) لصالح الأطرم، و(اعتماد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الكتاب والسنة) لسماحة مفتي عام اللملكة العربية السعودية معالي الشيخ عبد العزيز آل الشيخ، و(احتساب الشيخ

محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ) لمرفت بنت كامل بن عبد الله أسرة، (منهج شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في التفسير) لمسعد بن مساعد الحسيني (محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه) لمسعود الندوي، و(الشيخ محمد بن عبد الوهاب حياته ودعوته في الرؤية الاستشراقية) لناصر بن إبراهيم بن عبد الله الطريم، (دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي) لمحمد بن عبد الله بن سليمان السلمان، و(دعايات مكثفة ضد الشيخ محمد بن عبد الوهاب) لمحمد منظور النعماني، و(منهج شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في التأليف) لعبد المحسن بن حمد بن عبد المحسن بن عبد الله بن حمد العباد البدر، و(الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ومنهجه في مباحث العقيدة) لآمنة محمد نصير، و(المرأة في حياة إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب) - مطبوع ضمن بحوث ندوة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (الجزء الأول) - و(اعتماد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الكتاب والسنة) لمناع القطان، و(الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مرآة علماء الشرق والغرب) لمحمود مهدي الاستانبولي و(الإمام محمد بن عبدالوهاب في مدينة الموصل) - مطبوع ضمن بحوث ندوة دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب (الجزء الأول) - لمحمود شيت خطاب، و(داعية التوحيد محمد بن عبد الوهاب) لعبد العزيز شلبي سيد الأهل، و(محمد بن عبد الوهاب داعية التوحيد والتجديد في العصر الحديث) لمحمد بهجت الأثري بن محمود أفندي بن عبد القادر بن أحمد بن محمود، و(حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وآثاره العلمية) - مطبوع ضمن بحوث ندوة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (الجزء الأول)

- لإسماعيل بن محمد بن ماحي السعدي الأنصاري.

أسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يغفر لإمام هذه الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأن يرفع درجته، وأن يجعله مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ الشَّارِحِ

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله وسلم، أما بعد:

فإن رسول الله ﷺ قد وضع الجاهلية وأمورها تحت قدميه في أعظم وأكبر تجمع من أصحابه رضي الله عنهم، وأفضل من صحب الأنبياء هم أصحاب النبي ﷺ في يوم عرفة في حجة الوداع، حيث قال ﷺ في خطبته الجامعة العظيمة الشأن: «**ألا كُلُّ شيْءٍ مِنْ أمْرِ الْجاهِلِيّةِ تحْت قدميّ موْضُوعٌ، ودِماءُ الْجاهِلِيّةِ موْضُوعةٌ، وإِنّ أوّل دمٍ أضعُ مِنْ دِمائِنا دمُ ابْنِ رِبِيعة بْنِ الْحارِثِ، كان مُسْترْضِعًا فِي بنِي سعْدٍ فقتلتْهُ هُذيْلٌ، ورِبا الْجاهِلِيّةِ موْضُوعٌ، وأوّلُ رِبًا أضعُ رِبانا رِبا عبّاسِ بْنِ عبد المُطّلِبِ، فإِنّهُ موْضُوعٌ كُلُّهُ**»[1].

ولو تأملت قدر هذا الكلام بالنسبة إلى الخطبة، لوجدته قريبًا من ثلثها أو نصفها، وهذا يدل على خطر هذه المسألة العظيمة، وهي ضرورة وضع الجاهلية تحت الأقدام، وضرورة إبطالها وإهانتها وإلغائها، والسعي في

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر رضي الله عنه، في حديث طويل في صفة حج النبي ﷺ

إزالتها من العالم، ومعنى (موضوع): باطل وملغي، غير معتد به(١).

وإنما يهدم الإسلام من نشأ في الإسلام لا يعرف الجاهلية(٢)، وهو معنى صحيح بلا شك؛ أنه يهدم الدين من نشأ في الإسلام لا يعرف الجاهلية، فيختلط الحق بالباطل عنده، ولا ينتبه لبيان القرآن في هدم الجاهلية، ولا ينتبه لبيان رسول الله ﷺ في بيان أنواعها، فيختلط عليه الحق بالباطل.

وسبب ضلال بني آدم مزج الحق بالباطل، فإن الباطل وبيء ومر، لاتقبله النفوس، فطر الله العباد على رفضه وعدم قبوله، ولكن الشيطان يسوغه لبني آدم ويمرره لهم بخلطه بشيء من الحق يُقبل في طياته الباطل، كما يضربون المثل بـ (دس السم في العسل)، فإن السم مر خبيث، ولكن إذا وضع في العسل شربه الإنسان واستساغه لأجل العسل، فمزج الحق بالباطل؛ أن يقول كلمة حق يمرِّر في ضمنها باطلاً أو معها، أو من ورائها وهو لا يشعر، الآخذ لها والقابل لها، هذا من أعظم الأمور خطرًا، وهل غُر الأبوان بالأكل من الشجرة إلا بمثل هذا؟!

قال ﷻ: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، فكان القسم

(١) انظر: شرح النووي على مسلم (٨/ ١٨٢)، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٧٧٢)، وشرح حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في صفة حجة النبي ﷺ للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (ص٥٢).

(٢) وهذا ورد مرفوعًا إلا أن في إسناده مقالاً، وورد موقوفًا على الصحابة رضي الله عنهم، ويشهد لهذا المعني حديث حذيفة رضي الله عنه في الصحيح: «**كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي**» أخرجه البخاري (٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧).

وهو دليل على تعظيم اسم الله ﷻ، وأن قائله يحب ربه ويعظمه، فمر من خلال هذا الحق، وهو تعظيم اسم الله بالقسم، ذاك الباطل، وهو أنه لهما لمن الناصحين فيما نصح وأمر، ووسوس في الأكل من الشجرة، فوقع المحذور وكشفت السوآت، ووقع الإهباط إلى الأرض.

لذلك نقول: إن عودة الجاهلية إلى الناس سريعة، بل في حياة النبي ﷺ قد وُجد في أصحابه من كان فيهم شيء من الجاهلية، خصوصًا إذا علمنا أن الجاهلية، وهي: نسبة إلى الجهل(١)، يمكن أن تكون مع أصل الإيمان، ويمكن أن تضاد أصل الإيمان بالكلية، فليست مرادفة للكفر دائمًا، بل بعض أنواعها وصورها يكون الأمر فيها موجودًا مع وجود أصل الإيمان في القلب، وبعض صورها يضاد الإيمان بالكلية، والشيطان يبدأ بالتدريج مع الإنسان، فيبدأ بالصور التي لا تضاد أصل الدين، ثم يصل به في نهاية الأمر

(١) قال ابن منظور: (جَهِلَ: الجَهْلُ: نَقِيضُ العِلْم، وَقَدْ جَهِلَه فُلَانٌ جَهْلًا وجَهَالَة، وجَهِلَ عَلَيْهِ. وتَجَاهَلَ: أَظهر الجَهْل؛ عَنْ سِيبَوَيْهِ. الْجَوْهَرِيُّ: تَجَاهَلَ أَرَى مِنْ نَفْسِهِ الجَهْل وَلَيْسَ بِهِ، واسْتَجْهَلَه: عَدَّه جاهِلًا واسْتَخَفَّه أَيضاً. والتَّجْهِيل: أَن تَنْسُبَهُ إِلى الجَهْل، وجَهِلَ فُلَانٌ حَقَّ فُلَانٍ وجَهِلَ فُلَانٌ عَلَيَّ وجَهِلَ بِهَذَا الأَمر. والجَهَالَة: أَن تَفْعَلَ فِعْلًا بِغَيْرِ العِلْم. ابْنُ شُمَيْلٍ: إِن فُلَانًا لَجَاهِل مِنْ فُلَانٍ أَي جاهِلٌ بِهِ. وَرَجُلٌ جَاهِلٌ وَالْجَمْعُ جُهْلٌ وجُهُلٌ وجُهَّلٌ وجُهَّالٌ وجُهَلَاء؛ عَنْ سِيبَوَيْهِ، قَالَ: شَبَّهوه بِفَعيل كَمَا شَبَّهُوا فَاعِلًا بِفَعُول؛ قَالَ ابْنُ جِنِّي: قَالُوا جُهَلاء كَمَا قَالُوا عُلَماء، حَمْلًا لَهُ عَلَى ضِدِّهِ. وَرَجُلٌ جَهُول: كجاهِل، وَالْجَمْعُ جُهُلٌ وجُهْلٌ). انظر: لسان العرب (١١/ ١٢٩)، وقال ابن فارس: (جَهِلَ) الْجِيمُ وَالْهَاءُ وَاللَّامُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا خِلَافُ الْعِلْم، وَالْآخَرُ الْخِفَّةُ وَخِلَافُ الطُّمَأْنِينَةِ. فَالْأَوَّلُ الْجَهْلُ نَقِيضُ الْعِلْم. وَيُقَالُ لِلْمَفَازَةِ الَّتِي لَا عَلَمَ بِهَا مَجْهَلٌ) انظر: معجم مقاييس اللغة (١/ ٤٨٩)، وتهذيب اللغة (٦/ ٣٧).

إلى الكفر، كما أن المعاصي والبدع بريد الكفر ومقدماته، ويبدأ بالأصغر ثم الأكبر، كما كان الشرك الأصغر ذريعة إلى الأكبر، فكذلك مسائل الجاهلية وأمورها التي هي من جنس المعاصي والذنوب، مقدمة للوقوع في أمور هي من جنس الكفر والشرك والنفاق؛ ولذلك - كما ذكرنا - كان التحذير منها عظيمًا شديدًا.

وكما ذكرنا إذا كان قد وُجد في أصحاب رسول الله ﷺ من قال له ﷺ: «**إِنّك امْرُؤٌ فِيك جاهِلِيّةٌ**»[1]، وقال لأصحابه الفضلاء حين تنادوا: «**وقال الأنْصارِيُّ: يا للْأنْصارِ! وقال المُهاجِرِيُّ: يا للْمُهاجِرِين! فخرج النّبِيُّ ﷺ فقال: «ما بالُ دعْوى الْجاهِلِيّةِ؟! . . . دعُوها فإِنّها مُنْتِنةٌ»**[2].

فغيرهم ممن لا يعلم علمهم ولا يعمل عملهم أولى بأن يتدرج به الشيطان بالوقوع في مسائل الجاهلية، حتى ينطق الفاضل أو العالم أحيانًا بمسائل من الجاهلية يمررها الشيطان على لسانه؛ ليخدع بها من لا علم عنده، ولم يستنر قلبه بكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، وإنما أُشرب قلبه التقليد للكبراء والرؤساء والعلماء، وربما كانت زلة العالم سببًا لمزيد من الجاهلية في قلوب كثير من الخلق.

لذلك كان معرفة مسائل الجاهلية وصورها، خاصة ما ورد في كتاب الله ﷻ بالاسم، اسم الجاهلية، وهي أربعة مسائل، ووردت في السنة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١) عَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٥١٨، ٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ولفظه: «**مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ؟**»، وبوّب عليه البخاري: (بَابُ مَا يُنْهَى مِنْ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ).

كذلك جملة من الألفاظ التي حذر منها النبي ﷺ بلفظ الجاهلية، فما ورد في الكتاب: (حمية الجاهلية)، و(ظن الجاهلية)، و(حكم الجاهلية)، و(تبرج الجاهلية)[(١)]، وورد في السنة: (دعوى الجاهلية)، و(دماء الجاهلية)، و(ربا الجاهلية)، كما سبق في حديثي جابر رضي الله عنه.

وذكر ﷺ أربع في أمته من أمور الجاهلية، فقال: «**أَرْبعٌ فِي أُمّتِي مِنْ أمْرِ الْجاهِلِيّةِ لا يتْرُكُونهُنّ: الْفخْرُ فِي الأحْسابِ، والطّعْنُ فِي الأنْسابِ، والاِسْتِسْقاءُ بِالنُّجُومِ، والنِّياحةُ**»[(٢)]، وغير ذلك.

كما وردت جمل كثيرة في الكتاب والسنة مِن وصف أحوال أهل الجاهلية، ومن تأمل وتدبر القرآن وتدبر السنة، علِم كيف أن الجاهلية لها صور عديدة، ليس فقط ما ورد باسمه في الكتاب والسنة، بل بمعناه كذلك من أحوال أهل الجاهلية، وقد كان شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله من أكثر الناس استنارة بنور الكتاب والسنة في الاستدلال، والدعوة إلى الله عز وجل، وفي التصنيف، فكُتبه شاهدة بذلك، أعني: في المتأخرين رحمه الله وجزاه عن أمته خيرًا، فإنه يكثر الاستدلال في جميع مصنفاته بالآيات

---

(١) ورد في القرآن (حمية الجاهلية) في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]، و(ظن الجاهلية) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، و(حكم الجاهلية) في قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، و(تبرج الجاهلية) في قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

(٢) أخرجه مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

والأحاديث بالطريقة السهلة الميسرة المباشرة، التي ينتفع بها العالِم والعامي.

وكانت الحاجة أمس مع تدهور أحوال الأمة وتأخرها ودخول الجاهلية إليها من حيث شعر الكثيرون أم لم يشعروا، الحاجة إلى معرفة مسائل الجاهلية أمس وأشد، وإذا رأيت أن الجاهلية قد وُضعت في زماننا فوق الرؤوس بكل مظاهرها وأنواعها، علمت أن حاجة المسلمين إلى الحذر من ذلك ومعرفته والدعوة إلى تركه حاجة ضرورية؛ ومِن أجل ذلك كان ما نريد مِن دراسة هذه الرسالة المختصرة للشيخ محمد بن عبد الوهاب ﵀، المسماة: بـ(**مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ ما عليه أهل الجاهلية: الكتابيين والأميين**).

ونحن - كما ذكرنا - لابد أن نعرف الفرق بين ما كان كفرًا، وبين ما كان دون ذلك في مسائل الجاهلية، ولابد من معرفة التفصيل؛ لأن بعض المعاصرين الأفاضل حينما تكلم عن قضية الجاهلية جعلها مرادفًا للكفر، وأكثر من هذا الاستعمال؛ حتى غلب على ظن الكثيرين ممن يقرأ أن لفظة الجاهلية تعني الكفر دائمًا، وترتب على ذلك أن بعض الصور التي هي من المعاصي، وموجودة في واقع المسلمين وفي أمتهم، ظن الكثيرون أنها تعني الكفر كذلك، وأن من تلبس بها صار كافرًا، فوقع في مخالفة خطيرة ومنكر أشد، ربما في بعض الأحيان من المنكر المرتكب؛ بتكفير المسلمين واستباحة حرماتهم، بزعم أنهم من أهل الجاهلية الذي يساوي عنده أنهم من أهل الكفر، فلابد من الانتباه لذلك ومعرفة التفصيل الذي يزول به الإشكال بالنظر في الأدلة، ومراجعة القواعد الكلية المستفادة من الكتاب

والسنة في التفرقة بين الشرك وبين ما دون ذلك، وإن كان - كما ذكرنا - لا يجوز الاستهانة بأمور الجاهلية التي هي من جنس المعاصي والذنوب، فإنها مُقدِمة للجاهلية الأكبر، والمنكر الأعظم من الشرك بالله، وعدم الإيمان برسوله ﷺ، وبما جاء به؛ ولذلك كان معرفة هذا والحذر منه مقدمة لتنقية عقيدة الفرد والأمة من مظاهر الضلال والانحراف، التي تؤدي إلى تسلط الأعداء وإلى ضعف الأمة وتفرقها، وتؤدي إلى وقوع المصائب والمحن، خصوصًا مع قلة العلم وكثرة الجهل في آخر الزمان، ومع كثرة الفتن والضغوط التي تؤدي بكثير من الناس إلى قبول الجاهلية والرضا بها، وهو يظن أنه يخدم الدين وأنه يسعى لنصرته، وقد أتى بالجاهلية بحذافيرها وصبغها باسم الدين ووضعها فوق الرؤوس، فخدع بذلك الناس، وخُدع هو فيما بيْن ذلك أو بعده؛ حتى ظن أن هذه الجاهلية هي من الدين كذلك.

لذلك عظمت الحاجة إلى معرفة هذه المسائل، والعمل بمقتضى الأدلة التي دلت عليها من ترك الجاهلية ووضعها تحت الأقدام لا فوق الرؤوس، ومِن هدمها في نفوس الناس وتحذير المسلمين منها، وفعل الحق الذي جاء به الرسول ﷺ بدلاً من فعل هذه الجاهلية أو اعتقادها.

بيضاء

قَالَ الْإِمامُ الْمُجدِّدُ - شيْخُ الْإِسْلامِ - مُحمّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ - أحْزلَ اللَّهُ لَهُ الْمثُوبةَ والْمغْفرةَ -:

بِسْمِ اللَّهِ الرّحْمنِ الرّحِيمِ

هذِهِ مَسَائِلُ خَالَفَ فِيهَا رسُولُ اللَّهِ ﷺ أهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ؛ الْكِتابِيِّين، والْأُمِّيِّين، مِمّا لَا غِنى لِلْمُسْلِمِ عَنْ معْرِفتِها.

فالضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنهُ الضِّدُّ　　　وبِضِدِّها تتبيَّنُ الْأشْياءُ[(١)]

فأهمُّ مَا فِيهَا وَأَشَدُّهَا خَطَرًا: عَدَمُ إِيمَانِ الْقلْبِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرّسُولُ ﷺ، فإِنْ انْضاف إِلى ذلِك اسْتِحْسانُ ما عليْهِ أهْلُ الْجاهِلِيّةِ، تمّتْ الْخِسارةُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

---

(١) هذا البيت مركب من شطرين فالشطر الأول منه عجز بيت للمنبجي وصدره: ضدان لما استجمعا حسنا. والشطر الثاني في أبيات من شعر أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي، المتوفى سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، قال فيها:

مَن يَظلِمُ اللُؤَماءَ في تَكليفِهِم　　　أَن يُصبِحوا وَهُمُ لَهُ أَكفاءُ
وَنَذيمُهُم وَبِهِم عَرَفنا فَضلَهُ　　　وَبِضِدِّها تَتَبَيَّنُ الأَشياءُ

انظر: ديوان المتنبي (ص١٢٧)، والحماسة المغربية (١/ ٤٧٣).

وجاء في أبيات لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الإشبيلي، المتوفى سنة عشرين وخمسمائة وقيل ثمان وعشرين وخمسمائة، قال فيها:

يا هاجِرًا أَسمَوهُ عَمدًا واصِلا　　　وَبِضِدّها تَتَبيّن الأَشياءُ
أَلغَيتَني حَتّى كَأَنَّكَ واصِلٌ　　　وَكَأَنَّني مِن طُولِ هَجرِكَ راءُ

انظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٢/ ١٠٤).

الشـــرح:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ : (**هذِهِ مسائِلُ خالف فِيها رسُولُ اللهِ ﷺ أهْلَ الْجاهِلِيِّةِ؛ الْكِتابِيِّين، والْأُمِّيِّين، مِمّا لا غِنى لِلْمُسْلِمِ عنْ معْرِفتِها**) . من كان منسوبًا إلى كتاب سمي كتابيًا، أو من أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، ومن لم يكن كذلك، ولم ينسب إلى كتاب منزل من عند الله ﷻ، ولم يدن بما فيه، حتى ولو صرح بمعرفته بالكتب، لكن لم يخضع له، لم يكن كتابيًا، وكان أُمِّيًّا(١)، وهذا التقسيم مأخوذ من قوله تَعَالَىٰ : ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ﴾ [آل عمران: ٢٠]؛ وذلك لأن الجاهلية - كما ذكرنا - منسوبة إلى الجهل، موجودة عند أهل الكتاب وموجودة عند غيرهم من الملل الكافرة مِن المشركين عباد الأوثان أو عباد النيران، أو عباد الآلهة الأخرى المتعددة؛ المجوس، الهندوس، أنوع الملل الكافرة بأنواعها.

وهذا التقسيم ليس غرضه أن وصف الكافر لا ينطبق على أهل الكتاب أو على غيرهم، وإنما الغرض منه بيان دخول أهل الكتاب في وصف الكفر وفي وصف الجاهلية، وأن انتسابهم للكتاب لا يعني لزوم خروجهم عن وصف الكفر؛ كما قال تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]، قال ﷻ : ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١](٢).

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٥/ ٢٨٦)، وزاد المسير (١/ ٢٦٧)، وتفسيرابن كثير (٢/ ٢١).
(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٥٥٥)، وزاد المسير (٤/ ٤٧٦)، وتفسيرابن كثير (٨/ ٤٥٦)

وكما ذكرنا التقسيم لبيان أن هذا القسم لا يخرج عما وقع فيه القسم الآخر، ثم كان لابد من بيان أن أهل الكتاب مقصودون بالدعوة إلى دين الإسلام كما قُصد الأميون، والعرب كانت أمة أمية ينتشر فيها الجهل وعدم القدرة على القراءة والكتابة، وهذا أصل معنى كلمة «الأمي» منسوب إلى الأم، حيث خرج من بطنها لا يعرف شيئًا لا يقرأ ولا يكتب، وهذا الوصف الذي وصف النبي ﷺ بالأمي، أعني: أنه لا يقرأ ولا يكتب(١).

نقول: أهل الكتاب مقصودون بالدعوة كالأميين: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ﴾ [آل عمران: ٢٠]؛ لأن كثيرًا منهم ومن غيرهم، كثيرًا من أهل الكتاب ومِن غيرهم يروم دائمًا أن يُخرج اليهود والنصارى عن كونهم مقصودين بدعوة الإسلام، وأنهم يكفيهم ما عندهم من العلم بالكتاب الأول.

قد نص القرآن على عموم بعثة الرسول ﷺ للإنس والجن، للناس جميعًا: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ومن لم يدخل في دين الإسلام من أهل الكتاب كان مشركًا كافرًا خاسرًا ضالاً - كما نص عليه القرآن العظيم - لم يكن مهتديًا: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وكما ذكرنا حكم القرآن بكفرهم، فهم مقصودون بالدعوة، من لم يستجب لدعوة الإسلام

(١) انظر: تهذيب اللغة (١٥/ ٤٥٦)، ومقاييس اللغة (١/ ٢٨)، ولسان العرب (١٢/ ٣٤).

منهم، وخرج عنها وخرج عن متابعة محمد ﷺ، الذي كتب الله الرحمة لمن اتبعه، فقال: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧]، فهذه الآيات البينات تدل على أن أهل الكتاب مقصودون بدعوة الإسلام، وأن رحمة الله إنما هي لمن اتبع الرسول ﷺ، وأنه مكتوب في التوراة والإنجيل، وأن لزوم متابعته مأخوذ عليها العهد في التوراة والإنجيل، فلا يصح اتباعهم لأنبيائهم مع مخالفتهم لما جاء به الرسول ﷺ، فمن خرج عن حكم هذا الدين، عن حكم الالتزام به منهم، كان كافرًا، ولم ينفعه إيمانه بالكتاب، بل لم يكن مؤمنًا، ولم ينفعه اتباعه لرسوله، بل لا يكون متبعًا لرسوله الذي زعم الإيمان به إلا بالإيمان بمحمد ﷺ[(١)].

ومِن هنا دخلت الجاهلية في أقوالهم وأفعالهم، وكان يجب على أمة الإسلام الحذر مِن أحوالهم الجاهلية، وخالفهم الرسول ﷺ، وإن كان عندهم بعض العلم إلا أنهم يغلب عليهم الجهل ويكثر فيهم الجهل، وتركوا كتابهم واتبعوا أحبارهم ورهبانهم، واتخذوهم أربابًا من دون الله، فصار

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٤٩١)، وزاد المسير (٢/ ١٦٠)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٤٨٣)

فيهم من الجاهلية مثل ما عند الأميين، وربما أخطر وأشد؛ لأنه يُلبّس بهم وعليهم أكثر مما يُلبّس على الأميين.

ويستفاد من ذلك: أن أناسًا من أهل الإسلام، وعندهم علم الكتاب، علم القرآن، يأخذون بسنة أهل الكتاب ويقتدون بهم، فسيوجد في أمة الإسلام من يتبع سنن الذين من قبلنا - اليهود والنصارى - حذو القذة بالقذة، شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه، كما أخبر بذلك النبي ﷺ[(١)]، وإن كان عنده علم من القرآن، بل ومن السنة، ولكن عنده مِن الجاهلية مثل ما وقع لأهل الكتاب.

ومن هنا نقول: إن هذا الذي بدأ به الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ من بيان أمور الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية؛ الكتابيين، والأميين، هذا التنبيه من أهم ما يلزم المسلم معرفته خصوصًا في زماننا؛ حتى لا يقع فيما وقع فيه أهل الكتاب - مثل ما ذكرنا - ممن يقتدي بهم حذو القذة بالقذة، وخصوصًا في زماننا؛ لأن كثيرًا من الناس يظن أهل الكتابين - اليهود والنصارى - على حق، مثل ما أن المسلمين على حق.

وهذه الفرية والكذبة من أعظم الأمور ضلالاً ومنكرًا في زماننا، والسعي إلى نشرها وسط المسلمين؛ ليصبح العدو وليًا، والولي عدوًا، والذي فرض الله بغضه وكراهيته محبوبًا، والذي فرض الله محبته ومتابعته مبغوضًا.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال ﷺ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ**»، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: اليَهُودَ، وَالنَّصَارَى قَالَ: «فَمَنْ؟».

ولا يستطيع أهل الكفر والشرك أن يتسللوا إلى أهل الإسلام إلا من خلال المنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

ومن أخطر ما يمررون به موالاتهم: ما ذكرنا مِن التسوية بين ملل الكفر من أهل الكتاب وملة الإسلام.

ولذلك كانت هذه الكلمة في مقدمة الكلام من أهم ما يلزم معرفته، ومن أهم ما يحتاج إليه المسلم؛ حتى لا يختلط عليه الأمر، أو يظن أن من كان عنده علم من الكتاب، يلزم من ذلك ألا يكون جاهلاً، فيترك الكثير مما وجب عليه أن يهتم بمعرفته والعمل به، يترك مخالفتهم في مسائل الجاهلية التي جهلوا فيها، رغم وجود الكتاب عندهم، ووجود بعض العلم لديهم.

قال: (**هذِهِ مسائِلُ خالف فِيها رسُولُ اللهِ ﷺ أهْل الْجاهِلِيّةِ؛ الْكِتابِيِّين، والْأُمِّيِّين، مِمّا لا غِنى لِلْمُسْلِمِ عنْ معْرِفتِها**):

فالضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنهُ الضِّدُّ وبِضِدِّها تتبيّن الأشياء

وهذا بيت الشعر الذي صار مثلاً لأهمية بيان الباطل؛ حتى يعرف به الحق، وحتى يشتد بيان الحق بوجود وتوضيح صور الباطل، وهذا الأمر من أعظم الأمور أهمية، خصوصًا إذا علمنا أن أصل دين الإسلام هو كلمة: (لا إله إلا الله)، وأولها كفر بالطاغوت، وخاتمتها إيمان بالله، فـ(لا إله) كفر بالطاغوت، (إلا الله) إيمان بالله ﷻ؛ لذلك أصول الجاهلية وفروعها هي تركها. وتحقيق كلمة: (لا إله إلا الله)، تحقيق الشق الأول، وهو الكفر بالطاغوت.

لذلك الحق الذي جاء به محمد ﷺ لا يتم ولا يتحقق إلا بمخالفة

الباطل، وهذه والله من أعظم القضايا خطرًا في حياة المسلمين اليوم، أنه لابد من هدم الباطل وإقامة الحق، لابد من إبطال الباطل ومحوه؛ ليتميز الحق بالبقاء والدوام والظهور، واللبس والخلط بين الحق والباطل من أعظم الأمور خطرًا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فأهمُّ ما فِيها وأشدُّها خطرًا: عدمُ إِيمانِ الْقلْبِ بِما جاء بِهِ الرّسُولُ ﷺ**)، ولا شك أن هذا هو الوصف المؤثر في كون هذا الأمر من أمور الجاهلية المكفرة عدم إيمان القلب بما جاء به الرسول ﷺ.

لماذا ذكر عدم إيمان القلب، وقد يكون إيمان اللسان؟

نقول: لأنه يخاطب في الأكثر أناسًا ينتسبون بألسنتهم للإيمان بما جاء به الرسول ﷺ، وهو يحذرهم من أمور، هي من أمور الجاهلية، كثير منها يناقض أصل الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ، وكثير منها يناقض كماله الواجب، وهم ربما لأجل انتسابهم إلى الدين باللسان، وبظنهم أنهم مؤمنون بما جاء به النبي ﷺ لم يحققوا هذا الأمر، فربما دخل إليهم النفاق الأكبر والأصغر بسبب عدم إيمان القلب.

هذا الذي ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إدراك للواقع فيمن يدعوهم إلى الله ويخاطبهم ويعلمهم، ودعوته نشأت دعوة إصلاحية في وسط المسلمين الذين انتشر فيهم من أنواع الشرك والكفر والنفاق والمعاصي والذنوب: الكبائر والصغائر، والبدع والضلالات ما لا يعلمه إلا الله.

الشيخ نشأ في زمن غلب فيه الجهل، وانتشرت فيه مسائل الجاهلية، وخصوصًا في البيئة التي نشأ فيها في «نجد» وما حولها من جزيرة العرب،

فضلاً عن عامة الأمة، فإنها كانت في أشد عصور التدهور والتأخر في أواخر عهد الدولة العثمانية، وكانت مقدمات الانهيار في مجتمعات المسلمين وبلاد المسلمين ودولة المسلمين آخذة معاول الهدم بانتشار الجاهلية في مجتمعات وأفراد وبلاد ودولة المسلمين؛ ولذا قوبلت دعوة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بكثيرة من المحاربة والمضادة والقتال؛ لمحاولة إزهاقها بالكلية، وكانت النتيجة المعروفة من انتشار عوامل الهدم إلى ما وصل إليه المسلمون.

النتيجة المعروفة هي ما وصل إليه المسلمون من تسلط أعدائهم على بلادهم؛ حتى أسقطوا دولة خلافتهم، وأذهبوا وحدتهم بعد أن كانت رمزًا دون حقيقة؛ صارت لا رمزًا ولا حقيقة، لكن كانت عوامل الهدم تنتشر في الأمة، فكان لابد من البيان والتحذير.

وكما ذكرنا بدأ فقال: (**فأهمُّ ما فِيها وأشدُّها خطرًا: عدمُ إيمانِ الْقلْبِ بِما جاء بِهِ الرّسُولُ ﷺ**)، وإن وجد إيمان اللسان، وإن وجد بعض مظاهر الإسلام والإيمان، لكن إذا اقترن ذلك بالشرك حبط الإيمان؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦].

وظاهر كلام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (**عدمُ إيمانِ الْقلْبِ بِما جاء بِهِ الرّسُولُ ﷺ**): أن هذا في الأمور المكفرة، لكن قد علمنا أن الرسول ﷺ نفى الإيمان عن كثير ممن ارتكب بعض الذنوب والمعاصي، وإنما نفى الإيمان الواجب، وإن كان لا يلزم من ذلك وجود الكفر الأكبر الناقل عن الملة.

وقد ذكر الشيخ في مسائل الجاهلية كثيرًا من الأمور التي هي معاصي وذنوب، فيظهر - والله أعلى وأعلم - أن قصده من ذلك أنه بالأصالة يشمل

الصور التي فيها انعدام الإيمان بالكلية، انعدام إيمان القلب بالكلية وزوال الإيمان أصلاً وكمالاً، ويشمل تبعية عدم إيمان القلب الإيمان الواجب، وإن كان استدلاله بالآية بعدها: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، يدل على أن مقصوده الأعظم هو صور الجاهلية التي هي الكفر والشرك الأكبر، وهذا أخطر ما في مسائل الجاهلية، هناك مسائل محرمة وخطيرة، ولكن مسائل الشرك والكفر هي أخطر ما في مسائل الجاهلية.

وكما ذكرنا يمكن أن يحمل الكلام على معنى عدم الإيمان بالكلية انعدام أصله، ويمكن أن يشمل الصور الأخرى التي فيها نفي الإيمان لانتفاء الكمال الواجب، ولا ينفي القرآن ولا الرسول ﷺ الإيمان عن شخص ترك أمرًا مستحبًا أو فعل فعلاً مكروهًا فقط، بل لا يكون نفي الإيمان في الكتاب والسنة إلا على انتفاء أصل الدين وحلول الكفر والشرك والنفاق الأكبر، أو انتفاء الإيمان الواجب واستحقاق العقوبة، وإن كان لا يلزم الخلود في النار.

كما قال النبي ﷺ: «**واللّهِ لا يُؤْمِنُ، واللّهِ لا يُؤْمِنُ، واللّهِ لا يُؤْمِنُ، قِيل: ومنْ يا رسُول اللّهِ؟ قال: الّذِي لا يأْمنُ جارُهُ بوايِقهُ**»(١). فنفي الإيمان هنا لنفي كمال الإيمان الواجب يدل على أن ترك الإحسان إلى الجار وإيذاء الجار محرم ومعصية من المعاصي، وقد يقال عنه كبيرة؛ لأن النبي ﷺ قال: «**لا يزْنِي الزّانِي حِين يزْنِي وهُو مُؤْمِنٌ، ولا يشْربُ الخمْر حِين يشْربُها وهُو**

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٦) من حديث أبي شريح رضي الله عنه.

مُؤْمِنٌ، ولا يسْرِقُ السّارِقُ حِين يسْرِقُ وهُو مُؤْمِنٌ، ولا ينْتهِبُ نُهْبةً ذات شرفٍ، يرْفعُ النّاسُ إِليْهِ أبْصارهُمْ فِيها، حِين ينْتهِبُها وهُو مُؤْمِنٌ»[١]، فذكر أنواعًا من الكبائر.

ومن العلماء من قال: نفي الإيمان عن شخص فعل فعلاً يدل على أن هذا الفعل من الكبائر، وكذا إذا ترك واجبًا يجعلونه مثل الوصف بالكفر الأصغر في مواطن آخر.

كما ذكرنا مسائل الجاهلية تشمل: مسائل هي كفر، ومسائل هي ما دون ذلك من المعاصي، الأخطر منها ما كان كفرًا، والعياذ بالله.

قال: (**فأهمُّ ما فِيها وأشدُّها خطرًا: عدمُ إِيمانِ الْقلْبِ بِما جاء بِهِ الرّسُولُ ﷺ، فإِنْ انْضاف إِلى ذلِك اسْتِحْسانُ ما عليْهِ أهْلُ الْجاهِلِيّةِ، تمّتْ الْخِسارةُ؛ كما قال تعالى**: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢]. وهذا يدل على أن مقصد الشيخ الأكبر فيما قصد بقوله: (**عدمُ إِيمانِ الْقلْبِ**) هو ما كان من كفر أكبر ناقل عن الملة، والله أعلى وأعلم.

وقوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢] دليل على أن الغالب اقتران عدم الإيمان بالله مع الإيمان بالباطل، الكفر بالله يقترن معه الإيمان بالباطل، وأنه لا يخلو القلب بالكلية من تصور واعتقاد، فإن خلا من الحق امتلأ بالباطل؛ ولذلك قال: (**فإذا انضاف إلى ذلك**) وإن كان الحقيقة أنه بمجرد ترك أصل الإيمان،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بمجرد ترك الإيمان بما جاء به النبي ﷺ، بمجرد ذلك قد زال إيمانه وحصلت خسارته، وهو لابد وأن يحصل له إيمان بالباطل.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ لا يمكن أن يخلو القلب الإنساني عن تصور وفهم وإدراك وعمل كذلك، طالما وجد عقل الإنسان، لا يخلو من شيء؛ إما أن يصدق بحق، وإما أن يصدق بباطل، إما أن يعمل بحق، وإما أن يعمل بباطل، فالذين كفروا بالله لابد أن يكونوا قد آمنوا بالطاغوت، قد آمنوا بالباطل، قد أشركوا بالله ﷻ، من كفر بالله ﷻ وبما جاء به الرسول ﷺ، فقد آمن بالباطل، ووقع في الباطل ولابد، وإن كان الحكم عليه بالخسران يحصل بمجرد زوال الإيمان بالكلية من قلبه.

فإذا انضاف إلى ذلك إيمانه بالباطل وازداد، فإنه كلما ترك الإيمان واستمر على عدمه، كلما زاد الباطل في قلبه، والتفاوت كبير بين الناس في ذلك، أعني: أن قدر الباطل في القلوب متفاوت، بعضهم شديد الإيمان بالباطل، كثير الإيمان بالباطل، يخالف الرسول ﷺ في عامة ما جاء به، وهناك من يخالفه في مسألة أو مسألتان أو أكثر أو أقل، كلما ابتعد عن الحق، كلما اقترب من الباطل، وازداد نصيبه منه؛ ولذلك كان من يصد عن سبيل الله ﷻ، لعظيم ضرره مُعاقبًا عقوبة أشد؛ لأنه قد آمن بالباطل زيادة على غيره: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨].

وكما ذكرنا كل من كفر برسول الله ﷺ، كل من كفر بما جاء الرسول ﷺ كل من أشرك بالله وكفر به ﷻ وبكتابه؛ فقد آمن بالباطل، وعبد الشيطان، وعبد الأحبار والرهبان، وعبد الهوى.

فتصور اللحظة الفارقة التي يكون فيها الإنسان بلا حق بالكلية، مع كونه لا يؤمن بالباطل بعد، أمر لحظي لا يكاد يوجد في الواقع؛ ولذلك قلنا: إنه بمجرد كفره بالحق فقد آمن بالباطل، وعبد غير الله ﷻ. فهذه في المقدمة التي بدأ بها الشيخ رحمه الله هذا الكتاب المبارك، نسأل الله ﷻ أن ينفعنا بما فيه.

الْمسْألةُ الْأُولَى: إِنَّهُمْ يتعبّدُون بِإِشْراكِ الصّالِحِينَ فِي دُعاءِ اللَّهِ وَعِبَادتِهِ، يُرِيدُونَ شَفَاعَتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، لِظنِّهِمْ أنّ اللَّهَ يُحِبُّ ذَلِكَ، وَأَنَّ الصَّالِحِين يُحِبُّونهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وَهَذِهِ أعْظمُ مسْألةٍ خّالفهُمْ فِيها رسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَى بِالْإِخْلاصِ، وَأَخْبَر أنّهُ دِينُ اللَّهِ، الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ جَمِيعَ الرُّسُلِ، وَأَنَّهُ لَا يُقْبلُ مِنَ الْأعْمالِ إلاَّ الخالِصُ، وَأخْبَر أَنَّ منْ فَعَلَ مَا اسْتحْسنُوا فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجنّة وَمَأْواهُ النّارُ، وَهَذِهِ هِيَ الْمسْألةُ الَّتِي تَفَرَّقَ النَّاسُ مِنْ أجْلِها بيْن مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ، وَعِنْدَهَا وَقَعَتِ الْعَدَاوَةُ، ولِأجْلِها شُرِعَ الْجِهَادُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

الشرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

(الْمسْألةُ الْأُولَى: إِنَّهُمْ يتعبّدُون بِإِشْراكِ الصّالِحِينَ فِي دُعاءِ اللَّهِ وَعِبَادتِهِ) يعني: أنهم كما يدعون الله ويعبدونه، يدعون الصالحين ويعبدونهم، يصرفون لهم أنواع العبادات، ومن أعظمها: الدعاء، طلب قضاء الحاجات وتفريج الكربات، وكذلك صرف باقي العبادات؛ كالذبح، والطواف،

والنذر، والاستغاثة، والاستعاذة، والاستعانة، والركوع، والسجود. صرف هذه العبادات للصالحين.

هذا وقع من قريش ومن سائر العرب، ووقع مِن أهل الكتاب كذلك؛ كما دلت عليه آيات سورة النجم: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ۝٢٥ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ۝٢٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢٧﴾ [النجم: ١٩ - ٢٧].

فدل هذا على اعتقادهم أن هذه الأصنام التي يعبدونها اشتقوا لها أسماء مؤنثة من أسماء الله ﷻ؛ لأنهم يعتقدون أن الملائكة بنات الله؛ ولذلك عبدوهم مع الله ﷻ؛ لتشفع لهم عند الله، اشتقوا اللات من الله، ومناة من المنان، والعزى من العزيز[(١)]، وسموا بها هذه الأصنام، فلم تكن حجارة مجردة عندهم، إنما كانت ترمز إلى الملائكة، فهذه التماثيل التي عبدوها على أنها ملائكة، وأن هذه الملائكة بنات تشفع لهم عند الله، وهذا شرك في أسماء الله وصفاته، وفي نسبة ما لا يجوز إلى الله ﷻ من اتخاذ الولد، وفي دعاء هؤلاء الملائكة مع الله أو من دونه ﷻ، فضلاً على الكذب على

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٣٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٢٣) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «**سَمَّوا اللَّاتَ مِنَ الإله، وَالعُزَّى مِنَ العَزِيزِ**»، وقال ابن جريج عن مجاهد: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾ قال: «**اشْتَقُوا اللَّاتَ مِنَ الإِلهِ، وَالعُزَّى مِنَ العَزِيزِ**». أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٣٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٢٣).

الله ﷻ في كون الملائكة بنات الله.

وهذا يدل على أنه إذا كان هذا في حق الملائكة شرك، فإنه في حق الصالحين الذين هم من البشر وليسوا بمعصومين أولى، أعني: أنه من الشرك أيضًا، فإنما عبدوا الملائكة لصلاحهم وعبادتهم لله، وكما فعلوه المشركون من عبدة الأوثان فعلوه اليهود والنصارى، حينما قالت اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقالت النصارى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

وصاروا يصرفون أنواع العبادات للمسيح وأمه، وعزير، والملائكة؛ كما فسر غير واحد من السلف في قول الله ﷻ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٦ - ٥٧].

فهذه الآية تبين أنهم يدعون من يعبد الله؛ ولذلك فسر غير واحد من السلف، قالوا في هؤلاء الذين يُدعون من دون الله، وهم يتقربون إلى الله يبتغون إلى ربهم الوسيلة - وهي القربى - ويرجون رحمته، ويخافون عذابه، قال غير واحد من السلف: (هم: عيسى وأمه، وعزير، والملائكة)[1].

فعبادة الصالحين قديمة في البشرية، وكما ذكر الله عن قوم نوح عليه السلام في قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**صارتِ الأوْثانُ الّتِي كانتْ فِي قوْمِ نُوحٍ فِي**

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٦٣٠)، وزاد المسير (٣/ ٣٢)، وابن كثير (٥/ ٨٩).

العربِ بعْدُ أمّا ودٌّ كانتْ لِكلْبٍ بِدوْمةِ الجنْدلِ، وأمّا سُواعٌ كانتْ لِهُذيْلٍ، وأمّا يغُوثُ فكانتْ لِمُرادٍ، ثُمّ لِبنِي غُطيْفٍ بِالْجوْفِ عِنْد سبإٍ، وأمّا يعُوقُ فكانتْ لِهمْدان، وأمّا نسْرٌ فكانتْ لِحِمْير لِآلِ ذِي الكلاعِ، أسْماءُ رِجالٍ صالِحِين مِنْ قوْمِ نُوحٍ، فلمّا هلكُوا أوْحى الشّيْطانُ إِلى قوْمِهِمْ، أنِ انْصِبُوا إِلى مجالِسِهِمُ الّتِي كانُوا يجْلِسُون أنْصابًا وسمُّوها بِأسْمائِهِمْ، ففعلُوا، فلمْ تُعْبدْ، حتّى إِذا هلك أُولئِك وتنسّخ العِلْمُ عُبِدتْ»[(١)].

فالحديث في البخاري، وهو يدل على أن أول شرك وقع على ظهر الأرض كان بسبب عبادة الصالحين، فدل ذلك على أن صرف العبادات للصالحين شرك، ولو كانوا ملائكة، ولو كانوا أنبياء، ولو كانوا علماء وعباد ودعاة إلى الله ﷻ.

فصرف العبادة لغير الله هو الشرك الأكبر؛ أن يعبد مع الله إلهًا غيره.

يقول: (**يُريدُون شفاعتهُم عِنْد اللهِ**): إذًا لم تكن هذه العبادة على أنهم الخالقين الرازقين، بل كانوا يقرون أن الله هو الخلاق، وأنه وحده الذي بيده الأمر كله والملك كله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾ [الزخرف: ٩]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وهكذا يقول اليهود والنصارى: الله خالق السماوات والأرض، وإنما يدعون أن هذه الوسائط تشفع لهم عند الله ﷻ. إذًا، قضية أنه يعتقد أن الله هو الخالق لا تكفي وحده في تحقيق التوحيد، قضية أساسية نعم، ولكن

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.

لا تكفي، لابد أن يصرف العبادة لله وحده لا شريك له، وكونه يعتقد أن هؤلاء الملائكة أو الصالحين يشفعون عند الله؛ ولذا صح أن تصرف لهم العبادات هو الشرك بعينه، لا يغني عنهم أنهم يبحثون بذلك عن القرب إلى الله؛ لظنهم أن ذلك يقربهم إلى الله، يظنون أن الله يحب ذلك؛ لذلك قال: (**لِظَنِّهِمْ أنّ الله يُحبُّ ذلِك، وأنّ الصَّالحين يُحِبُّونهُ**)، هذا الظن الفاسد بلا دليل من الكتاب، ولا من السنة، ولا من العقل، ولا من الفطرة.

وليس يخترع الإنسان أساطير أو خرافات من قِبل نفسه أو من قبل غيره، ثم يجعلها عقائد يبني عليها عمله وسلوكه، ويقررها في الناس، ويدعو إليها، بل ويقاتل عليها، هذا من أبطل الباطل، ظنهم هذا مجرد اتباع للظن: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨]، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ﴾ [النجم: ٢٣].

فهناك في العقائد اتباع للظنون، وفي الأعمال اتباع للهوى، ويختلط الأمران معًا، ويصبح في هذه الظنون أهواء كثيرة، وتفتح الأهواء باب مزيد من الظنون الكاذبة، العقائد الفاسدة، تترتب عليها مصالح كثيرة في دنياهم، هي مفاسد في الحقيقة، لكن يظنونها مصالح وتجارات، وكهانة وسدنة وحجبة لهذه الأوثان، ورئاسة ووجاهة، ومُلك وسلطان، وأمر ونهي وتشريع، ومراءاة أمام أعين الناس، وكل ذلك من مزيد هلاكهم؛ ولذلك بيّن الله ﷻ أن عقيدتهم وعملهم مبني على اتباع الظن وما تهوى الأنفس - والعياذ بالله - ليس بناءً على الوحي المنزل الموافق للعقل والفطرة، الذي جاء به الأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين -،

وبعيدًا عن شهوات النفوس، بل يكون الإنسان راغبًا فيما عند الله ﷻ.

نقول: ظن أن هذه الآلهة تشفع عند الله، مع كونه يصرف لهم العبادة، هذا لا يغني عن أصحابه شيئًا، وطالما أنه صرف العبادة لغير الله، فقد أشرك، والآية صريحة في ذلك: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]. إذًا، الوصف المؤثر كونهم لا يضرون ولا ينفعون.

هنا قد يأتي البعض ويقول: نحن نعتقد أنهم لا يضرون ولا ينفعون، ولكن هم شفعاء عند الله، يقول بعضهم: إن هذا في الأصنام، في الأحجار أما نحن فندعو الصالحين.

فنقول: إن هذه الأصنام لم تكن حجارة مجردة، هذه الأصنام إنما كانت ترمز للملائكة، وعيسى ومريم، وعزير، والجن الذين أسلموا كذلك، على القول الآخر في تفسير: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ كانوا صالحين، ولو اعتقدتم أنهم ينفعون أو يضرون من دون الله أو مع الله، فهذا مزيد شرك؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]. فثبت بذلك أنه لا يضر ولا ينفع إلا الله.

لو قالوا: (**نحن لا نعبدهم**) هذه مسألة غاية في الأهمية، وهناك شبهات حول هذه الآية الكريمة.

كما ذكرنا البعض يقول: هذه نزلت في الأصنام، وليست فيمن يعبد الصالحين. فهذه شبهة باطلة؛ لأن عبادة الأصنام كانت ترمز إلى عبادة

الصالحين، والآية صريحة في بيان ذلك. الشبهة الثانية: يقولون: (نحن لا نعبد هؤلاء)، وهذه من أخطر الشبهات التي أدت إلى دخول كثير ممن ينتسب إلى الإسلام، مع اعتقاده أن (لا إله إلا الله) ونطقه إياها، وكونه ينتسب إلى الإيمان بما جاء به النبي ﷺ، يقول: «**إنّا لسْنا نعْبُدُهُمْ**»[(١)]، وهذا فرق مهم بلا شك بين عباد الأوثان وبين من أشرك من أفراد هذه الأمة، ممن وقع في الشرك وهو لايدري، وهذا لابد من معرفته والتفريق بينه، أعني: أن من صرح بعبادة غير الله، قد قامت عليه الحجة بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله).

وأما من قال: (أنا لا أعبد إلا الله)، فهذا يحتاج إلى بيان أن ما يفعله عبادة، ولو أصر بعد ذلك - بعد أن قامت عليه الحجة بأن ما يفعله الحجة - لم ينفعه قوله رضي الله عنه: «**إنّا لسْنا نعْبُدُهُمْ**»، إنما يعذر إذا كان لا يدري أن هذه عبادة، فإذا تليت عليه الآيات التي تدل على أن دعاء غير الله شرك أكبر؛ كما قال ﷻ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣]، وقوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣-١٤]، وقال ﷻ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن

(١) أخرجه الترمذي بنحو هذا اللفظ (٣٠٩٥).

دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥ - ٦].

وهذا نص كلام النبي ﷺ: «**إنّ الدُّعاء هُو الْعِبادةُ**»، ثُمّ قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[1].

فإذا كان الدعاء هو العبادة، فمن دعا الله فقد وحده، ومن دعا غير الله فقد أشرك به، لو دعا مع الله آلهة أخرى فهو يعبدهم من دون الله، هذا يحتاج إلى إقامة الحجة والبيان، وكما ذكرنا إذا بُيِّن له صار هو والمشركين الذي عبدوا الأوثان في منزلة واحدة، وذلك أنه لا تنفعه كلمة التوحيد بعد أن بُيِّن له أنه يناقضها بعبادة غير الله، وإصراره على ذلك بعد قيام الحجة، كما قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم رضي الله عنه لما دخل عليه وعليه صليب من فضة، والنبي ﷺ يتلو: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]. **فقُلْتُ لهُ: إنّا لسْنا نعْبُدُهُمْ، قال: أليْس يُحِلُّون ما حرّم اللّهُ فتُحِلُّونهُ، ويُحرِّمُون ما أحلّ اللّهُ فتُحرِّمُونهُ؟ قال: بلى، قال: فتِلْك عِبادتُهُمْ**»[2].

إذًا، كونه لا يسمى ما يفعله عبادة لا يغني عنه شيئًا إذا كانت عبادة، وإذا

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩، ٣٢٤٧، ٣٣٢٧)، وابن ماجه (٣٨٢٨) وأحمد (٤/ ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه (ص٤٣).

كان قد بلغه الحق، الفارق بين هذا وذاك في درجة البيان، أن الحجة قد قامت على الذي يدعو الأصنام، ويدعو الأوثان، ويدعو الأنبياء، ويسميهم آلهة، ويسمي ما يفعله عبادة، أن البيان قد حصل بكلمة (لا إله إلا الله)، لا يُعبد إلا الله؛ أما الثاني فيحتاج إلى تفصيل بأن ما يفعله عبادة، إذا صرفها لغير الله كان شركًا.

هذا الفرق غاب عن الكثيرين ممن ظن أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يبادر في تكفير كل من وقع في شيء من الشرك، وهو لا يدري، وأدى ذلك إلى سوء الفهم عند كثير ممن يقرأ ويسمع للشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وأتباعه.

كما ذكرنا الشيخ إنما كان يُكفِّر من قامت عليه الحجة، يقول: **(وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على قبر البدوي؛ لأجل جهلهم وعدم من ينبههم، فكيف نكفر من لم يكفر ولم يقاتل، سبحانك هذا بهتان عظيم)**(١).

ولكن - كما ذكرنا - المسألة خطيرة للغاية؛ لأنه لابد أن يُعلم أن هذا النوع من الشرك من أكثر الأنواع انتشارًا، وهو من أخطرها، ولا يصح أن يترك البيان فيه ولا الدعوة إلى الله ﷻ بشأنه، بل لابد من بيانه أعظم بيان، وأن من أصر بعد إقامة الحجة وبلوغ الدعوة، فهو مثل المشركين الذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

والذين عبدوا ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٨]، هل في هذا نفي الشفاعة مطلقًا؟

نقول: الشفاعة الشرعية ثابتة، للرسول ﷺ وللأنبياء والرسل وللملائكة

(١) انظر: الدرر السنية (١/ ١٠٤).

وللصالحين، وهي إنما في أهل التوحيد والإخلاص بعد إذن من الله ﷻ للشافع؛ يأذن له في الشفاعة، ويأذن له أن يشفع، في كل مرة يستأذن النبي ﷺ ويسجد تحت العرش، حتى يقال له: «**ارْفعْ رأْسك، وقُلْ تُسْمعْ، وسلْ تُعْط، واشْفعْ تُشفّعْ**»(١).

فالرسول ﷺ أولاً هو الذي يتقدم؛ لأنه يعلم أنه لها، ثانيًا: يستأذن أولاً، ثالثًا: يشفع في أهل التوحيد والإخلاص.

قال لما سأله أبو هريرة رضي الله عنه: «**يا رسُول اللهِ منْ أسْعدُ النّاسِ بِشفاعتِك يوْم الْقِيامةِ؟ قال رسُولُ اللهِ** ﷺ: «**لقدْ ظننْتُ يا أبا هُريْرة أنْ لا يسْألنِي عنْ هذا الْحدِيثِ أحدٌ أوّلُ مِنْك؛ لِما رأيْتُ مِنْ حِرْصِك على الْحدِيثِ، أسْعدُ النّاسِ بِشفاعتِي يوْم الْقِيامةِ منْ قال: لا إِله إِلاّ اللّهُ خالِصًا مِنْ قلْبِهِ، أوْ نفْسِهِ**»(٢).

إذًا، الشفاعة الشرعية ثابتة، الشفاعة الشركية منفية، الشفاعة الشركية التي يعتقد من يعمل بها أنه يعبد غير الله، نحن لا نعبد النبي ﷺ حين نسأله أن يشفع لنا، ولا نعبد الملائكة، ولا نعبد الصالحين.

وفرق بين أن يطلب منهم الدعاء، وبين أن يدعوهم هم من دون الله أو مع الله ﷻ؛ ولذلك كان صرف الدعاء لغير الله، كان أن يدعو غير الله هو الذي يعد شركًا، والعياذ بالله.

---

(١) كما في حديث الشفاعة الذي رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «... **ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ، شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**...».

(٢) أخرجه البخاري (٩٩).

أما أن يطلب الدعاء منه وهو حي فمشروع؛ وأما بعد الموت، كأن يأتي قبره ويسأله: (ادع الله لي)، فهذا من البدع المحدثة؛ لأنه لم يرد لا في الكتاب ولا في السنة، ولا فعله السلف من الصحابة والتابعين فمن بعدهم ﵃؛ ولذلك قلنا: إنه من البدع، كما أنه ذريعة إلى الشرك، فيكون سببًا للشرك الأكبر، فالشرك الأصغر وهو ذرائع الأكبر تعد من أخطر أنواع المنكرات والبدع والضلالات، لكن لا يكفر إلا إذا صرف له العبادة والدعاء أو الذبح أو النذر، أو غير ذلك من العبادات.

أما اعتقاد السمع المحيط والقدرة المحيطة والإجابة على الغيب في إنسان، حتى يدعوه على البعد، فهذا من الشرك في الاعتقاد، في المتعلق بالأسماء والصفات، في أن يصف المخلوق بصفة الخالق، وهذا لو اعتقده حتى ولو لم يطلب منه شيئًا، لكان شركًا، ولكن لا يلزم من كل من قال: (يا سيدي، ادع الله لي)، أو قال: (يا فلان، اشفع لي عند الله)، أن يكون معتقدًا له السمع المحيط، أو البصر المحيط، أو القدرة الكاملة، أو الإجابة على الغيب، بل ربما ظن أن من كراماته أن هناك من يوصل له ذلك، كما أننا نسلم على النبي ﷺ بصيغة السلام عليه بصيغة الخطاب، ولا نعتقد له السمع المحيط، نقول في التشهد: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته)، ومع ذلك لو سألت أيّ مسلم: أيسمع الرسول ﷺ كل من في الوجود؟ يقول: لا، لا يقول ذلك عبد مسلم صالح، وإنما كما أخبر النبي ﷺ: «**إنّ اللّه وكّل بِقبْرِي ملائِكةً يُبلِّغُونِي عنْ أُمّتِي السّلام**»(١)،

(١) أخرجه النسائي (٣/ ٤٣)، وأحمد (١/ ٣٨٧) بلفظ: «**إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلَامَ**».

وقال ﷺ: «**ما مِنْ رجُلٍ يُسلِّمُ عليّ إلّا ردّ اللّهُ عليّ رُوحِي حتّى أرُدّ عليْهِ السّلام**»[١].

ولا يلزم من ذلك اعتقاد السمع المحيط، ولا القدرة الكاملة، ولا الإجابة على الغيب، من اعتقد ذلك في النبي ﷺ أو في الملك أو في الولي، كان مشركًا، وهذا هو الأمر الواضح الجلي في هذا الباب.

لابد أن نفرق بين الأمرين؛ لأن بعض الناس قد يخلط بين ما يفعل عند أصحاب القبور من مظاهر الشرك، ومن ذرائعه، ومن البدع والضلالات، ومما يجوز من الزيارة الشرعية، فيحكم على كل من ذهب إلى هذه القبور بالشرك، وليس كذلك، لابد أن ينظر فيما فعله هذا الإنسان عند القبر أو بعيدًا عنه، ينظر فيما صرفه من أنواع العبادات، إذا عبده من دون الله؛ دعاه، ذبح له، نذر له، استعاذ به، استغاث به، استعان به، أو اعتقد له السمع المحيط أو البصر المحيط، يعني: الشامل لكل ذرات الوجود، أو القدرة الكاملة، أو اعتقد فيه أي صفة من صفات الإلهية، فهذا هو الشرك الأكبر، والعياذ بالله من ذلك.

فهذه القضية هي التي قاتل من أجلها النبي ﷺ المشركين؛ حتى يتركوا عبادة الأوثان، وهي التي قاتل الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله من خالفه فيها، بعد أن أقام عليهم الحجج وبلغهم الأدلة، وهي أدلة من القرآن، يكفي أن يسمع الإنسان قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٤١)، واحمد (٢/ ٥٢٧).

إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٦ - ١٠٧].

وغيرها من الآيات التي تلونا، إذا بلغت الآيات بلسان الناس، إذا بلغته بلسان قومه بُيِّن له، فقد قامت عليه الحجة، إذا كان يدعي الانتساب إلى هذا الدين، وجب عليه الانقياد والطاعة، وأن لا يدعو إلا الله ﷻ.

يقول: (**وهذِهِ أعْظمُ مسْألةٍ خّالفهُمْ فِيها رسُولُ اللهِ ﷺ**) إخلاص الرب ﷻ بالعبادة والدعاء، نجعل العبادة خالصة لوجه الله، نجعل الدعاء لله وحده لا شريك له، تصفية العمل من كل شوائب الشرك، بحيث لا يتعلق قلب الإنسان إلا بالله ﷻ.

قال ﵀: (**وأخْبر أنّهُ دِينُ اللهِ، الذِي أرْسل بِهِ جمِيع الرُّسُلِ، وأنّهُ لا يُقْبلُ مِن الأعْمالِ إلاّ الخالصُ، وأخْبر أنّ منْ فعل ما اسْتحْسنُوا، فقدْ حرّم اللهُ عليه الجنّة، ومأْواه النّارُ**)، وأخبر أنه دين الله الذي أرسل به جميع الرسل: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ﴾ [الزمر: ٢ - ٣].

إذًا، فالإخلاص ينافي اتخاذ أولياء يعبدون من دون الله ﷻ، الآيات متتابعة على ذلك: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ هذه تنافي هذه، ﴿لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾ تنافي اتخاذ الشفعاء عند الله ﷻ، كما ذكرنا الاعتقاد الشركي في الشفاعة، يعتقد أنه يصح أن يصرف له العبادة من دون الله أو مع الله على سبيل الواسطة، هناك فرق بين من يثبت الشفاعة الشرعية، لا عبادة

غير الله، لا يعبد غير الله، ولا يصرف له العبادة لا حقيقة ولا تسمية، التسمية مناقضة صريحة لـ (لا إله إلا الله)، التسمية يعني: يسمي ويقول: (أنا أعبد البدوي، أنا أعبد الدسوقي، أنا أعبد اللات والعزى)، هذا صرح بالتسمية، وصرح بأنه يعبد غير الله، هذا يناقض صراحة (لا إله إلا الله).

أما من يقول: (أنا لا أعبدها)، ولكن حقيقة الأمر أنه يعبدها فهو يخالف حقيقتها، فهذا يُحتاج إلى أن تبين له حقيقتها، وأنها تنافي هذا الشرك، وأن (لا إله إلا الله) معناها: لا يُعبد إلا الله، فإذا أصر ولو قال: أنا أجعلها تشفع لي عند الله بهذا الدعاء وهذه الذبائح، وهذه العبادات، صار مشركًا حتى ولو لم يعترف بأنه يعبدها، والعياذ بالله.

يعني هل يوجد فرق بين عبادة النصارى لمريم وعبادتهم لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

نقول: نعم، هناك فرق، مع أن كلا الأمرين شرك، ولكن إحداهما مناقضة لأصل كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، هم يقولون: نعبد المسيح، وإن كانوا لا يقولون: إنهم يعبدون مريم، ولا يقولون: إنهم يعبدون الأحبار والرهبان، ولكنهم عبدوهم حين اتبعوهم على تبديل الشرع عبدوهم.

ولذلك وجدنا هذه التفرقة، قال الله ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]. لماذا تأخر هذا الاستثناء؟ لماذا تأخر استثناء المسيح؟ لماذا لم يقل: (**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم والمسيح ابن مريم أربابًا من دون الله**)، إنما قال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾، أي: واتخذوا المسيح ابن مريم ربًا؛ لأن اتخاذهم الأحبار والرهبان كان على

سيبل التلازم، كان على سبيل أنهم يلزمهم أنهم عبدوهم، وفعلاً هم عبدوهم كما بيّن النبي ﷺ؛ أما عبادتهم للمسيح ﷺ فصريحة في أنهم يعبدون المسيح؛ لذا لو سألتهم: أتعبدون مريم؟ يقولون: لا. وفي الحقيقة هم يعبدونها حينما يقولون: أم الرب، وحينما يصرفون لها أنواع العبادات، ويعتقدون أن أم النور هذه تشقع لهم عند الله، وتقضي حوائجهم، وتقربهم إلى الله ﷻ، هذا كله من الشرك، وكذلك ما يفعله من ينتسب إلى الإسلام في هذا الباب، لو قلت له: أتعبد الدسوقي والبدوي؟ قال: لا. ولكنه يصرف له العبادة، ماذا نفعل معه؟ هذا إلى الآن لم يبين له، يبين له بتلاوة الآيات في أن الدعاء هو العبادة، إذا أصر على ذلك كان كافرًا مشركًا، والعياذ بالله، لماذا؟ لأن هذا ينافي الإخلاص الذي هو دين الله ﷻ.

لا يُقبل من الأعمال إلا الخاص، قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال الفضيل بن عياض رحمه الله[١]: «**أَخْلَصُهُ وأَصْوبُهُ فإِنّهُ إِذا كان خالِصًا، ولمْ يكُنْ صوابًا لمْ يُقْبلْ، وإِذا كان صوابًا، ولمْ يكُنْ خالِصًا لمْ يُقْبلْ، حتّى يكُون خالِصًا وصوابًا، والْخالِصُ إِذا كان لِلّهِ، والصّوابُ إِذا كان على السُّنّةِ**»[٢].

---

(١) هو الإمام الزاهد العابد أحد صلحاء الدنيا، الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر أبوعلي التميمي ثم اليربوعي الخراساني المروزي، أخذ الفقه عن أبي حنيفة، وروى عنه الإمام الشافعي، كان في أول أمره شاطراً يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، ثم أراد الله ﷻ له الهداية. انظر: تاريخ دمشق (٤٨/ ٣٧٥)، ووفيات الأعيان (٤/ ٤٧)، وسير الأعلام (٨/ ٤٢١)، وطبقات الحنفية (ص٤٠٩)، وشذرات الذهب (١/ ٣١٧)

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٣٣٣)، وجامع العلوم والحكم (١/ ٧٢).

يقول: (**وأخْبر أنّ منْ فعل ما اسْتحْسنُوا، فقدْ حرّم اللهُ عليه الجنّة، ومأْواه النّارُ**)؛ كما قال المسيح ﵇: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

يقول: (**وهذِهِ هِي المسألةُ التِّي تفرّق النّاسُ منْ أّجْلِها بيْن مُؤْمِنٍ وكافِرٍ**): مسألة عبادة غير الله، وهذه المسألة، مسألة اتخاذ الصالحين أربابًا من دون الله، لما كانت هي أكثر مسائل الشرك انتشارًا في العالم؛ لذلك قال: هي التي تفرق الناس لأجلها بين مسلم وكافر، وإن كان يمكن كلمة هذه المسألة هي مسألة عبادة غير الله ﷻ.

هل يقصد الشيخ أنه لا يوجد مظاهر شرك إلا بهذه المسألة؟

لا يقصد ذلك، وهو قد بيّن مسائل كثيرة في كتابه هذا وفي غيره، فمن اعتقد مع الله خالقًا، اعتقد مع الله رازقًا، اعتقد مع الله ﷻ سامعًا بصيرًا، محيطًا بصره وسمعه بكل ذرات الوجود، أو من اعتقد مع الله ﷻ من قدرته كقدرة الله، كل هذا من الشرك الأكبر أيضًا، وكذلك من اعتقد أن أحدًا دون الله له أن يحلل ويحرّم ويشرع من دون الله، فهذا أيضًا من الشرك، والعياذ بالله، فعمومًا لما كانت هذه المسألة أكثر المسائل انتشارًا في العالم، قال: إنها هي المسألة التي تفرق الناس لأجلها بين مسلم وكافر، والحقيقة أن كل مسائل الشرك يتفرق الناس فيها بين مسلم وكافر، ولكن هذه من كبريات المسائل، أو كبرى المسائل، أول شرك وقع على ظهر الأرض هو شرك عبادة الصالحين، عبادة الأوثان التي ترمز إلى الصالحين، وكذا عبادة القبور هو ما زال من أخطر مظاهر الشرك المنتشرة في العالم، وعند المسلمين من ذلك قدر كثير، لابد من تحذيرهم منه.

يقول: (**وعِنْدها وقعتِ العداوةُ، ولِأَجْلِها شُرِع الجِهادُ؛ كما قال تعالى:** ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]) عندما صرح النبي ﷺ بعدم جواز دعاء غير الله وتسميتها آلهة وبطلان عبادتها وآلهتها، عادوا النبي ﷺ وفارقوه، لن تغضب أحدًا إذا قلت: (الله إله)، لكن ما أكثر من يعاديك إذا قلت: (لا إله إلا الله)!.

إذا قلت: لا يعبد بالحق إله إلا الله ﷻ، إذا قلت: إن ما تعبدون من الآلهة باطل، وما تدينون به هو الشرك، وما تعتقدونه هو العقيدة الفاسدة، هذا هو الذي تقوم له الدنيا ولا تقعد؛ حتى تزيلك عن هذا أو تزيلك عن الوجود أو ينصرك الله ويزيلهم هم، العداوة باقية مستمرة من أجل هذه القضية، إذًا قضية العداوة هذه من لوازم قضية التوحيد؛ ولذلك هم يعادون من يتكلم بالتوحيد، لا تتوقع ولا تنتظر أن تخالفهم، ومع ذلك يحبونك، ومع ذلك يودونك ويوافقونك، طالما خالفتهم عادوك وآذوك وقاتلوك؛ ولذا تقاتلهم في الجهاد في سبيل الله ﷻ، هذه قضية عظيمة الأهمية؛ لأن البعض في زماننا لايريد أن يثير عداوات فيترك دعوة التوحيد، يقول: نحن لا نكلم الناس في هذه المسائل؛ لأنها تغضب الكثيرين؛ لأن كثيرًا من الناس إذا كلمته وقلت له: دعاء غير الله شرك، قال: أنت تكفير، أنت خارجي، أنت وهابي، أنت متطرف، أنت إرهابي، كما لو قلت لهم: إن الحكم لله ﷻ دون من سواه، قالوا لك نفس الكلام، وإن كان بألفاظ أخرى، إذا قلت لهم: إن دين الإسلام هو الحق، وأن ما سواه من الملل باطل، قالوا: متطرف، إرهابي، خطير، هذا الذي يكفر اليهود والنصارى

لكن انظر تهمة عند الناس، وهذه القضية من أعظم الكفر - والعياذ بالله - حين يقول له: أنت متهم بـ (لا إله إلا الله)، إذًا أصبحت (لا إله إلا الله) تهمة، والعياذ بالله، أن يقول: أن من يكفر من يعبد غير الله، هذا رجل مذموم على ذلك، لابد أن تعترف بأن الملل متساوية، أن من يعبد غير الله كمن يعبد الله، لن يعادوك عندها، ستكون في أرفع المنازل، وتأخذ أرفع الأنصبة والمناصب والأوسمة، وتكون رجلاً عندك سماحة، وتعبر عن الإسلام الحقيقي، الإسلام للأعداء، أنه سلم للأعداء في الحقيقة، ليس الإسلام لوجه الله؛ لذلك قضية العداوة مع الشرك وأهله قضية ذات أهمية خطيرة، الذي يظن أن هذه العداوة حاصلة لأجل أسباب أخرى غير قضية التوحيد واهم، العداوة الشديدة مع أهل الإسلام لأجل أنهم يعتقدون أن دين الإسلام هو دين الحق، وأن ما سواه هو الباطل؛ ولذلك ينالهم ما ينالهم، ونعم ما ينالهم، ولو قتلوا عن آخرهم، كما قُتل أصحاب الأخدود عن آخرهم - بفضل الله ﷻ - على التوحيد والإيمان.

القضية الأساسية أن دين الإسلام هو الحق، وأن الإخلاص لله ﷻ هو أصل هذا الدين، وأن عبادة غير الله كفر وشرك، خلافنا مع اليهود والنصارى والمشركين هو في هذه القضية، في قضية عبادة الله دون من سواه، ولا شك أن اتباع الرسول ﷺ في ذلك هو من أعظم أركان العبادة، أعني: أن اتباع الرسول ﷺ وتصديقه لابد لكل مكلف سمع به أن يأتي به.

قال رحمه الله: (**ولِأجْلِها شُرِع الجِهادُ؛ كما قال تعالى:** ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩])، أي: حتى لا يبقى شرك، هذا تفسير مجاهد رحمه الله للآية، أي: حتى لا توجد فتنة أي شرك؛ لأن

الفتنة الشرك[١]، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وبتفسير السلف ﵃، وأمر الله ﷻ بقتال كل أهل الملل؛ حتى لا يبقى شرك ظاهر، من أراد أن يشرك بالله فليكن هذا دون أن يظهره؛ لأن هذا يفتن الناس، نعم والله، كم من البشر يكفرون بالله بسبب ظهور الشرك، بسبب علوه، بسبب أن من يدعو إليه غالب، فالناس لملوكهم - إلا من رحم الله - عبيد الأقوياء، يريدون فرض الشرك والكفر على الخلق؛ لذلك كانت فتنة أن يبقى شرك ظاهر، ظاهر يعني: عال في الأرض، يعني: متمكن منها، أجيال تلو أجيال تنشأ على الكفر، انظر إلى البلاد التي فتحها الصحابة والمسلمون من بعدهم، والبلاد التي لم تفتح، أوروبا بأسرها حالهم أنهم كفار جيلاً بعد جيل، كفار ورثوا الكفر عن آبائهم وأجدادهم، ومستمرون على ذلك، البلاد التي فتحت وظهر فيها الإسلام وعلا لا يزال فيها أهلها - بفضل الله - على الإسلام؛ لذلك كان من الفتن العظيمة ظهور الكفر، وانظر إلى ما حدث عندما تسلط الكفار على بلاد العالم، عندما أخذوا البلاد، ماذا صنعوا بأهلها؟ أخرجوا أجيالاً من الكفار والمنافين، وما يزال الصراع الحاضر ما بين أهل الإسلام والكفار هو في حقيقة الأمر مبدؤه من يوم أن دخل الأعداء بلاد المسلمين واحتلوها، البلاد الإسلامية التي أخرجت لنا البخاري ومسلم، التي أخذها الروس في عهود القياصرة، ثم في عهود الشيوعية، أجيال تلو أجيال خرجت لا تعرف شيئًا عن دين الله ﷻ، لا تدين بالإسلام، شيوعيون وملحدون وزنادقة، لكن - بفضل الله - عاد الإسلام إليها، لكن ما يزال هناك نوع من الصد عن سبيل الله ﷻ، ومقاومة

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٢٩٩)، وابن كثير (٤/ ٥٦).

هذا الدين، وكذا في كل البلاد، الصراع الحالي الذي يحدث بين المسلمين وبين اليهود أصله من يوم أن غلب الكفار وظهروا، حين أخذوا بيت المقدس بعد الحرب العالمية الأولى، واحتلوا القدس، ووعدوا اليهود بما لا يملكون ولا من حقهم، ومكنوهم من الأرض، ثم أعلنوا دولتهم، ثم أيدوهم بالقوة والسنان، ثم كبلوا المسلمين بالمنافقين، كبلوا المسلمين حتى يعجزوا عن مقاومة عدوهم، هذا الصراع الذي يجري تاريخه قديم، سببه - كما ذكرنا - ظهور الشرك، إذا كان الشرك ظاهرًا وجدت أجيال تكفر بالله، وتشرك بالله، وتوالي أعداء الله، وتبيع دينها بعرض من الدينا، إذا كان الأمر كذلك فالجهاد شرع من أجل ألا تكون فتنة، من أراد أن يكون مشركًا نحن لا نكرهه على الدخول في الإسلام، ولكن نمنعه من أن يفرض شركه على العالم على أجيال تلو أجيال من البشرية تُظلم حين يرتفع عليها الشرك، وتجهل الدين وتمنع عن معرفة الحقيقة، توضع بينها وبين الإسلام الحجب، شعوب أوروبا معمى عليها، شعوب العالم معمى عليها من أجل أنهم يسمعون إلى طواغيتهم فلا يعرفون حقيقة الإسلام، عندما يعرفونه يسلمون بفضل الله ﷻ، الإسلام في أي مواجهة ومناقشة ومجادلة يظهر بفضل الله ﷻ، لا يمكن أن يقف أمامه عائق؛ لذلك لا يجدون إلا سلاح البطش والتنكيل، فرعون انهار في الحجة أمام موسى عليه السلام فقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، لم يجد وسيلة أخرى، وكذلك كل شيء عند الكفار يستبيحونه لوقف دعوة الإسلام، هم يخافون منها؛ تنبت في الصخر، ولا يمكن انتزاعها، فيحاولون إبادة من يدعو إليها، أو أن يضغطوا عليه بشدة حتى يتنازل عنها تدريجيًا جزءًا فجزء؛

لذلك الجهاد شرع لا لتحرير التراب الوطني كما يقولون، ولا لأجل سيادة الدولة، وإنما: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٣٩]؛ حتى لا يبقى شرك ظاهر، يكون مشركًا تحت سلطان الإسلام، يؤدي الجزية عن يد وهو صاغر، لكي يعلو الحق، لكي لا تظلم البشرية، لكي لا تظلم ملايين من البشر حين يعمى عليها الحق ويلبس عليها بالباطل: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾، فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله، كان الجهاد واجبًا؛ حتى يكون الدين كله لله، حتى تكون كلمة الله هي العليا في الأرض كلها، لا في جزء دون آخر؛ ولذلك فنحن لا نعترف بحق الكفار في أن يعلو كفرهم شبرًا من الأرض، وإنما هو ضرورة، يعني: ابتلاء قدره الله ﷻ، فضلاً عن أن تكون هذه الأرض أرضًا للمسلمين التي علاها الإسلام يومًا من الأيام، لا حق لهم في شيء منها، إذا كان لا حق لهم في الأرض التي نشئوا عليها، فكيف يكون لهم حق في بلاد الإسلام؟! أن يعلو فيها الكفر بعد أن علت فيها كلمة التوحيد، نسأل الله ﷻ أن ينصر الإسلام والمسلمين في كل مكان.

الْمسْألةُ الثّانِيةُ: إنّهُمْ مُتفرِّقُون فِي دِينِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]، **وكذلِك فِي دُنْياهُمْ، ويروْن أنّ ذَلِكَ هُوَ الصّوابُ، فَأَتَى بِالاجْتِماعِ فِي الدِّينِ بِقوْلِهِ:** ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، **وَنَهَانَا عَنْ مُشابهتِهِمْ بِقوْلِهِ:** ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، **وَنَهَانَا عَنِ التّفرُّقِ فِي الدُّنْيا بِقوْلِهِ:** ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

الشـــرح:

الافتراق في الدين صفة من صفات أهل الجاهلية؛ من أهل الكتاب، ومن المشركين، كل فريق يتمسك بما وجد عليه آباءه وأجداده، وأهل الكتاب يتمسكون بجزءٍ مما في كتابهم، كل فريق منهم يتمسك بجزءٍ مما علمه من الكتاب، ويترك الجزء الآخر، فعند ذلك يقع التفرق؛ أما أهل الجاهلية من المشركين فتفرقهم نابع من اتخاذهم رؤوساءهم وكبراءهم وسادتهم أربابًا من دون الله يطيعونهم فيما يشرعون ويأمرون وينهون، يلتزمون كلامهم، كل قبيلة تتخذ معبودًا من دون الله ﷻ، تلتزم عبادته، وتلتزم سماع كلام كهنته وسدانته، هذا الذي نبع بسبب الابتداع في الدين وتعظيم الكبراء والرؤوساء والزعماء؛ حتى يجعل كلامهم كوحي الله سبحانه وتعالى لازم متبع، وفي الحقيقة رغم أن أهل الكتاب يبدون أنهم في الظاهر

يتمسكون ببعض القطع من الكتاب إلا أن اختلافهم أيضًا مرده إلى ذلك، اتخاذ روؤس الضلال؛ كما قال الله ﷻ عنهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التوبة: ٣١].

بيّن النبي ﷺ كيف كان عبادتهم للأحبار والرهبان واتخاذهم إياهم أربابًا، فقال: «**فقُلْتُ لهُ: إنّا لسْنا نعْبُدُهُمْ، قال: ألَيْس يُحِلُّون ما حرّم اللّهُ فتُحِلُّونهُ، ويُحرِّمُون ما أحلّ اللّهُ فتُحرِّمُونهُ؟ قال: بلى، قال: فتِلْك عِبادتُهُمْ**»(١).

والمشركون كان من ذلك ما ذكر الله في كتابه، فقال: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾ [المائدة: ١٠٣]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾ [التوبة: ٣٧].

فهذه الآيات تبين لو كان كبراؤهم ورؤساؤهم يقولون لهم أوامر، ويشرعون لهم تشريعات؛ من إباحة الميتة، من تحريم البحيرة، والسائبة والوصيلة، والحام، والأنعام التي حرمت ظهورها، والأنعام التي

---

(١) سبق تخريجه (ص٤٣).

لا يذكرون اسم الله عليها افتراءً عليه، ونسخ الأشهر الحرم، تأخيرها، وإزالة حكم تحريم القتال فيها، وأن يجعلوا بدلاً منها تحريم أشهر أخر، يجعله كبراؤهم ذلك، فجعله الله زيادة في الكفر، وليس فقط معاص وذنوب، وإنما هي كانت تشريعات وأوامر فعلها الكبراء والسادة.

ومن يتدبر تاريخ المشركين وما قص الله علينا من أخبارهم، علم أن مبدأ التفرق في الدين من ذلك، وكل شيخ وإمام وقائد له طريقة يتبعه أتباعه على ذلك؛ وأما اليهود والنصارى فقد أخبر النبي ﷺ عن افتراقهم الافتراق العظيم، فقال: «**افْترقتِ الْيهُودُ على إِحْدى وسبْعِين فِرْقةً فواحِدةٌ في الْجنّةِ وسبْعُون في النّارِ وافْترقتِ النّصارى على ثِنْتيْنِ وسبْعِين فِرْقةً فإِحْدى وسبْعُون في النّارِ وواحِدةٌ في الْجنّةِ والذي نفْسُ مُحمّدٍ بِيدِهِ لتفْترِقنّ أُمّتِي على ثلاثٍ وسبْعِين فِرْقةً فواحِدةٌ في الْجنّةِ وثِنْتانِ وسبْعُون في النّارِ**». قِيل يا رسُول اللّهِ منْ هُمْ قال «**الْجماعةُ**»، وفي الرواية الأخرى قال: «**منْ كان على ما أنا عليْهِ وأصْحابِي**»[1].

---

(١) هذا حديث الافتراق المشهور، وهو حديث حسن جاء من طرق متعددة عن عدد من الصحابة بألفاظ متقاربة، فقد روي من حديث أبي هريرة، وأنس، وسعد بن أبي وقاص ومعاوية، وعمرو ابن عوف المزني، وعوف بن مالك، وأبي أمامة، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم أجمعين.
أخرجه أبو داود (**٤٥٩٦، ٤٥٩٧**)، والترمذي (**٢٦٤٠**)، وابن ماجه (**٣٩٩١، ٣٩٩٢، ٣٩٩٣**)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٣٢)، (٣/ ١٢٠)، وأبو يعلى في مسنده (٧/ ١٥٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٧، ٢١٧)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٧٧)، (١٨/ ٧٠)، وفي الأوسط (٥/ ١٣٧)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٨).

فالتفرق في الدين نابع من الابتداع، نابع من التقليد الأعمى، وستأتي مسألة مستقلة في التقليد الأعمى للكبراء والمشايخ والعباد والعلماء، دون أن يدري الإنسان أين الحق؟ وهذا أدى إلى حصول التفرق في الدين، وكذلك حذر الله ﷻ من سبيل أهل الكتاب، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، فاتباع أهواء هؤلاء الضلال كان من أعظم أسباب افتراقهم واختلافهم وضلالهم عن التوحيد والدين الواحد الذي جاءت به رسل الله، صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين.

نهينا نحن عن مثل ذلك، وذلك بأن نتمسك بالكتاب كله؛ لأن من أعظم أسباب الافتراق كما ذكرنا، اتخاذ الرؤساء الجهال؛ كما قال النبي ﷺ: **«إِنّ اللّه لا ينْزِعُ العِلْم بعْد أنْ أعْطاكُمُوهُ انْتِزاعًا، ولكِنْ ينْتزِعُهُ مِنْهُمْ مع قبْضِ العُلماءِ بِعِلْمِهِمْ، فيبْقى ناسٌ جُهّالٌ، يُسْتفْتوْن فيُفْتُون بِرأْيِهِمْ، فيُضِلُّون ويضِلُّون»**[1].

لذلك نقول: إن انتشار الجهل والبدع والرؤوس الجهال من أعظم أسباب افتراق الأمة في دينها، وكذلك من أعظم أسباب البدع أن يتمسك الناس ببعض الكتاب ويتركون بعضه، مما سماه الله ﷻ في أهل الكتاب: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

تجد أهل البدع هذه طريقتهم، الأصل عندهم ما قرره أئمتهم، يحتجون

(١) أخرجه البخاري (٧٣٠٧)، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما

لكلام أئمتهم بما يعرفون من الكتاب والسنة؛ أما ما يخالف ذلك فهم يهجرونه ويتركونه، فهذا معنى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، (زبرًا) يعني: قطعًا، جعلوا الكتاب أجزاءً، يأخذون ما يوافق ما قرره أئمتهم ويتركون ما سوى ذلك، وكل فرح بما عنده؛ لأنه لم يجعل همته في معرفة الكتاب كله، معرفة الدين كله، معرفة ما جاء به النبي ﷺ كله، إنما يريد أن يأخذ منه ما يوافق هواه، ويحتج به فيقع الانحراف، لأن القرآن يبين بعضه بعضًا، والسنة تبين بعضها بعضًا، والكتاب والسنة معًا يبين بعضهما بعضًا: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل: ٤٤]، والذكر يشمل القرآن والسنة، الكتاب والحكمة؛ لأن الله قال: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾ [الأحزاب: ٣٤]. فدل ذلك على أن الكتاب، آيات الكتاب، والحكمة التي هي السنة، كل ذلك مأمور بذكره: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ﴾، فلابد أن نذكر، فالذكر يشمل ما قاله رسول الله ﷺ.

حين يتعلم الإنسان الكتاب كله ويحتج به كله، لا يجعل بعضه محتجًا به - هو الذي يوافق الأهواء - ويترك البعض الذي يخالف هواه، يكون قد جعل الدين قطعًا، قد جعل كل فريق الدين عنده أجزاءً، جزء يوافقه فيأخذ به ويقول به، وجزء يتركه ولا يعمل به ولا يؤمن به في الحقيقة، إن آمن بلفظه كفر بمعناه أو خالف معناه على درجات متفاوتة كل منهم، هناك آيات غصص في حلوقهم يكرهون أن تذكر، وأحاديث غصص وأشواك في حلوقهم يكرهون أن تذكر؛ لأنها تخالف بدعتهم وضلالتهم، كما كان المشركون يحاولون دائمًا إسكات من يدعوهم إلى دين الله ﷻ بتلاوة

القرآن: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥].

يظنون أن ذكر آلهتهم وذكر ما يعبدونه من دون الله ﷻ يمكن أن يكون فيه نوع من الثناء عليهم؛ ولذا يلقي الشيطان في أسماعهم وأفهامهم خلاف ما قال وقصد النبي ﷺ؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: ٥٢ - ٥٤].

من شدة تسلط الشيطان على سمع وعقل أو قلب الإنسان يلقي في قلبه تلك الشبهات، وهذا الأكثر وقوعًا، يسمع أحدهم الآية أو الحديث فيلقى الشيطان شبهاته في فهمها، فيظن بها خلاف الصواب؛ لأنه تعلق قلبه ببدعة معينة وضلالة معينة، فيأخذ من الكتاب ما يوافق هواه، أو يلقي الشيطان في قلبه خلاف مقصود الكتاب، بحيث يحاول الفهم المنحرف، وأحيانًا من شدة تسلط الشيطان على قلب الإنسان وسمعه يسمع بالفعل أصواتًا شيطانية يظن أنها ضمن الوحي، ويظن أن الرسول ﷺ قد قال ذلك، والحقيقة أن الرسول ﷺ لم يقل، وإنما ألقى الشيطان في سمع الكفار في وسط قراءة الرسول الأمنية - القراءة - إذا تمنى - إذا قرأ - ألقى الشيطان في أمنيته: في قراءته، في حقيقة الأمر في أسماع المشركين في وسط القراءة يلقي في أسماعهم من شدة التسلط ألفاظًا وأقوالاً ما قالها الرسول ﷺ، يظنون أنه

وافقهم على باطلهم من شدة تعلقهم بالباطل، وهذا والله كثيرًا ما يقع عندما يقول البعض: الشيخ فلان قد قال كذا، وهو لم يقل، لكن لشدة تعلقه بالشيء يظن أنه قد قاله، ويتوهم أنه قد قاله؛ وأما بالنسبة للفهم فأكثر بكثير، ذلك أنهم يأتون بنصوص لم ترد مثلاً في مجال معين أو في واقعة معينة، فيجعلونها في تلك الواقعة، كما يقع من أهل البدع والضلال، نقول مثال: الذين يدعون غير الله ﷻ، ويصرفون لهم الدعاء والنذر والاستغاثة والذبح، إذا سمعوا قول الله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، يفرحون جدًا، ويقولون: هذا دليل على ما نفعله بالأولياء، إذا قلت له: لا تعبد غير الله، لا تدعو البدوي ولا الدسوقي، ولا أحدًا من الأموات يقول لك: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾، وما دخل هذه الآية؟ وما معناها بما تفعل؟!

هل أن: ﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ معناها: أن تعبدهم من دون الله؟! أن تصرف لهم العبادة من دون الله؟!

ألقى الشيطان في أفهامهم ذلك، ويظنون أنهم على حق، ويظنون أن حب الصالحين يقتضي عبادتهم، مزج الشيطان في أفهامهم الحق بالباطل؛ لأن الحق هو الذي يمر في فطرة الإنسان ويستساغ، الباطل لا يمر، يغلف الشيطان الباطل بشيء من الحق ليمرره، فيقول الذي يعبد الأولياء مثلاً: إن الذي ينهى عن عبادة الأولياء، يقول: لا تدعو البدوي ولا الدسوقي ولاسيدي فلان، ولا تستغيث بالنبي ﷺ، يقول عنه: هو لا يحب الأولياء، بل لا يحبون النبي ﷺ، هؤلاء الخوارج، هؤلاء كذا... وكذا... يضعون الأشياء في غير موضعها، تمسكوا بشيء من الحق وهو حب الصالحين،

ووضعوه في غير موضعه، ووضعوا معه الباطل، والعياذ بالله.

فهذا جزء من الإلقاء الذي يلقيه الشيطان بالباطل في نفوس الناس، وأحيانًا - كما ذكرنا - لشدة تسلط الشيطان في الأسماع، يقول: قد قال كذا، وهو لم يقل، ويكذبون على رسول الله ﷺ، ويكذبون على الله ﷻ، وهو - كما ذكرنا - في الفهم أكثر، تتلى الآيات وكثير من الناس يفهمها على غير وجهها، كما ترى مثلاً على سبيل المثال: من يسمع قول الله ﷻ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨]، فيمسك بذلك ويقول: هذا دليل على أننا نحب الكفار، وأنه لا فرق بين المسلمين والكفار، وأننا وهم شيء واحد، ويغفل عن أن الله أمر بالبر والقسط، ولم يجز ولم يأمر بالموالاة والمحبة والنصرة والمتابعة والطاعة، إنما بالبر بالإحسان؛ تطعمه إذا جاع، وتكسوه إذا عرِي، وتزوره إذا مرض، وتحسن إليه في الجملة، هذا البر.

وأما العدل فمع الذي حاربنا ولم يحاربنا، نحن نعدل حتى مع من حاربنا في الدين؛ لأن العدل هو وضع الشيء في موضعه، الله ﷻ أمرنا أن نعدل مع من كرهنا: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨].

فأنت تعدل مع من أبغضت، حتى الكفرة تعدل معهم، ولكن ما العدل؟ ما شرعه الله ﷻ هو العدل، ليست المساواة بين الحق والباطل، بين المجرم والمجني عليه، ليست عدلاً، العدل أن تعامل كلاً بما يستحقه

بشرع الله، نقول: يتمسك هؤلاء مثلاً بهذه الآية، ويقول بناءً على ذلك: لا مانع أن نهنئ الكفار بأعيادهم، لا مانع بأن نشاركهم في مظاهر شركهم، لا مانع أن نعينهم على شركهم وكفرهم، نبني كنائسهم، نرفع صلبانهم، نساعدهم على ما يريدون من الباطل، ووصل الحال بالبعض إلى أن يعينهم على الكفر - والعياذ بالله - وأذية المسلمين وقتال المسلمين، وينصرهم على المسلمين، فهذا مع تكلمه بالإسلام ممن أنزل الله ﷻ فيه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء: ٩٧].

هذه - كما ذكرنا - بعض الأمثلة، وأمثلة كثيرة نقول مثلاً: الرافضة الذين يبغضون أصحاب النبي ﷺ، يتمسكون بآية لا تدل على مقصودهم، قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فيتمسكون بذلك بزعمهم أن ذلك يقتضي أن أهل البيت هو الذين نتولاهم ولا نرضى بإمامة الصحابة وخلافتهم وخلافة أبي بكر وعمر وعثمان، وأن أهل البيت هم أولى الناس بالإمامة، وأن من أخذ الإمامة منهم، فقد اغتصبها وظلمهم في ذلك، وكذلك في قول النبي ﷺ: «**مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ، فعلِيٌّ مَوْلاهُ**»(١) في حب علي ومتابعة علي؛ لأن عليًا رضي الله عنه على

(١) أخرجه الترمذي (٣٧١٣)، وابن ماجه (١١٥)، والنسائي في الكبرى (٨٠٨٩)، وأحمد (١/ ٨٠، ٢/ ٧١، ٢٦٢، ٢٦٩، ٤٣٤، ٣٠/ ٤٣٠، ٣٢/ ٢٩، ٧٦، ٣٨/ ١٩٣، ٢١٩)، والسنة لابن أبي عاصم (٢/ ٦٠٤)، والبزار (١٠/ ٢١١)، وابن خزيمة في كتاب التوحيد (١/ ٦٩)، والآجري في الشريعة (٤/ ١٧٥٨)، والطبراني في الصغير (١/ ١١٩)، والأوسط (١/ ١١١)، والحاكم (٣/ ١١٨)، وانظر: شرح مشكل الآثار (٥/ ١٥).

الحق، وليس معناه أن عليًا يكون خليفة لرسول الله ﷺ، ليس في الحديث ذلك، كما أن تطهير أهل البيت ليس معناه أن غيرهم نجس، أو أن غيرهم لا يصلح لقيادة الأمة أو لخلافة النبي ﷺ، هذا مما لا شك فيه، الآية لا تدل على ذلك بوجه من الوجوه، لماذا؟

لأنهم تركوا الآيات الأخر، كما ذكرنا في الأمثلة الثلاثة التي سبقت، فالمثال الأول: الذين عبدوا الصالحين من دون الله، الذين تمسكوا بحب الأولياء فصرفوا لهم العبادات، نقول: ماذا تركوا من الدين؟ ما الذي جعلوه زبرًا؟ تمسكوا بجزءٍ وهو حب الصالحين وهو حق، وتركوا جزءًا آخر من القرآن: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧ - ١٠٦]

تسمع هذه الآيات تجد شمسًا أوضح من الشمس، بيّنًا في عدم جواز دعاء غير الله: ﷻ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤]، الآيات تصرح بأن دعاء غير الله شرك، والعياذ بالله، ومع ذلك تجد هؤلاء يتركون هذه الآيات، يمسكون بما يوافقهم ويتركون ما يخالف هواهم، وكذلك فعل النصارى عندما سمعوا آيات القرآن، أمسكوا في: (نزلنا عليك الكتاب)، و(أنزلنا إليك)، ونحو ذلك، فقالوا: إذًا الله ثالث ثلاثة. من أين الدليل؟! تتركون قوله ﷻ الذي سمعتموه: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ

ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٧٥].

تتركون قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران: ٥٩]، وإلى يومنا هذا ما تزال هذه قضيتهم، يتمسكون مثلاً بأن عيسى عليه السلام كلمة الله، ويتركون أن الله قال له: (كن فيكون)، يقولون: عيسى هو الكلمة، ونحن نقول: عيسى كلمة الله بمعنى أنه مخلوق بكلمة من الله، كلمة (كن)، كما بينته الآية، فهذه طريقتهم.
المثال الثاني الذي ذكرنا: الذين يتولون الكفرة بزعم أنهم أمروا بالبر والقسط، نقول: تركوا قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾ [الممتحنة: ١]، قال سبحانه وتعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٢]، آيات بينات، قال: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٢٠﴾ [البقرة: ١٢٠]، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ۝١٠٠﴾ [آل عمران: ١٠٠]. الآيات بينة في التحذير من المودة، في التحذير من الطاعة، في التحذير من المتابعة، التحذير من النصرة، وأن من نصرهم فهو منهم، يتركون كل ذلك ويتمسكون بأن الإسلام لم يأمرنا إلا بالبر والقسط.

ألم ينهاك عن الموالاة؟! أليست الآية التي بعدها مباشرة: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ [الممتحنة: ٩]، وتجد والله أخرجوا المسلمين من ديارهم، وقاتلوهم وعاونوا على قتالهم، ومع ذلك تجد من يتولاهم، والعياذ بالله، يترك الآيات المحكمات، ويتمسك بفهم باطل ألقاه الشيطان في ذهنه، أحيانًا في سمعه لم يقصد، ولا يفهم من الكتاب ولا من السنة، يلبس دينه عليه بذلك: ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩]، يتمسك بجزءٍ ويترك جزءًا آخر: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ [المؤمنون: ٥٣].

وكذلك في المثال الثالث الذي ذكرنا: في أمر الرافضة، يتركون قول الله ﷻ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٠٠﴾ [التوبة: ١٠٠]، **ماذا تفعل بهذه؟!**

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الله أعد لهم هذه الجنات، وأنت تقول: قد ارتدوا عن الإسلام وخرجوا من الملة بمجرد وفاة النبي ﷺ، وظلوا يحاربون الدين الذي جاء به، ولا يصح الدين إلا به من تولي علي رضي الله عنه، ويطعنون في أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ويرونهم طواغيت، ويرونهم أصنامًا، ويرونهم أكثر من حرفوا الدين وبدلوه، والعياذ بالله، هذا غير متصور، والله قد أنزل فيهم أنه أعد لهم جنات، أليس الله يعلم ما سوف يفعلونه؟ فكيف يعد لهم جنات ويصفهم بالسبق، ويخبر برضاه عنهم الذي

يتلى إلى يوم القيامة، وهو يعلم عنهم أنهم يرتدون، وأنهم يصبحون أعداءً لنبيه، وأنهم هم الجبت والطاغوت؟! نعوذ بالله، تسمع قول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١]، السلف يفسرون الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان(١)، وكذلك كل أنواع الطواغيت، هؤلاء إذا سمعوا الآية ألقى الشيطان في أفهامهم الباطلة أن الجبت والطاغوت هم أبو بكر وعمر، والعياذ بالله، ونحو ذلك، وأن الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب: أصحاب محمد ﷺ! عجب وضلال مبين! ويتركون النصوص الواضحة، قال ﷻ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ٨ - ١٠].

إذًا، الذين جاءوا من بعدهم يكونون على طريقهم، كيف يمدح الله ﷻ من تبع هؤلاء الذين تزعمون أنهم مرتدون؟!

هذا الكلام يدلك على المقصود ويبين لماذا تفرق الناس في الدين؟ لماذا

---

(١) انظر: تفسير الطبري [(٥/ ١٣٤، ١٣٥، ٥/ ٤١٧) برقم (٥٨٣٤، ٥٨٣٥)]، والمحرر الوجيز (١/ ٣٣٨)، وتفسير ابن أبي حاتم [(٢/ ٤٩٥)، و(٣/ ٩٧٥)].

ظهرت البدع؟ لماذا اختلفت الأمة؟ كما ذكرنا بداية رؤوس جهال، وثانيًا: تقسيم بحيث يأخذ ما يوافق ما قاله الرؤوس، ويترك ما خالف ما قاله الرؤوس، لو أنه كان قصده وهمته الإيمان بالكتاب كله ومعرفة ما جاء به النبي ﷺ كله والإيمان به والعمل، فعند ذلك فسوف يوفقه الله، ويكون على ما كان عليه أصحاب النبي ﷺ، لم يفرقوا دينهم شيعًا، لم يجعلوه جزءًا يؤمنون به وجزءًا لا يؤمنون به أو يتركونه أو يخالفونه، لا يتبعون الرؤوس الضُلال، إن رؤوس الضلال وهم في العلماء والأمراء والعباد، هؤلاء رؤوس الضلال، هم الدعاة على أبواب جهنم؛ كما قال النبي ﷺ لحذيفة رضي الله عنه عن العلماء[1]: أعني علماء، السوء، وبالأمراء: أمراء السوء وبالعُباد: عباد السوء، يظهرون الديانة والعبادة، وهم في حقيقة الأمر منحرفون تمامًا أشد الانحراف، والعياذ بالله، علماء السوء يسخِّرون النصوص لموافقة الأهواء على حسب ما يقال له، يستخرجون ما يقال لهم:

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧)، ولفظه: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي، وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ، فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ: نَعَمْ، قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ، فَقُلْتُ: فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ».

نريد فتوى بالشيء الفلاني. نعم، عندنا أدلة.

وتجد الأمور متناقضة، اليوم فتوى وبالأمس غيرها، وبعد غد سوف تجد مناقضًا لذلك، على حسب ما يطلب، ما المطلوب؟ المطلوب محاربة اليهود. بينما في الزمن الماضي كل من يوافق على السلام مع اليهود، الذي لايعطينا حقوقنا كافر ومرتد. . .إلخ، فإذا جاء السِلم نريد فتوى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]، أي سلم هذا الذي جنحوا إليه؟ هل جنح اليهود فعلاً للسلم؟ هل فعلاً مالوا إلى السلام الذي فرضه الله وأوجبه من أن يدخلوا تحت سلطان الإسلام، وأن يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وأن يقبلوا بالهدنة مع المسلمين مثلاً، مع إعطاء المسلمين حقهم، وليس أن يعطيهم المسلمون أرضهم وديارهم وأموالهم، وأن يتسلطوا على صدهم عن سبيل الله ﷻ، هذا شرطهم يريدون أن يتمكنوا ممن يصد عن سبيل الله، يضعوا من يصد الناس عن سبيل الله، هذا نجاحهم، يقولون: نجحنا إذا فعلنا ذلك، إذا أبعدنا الناس عن الدين، هكذا والله سمعتها من وزيرة خارجيتهم منذ يومين، تقول: (لقد نجحنا في الضفة الغربية نجاحًا كبيرًا)، هذا النجاح بمعنى إبعاد الإسلاميين، إبعاد الدعوة عن الناس، وبذلك الناس يأكلون ويشربون مستريحين - مستوى المعيشة ارتفع -؛ أما هنا فلأن الناس اختاروا الالتزام، اختاروا الدين، فسوف يجوعون ويعرون، وسوف يُقتلون وتسفك دماؤهم، وتنتهك حرماتهم، ومع ذلك تجد من يقول: إن هذا هو المطلوب، إن هذا هو الدين، والعياذ بالله، هذا من أخطر ما يمكن؛ لذلك فهم الدين كله، كما ذكرنا هؤلاء الثلاثة،

كما قال عبد الله بن المبارك(١):

رأيْتُ الذُّنُوب تُمِيتُ الْقُلُوب ... وقدْ يُورِثُ الذُّلّ إدْمانُها

وترْكُ الذُّنُوبِ حياةُ الْقُلُوبِ ... وخيْرٌ لِنفْسِك عِصْيانُها

وهلْ أفْسد الدِّين إلّا الْمُلُوكُ ... وأحْبارُ سُوءٍ ورُهْبانُها

نعم هؤلاء الذين هم رؤوس في العالم، دائمًا الناس يرجعون إلى مشايخهم وعلمائهم، إلى قادتهم وملوكهم ورؤوسائهم، إلا العباد؛ لأن الله فطر الناس على محبة من يعبده، فمن كان فاسدًا من هؤلاء أفسد الدين والدنيا، والعياذ بالله؛ ولذلك قال النبي ﷺ في الشر الأخير بعد الخير الذي فيه دخن في حديث حذيفة رضي الله عنه، قال: «**دُعاةٌ على أبْوابِ جهنّم منْ أجابهُمْ إليْها قذفُوهُ فِيها، قُلْتُ: يا رسُول اللّهِ صِفْهُمْ لنا، قال: هُمْ قوْمٌ مِنْ جِلْدتِنا يتكلّمُون بِألْسِنتِنا**»، وفي رواية مسلم: قال: «**يكُونُ بعْدِي أئِمّةٌ لا يهْتدُون بِهُداي، ولا يسْتنُّون بِسُنّتِي، وسيقُومُ فِيهِمْ رِجالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشّياطِينِ فِي جُثْمانِ إِنْسٍ**».

---

(١) هو الإمام أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، مولى بني حنظلة من أهل مرو، كان مولده بها سنة ثماني عشرة ومائة، ومات في شهر رمضان منصرفًا من طرسوس سنة إحدى وثمانين ومائة، طلب العلم وهو ابن بضع عشرة سنة، ورحل سنة إحدى وأربعين ومائة، ولقي التابعين، وأكثر الترحال والتطواف إلى الغاية في طلب العلم والجهاد والحج والتجارة.
انظر: الطبقات الكبرى (٥/ ٤٩٧)، والوافي بالوفيات (١٧/ ٢٢٥)، وسير أعلام النبلاء (٨/ ٣٧٨، ٣٧٩). وانظر هذه الأبيات في: شرح الطحاوية (١/ ٢٣٥)، وتفسير ابن كثير (٤/ ١٣٨)، والفتاوى الكبرى (٦/ ٢٩)، والجواب الكافي (ص٥٩).

وهناك والعجب العجاب من يقول: بل يلزم المسلمين جميعًا أن يطيع هؤلاء الدعاة على أبواب جهنم، وأن طاعتهم لازمة؛ من علماء السوء، وأمراء السوء، وعباد السوء، والصوفية، والعِلمانيين، والعلماء المنحرفين الذين سخروا العلم في خدمة هؤلاء - والعياذ بالله - الذين يحتجون بآيات الله ﷻ؛ لكي يحرفوا الكلم عن مواضعه، وقسوة القلوب بينة جلية عليهم؛ لذلك نقول: إن من أعظم أسباب افتراق الأمة، وافتراق الناس في الدين، الأمم السابقة حدث ذلك لها، اليهود والنصارى والمشركون كانوا يعظمون قادتهم وكبراءهم، وأحبارهم ورهبانهم، فاخترعوا لهم، وهذا مسجل مكتوب، العقيدة النصرانية غير مأخذوة من الإنجيل، ولا حتى مِن «متى»، و«لوقا»، والأناجيل الأربعة ليس فيها هذه العقيدة، هذه العقيدة مأخذوة مما يعرف عندهم بقانون الإيمان المسيحي، موضوع في تاريخه، موضوع في مجمع نيقية الأول، هذه حاجة مقررة عندهم: نؤمن بإله واحد خالق الكل، ضابط ما يرى وما لا يُرى، وأقنوم الابن المولود من أبيه قبل كل الدهور، إله من إله، شعلة نور من شعلة نور، مساوٍ لأبيه في الجوهر، وتجسد وصلب من أجلنا، وولد من مريم العذراء، وصلب من أجلنا، ثم صعد إلى جوار أبيه. أين توجد هذه النصوص؟! في التوراة أو في الإنجيل؟! لا توجد نهائيًا، هذا كلام آخر تمامًا، هذه النصوص موجودة في المجمع، التلمود الذي وضعه اليهود، تركوا التوراة وصنعوا التلمود، أشياء معروفة ليست مخفية، كما أن بعض الناس مثل الرافضة تجد عندهم كتاب «الكافي»، كتاب «الكافي» تترك الكتاب وتترك السنة، وتترك البخاري ومسلم، تترك كل ذلك وتمسك بخرافات «الكافي» وضلالات «الكافي»، وما يقرره هؤلاء معصوم،

نصوص كأنها آيات وأحاديث!

وهذا مليء بالأكاذيب الباطلة والخرافات، والعياذ بالله، انظر إلى كتب الصوفية؛ «فتوحات ابن عربي» و«فصوص الحكم» و«طبقات الشعراني»، سوف تجد العجب الذي يعيشون عليه، كتبهم هذه هي التي يعيشون عليها ومن أجلها، ينصرونها، والكتاب والسنة ماذا نصيبهما؟

القصص العجيبة والخرافات والخزعبلات هي التي تحكى على المنابر وفي الدروس وفي الموالد، يقولون: كان هناك طائرة تريد أن تضرب طنطا، فخرج السيد البدوي وأمسك الطائرة ورمى بها بعيدًا. والعياذ بالله، والناس تتناقل ذلك، فهذا الكلام هو الذي يتناقل في جهالات هؤلاء القوم، روؤس جهال اخترعوا في الدين ما لم يأذن به الله، أوهموا الناس أن يتمسكون بالنصوص، وهم في الحقيقة: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، يوهمون الناس أن حب الصالحين يقتضي ذلك، يوهمون الناس أن حب أهل البيت يقتضي لعن الصحابة، ليس هناك معركة، هؤلاء يوهمون الناس أن البر والقسط مع أهل الكتاب ومع الكفار يقتضي مودتهم وموالاتهم ونصرتهم، هؤلاء أو غيرهم يقولون: إن طاعة من ولاه الله أمر المسلمين يقتضي طاعة الدعاة على أبواب جهنم، والعياذ بالله، عجب! كيف يمكن ذلك؟! كيف لاتنتبه إلى أن الله ﷻ إنما أمر بطاعة من ولاه الله أمرنا؛ ليتولى أمرنا نحن لا أمر الأعداء؛ ليتولى النصيحة للأمة؛ ليتولى إقامة الدين فيها لا هدمه؛ ليتولى سياسة الدين بالدين، بأن يقيم فروض الكفاية وواجبات الشريعة، ويُعيِّن في الأمة كل طائفة تقوم بواجب من واجبات الدين والدنيا كذلك، لا لهدم ذلك ومنعه ومحاربته بكل طريق،

لا لإفساد عقائد الناس وعبادات الناس وأخلاق الناس بإتاحة الفواحش والمنكرات، وبنشر البدع والضلالات، وبحثِّ الناس تدريجيًا على ترك العبادات بأن من فجر وفعل الفاحشة مطمئن إليه، وحتى شرب المخدرات وشرب الخمور أمر يأمن صاحبه على نفسه؛ أما الذي يتدين ويلتزم بالدين ويحافظ على الصلاة في المسجد فلابد أن يُتابع، لو أن إنسانًا مثلاً شرب السجائر، شرب المخدرات، فمعروف أنه ليس من المتطرفين والإرهابيين والعياذ بالله، تجد هذا بعالم اليوم واسعًا في كل مكان، هناك صفات معينة من يتكلم فيها، من يتكلم في قضايا الولاء والبراء والحكم بما أنزل الله ونحو ذلك، يكون إنسانًا متهمًا خطيرًا إرهابيًّا، ومن يتكلم في الجهاد في سبيل الله فهذا لابد أن يذهب إلى أبعد من «جوانتانامو»، ولابد أن ينال ما يناله الإرهابيون في كل مكان في العالم.

نقول: لابد أن تفهم هذه النصوص، التي وردت يلقي الشيطان في أفهام الكثيرين ما يخالف هذه النصوص وغيرها، ويتمسك بهذا النص ويترك ما عداه، الله ﷻ قد أمرنا أن نقيم الدين ولا نتفرق فيه، كيف نقيم الدين الذي أوحاه الله إلى النبي ﷺ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣]؟

فما هي هذه الوصايا؟ ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾.

كيف؟ ما هو الأمر المشترك بين كل هذه الوصايا؟

توحيد الله ﷻ، النهي عن الشرك، كل الرسل جاءوا واتفقوا على ذلك،

وهذا الذي لا تختلف فيه الشرائع من زمن إلى زمن، أن الله حرم الشرك، وحكم على من فعله بأنه من أهل النار: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، بكل أنواعه ومظاهره.

لذلك نقول: إقامة الدين، إقامة شرع الله ﷻ، تجد أناسًا لا دخل لهم بإقامة الشرع، ومع ذلك يأمرون بالاجتماع، علام إذًا يجتمع الناس إن لم يكن على إقامة الدين وعدم التفرق؟ ليس يمكن أن نمتنع من التفرق إلا بإقامة الدين، إذا أقمنا الدين عند ذلك امتنع التفرق بإذن الله، وإنما يحصل التفرق المذموم، وليس كل اختلاف يعد تفرقًا مذمومًا، قد يسع الاختلاف في مسائل لأنها لا تصادم النصوص، ما يصادم النص من الكتاب والسنة والإجماع والقياس الجلي هو الذي يخالف البينات، عند ذلك مخالفته هلاك وعذاب عظيم؛ كما قال ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٥﴾ [آل عمران: ١٠٥].

فما المذموم من التفرق؟ هو ما خالف البينات، والبينات هي آية محكمة هي سنة صحيحة، إجماع سابق لأهل العلم، قياس على هذه الثلاثة جلي واضح لا يُختلف فيه، عندما توجد هذه تكون بينات، تكون الأمور واضحات لا يحصل اختلاف، من خالف البينات هو الذي فرق في الدين، من خالف البينات هو المذموم في ذلك، ولا تقل الناس اختلفوا مطلقًا، إنما يذم من خالف البينات؛ لأن الله عندما ذكر اختلاف الذين من قبلنا: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٥﴾ قال: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٌۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ

أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران: ١٠٦].

إذًا، لا تجعل هؤلاء المختلفين كلهم فئة واحدة، بل هناك من يبيض وجهه وهناك من يسود وجهه؛ كما قال ابْنُ عباسٍ رضي الله عنهما في قوْلِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾: **«تبْيضُّ وُجُوهُ أهْلِ السُّنّةِ والْائْتِلافِ، وتسْودُّ وُجُوهُ أهْلِ الْبِدْعِ والْاخْتِلافِ»**(١)، فلا تأمر من خالف غيره لأجل أن غيره خالف البينات، تقول: اتفقوا مع بعض واجتمعوا. نقول: نعم، ولكن كيف نجتمع؟ بأن نقيم الدين، بأن نلتزم بالبينات.

ما لم تكن هناك بينات... الآية تحتمل وجوهًا في التفسير وسعت الصحابة فتسعنا، الحديث كذلك، هناك جملة من الأحاديث طرق الجمع بينها يختلف فيها العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، وسع السلف يسعنا، فهكذا ليس هناك نص يُخالف أبدًا، لا يمكن أن يُخالف نص من كتاب أو سنة أو إجماع، وكذا القياس الجلي الذي لا يختلف فيه بين أهل العلم، هذه هي البينات، فالمذموم من الخلاف هو ما خالف البينات، وهذا هو التفرق الذي نهى الله عنه؛ وأما قبل أن تأتي البينات قبل أن تتضح الأدلة الواضحات التي ذكرنا ما هي، فعند ذلك يكون الخلاف سائغًا، فما تعريف الخلاف السائغ؟

الخلاف السائغ الذي لا يفسد للود قضية هو: ما لا يخالف نصًا من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس جلي في العقيدة أو العبادة أو الأخلاق

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٧٢٩)، والخطيب في تاريخ بغداد (٧/ ٣٧٩)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١/ ٧٢). وانظر: تفسير البغوي (١/ ٣٣٩)، وتفسير القرطبي (٤/ ١٦٧٩)، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٩١)، والدر المنثور للسيوطي (٢/ ٢٩١)

أو المعاملة أو أي شيء من ذلك، حلال أو حرام، كل ذلك؛ وأما ما خالف نصًا من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس جلي فإن ذلك هو الخلاف المذموم، ومن يتحمل وزره؟ الذي فرق، الذي خالف البينات.

لا تأتي مثلاً لمن خالف غيره لأنه عِلماني لا يريد إقامة الدين، فتقول كما ينادي البعض أهل فلسطين، يقول لهم: كفوا عن الخلافات، اجتمعوا مع بعض، أهل فجور وفساد، وعمالة لليهود، نقول لهم: اذهبوا ضعوا أيديكم في أيديهم، وكونوا معهم، وهم باعوا قضيتهم دينًا ودنيا، والعياذ بالله، من أجل أن ينالوا حطامًا تافهًا حقيرًا، وتجسسوا لصالح اليهود، نقول لهم: ضعوا أيديكم معهم، واتركوا خلافاتكم جانبًا، كيف يتركون الخلافات؟!

يقول أحدهم أمام الناس جميعًا: صديقي جلعاد، صديقي رابين، ويقبل يد المرأة الكافرة منحنيًا لها تمام الانحناء، وهو الرئيس الكبير، والعياذ بالله، صوره منشورة وما زالت، وهو يقبل اليد، هذا الصديق الذي كان يتمناه، يقولون لأحدهم: جدك كان يتمنى هذا اليوم منذ أربعين سنة أو خمسين سنة، وهو الذي باع القضية وأسلم لهم بلاد المسلمين، نسأل الله العافية.

يقال: لماذا لا تتركون خلافاتكم معهم؟ كالذي يقول: سوف تظلون تختلفون أنتم والشيعة، وأنتم والصوفية، ضعوا هذه الخلافات، كيف ندعها؟!

ندعها بأن نقيم الدين الذي من ضمنه أننا نحب أصحاب النبي ﷺ، نؤمن بالآية: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ

ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠]، ونؤمن بالآية في أننا لا ندع إلا الله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: ١٠٦]، إن أقاموا معنا ذلك فنعم.

إذًا، طريق الاجتماع وعدم التفرق هو أن نجتمع على الدين، على إقامة الدين وعدم التفرق، لا أن نجعل جزءًا من الدين نقيمه، وجزءًا من الدين نتركه، هذا لابد أن يفهمه جيدًا كل مسلم ومؤمن، يعلم ما وجب عليه من اتباع الحق وإقامة الدين وعدم التفرق فيه، لا يحصل ذلك إلا بالاعتصام بحبل الله، بالكتاب والسنة، هذا هو الواجب علينا؛ ولذلك ذكر: (ونهانا عن التفرق في الدنيا بقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والحقيقة أنه في الآية التفرق في الدنيا فيها من باب العموم؛ لأن بحبل الله، القرآن، الاعتصام به يؤدي إلى التوحد في الدنيا، إلى أن تكون الأمة كلها أمة واحدة.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**إِنّهُم مُتفرِّقُون فِي دِينِهِمْ؛ كما قال تعالى:** ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]، **وكذلِك فِي دُنْياهُم، ويروْن أنّ ذلِك هُو الصّوابُ، فأتى بالاجْتِماع فِي الدِّينِ بقوْلِهِ:** ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣]، **وقال تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍۚ﴾ [الأنعام: ١٥٩] **ونهانا عنْ مُشابهتِهِمْ بِقوْلِهِ:** ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، **ونهانا عنِ التّفرُّقِ فِي الدُّنْيا بِقوْلِهِ:** ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣]).

ذكرنا أن الاختلاف المذموم هو ما خالف البينات، وهي النصوص الواضحات من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ الثابتة، وكذلك ما كان من إجماع سلف الأمة، فإن الله لا يجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة: «**لا تَزالُ طائِفةٌ مِنْ أُمّتِي ظاهِرِين على الْحقِّ، لا يضُرُّهُمْ منْ خذلهُمْ، حتّى يأْتِي أمْرُ اللهِ وهُمْ كذلِك**»(١).

ومن أعظم أسباب الاختلاف في الدين: الابتداع، فإن البدعة سبب التفرق؛ ولذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾: «تبْيضُّ وُجُوهُ أهْلِ السُّنّةِ والْائْتِلافِ، وتسْودُّ وُجُوهُ أهْلِ الْبِدْعِ والْاخْتِلافِ»(٢).

وقال النبي ﷺ: «**لتفْترِقنّ أُمّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِين فِرْقةً فواحِدةٌ في الْجنّةِ وثِنْتانِ وسبْعُون فِي النّارِ**». قِيلَ يَا رسُولَ اللّهِ، مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «**الْجَمَاعةُ**»(٣).

وهذه فرق أهل البدعة الضالة المضلة التي أخبر النبي ﷺ أنها في النار؛ وأما أهل السنة فهم الجماعة؛ لأنهم يأمرون بالاجتماع على ما كانت عليه الجماعة الأولى من أصحاب النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان، الواجب أن تجتمع الأمة على نهج واحد وطريق واحد، وهو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، فهذا الذي كانوا عليه هو الدين، وما كان يومئذ دينًا فهو إلى يوم القيامة دين، وما لم يكن يومئذٍ دينًا فليس

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤١) من حديث معاوية رضي الله عنه، ومسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان رضي الله عنه.
(٢) سبق تخريجه (ص٧٨).
(٣) سبق تخريجه (ص٦٠).

دين إلى يوم القيامة أيضًا.

ولذا كان وحدة المنهج مما لا يسع فيه التفرق والاختلاف، أعني بذلك ما اجتمع عليه سلف هذه الأمة، فإذا كانت القرون الثلاثة التي أثنى عليه النبي ﷺ بقوله: «**خيْرُكُمْ قرْنِي، ثُمّ الّذِين يلُونهُمْ، ثُمّ الّذِين يلُونهُمْ**»[(١)] على أمر في العقيدة أو العمل أو السلوك، فهذا واجب الاتباع، لا يسع أحدًا أن يخالفه، وهم في الحقيقة ما أجمعوا إلا على نصوص ومعاني الكتاب والسنة، ما يخترعون من عند أنفسهم أمرًا، وهم أعلم وأفقه في الدين من أن يخترعوا أو يبتدعوا شيئًا لم يأذن به الله ﷻ؛ لذا كان الواجب أن يتمسك الناس في تحقيق الاجتماع في الدين بمنهج السلف ﷺ، وما أجمعوا عليه في العقيدة أو العبادة أو المعاملة أو الخلق أو السلوك، لا يجوز المخالفة في ذلك؛ وأما ما كان قد وسعهم فهو يسعنا كذلك؛ لأن مفهوم الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٥﴾ [آل عمران: ١٠٥]، أنه إن لم تكن بينات فالتفرق واسع إذًا، أعني: أن الاختلاف في هذه الحالة اختلاف سائغ، ولا يزال البشر يختلفون، وقد اختلف أصحاب النبي ﷺ في مسائل أجمعوا على أنه لاينكر على المخالف فيها، كل منهم قال قولاً ولم ينكر على من خالفه، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١، ٣٦٥٠، ٦٤٢٨)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) انظر: فقه الخلاف للشارح - وفقه الله - في تفصيل ممتع شافي في نوعي الخلاف السائغ، وغير السائغ.

لذلك نقول: ليس كل اختلاف مذمومًا، بل هناك من الاختلاف ما هو مذموم ومنه ما هو سائغ غير مذموم، الاختلاف المذموم هو ما كان بعد البينات: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾، وقد ذكرنا أن البينات هي الآيات الواضحات، وكذا أحاديث الرسول ﷺ الصحيحة البينة، وكذا الإجماع والقياس الجلي على هذه الثلاثة كذلك؛ لأنه من الميزان الذي أنزله الله ﷻ ولايكاد قياس جلي على نصوص واضحة يختلف فيه أئمة السلف رضي الله عنهم، إنما يختلفون في الأمور الخفية؛ ولذلك نقول: إن الخلاف بعد البينات هو الخلاف المذموم؛ أما الخلاف فيما لم تأتِ فيه بينات. . . وهل من مسائل الدين ليس فيها بينات؟!

نقول: قد جعل الله سبحانه وتعالى بعض مسائل الدين مما يحتاج إلى اجتهاد وتحر للصواب، وذلك لتفاوت أفهام الناس وتفاوت علومهم واختلاف مشاربهم الأولى التي نشئوا عليها، وبعض النصوص جعلها الله سبحانه وتعالى تحتاج إلى طرق للجمع؛ ليبذل الناس جهدهم في معرفة الحق، ويثاب المجتهدون ومن يتبعهم على بذل الجهد في معرفة الحق، وهو سبحانه وتعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

إذًا نقول: نعم، هناك من مسائل الدين ما يكون الأمر فيه يحتاج إلى اجتهاد؛ دليل ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ۝٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [الأنبياء: ٧٨ - ٧٩].

فأثنى على داود وسليمان بالحكم والعلم، وصوّب سليمان بقوله: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾، فكان الثناء على سليمان عليه السلام بأنه أصاب الحق،

وداود عَلَيْهِ السَّلَامُ على أنه بذل الجهد، وأنه عنده العلم وإن أخطأ في بعض الأمور، والأنبياء قد يقع منهم الخطأ في الاجتهاد، لكن لا يقرون عليه، وقد قال النبي ﷺ في بيان حصول الاجتهاد أيضًا: «**إِذا حكم الحاكِمُ فاجْتهد ثُمّ أصاب فلهُ أجْرانِ، وإِذا حكم فاجْتهد ثُمّ أخْطأ فلهُ أجْرٌ**»(١)، فدل ذلك على أن الاجتهاد خطأ وصواب، وأن هناك من المسائل ما يحتاج إلى اجتهاد؛ وأما المسائل الكبرى من أصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقدره خيره وشره، والإسلام من شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت، وكذا الإحسان: العبادات الكبرى، العبادات العظيمة من عبادات القلب؛ كالإخلاص، والمراقبة لله، أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك(٢).

فهذه الأصول الكبرى مما لا يختلف فيه أهل الإسلام بحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن البينات قد كثرت فيها؛ لذلك نقول: كل مسائل التوحيد والإيمان قد كثر ذكرها في القرآن العظيم مرات عديدة بأوضح الأدلة، لا يخالف فيها إلا مطموس البصيرة، ولا ينحرف فيها عن الحق إلا من اتبع هواه، ليست من المسائل التي لم تجعل عليها أدلة واضحة، وجعلها الشرع إلى اجتهاد المجتهدين؛ ليبذلوا جهدهم ويثابوا على ذلك الاجتهاد؛ إما أجرين، وإما أجرًا واحدًا، فهذا - كما ذكرنا - ليس في المسائل الكبرى، مسائل

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والمعروف بحديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

معرفة الله بأسمائه وصفاته، وتوحيده ﷻ بربوبيته وتوحيده بإلهيته، وأنواع العبادات المخلتفة، والتحاكم إلى شرعه واتباع رسوله ﷺ، والحب في الله والبغض في الله، وموالاة أولياء الله المؤمنين، ومعاداة أعدائه الكافرين، لا تجد المسألة عليها دليل واحد، تكررت مرات بأوضح الآيات البنيات، الذي يخالف بعد ذلك هو إنسان قد طمس الله بصيرته، قد اتبع هواه: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ ذَّٰلِكَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]؛ لذلك أهل البدع ذموا على ذلك؛ لأنهم خالفوا البينات.

نقول: إذًا، الخلاف قبل ورود البينات، قبل أن يأتي الدليل الواضح، اختلاف وسع السلف ﵃، هل هذا الخلاف في حد ذاته رحمة؟

نقول: أصحاب هذا الخلاف مرحومون، ليسوا معاقبين؛ لأنهم بين أجر واحد وأجرين طالما بذلوا الجهد؛ أما من لم يبذل الجهد في معرفة الحق، اكتفى بالتقليد والتعصب الأعمى، فهو مذموم على أي حال، وكذا من حكم بالجهل؛ كما قال النبي ﷺ: «**القُضاةُ ثلاثةٌ: قاضِيانِ فِي النّارِ وقاضٍ فِي الجنّةِ، رجُلٌ قضى بِغيْرِ الحقِّ فعلِم ذاك فذاك فِي النّارِ، وقاضٍ لا يعْلمُ فأهْلك حُقُوق النّاسِ فهُو فِي النّارِ، وقاضٍ قضى بِالحقِّ فذلِك فِي الجنّةِ**»(١)، لم يعلم الحق وقضى، كيف قضى؟ بالتعصب، باتباع الهوى،

---

(١) أخرجه الترمذي (١٣٢٢)، والطبراني في الأوسط (٧/ ٣٩)، والكبير (٢/ ٢١، ١٣/ ١٣١)، والحاكم (٤/ ١٠١، ١٠٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٣٤)، وفي السنن الصغري (٤/ ١٣٦)، وفي الكبري (١٠/ ١٩٩)، والبغوي في شرح السنة (١٠/ ٩٣).

بالتقليد الأعمى، عند ذلك كان في النار؛ لأنه من أين يحلل ويحرم، ويبيح، ويحذر باتباع الهوى، ليس له ذلك.

نقول: هذا الخلاف الواسع السائغ هو ما لا يصادم البينات أصحابه مرحومون، وليس - كما يظن البعض - أن الخلاف في حد ذاته رحمة، وإن كانت بعض عبارات من تقدم من أهل العلم على ذلك، لكن لا يعنون به ما يقصده المتأخرون من (أن الخلاف رحمة) معناه: أن في مسائل الاجتهاد يسع المجتهد أو المقلد أن ينتقي من المذاهب أطيبها وأسهلها عليه، وأن يتتبع الرخص من المذاهب، ويقول: الاختلاف رحمة! ويحتجون بحديث ضعيف باطل: «**اخْتِلافُ أُمّتِي رحْمةٌ**»(١)، وليس كذلك، بل هو من كلام بعض التابعين، وأنه ما سره أن لا يكونوا قد اختلفوا - يعني: أصحاب النبي ﷺ - لأجل أن من اتبع أحد منهم فقد وسعه الأمر، يعني بذلك: من اتبعه الاتباع السائغ؛ وأما أن يكون الاجتهاد هو أن تنتقي من المذاهب ما تريد دون بحث في دليلها وفي أيها أولى بالصواب، وأيها أقرب إلى الحق، فليس هذا بالاجتهاد باتفاق أهل العلم، أعني: أن ينتقي من المذاهب ما يشتهي، يبحث له عن مذهب، يكون الاجتهاد في البحث في بطون الكتب عن آراء توافق أهواء الناس، كما يقع في كثير من المفتين عندما يشق عليه الأمر في المذهب الذي يعمل به أو يراه، فيبحث للناس في المذاهب

---

(١) انظر: (المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة) للسخاوي (٦٩، ٧٠)، قال رحمه الله: (وقد قرأت بخط شيخنا: إنه يعني هذا الحديث حديث مشهور على الألسنة، وقد أورده ابن الحاجب في المختصر في مباحث القياس بلفظ: اختلاف أمتي رحمة للناس، وكثر السؤال عنه، وزعم كثير من الأئمة أنه لا أصل له).

الأخرى ويفتيهم بمقتضى ذلك، ويحلل ويحرم، كما يفعل البعض، يعتقدون مثلاً وقوع الطلاق في الحيض؛ لأن هذا مذهبهم الذي تعلموا به، قالوا: فإذا جاءت الثالثة بحثنا لهم عن مذهب شيخ الإسلام ابن تيمية، وكأن هذا أمر سائغ أنه يعتقد خلافه؛ ولذلك يفتي به مثلاً في الطلقة الأولى والثانية، ثم إذا جاءت الثالثة قال: حتى لا يهدم البيت، حتى لا يخرب الحال بين الزوجين. عجب! الشرع ليس على أهواء الناس، والحلال والحرام لا يختلف حسب إراداتهم، أو أنها الأولى أو الثانية أو نحو ذلك كما يدعي البعض.

نقول: الانتقاء من المذاهب أطيبها، ليس هو الاجتهاد السائغ ولا الاتباع السائغ، وإنما الاجتهاد أن يبذل الجهد في معرفة الدليل والراجح من الأدلة بمقتضى قواعد الاجتهاد المعروفة التي هو قد حصلها، والاتباع السائغ أن يسأل أهل الذكر إن كان لا يعلم، يسألهم عن الذكر؛ كما قال الله ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، فمعناه: أنه إذا أشكل عليه الأمر ولم يدر ما أنزله الله من الذكر، وهو الكتاب والسنة، وكما ذكرنا الإجماع دليل على وجود ذكر، على وجود دليل من الكتاب والسنة؛ لأنه لايجمعون بآرائهم ومن عند انفسهم، وكذا القياس الصحيح، وهو الميزان.

نقول: من لم يدر ما أنزله الله من الذكر، وهو لا يعلمه، فليسأل أهل الذكر عن الذكر، يقول: ما حكم الله ورسوله ﷺ في هذه المسألة؟ ماذا أنزله الله من الكتاب أو ما نزل من السنة؟ وما قاله الرسول ﷺ أو فعله من السنة؟ فيسألهم عن الذكر، لا أن يجتهد بما ييسر به في ظنه على الناس

أمرهم، لا، ليس الأمر كذلك، وإنما يسأل عن الذكر، يسأله عن حكم الشرع، ويسع العامي قول العالم أن هذا هو الشرع، وأن الأمر الفلاني قد أحله الله أو قد حرمه الله، أو قد أوجبه الله وأوجبه رسول الله ﷺ، وهذا في حقه بمنزلة الإخبار عن الدليل، وإن لم يفهم الدليل، فكم من المسلمين ليسوا بأهل العربية، ولا من أهل العلم بالحديث، ولو أخبرهم المجتهد بأنواع الدلالات والاستنباطات، وهم لا يعرفون العربية أصلاً، عامة المسلمين تسعين بالمائة منهم لا يعرفون العربية، فلو أخبرهم لما أطاقوا الفهم، ولما تمكنوا من إدراك الدليل؛ لذلك يُكتفى في حقهم بترجمة العالم عن الدليل، هو الذي علِم هذا أحله الله، هذا حرمه الله.

لم يكن هناك فريق يأخذ بقول ابن عباس ﵄ لا يتعداه، أو بقول عمر ﵁ لا يتعداه، أو قول ابن مسعود ﵁ لا يتعداه، بل كان أصحاب ابن عباس ﵄ ربما سألوا ابن مسعود ﵁، ربما سألوا عائشة ﵂، وهكذا كان كل منهم يأخذ من مجموع العلماء الموجودين في زمنه، ولم يمنع أحد من أحد يأخذ من عالم غير الذي تعلم عليه أول مرة، ولم يكن هناك التعصب المذهبي المذموم الذي نشأ بعد ذلك، فيسع العامي أن يسأل عالمًا أي عالم وفق له، ويسعه أن يسأل هذا مرة وذاك أخرى، ولا يلزمه أن يلتزم قول أهل بلد بعينهم أو أهل مذهب بعينهم، ولكن يسأل العالم عن الذكر الذي هو لايعلمه، فيسأل عنه أهله، كما أمر الله ﷻ.

ثم إذا اختلف على العامي مفتيان عالمان أحدهما أفتاه بالحل وآخر أفتاه بالحرمة مثلاً، فهذا يلزمه أن يقلد أوثقه في نفسه وأعلمهم وأورعهم، وهذا معنى الأوثق، والأعلم: الأورع.

فعند ذلك إذا أفتاه الأعلم الأورع لم يلتفت إلى ما يخالفه، وإذا كان هناك اختلافٌ راجحٌ بمن هو أولى بالعلم وأولى بالورع على حسب ظنه، وما وصل إليه من شهرة بين أهل الخير وأهل الحق وأهل السنة، يثنون على عالم أنه على علم، ويحذرون من آخر أنه على جهل أو على بدعة ونحو ذلك، فإذا فعل ما يستطيعه من الاجتهاد، كان مجتهدًا في طبقته، كان قد بذل ما عليه من بذل الجهد في معرفة الحق، أن يجتهد في التقليد، فهذا مأجور كذلك، وإن كان ما أُفتي به خطأ، والعالِم إذا كان تعمد الخطأ فالإثم عليه، وإذا كان اجتهد فله أجر واحد، كما قال النبي ﷺ، ثم هناك من الاجتهاد والاختلاف ما يكون في حقيقة الأمر مرده إلى التنوع لا إلى التعارض، وهذا نوع آخر من الخلاف غير المذموم، بل في الحقيقة المحمود، أعني: أن كل طائفة من الأمة تتخصص في جانب معين من العلم أو من العمل، تقوم به على أكمل وجه، لو أن الناس تفرقوا فيه الأمة لما استطاعوا الجمع بين أنواع الخير، فهناك من الاختلاف ما مرده إلى التنوع؛ كأنواع القراءات مثلاً، فهذا القارئ يتقن قراءة حفص، والآخر يتقن قراءة ورش، ولا يلزم أن يجمع كل واحد ذلك، فهذا يتقن علم التفسير، وذاك يتقن علم الفرائض، وذاك يتقن علم الحديث، ذاك متخصص في معرفة الحديث الصحيح من الضعيف من العلل من الرجال، وتخصص في ذلك وقضى عمره في هذا، فصار الناس يرجعون إليه في هذا المجال وكذا في الأعمال، فهناك طائفة تجاهد وطائفة تتعلم وتعلم وتفتي، وطائفة تدعو إلى الله، وتحتسب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهكذا، فمثل هذا التنوع الذي لا يكون فيه في الحقيقة تضاد، بل تكامل، إذا كان مبنيًا على

أسس صحيحة شرعًا من أن كل واحد ممن تخصص في باب معين، علم أو عمل، يؤدي فروض العين عليه في الباب الآخر، فلا يكون طالب العلم مضيعًا للجهاد إذا فُرض، فلو نزل العدو ببلد هل يسع طلاب العلم أو العلماء أن يتخلفوا عن الجهاد؟ لايسعهم، كما لا يسع المجاهدين أن يتركوا ما وجب عليهم من أحكام الطهارة والصلاة والصيام، وأحكام الجهاد بالأولى، فإن ذلك فرض عليهم، لا يسعهم أن يجهلوا ذلك، كما يقول البعض مستهزئًا بمن يعلم الناس ويفقههم في دينهم: بأن هذا فقه المسالك البولية! نعوذ بالله، هذا الاستهزاء لايجوز بحال من الأحوال، وكما ذكرنا لا يسع العالم ولا طالب العلم أن يترك ما وجب عليه من الجهاد والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف، إذا تعين عليه ذلك؛ لذلك نقول: شرط أساسي أن من تخصص في علم أو عمل يكون مؤديًا لما وجب عليه من العلوم الأخرى والأعمال الأخرى، لا يكون من تخصص مثلاً أو أتقن علم التجويد والقراءات جاهلاً بالتوحيد، يقع في الشرك والبدع والضلالات المخالفة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع السلف، ويزعم أنه لا دخل له بذلك، لا يسعه أن يكون جاهلاً بالطهارة والصلاة والزكاة التي وجبت عليه، بزعم أنه متخصص مثلاً في المصطلح أو في اللغة أو في النحو أو نحو ذلك.

فهذا شرط أساسي، لابد أن يكون هناك حد أدنى من العلم والعمل، وهو فرض العين، يؤديه كل واحد كان من أهل باب من أبواب الخير، زاده فيه علمه وزاد فيه عمله، حتى صار ينسب إليه، كمن كان من أهل الصلاة أو من أهل الزكاة أو كان من أهل الصيام أو كان من أهل الجهاد؛ لكثرة

علمه أو عمله بهذا الباب، يؤدي فرض العين عليه، ثم لا يتعصب فريق لما يؤديه، وإنما يعلم أنه يكمل الفريق الآخر، فالدعاة إلى الله يكملون ما يقوم به العلماء، العلماء يكملون ما يقوم به المجاهدون، وكذلك كل طائفة من أنواع العلماء تكمل الطائفة الأخرى، وكل منهم يسعى إلى إقامة الدين قدر الممكن والمستطاع، فهذا لا يحل به التعصب لأهل علمه أو عمله دون غيرهم، فيرى أن غيرهم لا أهمية له ولا حظ له، وأننا الذين نعمل، وما نعمله هو الواجب وما سواه لا أهمية فيه، كمن يخرج مثلاً في الدعوة إلى الله، فيرى طلاب العلم والعلماء قد ضيعوا وقد هلكوا وقد خسروا، والأمة كلها تحتاج إلى الخروج والدعوة، أو أن يظن المجاهدون أن أهل العلم وطلاب العلم قد تركوا ما لزمهم، أو أن يكون طلاب العلم يرون المجاهدين جهلة وليسوا على شيء طالما لم يطلبوا العلم، أو أن يكون طلاب الحديث يعظمون طلب علم الرجال، يقضون فيه أعمارهم، ولو قيل لهم في علوم الإيمان وعلوم القلوب، يقول لك: هذا ليس تخصصنا، ونحن إنما نهتم بهذا، وهذا له من الفضل كذا وكذا، ويستهزئون بمن خالف طريقتهم، مثل هذا يكون فيه النقص.

لذلك نقول: شرط ثانٍ في أن يكون الخلاف تنوع، وهو اختلاف محمود بعد أن يقوم كل فرد بفروض الكفاية التي وجبت عليه، ألا يكون هناك تعصب مذموم على الطائفة التي ينتمي إليها، بل لابد أن يكون الولاء على الكتاب والسنة، أن يكون التعاضد والتعاون والتكامل حاصلاً في هذه العلوم والأعمال كلها؛ فلذلك نقول: هذا التفرق ليس مذمومًا إذا كان بهذه الضوابط، بل يسعنا الذي وسع السلف في ذلك، والذي وسع السلف هو

تفرق أصحابه مرحومون بالضوابط الذي ذكرنا؛ وأما التفرق المذموم فهو الذي خالف البينات، كما سبق: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وأن يكون كل أهل محلة يتعصبون لمحلتهم ووطنهم، والمخرج من ذلك في الاعتصام بكتاب الله، وهو حبله المتين: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فالواجب أن يكون المسلمون أمة واحدة، يجمعهم قائد واحد هو الخليفة وأمير المؤمنين في الأرض كلها، والباقون نوابه، وهذا هو الذي يجب أن يسعى إليه المسلمون لا أن يقرروا ويكرسوا واقع التفرق الذي ابتليت به الأمة منذ أزمنة متطاولة، ليس هذا بمأذون فيه؛ كما قال النبي ﷺ: «**إِذا بُويع لِخلِيفتيْنِ فاقْتُلُوا الْآخر مِنْهُما**»[(١)]، وقال: «**مَنْ أَتَاكُمْ وأمْرُكُمْ جمِيعٌ عَلَى رجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أنْ يشُقّ عصاكُمْ، أوْ يُفرِّق جماعتكُمْ، فاقْتُلُوهُ**»[(٢)]، مع أن دم المؤمن أمره عظيم وحرمته شديدة، ومع ذلك من أجل الحرص على وحدة الأمة وعدم تفرقها، أذن النبي ﷺ إن لم يندفع ذلك المُفرِّق للجماعة إذا اجتمعوا على إمام عدل يقوم بالدين، أذن في قتله وأمر بذلك؛ حتى لا تفترق الأمة.

لذلك نقول: فالجماعة هي جماعة الخلافة، هي التي تطيع خليفة واحد، وتسمع له، وتعينه على إقامة ما أوجبه الله؛ لسياسة الدنيا بالدين، وهذا هو الواجب، فالاعتصام المأمور به هو بحبل الله، والاجتماع وعدم التفرق إنما كان لأجل أن يعتصم الناس بحبل الله المتين، وليس لمجرد أن

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٦٠) (١٨٥٢) من حديث عرفجة رضي الله عنه.

يجتمعوا ولو على باطل؛ ولذلك إذا كان الاجتماع على باطل أو منكر، لم يكن اجتماعًا مأمورًا به كاجتماع أهل البدع، فقد اجتمع الخوارج، واجتمع الرافضة، واجتمع أهل البدع مرات عديدة، وكل اجتماع لهم كان مذمومًا، كانوا موزورين غير مأجورين؛ لأجل أنه لم يكن اعتصامًا بحبل الله وكتابه ﷻ وسنة نبيه ﷺ، فإنما نهينا عن التفرق في الدنيا كما نهينا عن التفرق في الدين، فمن يتحمل إثم هذه الفرقة؟

من تفرقوا لأجل العصبية الجاهلية، الذين تفرقوا لأجل أن تكون الكلمة العليا لفلان أو لشيخهم أو لإمامهم، أو أن يكون الحق معهم دون غيرهم، فهذا التعصب المذموم لا شك أنه الذي فعله هو الذي يتحمل ذلك الإثم، وكذلك الذي فرق الأمة بعد أن اجتمعت كلمتها على إمام عدل يقيم الدين، فهذا يأخذ إثم ما وقع من اختلاف وانتهاك حرمات وفساد ذات البين بين المسلمين.

فالواجب على المسلمين أن تكون كلمتهم واحدة، وأن يكونوا كالجسد الواحد، كما أخبر النبي ﷺ؛ ولذلك نقول: إنه ليس كل اجتماع مأمورًا به، بل الاجتماع المأمور به هو ما كان على حبل الله ﷻ؛ كما قال ﷻ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، الاجتماع المأمور به أن يكون على إقامة دين الله ﷻ؛ فأما من اجتمعوا على إقامة دنيا لا يرجعون فيها إلى الدين، فنحن لا نؤمر باتباعهم، بل هم من أسباب فرقة الأمة؛ كما أخبر النبي ﷺ: «**دُعاةٌ على أبْوابِ جهنّم منْ أجابهُمْ إِليْها، قذفُوهُ فِيها**»(١).

(١) سبق تخريجه (ص٧١).

وقد فسر العلماء هؤلاء بأهل البدع إذا خرجوا؛ كالخوارج، والقرامطة، والباطنية حين خرجوا، وكذلك أهل المحنة الذين امتحنوا المسلمين في أيام فتنة الإمام أحمد على مذهب المعتزلة، من القول بخلق القرآن ونحو ذلك، فكان هذا أمرًا مذمومًا، وكان الاجتماع على ذلك اجتماعًا مذمومًا منكرًا، ولايجوز أن يكون الإنسان مع هؤلاء، بل يؤمر باعتزال تلك الفرق الضالة، وليس الأمر باعتزال الفرق باعتزال من تعاونوا على البر والتقوى وسعوا في إقامة الدين، كما يحلو للبعض أن يستدل بحذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ بقوله: «**قال: فاعْتزِلْ تِلْك الْفِرق كُلّها، ولوْ أنْ تعضّ على أصْلِ شجرةٍ، حتّى يُدْرِكك الْموْتُ وأنْت على ذلِك**»، فيحتج به على وجوب ترك الجماعات العاملة في الساحة الإسلامية، والتي هي من أعظم أسباب عودة الأمة إلى دينها واجتماع الناس على كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ، وما اجتمعوا إلا للتعاون على البر والتقوى - أعني من كان منهم كذلك - اجتماع على خير، وإقامة بعض الفروض الكفائية، وإرشاد الأمة إلى ما فيه خيرها، البعض يزعم أن ذلك كله هو اجتماع مذموم، وأنه يجب التفرق، ويلزم الابتعاد عن هؤلاء، ونعوذ بالله من ذلك.

فإن الفرق التي أمرنا باعتزالها هي الفرق المنحرفة، والدعاة على أبواب جهنم، قال: «**فاعْتزِلْ تِلْك الْفِرق. . .**»، فهو اسم إشارة إلى ما قد سبق من التحذير من الدعاة على أبواب جهنم، وهم أهل البدع والضلال، وهؤلاء اجتماعهم وإقامتهم لبدعتهم وضلالهم لا يجعلهم أهل دين، ولا يكونوا أولياء أمر المسلمين، كما قد وقع من وجوه الفرق المنحرفة الضالة، التي قامت في بعض بلاد المسلمين في الماضي، فما عدها أهل العلم ممن تولى

أمر المسلمين، فهل عد المسلمون الدولة الباطنية المسماة بالفاطمية خلافة شرعية يجب التزامها، وكانت تظهر الرفض، وتبطن الكفر المحض؟!

وكذا حين أقام أيضًا الرافضة دولة لهم مدة طويلة تسمى «الدولة الصفوية»، وأقاموا عبر التاريخ مرات دول يؤمر بالاجتماع عليها، أم كانت لأجل البدعة التي اجتمعوا عليها خارجة عن مقصود الإمامة وولاية الأمر من إقامة الدين وسياسة الدنيا بالدين؟!

لا شك أن هذا لم يختلف فيه العلماء من أن هؤلاء لم يتولوا الأمر لإقامة الشرع، بل تولوه لإقامة الضلال والبدعة، وشر منهم من انتسبوا إلى المذاهب المادية الإلحادية؛ كالاشتراكيين، والبعثيين، والشيوعيين، ممن انتسب إلى الإسلام اسمًا وظل على محاربته حقيقة ورسمًا، فكان ما كان من الفساد العريض المنتشر، ومن الناس من يزعم أن هذا لازم الاتباع، وهل أصاب الدين ما أصابه من يوم ألغيت الخلافة الإسلامية على يد هؤلاء العِلمانيين بعد أن تمكنوا من بلاد المسلمين، وتمكن أمثالهم وأشباههم من الأحزاب العلمانية الخبيثة والجماعات المنحرفة، التي اجتمعت لأجل هدم الإسلام في حقيقة الأمر، هل ما أصاب المسلمين إلا من جراء ذلك؟!

لذلك نقول: وهذا الخطر العظيم الذي يؤدي إلى التفرق في الدين في الحقيقة، الخلط بين الدعاة على أبواب جهنم من أهل البدع والضلال ومن أهل حرب الإسلام وأهله، ومن ولّاهم الله أمر المسلمين لإقامة الدين، الذين يقودون الناس بكتاب الله ﷻ.

فوقع هذا الخلل العظيم في فهم كثير من الناس بسبب ذلك؛ بسبب أنهم

جعلوا الدعاة على أبواب جهنم محل من قال النبي ﷺ: «**إنْ أُمِّر عليْكُمْ عبْدٌ مُجدّعٌ - حسِبْتُها قالتْ: أسْودُ - يقُودُكُمْ بِكِتابِ اللهِ تعالى، فاسْمعُوا لهُ وأطِيعُوا. . .**»[1]. فأهملوا تلك القيود الواضحة في الأدلة، وحين أهملوا المقاصد المرعية التي شرعها الله من أجل إقامة الولاية الشرعية، وهو إقامة الدين وسياسة الدنيا بالدين، حين أهملوا هذه القيود جعلوا حتى الكفار أحيانًا ومن يقيمهم الكفار من المنافقين في البلاد التي يحتلونها واجبي الاتباع، حتى صرّح بعض هؤلاء المنحرفين المنافقون بوجوب طاعة الكفار إذا تغلبوا على بلاد المسلمين، ونسأل الله العافية، وهذا والله لم يقله عالم قط، ولا سمعنا بمثله إلا في هذا الزمان الذي نشأت فيه هذه الأقوال العجيبة من لزوم طاعة الكفرة والمرتدين فيما يأمرون به، ومن أقامهم الكفار لينفذوا أغراضهم في بلاد المسلمين، هم شر من الكفار، والعياذ بالله؛ لأنهم المنافقين الذين أظهروا النفاق.

فالخلل العظيم الذي حدث في مثل هذا هو الذي أدى إلى فرقة الأمة واختلاف طوائفها، ونسأل الله العافية.

لذلك في المسألة الثالثة حيث قال: (**إنّ مُخالفة ولِيِّ الْأمْرِ وعدم الانْقِيادِ لهُ فضِيلةٌ**). هذا من اعتقاد أهل الجاهلية، كانوا يأنفون من الطاعة، أن يوجد هناك من يتولى أمرهم، لا توجد قبيلة تسمع لقبيلة أخرى، وإنما كل طائفة تسمع لكبيرها وتأبى أبدًا أن تسمع لغيره، بل هم أيضًا يخالفون كبراءهم في كثير من الأمور، لكن في الجملة كل طائفة ترى أن يرُبّها غير من

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٩٨).

كان من أبنائها - من أبناء قبيلته - ذلك ذل وهوان، فكانوا يرون أن هذه المخالفة فضيلة، وأن السمع والطاعة له ذل ومهانة؛ كما قال صفوان وهو مشرك: «**لأَنْ يرُبّنِي رجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، أحبُّ إليّ مِنْ أنْ يرُبّنِي رجُلٌ مِنْ هوازِن**»[(١)]، القضية عنده: من يكون رئيسًا عليه، أمن هوازن أم من قريش؟ فقال: قريش. ولو كان محمد الذي لم يؤمن به بعد ﷺ أهون عليه من أن يربه ويكون سيده رجل من هوازن، هوازن لا تستحق أن تكون منها من يتولى أمره.

وهكذا وقع الذي وقع في زماننا حين تفرقت بلاد المسلمين؛ لأنه يستحيل أن يكون مثلاً من يتولى الأمر في هذا البلد إلا من كان من أهلها، ويُعطى كل الحقوق ولا يمكن أن يتولى أمرًا من الأمور، زاد الأمر في بعض البلاد حتى صار لا يخطب ولا يؤذن ولا يتكلم في العلم إلا من كان جنسية البلد؛ وأما الولايات الكبرى فعندهم أنها جريمة كبرى أن يتولى أحد له جنسية غير جنسية البلد، وغاب عنهم ما كان من تاريخ الإسلام العظيم الذي تولى فيه من كل الأجناس ومن كل البلاد، الولايات العظيمة بأمر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، حيث جعلوا أهل القرآن وأهل العلم هم أهل مشورتهم.

هذا التعصب الذي وصل إلى أن السمع والطاعة ذل إذا كان لأحد من غيرهم، قال: (**فخالفهُمْ رسُولُ اللهِ ﷺ وأمر بِالصّبْرِ على جوْرِ الْوُلاةِ، وأمر بِالسّمْعِ والطّاعةِ لهُمْ والنّصِيحةِ**)، قال: «**وإِنْ كان فِي الْأرْضِ خلِيفةٌ**:

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

«تسْمعُ وتُطِيعُ لِلأمِيرِ، وإِنْ ضُرِب ظهْرُك، وأُخِذ مالُك، فاسْمعْ وأطِعْ»[١]، نعم. إذا كان هناك نوع من التعدي، ومع ذلك فالسمع والطاعة مقدمة لأجل الحفاظ على كلمة الأمة، ولا يعني ذلك الإقرار بباطلهم أو السكوت على منكرهم، بل يُؤمرون بالمعروف ويُنهون عن المنكر ويُمنعون عن الفساد، ولا يخرج عليهم ما أقاموا الدين، ما كانوا يقودون الناس بكتاب الله.

لذلك نقول: هذا القيد المهم العظيم الأهمية، الذي أهمله كل من يتكلم في هذا الباب بغير علم، وينسب نفسه إلى السلف وإلى أهل السنة، ويزعم أن أهل السنة ألزموا الناس بطاعة من كانوا في الحقيقة من شر أهل البدع والضلال والنفاق، بل والكفر أحيانًا، ومع ذلك فألزموهم بطاعة الدعاة على أبواب جهنم، فهم - كما ذكرنا - أهملوا الأدلة، إنما أمر الله بالطاعة في المعروف وأمر بطاعة من تولى أمر المسلمين ليقودهم بكتاب الله؛ ليقيم فيهم شرع الله ﷻ؛ ليقيم فيهم الدين، لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لابد من القيام بأمر الله، ليس أن يقيموا أمر الشيطان وأمر الطواغيت، وأن يبدلوا شرع الله ﷻ، وأن يوالوا أعداء الله، وأن يهدموا الدين ويحاربوه، ثم بعد ذلك يقال: لابد أن نصبر على الجور، الجور المأمور بالصبر عليه هو ما كان من اعتداء على حقوق شخصية، ومع ذلك لا يُقرون على منكر، بل يُؤمرون بالمعروف ويُنهون عن المنكر، والسمع والطاعة في المعروف، ولا طاعة لمن عصى الله ﷻ، والنصيحة واجبة لا شك في ذلك، وأداء الحقوق إلى أصحابها من أعظم ما تجتمع به كلمة

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٧) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

الأمة بإذن الله ﷻ، وعلى أي حال فلابد من النظر في أمر القدر ة والعجز والمصلحة والمفسدة في هذا المقام، فلو أن بلاد المسلمين قد سقطت في أيدي الأعداء، وعجز المسلمون عن أن يستنقذوها، وجب عليهم أن يأخذوا بالأسباب ولا يعرضوا أنفسهم بالهلاك، كما سقطت مثلاً بلاد الأندلس منذ مئات السنين، ومع ذلك لا يزال المسلمون في عجز عن استخلاصها وردها إلى حظيرة أهل الإسلام، وهم لا ينسون هذه البلاد، ولا يسقطون ما لزمهم من ذلك، لكن حسب القدرة والتمكن، وإلا صبروا واحتسبوا عند الله الأخذ بالأسباب التي تؤدي إلى قوة المسلمين وعودتهم إلى عزهم ومجدهم، والله المستعان.

الْمسْألةُ الثّالِثةُ: إنّ مُخَالَفَة ولِيِّ الْأمْرِ وَعَدَم الانْقِيادِ لَهُ فَضِيلَةٌ، وَالسَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لَهُ ذُلٌّ وَمَهَانَةٌ، فَخَالَفَهُمْ رسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَمَرَ بِالسّمْعِ وَالطَّاعَةِ لهُمْ والنّصِيحةِ[1]، وغلّظ فِي ذَلِكَ وَأَبْدَى وَأَعَادَ.

وَهَذِهِ الْمَسَائِلُ الثّلَاثُ هِيَ الَّتِي جَمَعَ بيْنها فِيمَا صَحَ عنْهُ فِي الصّحِيحِ أنّهُ قَالَ: «إنّ اللّهَ عزّ وجلّ رَضِي لَكُمْ ثلاثًا: رضِي لكُمْ أنْ تعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شيْئًا، وأنْ تعْتصِمُوا بِحبْلِ اللّهِ جمِيعًا، وَلَا تفرّقُوا، وأنْ تنْصحُوا لِمنْ ولّاهُ اللّهُ أمْركُمْ»[2]، ولمْ يقعْ خللٌ فِي دِينِ النّاسِ ودُنْياهُمْ إلّا بِسببِ الْإِخْلالِ فِي هَذِهِ الثّلَاثِ أَوْ بعْضِها.

الشـــرح:

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (**الْمسْألةُ الثّالِثةُ: إنّ مُخالفة ولِيِّ الْأمْرِ وعدم الانْقِيادِ لهُ فضِيلةٌ، والسّمْع والطّاعة لهُ ذُلٌّ ومهانةٌ، فخالفهُمْ**

(١) انظر معنى النصيحة في: النهاية في غريب الأثر (٥/ ٦٢)، ولسان العرب (٢/ ٢١٧)، ومختار الصحاح (ص٢٧٦).

(٢) أخرجه مالك في الموطا (٣/ ٩٩٠)، وأحمد (١٤/ ٧٨، ٣٩٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٤٢)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٦٨٧، ٦٨٦)، وابن حبان (٨/ ١٨٢، ١٠/ ٤٢٣، ١٣/ ٢٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٤٩، ٩/ ٤٩٥، ١٠/ ٥)، وفي الأسماء والصفات (٢/ ٤٧٣)، وأصله في مسلم (١٧١٥) بلفظ: «**إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ**» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رسُولُ اللهِ ﷺ، وأمر بِالسّمْعِ والطّاعةِ لهُمْ والنّصِيحةِ، وغلّظ فِي ذلِك وأبْدى وأعاد). كما ذكرنا أن من تولى أمر المسلمين إما باختيار أهل الحل والعقد له، أو باختيار من توجب بيعته له شوكة وقوة وطاعة في الناس، مثل بيعة عمر وأبي عبيدة لأبي بكر رضي الله عنهم، فترتب على ذلك أن أطاع الأنصار وأطاع المهاجرون، والتزموا ذلك كله، أو بيعة من جعل الإمام السابق الأمر فيهم شورى، كما فعل عمر رضي الله عنه، إذا بايعوا واحدًا هو أهل لتولي الأمور، أو إذا عهد ولي الأمر والخليفة لرجل صالح للإمامة من بعده، ونصح في ذلك للأمة، ولم يعترض على ذلك أهل الحل والعقد، وأمضوا ذلك، وعند أكثر أهل العلم تجب البيعة منهم له بمجرد العهد، طالما كان أهلاً للإمامة، وكذلك إذا تغلب رجل بسيفه وقام بأمر الله سبحانه وتعالى، حتى وإن كان غيره أولى منه، بل حتى وإن كان يجور في بعض حكمه، لكنه كان قائمًا بدين الله سبحانه وتعالى، فبذلك يصبح ولي أمر للمؤمنين، وتجب الطاعة له فيما له أن يأمر به وفيما عليه أن يأمر به، وذلك في إقامة الدين وسياسة الدنيا بالدين، فالسمع والطاعة في ذلك لكل من ثبتت ولايته بما سبق واجبة، وذلك لأجل المصالح العظيمة التي تترتب على إقامة الخلافة والدولة الإسلامية، التي كلفت بتكاليف شرعية كثيرة، كأمة لا يمكن أن تقوم بها إلا من خلال السلطان، وإلا من خلال الحكم الذي يجب أن يكون للقيام بأمر الله سبحانه وتعالى؛ كما قال النبي ﷺ: «**إنْ أُمِّر عليْكُمْ عبْدٌ مُجدّعٌ - حسِبْتُها قالتْ: أسْودُ - يقُودُكُمْ بِكِتابِ اللهِ تعالى، فاسْمعُوا لهُ وأطِيعُوا...**»[1]، فهذه الأوامر مع أمر النبي ﷺ بالصبر على أميره إذا رأى منه شيئًا، فقال: «**منْ رأى مِنْ أمِيرِهِ**

---

(١) سبق تخريجه (ص ٩٦).

شيْئًا يكْرهُهُ، فلْيصْبِرْ»(١)، فهذا بعد ثبوت الولاية، وهي - كما ذكرنا - إما بالعقد أو بالعهد، أو بالتغلب، وشرط ما ذكرنا أن يكون قائمًا بأمر الله ﷻ فإذا وجد منه بعض الخلل، فلابد أن ينظر في قدر هذا الخلل؛ حتى لا تقاد الأمة إلى مذابح وفتن ومفاسد عظيمة، إذا أبيح لكل من رأى خللاً أن يضرب الناس بسيفه، فيترتب على ذلك من الفساد ما يزيد أضعافًا مضاعفة على ما كان قد وقع من بعض الأئمة من الجور والفساد، ومبنى هذه المسألة - كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - على مراعاة المصالح والمفاسد(٢)

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٣)، ومسلم (١٨٤٩).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ١٢، ٢/ ٢١٦، ٢٨/ ١٢٩) قال رحمه الله: (وَقَدْ تَكَلَّمْت عَلَى قِتَالِ الْأَئِمَّةِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. وَجِمَاعُ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي الْقَاعِدَةِ الْعَامَّةِ: فِيمَا إذَا تَعَارَضَتْ الْمَصَالِحُ وَالْمَفَاسِدُ وَالْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ أَوْ تَزَاحَمَتْ؛ فَإِنَّهُ يَجِبُ تَرْجِيحُ الرَّاجِحِ مِنْهَا فِيمَا إذَا ازْدَحَمَتْ الْمَصَالِحُ وَالْمَفَاسِدُ وَتَعَارَضَتْ الْمَصَالِحُ وَالْمَفَاسِدُ. فَإِنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَإِنْ كَانَ مُتَضَمِّنًا لِتَحْصِيلِ مَصْلَحَةٍ وَدَفْعِ مَفْسَدَةٍ فَيُنْظَرُ فِي الْمُعَارِضِ لَهُ فَإِنْ كَانَ الَّذِي يَفُوتُ مِنْ الْمَصَالِحِ أَوْ يَحْصُلُ مِنْ الْمَفَاسِدِ أَكْثَرَ لَمْ يَكُنْ مَأْمُورًا بِهِ؛ بَلْ يَكُونُ مُحَرَّمًا إذَا كَانَتْ مَفْسَدَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ مَصْلَحَتِهِ؛ لَكِنَّ اعْتِبَارَ مَقَادِيرِ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ هُوَ بِمِيزَانِ الشَّرِيعَةِ فَمَتَى قَدَرَ الْإِنْسَانُ عَلَى اتِّبَاعِ النُّصُوصِ لَمْ يَعْدِلْ عَنْهَا وَإِلَّا اجْتَهَدَ بِرَأْيِهِ لِمَعْرِفَةِ الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ وَقُلْ إنْ تعوز النُّصُوصَ مَنْ يَكُونُ خَبِيرًا بِهَا وَبِدَلَالَتِهَا عَلَى الْأَحْكَامِ. وَعَلَى هَذَا إذَا كَانَ الشَّخْصُ أَوْالطَّائِفَةُ جَامِعَيْنِ بَيْنَ مَعْرُوفٍ وَمُنْكَرٍ بِحَيْثُ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَهُمَا؛ بَلْ إمَّا أَنْ يَفْعَلُوهُمَا جَمِيعًا؛ أَوْ يَتْرُكُوهَا جَمِيعًا: لَمْ يَجُزْ أَنْ يُؤْمَرُوا بِمَعْرُوفٍ وَلَا أَنْ يُنْهُوا مِنْ مُنْكَرٍ؛ يَنْظُرُ: فَإِنْ كَانَ الْمَعْرُوفُ أَكْثَرَ أَمَرَ بِهِ؛ وَإِنْ اسْتَلْزَمَ مَا هُوَ دُونَهُ مِنْ الْمُنْكَرِ. وَلَمْ يَنْهَعَنْ مُنْكَرٍ يَسْتَلْزِمُ تَفْوِيتَ مَعْرُوفٍ أَعْظَمَ مِنْهُ؛ بَلْ يَكُونُ النَّهْيُ حِينَئِذٍ مِنْ بَابِ الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالسَّعْيِ فِي زَوَالِ طَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ وَزَوَالِ فِعْلِ الْحَسَنَاتِ وَإِنْ كَانَ الْمُنْكَرُ أَغْلَبَ نَهَى عَنْهُ؛ وَإِنْ اسْتَلْزَمَ فَوَاتَ مَا هُوَ دُونَهُ مِنْ الْمَعْرُوفِ. وَيَكُونُ الْأَمْرُ بِذَلِكَ الْمَعْرُوفِ الْمُسْتَلْزِمِ لِلْمُنْكَرِ الزَّائِدِ عَلَيْهِ أَمْرًا بِمُنْكَرٍ وَسَعْيًا فِي =

وقد نص أهل العلم على أنه إذا جار والي الوقت وظهر ظلمه وغشمه، ولم ينزجر حين زجر عن سوء صنيعه، أن لأهل الحل والعقد التواطئ على خلعه وإقامة غيره مكانه، وقد ذكر ذلك الجويني ﷺ وقال: (**ولو بنصب الحروب وشهر السلاح**)، قال النووي معلقًا على كلامه: (**وذلك الذي ذكره من نصب الحروب وشهر السلاح غريب - نعم غريب؛ لأنه مخالف للأحاديث التي وردت بالصبر -، لكنه محمول على ما إذا خيفت فتنة وفساد أكبر**)[(١)].

وهذا الذي قاله النووي هو قول جميع أهل العلم، لا يرون أن الفساد مطلق في باب معين، بل ربما كان في ترك المفسد المعتدي الذي يكون فساده أكبر من صلاحه، من ضياع الدين والدنيا ما يزيد على مفسدة ما قد يقع أثناء الحروب، فلابد من تقدير المصلحة والمفسدة، وتقدير القدرة

= مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَإِنْ تَكَافَأَ الْمَعْرُوفُ وَالْمُنْكَرُ الْمُتَلَازِمَانِ لَمْ يُؤْمَرْ بِهِمَا وَلَمْ يُنْهَ عَنْهُمَا. فَتَارَةً يَصْلُحُ الْأَمْرُ؛ وَتَارَةً يَصْلُحُ النَّهْيُ؛ وَتَارَةً لَا يَصْلُحُ لَا أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ حَيْثُ كَانَ الْمَعْرُوفُ وَالْمُنْكَرُ مُتَلَازِمَيْنِ؛ وَذَلِكَ فِي الْأُمُورِ الْمُعَيَّنَةِ الْوَاقِعَةِ).

(١) انظر: شرح النووي على مسلم (٢/ ٢٥) قال ﷺ: (قَالَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَيَسُوغُ لِآحَادِ الرَّعِيَّةِ أَنْ يصد مرتكب الكبيرة ان لَمْ يَنْدَفِعْ عَنْهَا بِقَوْلِهِ مَا لَمْ يَنْتَهِ الْأَمْرُ إِلَى نَصْبِ قِتَالٍ وَشَهْرِ سِلَاحٍ فَإِنِ انْتَهَى الْأَمْرُ إِلَى ذَلِكَ رَبَطَ الْأَمْرَ بِالسُّلْطَانِ قَالَ وَإِذَا جَارَ وَالِي الْوَقْتِ وَظَهَرَ ظُلْمُهُ وَغَشْمُهُ وَلَمْ يَنْزَجِرْ حِينَ زُجِرَ عَنْ سُوءِ صَنِيعِهِ بِالْقَوْلِ فَلِأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ التَّوَاطُؤُ عَلَى خَلْعِهِ وَلَوْ بِشَهْرِ الْأَسْلِحَةِ وَنَصْبِ الْحُرُوبِ هَذَا كَلَامُ إِمَامِ الْحَرَمَيْنِ وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ مِنْ خَلْعِهِ غَرِيبٌ وَمَعَ هَذَا فَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى مَا إِذَا لَمْ يُخَفْ مِنْهُ إِثَارَةُ مَفْسَدَةٍ أَعْظَمَ مِنْهُ قَالَ وَلَيْسَ لِلْآمِرِ بِالْمَعْرُوفِ الْبَحْثُ وَالتَّنْقِيرُ وَالتَّجَسُّسُ وَاقْتِحَامُ الدُّورِ بِالظُّنُونِ بَلْ إِنْ عَثَرَ عَلَى مُنْكَرٍ غَيَّرَهُ جَهْدَهُ هَذَا كَلَامُ إِمَامِ الْحَرَمَيْنِ).

والعجز في ذلك، وليس الأمر مطلقًا كما يظن البعض، ولا يختلف أهل العلم في أن من خرج من السلف ﵃ على ولاة ظلمة في ذلك الوقت، رغم ثبوت إمامتهم؛ إما بعهد، وإما بتغلب أو بالاثنين معًا، أنهم مجتهدون فيما فعلوا، أعني: لا يختلفون أن الحسين بن علي ﵄، رغم تخطئة من خطأه من الصحابة ﵃ ومن بعدهم، وتصويب من صوبه، لا يختلفون أنه مجتهد ولايذمونه على ذلك، بل يشهدون له بالجنة.

ولا نعلم أحدًا من أهل السنة ذم الحسين ﵁، أقصى ما كان يفعله أنه كان يخطأه، وكذلك عامتهم يرون عبد الله بن الزبير ﵄، وإن كان قد امتنع من بيعة يزيد حين بويع له بالعهد من معاوية ﵁، فامتنع عبد الله بن الزبير ﵄ وأبى البيعة، وانتظر حتى مات يزيد بعد أن قتل الحسين ﵁ بمدة وجيزة، فبايعه الناس، ولولا تمكن عبد الملك من بني أمية بجيوشه بالغلبة بالسيف بعد قتل الحجاج لعبد الله بن الزبير، لما تغير وصفهم، إنما تغير وصفهم بالتغلب، فصار عبد الملك بن مروان أميرًا للمؤمنين بتغلب جيوشه بقيادة الحجاج، وقتل عبد الله بن الزبير ﵄ مظلومًا، وقد كان في وقته أمير المؤمنين.

وكذلك نقول: علماء أهل السنة يرون سعيد بن جبير ﵁ عدلاً مجتهدًا إمامًا في الدين رغم ما وقع منه، حتى قتله الحجاج أيضًا مظلومًا، وليس من الخوارج كما يزعم البعض بكل من وقع منه مثل ذلك.

فلماذا اعتبر هؤلاء جميعًا مجتهدين؟

اعتبروا كذلك؛ لأجل أن المسألة تدور عند السلف بين المصلحة

والمفسدة، والعبرة بضبط ذلك بضوابط الشرع، وقد يقع اختلاف في الاجتهاد في ذلك، فلا يكون ذلك قادحًا في عدالة ولا منهج من وقع منه الخطأ، كما ذكرنا في شأن الحسين بن علي رضي الله عنهما، هو مع أخيه الحسن سيدا شباب أهل الجنة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم[١]، فالمقصود أن طاعة من ولاه الله أمر المسلمين في الأصل واجبة، وإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة، ولا يجوز الخروج على من ثبتت ولايته لمجرد وجود مخالفة إلا أن تزيد مفسدة تركه على مفسدة الخروج عليه، فلابد أن يقاس ما الناس إليه مدفوعون من المصلحة والمفسدة، فإذا كان هناك فساد أكبر، وهذا هو الأغلب، وخصوصًا مع تمكن القائمين، إذا كان هناك فساد أكبر وأغلب بالخروج - وهذا هو الأغلب كما ذكرنا -، كان الخروج محرمًا منهيًا عنه، ويؤمر الناس بالصبر، وأما مع وجود أعظم المفاسد كالكفر فلابد أن ينظر في القدرة والعجز، وهذا في حقيقة الأمر أيضًا راجع إلى المصلحة والمفسدة من وجه، ومن جهة التكليف من وجه آخر، أعني: لو أُمِر الناس أن يخرجوا على كافر قد تمكن من بلاد الإسلام، وهم آحاد مصطلمون، يبادون، إذا خرجوا آحادًا أو طوائف صغيرة، فإن هذا من الفساد، كما أنه ليس مما يُكلف به المسلمون، حتى مع الكفار في أي معركة، أو في موضع

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٣٧٦٨)، وابن ماجه (١١٨)، والنسائي في الكبرى (٨٢٤٠)، وأحمد (١٧/ ٢١، ١٨/ ١٣٨، ١٦١، ٣٠١، ٣٨/ ٣٥٤، ٣٥٥)، وابن حبان (١٥/ ٤١٢، ٤١٣)، والطبراني في الأوسط (١/ ١١٧، ٢/ ٣٤٧، ٤/ ٣٢٥)، وفي الكبير (٣/ ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٥٧، ١٩/ ٢٩٢، ٢٢/ ٤٠٢)، والحاكم (٢/ ١٨٢، ٣/ ٤٢٩)، والبغوي في شرح السنة (١٤/ ١٣٨).

غلب على الظن هزيمة المسلمين من غير إحداث نكاية في العدو، فإن ذلك من الإلقاء بالنفس إلى التهلكة؛ أما إذا كان فيه مصلحة من تقوية قلوب المؤمنين، وإحداث النكاية في قلوب الكافرين، وكسر شوكتهم، ورد الناس إلى دينهم وطاعة ربهم ﷻ، فذلك مشروع بلا شك، ولو قتل من قتل من المسلمين؛ لذلك يحتاج الأمر إلى بصيرة وفقه بمواطن الصلاح والفساد، وموازين الصلاح والفساد، كثرة وقلة، قوة وضعفًا، بميزان الشريعة وليس بمجرد اتباع الهوى وادعاء العلم، وتجهيل أو تخطئة من يخالف في ذلك، فالباب من أخطر الأبواب، لكن في الجملة كما ذكرنا، القواعد الكبرى لشرع الله سبحانه وتعالى التي مبناها على الكتاب والسنة، فيما ذكر الشيخ رحمه الله في الصبر وعدم المخالفة والسمع والطاعة والأمر بالسمع والطاعة في طاعة الله ﷻ مع المناصحة، وإذا كانت نصيحة العالم مِن صفة الأمة الإسلامية، فكيف بمن ولاه الله أمرهم؟!

لذلك تكررت النصوص في لزوم الجماعة وعدم المخالفة، وفي التأكيد على بذل النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم، كما جعل ذلك النبي ﷺ هو الدين، فقال: «**الْدينُ النصيحةُ**، قُلْنا: لِمنْ يَا رسُول اللَّهِ؟ قال: «**لِلَّهِ، ولِكِتابِهِ، ولِرسُولِهِ، ولأئِمّةِ المْسْلِمِين، وعامّتِهِمُ**»(١).

قال الشيخ: (**وهذِهِ الْمسائِلُ الثّلاثُ...**) يعني: المسائل الثلاثة السابقة، المسألة الأولى التي خالف فيها النبي ﷺ أهل الجاهلية: أنهم

(١) أخرجه مسلم (٥٥)، من حديث تَمِيْم بْنِ أَوْسٍ الْدّارِيّ رضي الله عنه، وأخرجه البخاري معلقًا في كتاب الإيمان - باب قول النبي ﷺ: الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

يتعبدون بإشراك الصالحين في دعاء الله وعبادته يريدون شفاعتهم عند الله، والمسألة الثانية: أنهم متفرقون في دينهم، ونهانا عن مشابهتهم في التفرق في الدين، وقد تكلمنا عن أسباب التفرق وأنواعه، وخصوصًا فيما يتعلق بأنواع البدع، والمسألة الثالثة: مسألة مخالفة ولي الأمر وعدم الانقياد له، وشهود أن ذلك فضيلة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وهذِهِ الْمسائِلُ الثّلاثُ هِي الّتِي جمع بيْنها فِيما صح عنْهُ فِي الصّحِيحِ أنّهُ قال: «إِنّ اللّه رضِي لكُمْ ثلاثًا: رضِي لكُمْ أنْ تعْبُدُوهُ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شيْئًا، وأنْ تعْتصِمُوا بِحبْلِ اللّهِ جمِيعًا، ولا تفرّقُوا، وأنْ تنْصحُوا لِمنْ ولّاهُ اللّهُ أمْركُمْ»، ولمْ يقعْ خللٌ فِي دِينِ النّاسِ ودُنْياهُمْ إِلّا بِسببِ الْإِخْلالِ فِي هذِهِ الثّلاثِ أوْ بعْضِها**).

«**إِنّ اللّه رضِي لكُمْ ثلاثًا: رضِي لكُمْ أنْ تعْبُدُوهُ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شيْئًا...**» هذه هي المسألة الأولى التي خالف النبي ﷺ فيها أهل الجاهية؛ لأنهم يعبدون غير الله، وأنهم يشركون بالله ﷻ، يعبدون الملائكة والصالحين؛ اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى على أن شفاعتهن ترتجى، فخالفهم الرسول ﷺ وأمر بعبادة الله وحده لا شريك له.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وأنْ تعْتصِمُوا بِحبْلِ اللّهِ جمِيعًا، ولا تفرّقُوا...**»، أمر بالاعتصام بحبله، وهو الوحي المنزل من عنده والسنة الثابتة عن رسوله ﷺ وطريق المؤمنين الواحد، أي: إجماع الأمة الإسلامية، إجماع أهل العلم على أمر من الأمور، فإن ذلك هو العصمة؛ لأن الله عصم الأمة أن تكون جميعًا على ضلالة، بل لا تزال طائفة منها على الحق ظاهرين، لا يضرهم

من خالفهم أو خذلهم حتى تقوم الساعة[١].

فأمر بالاعتصام بحبل الله جميعًا ونهى عن التفرق، فقال: «**ولا تفرقوا**» وهذا يدل على لزوم جماعة أهل السنة، ولزوم جماعة الخليفة الذي اجتمع المسلمون على إمامته وخلافته، فهذا كله واجب.

والثالثة: «**وأنْ تنْصحُوا لِمنْ ولّاهُ اللّهُ أمْركُمْ**»، وهذا بذل الحق لكل من تولى أمرًا من أمور المسلمين، وذلك بموافقته والسمع والطاعة له فيما أمر به من طاعة الله ﷻ، وكما ذكرنا إن كان عدلاً قائمًا بكتاب الله، وجبت طاعته فيما لا يعلم أنه معصية، وذلك لأنه في الأصل إذا كان عدلاً عالمًا مجتهدًا قائمًا بالدين، فإنه يعلم ما له أن يأمر به، وما ليس له أن يأمر به، فإذا أمر الناس بأمر فلابد أن يكون ذلك عن اجتهاد فيما يسعه أن يأمر فيه، وإن كان لا يسع كل واحد أن يتوقف حتى ينظر أهذا من الطاعة، أم لا؟

نقول: إذا كان عدلاً قائمًا بالحق، وجبت طاعته فيما لا يعلم أنه معصية؛ لأنه في الأصل أنه يعلم ما يجوز له أن يأمر به، وما لا يجوز له، فإذا أمر بأمر فلابد أنه عن اجتهاد لتحصيل مصلحة لا تحصل إلا بهذا الأمر، فهذا هو الواجب أن يُطاع، وإما إذا لم يكن عدلاً فلا تجب طاعته إلا فيما علم أنه طاعة؛ لأنه بفسقه أو بجهله - إذا كان جاهلاً ولم يرجع إلى أهل العلم، أو إذا كان فاسقًا أو مبتدعًا - فإنه لا يُعلم أنه قد اجتهد، وليس له الأوصاف الجامعة للاجتهاد في تلك الحالة، لا يعلم أن اجتهاده ذلك لإقامة واجب شرعي من واجبات الأعيان أو لإقامة فرض من فروض

(١) كما في الحديث الذي سبق تخريجه (ص ٦).

الكفاية؛ لأن حاله ذلك منع من أن تحمل أموره كلها على السلامة؛ فلذلك إنما لزمت الطاعة في المعروف، والنبي ﷺ قال: «**إنّما الطّاعةُ فِي الْمعْرُوفِ**»[(١)]، وهذا حصر، والمعروف: ما عرف في الشرع حسنه، وهذا إنما يكون بما أمر الله ﷻ به للفرد أو للطائفة أو للأمة، أي ما يقول عنه العلماء فرض العين وفرض الكفاية؛ وأما ما لم يُعلم كذلك فليس له أن يأمر بمباحات يجعلها واجبات، أو ينهى عن مباحات يجعلها محرمات، ليس له ذلك إلا إذا كان لا يتم الواجب إلا بفعل هذا المباح، وهذا أمر مرده إلى أهل العلم إن لم يكن ولي الأمر من أهل العلم ومن أهل العدل كذلك، وهذا مأخوذ من عموم قوله ﷺ: «**إنّما الطّاعةُ فِي الْمعْرُوفِ**»، وكذلك من مفهومه، فإنما وجبت الطاعة على المؤمنين لمن ولاه الله أمرهم فيما ولي الأمر من أجله، مثلاً: إذا أمر رجلاً أن يُطلق امرأته، لم يكن له ذلك إلا لسبب شرعي، مثل أن يكون مضارًا لها، مثل أن يكون مُوليًا، فإما أن يطلق وإما أن يفيء، حلف ألا يطأها أربعة أشهر، فإذا أوقف بين يدي القاضي أو الحاكم، فيلزمه بالطلاق؛ لأنه قد مرت أربعة أشهر ولم يعد، وكذلك إذا كان يضربها أو يشتمها بغير حق، أو أنه يضربها ضربًا مبرحًا، أو يمتنع من النفقة أو نحو ذلك، فيلزمه القاضي أو الحاكم أو ولي الأمر بأن يطلق، لكن إن لم يكن عدلاً ولم يكن قائمًا بالشرع، فأمر رجلاً بطلاق امرأته لم يلزمه ذلك، ولا يسعه أن يأمر بمثل ذلك، وإنما هذا من اتباع الهوى، كما لو أمر رجلاً مثلاً بالخروج من ماله، فإن ذلك لا يلزمه أن يطيع فيه، وكذلك إذا أمره بأمر أو نهاه عن أمر هو مما أحله الله ﷻ له، فليس له أن يفعل ذلك،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠) من حديث علي رضي الله عنه.

وليس على الناس أن يطيعوا في مثل ذلك، كما قد وقع من قديم ومن حديث مثلاً أن نهي الناس أن يزوجوا بناتهم دون سن الثامنة عشرة مثلاً أو قبل ذلك دون سن السادسة عشرة، وهو أمر مباح بنص كتاب الله وسنة النبي ﷺ وإجماع أهل العلم، ولو وقع من بعض من ينتسب إلى الدين الموافقة على ذلك، أو حتى من بعض أهل العلم أنهم رأوا أن تقييد المباح مطلقًا لولي الأمر، فهذا الكلام لا يلزم شرعًا؛ لأن ذلك ولو كانت قد ثبتت الولاية، ومع ذلك فليس له أن يأمر بمثل ذلك، وهو تجاوز منه طالما لم يتوصل الناس بذلك إلى محرم، فلا يصبح هذا المباح شرعًا محرمًا في دين الله ﷻ بنهي ولي الأمر عن ذلك، وإنما يكون واجبًا في المعروف لا فيما ليس بمعروف، فليس حسنًا في شرع الله ولا معروفًا في شرع الله أن يمتنع الرجل من تزويج ابنته، أو ممن تقدم لها إذا كانت دون سن معين، وهكذا أيضًا في كثير من الأمور التي قد ينهى الناس عنها من إقامة في مكان ما، أو من ترك فعل معين أو نحو ذلك، وفي بعض البلاد قد يمنع الرجل من أن يتزوج بأخرى إذا لم تأذن له امرأته الأولى أو توافق على ذلك، وذلك لا يجعل الأمر محرمًا وغير ذلك، ولو كان في بعض ذلك نوع من التأويل أو نوع من الجهل أو نوع من المخالفة لصريح الأدلة بأدلة ضعيفة أو نحو ذلك، قد يكون ذلك داخلاً في دائرة من العذر، ولكن لا يعني ذلك لزوم مثل هذه الأوامر، ومع هذا كله لابد من المناصحة، ولا تلزم الطاعة في تلك الحالة، وإنما تلزم في باقي الأحوال فيما أمروا به من طاعة الله ﷻ، وما أمروا به من الأمور المشروعة لإقامة الدين فيطاعون في ذلك وإن لم يطاعوا في غيره، ولا نزاع بين أهل السنة أن من أمر بمعصية الله لا سمع له ولا طاعة.

يبقى بعد أن قرر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه المسائل، والمسألة الثالثة خصوصًا، يبقى أن يُقال: فلماذا كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُقاتل مِنْ منْ وقعوا في الشرك دون إذن من الإمام القائم والسلطان الخليفة العثماني في ذلك الوقت، بل كان هذا رغمًا عنهم في كثير من الأحيان، هو ومن تبعه ومن كان بعده من علماء الدعوة وأئمتها والسلاطين الذين بايعوهم على ذلك؟

نقول في هذا: إن الرسول ﷺ قد رتب هذه المسائل هذا الترتيب الرائع العظيم: «**إِنّ اللّه رضِي لكُمْ ثلاثًا: رضِي لكُمْ أنْ تعْبُدُوهُ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شيْئًا، وأنْ تعْتصِمُوا بِحبْلِ اللّهِ جمِيعًا، ولا تفرّقُوا، وأنْ تنْصحُوا لِمنْ ولّاهُ اللّهُ أمْركُمْ**».

نقول: كان الشيخ في حقيقة الأمر ناصحًا لأمته - حين دعا إلى التوحيد - أعظم نصيحة، بل كان في حقيقة الأمر ناصحًا لولاة الأمر، حتى وإن لم يإذنوا في محاربة الشرك، وقد تمكن رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ذلك، وتمكن بالدعوة أولاً، رغم أنه شُنعت على دعوته الشائعات الباطلة من أنه من الخوارج، وأنه يكفر المسلمين، وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان لا يكفر إلا من قامت الحجة عليه، وثبت ارتكابه للكفر، واستوفيت الشروط وانتفت الموانع، وكان يدعو إلى ذلك باللسان، ولما مكنه الله ﷻ بمتابعة بعض أهل الشوكة والقوة، وهو الإمام محمد بن سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ، صار ينهى عن ذلك أيضًا بالقوة والسنان، وصار يهدم القباب والقبور المشرفة التي أمر الرسول ﷺ بهدمها، وذلك للنهي عن الشرك الواقع حولها، فقويت دعوته وانتشرت في الآفاق، ووصل إلى

السلاطين العثمانيين من ذلك ما ساءهم، وقد كان يُلبس عليهم كثيرًا من علماء سوء ينشرون الفساد باسم الصلاح، ويقولون عن دعوة الحق أنها دعوة الخوارج، وأنها تكفر المسلمين، فضلاً عن الأكاذيب التي كانت تكذب عن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو في حقيقة الأمر لم يدّعِ خلافة ولم يدْعُ إلى خلافة، وإنما كان يدعو إلى إقامة الدين؛ لأن عبادة الله وحده لا شريك له، والتزام منهج أهل السنة والجماعة مقدم في كلام النبي ﷺ على مناصحة ولاة الأمور والسمع والطاعة لهم.

بل في حقيقة الأمر - كما ذكرنا - أن النصح الحقيقي كان لهؤلاء بأن دعا إلى التوحيد ونهى عن الشرك، قبلوا أم لم يقبلوا، وكذلك نقول: إن من نهى عن محاربة الشرك، وأمر الناس بالسكوت على ذلك، كان أمره ذلك منكرًا وكان معصية، يجب على من قدر على مخالفتها أن يخالفها، وأن يأمر بالمعروف الذي رأسه التوحيد، وأن ينهى عن المنكر الذي رأسه الشرك، وأمر ولي الأمر بالسكوت عن المنكرات والشركيات والضلالات والبدع المنكرات هو من المنكرات، وتأكيده لبقاء مظاهر الشرك ومدافعته عنها هو من المنكرات، إن كان معتقدًا صحة ذلك، يُنظر في استيفاء الشروط وانتفاء الموانع؛ وأما أن ذلك يغير من الواجب الشرعي شيئًا فلا يغير؛ لأن الواجب هو إقامة دين الله ﷻ بعبادته وحده لا شريك له، فالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ رأى أن إقامة الدين مقدم على مسألة الطاعة، وهذا مما لا شك فيه، أن إقامة التوحيد والنهي عن الشرك مقدم على مسألة السمع والطاعة؛ ولذا لم يستأذن ابتداءً، ولا شك أنه لم يستأذن، أقصى ما يُذكر في الجواب عن هذه

المسألة أن وضع نجد في ذلك الوقت كان كأنه بلا إمارة، وإن كان في حقيقة الأمر أنه كان جزءًا من الدولة العثمانية، والشيخ لم يستأذن في إقامة الدعوة، ولم يستأذن حتى في هدم القباب من أحد، لا من أمراء الأحساء ولا من أمراء الحجاز الذين كانوا يتولون الأمر باسم الخلافة العثمانية، وهذا الذي هيج عليه جيوش العثمانيين وأرسلوا إلى (محمد علي) لكي يحارب دعوة الشيخ بعد وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد وقع ذلك، وتم لهم مؤقتًا ما أرادوا من إيقاف الدعوة ظلمًا وعدوانًا، وليس ذلك بالعدل ولا بالإنصاف، ولا يصح أن يُقبل ما يقال، دون تبين من أنهم خوارج، وأنهم يكفرون المسلمين بالعموم، وأنهم يكفرون كل من يخالفهم، ونحو ذلك مما كان باطلاً، فكان ما وقع ظلم وعدوان، ولكن قدّر الله أن يتسلط هؤلاء الظلمة على من كان داعيًا إلى الحق بسبب تقصير وتضييع لمعالم الحق وقع في ذلك الوقت، فقدر الله البلاء؛ ليعاودوا طاعة ربهم عَزَّوَجَلَّ، إلى أن تمكنوا بعد حين من العودة إلى إقامة الدعوة وإلى إقامة التوحيد وإبطال الشرك مرة ومرة بعد ذلك؛ لذلك نقول: إن دعوة التوحيد مقدمة ولا يصح أن ينهى عنها بحال من الأحوال، ولا يجب الاستئذان في إقامتها من أحد؛ لأن إذن الله عَزَّوَجَلَّ مقدم: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٦].

فالرسول ﷺ داع إلى الله بإذن من الله، ومن قام مقامه فهو بإذن من الله، وإن عجز الناس عن شيء وغلبوا عليه، فذلك عذرهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وأما من يشترط الإذن في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، ومنه الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، فهو لا يفقه حقيقة الشرع، هذا أمر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مقدم على أمر كل أحد،

فلايسع أحدًا أن يقول: لماذا قام الشيخ بذلك؟ وجد الأمور فيها تقصير، فكيف يؤمر بالسكوت؟!

وجد فيها منكرًا هو أعظم المنكرات، وهو الشرك بالله ﷻ، فكيف وقد قدر على البيان ثم على إزالة الباطل والشرك دون مفسدة تذكر، أو مع مفسدة محتملة؟! فمن الذي يأمره بالقعود؟! لا يأمره بالقعود إلا جاهل أو مغرض يحاول أن يستعمل النصوص في غير موضعها.

وأقصى ما يُقال عن الخلافة العثمانية في ذلك: إنهم كانوا عندهم من العذر لأجل الأكاذيب التي كانت تقال، ولأجل الجهل والتأويل الذي كان عند كثير من سلاطينهم ونحو ذلك.

يبقى أن نقول: إن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لم يعلن قط أنه خارج عن هؤلاء الخلفاء أو هؤلاء السلاطين، وإنما كان يقوم بدعوة الحق فقط، حتى أتى الوقت الذي زالت فيه دولة الخلافة بهزيمتها في الحرب العالمية الأولى، ثم بإعلان إلغائها، فعند ذلك تكونت الدول المختلفة في أقطار العالم الإسلامي، ولا حول ولا قوة إلا بالله، لكن قبل ذلك لم ينزع يدًا من طاعة لا هو ولا أبناؤه من بعد، ولا من كانوا يقاتلون معه، إنما كانوا يدعون إلى التوحيد ويقاتلون من أصر على الشرك بعد إقامة الحجة، ونشروا التوحيد في ربوع نجد، حتى وصلوا إلى كل جزيرة العرب بعد ذلك، ودخلوا بلاد الحرمين الشريفين، وأقاموا فيها تلك الدعوة كذلك إلى أن وقع ما وقع.

فخلاصة الأمر: أن الشيخ كان يرى عدم مخالفة ولي الأمر، ولكن كان يقدم عليه ما أمر الله به من التوحيد والاعتصام بحبل الله جميعًا، والالتزام

بإقامة بالحق الذي أمر الله به، وهذا مما لا شك فيه، وهو شرعًا مصيب في ذلك، وكل من قدر على إقامة شيء من الدين وجب عليه أن يقيمه ما لم يكن في إقامته فساد يزيد على إضاعته، والله أعلى أعلم.

قال: (**ولمْ يقعْ خللٌ فِي دِينِ النّاسِ ودُنْياهُمْ إِلّا بِسببِ الْإِخْلالِ فِي هذِهِ الثّلاثِ أوْ بِعْضِها**).

الْمسْألةُ الرّابِعةُ: إنّ دِينهُمْ مبْنِيٌّ عَلَى أصُولٍ: أعْظمُها التّقْلِيدُ، فهُو الْقاعِدةُ الْكُبْرى لِجمِيعِ الْكُفّارِ، أوّلِهِمْ وآخِرِهِم، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف: ٢٣]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]، **فَأَتَاهُمْ بِقوْلِهِ:** ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ . . . [سبأ: ٤٦] **الْآيةِ، وقوْلِهِ:** ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف: ٣].

الشـــرح:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**الْمسْألةُ الرّابِعةُ: إنّ دِينهُمْ مبْنِيٌّ على أصُولٍ: أعْظمُها التّقْلِيدُ**) وهذا الترتيب من أحسن الترتيب، أعني: أنه ذكر مسألة التقليد وهي أعظم الأسباب لضلال الكفار، وهذا من أعظم الموانع التي تقف في طريق دعوة الحق دائمًا، وهو أن الناس أكثرهم متبعون لرؤسائهم وكبرائهم، ومن يظنونهم مشايخهم وعلماءهم، وأكثر الناس إنما يردون الحق لأجل أن الكبار ردوه، فكان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكذلك كل داع إلى الحق يُواجه بأن هذا خلاف كلام المشايخ والأئمة ونحو ذلك، مع أن كل من قال بخلاف الحق ليس بشيخ ولا إمام، وكل العلماء الأئمة بحق إنما قعّدوا: «**إذا صحّ الْحدِيثُ**

فهُو مذْهبِي»[(١)]، قعّدوا وقرّروا: «**دعوا قولي لقول رسول الله ﷺ**»[(٢)] فكيف بما كان لقول الله ﷻ؟!

لا شك أن ذلك أولى، فمن يحتج على الشرك بالله لأن الشيخ الفلاني قد أقر ذلك، وقد قال لا بأس بأنه يسجد إلى القبور، أو لا بأس بأن تبنى مساجد على القبور، ولا بأس بأن ينذر لها، ولا بأس بأن يذبح لها وعندها، ولا بأس بأن يطلب منهم قضاء الحاجات وكشف الكربات،

---

(١) يروى عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ. انظر: إعلام الموقعين (٢/ ٢٠١)، وسير أعلام النبلاء (٨/ ٢٤٨)، ومجموع الفتاوى (٢٠/ ٢١١)، وحلية الأولياء (٩/ ١٠٧)، والقول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد (ص٥٧).

(٢) قال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: (إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ، فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة رضي الله عنهم، فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين، فنحن رجال، وهم رجال).

وقال: (إذا قلت قولًا وكتاب الله يخالفه، فاتركوا قولي لكتاب الله. قيل: إذا كان قول رسول الله ﷺ يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لخبر الرسول ﷺ. وقيل إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لقول الصحابة.

وقال الربيع: سمعت الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: (إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ، فخذوا سنة رسول الله ﷺ، ودعوا ما قلت).

وقال: (إِذَا صَحَّ الحَدِيْثُ فَهُوَ مَذْهَبِي، وَإِذَا صَحَّ الحَدِيْثُ فَاضْرِبُوا بِقَولِي الحَائِطَ).

وقال مالك: (كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ).

انظر أقوال الأئمة في: إرشاد النقاد للأمير الصنعاني (ص١٤٢)، وعقد الجيد للدهلوي (ص٢٢)، والإحكام لابن حزم (٤/ ٥٧٣)، والانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء للقرطبي (ص١٤٤)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٩/ ٣١٠)، وإعلام الموقعين (٢/ ٢٠١) ومجموع الفتاوى (٢٠/ ٢١١)، والفتاوى الكبرى (٦/ ٣٣٩)، والقول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد (ص٥٧).

بزعم أن هذا على سبيل الشفاعة، وأن هذا مما لم ينهى عنه الأئمة، فإذا واجهته بالآيات والأحاديث الناهية عن الشرك، قال لك: هذا ليس كلام المشايخ، المشايخ لم يقولوا ذلك، وهكذا في مسائل كبرى مثل ذلك، مثل مسألة الحكم بشرع الله ﷻ، كم من قائل تأتيه بالأدلة الواضحة من الكتاب والسنة وكلام أئمة السلف ﷺ، فيقول: ليس هذا بكلام المشايخ، المشايخ كان عندهم كلام آخر، وكأن كلام الشيوخ والكبراء ومن سبق من العلماء يمكن أن يعارض كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ.

العلماء جميعًا متفقون على أن من استبانت له السنة لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس، فكيف إذا استبان كتاب الله ﷻ؟!

فكيف إذا اتضح الدليل من الكتاب والسنة والإجماع على مسألة عظيمة من مسائل الدين، وهي في الحقيقة من أصول الإيمان؟!

فلابد من هدم قضية التقليد الأعمى الذي يقود كثيرًا من الناس إلى الإصرار على الباطل، وهذا يظنه بعض الناس عذرًا مطلقًا، أن شيوخ السوء يقولون للناس: إن هذا ليس من الشرك، أعني: أن دعاء الأموات أو أن صرف العبادات لهم هو نوع من الاستشفاع بهم، وأنه ذلك في حقيقة الأمر تبرك وتوسل مشروع أو لا حرج فيه، فهل هذا عذر مطلقًا؟!

نقول: ليس عذرًا مطلقًا. العبرة بأن يكون البيان قد وصله، فإذا بُيِّن له بلسان قومه أو أوضح له الدليل وبلغته الحجة، لا ينفعه أن الشيخ الفلاني يقول بخلاف ذلك، يكفيك أنه قد علم أن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ تقول بخلاف ذلك، أعرض عن ادلة الكتاب والسنة لأجل أن الكبراء

يقولون بخلاف هذا، لم يكن ذلك عذرًا، ولو كان عذرًا لكان عذرًا للمشركين الذين ذُكِّروا بآيات ربهم فأعرضوا عنها، قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، فسماهم الله مجرمين لإعراضهم، كان إعراضهم سببه أنهم قالوا: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [ص: ٧]، وكما قال الله ﷻ عن اليهود والنصارى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، كلهم كانوا ينتظرون رأي الملوك والأحبار والرهبان، كما قال ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ[(١)]:

وهلْ أفْسد الدِّين إلّا الْمُلُوكُ ... وأحْبارُ سُوءٍ ورُهْبانُها

كلهم كانوا ينتظرون رأي هرقل ورأي كسرى ورأي مشايخ السوء عندهم، ماذا كان يقول أبو جهل وأبو لهب، كلهم تبع لرأيهم، والعرب تبع لقريش، لو دخلت قريش في الدين دخلوا معهم، ولو ظلوا على الشرك ظلوا معهم، وقريش لطواغيتهم وكبرائهم الذين قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن خصومتهم مع أتباعهم في النار: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب٦٦ - ٦٨].

فعباد السوء وعلماء السوء وملوك السوء كان الناس ينتظرون آراءهم في

---

(١) انظر: (ص٧٣).

الرسول ﷺ، ومن مِن بعدهم كانوا ينتظرون آراءهم في دعوة الحق في كل زمان، إذا قال هؤلاء قولاً قالوا به؛ لذلك التقليد عقبة خطيرة لابد من هدمها لتحقيق الالتزام بمنهج الحق، لابد أن يعظم الدليل، ولابد أن يتبع ما أنزل الله إلينا من البينات، سوف يواجهك دائمًا أهل الباطل بأن الشيخ الفلاني، العالم الكبير، الشيخ الإمام يقول بخلاف ما تقول، ولكن وطِّن نفسك أن يكون الجواب: من الذي أمرتم أن تتبعوا رسول الله ﷺ، أعظم من ذلك كتاب الله ﷻ، أم الشيخ الفلاني؟!

عندما كان ابن عمر رضي الله عنهما يخبر أن رسول الله ﷺ تمتع وأمر بالمتعة، فقال سالم: «**سُئِل ابْنُ عُمر عنْ مُتْعةِ الْحجِّ، فأمر بِها فقِيل لهُ إِنّك تُخالِفُ أباك قال: إِنّ أبِي لمْ يقُلِ الّذِي يقُولُون، إِنّما قال: أفْرِدُوا الْعُمْرة مِن الْحجِّ، أيْ أنّ الْعُمْرة لا تتِمُّ فِي شُهُورِ الْحجِّ إِلّا بِهدْيٍ، فأراد أنْ يُزار الْبيْتُ فِي غيْرِ شُهُورِ الْحجِّ فجعلْتُمُوها أنْتُمْ حرامًا وعاقبْتُمُ النّاس عليْها وقدْ أحلّها اللّهُ عزّ وجلّ وعمِل بِها رسُولُ اللّهِ ﷺ، قال: فإِذا كثُرُوا عليْهِ؟ قال: أفكِتابُ اللّهِ عزّ وجلّ أحقُّ أنْ يتّبِعُوا أمْ عُمرُ؟**»(١)، وعمر هو عمر رضي الله عنه، ومنزلته معلومة، وابن عمر يعرف من أبوه، ولكنه يقرر في الناس قضية كبرى، وهي حتى ولو كان عمر رضي الله عنه هو الذي نهى عن ذلك، ومع ذلك فرسول الله ﷺ قد قال، فلا يجوز أن نتبع قول عمر في خلاف قول النبي ﷺ، هذا ابن عمر رضي الله عنه يقول ذلك، وابن عباس رضي الله عنهما مثله عندما يقول: **إن رسول الله ﷺ أمر بالمتعة، فيقول له عروة رضي الله عنه: وأبُو بكْرٍ وعُمرُ كانا ينْهيانِ عنْها، فيقُولُ**

(١) أخرجه أحمد (١٠/ ٤٥١)، والبيهقي في الكبرى (٥/ ٣٠)، وابن حزم في حجة الوداع (ص٣٩٨).

ابْنُ عباسٍ رضي الله عنهما: «**يُوشِكُ أنْ تنْزِل عليْكُمْ حِجارةٌ مِن السّماءِ، أقُولُ قال رسُولُ اللهِ، وتقُولُون قال أبُو بكْرٍ وعُمر!**»(١).

وهذا في حقيقة الأمر ليس تنقيصًا من حق أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ولا ممن بعدهما، كما قال الإمام أحمد رحمه الله: «**عجِبْتُ لِقومٍ عرفُوا الإسناد وصِحتهُ، يذْهبُون إلى رأْيِ سُفْيان**(٢)**، واللّهُ تعالى يقُولُ:** ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] **أتدْرِي ما الفِتْنةُ؟ الفِتْنةُ الشِّرْكُ، لعلهُ إذا رد بعض قولِهِ أنْ يقع في قلْبِهِ شيء مِن الزيْغِ فيهْلِك**»(٣).

فهذا ليس تنقيصًا من قدر سفيان، وهل يجهل أحمد رحمه الله قدر سفيان؟! وهل تنقصه مرة من المرات؟!

وإنما كان يقول ذلك لتقرير قاعدة: «**إذا صحّ الْحدِيثُ فهُو مذْهبِي**»(٤)،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٢٨ رقم ٣١٢١)، وأخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ١٤٥)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٦٩)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢/ ١٨٩). وانظر: مجموع الفتاوى (٢٦/ ٥٠)، والآداب لابن مفلح (٢/ ٦٦)، والاستذكار (٤/ ٦١).

(٢) هو سفيان بن سعيد بن مسروق أبو عبد الله الثوري، من أهل الكوفة، ولد سنة سبع وتسعين، كان من كبار أئمة المسلمين لا يختلف في إمامته وأمانته وحفظه وعلمه وزهده، توفي سنة إحدى وستين ومائة. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ٣٧١)، وحلية الأولياء (٦/ ٣٥٦) وتاريخ بغداد (٩/ ١٢٥)، وسير أعلام النبلاء (٧/ ٢٢٩)، وطبقات الحفاظ (ص٩٥).

(٣) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (رقم ٩٧)، وانظر: مسائل عبد الله بن أحمد بن حنبل (٣ / ١٣٥٥)، والصارم المسلول على شاتم الرسول (٢/ ١١٦).

(٤) انظر: (ص١١٧).

ولا يجوز معارضة كلام الرسول ﷺ، فضلاً عن كلام الله ﷻ، برأي عالم أو فقيه، فضلاً أن يكون ليس بعالم ولا فقيه، كما يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: (**فتغيرت الأحوال، وآلت إلى هذه الغاية فصارت عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، ويسمونها ولاية، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه. ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين**)[١]، والأحبار: هم العلماء، والرهبان: العباد، وعبادة الأحبار بطاعتهم في التحليل والتحريم، وعبادة الرهبان بالغلو فيهم، وكما قال الشيخ رحمه الله فعلاً صار يتبع من ليس من العلماء، إذا كنا نرفض أن يُعارض قول النبي ﷺ بقول أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ولا بقول مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة، ولا بقول سفيان، ولا بقول أي قائل، فكيف نعارضه بقول مقلد؟! فكيف نعارضه بقول جاهل؟! فكيف نعارضه بقول مبتدع؟! فكيف نعارضه بقول كافر؟!

أصبح في زماننا يُعبد بهذا المعنى من ليس بمسلم أصلاً، يُقال: قد قرر أهل أوروبا كذا وكذا من القوانين والقواعد، وصار هذا هو المتبع، ويدافع عنه، بل ويُقاتل من أجله، ويُحارب الدين من أجل ذلك؛ وأما بالنسبة إلى عبادة الرهبان، عبادتهم بالغلو فيهم واعتقاد أنهم مسلطون على الكون ونحو ذلك، فقد كان ذلك في البداية في الأنبياء والصالحين، ثم صار يُعبد بهذا الغلو من ليس كذلك، من هو مِن الأشخاص الذين لا يُعرف لهم ولاية، بل كما ذكرت لكم قد كان يُعبد بذلك بعض الحيوانات؛ كلب تحت

(١) انظر: فتح المجيد (ص٣٩٠).

قبة شيخ مثلاً والناس يظنونه شيخًا، وظهرت عظام الكلب عندما هدم المسجد، ومع ذلك جاءت الأوامر من وزارة الأوقاف بأن يظل القبر كما هو، وأن يعاد الأمر كما كان قبل ذلك، حتى ولو كان العظام عظام كلب، وهذا أمر أخبرت به عن سماع من شاهده، وليس عن قصة طريفة تُحكى في الكتب بغير علم، إنما هذا أمر شاهده إخوة يستفتون: هل نصلي في هذا المسجد، أم لا؟

وبعض إخواننا - قريبًا جدًا من عدة أشهر - جاءني بهذا السؤال: أنه عندما هدم المسجد وكان فيه قبر وفتحوه بالفعل، وجدوا عظم كلب في القبر، فأرسلوا إلى وزارة الأوقاف، فجاءت قرارات الإدارة الهندسية بأن يُعاد القبر كما كان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأزالوا عظم الكلب، لكن لابد أن يبقى الوثن، والعياذ بالله.

وصار يُعبد بهذا المعنى أيضًا من كان من الزنادقة المنافقين، فلا عجب أن ترى من كانوا يقولون بوحدة الوجود، ومن كانوا يقولون بجواز الملل غير ملة الإسلام، لهم قبورهم وموالدهم التي يحج الناس إليها، فهذا الدسوقي، وأشعاره قد نقلها أتباعه في القول بوحدة الوجود، والله ﷻ أعلم، وابن عربي(١) ....

(١) محمد بن علي بن محمد بن عربي أبو عبد الله الطائي الأندلسي المعروف بمحيي الدين ابن عربي طاف البلاد وأقام بمكة مدة وصنف فيها كتابه المسمى بالفتوحات المكية في نحو عشرين مجلدًا فيها ما يعقل ومالا يعقل، وله الكتاب المسمى بفصوص الحكم قال عنه الذهبي: ومن أردأ تواليفه كتاب الفصوص، فإن كان لا كفر فيه فما في الدنيا كفر. وقال العز بن عبد السلام: شيخ سوء كذاب يقول بقدم العالم، ولا يحرم فرجًا =

كذلك، وكذلك ابن الفارض[١]؛ وأما ذلك الزنديق الذي كان يصحح الملل كلها، ويحضر في مجلسه اليهود يتلون التوراة، والقساوسة يتلون الإنجيل، والمسلمون يقرءون القرآن، ولا فرق عندهم طالما أنهم كانوا يرقصون على أنغام المثنوي الذي ألفه جلال الدين الرومي[٢]، الذي كان

= توفي سنة ثمان وثلاثين وستمائة.
انظر: البداية والنهاية (١٣/ ١٥٦)، وميزان الاعتدال (٦/ ٢٦٩)، وسير أعلام النبلاء (٢٣/ ٤٨).

(١) أبو حفص عمر بن علي بن المرشد بن علي المعروف بابن الفارض، الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، وكان أبوه يكتب فروض النساء والرجال وقد تكلم فيه غير واحد بسبب قصيدته التائية في السلوك على طريقة المتصوفة والتي ينعق فيها بالاتحاد الصريح، مات ابن الفارض سنة ٦٣٢هـ، انظر: سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٦٨)، والبداية والنهاية (١٣/ ١٤٣)، ولسان الميزان (٤/ ٣١٧).

(٢) جَلَال الدِّين الرُّومي محمد بن محمد بن الحسين بن أحمد البلخي القونوي الرُّومي، صاحب (المثنوي) المشهور بالفارسية، وصاحب الطريقة (المولوية)، ولد في بلخ (بفارس) وانتقل مع أبيه إلى بغداد، في الرابعة من عمره واستقر في قونية سنة ٦٢٣هـ ترك التدريس والتصنيف والدنيا وتصوّف (سنة ٦٤٢) أو حولها، فشغل بالرياضة وسماع الموسيقى ونظم الأشعار وإنشادها، ونظم كتابه (المثنوي) بالفارسية، وأنشأ المولوية: أصحابها يتميزون بإدخال الرقص والإيقاعات في حلقات الذكر، وقد انتشروا في تركيا وآسيا الغربية، ولم يبق لهم في الأيام الحاضرة إلا بعض التكايا في تركيا وفي حلب وفي بعض أقطار المشرق.
قال الألوسي: وأما صاحبه (الصدر الرومي)، فإنه كان متفلسفاً فهو أبعد عن الشريعة والإسلام.
انظر: الأعلام (٧/ ٢٩)، وجلاء العينين في محاكمة الأحمدين (ص١١٢)، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (١/ ٢٥٩، ٢٦٧).

عنده الأديان كلها سواء طالما صفت النفوس ونحو ذلك، ومثل هذا مزاره قائم ومُعظّم عند الجهلة والزنادقة وأمثالهم، والعياذ بالله.

وهذا أمر حصل فيه غلو، وأصبح الغلو فيه الغلو في الطالحين وليس الغلو في الصالحين، كان هناك زمن يُعارض فيه كلام الشرع بكلام الأئمة والعلماء، ورفض العلماء ذلك وأبوا ذلك، وجعلوا ذلك سببًا للعذاب، فكيف أن يُعارض كلام الله وكلام رسوله ﷺ بكلام الجهلة أو بكلام المبتدعين أو بكلام الكفرة والزنادقة والمنافقين؟!

هذا لابد من هدمه في النفوس، وهذا بداية التحرر الحقيقي من سلطان التقليد، وذلك أن يعلم أنه لابد أن تتفكر وتتدبر، الذي يمنعك من التدبر في كتاب الله وسنة النبي ﷺ هو الذي يمنعك من الخير.

وليس لك أن تتدبر كما تشاء، وإنما من خلال العلم، ومن خلال قواعد اللغة وقواعد الشرع، ومعرفة ما ورد في الكتاب والسنة، وتفسير السلف رضوان الله عليه؛ حتى تفهم الكتاب على وجهه، وتفهم السنة على وجهها، لا أن نصوص العلماء تخصص القرآن أو تنسخه أو تقيده، وإنما تبينه كلام العلماء ليس كدليل مستقل له حكم الدليل، ولا حتى كلام الصحابة ﭫ، أنه له حكم الدليل في مقابلة الكتاب والسنة، بل كل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ(١)، ولا يوجد عالم يخالف في ذلك كقاعدة، حتى الخلاف في قول الصحابي: هل هو حجة، أم لا(٢)؟ هذا في

---

(١) انظر: (ص١١٧).

(٢) انظر مسألة حجية قول الصحابي في: المسودة (٣٣٥)، وإعلام الموقعين (٤/ ١٢٠)، =

غياب النص من الكتاب والسنة، أم أن يوجد نص من الكتاب والسنة، فلا يوجد عالم يقول: يقدم قول الصحابي، وإنما - كما ذكرنا - يحتجون بقول الصحابي مقدمًا على القياس أو مؤخرًا عنه عند البعض إذا لم يكن نص من كتاب أو سنة أو إجماع، والقياس عند الكثيرين مقدم على قول الصحابي؛ لأن القرآن قد دل عليه وهو الميزان.

المقصود: أن كلام العلماء ليس مخصصًا للقرآن وإنما مبيِّن، ليس ناسخًا ولا مقيد وإنما مبين، إلا أن يكون إجماع، فالإجماع دليل دل عليه الكتاب والسنة، فهذا الذي يصلح للتخصيص، ويصلح للتقييد، ويبين ناسخًا قد جهل البعض، ولا ينسخ الإجماع؛ لأنه لا يمكن أن تنسخ الأمة كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**الْمسْألةُ الرّابِعةُ: إنّ دِينهُمْ مبْنِيٌّ على أُصُولٍ: أعْظمُها التّقْلِيدُ فهُو الْقاعِدةُ الْكُبْرى لِجمِيعِ الْكُفّارِ، أوّلِهِمْ وآخِرِهِم، كما قال تعالى**: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، **وقال تعالى**: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]، **فأتاهُمْ بِقوْلِهِ**: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ﴾ . . . [سبأ: ٤٦] **الْآيةِ، وقوْلِهِ**: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف: ٣].

= وشرح الكوكب المنير (٢/ ٢١٢، ٤/ ٤٢٢)، ومجموع الفتاوى (٢٠/ ١٤)، والفقيه والمتفقه (١/ ١٧٤)، وروضة الناظر (١/ ٤٠٣).

ذكرنا أن التقليد هو من أخطر الأمراض التي يُضل بها الشيطان أولياءه وأتباعه، وأن الواجب على كل مسلم أن يتبع الدليل، وأن يتبع ما أوحى الله إلى نبيه ﷺ، إن كان عالمًا فهو يتمكن من ذلك مباشرة بالنظر في نصوص الكتاب والسنة، وإجماع أئمة العلم، والقياس الصحيح على هذه الثلاثة، وسائر أصول الاستدلال التي يسوغ فيها الاجتهاد والاختلاف عند أهل العلم؛ وأما إذا كان طالب علم فإذا كان قادرًا على التمييز والترجيح؛ لتمكنه من آلات الاستدلال ومعرفته بقواعد الاستنباط، وكذلك بجمعه لأدلة المسألة أو أدلة الباب في المسائل التي يختلف فيها العلماء، فهذا ملحق بالعلماء فيما أحاط به من المسائل، وفيما علمه من طرق الاستدلال فيكون عالمًا بهذا الباب أو هذه المسألة أو هذا الفن على الراجح أن الاجتهاد يتبعض، وهو يرجح بين أقوال العلماء، ويتبع ما دله عليه الدليل، وعامة كلام العلماء لأتباعهم حول هذه النوعية؛ لأن العلماء المجتهدين لا يقلدون أمثالهم، وإنما خشي العلماء والأئمة على أتباعهم أن يقعوا في التقليد المذموم؛ فلذلك قالوا: لا تقلدني ولا تقلد غيري؛ كما قال الإمام أحمد: **«لا تُقلِّدْنِي ولا تُقلِّدْ مالِكًا، ولا الشّافِعِيّ، ولا الثّوْرِيّ، وتعلّمْ كما تعلّمْنا فكان يقُولُ لِمنْ قلّدهُ: حرامٌ على الرّجُلِ أنْ يُقلِّد فِي دِينِهِ الرِّجال، وقال: لا تُقلِّدْ فِي دِينِك الرِّجال، فإِنّهُمْ لنْ يسْلمُوا مِنْ أنْ يغْلطُوا»**، وكذلك قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**إذا صح الحديث فدعوا قولي لقول رسول الله ﷺ**»، و«**إِذا صحّ الْحدِيثُ فهُو مذْهبِي**»(١).

(١) انظر: (ص١١٧).

وهذا إنما يقوله لمن يبحث عن مذهبه، وليس لمجتهد مثله، لا يعنيه مذهبه ولا يتوقف اجتهاده على معرفة مذهب الشافعي.

فهذه المرحلة، مرحلة طالب العلم المميز، الذي قدر على معرفة قواعد الاستنباط، وجمع أدلة مسألة أو مسائل أو باب أو أبواب، وإن لم يكن محيطًا بعامة مسائل الفقه، فهذا ملحق بالعلماء فيما أحاط بعلمه، ما لم يحط بعلمه ما لم يعرف أدلته فهو ملحق فيه بالعوام.

فالعامي مأمور كذلك بالاتباع، وهو المرتبة الثالثة في طلب العلم، وكذلك طالب العلم المتبدئ غير القادر على الترجيح ولا التمييز، فإن هذا واجب أن يسأل أهل الذكر؛ كما أمر الله ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وهذا السؤال عن الذكر لا عن الرأي ولا عن المذاهب ولا عن البحث في الرخص، وإنما يسأل عن الذكر الذي أنزله الله، والعالم يفتيه بما علم واجتهد أنه من الذكر الذي نزله الله سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ، ولا يجوز له أن يجزم بأمر من ذلك إلا إذا ترجح اجتهاده بذلك، أعني: أن العالم إنما يقول: هذا حكم الشرع لما علم بالدليل أن هذا حكم الشرع، وإلا كان قائلاً على الله ما لا يعلم.

وأما أن يستفتي المستفتي على مذهب إمام بعينه فهذا غايته أن يكون سائغًا، أقصى ما يمكن أن يكون جائزًا، لا نلزمه بأن يغير المفتي كل حين، أو أنه لا يجوز أن يسأل نفس الشخص، بل نجوز له ذلك، نقول: العامي هل يسعه أن يسأل كل مرة نفس العالم ويأخذ بفتواه؟

نعم، طالما كان عالمًا مجتهدًا ورِعًا تقِيًّا، جاز له أن يسأله كل مرة، وأن

يأخذ بما يفتيه به، ومِن هنا كان التمذهب - على أصح أقوال أهل العلم أو على الصحيح من أقوال أهل العلم - جائز وليس بواجب كما يقول البعض، ولا بمحرم كما يفتي البعض، وهو إنما يُشترط فيه ما ذكرنا من أن يكون الذي يأخذ بذلك ممن يسعه اتباع العلماء وسؤال أهل العلم دون النظر في الأدلة؛ لأنه إما عامي لا يدري ما الأدلة، وإما طالب علم مبتدئ لا يدري الترجيح ولا التمييز، وكلما أخذ ببعض كلام أهل العلم لم يدْرِ ما وجه ترجيح غيره عليه؛ فهذا حقه أن يسأل أهل الذكر عن الذكر، إن سألهم وتنوع في السؤال: سأل هذا مرة وذاك أخرى، لم يكن عليه بأس، وإن منع منه المتأخرون، لكن لم يكن هذا في العهد الأول، فهذا بالنسبة إلى مسائل الفروع، وكذلك في مسائل الأصول - أي: العقائد - إذا كان فيها اجتهاد، وإلا فعامة المسائل الكبرى في أصول الإيمان عليها الأدلة منصوبة كتابًا وسنة وإجماعًا من سلف الأمة؛ ولذا كان مخالفها في الأغلب مبتدعًا، أعني: وإن كانت هناك مسائل فيها اجتهاد، لكن المسائل الكبرى وأصول الإيمان الكبرى بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكذلك الاعتقاد في الصحابة، ومسائل الإيمان والكفر، فإن عامتها بين نص من كتاب أو سنة أو إجماع من السلف ﵃؛ ولذا كان عامة هذه المسائل من خالفها كان مبتدعًا، وليست القاعدة أن المسألة: هل هي من مسائل الأصول الاعتقادية، أم من مسائل الفروع العملية؟ بل الأمر - كما ذكرنا - بناءً على وصول الدليل للمكلف، وبناءً على وجود الإجماع من عدمه في ذلك: هل المسألة إجماعية، أم اجتهادية؟

من أعظم ما أدى إلى حصول الخلل في دين الأنبياء - أعني: فيمن

انتسب إلى اتباع الأنبياء - تقديم آراء الرجال والأحبار والرهبان على نصوص الكتاب؛ ولذلك ذمهم الله ﷻ، وتكرر هذا الذم في آيات كثيرة، قال ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال ﷻ: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٦٨]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ﴾ [هود: ١٠٩].

فذم الله من يقلدون الآباء والأجداد، ومن يقلدون الأحبار والرهبان والسادة والكبراء، فإن ذلك كله من أعظم أسباب تحريف دين الأنبياء، يعني: وصل إليهم بالأدلة، ومع ذلك تركوا الأدلة، واخترعوا من عند أنفسهم هذه الأقوال، حتى صارت فيمن تبعهم شرعًا ملزمًا، وعندما جاءتهم الرسل بخلافه أبوا إلا أن يقلدوا، وأبوا أن ينظروا في الأدلة، وهذا الذي أدى إلى حصول الانحطاط والتدهور بعيدًا عما جاءت به الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؛ لذا لابد أن نؤصل في دعوتنا إلى الله سبحانه وتعالى قبول الدليل، وكثرة الاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وشرح ذلك للناس، فهذا الذي ينير العقول، قال الله ﷻ في هذا المعنى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾، يأمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يعظ الكفار بمسألة واحدة، قضية واحدة: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ [سبأ: ٤٦]؛ إما بعضكم مع بعض: اثنين اثنين، أو كل واحد منفردًا؛ ليكون ذلك سببًا للتخلص من تأثير المجتمع وتأثير نظرية القطيع عليه، فإن أكثر الناس إنما يتأثرون ببعضهم بعضًا، إذا وجدوا الناس يقولون شيئًا قالوه، فإما إذا قام

منفردًا فإنه يتدبر ويتفكر، وكذا إذا قام مع صاحب له، واحد يستشيره، لم يكن هناك تأثير للضغط الاجتماعي الذي يجعل عامة الناس ينقادون لما وجدوا عليه الأكثر - كما سيأتي في المسألة الآتية - دون أن يتفكروا أو يتدبروا؛ ولذلك قضية التفكر قضية عظيمة الأهمية، من خوطبوا بذلك؟ الكفار.

فالمؤمنون أولى بأن يُخاطبوا بذلك، والكفار معلوم باليقين أنهم كان منهم العالِم والجاهل، كان منهم الرؤساء والكبراء والأتباع، كان منهم الأحبار والرهبان والجهال، والكل خوطبوا بالإسلام، وأمروا أن يتفكروا ويتدبروا، وهذا من أعظم ما يقدح في قضية التقليد؛ لأن كثيرًا من المتأخرين يقول: خطاب التفكر والتعقل لا يُخاطب به عوام الناس، ويمنعونهم من التفكير، ولانعني بالتفكير مجرد إعمال الآراء بالتشهي، وإنما نعني أن ينظر في أدلة التوحيد وأدلة صدق الرسول ﷺ، وأن يفهم ما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ، طالما أنه فهم الخطاب فلابد أن يتفكر: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ [سبأ: ٤٦]، فهذا كان في الجواب على شبهة رؤوس المشركين أن الرسول ﷺ مجنون، فلو تفكروا وتدبروا لعلموا أنه ليس بمجنون: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾، لم يستثنِ الكبراء والرؤوساء، أو الضعفاء والمتابعين، العوام الجاهلين، الكل مأمور بأن يتفكر، وكذا قال ﷻ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف: ٣]، فسمى من اتبع قوله دون وحي الله ﷻ وليًّا متخذًا من دون الله، من اتخذوا من دون الله أولياء، تولوا هؤلاء الأولياء وعبدوهم من دون

الله، وولوهم أمورهم، فأطاعوهم في خلاف الوحي، واتبعوهم على خلاف الرسول ﷺ، فحصل بذلك الغفلة وقلة التذكر: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، وانعدم أحيانًا تذكرهم، حتى أتتهم الأدلة فأبوا أن يقبلوها، هذا الخطاب خطاب لكل المكلفين ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، نقول ذلك: لأن كثيرًا من الناس يقول: فرض على من ليس بعالم مجتهد أن يقلد أحد الأئمة الأربعة، وقد وضعوا الشروط التي عند تأملها تجدها قد انسدت حتى على كثير من العلماء المجتهدين؛ ولذا أفتى متأخروهم أنه بعد المائة الرابعة قد أغلق باب الاجتهاد، ولم يعد هناك من يجتهد في الدين، فلابد من تقليد أحد الأئمة الأربعة ولزوم اتباع أحدهم، وصار هذا مذهبًا متبعًا عبر قرون دون النظر في الأدلة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولا شك أن هذه الأدلة: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، خوطب بها الجميع، وكما ذكرنا إذا خوطب الكفار بذلك؛ فهل أهل الإيمان أقل عقلاً وتفكرًا من الكفار؟!

وهل تقولون: بأن عوام الكفار معذبون، أم لا؟ فإن قالوا: نعم. هم إن ظلوا على كفرهم وماتوا على الكفر معذبون، وهذا بإجماع أهل العلم وبنصوص الكتاب والسنة التي فيها ذم الأتْباع المقلدين لكبرائهم ورؤوسائهم وآبائهم، فقد أقاموا على أنفسهم الحجة؛ لأنهم حين قبِلوا ذلك، حين قالوا: نعم هذا خطاب لهؤلاء. فتجعل عوام المسلمين العقلاء في الحقيقة المتفكرين المتدبرين ممنوعين من التفكر والتدبر، والكفار مأمورون بذلك فهذا باطل بلاشك، وإن قال: ليسوا معذبين، فقد ناقض نصوص الكتاب والسنة، وجعل العذاب على الكبار وعلى العلماء فقط، وهذا قول لا يقوله عالم بعد قول الله ﷻ: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٤]، وقال ﷻ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣]، وغير ذلك، بل هذا القول يقود إلى الزندقة والانحلال من الدين بالكلية والردة عن الإسلام، إذا صوب وصحح ملل الكفر، أو صوب إيمان من قامت عليه الحجة في ذلك، أو عذر من لم يعذره الكتاب والسنة.

لذلك نقول: إذا كان عوام الكفار مأمورين بالتفكر، وأن يقوموا يتفكروا فالمسلمون أولى بذلك، ولكن بأدوات التفكر كما ذكرنا، لابد أن يتفكروا ويتدبروا فيما أوحي إلى رسول الله ﷺ على قدر قدرتهم وتفكرهم؛ وأما المسائل التي تحتاج إلى جمع الأدلة والنظر في النصوص والنظر في قواعد الاستدلال، فهذه نقول كما قال الله ﷻ فيها: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، لكن لا يعني ذلك ترك التدبر بالكلية.

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ واجه بيئة شديدة الجاهلية، تُبْنى فيها الأمور على مجرد الاتباع الأعمى للكبراء والشيوخ والسدنة للقبور، الذين قاموا مكان سدنة الأصنام، فصاروا يضلون الناس، والعياذ بالله، ويقررون لهم الخزعبلات والخرافات، وعندهم أنهم مشايخهم وعلماؤهم، فترتب على ذلك أنهم ردوا نصوص الكتب والسنة، ما تلحظ في كثير من المواطن في زماننا أن كثيرًا من الناس يرد الحق من أجل أن الشيخ الفلاني قال خلافه، ويسمع الأدلة والآيات ويصر على خلافها؛ لأن الشيخ الفلاني يفعل غير ذلك، لو قلت في عبادة القبور والنهي عن الطواف حولها، وكلّمْته عن ذم من دعا الأموات، وأن ذلك من الشرك، وكذا من استغاث بهم واستعاذ بهم أو صرف لهم ذبحًا أو نذرًا أو نحو ذلك، قال: الشيخ الفلاني كان يصلي في

الحسين، الإمام الفلاني كان يقول غير ذلك، ويجمعون النصوص الكثيرة من كلام المشايخ، مشايخ السوء الذين أفسدوا الدين.

فكان الشيخ ﵀ يريد هدم هذه القاعدة الخطيرة من قواعد الجاهلية؛ لكي يُفتح الباب أمام عقول المتفكرين والمتدبرين للتخلص من سلطان التقليد، وقد كان بفضل الله ﷻ بهذه الدعوة، بهذه الآيات أعظم الأثر في نبذ التقليد الأعمى وفتح باب التفكر والتدبر، الذي أدى إلى حصول صحوة عظيمة ونهضة كبيرة في ترك الناس مظاهر الشرك وعودتهم إلى التوحيد المستفاد من الكتاب والسنة، وكذا اتباع الرسول ﷺ.

الْمسْألةُ الْخامِسةُ: إنّ مِنْ أكْبرِ قواعِدِهِم: الاغْتِرَارِ بِالأكْثَرِ، ويحْتجُّون بِهِ عَلَى صِحّةِ الشّيْءِ، ويسْتدِلُّون عَلَى بُطْلانِ الشّيْءِ بغُرْبتِهِ وقِلّةِ أهْلِهِ، فأتاهُمْ بِضِدِّ ذَلِكَ، وأوْضحهُ فِي غيْرِ موْضِعٍ مِن القُرْآنِ.

الشـــرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ: (**الْمسْألةُ الْخامِسةُ: إنّ مِنْ أكْبرِ قواعِدِهِم: الاغتِرار بِالأكْثرِ، ويحْتجُّون بِهِ على صِحّةِ الشّيْءِ، ويسْتدِلُّون على بُطْلانِ الشّيءِ بغُرْبتِهِ وقِلّةِ أهْلِهِ، فأتاهُمْ بِضِدِّ ذلِك، وأوْضحهُ فِي غيْرِ موْضِعٍ مِن القُرْآنِ**). قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: ١١٦]، فقد ذم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الأكثرية التي على الباطل، وأن كثرتهم لا تغني عنهم شيئًا، فالكثرة ليست دليلاً على الحق، إنما الحق لا بد أن يعرف بالدليل؛ ولذلك نقول: إن الاغترار بالأكثر كان من سمة الكفار عبر العصور، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٣]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود: ٤٠]، فكان هذا في الحقيقة ذم للأكثرية التي على الباطل، ونحن لا نقول ذلك في العموم إن أي أكثرية تكون على الباطل، لكن نقول: نعرف الحق فنعرفه بالأدلة، نعرفه بالوحي، فعند ذلك نحكم لا بالقلة ولا بالكثرة، ولكن بمقتضى الدليل، بمقتضى الوحي المنزل من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مدح الصبر على الغربة: «**بدأ الْإِسْلامُ غرِيبًا، وسيعُودُ كما بدأ غرِيبًا، فطُوبى لِلْغُرباءِ**»[1].

(١) أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

لذلك وطِّن نفسك أن تكون على الحق، ولو كنت وحدك، ولا تغتر بكثرة الهالكين، ولا تستوحش من قلة السالكين طريق الحق، واعلم أن الله ﷻ يؤيد الحق وأهله، ولو كانوا قليلاً مستضعفين في الأرض، إلى أن يُمكِّن لهم ﷻ، فبذلك نقول: ليست العبرة بالكثرة ولا بالقلة، لا ينبغي أن تكون أيضًا باحثًا عن القلة؛ لتتبعها على أنها هي الحق؛ لأن كثيرًا من الناس يولع بالغريب، ويزعم أنه متفرد، فيكون مريضًا وهو يظن نفسه على الطريق الصحيح، يبحث عن الشيء النادر الغريب ويقوله؛ لكي يتميز عن الناس، نسأل الله العافية، ليس الأمر كذلك، كما ذكرنا لابد من النظر في الدليل، لابد من معرفة الحق بأدلته، فتعرف أهله وتكون معهم، سواء كانوا قلة أو كثرة، فليست العبرة بالقلة ولا بالكثرة؛ ولهذا قد قال النبي ﷺ: «**فرأيْتُ النبي ومعهُ الرّهْطُ، والنبي ومعهُ الرّجُلُ والرّجُلانِ، والنبي ليْس معهُ أحدٌ**»(١)، فهذا دليل على أنه لايغتر بالكثرة، ولا يُزهد في القلة، بل ربما الشيء حقًا وأتباعه قليلون، وربما كان باطلاً وأتباعه كثيرون، والعكس كذلك.

هل يسع الإنسان المسلم أن يكون متبعًا لجمهور العلماء في كل مرة من المرات؟

كما ذكرنا ليس الأصل أن تكون متبعًا للجمهور، الأمة - بفضل الله ﷻ - في مجموعها معصومة، وبفضل الله في أكثر المسائل أكثر أهل العلم

---

(١) أخرجه البخاري [(٥، ٥٧، ٥٧٥٢ مطولًا)، و(٣٤١٠، ٦٤٧٢، ٦٥٤١ مختصرًا]، ومسلم (٢٢٠)، والترمذي (٢٤٤٨)، والنسائي في الكبرى (٣٧٨/٤).

على قول واحد، وهو قول الحق، ولكن لا يعني ذلك أن تقول في كل مرة: ما قول الجمهور لآخذ بقولهم؟!

كما ذكرنا الذي يجب على الإنسان أن يعمل بناءً عليه، على قدر علمه، إن كان عالمًا فلا يسعه إلا أن يجتهد، يبذل جهده في معرفة الحق للأدلة التي فيها الاتباع: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: ٣]، فهذا لا يحصل له إلا بالتفكر والتدبر والاجتهاد في معرفة ما جاء به النبي ﷺ، مِن الكتاب والسنة والإجماع، وسائر وجوه الاستنباط.

ثم بعد ذلك نقول: طالب العلم يتبع الراجح بالدليل من كلام أهل العلم، والعامي - غير العالم - يسأل أهل العلم فيتبعهم، لا يسعه أن يقول: أخبروني عن قول الجمهور في كل مسألة، يسأل العالم: أي الأقوال هي الأرجح؟ العامي إذا اختلف عليه المفتون يقلد أوثقهم في نفسه ويتبعه، وقد يكون في بعض الحالات التي لا يستطيع أن يكون فيها مرجحًا بالأوثق؛ لأن عالمين متساويين في الثقة قد أخبراه بفتوى مختلفة، كل منهما أخبره بفتوى تختلف عن الآخر، فهذا يمكن أن يكون في بعض الأحوال مرجحًا بالكثرة، لكن أن يكون في كل مرة مرجحًا بذلك، فلا يصح، وإنما الأمر مبناه على أنه يقلد الأوثق في نفسه طالما عجز عن معرفة الدليل.

طالب العلم يتبع الأرجح من الأقوال بناءً على الدليل والتمييز، والعالم يلزمه الاجتهاد ولا يسعه التقليد، والله أعلى وأعلم.

الْمسْألةُ السّادِسةُ: الاحْتِجاجُ بالمُتقدِّمِين، كقوْلِهِ: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]، **وقوْلِهِ:** ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

الشـــرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في **الْمسْألةِ السّادِسةِ**: (**الاحْتِجاجُ بالمُتقدِّمِين؛ كقوْلِهِ**: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]، **وقوْلِهِ** ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]): يعني: أن هذا أمر لم نجد عليه من سبقنا، الناس قديمًا كانوا يقولون بخلاف ذلك، هذه شبهة كبيرة متكررة من شبهات المشركين والمبتدعين من أهل الجاهلية، أنهم يحتجون بمن مضى من القرون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١﴾، كانوا على غير ما تقول من التوحيد، قال: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، وانشغل في ذكر أدلة التوحيد فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤﴾ [طه: ٥٤] [طه: ٥٢ - ٥٣].

ولذلك ليس أمر اتباع الآباء والأجداد بحجة القرون الأولى الماضية: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، كل هذا ليس بحجة، قد قامت الحجة بدعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلا يجوز للمسلم أن يقول: الناس منذ كذا وكذا على هذا الأمر، الناس، شيوخنا ومتقدمونا كانوا على هذا الأمر فنحن لهم تبع، لابد أن تكون - كما ذكرنا - متبعًا للدليل، ليس مقلدًا للأكثر ولامقلدًا لمن تقدم من الآباء والأجداد.

الْمسْألةُ السّابِعةُ: الاسْتِدْلالُ بِقوْمٍ أُعْطُوا قُوىً فِي الْأفْهامِ والْأعْمالِ وفِي الْمُلْكِ وَالْمَالِ وَالْجاهِ، فَرَدَ اللَّهُ ذلِك بِقوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، **وقوْلِهِ:** ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، **وقوْلِهِ:** ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

الشرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (**الْمسْألةُ السّابِعةُ: الاسْتِدْلالُ بِقوْمٍ أُعْطُوا قوىً فِي الْأفْهامِ والْأعْمالِ، وفِي الْمُلْكِ والْمالِ والْجاهِ، فرد اللهُ ذلِك بِقوْلِهِ تعالى:** ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، **وقوْلِهِ:** ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، **وقوْلِهِ:** ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]): يعني: في ما لم نمكنكم فيه، (إِنْ) هنا نافية، مكن الله ﷻ لقوم عاد والقرى من بعدهم والأقوام من بعدهم ما لم يمكن لهؤلاء، فلم يبنوا ما بنوا، ما زالت مساكن ثمود إلى يومنا هذا، ومساكن عاد كذلك بقيت آثارها في جنوب الجزيرة العربية، مساكن ثمود في شمالها تدل على أن الله مكنهم، وهذه الحجة في الحقيقة حجة الكثيرين من أتباع الغرب، أن الغرب ممكّن، وأنه قد تقدم وحصل أنواعًا من العلوم والتكنولوجيا والقوة في أمور الدنيا، فهذا خطر عظيم، فهذه من طريقة استدلال أهل الجاهلية أنهم يحتجون بأن من سبق من الأمم كانوا ممكنين، فأخبر الله أنه مكنهم، مكن لمن سبق أكثر مما مكن لهؤلاء ومع ذلك كانوا على الباطل،

فليست العبرة بأنهم يحسنون الصنع في الدنيا، أو أنهم يفهمون أمور الدنيا ويعملون فيها من مساكن وآثار ظلت باقية عبر التاريخ وعبر العصور، العبرة - كما ذكرنا - لابد أن يكون فيها وحي منزل يستدل به، وليس مجرد أن هؤلاء تقدموا.

شبهة خطيرة جدًا في زماننا ذلك أن كثيرًا من الناس يتبع الغرب على دينه وعلى آدابه وعلى أخلاقه؛ لأجل أنهم صاروا أهل قوة؛ لأنهم حققوا في العلوم الدنيوية ما لم يحققه المسلمون، فكان ذلك على طريقة أهل الجاهلية، قال ﷻ: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، هذا في فهم وعلم وعمل متعلق بالكتاب الأول، هذا عند اليهود، كانوا قبل بعثة النبي ﷺ قد تفرقوا أحزابًا، فصارت كل قبيلة من بني إسرائيل تابعة لقبيلة من قبائل العرب، فكانوا يقاتلون معهم، فإذا هزموا قالوا: يوشك أن يظهر نبي، اقترب زمن نبي، إذا ظهر اتبعناه وقتلناكم معه قتل عاد وإرم، **(يستفتحون)**: يطلبون الفتح، يطلبون أن يأتي زمن ذلك النبي حتى ينصروا على من خالفه؛ لأنهم يعلمون أنه منصور، فيقولون لهؤلاء الذين غلبوهم من العرب حينما كانوا يقاتلون في صفوف بعضهم بعضًا: يوشك أن يأتي نبي فنتبعه فنقتلكم معه، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، والعياذ بالله.

لما جاء النبي ﷺ رجعوا القهقرى، رجعوا على أعقابهم وأبوا أن يقبلوا دعوة الحق وكفروا: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦]، ذلك أن الله قد وصف

النبي ﷺ في الكتب المتقدمة أوصافًا يستحيل على من علمها أن يخطأه ﷺ ومع وضوح الفهم لكثير من أحبار اليهود وعلمائهم أبوا إلا أن يستمروا في التكذيب رغم معرفتهم بنبوته ﷺ، فهذا استدلال بقوم أعطوا قوى في الفهم بالكتاب الأول، وبعضهم أعطي قوة في الأعمال الدنيوية، مثل: بناء المساكن، أو بناء المصانع، أو غير ذلك مما يتمدح به، فرد الله ﷻ هذا الاستدلال وذاك، فلا عبرة بقوم عرفوا الحق وأعرضوا عنه؛ لأنهم كانوا ممكنين أو لأجل أنهم كانوا يتبعون الشهوات في بعض أمرهم، فاتبعوا شهواتهم في تكذيب رسول الله ﷺ؛ لنيل حظ من الدنيا، ونسأل الله ﷻ العفو والعافية.

الْمسْألةُ الثّامِنةُ: الاسْتِدْلالُ عَلَى بُطْلانِ الشّيْءِ بِأنّهُ لَمْ يتبِّعْهُ إِلّا الضُّعفاءُ، كقوْلِهِ: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، **وقوْلِهِ:** ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣]، **فَرَدّ اللّهُ بِقوْلِهِ:** ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

الشـــرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**الاسْتِدْلالُ على بُطْلانِ الشّيْءِ بِأنّهُ لمْ يتبِّعْهُ إلاّ الضُّعفاءُ، كقوْلِهِ:** ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] **وقوْلِهِ:** ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣]، **فردّ اللهُ بقوْلِهِ:** ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، كقوله ﷻ عن قوم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقوله – أي عن المشركين المحادين للنبي ﷺ –: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، فرده الله بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]. هذه المسألة وثلاث مسائل قبلها هي فروع من المسألة الرابعة، وهو أن دين أهل الجاهلية مبني على التقليد، والمسألة الرابعة ذكر فيها: تقليد الآباء، والخامسة ذكر فيها: تقليد الأكثر والاحتجاج بالكثرة على صحة الشيء، والمسألة السادسة ذكر فيها: الاحتجاج بمن تقدم، بأن وجدوا مجتمعاتهم وآباءهم وأجدادهم على أحوال معينة، **المسألة السابعة: الاستدلال بأقوام ذوي مناصب**؛ إما في العلم، أو العمل، أو الجاه، أو الملك؛ كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ

وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وكذا الاستدلال بحال أحبار اليهود الذين علموا نبوة محمد ﷺ فلم ينفعهم ذلك العلم، وإن كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، لكن لما لم يتبعوه لم ينفعهم ذلك، وفي هذه المسألة: الاستدلال على بطلان الشيء بأنه لم يتبعه إلا الضعفاء أو القلة كذلك، فهذه المسائل في الحقيقة ضاربة بجذورها في المجتمعات كلها، وعبر العصور طرق شيطانية دائمًا يستغلها الشيطان لصرف الناس عن الحق وإغرائهم بالباطل، أن أكثر الناس يقولون ذلك: وجدنا الناس على ذلك، أنتم أيها الضعفاء، أيها الحقراء، أيها الفقراء، وحدكم على الحق وغيركم من أهل الدنيا كله على الباطل، أن كبار الناس ليسوا على هذا الذي أنتم عليه، وكلها واجهها الشيخ رحمه الله كما واجهها الأنبياء قبل ذلك، كما يواجهها كل داع إلى الحق يأتي بدعوة مستغربة على الناس؛ لأنهم ألفوا الباطل وشبوا عليه وشابوا عليه، فمسألة الاستدلال بأن أتباع الحق هم الضعفاء، عند أهل الإيمان دلالة على الحق، عند من يفهم ويعرف أتباع الأنبياء، هذه دلالة على الحق؛ لأن الله ﷻ قص علينا من قصص أنبيائه أن أتباع الرسل كانوا دائمًا الضعفاء، ولقد كان «هرقل» على كفره يعلم ذلك، فحين سأل أبا سفيان عن النبي ﷺ قال: **«وسألْتُك: أشْرافُ النّاسِ يتّبِعُونهُ أمْ ضُعفاؤُهُمْ؟ فزعمْت أنّ ضُعفاءهُمِ اتّبعُوهُ، وهُمْ أتْباعُ الرُّسُلِ»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٧).

فهذا دليل على أن الله ﷻ قدر سنة ماضية دائمة لا تبديل لها، أن الحق يبدأ ضعيفًا وأنه يتبعه في البداية الضعفاء، وهذا بحكمة بالغة في تربية الجماعة المؤمنة وتوجيه قلوبهم إلى الله ﷻ، وأن لا يدخل في هذا الدين في بدايته - وسوف يكون هذا الذي دخل في البداية رأسًا بعد حين - لا يكون متعلقًا بأغلبية أو أكثرية أو جاه أو مال، لا يتعلق قلبه إلا بالله ﷻ؛ ولذلك يثبت على الحق في فترات الشدة، فهو أولى بأن يثبت إذا مكن الله له؛ ولذلك قضية الاحتجاج بأن الضعفاء هم أتباع الحق، يعني: أن الضعفاء إذا كانوا هم الأتباع فيكون الأمر باطلاً، وأن هذا دليل على أنه ليس بحق، فهذا من سيما أهل الجاهلية، قال الله ﷻ عن قوم نوح عليه السلام: ﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء: ١١١]، الفقراء، الحاكة، الحجامين، غير ذلك من المهن التي يحتقرون أصحابها، كانوا يرون أن شرف المهنة وشرف المال هو الذي يُحكم به على صحة الشيء من عدمه، من اتبعه؟ الأشراف، الأغنياء، الملوك، ذوو الجاه، أم الضعفاء؟

وكما دل على أن هذا من الجاهلية التي فيمن يكفر بالأنبياء، وقع مثل هذا فيمن ينتسب إليهم، ولكن تسربت الجاهلية إليهم، كما قال الملأ من بني إسرائيل لنبيهم حين قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾، فكان أن قالوا له: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

كيف لم يؤت سعة من المال ويكون رئيسًا وملكًا علينا؟! لابد أن يكون المال مقدمًا وأصحاب الأموال مقدمون، وهذه المسألة في كل المجتمعات: أن أصحاب الأموال، أن الأغنياء، أن أصحاب المهن

المرموقة والتي يشار إليها بالبنان هم الذين يحترمهم الناس، ويرون في اتباعهم اتباع الحق، وكأن الحق إنما يعرف بمن غلب ومن قوي، ومن كان غنيًا؟!

قضية فعلاً ضاربة بجذورها في عامة المجتمعات، هذا الذي هدمه القرآن وأبطله، قال ﷻ عن نوح: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١٢ - ١١٥].

يُبنى المجتمع المسلم على قواعد جديدة، ليست على قواعد الجاهلية، قواعد علا فيها بلال رضي الله عنه فوق أبي سفيان، وبلال عبد حبشي مولى من الموالي، وأبو سفيان وبعد إسلامه كان شريفًا وقرشيًا، ومع ذلك لم يزل في الإسلام عبر التاريخ بعد بلال بمراحل، بلال من السابقين الأولين من المهاجرين، فهو أسبق حتى من الأنصار، وأبو سفيان من مسلمة الفتح، ومعاوية من مسلمة الفتح، حتى ولو كان صار أميرًا للمؤمنين، فبلال مقدم عليه بإجماع أهل العلم من أهل السنة، وهذا يدلنا على أن المجتمع المسلم والفكر الإسلامي قد شُكِّل بطريقة أخرى غير الطريقة الجاهلية في ميزان الناس؛ كما روى مسلم عنْ عامِرِ بْنِ واثِلة أبِي الطُّفيْلِ: «**أنّ نافِع بْن عبد الحارِثِ لقِي عُمر بْن الْخطّابِ بِعُسْفان، وكان عُمرُ اسْتعْملهُ على مكّة، فقال عُمرُ: منِ اسْتخْلفْت على أهْلِ الْوادِي؟ قال: اسْتخْلفْتُ عليْهِمْ ابْن أبْزى، قال: ومنِ ابْنُ أبْزى؟ قال: رجُلٌ مِنْ موالِينا، قال عُمرُ: فاسْتخْلفْت عليْهِمْ موْلًى، قال: إنّهُ قارِئٌ لِكِتابِ اللّهِ تعالى، عالِمٌ بِالْفرائِضِ، قاضٍ، قال عُمرُ: أما إنّ نبِيّكُمْ ﷺ قال: «إنّ اللّه يرْفعُ بِهذا الْكِتابِ أقْوامًا، ويضعُ**

بِهِ آخرِين»[١]. فعلاً تغيرت موازين الرفعة والانخفاض؛ لأن القرآن أسس هذا في قلوب الصحابة ﷺ، فنحن نحتاج أن يتأسس ذلك فينا في مسألة الاحتجاج بالكثرة، الاحتجاج بمن تقدم مطلقًا ليس كذلك، لابد لمن تقدم أن يكون معه الحق والدليل، لابد أن يُربى الناس على أننا لا نستغرب؛ لأن كبار الناس ليسوا على ذلك؛ لأن من كانت لهم أسماع وأبصار وأفئدة؛ لأن بعض المشايخ والعلماء كانوا على غير ذلك.

ليست هذه هي القضية، القضية في اتباع الحق، لابد أن يكون معهم الحق الذي أوحاه الله إلى أنبيائه ورسله، المشركون قالوا نفس الكلمة للنبي ﷺ، قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣]، فالله ﷻ ذكر أنها فتنة، المناصب فتنة، المال فتنة، الجاه فتنة، كل ذلك امتحان للعباد، ليقول هؤلاء الجهلاء أهل الجاهلية الأغبياء، عندما يرون المؤمنين الذين آمنوا بالرسول ﷺ واتبعوه: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ - على سبيل الاحتقار والتصغير - ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾، أي: بالهداية، استبعادًا لذلك، يقولون: لا يمكن أن يكون هؤلاء أسبق منا إلى الهداية، طالما نحن أصحاب الجاه والمنزلة، فلابد أن نكون نحن السابقين في كل شيء، كما قالها صاحب الجنتين: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، ويقولها الإنسان الجاهل الذي يقول: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] كأنه بالمال اشترى الآخرة أيضًا، وأنه طالما عنده كرامة في الدنيا فلابد أن

---

(١) أخرجه مسلم (٨١٧).

يكون مكرمًا في الآخرة، ونعوذ بالله من ذلك.

هذا من حال أهل الجاهلية عندما يقولون: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾، قال ﷻ: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾، نعم قد منّ عليهم فعلاً، وإن كانوا ضعفاء، وإن كانوا فقراء، وإن كانوا ليسوا ذوي مناصب هامة في المجتمع، لكنهم قلوبهم منكسرة لله ﷻ، تعرف قدر النعمة وتعرف المنعم بها، وتثني عليه، وتنسب الفضل له، ليس كمن أنعم الله عليهم بالنعم، فنسبوها إلى أنفسهم، وقالوا: هذا لنا، هذا لي، أنا أكثر منك مالاً وأعز نفرًا، إنما أوتيته على علم عندي، نعوذ بالله.

فهذا الذي دمر قلوبهم أفسد أحوالهم إعجابهم بأنفسهم، الله ﷻ أعلم بالشاكرين، أعلم بمن يشكر نعمته، يثني بها على الله ﷻ، يثني على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنه المتفضل ذو الفضل العظيم، لا ينسب الفضل إلى نفسه، بل يرى في نفسه العجز والضعف والفقر والاستضعاف محنة، يُحصِّل بها المؤمن - بفضل الله ﷻ - فيها من أسباب الفقر إلى الله والانكسار إليه ما يكون به أهلاً للمنة، فعلاً من حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في تقدير فترة القلة والغربة والاستضعاف، وما يسميه الكفار أنهم أرذلون، أعني: الحال الذي يسمي فيه الكفار المؤمنين الأرذلين، كل هذا من حكم تقدير الله ﷻ على الجماعة المؤمنة أن ينكسروا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن يعرفوا فضل الله ﷻ لعلهم يشكرون؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾ [الأنفال: ٢٦].

فعلاً عندما يكون الإنسان في ضيق ثم يتسع الأمر، يعرف قدر السعة، عندما يكون في قلة فيجعل الله بعد حين أتباع الحق كثرة غالبة، يكون هذا أعظم شكرًا لنعمة الله عند المؤمنين، يدركون فضل الله عليهم، لم يكونوا يملكون شيئًا من قلوب الناس، كان الناس ينفرون منهم، فإذا بهم يقبلون عليهم، إذًا دخل الناس في دين الله أفواجًا بفضل من الله وفتح منه، فعند ذلك يستغفرون ويسبحون ويحمدون: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾، فلايشهدون الفضل لأنفسهم كما ذكر ﷻ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٦]، فترة الاستضعاف، فترة الذلة: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣]، كل هذا لأن من حرم من النعمة مدة من الزمن، ثم أعطيها عرف قدرها، وعرف أنه لم يصنع فيها شيئًا، كيف وقد كان عدمًا منها؟! فعندما يعطاها يعرف أنها محض من فضل الله ﷻ، فهذا أول درجات الشكر، معرفة أن الله أنعم بها، ثم يثني بها على الله ﷻ، ثم يصرفها في طاعة الله؛ لأنه كان مطيعًا في الحرمان، فكيف في حال العطاء؟! يكون أكثر طاعة، ومقيمًا للصلاة مؤتيًا للزكاة، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر؛ لأنه كان يفعل ذلك وسط الاستضعاف، وأحب هذه العبادات، فكيف إذا مُكِّن له؟! لذلك قال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، أعلم بمن يقع منه الشكر، فيوفقه بالنعمة وبالهداية والتوفيق لهذا الدين والإيمان، فتكون المنة عليه مشكورة؛ لأن الله ﷻ أعلم بالشاكرين وأعلم بالظالمين، فهو يضع الأشياء في مواضعها، ما وضع النعم بالهداية

والإيمان، نعمة الهداية والإيمان التي هي فوق نعمة المال والجاه والصحة والعافية بما لا وجه فيه للمقارنة، فهي فوقها كما بين السماء والأرض، هذه النعم يضعها الله ﷻ في موضعها عند الشاكرين الذين تنمو قلوبهم وتكبر، (تشكر): شكرت الدابة إذا أظهرت سمنًا أكثر مما تأكل من العلف، فهذه دابة شكور إذا كانت تُظهِر من السِمن أكثر مما تأكل(١)، فالقلوب المؤمنة تنمو على النعم، تكبر، تتسع، تنشرح الصدور، تعرف أكثر وتقبل على الله أكثر، وهو ﷻ أعلم بالظالمين، ما حرمهم ولا صرفهم عن الإيمان والهدى إلا لأنه يعلم أحوالهم: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣]؛ لذلك عندما يرى المؤمنون مثل هذه الاتهامات: لأنكم ضعفاء، لأنكم قليل، لأنكم شرذمة، لأن الأكثر معنا، لأن الأغلبية ضدكم، وأنكم ليس عندكم جاه ولا منزلة ولا مال، فهذه ليست في الحقيقة اتهامات، هي في الحقيقة من علامات أنهم على الحق، طالما كان معهم البينة من الوحي المنزل من عند الله ﷻ.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة أبواب الكاف والشين (١٠/ ١٠) قال: (شكر: قَالَ اللَّيْث: الشُّكْرُ: عِرفانُ الإحسانِ ونَشرُه، وحَمْدُ مُوليهِ، وَهُوَ الشُّكور أَيْضا، والشُّكُورُ من الدَّوابِّ: مَا يكفيهِ للسِّمَنِ العلفُ القليلُ، والشَّكِرَةُ من الحَلائِبِ: الَّتِي تصيبُ حظّاً من بقلٍ أَو مرعًى فتغْزُرُ عَلَيْهِ بعد قلةِ لبنٍ. وإذا نزلَ القومُ منزلا فأصابتْ نَعَمُهُمْ شَيْئا من البُقول فَدَرَّتْ، قيل: أَشْكَرَ القومُ، وإنهم ليحتلِبُونَ شَكْرَةً جَزْم، وَقد شَكِرَتِ الحَلُوبَةُ شَكَراً).
وانظر العين (٥/ ٢٩٢)، ومقاييس اللغة (٣/ ٢٠٨)، ولسان العرب (٤/ ٤٢٤).

الْمسْألةُ التّاسِعةُ: اقْتِداؤُهُمْ بِفَسَقَةِ الْعُلَمَاءِ وجُهّالِ الْعُبّادِ، فَأَتَى بِقوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ [التوبة: ٣٤].

وقوْلِهِ: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]

الشـــرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (**الْمسْألةُ التّاسِعةُ**) - أيضًا فرع على هذا الأصل الخطير وهو التقليد - قال: (**اقْتِداؤُهُمْ بفسقةِ الْعُلماءِ وجُهّالِ الْعُبّادِ، فأتى بِقوْلِهِ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ [التوبة: ٣٤]، **وقوْلِهِ:** ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]).

وهذه من أكثر المسائل تأثيرًا في المجتمع، ذلك أن الناس تبع لجماعات ثلاثة؛ أولاً: الملوك والكبراء، وهذه المسألة التي قبلها: (**الْمسْألةُ الثّامِنةُ: الاسْتِدْلالُ على بُطْلانِ الشّيْءِ بِأنّهُ لمْ يتبِّعْهُ إلاّ الضُّعفاءُ**)، الملوك أصحاب السلطان والقوة، والرؤساء أصحاب الجاه والمنزلة، ثم طائفة ثانية: وهم العلماء، وطائفة ثالثة: وهم العُبّاد، فالناس تبع لملوكهم وعلمائهم وعبّادهم؛ لأن القلوب مفطورة على تقدير العلماء والعباد؛ ولذلك الاستدلال على بطلان الشيء بأن العلماء والعُبّاد على خلافه، بأن هناك

أحبار ورهبان على خلافه، كما أن الملوك على خلافه، وقد جمع عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ هؤلاء الثلاثة في قوله[(١)]:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ وأحْبارُ سُوءٍ ورُهْبانُها

نعم، خطر عظيم على الناس، أحبار السوء، علماء السوء، والعياذ بالله، فسقة العلماء، ويصل الحال أحيانًا إلى الكفر، كأحبار اليهود والنصارى، وكذا رهبان النصارى؛ لأن الرهبانية كانت في النصارى ابتدعوها، لكن كان من يُظهِر العبادة، لكن على خلاف الحق، إنما يظهرها إنما يتعبد لكي ينال من الناس المنزلة، فهؤلاء الأحبار والرهبان مع الملوك صاروا حزبًا واحدًا في الصد عن سبيل الله وفي تكذيب رسول الله ﷺ، والناس - كما ذكرنا أحوال أهل الجاهلية - يتبعون هؤلاء، فسوف يجد أهل الحق عندما يأتون بالبينات من يقول لهم: إن أهل القوة في المجتمع ليسوا على ما أنتم عليه، وليس عندكم إلا الضعفاء، سوف يجدون من يقول: المشايخ ليسوا على ذلك، المشايخ كانوا على خلاف ما أنتم عليه، أحبار السوء كانوا يقولون غير ذلك، وهناك من يقول: عباد السوء كانوا يقولون غير ذلك.

نعم لا يسمونهم أحبار سوء ورهبان سوء، ولكن يسمونهم علماء وعباد، لكن لفسقهم منع قبول علمهم وعبادتهم، ومن كان فاسقًا ظهرت عليه علامات المعصية لا يجوز الاقتداء به، ولا يجوز اتباعه، ولا يجوز تقليده، ولايجوز استفتاؤه، ولا يجوز تقليده أو توليته منصب الفتوى، وذلك من

(١) انظر: (ص٧٣).

أعظم ما يؤدي إلى الفساد، أن يبحث عن عالم يستغل علمه بآيات الله ﷻ في التمكين لأهل الدنيا، ويستعمل علمه في المجادلة بالباطل، وصرف الناس عن الحق، وصرف الناس عن أدلة الكتاب والسنة وحقائق الكتاب والسنة، تكون الأدلة واضحة، وعالم السوء يلويها - والعياذ بالله - ويحرفها ويبدلها، ويأتي بما يعجز الناس عن فهمه، فيقول الناس: عالم، لا نستطيع أن نرد عليه، ونسأل الله العافية.

لذلك لابد أن يُوطّن أهل الإسلام على ما وُطِّن عليه أصحاب رسول الله ﷺ في هدم هذه المسائل من مسائل الجاهلية: أن العالم الفلاني قد قال، كأنه نص، كأنه معصوم، لا يلزم حتى ولو كان عالمًا، فضلاً أن يكون فاسقًا، وليس بعالم في الحقيقة؛ لأن العلم هو الخشية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

لا نعني بذلك أن يُجرأ الناس على الفتوى دون الرجوع إلى أهل العلم، ولكن لابد بأن يكون الكلام بالبينات، يكون بالأدلة، لابد أن يُعلّم الناس أنهم لا يتبعون الاتباع الأعمى، لا يقلدون التقليد الأعمى للمشايخ أو للعباد الزهاد، تجد فِرقًا كثيرة أضلت الناس عبر التاريخ في الأمم السابقة وفي أمة الإسلام؛ الذين أظهروا الزهد والتصوف، والذين أظهروا العلم والفتوى ووجوه الاستدلال، وتركوا النصوص الصريحة وتركوا مقاصد الكتاب والسنة، والملوك - كما ذكرنا - الذين خالفوا بسياساتهم السياسة الشرعية، قال الله ﷻ في إبطال ما تعلق به أهل الكتاب من الأحبار والرهبان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [التوبة: ٣٤]، أكل المال عند هؤلاء بالباطل قضية

خطيرة، لابد أن يحذر العالم على نفسه، وكذا العابد أن يكون غرضه المال، إن هذا من حال أهل الجاهلية، من حال أهل الفساد؛ أن يعمل، أن يقول، أن يفتي، أن يدعو، أن يتعبد من أجل المال، هذا أمر لابد أن يكون عند أهل العلم وعند أهل الزهد والعبادة أمام أعينهم دائمًا؛ كما ورد في الأثر الاسرائيلي: «يا ابن آدم، علِّم مجانًا كما عُلِّمْت مجانًا»؛ ولأن ضغط المال في كثير من الأحيان يؤدي إلى أن يحرف الناس الكلام على ما يريده أهل الأموال، دافعو الأموال، أهل الأموال يريدون شيئًا، يفصل لهم فتوى كما يريدون، أهل الجاه يريدون شيئًا يفصل لهم فتوى كما يريدون، وأنت والله تجد العجب فيما يقع في الناس في ذلك، تجدهم عبيد أغنيائهم وعبيد ملوكهم، علماء السوء - والعياذ بالله - عندما يكون هناك مال تخرج الفتاوى كما يُراد، فتوى بالأمس مثلاً تكون في تحريم كذا وكذا، فإذا جاءت الأوامر من أهل الأموال أو من أهل السلطان والقوة، صار هذا حلالاً بلا شبهة، ونسأل الله العافية، كان هناك من يوصف بأنه حامي الإسلام، الملك الصالح الذي ينصر الدين، ثم بعد أيام، بعد شهور بسيطة عندما غلب وقهر، وأتى غيره، صار عميل الاستعمار، صار صنيعة الأعداء، صار ملكًا ظالمًا، عجب والله أن هذا أصبح في زماننا! يقال عنه أنه هو الطريق، ليست أنها زلات وقعت من أصحابها، أمور كانوا مُكرهين عليها ما كان ينبغي أن تقع منهم، لكن صار أن يُقال: هذا هو الطريق، الناس لابد أن يكونوا مقلدين هذا التقليد الأعمى، سيروا خلف ما يقوله ملوككم وعلماؤكم وعلماء السوء فيكم، والعياذ بالله.

﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ

عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ [التوبة: ٣٤]، وهذا - والعياذ بالله - عندما يصدون عن كتاب الله وعن سنة النبي ﷺ، عندما ترد الأدلة بالحكايات والخزعبلات والخرافات التي ينشرون فيها فضائل - مثلاً - الزاهد الفلاني، وأنه كان يقع له من الكرامات كذا وكذا؛ ليبرر عند الناس أن يُطاف بقبره، أن ينذر في صندوق النذور الخاص به؛ ليأكلوا بعد ذلك هم هذه النذور، كم من الناس يقتسمون هذه الأموال التي توضع في صناديق النذور، صراع مرير على من يكون إمامًا لهذا المسجد الذي به صندوق نذور؛ لأنه له نصيب في صندوق النذور، ويسكت عن النذر لغير الله، أو يبرره بأن الناس يقصدون النذر لله، ولكنه يضعونه عند الولي الفلاني؛ لأن الفقراء يأتوها إلى هناك.

وهذا لمن يتكلم في العلم، وإلا فكم من قائل بأن هذا النذر للولي هو في الحقيقة نذر لله، لكن على سبيل الوساطة، وهذا الذي قاله المشركون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وقد ذكرت لكم ما قاله لي بعض الإخوة أنه كان في قريتهم قبر، وكان مبنيًا عليه مسجد، والمسجد تعرض لعوامل التعرية واحتاج إلى الترميم فهدم، فمن ضمن ما هدم القبر، فنبشوا ذلك القبر فإذا به عظام كلب، والعياذ بالله، فأخبروا وزارة الأوقاف بأننا وجدنا عظام كلب تحت الضريح، ولم نجد عظام إنسان، فنسوي القبر ونلغيه، فقالوا لهم: لا. والإدارة الهندسية أرسلت بأن هذا المسجد مسجل بأن به ضريح، فلابد وأن يعاد بناء الضريح، ألقوا عظام الكلب، وابنوا الضريح مرة ثانية - والعياذ بالله - ولو كان ضريح كلب. انظر إلى أكل أموال الناس بالباطل والصد عن سبيل الله، هذا من أعظم ما يُفتى به بالباطل، من أخطر ما يتعرض له الناس أن يبرر الفساد

والكفر والشرك والنفاق وموالاة أعداء الإسلام، كل ذلك من خلال أحبار السوء ورهبان السوء، نسأل الله العافية؛ وأما قوله ﷻ: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ فهو خطاب لأهل الكتاب: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾، الغلو في الدين: المبالغة في التعظيم لمن لا يستحق ذلك[1]، المبالغة في التعظيم عمومًا؛ كما قال النبي ﷺ: «**لا تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرتْ النَّصَارَى ابْن مرْيم، فإنّما أَنَا عبْدُهُ، فقُولُوا عَبْدُ اللّهِ، ورسُولُهُ**»[2]، المبالغة في تعظيم المخلوق؛ حتى يجعل كتعظيم الله ﷻ، وهذا الذي يفعله الرافضة والصوفية، وأنواع ممن يغلون في المشايخ، حتى هناك ممن ينتسب إلى السلف ويغلو أيضًا في المشايخ كأن كلامهم حجة لا ترد، حتى ولو خالف الدليل، حتى ولو خالف ما قاله هو نفسه قبل ذلك، فهذا الكلام لابد وأن يُربى الناس على خلافه، الله نهى أهل الكتاب عن الغلو: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ۝٧٧﴾ [المائدة: ٧٧].

وهذا الوصف في النصارى أغلب، وإن كان موجودًا في اليهود، لكن في النصارى الضُّلال أغلب؛ كما قال النبي ﷺ: «**الْمغْضُوبُ عليْهِمُ: الْيهُودُ، والضّالُّون: النّصارى**»[3]، الذين غلوا في دينهم حينما أطروا عيسى ابن

---

(١) انظر معنى الغلو لغة في: العين (٤/ ٤٤٦)، ولسان العرب (١٥/ ١٣٢)، وتهذيب اللغة (٨/ ١٦٧)، ومقاييس اللغة (٤/ ٣٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٥، ٦٨٣٠)، ومسلم (١٦٩١).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٩٥٣، ٢٩٥٤)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٩٨)، ابن خزيمة في التوحيد (١/ ٣٨١)، والطيالسي (٢/ ٣٧١).

مريم عليه السلام، رفعوه فوق منزلته، وجعلوه ابنًا للإله وإلهًا مع الله ﷻ أو صورة من صور الإله، فقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا، وقالوا: (إن الله ﷻ ثالث ثلاثة)، وكل هذا من الكفر، الغلو بغير الحق، غلوا في دينهم غير الحق، واتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل، هؤلاء الذين ضلوا لم يعرفوا الحق بسبب تركهم للنصوص، بل منهم من كانوا يقرون بذلك، كما اعترف بولس الرسول، رسول الشيطان، في رسائله الذي حرّف دين النصرانية، كان يُتهم بالكذب، فيقول: (**فقال لهُمْ يسُوعُ: إنّ وقْتِي لمْ يحْضُرْ بعْدُ، وأمّا وقْتُكُمْ ففِي كُلِّ حِينٍ حاضِرٌ. لا يقْدِرُ الْعالمُ أنْ يُبْغِضكُمْ، ولكِنّهُ يُبْغِضُنِي أنا، لأنِّي أشْهدُ عليْهِ أنّ أعْمالهُ شِرِّيرةٌ. اِصْعدُوا أنْتُمْ إلى هذا الْعِيدِ. أنا لسْتُ أصْعدُ بعْدُ إلى هذا الْعِيدِ، لأنّ وقْتِي لمْ يُكْملْ بعْدُ. قال لهُمْ هذا ومكث فِي الْجلِيلِ. ولمّا كان إِخْوتُهُ قدْ صعِدُوا، حِينئِذٍ صعِد هُو أيْضًا إلى الْعِيدِ، لا ظاهِرًا بلْ كأنّهُ فِي الْخفاءِ**)[1]، يبرر كذبه بأنه كذب من أجل ذلك ليعظم ملكوت الله، نعوذ بالله، وهذا من العجب أنهم يكتبونه إلى الآن في كتبهم، فبولس هذا الذي هو مؤسس العقيدة النصرانية ضل وأضل كثيرًا، يقر على نفسه بالكذب، ويقول: إنه يكذب ليعظم ملكوت الرب، ويحب الناس الرب، وهذا والله من الباطل، فإن الكذب لا يحتاج إليه أبدًا في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وملكوت الرب - سبحانه - لا يفتقر إلى كذب الكاذبين، هذا الذي أضلهم، هذا الذي اخترع ألوهية المسيح، والذي قال بالتثليث؛ ولذلك ينسبون مذاهبهم إليه، يقولون: «كنيسة رسولية» نسبة إلى بولس الرسول، وهو الذي غير في

---

(١) انظر: انجيل يوحنا (الاصحاح السابع).

الحقيقة دين المسيح عليه السلام، وأدخل فيه عقائد الوثنية اليونانية بعد أن كانت دعوة المسيح دعوة توحيد خالصة، وكان الحواريون على ذلك، إلى أن جاء هذا الرجل فأفسد على الناس دينهم - والعياذ بالله - إلا بقايا قليلة من أهل الكتاب: ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ [المائدة: ٧٧]، وأكد بقوله: ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾. إذًا، كان هذا من مشايخ السوء، فسقة العباد والدعاة؛ لذلك لا يجوز أبدًا أن يُحتج بأن العالم الفلاني قد قال، بأن الداعية الفلاني قد قال، لابد أن يكون هناك احتجاج بالدليل، لابد أن يُربّى الناس على ذلك، وليس أن هذا قدح في العلماء، أو قدح في العباد، أو قدح في العبادة، أو خروج على الحكام، ليس الأمر كذلك، العبرة بأن الحق لابد أن يتبع كحق، فإذا ظهرت علامات الفسق ومخالفة الشرع وأكل المال بالباطل على عالم أو على عابد، أو على ملك أو رئيس أو صاحب قوة وسلطان، فلابد من أن يحذر منه وقد يصل الأمر - والعياذ بالله - إلى الضلال المبين والنفاق الأكبر والكفر الأكبر على حسب الأحول، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يعافينا من ذلك كله.

الْمسْألةُ الْعاشِرةُ: الاسْتِدْلالُ على بُطْلانِ الدِّينِ بِقِلّةِ أفْهامِ أهْلِهِ وعدمِ حِفْظِهِمْ، كقوْلِهِمْ: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧].

الشـــرح:

هذه الآية الكريمة من قول قوم نوح لنوح عليه السلام، حيث قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]، فذكروا من ضمن هذه الشبهات أن المتبعين لنوح عليه السلام هم الضعفاء، أصحاب المهن الضعيفة، وليسوا من أصحاب الجاه والمال: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾، وهذا قد سبق الكلام عليه في المسألة الثامنة، في كونهم يستدلون على بطلان الشيء بأنه لم يتبعه إلا الضعفاء، وليسوا ذوي الجاه والمنزلة، فقال هنا: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾، أي: بمجرد ما بدا لهم، رأوا ذلك ولم يتفكروا ولم يتمحصوا فيه - بزعمهم - بمجرد أن بدا لهم هذا الرأي في صحة الدين اتبعوه، والذي يريدون أن يقولوه: «إن الأمر يحتاج إلى شك واختبار ونحو ذلك، وليس الاتباع بمجرد ما ظهر»، وهذا قول يحاولون أن يذموا به أهل الحق؛ لأنهم استجابوا للحق أول ما ظهر لهم، والحقيقة أن الاستجابة للحق أول ما يظهر للإنسان من علامة سلامة الفطرة، وليس الشك هو الأصل حتى يكون مطلوبًا أن نبدأ منه، بل الأصل ما فطر الله عز وجل العباد عليه من الفطرة المستقيمة من توحيد الله سبحانه وتعالى وتصديق رسله؛ كما قال عز وجل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: قال الله عز وجل: «**وإِنِّي خلقْتُ عِبادِي حُنفاء كُلّهُمْ، وإِنّهُمْ أتتْهُمُ**

الشّياطِينُ فاجْتالتْهُمْ عنْ دِينِهِمْ»[١]، والحنيف: هو المائل إلى الله المعرض عن غيره[٢]، فالله جبلهم وفطرهم على أن يمليوا إلى الحق من عند الله ﷻ، وأن يقبلوه ويستجيبوا له، فهذه فطرة فطر الله الناس عليها، وهي الحنيفية: الميل إلى الله والإعراض عما سواه ﷻ، فليس هذا إذًا بعيب أن يستجيب الإنسان للحق أول ما يظهر له، بل هذا هو الواجب عليه، ومن يزعمون أن الأصل أن يشك الإنسان، ثم ينتقل من الشك إلى اليقين، إنما سبب ذلك العلوم المخترعة التي لا تنفع، بل تضر، كعلوم الفسلفة وعلم الكلام، حينما يخوض الإنسان في علوم الغيب بعقله المحدود دون استضاءة بنور الوحي؛ فيترتب على ذلك حيرة وشك وتردد، فهؤلاء يزعمون أن هذا علم، وأن من لم يعلم هذا العلم فهو قليل الفهم، كما ترى كثيرًا منهم يأتون بأنواع الألغاز والأحاجي، وأنواع الكلام صعب الفهم على أصحابه الذين في الحقيقة وضعوه بهذا الأسلوب؛ ليترفعوا به على عامة الناس، لكي يكونوا في ظنهم أعلى من هؤلاء الناس الذين لا يفهمون، مع أنه علم لا ينفع وجهل لا يضر، فمن لم يفهم كلمات الفلاسفة وعلم المنطق وأساطير اليونان والرومان وقدماء المصريين، لم يضره ذلك، فمن لم يفهم هذا الكلام ولم يعش الحيرة التي عاشها الفلاسفة والمتكلمون، فهذا - بفضل الله ﷻ عليه - لا يضره، فالزعم بأن هذه العلوم العلم بها هو المطلوب، العلوم التي يسمونها علومًا عقلية، والتي مردها إلى علوم الفلسفة وعلم الكلام وأساطير الأولين وأنواع الثقافات الخبيثة التي أفرزت من خلال هذه العلوم، التي

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه.
(٢) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم رحمه الله (١/ ١٧٤).

أنشأت الإلحاد والوثنية والإعراض عن شرع الله وتكذيب الرسل؛ لذلك نقول: هذه الأنواع من العلوم عدم العلم بها لا يضر، وقد تسرب هذا الأمر من أمور الجاهلية إلى أناس منتسبين إلى الإسلام، فصاروا يقولون عمن يستدل بالكتاب والسنة أنه ليس عنده إلا ظواهر سمعية، ليس عنده يقين من العقل، وجعلوا نصوص الكتاب والسنة مؤخرة في الاستدلال بها عما يسمونه قواطع عقلية، وهم مختلفون في هذه القواطع المزعومة، ليست بقواطع ولاعقلية، وكل منهم يأتي بكلام يفسره على ما يريد، ويختلف من بعده في تفسير كلام الأولين، وتتشعب الأمور، ولو نظرت نظرة واحدة على كل كتب علم الكلام وكتب الفلسفة، لعلمت كيف جنت هذه الطريقة على صفاء العقيدة الإسلامية المستنبطة من الكتاب والسنة، لعلمت كيف تأثرت ثقافة وفكر كثير من أبناء المسلمين وطريقتهم في الفهم بسبب هذه العلوم المزعومة، التي لو لم يفهمها الإنسان فلا يضره، ولو قالوا عنه لا يفهم، إنما - كما ذكرت - وضعوها من عند أنفسهم أو تقليدًا لغيرهم؛ لكي يشعر الناس بالعجز أمامهم؛ حتى يسلموا لهم، ويقول القائل منهم: نحن لا نفهم هذا الكلام، فلندع الأمر برمته لهؤلاء؛ ولينقادوا لهم بعد ذلك في أمور مخالفة للأدلة النقلية والعقلية التي استدل بها الكتاب والسنة؛ لأجل أنهم لم يفهموا، كثير من الناس انطلت عليه الحيلة، عندما يكلم بعضُ الناس عامتهم مثلاً في مسائل الأصول المبنية على المنطق، ومسائل علم الكلام المبنية على علم المنطق والفلسفة، فإن أكثر الناس لايفهمون المراد، فيقول: هؤلاء يأتون بالعلم على وجهه؛ لأننا لا نفهم شيئًا منهم، هم الذين يعلمون ونحن لا نعلم؛ ولذلك لابد أن نتبعهم في كل ما يقولون به.

أهل الإسلام الحق وأهل السنة يخالفونهم في ذلك، فيتركون هذه العلوم، ولا يضرهم أن رماهم من خالفهم بأنهم قليلو الفهم، وأنهم إنما يتبعون الظواهر السمعية - كما يسمونها - لما يبدو ويظهر لهم من الحق الذي جاء به الرسول ﷺ، وليس في الحقيقة يبدو لهم وحدهم، بل هذا الذي يظهر من الكتاب والسنة هو الحق عند كل أحد من أئمة العلم الذين هم قد جمعوا بين العلوم العقلية والعلوم السمعية، وكما ذكرنا إنما يتذكر أولوا الألباب، فالمؤمنون هم أولوا الألباب حقيقة، هم الذين يتفكرون بالعقول السوية، والكلام الذي جاءت به الرسل كلام سهل واضح بيِّن تقبله العقول، وليس غرض الرسل ولا مقصودهم تعجيز الناس عن الفهم؛ لينقادوا متبعين بلا عقل ولا روية، وإنما مقصود الرسل الدلالة على الطريق إلى الله سبحانه وتعالى؛ لذلك لا يعبأ أهل الإسلام وأهل السنة بما يرميهم به أهل البدع، من أنهم قليلو الفهم في علومهم، ومثل هذا في زماننا كثير من أنواع العلوم المعاصِرة، وإن جهلها كثير من أهل الإسلام، وهذه من الحجج التي يحتج بها أهل الغرب على فساد اتباع الإسلام وعدم صحة اتباع الإسلام، حيث إنهم يقولون: المسلمون متأخرون في العلوم الدنيوية، وأنهم لا يفهمون، مع أنه عندما يتيسر للمسلمين من أسباب العلم التجريبي شيء يسير، فإنهم يفوقون غيرهم بلا شك، وهذا أمر ملحوظ أن كل أهل الإسلام متقدمون في حقيقة الأمر في كل أنواع العلوم، إذا أتيحت لهم الفرصة في ذلك من العلوم التي تنفع الناس في دنياهم، فضلاً عما ينفعهم في دينهم، فهذا من شبهات أهل الجاهلية، يأبون اتباع الحق؛ لأن العالم الإسلامي متخلف في العلوم الدنيوية في العلوم التجريبية ونحو ذلك، وهذا في

الحقيقة أمر لا يعني بطلان ما عليه أهل الإيمان والإسلام، إذا لم يفهموا شيئًا، ولكن فهموا أعظم المسائل، وإن كان المسلمون - كما ذكرنا - إنما في حقيقة الأمر يحال بينهم وبين التمكن من هذه العلوم، يحال بينهم وبين الوصول إلى حقائق العلم؛ بسبب تسلط الأعداء من الكفار والمنافقين على بلاد المسلمين وعلى نظم تعليمهم وعلى طرائق تفكيرهم؛ حتى يشغلوهم بما لا ينفع؛ حتى يشغلوهم بمجرد الاستهلاك لما انتجته العلوم المعاصرة، وللتمتع بالشهوات التي تتيحها هذه العلوم وغيرها من نمط الحياة الغربي، دون أن يمكنوهم من البحث والتعلم الذي يوصلهم إلى أعلى المستويات في الحقيقة، ومن منهم يتمكن مِن ذلك وتيسر له الأمور في ذلك، يُظهِر تفوقًا وفهمًا يدل على فهم أمة الإسلام هو أعمق الفهم وأفضل الفهم، وعلمهم أفضل علم، وعقولهم أفضل عقول، كما ذكرنا: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرعد: ١٩ - ٢٠].

فهذا عهد الله ﷻ التوحيد والميثاق على طاعة الرسل؛ ولذلك نقول: وهؤلاء الذين على الفطرة السوية هم الذين يعرفون ويفهمون العلوم النافعة، فما كان من علم نافع في الدين والدنيا، فهم في حقيقة الأمر أسبق الناس إليه؛ وأما العلوم التي لا تنفع، مثل: علوم السحر، علوم الفلسفة، علوم الكلام، العلوم التي تُبنى على حكايات الأولين وأساطيرهم، هذه علوم لا ينبغي للمسلمين أن يشغلوا بها، ولو قيل لهم: كيف لا تعرفون مثلاً هذه الأسطورة عن الفراعنة أو هذه الحكاية عن آلهة اليونان أو الآثار التي تركها الرومان أو نحو ذلك؟! كل هذا علم لا ينفع وجهل لا يضر، ولو اتهمونا بأننا لا نفهم مثل هذه المصطلحات ومثل هذه العلوم، فهذا لا يضرنا

ولا ينقصنا، ولكن ليس هذا بدليل على عدم فهم أهل السنة وأهل الإيمان، بل أهل السنة أعظم الناس فهمًا وأعلاهم علمًا؛ وذلك لأن الله شهد لهم بالعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذًا نقول: إنه في هذه المسألة هناك نوعان من الناس، نوع يتهمون أهل السنة لاستدلاهم بنصوص الكتاب والسنة وظواهرهما بأنهم يتبعون ما ظهر من السمع دون القواطع العقلية، هؤلاء المتكلمون وأصحاب الفلسفة وعلم الكلام، وكانوا سببًا عظيمًا من أسباب انتشار البدع عندما أصبح علم العقيدة عند المسلمين مبنيًا - بسبب هؤلاء - على علم المنطق اليوناني وعلم الكلام.

نوع ثان من الكفار الذين يرفضون الدخول في الدين؛ لأن المسلمين متأخرون في العلوم التجريبية، والحقيقة أن المسلمين - كما ذكرنا - في العلوم النافعة هم أقدر الناس عليها، وإنما بنى الغرب حضارته على ما وصل إليه من علوم المسلمين، وإنما كان في سبات عميق وجهل طاغ على قلوبهم وعقولهم، والخرافات تملأ أذهانهم، حتى علمهم المسلمون كيف يصح ذلك، فلما سيطر أهل البدع والضلالات على أفكار المسلمين وعلى طريقة تعلمهم، تأخر المسلمون، لما أغلق باب الاجتهاد بزعمهم، وحصروا الناس في التقليد، وحصروا العقيدة في علم الكلام، وحصروا السلوك في ألغاز الصوفية، تأخر المسلمون وتركوا ما ينفع من العلوم، وسبق بها أهل الغرب؛ لذلك نقول: إن هذين النوعين الداخلين في هذه المسألة من مسائل الجاهلية كل منهما أدى إلى الآخر، أعني: أن أهل البدع هم الذين تسببوا في تخلف المسلمين، وتخلف المسلمين وتأخرهم في

العلوم التجريبية هو الذي نشأ بسبب انشغالهم بعلوم لا تنفع سبب التأخر أو سبب شبهة رد الإسلام؛ لأن المسلمين متأخرون في هذه العلوم، عند الغرب أو الشرق يرون الدول أو المجتمعات الإسلامية فيها من التأخر العلمي ما يدفعهم إلى ترك الدين أو عدم البحث فيه، وكلا الأمرين باطل، أعني: طريقة أهل البدع، وطريقة أهل الكفر، وهناك دراسات تاريخية تثبت أنه كلما اقترب المسلمون من الاستدلال بالكتاب والسنة، وأكثروا من ذلك، كلما تقدموا علميًا، وكلما صحت أفهامهم وأذهانهم وتفوقوا على غيرهم، وهذا أمر لا شك فيه، كلما انشغلوا بأنواع العلوم المسماة بالإنسانية، التي هي في الحقيقة اختراعات أرضية، وتركوا نصوص الكتاب والسنة كلما تبلدت عقولهم وتأخروا؛ ولذلك أعداء الإسلام عندما سيطروا على التعليم لا يجعلون المسلمين يهتمون بأنواع العلوم النافعة، وإنما يشغلونهم بأنواع من العلوم التافهة التي لا فائدة منها على الإطلاق، ولو نظرنا مثلاً لما يأخذه الطلاب في الجامعة من أنواع المعارف في بلادنا وغيرها كثير، في كليات تسمى (الكليات النظرية)، عامتها لا ينفع، لو أن جزءًا يسيرًا منها مما يسمونه (الآداب والتاريخ) ونحو ذلك، يشغلون الناس من أنواع من العلوم التي لا تثمر شيئًا في العقل الإنساني، وليست إلا تضييعًا للأعمار، ونسأل الله العافية، وما ينفع من العلوم التجريبية التي في حقيقة الأمر هي مرتبطة بدقة الفهم وصحة العقل، الذي يحصل بسبب اتباع الكتاب والسنة واتباع النصوص الشرعية، يصرفون الناس عن ذلك؛ لذلك قلق شديد من أعداء الإسلام في هذا الباب، من أن يتمسك المسلمون بالكتاب والسنة، يدركون أن المسلمين سوف يصلون إلى أفضل مما وصلوا

إليه لو تمسكوا بدينهم؛ لذلك انبرى بعض أذناب الغرب مما يدعون الحداثة، فقالوا: إنه لا يصح لنا أن نأخذ العلوم التجريبية من أوروبا، مثل: الطب، والفلك، والهندسة، والصناعات الحديثة ونحو ذلك، إلا بأن نأخذ ثقافتهم وآدابهم وفنونهم وكل مظاهر حضارتهم، حتى ما كان فيه من سخف وضلال ومنكر، أصبح المسلمون من أبناء المسلمين يدرسونه كذلك؛ لأجل أن يكونوا متشبهين بالغرب في مثل ذلك، في حين أنهم يمنعون المسلمين بسبب تسلطهم وتسلط أوليائهم ومنافقيهم على بلاد المسلمين يمنعونهم من العلوم النافعة فعلاً، ولو تقدم أحد منهم في باب؛ إما أن يأخذوه لديهم لكي يعضدوا علومهم، أو يقبروه ويدفنوه ويدفنوا علمه في بلاد المسلمين، بحيث لا يُنتفع بشيء من ذلك، رغم أن عقول المسلمين أنضج العقول وأفضلها.

مِن هنا نقول: إن هذه الشبهة من شبهات أهل الجاهلية، وهي الاحتجاج بأن أتباع الدين قليلو الفهم شبهة باطلة، وأن المسلمين في حقيقة الأمر حين يتبعون الدليل أول ما يظهر لهم، وحين يتبعون النصوص أول ما تبدو لهم، فإنهم في حقيقة الأمر تصح عقولهم، وتزكو أفهامهم ويتمكنون من كل علم نافع ديني أو دنيوي، كلما اقتربوا بعلومهم من الكتاب والسنة، وإنما يحصل الخلل بالبعد عن الكتاب والسنة، والاهتمام بعلوم باطلة تؤدي إلى تأخر المسلمين، علوم لا نفع فيها؛ كالفلسفة وعلم الكلام، كما ذكرنا في السحر وغير ذلك من خرافات وخزعبلات العقول الجاهلية الغربية، عندما نستورد مثل هذه الثقافات المحرمة المنكرة، ونجعلها نصب أعيننا، نتأخر، فيكون في ذلك مزيد من الشبهة لأعداء الإسلام في ضعف

فهم المسلمين وعدم علمهم؛ فلذلك لا يعبأ المسلمون بمثل هذه التهم، وإنما يكون همهم الأساسي في معرفة الدين من مصدره الصحيح من الوحي المنزل من عند الله كتابًا وسنة، وهذا يصحح الأفهام والعقول نحو مزيد المعرفة والفهم والعلوم النافعة دينيًا ودنيويًا، والله المستعان.

الْمسْألةُ الْحادِية عشْرة والثّانِية عشْرة: الاسْتِدْلالُ بِالْقِياسِ الْفاسِدِ، كَقَوْلِهِمْ: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].

إِنْكارُ الْقِياسِ الصّحِيحِ: والْجامِعُ لِهَذَا وَمَا قبْلهُ: عَدَمُ فهْمِ الْجامِعِ والْفارِقِ.

الشرح:

الاستدلال بالقياس الفاسد، الرسل جاءوا بالحق، هم يجتمعون مع باقي الناس في وصف البشرية، هل ينفي هذا أن يكونوا قد اختصوا بالوحي من عند الله ﷻ؟! هذا أمر لا تنافي فيه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، نعم كلمة حق، ما يريدون بها؟ يريدون لماذا خصكم الله ﷻ بالوحي؟! أنتم تريدون أن تخرجونا عن العادات والتقاليد مع أنكم بشر مثلنا، فهل وصف البشرية ينافي أن يخص الله ﷻ ويصطفي بعض خلق بوصف النبوة والرسالة؟! هذا مما لا شك في أنه لا يلزم، لا يلزم أن يكون البشر متساويين في البشرية أن لا يختص بعضهم ببعض الأفهام وبعض الهبات وبعض الاصطفاء من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا استعمال القياس الفاسد، قاسوا وقالوا: طالما أنهم بشر مثلنا فلا نسمع ولانطيع لهم، ولماذا لم ينزل الوحي علينا؟!

لابد وأن يكون الوحي ينزل إلينا أيضًا بمقتضى البشرية، وهذا ليس كلامًا صحيحًا، الرسل بشر من البشر تجري عليهم عوارض البشرية، ويحصل لهم ما يحصل للبشر؛ ولدوا، عاشوا، أكلوا، شربوا، مشوا في الأسواق، ويموتون كذلك، وكل هذه من الأوصاف البشرية، لكن خصهم الله ﷻ

بالنبوة والرسالة، فليس وصف البشرية بمانع من الرسالة، أبعث الله بشرًا رسولاً؟! هذا من كلام أهل الجاهلية، لماذا اختصوا من بيننا بالهدى؟! هذا من كلام أهل الجاهلية، هذه كلها أمور سببها الأمراض القلبية التي ملأتهم من الكبر والإعجاب بالنفس؛ ولذلك قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]، وقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وهذا كثير، وقالوا: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان: ٧]، وغير ذلك من شبهاتهم في قياس أنفسهم على الرسل؛ لأنهم بجامع البشرية، وهذا قياس فاسد؛ لأن هذا وصف غير مؤثر في كون هؤلاء الرسل يأتيهم الوحي من عند الله، وأنتم لم يأتكم هذا العلم، لم يأتكم العلم النافع الذي أتى به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلم يستعملوا القياس الصحيح الذي يقتضي اتباع الرسل الكرام؛ لأنهم حازوا من العلوم وأتوا بالحق من عند الله ﷻ ما لم يَحُزْهُ وما لم يعرفه أهل الجاهلية، فالواجب إذا جهلت أمرًا معينًا، رددته إلى أهل العلم في هذا الباب، إذا كنت مريضًا ذهبت إلى الطبيب واكتفيت بقوله ووصف لك الدواء واستعملته، فلماذا لا تتبع من دلت كل الأدلة العقلية والنقلية والفطرية على صدقهم، وأنهم حازوا من أنواع العلوم ما لم يحزه غيرهم، وأن ما أتوا به لا يمكن أن يكون من عند أنفسهم، هذا الذي جاء به الرسول ﷺ من الشريعة الكاملة؛ في العقيدة والعبادة والمعاملة والخلق في الفرد والأمة، في جميع ما يحتاج إليه البشر في شئون حياتهم، أتى كل هذا، وهو ﷺ رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب.

القياس الصحيح يقتضي لزوم اتباعه، القياس الصحيح يقتضي أنني كما إذا علمتُ مثلاً مهارة إنسان بالهندسة والبناء، سلمتُ له الأرض التي أريد أن أبنيها، وقلت له: ابنِ هذا، ويأتي هو بأهل الخبرة في هذا المقام، فيسلم لهم الإنسان ويتبعهم، الواجب أن يكون اتباعك للرسل أعظم من اتباعك لأهل الخبرة في باب معين من أبواب الدنيا، بل هذا أعظم، ودلالة الصدق التي جاءت بها الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - أعظم الدلالات وأوضحها؛ ولذلك أيدهم الله ﷻ بالمعجزات العقلية والمعجزات الحسية؛ حتى يدرك الناس صدقهم بأيسر طريق وبكل طريق يحتاجون إليه، فالقياس الصحيح يقتضي أن يُتبع هؤلاء، وأن يسلم العقل لهم؛ وأما القياس الفاسد فهو الذي يرد ما جاءت به الرسل بزعم أنهم بشر، وفي هذا المقام تجد الناس على نوعين في طرفي نقيض، وأهل الحق وسط في ذلك، أهل الحق قالوا: الرسل رسل وعباد، ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، فقالوا: إن وصف الرسالة لا ينافي وصف العبودية والبشرية، هم بشر من البشر؛ لذلك لم يغالوا فيهم؛ الفريقان المتطرفان المنحرفان: فريق إما كذبوا الرسل لأنهم بشر، وفريق آخر عبدوهم لأنهم رسل، عبدوهم ورفعوهم فوق مستوى البشرية، وقالوا: إن مقتضى أنهم رسل ألا يكونوا مثلنا؛ ولذلك تجدهم يحومون حول أن هؤلاء الرسل مادتهم غير مادة البشر، هذا يقول إنهم خلقوا من النور، وأن الرسل لم يكن لهم ظل، أن الرسول ﷺ كان يسير في الظلمة فيظهر له النور، أو إذا سار على الطريق لم يظهر له ظل أو نحو ذلك، ويقولون: إن الرسول ﷺ وأهل بيته ونحو ذلك ليسوا من طبيعة البشر،

يزعمون لهم ما ينافي البشرية مما هو من صفات الإلهية، والعياذ بالله من ذلك، هذا فريق غلا في الرسل، جعل وصف الرسالة يقتضي أن يكونوا فوق البشر، ليسوا من البشر، أن يكونوا نوعًا آخر من المخلوقين ليسوا كصفات المخلوقين، فغلوا فيهم فأدى ذلك إلى أن صاروا أندادًا يعبدونهم من دون الله، والله ﷻ جعلهم رسلاً لا يعبدون وفي نفس الوقت يُطاعون، الفريق الذي كذب الرسل لأنهم بشر يرون بشريتهم ظاهرة لم يفهموا الوصف المفرق بينهم وبين باقي الناس، أتاهم الوحي، أتاهم من العلم ما لم يأتكم، ووجب أن تتبعوه؛ كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم: ٤٣]، مع أنه ابنه، مع أنه من البشر، لكن الوصف المفرق هو إتيانهم الوحي، ما يمنع أن ينزل الوحي على بشر؟! لا يوجد مانع من ذلك، الوصف الجامع وهو البشرية، لا ينفي الرسالة، لا ينفي العلم، ما صدرت هذه المسألة في الواقع الذي يواجهه الدعاة إلى الله ﷻ، هذا الأمر تسرب من أهل الجاهلية الأوائل إلى كثير من المنتسبين إلى الإسلام، فصار من يدعوهم إلى الله ﷻ يقولون: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، يعني: لماذا أنتم أفضل منا؟! أنتم الذين تريدون بدعوتكم أن تتفضلوا علينا، أنتم تريدون الجاه والرياسة، ونحن أولى بذلك منكم، الصراع الحقيقي الذي يدور: لماذا رفض أعداء الرسل من الكفار والمنافقين ومن تبعهم دعوة الحق في مجتمعات اليوم، لماذا؟ من أجل الرياسة والملك، وتعضيد ملك من ملك بزعم أن هؤلاء ليسوا بأفضل منا ولا يستحقون الملك عنا، ويرون أن اتباع من دعا إلى الله يقتضي تمليكهم، ويقتضي أن تزول دولة هؤلاء وأن يزول ملكهم؛ فلذلك الصراع

على الملك والسلطان والجاه والرياسة والسيطرة المالية والعسكرية والاقتصادية هو الذي يؤجج الصراعات في الحقيقة، لو نظرت إلى هذه الحقيقة لوجدت أن هذه الشبهة هي نفس شبهة المشركين، فرعون وقومه ماذا قالوا لموسى عليه السلام عندما جاءهم بدعوة الحق؟ قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨] فهم يرون أنفسهم أولى بالملك والكبرياء من موسى وقومه، فسوف تجد هذه الشبهة بعينها يُواجه بها أهل الحق: لستم أهلاً لأن يكون لكم منزلة الاتباع في المجتمع الذي أنتم فيه، بل لابد أن تتبعونا نحن، نحن أهل الملك والسلطان والجاه، وأنتم ليس عندكم ما يقتضي أن يتبعكم الناس، ما يقتضي أن يكون الناس طائعين لكم ومتبعين لكم، وكذلك قال قوم نوح عليه السلام: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

فسوف تجد هذه التهم: أن الدعاة إلى الله يريدون أن يتعالوا فوق الناس، يريدون أن يتفضلوا على الناس، يريدون أن يكون لهم الملك والرياسة، وأنهم طلاب كراسي، وأنهم يريدون أن يكونوا فوق باقي الناس، وأن تكون لهم المنزلة التي ليست لباقي الناس؛ ولذلك تقوم الصراعات، هذه الشبهة موجودة، والتهم التي اتهم بها أعداء الرسل الرسل ما زالت في زماننا كذلك موجودة، وهي التي واجهها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، من الذين كان يواجههم أكثر، والذين وقفوا حجر عثرة أمام دعوته؟ كانوا المدعين أنهم من أهل العلم، والذين هم أهل الملك والسلطان، الذين قاتلوه وقاتلوا أتباعه كذلك بزعم أنه رجلٌ مثلهم، لماذا يكون هو الذي له التبعية؟ لماذا يكون له الطاعة عند الناس؟ لا يقبلون ذلك.

فمع أن الواجب أن يكون الإنسان ناظرًا في الوصف المؤثر في الحقيقة، ما الذي يفرق والذي يُجمِّع؟ نحن البشر جميعًا، لكن من كان عنده من العلم ما لم يأت الآخر، والعلم هو العلم بالكتاب والسنة، فهو الذي يستحق أن يُتبع؛ لأنه يهدي إلى الحق، وهذا وصف فارق بين من اتبع ما جاءت به الرسل وبين من خالفهم.

الذين اتبعوا ما جاءت به الرسل عندهم من العلم ما ليس عند الآخرين، ما ليس عندهم من الفهم في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهذا مقتضٍ لأن يتبعهم الناس كما ذكرنا: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ﴾ [مريم: ٤٣]، إذا كان عنده من العلم فلابد أن يُتبع، وهذا ليس تكبرًا على الحق، ولكن لأجل الهداية: ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾؛ وأما شياطين الإنس الذين يقولون: لا نسلم الرياسة والتبعية لهؤلاء، فيقاومون أهل الحق ويقاومون دعوة الحق لأجل الحفاظ على مراكزهم وكراسيهم، فهذه سنة ماضية، طريقة هؤلاء طريقة أهل الجاهلية الذين ردوا دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. نسأل الله ﷻ أن يعيذنا من طرق أهل الجاهلية، وأن يوفقنا إلى ما يحب ويرضى.

الْمسْألةُ الثّالِثة عشْرة: الْغُلُوُّ فِي الْعُلَمَاءِ والصّالِحِينَ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: ١٧١].

الشرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المسألة الثالثة عشرة: **الغُلُوُّ فِي العُلماءِ والصّالِحِين، كقوْلِهِ:** ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النساء: ١٧١]. الغلو: هو المبالغة والتشدد في غير موضع التشدد(١)، قال النبي ﷺ: «**لا تُطْرُوني كما أطْرتْ النّصارى ابْن مرْيم فإنّما أنا عبْدُهُ، فقُولُوا: عبد اللّهِ ورسُولُهُ**»(٢)، وقال ﷺ: «**إيّاكُمْ والْغُلُوّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أهْلك مَنْ كَانَ قبْلكُمُ الْغُلُوُّ**»(٣).

هذا الغلو هو التطرف المذموم، أن يبالغ الإنسان في أمر خلاف شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كالمبالغة في المدح والثناء، خصوصًا فيما يتعلق بالعلماء والعباد وكذلك الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فإن من أعظم مظاهر الشرك، بل أول شرك وقع على ظهر الأرض كان بسبب الغلو في الصالحين وأهل الكتاب قد وقعوا في ذلك في شأن المسيح ﷺ، وكذلك في شأن أمه

---

(١) راجع معنى الغلو (١٥٥).

(٢) سبق تخريجه (١٥٥).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٠، ٥/ ٢٩٨)، والنسائي (٣٠٥٩)، وابن ماجه (٣٠٢٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

مريم، واليهود وقعوا في الغلو في شأن عزير، حتى نسبوا من غلوا فيه إلى الإلهية أو البنوة لله ﷻ، قال الله ﷻ عن قوم نوح عليه السلام: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**صارتِ الأوْثانُ الّتِي كانتْ فِي قوْمِ نُوحٍ فِي العربِ بعْدُ؛ أمّا ودٌّ كانتْ لِكلْبٍ بِدوْمةِ الجنْدلِ، وأمّا سُواعٌ كانتْ لِهُذيْلٍ، وأمّا يغُوثُ فكانتْ لِمُرادٍ، ثُمّ لِبنِي غُطيْفٍ بِالْجوْفِ عِنْد سبإٍ، وأمّا يعُوقُ فكانتْ لِهمْدان، وأمّا نسْرٌ فكانتْ لِحِمْير لِآلِ ذِي الكلاعِ، أسْماءُ رِجالٍ صالِحِين مِنْ قوْمِ نُوحٍ، فلمّا هلكُوا أوْحى الشّيْطانُ إِلى قوْمِهِمْ، أنِ انْصِبُوا إِلى مجالِسِهِمُ الّتِي كانُوا يجْلِسُون أنْصابًا وسمُّوها بِأسْمائِهِمْ، ففعلُوا، فلمْ تُعْبدْ، حتّى إِذا هلك أُولئِك وتنسّخ العِلْمُ عُبِدتْ**»[1].

فهذا يبين لنا أن أول شرك وقع على ظهر الأرض كان في قوم نوح كان بسبب الغلو في هؤلاء العلماء والصالحين، الذين بعد أن ماتوا أوحى الشيطان إلى أتباعهم بدعة اتخاذ التماثيل التذكارية تعظيمًا لشأن هؤلاء العلماء، الذين كانوا يذكرونهم بالله، فأرادوا أن يجعلوا بهذه التمثايل ما يذكرهم بعبادة هؤلاء العلماء وبعلمهم وتذكيرهم، وأضافوا إلى ذلك العكوف على قبورهم، كما ورد في غير ما أثر عن كثير من السلف أنهم عكفوا على قبورهم، فكان الجمع بين فتنة التماثيل وفتنة ملازمة القبور، ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك التلامذة أنصاف العلماء، الذين لم يكونوا على علم كعلم هؤلاء المتقدمين، ولكن توصل الشيطان إلى الشرك من خلال نشر البدعة أولاً، فالبدعة - وخصوصًا فيما يتعلق بالغلو - بريد الكفر

(١) سبق تخريجه (ص٤٠).

والشرك، والعياذ بالله، مقدمة الشرك والكفر وذريعته، لم يعبد هؤلاء التلامذة هؤلاء الصالحين؛ لأنهم يعلمون أنهم يدعون إلى توحيد الله ﷻ وعبادته، وهذا آخر ما يفقد من الدين، بدأ الأمر بنقص العلم وحصول الغلو، فأدى ذلك إلى أن جاء بعدهم أقوام ازداد فيهم الجهل وازداد فيهم الغلو، نقص فيهم العلم حتى جهلوا التوحيد، وازداد الغلو حتى قالوا: إن آباءنا ومن سبقنا كانوا يستسقون بهؤلاء فيُسقون، كانوا يتضرعون إلى هؤلاء فيجابون، فعند ذلك نسي العلم، وعند ذلك عبدت الأوثان، وصارت بعد ذلك هذه التماثيل تسمى (آلهة): ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [نوح: ٢٣]، وسميت أصنامهم وتماثيلهم بأمثال الصالحين من قوم نوح، فظهر بذلك خطر الغلو وخطر نقص العلم وخطر البدعة، وبدعة الغلو في الصالحين من أخطر البدع؛ لأنها سبب لحصول الشرك وانتشاره؛ لأن الناس تتقرب إلى الله بحب الصالحين، وسبب ذلك مزج الحق بالباطل، فالحق هو حب الصالحين، وهذا أمر لا شك فيه، ولكن مزج بباطل وهو الغلو فيهم، فمر الغلو بشيء وجود شيء من الحق، وهكذا الشيطان دائمًا يمرر الباطل المر الوبيء الذي لا تقبله الفِطرُ السليمة والنفوس المستقيمة بشيء من الحق يمرره معه، يمرر به الباطل مع هذا الحق الذي تحبه النفوس؛ ولذلك تجد الكثيرين في غلوهم يقولون: نحن نحب آل بيت النبي ﷺ، ونحب الرسول ﷺ، ونحب الصالحين، وهؤلاء قوم كانوا يذكروننا بالله، ومن يرفض ما يبتدعونه بحقهم يقولون: أنتم لا تحبون آل البيت، أنتم لا تحبون الصالحين، وربما زادوا فقالوا: أنتم لا تحبون النبي ﷺ، إذا أراد البعض أن ينهاهم عما غلوا فيه وخالفوا فيه أمر النبي ﷺ بترك الغلو، حيث قال:

«**لا تُطْرُونِي كَمَا أطْرتْ النّصارى ابْن مرْيم، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**»(١)، فكثير من الناس يطرون النبي ﷺ، يبالغون في مدحه أكثر مما فعل السابقون، ووصل كثير منهم إلى عبادة الرسول ﷺ، وهو بريء من ذلك، وقد حذر هو ﷺ من ذلك، فقال: «**أَلَا وَإِنَّ منْ كَانَ قبْلكُمْ كَانُوا يتّخِذُون قُبُور أنْبِيائِهِمْ مَسَاجِد، أَلَا فَلَا تتّخِذُوا الْقُبُور مَسَاجِد، إِنِّى أنْهاكُمْ عَنْ ذلِكَ**»(٢)، وقال: «**اللّهُمّ لا تجْعلْ قبْرِي وثنًا يُعْبدُ، اشْتدّ غضبُ اللهِ على قوْمٍ اتّخذُوا قُبُور أنْبِيائِهِمْ مساجِد**»(٣)، وقال: «**لعْنةُ اللَّهِ عَلَى اليهُودِ والنّصارى، اتّخذُوا قُبُور أنْبِيائِهِمْ مساجِد. يُحذِّرُ ما صنعُوا لوْلا ذلِك أُبْرِز قبْرُهُ، غيْر أنّهُ خشِي أنّ يُتّخذ مسْجِدًا**»(٤).

وهذا يدلنا على أن هناك من يعبد القبور؛ لأن الرسول ﷺ قال: «**اللّهُمّ لا تجْعلْ قبْرِي وثنًا يُعْبدُ**»، دليل على وجود خطر في هذا الباب، الغلو في القبر حتى يصير وثنًا يعبد، يمكن أن يعبد القبر من دون الله ﷻ أو مع الله ﷻ، وهذا باتخاذه مسجدًا، ثم بعد ذلك بصرف أنواع العبادات.

نقول: سبب هذا الغلو أمر يبدأ بحق في نفس الإنسان، لكن مع الجهل لا يعرف الحدود الشرعية، فيتجاوز هذا إلى الغلو، يتجاوز هذا الحد الشرعي إلى الغلو، كما ذكرنا حب الصالحين، حب العلماء، حب أهل

---

(١) سبق تخريجه (١٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جُنْدُبٍ بَنْ عبد اللهِ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مالك (٨٥)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٤٥)، والبزار (١٢/ ٢١٦، ١٤/ ١٦٣).

(٤) أخرجه البخاري (٤٣٥، ٤٣٦، ١٣٣٠، ١٣٩٠، ٣٤٥٣، ٤٤٤١، ٥٨١٥)، ومسلم (٥٣١).

بيت النبي ﷺ، حب الرسول ﷺ، حب الأنبياء والملائكة، كل ذلك حق، ولكن هل يعني ذلك أن يُرفعوا فوق منزلتهم التي جعلهم الله ﷻ فيها؟!

هل يعني ذلك أن يُدعى لهم صفات الربوبية أو حقوق الألوهية، أو أن لهم ما يشبه صفات الرب سبحانه وتعالى؟!

انظر: إلى أحوال الشيعة الروافض، وهم يغالون في أئمتهم، ولا شك أن عامتهم أئمة فضلاء من أهل بيت النبي ﷺ، وحب هؤلاء الأئمة ابتداءً من علي رضي الله عنه والحسن والحسين رضي الله عنهما ومن بعدهم، كلهم أئمة، حبهم من حب الرسول ﷺ، وحبهم نتعبد لله ﷻ به، ولكن هل يعني ذلك أن نرفعهم فوق منزلتهم كما يفعل هؤلاء، حين يقولون: (**فإن للإمام مقاماً محموداً وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون**)[1]، والعياذ بالله؟! وهذا بلاشك من الباطل، أين في كتاب الله ﷻ أو في سنة الرسول ﷺ هذا الكلام الباطل؟!

في كتاب الله سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨]، قارن بين هذا وبين قول من يقول: إنهم يعلمون علوم الغيب

(١) هذا كلام إمام الضلالة الخوميني في الحكومة الإسلامية (ص ٥٢). وانظر في الرد عليه: (مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة) للشيخ: ناصر بن عبد الله بن علي القفاري -وفقه الله-، (٢/ ٢٣٤)، و(الانتصار للصحب والآل من افتراءات السماوي الضال) لإبراهيم بن عامر بن عليّ الرّحيلي(ص ٥٤)، و(حقيقة الشيعة حتى لا ننخدع) لعبد الله الموصلي (ص ٩).

كلها، وأن علم (الجفْر) الذي يدعونه يعرفون به ما كان وما سيكون(١)، وأن لهم سلطانًا على ذرات الوجود، وأن لهم أحوالاً مع الله لايبلغها ملك مقرب ولا نبي مرسل، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

قارن بين القرآن الذي بين أيدينا نقيًا كما أنزله الله ﷻ بلا شوائب، وبين اعتقادات هؤلاء وبين اعتقادات أذنابهم من الصوفية، الذين ينسبون إلى رسول الله ﷺ علوم اللوح المحفوظ كلها، حتى يقول قائلهم، يمتدحونه بذلك(٢):

فإنّ مِن جُودِك الدُّنْيا وضرّتِها ومنْ عُلُومِك عِلْمُ اللّوحِ والقلمِ

هذا في البردة المشهورة التي تتلى دائمًا في الموالد(٣).

(**مِن جُودِك**): من جود الرسول ﷺ جزء من جوده الدنيا بأسرها،

---

(١) يزعمون أن: (الجفر وعاء من أدم زعموا أن فيه علم النبيين والوصيين وعلم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل. وقال بعضهم: هو جلد جفر ادعوا أنه كَتَبَ فيه لهم الإمام، كل ما يحتاجون إلى علمه، وكل ما يكون إلى يوم القيامة). انظر: الانتصار للصحب والآل من افتراءات السماوي الضال (ص٩٧)، وفرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها (١/ ٣٦٢، ٣٧٣/ ٣٧٤)، والفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة (ص٤١٦)، وأصول مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية - عرض ونقد - (١/ ٣٢٥)، ومسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة (١/ ٢٥٩).

(٢) انظر: ديوان البوصيري (ص٢٥٢).

(٣) هي قصيدة البردة المعروفة في مائة واثنين وستين بيتًا، الموسومة بـ(الكواكب الدرية في مدح خير البرية، نظمها شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد الدولاصي ثم البوصيري، المتوفى سنة أربع وتسعين وستمائة. انظر: كشف الظنون (٢/ ١٣٣١)، وفوات الوفيات للكتبي(٣/ ٣٦٢)، وشذرات الذهب لابن العماد (٥/ ٤٣٢).

(**وضرّتِها**): ضرة الدنيا هي الآخرة، فماذا بقي لله ﷻ إذا كان الدنيا والآخرة من جود الرسول ﷺ؟! فماذا يكون لله سبحانه وتعالى؟!

(**ومنْ عُلُومِك**): جزء من علوم الرسول علم اللوح والقلم، الذي قال فيه ﷺ: «**إنّ أوّل ما خلق اللّهُ الْقلمُ، فقال لهُ: اكْتُبْ، فجرى فِي تِلْك السّاعةِ بِما هُو كائِنٌ إلى يوْمِ الْقِيامةِ**»(١). أيعلم الرسول ﷺ ما هو كائن إلى يوم القيامة، وقد أوحى الله إليه: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]؟! مقارنة بسيطة جدًا بين هذه العقائد الفاسدة، فضلاً عما زاد على ذلك، في الحقيقة هذا الغلو وصل بعد أجيال تلت ذلك إلى صرف العبادات مباشرة للأنبياء، نقول: مقارنة بسيطة بين هذه العقائد الفاسدة وبين القرآن تبين لك أن هذه لها مصدر آخر، ليس من دين الإسلام، هذه العقائد الفاسدة مصدرها ليس من دين الإسلام، إنما مصدرها ما كانت عليه الأمم الأخرى التي عاشت في الوثنية من الغلو والإطراء في الصالحين وفي الأنبياء، زاد الحال حتى صار يطاف بقبور هؤلاء ويجعلونها أعظم من الحج، أرأيتم ماذا صنع الرافضة فيما يسمى بـ (أربعينية الحسين)؟!

مع كذبهم وزورهم إنهم يزعمون أنه قد أتى عشرة ملايين، يعني: نحو خمسة أضعاف من أتى من الحجاج إلى بيت الله الحرام بالكذب والزور، قوم بهت والعياذ بالله، كربلاء هذه مدينة صغيرة لا تتسع لبضعة مئات من ألوف الزائرين، ويقولون جاء عشرة ملايين، والعياذ بالله، في حين الحجاج على عرفات على الوادي الفسيح جدًا، لا يتجاوزون الثلاثة

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٧/ ٣٧٨).

ملايين، وهؤلاء يبلغون عشرة ملايين، فهذا من الكذب والزور.

وفي الماضي كانوا يقولون يحضر مولد السيد البدوي خمسة ملايين إنسان، كذب وباطل، يعني: قدر الحج مرة أو مرتين، وهم لايبلغون حتى عشرات الألوف، أو مئات الألوف عندما كانت الصوفية منتشرة، لكن انظر إلى هذا. ومنهم من يفضل حج المشاهد على حج المناسك، يجعلون الحج إلى القبور له من الثواب أكثر من الحج بالأربعين حجة والخمسين حجة لمن أتى مشاهد هؤلاء الأئمة، وحول قبور هؤلاء الأئمة عند الرافضة وعند الصوفية مطافات كما يطوف الناس ببيت الله الحرام، تجد القبر في المنتصف وحوله ساحة، وكل زائر يدخل فيطوف حول القبر كما يطاف ببيت الله الحرام، والعياذ بالله، ويطوفون سبعًا ويجعلون لهذا الطواف مناسك معينة، ويذهب بعد ذلك إلى مكان آخر وهكذا، ويسأل عند فتحة معينة ويتضرع عند فاتحة أخرى، وهناك أماكن لوضع الرسائل والشكاوى لهؤلاء الأموات، نسأل الله العافية، وهذا أمر فظيع لا يزال يحرص عليه أهل البدع والضلال، والمفتاح في ذلك مسألة الغلو وبداية يبدءون بمسألة الأهون وهي مسألة التوسل بذات الرسول ﷺ، ثم يتدرجون بهذا وهو نوع من الغلو في الحقيقة؛ لذلك حرص أهل العلم على سد ذرائع الشرك من هذا الباب بأصله، حتى ما كان فيه يحتمل اختلافًا بين العلماء، مثل من يقول: أسألك بنبيك أو بحق نبيك أو نحو ذلك، مع أنه فيه خلاف إلا أن الصحيح أن هذا لم يرد عن الصحابة رضي الله عنهم، ولم يرد أصلاً عن النبي ﷺ أنه توسل إلى الله ﷻ بحق أحد من الأنبياء قبله، ولاأحد من الأنبياء قبله في

أدعيتهم الكثيرة التي وردت في كتاب الله توسلوا بمن سبقهم، هل توسل موسى مثلاً بإبراهيم عليهما السلام؟ هل توسل يعقوب بإسحاق وإبراهيم؟ هل توسل يوسف في كربه وضيقه بأبيه يعقوب إو بإسحاق أو بجده خليل الرحمن إبراهيم؟ هل توسلوا بذاواتهم أو طلبوا منهم أن يدعوا لهم عند الله، فضلاً أن يطلبوا منهم أن يفرجوا كروبهم، أم كل أدعية القرآن صريحة وبينة في أننا إذا ما دعونا دعونا الله ﷻ؟ الأمر لا شك فيه، لا يشك في ذلك عاقل ينظر في كتاب الله، القرآن حسم مادة الشرك، وأن كل هذه الخرافات والخزعبلات ليس لها أصل في كتاب الله أو في سنة النبي ﷺ، بل أتى الشرع بهدم كل هذه الجاهلية وعدم الغلو في الصالحين؛ ولذلك لا نجد في معاملة الصحابة مع النبي ﷺ ومع بعضهم البعض ما يوجد في المتأخرين من ذلك، لا نجد عندهم مثلاً تعظيمًا للموالد، ولا للوفيات، ولا لذكرى معينة، وما كان من ذكرى معينة كذكرى الذبح مثلاً إنما هو عيد شرعه الله لنا نعظمه بالعبادة لله ﷻ، ذكرى ذبح إبراهيم لإسماعيل في يوم النحر مثلاً، فنحن نحتفل بمثل ذلك بعيد أهل الإسلام بعيد الأضحى، وكذلك مثلاً نحتفل بذكرى نجاة موسى ﷺ بالصيام، لا أن نفعل هذه الموالد المخترعة ومظاهر الشرك والوثنية؛ من النذر للقبور، والذبح لها، والاجتماع عندها، واتخاذها أعيادًا، وهي فعلاً قد جعلت أوثانًا تعبد من دون الله ﷻ بسبب الغلو في الصالحين؛ لذلك نقول قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾. الغلو الذي وقع منهم هو ما وقع في شأن عيسى ﷺ حين رفعوه فوق منزلته التي نص هو عليها، حتى في كتابهم، كتابهم مليء بالتصريح بأنه رسول، يقول: (**مِنْ قِبِلِ واحِدًا مِنْ أَوْلادٍ مِثْل هذا بِاسْمِي**

يقْبلُنِي، ومنْ قبِلنِي فليْس يقْبلُنِي أنا بلِ الّذِي أرْسلنِي)[١]، يقول مخاطبًا لربه ﷻ ويدعوه: (**الْحقّ الْحقّ أقُولُ لكُمْ: إنّ منْ يسْمعُ كلامِي، ويُؤْمِنُ بِالّذِي أرْسلنِي، فلهُ حياةٌ أبدِيّةٌ**)، (**وهذِهِ هِي الْحياةُ الأبدِيّةُ: أنْ يعْرِفُوك أنْت الإِله الْحقِيقِيّ وحْدك ويسُوع الْمسِيح الّذِي أرْسلْتهُ**)[٢]، هذا كلام بيِّن جلي في أن الذي يقرءونه ويسمعونه أن المسيح يتبرأ من أن يكون أكثر من رسول وأهل الكتاب قد غلوا في علمائهم وصالحيهم باتخاذ القبور مساجد، وباتخاذ العلماء أربابًا، كما قال ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]، فكان الذي وقع منهم في غلوهم في المسيح ﷺ بادعاء الألوهية فيه، وأنه الرب ﷻ نزل وتجسد وولد من مريم العذراء وصلب من أجل التكفير عن خطايا البشر، وهذا من العجب والله! فإن هذا كيف يكون تكفيرًا لخطايا البشر أن ترتكب البشرية أعظم جريمة في قتل رسول من رسول الله وصلبه، فضلاً عن أن يكون قتلاً للإله - والعياذ بالله - أو ابن الإله - تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا -؛ وأما غلوهم في عبّادهم فكان باتخاذ قبورهم مساجد، بدأ الأمر كذلك، ثم صارت تعبد من دون الله، وحركات التصحيح عندهما - كما يسمونها - كانت تنص على التحذير من اتخاذ الصور؛ لأن اتخاذ الصور منهي عنه في الكتاب المقدس عندهم في التوراة، وأن كل صورة يجب

(١) انظر: انجيل مرقس (اصحاح ٩).
(٢) انظر: انجيل يوحنا (اصحاح ٦، ١٧).

طمسها، الشرائع اتفقت في مثل ذلك؛ وأما اتخاذ صور القسيسين والرهبان فإنما كان ذلك غلوًا فيهم أدى إلى عبادة هذه الصور، وكما ذكرنا منهم البروتستانت عندهم تشديد واضح في مسألة الصور، صور القسيسين، يرفضون التصوير والرسم على الجدران واتخاذ التماثيل؛ لأن ذلك أدى إلى عبادة هذه الأوثان من دون الله ﷻ بالإضافة إلى عبادة المسيح ﷺ، وكانوا يرون أن هذا الأمر مخالف لما نص عليه في العهد القديم، مع أن الغلو في المسيح أمر يشتركون فيه، إلا أن الغلو في هؤلاء الأحبار كان ظاهرًا في اتخاذ القبور مساجد، وقد قال النبي ﷺ عن الكنيسة التي رأتاها أم سلمة وأم حبيبة رضي الله عنهما في أرض الحبشة، وذكروا ما فيها من الصور، فقال: «**أُولئِكِ إذا مات فِيهِمُ العبْدُ الصّالِحُ، أوِ الرّجُلُ الصّالِحُ، بنوْا على قبْرِهِ مسْجِدًا، وصوّرُوا فِيهِ تِلْك الصُّور، أُولئِكِ شِرارُ الخلْقِ عِنْد اللّهِ**»[(١)]، فمن جمعوا بين فتنة الصور وفتنة اتخاذ القبور مساجد[(٢)]، هؤلاء الذين مهدوا لعبادة غير الله والشرك بالله، وتجد هذا الأمر عند الرافضة كثير، يرفعون صور الأئمة المخترعة، يقولون: صورة علي بن أبي طالب، صورة الحسين، صورة الحسن، وعندهم صور عجيبة كأن راسمها يضاهي فعلاً صور النصارى، تلحظ بها رسمًا قريبًا من رسم النصارى لقديسيهم المزعومين، ومعلوم بالقطع واليقين أن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين ما كانوا ليرسموا عليًّا ولا الحسن ولا الحسين ولا أحد من الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنهم

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧، ٤٣٤، ١٣٤١، ٣٨٧٨)، ومسلم (٥٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها
(٢) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ٢٠٣).

كانوا يحذرون من الرسم عمومًا ومن التصوير عمومًا؛ لقول النبي ﷺ: «**كُلُّ مُصوِّرٍ فِي النّارِ، يجْعلُ لهُ، بِكُلِّ صُورةٍ صوّرها، نفْسًا فتُعذِّبُهُ فِي جهنّم**»(١)، فكيف بصور الصالحين؟! صور مخترعة، اخترعوها وابتدعوها ويعظمونها، تجدها في مظاهرتهم، وتجد هتافاتهم هتافات شركية، والعياذ بالله.

في المظاهرات الأخيرة التي كانت بالبقيع، يقولون: لبيك يا حسين، لبيك يا حسين، وهم الذين يعتبرون أنفسهم ورثة هؤلاء الذين تسببوا في قتل الحسين، وأنا أتعجب لماذا لا يجعلون أربعينية للرسول ﷺ؟! ومن أين لهم بذكرى الأربعين؟!

هذا أمر عجيب! لماذا لا يحتفلون بهذا الكم الهائل من الاحتفال في ذكرى قتل علي بن أبي طالب وأربعينيته؟! أنا أتعجب من البدع والضلالات! لماذا والحسن أيضًا عندهم قد قتل؟! لماذا لا يعظمون يوم موت الحسن كيوم موت الحسين؟! ولماذا لا يعظمون أربعينيته كذلك؟!

اختراعات وضلالات ومظاهر من الشرك، إنما يفعلون ذلك لأجل أن يجتذبوا قلوب العوام من أهل السنة، الذين يؤلمهم قتل الحسين رضي الله عنه، وقاتل الحسين رضي الله عنه منتسب إلى بني أمية، وهم منتسبون إلى السنة، والبدء بنشر العقيدة الفاسدة في كراهية الصحابة يبدأ بالطعن في معاوية رضي الله عنه

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٢٥) بلفظ مختلف، وأخرجه مسلم (٢١١٠) بنحو هذا اللفظ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وعمرو بن العاص رضي الله عنه ومن خالفوا عليًّا رضي الله عنه؛ كالزبير، وطلحة، وعائشة رضي الله عنهم، فيبدءون بذم هؤلاء؛ لذلك تجدهم يركزون على قتل الحسين رضي الله عنه أكثر من قتل علي، مع أن عليّا أفضل بإجماع المسلمين، بإجماعنا نحن وهم، وعلي رضي الله عنه قتل، لكن قاتل علي رضي الله عنه من الخوارج لا ينتسب للسنة؛ وأما قاتل الحسين رضي الله عنه فينتسب إلى بني أمية، وكما ذكرنا هم ينتسبون إلى السنة، وأهل السنة يرون في بني أمية حكامًا قد وقعوا في خير وفيه دخن، عندهم ظلم وعدوان وعندهم خير في إقامة الدين وقمع البدع، ولم يكن يرضي أحدًا من أهل السنة أن يُقتل الحسين رضي الله عنه أبدًا، ولكن - كما ذكرتُ - يستغلون العاطفة عند كثير من عوام أهل السنة في مقتل الحسين، وأنهم يألمون لذلك، ولا شك أن كل مسلم يؤلمه قتل الحسين رضي الله عنه، لكن لا يكون الأمر بهذه الصورة التي فيها الغلو، والتي فيها التعظيم المبالغ فيه، وتجد هذه القضية: لماذا يوجد للحسين ثلاثة مقامات؟! للحسين بن علي رضي الله عنهما مقام بالقاهرة، ومقام بدمشق، ومقام بـ «كربلاء» موضع دفنه، أين هو الحسين رضي الله عنه؟!

الباطنية من الفاطميين يجعلون للحسين رضي الله عنه في كل مكان يوجدون فيه مقامًا، يزعمون أن الرأس نُقِل، وهذا كذب باطل لا أصل له؛ لأن الرأس لم ينقل أصلاً من موضع القتل، وليس هناك دليل على أنه نقل إلى دمشق، ثم إنه نقل من دمشق إلى القاهرة، هكذا في كل موضع، فعلى هذا المفترض أن تكون طول هذه السكة هكذا ممتلئة بهذا، كل خطوة مشى فيها، كل بلد نزلوا فيها يجعلون فيها مقامًا للحسين رضي الله عنه، ومقام الحسين هذا معلوم أنه خال منه، إنما هو من اختراع الباطنية، ولكن الناس قد تعلقوا تعلقًا عظيمًا

بهذا المقام، وكما ذكرنا في دمشق مقام آخر، وفي العراق مقام ثالث، ولا ندري لو سمح لهم بالتعديد لفعلوا أكثر من ذلك[(١)].

ولذلك نقول: إن الغلو في العلماء وفي الصالحين هو من التشبه بأهل الكتاب والتشبه بعباد الأوثان من قوم نوح، وكذلك كان الأمر في أهل الجاهلية، إنما كانت الأوثان في أهل الجاهلية أيضًا بسبب الغلو في الصالحين؛ كـ «العزى» كان شجرة يتبركون بها ويرون أنهم ينتصرون بها، ويزعمون أيضًا أن «اللات» كان رجلاً صالحًا يلُتّ السويق للحاج، فلما مات عكفوا على الصخرة واتخذوها إلهًا يعبد من دون الله، تخليدًا لذكرى هذا الرجل الذي كان يلت السويق - يصنع الطعام للحجاج -[(٢)] في هذا المكان، فكان الغلو في الصالحين من سيما أهل الكفر والشرك والجاهلية، على أحد الأقوال في تفسير: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النجم: ١٩][(٣)]، فالغلو في الأحجار والأوثان وآثار الأنبياء وآثار الصالحين هو من سيما أهل الجاهلية وسيما أهل الكتاب، علامة أهل الكتاب، الذين

---

(١) قال ابن الجوزي في المنتظم (٥/ ٣٤٤): (وذكر ابن أبي الدنيا أنهم وجدوا في خزانة يزيد رأس الحسين فكفنوه ودفنوه بدمشق عند باب الفراديس).
وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٨/ ١٩٢): (... وقد اختلف العلماء بعدها في رأس الحسين، هل سيره ابن زياد إلى الشام إلى يزيد أم لا؟ على قولين، الأظهر منهما أنه سيره إليه، وقد ورد في ذلك آثار كثيرة فالله أعلم).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٧/ ٥٨) عَنْ سُفيانَ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ مُجاهدٍ في قولِهِ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النجم: ١٩]، قَالَ: «**كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قَبرِهِ**»، وَكَذَا قَالَ أبو الجَوْزَاءِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: «**كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ، للحَاجِّ**». أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٧/ ٥٩).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ٤٧)، وزاد المسير (٤/ ١٨٤)، وابن كثير (٧/ ٤٥٥).

غلوا في دينهم وقالوا على الله غير الحق، وزعموا أن الله ﷻ شرع للأمة مثل هذا الغلو ومثل هذه الخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان، التي كل من يقرأ القرآن يعلم أنها تنافي نصوص القرآن وروح القرآن، والعقيدة التي جاء بها الرسول ﷺ.

حاجتنا إلى أن ننبذ مثل هذه الشركيات وذرائع الشرك والغلو في الأئمة، وكما ذكرنا كان الغلو في العلماء من خلال تقديم نصوصهم وكلامهم على كلام الله وكلام رسوله ﷺ، ثم بعد ذلك يعتقد من يعتقد أن لهم حق تبديل الشرع وتحليل الحرام وتحريم الحلال، كما ذكر رسول الله ﷺ في جوابه لعدي بن حاتم رضي الله عنه، حينما قال عدي: «**إِنَّا لَسْنَا نعْبُدُهُمْ، قَالَ: أليْس يُحِلُّون مَا حَرَّمَ اللّهُ فتُحِلُّونهُ، ويُحرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللّهُ فتُحرِّمُونهُ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فتِلْكَ عِبَادتُهُمْ**»[١].

فكان الغلو في العلماء باتباع كلامهم دون كلام الله وكلام رسوله ﷺ، والغلو في الصالحين بوصفهم بما لا يجوز مِن صفات الربوبية أو الألوهية وصرف حقوق الألوهية لهم، والغلو في قبورهم وتعظيمها، والطواف حولها، والعكوف عندها، والنذر لها، والذبح لها، والسجود إليها، وكل هذا معلوم أنه ليس في دين الإسلام، بل هذا من الشرك الذي حرمه الله ورسوله ﷺ.

لذلك نقول: إن الغلو في العلماء والصالحين لابد من الحذر منه، ولابد من مقاومته ونبذه والتحذير ممن يفعله باسم أنهم يحبون الصالحين،

---

(١) سبق تخريجه (ص٤٣).

وتجد من أنواع الغلو في مثل هذا المقام أنهم يدعون أن الذهاب إلى قبور الصالحين في الموالد وفي المياتم وعند الحاجات من أعظم القربات، ويجوزون السفر إلى هذه القبور، وهذا نوع من الغلو، وقد قال النبي ﷺ: **«لا تُشدُّ الرِّحالُ إلّا إلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِد: المسْجِدِ الحَرَامِ، ومسْجِدِ الرّسُولِ ﷺ، ومسْجِدِ الأقْصى»**[١]، فلا يجوز شد الرحال ولا السفر إلا إلى هذه المساجد لا إلى هذه القبور؛ ولذا كان من غير المشروع أن ينوي الإنسان بالسفر إلى المدينة زيارة قبر النبي ﷺ، وإنما ينوي زيارة المسجد، وينوي بالسفر قصد مسجده ﷺ ليصلي لله ﷻ فيه؛ ولذا فليس من المشروع أيضًا أن يخصص قبر من القبور بالدعاء عنده، بل هذا يتخذ القبر عيدًا، قال النبي ﷺ: **«لا تجْعلُوا بُيُوتكُمْ قُبُورًا، ولا تجْعلُوا قبْرِي عِيدًا، وصلُّوا عليّ فإنّ صلاتكُمْ تبْلُغُنِي حيْثُ كُنْتُمْ»**[٢]، فقوله ﷺ: **«ولا تجْعلُوا قبْرِي عِيدًا»**: لا يجوز أن يُعتاد فعل معين عند قبره ﷺ، ولو كان عبادة معينة يقصدها مثل أن يستقبل القبر حين يدعو الله ﷻ؛ لذا اتفق العلماء على أن زائر قبره ﷺ إذا أراد أن يدعو فليدع متجهًا إلى القبلة مستدبرًا للقبر، ليس متجهًا إلى القبر، وكره مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يقول: (**زُرْتُ قبْر النّبِيِّ ﷺ**)[٣]، كره هذا اللفظ

(١) أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٤٢)، وابن أبي شيبة (٢/ ٦٠)، والطبراني في الأوسط (٨/ ٨١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٥٢).

(٣) انظر: الصارم المنكي (ص٢٩٠)، والفتاوى الكبرى (٢/ ٥٨، ٥/ ١٤٨، ٢٨٩)، ومنهاج السنة النبوية (٢/ ٤٤٤)، ومجموع الفتاوى (١/ ٢٣٥، ٢٣٩، ٣٥٥، ٤/ ٥٢١، ٢٤/ ٣٥٨، ٢٦/ ١٤٩، ٢٧/ ٢٦، ٣٠، ١٦٦، ٢٢١، ٣٣١)، وشرح الشفاء للقاري (٣/ ٨٤٣، ٢/ ٦٦٧)، وكتاب الروح لابن القيم (ص ٨).

لأجل أن لا يُتخذ سنة معينة ويُتخذ عيدًا؛ كما نهى عنه النبي ﷺ فقال: «**ولا تجْعلُوا قبْرِي عِيدًا**»؛ زمانيًا أو مكانيًا[١].

لذلك نقول: إن الدعوة إلى الغلو في قبور الصالحين، حتى يقول قائلهم ومبتدعهم ورأسهم: إنه يستحب اتخاذ القبور مساجد، مصادمة صريحة لسنة النبي ﷺ.

الرسول ﷺ يقول: «**لعْنةُ اللّهِ على اليهُودِ والنّصارى، اتّخذُوا قُبُور أنْبيائِهِمْ مساجِد**»[٢]، وهذا يقول: يُستحب بناء المساجد على القبور، وتستحب الصلاة في المساجد التي بها قبور، واحتجوا بآثار ضعيفة مرسلة لا تثبت، بأن بعض الصحابة اتخذ من قبر أبي بصير مسجدًا، وليس هذا بحديث صحيح ولا ثابت، بل مرسل ضعيف لا يثبت[٣]، ولو كان لكان لم

(١) قال شيخ الإسلام رحمه الله: (العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد، عائدًا إما بعود السنة، أو بعود الأسبوع، أو الشهر، ونحو ذلك).
انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٤١)، وقال ابن القيم رحمه الله: (العيدُ ما يُعتاد مَجيئه وقَصده من زمان ومكان، مأخوذ من المعاودة والاعتياد. فإذا كان اسمًا للمكان، فهو المكان الذي يقصد فيه الاجتماع وانتيابه للعبادة وغيرها؛ كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيدًا للحنفاء ومثابة؛ كما جعل أيام العيد فيها عيدًا. وكان للمشركين أعياد زمنية ومكانية، فلما جاء الله بالإسلام أبطلها، وعوض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى، كما عوضهم من أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر).
انظر: إغاثة اللهفان (١/ ٢٠٩).

(٢) سبق تخريجه (ص١٧٦).

(٣) انظر: رسالة التوسل وأحكامه عند شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، للشارح -وفقه الله- (ص١٦).

يبلغه النهي من النبي ﷺ، فلما بلغه لم يُعرف هذا القبر، وإلى يومنا هذا لا يعرف، وما كان الصحابة رضي الله عنهم ليأذنوا في ذلك أبدًا ولا ليرضوا بذلك.

ولذلك نقول: كيف تترك النصوص المتواترة عن النبي ﷺ المستفيضة الصحيحة الثابتة في الصحيحين وغيرهما بمثل هذه الشبهات، فضلاً أن يحتجوا بقول الله ﷻ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ [الكهف: ٢١]؟! أمر ذمه رسول الله ﷺ، بيّن أن هذا مما هلك به أهل الكتاب، أفيجعل دليلاً على أن نتخذ القبور مساجد، ونخالف هدي النبي ﷺ؟! ثم إن الله لم يمدح هؤلاء، وإنما قال: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ [الكهف: ٢١]، وليس أنهم الذين علموا، أو قال: العلماء، أو قال: الذين آمنوا، أو قال: الذين صدقوا، وإنما قال: ﴿ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾ [الكهف: ٢١]، وأهل الغلبة في أزمنة أهل الكتاب لم تكن لأهل العلم، إنما كانت للملوك وعلماء السوء ونحو ذلك، فلم يمدحهم الله ﷻ بهذا الذي فعلوا، وإنما ذكر أمرًا مستنكرًا استنكره الرسول ﷺ(١).

من هنا نقول: لابد من ترك الغلو والحذر من الغلو، حذر الله ﷻ أهل الكتاب من الغلو في الموضعين: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾ [المائدة: ٧٧]، هذا الغلو في العلماء، في اتباعهم العلماء دون نصوص الكتاب، دون ما بين أيديهم من التوراة والإنجيل، وهذا في تاريخ اليهود والنصارى أعظم من أن يُناقش فيه، عقيدتهم ليست مأخوذة من

(١) انظر: تفسير الطبري (١٧/ ٦٤٠)، وزاد المسير (٣/ ٧٤)، وابن كثير (٥/ ١٤٧).

التوراة ولا من الإنجيل، بل عقيدتهم مأخذوة من قانون وضعوه في مجمع من مجامعهم التي يسمونها المقدسة، مجمع «نيقية» الأول الذي قرروا فيه هذه العقيدة، عقدوا مجمعًا بضع مئات، ثلاث مائة وزيادة من أصل ألفين وزيادة هم الذين قرروا العقيدة الكفرية الشركية في ألوهية المسيح، هذا أمر لا ينكرونه، يقولون: نص القانون هذا ليس في التوراة ولا في الإنجيل، الذي يقولون فيه بألوهية المسيح، إنما ينصون عليه لأنه من وضع مجمع مقدس وضع فيه هؤلاء القانون الذي يدينون به إلى يومنا هذا، يكفي هذا والله لمن له عقل يفكر به أن هذا ليس من الوحي المنزل، ليس مما أوحاه الله إلى أنبيائه ورسله، ليس من التوراة ولا من الإنجيل، الحمد لله على فضله على أمة الإسلام أن عصم هذا الكتاب من التبديل والتحريف، وعصم الأمة أن تجتمع على ضلالة كما ضل من قبلنا، فيقولون على الله غير الحق في المسيح وفي الصالحين وفي العلماء، ويقولون على الله غير الحق في عبادتهم من دون الله ﷻ.

الْمسْألةُ الرّابِعة عشْرة: إِنَّ كُلَّ مَا تَقَدّمَ مبْنِيٌّ عَلَى قاعِدةٍ، وَهِيَ النّفْيُ والْإِثْباتُ، فَيَتَّبِعُونَ الْهَوى وَالظَّنَّ، وَيُعْرِضُون عَمَّا جَاءتْ بِهِ الرُّسُلُ.

الشرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ في المسألة الرابعة عشرة: (**إِنّ كُلّ ما تقدّم**)، يعني: من إنكار القياس الصحيح والاستدلال بالقياس الفاسد، والاستدلال على بطلان الدين بقلة فهم أهله، والاقتداء في إبطال الدين بالعلماء الفسقة والعباد الفسقة، والاستدلال بقوم أعطوا فهمًا وقوة في الأعمال على أحقية الباطل الذي هم عليه، والاستدلال على بطلان الدين بأن الضعفاء هم أتباعه.

من تأمل هذه المسائل علم ما قصد من قوله: (**إِنّ كُلّ ما تقدّم مبْنِيٌّ على قاعِدةٍ، وهِي النّفْيُ والإِثْباتُ، فيتّبِعُون الهوى والظّنّ، ويُعْرِضُون عمّا جاءتْ بِهِ الرُّسُلُ**). الحق الذي جاءت به الرسل - صلوا الله وسلامه عليهم أجمعين - مبني على نفي إثبات، على نفي الباطل وإثبات الحق، على الإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ والكفر بالطاغوت، على نفي الإلهية عن غير الله وإثبات الإلهية لله عَزَّ وَجَلَّ وحده، عن الإعراض عن الباطل وإن كان أقوام من ذوي الفهم والتمكين في الأرض والسلطان قد قالوا به، وقبول الحق وإن كان الضعفاء ومن ليس لهم منصب أو مال هم أتباعه، نقبل الحق وإن كان أتباعه يتهمون أنهم يقبلونه بادي الرأي ونرفض الباطل وإن كان من فسقة العلماء والعباد من يقولون به ويحثون الناس عليه، نقبل القياس الصحيح ونرد القياس الباطل؛ لذلك

نقول: إن الرسل جاءوا بنفي وإثبات، جاءوا بنفي الباطل وإثبات الحق، أهل الكفر وأهل الجاهلية وأهل الفسق وأهل الفجور يبنون أمرهم في النفي والإثبات على خلاف ما جاءت به الرسل، فوقعوا في مخالفة دين الرسل - صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين -، كما ذكرنا في المسألة الثالثة عشرة مثلاً هناك نفي وإثبات؛ شيء يُنفى وهو الغلو في الصالحين وعبادتهم، شيء يُثبت وهو محبتهم واتباعهم على الحق الذي كانوا عليه، أهل الباطل أخطئوا في الأمرين، فجعلوا حب الصالحين سببًا للغلو فيهم فلم يحبوهم الحب المشروع، وإنما غلوا فيهم حتى عبدوهم من دون الله ﷻ، فكان هذا مخالفة لما جاء به الرسل.

كما ذكرنا أنهم ينفون القياس الصحيح ويتبعون القياس الباطل، أنهم يقتدون بفسقة العلماء، ولا يقتدون بأهل الإيمان والعلم الحقيقي بزعم أنهم تكلموا بادي الرأي، يتركون أو ينفون الحق لأن أتباعه من الضعفاء، ويثبتون الباطل لأن أصحابه هم المُمكنون، يتركون الحق بزعم أن أهله قلة، ويثبتون الباطل بزعم أنه أهل كثرة أو لأجل أن أهله كثرة، فكل ما حدث من خلل كان بسبب مخالفتهم لما جاءت به الرسل، في مسألة النفي والإثبات، فلم يثبتوا ما أثبته الرسل ولم ينفوا ما نفاه الرسل، والناس في هذا الباب بين مقل ومكثر، بمعنى: أن هناك من الناس من يثبت ما جاءت به الرسل، ولكنه لا ينفي ما نفته؛ ولذلك يقع في أنواع من الشرك والضلال، يغتر بأمر من الأمور اجتمع على إثباته مثلاً، كما ذكرنا حب الصالحين، الرسل يثبتون حب الصالحين، ونحن نثبت ذلك، ولكن لم ينفوا ما نفته الرسل من أنه لا يجوز لنا أن نعبدهم ولا أن نغالي فيهم، ولا أن نجعلهم أندادًا يعبدون

من دون الله ﷻ، كما ذكرنا كثير من الناس قد يقول هذا الخلق الحسن أمر جاءت به كل الرسل فلنثبت هذا، لنثبت مثلاً أن الوفاء وأن الكرم وأن الجود وأن الإحسان إلى الناس أمور حسنة، فمن أتى بها فهو ناج، لكنه لم ينف ما نفته الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - من عبادة غير الله، فصحح عبادة غير الله؛ لأن هناك أناس على أخلاق حسنة - مثلاً: على إتقان في عملهم، على وفاء في وعودهم - يعبدون غير الله ﷻ؛ لذلك لابد لنا أن نبطل الباطل وأن نحق الحق؛ كما قال ﷻ: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال: ٨]، فلابد أن يُحق الحق، لابد أن نثبت ما أثبتته الرسل، وننفي ما نفته الرسل، ولا يصح إيمان بدون هدم الجاهلية، وهذا الكتاب كتاب مسائل الجاهلية في هذا الباب في الحقيقة في هدم الجاهلية، الرسول ﷺ وضع أمور الجاهلية تحت قدميه، هذا أصعب شيء على النفوس التي تعودت على التقليد، وعلى تعظيم ما عليه الأسلاف والكبار والرؤوساء والملوك والعباد والعلماء؛ علماء السوء، وعباد السوء وملوك السوء؛ فلذلك يكرهون أن يهدموا الباطل الذي في نفوسهم، أصبح عظيمًا عند هؤلاء بسبب نشأتهم عليه؛ ولذلك قد يقبلون الحق طالما لم يتعرض لإبطال الباطل، طالما لم يتعرض لآلهتهم ولعقولهم وكبارهم وسادتهم وعاداتهم وتقاليدهم؛ ولذلك كانوا لم يعلنوا رسول الله ﷺ بالعداوة حتى أنكر عليهم عبادة الأوثان، حتى اتهم آباءهم بالشرك والكفر، حتى وصف من كان يعبد هذه الأصنام بضعف العقول وضعف التفكر وعدم الفهم، وغير ذلك من الأوصاف التي هي لائقة به بسبب عبادة الأصنام، فقالوا: سفه عقولنا، وضلل آباءنا، وسب آلهتنا، فهنا وقعت المعركة،

وهذا تجده أيضًا في كثير من الناس، لو قلت للناس: نحن نعبد الله، ونحن نصدق محمدًا ﷺ، سوف يقول لك كثير من الناس: لا بأس عليك، ونحن أيضًا نعبد الله ونصدق أنبياء آخرين ونتبع شرائع أخرى، فإذا قلت: بل أنتم على ذلك مشركون كفار؛ لأنكم لم تتبعوا توحيد الله الذي جاءت به الرسل كلهم، بل عبدتم الصالحين، وعبدتم الأنبياء، وعبدتم المسيح، وعبدتم عزيرًا، وعبدتم الأحبار والرهبان، وأنتم بتكذيبكم رسول الله ﷺ كفار مشركون تاركون للدين الحق، هنا تقوم المعركة، كما ذكرنا قضية النفي والإثبات لابد أن نتبع فيها ما جاءت به الرسل، لابد أن ننفي الباطل، لابد أن نكفر بالطاغوت، سوف تجد كثيرًا جدًا من الناس يقبلونك طالما أنك لم تنتقدهم، طالما أنك لم تبطل ملتهم، وينكرون عليك جدًا أن تقول: إن ملة الإسلام هي الحق دونما سواه، فيقولون: لا، هناك حقوق كثيرة، هناك حق متعد، ليست هذه الملة فقط هي الطريق الموصل إلى الله، بل كل الطرق موصلة، وهذا في الحقيقة دين أهل الجاهلية الذي ينتشر في زماننا أعظم انتشار، لا يريد أحد أن يُتهم أحد بأنه كافر، يريدون إلغاء هذا الوصف بالكلية من الاصطلاح، وصف الكفر، ووصف النفاق، ووصف الشرك، لايوجد من يصح أو يحق أن يتصف به ولو كان عابدًا للبقر، إنما هم قوم هلكوا وماتوا وليس لهم وجود في الواقع، اليهود على حق والنصارى على حق، والهندوس لا بأس بهم، والمجوس لا مانع منهم، والكل طريق يؤدي إلى الحق، هنا كانت المعركة بين الرسول وبين أهل الجاهلية، لما أبطل الملل الأخرى، لما جاء بأنه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، لما جاء

بأن الدين عند الله هو الإسلام، ولما جاء بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾، سوف تجد سورة «الكافرون» سورة مبنية على النفي والإثبات، أنا أعبد شيئًا أعبد إلهًا لا تعبدونه أنتم، وأنتم لا تعبدون إلهي وإن زعمتم أنكم تعبدوه؛ لأنكم أشركتم، والشرك محبط للعمل، وأنا لا أعبد ولا أقبل ولا أصحح أبدًا عبادة غير الله، لا أفعل ولا أصحح، مع أنكم تصححون ذلك؛ لذلك نقول: قضية النفي والإثبات، إبطال الباطل وإثبات الحق مهما كان الأمر في موازين الناس بخلاف ما جاءت به الرسل، فلابد منه، لابد أن نبطل الباطل، لابد أن نقول عن الباطل أنه باطل، عن الكفر أنه كفر، عن الشرك أنه شرك، لا يقوم دين الإسلام إلا بهدم الجاهلية.

نضرب على ذلك مثالاً: نقول: إنسان أراد أن يبني بناءً عاليًا شامخًا، فهناك من جاء إلى الأرض التي يريد أن يبني فيها، فوجدها مليئة بأكوام من الأحجار، وجد فيها تلاً من الأحجار، ووجد الأرض فيها نجاسات وخبث، فقال: لايمكن أن أبني بناءً عاليًا راسخًا شامخًا إلا بأن أزيل هذا الكوم من الأحجار الفاسدة والنجاسات والأشياء الباطلة والمنكرة، ثم أحفر وأضع الأساس، ثم أبني عليه البناء الراسخ الشامخ، وآخر قال: بل يمكننا أن نبني على هذا التل الهائل وإن لم يمكننا أن نضع أساسًا.

تخيل أن عمارة عالية تبنى على أكوام من الأتربة، هل يمكن أن تقوم لها قائمة؟! بعد ما يصب صبة، وأصل العمود هذا مبني على كوم من الزبالة، ولايرسخ في الأرض ولا يثبت له أساس، فلا يمكن أن يقوم البناء إذًا، بل

سينهدم مباشرة، لا تقوم له قائمة، وإن كان صلبًا في نفسه، ولكنه سرعان ما ينهدم.

ما السبب في مخالفة ما جاءت به الرسل في النفي والإثبات؟ ما السبب في أنهم يريدون إحقاق الباطل، وأن يؤمنوا بالباطل ويكفروا بالله؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، هذه قضية النفي والإثبات، بدلاً من أن ينفوا الباطل ويكفروا به آمنوا بالباطل، فبالتالي كفروا بالله؛ ولأن الإيمان بالله لا يحصل إلا بالتوحيد، لايحصل إلا بإفراده ﷻ بالعبادة وبكمال الأسماء والصفات وبالربوبية والألوهية، لا يحصل بأن تثبت بأن الله إله حتى تثبت أن لا إله إلا الله، تنفي الإلهية عن غير الله، وتثبت الإلهية لله وحده، لا يصح أن تتعدد الطرق بين الشرك والتوحيد، بين الإيمان والكفر، بين الحق والباطل.

نقول: السبب الذي أدى إلى مخالفة ما جاءت به الرسل في أمر النفي والإثبات؛ فآمنوا بالباطل وكفروا بالله، أنهم في باب التصورات والعقائد اتبعوا الظن، وفي باب الأعمال والسلوك والإرادات اتبعوا الهوى.

ذلك أن ما جاءت به الرسل ينقسم إلى: علم، وعمل، هؤلاء في باب العلم والتصور والفهم والاعتقاد تركوا ما جاءت به الرسل من العقيدة الصافية النقية، وسلكوا سبل الباطل. بماذا؟ للظنون.

وأما في باب السلوك والعمل والإرادات والمقاصد الإنسانية فاتبعوا الأهواء والشهوات، وهذه القضية الخطيرة التي لابد أن ننتبه لها دائمًا.

ما جاءت به الرسل - كما ذكرنا - في هذين القسمين، وأن تريد أن تزن

أي معتقد من المعتقدات، أو أي سلوك من السلوكيات أو أي فرد من الأفراد، أو أي مجتمع من المجتمعات، فلابد أن تنظر في المسألتين: مسألة العلم، والعمل، لابد أن تنظر في فهم هذا الإنسان واعتقاده وتصوره عن الوجود، ولابد أن تنظر في سلوكه المُطبق في الحياة، وماذا يريد؟ وكيف يسير في حياته؟ وكيف يعمل في حياته وكيف يطبق هذا التصور؟ وهل يطبقه، أم لا؟

لأن بعض الناس قد ينظر إلى جانب واحد ينظر، مثلاً: إلى جانب السلوك يجد رجلاً زاهدًا جدًا، رجل عاش حياته يأكل القليل ويلبس المرقع والمقطع، ويعتزل زخرف الدنيا فيعجب به غاية الإعجاب، كما يعجب كثير من الناس بالرهبان؛ لأنهم ضحوا بزخرف الدنيا، وبقوا حياتهم كلها يحرمون أنفسهم من أنواع الملاذ، فيقول: انظر، لابد أن هؤلاء على أعلى الأحوال؛ لأنهم تركوا أهواءهم، ويهمل أنهم يعتقدون أن الله ثالث ثلاثة، ينسى هذه المسألة ولا يفكر فيها، يهمل أنهم يقولون: اتخذ الله ولدًا، يهمل أنهم يقولون: المسيح هو الله، والعياذ بالله، لو أن هؤلاء عاشوا أعمارهم في عبادة الله ركوعًا سجودًا، وحسنوا أعمالهم، وتركوا الدنيا بأسرها، وأحسنوا إلى الخلق، وعاملوا الناس بالإحسان، كما يقع في كثير من وسائل التنصير، على ما يبنون عملهم؟ هل على عقيدة صحيحة أو محتملة؟! بل يجزم الكل أنها عقيدة مرفوضة وغير مقبولة بالمرة، لكن يبنون عملهم على الإحسان إلى الناس، أن هذا الرجل جاء ليطببنا، جاء ليعطينا مالاً، جاء ليقدم لنا خدمات، وكثير جدًا من الناس من أجل هذه الأمور ماذا يصنع؟ يقبل الباطل، والعياذ بالله، ويقول: هذا رجل صالح، هذا رجل حسن

جيد، إنما يعيننا على ذلك، أو كما ذكرنا ينظر إلى زهده وعبادته، كما قال بعض من يخطب ويتكلم في الدين: إن الرافضة لأن منهم الزهاد والعباد وأئمتهم أئمة كبار، رجال ليسوا لهم نظير، فحين لايوجد منا ذلك فهم الأحق بالاتباع؛ لأنهم أناس بذلوا. ولم ينظر إلى قضية الفهم والتصور، وأن هؤلاء من أهل البدع والضلال، كما ذكرنا المثالين في أهل الكفر، والمثال في أهل البدع.

نقول: لابد أن ننظر في المسألتين، مسألة العلم، ثم بعد ذلك مسألة العمل، كذلك البعض قد ينظر ويقول: هؤلاء القوم عقيدتهم وتصورهم غاية في الكمال والاستدلال، ويهمل جانب السلوك، ويهمل أنهم إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، وإذا عاملوا الناس عاملوهم بالقسوة والغلظة والشدة، ولم يحسنوا إلى الخلق، هذا أيضًا من الفساد، كما أن النوع الأول: فساد الذي ينظر إلى جانب العمل ويهمل جانب التصور والفهم والعلم، فالآخر: الذي يهمل جانب العمل والسلوك والإرادة كذلك مخطئ؛ لأنه ركز على جانب واحد، لا يحصل الإيمان والاتباع الصادق لما جاءت به الرسل إلا بالعلم والعمل، إلا بترك الغي وترك الضلال؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾، فصان فهم الرسول ﷺ وعلمه وما جاء به من العقائد عن الضلال، أن يكون الإنسان فاسد الاعتقاد، فلا ينفعه عمل مهما عمل، ويكون من أصحاب الوجوه الخاشعة العاملة الناصبة التي تصلى نارًا حامية؛ كما يُروى على إرسال في سند الرواية: «**مرّ عُمرُ بْنُ الْخطّابِ بِديْرِ راهِبٍ فناداهُ: يا راهِبُ، يا راهِبُ. قال: فأشْرف عليْهِ، فجعل عُمرُ ينْظُرُ إِليْهِ ويبْكِي،**

قال: فقِيل لهُ: يا أمِير الْمُؤْمِنِين، ما يُبْكِيك مِنْ هذا؟ قال: ذكرْتُ قوْل اللّهِ - عزّ وجلّ - فِي كِتابِهِ: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٤] **فذلِك الّذِي أبْكانِي. هذِهِ حِكايةٌ فِي وقْتِها، فإِنّ أبا عِمْران الْجوْنِيّ لمْ يُدْرِكْ زمان عُمر»**(١)، يعني: هذا الرجل يُتعب نفسه تعبًا شديدًا، حرم نفسه.

كما في مرة كنتُ أتكلم مع رجل نصراني، فقال لي: إنه كان بعضهم لايمس الماء ثلاثين سنة. انظر كيف يعذب إنسان نفسه ثلاثين سنة لايستنجي، والعياذ بالله، أو لا يستحم ثلاثين سنة، ويجعل ذلك سببًا، وفي الحقيقة هذا عذاب للنفس. رهبان البوذيين يعذبون أنفسهم، يقولون: لا يصل إلى مراتب الرهبانية إلا لما يجلس في القبر مع إنسان ميت حتى يُنتن، يظل محتضن له وجالس في القبر معه، يلقي نفسه في الأشواك ويصاحب الوحوش في البرية وفي الغابات ونحو ذلك، يعذب نفسه أنواع العذاب، والعياذ بالله؛ ليصل إلى صفاء الروح.

فساد في الاعتقاد وضلال، والعياذ الله، ولو عذب نفسه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾، عاملة ناصبة: تعمل وتتعب، وفي النهاية تصلى نارًا حامية، والعياذ بالله.

فهذا لضلال الفهم، لوجود الضلال، فالله صان رسوله ﷺ عن أن يوجد في كل ما جاءه من أمور العلم والفهم والتصور أي ضلال؛ ولذلك العقيدة الإسلامية أكثر ما يميزها أنها عقيدة لا يأتيها الباطل؛ كما قال الله ﷻ عن

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٦٧)، وعبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٤٢٠).

القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾، فلا تجد أبدًا أي عقيدة من عقائد أهل الإيمان أو أي فهم فيهم يخالف أي دليل سمعي أو عقلي أو فطري، بل كل ما جاء به محمد ﷺ، وفي الحقيقة كل ما جاءت به الرسل تتفق عليه كل الأدلة النقلية عن كل الرسل، كما في قضية التوحيد مثلاً، لو أننا نظرنا حتى في الأناجيل وفي العهد القديم الذي عند أهل الكتاب، سوف نجد أن قضية التوحيد هي أوضح القضايا، لا يمكن أن يأتوا بدليل عن أحد من الرسل نقلي، رغم أن أسانيدهم فيها انقطاع ونحو ذلك، لكن ما زالت قضية التوحيد هي أول القضايا وضوحًا، الوصية التي هي أول الكل: (**فأجابهُ يسُوعُ: إنّ أوّل كُلِّ الْوصايا هِي: اسْمعْ يا إِسْرائِيلُ. الرّبُّ إِلهُنا ربٌّ واحِدٌ**)[1]، هذا الموجود في التوراة وموجود في الإنجيل من كلام المسيح، لما سألوه: أي الوصايا هي أول الكل؟ قال - كما هو مكتوب -: (**٣٧وأمّا أنّ الْموْتى يقُومُون، فقدْ دلّ عليْهِ مُوسى أيْضًا فِي أمْرِ الْعُلّيْقةِ كما يقُولُ: الرّبُّ إِلهُ إِبْراهِيم وإِلهُ إِسْحاق وإِلهُ يعْقُوب**)[2].

لذلك نقول: من الذي أبرز هذه القضية؟ اليهود لا يبرزونها؛ لأنهم يتركون العالم كله لا يستحق أن يعبد الله، عندهم أن العصبية الجاهلية للجنس الإسرائيلي، وسائر الأمم لا قيمة لهم، عبد عبيد العبيد، كالكلاب، لا يحسن أن يعطى الخبز للكلاب ويؤخذ من الأولاد، هم أولاد الرب، والآخرون الكلاب، فلا يجوز أن يأخذ أحد الخبز ويعطيه للكلاب، شعوب

(١) انظر: انجيل مرقس (١٢).
(٢) انظر: انجيل لوقا (٢٠).

الأرض عندهم هم الكلاب، الذي لا ينفع ولا يصح أن يؤخذ الخبز ونعطيه لهم؛ ولذلك استباحوا أن يوجد في الأمم ما يكون يهودي ينشر في الأمم إنكار وجود الله، ينشر في الأمم عبادة الأوثان، ينشر في الأمم الشيوعية، ينشر في الأمم الوجودية، ينشر في الأمم النشوء والارتقاء، الشيء العجيب أن كل هؤلاء يهود! ماركس يهودي، لينين يهودي، فرويد يهودي، داروين يهودي، كل هؤلاء يهود؛ لأن عندهم أصلاً أنه لا مانع أن ننشر في الأمم عبادة غير الله، لا يمكن الوثني ولا أي واحد غير يهودي أن يتحول إلى يهودي، لابد أن يكون مولود يهودي وأمه يهودية، والعياذ بالله، عصبية جاهلية لاينشرون في الأرض إمكانية عبادة الله، لا يريدون أن يعبد الناس ربهم، والعياذ بالله؛ أما النصارى فعقيدتهم الكبرى هي تأليه المسيح بلا شك، والتثليث والصليب هذه هي شعاراتهم في العالم، من الذي يقول: (**الرّبُّ إِلهُنا ربٌّ واحِدٌ**)؟ في الحقيقة المسلمون.

الذي يعيش لقضية: (لا إله إلا الله)، و(**الرّبُّ إِلهُنا ربٌّ واحِدٌ. وتُحِبُّ الرّبّ إِلهك مِنْ كُلِّ قلْبِك، ومِنْ كُلِّ نفْسِك، ومِنْ كُلِّ فِكْرِك**)(١)، الذي ينشر هذا في العالم هم أهل الإسلام ببعثة النبي ﷺ، الذي جدد ما بعث به الرسل هو محمد ﷺ، الذي أحيا دين الأنبياء بعد أن أصبح مضيعًا في الأمم.

أما سائر الأمم الأخرى فتعبد التماثيل والأشجار والأبقار والأحجار، لا شك أن في الأمم الأخرى أعاجيب، المسلم لما يتفكر ما الذي جعل هذه الأمم تضل هذا الضلال إلا أنها نشأت على ذلك نشأة عجيبة الشكل،

---

(١) انظر: انجيل مرقص (١٢).

وإلا فسائر الأمم يعيشون حياة في منتهى الانحراف - والعياذ بالله - في باب التصور.

نقول: في كل عقيدة من عقائد أهل الإسلام سوف تجد الدليل العقلي والدليل النقلي عن الرسل، الدليل العقلي إذ من تفكر وتدبر وجد أن هذا الذي يدل عليه العقل الصحيح، والدليل الفطري أن هذا موافق للفطرة، بخلاف من يجد ما يلزمه أن يعتقده مخالف للعقل وللفطرة وللنقل، يعني: هذا الذي يعبد البقرة كيف يعبدها؟ الفطرة تقول له: إنما هذه البقرة أنا أسخرها أن أحلبها، أجعلها تسقي الحرث، أجعلها تحرث الأرض، أنتفع بمنافع البقر، وليس أني أعبد هذه البقرة وأسجد لها، وأعتقد أنها أفضل من أمي، أنا أراها تموت وتروث وتبول، وتأكل الحشيش ونحو ذلك وتُعطى العلف... وتقدس هذه البقرة، فهذا لا نقل ولا عقل ولا فطرة سوية، الذي يعبد الصليب هذا بلاشك أنه أمر عجيب جدًا، أن شعار إهانة الإله وابن الإله وتدميره وقتله وتعذيبه يصبح شعارًا معظمًا، وأنه ينبغي علي أن أعظم الشعار الذي يدل على قتل الإله، وأن البشر أقوى من ربهم، والعياذ بالله، أقوى ممن خلقهم، أنهم قتلوه مجردًا عاريًا كما ولدته أمه.

وكما ذكرتُ لكم أن واحدًا كان غضبانًا يقول لهم: أنتم ضلالية. لما؟ لأنكم ترسمون المسيح على الصليب ولابس الثوب، وأنتم تعرفون أنه صلب وهو عارٍ كما ولدته أمه، نعوذ بالله من ذلك.

فتخيل أن إنسانًا يعتقد أن هذه هي العقيدة التي يلزمه أن يعتقدها، وأن يقاتل من أجلها، وأن يسفك الدماء من أجلها، مع أنه مأمور فيها بأنه: (منْ

ضربك على خدِّك فاعْرِضْ لهُ الآخر أيْضًا، ومنْ أخذ رِداءك فلا تمْنعْهُ ثوْبك أيْضًا)[١]، ومع ذلك العكس تمامًا هو الذي يطبق في الحياة، فأين العقل والنقل؟ هل هذا الكلام منقول؟ العهد القديم موجود أين فيه هذا الكلام: أن الصليب هو المعظم، وأن فداء البشرية مبني على موت الرب ﷻ؟

أو أين في الكتاب الأول عند اليهود أنه لا يوجد عبادة في الأرض إلا عبادة اليهود لله، وأن كل ما سوى ذلك ليس له اعتبار؟ فأنت لو فكرت في كل عقيدة من عقائد الأمم، فستجد الضلال هو السمة الأساسية؛ فأما ما جاء به محمد ﷺ وكل ما جاءت به الرسل في باب التصور والفهم، في باب العلم، في باب العقيدة، في باب إدراك هذا الوجود على ما هو عليه، هو الذي تدل عليه الأدلة العقلية والنقلية والفطرية؛ ولذلك القرآن يرشدنا إلى ذلك بأيسر الطرق، القرآن لا يتضمن أدلة نقلية فحسب كي لا يقال: كيف نحتج بالقرآن وليس كل الناس تؤمن بالقرآن؟

القرآن يتضمن الحجج العقلية والحجج النقلية عن الرسل، ويتضمن الحجج الفطرية؛ لأنه يوقظ فطرة الإنسان إلى ما يحبه الله، وإلى الحق الذي جاءت به الرسل صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين.

لذلك نقول: لابد في باب التصور أن ننبذ الضلال، هذا الضلال الذي هو الظن من أين أتى؟ من أين أتى هذا الضلال؟ ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾، ربنا نفى عنه في باب التصور والفهم والعلم الضلال، وفي الإرادة والقصد والسلوك والعمل، نفى عنه الغواية، الغي: هو أن يعلم الحق، ولكن نفسه

(١) انظر: انجيل لوقا (٦).

تغلبه في اتباع الباطل؛ ولذلك تجد هاتين المسألتين: اتباع الهوى، والظن، موجودتين في الفاتحة أيضًا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، الضلال الذي عند النصارى الذين لم يعلموا الحق؛ ولذلك جهلوه فعادوه واتبعوا الباطل بالتالي، واليهود الذين علموا الحق فأعرضوا عنه فباءوا بالغضب، الأمة الغضبية: «**الْمغْضُوبُ عليْهِمُ: الْيهُودُ، والضّالُّون: النّصارى**»[(١)]، فالصراط المستقيم خلاف صراط المغضوب عليهم وخلاف صراط الضالين، المغضوب عليهم الذين علموا الحق، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك يعادونه ما بقوا؛ كما قال حيي بن أخطب عندما قال له ياسر أخوه، فيما تحكيه صفية رضي الله عنها مما وقع بين أبيها وعمها، قالت: (**فلمّا قدِم رسُولُ اللّهِ ﷺ الْمدِينة، ونزل قُباء فِي بنِي عمْرِو بْنِ عوْفٍ، غدا عليْهِ أبِي، حُييُّ بْنُ أخْطب، وعمِّي أبُو ياسِرِ بْنِ أخْطب، مُغلِّسيْنِ. قالتْ: فلمْ يرْجِعا حتّى كانا مع غُرُوبِ الشّمْسِ. قالتْ: فأتيا كالّيْنِ كسْلانيْنِ ساقِطيْنِ يمْشِيانِ الْهُويْنى. قالتْ: فهشِشْتُ إليْهِما كما كنت أصنع، فو الله ما الْتفت إليّ واحِدٌ مِنْهُما، مع ما بِهِما مِنْ الْغمِّ. قالتْ: وسمِعْتُ عمِّي أبا ياسِرٍ، وهُو يقُولُ لِأبِي حُييِّ بْنِ أخْطب: أهُو هُو؟ قال: نعمْ واللّهِ، قال: أتعْرِفُهُ وتُثْبِتُهُ؟ قال: نعمْ، قال: فما فِي نفْسِك مِنْهُ؟ قال: عداوتُهُ واللّهِ ما بقِيتُ**)[(٢)].

والعياذ بالله. لماذا؟

---

(١) سبق تخريجه (١٥٥).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٥١٩)، ودلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني (١/ ٧٧)، والروض الأنف (٤/ ٢٠٧)، والسيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٢٩٨).

بسبب الحقد والرغبات الخبيثة الشيطانية، يكونون عارفين بالحق ويعادونه - والعياذ بالله - لوجود الغي، لاتباع الشهوات، والشهوات على نوعين: شهوات إبليسية شيطانية، وشهوات بهيمية حيوانية، الشهوات الإبليسية الشيطانية في العلو والكبر والرياسة والحقد والحسد، والرغبات في العلو على الخلق والتكبر عليهم - والعياذ بالله - والإعجاب بالنفس، والشهوات البهيمية: الجنس، المال، الأكل، الشرب، هذه شهوات البهائم، انظر إلى العالم وسوف تجد الشهوات الإبليسة الشيطانية والشهوات البهيمية هي التي يُقاوم بها الحق الذي جاءت به الرسل، وهل يقدر أي أحد منهم في أي مناظرة أن يقيم حقًّا أي أدلة على ما يفعلون؟! لا يعرفون. ما الذي يستعملونه؟ البطش، المال، الجنس، المخدرات، الأكل والشرب، الملك والرياسة، أو الشهوات الإبليسية كالكبر والعلو والرغبة في سفك الدماء وفرض الإرادة على الناس، بدون أدلة ولا عقل ولا منطق، بل كذابون؛ يكذبون ويعرفون أن العالم يعرف أنهم يكذبون، ومع ذلك يصرون على ذلك.

الحضارة الغربية هذه بكل ما تعطيه وبكل ما فيها، ما الهدف من الحياة عندهم؟ كيف يعيش الناس هناك؟ يطبقون نمط الحياة ونراهم لما يأتون لبلادنا أو نذهب لبلادهم، ولما يفرضون نظام الحياة على الناس، ولكن حياة مبنية على ماذا؟

على أن الناس تنقسم إلى قسمين: قسم يعيش هائمًا يأكل ويشرب ويفعل الجنس ويتمتع بالمال والخمر والمخدرات، ويعيش هكذا لا يعرف معروفًا

ولاينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه، اتباع الهوى والشهوات، والعياذ بالله.

وطائفة أخرى تتسلط عليهم بالكبر والعدوان وبلاء الجنود، كفرعون الذي ترك قومه يرتعون في الفواحش والظلم وأنواع الفساد، وهو وجنوده الذين يترأسون على العالم ويتكبرون، ويظهرون مظاهر تكون الناس فيها تبع لهم بأي طريقة كانت والعياذ بالله.

ولذلك نقول: إن مخالفة ما جاءت به الرسل مبني على الغي والضلال الضلال في التصورات، والغي في الإرادة، الغي في المقاصد وفي السلوك وفي العمل، والغواية مبنية على اتباع الهوى، وذلك قال الله ﷻ في بيان هذين الأصلين عند المشركين، بعد ما بيّن عند النبي ﷺ أنه لم يضل وليس عنده غي، قال في المشركين: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾، في باب العقائد الظنون التي هي الضلال، من أين أتى بهذه العقيدة؟ من أساطير الأولين، من خرافات وخزعبلات يخترعها، ينامون ويسرحون، ثم يقولون: واجب الوجود، فاض منه عقل فعال، وفاض منه نفس كلي، والعقل الفعال فاض منه عشرة عقول، والنفس الكلي فاض منه تسعة نفوس، ثم تطورت نظرية الفيض إلى أن وصلت إلى الهيولي، أي: المادة، والمادة متكونة من أربعة: نار وهواء وتراب وماء، وتكون هذه عقيدة تؤثر حتى على عقيدة أتباع الأنبياء في يوم من الأيام، حتى وصلت إلى ما يقوله البابا بندكت: (**إن عقيدتنا عبارة عن خليط من تعاليم المسيح مع الفلسفة اليونانية**)، كما ذكرت قبل ذلك أنه لايقدر أن يقول إن هذه عقيدة المسيح، وإنما قال تعاليم المسيح، المسيح قال لهم: لا تقتل، لا تسرق، لا تزني،

لكن لم يقل لهم: إنه في ثلاثة أقانيم، وإن أقنوم الابن مولود من الأب قبل كل الدهور، وإنه مساوٍ له في الجوهر، وإنه إله من إله، وشعلة نور من شعلة نور، وإنه تجسد وصلب من أجلنا ليفدي الخطايا، وإن الروح القدس الإله المعبود المسجود له المنبثق من الأب مسجود له وممجد، أين يوجد هذا الكلام؟ أهذا من كلام المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ أين هذا الكلام في الإنجيل؟ أين هو في كلام المسيح؟ ائتوا بكلام المسيح ولن تجدوا شيئًا من ذلك، ائتوا بالعهد القديم التي أنزلها الله، وأنتم تقولون إنها ليس فيها تحريف ولا نقصان ولا زيادة، وما حال الأمم التي عاشت كل هذه القرون على غير هذه العقيدة؛ لأنها غير موجودة في التوراة، كيف عاشت؟ أكان الله يضلل العالم حتى يعيش بغير هذه العقيدة؟!

تصورات باطلة، ناس أخذوا يحلمون ويفكرون ويخرفون ويصبح هذا بعد ذلك هي العقيدة الملزمة، انظر إلى عقائد الصوفية من أهل البدع والضلال، وعقائد الرافضة، وكلٌّ على نصيب من الضلال على قدر اتباع الظن، يحكون حكايات؛ أحدهم أتاني بكتاب عن المولد النبوي، يقولون: الذي يقرأ أشعارهم - الأبيات الشعرية - في المولد، له كذا وكذا من الجنان، وكذا وكذا من الحجات، وكذا وكذا من العمرات. ويقولون: سيدنا جبريل قابل الرسول ﷺ، ويحكون حكايات، ولا يفكر أحد، فلماذا لا نرجع للبخاري ومسلم وأنتم تقولون: إنهما أصح الكتب بعد كتاب الله؟! اقرءوا القرآن وانظروا أين تعظيم يوم المولد في القرآن؟!

في كتاب صغير يوزعونه يقولون عقيدة المسلمين، يقولون فيه: ما الدليل

على الاحتفال بالمولد النبوي الشريف؟ يقولون قول الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج: ٧٧]. وكما جاء في الحديث أنه ﷺ قال: «**مَنْ سنّ فِي الإسْلامِ سُنّةً حسنةً فلهُ أجْرُها وأجْرُ منْ عمِل بِها بعْدهُ مِنْ غيْرِ أنْ ينْقُص مِنْ أُجُورِهِمْ شيْءٌ**»(١)، سبحان الله!

فما رأيكم نأخذ يوم الرابع عشرمن جمادى الآخر ونخصه بأنواع من العبادات، فما المشكلة إذًا؟ بدلاً من الثاني عشر من ربيع الأول هذا، ونعمل أي شيء، ونخترع أي عبادة طالما ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، طيب أين في كتاب الله ﷻ مثل هذا؟ لا يوجد. شرع الله لنا شهر رمضان وليالي ذي الحجة، والفجر وليال عشر، الأيام الفاضلة المباركة التي هي أعياد المسلمين، وفي السنة تجد أحاديث كثيرة في فضل يوم الجمعة وفي فضل ليلة القدر، وليلة القدر مذكورة في القرآن، عبادات، أيام الله ﷻ أيام عظيمة القدر نجدها في القرآن ونجدها في السنة، تفتح البخاري تجد فضل الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان، تجد فضل صيام الاثنين والخميس، وكذلك في كتب السنن، فهل ستجد فضل ربيع الأول؟ لن تجد. فلماذا لا تفكرون - وهذا جزء بسيط - في أن مثلاً هذا الكون مقسم إلى أربعة أقسام بين: البدوي، والدسوقي والقنائي، والجيلاني، كل ربع له الشيخ الخاص به الذي يلجأ الناس إليه عند الشدائد والمحن، والعياذ بالله، أن التوسل بهؤلاء والذهاب إلى قبورهم فيه من

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

أنواع الخيرات ما فيه، وأنواع من الضلالات مبنية على اتباع الظن، والعياذ بالله؟! فلابد أن نفكر لما يقول الرافضة: (**فإن للإمام مقاماً محموداً وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون**)، هذا كلام الخوميني[١] أين في كتاب الله ﷻ ذلك؟ أين في سنة النبي ﷺ ذلك؟ أن للأئمة سلطانًا على كل ذرة من ذرات الوجود، أن لهم أحوالاً لا يبلغها ملك مقرب ولا نبي مرسل، والله أي نظرة في كتب أهل البدع والضلال سوف تدلك على مدى الانحراف الهائل في اتباع الظن.

لماذا ترغبون في هذه الصلاة المبدعة، وتلك الموالد مثلاً وذاك القبر الفلاني الذي تذهبون إليه وتحجون إليه والطواف حول هذا الضريح، كل هذا يخترعون له أنواع من الضلال بلا بينة، بلا دليل نقلي ولا عقلي إلا خداع الناس، إلا الخرافات والخزعبلات، نعوذ بالله من ذلك.

لذلك فعلاً أديان الباطل، أديان الخرافة، مبنية على اتباع الظن، في باب الاعتقاد فيها الضلال، لماذا؟ لأنها بنيت على الظن.

وفي باب السلوك والعمل انظر إلى أنواع الأعمال المبنية على اتباع الهوى، نمط الحياة الغربية على سبيل المثال، ونمط حياة أهل البدع، انظر إلى ما تصنعه الرافضة والصوفية في سلوكياتهم وإراداتهم وأنواع أعمالهم، تجد مثلاً أنهم يأتون يوم عاشوراء والرافضة يضربون أنفسهم بالسيوف ويقطعون أنفسهم، والناس تصور ذلك، وترى الرجل خالع الطاقية ويلطم على وجهه والناس كلها تضرب، وشخص يمسك الميكرفون ويقول: الله

---

(١) سبق عزوه (ص١٧٧).

. . . واحد اثنين، وهذه النكتة مصورة على أفلام منقولة في كل مكان، فهل هذا مجالس علم أو عبادة بزعم أنهم يحزنون على الحسين؟! فهذه هي سلوكياتهم.

انظروا إليهم وهم جالسون يبكون، فيأتي أحدهم يذكرهم بمقتل الحسين مثلاً، فيأخذ الناس يلطمون ويبكون أنواع البكاء الفظيع، أشد من بكائهم على موت علي رضي الله عنه وموت الرسول ﷺ، وفضلاً عن غيره من ذلك.

وهؤلاء الصوفية بالطبل والاحتفال بالمولد النبوي، هذه الحلاوة أصلاً من أين جاءت؟ من الفاطميين، فعلاً أشياء عجيبة جدًا، يعني الناس لو أرادت أن تحتفل فلتحتفل باتباع النبي ﷺ، ولكن ترى في يوم المولد الطرق الصوفية ناشرين الأعلام الخضر، ويرقصون ويلفون ويدورون، وهذا يلاقي اهتمامًا بالغًا من أعداء الإسلام.

«لندن» عملت مسابقات على أهم مؤلفات جلال الدين الرومي، جلال الدين الرومي المثنوي[1]، تسمعهم يقولون عن فرقته: القائم عبادتهم على الرقص، هكذا صراحة، لا يضحكون ولا يقولون نكت، لا، هم عبادتهم قائمة على ذلك، الحلقات لابد لهم فيها من لبس معين كالجونلة، ويظل الرجل يلف ويلف، سلوكيات عجيبة جدًا والله! فهذا فعلاً اتباع الهوى، وعقائد فاسدة وسلوكيات مبنية على اتباع الأهواء، والعياذ بالله، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾، ما بين أهل البدع والضلال، وما بين أهل الشهوات الحيوانية الذين يريدون أن يعيش العالم كالبهائم، أو

(١) انظر ترجمته: (ص١٢٤).

الشهوات الإبليسية الذين يريدون أن يترأسوا على العالم، هذا الذي كان عليه أهل الجاهلية، أهل الإسلام لابد أن يكون لكل شيء عندهم له دليل، لا يعتقدون عقيدة إلا بآية وحديث، لا يتبعون في باب العمل إلا الإرادات الإنسانية الرفيعة العالية؛ من إرادة حب الله ﷻ، من إرادة الخوف من الله، من التوكل على الله، والعبادات والأخلاق التي عليها الأدلة.

فنحن في باب العمل والسلوك عندنا عبادات أعلى ما يوجد في العالم من أنواع العبادة؛ في الصلاة تجد كل أنواع السمو والارتفاع، والصيام أفضل أنواع الصيام وخير الصيام، تجد في الحج عبادة لا نظير لها في إصلاح النفس، العمرة كذلك، في الزكاة عبادة عملية في الإحسان إلى الناس، سلوكيات معينة يسلكها المؤمن، التوازن فيما يختص بقضية الشهوات، لا أننا نجيع أنفسنا ونعذبها ونحرمها بالكلية، ولا أننا نطلق لها العنان ونأكل كل شيء كالمحرمات، والعياذ بالله، أو نسرف على أنفسنا، بل التوازن في ذلك، والقصد الذي شرعه الله لنا.

فشرع الله لنا أشياء نتحكم من خلالها بأنفسنا ولا تتحكم فينا شهواتنا، وفي نفس الوقت نلتزم بالحلال، ولا نحرم أنفسنا: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٢ - ٣٣]، ففعلاً هذه الآيات ترى فيها إعجازًا تشريعيًا في التوازن المطلوب والقصد والتوسط في كل الجوانب، في باب العمل والسلوك والإرادة والمقاصد سوف تجد أوضح الأدلة على ما جاء به

الرسول ﷺ، القرآن العظيم في ذلك هو الأصل والسنة موضحة له، في باب التصور وفي باب العمل والسلوك، في باب العلم والعمل.

باب التصور بعيد عن الشهوات المضلة، وفي باب السلوك بعيد عن الشهوات المغوية، الفتنة مبنية على وجود فتن شبهات تضل الناس باتباع الظن، وفتن شهوات تغوي الناس باتباع ما تهوى الأنفس، ولذلك فهذه الجملة رغم أنها صغيرة جدًا إلا أنها متضمنة لحكم عظيمة جدًا مأخوذة من الكتاب والسنة، فقوله: (**إِنّ كُلّ ما تقدّم مبْنِيٌّ على قاعِدةٍ، وهِي النّفْيُ والإِثْباتُ؛ فيتّبِعُون الهوى والظّنّ، ويُعْرِضُون عمّا جاءتْ بِهِ الرُّسُلُ**)، فيكون دخول الباطل إلى الحق حتى بدلاً من أن يُبطل يُقر ويُكذب بسببه الحق، يُؤمن بالباطل ويُكفر بالحق، ففي هذا النفي والإثبات المخالفة لماذا؟

للإعراض عما جاءت به الرسل في باب العلم والعمل؛ في باب العلم باتباع الظن، في باب العمل باتباع الهوى والشهوات، في باب العلم باتباع الشبهات، في باب العمل باتباع الشهوات؛ لذلك لابد أن نكون بعيدين عن سبيل الضالين وسبيل المغضوب عليهم؛ سبيل الضلال في العلم، وسبيل المغضوب عليهم في الإرادة والسلوك والعمل، لابد أن نكون بعيدين عن الضلال والغي، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾، نكون لسنا كالذين يتبعون الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى.

إذًا، الهداية في الصراط المستقيم في ماذا؟ في أن تترك اتباع الشهوات واتباع الظنون وتبحث عن الدليل، ولابد أن تتبع ما جاءت به الرسل في

ذلك، بناءً على الأدلة العقلية والنقلية والفطرية، ولابد أن تقاوم الشهوات واتباع الهوى، لا حرمان بالكلية ولكن تنظيم لهذه الشهوات، لا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، لكن أنت تتحكم في شهواتك ورغباتك، وليس عندك شهوات إبليسية أصلاً؛ لأن الإنسان مختلف في خلقته عن إبليس؛ وأما الشهوات الحيوانية التي مردها إلى أن البدن خلق من الطين فهو يشترك مع ما خلق من الطين في هذه الشهوات فيتحكم فيها، لا تبطل بالكلية ولا يطلق لها العنان بالكلية، فهذا ما جاءت به الرسل من التوسط والتوازن من الحق في التصور والفهم، والعدل في العمل والسلوك؛ كما قال ﷻ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، صدق في الأخبار التي هي باب العلم والتصديق والاعتقاد، والعدل في العمل والسلوك والمقاصد.

الْمسْألةُ الْخامِسة عشْرة: اعْتِذارُهُمْ عنْ اتِّباعِ ما آتاهُمُ اللَّهُ بِعَدَمِ الْفهْم، كقوْلِهِ: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۚ﴾ [البقرة: ٨٨]، ﴿يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١]، **فأكْذبهُمُ اللَّهُ، وَبَيَنَ أَنَّ ذلِكَ بِسببِ الطّبْعِ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَأَنَّ الطّبْعَ بِسببِ كُفْرِهِمْ.**

الشـــرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (**الْمسْألةُ الْخامِسة عشْرة: اعْتِذارُهُمْ عنْ اتِّباعِ ما آتاهُمُ اللهُ بِعدمِ الْفهْمِ، كقوْلِهِ: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۚ﴾** [البقرة: ٨٨]، ﴿يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١]، **فأكْذبهُمُ اللهُ، وبين أن ذلِك بِسببِ الطّبْعِ على قُلُوبِهِمْ، وأنّ الطّبْع بِسببِ كُفْرِهِمْ**).

أراد المشركون بزعمهم أن قلوبهم لا تفقه أن يقولوا: إن ما جاءت به الرسل كلام لا يفقه، كلام غير مفهوم، غير معقول، لا تقبله العقول، وهم يزعمون أنهم أكمل عقولاً؛ ولذلك قالوا في اعتراضهم على الرسول ﷺ: (سفه أحلامنا)، أي قال: إن عقولنا سفيهة لا تفهم، فهم يريدون بقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۚ﴾ - على أصح وجهي التفسير - أن قلوبنا لا تفقه ما تقول، لأن كلامك لا يُفقه، لأن كلامك لا يُفهم[(١)]، وهذا في الحقيقة ليس اتهامًا لأنفسهم بعدم الفهم بمقدار ما هو اتهام للحق الذي جاءهم به الرسول ﷺ بأنه خلاف العقل الصحيح.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٢٢٨، ٢٣١)، وتفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٧٠، ١٧١)، وابن كثير (١/ ٣٢٤)، والقرطبي (٢/ ٢٥).

فعاد الأمر إلى التكذيب بما جاء به الرسول ﷺ.

والوجه الثاني في قوله ﷻ: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾، أي: أوعية للعلم، فهم يمدحون أنفسهم(١)، وعند التأمل نجد أن القول الأول ملازم للثاني من جهة ما يؤول إليه من أنهم يزعمون أنفسهم أوعية العلم وكلامك لم نفهمه، يريدون أن يقولوا: إذا كنا نحن ونحن أوعية العلم لم نفقه ما تقول، فأنت إذًا تقول كلامًا لا يفهمه العقلاء، وإنما اتبعك الذين هم أراذلنا بادي الرأي دون تروٍّ ودون تعقل ودون فهم.

هذا حقيقة زعمهم؛ ولذلك نقول: إن القولين وإن اختلفا في المعنى فهما متلازمان، فهم ينسبون أنفسهم إلى العلم وإلى الفهم، وهم خالون منه، وكذلك قول قوم شعيب: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾، فهذا يريدون به أن كلامه غير مفهوم. والحقيقة أن الفهم درجات، فهناك فهم لمعنى الكلام مع الاستجابة له وتأثر القلوب به، وهذا هو مقصود الفهم، فهذا أعلى درجات العلم، وهو الذي يحصل بسماع القرآن وما جاءت به الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - بقلب حاضر: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧]، فيحصل الفهم الذي يكون معه الاستجابة ويكون معه القبول ويكون معه التدبر، فهذا أعلى مراتب العلم كما ذكرنا، وهو فهم وإدراك وعلم أهل الإيمان، تتأثر قلوبهم بالقرآن العظيم، وتحيا هذه القلوب بما فهمته وتدبرته من كتاب الله ﷻ، ومن الوحي الذي جاءت به الرسل عمومًا، كما دل عليه قوله ﷻ عن

---

(١) انظر: المصدر السابق.

شعيب ﷺ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: ٩٠]، فمن فهم هذا وذاق أثر أسماء الله وصفاته من رحمته ووده، أقبل إليه ولابد، ولكن إذا فهمت القلوب معنى الكلام، لكن لم تستجب له، ولم تقبل ما دل عليه، لم يكن هذا الكلام لها إلا بمنزلة ما تسمعه البهائم من الناعق الذي ينعق بها، لم تتأثر به فلم تدر ما وجه هذا الكلام، لم تجرب شيئًا مما أرشدتهم إليه الرسل، فلم تفقه في حقيقة الأمر الفهم النافع.

لذلك نقول: الدرجة الثانية من درجات الفهم: إدراك معاني الكلام دون الاستجابة والتأثر، ودون القبول والانقياد، فهذا الفهم الذي تقوم به الحجة وتلزم به البينة على الذين بلغتهم، وهناك ما دون ذلك من سلامة الآلة، من سلامة العقل، لا يوجد جنون ولا جهالة بمعنى أن اللسان يختلف مثلاً، بل اللسان بيِّن، اللغة بينة، والعقل موجود والسمع موجود، ولكن لشدة الإعراض والرغبة في عدم السماع لا يحصل لهم أي درجة من درجات الفهم، حتى كأنه تكلم بكلام أعجمى، وهذا في الحقيقة لا يحصل من أول مرة يسمع فيها الكلام ثم لا يحصل القبول، بل بالاستمرار على ذلك، وهذا هو الطبع الذي ذكر الله ﷻ، أعني: أنه بعد الاستمرار مرة بعد مرة في فهم الكلام وإدراك معانيه والإعراض عنه وكراهيته وبغض من جاء به، يصلون في النهاية إلى أن لا يعقلوا على الإطلاق كأنه يتكلم بكلام أجنبي، وهذا الذي وصل إليه حال الكفار في نهاية الأمر، الذين ذكر الله ﷻ طبعه على قلوبهم فقال ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة: ٨٨]، وبقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا﴾ [النساء: ١٥٥]، فالله ﷻ ذكر الطبع، وأن يكون عليها طابع يمنع نفوذ الحق إليها، قال

الله ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد: ١٦]، فهؤلاء وصل بهم الحال إلى أن يسمعوا كلام الرسول ﷺ، لكن لشدة إعراضهم بعد أن علموا ما يريد، لا شك أنهم فهموا النوع الثاني من أنواع الفهم، لم يكن الكلام بالنسبة إليهم كالكلام الأعجمي من أول ما سمعوه، ولا أنهم كالحيوان الذي لا يفقه ما يقال له، وإنما فهموا ما يريده الرسول منهم؛ ولذا قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾ [ص: ٥ - ٦]، إذا علموا ما أراد الرسول ﷺ من أن يبطل عبادة الأوثان وعبادة غير الله، وأن تصبح العبادة لله وحده لا شريك له، فإذن فهموا ما يريد، ولكن بسبب تكرر الإعراض مرة بعد مرة، وبسبب الكفر المستمر طبع الله على القلوب، حتى لا تعي ما يُقال لها: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١]، كأنه يسمع أصواتًا لا تعني شيئًا عنده على الإطلاق، والعياذ بالله، وهذا عقوبة من الله ﷻ قدرية كونية جزاء على إعراضهم عن الحق، وهو - كما ذكرنا - لا يحصل من أول مرة، بل بتكرار الإعراض وبتكرار الكفر؛ حتى يُلعنوا على ما قدموا لأنفسهم كما ذكر، قال الشيخ: (**فأكْذبهُمُ اللهُ**)، أي: في قولهم: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾، فهذا في حقيقة الأمر تكذيب؛ لأنهم أدركوا أول ما سمعوا الكلام، وفهموا ما يقوله الرسول ﷺ وما أراد من دعوته، ولكنهم وصلوا في الحال الأخير إلى أن صاروا لا يفقهون شيئًا على الإطلاق؛ ولذلك أكذبهم الله ﷻ من أنهم لا يفقهون ما يقوله الرسول، وأن قلوبهم غلف؛

كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**أيْ لا تفْقهُ**»، وقال: «**هِي الْقُلُوبُ الْمطْبُوعُ عليْها**»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ**﴾، «**أيْ فِي أكِنّةٍ**»، وقال مجاهد: «**عليْها غِشاوةٌ**»، وقال عكرمة: «**عليْها طابعٌ**»، وقال أبو العالية: «**لا تفْقهُ**»، وقال قتادة: «**لا تعِي ولا تفْقهُ**»، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «**غُلُفٌ**» بِضمِّ اللّامِ، أيْ: جمْعُ غِلافٍ، أيْ: أوْعِيةٌ، بِمعْنى أنّهُمُ ادّعوْا أنّ قُلُوبهُمْ ممْلُوءةٌ بِعِلْمٍ لا يحْتاجُون معهُ إِلى عِلْمٍ آخر(١).

نجد أن القرآن قد ذكر كلامهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥﴾ [فصلت: ٥]، ذكر هذا من كلامهم مرة، وذكر سبحانه وتعالى أنه جعل عليهم أكنة، قال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥]، فكيف؟ هل صدقهم القرآن على ما قالوا، أم أكذبهم كما يقول الشيخ؟

والصحيح: أن مقصدهم من أن قلوبهم في أكنة كما ذكرنا: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾: أنهم لا يفقهون على الإطلاق، وكما ذكرنا حصل لهم لسلامة العقول وصحة اللسان وحصول البيان الذي قامت به

---

(١) انظر هذه الآثار في: تفسير الطبري (٢/ ٢٢٨، ٢٣١) قَالَ أبو جَعْفَرٍ: (وَأَمَّا الَّذِينَ قَرَءُوهَا: غُلُفٌ بِتَحْرِيكِ اللَّام وَضَمِّهَا، فَإِنَّهُمْ تَأَوَّلُوهَا أَنَّهُمْ قَالُوا: قُلُوبُنَا غُلُفٌ لِلْعِلْم، بِمَعْنَى أَنَّهَا أَوْعِيَةٌ. قَالَ: وَالْغُلُفُ عَلَى تَأْوِيلِ هَؤُلَاءِ جَمْعُ غِلَافٍ، كَمَا يُجْمَعُ الْكِتَابُ كُتُبٌ، وَالْحِجَابُ حُجُبٌ، وَالشِّهَابُ شُهُبٌ. فَمَعْنَى الْكَلَام عَلَى تَأْوِيلِ قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ: غُلُفٌ بِتَحْرِيكِ اللَّام وَضَمِّهَا: وَقَالَتِ الْيَهُودُ قُلُوبُنَا غُلُفٌ لِلْعِلْم، وَأَوْعِيَةٌ لَهُ وَلِغَيْرِهِ)، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٧٠، ١٧١)، وابن كثير (١/ ٣٢٤)، والقرطبي (٢/ ٢٥).

الحجة، هذا حصل لهم، فكانوا كذابين في قولهم: (لا نفقه) بمعنى لا ندرك معنى الكلام؛ وأما ما جعل الله على قلوبهم من أكنة فهذا عقوبة قدرية كونية في حالهم الأخير، أي: صاروا إلى ذلك بإعراضهم مرة بعد مرة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣]، هذا يبين لنا درجات السماع والفهم، فقد ذكر الله لنا أنهم صم وأنهم بكم وأنهم لايعقلون لا يفهمون، ليس عندهم عقل، ليس أنهم مجانين، بلا نزاع بين أهل العلم فإن المجنون ليس بمكلف، وإنما لا يعقلون الحق، لا يفهمونه، لا يتدبرونه؛ لأنهم أعرضوا كما ذكرنا، قال الله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ﴾، أي: سماع الفهم، ولو أسمعهم سماع الفهم لتولوا وهم معرضون، لو فهموا هذا الكلام لأعرضوا عنه، وهذا الذي حصل في حقيقة الأمر، أول ما سمعوا الحق أعرضوا، ولم يقبلوه وأبغضوه، وتكرر ذلك مرات، حتى صاروا شر عباد الله، شر خلق الله، لا يفقهون على الإطلاق، صاروا بمنزلة البهائم، بل أضل والعياذ بالله.

إذًا، ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾، هذا الذي ادعوه يريدون أنهم لا يفهمون على الإطلاق، ليس اعتذارًا بمعنى أنهم مجانين، بل هم يصفون أنفسهم بكمال العلم، وأن كلام الرسول لا يفهم كما ذكرنا، وأن ما جاء به من الحق غير معقول يخالف العقل السليم، فكان هذا الكلام كذبًا وباطلاً؛ لأن كلام الرسول يوافق الفطرة السليمة والعقل السليم الصحيح؛ وأما هم فقد فهموا الكلام أول مرة، ولكنهم أبوا أن يقبلوه فقلب الله قلوبهم؛ حتى صارت لا تفهمه بعد ذلك، من إعراضهم مرة بعد مرة، قال

الله ﷻ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، العمهْ: أشد الضلال، فوصلوا إلى الضلال بسبب الطغيان والكبر وعدم قبولهم للحق أول مرة، قلب الله قلوبهم على رد الحق، جعل قلوبهم لا تقبله ولا تفهمه، كالذي يعلم الحق، ولكن لشدة بغضه له صار يظن نفسه على الحق، وهو على خلافه، كذب كذبة ثم لما انتشرت صدقها، هذا يحدث عند الكثيرين، يبدأ بأن ينشر الكذبة هو اخترعها من قبل نفسه، كفرعون ذاك الذي قال: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ﴾ [الشعراء: ٤٩]، ثم بعد أن تنتشر هذه الكذبة يقبلها، ويصبح في نفسه فعلاً أن موسى هو قائدهم الذي علمهم السحر، وأنه كبيرهم الذي علمهم السحر، وهو موقن في الأصل بخلاف ذلك، فهذا حال الكثيرين، كثيرًا ما يفهمون الحق ويعلمونه، ولكن يبغضونه ويكرهونه، فصاروا بعد ذلك بسبب الطبع والتقليب للقلوب، وبسبب اللعن والطرد، صاروا لا يفهمون على الإطلاق، وعدم الفهم هذا يُحاسبون عليه؛ لأنه كان بسبب كفرهم المتكرر الذي يمتنع معه قبول الحق بالكلية؛ كما قال ﷻ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، فهذه القلوب أقفلت وأغلقت بعد أن قامت عليها الحجة، وصارت في أكنة، هم ادّعُوا أولاً أن قلوبهم في أكنة، وسياق القرآن في الإنكار عليهم، كما ذكر الشيخ رحمه الله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾، **(بل)** للإضراب، وهذا دليل على أن قولهم: **(لا نفقه)**، وأن قولهم: **(قلوبنا غلف لا تفقه)**، كذب منهم، لكن صاروا إلى هذا الحال، والعياذ بالله، بمعنى أن الكلام ككلام مفهوم، لكن وصلوا إلى حال من شدة الإعراض لا يفهمون، وكأنهم لا يسمعون، يقولون لمن سمع الكلام: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ﴾، وهذا

لتسلط الشيطان على أسماعهم، وربما ألقى الشيطان في الأسماع القول الباطل الذي تقبله نفوسهم، حتى ينسب إلى الرسول كذبًا وزورًا، كما أنه يلقي في الأفهام خلاف ما قصده الرسول وجاء به بسبب اتباع الهوى، والعياذ بالله.

فالرسول ﷺ يقول الحق، ويقرأ القرآن كما أنزله الله بلا زيادة ولا نقصان وعلى حسب تسلط الشيطان على أسماع أو أفهام الكافرين المعرضين أو المنافقين، والعياذ بالله، فإنه يلقي في أفهامهم خلاف ما قصد الرسول ﷺ وخلاف ما هو معنى الكلام في الحقيقة، وهذا أعظم سبب لدخول البدع والتحريف لما جاءت به الرسل، وقد يلقي في الأسماع ويسمعهم ما لم يقل الرسول؛ لتسلط الشيطان على تلك الأسماع؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣﴾ [الحج: ٥٢ - ٥٣]، فهؤلاء الذين أسمعهم الشيطان ألقى أثناء قراءة الرسول في أسماع الكافرين - لم يتكلم به الرسول - الباطل، وأحيانًا يلقي في سمع الفهم الباطل، فيظنون أن الرسول ﷺ قصد موافقتهم وهو لم يقصد ذلك ولا هو معنى الكلام، ولا يدل عليه بحال كما يستدل أهل البدع دائمًا بأجزاء من الأدلة القرآنية والنبوية على بدعتهم، وفي الحقيقة هي ترد عليهم؛ ولذلك لا تقوم لهم حجة أبدًا، وإنما الأمر بسبب إعراضهم عما جاء به الرسول واتباعهم للهوى.

فمعنى قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ﴾ [الأنعام: ٢٥]؛ هذا حالهم الأخير، وصل الأمر للطبع وجعل الأكنة والغشاوة والأغلفة على القلوب والأقفال عليها إلى حال لا يفهمون معه الحق بالكلية، وهذا مع سلامة الآلة وصحة اللسان: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ﴾ [إبراهيم: ٤]، العقل ما زال سليمًا يحسن الفهم في أمور الدنيا، واللسان صحيح يفهم به معنى الكلام لو تدبره، ولكنه أعرض عن التدبر، وهو فهمه أول مرة وأعرض عنه أول مرة، وتكرر ذلك الإعراض مرات؛ حتى صار القلب في أكنة.

فمعنى قول الشيخ رحمه الله: **(فأكْذبهُمُ اللهُ)**: بمعنى: أنهم أرادوا أننا لم نفهم على الإطلاق، وكما ذكرنا أرادوا أن كلامك لا يُفهم، فأكذبهم لأنهم فهموا بالفعل أول مرة، وأن كلام الرسول ﷺ كلام مفهوم معلوم، وأن ما جاء به الوحي كتابًا وسنة هو أصح شيء في العقول لا يخالف الوحي العقول السليمة، لماذا إذًا خالفته عقول هؤلاء؟ لأنهم أعرضوا عنه، ووصل الحال بهم إلى الطبع، حتى صاروا لا يفهمون على الإطلاق، فحالهم الأخير أنهم لا يفهمون فعلاً شيئًا مما يقوله الرسول، وهم كاذبون في أنهم لم يفهموه أبدًا، وإنما فهموه أولاً ثم أعرضوا عنه، فكان جزاؤهم أن جعلهم الله لا يعقلون، وهذا الحال ليس يقوم به عذر ولا تسقط به حجة، الحجة على من وصل إلى هذا الحال قائمة، ولا عذر له عند الله ﷻ.

ولذا نقول: إن جهل العاقبة ليس عذرًا، وجعل الإعراض ليس حجة ولا عذرًا، الذي أعرض عن الحق وعن آيات الله وظنه نفسه على الحق

ليس بمعذور، إنما العذر الجهل الناشئ عن عدم البلاغ، وهؤلاء - كما ذكرنا - قد بلغهم الحق بلسان قومهم وبطريقة يفهمها مثلهم، لكن أعرضوا عن هذا الحق، وصيرهم الله إلى طبع القلوب، وهذا يدل على الإيمان بالقدر؛ لأن الطبع على القلوب فعل الله ﷻ: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، فهذا يدل على أن الله الذي فعل بهم ذلك عقوبة لهم، وكما ذكرنا من أعرض عن الحق بعد ما جاءه ليس بمعذور: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]؛ ولذا فرّق العلماء بيْن فهم الحجة وبين قيام الحجة، وهذه من أهم المسائل، ودلائلها في هذا الباب أو في هذه المسألة من أوضح الأدلة لمن تدبر القرآن، فالمشركون في حقيقة الأمر صاروا في نهاية الحال إلى أنهم لايفهمون حجة، وقد قامت عليهم أولاً، قامت عليهم بأن بلغتهم الحجة بلسان قومهم مع سلامة العقول، ولو فقد أحد هذين لما قامت عليهم الحجة، فالمجنون الأحمق يعتذر عند الله يوم القيامة، وكذلك من لم يحصل له البيان؛ لأن الرسول يخالف لسانه، فهذا كالأصم جاءه الإسلام ولا يسمع شيئًا ولايفهم شيئًا، وكذلك الهرم، وكل من وصله الحق بلسان غير لسانه كإنه لم يبلغه؛ ولذلك كان هؤلاء معذورون حتى يبين لهم؛ ولذلك قلنا وبينا أن الجهل الناشئ عن عدم البلاغ وعدم البيان هو الذي يعد عذرًا؛ وأما الجهل الناشئ عن عدم فهم الحجة بسبب الإعراض، لا بسبب اختلاف اللسان ولابسبب عدم وجود العقل، هذا يختلف.

لذلك نقول: إن فهم الحجة وفهم ما جاءت به الرسل أمر لا يملكه أحد إلا الله ﷻ، وإنما أفهمهم الله وأسمعهم أول ما جاءت به الرسل، ثم

صاروا بعد ذلك لا يفهمون شيئًا على الإطلاق، صاروا إلى حال الطبع والأكنة، وصاروا إلى حال الإغلاق والأقفال، وصاروا إلى حال الصم البكم الذين لايعقلون، فهؤلاء بسبب الإعراض عن الحق أول مرة لم يكن لهم عذر عند الله ﷻ، ولم يكن لهم حجة عند الله ﷻ؛ لإعراضهم عن حق أول مرة.

فكثير من الناس تقوم عليه الحجة وتبلغه بلسان قومه، ويكون سليم العقل ثم يقدم آراء الرجال وأهواء النفوس والشهوات فيتبع الشبهات، فيصل إلى حال يرفض معه الحق بالكلية، ويصل بعد ذلك إلى أن لا يفهمه ويصبح قلبه فعلاً في أكنة وعليه غلاف، ويصبح قلبه بعد ذلك مطبوعًا عليه، لا يمكن أن يدخل إليه الحق، قد قامت عليه الحجة في الحال المتوسط في أول ما جاءه الحق وفهمه، وصار بعد ذلك حين وصل نفسه إلى استحقاق الطبع، حين وصل بإعراضه إلى أن عاقبه الله ﷻ بإقفال قلبه، صار قد قامت عليه الحجة، وإن لم يفهم بعد ذلك، وهذا يدلنا على خطر الإعراض عن الحق، وأن الإنسان لابد وأن يبادر بالاستجابة؛ حتى لا يحال بينه وبين قلبه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤]، قال غير واحد من السلف: «**يحُولُ بيْن الْكافِرِ والْإِيمانِ، وبيْن الْمُؤْمِنِ والْكُفْرِ**»[(١)]، فالمؤمن لطاعته واستجابته أيده الله وثبته وقلّب قلبه على قبول الحق مهما كانت الفتن، ومهما كانت الصوارف، ومهما كانت التضحيات، يضحي

(١) انظر: تفسير الطبري (١١/ ١٠٧)، وزاد المسير (٢/ ٢٠٠)، وابن كثير (٤/ ٣٥).

بكل شيء ولا يقبل أبدًا أن يترك إيمانه، ولو أن أهل الأرض كلهم حاولوا معه أن يترك الحق، لما تركه، والكافر حال الله بين قلبه وبين الإيمان، صار لا يقبله ولا يفهمه، وطبع الله على قلبه فأصبح لا يدرك الحق على الإطلاق؛ ولذلك إذا فهمت هذه المسألة فهمت إشكالاً يقع فيه كثير من الناس، حيث يظن أن الكفار وهم يرون أنفسهم على الحق معذورون، وأنهم ربما بذلوا جهودًا كبيرة في محاولة الفهم، ويصلون في النهاية إلى أنهم على الحق، ويبذلون أعمارهم ويضحون التضحيات العظيمة في سبيل باطلهم، فالبعض يشفق عليهم ويقول: أليسوا معذورين لأنهم اجتهدوا؟! وكثير من أهل البدع يكون لهم نصيب من ذلك؛ فأما الكفار فلا شك في أن الله لم يعذر هؤلاء الضالين الذين أعرضوا عن الحق، بل جعلهم أظلم الناس: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾، وقال ﷻ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾، تأمل نوع الجهل الذي عند هؤلاء الكفار، ومن أين نشأ حتى وصل الحال إلى أنهم لو أتتهم كل آية لم يؤمنوا؟!

ومهما حصل لهم من المعجزات لم يحصل لهم أبدًا قبول للحق، ودائمًا يغر بعضهم بعضًا ويوحي بعضهم إلى بعض القول المزخرف الذي يغر به

المغرور، وهذا بمشيئة الله ﷻ، وهم بطغيانهم أصابهم العمه، تركهم الله في أشد الضلال بالطغيان الذي هم فيه، النفوس الإنسانية الله أعلم بها، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُحاسب كل إنسان على ما يعلمه من نفسه، تأتيه لحظة يدرك فيها الحق ويعلمه ويفهمه، فإن لم يبادر بالاستجابة للحق، وإنما قدم الهوى وقدم حب الآباء وما عليه الأهل والعشيرة، فعند ذلك يضله الله ﷻ بعدله؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [محمد: ١٦]، ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾: اتبعوا الظن وما تهوى الأنفس، قال: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾ [هود: ١٠٩]، فالله ﷻ لم يظلمهم؛ هو حكم عدل لا يظلم الناس شيئًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾.

فهذه اللحظة التي قامت عليهم فيها الحجة هي التي ضلوا بسبب عدم انتهازهم الفرصة بالاستجابة لله وللرسول ﷺ، حين دعاهم لما يحييهم، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلم بعباده، من يشأ يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم، وإن شاء حل الأغلال عن قلوبٍ إذا علم الله منها استعدادًا للحق إذا فهمته: ﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾، مفاتيحها بيد علام الغيوب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإياك أن تظن بربك الظلم، وإياك أن تظن بنفسك الحسنى، وإياك أن تظن أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعذب أحدًا من خلقه بغير حجة رسالية أرسلها إليهم وأقامها عليهم، من جهلها بعد أن بلغته فلإعراضه، عامله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدله، لم يظلمه لوجود سلامة الآلة؛ سلامة العقول والأسماع والأبصار أو بعض هذا، على الأقل سلامة العقول والأسماع، ثم بلغهم بلسان قومهم، فلما أعرضوا عاقبهم، وهو لا يعاقب أحدًا إلا بعدله، وهذا في الحقيقة قضية الإيمان بالقضاء والقدر

في المرتبة الرابعة من الإيمان بخلق أفعال العباد، التي تتضمن ما فعله الله ﷻ بقلوب الكافرين من أن يحول بينها وبين الإيمان، أن يطبع عليها، أن يجعل عليها أكنة، أغلفة، أن يجعل عليها أقفالاً لا تفتح، فهذا عدله سبحانه وتعالى من تاب الله عليه ممن كفر مدة من الزمن، ثم بعد ذلك تاب إلى الله، فهذا أبو سفيان وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضي الله عنهم ظلوا عشرين سنة يحاربون الإسلام وأكثر، وبعد ذلك تاب الله عليهم، فهو سبحانه وتعالى عامل من شاء بفضله، وهو يعلم من هؤلاء أنهم أهل لهذا الفضل إذ قاموا به فعلاً لما منّ الله عليهم بالهداية؛ نصروا الدين، وشكروا نعمة الله ﷻ، وأحسنوا في الإسلام، فغفر الله لهم ما كان في الجاهلية، حل الأغلال والأقفال التي كانت على القلوب؛ وأما الآخرون فعاملهم الله ﷻ بعدله لم يظلمهم، الحد الأدنى قد حصل للجميع وهو سلامة العقل وبلوغ الدعوة؛ وأما من لم يكن عاقلاً أو لم تبلغه الحجة فهو معذور عند الله سبحانه وتعالى، من تفضل الله عليه بالفهم والقبول وسماع الاستجابة، فهذا فضله سبحانه وتعالى، والله ذو الفضل العظيم، وكون الكفار لم يعطوا ذلك الفضل ليس ظلمًا منه ﷻ هو أعلم بالفضل، وأعلم بالشاكرين، وأعلم بالظالمين، يضع الأشياء في مواضعها والذين عاقبهم بالطبع والغل والختم وصرف القلوب وصرف الأبصار وتقليبها هو ﷻ بحكمته وعدله، هو يعلم منهم ظلمهم، ولو أسمعهم لتولوا وهو معرضون، فصاروا لا يفهمون ولا يفقهون، فلا يضع العبد نفسه موضع الرب ويتحكم ويقول: لماذا لم يهد الله أبا جهل؟ ولماذا هدى عمر؟ فقد كانوا في لحظة يدعو فيها النبي ﷺ: «**اللهُمّ أعِزّ الْإِسْلام بِأحبِّ هذيْنِ الرّجُليْنِ إِليْك، بِأبِي جهْلٍ، أوْ بِعُمر بْنِ الْخطّابِ، فكان أحبُّهُما إِلى**

اللهِ عُمر بْن الْخطّابِ»(١)، فكان ما كان من سابقة الخير لعمر ﵁، مع أن كلاهما في لحظة كان في العداوة على ما كان، لكن الله ﷻ أعلم بالفضل وأعلم بمن يستحقه، وهو وضعه في موضعه، وقد ظهرت آثار حكمته فيما صار إليه أمر أبي جهل، وفيما صار إليه أمر عمر ﵁، وهو العليم الحكيم ﷻ.

فائدة هذا: أن يكون الإنسان على حذر من الإعراض عن شرع الله ﷻ، ولو في مسألة واحدة، فإن الأمر يتفاوت، يبدأ في اليسير، كما ذكرنا أن أهل البدع لهم نصيب من ذلك، لما أعرضوا عن الحجة أول ما قامت فإنهم وصلوا إلى البدعة؛ ولذا تعرف لماذا كان أهل البدع مصدودون مطرودون عن حوض النبي ﷺ، يؤخذ بهم ذات الشمال، مع أن كثيرًا منهم مجتهد يظن نفسه على الحق؟ لأنهم أعرضوا عن الحجة البينة أول ما ظهرت لهم، ولكن لم يصل الأمر بهم إلى الكفر والتكذيب للرسول ﷺ مباشرة؛ لوجود شيء من أصل الإيمان في قلوبهم، ومن كان عنده النفاق الأكبر كان - والعياذ بالله - معرضًا تمام الإعراض، لا ينفعه نطق الشهادتين، بل هو في الدرك الأسفل من النار بسبب إعراضه عن الحق بالكلية، والعياذ بالله.
فائدة هذه المسألة: أن نحذر من مشابهة أهل الجاهلية في أن يصف الإنسان نفسه بالعلم على التفسير الثاني لقلوبنا غلف، وهو لازم الأول كما ذكرنا من أنك إن لم تفهم ما جاءت به الرسل، فاتّهِم عقلك لا أن تقول: إن عقلي هو أكمل العقول، وأن هذا الذي دل عليه الحديث مخالف لعقلي، فلابد أن

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٣)، وأحمد (٩/ ٥٠٦)، والحاكم (٣/ ٨٩)، والطبراني في الكبير (١١/ ٢٥٥)، والآجري في الشريعة (٤/ ١٨٧٤).

أرفضه لأن عقلي هو السليم جدًا، كما يحدث ممن يقدمون العقول السخيفة على النقول الصحيحة، فعقولهم السخيفة الجاهلة الضالة يريدون بزعمهم أن يقدموها على النصوص، ويقولون: لانقبل النصوص حتى نقتنع وحتى نفهم، وهم في الحقيقة مجازون بإغلاق القلوب عن الفهم؛ لأجل أنهم لم تستجب قلوبهم أول مرة لما جاء به الرسول ﷺ، فبدعة تقديم العقل على النقل هو في الحقيقة ليس عقلاً سليمًا، ليس عقلاً صحيحًا، والنقل إذا ثبت فهو الذي يدل على صحة ما يوافقه من العقول، فليس هناك تعارض بين المعقول والمنقول الصحيح، وإنما التعارض بين العقول السخيفة وبين نصوص الوحي، فلابد أن يرد ما خالف الوحي، وما خالف ما جاء به الرسول ﷺ؛ وأما النقول الضعيفة فلا تلزمنا، فإذا جاء نقل ضعيف أو باطل أو مكذوب، لم نبذل جهدًا في محاولة التوفيق بينه وبين أدلة الشرع، إذا جاء نقل ضعيف أو موضوع أو مكذوب، لا يلزمنا أن نوفق بينه وبين أدلة العقل، فإن الذي يلزمنا أن نعمل بأدلة الشرع كلها ونقول: يستحيل تعارض بين أدلة النقل الصحيح وأدلة العقل الصحيح، وإنما تتعارض العقول السخيفة الباطلة مع نصوص الشريعة، فتهدر ولابد العقول الباطلة، ولابد عند أهل الحق أن يقدموا النقل الصحيح، فمن قدم النقل على العقل جمع الله له بين صحة العقل وصحة النقل، وبين اتباع الحجج العقلية والنقلية، ومن قدم عقلة على ما ثبت عن رسول الله ﷺ، فهو من أهل الجاهلية القائلين: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾، والقائلين: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾، ومن هنا كذبوا النصوص أو ردوها؛ ولذلك نرى أن من يحاول في زماننا وفي أزمنة ماضية إحياء تراث العقلانية - كما يسمونه -، ويقولون: إن العقلانية

الإسلامية - يعنون الفرق الضالة؛ كالمعتزلة، وأمثالهم من الخوارج والمتكلمين، ومن سار على دربهم في المنهج والطريق كالأشاعرة - يقدمون هذه الشبهات العقلية على النصوص الشرعية كتابًا وسنة. هؤلاء متبعون لأهل الجاهلية، لابد أن نحذر من سبيلهم ولابد أن نوطن أنفسنا على قبول الحق الذي جاء به الرسول ﷺ، ونقدمه على قول كل أحد كائنًا من كان.

الْمسْألةُ السّادِسة عشْرة: اعْتِياضُهُمْ عَمَّا آتاهُمُ اللَّهُ بِكُتُبِ السِّحْرِ، كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي قوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾.

الشرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (**الْمسْألةُ السّادِسة عشْرة: اعْتِياضُهُمْ عمّا آتاهُمُ اللهُ بِكُتُبِ السِّحْرِ؛ كما ذكر اللهُ ذلِك فِي قوْلِهِ:** ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]). إيمان الإنسان بالغيب أمر جبله الله عَزَّ وَجَلَّ عليه، أنه يدرك تمامًا أن حواسه وعقله لا تدرك جميع ما في الكون، فهو دائمًا يتطلع إلى عالم الغيب الذي يعرفه ولا يدركه، وكل إنسان فهو يؤمن بشيء غائب، وإن زعم أنه لايعرف إلا المادة، حتى الملحدين المنكرين

لوجود الله الذين ينكرون ما وراء الطبيعة، لو تأملت كلامهم لعلمت أنهم يدعون أنهم يعلمون ما وراء الكون المشهود، وأنه ليس فيه إلا المادة، وإلا فالإنسان عقله لا يحيط بما يشاهده، فضلاً عما قد غاب عنه، وكلما اطلع الإنسان على مزيد من العلوم التي علمه الله إياها، علم أنه كان قبل ذلك كثير الجهل لا يدري شيئًا عما يعلمه الآن، وكل واحد في فنه يدرك أن ما يجهله لا يزال أكثر بكثير مما يعلمه، حتى الذين ينفون ما وراء المادة، كما يزعم الملحدون الشيوعيون واللادينيون الذين يقولون بأن الكون إنما هو مادة وفقط وليس وراء ذلك شيء، في حقيقة أمرهم يدعون أمرًا غائبًا عنهم، حتى نظريات (النشوء والارتقاء والتطور) نجدها تبحث في أمر قد غاب عن البشر، نشأة الكون، كيف نشأ؟ وهم يثبتون له نشأة؛ لأنه يفتقر إلى تلك النشأة ولابد، فرغم زعمهم أن ذلك بلا بداية، وأن المادة قديمة، وأنه قد وقع كذا وكذا، تجدهم يبنون تصورهم عن الغيب على هذه الخرافات والخزعبلات التي سموها نظريات، وإذا لم تسد هذه الحاجة في الإنسان إلى الإيمان بالغيب، بحث عن أي أمر يسد هذه الحاجة؛ ولذلك يكثر في الأمم التي لا تعرف الإيمان بالغيب، الذي جاءت به الرسل، ولا تعرف تصورًا صحيحًا وفهمًا صحيحًا عن وجود هذا الكون وعن الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كيف أوجد هذا الوجود، وكذلك أمر النهاية والعاقبة إلى ما يؤول إليه هذا العالم الذي نشاهده، نقول: الأمم التي ليس عندها إيمان بالغيب تبحث دائمًا عن الخرافات والخزعبلات، ودائمًا يكون عندهم تصديق وإيمان بالسحر والكهانة، وهذا أمر منتشر في أهل الكتاب، كما هو منتشر أكثر في الأميين من الأمم الجاهلة، التي لا تعرف شيئًا عن حقائق الإيمان

بالغيب؛ لمحاولة سد هذه الجبلة الإنسانية في معرفة ما غاب عنا، فبدلاً من أن يسلكوا الطريق الصحيح في معرفة هذا الغيب، أعني: في الإيمان به من خلال ما جاءت به الرسل، ما أتيح لنا من معرفة هذا العالم الغائب عنا من خلال ما جاءت به الرسل، الذين أرسلهم الله بالآيات الدالة على صدقهم والموافقة دعوتهم لفطرة الإنسان، بدلاً من أن يسلكوا هذا السبيل الصحيح الذي سلكه أهل الإيمان، إذا بهم يتركون ذلك، ويعتاضون عنه باتباع الكهان والسحرة والمنجمين والدجالين، تجد هذا ينتشر انتشارًا بالغًا، حتى في الأمم التي قد حققت تقدمًا علميًا كبيرًا في علوم المادة؛ علوم الطب، والفلك، والفيزياء، وغيرها من أنوع العلوم المعاصرة، إلا أن هذا الجانب لم يسد بعد؛ ولذا تجد قادتهم على وصولهم إلى إمكانيات علمية واسعة في أمور الدنيا، تجدهم يبحثون وراء الكهان والمنجمين والعرافين، ولرؤسائهم عرافون مخصوصون يقرءون لهم الكف وينظرون في النجوم؛ حتى لا يتخذون قرارات حاسمة إلا بمشاورة هؤلاء العرافين، بل وفي زماننا أصبح تدريس السحر في الجامعات الغربية أمرًا معلومًا، فيحاولون به سد النقص الفطري في الإنسان والحاجة الضرورية التي يشعر بها للإيمان بالغيب، ولكنهم أخطئوا الطريق وضلوا، والعياذ بالله، كما أن الإنسان جبل على عبوديته لله وحده لا شريك له، يشعر في فطرته بحاجته إلى أن يتعبد، فإذا لم تسد هذه الحاجة فإنه يبحث عن إله آخر يعبده، حتى يعبد الأوثان، ويعبد البشر، ويعبد الأحجار والأشجار، ويعبد ما يصوره له عقله وهواه، والعياذ بالله، لابد له من إله يعبده، فكذلك في قضية الإيمان بالغيب، من ترك ما جاءت به الرسل الكرام، وقع ولابد في الخرافة، وهذا

أمر كما وقع فيه الأمم التي ليس لها كتاب، وقع فيه اليهود والنصارى، ووقع فيه من ينتسب إلى الإسلام ولكنه لم يؤمن بأصول الإيمان كما جاء بها النبي ﷺ؛ ولذا تجد هذه الخرافات وهذه الخزعبلات وعلوم السحر والتنجيم والكهانة تنتشر في وسط المبتدعين والغلاة من أهل الانحراف عن الكتاب والسنة، وهذه العلوم علوم تضر ولا تنفع؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾، حذرنا الله ﷻ من سلوك سبيل أهل الكتاب الذين وقع منهم ذلك من ترك ما أنزله الله ﷻ واتباع السحر واتباع الكهانة واتباع العرافة والعرافين، وغير ذلك من الخرافات التي يخترعها الشياطين بالكذب على الأنبياء بترويج هذا الباطل، وبزعم أنهم أتوا بهذا مِن قِبل الأنبياء، ولا تزال هذه الحيل تنطلي على الكثيرين ويضيفون إليها أشياء مما ينسب إلى الأنبياء مما جاءت به الرسل؛ لكي يروجوا به باطلهم؛ لذلك تجد هؤلاء السحرة دائمًا ما يحتجون أو يكتبون الأسماء المجهولة، ثم يزعم أحدهم أن هذه من أسماء الله بالسريانية بالعبرانية باللغة الفلانية، أنها من أسماء الله في الكتب القديمة، وربما وهذا هو الأغلب الأعم كما دلت عليه الآية، كانت هذه الأسماء في الحقيقة أسماء شياطين يلجئون إليها ويستغيثون بها، ويخدعون الناس من أجل أن يروجوا باطلهم بهذا الادعاء، كما أن من يفعل ذلك ممن ينتسب إلى الإسلام تجده في الأحجبة والأعمال التي يعملها، يسمون السحر (عملاً)، يقولون: عمل له عملاً، ونحو ذلك، يكتبون آيات من القرآن، وخصوصًا يقطعون حروفها ويكتبونها بطريقة غير مشهورة وغير معلومة برسم أهل الكتابة المعتاد، بالإضافة إلى الأرقام والنجوم والمربعات والرسوم التي يبنون عليها علمهم الباطل، قد

وقعوا فيما وقع فيه من قبلهم؛ ولذلك كانت هذه المسألة من مسائل الجاهلية منتشرة كلما قل العلم بالكتاب والسنة، كلما توسع الناس في ادعاء العلم بالغيبيات بطرق ومقدمات إنما ادعوها من قبل أنفسهم، ليست بدليل من الشرع، وإنما تجدهم يدعون مثلاً أن السحر في المكان الفلاني قد قام به الرجل الفلاني، وأنه محروس بكذا من الجنيين، وأن الطلسم الذي يُفتح به هو كذا، وللأسف أصبح هذا ينتشر في زماننا انتشارًا خطيرًا، خصوصًا مع انتشار خطط البحث عن كنور الفراعنة واليونان والرومان المحفوفة بالطلاسم دائمًا، وهناك كتب تنتشر تدريجيًا، وكل يوم يأتي من يسأل للبحث عن الذهب المدفون، ولكن من خلال سؤال الجن والتعاون معهم من أجل حل الطلاسم، وحل السحر الذي حميت به هذه الكنوز، ونسأل الله العافية؛ أما الأوروبيون فعندهم من ذلك كما ذكرت، مشهور عن كبرائهم ورؤسائهم أنهم عندهم من السحرة والكهان والعرافين من يرجعون إليهم قبل اتخاذ القرارات الخطيرة، حتى (بوش) و(بلير)، كل منهما كان له عرافون مشهورون، يتخذون القرارات لهما بناءً على نصائح هؤلاء العرافين والسحرة، والعياذ بالله، وكثير من الشعوب الأكثر جهلاً حتى في الدين والدنيا، حتى في لعب الكرة تجد قضية السحر، دائمًا تقام عليه الدنيا وتقعد، حتى أثناء اللعب يجعلون أعمالاً، وتقوم الدنيا وتقعد من أجل أن اللاعب الفلاني اكتشف العمل الموضوع في المرمى وأخذه وانطلق به، فتهجم الجموع من أجل استرجاع هذا العمل ونحو ذلك، ونسأل الله العفو والعافية.

أما في وسط المسلمين فحدث عن ذلك الكثير - نسأل الله العافية - ممن

يتبع هؤلاء الدجالين، ويذهب إليهم لعمل الأعمال، وخصوصًا فيما يتعلق بالصرف والعطف، وتجد هذا الأمر منتشرًا عند الصوفية انتشارًا خطيرًا، يجمعون بين خرافات وأوهام ادعاء الولاية للولي الفلاني من الكرامات كذا وكذا، وبين مسألة الطلاسم والأسحار والأعمال، وأنهم عندهم من العلم بالغيب ما يجلعهم يحسنون هذا الأمر، وهو في الحقيقة من السحر، وللأسف قد دخل في ذلك من لا يحسن التفريق بين العلم النافع من الكتاب والسنة والرقى الشرعية وبين ما يؤخذ من السحرة، فجمع للتلبيس على الناس أو لجهله بين تلاوة الرقى الشرعية وبين معلومات ووسائل وأخبار يأتي بها من خلال الجن والاستعانة بالجن، ومنهم من زاغ وضل أكثر حين نسب إلى أهل العلم والأئمة جواز الاستعانة بالجن، والبعض قد يلوث ويشوش على الناس، فيقول: (إنما أستعين بالجن المسلم)، ونحو ذلك، ولو كان يجوز الاستعانة بالمسلم، لجاز الاستعانة بالكافر، فلا بأس أن يُستعان على مقاومة الفساد والظلم برجل عنده خبر ولو كان كافرًا، فقد استأجر النبي ﷺ هاديًا خريتًا يدله على الطريق في الهجرة(١)، ولا بأس أن يذهب الرجل إلى الطبيب الكافر إذا كان ماهرًا ونحو هذا، كما يجوز مثلاً أن نأخذ علوم الفيزياء والكيمياء والجيولوجيا وغيرها من الكفار، ولا بأس أن نأتي بشركة كلها كفار لتبحث عن البترول مثلاً، فلماذا إذًا تقول أيها الدجال المختفي وراء الالتزام بأن معينك على حل الأسحار ومعرفة الخبايا

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٢٦٣، ٢٢٦٧، ٣٩٠٥) من حديث عائشة رضي الله عنها «**وَاسْتَأْجَرَ النَّبِيُّ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ، ثُمَّ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ هَادِيًا خِرِّيتًا - الخِرِّيتُ: المَاهِرُ بِالهِدَايَةِ -**».

هو جن مسلم؟ ما الذي يدفعك إلى ذلك؟

إذا جاز مع المسلم جاز مع الكافر، ولكن في الحقيقة هذا يخالف ما أمر الله ﷻ به من البعد عن الاستعانة بغير الله، قال النبي ﷺ: «. . . **إذا سألْت فاسْألِ الله، وإذا استعنْت فاسْتعِن بِاللَّهِ. . .**»[1]، ويشوشون على الناس ببعض النقول عن بعض أهل العلم، التي لو صحت لما كان فيها دليل؛ لأن العبرة بالكتاب والسنة، وكل يؤخذ من قوله ويترك، مع أن الفهم الصحيح لهذه النقول إنما يدور حول أمر الجن بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وأنه إذا كان عنده ما يعرف به صدقهم من كذبهم، ويستطيع امتحان هؤلاء الدجالين بما يتبين معه الحق من الباطل، فله أن يسأل في ذلك، وأن يمتحنهم، وأن ينتفع بما قد يقولونه من ذلك، لكن أن تكون أقوالهم حقائق مصدقة.

وقبل أن آتي مباشرة جاءت من تسأل: أن جيرانها ذهبوا إلى بعض من يسمونهم (شيوخًا) وهم دجالون في الحقيقة، فقالوا لها: إن هذه المرأة هي التي عملت السحر لكم، وإن الجني قد قال ذلك عدة مرات وهو لا يكذب، ونسأل الله العافية، وكيف يُتهم إنسان بأن فلانًا هو الذي قام بالسحر، وأن فلانًا هو الذي صنع ذلك من أجل كلام جني فاسق أو كافر، والعياذ بالله، إذا ثبت أصلاً أنه جني هو الذي يتكلم على لسان المصروع؟!

المقصود: أن هذا الباب في حقيقته بسب البعد عن أدلة الكتاب والسنة

(١) جزء من حديث عبد الله بن عباس ﵄ أخرجه الترمذي (٢٥١٦) وقال: (حديث صحيح).

وحصول البدعة وادعاء أو البحث عن علم الغيب من خلال هذه الوسائل المنحرفة التي ورد الشرع بردها، فالاستعانة بالسحرة واللجوء إليهم مناف لتوحيد الله ﷻ، قال الله ﷻ في سياق الكلام عن اليهود: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾، مصدق لما معهم من التوحيد واتباع الرسل والإيمان بالله واليوم الآخر وعبادة الله وحده لا شريك له، وكل هذا مقرر في الكتاب الأول، في الكتب المنزلة على الأنبياء وما بقي منها، حتى مع دخول التحريف إليها، لكن ما بقي منها دالاً على صدق النبي ﷺ ما زال موجودًا، فهي مجتمعة على أن أول الواجبات على المكلفين وأول دعوة الرسل وأول حق على الناس أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، أن يفردوا الله بالعبادة، الوصية الأولى كما هو مكتوب: (**الرب إلهنا رب واحد**)، هكذا أول الوصايا العشر التي ما زالت موجودة في التوراة، أن أول الوصايا: (**الرب إلهنا رب واحد، رب إبراهيم وإسحاق ويعقوب**). وهكذا كانت وصية المسيح ﷺ لما سألوه: أيها المُعلم أي الوصايا هي أول الكل؟ قال: (كما هو مكتوب: الرب إلهنا رب واحد)، لم يزد على ما في التوراة من الوصية الأولى وكانت الثانية: (أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك)، ولكن ذكروها بترجمتهم: (أن تحب لقريبك)، ولكن هي أصلها كما وردت في السنة: «**لا يُؤْمِنُ أحدُكُمْ، حتّى يُحِبّ لِأخِيهِ ما يُحِبُّ لِنفْسِهِ**»[(١)]، ثم: (لا تسرق ولا تزني)، بقية الوصايا، ولم يقل لهم ما يدعونه من العقائد الباطلة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

لذلك نقول: إن التوراة والإنجيل ما زال فيها من تصديق ما جاء به النبي ﷺ ما يكفي كل عاقل ولبيب ومنصف، من أن دعوة الأنبياء الحقيقية هي الدعوة التي جاء بها محمد ﷺ، أحيا بها ما أماته أهل الكتاب من دعوة الأنبياء حين صرفوا الناس عنها وشغلوهم بعقائد فاسدة وأعمال فاسدة أتوا بها من قبل أنفسهم.

قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾، نبذوه وراءهم ظهريًا: تركوه ولم يؤمنوا به ولم يعملوا به، وانشغلوا بغيره، ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: علمهم لم ينفعهم، سلوكهم سلوك الجاهل، وإن كانوا في حقيقة الأمر قد قامت عليهم الحجة وعلموا ما في هذه الكتب، لكن دون قبول وانقياد لها ولما جاءت به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: تصرفهم تصرف الجهال الذين لم يبلغهم الحق، لكن هؤلاء قد بلغهم فأعرضوا عنه وتركوا ما آتاهم من الله.

قال ﷻ: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾: اتبعوا ما تقرأ الشياطين وتقوله وتدعيه على ملك سليمان بالكذب والزور، تقول عليه ما لم يقل، وذلك أن اليهود إلى زمن النبي ﷺ كانوا لا يعرفون نبوة سليمان ؑ، بل يدعون أنه قد صرف الجن بالسحر وسيطر عليهم بذلك؛ ولذا هم يستبيحون مثل هذا الأمر؛ لأن سليمان عندهم من أعظم الملوك، وهو ابن داود ؑ، الذي فتح الله به بيت المقدس وأقام أكبر دولة لبني إسرائيل في التاريخ، فأقوى دولة قامت لبني إسرائيل كان في عهد داود ؑ، ورثه سليمان ؑ، فكانوا يتهمون سليمان ؑ بالباطل الذي يذكرونه عنه،

وتتلوه الشياطين وتقوله عليه كذبًا وزورًا، أنه إنما سخر الناس من خلال السحر[١]، فأصبح السحر موجودًا في اليهود والنصارى بسبب هذا الظن وهذا الاعتقاد الفاسد، موجودًا وجودًا قويًا كثير الانتشار، يستعملونه على الدوام، والعياذ بالله، ولقد حاولوا ذلك مع النبي ﷺ، فقد سحر النبي ﷺ لبيد بن الأعصم اليهودي، سحر في مشط ومشاطة وجف طلعة نخل ذكر، والقصة ثابتة في الصحيح[٢]، ولكن ما كان لهم أن يسيطروا على قلب رسول الله ﷺ ولا أن يفسدوا عقله، وإنما كان ما كان من تسلط على البدن في بعض الأجزاء المتعلقة بعشرة النساء، كان يُهيأ للنبي ﷺ أن أتى أهله

(١) السحر في اللغة: عبارة عما خفي ولطُف سببه. انظر: مادة (سحر) في: تهذيب اللغة (٤/ ١٧٠)، ومقاييس اللغة (٣/ ١٣٨)، ولسان العرب (٤/ ٣٤٨)، والتعاريف (ص١٩١).

والسحر عَرَّفه الفقهاء بقولهم: رُقًى وعَزائم وعُقَد يُنفَث فيها، فيكون سحرًا يضُرُّ حقيقة، ويُمرِض حقيقة، ويَقْتُلْ حقيقة. انظر: المغني (٩/ ٢٨)، والكافي في فقه الإمام أحمد (٤/ ١٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٦٣)، ومسلم (٢١٨٩) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: **«سُحِرَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَنَّهُ لَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ عِنْدِي، دَعَا اللَّهَ وَدَعَاهُ، ثُمَّ قَالَ: أَشَعَرْتِ يَا عَائِشَةُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ. قُلْتُ: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: جَاءَنِي رَجُلاَنِ، فَجَلَسَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي، وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ الْيَهُودِيُّ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ، قَالَ: فِيمَا ذَا؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ وَجُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ، قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بِئْرِ ذِي أَرْوَانَ قَالَ: فَذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى الْبِئْرِ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَعَلَيْهَا نَخْلٌ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى عَائِشَةَ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ، وَلَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَأَخْرَجْتَهُ؟ قَالَ: لاَ، أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَافَانِيَ اللَّهُ وَشَفَانِي، وَخَشِيتُ أَنْ أُثَوِّرَ عَلَى النَّاسِ مِنْهُ شَرًّا، وَأَمَرَ بِهَا فَدُفِنَتْ»**.

ولم يأتهم من شدة ما كان به من السحر، حتى شفاه الله ﷻ، وأنزل عليه المعوذات، رقاه جبريل عليه السلام[١]، وشفاه الله ﷻ وأذهب عنه ذاك السحر.

وفي زماننا ينتشر جدًا السحر عند اليهود والنصارى، والنصارى المخالطون للمسلمين يكثرون جدًا من عمل السحر، محاولين استغلال هذا الأمر في دعوة المسلمين إلى النصرانية؛ لأن كثيرًا من المسلمين تحت ضغط السحر وضعف الإيمان وقلة أو انعدام اللجوء إلى الله ﷻ، يبحثون عن مخرج من هذا الذي يجدونه من آثار السحر واللبس وغير ذلك، فيلجئوا إلى القساوسة وإلى الكنائس لمحاولة حل هذه الأسحار أو فك هؤلاء الجنون، هؤلاء الجنييون عمن التبسوا بهم، فهذا يستغلونه من أجل صرف المسلمين عن دينهم، وكما ذكرنا أهل البدع يستعملون ذلك كثيرًا جدًا، والقرامطة والباطنية والفاطميين والرافضة من أكثر الناس ادعاءً لهذه العلوم واستعمالاً لها متابعين لأهل الجاهلية.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ﴾: ما تقول كذبًا على ملك سليمان أنه إنما كان ملكًا بالسحر، سيطر على الجن بالسحر، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾، دل ذلك على أن تعلم السحر والعمل به من الكفر، والآية تدل على أن السحر المتعلم من الشياطين ومن هاروت وماروت كفر، واحتج بهذه الآية الكريمة من يقول: السحر بإطلاق كفر ناقل عن الملة[٢]، وأن حده ضربة بالسيف[٣]؛ لأنه ردة عن الإسلام،

(١) أخرجه مسلم (٢١٨٦) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، و(٢١٨٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) انظر: المغني (٩/ ٢٩).
(٣) كما في الحديث الذى أخرجه الترمذي (١٤٦٠)، «**حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ**». =

وإن كان عامة العلماء يذكرون التفصيل الذي ذكره الإمام الشافعي[١]، وإن أطلق البعض عن ثلاثة من الأئمة أنه لاتفصيل.

بعض العلماء إذا تكلم عن هذا الباب قال: أحمد ومالك وأبو حنيفة يقولون: إن السحر كفر مطلقًا؛ وأما الشافعي ففصل فقال: يقال للساحر صف لنا سحرك، فإن وصف كفرًا كما يعتقد أهل بابل في الكواكب السبعة، أو وصف كفرًا[٢]. . . . ونضرب أمثلة لذلك من الواقع من اعتقاد أن الكواكب تصرف الكون، وأنها آلهة لها نصيب من تدبير الكون، وكذلك من الشرك ما يكون من لجوء إلى الشياطين وصرف العبادات لهم، كأن يذبحوا للجن، وكثيرًا ما يقع طلبات غريبة كذبح ديك عرفه أحمر أو عرفه أخضر أو أصفر أو غير ذلك، وبعضهم قد يطلب ذبيحة بشرية، أو يطلب عمل كتابة المصحف بالنجاسات، وبعضهم يطلب السجود للأصنام، وبعضهم قد يطلب السجود للشياطين، وبعضهم قد يطلب الالتجاء إليهم وصرف الدعاء والاستغاثة بهم، ونحو ذلك.

نقول: قال الشافعي: (**إذا تعلم السحر، قلنا له: صف لنا سحرك، فإن وصف ما يوجب الكفر، مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس منها، فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر،**

= رَوَاهُ الترمِذي. وَقَاَلَ: الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ، والدارقطني (٤/ ١٢٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٣٤)، والطبراني في الكبير (٢/ ١٦١)، وعبد الرزاق في المصنف (١٠/ ١٨٤)، والحاكم (٤/ ٤٠١).

(١) انظر: الأم (١/ ٢٥٦).

(٢) انظر: المغني (٩/ ٢٩-٣٠)، والأم (١/ ٢٥٦).

فإن اعتقد إباحته كفر)، والحقيقة أن أصحاب أبي حنيفة وأصحاب أحمد وكذا أصحاب مالك يذكرون قريبًا من هذا التفصيل، وإن لم ينصوا على قول الإمام مباشرة بمثل ذلك(١)، لكن عامتهم يرى أن ما كان من باب خفة اليد والحيل التي يفهم معناه دون تعلم السحر من الشياطين أو هاروت وماروت، فإنه لا يكفر بإطلاق، مثل: الحاوي الذي يعمل أعمالاً خفية، أو ساحر السيرك في الأغلب، وإلا فبعض سحرة السيرك قد يأتون بأشياء بالمعاونة والاستعانة بالشياطين، والعياذ بالله.

لكن نقول: إن الآية دلت على أن السحر المتعلم من الشياطين كفر، نفاه الله عن سليمان عليه السلام، حين قال اليهود بوحي الشياطين لهم واتباع اليهود للشياطين فيما تقوله وتكذبه على ملك سليمان عليه السلام أنه كان بالسحر، قال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ لم يتبع السحر، ولم يعمل بالسحرولم يصدق بالسحر، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾، فالشياطين هي التي أتت بالسحر، وهذا يدل على أن السحر يُتعلم، وأن له حقيقة، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾، والظاهر - والله أعلى وأعلم - من سياق الآية أن (ما) هنا مصدرية: يعلمون الناس السحر والذي أنزل على الملكين ببابل، وهو من جنسه، لكن ذكره معطوفًا عليه من باب عطف الخاص على العام، والمشهور أن هذين ملكان ببابل، الله جل جلاله أعلم بقصتهما، لماذا نزلا أو وجدا في هذا المكان، ولكنهما يعلمان الناس السحر بدليل تكملة الآية: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾، وقوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾، إذ هاروت وماروت

---

(١) انظر: المغني (٩/ ٢٩-٣٠).

يعلمان الناس السحر، أو يعلمان الناس ما كان من جنس السحر، والقراءة المشهورة التي نقرأ بها: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾، من العلماء من ينقل الأخبار الإسرائيلية في ذلك أنهما ملكان جعلت فيهما الشهوة والرغبة، ونزلا إلى الأرض امتحانًا لهما بعد أن كانا من أعبد الملائكة، ولما جعلت فيهما الرغبة والشهوة، لم تمضِ عليهما في الأرض أيام حتى قتلا وشربا الخمر وزنيا وأشركا، فخُيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا، فهما معلقان من أعقابهما في مدينة بابل، وكل هذه إسرائيليات الله ﷻ أعلم بها، وإن كان من السلف من رواها اعتمادًا على أن الرواية عن أهل الكتاب لا حرج فيها، ولكن لا نجزم بشيء من ذلك، ولا يعني أن بعض الصحابة أو التابعين قد روى شيئًا من ذلك أنه صحيح لا بد من قبوله، بل هذا الأمر موقوف، ولا ندري حقيقة الأمر[١].

ومن أهل العلم من يقول: إنهما ملكان جعل في هذا المكان امتحانًا للعباد، وإنهما يفعلان ذلك بأمر الله ﷻ، وإنهما يحذران الناس - كما دلت عليه الآية - من تعلم هذا[٢]، نقول: نحن لا يلزمنا معرفة تفصيل قصة وجود هاروت وماروت في هذا المكان، وإنما يلزمنا أن نصدق بما ذكر الله ﷻ أنهما يعلمان الناس أنواعًا من السحر، وفي قراءة أخرى: (**وما أُنْزِل على الْملِكيْنِ ببابِل**). وهذا القراءة أيضًا ثابتة[٣]، والله أعلم، وإن كان لا تنافي

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٢/ ٣٤١)، وابن كثير (١/ ٣٥٣)، والقرطبي (٢/ ٥١).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٢/ ٣٣٢)، وابن كثير (١/ ٣٥٢)، والقرطبي (٢/ ٥٤).

(٣) وهي قراءة ابن عباس والضحاك وابن أبزي والحسن البصري وابن مزاحم، أنهم قرؤوا: (وَمَا أُنزلَ عَلَى الْمَلِكَيْنِ) بِكَسْرِ اللَّامِ. قَالَ ابْنُ أَبْزَى: وَهُمَا دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ. =

بينها وبين القراءة الأخرى، إنما هو اختلاف تنوع أو اختلاف لا تضاد فيه، والله ﷻ أعلى وأعلم.

قال الله ﷻ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ﴾، وهذا دليل على أنهما يعلمان ويخبران الناس بأشياء من هذا الجنس، لكن بعد التحذير من أنه إن تعلمه كفر، فإن أصر علماه، وهذا موضع الفتنة والامتحان، والله أعلى وأعلم.

قال: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ﴾، وهذا دليل على أن عامة أعمال السحر تتعلق بالعلاقة بين الرجل والمرأة، بين المرأة وزوجها من صرف وعطف، (الصرف) بمعنى: صرف قلب فلان إلى فلانة، أو قلب فلانة إلى فلان، أو صرف فلانة عن فلان أو صرف فلان عن فلانة، و(العطف): أن يُعطف قلب فلان على فلانة أو فلانة على فلان، يعملون هذا، وما يزال هذا منتشرًا انتشارًا خطيرًا في أوساط كثيرة ممن ينتسب إلى الإسلام، يعملون الأعمال لأجل أن يحبب بعضهم إلى بعض غيرهم، قد يكون مع الأزواج ومع غير الأزواج، وبعضهم يدعي أنه يعمل من ذلك ما ينفع فقط، وهو التحبيب بين المرأة وزوجها، مثل: التولة التي كانت في زمن الصحابة ﵃، التي قال

= وهي قراءة شاذة. انظر هذه القراءة في: ابن كثير (١/ ٣٥٢)، والبحر المحيط (١/ ٣٢٩) وتفسير الطبري (٢/ ٤٣٥)، وتفسير القرطبي (٢/ ٥٢).

عنها النبي ﷺ: «**إِنّ الرُّقى، والتّمائِم، والتِّولة، شِرْكٌ**»[(١)].

التّولةُ: شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب الرجل إلى امرأته، والمرأة إلى زوجها[(٢)]، كل ذلك من الشرك، فأقبح منه الذي يحبب الرجل إلى امرأة أجنبية أو امرأة متزوجة من غيره، أو يكره الرجل إلى امرأته والمرأة إلى زوجها؛ ليفسد ما بينهما ونحو ذلك، فعامة السحر متعلق بذلك؛ ولذلك تجد شهرة هذه الأمور فيما يتعلق بربط الرجل عن امرأته ومنع المرأة من زوجها ونحو ذلك، أمرًا منتشرًا ينتشر فيه السحر، والشياطين تعين على ذلك، وقد يتأثر كثير من الناس لضعف ذكرهم لله، وتحصل حالة نفسية يعجز معها الإنسان بسبب وسوسة متكررة قوية من الشيطان أن يعاشر امرأته بطريقة معتادة طبيعية، قال الله ﷻ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾، وهذا الإذن هنا هو الإذن الكوني لا الشرعي، فإن الله لم يأذن بالسحر، لم يأذن فيه وجعله من الكبائر؛ كما قال النبي ﷺ: «**اجْتنِبُوا السّبْع المُوبِقاتِ، قالُوا: يا رسُول اللّهِ، وما هُنّ؟ قال: الشِّرْكُ بِاللّهِ، والسِّحْرُ، وقتْلُ النّفْسِ الّتِي حرّم اللّهُ إِلّا بِالحقِّ، وأكْلُ الرِّبا، وأكْلُ مالِ اليتِيمِ، والتّولِّي يوْم الزّحْفِ، وقذْفُ المُحْصناتِ المُؤْمِناتِ الغافِلاتِ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨١)، وأبو داود (٣٨٨٣).

(٢) وبهذا فسرها ابن مسعود ﷺ: «**قَالُوا: يَا أَبَا عبد الرَّحْمَنِ هَذِهِ الرُّقَى وَالتَّمَائِمُ قَدْ عَرَفْنَاهَا فَمَا التِّوَلَةُ؟ قَالَ: شَيْءٌ يَصْنَعُهُ النِّسَاءُ يَتَحَبَّبْنَ إلى أَزْوَاجِهِنَّ**». أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧/ ٦٣٠)، والحاكم (١/ ٤١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٦٦، ٥٧٦٤، ٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩).

فذكره بعد الشرك بالله، لأن أكثر من الشرك، وبعضه محرم بإجماع المسلمين، حتى وإن لم يبلغ درجة الشرك، لكنه من الكبائر، ومن استحله كفر.

قال ﷻ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾. كذب من قال: أنا أعمل بالسحر النافع، كذب من قال: أنا أعمل سحرًا لأحل السحر عن المسحور، لا يحل السحر إلا ساحر؛ لذلك النُشرة التي هي من عمل الشيطان؛ كما ثبت في الحديث الصحيح عنْ جابرٍ رضي الله عنه: «**أنّ رسُول اللهِ ﷺ سُئِل عنِ النُّشْرةِ، فقال**: «**هِي مِنْ عملِ الشّيْطانِ**». رواهُ أحْمدُ بِسند جيْدٍ، وأبُو داود، وقال: «**سُئِل أحْمد عنْها فقال: ابْنُ مسْعودٍ يكْرهُ هذا كُلّهُ**»[1]. هي التي يتقرب فيها المنتشر والناشر كلاهما إلى الشيطان فيبطل عمل من قبله أو عمل نفسه قبل ذلك من خلال التقرب إليه بسحر مثله، فهذا الذي يريده الشيطان أن يوقع الناس في الشرك والكفر والمعصية الكبيرة؛ لذلك نقول: لا يوجد سحر نافع؛ وأما النشرة الجائزة التي ورد عن السلف جوازها فهي ما كان بالرقى والأدعية المشروعة والأذكار النافعة التي وردت في الكتاب والسنة أو ورد مثلها، مثل: قول النبي ﷺ: «**اعْرِضُوا عليّ رُقاكُمْ، لابأْس بِالرُّقى، ما لمْ يكُنْ فِيهِ شِرْكٌ**»[2].

فهذا المشروع من ذلك، من سُحِر عليه أن يستعمل الرقية الشرعية، والأفضل في ذلك أن يتعلمها ويرقي نفسه، لكي لا يخرج من السبعين ألفًا

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٤)، وأبو داود (٣٨٦٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٠٠) من حديث عوف ابن مالك رضي الله عنه.

الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب؛ كما قال النبي ﷺ: «**هُمْ الّذِين لا يسْترْقُون، ولا يتطيّرُون، ولا يكْتوُون، وعلى ربِّهِمْ يتوكّلُون**»[(١)]، وإن كان بعض الناس لا يحسن الرقية، فلا بأس أن يرتقي، لا بأس أن يطلب الرقية من الآخرين من أهل التوحيد والإيمان واتباع السنة، ولكن ذاك نقص، فالأولى بدلاً من أن يتخصص أناس يُقال: هؤلاء الذين يفكون الأعمال، هؤلاء الذين يحلون الجُنون عن الملبوسين، فالأولى أن يتعلم الناس الرقية، الأمر يسير، وذلك خصوصًا مع كثرة القراءة والكتابة، وسهولة التعلم ومعرفة ما ورد عن النبي ﷺ من ذلك من الرقية بالفاتحة والمعوذات وقراءة آية الكرسي ونحوها من الآيات التي تبتعد عنها الشياطين ويُطردون بها، نقول: لا حاجة إلى التخصص في هذا المقام الذي لم يكن السلف يتخصصون فيه، وإنما كان يرقي من أحسن الرقية بالأدعية المشروعة وقراءة القرآن، وكل الناس أو أكثرهم يحسنون ذلك، لو تحرروا من سلطان الوهم من أن فلانًا لابد هو الذي يخرج الجنون أو فلانًا هو الذي يفك السحر أو نحو ذلك.

قال الله ﷻ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فهذا - في هذه المسألة - من مسائل الجاهلية، التي انتشرت في المسلمين، ولابد أن يحاربوها بكل طاقتهم، فالسحر كبيرة من الكبائر يجب تركه بالكلية وعدم البحث عن شيء منه، وهو علم

(١) أخرجه البخاري [(٥، ٥٧، ٥٧٥٢ مطولًا)، و(٣٤١٠، ٦٤٧٢، ٦٥٤١ مختصرًا]، ومسلم (٢٢٠)، والترمذي (٢٤٤٨)، والنسائي في الكبري (٤/ ٣٧٨).

محرم لا يجوز تعلمه بحال من الأحوال لا للعمل به ولا لعدم العمل، بل لا يجوز تعلم السحر على الإطلاق.

واستعمال بعض الأعشاب كورق السدر أو الزيتون أو نحو ذلك مما لادليل عليه من السنة، وإن كان ورد عن بعض السلف فنرى أن هذا الأمر مما يسوغ فيه أن يفعل ولا يلزم أن يفعل، لا يقال: لا يُحل السحر إلا بسبع ورقات من سدر، هذا أمر لا يلزم، بل حقيقة الأمر أن الرقية الشرعية هي التي يدفع الله ﷻ بها، وإن جعل مع ذلك سدر أو لم يجعل، فالأمر واسع، وكما ذكرنا الأمر فيه اجتهاد في هذا الباب، ولكن النافع هو الرقية ما لم تكن شركًا، فإذا كان الأمر بتلاوة آيات معلومة وإن كانت اشتهر بتجربتها في حل السحر عن المسحور، فلا بأس؛ لأن الرسول ﷺ لم يشترط أن يكون الراقي بما علمه الرسول ﷺ، بل قال: «**اعْرِضُوا عليّ رُقاكُمْ**»، وقرر القاعدة الكلية، فقال: «**لا بأْس بِالرُّقى، ما لمْ يكُنْ فِيهِ شِرْكٌ**»(١)، وقال: «**منِ اسْتطاع مِنْكُمْ أنْ ينْفع أخاهُ، فلْينْفعْهُ**»(٢)، فدل ذلك على جواز الرقية بالقرآن أو تخصيص بعض الآيات بالقرآن.

والسدر والزيتون ونحو ذلك لا مانع من الاجتهاد في ذلك، ونرى أنه لاحاجة إلى هذه الأمور.

والحجامة يمكن أن تُستعمل؛ **لأن الرسول ﷺ كان لا يشتكي له أحد من**

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٤٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٩٩) من حديث جابر رضي الله عنه.

أصحابه إلا قال: (احتجم)[١]. ولكن - كما ذكرنا - الرقى المشروعة أولى في هذا الباب.

أما القراءة على الماء فقد ورد في ذلك بعض الأحاديث الضعيفة، والله أعلى وأعلم، لكن يمكن أن يستدل بالمعنى من جمع البزاق، جعل الصحابي يجمع بزاقه ويجعلها على موضع اللدغ[٢]، فجمع البزاق يمكن أن يكون معه النفث أو بديله النفث على الماء ليكثر إذا كان يحتاج إلى اغتسال ونحو ذلك، فلا بأس أن يقرأ على الماء - والله أعلى وأعلم -

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٣٨٥٨)، وأحمد (٤٥/ ٥٩٠)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ٥٧٠)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٢٩٨)، والبغوي في شرح السنة (١٢/ ١٤٩)، والحاكم (٤/ ٤٥١) وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ. «**مَا كَانَ أَحَدٌ يَشْتَكِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَجَعًا فِي رَأْسِهِ إِلَّا قَالَ: احْتَجِمْ، وَلَا وَجَعًا فِي رِجْلَيْهِ إِلَّا قَالَ: " اخْضِبْهُمَا**». وحسنه الألباني. انظر: صحيح الجامع (٢/ ٨٥٤، رقم ٤٦٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٧٦، ٥٧٤٩)، ومسلم (٢٢٠١)، ولفظه: «**انْطَلَقَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا على حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ، فَأَتَوْهُمْ، فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ وَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْقِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَقَدْ اسْتَضَفْنَاكُمْ، فَلَمْ تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا، فَصَالَحُوهُمْ على قَطِيعٍ مِنْ الْغَنَمِ، فَانْطَلَقَ يَتْفِلُ عليه وَيَقْرَأُ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فَانْطَلَقَ يَمْشِي وَمَا بِهِ قَلَبَةٌ، قَالَ: فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمْ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عليهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اقْسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقَى: لَا تَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ ﷺ، فَنَذْكُرَ لَهُ الَّذِي كَانَ فَنَنْظُرَ مَا يَأْمُرُنَا، فَقَدِمُوا على رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرُوا لَهُ، فَقَالَ: وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ، ثُمَّ قَالَ: قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ**».

ويغتسل منه، وينفث: يخرج الريق أثناء القراءة، فيكون هذا استدلال بالحديث الصحيح الذي في جمع البزاق، واستئناسًا بالحديث الضعيف الوارد في القراءة على الماء، والقراءة على الماء واردة عن كثير من السلف.

الْمسْألةُ السّابِعة عشْرة: نِسْبةُ باطِلِهِمْ إِلَى الأنْبِياءِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ﴾ [البقرة: ١٠٢]، **وقوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا﴾** [آل عمران: ٦٧].

الـشـــرح:

فطر الله ﷻ العباد على توحيده، وكذلك فطرهم على تصديق رسله ومحبتهم وتعظيمهم واتباعهم، فإن الله ﷻ جعل توحيده مركوزًا في فطر العباد، يميلون إلى هذا الحق وينفرون عما سواه وما خالفه، ولما كان هذا الحق لا يتم ولا يحصل للناس معرفة تفصيله بعد إجماله إلا من خلال بعثة الرسل، جعل الله ﷻ تصديق الرسل أيضًا في فطرة البشر؛ ولذلك قلّ أن يوجد باطل لا ينسبه أصحابه إلى رسول من الرسل من أجل أن يمروا هذا الباطل، فإن الباطل وبيء لا تقبله النفوس السليمة وتنفر منه الطباع، والحق هو المقبول الذي تحبه النفوس وتميل إليه، فكان مزج الحق بالباطل هو من أعظم أسباب فتنة بني آدم؛ لأن الشيطان يلبس عليهم دينهم، يلبس عليهم الباطل الذي يريد أن يضلهم به بشيء من الحق يقوله أو يفعله؛ ليمرر ذلك الباطل إليهم، وهذه طريقته من قديم، قاسم الوالدين: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، فأظهر تعظيم اسم الله ﷻ بالقسم وأنه من الناصحين، أقسم على أنه من الناصحين؛ ليغرهما حتى يقعا فيما حرم الله ﷻ عليهما من الشجرة، فدلاهما بغرور، ومن هنا كان انتساب أهل الكتاب إلى الأنبياء من هذا النوع، فإنهم ينسبون ما عندهم من الباطل من الشرك بالله وتكذيب محمد ﷺ وتكذيب القرآن، وينسبون باطلهم ذلك إلى أنبيائهم؛ ليمرروا

ذلك على عوامهم وجهالهم؛ لأن الناس يحبون الأنبياء ويصدقونهم، فإذا اعتقدوا أن الأنبياء جاءوا بهذا الباطل الذي يريده أحبارهم ورهبانهم، قبلوا ذلك الباطل وجاهدوا من أجله وصدوا عن سبيل الحق؛ لذلك كان لابد من تأكيد النسبة، أعني: أن معالجة هذه المسألة بالتأكد من صحة ما ينسب إلى الأنبياء، وإن كان أكثر الناس لا يعبئون بذلك، أعني: لايهتمون إلا بتقليد الآباء والأجداد، واتباع الأحبار والرهبان، وعبادتهم من دون الله؛ لاتباعهم على ذلك الباطل؛ لذلك كان لابد أن نعرف تصحيح النسبة، لابد أن نتأكد من ثبوت الأمر عن الأنبياء والوحي المنزل عليهم من عند الله ﷻ، وليس لمجرد أن هناك من انتسب إليهم ودعا إلى هذا الباطل قد قال هذا الكلام، يُقبل هذا الكلام؛ لذلك نجد هذا الأمر في أهل الجاهلية المنتسبين إلى أمة محمد ﷺ ينسبون باطلهم إلى النبي ﷺ، ينسبون أنهم هم أتباع الرسول ﷺ في الحقيقة، وهكذا تجد مثلاً أهل البدع من الرافضة ومن الصوفية، الذين ينسبون كل أنواع الشرك إلى أن هذا هو الذي جاء به الرسول ﷺ، ويعتمدون في ذلك على الخرافات المروية والأحاديث الضعيفة والموضوعة الباطلة، التي يروجونها عند من لا علم عنده.

ولذلك نقول: لابد من تصحيح النسبة، لابد أن نثبت الأحاديث الصحيحة ونقبلها، ونعرف صدق ناقليها، ولابد وأن نحذر من الأحاديث الباطلة والقصص المخترعة الموضوعة والخرافات، التي لا دليل عليها مما يلبسون به على الناس دينهم؛ لذلك لا يكفي مجرد أن يقول القائل: إن هذا عن الرسول ﷺ حتى يُثبت ذلك.

وقد ميز الله ﷻ هذه الأمة الإسلامية بأن حفظ لها مصادر النسبة إلى

نبيها ﷺ، وذلك بحفظ كتاب الله ﷻ، وهو أعظم ما تواتر عن النبي ﷺ، أعظم ما نقل عنه ﷺ حرفًا حرفًا وكلمة كلمة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، ولابد وأن نحافظ على هذا المصدر أصلاً أصيلاً في الاستدلال به، لابد وأن نعمق الاستدلال بالآيات القرآنية لدى الناس، وأن نكثر من الاستدلال بها، وليس كطريقة أهل البدع من إهمال الاستدلال بالآيات كما يهملون الاستدلال بالأحاديث، ويكتفون بالقياسات العقلية والطرق الكلامية أو بالخرافات والخزعبلات والحكايات المروية عن سادتهم وكبرائهم التي أضلوهم بها، والكرامات المزعومة التي يروجون بها لباطلهم والفضائل المنسوبة إلى أكابر منهم ينسبونها إلى النبي ﷺ بلا سند وتصحيح النسبة كما ذكرنا ولا آية ولا حديث، فيترتب على ذلك تضييع الدين.

نقول: إن الله خص الأمة الإسلامية بحفظ مصادر ما يُنسب إلى النبي ﷺ صحيحة، أولها القرآن، وحفظ بالتواتر في مشارق الأرض ومغاربها كتابة وحفظًا في الصدور وميسرًا للذكر كما قال الله ﷻ، وحفظ الله كذلك المصدر الثاني، وهو الوحي المنزل على رسول الله ﷺ مع القرآن؛ كما قال ﷺ: «**ألا إِنِّي أُوتيتُ الْقُرْآن ومِثْلهُ معهُ**»، قال ﷺ: «**ألّا وإنّ ما حرّم رسول اللّهِ ﷺ مِثْلُ ما حرّم الله**»(١)، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٤)، والترمذي (٢٦٦٤)، وابن ماجه (١٢)، وأحمد في المسند (٤/ ١٣٠، ١٣٢)، والدارمي (٥٨٦)، والطبراني في الكبير (٦٤٩)، وفي مسند الشاميين (٢/ ١٣٧، ١٣٨)، والمروزي في السنة (ص٧١)، من حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه.

﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾، وقال ﷻ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾. إذًا، الحكمة من الذكر؛ لأن الله أمر بذكر هذا الكتاب وذِكْر الحكمة، وقال ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، وهذا كله يدل على أن الحكمة من الذكر، وأن السنة من الحكمة، وأنها من الذكر المحفوظ الذي حفظه الله بطريقة علم الإسناد، علمها لهذه الأمة؛ ولذلك قال العلماء: «**الْإِسْنادُ مِن الدِّينِ، لوْلا الْإِسْنادُ لقال منْ شاء ما شاء**»[1]، ولما سئل عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ عن الأحاديث الموضوعة التي وضعها الزنادقة، فقال: «**تعِيشُ لها الْجهابِذةُ**»[2] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

لذلك نقول: علاج البدع بمعرفة صحة النسبة، ما ينسب إلى النبي ﷺ لا يغرنا أنهم رووا الأحاديث الباطلة والموضوعة والحكايات المخترعة، لا تجد كتابًا من كتب أهل البدع إلا وفيه من هذه الخرافات والأحاديث الباطلة والموضوعة، وأكبر طائفتين عندهما من الأحاديث الباطلة والموضوعة: الرافضة، وكذا الصوفية الذين تُمْتلأ كتبهم بهذه الخرافات

---

(١) انظر: الجامع لأخلاق الراوى والسامع (٢/ ٢٠٠)، وشرف أصحاب الحديث (ص٤١)، وتدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (٢/ ٦٠٥)، وشرح نخبة الفكر في مصطلحات أهل الأثر (ص٦١٧).

(٢) انظر: شرح علل الترمذي (١/ ٤٧٧)، ومعرفة أنواع علوم الحديث (ص٦)، وتدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (١/ ٣٣٣)، وفتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي (١/ ٣١٩).

والخزعبلات، والترغيب في مخالفة السنة، بل الترغيب أحيانًا في الشرك بالله، بالترغيب في زيارة الأولياء وفعل العبادات عند قبورهم، بل والتضرع إليهم واللجوء إليهم، ودعائهم من دون الله ﷻ، والطواف بقبورهم، وغير ذلك، يضعون له الفضائل ويرغبون فيه الناس، وينسجون الحكايات التي حصلت لمن فُرج كربه عندما زار قبر الولي أو الإمام الفلاني، وذاك الذي أعرض عن الزيارة فحصل له من المصائب كذا وكذا، وتجد هذا الغلو منتشر بينهم؛ ولذا يروجون كثيرًا لقضية المنامات والاحتجاج بها، ويروجون كثيرًا أيضًا لمقابلة النبي ﷺ في اليقظة، هؤلاء متجرئون، الذين يكذبون على الله وعلى رسوله ﷺ بأسخف طرق الكذب، لو كان الرسول ﷺ يُرى في اليقظة ويُقابل في الموالد ويُسأل عن الفتاوى والحديث، فلماذا بذل العلماء جهودهم؟! ولماذا دونوا الداووين؟! ولماذا سافروا في الأقطار بحثًا عن سنة الرسول ﷺ وعن علم الإسناد؟ ولماذا جتهد الفقهاء من الأئمة الأربعة وغيرهم في البحث عن الاستدلال من وجوه مختلفة من الكتاب والسنة والإجماع والقياس الصحيح؟! ولماذا تناظروا وتناقشوا والطريق سهل ميسور، كما كان في زمن النبي ﷺ، إذا اختلف الصحابة في أمر ردوه إلى الرسول ﷺ بالذهاب إليه؟!

فهؤلاء قد زعموا أن الأمر ما زال على ما هو عليه، يُرد إلى شخص الرسول ﷺ، دون ما أجمعت عليه الأمة من أنه إنما يكون الرد إلى سنته بعد وفاته ﷺ، هؤلاء يقابلونه في اليقظة وفي الموالد، فلماذا إذًا أتعب العلماء أنفسهم في غير طائل بالاجتهاد والاستنباط والمناقشة والمناظرة ورد الحجج؟! وكل هذا تجده طريقة واحدة عبر العصور من أهل العلم يخالفها

هؤلاء المبتدعون الذين يروجون لمقابلة النبي ﷺ في اليقظة، وأن هذا أمر ممكن ومعتاد، ولا يحصل ذلك إلا في أماكن بدعتهم وضلالهم في موالد المشايخ، وحول قبور الأولياء المزعومين، ونسأل الله العافية.

وأكثرهم بل عامتهم، بل كلهم يجمعون على حياة الخضر وأنه نبي معمر، يقابلونه أيضًا في الموالد؛ لينسبوا إلى هذا الرجل أو العبد الصالح أنواع بدعهم وضلالاتهم، بزعم أنهم لقوا الخضر؛ لذلك تجد هذه أصبحت مزارات على طريقهم الباطل يؤكدونها دائمًا، وتجد المناقشات العجيبة حول موت النبي ﷺ وحياته، وكأن القرآن لم يحسم المسألة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر: ٣٠]، وبقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وأجمع الصحابة وأقروا أبا بكر رضي الله عنه بمجموعهم على قوله: «**منْ كان يعْبُدُ مُحمّدًا، فإنّ مُحمّدًا قدْ مات**»[١]، وسبحان الله تجد هؤلاء يجادلون أكثر المجادلات لماذا؟

لكي يتمكنوا من نسبة باطلهم إلى الأنبياء، لكي يتمكنوا من نسبة باطلهم إلى النبي ﷺ - كما ذكرنا.بالدرجات المتفاوتة، من لم يقبل رؤيته في اليقظة قالوا رآه في المنام، ومن لم يقبل رؤية النبي ﷺ ومقابلته، فالخضر قد قال بحياته طائفة من العلماء، ويروجون على ذلك.

ولذلك نقول: إن الرؤى والكشف والإلهام والمنامات، كل هذه

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦٧٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ليست من أدلة الأحكام، يستأنس بما وافق الحق منها، ولا يستدل بشيء من ذلك في نسبة شيء إلى النبي ﷺ.

لذلك نقول: هذه المسألة من مسائل الجاهلية التي عند أهل الجاهلية من أهل الكتاب، كاليهود الذين قالوا عن سحرهم وباطلهم إنه من عند سليمان عليه السلام، ينسبون ذلك إلى سليمان عليه السلام، وإلى يومنا هذا تجد هذا الأمر كما ذكرنا في المسألة السادسة عشرة: (**اعْتِياضُهُمْ عمّا آتاهُمُ اللهُ بِكُتُبِ السِّحْرِ**)، وإلى يومنا هذا يروجون على الناس بأن السحر هذا من العهود السليمانية ومما أخذه سليمان على الجن، ولا تجد أي عمل من الأعمال التي يعملها السحرة إلا وفيه إشارة أو أخذ عن سليمان عليه السلام، مضاهاة لليهود تمامًا: «**لتتّبِعُنّ سنن منْ قبْلكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وذِراعًا بِذِراعٍ، حتّى لوْ سلكُوا جُحْر ضبٍّ لسلكْتُمُوهُ، قُلْنا: يا رسُول اللّهِ، اليهُود والنّصارى قال: فمنْ؟**»(١)، وكما قال ﷻ محذرًا: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾.

وأما الطائفتان: اليهود والنصارى، فكلاهما ينتسب إلى إبراهيم، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٥ - ٦٧]، فالإسلام هو الاستسلام لله ﷻ، ولم يزل إبراهيم عليه السلام، على دعوة التوحيد، والعجب

(١) سبق تخريجه (ص٢٩).

أنهم يقرون بذلك أن دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هي دعوة التوحيد؛ ولذلك يقولون في أول الوصايا على لسان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم على لسان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في أول وصية من الوصايا العشر التي أوحاها الله إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في الألواح: (الرب إلهنا رب واحد، رب إبراهيم وإسحاق ويعقوب)[1]، بدءوا بإبراهيم، رب إبراهيم، ولما سألوا المسيح عن ذلك قال نفس الكلام: «أيها المعلم، أي الوصايا هي أول الكل؟ قال: كما هو مكتوب - لم يردهم إلى شيء جديد، بل ردهم إلى المكتوب أولاً -: «**الرب إلهنا رب واحد، رب إبراهيم وإسحاق ويعقوب**»، يقرون بذلك ويعلمون أن موسى جاء بعد إبراهيم بزمان، وأن عيسى جاء بعد ذلك بزمان، فكيف يقولون: كان إبراهيم يهوديًا؟! وكيف يقولون: كان إبراهيم نصرانيًا؟!

وهذا عجب من العجاب، كيف يقال ذلك؟! لا نجد أغرب من هذه العقائد الباطلة، ما يُنقل عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حرف واحد مثلاً في قضية الفداء والصلب، ولا في العهد القديم ولا في العهد الجديد، لا ينقلون أبدًا عن أن إبراهيم جاء الناس بأنه لا نجاة لكم إلا بأن تقبلوا فاديًا لكم مسيحًا مصلوبًا يتحمل الآلام عنكم كما يزعمون.

فكيف حال الأمم التي ماتت قبل هذا الأمر؟! وينسبون ذلك إلى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، مع أنه ليس عندهم حرف واحد فيه، لا ينسبون ولا يستطيعون أن ينسبوا هذا التثليث وأن الله ثلاثة أقانيم إلى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ولا إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل والله لا يستطيعون أن ينسبوه إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالكلمات التي قالها

---

(١) سبق عزوه (٢٠٢).

عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وأما الوصايا التي أوصى الله بها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فهي مما جاء به الأنبياء قبل ذلك وبعد ذلك، لكن لا يمكن أن يكون المتأخر هو الذي يقدم ويتبعه الذي سبقه، كيف يمكن أن يكون إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يهوديًا متبعًا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذا كان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ على شريعة وعلى إيمان وتوحيد يناقض عقيدة اليهود الذين يعتقدون الشعب المختار، وأنهم ليس حسنًا أن يؤخذ خبز الأولاد ويُعطى للكلاب؟! فماذا كان شان إبراهيم ومن سبقه، إذا كان هناك شعب فقط من أهل الأرض هم المقصودون بعبادة الله، وهم الذين يقصدون بالشريعة وتنزل عليهم الشريعة، وباقي الأمم لا قيمة لها ولا يتمكنون من عبادة الله، ولايستطيعون أن يكونوا عبيدًا لله ﷻ، فإذا كان إبراهيم لم يكن يهوديًا، فكيف تزعمون أن هذا الشعب دون غيره فقط هو الذي يُراد به الخير، ويراد به التوحيد والإيمان دون الأمم الأخرى؟! هذا من اختراعاتهم وضلالاتهم، والعياذ بالله.

قال الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾، لماذا ينسبون إلى إبراهيم ذلك الدين المحرف؟ لأن الناس تحب إبراهيم؛ ولأنهم يقبلون الحق إذا نسب إلى الأنبياء؛ لذلك لابد من تصحيح النسبة، وإنما إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يدعو إلى رب واحد، إلى عقيدة التوحيد: (لا إله إلا الله)، هذا نص ما جاء به الأنبياء جميعًا، وبحمد الله لا توجد أمة من الأمم تدعو إلى هذه الدعوة صراحة في عنوان دينها ومفتاح الدخول فيه إلا أمة الإسلام، لا يدعو إلى ذلك اليهود ولا يدعو إلى ذلك النصارى، إنما يدعو إلى ذلك أهل الإسلام، (لا إله إلا الله) دعوة إبراهيم، والوصية الأولى على لسان موسى وعيسى: الرب إلهنا رب واحد، والله هذه الحجة من أوضح وأظهر الحجج على كل

الأمم، أن دعوة إبراهيم التي هي موجودة في نص الكتب المتقدمة على ألسنة الأنبياء لا يوجد من يدعو لها إلا أهل الإسلام، منة مِن الله عظيمة، فكيف يشتبه الأمر على الناس بعد ذلك؟! ولكن إذا طمس على القلوب وعميت البصائر، لم تر الشمس، مع أنها قد ظهرت في وسط السماء.

الْمسْألةُ الثّامِنة عشْرة: تناقُضُهُمْ فِي الانْتِساب؛ ينْتسِبُون إِلَى إِبْرَاهِيم، مَعَ إِظْهارِهِمْ ترْك اتِّباعِهِ.

الـشــــرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (**الْمسْألةُ الثّامِنة عشْرة: (تناقُضُهمْ فِي الانْتِسابِ؛ ينْتسِبُون إِلَى إِبْراهِيم مَعَ إِظْهارِهِمْ ترْك اتِّباعِهِ)**؛ كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٥-٩٦].

آثار إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في مكة موجودة، ومقام رجليه على الصخر ما زال موجودًا، وكان في أول الإسلام ظاهرًا، ومسحه الناس حتى أذهبوا ذلك الأثر؛ وأما نسبة ذلك في الكتب المتقدمة ووجود ذلك في الكتب المتقدمة فثابت أيضًا، وهو أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ذهب بإسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى برية فاران، وهذا موجود في سفر التكوين في العهد القديم عند اليهود في أسفارهم التي هي التوراة، فهم يثبتون ذلك أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء بإسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى برية فاران، وهي صحراء الحجاز، وهي في الحقيقة مكة المكرمة كما ثبت في الأحاديث[1]، وأن وعده لإسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يجعل منه أمة عظيمة، إذا هم يصدقون بأن هناك ابن لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ موجود في الجزيرة العربية، وأنه نشأ

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٣٦٤) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وانظر: البداية والنهاية (١/ ١٧٨).

هناك، وأن الله سيجعل منه أمة عظيمة، وسيكون منهم اثني عشر رئيسًا، وما فكروا قط في كيفية إنفاذ هذا الوعد، ولا فيما خالفوا فيه إبراهيم عليه السلام من هذا البيت الذي تواتر عند العرب وعند غيرهم أن إبراهيم عليه السلام قد بناه، البيت الحرام، ومع ذلك لا يعظمون مكة المكرمة، ولا يأتون إلى برية فاران، ولا يبحثون عن الأمة العظيمة التي هي من نسل إسماعيل عليه السلام، فيا للعجب! كيف ينتسبون إلى إبراهيم عليه السلام، ويخالفون ما دل الدليل عندهم وعند الناس كلهم من الأمر المشاهد المعلوم، والمنقول متواترًا من بناء الكعبة من زمن إبراهيم، وأن ذرية إسماعيل عليه السلام هي التي حول الكعبة قريش وباقي نسل إسماعيل عليه السلام، وأنه لم يكن أمة عظيمة إلا ببعثة محمد ﷺ، وأنه لم يكن قط أحد من الرؤساء الكبار الذين اجتمعت عليهم الكلمة إلا ببعثة محمد ﷺ واجتماع الناس حول الأمراء من قريش والأئمة من قريش، وعلى تفاوت الزمان واختلاف الزمان ما كان للعرب ذكر ولا كان لهم شأن، حتى تكون منهم أمة عظيمة؟! فلماذا لا تعظمون ما عظمه إبراهيم عليه السلام وما بناه إبراهيم عليه السلام وما تركه إبراهيم عليه السلام، وما تركته ذريته من بعده إسماعيل عليه السلام وأولاده؟! لماذا لا تتبعون إبراهيم عليه السلام على ما جاء به من توحيد الله سبحانه وتعالى؟! ينتسبون إلى إبراهيم عليه السلام، وهي نسبة كاذبة هي نسبة لخداع الناس.

لذلك نقول: إن من ينتسبون إلى الرسول ﷺ ثم يخالفون سنته، هم حالهم كحال أهل الجاهلية من أهل الكتاب الذين يتركون اتباع الرسول ﷺ واتباع ملته، التي هي الحنيفية السمحة والإخلاص لله عز وجل، ويكتفون بمجرد النسبة الباطلة، الانتساب إلى الرسول مع مخالفتهم لما جاء به، مع

إظهارهم ترك اتباعه، يظهرون ترك اتباع سنته ﷺ كما ترك اليهود والنصارى اتباع إبراهيم عليه السلام، في معالجة هذه الجاهلية في هذه المسألة من مسائل الجاهلية لابد أن نصحح نسبتنا إلى الأنبياء بأن نتبع ما جاءوا به، نتبع سنة الرسول ﷺ ونتبع ما جاء به الأنبياء، كما دل عليه القرآن من سيرتهم ومن كلامهم في توحيد الله سبحانه وتعالى، ولا ينفع أحدًا أن ينتسب إلى الرسول ﷺ ولو كان من نسله، وهو يخالفه ﷺ؛ كما قال الرسول ﷺ لفاطمة رضي الله عنها: «**يا فاطِمةُ بِنْتَ مُحمّدٍ لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شيْئًا**»[1]، إذا كان هو ﷺ لا يغني عن فاطمة رضي الله عنها من الله شيئًا، فكيف يغني عن غيرها؟! وكل من ينتسب إلى الرسول ﷺ نسبًا إنما هو من خلال فاطمة، وإنما ينتسب إلى أولاد فاطمة؛ لأن نسل النبي ﷺ إنما كان من خلال أولاد فاطمة رضي الله عنها، فهو يقول لها هي مباشرة في حياته: لا أملك لكِ من الله شيئًا، لا أغني عنك من الله شيئًا، ويقول ﷺ: «**إِنّ آل أَبِي فُلانٍ ليْسُوا لِي بِأوْلِياء، إِنّما أوْلِيّائِي الْمُتقون**»[2]، فالرسول ﷺ يتبرأ من خالف سنته وهديه ونهجه ودينه وملته ﷺ، يقول: **(ليسوا بأوليائي)**، ولو كان قرابته، وقال ﷺ: «**ومنْ أبطأ بِهِ عملُهُ، لمْ يُسْرِعْ بِهِ نسبُهُ**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٣، ٣٥٢٧)، ومسلم (٢٠٤، ٢٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٥)، من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه، وفيه: «**إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللَّهُ، وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ**».
وأخرج أبو داود (٤٢٤٢)، وأحمد (٢/ ١٣٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وفيه: «... **ثُمَّ فِتْنَةُ السَّرَّاءِ، دَخَلُهَا أَوْ دَخَنُهَا مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، يَزْعُمُ أَنَّهُ مِنِّي، وَلَيْسَ مِنِّي، إِنَّمَا وَلِيِّيَ الْمُتَّقُونَ...**».

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولكن أهل البدع مغرورون بالانتساب إلى الرسول ﷺ وبمن يغرونهم بذلك؛ ولذلك تجد هذه القضية عند الكثيرين أن فلانًا منسب، أن فلانًا له نسب للرسول ﷺ، كل أصحاب القباب ولو كانوا من غير العرب أصلاً منسوبون إلى الرسول ﷺ، وهم يظهرون مخالفته ﷺ ليغروا الناس بذلك، وهذا من أمور الجاهلية كما هو واضح من طريقة اليهود والنصارى، واليهود كثير منهم منتسبون إلى الأنبياء، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]. إذًا، الناس من أبناء نوح عليه السلام ومن أبناء إبراهيم عليه السلام من نسلهم فعلاً، ومع ذلك كثير منهم فاسقون، وكما نعلم أن أصل البشرية بعد الطوفان هم في ذرية نوح عليه السلام، فكل هؤلاء الذين ترون من الكفار والمشركين لهم نسب إلى نوح عليه السلام، وقال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: ٧٧]، وهناك من أبناء إبراهيم ذرية كثيرة كذلك، ومع ذلك لاينال عهد الله الظالمين، قال سبحانه وتعالى: ﴿۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤]، فلو كانوا من ذرية إبراهيم لكن ليسوا على طريقته لا ينالهم عهد الله، فكذلك من كان من ذرية محمد ﷺ إذا لم يلتزم بما كان عليه النبي ﷺ، لم يسرع به نسبه: «**ومَنْ أبطأَ بِهِ عملُهُ، لمْ يُسْرِعْ بِهِ نسبُهُ**»(١)، فلا يغرن أحدًا أن فلانًا مُنسب، أن فلانًا من نسل الرسول ﷺ، نعم هذه فضيلة إذا كان على الحق، إذا كان على السنة؛ أما وهو يظهر مخالفة الرسول ﷺ فلا ينفعه نسبه، أبو طالب عم الرسول ﷺ أحب الرسول هدايته وبذل جهده العظيم في ذلك، ومات

(١) سبق تخريجه الصفحة السابقة.

أبو طالب على الكفر، واستغفر له الرسول ﷺ، وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [القصص: ٥٦]، وقال ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وذكر الله قصة آزر أبا إبراهيم في القرآن، وذكر الله قصة ابن نوح في القرآن؛ ولذلك تجد هذه موضع معركة مع أهل البدع من الصوفية، يقولون: آزر ليس أبا إبراهيم وإنما هو عمه، ويجادلون كثيرًا في موت أبوي النبي ﷺ على الشرك، لماذا؟

لكي يؤصلوا أنه لابد وأن يكون كل من نُسب إلى الرسول ﷺ لابد أن يكون محقًّا؛ ليغروا الناس بذلك، ولم يتمكن الباطنية من شر أهل الزندقة والنفاق من أن يغروا الناس إلا عندما انتسبوا إلى فاطمة، وسموا في التاريخ بـ«الفاطميين»، وهم أبرياء من هذا النسب، وهذا النسب بريء منهم، وهم أدعياء ليسوا بعرب أصلاً وما نسبوا إليهم، وتجد أهل البيت كذلك أبرياء مما ينسبه إليهم الشيعة والروافض، وهم أبرياء منهم؛ لأنهم ليسوا على طريقتهم وليسوا على منهجهم، نسأل الله العافية.

الْمسْألةُ التّاسِعة عشْرة: قدْحُهُمْ فِي بعْضِ الصّالِحِين بِفِعْلِ بعْضِ المُنْتسِبِين إِليْهِمْ؛ كقدْحِ الْيهُودِ فِي عِيسى، وقدْحِ الْيهُودِ والنّصارى فِي مُحمّدٍ ﷺ.

الشرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ: (**الْمسْألةُ التّاسِعة عشْرة: (قدْحُهُمْ فِي بعْضِ الصّالِحِين بِفِعْلِ بعْضِ الْمُنْتسِبِين إِليْهِمْ؛ كقدْحِ اليهُودِ فِي عِسى، وقدْحِ اليهُودِ فِي عِيسى، وقدْحِ اليهُودِ والنّصارى فِي مُحمّدٍ ﷺ**). قد جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قلوب الخلق حب الصالحين والانتساب إليهم والتشرف بمتابعتهم، لكن كثير ممن يتبعهم قد لا يحسن الاتباع، وقد يفعل أفعالاً منكرة، وهو ينتسب إلى هؤلاء الصالحين، بل وإلى الأنبياء، وأهل الباطل يعممون القدح في الصالحين، ويعمم بعضه القدح في بعض أنبياء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كفرًا بهم وإفسادًا في الأرض وصدًا عن سبيل الله، بانتقاض أفعال بعض المنتسبين إليهم، فالتحذير مثلاً من بعض أهل السنة بأن من أتباعه من يتبعهم بلا دليل مثلاً، أو يتعصب لهم مع أنهم ينهون عن التعصب، فكم من إمام والغلو فيه، ثم بعض من ينتسب إليه من أهل مذهبه أو من غيرهم أو ممن ينتسب إلى طريقته، فإنه يغالي فيه ويجعله فوق المنزلة التي جعله الله عَزَّوَجَلَّ فيها، وهذا لايجعلنا شرعًا نقدح في هذا العبد الصالح من عباد الله عَزَّوَجَلَّ، فلا تزر وزارة وزر أخرى، بل يجب علينا أن نقبل الحق الذي قاله، ونتبعه عليه، ونذم ما كان من مخالفات في بعض أتباعه أو في بعض من انتسب إليه ممن يقول إنه يتبعه وليس بصادق في ذلك، فنحن نذم ما ذمه الله ورسوله ﷺ

ونمدح ما مدحه الله ورسوله ﷺ، فاليهود قدحوا في عيسى ﷺ بأن النصارى ألهوه، فهل في هذا ما يجعلنا نقدح في المسيح ﷺ؟! لا، بل من قدح فيه كان كافرًا، والعياذ بالله، كون النصارى اعتبروه إلهًا فليس هذا من كلام المسيح ولا من أوامره ولا مما جاء به، وإنما شيء ابتدعوه من عند أنفسهم، وكذا في أكثر عقائدهم الفاسدة كلها مخترعة من عند أنفسهم، وكل عقائدهم الفاسدة مخترعة من عند أنفسهم، وما كان من حق في هذه العقائد هو ما جاء به المسيح ﷺ، لكن كل ما ابتدعوه كان باطلاً، لا يمنع ذلك من حب المسيح ﷺ ولا يمنع ذلك من اتباعه على ما جاء به من التوحيد والإيمان به، صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم، فمن يقدح في بعض أنبياء الله ﷺ لأن أتباع هؤلاء الأنبياء ظلموا وبغوا، أو حتى أشركوا وكفروا بالله وبرسول الله الذي جاء بالحق من عند الله، فهذا من سلوك أهل الجاهلية، القدح في الأنبياء من أجل فساد بعض من اتبعهم هذا من مسائل الجاهلية ومن سلوك أهل الجاهلية، اليهود والنصارى ينفرون الناس عن اتباع محمد ﷺ؛ لأن بعض المسلمين مثلاً يسفكون الدماء بغير حق، أو أنهم ظلموا، أو أنهم اعتدوا، أو أنهم فعلوا المنكرات، فهذا لا يقدح في اتباع محمد ﷺ، وهو وإن كان هناك ممن اتبعه قد خالف طريقه، فالعدل يقتضي أن ينظر فيما قاله النبي والعبد الصالح، ونتبعه على ذلك الحق الذي قاله؛ وأما سلوك بعض أتباعه فهذا لا يمنع من متابعته.

فلو نظرت إلى محاولات أعداء الإسلام من الكفار والمنافقين تشويه صورة الإسلام والاتجاهات الإسلامية المختلفة، تجده مبنيًا على هذه المسألة حيث يبحثون عن زلات وأخطاء وخطايا وذنوب بعض المنتسبين

إلى العمل الإسلامي، فيجعلون ذلك سببًا للقدح في الدعوة إلى الله سبحانه، وقد كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب ﷺ ممن نال نصيبًا بمن ذلك، فقد كان ﷺ في بيئة كثر فيها الغلظة والجفاء من كثير من البدو، وقد نقلهم الله ﷻ بدعوة الشيخ ﷺ نقلة كبيرة مما كانوا عليه من الظلم والعدوان، ولكن من أرادوا تشويه صورة هذه الدعوة، جعلوا يطعنون فيها بأن بعض أتباع الشيخ ﷺ كانوا يتسارعون في التكفير، وقد يقاتلون بغير تبين، وقد يحصل منهم نوع من التعدي في بعض المسائل، مع أنه ﷺ كان شديدًا في التحذير من تكفير المعين، وإن ارتكب الشرك، إلا بعد إقامة الحجة، فوجود بعض المنتسبين إلى دعوته ممن يتسارع في التكفير، ويتجرأ على حرمات بعض المسلمين، لا يعني ذلك أن الشيخ ﷺ يأمر بذلك، ولا أن دعوته تدعو إلى ذلك.

في زماننا هذا أصبحت الوهابية عند الناس مسبة، يحاولون الطعن فيهم، وقد يكون ذلك بالباطل، وهو أكثره، وأنهم ينسبون إلى الدعوة ما هي بريئة منه، وقد يكون بعض ذلك بسبب فعل بعض المنتسبين إلى هذه الدعوة ممن لم يفهم طريقة الشيخ وطريقة أتباعه الحقيقيين(١)، وكذلك تجد هذا الأمر في كل الدعاة إلى الله ﷻ، كثيرًا من الناس يحذر من منهجهم الحق، ومنهج أهل السنة بزعم أنهم يكفرون الناس، وبزعم أنهم يريدون سفك الدماء، وأن بعضهم ممن انتسب مثلاً إلى منهج السلف قد فعل كذا

---

(١) انظر تفنيد هذه الشبهات في: (حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحقيقة دعوته) للدكتور سليمان ابن عبد الرحمن الحقيل- حفظه الله -، و(خواطر حول الوهابية) لشيخنا العلامة محمد بن أحمد بن إسماعيل- حفظه الله -.

وكذا، من سفك الدماء أو أنه غدر أو أنه نقض العهد أو نحو ذلك، فيقولون: كلهم كذلك.

وهذا من الظلم، وهذا من مسلك أهل الجاهلية، حتى لو وجد بعض من ينتسب إلى منهج أهل الحق لكنه أخطأ الطريق، لكنه عصى وأذنب ونقض عهدًا أو سارع في تكفير معين دون إقامة الحجة، أو أنه سفك دم بغير حق، ذلك لا يقدح في أصل المنهج، فأصل المنهج هو المعصوم بعصمة الكتاب والسنة، وأهل السنة والجماعة منهجهم معصوم، وهم كمجموع إجماع علمائهم كذلك معصوم؛ وأما آحادهم فليسوا بمعصومين، والحجة ليست في فعل البعض ولا في قوله، وإنما الحجة في الدليل من الكتاب أو السنة أو الإجماع، فلايجوز القدح في بعض الصالحين، في بعض الدعاة إلى الله، في بعض من يعمل من أجل نصرة الدين، من أجل أن بعض أتباعه وقع في مخالفات شرعية، فهذا سبيل اليهود والنصارى الذين قدحوا في الأنبياء بأن أتباعهم بعض من انتسب إليهم قد وقع منه ما يخالف شرع الله ﷻ أو ما يخالف ما جاءت به الأنبياء، فهذا نوع في الحقيقة، هذه المسألة، هذا البيان، أن هذا مسلك من مسالك أهل الجاهلية نوع من الدفع بالحجة في وجوه من يتهمون الدعوة بأنواع المفاسد وأنواع الانحراف؛ لوجود بعض من انحرف، وهل توجد دعوة كل من انتسب إليها معصومون؟ وهل يوجد حتى في أتباع الأنبياء، حتى لا نثبت العصمة لآحاد الصحابة ﷺ؟ ونقول بل حتى الخلفاء الأربعة الراشدون ليسوا بمعصومين وهم الأئمة، وحتى المبشرون بالجنة ليسوا بمعصومين، ونقول يجوز على آحاد الصحابة ﷺ الكبائر والصغائر، وقد وقع من بعضهم الكبائر، ووقع منهم من زنا وسرق وأقيمت عليه الحجة، ولكن هذا لا يقدح في المجموع، ولا يصح أن يقال

إن الصحابة على إطلاق قد سرقوا، أو أنهم قد زنوا، نعوذ بالله من ذلك، كما أن الرافضة يصنعون نفس الشيء في الطعن في أصحاب النبي ﷺ، بماذا؟ بمن ارتد عن الإسلام، أهذا يكون من العدل والإنصاف؟! قد قال النبي ﷺ: «**لا ترْجِعُوا بعْدِي كُفّارًا يضْرِبُ بعْضُكُمْ رِقاب بعْضٍ**»(١)، وقال ﷺ: «**أنا فرطُكُمْ على الحوْضِ، وليُرْفعنّ إليّ رِجالٌ مِنْ أُمّتِي حتّى إذا أهْويْتُ لأُناوِلهُمْ اخْتُلِجُوا دُونِي، فأقُولُ: أيْ ربِّ، أصْحابِي! فيُقالُ: إنّك لا تدْرِي ما أحْدثُوا بعْدك**»(٢).

فيقول هؤلاء المبتدعون الضلال الذين يريدون الطعن في الصحابة رضي الله عنهم، بل ويتهمونهم بالردة، يقولون: الصحابة ارتدوا، وإنما قال النبي ﷺ: «**يا ربِّ أصْحابِي أصْحابِي**»؛ لأنه مات وهم لا يزالون على الإسلام، لما مات ارتد المرتدون، منع من منع الزكاة، ومنهم من لحق بأدعياء النبوة، ومنهم من رجع إلى الكفر، وليس هؤلاء يدخلون في تعريف الصحابي؛ لأن الصحابي هو من لقي النبي ﷺ مؤمنًا ثم مات على ذلك(٣)؛ أما بعض من لقيه

---

(١) هذا جزء من خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع أخرجه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥) من حديث جرير رضي الله عنه، وجاء عن جمع من الصحابة، منهم: ابن عباس، وأبي بكرة، وابن عمر، وابن مسعود رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٤٩)، ومسلم (٢٢٩٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، ولفظ مسلم: «**أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَلَأُنَازِعَنَّ أَقْوَامًا ثُمَّ لَأُغْلَبَنَّ عَلَيْهِمْ، فَأَقُولُ: يا رَبِّ أَصْحَابِي أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**».

(٣) انظر: في تعريف الصحابي: تدريب الراوي للسيوطي (ص٢٨٨، ٢٨٩)، وفتح المغيث للعراقي (ص٣٤٢)، وفتح المغيث للسخاوي (٣/ ٧٨، ٧٩)، والإصابة لابن حجر (١/ ٤، ٥).

ثم ارتد عن الإسلام أو منع الزكاة بعد وفاة النبي ﷺ فإن هذا لا يقدح في مجموع الصحابة رضي الله عنهم، بل الصحابة هم الذين ضحوا وثبتوا على إيمانهم، وقاتلوا أهل الردة، وقاتلوا مانعي الزكاة، وثبت الله عز وجل بهم الإسلام في جزيرة العرب، ثم فتح بهم العباد والبلاد، وهؤلاء المبتدعون إنما دخل آباؤهم وأجدادهم في الإسلام بسبب فضل الله عز وجل بجهاد الصحابة رضي الله عنهم وفتحهم البلاد.

فانظر كيف كان جزاؤهم؟ منهم من زعم بأنهم ارتدوا حتى يقول بعضهم: ما أحدث الصحابة بعد النبي ﷺ، ويحتجون بحديث: «**أَنَا فرطُكُمْ عَلَى الْحوْضِ، ولأُنازِعنّ أقْوامًا ثُمّ لأُغْلبنّ عليْهِمْ، فأقُولُ: يا ربِّ أصْحابِي أصْحابِي، فيُقالُ: إنّك لا تدْرِي ما أحْدثُوا بعْدك**»[1]، وهذا في المرتدين، فيجعلون هذا في مجموع الصحابة رضي الله عنهم، في أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، يجعلون هذا في العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم، حتى جعلوا أن أكثر الصحابة رضي الله عنهم قد ارتدوا عن الإسلام إلا نفرًا معدودًا - خمسة أو نحو ذلك - منهم لم يرتدوا: علي، وعمار، والحسن، والحسين، والمقداد ونحو ذلك رضي الله عنهم، مما يذكرون بعض الصحابة رضي الله عنهم يخصصونهم بأنهم الذين بقوا على الإسلام، وهذا من الضلال المبين، بل في حقيقته من الكفر، والعياذ بالله، اتهام الصحابة رضي الله عنهم بأنهم جميعًا قد ارتدوا إلا نفرًا يسيرًا يقتضي أن القرآن نقل إلينا عن طريق الكفار، ولم ينقل إلينا متواترًا عن طريق أهل الإسلام، نعوذ بالله، هذا قدح في الإسلام في حقيقة الأمر، وهذا من أعظم الباطل والضلال، الذي لا بد أن يحارب ويستنكر، فمثل هذه الطريقة من طريقة أهل

(١) سبق تخريجه الصفحة السابقة.

الجاهلية، أهل الجاهلية شابههم أهل البدع، وهم من أهل الجاهلية في الطعن في بعض الصالحين بفعل بعض المنتسبين إليهم كما سمعت أو قرأت أو كما أبلغني البعض: أن بعضهم عندما يقال له في عدم جواز مساواة أهل السنة بأهل البدع من الشيعة، وهو يزعم أنه لا فرق بين أهل السنة وبين الرافضة الشيعة، فقال له الذي يحاوره: كيف يتساوون وهم يطعنون في أزواج النبي ﷺ وأصحابه ويسبونهم؟ فيقول هذا الجاهل الضال المنحرف: يبدو أنك سلفي مثلهم أيضًا، فإن أول من سب الصحابة وسب أهل البيت هم أهل السنة، والعياذ بالله.

قرأت عجبًا والله! قال: الذين كانوا يسبون عليًّا رضي الله عنه على المنابر، ويذكر أحاديثًا في ذكر من كانوا يسبون عليًّا رضي الله عنه على المنابر زمن معاوية رضي الله عنه ومن بعده.

فهل كان أهل السنة ومنهم معاوية رضي الله عنه يرضون بذلك؟ هل رضوا بهذا الأمر، حتى يقال: أهل السنة أول من بدأ بالسب وبالطعن على المنابر؟!

كيف ينسب لأهل السنة ما يتبرأ منه أهل السنة، فأهل السنة يعرفون فضل علي رضي الله عنه ومنهم معاوية رضي الله عنه كان يعرف ذلك، وعندما امتنع بعض أصحاب النبي ﷺ عن الاستجابة لهؤلاء الناصبة في زمن معاوية رضي الله عنه بعض الأمراء بدايات عندهم كان بداية النصب، النصب: هو مناصبة أهل البيت العداء، وكان يوجد من يأمر الناس بالطعن في علي رضي الله عنه، وليس عن أمر معاوية رضي الله عنه، وليس برضا من معاوية رضي الله عنه، بل لما شكى إليه أن بعض أصحاب الرسول ﷺ يأبون الطعن في علي رضي الله عنه، سألهم عن ذلك ليظهر فضل علي رضي الله عنه، ويظهر كذلك موافقته لهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم، وهذا الذي في صحيح

مسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه: لماذا لا تلعن أبا تراب؟ فذكر له من فضائل علي رضي الله عنه، فأقره بهذه الفضائل[(١)]، أراد أن يبين مذهبه في علي رضي الله عنه، أنه ليس موافقًا على ما يفعله هؤلاء السبابون الذين يطعنون في علي ويلعنونه، ليس هذا من فعل أهل السنة، هذا يقول: أهل السنة بدءوا بالسب، نعوذ بالله، والله هذا من الضلال، أهل السنة لم يسبوا، الذين سبوا والذين طعنوا في علي رضي الله عنه وأهل البيت هم من الناصبة، وهذا بفضل الله قد انقرض، هذا المذهب قد انقرض، ولم يعد هناك من يطعن في علي رضي الله عنه، وكان في الزمن الأول في بني أمية بعض هؤلاء المبتدعين، وأنهى هذه البدعة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عندما أمر الخطباء أن يختموا بدلاً من الطعن في أهل البيت - كما كان قد انتشر في زمن بعد زمن معاوية رضي الله عنه - أمرهم أن يختموا الخطبة بقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، كما هو مشهور[(٢)]،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٣)، ومسلم (٢٤٠٩)، واللفظ لمسلم عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: «اسْتُعْمِلَ عَلَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ مِنْ آلِ مَرْوَانَ قَالَ: فَدَعَا سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَشْتِمَ عَلِيًّا قَالَ: فَأَبَى سَهْلٌ فَقَالَ لَهُ: أَمَّا إِذْ أَبَيْتَ فَقُلْ: لَعَنَ اللهُ أَبَا التُّرَابِ فَقَالَ سَهْلٌ: مَا كَانَ لِعَلِيٍّ اسْمٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أبي التُّرَابِ، وَإِنْ كَانَ لَيَفْرَحُ إِذَا دُعِيَ بِهَا، فَقَالَ لَهُ: أَخْبِرْنَا عَنْ قِصَّتِهِ، لِمَ سُمِّيَ أَبَا تُرَابٍ؟ قَالَ: جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْتَ فَاطِمَةَ، فَلَمْ يَجِدْ عَلِيًّا فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ؟ فَقَالَتْ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، فَغَاضَبَنِي فَخَرَجَ، فَلَمْ يَقِلْ عِنْدِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لإِنْسَانٍ. انْظُرْ، أَيْنَ هُوَ؟ فَجَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هُوَ فِي الْمَسْجِدِ رَاقِدٌ، فَجَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ، قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ، فَأَصَابَهُ تُرَابٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْسَحُهُ عَنْهُ وَيَقُولُ: قُمْ أَبَا التُّرَابِ قُمْ أَبَا التُّرَابِ».

(٢) انظر: ترتيب الأمالي الخميسية للشجري (١/ ٢٠١).

ومنع الطعن في أهل البيت على المنابر، كما أنه قد وجد في زمن العباسيين من كان يقول ببدعة خلق القرآن، وانقرض ذلك أيضًا، فهل يعني ذلك القدح في خلفاء المسلمين بصفة عامة؟! هل يعني الطعن في بعض ولاة عثمان ﵁ أنه يجوز الطعن في عثمان ﵁؟!

هذا كان سبب الثورة على عثمان ﵁؛ الطعن في ولاته، فطعنوا في عثمان ﵁ ظلمًا وعدوانًا، مع أن عثمان ﵁ عندما كان يعلم فعل بعض من ولاهم بعض الأمور المحرم والمنكر كان يقيم عليهم الحدود حتى أقاربه، فلما شرب الوليد الخمر وقال لهم في صلاة الصبح: «**أزِيدُكُمْ**»[(١)]، يعني: ركعتين، ويصلي بهم أربعة، أمر عليًّا ﵁ أن يقيم عليه الحد في الخمر، فأمر علي الحسن ﵄ أن يقيم عليه الحد، وهذا في الحقيقة إكرام لعلي ﵁ أنه هو الذي يقيم الحد بأمر عثمان ﵁ على قريب لعثمان ﵁، ومع ذلك عليّ ﵁ هو الذي يأمره عثمان ﵁ بجلده فيأمر علي ﵁ ابنه بجلده فيمتنع الحسن ﵁ ويقول: «**ولِّ حارّها منْ تولّى قارّها**»[(٢)]، فيأمر عبد الله بن جعفر ﵄ أن يجلده فيقوم فيجلده، وعلي ﵁ يعد في حضرة عثمان ﵁،

---

(١) ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب (٤/ ١٥٥٤)، والمزي في تهذيب الكمال (٣١/ ٥٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٠٧) قال: حَدَّثَنَا حُضَيْنُ بْنُ الْمُنْذِرِ أبو سَاسَانَ، قَالَ: «**شَهِدْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ وَأُتِيَ بِالْوَلِيدِ قَدْ صَلَّى الصُّبْحَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: أَزِيدُكُمْ، فَشَهِدَ عَلَيْهِ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا حُمْرَانُ أَنَّهُ شَرِبَ الْخَمْرَ، وَشَهِدَ آخَرُ أَنَّهُ رَآهُ يَتَقَيَّأُ، فَقَالَ عُثْمَانُ: إِنَّهُ لَمْ يَتَقَيَّأْ حَتَّى شَرِبَهَا، فَقَالَ: يَا عَلِيُّ، قُمْ فَاجْلِدْهُ، فَقَالَ عَلِيٌّ: قُمْ يَا حَسَنُ فَاجْلِدْهُ، فَقَالَ الْحَسَنُ: وَلِّ حَارَّهَا مَنْ تَوَلَّى قَارَّهَا، فَكَأَنَّهُ وَجَدَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا عبد اللهِ بْنَ جَعْفَرٍ قُمْ فَاجْلِدْهُ، فَجَلَدَهُ وَعَلِيٌّ يَعُدُّ حَتَّى بَلَغَ أَرْبَعِينَ، فَقَالَ: أَمْسِكْ، ثُمَّ قَالَ: جَلَدَ النَّبِيُّ ﷺ أَرْبَعِينَ، وَجَلَدَ أبو بَكْرٍ أَرْبَعِينَ، وَعُمَرُ ثَمَانِينَ، وَكُلٌّ سُنَّةٌ، وَهَذَا أَحَبُّ إِلَيَّ**».

وهذا من الإنصاف والعدل الذي شرعه الله ﷻ، فهل يقدح في عثمان رضي الله عنه بفعل ولاته؟! ولاته وقع منهم ذلك، وهل يعرف عثمان رضي الله عنه كل تفاصيل هؤلاء ويقر به؟! نعوذ بالله، هذا ظلم وعدوان، هذا لا يرضاه ولو حتى رئيس حي في زماننا أن يسأل عن جميع الموظفين، يوجد موظفون مرتشون، ويوجد موظفون يعرقلون الأمور، فضلاً عن أن يكون ملكًا أو رئيسًا كبيرًا وتحته مئات الآلاف من المسئولين، منهم من يفسد، هل يقال: إنك تتحمل وزر كل إنسان، إنما يتحمل وزر من علم بمنكره، فسكت على ذلك وأقره ورضي بفعله، فإذا كان الأمر كذلك فلماذا يقدحون في عثمان رضي الله عنه؟! ولماذا يقدحون في أصحاب رسول الله ﷺ؟! بل لماذا يقدحون في معاوية رضي الله عنه، ومعاوية رضي الله عنه لم يرض بالطعن في علي رضي الله عنه ولم يأمر بذلك ولم يقره، وإنما كان يقر من يذكر فضائل علي رضي الله عنه، وانقرضت بحمد الله هذه البدعة، بدعة النصب، مناصبة أهل البيت العداء، لكن ظل الشيعة يقولون عن أهل السنة ناصبة، يقولون من لم يقر بأن عليًّا رضي الله عنه هو الخليفة هؤلاء نواصب؛ ولذلك يكفرون أهل السنة ويستحلون دماءهم وأموالهم وأعراضهم بزعم أنهم ناصبة، بفعل من؟ بفعل بعض المنتسبين، ولم يكونوا من أهل السنة؛ لأن أهل السنة من عقيدتهم سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب النبي ﷺ ولأهل بيته، يحبون الصحابة ويحبون أهل البيت، ولا يطعنون في أحد منهم[1]: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾، فالذين يطعنون في علي رضي الله عنه عند أهل السنة من أهل البدع،

(١) انظر: العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ضمن مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٢)

من الناصبة الذين يطعنون في الحسن والحسين رضي الله عنهما، رغم أن الحسين رضي الله عنه خرج على يزيد وسعى إلى خلعه وقاتل، ومع ذلك أهل السنة لايقبلون أبدًا أحدًا يذم الحسين رضي الله عنه، وأقصى ما يقولون: اجتهد فأخطأ في ذلك، ولا يقبلون أبدًا أن يذموه على ما فعل، ويذمون يزيد ويذمون من ولاه يزيد على قتل الحسين رضي الله عنه؛ لأنه لم يعاقِب من قتله وإن كان لم يأمر به، يزيد غفر الله له لم يأمر بقتل الحسين رضي الله عنه، وإنما كان من خطاياه العظيمة الأمر بقتال أهل المدينة واستباحتها؛ وأما قتل الحسين رضي الله عنه فهو الذي ولى أمثال هؤلاء المجرمين، فهو يتحمل بطريقة غير مباشرة شيئًا من أزوارهم وخطاياهم؛ لأنه ولى هؤلاء المجرمين الذين تولوا قتال الحسين، وأبوا أن يجيبوه من العدل والإنصاف أن يسيروه إلى يزيد فيكلمه، أو يتركوه يرجع إلى مكة، أو يذهب إلى الثغور فيقاتل أهل الكفر، فأبوا إلا أن يستأسر لهم هو وأهل بيته، وكان معه من أهل بيته، ومن النساء ما امتنع الحسين رضي الله عنه معه أن يجيبهم إلى هذا الطلب، فأحاطوا به وقتلوه مظلومًا شهيدًا رغم أنه كان خارجًا من ثبتت إمامته بالبيعة في زمن معاوية رضي الله عنه وبعده، وتغلب كذلك.

ومع ذلك فلا يرض أهل السنة بالطعن في الحسن والحسين رضي الله عنهما، بل يمدحونهما دائمًا، وكذلك يحبون من بعدهم ولا يقبلون الطعن في هؤلاء الأئمة الكبار من أهل البيت بفعل الرافضة[1]، الرافضة ينتسبون إلى جعفر

(١) هي فرقة من فرق الشيعة الضالة، سموا (رافضة) لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ويقال: سموا بالروافض؛ لأن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم خرج على هشام ابن عبدالملك، فطعن عسكره على أبي بكر رضي الله عنه، فمنعهم من ذلك فرفضوه، فقال لهم زيد بن علي: رفضتموني؟ قالوا: نعم، فبقي عليهم هذا الاسم. وهم يدعون =

الصادق وأبيه الباقر، وينتسبون إلى علي زين العابدين بن الحسين ﵁، والزيدية ينتسبون إلى زيد بن علي[١]، وأهل السنة يعرفون قدر الأئمة من أهل البيت، ولا يطعنون أو يقدحون في أئمة أهل البيت بزعم أن الرافضة يغلون فيهم.

نعم نحن نعلم أن الرافضة أن الشيعة الاثني عشرية يغالون في علي والحسن والحسين وعلي زين العابدين وجعفر الباقر وجعفر الصادق، ويغالون فيهم وما قبل أهل السنة أن يقدحوا في هؤلاء الأئمة، بل هم عندهم من أئمة أهل السنة ومن أئمة العلم، وأقوالهم منقولة ومعتبرة، والثناء عليهم في كتب أهل السنة بفضل الله ﷻ كثير، ولا يزال أهل السنة يترضون عن أئمة أهل البيت، ويرون منزلتهم حبًّا لرسول الله ﷺ، يرون منزلتهم في الدين ويذكرون فضائلهم، ويثنون عليهم، وربما تعرض كثير منهم للأذى بسبب حب أهل البيت النبي ﷺ، وعلى سبيل المثال قول الإمام الشافعي ﵀[٢]:

يا راكِبًا قِف بِالمُحَصّبِ مِنْ مِنىً وَاهتِف بِقاعِدِ خيفِها والناهِضِ

= الإمامية لقولهم بالنص على إمامة على ابن أبي طالب ﵁. انظر: مقالات الإسلاميين (ص١٦وما بعدها)، والفرق بين الفرق (ص١٥)، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٥٢).

(١) الزيدية أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، القائلون بإمامة بني فاطمة؛ لفضل علي وبنيه على سائر الصحابة ﵃، وعلى شروط يشترطونها، وإمامة الشيخين عندهم صحيحة، وإن كان عليٌ أفضل. انظر: الأنساب للسمعاني (٣/ ١٨٨)، والوافي بالوفيات (١٥/ ٢١)، وتاريخ بن خلدون (٤/ ٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ١٥٢)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٩/ ٢٠)، =

سحرًا إذا فاض الحجيجُ إلى مِنىً ... فيضًا كمُلتطِمِ الفُراتِ الفائِضِ

إنْ كان رِفْضًا حُبُّ آل مُحمّدٍ ... فليشهدِ الثقلانِ أنّي رافِضي

يعني يقول: أنا أحب آل بيت النبي ﷺ، ولو اتهم متهم بأني من الرافضة، وهذا ليس رفضًا، هذا واجب، هذا من عدل أهل السنة وإنصافهم أنهم لا يقدحون في الصالحين؛ لأن بعض الناس قد غلا فيهم، لا نسلك سبيل أهل الجاهلية، الرافضة هم الذين يسلكون هذا المسلك من مسالك اليهود والنصارى، وأهل البدع والعلمانيون والخوارج هم الذين يقدحون في أهل السنة بأن بعض أهل السنة خالف الحق، بعض من ينتسب إلى السنة خالف الحق، وهذا - كما ذكرنا - لا يتحمله أهل السنة جميعًا ولا أئمتهم، ولا يتحمل وزر الرافضة أئمة أهل البيت، كما لا يتحمل أوزار النصارى عيسى عليه السلام، ولا يتحمل موسى عليه السلام أوزار اليهود، وإنما كل يعمل، وكل جازى بعمله، وهؤلاء الأنبياء والصالحون نحن نحبهم على ما أمر الله عز وجل من حب الأنبياء وحب الصالحين، ولا نقبل الطعن في أحد منهم من أجل أن بعض أتباعهم قد خالفوا الحق، أو خالفوا ما قال هؤلاء الأنبياء والصالحون أو غلوا فيهم، أو ادعوا فيهم الإلهية، أو ادعوا فيهم ما دون ذلك، لكن غلوا بقدر بما فيهم، فنحن لا نرضى بذلك، ولا نقدح في الصالحين من أجل ذلك.

= والذهبي في السير (١٠/ ٥٨)، والسبكي في طبقات الشافعية الكبرى (١/ ٢٩٩). وانظر: القاموس المحيط (ص٨٢٩، ٨٣٠)، ولسان العرب (٧/ ١٥٦، ١٥٧)، وتاج العروس للزبيدي، مادة: (رفض).

الْمسْألةُ الْعِشْرُون: اعْتِقادُهُمْ فِي مَخَارِيقِ السّحرةِ وأمْثالِهِمْ أَنَّها مِنْ كَرَامَاتِ الصّالِحِين، ونِسْبتُهُ إِلى الْأنْبِياءِ، كَمَا نَسَبُوهُ لِسُلَيْمان عليه السلام.

الشرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: (**الْمسْألةُ الْعِشْرُون: (اعْتِقادُهُمْ فِي مخارِيقِ السّحرةِ وأمْثالِهِمْ أنّها مِنْ كراماتِ الصّالِحِين، ونِسْبتُهُ إِلى الأنْبياءِ، كما نسبُوهُ لِسُلَيْمان** عليه السلام)، مخاريق السحرة يقصد بذلك الأفعال الخارقة للعادة، التي يروجون بها لباطلهم من السحر والكهانة ونحو ذلك، الأفعال الخارقة للعادة على أنواع ثلاثة:

النوع الأول: معجزات الأنبياء، آيات الأنبياء، وهذا اللفظ الذي استعمل كثيرًا في القرآن لفظ (الآية): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾؛ لأن هذه المعجزات الخارقة للعادة دلالة على نبوتهم، وهذه المعجزات يؤيدهم الله ﷻ بها مما يعجز عنها البشر، وتكون مع صحة ما يدعون إليه من التوحيد ومعرفة الله ﷻ ومحبته وعبادته وحده لا شريك له، واتباع الأنبياء، والإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر، والأمر بعبادة الله ﷻ على أحسن الوجوه، والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسنها والأمر بالعدل فيما يخص الفرد والجماعة.

نقول: إن دعوة الرسل في الحقيقية مؤيدة بالآيات والمعجزات مع صحة الدعوى، مع كونها هي التي فطر الله ﷻ العباد على أن يقبلوا هذا الحق

دونما سواه، أعني: أن آثار الأنبياء يُعرف بها صدقهم قبل المعجزات، لابد أن يُنظر فيما جاء به الأنبياء، فالأنبياء جاءوا بالإيمان، جاءوا بالإسلام، جاءوا بالإحسان، الأنبياء جاءوا بالعقيدة الصحيحة، جاءوا بالعبادة السليمة، جاءوا بالأخلاق السوية الحسنة الجميلة، جاءوا بإقامة المجتمع على أحسن القواعد والأصول، لم يأمروا بظلم، ولم يأمروا بكذب، ولم يدعوا إلى قط إلى شرك ولا إلى غلو فيهم؛ لذلك دعواهم مبرأة، فنحن نعرف صدق الأنبياء من آثارهم، ومما أيدهم الله به من معجزات، وجنس معجزات الأنبياء لا يقدر عليه البشر.

النوع الثاني: من خوارق العادات وهي كرامات الأولياء أتباع الأنبياء، يكرمهم الله ﷻ بها من أنواع العلوم والمكاشفات ومن أنواع القدرة والتأثيرات[١]، يطلعهم الله ﷻ كما أطلع الأنبياء على أشياء مما يغيب على كثير من الناس، لا يدعون علم الغيب، ولكن يخبرون بأمور، يكشف الله لهم على سبيل الكرامة دون أن يجزموا بعلم غيب استأثر الله به، ولكن يقذف الله في قلوبهم شيء، فيقولونه فيوافق الحق؛ كما قال عمر ﷺ مثلاً: **(يا رسول الله احجب نساءك)**، وقال: **(لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى)**، ونحو ذلك[٢]. فيكون هذا موافقًا للشرع، يكشف الله له عن هذا الأمر أن

(١) انظر: العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ضمن مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٦)، وانظر هذا المبحث في تفصيل شاف ممتع في: اللآلئ البهية في شرح العقيدة الواسطية (٢/ ٣٩٩) لشيخنا العلامة صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ -حفظه الله-.

(٢) ومن هذه الموافقات أن عمر رضي الله عنه وافق حكمُه حكمَ الرب ﷻ في مواضع من ذلك =

هذا حسن، أرى الله ﷻ بعض الصحابة الأذان في المنام(١)، ما جعلوه شيئًا

= ما أخرجه البخاري (٤٠٢)، ومسلم (٢٣٩٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال عمر رضي الله عنه: «**وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ، فِي مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ، وَفِي الْحِجَابِ، وَفِي أُسَارَى بَدْرٍ**»، وهذا لفظ مسلم. قال ابن حجر في الفتح (١/ ٥٠٥): وليس في تخصيصه العدد بالثلاث ما ينفي الزيادة عليها؛ لأنه حصلت له الموافقة في أشياء غير هذه من مشهورها قصة أسارى بدر، وقصة الصلاة على المنافقين وهما في الصحيح، [البخاري (١٢٦٩)، ومسلم (٢٤٠٠)] وصحح الترمذي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «**مَا نَزَلَ بِالنَّاسِ أَمْرٌ قَطُّ فَقَالُوا فِيهِ، وَقَالَ فِيهِ عُمَرُ، أَوْ قَالَ ابْنُ الْخَطَّابِ فِيهِ شَكَّ خَارِجَةُ إِلَّا نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ عَلَى نَحْوِ مَا قَالَ عُمَرُ**»، وهذا دال على كثرة موافقته.

وقد وافق عمر رضي الله عنه ربه في مواضع منها: قوله لأزواج النبي ﷺ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾ . . . ، فنزلت الآية كما قال، انظر: البخاري (٤٩١٦)، ومسلم (١٤٧٩).

ومنها موافقته في آية المؤمنين كما روى أبو داود الطيالسي في مسنده برقم (٤١): وافقت ربي لما نزلت ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ فقلت أنا: تبارك الله أحسن الخالقين، فنزلت. ومنها موافقته في تحريم الخمر، كما عند النسائي (٨/ ٢٨٦)، ومنها موافقته في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ الآية، «**إِنَّ يَهُودِيًّا لَقِيَ عُمَرَ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ جِبْرِيلَ الَّذِي يَذْكُرُهُ صَاحِبُكَ هُوَ عَدُوٌّ لَنَا. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ. قَالَ: فَنَزَلَتْ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ**»، كما ذكره الطبري في تفسيره (١/ ٤٤٧).

(١) كما في حديث عبد اللَّهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ رضي الله عنه قَالَ: «**لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالنَّاقُوسِ لِيُضْرَبَ بِهِ لِلنَّاسِ فِي الْجَمْعِ لِلصَّلَاةِ طَافَ بِي وَأَنَا نَائِمٌ رَجُلٌ يَحْمِلُ نَاقُوسًا فِي يَدِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا عبد اللهِ أَتَبِيعُ النَّاقُوسَ؟ قَالَ: مَا تَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: نَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: بَلَى، قَالَ: تَقُولُ اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،** =

إلا بعد أن عرضوه على الرسول ﷺ، لكن لو تأملت بالفعل وعلمت أن هذا من الكشف العظيم القدر، منام رآه بعض الصحابة رضي الله عنهم رأى هذا الأذان في منامه فكان شريعة عظيمة القدر، لو تأملت ما تدعو به كل أمة إلى صلاتها وعبادتها، لو قارنت بين ما يفعله المسلمون بين ما يفعله النصارى، بين ما يفعله اليهود، بين ما يفعله المجوس، لا يمكن أن يقارن الأذان بشيء مما تفعله الأمم الأخرى، الأذان في السماء وما يفعلونه أشبه بدعوة الحيوانات الجرس والأذان، البوق والأذان، قارن، إشعال النار والأذان، لا يوجد عاقل في العالم إلا ويقول الأذان أسمى هذه الدعوات إلى الصلاة أو إلى العبادة، متضمن لمعاني لتعظيم الرب سبحانه وتعالى ووحدانيته وإثبات النبوة والرسالة والدعوة إلى الصلاة، وأنها من الفلاح، وأنها أعظم الفلاح، وختم الأذان بما بدأ به من تعظيم الرب وتبجيله سبحانه وتعالى، والشهادة له بالوحدانية.

معاني عظيمة لا يمكن أن تقارن بجرس يدق أو بوق ينفخ فيه أو نار

= ثُمَّ اسْتَأْخَرَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ قَالَ: تَقُولُ: إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ، اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا رَأَيْتُ، فَقَالَ: " إِنَّهَا لَرُؤْيَا حَقٌّ إِنْ شَاءَ اللهُ، فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا رَأَيْتَ فَلْيُؤَذِّنْ بِهِ، فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوْتًا مِنْكَ، قَالَ: فَقُمْتُ مَعَ بِلَالٍ فَجَعَلْتُ أُلْقِيهِ عَلَيْهِ وَيُؤَذِّنُ بِهِ، قَالَ: فَسَمِعَ بِذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ فَخَرَجَ يَجُرُّ رِدَاءَهُ يَقُولُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَقَدْ رَأَيْتُ مِثْلَ الَّذِي أُرِيَ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَلِلَّهِ الْحَمْدُ». أخرجه أبو داود (٤٩٩)، والترمذي (١٨٩)، وقال: حديث عبد الله ابن زيد، حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٧٠٦)، والدارمي (١٢٢٤)، وأحمد (٢٦/ ٤٠٣)، وابن خزيمة (٣٧١).

تشعل، لا معنى لهذا، هذا أشبه فعلاً بما تدعى به الحيوانات، الذي يريد أن يحرك قطيعًا من الغنم، يصنع لهم صفارة أو بوقًا أو جرسًا أو نحو ذلك، وليس أنه يخاطبهم بكلام يُفهم، فأسمى أنواع الدعوات ما خوطب به البشر دون غيرهم من الكلمات، البشر هو من يعقل ومن يسمع من الملائكة، والكائنات الأخرى جعلها الله ﷻ تشهد للمؤذنين لحسن معاني هذا الأذان؛ ولأنه موافق لما جعل الله ﷻ الكائنات عليه من التوحيد.

هذا أمر قد وقع بكشف، برؤية منامية، جاء هذا المنام لبعض الصحابة فقصه على النبي ﷺ فأمره أن يلقنها بلالاً، فكان هذا الأذان خير ما دعي إلى الله ﷻ إلى الصلاة؛ فلذلك نقول: هذا من أنواع الكرامات، وضربًا مِن كثير من أنواع ما يُكشف لأولياء الله الصالحين من أنواع الحق، وهو أعلى أنواع الكشف، الكشف عن الحق، حيث يعرفون الذي شرعه الله، وبحيث يدركون أيضًا مواطن العطب والضلال والفساد، وليس فقط الكشف عن الغيبيات المحتملة؛ لأن هذا نوع من الكشف، وكذا الإلهام وأنواع القدرة والتأثير، الإلهام مثل إلهام أم موسى أن تلقي ابنها في البحر، ويكون في ذلك نجاته، مع أنه لو فكر الناس لرأوا أنه ضياع للولد، ولكن كان هذا في الحقيقة كرامة، إلهام من الله وكرامة لأم موسى في نجاة ابنها، وهكذا. أنواع القدرة والتأثير مثل ما جرى لأهل الكهف أن الله حفظهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعًا، فأنواع الكرامات لأولياء الله وشرط الكرامة، حتى يكون الإنسان يُقال عنه: إن هذه من كراماته أن يكون متبعًا للكتاب والسنة؛ ولذا قال الإمام الشافعي المقولة الجميلة العظيمة: «**إذا رأيْتُمُ الرّجُل يمْشِي على الْماءِ أوْ يطِيرُ فِي الْهواءِ، فلا تُصدِّقُوهُ حتّى تعْلمُوا**

مُتابعتهُ لِرسُولِ اللّهِ ﷺ»[١].

وكما ذكرنا أننا من أين نعرف الأنبياء؟ ليس فقط بخوارق العادات، بل نعرفهم بما جاءوا به؛ لأن فطرة التوحيد واتباع الرسل قد فطر الله ﷻ العباد عليها؛ لذلك النصارى يزعمون أن المسيح قد قال لهم: (**ويقُومُ أنْبِياءُ كذبةٌ كثِيرُون، ويُضِلُّون كثِيرِين**)[٢]، سبحان الله! وصدق عليه السلام، قد يوجد أنبياء كذبة، وهو يحذرهم من المسيح الدجال في الحقيقة ومن الدجالين الكذابين الذين كلهم يزعم أنه رسول الله، فالدجالون الكذابون؛ كما قال النبي ﷺ: «. . . **وإنّهُ سيكُونُ فِي أُمّتِي كذّابُون ثلاثُون كُلُّهُمْ يزْعُمُ أنّهُ نبِيُّهُمْ وأنا خاتمُ النّبِيِّين، لا نبِيّ بعْدِي**. . »[٣].

فقد حذر عيسى عليه السلام وأخبرهم كما يذكرون هم ذلك عن عيسى عليه السلام في أناجيلهم: أنهم سيقولون المسيح هنا، المسيح هنا، وأن الله سيجعل لهم عجائب. (**اِحْترِزُوا مِن الأنْبِياءِ الْكذبةِ الّذِين يأْتُونكُمْ بِثِياب الْحُمْلانِ، ولكِنّهُمْ مِنْ داخِلِ ذِئابٌ خاطِفةٌ! مِنْ ثِمارِهِمْ تعْرِفُونهُمْ. هلْ يجْتنُون مِن الشّوْكِ عِنبًا، أوْ مِن الْحسكِ تِينًا؟ هكذا كُلُّ شجرةٍ جيِّدةٍ تصْنعُ أثْمارًا جيِّدةً، وأمّا الشّجرةُ الرّدِيّةُ فتصْنعُ أثْمارًا ردِيّةً**)[٤] - يعني: وهم عندهم عجائب

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٤٦٦)، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٣)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة (٩/ ٧).

(٢) انظر: انجيل متى (٢٤).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، وأحمد (٥/ ٢٧٨) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٤) انظر: انجيل متى (٧).

يصنعون أشياء خارقة للعادة.

فهذا لا يطبقه في الحقيقة إلا أهل الإسلام، خوارق العادات ليست بمجردها علامة على النبوة ولا على الكرامة، حتى ينظر في الثمرة التي يدعو إليها هؤلاء، فالأنبياء يدعون إلى أحسن العقائد وأحسن العبادات وأحسن الأخلاق وأحسن نظم الحياة، والأولياء يتبعون الأنبياء، يتبعون الكتاب والسنة فما يجريه الله على أيديهم من خوارق العادات من أنواع العلوم والمكاشفات، ومن أنواع القدرة والتأثيرات، هو من الكرامة التي يكرمهم الله بها، وهو في الحقيقة (**كرامات الأولياء من معجزات الأنبياء**)؛ لأنهم إنما نالوا هذه الكرامة وهذه المنزلة من اتباعهم للرسول ﷺ.

النوع الثالث: من خوارق العادات وهو ما يقع من الكهنة والسحرة: يأتون بأشياء عجيبة، ولا يزال السحرة في كل زمان يأتون بخوارق العادات ويُرون الناس أشياء ليست معتادة لهم، يخترق بعضهم الجدار، ويقطع بعضهم رؤوس الناس ثم يعيدها أو أمثالهم ثم يعيدها، يظهر لهم حيوانات وكائنات في صندوق فارغ أو مِن كُمِّه بعد أن كان منديلاً، وغير ذلك مما يفعله السحرة، يفرقون بين المرء وزوجه، يكونون في سعادة وهناء ومحبة وإذا بهم قلقلوا أحوالهم، ويكرهها أعظم الكراهية وغير ذلك، السحرة يفعلون هذا، والكهان قد يخبرون ببعض الأمور الغيبية؛ قتيل يُقتل فيبحث الناس عنه في كل مكان، ثم يعجزون عن الوصول إليه ولا يجدون سببًا، فيذهب بعض هؤلاء إلى الدجالين إلى الكهنة، فيفتح المندل فيخبرهم بأن الرجل مقتول في البيت الفلاني في المكان الفلاني بعمق كذا، وأن فلانًا

قتله، فيذهبون فيحفرون فيجدون.

هذه وقائع شاهدتُ بعضها وأخبرت عن بعضها، أنهم فعلاً قد يصدقون في ذلك، وهم كذابون حتى وإن صدقوا، إنما يستعينون بالجن، يأتون بطفل صغير مثلاً ثم يقولون له: من سرق الجاموسة؟ ماذا ترى؟

فيقولون: انظر، ويخرجون له الكرة من زجاج، ويقولون له: أغمض عينيك، فيغمض عيناه فيخبرهم، ويقول لهم: فلان الفلاني يمشي بالجاموسة ويدخل بها بيته، فيذهبوا بعد ما تعبوا من البحث عن الجاموسة إلى بهائم الرجل، فيجدون جاموستهم، وأن الرجل كان قد سرقها.

وهذا طفل صغير لا يعرف ولا يعلم، وهم يفعلون ذلك به، الجن يصوِّر للطفل أمامه وهم مغمض عينيه صورة ما وقع والجن رآه، والجن عنده قدرة على التشكل؛ يتشكل في صورة حية، في صورة حيوان، في صورة إنسان، فيقوم يتشكل في صورة الشخص الذي رآه يسرق، أو رآه يقتل، ويريها للطفل أو للمرأة التي يفتح عليها المندل كما يقولون؛ لأنه غيب نسبي، غيب غاب عن بعض العباد واطلع عليه البعض الآخر مما قد جرى؛ أما مفاتيح الغيب الخمسة فلا يعلمها إلا الله[(١)]، إن وافقوا شيئًا من ذلك

---

(١) وهي المذكورة في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٦٩٧، ٧٣٧٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، «**مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ، لا يَعْلَمُ مَا في غَدٍ إِلَّا اللهُ، ولا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأرْحَامُ إِلَّا اللهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي المَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَلا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَي أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَاعَةُ إِلَّا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**» وروى مسلم (٩، ١٠) نحوه مطولًا، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه قصة جبريل عليه السلام لما أتى النبي ﷺ فسأله متى تقوم الساعة.

فبمجرد الظن والتخمين، بعد أن حرست السماء[(١)].

المقصود: أن هذه من خوارق العادات، أشهرها في زماننا أمر الرفاعية، هؤلاء الرفاعية أينما يذهبون يخرجون الثعابين من كل بيت، حتى البيت الذي لم ير الناس فيه أبدًا ثعابين، يقولون لهم عندكم ثعابين في البيت، فيقرءون التعازيم الخاصة بهم فترى الثعابين تخرج - والناس تحيا في سلام وأمان - كرامة للشيخ سيدنا الرفاعي، والعياذ بالله، وربما لا يصلون، وربما لا يغتسلون من الجنابة ولا يتنظفون، وأهل بدع وضلال، ونشأ يزمِّر بالمزامير المحرمة ويترك الصلاة الواجبة ويفطر في رمضان، ويقول: «كرامة لسيدنا الرفاعي»، يقولون: «نحن سيئون، ولكن سيدنا

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٧٠١، ٤٨٠٠، ٧٤٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ الْمَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خَضَعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾، **فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ -وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَّفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ- فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؛ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ**»، وما رواه أحمد (٣/ ٣٧٢)، في المسند من طريق معمر: قَالَ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ أَخْبَرَنَا الزُّهْرِيُّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ - قَالَ عبد الرَّزَّاقِ مِنَ الأَنْصَارِ - فَرُمِيَ بِنَجْمٍ عَظِيمٍ فَاسْتَنَارَ قَالَ: مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ إِذَا كَانَ مِثْلُ هَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ. قَالَ: كُنَّا نَقُولُ يُولَدُ عَظِيمٌ أَوْ يَمُوتُ عَظِيمٌ. قُلْتُ لِلزُّهْرِيِّ: أَكَانَ يُرْمَى بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ. وَلَكِنْ غُلِّظَتْ حِينَ بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ**». وما أخرجه البخاري (٧٧٣، ٤٩٢١)، ومسلم (٢٢٢٩).

الرفاعي صالح، فهذه كرامة له.

وهل هذا من كرامات الأولياء؟ أن يكون الانتساب المجرد لهم، مع ترك أعظم فروض الشرع علامة على كرامة هذا الولي؟!

وفي الحقيقة هم أصلاً مع الجن، يتبعون الجن، يعني بالتعاون مع الجن، الجن يتشكل في صورة الثعابين ويذهبون إلى المكان الذي يقول فيه التعازيم، فيخرجون له، ويأخذ الثعبان معه ويضعه معه، ويقول: خلاص خلصتكم من الثعبان.

وهناك كثير جدًا من الناس يأتون بأتباع الطريقة الرفاعية، ومعروف تمامًا فسادهم وضلالهم ومنكراتهم وفعلهم الفواحش وشغلهم مع الثعابين، وهذا الأمر يقع في كثير من البيوت وكثير من القرى، ويدورون في البيوت من أجل مثل هذه المخاريق.

خوارق العادات التي تجري على أيدي السحرة والكهنة لا تكون كرامة، ولا تنسب إلى الأنبياء، كما أن اليهود فعلوا هذه الجاهلية حين قالوا: إن الخوارق التي جرت على يد سليمان عليه السلام كانت من السحر، وقال الله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾، يريدون أن يستدلوا بذلك على فعل السحر؛ ولذلك يتبعون هؤلاء السحرة، ويزعمون أن هذا إذا كان سليمان عليه السلام قد فعله، وسليمان عليه السلام باني الهيكل على زعمهم، وسليمان عليه السلام مجدد المسجد الأقصى، ويسمونه هم الهيكل، فإذا كان سليمان عليه السلام باني الهيكل قد فعل السحر، فلنفعله نحن أيضًا، والعياذ بالله من هذا الضلال، وهذا كله من حال أهل الجاهلية، لا يجوز أن نسوي

بين هؤلاء المجرمين السحرة والكهان وخوارق العادات التي تحدث على أيديهم وبين أولياء الله الصالحين، العبرة بماذا؟ باتباع الكتاب والسنة، تجد إنسانًا مخالفًا للكتاب والسنة، تاركًا للعبادة الواجبة، تجري على يديه خوارق العادات، نقول: هذا من علامات الضلال، والعياذ بالله، وكم من انتشار خطير جدًا في زماننا لأمور السحرة والكهانة، واليوم باسم أنهم شيوخ، تجد موضوع العفاريت واللبس والمس انتشر انتشارًا فظيعًا في الناس، وعامته من الدجل والضلال، ولكن كان في الماضي يسمونهم عرافين وكهانًا، والآن يسمونهم: الشيخ فلاني والشيخة فلانة، ويزعمون مثل هذه الخزعبلات والضلالات، ويعني: اعرف ذلك بمجرد أن تعرف الطريقة التي يزعمون بها معرفة هذه الأمور الغيبية النسبية، يقول له: فقط هات لي اسمها، ويقول لهم: أصل هي يحدث لها كذا وكذا.

حكى لي أحد الإخوة قصة: أن رجلاً عنده متاعب مع زوجته بطريقة معينة، فتعب عند الأطباء ونحو ذلك، فواحد قال له: فقط هات لي اسمها، ونحن سنتصل بشيخ من الشيوخ في سوهاج، فاتصل به، فقال له: زوجتك اسمها كذا - وهو طبعًا عارف اسمها - ويحصل لها كذا، وذكر له تفاصيل مع زوجته، فمن أين حديث ذلك؟ من الجن، أو من وسيط يخبره.

الشيخة نادية كانت في أبيس، كان أعوانها يأتون للناس ويعرفون الأخبار، ثم يدخلون لها قبل أن يدخل الناس، فتقول: ابنك يشتكي من كذا وكذا، فيمدحون في الشيخة نادية، وهي دجالة من الدجالات، والعياذ بالله، وذهبت تفسد في الأرض في أماكن أخرى، ثم تضمحل وتظهر غيرها ويظهر غيرها، نعوذ بالله من ذلك، تقول: هات أثر، هات منديل، هات

قطعة ثياب، تعرف بمجرد أن تصنع ذلك، بمجرد أن يقول: هو معمول له عمل في المكان الفلاني على ظهر القرموط لا في البحر الأحمر ولا في البحر الأبيض، ونحو هذا، ونسأل الله العفو والعافية.

من أين علمت هذا؟ يقول لك: هذا لبسه خمسة من الجن الأزرق، وسبعة من الجن الأحمر، من أين علمت هذا الكلام؟ هذا كله من الدجل جزمًا، بمجرد أن تسمع مثل هذه الأمور، فلابد أن تجزم أن هذا من الدجالين، من أين علمت؟ يقول لك: يقرءون القرآن، وهل القرآن يخبره أن هناك خمسة من الجن الأزرق أو سبعة من الجن الأحمر، وأن العمل معمول في المكان الفلاني؟! من أين عرفت هذا من القرآن؟!

تقرأ القرآن بنية الرقية، لكن تقرأ القرآن ثم تستخرج بعد أن تقرأ أن هذا الرجل ملبوس بقبيلة من الجن، أو هذا معمول له عمل، وفلان الفلاني الذي عمله له، والمرأة الفلانية هي التي عملت هذا العمل، عمتهم أو قريبتهم، ويفسدون العلاقات بين الناس، وكل منهم يسيء الظن بالآخر، فضلاً عن أنه يمكن أن يأتي - كما ذكرنا - بخوارق عادات من جنس ادعاء علم الغيب، وسلوكه ما هو؟ سلوكه تجده - والعياذ بالله - ليس من أهل السنة، لايلتزم القرآن، إنما يقرأه غطاء لكهانته ودجله، لكي يقال عنه: شيخ، والعياذ بالله؛ ولذلك نقول: هذا فعلاً من حال أهل الجاهلية؛ ولذلك يقول أهل العلم: إن نسبة كل الأمور إلى الجن إنما هو من حال أهل الجاهلية، كما ذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ في فوائد قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ملك مصر عندما قال: «اذهبوا بها - بسارة - بعد أن قبض، من كرامات سارة ومعجزة لنبي الله إبراهيم لما أراد أن يتناولها الملك الظالم أخذ، شلت يده ثلاث مرات، في

المرة الثالثة قال: **(إنّك لمْ تأْتِنِي بِإِنْسانٍ إِنّما أتيْتنِي بِشيْطانٍ فِي رِوايةِ الْأعْرجِ ما أرْسلْتُمْ إِليّ إِلّا شيْطانًا أرْجِعُوها إِلى إِبْراهِيم)**، وهي كانت إنسان، وإن كانت محفوظة بحفظ الله ﷻ، وحفظًا لعرض إبراهيم عليه السلام[1]، وكرامة لها رضي الله عنها من الله ﷻ، ومن الذي نسب أن هذا الأمر من فعل الشياطين والجن؟ الملك الظالم الجاهل الكافر، والعياذ بالله.

فنسبة كل شيء إلى الشياطين والجن، أن هذا الرجل رجله تؤلمه، فيقولوا: ملبوس، هذا عنده صداع، فيقولون: معمول له عمل، كل حاجة فيها سحر وصرع ولبس ومس، فهذا من حال أهل الجاهلية، فضلاً عن أن يلجئوا إلى هؤلاء لمعالجة هذه الأمور، وربما يذهبون إلى الكنائس لمعالجة السحر ومعالجة اللبس، ويأمرهم هؤلاء المجرمون بأنواع الشرك، يقولون له: خذ هذا الصليب وضعه على المخدة، علق هذا الصليب في البيت - والعياذ بالله - حتى يُزال هذا العمل وتأتي إلى الكنيسة مرة ثانية وهكذا، والعياذ بالله.

أمر مِن الشرك بالله يأمرونه بالكفر، فكيف يُسوّى؟

فيقولون: هو شفي لما ذهب إلى المكان الفلاني، وللأسف يوجد في المسلمين من يصدق مثل هذه الضلالات والخزعبلات والمنكرات، وكل هذا من مسائل أهل الجاهلية، وإذا نسبوا ذلك إلى الأنبياء كما يفعل اليهود والنصارى، ينسبون السحر الذي يفعلونه إلى الأنبياء، والأنبياء أبرياء من ذلك، لا يجوز لنا أن نقبل هذا، بل نفرق - كما ذكرنا - في المقام الأول

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ٣٩٣).

بماذا؟ باتباع الكتاب والسنة، فالفرقان الأعظم بين أولياء الرحمن وأولياء الشياطين، هو في قضية اتباع الكتاب والسنة، فمن كان متبعًا للكتاب والسنة ومعروفًا بحسن العبادة وحسن الخلق والعقيدة الصحيحة، فجرى على يديه خرق العادات، فهي من الكرامات؛ وأما إذا كان إنسانًا منحرفًا ضالاً تاركًا للواجبات فاعلاً للمحرمات مرتكبًا الفواحش، فهذه من مخاريق السحرة والكهان وخوارق العادات التي من جنس ما كان يدعيه سحرة فرعون قبل إسلامهم وإيمانهم، وكل هذا من أنواع الضلال، ومنه ما يكون كفرًا، نعوذ بالله من ذلك.

الْمسْألةُ الْحادِيةُ والْعِشْرُون: تعبُدُّهُمْ بِالْمُكَاءِ وَالتّصْدِيةِ.

الشرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ﵀: (**الْمسْألةُ الْحادِيةُ والْعِشْرُون**: (**تعبُدُّهُمْ بِالمُكاءِ والتّصْدِيةِ**)، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنفال: ٣٥]، المكاء والتصدية: التصفيق والصفير، فهم يتعبدون لله ﷻ، بما لم يشرعه، بالتصفيق والصفير، يصفقون حول البيت ويصفرون بأفواههم(١)، ويظنون أنهم يتقربون إلى الله بذلك تعظيمًا للبيت، وهذا من ضلالاتهم، فإن إفراد الله ﷻ بالعبادة هو الركن الأول من أركان هذا الدين، وهو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، ثم لابد أن يُعبد الله بما شرع، وهذا هو الركن الثاني، وهو مقتضى شهادة أن محمدًا رسول الله، الأول: ألا يعبد إلا الله، والثاني: ألا يعبد إلا بما شرع، لا يعبد بالبدع ولا بالمعاصي، ولا بالآراء والأهواء التي اخترعها الناس دون مستند من شرع الله ﷻ، لابد من الإخلاص والاتباع، لابد أن نمتثل ما أمر به النبي ﷺ، قال ﷺ: «**فعليْكُمْ بِسُنّتِي وسُنّةِ الخُلفاءِ الرّاشِدِين المهْدِيِّين، وإِيّاكُمْ ومُحْدثاتِ الأُمُورِ، فإِنّ كُل بِدْعةٍ ضلالةٌ**»(٢)، وقال ﷺ: «**منْ أحْدث فِي**

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١١/ ١٦٣)، وزاد المسير (٢/ ٢٠٨)، وابن كثير (٤/ ٥٢). وانظر: العين (٥/ ٤١٨)، وتهذيب اللغة (١٠/ ٢٢٢)، ولسان العرب (١٥/ ٢٨٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٤٢، ٤٣)، وأحمد (٤/ ١٢٦، ١٢٧)، والدارمي (٩٥)، وابن حبان (١/ ١٧٨، ١٧٩) من حديث العرباض بن سارية ﵁.

أمْرِنا هذا ما ليْس مِنْهُ فهُو ردٌّ»[١]، وفي لفظ: «**منْ عمِل عملا ليْس عليْهِ أمْرُنا فهُو ردٌّ**»[٢]، صار هذا الأمر عند أهل الكتاب وعند أهل البدع من المنتسبين لهذه الأمة، فأهل الكتاب عباداتهم ليس فيها الركوع ولا السجود، اليهود والنصارى تركوا الركوع والسجود، العجب أنهم يقرءون في كتبهم إلى يومنا هذا أن المسيح كان يعبد الله ﷻ، ويسجد، وأنه مكتوب: (**لِلرّبِّ إِلهِك تسْجُدُ وإِيّاهُ وحْدهُ تعْبُدُ**)[٣]، ومع ذلك ليس عندهم إلا الأناشيد، والمباخر والطقوس التي أخذوها عن أهل الشرك، والعياذ بالله، ليست مما جاء به الأنبياء، ومن نظر في عباداتهم وأعيادهم وعلم كيف يؤدون هذه العبادات، علم كيف تحول هؤلاء عن دين النبي الذي يزعمون اتباعه إلى ما اخترعوه بأهوائهم وآرائهم من غير مستند إلى شرع الله؛ وأما أهل البدع فهذا الأمر صار شعارًا لهم، فتجدهم في الموالد وفي الحضرات التي يعملونها تجدهم يتعبدون لله ﷻ بأنواع المكاء والتصدية، يصفقون ويصفرون وينشدون، ويرون أحيانًا أن الإنشاد أفضل من تلاوة القرآن، والعياذ بالله، وصنف مصنفون منهم في أن الإنشاد ربما يكون أقصر في تحقيق صفاء القلب من تلاوة القرآن، وهذا من الضلال، والعياذ بالله، فسموا هذا الذي يفعلونه سماع، وجعلوا هذا السماع أصلاً عندهم، وتجد

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ورواه البخاري معلقاً في كتاب البيوع - باب النجش (٤/ ٣٥٦ فتح)، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم (١٣/ ٣١٧فتح).

(٣) انظر: انجيل لوقا (٤).

كثيرًا ممن أخذ دينه عن هؤلاء المبتدعين إذا رأوا، أو إذا كانوا ذاهبين إلى بيت الله الحرام بدلاً من أن ينشغلوا بالتلبية أو بذكر الله ﷻ بالتكبير والتهليل والتحميد، تجدهم ينشدون ويصفقون ويصفرون، وربما استعملوا الأدوات الموسيقية، ونسأل الله العافية، وتجد عجبًا في رحلات هؤلاء، ربما استعملوا زغاريد النساء، وإذا رأوا البيت صاحوا ولم يلتزموا الأدب الذي شرعه الله ﷻ عند ذلك، وإنما يصفقون ويزغردون، وتجد هذا الأمر في الرجال والنساء جميعًا؛ وأما احتفالات الموالد فتجد فيها الآلات التي يستعملونها من الصاجات وغيرها، ويحسنون الرقص عليها، وهناك أنواع من الرقص عند الطرق الصوفية، متفاوت بين اليمين والشمال، وبين اللف والدوران، وبين تطويح الرأس فقط أو تطويح الجسم والرأس معًا، وكل طريقة لها طريقتها في الرقص والتمايل ونحو ذلك، نسأل الله العافية.

وهم يرون هذا الأمر ليس أمرًا مباحًا كما تجادل مثلاً مع من يتكلمون في أمر الغناء، ويريدون السماع المحرم في الغالب المتضمن للآلات والمتضمن لغناء النساء، ونحو هذا من هذه الأمور المحرمة، سوف تجادلهم حول أن هذا مباح أو أنه محرم حسب الأدلة التي قال النبي ﷺ في بيان تحريم هذه المعازف: «**ليكُونَنّ مِنْ أُمّتِي أقْوامٌ، يسْتحِلُّون الحِر والحرِير، والخمْر والمعازِف**»[(١)]، لن تجد أهل الفسوق والفجور، رغم استماعهم للمعازف وللغناء، ويصفقون معها ويصفرون، لا تجدهم يتقربون إلى الله ﷻ بهذه الأمور، وإنما يقولون لك: هذا شيء مباح، هذا شيء محرم، يحاولون الهروب من ما دلت عليه الأحاديث، يحاولون أن يعارضوها بآراء بعض أهل

(١) أخرجه البخاري (٥٥٩٠) من حديث أبي عَامِرٍ أَوْ أبي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيُّ ﵁.

العلم، ويحاولون أن يؤلوها بعض التأويلات بأنها إنما تحرم إذا اقترنت بالخمر أو اقترنت بالزنا؛ وأما إذا خلت عن ذلك فليست بمحرمة، وهذا ونحوه من الكلام الباطل الذي يحاولون استحلال هذه المعازف وهذا الإنشاد أو هذا الغناء المحرم؛ فأما هؤلاء الصوفية فهم يتعبدون لله - سبحانه - بهذه الحلقات والحضرات، ويحيون الليالي الختامية والليالي الافتتاحية وأنواع البدع والضلالات كلها، وهم يتقربون إلى الله بذلك، وهناك فرق للإنشاد والعزف كذلك، وتجدهم يقفون في الطرقات يصفقون ويصفرون، وينشدون مستعملين الآلات الموسيقية، وأنواع الرقص والدوران واللف، مما يعلم كل عاقل وليس فقط كل مسلم أن الرسول ﷺ لم يأت بذلك، وهناك من يظلون وجل تعبدهم أو كل عبادتهم وتعبدهم لله ﷻ بهذه الأمور، حتى يتساقطون ويحصل لهم السكر ويحصل لهم الهيمان والدهش، مع زيادة الرقص والصياح في الحلقة التي يسمونها الحضرة، نسأل الله العافية، وإنما تحضرها الشياطين لا الملائكة، ولا ترضي الرب سبحانه وتعالى، المسلم المتلزم بالكتاب والسنة يتعبد لله ﷻ بتلاوة القرآن وسماع آيات القرآن وسماع أحاديث الرسول ﷺ، وإن كان من شيء مباح من الشعر والحداء والغناء الذي لا يستعمل مع آلة في العرس والعيد، وإنما يكون بالدف أو بصوت الجواري الصغار أو الأطفال، أو تكون المرأة وسط النساء فتغني دون آلة، إلا الدف فهذا الذي يباح، وليس بعبادة ولا قربة إلا ما كان من تحفيز على معاني الجهاد وتسهيل للسير أثناء الجهاد من الحداء ونحو ذلك، فهذا يكون قربة بالنية، إذا قال الشعر الذي ينصر به الدين وقاله ليقدح به في المشركين وعقائدهم، فمثل هذا أمر نافع، ولكن ليس هذا هو الذي يفعله هؤلاء

المبتدعون؛ لذلك نقول: ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تعبدهم بالمكاء والتصدية؛ لأن هذا الأمر صار شعارًا لأهل البدع بعد أن فعله أهل الكتاب، صار شعارًا عند هؤلاء التصفيق والصفير والتعبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعزف الآلات وإنشاد الأغاني والزعم بأن هذا قربة، والزعم الأفظع بأن هذا أكثر تقريبًا للعبد من الله أكثر من القرآن، نعوذ بالله من ذلك.

الْمسْألةُ الثّانِيةُ وَالْعِشْرُونَ: إِنّهُمُ اتّخذُوا دِينهُمْ لهْوًا وَلعِبًا.

الـشــــرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (**الْمسْألةُ الثّانِيةُ والْعِشْرُون إِنّهُمُ اتّخذُوا دِينهُمْ لهْوًا ولعِبًا**)؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠]؛ ولذا قال في المسألة الثالثة والعشرين: (**إِنّ الحياة الدُّنْيا غرّتْهُمْ**)، اتخاذ الدين لهوًا ولعبًا، ليس هناك مقاصد معلومة لهم، الدين عندهم إنما هو مناسبات، إنما هو موالد متكررة، أهل الكتاب عندهم ذلك، أهل الكتاب لا يعرفون من دينهم في زماننا إلا أنهم في الأعياد يذهبون لحضور هذه المناسبات؛ ليفرح الأطفال بالشموع وبالآلات وبإطفاء الأنوار وأكل أنواع معينة من الأطعمة، وهذا عيدهم عن قريب يشهد بهذا الأمر، ليس إلا أنواعًا من هذه الملاهي، نسأل الله العافية، عامتهم في أوروبا وأمريكا وغيرها لا يذهبون إلى الكنائس لصلاة ولا إلى غيرها، ليس إلا للهو واللعب ولممارسة هذه الطقوس التي يعني يعدونها طقوسًا ظريفة؛ مباخر، ومواكب، وشموع، ونحو هذا مما هو شيء ذو حداثة أو شيء ذو تجديد في الحياة، يجدد لهم الحياة الروتينية يغيرها بشيء ما، ويزدادون في اللهو واللعب خلال هذه المناسبات، فأصبح الصوفية تجدهم متشبهين بمن سبقهم حذو القذة بالقذة، إنما يدورون طول العام على الموالد التي معلوم ما فيها من أنواع اللهو واللعب، تجد مولد أبي العباس، يليه مولد سيدي جابر، يليه مولد سيدي بشر، يليه مولد كذا، هذا في إسكندرية وحدها، وهناك جدول مقرر؛، فأما في الصعيد فحدث

ولا حرج، لا تخلو بلد من مولد، نسأل الله العافية؛ وأما ما يصنع في هذه الموالد فكما ذكر الشيخ، اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا، ماذا يصنعون في الموالد؟ أنواع الملاهي المحرمة، أنواع المخدرات والخمر، أنواع الاختلاط والفواحش، حتى صار فضيحة في العالم أن أناسًا يجعلون دينهم هو حضور هذه الموالد، الدين عندهم هو مشاهدة هذه الموالد، وأن من تخلف سيعاقبه المقبور إذا لم يشهد مولده هذا العام، ويذكر الشعراني ما جرى له حين تخلف عن مولد السيد البدوي، وأنه عوقب معاقبة شديدة، فما ترك بعد ذلك حضور المولد ولا عامًا واحدًا، وظل مواظبًا على حضور المولد[(١)].

كميات هائلة من أكل الحمص ولعب القمار والخيمات التي فيها الرقص والفواحش والفجور، لهو ولعب ويسمى هذا الدين، ويقال إن هذا هو الذي يتقربون به إلى الله ﷻ، والرافضة عندهم من ذلك القدر الكبير، بل هم مصدر هذه الخزعبلات في الحقيقة، ويعني موالد أئمتهم وذكرياتهم فيها كل هذا اللهو واللعب والفواحش والفجور، نسأل الله العافية، فهذه من سيما أهل الجاهلية من تقليد أهل الجاهلية من أهل الكتاب ومن الأميين الذين كانوا على الشرك، والعياذ بالله، ليس عندهم من الدين إلا مناسبات والتي يستغلونها للهو اللعب، وليس عندهم من العبادات ما تزكو به النفوس ولا تصلح به الأعمال والسلوك، وليس عندهم إلا أنواع الفواحش والمنكرات التي يزعمون أنهم يفعلون هذه الأمور تعظيمًا للولي فيغفر الله لهم بحبهم للأولياء، وإذا عاتبهم أحد قالوا: أنت لا تحب الأولياء، إذا

(١) انظر: طبقات الأولياء للشعراني (ص٢٦٩).

كلِّموا في ذلك قالوا: أنت لا تحب أهل بيت النبي ﷺ، لا تحب الأئمة، لا تحب النبي ﷺ، وهذا من الكذب، فإن من أحب النبي ﷺ لابد أن يتبعه ويتبع سنته، ولا شك أن من ترك البدع واتبع السنة هو أولى بحب النبي ﷺ ممن زعم بالباطل والزور والبهتان حبه للنبي ﷺ وهو يخالفه ويعصيه، ومثل هذه الموالد يكثر فيها من أنواع المحرمات مع الشركيات، وإن كان كثير من الناس لا يذهب إلى هناك إلا للهو واللعب.

أتذكر منذ نحو ثلاثين سنة أو قريبًا من هذا، كنا نذهب إلى بعض الموالد لننصح الناس ونحن متحمسون جدًا لتحذير الناس من الشرك، فذهبنا مرة إلى مولد يسمى بـ «مولد سيدي بشر»، ونظن أننا سوف نجابه من يجادلوننا في قضايا التوحيد وينازعوننا في قضايا الشرك ومستحضرين الأدلة، وإذا بمن حولنا كلهم ليس إلا اللهو واللعب؛ لذلك أنا أتذكر هذا اليوم، كنا نذهب إلى هناك خارج المولد ونكلم الناس، فتكلم أحد المشايخ الأفاضل عن قضايا التوحيد والتحذير من عبادة القبور ونحو ذلك، ونظرت في وجوه الحاضرين، فلم أجد أحدًا يذهب أصلاً إلى المسجد ابتداءً، لا يصلون الصلوات الخمس ولا يتقربون حتى إلى صاحب القبر، ولا دخل لهم، هم يأتون بالطراطير، ويلعبون القمار، ويختلط الذكور بالإناث أو الصبيان بالبنات.

فلذلك عندما جاء دوري في الكلمة آثرت أن أتكلم عن قضية اتباع الشهوات؛ لأنه فعلاً ليس عند الناس من فهم أصلاً، ولا حتى شبهات عبادة القبور، لا دخل لهم بالمسألة، وإنما أتوا للهو واللعب، الذين أسسوا لهم ذلك هم الصوفية بالفعل، ولكن أتى الناس للهو واللعب.

مولد البدوي يحضره نصف مليون، وكانوا في الماضي يقولون أكثر من ذلك، كانوا يقولون خمسة ملايين ونحو ذلك، كما في (ذكْر الأربعين) التي للحسين التي ابتدعها الشيعة، يقولون: كان يحضرها عشرة ملايين، كربلاء أصلاً لا تتسع لعشرات الألوف مثلاً، كربلاء مدينة صغيرة، ويزعمون أن عشرة ملايين احتفلوا، كان مِن الوهم، فالإخوة حدثوني أن مولد الدسوقي الذي كان يحضره منذ سنوات ليست بالكثيرة نحو قريبًا من المليون إنسان أنهم الآن لا يتجاوزون المئات، ونسأل الله العافية، والحمد لله على بعد الناس عن هذا الأمر، لكن أقصد أن هذه الأماكن أسست أصلاً لجذب الناس على فسادهم وعلى تركهم للواجبات التي فرض الله عليهم، يأتون ليأكلوا الحلوى والحمص، ويلعبون القمار، ويجلسون في الخيمات مع أخواتهم، يعني: أخته في الطريقة، ونسأل الله العافية، وإنما يأتون بهؤلاء ليجتمع الآلاف، ويُقال: كل هؤلاء أتباع الطرق الصوفية، وكل هؤلاء هم السواد الأعظم الذين يسيرون على طريقنا، وكل هذا من الدجل والكذب والزور، ولا دخل لهم بهم وإنما هم أهل لهو ولعب، اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا، نعوذ بالله من ذلك.

الواجب على المسلم أن يتعلم دينه، وأن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويعلم أن الله ﷻ لم يتعبدنا باللهو واللعب، وإنما أباح لمن يحتاج اللعب في أوقات، كما في يوم العيد قال النبي ﷺ: «**لتعْلمُ يهُودُ أنّ فِي دِينِنا فُسْحةً، إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحنِيفِيّةٍ سمْحةٍ**»[1]، ولما أرادت عائشة رضي الله عنها أن

(١) أخرجه أحمد (٤٣/ ١١٥).

تنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في يوم العيد بالحراب في المسجد أذن لها النبي ﷺ حتى انصرفت(١)، وهكذا كان يأذن ﷺ للأطفال باللعب، وكل من يحتاج إلى ذلك يستعمله بالقدر الذي فيه الضوابط الشرعية ولا يزاد حتى يجعل الدين كله كذلك، وإنما هذا كما ذكرنا أمر مباح، إنما يستعمله من يحتاج إليه من الصغار ونحوهم في أوقات معينة، وليست الحياة كلها لهوًا ولعبًا، والناس اليوم قد جعلوا حياتهم كلها لهوًا ولعبًا بالليل وبالنهار، ليس إلا اللهو واللعب من خلال وسائل الإعلام المعاصرة، أصبح اللهو واللعب هو الغاية التي يجتمع عليها الناس، ويوالون ويعادون على اللهو واللعب، نسأل الله أن يعافي المسلمين من كل بلاء.

وأما تكملة الآية التي ذكر الله ﷻ: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠] فهو أخذ منها المسألة الثالثة والعشرين، وهي الآتية.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٨٩٢) من حديث عائشة ﵂: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَسْتُرُنِي بِرِدَائِهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى الْحَبَشَةِ، وَهُمْ يَلْعَبُونَ وَأَنَا جَارِيَةٌ، فَاقْدِرُوا قَدْرَ الْجَارِيَةِ الْعَرِبَةِ الْحَدِيثَةِ السِّنِّ»، وعند أحمد (٤٠/ ٣٣٨) «أَنَّ الْحَبَشَةَ كَانُوا يَلْعَبُونَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي يَوْمِ عِيدٍ، قَالَتْ: فَاطَّلَعْتُ مِنْ فَوْقِ عَاتِقِهِ، فَطَأْطَأَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْكِبَيْهِ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِ عَاتِقِهِ حَتَّى شَبِعْتُ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ».

الْمسْألةُ الثّالِثةُ والْعِشْرُونَ: إِنَّ الْحياةَ الدُّنْيا غرّتْهُمْ، فظنُّوا أنّ عَطاء اللَّهِ مِنْها يدُلُّ عَلى رِضَاهُ، كَقوْلِهِمْ: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

الشرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (**الْمسْألةُ الثّالِثةُ والْعِشْرُون إِنّ الْحياة الدُّنْيا غرّتْهُمْ، فظنُّوا أنّ عطاء اللهِ مِنْها يدُلُّ على رِضاهُ، كقوْلِهِمْ**: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥])، كما قال صاحب الجنة: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]، وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٥]، طالما أعطيت في الدنيا فالله يحبني، الله أكرمني ولذلك سوف أُعطى في الآخرة، ويقول عَزَّ وَجَلَّ عن هؤلاء الكفار من قولهم - عن الإنسان الكافر -: ﴿هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، فهذا من جهلهم وضلالهم، فالدنيا يعطيها الله عَزَّ وَجَلَّ من أحب ومن كره، ولكنه لا يعطي الدين إلا من أحب[1]، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه؛ أما الدنيا فالله عَزَّ وَجَلَّ يمتعهم قليلاً، ثم يضطرهم إلى عذاب الناس وبئس المصير، ولو

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (٦/ ١٨٩)، والطيالسي (١/ ٢٣٧)، والبزار (٥/ ٣٤٧، ٣٩٥)، الطبراني في الأوسط (٧/ ٣٩٥)، والكبير (٩/ ٢٠٣، ١٠/ ٢٢٧)، وابن أبي شيبة (٦/ ٩١، ٧/ ١٠٥، ١١٠)، والحاكم (١/ ٨٨، ٢/ ٤٨٥، ٤/ ١٨٢)، والمروزي (٢/ ٥٩١)، والبيهقي في الشعب (٢/ ١١٩، ٧/ ٣٦٦)، وفي القضاء =

كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافرًا منها شربة ماء[(١)]، هو ﷻ يبعد الدنيا عن أوليائه، قدر على أنبيائه أن يجوعوا وأن لا يجدوا مأوى وأن يطردوا من بلادهم وأن يؤذوا في سبيل الله ﷻ، وينام النبي ﷺ على حصير يؤثر في جنبه، وليس في غرفته ﷺ إلا قربة معلقة وجفنة، وشيء من شعير على رف له، ليس في غرفته غير ذلك، حتى يبكي عمر رضي الله عنه[(٢)]،

= والقدر (ص ٢٦٤، ٢٦٥)، والزهد لأبي داود (ص ١٤٩)، والزهد لابن أبي عاصم (ص ١٠٦)، والبخاري في الأدب المفرد (١/ ١٠٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ، فَقَدْ أَحَبَّهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يَسْلَمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ، وَلَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ، قَالُوا: وَمَا بَوَائِقُهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟ قَالَ: غَشْمُهُ وَظُلْمُهُ، وَلَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا مِنْ حَرَامٍ، فَيُنْفِقَ مِنْهُ فَيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلَ مِنْهُ، وَلَا يَتْرُكُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ، إِنَّ الْخَبِيثَ لَا يَمْحُو الْخَبِيثَ».

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠)، والطبراني في الكبير (٦/ ١٥٧، ١٧٨)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤١) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٨٤٣)، ومسلم (١٤٧٩) واللفظ له من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «. . . فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ، فَجَلَسْتُ، فَأَدْنَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ، وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ، وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ، قَالَ: فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ، قَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ. قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى، وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، =

موسى ﷺ يبقى ليالي طويلاً مسافرًا في سيناء ليس له من الطعام إلا ورق الشجر، ويصل إلى مدين بلا مأوى ولا طعام وبلا شراب، يستظل في ظل شجرة يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، أنبياء الله ﷻ جعلهم الله أسوة للعباد في أنهم زهدوا في الدنيا ولم يعطهم الله ﷻ من الدنيا ما يعطي الملأ والأغنياء، وإن كان هناك منهم من أعطاه الله الدنيا وملكه فيها، لكن جعل المنزلة الأعلى لمن لم يكن عنده من الملك.

لما جاء جبريل عليه السلام للنبي ﷺ وأخبره أن ربه يخيره بين أن يكون عبدًا رسولاً أو ملكًا نبيًا، فاستشار جبريل عليه السلام فأشار أن تواضع، فاختار أن يكون عبدًا رسولاً ﷺ؛(١) ولذا كان ﷺ يأكل كما يأكل العبد، ويلبس كما يلبس العبد(٢)، لا كما يلبس الملوك، هل تجد ملكًا من الملوك يخسف

= وَصَفْوَتُهُ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ، فَقَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟، قُلْتُ: بَلَى».

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٥٠، ٨/ ١١٤)، وفي الكبرى (٧/ ٧٨)، وعبد الرزاق (٣/ ١٨٣)، والبغوي في شرح السنة (١٣/ ٢٤٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَ إِلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَمَعَهُ جِبْرِيلُ ﷺ، فَقَالَ الْمَلَكُ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُخَيِّرُكَ بَيْنَ أَنْ تَكُونَ عَبْدًا نَبِيًّا، وَبَيْنَ أَنْ تَكُونَ مَلِكًا، فَالْتَفَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى جِبْرِيلَ كَالْمُسْتَشِيرِ، فَأَشَارَ جَبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِيَدِهِ أَنْ تَوَاضَعْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بَلْ أَكُونُ عَبْدًا نَبِيًّا». وانظر: شرح مشكل الآثار (٥/ ٣٣٨).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البزار (١٢/ ١٥٤، ١٧/ ٣٣)، والبيهقي في الشعب (٨/ ١١٦)، وفي الكبرى (٧/ ١٦١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٧٨)، والطبراني في الكبير (٨/ ٢٠٠)، والموصلي (٨/ ١١٨)، البغوي في شرح السنة (١١/ ٢٨٦، ٢٨٧، ١٣/ ٢٤٨)، ولفظه: «آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ».

نعله، إذا قطع حذاءه يرقعه برقعة ويصلحه، بل أصبح فقراء الناس اليوم وأواسطهم لايقبلون أبدًا أن يصلحوا نعالهم، يعني: إذا فسد النعل رُمي، ونسأل الله العافية، هذه المهن أوشكت على الانقراض، نسأل الله العافية ترقيع الثوب كان النبي ﷺ يرقع ثوبه، ويخسف نعله، ويعتقل الشاة، يعني: يحلبها لأهله ﷺ، فهو ﷺ لم يكن يحيا حياة الملوك، وكذا كان خلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم، كان الملك في الأمة نقصًا؛ كما قال النبي ﷺ: «**الْخِلافةُ بعْدِي ثلاثُون سنةً، ثُمّ تكُونُ مُلْكًا**»(١).

إذًا، الملك في هذه الأمة نقص بالنسبة إلى الخلافة، ليس كمالاً؛ ولذلك كان التواضع والزهد في الدنيا سيما الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، هل علمنا ملكًا ينام في المسجد، عندما يوجد البعض يخطب خطبة في المسجد الناس يتعجبون، لو أن أحدًا وزيرًا أو رئيسًا للوزراء يخطب في قومه خطبة الجمعة أمر عجيب، والناس فرحون جدًا بأنهم يصلون معهم ويخطبون بهم ويصلون بهم بعض الصلوات، وجعلوا هذا أمرًا لم يشهد منذ سنين، فعلاً هذا أمر منذ سنين، منذ قرون وأهل الملك والسلطان بعيدون عن ذلك، لكن هل يمكن أن ينام رئيس الدولة في المسجد؟!

عمر رضي الله عنه عندما أتوا بالهرمزان ملك من ملوك الفرس وقائد من قوادهم، وقد أسره المسلمون وأبوا أن يفعلوا به شيئًا حتى يأتوا به إلى عمر، كما ذكر أصحاب التاريخ: (**وأرْسل أبُو سبْرة وفْدًا إِلى عُمر بْنِ الْخطّابِ، فِيهِمْ أنسُ**

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠/ ٣٥٥، ٣٤/ ٩٦)، وابن حبان (١٥/ ٣٩٢)، وابن الجعد (١/ ٤٧٩)، والبغوي في شرح السنة (٣٨٦٥)، والحاكم (٣/ ٧٥)، والآجري في الشريعة (٤/ ١٧٠٦). وانظر: مشكل الآثار (٤/ ٣١٣).

بْنُ مالِكٍ والْأحْنفُ بْنُ قيْسٍ ومعهُمُ الْهُرْمُزانُ، فقدِمُوا بِهِ الْمدِينة وألْبسُوهُ كِسْوتهُ مِن الدِّيباجِ الّذِي فِيهِ الذّهبُ وتاجهُ، وكان مُكلّلًا بِالْياقُوتِ، وحِلْيتهُ لِيراهُ عُمرُ والْمُسْلِمُون، فطلبُوا عُمر فلمْ يجِدُوهُ، فسألُوا عنْهُ فقِيل: جلس فِي الْمسْجِدِ لِوفْدٍ مِن الْكُوفةِ، فوجدُوهُ فِي الْمسْجِدِ مُتوسِّدًا بُرْنُسهُ، وكان قدْ لبِسهُ لِلْوفْدِ، فلمّا قامُوا عنْهُ توسّدهُ ونام، فجلسُوا دُونهُ وهُو نائِمٌ والدُّرّةُ فِي يدِهِ، فقال الْهُرْمُزانُ: أيْن عُمرُ؟ قالُوا: هُو ذا. فقال: أيْن حرسُهُ وحُجّابُهُ؟ قالُوا: ليْس لهُ حارِسٌ ولا حاجِبٌ ولا كاتِبٌ. قال: فينْبغِي أنْ يكُون نبِيًّا. قالُوا: بلْ يعْملُ بِعملِ الْأنْبِياءِ)[1].

سبحان الله! عمر رضي الله عنه سمع الجلبة فاستيقظ، فلما رأى الهرمزان وعليه هذه الحلل والذهب والفضة، قال: أعوذ بالله، أعوذ بالله. جعل يستعيذ بالله حتى أمر أن يغير وينزع هذه الثياب، ولا يكلمه حتى ينزع هذه الثياب، فسبحان الله! كيف كان حال الصحابة رضي الله عنهم، وحال الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم؟ اتباعًا للنبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك علموا أن الدنيا لا تساوي شيئًا عند الله، فلم يستكثروا منها وكان همهم ومبلغ علمهم في الآخرة؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الدعاء: «**ولا تجْعلِ الدُّنْيا أكْبر همِّنا، ولا مبْلغ عِلْمِنا**»[2]، وهذا الأمر من أعظم الأمور أهمية أن نعلم أن الدنيا ليست بميزان لرضا الله سبحانه وتعالى وسخطه، فمن أعطاه الله الدنيا ربما يستدرجه سبحانه وتعالى؛ ولذلك ينظر فيمن أنعم الله عليه

---

(١) انظر: الكامل في التاريخ (٢/ ٣٦٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٠٢)، والنسائي في الكبرى (١٠١٦١)، والطبراني في الصغير (٨٦٦)، وفي الدعاء (ص ٥٣٥)، والحاكم (١/ ٧٠٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص ٣٩٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

بالنعمة الدنيوية، ماذا يعمل فيها؟ فإذا وجدته على المعاصي مستمرًا، وجدته على الكفر والفسوق والعصيان، فاعلم أن الله يستدرجه، قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦]، فغرتهم الحياة الدنيا حين اتسع ملكهم فيها وسلطانهم، وهذا الأمر في الحقيقة ما زال يمثل فكرًا جاهليًا مستمرًا إلى يومنا هذا، إذا الناس يزنون الأمور بميزان ما عليه الكبراء، بميزان ما عليه الأغنياء، من كانت عنده الدنيا فالله يحبه، لو كان الله يحبكم لأعطاكم، طالما أنكم فقراء، طالما أنكم ضعفاء، طالما أنكم ليس عندكم ملك وسلطان، فأنتم لا ترضون الله، لو كنتم مرضيين عند الله لملككم الله ﷻ الدنيا، هذا من أعظم الموانع التي يمتنع بسببها الكفار عن الدخول في الإسلام أن المسلمين يسمونهم متخلفين، يقولون: إنهم ليس عندهم من الحضارة ما عندنا، وبذلك يقولون: لو كان هذا الدين حقًا لكانوا عندهم من المال والسلطان والجاه والقوة المادية ما يغلبوننا؛ ولذلك جعل الله ﷻ هذا فتنة لهم؛ كما ذكر العلماء في تفسير قوله ﷻ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الممتحنة: ٥]، أنهم إذا هزمونا وانتصروا علينا كان ذلك فتنة لهم، أنهم يظنون أنفسهم على الحق، وأن المسلمين على الباطل؛ لأنهم غلبوهم، وهذه فتنة بالفعل، عامة الأمم ترفض الدخول في الإسلام بزعم أن المسلمين متخلفون كما ذكرنا، غرتهم الحياة الدنيا، ظنوا أن عطاء الله منها يدل على رضاه، كقولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، قال ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ

لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣١ - ٣٥].

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي: على الكفر، فالله ﷻ بيّن أن لولا أن يكون الناس جميعًا على الكفر، لجعل لكل من يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفًا من فضة ومعارج عليها يظهرون، بمجرد أن يكفر يأخذ فورًا، لو فعل ذلك لكفر الناس، لكنه جعل الدنيا مقسمة: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢٠ - ٢١].

تجد في المسلمين الغني والفقير، وتجد في الكفار الغني والفقير، تجد هذه الدنيا مقسمة؛ حتى لا يكفر الناس، فمن ظن أن العطاء الدنيوي علامة على الرضا، فهو جاهل، قال الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧]، فليس هذا هو ميزان الإكرام والإهانة، الله ﷻ يبعد المؤمنين عن الدنيا ويزويها عنهم، كما يمنع الراعي الشفيق إبله مواطن العطب؛ لأنها لو رعت في أماكن مراعي الهلكة، مرضت وماتت، والله ﷻ يمنع أولياءه الهلاك حين يمنعهم من الدنيا، نسأل الله ﷻ أن لا يجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا.

الْمسْألةُ الرّابِعةُ والْعِشْرُون: تَرْكُ الدُّخُولِ فِي الْحقِّ إِذَا سَبَقَهُمْ إِلَيْهِ الضُّعفاءُ؛ تكبُّرًا وأنفةً، فأنْزلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ . . . [الأنعام: ٥٢].

الشـــرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (**الْمسْألةُ الرّابِعةُ والْعِشْرُون: ترْكُ الدُّخُولِ فِي الْحقِّ إذا سبقهُمْ إِلَيْهِ الضُّعفاءُ؛ تكبُّرًا وأنفةً، فأنْزل اللهُ تعالى**: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ . . . [الأنعام: ٥٢] وقال ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

فمِن أقدم شبهات أهل الباطل في الكفر والشرك وزن الحق أو وزن الأمور بما عليه كبراء الناس أو ضعفاؤهم، يرون أن الحق هو ما كان عليه الأغنياء والأقوياء وأهل الملك والسلطان، وأن الباطل هو ما كان عليه الضعفاء والفقراء والخاملون، الخاملون ليس بمعنى الخمول المعروف عندنا، ولكن بمعنى من ليس له شهرة في الناس، الذي لا يعرف في الناس، أو بأنواع المهن؛ كما قال قوم نوح لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء: ١١١]، وقال ﷻ عنهم أيضًا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]، ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ يعني: دون أن يمحصوا الأمر، بل بمجرد أن ظهر

لهم استجابوا، والحق أن الفطرة الإنسانية قد جعلها الله ﷻ تميل إلى الحق وتقبله أول ما تسمعه، فكان هؤلاء الضعفاء ومن ليس لهم مال ولا سلطان ولا جاه أقرب إلى هذه الفطرة، والملك والجاه والشهرة والمال وكثرة الأولاد والأهل وعظيم النفوذ والسلطان كثيرًا في الأغلب ما يغير فطرة الإنسان، ما يبعده عن فطرته الأولى، ويظن بذلك أنه أولى بالحق؛ كما قال صاحب الجنتين: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، وكما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]، يظن أن ما أعطاه الله ﷻ من الدنيا علامة على رضاه، فيعرف الحق بذلك، وهو في الحقيقة من أعظم ما غر به، وذلك أنه وقع في قلبه بسبب ماله أو ملكه أو كثرة أتباعه أو وجاهته في المجتمع، وقع في قلبه ما وقع في قلب إبليس من الكبر؛ ولذلك يأنف أن يكون مع عامة الناس، ويأنف أن يكون مع الضعفاء، وعامة المكذبين للرسل من الملأ، من الكبراء، إنما كذبوهم من أجل حسدهم لهم، ومن أجل وقوع الكبر في قلوبهم، من أنهم هم أولى بأن يختصهم الله بالرسالة، وأولى بأن ينزل عليهم الوحي؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فهنا تلمح وتلحظ أن سبب كفرهم أنهم يحدثون أنفسهم بأنهم أولى بالرسالة، وأن الوحي كان ينبغي أن ينزل عليهم، وقالوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف: ٣١]، قال ﷻ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢﴾ [الزخرف: ٣٢].

هذه الأمراض الاجتماعية والقلبية أمراض تتناقلها الأمم والشعوب، وتوجد في كل زمان، أنهم يظنون أن أهل الحق هم أهل القوة والغنى والملك، وأن الحق تابع للقوة والسلطان، هكذا كان فرعون يرى نفسه أولى من موسى ﷺ، والمنازعة في داخله في المقارنة: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف: ٥١ - ٥٣].

انظر: القضية عنده أنه لي عنده أساور من ذهب، لم يلق عليه أساور من ذهب، ﴿مَهِينٌ﴾: لأنه ليس عنده مال ولا سلطان، ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾: يحاول أن ينتقص من موسى ﷺ، تشعر بالغل الذي في قلب فرعون تجاه موسى، وأنه يقارن نفسه بموسى ﷺ، وأنّى له أن يفلح في هذه المقارنة؟!

وكذا كان أبو جهل رأس الكفر - والعياذ بالله - يقول: **(تنازعْنا نحْنُ وبنُو عبْدِ منافٍ الشّرف، أطْعمُوا فأطْعمْنا، وحملُوا فحملْنا، وأعْطوْا فأعْطيْنا، حتّى إذا تجاثيْنا على الرُّكبِ وكُنّا كفرسيْ رِهانٍ، قالُوا: مِنّا نبِيٌّ يأْتِيهِ الْوحْيُ مِن السّماءِ، فمتى نُدْرِكُ هذِهِ، واللّهِ لا نسْمعُ بِهِ أبدًا ولا نُصدِّقُهُ)**[1].

انظر: إلى هذه القضية أن أصل المسألة هو الكبر، والعياذ بالله، الأنفة من أن يسبقه غيره؛ ولذلك إذا كان هذا الغير ضعيفًا أو فقيرًا، فلابد أن يكون على الباطل، وهذا والله موجود في عامة المجتمعات المنحرفة الجاهلية،

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣١٦)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٠٦، ٣/ ١٠٤)، والروض الأنف (٣/ ١١٠)، السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير) (١/ ٥٠٦).

التي تتبع الجهل الذي كان عليه أسلافهم، عامة الناس إنما يسيرون خلف الكبراء والسادة وخلف الأغنياء والقادة، يرون أن الحق معهم على الدوام، يعرفون الحق بالقوة، يعرفون الحق بالسلطان، وهذا من أعظم ما يضلهم؛ لأنه ليس الحق تابعًا للقوة، وليس الحق تابعًا بالغنى، إذا استدللت على الحق أن هذا حق؛ لأنه عند من تبعه الملك والسلطان والغنى، واستدللت بأن ما كان عليه الضعفاء فهو الباطل، فهذا المفتون المخدوع الضال، هذا الذي يسير عليه كثير من الناس في حياتهم، لابد إذًا أن نحظر على أنفسنا من هذه المسألة، وإنما يعرف الحق بالبرهان والدليل، بما أنزل الله ﷻ من الأدلة العقلية والنقلية، من الوحي المعصوم، كثير من الناس يناظرك في مسائل الدين، بأن فلانًا يقول كذا، وفلانًا يقول كذا من أهل الشهرة ومن أهل الجاه والمنزلة، أو من أهل المال، يقول: أأنت على الحق، وفلان الفلاني على الباطل؟! لا ينظر في دليل، لاينظر في آية أو حديث على طريقة أهل الجاهلية، وإن كان يصدق القرآن جملة، لكنه لا يريد النظر في الأدلة، وإنما يقيس الأمر بأن الناس يسيرون على ذلك، من الناس؟ الكبراء، الأغنياء، وأنكم أتباع الحق ضعفاء مغلوبون، وما أكثر ما يستدل أهل الباطل على إبطال الحق كما يريدون بأنه لو كان حقًا لانتصرتم، لو كان حقًا لغلبتم، ولكنكم مغلوبون، ولكنكم لا تملكون حتى أن تدفعوا عن أنفسكم، ومن هنا كان الاستدلال على بطلان الحق بأن أتباعه هم الضعفاء هو مِن فعل أهل الجاهلية الذي لابد لنا أن نحذر منه وأن لا نتبع أهل الجاهلية على ذلك، بل نتعلم أن الحق بالدليل ليس لشهرة أتباعه، ليس بكثرة أتباعه، لا نتبع ما كان

عليه الكثرة ولا ما عليه الملأ، ولا نتبع ما عليه السادة والكبراء، بل ننظر، لسنا أيضًا بالذي يرفض كل ما كان عليه الأغنياء مثلاً أو السادة والقادة، وإنما لابد من النظر في الشيء: هل هذا مما جاء به الرسول؟ هل هذا مما يوافق الرسول ﷺ فيكون حقًا؟ فنعرف الحق بأدلته ونعرف أهله بعد ذلك، نبحث عن الحق بما أنزل الله ﷻ، بالبحث فيما أنزله الله ﷻ، وإذا عرفناه بحثنا عمن يقول به وعمن يسير عليه، ولزمناه ضعفاء كانوا أو أقوياء، أغنياء كانوا أو فقراء، وإلا فأكثر الناس - والخطر عظيم والله - إنما يسيرون في ركب القوة، ولو نظرت في العالم لرأيت أن المبادئ التي ينشرها الغرب إنما يقبلها أكثر الناس وأكثر الشعوب لأجل القوة؛ لأجل أن الغرب ظاهر منتصر، أن الأمريكان واليهود عندهم من الملك والسلطان والمال ما يفرضون به هذا الحق، حتى يصير ما يجزم الناس بأنه منكر وباطل هو أحق الحق، والعياذ بالله، وتبذل من أجل نصرته النفوس والأموال والأوقات، والحقيقة أنهم يبذلون ذلك من أجل أنهم أتباع وأذناب لمن كان ذا مال وسلطان وجاه، فترك الدخول في الحق إذا سبق إليه الضعفاء تكبرًا وأنفة هو من سبيل أهل الجاهلية، قال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء الفقراء الضعفاء، أمثال: بلال، وصهيب، ونحوهما من الموالي ﷺ، ونحن نجلس معك، فيذكر أن النبي ﷺ خطرت له خاطرة من أجل مصلحة الدين؛ كما وقع في قصة الأعمى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾، حرصًا على دخول هؤلاء المشركين في الدين، ومراعاة لوضعهم الاجتماعي، أنهم ما تعودوا أن يجلسوا بجوار الفقراء، حدثته نفسه فأنزل الله ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ

زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ﴾ [الأنعام: ٥٢](١).

جاء الإسلام ليؤسس مجتمعًا جديدًا ومبادئ جديدة، تختلف تمامًا عن صفات المجتمع الجاهلي ومسائل الجاهلية، هذا المجتمع يبنى على أن من أراد وجه الله ارتفع، على أن من عبد الله ﷻ هو المقدم والمعظم والمحترم، وأن من غفل عن ذكر الله ﷻ، أن من اتبع هواه واتبع الشهوات أن من فرط في طاعة الله ﷻ هو المؤخر هو المحتقر هو الذليل، هذا مجتمع جديد لابد أن يبنى على هذه الموازين، لا يبنى على موازين: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾، لا يبنى على موازين: ما وظيفة فلان؟ ما جاهه وشهرته في الناس؟ هل يُقابِل الأكابر ويحترمه الأكابر، أم أنه يزدرى ويُبعد عن الأبواب؟!

جاء الإسلام ليعظم شأن من هو أشعث أغبر لا يأبه له مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره(٢)، فعظم شأن بلال رضي الله عنه، ولا يزال - بفضل الله - عظيمًا يحبه أهل الإسلام عبر الزمان، وهو عبد حبشي، مولى أعتقه أبو بكر رضي الله عنه، يعظم شأن صهيب وسلمان رضي الله عنهما، وهم من الأعاجم الموالي، ويحقر شأن الوليد بن المغير وأبي جهل ويذمهم، وشأن أبي لهب ويذمه رغم أنه

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٩/ ٢٩٥)، والقرطبي (٦/ ٤٣٢)، وابن كثير (٥/ ١٥٢).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**».

عم النبي ﷺ؛ ولذلك كان المجتمع المسلم مجتمعًا فريدًا.

يذكر أن أحد الملوك الغساسنة في زمن عمر رضي الله عنه أسلم، وفرح المسلمون بإسلامه، وأظنه «جبلة بن الأيهم»، فجاء وهو يطوف بالبيت فزاحمه بعض عامة الناس، فضربه بالسوط وقال: أتزاحمني، فرفع الأمر إلى عمر رضي الله عنه، فقال عمر: القصاص، فقال: أيقتص عندكم من الملك للسوقة؟ فقال عمر: أجل، هذا الذي جاء به النبي ﷺ.

فقال: أمهلني حتى أنظر، فارتد عن الإسلام ولحق بالروم وفر من أجل ألا يضرب لأنه ضرب واحدًا من عامة المسلمين(١)، ومهما كان من نتائج، مهما كان لا نراعي أنه سوف يفتن سوف يرتد، فليذهب وليرتد إذا كان الأمر كذلك، ليختر لنفسه ذلك المنكر وذلك الباطل، وذلك الشرك والكفر لسنا نرضى به، ولكن لا نغير مبادئ مجتمعنا الذي أسس على تقوى الله سبحانه وتعالى، على أن موازين القوة والضعف فيه ليست بكثرة المال والملك والسلطان، هذه موازين الجاهلية، ترك الدخول في الحق إذا سبقهم إليه الضعفاء تكبرًا وأنفة، كيف نقبل موازين الكبر أن تكون هي الحاكمة في مجتمعنا المسلم، هذا لايرضاه المسلمون، العبرة بطاعة الله عز وجل، بالإيمان الصادق، هكذا أسس النبي ﷺ مجتمع الصحابة رضي الله عنهم، وظل المسلمون هكذا في عصور الخلافة الراشدة، وتغير الحال بعد ذلك تدريجيًا، حتى صارت كثير من المجتمعات المسلمة يقع فيها ما يقع في المجتمعات الجاهلية، ويكون الأمر عند الناس بوظيفة الأتباع؛ لذلك يقولون كثيرًا عن الملتزمين أتتبعون

(١) انظر هذه القصة في: البداية والنهاية (٨/ ٦٩).

البقالين والذين يفرشون أمام المساجد بالعطور والأخمرة، وتتركون الدكاترة والأساتذة ونحو ذلك من الوظائف؟! فلان الفلاني هذا أستاذ وهذا كبير وهذا له وظيفة كذا، وهذا الآخر ليس عنده شهادات وليس عنده مؤهلات، مع أنه ربما يكون أفضل من ملء الأرض من ذاك، فالعبرة - حتى لو تعد العبرة - في العلم بالعلم نفسه، بل بمجرد الوجاهة في العلم، وكم من إنسان حاصل على شهادات وهو جاهل، وكم من آخر لا يحسن الحصول على هذه الشهادات، وهو في نفس الوقت من أفاضل العلماء، وأنت تجد في أفاضل العلماء منهم من كان خصافًا يخصف النعال، ومنهم من كان عطارًا، ومنهم من كان في المهن التي يحتقرها الناس اليوم، تجد أفاضل من أفاضل العلماء كانت مهنهم صناعة الخوص، كانت مهنهم صيد السمك، كانت مهنهم رعي الغنم، والأنبياء قد رعوا الغنم، لماذا؟ ليعلموا الناس التواضع، وأنه ليس بالمهنة، في قول الله ﷻ عن قوم نوح: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، قال المفسرون: (أمثال الحاكة ونحوهم)[(١)]، يعني يقولون له: أنت الذي يتبعك شخص خياط أو وظيفته

(١) انظر: زاد المسير (٣/ ٣٤٣) قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ وقرأ يعقوب بفتح الهمزة وتسكين التاء وضم العين: «وأَتْبَاعُكَ الأرذلون»، وفيهم ثلاثة أقوال:

أحدها: الحاكَة، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثاني: الحاكَة والأساكفة قاله عكرمة.

والثالث: المساكين الذين ليس لهم مال ولا عزٌّ، قاله عطاء. وهذا جهل منهم، لأن الصناعات لا تضرُّ في باب الدِّيانات).

وانظر: تفسير القرطبي (١٣/ ١٢٠)، وافتح القدير (٤/ ١٢٦).

كذا أو كذا، وكبراء الناس لا يتبعونك، فهذا منهج أهل الجاهلية، والعياذ بالله.

وتجد هذه الكلمات والله تصدر من كبار ينتسبون إلى العلم والدين، بأن هؤلاء الذين يلتزمون بالكتاب والسنة ليسوا على شيء، هم جهال؛ لأنهم ليس معهم من الوظائف ولا الشهادات ونحو ذلك، وربما يظن كثير من الناس أن نصرة الدين لا تكون إلا باختراق هذه الطبقة من المجتمع، والحقيقة أن هذه الطبقة سوف يوجد منها من يلتزم بالحق، ولكن ليس لأجل أنه ذا وظيفة، لكن لابد أن يدخل في الحق ويلتزم به على ما جاء به الرسول ﷺ، أن منزلتك على قدر طاعتك لله وعلى قدر علمك وعملك، وأنه يقدم عليك مثلاً من هو أحفظ منك لكتاب الله، ومن هو أعلم منك بالسنة، ومن هو أكثر طاعة لله ﷻ، إن كان يريد أن يلتزم الالتزام الحقيقي، وأن يترك الجاهلية التي كان عليها قبل ذلك، يزن الأمور بموازين أهل الجاهلية، أن الضعفاء لا يستحقون أن يكونوا على الحق، أن الحق تابع للقوة، أن الباطل تابع للضعف، أن الضعيف على باطل، مغلوب، لابد أن يكون مبطلاً، أن صاحب المكانة والمنزلة في المجتمع هو المحق دائمًا، ونسأل الله العافية، ووالله هذه موازين كثير من الناس حتى من دخلوا في الالتزام، وكثير منهم حتى ربما ينتسب إلى العلم والدعوة، وهو ما زال يزن الأمور بهذه الموازين، نسأل الله العافية، هذه موازين الجاهلية التي يجب أن تهدر، ويجب أن نعتبر ما اعتبره الكتاب والسنة، وأن نهدر ما أهدره الكتاب والسنة، وأن نقدم من قدمه الله، ونؤخر من أخره الله، وهكذا كما

قال عمر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إِنَّ اللَّه يرْفعُ بِهَذَا الْكِتابِ أقْوامًا، ويضعُ بِهِ آخرِين**»[(١)].

---

(١) سبق تخريجه (ص ١٤٦).

الْمسْألةُ الْخامِسةُ والْعِشْرُون: الاسْتِدْلالُ عَلَى بُطْلانِهِ بِسبْقِ الضُّعفاءِ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ [الأحقاف: ١١].

الشـــرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (**الْمسْألةُ الْخامِسةُ والْعِشْرُون: الاسْتِدْلالُ على بُطْلانِهِ بِسبْقِ الضُّعفاءِ، كقوْلِهِ:** ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ [الأحقاف: ١١])، فهم من أين يعرفون أنه باطل؟! بقولهم: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾، طالما أنهم سبقوا إليه فليس هذا بخير، من أين عرفت أن ما جاء به محمد ﷺ باطلاً؟! إذا سئلوا عن ذلك، قالوا: لو كان خيرًا لو كان حقًا، لسبقناهم إليه ولما سبقونا إليه، تزكية للنفس، أننا لا يمكن أن نتخلف عن الخير، أننا أولى بكل خير، وهم أبعد عن كل خير، أنه لو كان خيرًا لاتبعناه، وطالما أن الكبراء لم يتبعوه فليس بخير.

أرأيت هذا المبدأ المعوج؟! أرأيت هذا الميزان الظالم أن الناس يوزن عندهم الحق بأن فلانًا اتبعه، أم لم يتبعه؟! واحذر أن تكون ممن يسير في الركب، بأن الشيخ الفلاني أو العالم الفلاني أو الرجل الفلاني هو الذي نعرف به الحق، أيًّا من كان حتى ولو كنت تحبه ولو تعلمت منه لابد أن تعلم الحق بالدليل، وليس بمجرد التقليد، وليس بمجرد: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾، ولا شك أن أهل الإيمان يعرفون أن أهل الفضل يسبقونهم إلى الخير، ولكنهم إنما يتبعون ولا يقلدون، يتبعون على الدليل على الكتاب والسنة، ويعرفون الحق أنه ما وافق الكتاب والسنة، وليس أنهم يستدلون على الحق أو الباطل بالرجال، إنما اعرف الحق تعرف أهله، هكذا كان

أهل العلم يقولون، والسلف يقولون، ولايصح اتباعنا لهم إلا بالسير على طريقتهم والتزام هذا المنهج الذي دل عليه القرآن، وليس بأن يكون الاتباع أو الاستدلال بمن عليه هذا الأمر الذي عليه الضعفاء يكون باطلاً، والذي عليه الأقوياء يكون حقًا، الذي عليه الملوك والرؤساء والكبراء وسادة الناس يكون حقًا، والذي عليه الضعفاء والمغلوبون والمنهزمون ماديًا أو الفقراء يكون باطلاً.

نسأل الله العافية، نعوذ بالله من ذلك، هذا هو المقياس المنحرف، الذي لابد أن يُهجر وأن يترك.

الْمسْألةُ السّادِسةُ والْعِشْرُون: تحْرِيفُ كِتابِ اللّهِ مِنْ بعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يعْلمُونَ.

الـشـــرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ: (**الْمسْألةُ السّادِسةُ والْعِشْرُون: تحْرِيفُ كِتابِ اللّهِ مِنْ بعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يعْلمُونَ**).

هذا ذكره الله ﷻ عن اليهود، وقد قال النبي ﷺ: «**لتتّبِعُنّ سنن منْ قبْلكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وذِراعًا بِذِراعٍ، حتّى لوْ سلكُوا جُحْر ضبٍّ لسلكْتُمُوهُ، قُلْنا يا رسُول اللّهِ، اليهُود والنّصارى، قال: فمنْ؟**»[1] إذًا، سيوجد في الأمة فريق يحرف كلام الله من بعد ما عقله؛ كما قال ﷻ: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥]، وهم يعلمون حقيقته ويعلمون أن هذا خلاف كلام الله ﷻ، فليس المرض عندهم من قبل الجهل، بل هو من قبل الهوى والغي، وإرادة السوء من قِبل الكبر والإعجاب بالنفس، فيرد الحق ويعرض عنه ولو علم أنه حق، (يسمعون كلام الله ثم يحرفونه)، وهذا التحريف يشمل تحريف الكتاب، وهذا ممتنع في أمة الإسلام، أعني: أنه لن يستطيع أحد مهما بلغ أن يحرف القرآن كتابة، أن يغير الكتاب كما فعل أهل الكتاب في كتبهم، كان هذا في الكتب التي استُحفظوها فلم يحفظوها، استحفظوا كتاب الله فضيعوه؛ وأما القرآن فقد حفظه الله ﷻ بنفسه، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٩).

نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ [الحجر: ٩]، وهيأ الأمة الإسلامية لأضبط طريقة في حفظ الكتاب، ولكن هذا وارد في جزء آخر من الوحي، وهو مثل كتاب الله في التحليل والتحريم، فتحريف السنة بتضعيف الصحيح منها وإدخال الباطل وتسميته بالحديث فيها، الأحاديث الضعيفة والموضوعة والواهية التي فيها أنواع الباطل والضلال، وتحث على الفساد، هذا نوع من تحريف شرع الله ﷻ، وأهل الزندقة قد وضعوا أحاديث كثيرة يريدون صرف الناس عن دين الله، وكتب أهل البدع خصوصًا من الخرافيين من الرافضة والصوفية مليئة بالأحاديث الباطلة والموضوعة، وكذا كتب الخوارج الذين بقي منهم الإباضية، تجد في كتبهم الأحاديث الضعيفة والباطلة التي توافق بدعتهم؛ أما من ذكرنا أولاً الرافضة الشيعة الإمامية والصوفية فهم أكثر الناس تحريفًا لشرع الله ﷻ واتباعًا لأهل الجاهلية في ذلك، ويروون الحكايات الباطلة والخرافات التي تمجد الأئمة والشيوخ، وترفعهم فوق قدرهم، وتنسب لهم أنواع الكرامات الزائفة، حتى وهم يعلمون أنهم على باطل، من الأعاجيب التي تنسب إليهم أنهم - مثلاً أصحاب الطريقة الرفاعية - ينقلون الأخبار في خوارق العادات التي تجري على أيدي هؤلاء أتباع الطريقة ممن يترك الصلاة ويفعل الفواحش وهم يعلمون أنهم كذلك، ولكنهم يخرجون أفاعي من البيوت، يقولون: هذه كرامة للشيخ، فإذا قيل لهم: الكرامات لا تأتي على أيدي العصاة والفساق، فيقولون: كرامة للشيخ الأول؛ لأنهم اتبعوه، فهل اتبعوه وهم فُساق؟! لو كان الشيخ له كرامة، فهل أتباعه هم الفساق؟! فيراهم الناس أمامهم يضربونه بالسيف فيخرج من الناحية الأخرى ثم يسحبونه، ويقولون: هذا من الكرامة، وليس له أثر، كما يحدث في الحاوي والمولد، ويدخل في فمه

أو من خده ويخرجه من الناحية الأخرى، ثم يريك فمه وصدره ويقول: سليم لا شيء فيه، وهو يترك الصلاة ويفعل الفواحش ويشرب المخدرات ويقول: كرامة، وأنه ولي من أولياء الله الصالحين، ويقول هذا ليس بولي، ولكن لأجل الولي الأول، والعياذ بالله.

وتجد كتب مشحونة بالباطل والضلال، هذا نوع من التحريف، تحريف آخر وهو تحريف المعاني، وهذا أخطر وهذا تجد الكتب الباطلة، والشيخ ينتقل من مرحلة إلى أخرى أو إلى مسألة أخرى مرتبطة بها، تجد الكتب الباطلة فيها من صرف آيات القرآن عن ظاهرها وصرف أحاديث النبي ﷺ، بل والتكذيب بالصحيح منها وتحريفه عن معانيه لأجل أن يوافق الذي هم عليه، ويكذب بالحق الذي دل عليه الكتاب والسنة، وينشر ذلك الباطل، بل ويحرم على الناس أن ينظروا في أدلة الكتاب والسنة؛ لأنه لابد أن يكونوا مقلدين، ويقول: أنتم لستم أهل العلم ففرضكم التقليد، ولا تسأل الشيخ عن الدليل، وإياك أن تسأل عن الحديث، ولو سألت فأنت سيىء الأدب، وأنت لا تفقه شيئًا وأنت وأنت، إذا قلت: ما الدليل؟ إذا قلت: ما الحديث؟ إذا قلت: هل الحديث صحيح، أم لا؟

ونحن لا نعني بذلك أن يتنطع أناس على جهلهم، فيسألون في كل شيء عن الدليل، وهم يسمعون الأدلة ولا يفهمونها، فأنت قد تسمع الدليل، وأنت لا تحسن فهمه، فيترتب على ذلك أن تسأل: ما الدليل؟ كأن كلمة: لا بد أن نتعلم ما الدليل، كأنها مجرد كلمة يتناقلها البعض، يقول لك: ما الدليل يا شيخ؟ لا، هذا ليس هو المقصود، ما الدليل؟ نقصد أن تبحث، وليس مجرد أن تكون سائلاً على جهل، ربما يتلو عليك جملة من الأدلة،

وأنت غافل عنها، فتسأله بعد أن يقول لك الأدلة: ما الدليل يا شيخ؟ هات لنا دليلاً يا شيخ؟ وأنت لا تفهم، فهذا ليس هو المقصود، إنما نعني بذلك أن الأدلة من الكتاب والسنة لابد أن تعتبر ولا تهدر، وأن يُربى الملتزم وطالب العلم على البحث عن الدليل، وليس على البعد عن الدليل، وليس البعد عن الفهم، نعود فنقول: إن تحريف النصوص من تحريف المعاني؛ كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة: ٤١]، فهذه نزلت في اليهود الذين لم يحرِّفوا نص التوراة في الرجم، وإنما قالوا: ليس فيها الرجم، فلما وجهوا بذلك: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]، في رجم الزاني، فأتوا بالتوراة فجعل القارئ يقرأ حتى أتى على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، وضع يده عليها، فقال عبد الله بن سلام: «**ارفع يدك**»، فرفع يده فإذا آية الرجم تلوح، فقالوا: صدقت يا محمد، إن فيها الرجم(١)، كان ما أنزل الله فيهم أنهم

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٦٣٥، ٤٥٥٦)، ومسلم (١٦٩٩) من حديث ابن عمر ﭬ: «**أَنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَنَيَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ فَقَالُوا: نَفْضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ فَقَالَ عبد اللهِ بْنُ سَلَامٍ: كَذَبْتُمْ إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ فَأَتَوْا بِالتَّوْرَاةِ فَنَشَرُوهَا، فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا، فَقَالَ لَه عبد اللهِ بْنُ سَلَامٍ: ارْفَعْ يَدكَ فَرَفَعَ يَدَهُ، فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ فَقَالُوا: صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَرُجِمَا**». قَالَ عبد اللهِ بْنُ عُمَرَ ﭬ: «**فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَجْنَأُ عَلَى الْمَرْأَةِ، يَقِيهَا الْحِجَارَةَ**».

يحرفون الكلم من بعد مواضعه حين قالوا، رغم أن الكتاب فيه ذلك، لم يحرفوا اللفظ، لم يحرفوا الكتابة، وإنما حرفوا المعنى وقالوا: ليس فيه، كمن يقول مثلاً: ليس في كتاب الله ﷻ أننا نقيم الحدود، التزموا بالشريعة، يقولون: الشريعة مطبقة، هل هي كذلك مطبقة؟! شرع ربنا ﷻ هكذا، يقولون: هذا هو شرع ربنا، فأين ترك الربا؟ أين ترك الفواحش والمنكرات؟! إين إقامة دين الله ﷻ من الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟! فيقولون: هذا هو الشرع، هذه هي الشريعة، هذا هو الدين، والعياذ بالله، بماذا؟ يعد للناس إعدادات الآن مثلاً من أن الطلاق لا يقع إلا أمام القاضي، الرجل طلق زوجته مرة وثانية وثالثة، ولا يقبل هذا الطلاق، يقولون: فلتعش معه، كيف؟ طالما لم يذهب أمام القاضي ويوافق على تطليق امرأته، فليس بطلاق، ليس فقط عند المأذون، عند المأذون هذه خطوة، أنها لن تسمع، لكن ما زال عندهم أن الأمر أنه إذا طلق امرأته واعترف أمام القاضي مثلاً أنه طلق امرأته ثلاث مرات منفصلة، وإن لم تسجل أوقع عليه الطلاق، لكن يريدون أن يقولوا: لا، حتى يقبل القاضي ذلك، اتباع الغرب بطريقة فظيع؛ لأن الغرب أصلاً وارث تركة ثقيلة، حمل ثقيل من الكنيسة، أنه لا طلاق أصلاً، فخربت المجتمعات، وانتشرت الفواحش والمنكرات، فألقوا الدين جملة، فقالوا نصنع قانونًا مدنيًا فيه نوع من التطليق، بماذا؟ بأن يذهب الرجل أو تذهب المرأة إلى القاضي ويعرض عليه المشكلة أنه مستحيل العشرة، فعند ذلك يحكم القاضي بالتطليق، وهذا الأمر لابد أن يحكم القاضي، وإلا فالزواج باقٍ، وهذا الأمر - كما ذكرنا - ميراث من الكنيسة التي تحرم الطلاق؛ أما

في شرعنا فالعبرة أن من أنشأ العقد وهو الزوج قد جعل الله له أمر حل النكاح، حل هذه العقدة، فإذا طلقها وقع الطلاق، سواء قبل القاضي، أم لا؟ هذا الأمر يعد الآن، كما أعد أن الناس أطفال إلى سن ١٨ سنة، وأنه لا جريمة قبل ١٨ سنة، فتأتي البنت حاملاً، وهذه طفلة، ورجل بالغ وله شارب ولحية، ويقال عنه: إنه طفل، والعياذ بالله، طفل صغير عنده لحية وشارب، ويقولون: الشريعة لم تأت بما يخالف ذلك، ومن الذي وافق على هذا الكلام؟ أناس منتسبون إلى الدين تحريف للكتاب، تحريف لشرع الله ﷻ، ونسأل الله العفو والعافية، منع تعدد الزوجات، وأنه لا يصح إلا بإذن كتابي من الزوجة، والآن يصححون أنه يعقد، لكن يعطيها هي حق أن تطلب الطلاق للضرر، ويطلق عليه رغمًا عنه إن شاء إذا أصرت، وهذا باطل بلا شك، طالما هي لم تشترط ذلك، ولم يظلم ولم يخالف العدل والقسمة الصحيحة، فليس لها أن تطلق شرعًا، بل يريدون أن ينتقلوا إلى خطوة أشد، وهي أنه لابد أن توافق كتابة، وإذا لم يأت للمأذون بورقة مكتوبة من الزوجة بأنها موافقة على زواج زوجها، فلا يعقد له ولا يصح له زواج، وتكون جريمة أن يتزوج، والعياذ بالله، يريدون أن يجعلوها اشتراط إذن، بعد إذنك أنني ألتزم بحكم الشرع، فطبعًا ماذا ستقول هي له؟! حاجة عجيبة الشأن، والله العظيم!

وضع صراعات بين أفراد الأسرة الواحدة، الأشياء المعروضة التي ما زالت يُحاول البحث فيها مرة بعد مرة، هذه قوانين الأسرة التي وضعتها مؤتمرات «بكين»، أقصد أن نظام الأسرة الذي وضعه المجتمع العالمي ينص على مثل هذه الأشياء؛ أن الأب لو ضرب ابنه يذهب يعمل له

محضرًا، وأنه يساءل قانونًا على ذلك، في ألمانيا من الممكن أن الأب لو ضرب ابنه يأخذوا هذا الابن، ينزعوه من حضانة أبيه وأمه، لأنهما كيف يضربانه، ويضعونه عند عائلة من الشواذ، عند اثنين من الذكور متزوجين، والعياذ بالله، ويرون ذلك من الإنصاف، أنا رأيت واقعة عجبًا؛ أن شخصًا من ألمانيا له بنت وماتت، والمهم أنا كتبت سبب الوفاة الذي رأيته؛ أن البنت جاءها جفاف، فقال: هذا يؤدي إلى أن جميع الأولاد سيأخذون مني، ويمكن أن يعطوهم لأي أسرة أخرى، فقلت له: والله أنا لا أقدر أن أعمل أو أكتب إلا ما رأيته، وهو أخذ يبحث ويلف ويدور، حتى غير هذا الأمر، وقال: القانون عندنا أنه هو ينزع مني هذه الأولاد، فهذه ممكن أن تكون ثمة احتمال، لكن ليس بهذه الطريقة أنه بمجرد لو ضرب ابنه، لو سأل ابنته: أين كنتِ حتى الساعة الثانية عشرة؟ ممكن تعمل له محضرًا، أو تأتي له بالشرطة، وهذا هو الذي يريدونه، وهذا هو المنصوص عليه في مؤتمرات السكان، وستجد أناسًا ينتسبون إلى الدين يحرفون الكلم من بعد مواضعه، والعياذ بالله، ويقولون: إن هذا لا يخالف الإسلام، وهل أصلاً تحديد سن الزوج بـ ١٨ سنة مما جاء به شرع الله ﷻ؟! ألم يأتِ في كتاب الله ﷻ: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ [الطلاق: ٤]، واحدة لم تحض وتزوجت ودخل بها زوجها، وفي التوراة مثل ذلك أيضًا، وهؤلاء ليس لهم علاقة لا بالتوراة ولا بالإنجيل ولا بالقرآن، والعياذ بالله، وهناك من يقول: قد قرر القانون ذلك، وفي بلاد أخرى يقولون: قد قرر ولي الأمر ذلك، والناس يفتون، العلماء من أولهم إلى آخرهم يفتون بتحريم ذلك في بعض البلاد، مثل قانون التأمين

الصحي أنه لابد أن يعمل تأمين تجاري على الأفراد جميعًا، وإلا لم تجدد إقامته، وكل المشايخ يفتون أن هذا حرام؛ لأن التأمين التجاري ميسر، والفتاوى وكبار العلماء وكل هؤلاء يفتون بالتحريم، ثم يقال للناس: ماذا تصنعون؟ اسمعوا الكلام، الشرع يأمركم بأن تطيعوا ولي الأمر، نسأل الله العافية، في ماذا الطاعة؟ في ما يخالف شرع الله، وهذا ينسب الباطل إلى دين الله ﷻ، من أن الله ﷻ شرع اتخاذ وبناء المساجد على القبور، واحد يفتي بذلك ويؤلف في أنه يستحب بناء المساجد على القبور، وقد قال النبي ﷺ: «**لعْنةُ اللّهِ على اليهُودِ والنّصارى، اتّخذُوا قُبُور أنْبِيائِهِمْ مساجِد**»[(١)].

هذا تحريف لكتاب الله ﷻ، تحريف لكلام الله ﷻ من بعد ما عقله، وهو يعلم صحة الحديث، ويستدل بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، والعياذ بالله، ويكتب كتبًا في ذلك، ويؤيد ما يقول، كتب تؤلف في (**تحريم الختان**)، ومن يؤلفها؟ أناس ينسبون إلى الدين أن الإسلام حرم ختان الإناث، ويعلمون أن هذا خلاف إجماع العلماء، فلا أحد من العلماء يقول بالتحريم، الختان المحرم الذي ليس في شرع الله ﷻ، فكيف يعمم الحكم حتى ما اتفق العلماء على مشروعيته بين وجوب واستحباب؟!

(**الختان المحرم**) أنه يستأصل الأعضاء التناسلية للمرأة، هذا نعم من المحرم من الجنايات، ولكن كيف تسوي بين هذا وبين ما شرعه الله ﷻ، وبين ما اتفق العلماء على صحته؟! ومشروعيته - كما ذكرنا - بين وجوب

(١) سبق تخريجه (ص ١٧٦).

واستحباب، ولكن هذا ينسب إلى الدين.

(بدعية النقاب) كتب تؤلف وتنسب إلى الدين ويؤلفها أناس منسوبون إلى الدين، مع أنه لا خلاف بين العلماء في أن النقاب مشروع، والحديث في البخاري، لا نقول واجب أو مستحب: «**لا تنْتقِبُ الْمرْأةُ الْمُحْرِمةُ، ولا تلْبسُ الْقُفّازيْنِ**»[(١)]؛ ولذلك غير المحرمة تنتقب وتلبس القفازين.

نحن لا نتكلم في الوجوب، ولكن أنتم تقولون: هذا بدعة، هذا منكر، هذا تحليل النقاب، هذا ضلال ولابد أن ينشر ذلك في المساجد، ولابد أن يعمم على الخطباء، والكتب موجودة ومنسوبة إلى ماذا؟ إلى الدين.

هذا تحريف لكلام الله ﷻ، تحريف لشرع الله ﷻ، مع أنه لا يغير في الآيات، ولكن يأتي بهذا الباطل، والعياذ بالله هو يعلم؛ لذلك المسألة التي بعدها: **(تصنيف الكتب الباطلة، ونسبتها إلى الله)**، وهذا من سبيل أهل الجاهلية، نحن قلنا: تحريف كتاب الله من بعد ما عقلوه سبيل اليهود، قلنا تحريف كتاب، لكن هذا ليس واقع في القرآن، ولكن في الأحاديث يمكن أن يكتبوا أحاديث باطلة، وينسبوها إلى النبي ﷺ، ومعانٍ باطلة تنسب إلى الرسول ﷺ وإلى الدين، تكذيب بما قاله النبي ﷺ وبما شرعه، ونهي الناس عنه، بزعم أنه ليس من الدين، وهو يعلم.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري (١٨٣٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الْمسْألةُ السّابِعةُ والْعِشْرُون: تصْنِيفُ الْكُتُبِ الْباطِلةِ، ونِسْبتُها إِلَى اللَّهِ، كقوْلِهِ: ﴿فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

الشـــرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ﷺ: (**الْمسْألةُ السّابِعةُ والْعِشْرُون: تصْنِيفُ الْكُتُبِ الْباطِلةِ، ونِسْبتُها إِلَى اللَّهِ، كقوْلِهِ:** ﴿فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩])، وهذا - كما ذكرنا - لا يقع في القرآن، ولكن يقع في معانيه؛ أنه يؤلف كتبًا تفسر القرآن على غير وجهه، يخالف تفسير أهل العلم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من السلف الصالح، ﷺ، يخالف تفسير العلماء في أمور العقائد، في أمور العبادات، في أمور المعاملات، في أمور الأخلاق، يأتي بشيء من عنده وينسبه إلى الدين، ينسبه إلى الله، وإن لم يقل: هذا وحي منزل؛ وأما أهل البدع فعندهم من ذلك أضعاف مضاعفة، الرافضة عندهم كتب مؤلفة، يقولون: هذا مصحف فاطمة، هذا جاء به جبريل ﷺ إلى فاطمة ﷺ بعد النبي ﷺ، منهم من يعتقد أنه كالقرآن، ويسمونه (مصحف فاطمة)، أنه وحي فعلاً، وهذا ردة عن الإسلام، ومنهم من يجعله كأنه كتاب للأحاديث ليس كمصحف، ولكن يعامله في الحقيقة كمصدر للتشريع، وهذا - والعياذ بالله - من شر ما يكون، وهو في حقيقته كفر، وإن لم يكن كالذي صرح بأنه كالقرآن، والعياذ بالله من ذلك.

فهذا الكلام؛ تصنيف الكتب الباطلة أهل البدع عندهم من ذلك الكم

الهائل، وينسبونه إلى شرع الله وإلى دين الله، وينسبونها إلى الله وإلى الرسول ﷺ.

نسأل الله ﷻ أن يعافي المسلمين من الجاهلية، وأن ينشر فيهم العلم بكتابه وسنة رسوله ﷺ.

الْمسْألةُ الثّامِنةُ والْعِشْرُون: أنّهُمْ لا يقْبلُون مِن الْحقِّ إلاّ الّذِي مع طائِفتِهِمْ، كقوْلِهِ: ﴿قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ [البقرة: ٩١].

الشـــرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحَمَهُ ٱللَّهُ: (**الْمسْألةُ الثّامِنةُ والْعِشْرُون: أنّهُمْ لا يقْبلُون مِن الْحقِّ إلاّ الّذِي مع طائِفتِهِمْ، كقوْلِهِ:** ﴿قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ [البقرة: ٩١]): قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن اليهود: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة: ٩١]، بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن اليهود يأبون الإيمان إلا بما أنزل على أنبيائهم، وهذا دليل على أنهم لم يؤمنوا بالأنبياء لأجل أنهم أنبياء يأتون بالوحي من عند الله، وإلا لو كان كذلك لآمنوا بكل نبي، وإنما آمنوا بمن آمنوا به ظاهرًا عصبية لقومهم؛ ولأنهم منهم فيما يظنون والأنبياء أبرياء منهم ومن أفعالم، وهم من الأنبياء أبرياء أيضًا؛ لأنهم تركوا ما أمرت به الأنبياء من اتباع الرسول النبي الأمي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلابد للإنسان أن يقبل الحق من كل من جاء به، سواء كان من الطائفة التي ينتمي إليها إن كان ينتمي إلى قبيلة، أو شعب، أو عائلة، أو وطن، أو مذهب، أو طائفة اجتمعت على أمر معين، وهم فيه يشتركون، لابد أن يقبل الحق ممن جاء به، سواء كان من هذه الطائفة أو من غيرها، وإلا انقلب إيمانه بدلاً من الإيمان بالحق إلى التعصب المذموم والعصبية الجاهلية المذمومة التي ليست من الإيمان في شيء؛ فلذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]،

فدل ذلك على أنهم ليسوا بمؤمنين بالأنبياء إيمانًا حقيقيًا وإلا لما قتلوهم، وإنما يبحثون عن تعظيم طائفتهم، هذا الأمر الذي وقع من أهل الكتاب من اليهود هو أنهم لا يقبلون إلا ما أنزل عليهم، ويكفرون بما وراءه، يكفرون بما جاء به عيسى ﷺ، مع أنه من أنبيائهم، ويكفرون بما جاء به محمد ﷺ، وهم يحقدون ويحسدون على العرب إذ اصطفاهم الله ﷻ ببعثة محمد ﷺ، هذا الأمر قد وقع فيه من وقع ممن ينتسب إلى الإسلام في أصول الدين وفي فروعه كذلك؛ فأما في أصول الدين - يعني أمور الاعتقاد - فأهل البدع على نفس الطريق لا يقبلون أدلة من آيات أو أحاديث إلا ما يوافق أهل بدعتهم، فعلى سبيل المثال لو نظرت إلى الخوارج(١) والمعتزلة(٢) من

(١) هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه حين جرى أمر المحكمين، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، وفيهم قال النبي ﷺ: «**يَحْقِرُ أحدكم صَلَاتَهُ مع صَلَاتِهِ وَصِيَامَهُ مع صِيَامِهِ يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ**». أخرجه البخاري (٢٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وكل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيًا، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان. انظر: مقالات الإسلاميين (ص٤، ٨٦)، والفرق بين الفرق (ص٥٤)، والملل والنحل (١/ ١١٤).

(٢) هي إحدى الفرق الضالة المخالفة لأهل السنة والجماعة، ورأس هذه الفرقة واصل بن عطاء الغزال، كان تلميذًا في مجلس الحسن البصري، فأظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين وأن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا بكافر، فطرده الحسن من مجلسه، وانضم إليه عمرو بن عبيد، واعتزلا مجلس الحسن، فسموا بالمعتزلة لذلك، ويلقبون بالقدرية لإسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم وإنكارهم القدر فيها.
وقد افترقت المعتزلة إلى فرق شتى يجمعهم القول بنفي الصفات، والقول بخلق =

الوعيدية الذين يكفرون عوام المسلمين إذا تليت عليهم أحاديث الشفاعة وخروج عصاة الموحدين من النار، قالوا: هذه أخبار آحاد، أو قالوا: هذه أدلة ظنية لا تقاوم الأدلة القطعية التي عليها هذه الطائفة، التي تخلد عصاة الموحدين في النار، أبوا أن يقبلوا الأدلة المستفيضة عن رسول الله ﷺ، بل المتواترة عند طائفة من أهل العلم لكثرتها، لماذا ردوها؟!

لأنها تخالف ما عليه طائفتهم، كذلك لو قلت في الجانب المقابل: الطائفة المرجئة(١) الذين أخروا العمل عن الإيمان وأخرجوا العمل عن الإيمان، إذا سمعوا الأدلة من أحاديث النبي ﷺ، بل ومن آيات الله ﷻ التي تثبت دخول الأعمال في الإيمان، وتثبت أن هناك من يكون موحدًا، ولكن يستحق العقوبة ويعذب، فإنهم أيضًا يردون هذه الأدلة، يؤولون القطعي منها، ويردون الأحاديث الصحيحة، ما كان من آيات فسروها على غير وجهها، وما كان من أحاديث ردوها كذلك، تجد الأشاعرة ومن

= القرآن، وأن العبد يخلق فعل نفسه، ولهم أصول خمسة جعلوها بمنزلة أركان الإيمان عند أهل السنة، وهي: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإنما أرادوا بهذه المسميات معاني باطلة.
انظر: الملل والنحل (١/ ٣٠ - ٣٢)، والفرق بين الفرق (ص١٨، ٩٣، ٩٤)، والبدء والتاريخ (٥/ ١٤٢)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٤٦٤)، ووفيات الأعيان (٦/ ٨). وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص ٧٩١ - ٧٩٢).

(١) المرجئة: قيل من الإرجاء أي: من التأخير لأنهم أخروا العمل عن مسمى الإيمان، وقيل من الرجاء لأنهم يقولون لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وهم فرق شتى وسيأتي الكلام على مذهبهم تفصيلاً في هذا الكتاب - إن شاء الله تعالى -. انظر: (مقالات الإسلاميين) (ص ١٣٢)، و(الفرق بين الفِرق) (ص ١٩٠).

سبقهم على طريقتهم من المعتزلة والجهمية يردون أحاديث الصفات، ويقبلون ما قاله أئمتهم، تجد الأشاعرة مثلاً يقبلون الأدلة الدالة على سبع صفات فقط، لماذا خصصتم هذه السبع دون باقي آيات الصفات وأحاديثها؟ قالوا: لأن هذه هي التي تلقوها عن أئمتهم، وقالوا: إن العقل يثبتها، وكأن العقل يثبت صفة العلم مثلاً ولا يثبت صفة الرحمة، نعوذ بالله من هذا الضلال، وكأن هذه العقول تفاوتت هذا التفاوت العجيب، لماذا؟

لأنهم تلقوا ذلك عن طائفتهم، لا يقبلون من الأدلة إلا ما وافق الطائفة، إلا ما وافق ما كانت عليه الطائفة، والأدلة كثيرة جدًا على إثبات كل صفات الذات وصفات الأفعال، ومع ذلك يردون ذلك - كما ذكرنا - إما بتأويل النصوص، وإما برد الأحاديث بزعم أنها أدلة ظنية، المؤمن الصادق يقبل الحق من كل من جاء به ويتبع الدليل.

وفي فروع الدين نجد أيضًا هذا الأمر، كل مذهب يقبلون من الأدلة ما وافق ما قاله أئمتهم، وهذا عند المتعصبين وليس العلماء المنصفين، العلماء المنصِفون يقبلون الأدلة لو خالفت المذهب، وتجد أئمة كبارًا يذكرون مذهبهم، يقولون: هذا مذهبنا، والقول الفلاني هو الصحيح الذي دل عليه الدليل، ويرجح خلاف المذهب، لماذا؟

لأن عنده الإنصاف، عنده قبول الحق، لكن كثير جدًا من المتعصبين لمذاهبهم يقبلون من الأدلة ما وافق قول الإمام، قول أئمة المذهب، ويردون ما سوى ذلك، حتى قال أحد متأخريهم: كل حديث ليس عليه أئمتنا فهو إما ضعيف، أو مؤول، أو منسوخ.

هكذا قاعدة كلية مبدئيًّا ؛ أنهم في الحقيقة لا يحكمون الكتاب والسنة، وإنما يتحاكمون إلى أقوال الأئمة، كل منهم يقول: الإمام الفلاني قال كذا.

وهذا من الخلل العظيم أن الطائفة إنما تبحث في الأدلة عما يوافق قول الطائفة أو قول المذهب؛ وأما ما سوى ذلك فيرد إما بالطعن فيه، أو تضعيفه، أو بادعاء النسخ، أو بالتأويل المتعسف للنصوص، مع أنه يقبل مثله تمامًا إذا كان مع قول المذهب.

أهل السنة والجماعة متفقون على ما نقل الشافعي إجماعًا: **(أجمع المسلمون - أو أجمع العلماء - على أن من استبانت له السنة لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس)**(١)، وهذه هي القضية العظيمة التي لابد أن تترسخ لدينا دائمًا ؛ أننا لا نقدم على كلام الله وكلام رسوله ﷺ أحدًا قط، وما أجمع عليه العلماء هو كذلك من الأدلة التي يجب أن نلتزم بها، لكن إذا اختلف أهل العلم فليس اختلافهم بحجة في حد ذاته؛ لأن بعض الناس اليوم إنما يجعلون الاختلاف في نفسه حجة بمعنى أنهم يقولون: العالم الفلاني قال، يعني: لا تنكر عليّ أن أقول هذا القول، بمجرد أن العالم الفلاني أفتى به والعالم الآخر أفتى به، ويزعمون أن ذلك من الرحمة في الخلاف.

وهذا الذي يجعل الاختلاف حجة في حد ذاته، فهذا رد لما أمر الله ﷻ به في الحقيقة؛ لأن الله قال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ

(١) راجع (ص ١١٧).

تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٩]، وهؤلاء يقولون: إذا تنازعتم في شيء فخذوا من أقوال الأئمة ما تشاءون، هذا يأخذ هذا، وهذا يأخذ هذا، والناس لا علم عندهم بالترجيح ولا قدرة لهم على ذلك ولا النظر في الأدلة، فصار الأمر إلى الأهواء، هذا يختار هذا القول؛ لأنه يحب هذا الشيخ مثلاً، وآخر يختار غيره دون ترجيح ودون دليل، أصبحت هذه قاعدة، والواجب على المسلم أنه إذا كان عالمًا أن يبذل جهده في معرفة الحق؛ لأن الله قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩]، إن كان جاهلاً فليسأل أهل العلم عن القول الذي دل عليه الشرع وعن حكم الشرع، لا يسأله عن الأقوال ليأخذ منها ما يشتهي، لا يكون ضمن فرقة من الفرق وطريقة من الطرق، فيجعل يبحث في الكتب عما يوافق طريقته ومذهبه، ثم يقول هذا القول قد قال به فلان، وقد قال به فلان، وأنتم لا تعرفون قدر العلماء ونحو ذلك؛ لكي يرد قول المخالف بماذا؟ بأن بعض العلماء قد قاله، وأقل الأحوال عنده أنه يوسع الخلاف بمجرد كلام العلماء، ليس هذا هو الجائز له، إن كان جاهلاً فليسأل أهل العلم الذين يثق فيهم عن الراجح، والذين هم مرد الأمر إليهم من جهة الديانة ومن جهة العلم، أعني: لابد أن يكون ورعًا ولابد أن يكون عالمًا، لا أن يكون رجلاً على علم لكن لا ورع عنده ولا ديانة ولا تقوى لله، حتى يقول قولاً في مقام ويقول أمام الناس قولاً غيره، ولا يجوز أن يكون جاهلاً حتى يقول بما لا علم له ويتكلم على الله ﷻ بما لا يعلم، حتى لو كان ديِّنًا ويحسن الوعظ أو الاتعاظ أو التفكر، لكن لابد أن يكون على

علم وعلى ورع، من لم يكن كذلك لم تصح فتواه، لم يصح أن يكون مقبول الفتوى عند أهل العلم أو عند الناس.

لذلك نقول: إن قبول الحق الذي مع الطائفة دون غيره من سمات أهل البدع، وهو منهم مشابهة لأهل الكتاب الذين وقع منهم ذلك حينما قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١]، ولا يلزم أن يكون حال أهل البدع قد وصل إلى الكفر كما وصل إليه اليهود، ولكن من شابههم في بعض وصفهم نال من بعض جزائهم وذمهم، فإن الله إنما ذمهم على صفات وأحوال لم يذمهم على أعيان وأسماء؛ ولذلك نقول: من شابههم في عمل استحق جزء الوعيد والذم، ومن شابههم بالكلية بحيث أنه مستعد لرد الكتاب والسنة، إذا خالفت طائفته في ذلك كطوائف العلمانيين مثلاً، الذين لا حرج عندهم في أن يردوا النصوص كلها ولو كانت آيات؛ لأن سادتهم لا يقبلون ذلك، وهم إنما يرقعون دنياهم بكلام هؤلاء، إنما ينظرون ماذا يريد هؤلاء الغربيون، ثم يقبلون من الإسلام ما يوافقه، كما قال قائلهم يومًا عندما أُعِدّ الدستور المصري والقانون المصري في العشرينات عندما طلب بعض العلماء بأن هذا الأمر عندما جعلوا الشريعة الإسلامية هي آخر المصادر في التشريع، فقال لهم: إن هذا القانون قانون باطل؛ لأنه جعل الشريعة لم يُتحاكم إليها، فقال بعضهم - من الواضعين - قال: إنه ماذا تريدون أكثر مما فعلت، أنا ما وجدت شيئًا في القانون الفرنسي مما يوافق الشريعة، يعني شيئًا يوافق الشريعة مما له وجه في القانون الفرنسي إلا وضعته، يبحث عن كل مادة لها وجه في القانون الفرنسي توافق الشريعة يضعها، الأصل عنده هو

القانون الفرنسي، فكيف كان ذلك؟!

أنهم كانوا يجعلون الدستور ثم القانون ثم العرف ثم الشريعة الإسلامية، فطالبهم البعض أن يجعلوا الشريعة هي المصدر الأول والأخير في الحقيقة، هو المصدر الوحيد للتشريع، فقالوا لهم: إن هذا ازدواج في التشريع، لابد أن يكون هناك وحدة تشريعية، فما كان موافقًا للقانون الفرنسي من أحكام الشريعة وضعناه؛ ولذلك وضعوا جوانب مثلاً في الأحوال الشخصية، ثم هم فيما يوافق الغرب يريدون تحريفه، يعني: الغرب ليس عنده تعدد الزوجات، فيريدون تحريف الشريعة وإبطالها في ذلك، حتى يوافق الغرب، والغرب يوقع الطلاق بأمر القاضي فقط، هم يحالون ويدورون ويجيئون ويذهبون لأجل أن لا يكون طلاق إلا في المحكمة، إلا إذا طلق القاضي على الرجل ولو لم يطلق الرجل أو يمنعه من التطليق، ويثبت الزوجية حتى لو قال الرجل لزوجته: أنتِ طالق مائة مرة، والعياذ بالله، تجد أنواعًا من الضلال ما عليه طائفتهم، طائفتهم هي طائفة الكفار والمنافقين من أذناب الغرب، والعياذ بالله، الطائفة إذا قالت قولاً فلابد أن نبحث عن ذلك، ما يوافق الشرع في ذلك يدندنون به، ما يكون من الشرع في ذلك يدندنون به، ويقولون: نحن نطبق الشريعة، ونحن نقول بها، لماذا؟

لأنها وافقت أهواءهم، والعياذ بالله، كما ذكرنا قد يصل هذا الأمر إلى ما هو كفر، وقد يصل إلى ما هو دون ذلك، كما ذكرنا في المتعصبين العصبية الجاهلية من أتباع المذاهب الذين يقولون: (كل حديث ليس عليه أئمتنا، فهو إما ضعيف، أو مؤول، أو منسوخ)، ولا يجوز الأخذ بظواهر الكتاب والسنة، يقولون ذلك، ويحرموا الأخذ بظواهر الكتاب والسنة، كلام

عجيب! كيف وصل الناس إليه؟ وصل الناس إليه من خلال هذا التعصب المذموم، والعياذ بالله، وفي الحقيقة عند تأمل التاريخ تجد أن هذا هو الذي سبق مباشرة تسلط الغرب على بلاد المسلمين وانهيار الدولة بالكلية، هذا التعصب المذموم في العصور المتأخرة للدولة العثمانية كان مقدمة لانهيار هذه الدولة وانتهائها بالكلية وسقوط الخلافة بالكلية، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وحلول العلمانية في بلاد المسلمين بدلاً من الشريعة الإسلامية، ووجود أذناب الغرب - والعياذ بالله - مِن الدعاة على أبواب جهنم، الذين من أجابهم إليها قذفوه فيها، كان هذا مقدمة في الحقيقة، الناس تعودوا على رد النصوص، فسهل عليهم بعد ذلك أن يردوا أصل الرجوع إلى الكتاب والسنة، والعياذ بالله، ووجدت أنواع الكفر والنفاق علانية، والعياذ بالله؛ لذلك نقول: إنه لابد وأن يكون أهل الإسلام والإيمان على قبول الحق من كل من قال به من مذهبنا أو ممن خالفه من طائفتنا أو من غيرها، يقبول الحق من كل قائل، وما أحسن ما يقوله ابن القيم ﷺ! حين يذكر المناقشات بين طائفة الجبرية والقدرية، يقول: **(ولو حكمت كل طائفة ما معها من الحق، والتزمت لوازمه وطردته، لساقها إلى هذه الطريق، ولأوقعها على المحجة المستقيمة)**(١)، أهل السنة يقبلون الحق الذي عند هذه الطائفة ويردون الباطل، ويقبلون الحق الذي عند هذه الطائفة ويردون الباطل، فيجتمع الحق عندهم ويردون الباطل الذي عند الطوائف المختلفة؛ لذلك البعض يقول في بعض الأقوال مثلاً: إن هذا قول المعتزلة أو هذا قول الشيعة أو هذا قول كذا، إذا حقًا عليه الدليل فلابد أن نقبله، ليست العبرة بأن هذا قول فلان

(١) انظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص ١٣٧).

وفلان، ومستحيل أن يكون أهل السنة مجمعون على خلاف الحق، أهل السنة هم أئمة العلم، على سبيل المثال: بعضهم اعترض على من قال: إن إجماع أهل البيت حجة؛ لقول النبي ﷺ: **«ياأيها النّاسُ إنِّي تركْتُ فِيكُمْ ما إِنْ أخذْتُمْ بِهِ لنْ تضِلُّوا: كِتاب اللّهِ، وعِتْرتِي أهْل بيْتِي»**، وهو حديث صحيح(١) يدل على أن عترة النبي ﷺ وأهل بيته ثقل ككتاب الله، لانعني أنه مماثل له في القدر، ولكن يدل على أنه لايفارق الكتاب، مع أن هذا الأمر في التطبيق العملي لا يكاد يعرف له أثر إلا فيمن كان متقدمًا من أهل البيت من الأئمة الأوائل كالإمام علي والحسن والحسين ﷺ ونحوهم، لكن نقول: إن هذا الأمر كدليل، البعض يقول: هذا قول الشيعة، وهل كل ما قاله الشيعة يكون منكرًا باطلاً ضلالاً إذا كان موافقًا للدليل؟! مع أن هذا ليس كلام الشيعة فقط، بل هذا ترجيح شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ وطائفة من الحنابلة وغيرهم من أهل السنة، قالوا ذلك للدليل؛ لأنهم ليس عندهم تعصب، ليس عندهم أننا نأخذ بالأقوال المخالفة لمن خالف طائفتنا على الإطلاق، كما

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٨٨)، وأحمد (١٧/ ١٧٠)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٥٠٦)، وابنُ أبي عاصم في السنة (١٥٥٤)، وأبو يعلى (١٠٢٧)، والطبراني في الصغير (٣٦٣، ٣٧٦)، وفي الكبير (٢٦٨١، ٤٩٧١) وعبدُ الله بنُ الإمام أحمد في في فضائل الصحابة (١٧٠)، والحاكم (٣/ ١٠٩).
وله شاهد صحيح من حديث زيد بن أرقم عند مسلم (٢٤٠٨)، والنسائي (٨١٧٥)، بلفظ: «**وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ** «**فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللهِ وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**».
وانظر: شرح مشكل الآثار (١٧٦٥).

في الجماعات الإسلامية المعاصرة، البعض يدلل على بطلان قول معين أنه خطأ؛ لأنه قول الجماعة الفلانية، ويقول: أنتم ستفعلون مثلهم، إذا قالت الجماعة الفلانية يقول لك: هذا كلام الإخوان مثلاً، لو قال الإخوان قولاً حقًا لو كان هناك قائلاً يقول بشيء عليه دليل، لماذا لا نقبله؟ أو أن يقول قائل: إن هذا كلام أو فعل جماعة التبليغ مثلاً، إذا كان عندهم منكرات وعندهم بدع، نحن نرد البدع ولا نقبلها، ولكن إذا فعلوا شيئًا من الحق هل يرد لأجل أنهم هم فعلوه؛ لأنه ليس على طائفتك أو لم يفعله أناس من طائفتك، ثم في الحقيقة هم لا يعرفون قول طائفتهم، وهي المسألة التي بعدها.

الْمسْألةُ التّاسِعةُ والْعِشْرُون: أنّهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يعْلمُونَ بِمَا تقُولُه طائِفتُهُمْ؛ كَمَا نَبّهَ اللّهُ تَعَالَى بِقوْلِهِ: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

الشـــرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (**الْمسْألةُ التّاسِعةُ والْعِشْرُون: أنّهُمْ مع ذلِك لا يعْلمُون بِما تقُولُهُ طائِفتُهُمْ؛ كما نبّه اللهُ - تعالى - بِقوْلِهِ:** ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١])، فكما كان اليهود يقتلون الأنبياء منهم؛ لأنهم لم يعجبهم كلامهم؛ فلذلك لا يعرفون ما جاءت به الأنبياء، فكذلك كما ذكرت في مسألة (إجماع أهل البيت): أن إجماع أهل البيت دل عليه الحديث الصحيح[1]، فيقول: هذا قول الشيعة، أولاً أنت لا تدري أن هذا من قول كبار العلماء المجتهدين في أهل السنة، فأنت لاتدري قول الطائفة التي تنتمي إليها، كشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، وطوائف من الحنابلة، وغيرهم ممن ينتسب إليهم من يطعن في ذلك، وهو لايعلم قول أئمته وقول أهل السنة في الحقيقة، أو على الأقل لم تدر الخلاف، فكيف تطعن في ذلك؟!

كما يقول البعض مثلاً في مسألة (العذر بالجهل)، يقولون: هذا قول يخالف ما عليه أئمة الدعوة الوهابية، وهل لأجل أن هذا يخالف كلام أئمة يكون مردودًا، وأنت كأنك لا تدري أن إمام الدعوة نفسه، الإمام محمد بن

---

(١) سبق تخريجه (ص ٣٤٤).

عبد الوهاب، يقول: (**وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على قبر البدوي لأجل جهلهم وعدم من ينبههم، فكيف نكفر من لم يكفر ولم يقاتل؟! سبحانك هذا بهتان عظيم!**)[١]، ويقول أيضًا في (كشف الشبهات): (**ولكِنْ هذِهِ الْقِصّةُ تُفِيدُ: أنّ الْمُسْلِم، بل الْعالِم قدْ يقعُ فِي أنْواعٍ مِنْ الشِّرْكِ لا يدْرِي عنْها، فتُفِيدُ التّعْلِيم والتّحرُّز، ومعْرِفة أنّ قوْل الْجاهِلِ: (التّوْحِيدُ فهِمْناهُ) أنّ هذا مِنْ أكْبرِ الْجهْلِ، ومكائِدِ الشّيْطانِ. وتُفِيدُ أيْضًا: أنّ الْمُسْلِم الْمُجْتهِد الّذِي إِذا تكلّم بِكلامِ الْكُفْرِ، وهُو لايدْرِي، فنُبِّه على ذلِك، وتاب مِنْ ساعتِهِ أنّهُ لا يكْفُرُ**)[٢].

ويجعل أن هذا القول مردودًا. لماذا ترده؟ لأنه يخالف قول فلان وفلان من أئمة الدعوة الوهابية، وأنت لا تدري ما يقوله أئمة الدعوة، يقول لك: أنت خالفت الشيخ فلان والإمام فلان، ولماذا لم تنظر أنه قد وافق غيره؟!

الحقيقة أن طائفة الحق، طائفة أهل السنة، لم تعدم الخير ولم تفقده ولن تجتمع على ضلالة، ولا يزال يوجد في أهل الحق من يقول بالحق الذي وافق الدليل، فهذا يدل على تعصب مذموم، أعني: الذي يرد الحق؛ لأنه ليس مع طائفته، ليس مع من ينتسب إليهم، وفي نفس الوقت لا يكون مطلعًا على ما يقوله الأئمة وعلى ما يقول العلماء من الطائفة التي ينتسب إليها، فيحصل له بذلك أنواع من الخلل، التعصب المذموم الذي لابد وأن يحذر منه، وهذا هو التعصب بعينه، هذه هي العصبية الجاهلية المذمومة، وإن كانوا يرمون غيرهم بذلك، ونسأل الله العافية.

---

(١) سبق عزوه (ص ٤٥).

(٢) انظر: كشف الشبهات مع شرح سماحة الشيخ محمدبن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ (ص ١٠٧).

لذلك نقول: إن أهل البدع قد ينتسبون إلى أئمة كبار، كما انتسب الأشاعرة إلى أبي الحسن الأشعري[(١)]، وهم يجادلون مجادلة شديدة على هذا المذهب، مذهب نفي الصفات، مذهب القول بالجبر في القضاء والقدر، مذهب أن الإيمان هو المعرفة دون القول والعمل، على أن هذا مذهب الأشعري رحمه الله، وهذا في الحقيقة كان قولاً للأشعري في مرحلة متوسطة من حياته، لكنهم لا يعرفون أن الأشعري رجع إلى ما كان يقوله أئمة أهل السنة جميعًا في كتاب «مقالات الإسلاميين»، و«الإبانة عن أصول الديانة»، فهم لا يعرفون ما يقوله أئمتهم، الإمام الأشعري رحمه الله رجع رجوعًا تامًا عن كل القضايا التي خالف فيها من سبقه من أهل السنة، وأثبت بالأدلة في كتاب «الإبانة» عقيدة أهل السنة والجماعة، ونقل ما كان عليه إجماع أهل العلم في إثبات الصفات وفي أن الإيمان قول وعمل، وفي إثبات مشيئة العباد وقدرتهم، وأنهم فاعلون حقيقة، مع أن الله خالقهم وخالق قدرتهم وأفعالهم، هذه المسائل الكبرى التي فيها الخلاف بين مذهب أهل السنة ومذهب الأشاعرة في الأسماء والصفات، في القضاء

(١) الأشاعرة نسبة إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم الأشعري، ولد سنة ستين ومائتين، نشأ على مذهب المعتزلة، وتتلمذ على يد أبي علي الجبائي ثم ترك مذهبهم وتبرأ منه، وسلك طريقة ابن كلاب وانتشر مذهبه ثم رجع عنه إلى مذهب أهل الحديث وانتسب للإمام أحمد، وألف في مذهب أهل السنة والجماعة: الإبانة، والموجز، ورسائل الثغر، إلا أنه بقيت عليه بقايا من مذهب ابن كلاب، وتوفي ببغداد سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، قال الذهبي: ويقال بقي إلى سنة ثلاثين وثلاثمائة. ا. هـ. انظر: تاريخ بغداد (١١/ ٣٤٦)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٨٤)، وسير أعلام النبلاء (١٥/ ٨٥)، وشذرات الذهب (٢/ ٣٠٣)، والبداية والنهاية (١١/ ١٨٧).

والقدر، في مسائل الإيمان، فهم يتعصبون جدًا ولا يتقبلون لإمامهم الذي يظنون أنه يقول هذا الكلام غير الموافق للسنة، ويردون الأدلة؛ لأنها لا توافق ما قاله الأشعري، وهم في الحقيقة لا يدرون ما رجع إليه الأشعري، ما قاله في آخر أقواله، وما أثبته في كتبه المتأخرة في إثبات عقيدة أهل السنة والجماعة، وكما يتعصب بعض أتباع المذاهب لإمامهم ويردون الأحاديث من أجل قوله، مع أن إمامهم قال: «إِذا صحّ الْحدِيثُ فهُو مذْهبِي»، «**إذا صح الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط، كل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ**»، «**دعوا قولي لقول رسول الله ﷺ**»[1]، ما من إمام من الأئمة إلا ونقل عنه هذا اللفظ أو هذه المعاني، ومع ذلك فالمتعصبون من بعدهم لا يدرون مقالة العلماء، لا يدرون ما عليه طائفتهم، فحصل بذلك من أنواع الافتراق؛ لأنهم شابهوا أهل الكتاب من اليهود الذين يزعمون حبهم لأنبياء بني إسرائيل، يزعمون أنه آمنوا بما أنزل عليهم، أي: على أنبياء بني إسرائيل، وفي نفس الوقت لا يدرون أن هذا التوحيد هو الذي جاءت به أنبياء بني إسرائيل ولما جاءت الأنبياء بذلك ردوا ما جاءت به الأنبياء، وفريقًا كذبوا وفريقًا يقتلون، قال الله ﷻ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، فهم لا يعرفون ما جاء به أنبياء بني إسرائيل؛ لأن ما جاءوا به يخالف ما هم عليه، وهم قتلوا قبل ذلك من الأنبياء وسعوا في قتل رسول الله ﷺ.

أهل الكتاب في شأن موسى وعيسى - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - ينطبق عليهم هذا الوصف أو هذه الصفة انطباقًا جليًا، لا يعرفون

(١) راجع (ص ١١٧).

ما قاله عيسى، ولا يعرفون ما قاله موسى، ومع ذلك يتعصبون لأنبيائهم - أعني: التعصب للأنبياء حق - ولكن لا يكون بأن يُكفر بالأنبياء الآخرين، هذه هي الجاهلية؛ أن يجعل الإيمان بموسى أو عيسى أو بهما مقتضيًا للكفر بمحمد ﷺ، وهذا من أبطل الباطل، الإيمان بموسى وعيسى مستلزم للإيمان بمحمد ﷺ، فهم يخالفون ما جاء به المسيح، وأنت تتعجب حين تسمع أهل الكتاب النصوص من التوراة والإنجيل التي بأيديهم موافقة لما جاء به محمد ﷺ، مخالفة لما يقوله أحبارهم ورهبانهم، فيقولوا: أهذا في الإنجيل؟! أهذا في التوراة؟! وهم لا يدرون ما يقولون؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، الكتاب عندهم عبارة عن كتاب يُقرأ، يدندن به، يقال بالتغني، دون أن يفهموا المعاني، ولا يستطيعون دفعه، ولا يستطيعون رده، ولا يدرون كيف يردون هذه النصوص الواضحة في التوحيد، الواضحة في عبادة الله وحده لا شريك له، كما ذكرنا طائفة من ذلك مرات من قول المسيح عليه السلام: **(فأجابهُ يسُوعُ وقال: اذْهبْ يا شيْطانُ! إِنّهُ مكْتُوبٌ: لِلرّبِّ إِلهِك تسْجُدُ وإِيّاهُ وحْدهُ تعْبُدُ)**(١)، و**(فجاء واحِدٌ مِن الْكتبةِ وسمِعهُمْ يتحاورُون، فلمّا رأى أنّهُ أجابهُمْ حسنًا، سألهُ: أيّةُ وصِيّةٍ هِي أوّلُ الْكُلِّ فأجابهُ يسُوعُ: إِنّ أوّل كُلِّ الْوصايا هِي: اسْمعْ يا إِسْرائِيلُ. الرّبُّ إِلهُنا ربٌّ واحِدٌ. وتُحِبُّ الرّبّ إِلهك مِنْ كُلِّ قلْبِك، ومِنْ كُلِّ نفْسِك، ومِنْ كُلِّ فِكْرِك)**(٢)، وقوله: **(وهذِهِ هِي الْحياةُ الأبدِيّةُ: أنْ يعْرِفُوك أنْت الإِله الْحقِيقِيّ وحْدك، ويسُوع الْمسِيح الّذِي**

---

(١) انظر: انجيل لوقا (٤).

(٢) انظر: انجيل لوقا (١٠).

أرْسلْتهُ)[١]، نص صريح قاطع في أن عيسى رسول، وأن الإله الحقيقي وحده هو الله وحده لا شريك له، عيسى عليه السلام يخاطب ربه عز وجل: (**وهذِهِ هِي الْحياةُ الأبدِيّةُ: أنْ يعْرِفُوك أنْت الإِله الْحقِيقِيّ وحْدك، ويسُوع الْمسِيح الّذِي أرْسلْتهُ**). من الذي يقول هذه العقيدة؟!

سبحان الله! هذه ليست عقيدة النصارى؛ لذلك كثير جدًا من المفكرين والمنصفين قالوا: إن هذه العقيدة ليست هي التي قالها المسيح في الأناجيل، ليست هي التي يدل عليها الإنجيل، هذا إنصاف من العقلاء منهم، أن هذا دين الكنيسة وليس دين المسيح، أن هذا دين بولس وليس دين المسيح، فعلاً هم لا يعلمون ما تقوله طائفتهم، أعني: التي ينتسبون إليها، رؤوس الطائفة، كما ذكرنا هذا الأمر موجود في أهل الكتاب، وموجود في أهل البدع، وموجود في أهل التعصب المذهبي المذموم الذي وجد في المتأخرين.

---

(١) انظر: انجيل يوحنا الاصحاح (١٧).

الْمسْألةُ الثّلاثُون: وهِي مِنْ عجائِبِ آياتِ اللَّهِ! أنّهُمْ تَرَكُوا وصِيّة اللَّهِ بِالاجْتِماعِ، وارْتكبُوا مَا نَهَى عنْهُ مِنَ الافْتِراقِ، وَصَارَ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لديْهِمْ فرِحِين.

الــشــرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ: (**الْمسْألةُ الثّلاثُون: وهِي مِنْ عجائِبِ آياتِ اللهِ! أنّهُمْ تركُوا وصِيّة اللهِ بِالاجْتِماعِ، وارْتكبُوا ما نهى عنْهُ مِنَ الافْتِراقِ، وصار كُلُّ حِزْبٍ بِما لديْهِمْ فرِحِين**)، وهي متعلقة بما قبله؛ لأنهم إنما يأخذون من الحق ما وافق الطائفة، وهم لا يدرون في الحقيقة ما قال الأئمة في هذه الطائفة، فصاروا لما تفرقوا بسبب ذلك، وصاروا أحزابًا وفرقًا، بدعًا أهواءً، ليس التحزب المقصود الذي ذمه الله في كتابه إلا بأن يأخذ جانبًا من الحق ويترك جانبًا، يأخذ جانبًا يوافق طائفته ويترك جانبًا يخالف طائفته، قال الله ﷻ: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، كيف تفرقون؟ قطعًا، قد جعلوا الكتاب زبرًا، جعلوه قطعًا، يأخذون جزءًا ويتركون جزءًا، علام يقبلون وعلام يرفضون؟ على طائفتهم، هذه هي الحزبية المذمومة، هذا اللفظ الذي كثر استعماله في زماننا هو الذي يجب أن يفهم كيف ذمه القرآن، وإلا فأهل الإيمان حزب، ولابد وأن يكونوا كذلك على الحق كله؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۝٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝٥٦﴾ [المائدة: ٥٥ - ٥٦].

إذًا، هناك حق جاء به الرسول ﷺ لابد وأن يقبل كله، لابد أن نقبله كله

وأن نجتمع عليه، هناك من الناس من يعد مجرد الاجتماع على أي شيء حزبية، وهذا من الجهل وهذا من الضلال والمنكر؛ لأن الواجب أن نجتمع على الحق: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢]. أي حزبية ذمها الله؟ أنهم قطعوا الكتاب زبرًا، ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾: قطعوا الدين، فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، كل حزب بما لديهم فرحون، جعلوا هذا الذي نقبله من الدين؛ لأنه يوافق الحزب الذي نحن عليه؛ وأما ما يخالفه فنرده ونؤوله ونصرفه ونضعفه، هذا هو المنكر، وليس مجرد الاجتماع، الاجتماع المذموم هو الاجتماع على الباطل، أو الاجتماع على رد شيء من الحق، الاجتماع المذموم هو التعاون على الإثم والعدوان، على البدعة والضلال، لا تجد أئمة العلم ينكرون أي اجتماع للناس على طاعة، وإنما ينكرون الاجتماع على بدعة والاجتماع على منكر؛ ولذلك لم ينكروا الخير الذي عند الطوائف التي قامت بشيء من الدعوة إلى الله ﷻ، وكان عندها مخالفات أنكرها العلماء وأثنوا على ما قاموا به من الخير.

وهذا هو الواجب أن الشخص إذا كان فيه سنة وبدعة، وطاعة وفجور، كان له من الحب والولاء على قدر ما معه من السنة والطاعة، وكان له من البغض والبراء على قدر ما عنده من البدعة والمعصية؛ وأما إذا كان على الحق لا نعرف عنه منكرًا ولا بدعة ولا ضلالة ولا معصية، فلابد أن يحب من كل وجه، المؤمن الكامل الإيمان؛ وأما الكافر فلا خير عنده؛ ولذلك يبغض من كل وجه؛ لأنه عمله حابط، وإن كان لابد إذا قال حقًا أن نقبله؛ لأنه حق، ولو كان إبليس، لو كان شيطانًا، ولكن لا نحبه؛ لأنه لم يقل هذا

الحق ابتغاء وجه الله؛ ولأنه حابط بالشرك بالله ﷻ، هو نفسه مبغوض والحق الذي قاله مقبول.

إذًا، هذه المسألة وهي أنهم أمروا بالاجتماع لما تركوا وصية الله بالاجتماع، وأن نكون على قول واحد، أن نأتلف وأن نتعاون على البر والتقوى أمر الله ﷻ، قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾: لابد أن يكونوا أمة وطائفة، وليسوا أفرادًا فقط؛ لأن الواجبات المنوطة بالأمة الإسلامية لا يمكن أن يقوم بها آحاد، يعجزون إذا أرادوا أن يقوموا بها، وإنما إذا اجتمعوا تعاونوا على البر والتقوى، ونهاهم عن التفرق، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥]. إذًا، لما خالفوا هذه الوصية ارتكبوا ما نهى الله عنه من الافتراق، كيف؟ لأنهم - كما ذكرنا - جعلوا الكتاب والسنة قسمين: قسم يوافق ما عليه طائفتنا، وقسم يخالفه. القسم الذي يخالفه نؤوله ونضعفه ونرده ونقول: هو منسوخ أو نحو ذلك، والقسم الذي يوافق هو الذي نقبله، هذا هو التحزب المذموم؛ أن كل طائفة تأخذ من الدين ما يوافقها، جعلوا الدين زبرًا تفرقوا أمرهم، فتقطعوا أمرهم بينهم زبرًا، عند ذلك صار كل حزب بما لديهم فرحون، يفرحون ويقولون: نحن نوافق الحق في كذا وكذا، ولماذا تركتم باقي الحق؟ لماذا تركتم باقي الأدلة؟ وأيضًا، أنتم فرحون بالباطل الذي عندكم؛ لأنه ما من حق يترك إلا ويحل محله باطل، إذا تركت السنة وضعت مكانها بدعة، فتجدهم يفرحون جدًا بالبدع والضلالات، وأضرب على ذلك أمثلة: الذين اتخذوا القبور

مساجد، لما عظم الأمر عندهم أنهم تركوا النصوص الواضحة - من أوضح ما يمكن، ومستفيضة في الصحيحين وغيرهما -، صار فرحهم وحبهم لهذه المساجد المبنية على القبور، وصارت وصيتهم لهذه البدع والضلالات، وصار أعظم ما يجدون من الفرح عند هذه الأماكن وفي الموالد وفي الاجتماعات البدعية التي هم عليها، لما تركوا السنة وفعلوا البدعة صار كل حزب بما لديهم فرحون، يفرحون بالبدعة والضلالة، ويظنون أنفسهم على الحق، ويأخذون جانبًا من الحق يلبسون به على الناس باطلهم، والعياذ بالله؛ لذلك الاجتماع الواجب هو الاجتماع على الحق كاملاً كما جاء به النبي ﷺ، ومن كان معه شيء من الحق قبل منه وأعين عليه، وإن لم يعن على غيره من الباطل الذي قد يكون عنده أو من البدعة التي يكون عليها أو من المعصية والفجور التي قد يفعلها؛ وأما إذا افترق الناس فعند الافتراق لابد وأن نعتصم بما كانت عليه الجماعة قبل الافتراق، قال النبي ﷺ: «**فعليْكُمْ بِسُنّتِي وسُنّةِ الخُلفاءِ الرّاشِدِين المهْدِيِّين وإِيّاكُمْ ومُحْدثاتِ الأُمُورِ، فإِنّ كُل بِدْعةٍ ضلالةٌ**»[1]، وقال ﷺ: «**منْ أحْدث فِي أمْرِنا هذا ما ليْس مِنْهُ فهُو ردٌّ**»[2]، وفي لفظ: «**منْ عمِل عملا ليْس عليْهِ أمْرُنا فهُو ردٌّ**»[3].

هذا الكلام هو القاعدة الذهبية في معالجة الافتراق، ليس أن يعد كل اجتماع هو حزبية مذمومة كما يفعل البعض، ويحاولون إلصاق تهمة

(١) سبق تخريجه (ص٢٩٥).
(٢) سبق تخريجه (ص٢٩٥).
(٣) سبق تخريجه (ص٢٩٦).

الحزبية بكل من يدعو إلى العمل الجماعي أو الاجتماع على البر والتقوى أو التعاون على البر والتقوى مهما كانت الألفاظ، ولا شك أن الحزبية المذمومة هي - كما ذكرنا - من الاجتماع على بدعة وضلالة أو على تقسيم الدين إلى شيء يقبل وشيء يرد، ما عليه طائفتنا نقبله وما خالفها نرده، نعوذ بالله، هذا هو الذي يؤدي إلى الفرقة، وهذا هو الذي يجعلهم كل حزب بما لديهم فرحون، فهذه هي الحزبية المذمومة التي لابد وأن نحذر منها.

الْمسْألةُ الْحادِيةُ والثّلاثُون: وَهِيَ مِنْ أعْجبِ الآياتِ أيْضًا! مُعاداتُهُمُ الدِّينَ الّذِي انْتسبُوا إلِيْهِ غَايَةَ الْعَدَاوَةِ، وَمَحَبَّتُهُمْ دِينَ الكُفّارِ، الَّذِينَ عادُوهُمْ وعادُوا نبِيّهُمْ وفِئتهُمْ، غاية الْمحبّةِ، كَما فعلُوا مَعَ النّبِيِّ ﷺ، لَمَّا أتاهُمْ بِدِينِ مُوسى عليه السلام، واتّبعُوا كُتُب السِّحْرِ، وهِي مِنْ دِينِ آل فِرْعوْن.

الشــــرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: (**الْمسْألةُ الْحادِيةُ والثّلاثُون: وهِي مِنْ أعْجبِ الآياتِ أيْضًا! مُعاداتُهُمُ الدِّين الّذِي انْتسبُوا إلِيْهِ غاية العداوةِ، ومحبّتُهُمْ دِين الكُفّارِ، الذين عادُوهُمْ وعادُوا نبِيّهُمْ وفِئتهُمْ، غاية الْمحبّةِ، كما فعلُوا مع النّبِيِّ ﷺ، لمّا أتاهُمْ بِدِينِ مُوسى عليه السلام، واتّبعُوا كُتُب السِّحْرِ، وهِي مِنْ دِينِ آل فِرْعوْن**) هو يصف أولاً حال اليهود الذين وقع منهم ذلك، فيذكر معادتهم الدين الذي انتسبوا إليه، واليهود أصلاً ينتسبون إلى دين موسى عليه السلام، وموسى عليه السلام جاء بدين الإسلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، فعادوا الرسول ﷺ وعادوا دين الإسلام غاية العداوة، مع أنهم ينتسبون إلى دين موسى، ويقولون: نحن أتباع موسى، ندين بما دان به موسى، فهذا هو دين موسى عليه السلام، ومحبتهم إلى الكفار، اليهود والنصارى شديدا التعلق بالسحر، وأصلاً من الذي أمر بالسحر؟ فرعون، فرعون هو الذي دعا السحرة وأكرههم على السحر، وكان ينشر باطلهم بهذا السحر، قال الله ﷻ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ

كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، اليهود والنصارى من أشد الناس تعلقًا بالسحر - والعياذ بالله - وعمل الأعمال، وزعم أن هذا مما يؤيدون به دين الأنبياء، والعياذ بالله، والعجب أن هذا مما قد وجد في بعض الناس، حتى قريبًا جدًا قرأنا أن هناك من قال - من بعض المتأخرين -: إن تعلم السحر واجب لدفع سحر أهل الكتاب، يا للعجب! ألم يكن النبي ﷺ في أهل الكتاب من يسحروا ويعمل السحر، بل نص الكتاب على ذلك، فهل أمر الله أو أمر النبي ﷺ المسلمين أن يتعلموا السحر؟! نسأل الله العافية، عجب!

كيف يكون هذا الكلام، ويوجد من ينتسب إلى الأمة وينتسب إلى العلم، حتى يُقال: إن هذا من كلام العلماء؟!

والذي يريد أن يأتي بكتب ويقول: العالم الفلاني قال بأنه فرض عين، وهناك من قال: فرض كفاية لنرد به سحر أهل الكتاب، عجب! كيف يقول عالم بعد أن اطلع على الأدلة؟! ولكن - كما ذكرت - الذي يريد أن يُخرج من الكتب أي شيء، كالذي يقول: العالم الفلاني قال، فليقل، لابد أن ننظر في دليله، المسألة أن اليهود عادوا دين الإسلام وأحبوا دين الكفار الذين عادوهم، يعني: فرعون عادهم وعادى نبيهم وفئتهم وهم أحبوا هذا الدين الذي كان عليه فرعون غاية المحبة، كما فعلوا مع النبي ﷺ، لما اليهود أتاهم بدين موسى فتركوا دين موسى واتبعوا دين السحرة، واتبعوا كتب السحرة وهي من دين آل فرعون، فهل هذا الكلام حاصل في الأمة الإسلامية؟ نعم، هناك من ينتسب إلى الإسلام ممن يعادي التوحيد غاية العداوة، ويرفض هذا التوحيد، يرفضه في كل مظاهره، منهم من يرفضه

ويأباه إذا قيل له: لا تدعو غير الله، ولا تغالوا في الأولياء والصالحين، يعادوك أشد العداوة؛ الرافضة والصوفية، وهم يقولون: نحن نحب النبي ﷺ، نحب آل البيت، ونحن نجزم أن آل البيت ما كانوا على ذلك، وأن العلماء ما كانوا على ذلك، على الغلو في الصالحين، ما كانوا على صرف العبادات لهؤلاء الصالحين، بل هذا الذي جاء به النبي ﷺ ليبطله، جاء النبي ﷺ ليبطل هذا الأمر، النبي ﷺ جاء ليبطل عبادة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ليبطل على أنها ترمز للملائكة الصالحين، في الحقيقة بلا شك أنهم صالحون، زعموا أنهم بنات لله فعبدوهم على أنها توصلهم إلى الله، على أنهم شفعاء لهم عند الله، فجاء النبي ﷺ ليهدم هذا، فمن جاءهم بمثل هذا عادوه أشد المعاداة، وأحبوا دين الكفار الذي هو دين من يعبد اللات والعزى، والعياذ بالله، من يعبد القبور ومن يعبد الأوثان التي عليها، ومن يعبد الصالحين، مع أن الكفار عادوهم، هم لماذا عادوا آل النبي ﷺ؟ من أجل أنه نهاهم عن هذا.

انظر: إلى العجب فعلاً! الشيخ رحمه الله واضح الاستدلال بأدلة الكتاب والسنة، ويطبقها على الواقع فعليًا، تجد الذين يأبون التوحيد، الذين يأبون تحكيم شرع الله سبحانه وتعالى في الحقيقة تنتسب إلى الإسلام، الإسلام هو هذه الشريعة، أنتم ترفضون، تعادون من يطالب بالشريعة أشد المعادة، وترفضون تطبيقها من أجل ماذا؟

من أجل من خالفهم وعاداهم أشد المعاداة من أعداء الإسلام؛ من اليهود والنصارى والمشركين الذين يأبون شرع الله سبحانه وتعالى، تقبلون كلامهم، تقبلون دينهم الباطل، وتأبون ما جاء به النبي ﷺ وما دعاكم إليه، وتحبون

دين الكفار الذين عادوكم من أجل هذه الشريعة وعادوا فئتكم، عادوا المسلمين من أجل هذه الشريعة حسدًا وحقدًا، فسبحان الله! فعلاً من أعجب الآيات معادتهم الدين الذي انتسبوا إليه غاية العداوة، توحيد الله ﷻ تجد أناسًا اسمهم مسلمين ويعادون الشريعة، انظروا لماذا اليوم تقوم الحروب في باكستان؟! الإنسان يتعجب ما الموضوع؟ لماذا هذه الحرب الشعواء الشديدة؟ لأجل ماذا؟ لأجل تطبيق الشرع؛ تطبيق الشرع حاجة كأن الدنيا تنهد لو طبقت الشريعة في مكان من الأمكنة، وأموال كانت تدفع في الماضي تحت الترابيزة، والآن، كم ستأخذون؟ خمسة ملايين، لا نريد عشرة مليارات لكي نحارب الناس الذين يريدون تطبيق الشريعة، شيء عجيب جدًا، هم عادوكم من أجل هذه الشريعة، وأنتم تنتسبون إلى الإسلام، وأنتم تقولون: إننا مسلمون، وعندنا صلاة وصوم وزكاة وحج، تعادون الذين انتسبتم إليه غاية العداوة، وتحبون دين الكفار الذي هو العلمانية والقوانين الوضعية وغير ذلك، كما ذكرنا في الصوفية والرافضة يعادون التوحيد غاية العداوة، وأصلاً أعداؤكم عادوكم لأجل هذا التوحيد، عادوكم من أجل هذه الشريعة، فتحبونهم غاية المحبة، وتتبعونهم على ما جاءوا به، وهم إنما عادوكم من أجله، وهم لا يزالون ينتسبون إلى الإسلام، ويقولون: نحن مسلمون، ونحب الإسلام، ونحب النبي ﷺ، ونحب آل البيت، ونحب أولياء الله الصالحين، وهم ليسوا كذلك، آية من آيات الله عجيبة.

الْمسْألةُ الثّانِيةُ والثّلاثُون: كُفْرُهُمْ بِالْحقِّ إِذَا كَانَ مَعَ مَنْ لاَ يهْووْنهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣].

الــشـــرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: (**الْمسْألةُ الثّانِيةُ والثّلاثُون: كُفْرُهُمْ بِالْحقِّ إذا كان مع منْ لا يهْوونهُ؛ كما قال تعالى:** ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣]

المؤمن يتبع الحق ويقبله من أي قائل قال به، ولو كان عنده من الباطل ما عنده، لا يدفعه ذلك الباطل إلى أن يرد الحق الذي معه، فإن هذا من قبول الحق؛ لأنه حق من عند الله ﷻ، لا يلتفت المؤمن الصادق إلى من يقوله ليقبله أو يرفضه، بل دائمًا يعرض الكلام على ما جاءت به الرسل، فإن وافقه فهو الحق، وإن خالفه فهو الباطل كائنًا من كان قائله، وهذا هو الإنصاف الواجب، وهذا من أصعب الأمور على النفوس الجاهلة التي إنما تعرف أو تظن الحق بالرجال، بمعنى أنها تتبع ما يقوله من ينتمي إلى طائفتهم، تتبعه وتقبل ما يقوله من يحبونه ويهوونه، وإن قال باطلاً قبلوه، وإن قال حقًا فهذا الذي يدندنون حوله؛ وأما إن كان هذا القائل لا يحبونه ولا يهوونه، فإنهم يردون كل ما معه ولا يقبلون شيئًا من الحق، وهذا لتعصبهم، والتعصب كما هو يكون للأشخاص وللطوائف وللشعوب وللألوان وللأجناس، يكون ضدهم، ويكون مذمومًا كذلك، بمعنى: أن من تعصب مثلاً ضد النصارى حتى شتم المسيح عليه السلام وسبه واتهمه بما هو بريء منه كفعل اليهود، كان هذا

من الكفر، والعياذ بالله، وكذلك من تعصب ضد العرب فأبى أن يقبل ما جاء به النبي ﷺ، وقال للذين أشركوا وكفروا وكذبوا الرسل جميعًا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾، هذه المسألة وهي قبول الحق والانقياد له والإعانة عليه وتصديقه من كل من جاء به، حتى ولو كان عنده من الباطل هو سمة أهل الإيمان التي تصعب على كثير من النفوس، وقد قال النبي ﷺ لأبي هريرة عن الشيطان الذي علمه آية الكرسي قبل أن ينام، فقال: «**أما إِنّهُ قدْ صدقك وهُو كذُوبٌ، تعْلمُ منْ تُخاطِبُ مُنْذُ ثلاثٍ ليالٍ يا أبا هُريْرة؟ قال: لا، قال: ذاك شيْطانٌ**»[1]، فعلمنا النبي ﷺ أن نقبل الحق ولو قاله الشيطان، وليس لأجل أنه شيطان نرد كل ما قال حتى ولو كان صدقًا، ولا يعرف الحق بقائله، وإنما نعرف الحق فنعرف أهله، ونعرف الباطل فنعرف أهله، ليس هؤلاء اليهود والنصارى الذين يعلم كل منهم أن الطائفة الأخرى معها شيء من الحق، فالتوراة صدق، أعني: أنها نزلت من عند الله ليست التي بأيديهم، لكن النصارى لا يعتقدون أن التوراة حرفت، ومع ذلك يتركون أحكام التوراة ويتبعون ما قاله الأحبار والرهبان، لماذا؟! لأنهم قالوا: ليست اليهود على شيء، عندهم مثلاً تحريم الخنزير في التوراة، وإباحة الطلاق في التوراة، وهم لا يعتقدون بالنسخ أصلاً، يقولون: لا يوجد شيء اسمه نسخ في الشرائع، ويعتقدون أن المسيح جاء ليتمم الناموس، لم يأت لينقض شيئًا منه، وكما ذكرنا لا يعترفون بالتحريف ولا يقولون به، ومع ذلك تجدهم استحلوا الخنزير، بماذا؟ بقرارات من المجامع التي يسمونها

(١) أخرجه البخاري (٢٣١١، ٣٢٧٥، ٥٠١٠).

المقدسة، وحرموا الطلاق، وجعلوه من أعظم الكبائر، وأن من طلق المرأة فتزوجت فهو زنا، بكلام منسوب كذبًا إلى المسيح عليه السلام وما قاله، وإنما اخترعوه من عند أنفسهم، وإلا فالأمر كان موجودًا في العهد الأول، وكذلك اليهود علموا أن عيسى عليه السلام جاء بالبينات وأقام الله عز وجل له الحجج التي تثبت صدقه، فكذبوه ورفضوا التصديق به ورفضوا الإنجيل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [البقرة: ١١٣].

وهذا من العجب! يقرءون في التوراة توحيد الله عز وجل، بل وفي الإنجيل، ومع ذلك يتركون الكتاب ويقولون بخلاف ذلك تعصبًا ضد اليهود؛ لأنهم يكرهونهم، كان ذلك في الزمن الماضي، فلما اتفقوا على المسلمين صارت عداوتهم كلها موجهة للمسلمين، يتفقون عليهم ويتحدون عليهم، مع ما في قلوب بعضهم لبعض من الكراهية والبغضاء، ولكن هي نفس السمة الموجودة فيهم هي التي يطبقونها على أهل الإسلام، يقولون: أهل الإسلام ليسوا على شيء، ويوالون عباد الأوثان والملحدين بالكلية، ويوالون عباد البقر، وغير ذلك من الملل إذا كانوا ضد أهل الإسلام، هذا من التعصب المذموم ضد الأمة الإسلامية؛ لأنها عندهم ليست من بني إسرائيل، هذا بداية الأمر، لماذا كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم؟ لأنه ليس من بني إسرائيل، حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، كفروا وكذبوا، المؤمن يقبل الحق من كل قائل به؛ لذلك أهل السنة يقبلون الحق الذي عند أهل البدع، إذا كان عندهم حق قبلوه؛ ولذلك هم وسط في فرق الأمة كما أن أهل الإسلام وسط بين الأمم، بين الإفراط والتفريط، فأهل السنة في

باب أسماء الله وصفاته بين المشبهة الممثلة وبين المعطلة النفاة[(١)]، يقبلون الحق الذي عند كل طائفة، ويردون الباطل الذي عندهم، فالممثلة تمسكوا بالنصوص التي تدل على إثبات الصفات، وإثبات الصفات حق، لكن تمثيل الرب بالمخلوقين ليس في كتاب ولا سنة، أن يقول قائلهم: إن ربنا ينزل إلى السماء الدنيا كنزولي من على المنبر مثلاً، أو إن الله ﷻ يجلس على العرش كما يجلس أحدنا على الكرسي، فهذا من عند أنفسنا، التشبيه باطل، التمثيل نفاه القرآن: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، لكن قبلوا ما دلت عليه الأدلة من إثبات الصفات دون تمثيل، المعطلة النفاة الذين ينفون صفات الرب ﷻ، ما الذي جعلهم ينفونها، هم ينفونها لأجل نفي التمثيل، يقولون: إن تنزيه الرب ﷻ عن مشابهة المخلوقات ومماثلة المحدثات واجب. نقول: هذا حق ونحن نقول به ونقبله، ولكن هم التزموا أن من لوازم نفي التمثيل والتشبيه أن ننفي الصفات، ونقول: لم يستو على العرش، أو (استوى) بمعنى: استولى، نقول: لا يوصف بأن له يدًا، لماذا؟! يقولون: لو أثبتنا اليد لأثبتنا التمثيل، لا، أثبت اليد، قل: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّۖ﴾، وانفي التمثيل، فقبلنا ما عندهم من الحق وهو نفي التمثيل، ورددنا الباطل الذي هو نفي الصفات. كذلك بين القدرية النفاة وبين الجبرية الغلاة[(٢)]، الجبرية غلوا في إثبات القدر، حتى قالوا: إن إثبات

---

(١) انظر: العقيدة الواسطية ضمن مجموع الفتاوى (٣/ ١٤١).

(٢) القدرية هم نفاة القدر القائلون بأن العبد يخلق فعل نفسه، وليس لله فيه إرادة ولا خلق =

القدر يلزم منه نفي مشيئة العباد وقدرتهم، وأن العباد مجبورون على أفعالهم، وهم لم يفعلوا شيئًا أصلاً، وإنما الله يحاسب الناس على فعله بهم، والعياذ بالله[1].

الحق الذي عندهم هو إثبات مشيئة الله وقدرته، وأن أفعال العباد تحت مشيئة الله وقدرته، ولكن الباطل الذي عندهم هو نفي مشيئة العباد ونفي قدرة العباد، أين هذا في كتاب الله، وقد قال ﷻ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩]؟! فقبلوا الحق الذي هو إثبات مشيئة الله وقدرته، وأن أفعال العباد ومشيئتهم تحت قدرة الله ﷻ، تابعة لمشيئة الله، ونفوا الباطل الذي عندهم وردوه الذي هو القول بالجبر، وأن العباد لا قدرة لهم ولا مشيئة ولا اختيار، القدرية

= ولا مشيئة، فأنكروا عموم المشيئة والخلق. قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص٤٩٣): (والقدرية نفاة القدر جعلوا خالقين مع الله تعالى؛ ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة، بل أردأ من المجوس...) ا.هـ. ويُطلق اسم القدرية على الغلاة في القدر، وهم الجبرية. انظر: الفرق بين الفرق (ص١١٢، ٢٤١)، ومجموع الفتاوى (٨/ ٧ - ٥٨)، والصفدية (١/ ٥٠)، ودرء التعارض (١/ ٣٧١ - ٣٧٤).

(١) قال ابن القيم رحمه الله في نونيته:

وَالعبدُ عندهُمُ فَليسَ بِفَاعلٍ ... بَل فعلُهُ كَتحرُّكِ الرَّجفَانِ
وهَبُوبِ ريحٍ أو تحرُّكِ نائمٍ ... وتحرُّكِ الأشجَارِ للمَيَلاَنِ
واللهُ يُصليهِ على مَا لَيس مِن ... أفعالِهِ حَرَّ الحَمِيمِ الآنِ
لَكِن يُعاقِبُهُ على أفعَالِهِ ... فيهِ تعالَى اللهُ ذُو الإِحسَانِ

انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (١/ ٥٧).

النفاة قالوا: لو أن الله أكره عباده وأجبرهم بدون إرادة منهم على أفعال ثم حاسبهم عليها كان ظلمًا، والله عدل، فهو ﷻ كيف يكلفهم بالشرائع، ثم بعد ذلك يمنعهم من الهدى والإيمان رغمًا عنهم ثم يحاسبهم على ذلك؟! وهذا حق أن الله ﷻ عدل، وأنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وأنه جعل للعباد قدرة ومشيئة، لكنهم قالوا بباطل، وقالوا: إن إثبات قدرة العباد ومشيئتهم واختيارهم يستلزم نفي تعلق مشيئة الله بهذه الأفعال، ونفوا الهداية والإضلال، ونفوا خلق الله لأفعال العباد، وقالوا: لو خلق أفعالهم لكان مجبرًا لهم مُكرِهًا، وكذبوا في ذلك، فقبل أهل السنة الحق الذي عندهم من إثبات قدرة العباد ومشيئتهم، وردوا الباطل الذي هو نفي مشيئة ونفي قدرة الله على أفعال العباد، ونفي خلق الله لأفعال العباد، ردوا ذلك فقبلوا الحق الذي عند هؤلاء والحق الذي عند هؤلاء فاجتمع عندهم الحق كله، وكانوا وسطًا في فرق الأمة بين الفرق المختلفة الخوارج والمرجئة؛ المرجئة الذين أخرجوا العمل من الإيمان، والخوارج الذين قالوا: إذا ترك شيئًا من العمل أو فعل شيئًا من المعاصي كفر، خالفهم أهل السنة، قبلوا الحق الذي عند هؤلاء والذي عند هؤلاء، فقالوا بمقتضى نصوص أحاديث الوعيد بمعنى: أن مرتكب الكبيرة وكذا الذي كثرت سيئاته على حسناته هو يستحق دخول النار، ومنهم من يدخل النار، ولكن لا يخلد فيها، هذا هو الحق الذي قالت به المرجئة في نصوص فضل (لاإله إلا الله)، وأن من قال: (لا إله إلا الله) سوف يخرج من النار يومًا من الدهر أصابه قبل هذا اليوم ما أصابه، وردوا الباطل الذي عند الخوارج من تخليد مرتكب الكبيرة، وقبلوا الحق الذي عندهم من أن مرتكب الكبيرة معاقب مستحق

للعقاب، وهو في مشيئة الله، ومنهم من يعاقب قطعًا كما ذكرنا، وقبلوا الحق الذي عند المرجئة من فضل التوحيد وفضل (لا إله إلا الله)، وردوا الباطل الذي عندهم من أن العمل ليس من الإيمان، وردوا الباطل الذي عندهم أنه لايضر مع الإيمان معصية، وهكذا كانوا في أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بيته قبلوا الحق الذي عند الرافضة أو عند الشيعة من حب آل بيت النبي ﷺ وتوليهم، وردوا الباطل الذي عندهم من الغلو فيهم والطعن في أصحاب محمد ﷺ، فالرافضة جعلوا حب آل بيت النبي ﷺ مستلزمًا للطعن في الصحابة رضي الله عنهم، ولتكفيرهم وتفسيقهم وتضليلهم؛ أما النواصب فقد رد أهل السنة الباطل الذي عندهم من معاداة أهل البيت والتعصب ضدهم وظلمهم، وأبوا ذلك، وقبلوا الحق الذي عندهم من عدم الغلو في أهل البيت، وفي الترضي عن أصحاب النبي ﷺ ومعرفة فضله، فلما قبلوا الحق الذي عند كل طائفة، كان هذا هو الوسط الذي جعلهم الله عليه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فأهل الإيمان كذلك في كل الأمور يحبون أولياء الله ﷻ ولايعبدونهم، لو قال لهم الصوفية الغلاة: أولياء الله، نحن نحبهم، قلنا لهم: نعم، نحن نحب أولياء الله ﷻ، نقبل هذا الحق، لكن إذا قالوا: إذًا، فنحن نبني على المساجد على قبورهم، ونطوف بتلك القبور وننذر لها، ونستغيث بهؤلاء الأولياء، ونطلب منهم قضاء الحاجات أو نستشفع بهم ونحو ذلك، قلنا لهم: لا. نحن نرد هذا الباطل، حب أولياء الله الصالحين واجب، وحب آل بيت النبي ﷺ واجب، ولكن لا يعني ذلك أننا نقبل هذا الباطل الذي عندكم، لاندعو غير الله، ولا نغلوا في الدين، ولا نقبل هذا الذي تذكرونه عن صرف العبادات

لهؤلاء الأولياء، ولا اتخاذ قبورهم مساجد، نحن نمتثل الحق، وبذا نتوسط بين من غلا وجفا، بعض من انحرف في هذا الباب كأنه يعادي أولياء الله أو ينكر كراماتهم، يقول: لابد أن ننكر هذه الخزعبلات التي يقولونها عن كرامات الأولياء التي لا تقبلها العقول؛ حتى يزعم البعض أن الكرامات ليست إلا الكرامة بالإيمان فقط، والإسلام والعمل الصالح، ليس هناك خوارق عادات لأولياء الله الصالحين، فكذبوا بذلك نصوصًا كثيرة من الكتاب والسنة، وانحرفوا في هذا الباب؛ لذلك نقول: ليس لأجل أن الصوفية قالوا بكرامات الأولياء مثلاً نرد كرامات الأولياء، بل نثبت كرامات الأولياء، ولكن لا نغلوا في الأولياء، وهكذا في كل المسائل: أننا نتبع الحق ونقبله من كل قائل قال به وافقنا أو خالفنا، وقال النبي ﷺ عن المشركين في الحديبية: «**والّذِي نفْسِي بِيدِهِ، لا يسْألُونِي الْيوْم خُطّةً يُعظِّمُون بِها حُرُماتِ اللّهِ إِلّا أعْطيْتُهُمْ إِيّاها**»[١]، فأهل السنة كذلك يسيرون على هذا النهج؛ يقبلون الحق ممن وافقهم وممن خالفهم، الحق بالدليل، الحق باتباع الوحي، بالكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة، وليس أننا نميز بناءً على أن هذا قال به فلان، فلابد أن نرده، أو هذا قال به فلان فلابد أن نقبله، وهذا مرض أصيبت به الصحوة الإسلامية كما أصيبت به الأمة قبل ذلك في طوائف كثيرة، أعني: أنه أصبح كثير من أفرادها يتبنون الأقوال لأجل أن الشيخ فلان يقوله، وآخرون يردون لأجل أن الشيخ فلان يقوله، إذا كانوا يحبون شيخًا من المشايخ قالوا: إن هذا يقوله الشيخ فلان، فلابد أن نقبل هذا الكلام، إذا كانوا يبغضونه ويعادونه قالوا: لابد أن نرد

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٥).

هذا الكلام، ويبحثون له عن كل ساقطة ولاقطة، ولو قال حقًا لردوه، والعياذ بالله، وهذا كله من الباطل، لابد أن نعلم أن الحق لا يعرف بالرجال، إنما يعرف باتباع الوحي باتباع الكتاب والسنة، وهذا هو الإنصاف الذي أمر الله ﷻ به، ومن يحب إماما أو شيخًا أو عالمًا أو داعية، لو كان صادقًا في حبه أنه لله لاتبعه على هذا النهج، وهو أنه إذا قال قولاً يوافق الكتاب والسنة قبله، وإذا قال خلاف ذلك رده، ولم يتعصب له التعصب الأعمى المذموم الذي هو التقليد بغير حجة وبغير دليل، وأن يزن كل الأمور بأقواله وأفعاله، لا، ليس كذلك، بل هذا ليس محبًا صادقًا، بل ربما كان سببًا في تبغيض من يحبه للناس، إذا رأوا الغلو فيه، وكذلك العكس عندما يغلو إنسان في بغض آخر، في بغض عالم أو طائفة أو نحو ذلك، فلا يقبل منهم الحق الذي عندهم، فيترتب على ذلك أن تتنكر له القلوب، وربما قبلوا الذي عند الطرف الآخر غيظًا له، وهذا - سبحان الله - يمكن أن يكون سببًا من أسباب نصرة الحق؛ كما قال حمزة رضي الله عنه لأبي جهل: **(أتشْتِمُهُ وأنا على دِينِهِ أقُولُ ما يقُولُ)**[(١)]، لما رآه ظالمًا له يسبه بما ليس فيه، كان ذلك سببًا في هدايته وقبوله الحق، فأسلم وحبب الله إليه الإيمان والإسلام من أجل ظلم أبي جهل والمشركين لرسول الله ﷺ، فالحق جدير بأن يقبل من كل قائل به أيًا من كان، ولسنا بالذين نرد الحق إذا كان مع من لا نهواه، كما فعل اليهود والنصارى وأهل البدع والضلال.

---

(١) انظر قصة إسلام حمزة رضي الله عنه في: سيرة ابن إسحاق (ص ١٧١)، وسيرة ابن هشام (١/ ٢٩١)، ودلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة (٢/ ٢١٨)، والروض الأنف (٣/ ٥٨).

الْمسْألةُ الثّالِثةُ والثّلاثُون: إِنْكـارُهُمْ مَا أقرُّوا أنّهُ مِنْ دِينِهِـمْ، كَمَا فَعَلُوا فِي حجِّ البيْتِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

الشـــرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**الْمسْألةُ الثّالِثةُ والثّلاثُون: إِنْكارُهُمْ ما أقرُّوا أنّهُ مِنْ دِينِهِمْ، كما فعلُوا في حجِّ البيْتِ، فقال تعالى:** ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]).

اليهود والنصارى يزعمون اتباع إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأن ملتهم تقتضي متابعته على ما شرعه الله لهم على لسان إبراهيم من أقوال وأفعال، وهم يزعمون أنهم أولى الناس بإبراهيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فامتحنهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمسألة حج البيت، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، فأبوا رغم علمهم أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو الذي بنى الكعبة المشرفة، وكذلك في أمر القبلة، هؤلاء السفهاء من الناس الذين قالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، مع أنهم يعلمون تعظيم هذه البقعة على لسان إبراهيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن إبراهيم أسكن إسماعيل هذه البرية، وهي عندهم تسمى برية «فاران» وفي بعض كتبهم ذكر «أورشليم الجديدة» أو «المدينة المقدسة الجديدة»، وذكروا في هذه الكتب صفة مكة المكرمة أنها لا تنام، وأن بجوارها عين الماء، وأنها يتجه إليها الناس من كل صوب، وهذه صفة مكة المكرمة وصفة الكعبة المشرفة، فأبوا ذلك أيضًا، قال الله عَزَّ وَجَلَّ في شأن الحج: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فجعل إباءهم للحج ورفضهم لهذه الشريعة

كفرًا، وإن زعموا أنهم يتبعون إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، هم أقروا أن من دينهم اتباع إبراهيم، وثبت بالدليل أن إبراهيم كان يحج إلى بيت الله الحرام وأمر بالحج وحجه الأنبياء، ومع ذلك أبوا فكان هذا من كفرهم، والعياذ بالله، وكذا في تعظيم القبلة وتعظيم الكعبة المشرفة يزعمون أنهم يتبعون إبراهيم، ومع ذلك أبوا أن يقروا بتعظيم الكعبة المشرفة واعتبارها قبلة للمسلمين، بل قالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾، قال الله ﷻ بعد أن بيّن فضل البيت الحرام، وأن إبراهيم وإسماعيل هما اللذان رفعا القواعد من البيت، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن دعائهما: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾، فملة إبراهيم قائمة على التوحيد، وشعار هذه الملة تعظيم بيت الله الحرام، أبوا التوحيد وأبوا أن يعظموا بيت الله الحرام، قال ﷻ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

كان مقتضى ما يفعلوه مع أنبيائهم وخصوصًا إبراهيم أن يبحثوا عن كل ما مكان نزل فيه، وأن يجعلوا آثاره مزارًا له ومكانًا للتعبد، وآثار قدمي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في الحجر الذي كان يقوم عليه وهو مقام إبراهيم كانت في عهد المسلمين الأول ظاهرة والعين المباركة التي لا ينقطع ماؤها أثر من آثار

إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام -، ومع ذلك أبى أهل الكتاب أن يقبلوا تعظيم مكة المكرمة، وأبوا في حقيقة الأمر قبول دعوة التوحيد التي دعا بها إبراهيم ﷺ، ومن شابههم من أهل البدع يسيرون على نفس النهج، وكذا من المنافقين فهم يقرون على سبيل المثال باتباع النبي ﷺ، ويقولون: كل ما يقوله حق، فإذا ألزموا بالكتاب والسنة أبوا ذلك ولم يلتزموا به، ولا نجد أشبه باليهود والنصارى في زماننا وفي الأزمنة الماضية، كذلك من المنافقين والعلمانيين الذين زعموا أنهم يؤمنون بالقرآن وبالرسول ﷺ ويدينون بدين الإسلام، وإذا اتهموا بأنهم خارجون عن هذا الدين، قاموا ولم يقعدوا وأقاموا الدنيا، وقالوا: كيف تكفروننا؟! ونحو ذلك.

فأما إذا قيل لهم: فهذا كتاب الله يأمركم بالأوامر المعروفة في إقامة الحياة على شرع الله ﷻ، بإقامة الواجبات الشرعية من الحقوق والحدود والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيأبون ذلك كله، ويصرحون بالكلمات الفظيعة التي تدل على أنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ويقولون: لانجرم إلا ما يوافق قوانينا وقواعدنا ونحو ذلك، مع أنهم أقروا أن من دينهم أن يتبعوا الكتاب وأن يتبعوا السنة، ولكنهم يأبون ذلك حتى فيما لا يحتمِل، عندهم وسائل للهروب من النصوص وعدم التزام أحكامها، أن يقولوا: هذه نصوص ظنية الدلالة، وبعضهم يقول: هذه نصوص ظنية الثبوت، الأحاديث ظنية الثبوت؛ لأنها أخبار آحاد، وآيات القرآن ظنية الدلالة؛ لأنها تحتمل كذا وكذا، ويخرجون الاحتمالات، حتى ولو فيما أجمع عليه المسلمون، يخرجون واحدًا منهم يتحمل في بداية الأمر، ثم يقال بعد ذلك: الأمر فيه خلاف، وهناك من

فصل الدين عن الدولة مثلاً، وهناك من قال: الخلافة ليست واجبة، وهناك من قال: الجهاد ليس بواجب، وهناك من قال: لا يُعرف في الإسلام أن نبدأ الكفار أو أن ندعوهم بالقتال، وهكذا في سائر الأمور، حتى فيما لا يمكن مثل الحدود، وهي من أوضح صور نبذ الشريعة، وإن كان نبذ الشريعة عند القوم أوسع من ذلك بكثير، فهو يأبون أن يقام شرع الله ﷻ في اعتقاد أو حتى في عبادة أو في معاملة أو في سياسة أو اقتصاد أو اجتماع أو حتى في الأخلاق، فأنت تجد أن الأخلاق المبنية على العفة والطهارة تُسمى تخلفًا ورجعية، وتضييقًا على الناس، ومنافية لحقوق المرأة، يقصدون في التعري والفحش وهو أصل أصيل عند القوم؛ لأنه أصيل أصيل عند سادتهم، لا يتنازلون عنه أبدًا، وهو الإباحية، والعياذ بالله، كما سيأتي في المسألة الخامسة والثلاثين: **(التعبد بكشف العورات)**، كأنه دين يُلتزم، لابد من إتاحة هذا الأمر للنساء والدفاع عنه بكل طريق، وإن كانوا يزعمون أن الحرية تقتضي أن من شاءت أن تحتجب فلتحتجب، لكن عامة بلادهم تمنع ذلك، ولا تستحي من أن تدعي أنها تطبق هذه الحرية، حرية العري، حرية الفجور؛ أما حرية العفة فلا، حرية الحجاب والطهارة والنقاء فلا.

رجعنا إلى ما يتشبهون به في هذه المسألة، وهو أنهم يقرون أن من دينهم اتباع الكتاب والسنة، فإذا طولبوا بذلك، فإذا قيل لهم: ما تصنعون في نصوص القرآن التي لا تحتمل تأويلاً في القصاص مثلاً، في الحدود، في الزنا، في السرقة، ما تجد عندهم إلا الإباء، لا يجدون ردًا، ولا يجدون وسيلة يمتنعون بها من إقامة شرع الله ﷻ، وإنما كما أبى اليهود والنصارى أن يحجوا إلى بيت الله الحرام، فأبى هؤلاء أن يقبلوا شرع الله ﷻ، وأهل

البدع عامتهم أيضًا يشتركون مع هؤلاء في أصل هذا الأمر، أعني: أنهم يقرون بأن كتاب الله ﷻ يلزمهم، فإذا أتت الأدلة من كتاب الله على إنكار بدعتهم، أبوا ذلك ولم يقبلوه.

كمن يتعبدون ويقولون بالغلو في الصالحين واتخاذ قبورهم مساجد، وصرف العبادة لهم، ودعائهم من دون الله، فإذا قيل لهم: إن الله ﷻ يقول: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝﴾ [الأحقاف: ٥-٦]، وهي من أصرح الأدلة، وغيرها كثير في أن دعاء غير الله من الشرك الذي لا يجوز، الذي حرمه الله، وهذا في القرآن الذي تزعمون أنكم آمنتم به، وتقرون أنه من دينكم، ولكن يأبون ويصرون، ويقولون: بل هذا على سبيل التوسل، وإنما نفعل ذلك ولا نسميهم آلهة ولا نرضى بأن نُسمي ما نفعل عبادة، مع أن الحقيقة أن الآيات صريحة في أن الدعاء عبادة، وأن دعاء غير الله ﷻ ولو على سبيل الواسطة ولو على سبيل التوسل هو من الشرك؛ لأن المشركين كانوا يعبدون ما يعبدون من أوثانهم ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، ومع ذلك فتجدهم يأبون الانقياد لكتاب الله، وتتواتر الأحاديث في ذم اتخاذ القبور مساجد، ثم بعد ذلك يقولون: بل هذا من المستحبات، وبعضهم يقول: بل هذا من المباحات، وإن هذا ليس مقصودًا به عبادة هؤلاء الأولياء، مع علمهم بما يقع عند قبور هؤلاء الأولياء، حتى يخرج البعض فيقول: لا بأس، يحاولون التحريف ويقولون: بل لابد أن يكون القبر في القبلة، ونحن نجعل القبور في غير القبلة، أو يقولون: موضع القبر فقط هو الذي

حرم عليه الصلاة، كأن المتر والمترين فقط هو الذي يُحرّم اتخاذه مسجدًا، وكأن الكنيسة التي رأتاها أم سلمة وأم حبيبة ﵄ بأرض الحبشة والتي ذكرتا لرسول الله ﷺ، فقال: «**أُولئِكِ إِذا مات فِيهِمُ العبْدُ الصّالِحُ، أوِ الرّجُلُ الصّالِحُ، بنوْا على قبْرِهِ مسْجِدًا، وصوّرُوا فِيهِ تِلْك الصُّور، أُولئِكِ شِرارُ الخلْقِ عِنْد اللّهِ**»[1]، فهل كانوا يبنون المسجد على قبره فقط، أم الكنيسة عظيمة مليئة بأنواع الصور ونحو ذلك؟! وقد سماها النبي ﷺأنهم: «**بنوْا على قبْرِهِ مسْجِدًا**»، تجد عجبًا من يقول لك: بل هذا إنما ينهى عنه على موضع القبر، أو هذا ينهى عنه إذا كان في صحن المسجد، أو هذا ينهى عنه إذا لم يكن بينه وبينه فاصلاً، مع أنهم إنما يبنون هذه المساجد من أجل تعظيم القبور، ومعلوم ما يفعل بها؛ من الطواف، ومن النذر، ومن الذبح عندها، ومن دعائها، ومن كتابة الشكاوى لأصحابها، ومن الاستغاثة بهم عند الشدائد، وطلب شفاء الأمراض، ونجاح الأولاد، وقضاء الحاجات ألا يعلمون ذلك؟! ثم بعد ذلك يقولون: بل هذا من التشدد أن يُقال: إن الصلاة تحرم في المساجد التي بنيت على القبور، أين التزامكم بما زعمتم وأقررتم، بما تقولون: إنه من دينكم تعظيم الكتاب وتعظيم السنة وقبول حديث النبي ﷺ؟!

لو نظرنا إلى الرافضة يزعمون حب آل البيت، وأن الأئمة معصومين، ومنهم علي ﵁ والحسن والحسين ﵄، وأن أقوالهم حجة كالكتاب والسنة، فيزعمون ذلك مع أن ذلك منافٍ للحقيقة، فليس من حجة إلا ما

---

(١) سبق تخريجه (ص ١٨٣).

كان من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع الأمة، وإن كان لو أجمع أهل البيت على أمر، لو ثبت إجماعهم بطريق صحيح، لكان لا يفارق كتاب الله ﷻ، وهو حجة من هذه الجهة؛ لأن الرسول ﷺ قال: «**ياأيها النّاسُ إنِّي تركْتُ فِيكُمْ ما إنْ أخذْتُمْ بِهِ لنْ تضِلُّوا: كِتاب اللّهِ، وعِتْرتِي أهْل بيْتِي**»[1]، ولكن نقول مثلاً: إذا قيل لهم: فعلي بن أبي طالب كان وزير صدق، ناصحًا دائمًا لأبي بكر وعمر وعثمان، وما نازع قط ولا طالب قط بالخلافة في حياتهم، وكان دائمًا معهم في كل الأمور، والاحاديث الدالة على ذلك كثيرة جدًا، فلماذا فعل علي ذلك؟!

يقولون: فعل ذلك تقية، نقول: فأين شجاعته؟! وأين هذه التقية، وهو جالس ينتظر الفصل الذي يقضي به عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في أمر الشورى بعد مقتل عمر رضي الله عنه، ورضي أن يجعل الأمر إلى عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه؟! وهذا مستفيض ثابت في كتب السنة، وشبه مستفيض في التاريخ أن عمر ترك الأمر شورى في ستة[2]، وأن هؤلاء الستة فوضوا أمرهم في النهاية لعبد الرحمن بن عوف، فأين النص الذي تزعمون؟! لماذا لم يقل علي رضي الله عنه مرة واحدة: أنا الخليفة المظلوم، أخذتم حقي وتريدون أخذ حقي الآن؟! فيسكت حتى يختار عثمان رضي الله عنه ويبسط يده يبايعه، فيكون من

---

(١) سبق تخريجه (ص ٣٤٤).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٥٦٧)، وأحمد (١/ ٣١٨، ٤٢٠)، والبزار (١/ ٤٤٤)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٣٧). وانظر: الفتاوى الكبرى (٤/ ٤٤٤)، ومجموع الفتاوى (٤/ ٤٣٦، ٢٥/ ٣٠٤)، ومنهاج السنة النبوية (١/ ٥٣٣، ٨/ ٢٢٦)، والتنبيه والإشراف (١/ ٢٥٥)، وتلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير (ص ٧٧)، وتاريخ الطبري (٤/ ٢٣٥)، والبداية والنهاية (٧/ ١٥٤).

المبايعين علي ﵁، ويظل هذه السنين ناصحًا لعثمان، ويظل في آخر عهد عثمان ﵁، أبناؤه يدافعون عن عثمان، عجبًا لهؤلاء الرافضة يأبون ذلك، إذا قيل لهم: هذا الحسن بن علي، الذي كان بعد أمير المؤمنين علي ﵁ أميرًا للمؤمنين، لماذا تنازل اختيارًا منه عن الخلافة لمعاوية ﵁؟! ألا تكفرون معاوية وترون أنه من أشد الناس ردة عن الإسلام، ومع ذلك فالحسن ﵁ يختار مطاوعًا دون حرب ودون أن يغلب في قتال، أن يختار أن يتنازل عن الخلافة التي هي حق واجب عليه والأمة بايعته بالفعل، ويتنازل عنها لرجل كافر بزعمكم، عجب! كيف يتصور هذا الكلام، أنتم تقولون: نحن نتبع أهل البيت، وتقولون: إن هذا من دينكم، ونحن نقول: فلماذا لا تتبعون عليًا ﵁ والحسن ﵁، وكذلك من أئمتهم الكثيرون الذين كانوا ناصحين دائمًا للخلفاء والأمراء، والحسين ﵁ إنما خرج لما رأى من الظلم والفساد، وظن أنه يمكنه تغيير ذلك، وليس أنه خرج لأجل أن آل البيت لابد أن لا تخرج الخلافة عنهم، وإنما كان يطالب بإقامة الحق والدين والشرع، وليس لمجرد المطالبة بالإمامة.

المقصود: أن أهل البدع وكذا المنافقون قد شابهوا أهل الكتاب فيما فعلوا من إنكارهم ما أقروا أنه من دينهم إذا لم يوافق أهواءهم، تجدهم يطعنون في الأدلة التي تخالف بدعتهم، وإذا ألزموا بها لم يلتزموا كما فعل اليهود والنصارى في حج بيت الله الحرام.

الْمسْألةُ الرّابِعةُ والثّلاثُون: إنّ كُلّ فِرْقةٍ تدّعِي أَنَّهَا النَّاجِيَةُ فأكْذبهُمُ اللّهُ بِقوْلِهِ: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١] **ثُمّ بَيَّنَ الصّواب بِقوْلِهِ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾** [البقرة: ١١٢].

الشــــرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**الْمسْألةُ الرّابِعةُ والثّلاثُون: إنّ كُلّ فِرْقةٍ تدّعِي أنّها النّاجيةُ فأكْذبهُمُ اللهُ بِقوْلِهِ: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾** [البقرة: ١١١] ثُمّ بيّن الصّواب بِقوْلِه: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢])، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١١ - ١١٢].

فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾، يدعي كل منهم أنه الناجي عند الله، وهذا من باطلهم، ليس ذلك في كتابهم، وليس ذلك على ألسنة أنبيائهم، إنما الذي جاءت به الأنبياء جميعًا أن من آمن بالله وعمل صالحًا وصدق أنبياء الله ورسله واتبعهم، فهو الناجي عند الله، وهذا مما لا يشك فيه من تتبع أقوال الأنبياء، حتى تلك التي نقلوها في كتبهم؛ لذلك أكذبهم الله وكذبهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقال: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١١١]، ليس عندكم برهان لا عقلي ولا نقلي، الأنبياء بين أيديكم أخبروا أن من عبد الله وحده لاشريك له، فهو الناجي عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد

ذكرنا جملة قبل من أقوال المسيح ﷺ، التي ما زالت موجودة في كتبهم تدعو إلى التوحيد، وكذلك الوصية التي هي أول الكل في التوراة التي أنزلها الله على موسى: **(الرب إلهنا رب واحد)**. إذًا، هذه أوامر الأنبياء؛ أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، وأن من فعل ذلك كان ناجيًا، ومع ذلك يقولون عن المسلمين إنهم لا ينجون، وإنهم من أهل النار، لماذا؟!

عند اليهود أصل أنه لا توجد أمة تنجو إلا من كان يهوديًا أو كان عبدًا لليهود ومن كان خادمًا لهم، والعياذ بالله؛ لأن الناس عندهم لم يخلقوا إلا ليكونوا عبيدًا لليهود؛ وأما النصارى لأنهم زعموا أن من لم يقبل المسيح مُخلِّصًا مصلوبًا، لم يكن ناجيًا عند الله. ونسوا أو تناسوا أن العهد القديم في تسميتهم لم يتضمن شيئًا من ذلك على الإطلاق، فكيف كان حال الأمم من عهد آدم ﷺ ونوح وإبراهيم وموسى؟! والعهد القديم كله ليس فيه إشارة إلى قضية الصلب والفداء، وإنما فيه الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والتزام تعاليم الأنبياء، فمن أين أتيتم بأن من فعل ذلك لا يكون ناجيًا؟ من أين أتيتم بهذا أنه لا يُقبل إلا من قبِل المسيح مخلصًا مصلوبًا يتحمل الخطايا، مع أن النصوص تدل على أنه جاء بما جاء به الناموس قبله، وجاء بما جاء به الوحي قبله، وأساس ذلك توحيد الله ﷻ؟! هل كانت البشرية قبل أن يأتي هذا المُسمى بـ «بولس الرسول» الذي اخترع قضية الصلب والفداء، وجعلها أصل العقيدة النصرانية، هل كانت البشرية تخدع من خلال الأنبياء، أنهم يأمرون بتوحيد الله، وبالصلاة وبالصيام وبالنفقة وبالإحسان إلى الناس؟ لماذا وهم لم يدعوا قط إلى أن يقبلوا المسيح مخلصًا؟

والبشرية قبل بعثة المسيح أين يذهب من عمل بما أنزل الله في التوراة وبما أنزل الله على إبراهيم ولم يكونوا يعتقدون شيئًا من ذلك؟! والعجب أن الكتب موجودة، العجب أن العهد القديم ما زال موجودًا، يعني: على ما فيه من التحريف، لكنهم يعتقدون أنه ليس بمحرف ولا ناقص ولا يمكن أن يتغير فيه حرف واحد، مع أنهم يغيرون فيه كل يوم، لكن الغرض المقصود أنهم يزعمون أنه هو الذي أنزله الله كاملاً غير ناقص ولامبدل، فأين فيه قصة الصلب والفداء، وأنه لا يقبل إلا من قبل المسيح كذلك؟! عجيب شأنهم، ادّعوا ذلك؛ ولذلك - كما ذكرنا - كل منهم يدعي أنه هو الناجي، وأن غيره لن يدخل الجنة، قال الله ﷻ: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾، برهان عقلي أو برهان نقلي، ليس من حجة ولا دليل، ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾، لكنهم ليسوا بصادقين، ثم قال ﷻ من الناجي: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾: إسلام الوجه لله هو إخلاص النية، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: متبع لما جاءت به الأنبياء، وخاصة خاتمهم محمد ﷺ الذين أرسل للناس كافة، ولا يقبل الله ﷻ من أحد دينًا إلا باتباعه: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فرحمة الله ﷻ يكتبها الله لمن؟ قال: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ

يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٨].

فهذه الآيات تبين أن الله ﷻ جعل إخلاص الوجه له ﷻ بالاستسلام، بإسلام الوجهة: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، والإحسان إنما يكون بأن يُتبع رسول الله ﷺ، أن يتبع الأنبياء جميعًا، فمن اتبع رسول الله اتبع جميع الأنبياء، ومن كذب رسولاً واحدًا كذب جميع الأنبياء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١].

فكان ما بيّن ﷻ من طريق الهدى، ومن كان مِن أهل البدع مشابهين لمن كان سلفًا لهم من اليهود والنصارى في هذا الباب كذلك، أن كل فرقة تدعي أنها الناجية، كل فرقة من الفرق الضالة المنحرفة تدعي أنها هي التي على الصواب، وتقول: نحن أصحاب الحق، ونحن الناجون عند الله يوم القيامة.

الرافضة يزعمون ذلك، والخوارج يزعمون ذلك، وكفروا المسلمين، وكفروا الصحابة ﷺ، والمرجئة يزعمون ذلك، والمعتزلة يزعمون ذلك،

وأهل السنة يقولون ذلك، ولكن بالدليل بالبرهان؛ لأن الرسول ﷺ قال: «**افْترقتِ الْيهُودُ على إحْدى وسبْعِين فِرْقةً، فواحِدةٌ في الْجنّةِ وسبْعُون في النّارِ، وافْترقتِ النّصارى على ثِنْتيْنِ وسبْعِين فِرْقةً فإِحْدى وسبْعُون في النّارِ وواحِدةٌ في الْجنّةِ، والذي نفْسُ مُحمّدٍ بِيدِهِ، لتفْترِقنّ أُمّتِي على ثلاثٍ وسبْعِين فِرْقةً فواحِدةٌ في الْجنّةِ وثِنْتانِ وسبْعُون في النّارِ**». قِيل يا رسُول اللّهِ، منْ هُمْ؟ قال: «**الْجماعةُ**»، وفي الرواية الأخرى قال: «**منْ كان على ما أنا عليْهِ وأصْحابِي**»[1]، هم الذين كما وصف الله ﷻ أخلصوا لله الوجهة، أسلموا لله واتبعوا الرسول ﷺ، ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، هذا هو الذي ينجو عند الله ﷻ؛ ولذلك التوحيد والاتباع هما الأصلان العظيمان اللذان بنى عليهما أهل السنة طريقتهم؛ وذلك لأن الله ﷻ جعل أصل الدين كلمة التوحيد، كلمة لا إله إلا الله، كلمة الشهادة مع الشهادة لمحمد بالرسالة، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ، فالأولى تدل على التوحيد، وتدل على الإخلاص، إخلاص الوجه لله، وتدل على الإسلام، والثانية تدل على الإحسان والاتباع لرسول الله ﷺ؛ لأنه لا يصح إحسان في القلب وفي الأخلاق وفي العمل إلا باتباع الرسول ﷺ.

لذلك نقول: إن ادعاء كل فرقة أنها الناجية ادعاء بلا دليل ولا حجة عقلية ولا حجة نقلية، وأن الناجي بحق هو من كان على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وهؤلاء أهل الإسلام الحق الصافي النقي الذي جاء

---

(١) سبق تخريجه (ص٦٠).

من عند الله ﷻ، وإن ادعى غيرهم الانتساب له، فالأدلة من الكتاب والسنة تكذب هؤلاء المدعين، وتبين بطلان ما هم عليه.

الْمسْألةُ الْخامِسةُ والثّلاثُون: التّعبُّدُ بِكشْفِ الْعوْراتِ، كقوْلِهِ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

الـشـــرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: (**الْمسْألةُ الْخامِسةُ والثّلاثُون: التّعبُّدُ بِكشْفِ الْعوْراتِ، كقوْلِهِ:** ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]). هذا من حال المشركين، والعياذ بالله، كانوا يطوفون بالبيت عراة، حتى إن الرجال والنساء ليطوفون جميعًا عراة، وربما وضعت المرأة شيئًا على فرجها، فإذا بدا من فرجها شيء قالت[(١)]:

الْـيـوْم يـبْـدُو بـعْـضُـهُ أوْ كُـلُّـهُ ... فـمـا بـدا مِـنْـهُ فـلا أُحِـلُّـهُ

كأنها إذا قالت ذلك لم ينظر الناس إليها، والعياذ بالله، كان أمرًا فظيعًا غير متصور، تخيل الصورة في بيت الله الحرام، الكعبة المشرفة والرجال والنساء في هذا المنظر الفظيع كما ولدتهم أمهاتهم، والعياذ بالله، أي فاحشة أفظع من ذلك، لو كان هذا في ملهى ليلي لكان من أفجر الأماكن،

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٢٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَهِيَ عُرْيَانَةٌ، فَتَقُولُ: مَنْ يُعِيرُنِي تِطْوَافًا؟ تَجْعَلُهُ عَلَى فَرْجِهَا، وَتَقُولُ:**

الْـيَـوْمَ يَـبْـدُو بَـعْـضُـهُ أَوْ كُـلُّـهُ ... فَـمَـا بَـدَا مِـنْـهُ فَـلا أُحِـلُّـهُ

فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]. وانظر: تفسير الطبري (١٠/ ٣٣٧، ١٤٩)، وزاد المسير (٣/ ١١٣)، وابن كثير (٣/ ٤٠٢).

لو كان هذا في حفل صاخب لكان هذا من أفظع الجرائم إلى يومنا هذا، حتى إن هذه الأماكن يُسب من يذهب إليها ولا يرضى أحد أن يُنسب إلى الذهاب إليها، فكيف إذا كان في أشرف بقعة على وجه الأرض: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، من أين أتوا بأن الله أمرهم بهذه الفاحشة؟

قالوا: لأننا لا يجوز أن نطوف في ثياب عصينا فيها الله، والعياذ بالله، فالجلود ماذا صنعتم فيها، ألم تعصوا الله بجلودكم وجوارحكم؟! فلماذا تطوفون في هذه الجلود؟! عجب قولهم!

فالتعبد بكشف العورات - والعياذ بالله - كان من طريقة المشركين، وهذا من جهالتهم، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، نعم والله حجة بينة وظاهرة، هل هذا يمكن أن يكون في شريعة من الشرائع؟! هل يمكن أن يشرع الله لأمة من الأمم التعري بهذه الطريقة؟! ولذلك نقول نفس هذا الأمر لمن يفعلون مثل هذه الأمور ويرون أن هذا ليس مذمومًا، شبهة الإباحيين في زماننا، في أنهم يتشبهون بهؤلاء الكفار، والعياذ بالله، لم تأتِ إلا من جهة مدح هذا الأمر، أعني: أن التعبد هم لا يتعبدون أصلاً، ولكن يرون أن هذا هو المستحق للمدح، يعني: هناك من تكشف عورتها، ولكن تعلم أنها ظالمة وآثمة؛ وأما في زماننا فقد وجد من يمدح ذلك، يتمدح بكشف العورات، وهذا اتباعًا للغرب الذي رأى أن هذا من حقوق الإنسان ومن واجبات المدنية، أن التعري وكشف العورات هو حق للإنسان أن يفعله، والعياذ بالله، لم يفعلوه على أنه معصية إذ جميع الشرائع فيها التستر، لا ينازع في ذلك

عاقل، المناقشة حاليًا الموجودة في الغرب في مطالبات برسم مريم بدون خمار؛ لأنهم يقولون: «إن هذا يؤكد أن شريعة التوراة والإنجيل كذلك كان فيها تغطية الرأس» ولذلك كيف تنازعون المسلمين في أمر الحجاب وتمنعون المحجبات في بلاد الإسلام - تونس وفي تركيا - مِن التواجد في الأماكن العامة، مجرد غطاء الرأس فقط، اتباعًا للغرب، تعبد بذلك كأنها مقدسة، قضية منع الحجاب في تونس وتركيا كأنها مقدسة أعظم من قداسة القرآن فعلاً، كما ذكرتُ هذا الذي جعلهم يتبعون، أو هذا الذي نقول به: إنهم اتبعوا المشركين في التعبد بكشف العورات؛ لأنهم لم يفعلوا ذلك على جهة المعصية، وإنما على جهة أن هذا تقدم وحضارة، وسن تشريع ملزم يجعل الناس جميعًا ملزمين بذلك، الدنيا قامت في تركيا ولم تقعد لأجل حجاب هو في الحقيقة تبرج دخلت به امرأة البرلمان، وزوجة رئيس الوزراء غطت رأسها، يا للمصيبة العظيمة! هذا أمر عندهم يعني علامة على اندحار العلمانية التي أسسها كمال اتاتورك، سبحانك! يجد الإنسان عجبًا!

أما أهل أوروبا فيرون أن ذلك حق إنساني، ولو أن يتجرد الإنسان من كامل ثيابه، ويمدحون هذا الأمر، ويرونه من الحرية المهضومة للمرأة، والتي لابد أن تحصل عليها، من حقها أن تتعرى، ومن حق الرجال أن يتعروا أيضًا، وهذه سبيلهم في مواقعهم الإباحية في أفلامهم؛ لا يكاد يخلو فيلم من أفلامهم من هذه المناظر الفظيعة، والعياذ بالله، ويرون أن هذا هو التقدم، وهذه هي الحضارة، وهذه هي المدنية التي لابد أن يقاوموا حتى تنتشر في العالم، ولابد أن يبذلوا كل الجهد حتى تنتشر في العالم،

ويفرحون إذا تعرى الناس، والعياذ بالله، فهذا وجه الشبة؛ لأن هذا نوع من الالتزام، الالتزام هذا هو مثل التعبد، ومعاملة هذه المبادئ كأنها نصوص مقدسة لا يجوز أبدًا أن يطعن فيها أحد، ولا يجوز أبدًا أن يخالفها أحد، ولو خالفها نال أشد العقاب، هذه حقيقة التشريع، وهذه حقيقة التعبد لهذه المبادئ وبهذه المبادئ، كأن يتعبدون للشيطان بهذه المبادئ التي أمر الشيطان بها، والعياذ بالله، وهم أفظع ممن قالوا: الله أمرنا بها؛ لأن هؤلاء يقولون: أمر الله لا يلزمنا، والعياذ بالله، ونحن نتبع هذا مخالفين للشرع، وهذا الشرع تخلف ورجعية، والعياذ بالله، وهذا من الكفر البواح ولا يشك في ذلك عاقل، كبر والعياذ بالله، فالتعبد بكشف العورات، وكشف العورات عمومًا هو من سبيل المشركين ومن صفات المشركين، ومدح ذلك والثناء على أصحابه واعتباره تقدمًا وحضارة ومدنية هو من سبيل المشركين تمامًا، والعياذ بالله، ومُناظر للتعبد بكشف العورات، نسأل الله العافية.

❀ ❀ ❀

الْمسْألةُ السّادِسةُ والثّلاثُون: التّعبُّدُ بِتحْرِيمِ الْحَلَالِ، كَمَا تَعَبَّدُوا بِالشِّرْكِ.

الشـــرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ: (**الْمسْألةُ السّادِسةُ والثّلاثُون: التّعبُّدُ بِتحْرِيمِ الْحلالِ، كما تعبّدُوا بِالشِّرْكِ**) اليهود والنصارى عندهم من ذلك الكثير، هم تعبدوا بحل الخنزير وبتحريم ما أحل الله عَزَّ وَجَلَّ من النكاح، النصارى تعبدوا بترك النكاح بالكلية في الرهبنة، وتعبدوا بترك تعدد الزوجات بزعم أن هذا النكاح - تعدد الزوجات - ظلم للمرأة، وحرموا ما أحل الله، وأحلوا ما حرم الله من الفواحش، ورأوا أن الزنا إذا كان بتراضي الطرفين فلا بأس به، وإذا كان زواجًا ثانيًا كان ذلك من أعظم المنكرات، ويحاولون فرض ذلك على دول العالم، وهذا اتباع لهؤلاء الأسلاف الذين تعبدوا بتحريم الحلال وفي نفس الوقت تحليل الحرام، كما تعبدوا لله عَزَّ وَجَلَّ بالشرك وصرفوا العبادات لغير الله متقربين بذلك إلى الله؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]، فكان تعبدهم بالشرك - والعياذ بالله - من أخطر الصفات التي ورثوها لأتباعهم وأوليائهم وأشباههم الذين تعبدوا بتحريم الحلال مثلهم، ومن أكثر الناس تشبهًا بهؤلاء الكفار في الزمن الحاضر الرافضة والصوفية، الذين يتعبدون بأنواع من الشرك، والعياذ بالله، يرونها دينًا لابد من التزامه، والعياذ بالله، وكثيرًا منهم يحرم على نفسه الطيبات بزعم أن

هذا من الزهد في الدنيا، فيحرم على نفسه أنواعًا من الثياب، ويلزمها بأنواع خشنة لا يلبس غيرها، ومن هنا سموا الصوفية صوفية لِلْتِزامهم لبس الصوف على الدوام، وهذا أرجح الأقوال في تسميتهم بذلك، وكثير منهم يحرم على نفسه أنواع الملاذ التي أحلها الله، قال النبي ﷺ: «**لكِنِّي أصُومُ وأُفْطِرُ، وأُصلِّي وأرْقُدُ، وأتزوّجُ النِّساء، فمنْ رغِب عنْ سُنّتِي، فليْس مِنِّي**»(١)، فنجد أن ما أخبر به النبي ﷺ من الرغبة عن سنته قد وجد في أهل البدع، والعياذ بالله من ذلك، والمسألة التي بعدها متعلقة بها، وهي التعبد باتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) عن أنس رضي الله عنه قال: «**جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا بِهَا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَأُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ الآخَرُ: إِنِّي أَصُومُ الدَّهْرَ فَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ الآخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ وَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي، فَلَيْسَ مِنِّي**».

الْمسْألةُ السّابِعةُ والثّلاثُون: التّعبُّدُ بِاتّخاذِ الْأحْبارِ والرُّهْبانِ أرْبابًا مِنْ دُونِ اللّهِ.

الشرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (**الْمسْألةُ السّابِعةُ والثّلاثُون: التّعبُّدُ بِاتّخاذِ الْأحْبارِ والرُّهْبانِ أرْبابًا مِنْ دُونِ اللهِ**)؛ كما قال الله ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، تفسيرها المعروف الذي ثبت في سنة النبي ﷺ بيانه: هو أنهم حللوا لهم الحرام، وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم، دخل عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على رسول الله ﷺ، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التوبة: ٣١]، فقال عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نعْبُدُهُمْ، قَالَ: ألَيْس يُحِلُّون مَا حَرَّمَ اللّهُ فتُحِلُّونهُ، ويُحرِّمُون مَا أَحَلَّ اللّهُ فتُحرِّمُونهُ؟ قَالَ: بَلَىٰ، قَالَ: فتِلْك عِبَادتُهُمْ**»[(١)]، فسمى ﷺ من جعل الأحبار والرهبان، العلماء والعباد، يحللون ويحرمون دون مستند من شرع الله ويتبعهم على ذلك سماه عابد له، وإقرارهم بأن للأحبار والرهبان حق التبديل للشريعة وحق التغيير في التحليل والتحريم، قد ذكر الله ﷻ في كتابه أنه اتخاذ لهم أربابًا، إذًا

---

(١) سبق تخريجه (ص٤٣).

هذه ربوبية ادعوها لهؤلاء الأحبار والرهبان، وهي ربوبية باطلة وعبادة باطلة لا تغني عنهم شيئًا، لكن قضية التشريع والتحليل والتحريم من أعظم خصائص التوحيد، ومن أعظم صفات الرب ﷻ أنه الرب السيد الآمر الناهي المطاع رب العالمين، الذي يشرع لهم ﷻ، الذي هو سيدهم يأمرهم وينهاهم، فمن جعل هذا لغير الله فقد جعله ندًا لله ﷻ في الربوبية، والعياذ بالله، فهذا حاصل في أهل الزندقة من المنافقين الذين جعلوا هذا الأمر لغير الأحبار والرهبان، لمن هو أسوأ من الأحبار والرهبان، ليس للعلماء ولا للعباد، بل للجهلة وللفسقة، والعياذ بالله، وأهل الأهواء وأهل البدع لهم نصيب من ذلك؛ لأنهم يجعلون أقوال أئمتهم مقدمة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما قالوه هو المتبع دون الكتاب والسنة، مع أن كل الأئمة قالوا: «كل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ»، ويقولون: «دعوا قولي لقول رسول الله ﷺ»، وعامتهم يُنقل عنهم إما نصًا أو معنى: «**إِذا صحّ الْحدِيثُ فهُو مذْهبِي**»(١).

فمن كانوا يتعصبون لمشايخهم وأئمتهم يحللون ويحرمون بأقوالهم، لهم نصيب من هذا الشرع، وإنما يكون الشرك شركًا أكبر إذا اعتقدوا لهم حق التشريع، وأن لهم أن يبدلوا الحلال والحرام فيتبعهم على ذلك، وهذا من الشرك الأكبر بلا نزاع بين أهل العلم.

---

(١) انظر: (ص١١٧).

الْمسْألةُ الثّامِنةُ والثّلاثُونَ: الْإِلْحادُ فِي الصِّفاتِ، كَقوْلِه تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢].

الْمسْألةُ التّاسِعةُ والثّلاثُونَ: الْإِلْحَادُ فِي الأسْماءِ، كَقوْلِهِ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

الْمسْألةُ الْأرْبعُونَ: التّعْطِيلُ، كَقَوْلِ آل فِرْعوْن.

الشـــرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (**الْمسْألةُ الثّامِنةُ والثّلاثُون: الْإِلْحادُ فِي الصِّفاتِ، كقوْلِه تعالى:** ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢].

هذه الآية الكريمة تدل على ما كان عليه المشركون من الجهل بصفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والميل عن الحق فيها، ومعنى **الإلحاد: الميل**، ومنه اللحد يكون في القبر؛ لأنه شق في الأرض يعقبه حفر على إحدى الناحيتين، فهو يميل، فهو الميل[1]، فالإلحاد في أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وصفاته هو الانحراف عن الحق فيها، الإلحاد في الصفات يشمل هذا النوع الذي ذكره الشيخ، وهو نفي بعض الصفات، أو الجهل بها بعد إقامة الحجة، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم

---

(١) انظر: النهاية في غريب الأثر (٤/ ٢٣٦)، ولسان العرب (٣/ ٣٨٩)، ومختار الصحاح (ص٢٤٧).

مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٢ - ٢٤]، فدلت الآية على أن الظن الباطل - ظن السوء - بالله سبحانه وتعالى مهلك، وأن سبب هلاكهم هو ظنهم النقص في علم الله سبحانه وتعالى وظنهم الباطل في صفاته سبحانه وتعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾: أهلككم ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وبيّن أن مآلهم إلى النار بسبب هذا الظن الفاسد، وقال: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾، لا يُقبل لهم عذر، وإن طلبوا أن يعتذروا.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «**اجْتمع فِي الْبيْتِ ثقفِيّانِ وقُرشِيٌّ، أوْ قُرشِيّانِ وثقفِيٌّ كثِيرةٌ شحْمُ بُطُونِهِمْ، قلِيلةٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ، فقال أحدٌ مِنْهُمْ: أتروْن اللّه يسْمعُ ما نقُولُ؟ قال الْآخرُ: يسْمعُ إِنْ جهرْنا، ولا يسْمعُ إِنْ أخْفيْنا، وقال الْآخرُ: إِنْ كان يسْمعُ إِذا جهرْنا فإِنّهُ يسْمعُ إِذا أخْفيْنا، فأنْزل اللّهُ تعالى:** ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت: ٢٢]»(١) جعلوا المسألة مجرد آراء؛ أترون كذا، أترون كذا؟!

وقد أتتهم آيات الله البينات، وكان ظنهم أنهم يمكن أن يُخفوا بعض أعمالهم عن الله سبحانه وتعالى بالإسرار؛ كما قال سبحانه وتعالى - في نحو ظنهم ذلك في سورة هود -: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾ [هود: ٥].

فيظنون أنهم حين يغطون أنفسهم بالثياب أن الله سبحانه وتعالى لا يعلم ما يكون

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٧، ٧٥٢١)، ومسلم (٢٧٧٥).

تحت الثياب، هذا من جهلهم: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: ٥]، كانت عقيدتهم في صفات الله ﷻ عقيدة فاسدة - والعياذ بالله - نبع منها فعلهم للمعاصي والكفر؛ لأنهم ظنوا أن الله لا يعلم كثيرًا من أعمالهم التي استسروا بها، وظنوا أنهم يخفون على الله ما لا يريدون أن يطلع عليه، ويظل ظنهم ذلك معهم إلى يوم القيامة، فيحلفون بالله: والله ما كنا مشركين، يظنون أن ذلك يخفى على الله ﷻ، كل ذلك من سوء الظن بالله ﷻ، فهذا من الإلحاد في الصفات، من نفي بعض الصفات، أو وصف الرب ﷻ بصفات النقص، نعوذ بالله من ذلك، وقد كان اليهود من أعظم الناس إلحادًا في صفات الله ﷻ في وصف الله ﷻ بالنقائص، يصفونه أنه يجهل بعض الأمور ولا يعلمها، كما ذكروا ذلك في قصة آدم ﵇، أن الله جعل يبحث عنه؛ لأنه اختفى منه وراء شجرة، فقال: أين أنت يا آدم؟ أمني تفر؟! وكذلك يرون أن الرب ﷻ لا يعلم عواقب الأشياء، فقالوا: إنه ندم على إغراق أهل الأرض بالطوفان وبكى حتى رمدت عيناه وعادته الملائكة، والعياذ بالله من هذا الظن، وأنه تعب بعد خلق السماوات والأرض في ستة أيام فاستراح في اليوم السابع، وفي كل ذلك أنزل الله ﷻ نفي كلامهم الباطل في إثبات صفات النقص، والعياذ بالله، وصف الرب ﷻ بالنقص، نعوذ بالله من حالهم وكفرهم؛ وكما قال ﷻ عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال ﷻ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]، كما ذكرنا ذكر الله جملاً من ذلك في الكتاب، وأهل

الكتاب يذكرون من ذلك أشياء كثيرة، والنصارى من أعظم الناس إلحادًا وميلاً عن الحق في أسماء الله وصفاته، فهم ينسبون إلى الله ﷻ الصاحبة والولد، وستأتي مسألة مستقلة في هذا الباب، ينسبون إليه الموت وينسبون إليه العجز، وينسبون إليه إهانة الأعداء له، حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، وهذا النوع من الإلحاد وهو إلحاد نفي الكمال في صفات الرب ﷻ قد قال به طوائف من المنتسبين إلى الأمة؛ فالأشاعرة ينفون كثيرًا من الصفات، ويجعلون الصفات المثبتة سبع صفات فقط هي: العلم، والكلام، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والحياة؛ وأما باقي الصفات فيقولون: لا يجوز أن يوصف الرب بها، فيؤلونها ويحرفونها وهذا في الحقيقة مأخوذ من تحريف الجهمية الأوائل الذين نفوا كل أسماء الله وصفاته، وإن أثبت المعتزلة الأسماء ولكن نفوا كل الصفات، فكانت هذه من شر البدع، وهذه البدعة، بدعة نفي الصفات والإلحاد فيها، كانت سببًا في محنة أهل السنة بسبب القول بخلق القرآن في زمن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله[1]، ذلك أن المأمون حمل الناس بعد أن أوصاه المعتزلة بذلك على أن يقولوا بأن القرآن مخلوق، وأن الله لم يتكلم بهذا الكلام؛ لأن صفة الكلام صفة نقص، نعوذ بالله من ذلك، فألحدوا في صفات الرب ﷻ، وصبر الإمام أحمد رحمه الله حتى أذهب الله هذه الغمة وكشف هذا الهم عن الأمة وعادت السنة ظاهرة مرة ثانية، لكن في الحقيقة ظلت طوائف تقول بقول المعتزلة أو تقترب منه، وإن وافقت أهل السنة في مجموع أو في مجمل الكلام، وقالوا: إن القرآن غير مخلوق، لكن نفوا أن يكون القرآن

(١) انظر: ملخص محنة الإمام أحمد في البداية والنهاية (١٠/ ٣٣١ - ٣٣٥).

هذه الحروف المعروفة التي نزل بها، وهذه الكلمات التي تتكون من هذه الحروف، وقالوا: إن الله لا يتكلم بصوت، وقالوا: إن الكلام هو الكلام القديم الذي في النفس، وليست هذه الحروف إلا حكاية عن كلام الله فهي مخلوقة، وقالوا: إن الله لايتكلم بصوت، وهذا كله من آثار مرض تأويل المعتزلة في الباطل وإلحادهم في صفات الله ﷻ.

فقد وقع في الأمة مشابهة لمن سبقهم من الأمم في باب الإلحاد في الصفات، في نفي صفات الكمال وإثبات صفات نقص لله ﷻ، وكذلك المشبهة الممثلة الذين يلحدون في أسماء الله وصفات بتشبيه الرب ﷻ بخلقه، كمن يقول: إنه ينزل كنزول العبد من مكان مرتفع إلى مكان منخفض وإنه استوى على العرش كجلوس أحدنا على كرسيه، من يقول ذلك ويشبِّه الرب بخلقه أيضًا - والعياذ بالله -، فقد كفر.

لابد وأن نعتقد عقيدة أهل السنة التي دل عليها الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، أن نصف الرب ﷻ بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، فلا نشبه ولا نعطل، ولانلحد في أسماء الله، الإلحاد وصف يشمل جميع أنواع الانحراف والميل في أسماء الله وصفاته، وإن كان هو قد قسم هذه المسائل في عدة مسائل، فقال: الإلحاد في الصفات، الإلحاد في الأسماء، التعطيل كقول آل فرعون، نسبة النقائص إليه ﷻ، وهذه كلها في الحقيقة من باب واحد، وإن كانت الفرق مختلفة، فنحن نؤمن بكل ما وصف الله به نفسه. إذًا، مصدر التلقي الكتاب والسنة، وما وصفه به رسوله ﷺ لا نجعل جزءًا نؤمن به وجزءًا لا نؤمن به، نقول: آيات معينة نقبلها، وآيات أخرى لا نقبلها،

كالأشاعرة الذين قالوا: إن قوله ﷻ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] يلزم تأويله، في حين لم يؤولوا مثلاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، قالوا: إن قوله ﷻ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾ [الفجر: ٢٢]، ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] لا بد أن يؤول، في حين لم يؤولوا أن الله ﷻ هو الحي، فهذا من الإيمان ببعض الكتاب وعدم الإيمان ببعض أو الكفر ببعض، في حقيقة الأمر يؤول إلى ذلك، وإن لم يكن التأويل كالكفر الصحيح، نعلم أنه مختلف في الدرجة، لكن هذا من مسائل الجاهلية، الإلحاد سواء - كما ذكرنا - كان بالنفي والتعطيل، أو كان بالتشبيه والتمثيل، أو بالتكييف، أو بالتأويل الباطل الذي هو التحريف، الذي هو في الحقيقة نوع من التعطيل والنفي، فكل هذا من ميراث أهل الجاهلية من المشركين، كالثلاثة نفر الذين قالوا عنهم ابن مسعود رضي الله عنه سبب نزول هذه الآية: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢]، أو من أهل الكتاب الذين ضلوا وانحرفوا في فهم ما بأيديهم من الكتب، ثم زادوا تحريفًا لكتاب الله ﷻ، ووصفوا الله ﷻ بما لا يجوز، كما ذكرنا أمثلة من ذلك، فالإلحاد أنواع؛ منه إلحاد المعطلة غلاة التعطيل كالجهمية، وشر منهم الفلاسفة، وغلاة الجهمية يصرحون بنفي الكتاب والسنة، فيقولون: لم يكلم موسى تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يستو على العرش، وهؤلاء كفار؛ لأنهم يصرحون بنقيض الكتاب والسنة، بضد الكتاب والسنة، يكذبون القرآن، وهؤلاء شبه منقرضين في الحقيقة، ولكن هذه البدعة أصل كثير من البدع، التي ظلت موجودة إلى زماننا هذا في حقيقة الأمر.

أما الفلاسفة الذين قد يمتدحهم البعض فهم قد لا يثبتون اسمًا ولا صفة ولا حتى ذاتًا لله ﷻ، عندهم أن الإله هو الوجود القديم، وعندهم أن كل الوجود في الحقيقة مرده إلى واجب الوجود الذي فاض منه سائر أنواع الوجود، وهو كله قديم، فهم على معتقدهم في قدم العالم، أن العالم ليس له خالق، إنما هو فيض كما يخرج شعاع الشمس من الشمس، فكذلك العالم فاض عبر سلسلة من الفيوض من واجب الوجود الذي ليس له اسم ولا صفة ولا ذات، إنما هو الوجود الساري الذي هو في الحقيقة الوجود في الذهن، وهذا عند التأمل هو أصل اعتقاد عامة الأوروبيين في زماننا ومنذ أزمنة طويلة من أن المادة لا تُخلق ولا تستحدث من عدم، وأن المادة لا بد أن تكون قديمة طاقة أو مادة، وهذا في الحقيقة هي نظرية الفيض الذي يتكلم عنه الفلاسفة المتقدمون؛ وأما أهل الإيمان أتباع الرسل فيقولون: كان الله ولم يكن شيء قبله، وأنه أحدث هذا العالم، نعم تتحول المواد والكائنات من حال إلى حال في هذه الدنيا، لكن اعتقاد أهل الإيمان بالله ﷻ جميعًا أن هذا العالم كله كان عدمًا ثم أوجده الله تعالى، فإلحاد الفلاسفة شر من إلحاد الجهمية الأوائل، وهذا القول في الحقيقة، وهو إثبات الوجود الساري أو إثبات الوجود الذي ليس له ذات ولا صفة، هو الذي دفعهم إلى القول بوحدة الوجود، دفع طائفة - الذين هم «الاتحادية» - إلى القول بأن الوجود كله شيء واحد، إنما هو صور متعددة لشيء واحد فقط، و«الحلولية» الذين قالوا: إن الله في كل مكان، يحل كما يحل الملح في الماء أو السمن في اللبن، ينتشر في أجزاء ذلك الوجود الآخر انتشارًا تامًا ساريًا فيه في كل جزء من أجزائه، لو تأخذ أي قطرة ماء أو أصغر منها

تراها تحتوي على هذا الملح، المياه المملحة انتشرت، فهذا قول الحلولية الذين يقولون: إن الله في كل مكان، وللأسف إن هذا الكلمة انتشرت وسط كثير من عامة المسلمين، وصاروا يكررونها وهم لا يدرون أنها من الكفر، بل من أغلظ أنواع الكفر، والعياذ بالله، ومن التزم هذه الكلمة: (أن الله موجود في كل مكان)، علم وعُلِّم معناها وما تقتضيه من حلول الرب في الكلاب والخنازير والحشوش وأماكن النجاسات في باطن الإنسان والحيوان والنبات، والتزم ذلك، كان كافرًا، وهذا لا ينازع فيه أحد من أهل الإيمان؛ ولذلك كانت قضية العلو؛ إثبات علو الله على عرشه، وأن الله ﷻ فوق عرشة وفوق خلقه جميعًا؛ لأن العرش سقف لجميع المخلوقات، فالله فوق العرش فهو فوق جميع الخلق: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠]، وأن الله في السماء، أي: في العلو، ليس أن السماء ظرف تحيط به، أن الله ﷻ أكبر من أن يحيط به مخلوق أو أن يحل في مخلوق، وهذا ظن فاسد لابد أن يُصان عنه كلام الله ﷻ من أن الله في السماء، (في السماء) يعني: في العلو، له صفة العلو ﷻ؛ ولذلك نقول: إن إثبات العلو والمباينة أن الله فوق عرشه بائن من خلقه كان أصلاً عظيمًا من أصول أهل السنة للرد على بدع الفلاسفة والاتحادية والحلولية، وكل ذلك من الإلحاد في الصفات وفي وجود الله - سبحانه - في الحقيقة، فالذين يقولون: (إن الله في كل مكان)، وإن كان البعض يظن أن هذه عقيدة الأشاعرة وليس كذلك، الأشاعرة لا يقولون: إن الله في كل مكان، إنما يقولون: كان ولا مكان، ولا يريدون أن يثبتوا أن الله فوق العرش، ونحن لا نقول: إن ما فوق العرش مكان مخلوق، حتى

نقول إن الله حل فيه، إنما نقول في السماء - في العلو - له صفة العلو، والله ﷻ خلق الكائنات وهو ﷻ بائن منها منفصل عنها، هو ﷻ فوق عرشه كما يليق بجلاله وعظمته لا يشبه شيء، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير؛ كما قال الإمام مالك رحمه الله: «**الاسْتِواءُ معْلُومٌ، والْكيْفُ مجْهُولٌ، والْإِيمانُ بِهِ واجِبٌ، والسُّؤالُ عنْهُ بِدعةٌ**»(١).

لذلك تحصل لدينا الكلام على أنواع فرق التعطيل المختلفة، تعطيل الفلاسفة، تعطيل الاتحادية، فما الفرق بين الاتحادية والحلولية؟

الحلولية يقولون: إن هناك ذاتان، واحدة حلت في الأخرى، العالم كله ذات أو ذوات، والله ذاته حلت في ذوات المخلوقين، كما ذكرنا في الملح والماء.

أما الاتحادية فيقولون: الوجود شيء واحد وأجزاؤه مختلفة، كما نقول الماء مثلاً يتكون من أكسجين وهيدروجين مثلاً كمحاولة تقريب، فهذا الوجود مركب مِن أشياء مختلفة، وكله شيء واحد، في الحقيقة وجود واحد، الخالق والمخلوق شيء واحد(٢).

---

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ١٥٠، ١٥١)، وفي الاعتقاد (ص١١٦)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء(٨/ ١٠٠)، وفي العلو (ص١٣٩).

(٢) انظر: مجموع الفتاوي (٢/ ١٣٤- ٤٥١) رسالة حقيقة مذهب الاتحاديين، وانظر كلام شيخ الإسلام رحمه الله في: أمراض القلب وشفاؤها (ص ٦٤)، والاستقامة (١/ ١٢٣)، والتحفة العراقية (ص ٦٤)، والفتاوى الكبرى (١/ ٢٩٣، والفرقان (١٠٦، ١١٤)، ومجموع الفتاوى (٢/ ١٧١، ٢٩٥، ٣٠٦، ٤٦٦، ٥/ ١٢٦).

وشاعرهم يقول ذلك[(١)]:

الـرّبُ عـبْـدٌ والْـعـبْـدُ ربٌّ ... فيا ليْت شِعْرِي منِ الْمُكلّفُ
إنْ قُـلْـتُ عـبْـدٌ فـذاك ربٌّ ... وإنْ قلْتُ ربٌّ أنّى يُكلّفُ

يقول: (الرب عبد والعبد رب)، وكتاب ابن الفارض[(٢)] في القصيدة المشهورة، القصيدة التائية التي سماها «نظم السلوك» مليئة بهذا الكفر البواح مرات عديدة وما زالوا يسمونه «سلطان العاشقين» ويجعلونه من أكثر الناس حبًا وعشقًا لله ﷻ، تعالى الله عن قوله علوًا كبيرًا.

يقول[(٣)]:

لـها صلواتِي بِالْمقامِ أُقِيمُها ... وأشْهدُ فِيها أنّها لي صلّتِ
كِلانا مُصلٍّ واحِدٌ ساجِدٌ إلى ... حقِيقتِهِ بِالْجمْعِ فِي كُلِّ سجْدةِ
وما كان لِي صلّى سِواي ولمْ تكُن ... صلاتي لغيرِي فِي أدا كُلِّ ركعةِ

إلى أنْ قال:

وما زِلْتُ إيّاها وإياي لم تزلْ ... ولا فرْق بل ذاتِي لذاتي أحبّتِ
إليّ رسولًا كُنْتُ مني مُرْسلًا ... وذاتِي بِآياتِي عليّ استدلّتِ

---

(١) وهو الزنديق محي الدين بن عربي: انظر: غاية الأماني في الرد على النبهاني (٢/ ٤٣١) وجهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية (٣/ ١٣٦٩)، وموسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية (١٠/ ٥١٧).

(٢) سبقت ترجمته (ص ١٢٤).

(٣) انظر: ديوان ابن الفارض (ص٩٧).

فإِنْ دُعيتْ كُنْتُ المجُيب وإِنْ أكُنْ   منادىً أجابتْ منْ دعاني ولبّتِ

وهذا المدعو جلال الدين الرومي(١) من شر الاتحادية، والعياذ بالله، وهذا الاعتقاد هو أصل الاعتقاد بوحدة الأديان، هو أصل الاعتقاد بأن الأديان متساوية.

أنت حينما تبحث عن هذه العقائد الآن هل هي ما زالت موجودة؟!

نعم، هي موجودة فعلاً، عندهم الذي يعبد أي شيء على حق، والعياذ بالله؛ ولذلك لا يجوز الإنكار على من يعبد الصليب، ولا على من يعبد بوذا، ولا على من يعبد النار، الأديان كلها محترمة، الشرك والتوحيد كله عند القوم سواء، والعياذ بالله، ويمتدحون هؤلاء؛ يمتدحون ابن عربي إمام الاتحادية؛ لأنه يقول بوحدة الأديان(٢)، وابن الفارض، ويمتدحون جلال الدين الرومي، وقد ذكرتُ لكم أن اليونسكو عملت في عام ٢٠٠٧م عام جلال الدين الرومي، وزراة الثقافة العالمية للأمم المتحدة تنشر فكر وثقافة جلال الدين الرومي في العالم، لماذا؟ من أين أخرجوه، ومن أين أتوا به؟ لكن من أجل ماذا؟ من أجل أن ينشروا قضية وحدة الأديان، يبحثون أن الأديان التي يقول عنها هذا الرجل في كلامه الرائع - الناس يقولون: هذا كلام رائع - يقول هذا الرجل: التعددية الدينية كنز يجب الحفاظ عليه. هذا في خطابه الذي أعجب به الناس، وأنا لا أدري الناس معجبة به على أي شيء؟! نسأل الله العافية، ألأجل أنه قال السلام عليكم، ثم يضع بعد ذلك

---

(١) سبقت ترجمته (ص ١٢٤).

(٢) سبقت ترجمته (ص ١٢٣).

أو يقول: التعددية الدينية كنز. الكفر بالله والشرك بالله. نحن بلا شك نعرف كيف نتعامل مع المسلمين والكفار بناءً على شرع الله، ولسنا بالذين مثلاً ننقض العهود أو نستحل ما حرم الله علينا من دماء من عاهدناه أو نحو ذلك، لكن الكلام على أن مساواة الملل هي في الحقيقة مردها في النهاية إلى هذه العقائد الفاسدة، والعياذ بالله.

ابن الفارض يقول[١]:

وإن خر للأصنام في البيد عاكف　　　فلا تعد بالإنكار بالعصبية

يعني: إذا رأيت شخصًا يركع للأصنام ويسجد لها ويخر ساجدًا لها، لاتكن متعصبًا وتنكر عليه، هو يقول: فما عبدوا سواي، في الحقيقة هم لايعبدون إلا سواه؛ لأن الأديان في جوهرها واحد، هذه الكلمات قيلت في حوار الأديان مرات عديدة، مؤتمر حوار الأديان الذي يرعاه بعض الملوك قيل فيه هذه الكلمات، وهي قيلت على ألسنة شيوخ على رؤوس مؤسسات إسلامية كبرى في العالم الإسلامي أن الأديان جوهرها واحد، والخلاف فقط في الفروع، والعياذ بالله؛ أما في الأصول فلا اختلاف في الأديان بجملتها، وهذا الكلام أيضًا منشور في جرائدنا، والعياذ بالله. ما مرد هذه العقائد الفاسدة؟ الإلحاد والعياذ بالله.

وقولهم الأديان جوهرها واحد لا يخاطب به أهل الكتاب من اليهود والنصارى فحسب، فهو يجلس معه ملل متعددة، وليس أهل الكتاب فقط،

(١) انظر: ديوان ابن الفارض (ص٩٧).

هو يشمل: البوذي، والهندوسي، واليهودي، والنصراني، فلا ينبغي أن نخدع أنفسنا ونحاول أن نبرر لهم، ثم حتى أهل الكتاب الآن هل هم على التوحيد؟! لذلك ذكرنا الإلحاد في الصفات؛ لأجل ذلك قلنا: اليهود عندهم إلحاد في الصفات، والنصارى عندهم إلحاد في الصفات، والمشركون عندهم إلحاد في الصفات، وذكرنا إلحاد الحلولية والاتحادية والفلاسفة، وهؤلاء خارجون من ملة الإسلام بإلحادهم، وكذلك إلحاد المعتزلة، وإن كان دون هؤلاء في الدرجة، والعياذ بالله، لكن هو كله من البدع، والإلحاد في صفات الله بإنكار كل الصفات عقيدة كفرية، والعياذ بالله، لكن هذا النوع وهم المعتزلة يفرق فيهم بين النوع والعين، يعني: لابد من إقامة الحجة على قائله؛ ولذلك نجد أن بعض أهل العلم لم يكفرهم بالعموم، أو أكثر أهل العلم لم يكفروهم بالعموم، يقولون: حتى تقام عليهم الحجة.

وإلحاد المؤولة الذين يؤولون بعض الصفات، وإن أثبتوا البعض الآخر، كل هذا نوع من الميل والانحراف في صفات الله، بقي نوع أشد من كل هذا، وهو إلحاد الباطنية، نفاة النقيضين في صفات الله، يقولون: لا موجود ولا ليس بموجود، لا سميع ولا ليس بسميع، لا حي ولا ليس بحي، نفاة النقيضين في الحقيقة يصفون الرب بالمستحيل، أنه ليس له وجود أصلاً، بل مستحيل وجوده، أشد من نفي الوجود، والعياذ بالله، وهؤلاء يجعلون صفات الرب في القائم، الإمام نفسه هو الذي يكون الإسماعيلية موجودون في اليمن وفي جنوب الجزيرة العربية، وفي الهند وباكستان وأفغانستان، الطائفة الإسماعيلية بقايا الطوائف الباطنية

- والعياذ بالله - التي تعتقد بنفي النقيضين وتتحلل من الشرائع، وتنتشر الطائفة الإسماعيلية في العالم انتشارًا محدودًا، لكن لهم وجود ولهم تأثير، نسأل الله العافية.

أما التعطيل في الأسماء[1] فيقول: كقوله ﷻ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ كما قال ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا۩﴾ [الفرقان: ٦٠]، أنكروا اسم (الرحمن)، وقالوا: لا نعرف إلا رحمن اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب، وهذا كله من الإلحاد؛ لأنهم كانوا يسمون في الجاهلية بـ «عبد الرحمن»، ولكن في العناد والإباء والرد زعموا أنهم لا يعرفون اسم (الرحمن) وأن الرب لا يسمى بهذا الاسم، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا، مع أن اسم (الرحمن) من الأسماء الحسنى التي انتشر علمها في المسلمين بفضل الله، بل وهي عند أهل الكتاب، وقد أنزل الله ﷻ في أول كل سورة من سور القرآن العظيم إلا سورة براءة: (بسم الله الرحمن الرحيم).

فاسم الرحمن من أسماء الله ﷻ التي عرفها العام والخاص والعالم

(١) (عَطَلَ) الْعَيْنُ وَالطَّاءُ وَاللَّامُ أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى خُلُوٍّ وَفَرَاغٍ. نَقُولُ: عُطِّلَتِ الدَّارُ، وَدَارٌ مُعَطَّلَةٌ وَمَتَى تُرِكَتِ الْإِبِلُ بِلَا رَاعٍ فَقَدْ عُطِّلَتْ، وَكَذَلِكَ الْبِئْرُ إِذَا لَمْ تُورَدْ وَلَمْ يُسْتَقَ [مِنْهَا]. قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحج: ٤٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ٤]. وَكُلُّ شَيْءٍ خَلَا مِنْ حَافِظٍ فَقَدْ عُطِّلَ. مِنْ ذَلِكَ تَعْطِيلُ الثُّغُورِ وَمَا أَشْبَهَهَا. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ: الْعَطَلُ وَهُوَ الْعُطُولُ، يُقَالُ امْرَأَةٌ عَاطِلٌ، إِذَا كَانَتْ لَا حَلْيَ لَهَا، وَالْجَمْعُ عَوَاطِلُ. انظر: النهاية في غريب الأثر (٣/ ٢٥٧)، ولسان العرب (١١/ ٤٥٤). وانظر: درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٣٩٦).

والجاهل، وهو الاسم الدال على رحمة الله العامة بالخلق جميعًا، وهذا من أعظم ما يتعلق به أهل الإيمان، ويرجون رحمته ﷻ ويتوسلون إليه بهذا الاسم العظيم، ويكفي أن الرسول ﷺ كان يكتب في كل رسائله إلى ملوك الأرض وإلى غيرهم: (بسم الله الرحمن الرحيم)[1]، فإنما أتاهم الرسول ﷺ من عند الله الرحمن الرحيم، هو الرحمة ﷺ التي هي أثر من آثار اتصاف الرب ﷻ بالرحمن الرحيم.

فالإلحاد في الأسماء هو عقيدة الجهمية[2]؛ لأنهم ينفون أسماء الله ﷻ وكذلك عقيدة الفلاسفة والحلولية والاتحادية والباطنية؛ وأما أهل الكتاب فعندهم من إنكار أسماء الله ﷻ التي لا يعرفونها في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ثم عندهم من الإلحاد تسمية المخلوقين بأسماء الرب ﷻ، وهذا من إلحاد التمثيل والتشبيه، فكونهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وكونه يسمون المسيح عليه السلام «الرب يسوع المسيح»، «إلهنا يسوع المسيح»، فهذا كله من الكفر، من الإلحاد في أسماء الله وصفاته، وكما ذكرنا حينما يوصف الرب ﷻ بصفات المخلوقين ويسمى بأسمائهم، وكذلك عندما يوصف المخلوقون بصفات الرب ويسمون بأسماء الآلهة

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٧).

(٢) الجهمية أتباع الجهم بن صفوان الملحد العنيد الزائغ، تلميذ الجعد بن درهم، رأس المعطلة، لم يثبتوا أن في السماء ربًا وينتهي قولهم إلى جحود الخالق ﷻ، وقالوا بخلق القرآن، وقد قتل سنة١٢٨هـ على يد سلم بن أحوز رحمه الله.
انظر: السنة لعبد الله بن أحمد (١/ ١٦٧)، والفرق بين الفرق (ص١٩٩)، والملل والنحل (١/ ٨٦)، والبداية والنهاية (٩/ ٣٥٠).

والأرباب، يكون هذا من أنواع الإلحاد في أسماء الله ﷻ.

وأما التعطيل: فهو النفي، كقول آل فرعون، ففرعون هو رأس النفاة، رأس المعطلة إذ نفى وجود الله ﷻ، فقال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] ونفى وجوده ﷻ في السماء، فقال ﷻ عنه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر: ٣٦ - ٣٧].

وهذا من تعطيل آل فرعون في إنكار وجود الله وإنكار علوه على عرشه، وممن ينتسب إلى الإسلام من عطل كتعطيل فرعون حين نفى علو الله فوق خلقه ونفى علو الله على عرشه، وقالوا: لا يوصف بأنه فوق، ولا يوصف بأنه في السماء، ولا يجوز بأن يسأل عنه: بأين. وقد قال النبي ﷺ للجارية: «**أيْن اللّهُ؟ قالتْ: فِي السّماءِ. قال: منْ أنا؟ قالتْ: رسُولُ اللّهِ. قال: أعْتِقْها فإنّها مُؤْمِنةٌ**»(١).

وقال ﷻ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦ - ١٧].

وبيّن ربنا ﷻ أن فرعون خالف موسى في كون إلهه في السماء؛ ولذا طلب بناء الصرح ليطلع إلى السماء ليقول كاذبًا مفتريًا عالمًا بكذب نفسه أنه لم يجد الله ﷻ، وإني لأظنه من الكاذبين، والعياذ بالله، كان يريد أن يطلع إلى السماء ليخدع قومه بمزيد من الخداع في إنكار علو الله على عرشه.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي ﷺ.

إذًا، هناك معطلة ينفون صفات الرب ﷻ، وينفون علوه على عرشه، تشبهوا بالفراعنة في ذلك، والعياذ بالله، وعقيدة الفراعنة في نفي وجود الله وتقسيم الكون على آلهة متعددة كل منهم له نصيب من الكون يدبره؛ هو من شر العقائد الفاسدة، وهي كذلك عند الرومان واليونان، وعند الهنود والملل المختلفة التي فيها هذا الباطل.

الْمسْألةُ الْحادِيةُ والْأرْبعُون: نِسْبةُ النّقائِصِ إلِيْهِ سُبْحانهُ، كالْولدِ والحاجةِ والتّعبِ، معَ تنْزِيهِ رُهْبانِهِمْ عنْ بعْضِ ذلِك.

الشرح:

قال رَحِمَهُ اللهُ: (**الْمسْألةُ الْحادِيةُ والْأرْبعُون: نِسْبةُ النّقائِصِ إِليْهِ سُبْحانهُ، كالْولدِ والحاجةِ والتّعبِ، مع تنْزِيهِ رُهْبانِهِمْ عنْ بعْضِ ذلِك**)؛ لأنهم عندهم أن الرهبان النصارى نسبوا إليه النقائص، اليهود نسبوا إليه النقائص، نسبوا إليه التعب والنصارى نسبوا إليه الولد والحاجة؛ الافتقار إلى غيره، ونسبوا إليه أنه كان يأكل ويشرب ويقضي حاجته، والعياذ بالله، أنهم قالوا: إن الله هو المسيح، قال الله ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ [ق: ٣٨].

فعقائد اليهود والنصارى في نسبة النقائص إلى الله مضاهية لعقائد من سبقهم من أهل الشرك في نسبة الولد إلى الله، كما نسب المشركون مشركو العرب الملائكة أنهم بنات الله: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًاۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٥٨ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨ - ١٥٩].

قالوا: إن الله ناسب الجن وتزوج من الجن فأنجب الملائكة، والعياذ بالله، وعقائد الوثنيين في زواج الآلهة من بعضها، وإنجابها للآلهة الأصغر وصراعات هذه الآلهة وقتل بعضها بعضًا، أساطير اليونان والرومان

والفراعنة ما تزال تدرس - للأسف الشديد - في الجامعة على أنها تراث، وليس على أنها فضائح البشرية وخزايا الكفار، والعياذ بالله، نسأل الله العافية.

وكما ذكر أنهم ينزهون رهبانهم عن أن يكون له زوجة، وعن أن يكون له ولد، جعلوا هذا أرفع المقامات أنه يستحيل أن يكون يسلك في سلك الرهبنة، ويكون له زوجة وأولاد، ومع ذلك ينسبون ذلك للرب ﷻ، أن الله ﷻ اتخذ صاحبة، زعموا أنها مريم، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا، وأنه أنجب عيسى أو ولد عيسى؛ ولذلك يصرحون بالولادة، فيقولون: نؤمن بأقنوم الابن المولود من أبيه قبل كل الدهور، إله من إله، فلما يجدون هذه الألفاظ الصريحة في قانون الإيمان المسيحي بهذه الطريقة، يحاولون إقناع الناس بأن هذه ليست ولادة. حسنًا، فما الذي جعلكم تقولون ولادة، فأنتم قلتم: مولود من أبيه، وفي الروح القدس قلتم: منبثق من الآب، فأنتم صرحتم أن هذا غير هذا؛ ولذلك كان هذا من الكفر الفظيع، والعياذ بالله، وصرحوا بأنه الابن المولود، فكل هذا من أنواع الإلحاد والباطل والكفر في أسماء الله وصفاته، فهذا كله مما خالف فيه رسول الله ﷺ أهل الجاهلية، فأتى بالاعتقاد الصحيح في أسماء الله وصفاته: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، وقال ﷻ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾

تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾.

وغير ذلك من الآيات التي تبين أن الله ﷻ منزه عن الولد ومنزه عن التعب، وما مسنا من لغوب، قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، لم يصبه إعياء ولا تعب في خلق السماوات والأرض.

وأما الحاجة فالله ﷻ كما قال: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ﴾ [الأنعام: ١٤]، نفى عن نفسه أن يحتاج إلى أحد، هو ﷻ صمد، لا يأكل ولا يشرب، لا جوف له ﷻ، والذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، قال ﷻ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٥]، فالحاجة إلى الطعام علامة على عدم الإلهية، علامة على الفقر والحاجة، ومع العجب أنهم يثبتون كل هذه الحاجات للمسيح عليه السلام، يثبتون أنه كان يأكل ويشرب، وينام ويتضرع إلى الله ويدعوه، ويلجأ إليه ويفتقر إليه، وغير ذلك كثير جدًا في نصوص كتبهم التي يسمونها المقدسة، فكل هذا قد أتى الشرع بإبطال عقائد أهل الجاهلية فيه، وأتى بأحسن العقائد وأوضح البينات على إثبات صفات الكمال والأسماء الحسنى لله ﷻ.

الْمسْألةُ الثّانِيةُ والْأرْبعُون: الشِّرْكُ فِي المُلْكِ، كَقَوْلِ المجُوسِ.

الـشــــرح:

قال رَحِمَهُ اللهُ: (**الْمسْألةُ الثّانِيةُ والْأرْبعُون: الشِّرْكُ فِي المُلْكِ، كقوْلِ المجُوسِ**)؛ لأن المجوس يقولون بإله للخير وإله للشر، فهناك إله للظلمة، وإله رمزه النور والنار، فصاروا يعبدون النار تفضيلاً لهذا الإله، ولكن هناك إلهًا للشر يملك نصف العالم، وربما زاد على ذلك، فإن الظلمات أكثر، والعياذ بالله، وهم يعبدون من يرمز إلى النور أو يعبدون رمز النور وهي النار، والعياذ بالله من عقيدتهم، هل وُجد في المسلمين من يقول بذلك؟

نعم، وجد فيهم ممن ينتسب إلى الإسلام، ممن يجعل مع الله شريكًا في ملكه، فالكون عندهم مقسم إلى أقطاب، وكل قطب له ربع هذا الكون مثلاً، وبعضهم يزعم كذبًا وزورًا على الله عَزَّ وَجَلَّ أنه قال: (**الملك ملكي وصرفت فيه البدوي**)، وبعضهم يجعل - كما ذكرنا - الدسوقي والجيلاني والبدوي والقنائي، كلٌّ على ربع من أركان العالم، وبعضهم يجعل سبعة على العالم، والعياذ بالله، وأنهم يدبرون الكون، واعتقدوا ذلك فيهم فصاروا يدعونهم من دون الله عَزَّ وَجَلَّ، وقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في إبطال ذلك: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤].

فجعل الله عَزَّ وَجَلَّ من يجعل مع الله شريكًا في ملكه ولو في ذرة واحدة

أو على سبيل المشاركة؛ إما أن يملك مِلكًا مستقلاً في ذرة واحدة، أو على سبيل المشاركة، أو على سبيل المعاونة، أو على سبيل الشفاعة دون إذن، فكل ذلك من الشرك، قال الله ﷻ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٢ - ٢٣]، فهذه الآيات تبين أن انفراد الرب سبحانه وتعالى بالمُلك.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾، وهو مالك لكل الأيام؛ لأن من ملك يوم الدين فهو مالك لما دونه كذلك، وإنما يظهر مُلكه التام، ومِلكه التام لكل المخلوقين يوم الدين، يوم لا مُنازع له اسمًا ولا حقيقة، في الدنيا لا يوجد من ينازعه حقيقة في ملكه، ولكن قد يتسمى بعض الناس بالملوك؛ وأما يوم القيامة: «**يقْبِضُ اللهُ - تبارك وتعالى - الْأَرْض يوْم الْقِيامةِ، ويطْوِي السّماء بِيمِينِهِ، ثُمّ يقُولُ: أنا الْمِلكُ أيْن مُلُوكُ الْأرْضِ؟**»[(١)]، لمن المُلك اليوم؟ أين ملوك الأرض؟ لا وجود لملوك الأرض يوم القيامة. قال سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾، فهو المالك وهو الملك، الملك الذي يملك كل ما في السماوات وكل ما في الأرض، والملك الذي له السيادة والأمر والنهي، ومظاهر الشرك في

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٢، ٧٤١٣) من الطريق المذكور موصولًا ومعلقًا.
وأخرجه البخاري (٦٥١٩، ٧٣٨٢)، ومسلم (٢٧٨٧) من طريق ابن شهاب الزهري، عن سعيد ابن المسيب، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

النوعين منتشرة في العالم، من يجعل مع الله من يدبر جزءًا من المُلك، وبعضهم يجعل أن السيادة الأمر والنهي لغير الله، كل ذلك من الشرك الذي أبطله الله ﷻ، وجاء النبي ﷺ بإبطاله.

ولما كان هناك من الأمة من يقول: إن أفعال العباد غير مخلوقة فهم مجوس هذه الأمة، فكانوا مشابهين للمجوس، وهم القدرية الذين جعلوا ذوات العباد مخلوقة لله، وأفعالهم مخلوقة للبشر، أنهم يخلقون أفعالهم، فصاروا مجوس هذه الأمة، وكذلك طوائف من القدرية يجعلون أن الله يخلق الخير والعباد يخلقون الشر، فكانوا مجوس هذه الأمة(١)؛ ولذلك أتى في **المسألة الثالثة والأربعين جحود القدر. قال: (جُحُودُ القدرِ)**؛ لأنها تشبه قول المجوس في الشرك في المُلك والمِلك، وهذا سوف يأتي إن شاء الله تبارك وتعالى.

---

(١) كما قال النبي ﷺ: «**الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ، إِنْ مَرِضُوا فَلاَ تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلاَ تَشْهَدُوهُمْ**» ورد هذا الحديث بألفاظ متقاربة عن جمع من الصحابة، منهم: ابن عمر، وحذيفة، وجابر، وأنس، وأبو هريرة، وابن عباس، وسهل بن سعد، وعائشة، رضي الله عن الجميع، أخرجه أبو داود (٤٦٩١، ٤٦٩٢)، وابن ماجه (٩٢)، وأحمد في المسند (٢/ ٨٦، ١٢٥)، والبزار في مسنده (٧/ ٣٣٨)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٤٤-١٥١) وابن المستفاض في القدر (ص١٧٣-١٩١)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٦٥)، (٤/ ٢٨١)، والصغير (١/ ٣٦٨)، (٢/ ٧١)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٥٩)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٣).

الْمسْألةُ الثّالِثةُ والْأرْبعُون: جُحُودُ الْقدرِ.

الْمسْألةُالرّابِعةُ والْأرْبعُون: الاحْتِجاجُ عَلَى اللَّهِ بِهِ.

الْمسْألةُ الْخامِسةُ والْأرْبعُون: مُعارضةُ شرْعِ اللَّهِ بِقدرِهِ.

الــشـــــرح:

قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٨ - ٤٩].

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**جاء مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يُخاصِمُون رسُول اللهِ ﷺ فِي الْقدرِ، فنزلتْ** ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]»(١).

فمن ينفي قدر الله ﷻ يُقال له يوم القيامة: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾، ونفاة القدر وإن أثبتوا خلق الله ﷻ لذوات العباد إلا أنهم ينازعون في أفعالهم، يقولون: لا قدر والأمر أُنُف، (أنف) يعني: مستأنف جديد، لم يسبق به قدر قد مضى، والله ﷻ جعل من أركان الإيمان كما بينها الرسول ﷺ في حديث جبريل عليه السلام: الإيمان بالقدر، فقال رسول الله ﷺ عندما سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان، قال: «**أنْ تُؤْمِن بِاللّهِ، وملائِكتِهِ، ورُسُلِهِ، وكُتُبِهِ، والْيوْمِ الْآخِرِ، والْقدرِ خيْرِهِ وشرِّهِ**»(٢)؛ ولذا قال ابن عمر رضي الله عنهما، لما سمع

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٦).

(٢) سبق تخريجه (ص٨٤).

عن القدرية، سموا قدرية لأنهم ينفون القدر ويجعلون أنفسهم صانعة للقدر، صانعة للأمور، والأفعال خالقة لها[١]، لما سمع عمن يقول: «أنْ لا قدر، وأنّ الْأمْر أُنُفٌ، قال: «فإذا لقِيت أُولئِك فأخْبِرْهُمْ أنِّي برِيءٌ مِنْهُمْ، وأنّهُمْ بُرآءُ مِنِّي، والّذِي يحْلِفُ بِهِ عبد اللّهِ بْنُ عُمر لوْ أنّ لأحدِهِمْ مِثْل أُحُدٍ ذهبًا فأنْفقهُ، ما قبِل اللّهُ مِنْهُ حتّى يُؤْمِن بِالْقدرِ»، ثم ذكر حديث جبريل عليه السلام[٢].

والقرآن والسنة يثبتان الإيمان بالقضاء[٣] والقدر[٤] في جميع الدرجات، قضية القضاء والقدر[٥] من أكبر المسائل التي حيرت البشرية، أو التي احتارت فيها البشرية إذا كانت بعيدة عن نور الوحي المنزل من عند الله سبحانه وتعالى وعقيدة الأنبياء في ذلك عقيدة واحدة، ثابتة في قصصهم وسيرتهم التي

---

(١) سبق التعريف بهم (ص٣٦٤).

(٢) سبق تخريجه (ص٨٤).

(٣) انظر: مادة: (ق ض ى) في معجم مقاييس اللغة (٥/ ٩٩)، ولسان العرب (١٥/ ١٨٦) والقاموس المحيط (ص١٧٠٨)، وانظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص٤٤١ - ٤٤٢).

(٤) انظر: مادة (ق د ر) في معجم مقاييس اللغة (٥/ ٦٢)، والنهاية في غريب الحديث (٤/ ٢٢)، ولسان العرب (٥/ ٧٢)، والقاموس المحيط (ص٥٩١).

(٥) قال الزهري: (القضاء والقدر أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما، فقد رام هدم البناء ونقضه). ا.هـ. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٤/ ٧٨)، ولسان العرب (١٥/ ١٨٦)، وشرح قصيدة ابن القيم لابن عيسى (١/ ٧١).

ذكرها الله ﷻ في القرآن، كلهم يثبتون مشيئة الله ﷻ وخلقه لأفعال العباد، وشمول قدرته لهذه الأفعال، قال الرجل الصالح لموسى عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧]، وقال إسماعيل لأبيه - عليهما السلام -: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ٨٠]، وقال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، (أن نعود فيها) أي: في ملتكم. فجعل ثباته على الدين هو وأتباعه معلقًا بمشيئة الله ﷻ.

والإيمان بالقدر - كما نعلم - هو على أربع درجات: الإيمان بكل واحدة منها إيمان بالقدر، وهي في الحقيقة من صفات الله ﷻ وأفعاله، فبعضها صفات وبعضها أفعال(١).

الدرجة الأولى: فهي الإيمان بعلم الله الأول، السابق على وجود المخلوقات الموصوف به ﷻ أزلاً، لا يتغير ولا يزيد ولا ينقص، علم الله ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، لا يضل ربي ولا ينسى،

(١) انظر مراتب الإيمان بالقدر في: العقيدة الواسطية مع شرح العلامة الشيخ صالح الفوزان - حفظه الله- (ص١٥٠- ١٥٦)، وشفاء العليل (ص٦١-١١٦)، ورسائل في العقيدة للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (ص٣٧)، وتقريب التدمرية للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (ص١٠٨ - ١٠٩)، والقضاء والقدر للدكتور عمر الأشقر (٢٩ - ٣٦)، ولشيخنا العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ - حفظه الله - تفصيل مهم لمسائل القدر. انظر: اللآلئ البهية في شرح العقيدة الواسطية (٢/ ٣٠٣ -٣٦٨).

وسع ربي كل شيء علمًا، إن الله بكل شيء عليم، وكان الله بكل شيء عليمًا: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤].

وهذه الصفة من الصفات المعلومة من الدين بالضرورة في الجملة عند عامة المسلمين أن الله ﷻ قد أحاط علمًا بكل شيء، بما كان وبما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، الأمور التي لم تقع يعلم الله لو وقعت على أي صفة كانت تقع: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، كما بين ﷻ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

علم الله أنه لو فعل ذلك؛ لو أعطى هذه العطايا للكفار، لصار الناس أمة واحدة على الكفر، فالله علم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

وهذا العلم السابق لا يحاسب الله العباد عليه، وإنما يحاسبهم على ما صدر منهم، على أعمالهم؛ ولذا قوله ﷻ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] معناه: حتى يعلم علمًا يحاسبهم

عليه؛ ولذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**إلّا لِنَعْلم أيْ لِنرى**»[1]، أي ليعلمه قد وقع وليس سيقع، فهو علمه قبل أن يقع أنه سيقع في الوقت المعين، فإذا وقع علمه الله عز وجل واقعًا قد تم وحصل بالفعل، وهذا ليس كمثل الإنسان الذي قد يخطط لأمر معين، وربما يقع الأمر وهو لا يدري هل هو وقع كما أراده وخطط له، أم لا؟ فهو مُسبقًا يعلم مثلاً أنه قد رتب أمرًا معينًا في الوقت المعين، قد يغيب هو عن هذا الأمر، لو قلنا على سبيل المثال: شخص وضع منبهًا في توقيت معين، وعندما جاء وقت التنبيه كان خارج المنزل، فهو لا يدري هل دق ذلك المنبه، أم لا؟ هو كان قبل أن يقع يظن أنه سوف يكون ذلك، فإذا علمه بعد أن دق المنبه، فقد علمه واقعًا، وعلم البشر علمًا ليس بالقطع واليقين في كل ما يستقبل، وإنما هو ظن.

وبالنسبة إلى ما مضى، فهو علم فيه نوع من عدم التفصيل أو فيه إجمال، قد يعلم بعض الأشياء، ولا يعلم بعضها، وعلم الله سبحانه وتعالى شامل وتفصيلي، علم كل ذرة في هذا الوجود، وأصغر من ذلك لا يعزب عن علمه هذه الذرات، مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، سبحانه وبحمده.

فهذه المرتبة، الإيمان بعلم الله، من ينكرها كافر، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٢٢ - ٢٣].

المرتبة الثانية: الإيمان بكتابة المقادير في اللوح المحفوظ، قال

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٢٩٧)، والبغوي (١/ ١٧٦).

الله ﷻ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٤].

وقال ﷻ: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، وقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾، وقال ﷻ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، (ما فرطنا في الكتاب من شيء) أي: في الكتاب الأول.

وقال ﷻ: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]، أي: الكتاب الذي لا محو فيه ولا إثبات، فالكتاب كتابان كما قال ابن عباس رضي الله عنهما فِي قوْلِ اللّهِ عزّ وجلّ ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [الرعد: ٣٩]، قال: «**مِنْ أحدِ الْكِتابيْنِ هُما كِتابانِ يمْحُو اللّهُ ما يشاء مِنْ أحدِهِما** ﴿وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩] **أيْ جُمْلةُ الْكِتابِ**»[(١)]، هذا الكتاب الأول قد كتب فيه كل شيء يكون إلى يوم القيامة؛ كما قال النبي ﷺ: «**إِنّ أوّل ما خلق اللّهُ الْقلمُ، فقال لهُ: اكْتُبْ، فجرى فِي تِلْك السّاعةِ بِما هُو كائِنٌ إِلى يوْمِ الْقِيامةِ**»[(٢)]، فلو أن كتابًا من الكتب الأخرى أو محي أو أُثبت شيء، فإن ذلك لابد وأن يكون مكتوبًا في اللوح المحفوظ، وفي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: «**إِنّ أوّل ما خلق اللّهُ الْقلم، فقال لهُ: اكْتُبْ قال: ربِّ**

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨٠)، والبيهقي في القضاء والقدر (ص ٢١٤).
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣٧/ ٣٧٨).

وماذا أكْتُبُ؟ قال: اكْتُبْ مقادِير كُلِّ شيْءٍ حتّى تقُوم السّاعةُ»[١]، وفي رواية أخرى قال ﷺ: «**جفّ الْقلمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ** ﷻ»[٢].

إذًا، اللوح المحفوظ فيه علم الله الذي لا يمكن أن يختلف، ولا يمكن أن يُمحى ولا يمكن أن يُغير منه شيء؛ لأنه إذا وقع فيه تغيير نافى صفة العلم التي لا يمكن نفي شيء منها، ومن نفاها فقد كفر، والعياذ بالله.

لذلك نقول: إن اللوح المحفوظ - وسمي محفوظًا؛ لأنه لا محو فيه ولاإثبات - وهو أم الكتاب وأصله، لا يغير منه شيء، قال النبي ﷺ: «**رُفِعتِ الأقْلامُ، وجُفتِ الصُحُفْ**»[٣]، وكما ذكرنا قول النبي ﷺ: «**جفّ الْقلمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ** ﷻ».

وأما الكتب الأخرى فيمكن أن تكون فيها محو وإثبات على مفهوم قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾ [الرعد: ٣٩]، فأم الكتاب لا محو فيه ولا إثبات، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**مِنْ أحدِ الْكِتابيْنِ هُما كِتابانِ يمْحُو اللّهُ ما يشاء مِنْ أحدِهِما** ﴿وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩] **أيْ جُمْلةُ الْكِتابِ**»[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤٢)، وأحمد (١١/ ٢٢٠)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤)، وابن حبان (٦١٦٩)، والآجُري في الشريعة (١٧٥) واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١٠٧٧، ١٠٧٨، ١٠٧٩)، وابنُ حبان (٦١٧٠)، والبزار (٢١٤٥)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٩٣، ١٩٤)، وقال: رواه أحمد بإسنادين والبزار والطبراني، ورجالُ أحد إسنادي أحمد ثقات.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) وقال: (حديث صحيح).

(٤) سبق تخريجه (ص ٤٢٠).

إذًا، كل ما سوى أم الكتاب يمكن أن يُمحى ما يشاء الله ويثبت، وهذه كتب متعددة وكتابات متعددة منها ما كان خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بأربعين سنة، حيث كتب الله في التوراة، كتبها بيده، كتب في الألواح: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، وهذه كتابة مرتبطة بوجود الإنسان على ظهر الأرض، قال موسى لآدم: «**احْتجّ آدمُ ومُوسى، فقال لهُ مُوسى: يا آدمُ أنْت أبُونا خيّبْتنا وأخْرجْتنا مِن الجنّةِ، قال لهُ آدمُ: يا مُوسى اصْطفاك اللّهُ بِكلامِهِ، وخطّ لك بِيدِهِ، أتلُومُنِي على أمْرٍ قدّرهُ اللّهُ عليّ قبْل أنْ يخْلُقنِي بِأرْبعِين سنةً؟ فحجّ آدمُ مُوسى، فحجّ آدمُ مُوسى. ثلاثًا**»(١)، وهناك كتابة بتقدير من هم من أهل الجنة، ومن هم من أهل النار، وعنْ عبد اللّهِ بْنِ عمْرِو بْنِ الْعاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عنْ رسُولِ اللّهِ ﷺ قال: «**خرج عليْنا رسُولُ اللّهِ ﷺ وفِي يدِهِ كِتابانِ فقال: أتدْرُون ما هذانِ الْكِتابانِ؟ قال: قُلْنا: إلّا أنْ تُخْبِرنا يا رسُول اللّهِ، قال لِلّذِي فِي يدِهِ الْيُمْنى: هذا كِتابٌ مِنْ ربِّ الْعالمِين تبارك وتعالى بِأسْماءِ أهْلِ الْجنّةِ وأسْماءِ آبائِهِمْ وقبائِلِهِمْ ثُمّ أُجْمِل على آخرهم فلا يُزادُ فِيهِمْ ولا يُنْقصُ مِنْهُمْ أبدًا، ثُمّ قال لِلّذِي فِي يسارِهِ: هذا كِتابُ أهْلِ النّارِ بِأسْمائِهِمْ وأسْماءِ آبائِهِمْ وقبائِلِهِمْ ثُمّ أُجْمِل على آخِرِهِمْ لا يُزادُ فِيهِمْ ولا يُنْقصُ مِنْهُمْ أبدًا". فقال أصْحابُ رسُولِ اللّهِ، ﷺ: فلأي شيء إذًا نعْملُ إنْ كان هذا أمر قدْ فُرِغ مِنْهُ؟ قال رسُولُ اللّهِ ﷺ: سدِّدُوا وقارِبُوا فإِنّ صاحِب الْجنّةِ يُخْتمُ بِعملِ الْجنّةِ وإِنْ عمِل أيّ عملٍ، وإِنّ صاحِب النّارِ ليُخْتمُ بِعملِ أهْلِ النّارِ وإِنْ عمِل أيّ عملٍ، ثُمّ قال بِيدِهِ فقبضها ثُمّ قال: فرغ ربُّكُمْ عزّ وجلّ مِن الْعِبادِ ثُمّ قال بِالْيُمْنى فنبذ**

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٩، ٥٧٠٥، ٥٧٥٢، ٦٦٤١، ٦٤٧٢، ٧٥١٥)، ومسلم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بها فقال: فرِيقٌ فِي الْجنّةِ. ونبذ بِالْيُسْرى فقال: فرِيقٌ فِي السّعِيرِ»[١].

وفي الحديث الآخر قال: «**اعْملُوا فكُلٌّ مُيسّرٌ لِما خُلِق لهُ**»[٢]، فهذه كتابة أخرى، كتابة في تقدير السعداء والأشقياء من ذرية آدم عليه السلام، والذي يظهر أن هذا التقدير كان يوم القبضتين بعد خلق آدم عليه السلام، كما ذكرنا اللوح المحفوظ قد كتب فيه كل شيء قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة[٣] كتابة المعصية على آدم، وهي مرتبطة بوجود الإنسان على وجه الأرض قبل خلق آدم بأربعين سنة، التقدير لأهل الجنة وأهل النار من بني آدم وكتابة ذلك، الذي يظهر أنه يوم قبض الله قبضة من ظهر آدم بيمينه، وقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وقبض قبضة بشماله وقال: هؤلاء في النار ولا أبالي، لا يبالي بطاعة الطائعين[٤]، لا يزيد في ملكه، ولا يبالي

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٧)، والترمذي (٤/ ٤٤٩-٤٥٠/ ح٢١٤١) في القدر، باب ما جاء أن الله كتب كتابا لأهل الجنة وأهل النار، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح. وفي الباب عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (٤٩٤٥)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «**كَتَبَ الله مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قبل أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قال: وَعَرْشُهُ على الْمَاءِ**».

(٤) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (٢٩/ ٢٠٦)، والفريابي في القدر (٢٩)، وابن حبان (٢/ ٥٠)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٠٨١)، والبيهقي في القضاء والقدر (ص٢٢٦) «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ، وَقَالَ: هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي، قَالَ: فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ فَعَلَى مَاذَا نَعْمَلُ؟ قَالَ: عَلَى مَوَاقِعِ الْقَدَرِ**».

بمعصية المعصين، لا يُنقص من ملكه ﷻ لا تضره معصية عاص ولا تنفعه طاعة طائع، هو سبحان الذي قدر المقادير بعلمه وحكمته، وهناك كتابات متعلقة بالإنسان كفرد وهو جنين في بطن أمه، وهذه الكتابة عند الثنتين والأربعين ليلة، وقد فهم كثير من العلماء من حديث ابن مسعود رضي الله عنه(١) أن هناك كتابة عند مائة وعشرين، وحديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه(٢) صريح في أن الكتابة تكون عند ثنتين وأربعين ليلة، يقول الملك: أي رب ما أجله؟ ما عمله؟ ما رزقه؟ أشقي أم سعيد؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الرب ما شاء، ويكتب الملك، فهذه كتابة عند الثنتين والأربعين، وبعض العلماء يجمع بين حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**إنّ أحدكُمْ يُجْمعُ خلْقُهُ فِي بطْنِ أُمِّهِ أرْبعِين يوْمًا، ثُمّ يكُونُ علقةً مِثْل ذلِك، ثُمّ يكُونُ مُضْغةً مِثْل ذلِك، ثُمّ يبْعثُ اللهُ ملكًا فيُؤْمرُ بِأرْبعِ كلِماتٍ، ويُقالُ لهُ: اكْتُبْ عملهُ ورِزْقهُ وأجلهُ وشقِيٌّ أوْ سعِيدٌ**».

وبعض العلماء يقول: هناك كتابتان؛ كتابة عند ثنتين وأربعين ليلة، وهناك كتابة عند المائة والعشرين، وبعض العلماء يقول: بل ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، أي: في توقيت الأربعين الأولى، فالأربعين الأولى للنطفة والعلقة والمضغة معًا، وأكدوا ذلك بالمشاهد طبيًا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٤٤، ٢٦٤٥) عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ «**يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِى الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَشَقِىٌّ أَوْ سَعِيدٌ فَيُكْتَبَانِ فَيَقُولُ: أَىْ رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى فَيُكْتَبَانِ وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ ثُمَّ تُطْوَى الصُّحُفُ فَلاَ يُزَادُ فِيهَا وَلاَ يُنْقَصُ**».

من شكل الجنين في المراحل الأولى، يبدأ نطفة صغيرة جدًا التي هي المني الذي يُمنى، ثم بعد ذلك خلال تخليقه يمر بمرحلة العلقة كالدودة التي تمص الدم، وهو بالضبط ما يقع عندما تتكون مجموعة من الخلايا وتلتوي حول نفسها، وتبدأ في امتصاص الغذاء من جدار الرحم من خلال دم الأم، ثم المضغة كأنها قطعة لحم ممضوغة بين الأسنان، وهذه أيضًا تكون قبل الثنتين والأربعين.

يتم خلق الإنسان عند ثنتين وأربعين؛ فلذلك ترجيح حديث حذيفة بن أسيد أقرب، والله أعلى وأعلم، وهو نص لا يحتمل غير الكتابة عند الثنتين وأربعين.

هذه كتابة خاصة بالإنسان في خاصة نفسه، وهناك كتابة أخرى في ليلة القدر، فيها يفرق كل أمر حكيم، كتابة متعلقة بالسنة، تكتب فيها مقادير السنة، وهناك سوق المقادير إلى المواقيت، قال الله ﷻ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، قال النبي ﷺ: «**ثُمّ عُرِجَ بِي حتّى ظهرْتُ لِمُسْتوى أسْمعُ فِيهِ صرِيف الأقْلامِ**»[١] في رحلة المعراج، فهذا كله في درجة الكتابة، فهذه الدرجات كلها، كتابة المقادير كلها في منزلة الكتابة، ونفاة القدرية قديمًا كانوا ينفون هاتين الدرجتين، وهم غلاة القدرية النفاة الجاحدين بالقدر بنفي علم الله، ونفي كتابة المقادير، ومعلوم من الدين بالضرورة تكذيبهم بأسماء الله وصفاته وأفعاله؛ لأن الكتابة فعلٌ من أفعال الرب، أمر الله أن يكتب، فمن كذب بذلك كان كافرًا، والعياذ بالله.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).

وأما المرتبة الثالثة: فدرجة الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهذه الدرجة ليست متعلقة بخلق الذوات فقط، ولكنها متعلقة بأفعال العباد؛ ولذا نقول: مشيئة الله نافذة في العباد وفي غيرهم وفي كل المخلوقات، العباد الذين لهم قدرة واختيار وغيرهم، وقدرته شاملة لذوات العباد، قادر على أن يخلقهم أو يعدمهم وعلى أفعالهم الاضطرارية، وتشتمل أيضًا على أفعالهم الاختيارية فالقدرة الإلهية شاملة لكل ذلك، لا يكون شيئًا خارجًا عن قدرة الله، الله على كل شيء قدير، فالدرجة الثالثة هي درجة الإيمان بالمشيئة والقدرة الإلهية، المشيئة النافذة: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾، ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

والنصوص في ذلك كثيرة جدًا، ودخول أفعال العباد الاختيارية تحت قدرة الله ﷻ داخلة في عموم قوله ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ومن هنا كان المجوس الذين يثبتون إلهين اثنين يشبههم القدرية النفاة؛ لأنهم يجعلون جزءًا من أعمال العباد خارجًا عن قدرة الله ومشيئته، أو أنهم يجعلون ذوات العباد تحت قدرة الله ومشيئته؛ وأما أعمالهم فليست كذلك، والمنازعة في الأفعال الاختيارية التي جعلهم الله يفعلونها بقدرتهم ومشيئتهم، فالمنازعة مع القدرية في هذا ليست في الذوات.

ولذا نقول: إن قوله ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، نزلت في القدرية نفاة القدر، نص في موطن النزاع؛ لأن قضية الإيمان بالقدر هي متعلقة بأفعال العباد وليست بذواتهم؛ فلذا كانت هذه الآية الكريمة التي نزلت في القضاء والقدر نص في إثبات دخول أفعال العباد الاختيارية في قدرة الله وخلقه ومشيئته ﷻ.

المرتبة الرابعة: مرتبة الإيمان بخلق أفعال العباد، جعل العباد يفعلون يشاء ويجعلهم، قال ﷻ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فهناك إرادة وهناك شرح صدر: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾، هناك إرادة إضلال، وهناك جعل الصدر ضيقًا حرجًا، قال: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ ۖ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، مرتبة الجعل، وقد أضل هؤلاء الذين أضلهم ﷻ بعدله، وهذه المرتبة مرتبة الخلق والجعل، قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقد خلق للعباد قدرة ومشيئة بها تقع أفعالهم، بالقدرة المخلوقة والمشيئة المخلوقة الإنسانيتين تقع أفعال العباد، وهذا فيه إثبات السببية وإثبات التعلق بين الأسباب والنتائج، وليس الغلو في نفي أثر قدرة العباد وإرادتهم في أفعالهم، وهذا في الحقيقة نفي لاختيارهم بالكلية، الذين ينفون أن يكون هناك أثر لقدرة العباد ومشيئتهم في أفعالهم ينفون اختيارهم واختبارهم وكونهم مكلفين بأفعال معينة، ولا يثبتون أفعالاً حقيقية للعباد؛ ولذا أهل السنة يثبتون أفعال العباد حقيقة، يثبتون أن العباد فاعلون حقيقة،

وأن لهم قدرة ومشيئة بها تقع أفعالهم، وأن الله خالق قدرتهم ومشيئتهم وأفعالهم؛ كما قال النبي ﷺ: «**إنّ قُلُوب بنِي آدم كُلّها بيْن إصْبعيْنِ مِنْ أصابعِ الرّحْمنِ، كقلْبٍ واحِدٍ، يُصرِّفُهُ حيْثُ يشاءُ، ثُمّ قال رسُولُ اللهِ ﷺ: اللهُمّ مُصرِّف الْقُلُوبِ صرِّفْ قُلُوبنا على طاعتِك**»(١)؛ كما ذكرنا حل كل إشكال في قوله ﷻ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فأثبت مشيئة العباد، وأثبت مشيئة الرب، وجعل مشيئة العباد تابعة لمشيئة الرب، وكذلك فعلهم، قال: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، ففعلهم ومشيئتهم قبل فعلهم كلاهما تحت مشيئة الله، لو شاء الله ﷻ ألا يشاءوا لما شاءوا، ولو شاء ألا يفعلوا بعد مشيئتهم لما فعلوا: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٠﴾ [يونس: ١٠٠]، والآيات في هذا أكثر من أن تُحصى في إثبات المشيئة وإثبات الجعْل والخلق، وإثبات أيضًا السببية في علاقة قدرة الإنسان ومشيئته بأعماله، وعليها يسأل كما أن الأب مخلوق والأم مخلوقة والولد مخلوق، لكن الولد مخلوق بسبب الأب والأم، فلا يمكن أن يُنكر أثر الأب والأم في وجود الولد، ولكنهما لم يخلقا الولد، فالقدرة الإنسانية والإرادة الإنسانية بمنزلة الأب والأم كلاهما مخلوق لله ﷻ، والفعل بمنزلة الولد تولد من القدرة والإرادة، والله خالق الثلاثة سبحانه وبحمده.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄.

جحود القدر كان عند المشركين، وكان أيضًا عندهم من يحتج بالقدر على الله، ومنهم من يعارض شرع الله بقدره، وجحود القدر من ينفون أيًّا من هذه المراتب، وأغلظهم من ينفون علم الله وكتابته للمقادير، ويليهم في الخبث والفساد، يعني أقل فسادًا من يثبتون العلم والكتابة، ولكن ينفون القدرة والمشيئة، وهذه القضية ما زالت موجودة في كثير من أهل البدع، وإن كان الأوائل النفاة بالكلية قد انقرضوا، لكن لا تزال المعتزلة ومن وافقهم من الشيعة؛ لأن الشعية عامتهم - زيدية ورافضة - عامتهم قدرية في باب القضاء والقدر؛ لأنهم ينفون مشيئة الله وقدرته الشاملة لأفعال العباد الاختيارية وينفون خلق الله لأفعال العباد، فهذا الأمر قد وقع فيه مشابهة لمن سبق من أهل الشرك من النفاة، وخالفهم آخرون، ولم يزل هذا - كما ذكرنا - في الأمم المتقدمة ممن أثبت القدر، لكن غلا فيه حتى نفى قدرة العباد ومشيئة العباد، وجعلهم كالآلة، وأن أفعالهم كلها مجازية اضطرارية، كأنها اضطرارية، لا فرق عندهم بين زنى الزاني وصلاة المصلي وبين ارتعاش يد المرتعش أو يد قلبه، كل ذلك عندهم سواء شيء واحد، هذا فعل الله، وهذا فعل الله، لو سمي فعلاً للإنسان فمجاز، مثل: مات الرجل، فهذا الموت في الحقيقة أمر حدث للعبد وليس هو الذي فعله، مع أنك إذا أعربتها قلت في (مات الرجل)، الرجل: فاعل، لكن هذا عندهم فعل مجازي، وكما تقول: سقطت الورقة، وقع الزلزال، أشرقت الشمس، كل هذه أفعال مجازية في الحقيقة، فهذه أمور اضطرارية، جرى الدم في العروق، لكن الأفعال الحقيقية التي تقع بمشيئة الإنسان وقدرته يمكن أن يفعل ويمكن أن يترك، فالذين غلوا في إثبات القدر حتى نفوا قدرة العباد ومشيئتهم، فهذا ليس إثبات

محمود؛ لأنهم نفوا أشياء ثبتت في الكتاب والسنة، نفوا قدرة العباد ومشيئتهم ونفوا أفعالهم الحقيقية، قالوا: ليس هناك أفعال حقيقية أفعال العباد كلها اضطرار، وبالتالي أقاموا الحجة للعباد على الله، قالوا: أصلاً هذه أفعال الرب، الذي قتل أو سرق أو زنى أو صلى أو صام، هذا أقيم كذلك وجعله الله كذلك دون إرادته منه، فيكون إذًا لا دخل له، إذًا له الحجة على ربه ﷻ، نعوذ بالله من ذلك.

وهذا اعتقاد الجبرية الذين يقولون بالجبر، بأن الإنسان مكره لا اختيار له ولا إرادة، وبالتالي لا يستحق أن يُعذب ولا أن يحاسب، فكانت هذه الفرقة التي قال قائلهم[1]:

ألقاهُ في اليمِّ مكتوفًا وقال لهُ ... إيّاك إيّاك أنْ تبتلّ بالماءِ

يشبه تكليفات الشرع للبشر برجل قيد رجلاً وكتفه وألقاه في اليم - البحر - ثم كلفه بألا يبتل.

أَلْقَاهُ فِي الْيمِّ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ ... إِيّاك إِيّاك أنْ تَبْتَلَّ بِالماءِ

(مكتوفًا) يعني: بلا قدرة، أليس كذلك؟!

فيريد أن يقول: نحن كلفنا بألا نرتكب الذنوب، ونحن مقيدون بقدرة الله وإرادته ولا دخل لنا، والعياذ بالله.

وهذا مضاهاة للأبالسة الذين قال رئيسهم إبليس: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، والعياذ بالله، فيحتج على الله بالقدر.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٤٤٦)، وشفاء العليل (ص٤).

فإن قيل: فكيف إذًا حج آدم موسى؟! كيف أن آدم احتج بالقدر، قال: «**أتلُومُنِي على أمْرٍ قدّرهُ اللّهُ عليّ قبْل أنْ يخْلُقنِي بِأرْبعِين سنةً؟ فحجّ آدمُ مُوسى، فحجّ آدمُ مُوسى. ثلاثًا**».

الجواب: أن سيدنا آدم احتج بالقدر بعد أن تاب من الذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له؛ وأما القول بأن موسى عليه السلام لامه على المصيبة فكلام بعيد جدًا؛ لأنه قال: «**فقال لهُ مُوسى: يا آدمُ أنْت أبُونا خيّبْتنا وأخْرجْتنا مِن الجنّةِ**»، واحتج آدم فقال: «**يا مُوسى اصْطفاك اللّهُ بِكلامِهِ، وخطّ لك بِيدِهِ، أتلُومُنِي على أمْرٍ قدّرهُ اللّهُ عليّ قبْل أنْ يخْلُقنِي بِأرْبعِين سنةً؟ فحجّ آدمُ مُوسى، فحجّ آدمُ مُوسى. ثلاثًا**»[(١)].

ما هو هذا الأمر؟ هو المعصية طبعًا. لا شك في ذلك، من يتأمل الحديث يجزم بأن آدم احتج بالقدر على أن موسى لامه على المعصية والخطيئة وما ترتب على ذلك من المصيبة، فاحتج آدم بالقدر، لماذا؟ لأنه تاب من المعصية، ومن تاب من المعصية كان كمن لم يعملها، ولا قدرة له على تغيير ما مضى.

يقولون: سيدنا موسى أعلم من أن يلومه على أمر قد تاب منه؟ نقول: قد ثبت أن سيدنا موسى محجوج، وربما يذهل الإنسان عن أمر لانشغاله بأمر آخر، فسيدنا موسى كان مشغولاً بالمصيبة التي حلت بالبشرية بالنزول إلى الأرض والخروج من الجنة، فأذهله ذلك عن مثل هذا الأمر، وإلا موسى لابد أن يكون هناك شيئًا في حجته؛ لأن الرسول ﷺ قال: «**فحجّ آدمُ**

---

(١) سبق تخريجه (ص ٤٢٢).

مُوسى»، فإذًا سيدنا آدم كان معه الحجة، وسيدنا موسى كان محجوجًا، فلابد أن يكون هناك شيء في كلام سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكن أن نقول: إنه لم يلمه على المعصية، فكلام بعيد جدًا، والله أعلى وأعلم.

المقصود: أن احتجاج آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان بعد التوبة؛ ولذا صح، والمصيبة التي وقعت لم تقع باختياره، إذًا آدم له أن يحتج بالقدر، المشكلة في أن يحتج بالقدر على الله، وهو ما زال مصرًا على الذنب، أو مات مصرًا على الذنب؛ لأنه سوف يلقى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يساءله عما فعل؛ لأن الذنب قد لزمه لما مات عليه مصرًا؛ فأما من تاب في حياته فهذا قد زال عنه أثر الذنب، والله أعلى وأعلم.

وأما النوع الآخر من الناس الذي يعارضون شرع الله بقدره فهؤلاء أيضًا قدرية من نوع آخر، ليس يلومون الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الأولون يحتجون بالقدر على الله ويقولون: أصلاً ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ظلمنا، ويحتجون به على الله، يرونه حجة لهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهناك نوع ثاني جبرية أيضًا يحتجون بالقدر على الشرع، معارضة شرع الله بقدره، يُقال لهم: أطيعوا الله، فيقولون طالما أن ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعلنا نفعل ذلك، إذًا هو يرضى ذلك، فالشريعة عندهم تعرف من الأمور القدرية، وليس من الوحي، ما الذي ربنا يرضاه؟ عندهم طالما ربنا ترك الأمور أو قدر الأمور أن تقع بهذا كالشرك مثلاً، إذًا هو يرضاه، طالما أن الله جعل هذا يهوديًا وهذا نصرانيًا وذاك مسلمًا، إذًا هو يرضى الثلاثة، خطر عظيم، هذا يرد الوحي المنزل، ويقول: طالما ربنا قدر ذلك وشاء ذلك، إذًا هو يشرعه ويرضاه، قال الله عَزَّوَجَلَّ عنهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

إذًا، يحتجون إذا قيل لهم: لماذا تشركون؟ لماذا تعبدون غير الله؟ لا تشركوا بالله. فيقولون: لو شاء الله ما أشركنا، طالما أنه شاء أن نشرك، إذًا هو يرضى الشرك، هذه حجة من أخطر الحجج، كما تقول لإنسان: صل، فيقول: لما ربنا يهديني، لو ربنا أراد أن يهديني سيهديني. يعني معنى ذلك طالما أن الله أراد به ذلك فهذا حسن.

وكما قال ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧]، طالما أن الله جعل من هم فقراء فإذًا هو الذي أرادهم كذلك، فلماذا نطعمهم؟ نتركهم جائعين، والعياذ بالله، لا نفقة ولا مراعاة للفقير والمسكين وابن السبيل، والعياذ بالله، فهذا معارضة الشرع بالقدر، فهؤلاء الاثنين في المسألة الأربعة والأربعين والخامسة والأربعين من فرق الجبرية، فهناك جبرية يلومون الله ويتهمونه بالظلم، ومنهم من يصرح بذلك، والعياذ بالله، ويجعلون القدر حجة للعباد على الله، ومنهم من يجعل ذلك حجة على الشرع، يرد الشرع بالقدر، يقول: طالما القدر نفذ بذلك، إذًا هو يرضاه، الكل سواء، وللعلم الاثنان موجودان عند الناس، ونعوذ بالله من ذلك، كم من الناس تقول له مثلاً: هذا بوذي؟ فيقول لك: أليس الله هو الذي خلقهم؟!

سبحان الله! ربنا الذي خلقهم، ولكن أيرضى منهم الكفر؟ أيرضى منهم الشرك وتكذيب الأنبياء وقتل الأنبياء؟ نعوذ بالله؛ ولذلك المشركون هم الذين قالوا: لو شاء الله ما أشركنا، الذين يحتجون بأن القدر قد وقع، إذًا هو شرع الله، فلا يفرقون بيْن ما رضيه الله وبين ما أراده، قدر وجوده إذًا رضيه، لا، هناك أشياء يقدر الله وجودها وهو لا يرضاها ﷻ.

فهذه المسائل الثلاثة مما وقع في الأمة: القدرية النفاة بدرجاتهم، وكما ذكرنا الدرجة الأولى: نفاة العلم والكتابة، وهم الأوائل: كغيلان الدمشقي(١)، ومعبد الجهني(٢) والقدرية الأوائل الذين كفرهم الصحابة ﵃

والنوع الثاني: المعتزلة(٣)، . . . .

(١) غيلان الدمشقي كان قبطيًا قدريًا، ثاني من تكلم في القدر بعد معبد الجهنى، أخذه هشام بن عبد الملك فصلبه بباب دمشق، وكانوا يرون أن ذلك بدعوة عمر بن عبد العزيز عليه.
انظر: المعارف (ص٤٨٤)، والمنتظم (٧/ ٩٨)، وتاريخ دمشق (٢٣/ ٣٣٥)، ولسان الميزان (٣/ ١٧٠).

(٢) معبد الجهني اختلف في اسم والده، فقيل: عبد الله، وقيل: خالد. أول من تكلم في القدر، قال الحسن البصري: إياكم ومعبدًا؛ فإنه ضال مضل. قال خليفة بن خياط: مات قبل التسعين. وقيل: في خلافة عبد الملك بن مروان. انظر ترجمته في تاريخ دمشق (٥٩/ ٣١٢)، والعبر (١/ ٩٢)، والبداية والنهاية (٩/ ٣٤)، والنجوم الزاهرة (١/ ٢٠٦)، وشذرات الذهب (١/ ٨٨).

(٣) هي إحدى الفرق الضالة المخالفة لأهل السنة والجماعة، ورأس هذه الفرقة واصل بن عطاء الغزال، كان تلميذًا في مجلس الحسن البصري، فأظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين وأن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا بكافر، فطرده الحسن من مجلسه، وانضم إليه عمرو بن عبيد، واعتزلا مجلس الحسن، فسموا بالمعتزلة لذلك، ويلقبون بالقدرية لإسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم وإنكارهم القدر فيها.
وقد افترقت المعتزلة إلى فرق شتى يجمعهم القول بنفي الصفات، والقول بخلق القرآن، وأن العبد يخلق فعل نفسه، ولهم أصول خمسة جعلوها بمنزلة أركان الإيمان عند أهل السنة، وهي: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإنما أرادوا بهذه المسميات معاني باطلة.
انظر: الملل والنحل (١/ ٣٠ - ٣٢)، والفرق بين الفرق (ص١٨، ٩٣، ٩٤)، والبدء والتاريخ (٥/ ١٤٢)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٤٦٤)، ووفيات الأعيان (٦/ ٨).
وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص ٧٩١-٧٩٢).

والشيعة بنوعيها: الزيدية والرافضة[١]، وكذلك الخوارج من الإباضية، مذاهبهم في القضاء والقدر ما زالت مسجلة في كتبهم، التي يحاولون نشرها في كل مناسبة، يعني كتب الإباضية[٢] مثل الذي يسمونه مسندًا، ينشرونه متضمنًا لعقيدة نفي القدر، والزيدية كذلك في مسند زيد بن علي أيضًا يذكرون الأدلة على نفي القدر، والاثنان الآخران، وهما: الاحتجاج على الله بالقدر، ومعارضة شرعه به، وهما الجبرية، وهؤلاء ينتشرون، الأشاعرة عندهم قدر من الجبر، عندهم نوع من الجبر، وإن لم يكونوا من هذه النوعية الصريحة، لكن مآل كلامهم إلى ذلك، ومن الجبرية الصريحة من سجلوا في عقيدتهم في أشعارهم الكفرية الباطلة التي تصرح بملامة القدر، وأن العباد لهم الحجة، وأن العباد مظلومون، ومن صرح بأن العباد مظلومون وأن الله ظلمهم، فهو كافر؛ لأن هذا من المعلوم من الدين بالضرورة، يقول ربنا ظالم، كالرجل الذي قال هذا، إيليا أبو ماضي يقول: «قدر أحمق الخطا سحقت هامتي خطاه»، التي يغنيها عبد الحليم حافظ، والناس كلها تغني، ويأتونها في ذكرى وفاة عبد الحليم حافظ، يأتون بهذه الأغنية «قدر أحمق الخطا سحقت هامتي خطاه»، نعوذ بالله، وللعلم هذا الشعر كان يدرس للطلبة أحيانًا، على أيامنا كانوا يأتونا بهذا الشعر، وكلام

(١) سبق التعريف بهم (ص٢٧٨).

(٢) الإباضية أصحاب عبد الله بن إباض المري وهم يرون أن المسلمين كلهم يحكم لهم بحكم المنافقين، بل قالوا: مخالفونا من أهل القبلة كفار ومرتكب الكبيرة موحد غير مؤمن وكفروا عليًا وأكثر الصحابة ﷺ. انظر: الأنساب للسمعاني (١/ ٧٠)، والوافي بالوفيات (١١/ ٢٠١)، وشذرات الذهب (١/ ١٧٧)، وتاريخ ابن خلدون (٣/ ١٨٢).

كفر فظيع، يعني: يسب ربنا ويتهمه بالظلم، وانظر كم شخص يقول: «لماذا يا رب الذي أنت عملته فيّ، يارب هل أنا أسحق كل هذا، وما الذي عملته لأجل أن تعمل في كل هذا».

كم من الناس عند نزول المصائب يلوم الله ﷻ ويعارضه، ونعوذ بالله، ويتهم ربه بالظلم، ويقول: أنا والله ما استحق الذي يحصل لي، نعوذ بالله.

وهل يكفر من قال: قدر أحمق الخطا؟ الذي قال: قدر أحمق الخطا كافر نوعًا وعينًا. والذي يقول: لماذا هذا؟ الذي يقول: لماذا هذا؟ إذا كان يعي ما يقول فهو كافر. المشكلة أن الذي يعترض على الله ﷻ فهذا كلام كفر فظيع، والعياذ بالله.

وجهل العاقبة ليس بعذر، ولذلك قلتُ: يعي ما يقول، ولم أقل عالم أو جاهل؛ لأنه لا يوجد أحد يعرف في دين من الأديان أن إلهه الذي يعبده يجوز له أن يخاطبه بمثل هذا، حتى الذي يعبد بقرة لا يقول لها هذا الكلام، لو شتمها سيقتلوه، لكن أن يشتم أحد ربنا ﷻ، ويقول: لا أعرف، ما الذي لا يعرفه؟! فلذلك قلتُ يعي ما يقول؛ أما لو كان شخص غير واع وقال هذا الكلام وجن ساعتها ولم يشعر، فهذا كالمجنون.

لكن هذا الخطر العظيم جدًا - كما ذكرتُ - يحتج به على الله في المعاصي والذنوب، ويرى أنه لا شيء عليه وأن هذه أفعال الرب، وأن الله يحاسب العباد على أفعالهم، ويمكن أن يصل هذان الاثنان إلى درجة الإباحية، الجبرية قد يصلون إلى درجة الإباحية، الذي يصل إلى أن الذي

يشهد الجبر، وهذا الخطر العظيم عند الصوفية، وهذا تبع النوع المسألة الخامسة والأربعين أنه يصل إلى درجة اليقين بزعمه، فيشهد أن أفعال العباد كلها لا وجود لها، فاستوى عنده الطائع والعاصي والمؤمن والكافر والبر والفاجر.

أصْـبـحـتْ مُـنْـفـعِـلًا لِما تـخْـتـارُهُ ... مِـنِّـي ففِـعْـلِـي كُـلُّـهُ طاعـاتٌ[(١)]

يزني ويقول: ما أحسن الطاعة التي أفعلها، والعياذ بالله، طالما أنه شهد القدر، الذي يصل إلى درجة القضاء والقدر ينحل عنه التكليف، ويصبح الطاعات والمعاصي وترك الواجبات والكفر والفسوق والعصيان، كله شيء واحد، كما الاتحادية والإباحية من هؤلاء الجبرية كلها يقولون مثل هذا الكلام: أن عابد الصنم كعابد الأوثان كعابد الصلبان كعابد الرحمن الكل سواء، الذي يشهد القضاء والقدر أصبح لا يرى حسنة ولا سيئة، الكل شيء واحد، كلها أفعال الله، والعياذ بالله، لما وجد أحدهم عبده يفجر بجاريته، فقال: يا فاجر، يا زاني، فقال: القدر القدر، فقال: أنتما حران لوجه الله، لإيمانكما بالقدر أحب إلي من كل شيء، نعوذ بالله من ذلك، ومثل هذا الجهل المبين والضلال الذي يصل إلى درجة استباحة

---

(١) هذا البيت نسبه شيخ الإسلام في الفتاوى (٨/ ٢٥٧) إلى محمد بن سواء بن إسرائيل الشاعر الصوفي الشيباني، المعروف بنجم الدين بن إسرائيل، تعانى الأدب، وصحب الشيخ الحريري، واقتدى به منذ بلوغه الحلم، وسلك في النظم طريق ابن الفارض، وزاد عليه في اللطف والانسجام، وحذا حذوه في الاتحاد لكنه يصرح وابن الفارض يلوح، توفي سنة ٦٧٧هـ.
انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٢٨٣)، ولسان الميزان (٥/ ١٩٥).

ترك المعلوم من الدين بالضرورة.

أخبرني أخ مرة أنه دخل مسجدًا، فوجد الناس يصلون كلهم، وواحد يذهب ويأتي، يتحرك في المسجد ولم يصل مع الناس، فظن أنه مجنون أو ربما كان أحد هؤلاء الناس، فالله أعلم به، فذهب يكلمه: لماذا لم تصل معنا؟ فقال إمام المسجد: أنت تتكلم في ماذا، هذا رجل أصلاً وصل خلاص، هذا ليس له صلاة، ليس عليه صلاة، هذه الصلاة لنا نحن؛ أما هذا الرجل فهذا وصل: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾، وهذا وصل إلى اليقين. فظهر أن إمام المسجد هذا هو الذي كافر، والعياذ بالله؛ لأنه يرى أن هذا الرجل ليس عليه صلاة، يعني: الرسول ﷺ ظل يعيش حياته ويصلي ولم يصل إلى اليقين، وهذا الرجل وصل، والعياذ بالله، الصحابة رضي الله عنهم ومنهم عمر رضي الله عنه بعد ما طعن، كما ذكر سليمان بن يسار أنّ الْمِسْور بْن مخْرمة أخْبرهُ: «**أنّ عُمر بْن الْخطّاب رضي الله عنه إذْ طُعِن دخل عليْهِ هُو وابْنُ عبّاسٍ رضي الله عنهم، فلمّا أصْبح مِنْ غدٍ فزّعُوهُ فقالُوا: الصّلاة ففزِع فقال: نعمْ، لا حظّ فِي الْإسْلامِ لِمنْ ترك الصّلاة، فصلّى والْجُرْحُ يثْعبُ دمًا**»(١)، ويغمى عليه ثلاث مرات، ويقيمونه لأجل أن يصلي، ويصلي وهو مطعون وجرحه يثغب دمًا ولم يصل إلى اليقين.

وإذا كان الرسول ﷺ قيل له: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾، و(اليقين) هو الموت، طبعًا في تفسير الآية، يعني: واعبد ربك حتى تموت، إذا كان

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٣/ ٥١١)، والبغوي في شرح السنة (٢/ ١٧٩)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٨٩٢، ٨٩٥، ١٠٠٠)، والخلال في السنة (٤/ ٢١).

الرسول ﷺ لم يصل فأنتم الذين وصلتم، فيكون كفرًا فعلاً، والعياذ بالله، أكفر من اليهود والنصارى، فهؤلاء منتشرون في وسط الصوفية الذين يرون أن الذنوب والمعاصي أحيانًا تكون كرامات، عبد الوهاب الشعراني صاحب طبقات الصوفية الكبرى، هذا الكتاب مشحون بجعل الذنوب الكبائر من الكرامات، من كرامات سيده فلان الفلاني أنه كان يقف في وجه شيخ البلد وينزله من على البغلة، ثم يأتي البغلة أمام الناس، ويكون الرجل صاحب البغلة في غاية الحياء ومكسوف، وإلا لم يفعل سمره في مكانه، إذا اعترض سيجعله كالحجر لا يتحرك، وكرامات شيخ آخر من شيوخه أنه صعد المنبر يومًا فقال: أشهد أن لا إله لكم إلا إبليس ﷺ، فقال الناس: كفر كفر، فسل السيف ونزل، ففر كل من بالمسجد، وفعل ذلك رضي الله عنه ثلاثين جمعة في نفس اليوم، يعني: ثلاثين بلد. فهذه هي الكرامات، وكان أيضًا عاريًا، نعوذ بالله.

الذي يريد أن يقرأ في هذا، يقرأ في فضائح الصوفية، وكتاب الدكتور الوكيل (هذه هي الصوفية)، وكتاب الشعراني (طبقات الصوفية) موجود، وفيه هذه الخزعبلات الضالة، الذين وصلوا إلى درجة الإباحية، الذي يصل إلى أن العبادة ليست واجبة عليه، يعارض شرع الله وقدره، يحتج على الله ﷻ، هؤلاء الإباحية خارجون من الملة.

❊ ❊ ❊

الْمسْألةُ السّادِسةُ والْأرْبعُون: مَسَبَّةُ الدّهْرِ، كَقَوْلِهِمْ: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: ٢٤].

الشـــرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: (**الْمسْألةُ السّادِسةُ والْأرْبعُون: مسبّةُ الدّهْرِ، كقوْلِهِمْ:** ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: ٢٤]).

قول المشركين الذين ذكر الله سبحانه وتعالى قولهم في قوله عز وجل: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤]، الظاهر من الآية الكريمة أنهم قصدوا نفي وجود الله سبحانه وتعالى، وأرادوا أن الطبيعة باصطلاح المعاصرين أن مجرد مرور الزمن هو الذي يؤدي إلى موتهم، ويؤدي إلى هلاكهم، ولا شك أن هذه الكلمة مع ما فيها من العقيدة الفاسدة من إنكار وجود الله سبحانه وتعالى وإنكار البعث والحساب والجزاء، وكل هذا يترتب عليه إنكار الشريعة بالكلية وإنكار الرسالة والنبوة والكتب المنزلة من عند الله عز وجل، فهذا الاعتقاد من أشد الاعتقادات كفرًا، والعياذ بالله، والطائفة المسماة بـ(الدهرية)[1] الذين يقولون: بأنه ليس

---

(١) الدهرية: نسبة إلى الدهر، وهم طائفة من الفلاسفة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «الجواب الصحيح» (١/ ٣٥٢) يصف أحوال الدهرية: «منهم من ينكر الصانع للعالم؛ كالقول الذي أظهره فرعون لعنه الله، ومنهم من يُقر بعلة يتحرك الفلك للتشبه بها؛ كأرسطو وأتباعه، ومنهم من يقول بالموجب بالذات المستلزم للفلك؛ كابن سينا والسهروردي. . .» إلى أن قال: «وهؤلاء الدهرية من الفلاسفة وغيرهم يزعمون أن السماوات أزلية قديمة لم تزل. . . وعندهم أن الله لا يفعل شيئًا بمشيئته، ولا يجيب =

للعالم إله خلقه يستحق أن يعبد، وإنما هي طبائع الأشياء ومرور الزمن، يتجدد بعد حين ما كان قبل ذلك أولاً على عقيدتهم الفاسدة، وشابههم في ذلك كثير من الملحدين في زماننا ممن يقول بنظرية (النشوء والارتقاء)، هذه النظرية الكافرة التي تُبنى على أن الحياة نشأت مصادفة من غير خالق أوجدها، وإنما هي عمليات عمياء أدت في مرة من المرات إلى حصول نشأة الخلية الحية، ثم بعد ذلك نمت وتطورت وتحولت إلى أنواع وقع بينها نوع من التنافس، أدى إلى هلاك بعضها واستمرار بعضها، هي الموجودة، مع تناقض هذه النظرية تناقضًا تامًا، ومع ما يثبته العلم الحديث مع ما جاءت به الأنبياء، مع ما تحمله في طياته من لزوم انقراض كل ما ليس بآدمي في الحقيقة؛ لأنه أرقى الأنواع، وأن الانتقاء للأفضل والبقاء للأفضل يقتضي هلاك الخلية الأولى واضمحلال البكتيريا واضمحلال الزواحف ونحو ذلك، وليس فقط بعد الأنواع فإن البقاء على هذه النظرية يستلزم أن الأفضل هو الذي يبقى، وأن ما دون ذلك هو الذي يضمحل، مع أن الأصول العلمية المعاصرة في الإحصاء والاحتمالات تجعل احتمال نشأة الحياة بمثل هذه الطريقة على قوانينهم احتمالاً من عدة آلاف الملايين، يحتاج إلى مليارات السنين لكي يقع، وعلى تقديرهم نشأة الحياة على وجه

= دعاء الداعي، بل ولا يعلم الجزئيات... بل منهم من ينكر علمه مطلقًا كأرسطو وأتباعه، ومنهم من يقول إنما يعلم الكليات كابن سينا وأمثاله... والدعاء عندهم هو تصوف النفس القوية في هيولي العالم؛ كما ذكر ذلك ابن سينا وأمثاله، وزعموا أن اللوح المحفوظ هو النفس الفلكية، وأن حوادث الأرض كلها إنما تحدث عن حركة الفلك» ا.هـ. بتصرف. وانظر: غريب الحديث للخطابي (١/ ٤٨٩)، والفرق بين الفرق (ص٣٤٦)، وتلبيس إبليس (ص٥٥).

الأرض وما يدعون من نشأة الكون قبل ذلك بملايين السنين لا يمكن أن يقع هذا الاحتمال، مع أن هذا الأمر لا يقبله عاقل بالمرة، وهو كما حاول البعض أن يشبهه بأن مجموعة من القرود تضرب على آله كاتبة ضربًا عشوائيًّا، ثم في النهاية تخرج قصيدة مكونة من مئات الألوف من الأبيات منتظمة غاية الانتظام، فمن يقبل مثل هذا يقبل أن الحياة نشأت مصادفة، لكن للأسف الشديد أن هذا الذي لا يزال يلقى قبولاً لدى قطاعات عريضة من الزنادقة الملحدين، الذين يريدون نفي وجود الله ﷻ، وفرضوا تدريس هذه النظرية على بلاد الإسلام وبلاد العالم كله على أنها نظرية محترمة أو على الأقل قابلة للاحتمال حتى، وهذا في الحقيقة يناقض ما أثبتوه هم بأنفسهم من قوانين الوراثة والجينات والتركيب الكروموزومي وأنواع التحولات، التي يمكن أن تحصل في الكائن الحي، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يتغير إلى كائن آخر بحال من الأحوال، وقد أمكنهم في تغيير الكروموزومات والجينات أنواع كثيرة جدًا من التغيير، دون أن يمكن أن يتغير كائن إلى كائن آخر من مجرد التغيير في شيء أساسي من عدد، حتى الكرموزومات أو حتى الصفات الأساسية يؤدي إلى موت هذا الجنين وعدم تكونه وموته صغيرًا قبل أن ينشأ حتى في البداية، وهذه النظرية فعلاً نظرية علميًا باطلة قطعًا، فضلاً عن مصادمتها للعقل والفطرة، ولا يقبل ذلك عاقل؛ كما قال الله ﷻ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ﴾، سمعها جبير بن مطعم رضي الله عنه، وهو مشرك من رسول الله ﷺ في صلاة المغرب، فقال: «**سمِعْتُ النّبيّ ﷺ يقْرأُ فِي المغْرِبِ بِالطُّورِ، فلمّا بلغ هذِهِ**

الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ۝٣٧﴾. **قال: كاد قلْبِي أنْ يطِير**»[1]، من قوة الحجة العظيمة لا يقبل عاقل مثلاً أن تكون مصادفة الساعة التي في يده جاءت تروس المادة الحديد من الجبال ثم صاغت نفسها على هيئة تروس وتلك المواد الأخرى التي لا تصدأ وضعت أيضًا على شكل تروس دقيقة، ثم جاءت فركبت نفسها حتى صنعت الساعة التي تسير بهذا الانضباط، مع ما فيها من نقص وخلل، مع أنها أيسر بملايين المرات من تركيب الخلية الحية، ومع ذلك فلا عاقل يقبل ذلك، ولو قيل له ما تقول في هذا الذي يقول هذا الكلام، لقال: مجنون أو مجادل بالباطل أو عنده سفسطة يجادل في اليقينيات، ويحاول الامتناع من قبولها مع كونه يعرف أنه على باطل، ومع ذلك - كما ذكرنا - فتركيب الخلية الحية أضعاف مضاعفة بملايين المرات في الدقة والإتقان والإحسان والمناسبة لحياة هذا الكائن الحي على اختلاف الخلايا الحية من نباتية إلى حيوانية، ومن حيوانية إلى أنواع الحيوانات لا يمكن أن يقع في ذلك احتمال المصادفة، يعني: أنها بدون خالق أو فاعل مدبر عاقل، أستغفر الله في استعمال هذا اللفظ، لكن المقصود مدبر له حكمة، لكن في استعمال الناس في زماننا لهذا المعنى المقصود إثبات الحكمة.

المقصود: أن مثل هذه الأقوال ما زالت موجودة بحكم فرض أهل القوة من الغرب قبول هذه النظريات رغم انعدامها، وكل حين يحاولون

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٤)، ومسلم (٤٦٣).

تجديدها كما منذ أسابيع أو شهور قالوا: وجدنا حلقة مفقودة في نظرية النشوء والارتقاء، وما أكثر الحلقات المفقودة في تطور الكائنات، يقولون: مفقود حلقة مثلاً بين الزواحف والطيور، والحقيقة أن شتان ما بين الزواحف والطيور، فكيف يقال: تتحول السحلية الكبيرة إلى طائر يطير بجناحيه، وأن هذا تطور طبيعي، حاجة عجيبة الشكل، وحلقة مفقودة بين الأسماك والبرمائيات، وحلقة مفقودة بين الحشرات مثلاً والثدييات، غباء منقطع النظير! ولو وجدوا شيئًا من الحفريات يقولون: وجدنا الحلقة المفقودة في المكان الفلاني، وكأنها نظرية محتملة! والله لا تحتمل، الغرض المقصود أن هذه الكلمة بالإضافة إلى كونها تتضمن عقيدة كفرية فظيعة وفسادًا في جميع أنواع الفهم والاعتقاد، هي فيها سوء أدب بالغ ومسبة لله ﷻ في حقيقة الأمر، وذلك أنهم بالإضافة إلى قولهم: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤]، عندما ذكروا أمر موتهم ذكروه بلفظ الهلاك، فقالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، وهم يعنون أن فاعل هذا هو الدهر والزمن، وهم يفرون بذلك من إثبات وجود الله ﷻ، وهذا الأمر قد وجد فيمن ينتسب إلى الإسلام، وقد يستعمل مثل هذا فينسب أمورًا قبيحة إلى الزمن أو إلى الدهر، وهو في الحقيقة يريد أن يفر من إثبات الخالق لهذه الكائنات وهذه الوقائع التي يريد ذمها، فقال الله ﷻ في الحديث القدسي: عنْ أَبِي هُرَيْرة ﷺ عنِ النبِي ﷺ قال: «**قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدم، يسُبُّ الدَّهْر وَأَنَا الدّهْرُ، أُقَلِّبُ اللّيْل وَالنَّهار**»(١).

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

وفِي رِوايةٍ: «**لَا تسُبُّوا الدَّهْر، فَإِنَّ اللَّه هُوَ الدَّهْرُ**»(١).

ليس معنى ذلك أن الله هو الزمن بإجماع المسلمين فإن الله خالق المكان والزمان، وإنما أنا الدهر معناه: أنا الذي ينسبون إليه هذه الأعمال ويسبونه عليها، وأنا الذي يقصدونه بالذم؛ لأنه الذي فعل هذه الأفعال، ويقولون عنه الدهر، فمعنى الحديث: أن الله ﷻ هو فاعل هذه الأشياء التي يذمونها وينسبونها إلى الدهر، والدليل على هذا التفسير قوله ﷻ في الحديث: «**وأنا الدّهْرُ، أُقلِّبُ اللّيْل والنّهار**»، أقلب ليل الدهر ونهاره، إذًا ليس أن الله هو الدهر، الليل والنهار ليل ونهار الزمن، وجود الوقت.

فالله يقلب الليل والنهار، فهذا دليل، قرينة متصلة بالحديث تدل على أن الله ليس هو الزمن، وأخطأ من قال: من أسماء الله الدهر، قال ذلك ابن حزم، وخالفه عامة أهل العلم، قالوا: الدهر كلام معلوم المعنى، وكما ذكرنا إنما يقصد المشركون ومن شابههم من هذه الأمة أن ينسبوا فعل أفعال يريدون ذمها ويسبون من فعلها ينسبونها إلى الدهر، وهم يقصدون فاعلها، وفاعلها في الحقيقة هو الله، فوقع الأمر مسبة لله ﷻ في حقيقة الأمر، فكما ذكرنا هذا نوع تشبه بهؤلاء الذين سبق القول منهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، ولكن من شابههم في عقيدتهم كفر، ومن نسب الأفعال فعلاً إلى الزمن والطبيعة كما يقع من كثير من هؤلاء الطبائعيين، وظن أن الأشياء إنما طبيعتها هي التي تحدد صفتها وأفعالها دون خالق ودون مدبر، ودون آمر وناه لهذا الكون، دون خلق ولا أمر، فهذا - والعياذ بالله - من الكفر؛ وأما

(١) أخرجه مسلم (٢٢٤٦).

من قال ذلك غير منتبه لما يستلزمه هذا الكلام، فهو يشابههم في بعض صفاتهم وأقوالهم، له نصيب من المذمة قد آذى الله ﷻ في كونه يسب الدهر، نسأل الله ﷻ أن يعافي المسلمين من ذلك.

ما يقوله كثير من الناس عن زمن قبيح، وزمن دمرنا، وزمن فعل بنا، وكلمة الزمن في زماننا أكثر استعمالاً من كلمة الدهر، ولكن هي بنفس المعنى، فالناس الذين يسبون الزمان، وهم في الحقيقة أهل العيب وأهل الذم، والزمن إنما هو مخلوق من المخلوقات، عرض من الأعراض؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، فهو ﷻ خالق هذه الأعراض، الليل والنهار عرضان في الحقيقة، والله ﷻ كما أنه هو خالق الذوات خالق الصفات، وخالق الأعراض، خالق ما يقع للكائنات من أحوال أثناء وجودها، كلمة (الليل) عبارة عن حال يطرأ على الأرض في وقت معين أو هو الوقت المعين الذي يطرأ فيه حال الظلمة وحال غياب الشمس ونحو ذلك، فيسمى ليلاً، والنهار حال يطرأ على الأرض وأهلها أثناء وجود الضوء ووجود الشمس وارتفاع درجة الحرارة وغير ذلك، فهذه أعراض وصفات وأحوال تقع للأرض وللناس في هذا الوقت، فمثل هذا نقول: قد ذكر الله ﷻ خلقه لمثل هذه الصفات والأعراض والأحوال كما أنه خالق للذوات سبحانه وبحمده؛ ولذلك لا يجوز سب الزمن، لا يجوز أن يتشبه المسلم بهؤلاء الكفار لا في عقيدتهم ولا في قولهم، التشبه بهم في العقيدة كفر ناقل عن الملة، والتشبه بهم في التلفظ على خطر عظيم، وهو شرك لفظي ولا يغيب عن المسلم أبدًا أن الله ﷻ هو الذي يقدر الأمر، وأنه هو الذي يقدر المقادير، والذي يلوم

القدر ويسبه ويلوم الزمن ويسبه حقيقة مسبته على فاعل هذه الأشياء، وهو الله ﷻ، هذه الأشياء التي يكرهها فينسب فعلها إلى الزمن والزمن لا يصنع شيئًا، فعاد السب إلى من فعلها حقيقة، فهذا - والعياذ بالله - مسبة لله، تعالى عما يقولون علوًا كبيرًا.

الْمسْألةُ السّابِعةُ والْأرْبعُون: إضافةُ نِعمِ اللَّهِ إلىَ غيْرِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣].

الشـــرح:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**الْمسْألةُ السّابِعةُ والْأرْبعُون: إضافةُ نِعمِ اللهِ إلى غيْرِهِ، كقوْلِهِ:** ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣])، فمن كفرهم أيضًا: أنهم كما نسبوا الأفعال التي يذمونها إلى الزمن وذموا فاعلها من كفرهم أنهم ينسبون النعمة إلى غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذه أيضًا في المشركين كانت منتشرة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣]؛ لذلك قال في المسألة السابعة والأربعين: (**إضافةُ نِعمِ اللَّهِ إلَى غيْرِهِ، كقوْلِه:** ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]، وهذه في الأمم السابقة كثيرة جدًا، فالمشركون من الفراعنة واليونان والرومان والهندوس وأنواع الملل المختلفة يجعلون لكل شيء في الدنيا إلهًا خاصًا، وينسبون إليه هذه النعم التي أنعم الله بها عليهم؛ فهناك إله للمطر، وإله للخصب، وإله للنبات، وهناك إله للشفاء وهناك إله للطب، ونحو ذلك من الكفريات التي انتشرت في هذه الأمم الغبية الجاهلة، بدلاً من أن ينسبوا نعمة الله إليه ويشكرونه ويحمدونه، كل شيء عندهم له إله يقوم به، والعياذ بالله من ذلك.

وكان المشركون أيضًا يقعون في هذه الأشياء، وينسبون إلى إلهتهم أنها تشفع لهم حتى يقع نزول المطر، حتى ينبت النبات ولا تجدب الأرض ونحو هذا، فامتن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عباده بنعمه في سورة النعم في سورة النحل

التي فيها هذه الآية: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣]، فامتن الله ﷻ بأنواع النعم من قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ ثم ذكر سبحانه وتعالى ما كان يفعله المشركون من نسبة نعمة الله إلى غيره، ويلاحظ في هذه الآيات أن الله سبحانه وتعالى امتن على البشر بنعمه التي خلقها دون فعل منهم، وبنعمه التي خلقها ﷻ بفعل منهم، فالله امتن عليهم بأفعالهم كما امتن عليهم بما ليس لهم فيه دخل، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾، هم بنوا البيوت، ولكن علمنا ربنا ﷻ أن الله الذي جعل لنا ذلك: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾، مع أنهم هم الذين يصنعون من الخيام من جلود الأنعام ومن الأشعار والأوبار ونحو ذلك، فالله ﷻ امتن عليهم بفعلهم؛ لأنه هو الذي وفقهم وهداهم وعلمهم وأقدرهم، وجعل فيهم الإرادة والقدرة التي بها فعلوا هذه الأشياء، فالله خالقهم وخالق أفعالهم، كما امتن عليهم بما ليس لهم فيه صنع، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾، الظل نحن لا نصنع فيه شيئًا، إنما هو شيء يخلقه الله ﷻ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾، كذلك الكهوف وما يُكِن في الجبال ليس مِن صُنعنا، فالله امتن علينا ببيوتنا، وامتن علينا بالكهوف التي خلقها دون واسطة وخلقها سبحانه وتعالى دون فعل من البشر، وهكذا فلابد أن ننسب النعمة إلى الله سبحانه وتعالى، ونعلم أن فضله ﷻ علينا بما خلق لنا وبما وفقنا لفعله وبما علمنا وهدانا

وأقدرنا على فعله من أنواع النعم لابد أن نشكر الله ﷻ عليها.

هل يوجد في أهل الإسلام من يعمل أو من يقول مثل قول هؤلاء المشركين من نسبة النعم إلى غير الله ﷻ؟

نعم، وإن كان لا يشاركهم في نفس المعتقد، وإنما يشاركهم في اللفظ في أن ينسب نعمة الله إلى غيره، فيكون هذا من كفر النعمة؛ كما قال ابنُ عباسٍ فِي الآيةِ: «**الأنْدادُ هُو الشِّرْكُ، أخْفى مِن دبِيبِ النمْلِ على صفاةٍ سوْداء، فِي ظُلْمةِ اللّيْلِ. وهُو أنْ تقُول: واللّهِ، وحياتِك يا فُلانُ، وحياتِي. وتقُولُ: لوْلا كُليْبةُ هذا لأتانا اللُّصُوصُ، ولوْلا الْبطُّ فِي الدّارِ لأتى اللُّصُوصُ. وقوْلُ الرّجُلِ لِصاحِبِهِ: ما شاء اللّهُ وشِئْت، وقوْلُ الرّجُلِ: لوْلا اللّهُ وفُلانٌ. لا تجْعلْ فِيها فلانًا، هذا كُلّهُ بِهِ شِرْكٌ**»[1].

ونحو ذلك مما هو داخل في عموم الآية الكريمة: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]، جعل الإنكار أن ينسبها الناس إلى غيره ﷻ، وهذه غاية الضلالة، والعياذ بالله، كما ذكرنا في النهي عن مسبة الدهر وذم من يسب الدهر، أنه ينسب ما يقع له من أمور يكرهها ويريد ذم من فعلها، ينسبها إلى الدهر، ويقع السب في الحقيقة على الله ﷻ فاعلها، ففي المقابل عندما يقع له أمور يحبها ينسبها إلى غير الله، ما أقبح هذا النوع! ما أقبح من يطعن في حكمة الله وقدره عند المصائب والمحن! وإذا جاءه الرخاء والخير وما يسره نسب ذلك إلى غير الله، كلاهما - والعياذ بالله -

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٦٢).

يشبه ويتشبه بالكفار الذين عقيدتهم عقيدة الكفر الأكبر، والعياذ بالله من ذلك.

فقول الإنسان حين ينسب النعمة إلى غير الله ﷻكما في قوله ﷻ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ [فصلت: ٥٠].

قال مُجاهِدٌ: «**هذا بِعملِي، وأنا محْقُوقٌ بِهِ**»(١).

وقال ابْنُ عبّاسٍ: «**يُرِيدُ مِنْ عِنْدِي**»(٢).

وقوْلِهِ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ [القصص: ٧٨]

قال قتادةُ: «**على عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ المكاسِبِ**»(٣).

وقال آخرُون: «**على علْمٍ مِن اللهِ أنّي لهُ أهْلٌ**»(٤).

فعندما ينسب النعمة إلى نفسه ويقول: إنه الذي صنع هذه الأشياء وينسبها إلى فضل نفسه أو فضل غيره، كل هذا سوء أدب مع الله ﷻ، وتشبه بالمشركين، وإن كان لا يعتقد عقيدتهم لكن شابه لفظهم فكان أمرًا منكرًا،

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٥/ ٣)، وأخرجه البخاري معلقًا، باب تفسير سورة حم السجدة فصلت (ص٩٠٥، ٩٠٦).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٥/ ٣٧٣).

(٣) انظر: تفسير الثعالبي (٤/ ٦٠)، وتفسير البحر المحيط (٧/ ٤١٥)، وشفاء العليل (ص٣٧).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٩/ ٣٠١٢) عن السدي، وانظر: تفسير الطبري (٢٤/ ١٢).

من شابههم في اعتقادهم واعتقد أن غير الله ﷻ هو الذي يأتي بالنعم، وأنه يشارك الله في إنعامه على خلقه أو أنه من دون الله ﷻ يفعل، ينسب الأشياء إلى فاعليها كأنهم هم الذين استقلوا بإيجادها على وجه الخلق والإيجاد من العدم فهذا كفر، والعياذ بالله، كهؤلاء الذين ينسبون الأفعال إلى آلهة متعددة.

وأما من إذا سأل فقال: الله الذي فعل ذلك، لكنه أساء الأدب حين نسب النعمة إلى غير الله، فقد شابه المشركين في بعض قولهم أو في شيء من قولهم، وإن لم يوافقهم في اعتقادهم فله نصيب من الشرك، وهو شرك أصغر في هذه الحالة، لا يجوز له أن يفعله ومن تشبه بقوم فهو منهم أي في هذا القدر المشترك، نسأل الله أن يعافينا من ذلك.

الْمسْألةُ الثّامِنةُ والْأرْبعُون: الْكُفْرُ بِآيَاتِ اللَّهِ.

الـشـــرح:

الكفر بآيات الله ﷻ يشمل الكفر بآيات الله المنزلة، ويشمل الكفر بآيات الله ﷻ المشاهدة في الآفاق والأنفس حين لا يقر بما تدل عليها من توحيد الله ﷻ، الكفر بآيات الله المنزلة كالكفر بآيات القرآن، والكفر بآيات الكتب التي أنزلها الله ﷻ على أنبيائه، وكذ الكفر بآيات الرسل ومعجزاتهم كما فعل فرعون عندما عارض الحجج العقلية، وكفر بآيات الله المرئية المشاهدة حين قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال الله ﷻ على لسان موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥﴾، هذا من الكفر؛ لأنه يتعجب من هذه الآية أن تكون دليلاً على توحيد الله، آية خلق السماوات والأرض، فيقول: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٦﴾، هذه آيات في الأنفس بعد آيات الآفاق: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧﴾، كفر بهذه الآية أيضًا: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٨ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝٢٩﴾، وهذا كله من الكفر بآيات الله المشاهدة المرئية التي هي في الكون، وكما كذب بعد ذلك بآيات الله ﷻ التي أعطاها لموسى، حين قال لما شاهد آية العصا وآية اليد ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝٦٣﴾، فاتهموا موسى بالسحر، وفرعون قال للملأ حوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، وهذا كفر بآيات الله ﷻ التي أيد الله ﷻ بها موسى، فكفر بها وكذب وجحد واستكبر، والعياذ بالله.

وكما يكفر كل كافر من اليهود والنصارى والمشركين بالآيات التي أُيد بها رسول الله ﷺ التي أيدها الله بها حين يكذبون معجزاته الظاهرة، حين يكذبون آيات القرآن، فكل هذا من الكفر بآيات الله ﷻ، فمن كفر بآيات الله المشاهدة أو كفر بآيات الله سبحانه وتعالى المنزلة، فكله داخل في هذا، والعياذ بالله، وهو من هؤلاء الكافرين بآيات الله ﷻ.

هل يوجد من ينتسب إلى الإسلام وتوجد فيه هذه الخصلة؟

هذه توجد في الزنادقة والمنافقين حين لا يقبلون ما دلت عليه آيات القرآن وما دلت عليه من أحكام وشرائع وأمور لابد من تصديقها، وقد وجد في الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام وفي الفرق الضالة المنحرفة التي تكفر بآيات الله ﷻ، وإن زعمت موافقتها لما تضمنته، أو أنها تؤمن بالقرآن ونحو ذلك، لكن إذا كانت هذه الآيات تخالف ما يقولونه ويعتقدونه، طعنوا فيها كما يطعنون فيما ثبت عن رسول الله ﷺ، ووجد في هذه الأمة من يكذب بالمعجزات الحسية لرسول الله ﷺ؛ وأما من طعن في القرآن صراحة، وكذب بآيات القرآن، فلا نزاع أنه ليس من هذه الأمة، وأنه خارج من الملة، وأنه إن كان مسلمًا قبل فهو كافر مرتد، والمعجزات المتواتر لرسول الله ﷺ إذا وصلته وبلغته فكذلك يكون كافرًا، كمن أنكر الإسراء والمعراج الذي وقع لرسول الله ﷺ، فمن ينكر هذا بعد علمه بأدلته كتابًا وسنة متواترة، لم يكن مسلمًا، ولكن نقول: إن بعض من ينتسب إلى الإسلام قد يقول كلامًا يتضمن التكذيب والكفر بآيات الله سبحانه وتعالى، وكم من منافق يسمع آيات الله سبحانه وتعالى تتلى عليه، ثم يعرض عنها ويأبى أن يعمل بها، ويأبى أن يطبقها، وقد قال سبحانه وتعالى في اليهود، الذين كانوا إذا اختصم العرب

كان كل طائفة من اليهود مع فريق منهم، ويقتلون بعض بني ملتهم، ثم إذا انتهت الحرب ووقعوا في الأسر، سارعوا إلى فداء أسرى اليهود جميعًا، فقال الله ﷻ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾ [البقرة: ٨٥]، فسمى ﷻ إعراضهم ومخالفتهم للآيات التي حرم الله ﷻ عليهم فيها أن يسفكوا دماءهم، وأن يخرج بعضهم بعضًا من ديارهم، سمى مخالفتهم لها كفرًا بآيات الله، وجعل تطبيقهم لآيات فداء الأسرى إيمانًا بها، فقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾ [البقرة: ٨٥]، قال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ﴾ [البقرة: ٨٥].

إذًا، لو طبقت هذا المثال لوجدت الكثيرين ممن ينتسب إلى الإسلام يكفر ببعض آيات الله ويؤمن ببعض، يعمل بما يوافق هواه أو ببعض الدين، ويترك البعض الآخر، يهجره ولا يعمل، بل ويعاديه ويخالفه، والعياذ بالله، منهم من وصل إلى النفاق الأكبر، ومنهم من كان دون ذلك، عنده تأويل أو عنده شبهة جعلته لا يعمل بهذه الآيات، لكن هذا القدر هو نوع من الكفر بآيات الله ﷻ، نقول مثلاً كم من إنسان يزعم أنه يؤمن بالقرآن كله، ولكنه لايحرم ما حرم الله ورسوله، وكم من إنسان يزعم أنه يؤمن بالقرآن

ولا يطبق حدود الله، بل ولا يرى تطبيقها، ويحاربها بكل طريق، ويرى أن تطبيقها نوع من الرجعية والرجوع إلى القرون الوسطى التي فيها تضييع لحقوق الإنسان وأنواع ذلك من الكفر، والعياذ بالله، هذا قد يكون وصل إلى الكفر الأكبر النفاق الأكبر، وبعضهم قد لا يصل الأمر به إلى ذلك، ولكن يرى مثلاً أن هناك موانع وأعذار قد لا يتيسر معها إقامة الشرع ونحو ذلك، فهذا من الكفر بآيات الله، وإن لم يصل إلى الكفر الأكبر على حسب حاله.

ولذلك كان من لم يحكم بما أنزل الله كافرًا؛ إما كفرًا أكبر، وإما كفرًا دون كفر، كفرًا أصغر إذا كان يعتقد وجوب الشرع، وأنه الأصلح للناس والأفضل والواجب تطبيقه ولا يلتزم بخلافه في الجملة، لا يستحله ولا يوجب خلاف شرع الله ﷻ، ولا يجحده بالأولى، ولكن يحكم بخلاف شرع الله، فهذا نوع من الكفر كما قال ابن عباس: «**كُفْرٌ دُون كُفْرٌ**»[1]، وهناك كفر أكبر في هذا الباب، هذا من الكفر بآيات الله ﷻ، التي أنزلها الله ليعمل بها لا لتجحد أو يُستكبر عنها، والاستكبار عن آيات الله ﷻ أيضًا من الكفر، فمن يعاند القرآن والسنة المتواترة الثابتة عن النبي ﷺ أيضًا يكون كافرًا بآيات الله، بل ومعارضة السنة ولو لم تكن متواترة بالآراء، هو نوع من الكفر كذلك إذا كان يرى صحة ما يقول، وإن كان لا يصل إلى الكفر الأكبر، لكن له نصيب من ذلك، نسأل الله العافية، إذا علم السنة وتركها لرأي نفسه أو غيره من الناس، فإن هذا خلاف الإجماع؛ ولذلك قال الحُميْدِيُّ: «**روى الشّافِعِيُّ يوْماً حدِيْثاً، فقُلْتُ: أتأْخُذُ بِهِ؟ فقال: رأيتِنِي**

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٢)، والبيهقي في السنن (٨/ ٢٠).

خرجْتُ مِنْ كنِيْسةٍ، أوْ عليّ زِنّارٌ، حتّى إِذا سمِعْتُ عنْ رسُوْلِ اللهِ ﷺ حدِيْثاً لا أقولُ بِهِ»[١].

انظر كيف جعل أن مقتضى كلام من يقول عمن علم الحديث، ولم يعمل به أنه يقتضي أن يكون كافرًا، يتشبه بالكفار على الأقل.

لذلك نقول: كم من الناس يستكبر عن آيات الله ﷻ، هناك من يكذب وهناك من يستكبر؛ كما قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦]، وقال: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾ [الأعراف: ٣٧]، وقوله ﷻ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فأنت تجد هؤلاء الكفار جميعًا قد اجتمعوا؛ إما في وصف الكذب على الله والتكذيب بآيات الله، وإما الاستكبار في قولهم: ﴿سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾، هذا الذي قال: ﴿سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾ مستكبر، وإبليس لم يجحد أن الله أمره، ولكن كفر بالكبر والإباء، ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وهذا نوع يغفل عنه كثير من الناس، فيظن أن الكفر فقط في النفي والجحود والتكذيب لآيات الله مع أن الكبر والإباء، والعياذ بالله، هو أسبق في الكفر من التكذيب، فإبليس لم يقل: يا رب لم تأمرني، وإنما قال: لم أكن لأسجد، وإنما قال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقه من طين.

---

(١) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٥١/ ٣٨٨)، وسير أعلام النبلاء (٨/ ٢٤٨)، وتاريخ الإسلام (٥/ ١٤٦).

فكم من كافر بآيات الله مستكبر عنها بهذا الوصف، يأبى أن يلتزم بشرع الله، ولا يلتزم بآيات الله، وإن قال: إن الله أمر بذلك وأنزل هذه الآيات، ولا يلزم أن يكون جاحدًا بالكلية، فاليهود الذين أنزل الله فيهم: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وأنزل فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، لم يمحوا آية الرجم من التوراة، بل زعموا أنهم يسعهم تركها، وأتوا بكذب على الله ﷻ بأنه شرع لهم الجلد والتحميم، وأساغ لهم ذلك، وأنه أباح لهم ذلك، فلما وجهوا بأن يأتوا بالتوراة وجعل القارئ يقرأ، وحاول أن يضع يده عليها، ففضحهم عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وقال له: «**ارْفعْ يدك فرفع يدهُ، فإِذا فِيها آيةُ الرّجْمِ فقالُوا: صدق يا مُحمّدُ فِيها آيةُ الرّجْمِ، فأمر بِهِما رسُولُ اللهِ ﷺ، فرُجِما**»(١).

إذًا، لم يلغوا الآية من التوراة، لم يستطيعوا ذلك، وأقروا أن الآية في التوراة، ومع ذلك لأنهم أبوا أن يطبقوها، ورفضوا أن يتحاكموا إليها أنزل الله فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

لذا نقول: كفر الإباء والاستكبار هو نوع من الكفر بآيات الله ككفر التكذيب والجحود والنفي لآيات الله ﷻ، كلاهما من الكفر.

ولا يقصر أهل السنة الكفر على نوع دون آخر، بل كلاهما كفر، إنما أهل البدع من المرجئة الذين يقولون: إن الإيمان هو المعرفة هم الذين قصروا

(١) سبق تخريجه (ص٣٢٧).

فقط ذلك الكفر على من نفى آيات الله، وكثير من السلف قد يطلق أنه لا يكفر إلا بجحد الآيات ومقصودهم بالجحد يشمل النوعين: يشمل التكذيب، ويشمل الاستكبار، عند من يتأمل كلامهم، خصوصًا الحنفية، وهم أشهر من ينسب إليهم القول بالإرجاء من الفقهاء، وهم مرجئة الفقهاء، ومع ذلك فكلامهم في كفر المستكبر والآبي والمستهزئ بشرع الله أكثر من غيرهم، فهذا يؤكد أن الخلاف بينهم وبين باقي الفقهاء في هذه المسألة لفظي أو قريب من اللفظي في كثير من المواضع؛ لأنهم يشترطون قبول الشرع، ولا يتسامحون فيمن أبى واستكبر أبدًا، بل يجعلون هناك كثيرًا من القرائن كافية للدلالة على الإباء والاستكبار، فيحكمون بكفر من استكبر عن شرع الله ﷻ أو تنقصه أو استهزأ به بأي درجة من الدرجات عندهم؛ ولذلك اعتنوا اعتناءً تامًا - كما يقول الإمام النووي رحمه الله - بألفاظ وأفعال في كتب الردة عندهم في أبواب الردة؛ ليشرحوها للناس ويحذروا الناس من الردة عن دين الإسلام. قال رحمه الله: (**فِي كُتُبِ أصْحابِ أبِي حنِيفة رحِمهُ اللّهُ اعْتِناءٌ تامٌّ بِتفْصِيلِ الْأقْوالِ والْأفْعالِ الْمُقْتضِيةِ لِلْكُفْرِ، وأكْثرُهُما مِمّا يقْتضِي إِطْلاقُ أصْحابِنا الْمُوافقة عليْهِ، فنذْكُرُ ما يحْضُرُنا مِمّا فِي كُتُبِهِمْ**)(١).

المقصود: أن الكفر بآيات الله يشمل: كفر الجحود والنفي والتكذيب ويشمل كفر الإباء والاستكبار، وعدم الالتزام بما دلت عليه من الأحكام، نسأل الله أن يعافينا من ذلك كله، وأن يعيذنا من الكفر والنفاق.

---

(١) انظر: روضة الطالبين وعمدة المفتين (١٠/ ٦٦).

الْمسْألةُ التّاسِعةُ والْأرْبعُون: جَحْدُ بعْضِهَا.

الـشـــرح:

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**الْمسْألةُ التّاسِعةُ والْأرْبعُون: جحْدُ بعْضِها**)، قال الله ﷻ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، (الجحد): النفي، ينفي آيات القرآن، يبطلها، ينفي معجزات الأنبياء وينكرها، هذا نوع من أنواع الكفر بآيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، خصه بنص القرآن على حال هؤلاء الكفار الذين رغم علمهم بصدق الرسول ﷺ إلا أنهم كانوا يجحدون، ينفون وينكرون آيات الله حقدًا وحسدًا لرسول الله ﷺ وإباءً للانقياد لأحكام القرآن التي هي آيات الله ﷻ.

وكذا إنكار ما جاء به النبي ﷺ من الأدلة الدالة على صدقه، من المعجزات الحسية الخبرية والعملية التي أيده الله بها، وكلا الأمرين، أعني: جحد الآيات المقروءة المتلوة أو جحد بعض آيات الله المقروءة المتلوة، وكذا جحد آيات النبوة يوجد في المتأخرين من الكفار، ويوجد شبه لهم في أهل البدع والضلال والنفاق المنتسبين إلى أهل الإسلام، فجحد آيات القرآن يشترك فيه اليهود والنصارى والمشركون، وكل من أنكر نبوته ﷺ ونزول القرآن، فهو ينفي آيات الله ويجحدها، وأهل الكفر كذلك يجحدون دلائل النبوة، وينكرونها رغم ظهورها أوضح ما تكون وأكثر ما تكون، فإن الله أيد نبيه محمدًا ﷺ بأنواع من الدلالات لم يجمعها لنبي قبله؛ لعموم رسالته وضرورة الإيمان به لكل أحد ممن يسمع به، فجعل أدلة

صدقه كالماء والهواء، يجدها كل من طلبها، ومع ذلك ومع وضوحها كالشمس إلا أنهم يجحدون وينفون آيات الله التي أيد بها نبيه محمدًا ﷺ، كما أنكر فرعون وملؤه آيات موسى عليه السلام ووصفوها بالسحر، وقالوا: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢]، فكذلك كان الكفار مهما آتاهم الله من آيات وأنزلها على رسوله ﷺ كانشقاق القمر(١)، قالوا: سحر مستمر، وغير ذلك من الآيات التي أراهم الله ﷻ إياها، ويوجد في بعض من ينتسب إلى الدين ممن يتبع المستشرقين وأمثالهم ممن ينكر الآيات الحسية التي أيد الله بها نبيه محمدًا ﷺ، فهذا فيمن ينتسب إلى الدين، ومع ذلك ينكر بعض آيات الله ﷻ، وينكر الأحاديث الصحيحة الثابتة في معجزاته الحسية ﷺ: كنبع الماء بين أصابعه(٢)، وحنين الجذع إليه ﷺ بمحضر من الصحابة رضي الله عنهم(٣)، وكما ذكرنا انشقاق القمر، وكذلك

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٦٣٦، ٣٦٣٧)، ومسلم (٢٨٠٠)، واللفظ للبخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ: «**أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ القَمَرِ**».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٥٧٤)، ومسلم (٢٢٧٩) أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «**خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فِي بَعْضِ مَخَارِجِهِ، وَمَعَهُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَانْطَلَقُوا يَسِيرُونَ، فَحَضَرَتِ الصَّلاَةُ، فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً يَتَوَضَّئُونَ، فَانْطَلَقَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ، فَجَاءَ بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ يَسِيرٍ، فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ مَدَّ أَصَابِعَهُ الأَرْبَعَ عَلَى القَدَحِ ثُمَّ قَالَ: قُومُوا فَتَوَضَّئُوا، فَتَوَضَّأَ القَوْمُ حَتَّى بَلَغُوا فِيمَا يُرِيدُونَ مِنَ الوَضُوءِ، وَكَانُوا سَبْعِينَ أَوْ نَحْوَهُ**»، وكما في الحديث الذي البخاري (٣٥٧٦)، ومسلم (١٨٥٦).

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٠٩٥) عَنْ جَابِرِ بْنِ عبد اللَّهِ رضي الله عنهما: «**أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ أَجْعَلُ لَكَ شَيْئًا تَقْعُدُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ** =

من ذلك التئام الشجرتين عليه ﷺ بعد أن انقادتا له مسافة طويلة(١)، وتكثير الطعام والشراب حتى يكفي الآلاف من الناس في الموطن الواحد(٢)،

= لِي غُلاَمًا نَجَّارًا قَالَ: إِنْ شِئْتِ، قَالَ: فَعَمِلَتْ لَهُ المِنْبَرَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ قَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ الَّذِي صُنِعَ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ الَّتِي كَانَ يَخْطُبُ عِنْدَهَا، حَتَّى كَادَتْ تَنْشَقُّ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَخَذَهَا، فَضَمَّهَا إِلَيْهِ، فَجَعَلَتْ تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّتُ، حَتَّى اسْتَقَرَّتْ، قَالَ: بَكَتْ عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ».

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٣٠١٢) من حديث جابر ﷺ: «سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى نَزَلْنَا وَادِيًا أَفْيَحَ، فَذَهَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْضِي حَاجَتَهُ، فَاتَّبَعْتُهُ بِإِدَاوَةٍ مِنْ مَاءٍ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا يَسْتَتِرُ بِهِ، فَإِذَا شَجَرَتَانِ بِشَاطِئِ الْوَادِي، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى إِحْدَاهُمَا، فَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا، فَقَالَ: انْقَادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ اللهِ فَانْقَادَتْ مَعَهُ كَالْبَعِيرِ الْمَخْشُوشِ، الَّذِي يُصَانِعُ قَائِدَهُ، حَتَّى أَتَى الشَّجَرَةَ الْأُخْرَى، فَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا، فَقَالَ: انْقَادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ اللهِ فَانْقَادَتْ مَعَهُ كَذَلِكَ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْمَنْصَفِ مِمَّا بَيْنَهُمَا، لَأَمَ بَيْنَهُمَا - يَعْنِي جَمَعَهُمَا - فَقَالَ: الْتَئِمَا عَلَيَّ بِإِذْنِ اللهِ فَالْتَأَمَتَا، قَالَ جَابِرٌ: فَخَرَجْتُ أُحْضِرُ مَخَافَةَ أَنْ يُحِسَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقُرْبِي فَيَبْتَعِدَ - وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ - فَيَتَبَعَّدَ فَجَلَسْتُ أُحَدِّثُ نَفْسِي، فَحَانَتْ مِنِّي لَفْتَةٌ، فَإِذَا أَنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مُقْبِلًا، وَإِذَا الشَّجَرَتَانِ قَدِ افْتَرَقَتَا، فَقَامَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَلَى سَاقٍ، فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَفَ وَقْفَةً، فَقَالَ بِرَأْسِهِ هَكَذَا - وَأَشَارَ أبو إِسْمَاعِيلَ بِرَأْسِهِ يَمِينًا وَشِمَالًا».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٠٧٠)، ومسلم (٢٠٣٩) عن سَعِيد بْن مِينَاءَ، قَالَ: «سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عبد اللَّهِ ﷺ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا، وَطَحَنْتُ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ، فَصَاحَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: يَا أَهْلَ الخَنْدَقِ إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُؤْرًا، فَحَيَّ هَلًا بِكُمْ». وكما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٤٤)، ومسلم (٦٨٢) «... وَدَعَا عَلِيًّا فَقَالَ: اذْهَبَا، فَابْتَغِيَا المَاءَ، فَانْطَلَقَا، فَتَلَقَّيَا امْرَأَةً بَيْنَ مَزَادَتَيْنِ - أَوْ سَطِيحَتَيْنِ - مِنْ مَاءٍ عَلَى بَعِيرٍ لَهَا، فَقَالاَ لَهَا: أَيْنَ المَاءُ؟ قَالَتْ: عَهْدِي بِالْمَاءِ أَمْسِ هَذِهِ السَّاعَةَ وَنَفَرُنَا خُلُوفٌ، قَالاَ لَهَا: انْطَلِقِي، إِذًا قَالَتْ: إِلَى أَيْنَ؟ قَالاَ: إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: الَّذِي يُقَالُ لَهُ الصَّابِئُ، قَالاَ: هُوَ الَّذِي تَعْنِينَ، =

وتأييد الرب ﷻ نبيه بالملائكة الذين يقاتلون عنه ﷺ ويقاتلون مع المؤمنين، وما كانوا يرونه من آثار هؤلاء الملائكة من صوت ضربهم للكفار بالسياط حتى يخضر ذلك منهم، فيموتون كضربة السوط، وكسماع أصواتهم، فقد سمع المسلمون من ذلك صوت الفارس وهو يقول: أقدم حيزوم في غزوة بدر، وإذا الكافر قد خطم وجهه وأنفه فاخضر ذلك أجمع(١)، وغير ذلك كثير من معجزات النبوة الظاهرة التي أيد الله بها نبيه ﷺ، وقد ذكر شيء من ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتاب: (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)(٢).

= فَانْطَلِقِي، فَجَاءَا بِهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَحَدَّثَاهُ الحَدِيثَ، قَالَ: فَاسْتَنْزَلُوهَا عَنْ بَعِيرِهَا، وَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ بِإِنَاءٍ، فَفَرَّغَ فِيهِ مِنْ أَفْوَاهِ المَزَادَتَيْنِ - أَوْ سَطِيحَتَيْنِ - وَأَوْكَأَ أَفْوَاهَهُمَا وَأَطْلَقَ العَزَالِيَ، وَنُودِيَ فِي النَّاسِ اسْقُوا وَاسْتَقُوا، فَسَقَى مَنْ شَاءَ وَاسْتَقَى مَنْ شَاءَ وَكَانَ آخِرُ ذَاكَ أَنْ أَعْطَى الَّذِي أَصَابَتْهُ الجَنَابَةُ إِنَاءً مِنْ مَاءٍ، قَالَ: اذْهَبْ فَأَفْرِغْهُ عَلَيْكَ، وَهِيَ قَائِمَةٌ تَنْظُرُ إِلَى مَا يُفْعَلُ بِمَائِهَا، وَايْمُ اللَّهِ لَقَدْ أُقْلِعَ عَنْهَا، وَإِنَّهُ لَيُخَيَّلُ إِلَيْنَا أَنَّهَا أَشَدُّ مِلْأَةً مِنْهَا حِينَ ابْتَدَأَ فِيهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اجْمَعُوا لَهَا فَجَمَعُوا لَهَا مِنْ بَيْنِ عَجْوَةٍ وَدَقِيقَةٍ وَسَوِيقَةٍ حَتَّى جَمَعُوا لَهَا طَعَامًا، فَجَعَلُوهَا فِي ثَوْبٍ وَحَمَلُوهَا عَلَى بَعِيرِهَا وَوَضَعُوا الثَّوْبَ بَيْنَ يَدَيْهَا، قَالَ لَهَا: تَعْلَمِينَ، مَا رَزِئْنَا مِنْ مَائِكِ شَيْئًا، وَلَكِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَسْقَانَا»، وكما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٧).

(١) أخرجه مسلم (١٧٦٣) قَالَ أبو زُمَيْلٍ: «فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ».

(٢) انظر: (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (١/ ٣٠٩-٤٠٢، ٦/ ٣٢٤-٣٢٦، ٦/ ٣٥٥-٣٦٠).

ويوجد في أهل البدع من يجحد بعض آيات الله بجحد دلالاتها وإنكار معانيها، فأهل البدع الذين ينكرون ويجحدون صفات الرب ﷻ، يجحدون ما دلت عليه الآيات من إثبات الصفات لله ﷻ، وهذا نوع من الجحد والنفي والتعطيل، كله جحد، كل المعطلة من الفلاسفة المنتسبين للدين، وكذا من الحلولية والاتحادية فإنهم في الحقيقة معطلة، وإن زعموا أنهم يثبتون ذات الرب ﷻ، ولكن يثبتونها على وجه أن ذات الرب هي ذوات كل المخلوقين، وصفاته هي صفات كل المخلوقين، وهذا من أعظم الجحد، هؤلاء كفار نوعًا وعينًا، وكذلك المعتزلة والأشاعرة عندهم نوع من النفي لصفات الله ﷻ، وكذا نفاة القدر، وكذا الرافضة الذين ينفون ويجحدون ما دل عليه الكتاب والسنة من فضل الصحابة ﭫ وأمهات المؤمنين زوجات النبي ﷺ وإثبات فضيلة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وكذا عثمان بن عفان وباقي العشرة المبشرين بالجنة ﭫ(١)، أهل البدع ينكرون ويجحدون آيات القرآن الدالة على فضل المهاجرين والأنصار، وهذا - كما ذكرنا - إن لم يجحدوا الآية نفسها إلا أنهم جحدوا ما دلت عليه، فهذا جحد بعض آيات الله ﷻ، ويوجد - كما ذكرنا - فيمن ينتسب إلى الإسلام، ويوجد في الكفار المتأخرين الذين ينكرون آيات الله - كما ذكرنا - بالنوعين:

النوع الأول: المقروءة المسموعة المتلوة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٤٩)، والترمذي (٣٧٤٧)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٥٦)، وابن ماجه (١٣٣)، وأحمد (١/ ١٨٨)، ولفظ عند الترمذي: عن عبد الرحمن بن عَوْفٍ ﭬ قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: «**أبو بَكْرٍ في الْجَنَّةِ وَعُمَرُ في الْجَنَّةِ وَعُثْمَانُ في الْجَنَّةِ وَعَلِيٌّ في الْجَنَّةِ وَطَلْحَةُ في الْجَنَّةِ وَالزُّبَيْرُ في الْجَنَّةِ وَعَبْدُ الرحمن بن عَوْفٍ في الْجَنَّةِ وَسَعْدٌ في الْجَنَّةِ وَسَعِيدٌ في الْجَنَّةِ وأبو عُبَيْدَةَ بن الْجَرَّاحِ في الْجَنَّةِ**».

والنوع الثاني: وهي آيات الرسول ﷺ، آيات صدقه ودلائل بعثته ورسالته ﷺ، من الأمور الخبرية العلمية فيما مضى وفيما يُستقبل، ومن الأمور العملية والمشاهدة المرئية من معجزاته ﷺ.

الْمسْألةُ الْخمْسُون: قَوْلُهُمْ: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]

الــشـــرح:

إثبات وجود الله ﷻ وإنكار الرسالة: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، والحقيقة أن إثبات وجود الله وإنكار بعثة الرسل ينافي التوحيد، وينافي أن الله ﷻ هو العليم الحكيم، يعني: كيف يترك الله ﷻ الخلق سدى؟ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾، من ظن هذا بالله ﷻ فقد ظن به ظن السوء، من ظن أنه يحكم هذا الخلق هذا الإحكام في خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان، ثم بعد ذلك يتركه هملاً لا يُؤمر ولا يُنهى ولا يثاب ولا يعاقب ولا يحاسب، ويظلم الظالم ويموت المظلوم ولا يأخذ حقه، ولا يكون هناك تشريع يحاسب كل إنسان ثم يجازى كل أحد بناء على هذا التشريع، كيف يعقل عاقل أن الله سبحانه الرحمن الرحيم العليم الحكيم يترك الخلق بلا هداية ولا ينزل عليهم ما يبين لهم الطريق الموصل إليه، والعجب أن هذه عقيدة إن لم نقل أكثر أهل الأرض فكثير من أهل الأرض، حتى أهل الكتاب في زماننا أصبح عامتهم ممن يقر وجود الله لا يقر بدين، ولا يرى تشريعًا، ولو تأملت في العلمانية المعاصرة لوجدت أكثر تطبيقاتها في أناس ينتسبون إلى ملل أهل الكتاب من اليهود والنصارى، إلا أنهم لا يرون أن تشريعات الكتب السماوية المنزلة من عند الله صالحة ولا لازمة للبشر، بل وعامة ربما أنكر النبوة والرسالة

بالكلية، وهذه في الحقيقة عقيدة كل العلمانيين الذين يأبون الشريعة، فكثير منهم يقر بوجود الله، وأن الله خلق السماوات والأرض، وهذه هي العلمانية المعتدلة بزعمهم التي لا تنكر وجود الله، ولكن تأبى تشريعه، تأبى أن يوجد تشريع ينزله على أنبيائه يلزم اتباعه، بل وكثير منهم يقولون: إن طاعة الرسل ليست بلازمة أو غير مناسبة، ويتهمون التشريعات التي شرعها الله ﷻ بأنواع الظلم والقصور والاضطهاد وتضييع حقوق الإنسان وغير ذلك؛ لأنهم لم يؤمنوا بأن الله أنزل الكتاب، لم يؤمنوا بأن الله أنزل على الرسل من البشر كتبًا وتشريعات ملزمة للناس، إنما يقرون بوجود لعجزهم عن إنكار هذه الحقيقة، وكثيرون منهم أيضًا قد ينكر ذلك بالكلية، لكن هذا النوع الذين يقولون: ما أنزل الله على بشر من شيء، يقرون بأن الله الخالق، ويقرون بوجود الله، ولكن ينكرون رسالة الأنبياء، ينكرون الرسالة والتشريع، وبناءً على ذلك ينكرون الثواب والعقاب، وهذا كله من الكفر، وقد وجد من تشبه بهم في إنكار الشريعة وفي رفضها، وهذا في الحقيقة لا يمكن أن يصدر إلا ممن يقول: ما أنزل الله على بشر من شيء، لو آمن أن الله خالق السماوات والأرض أنزل هذا الكتاب وأنزل الحكمة على رسوله ﷺ؛ ليعمل الناس بها، فكيف يتسنى له أن يطعن فيها؟! وكيف يتسنى له أن يحارب هذه الشريعة، وأن يجتهد في إبطالها في الأرض بكل طريق؟ لا يحصل ذلك إلا من جاحد لها كافر بها، ينكر أن الله أنزل هذا الكتاب على رسوله ﷺ.

ولما كان من يقول ذلك يأخذه ويؤثره عن أهل الكتاب، حاجهم الله ﷻ بالتوراة؛ لأن أهل الكتاب يقرون بها، من اليهود والنصارى، ويقرون بأن

الله أنزل على موسى كتابًا، فأصل قضية بعثة الرسل وإنزال الكتب يقر بها كل من آمن بالكتب المنزلة من عند الله، ولكن كيف يطبقون ذلك؟ وكيف يلتزمون به؟ هذه هي القضية المهمة التي لابد وأن تتحول إلى تطبيق عملي في حياة الناس باتباع ما أنزل الله من الهدى والنور: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ أي: كتبًا، ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ﴾: من السبل والطرق الموصلة إلى الله من أنواع العبادات، من يقظة القلوب إلى حقائق في الوجود في البداية والنهاية والجزاء والجنة والنار، كانت القلوب في غفلة وعلم الناس ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم، لم يعلمهم ذلك إلا الله؛ ولذلك هذه النوعية تُترك ولا يُشغل البال بها بعد إقامة الحجة عليها: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩١ - ٩٢]، نعم الذين يؤمنون بالآخرة، بالجزاء والثواب، والحساب والعقاب، لابد أن يؤمنوا بالقرآن؛ وذلك لأن من كفر بالتشريع المنزل من عند الله، لابد أن يكون منكرًا للجزاء وللثواب والعقاب.

الْمسْألةُ الْحادِيةُ والْخمْسُون: قَوْلُهُمْ فِي الْقُرْآنِ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥].

الـشــــرح:

هذه الأنواع الكفر بآيات الله، وجحد بعضها، وقولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، وقولهم في القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾، كل هذا محاولة للطعن في النبوة وفي إنزال الكتاب، حين يفشلون في الطعن في التوحيد يلجئون إلى الطعن في الرسالة، وكل هذا من الكفر بإجماع المسلمين، قولهم في القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾، هذا يقوله اليهود والنصارى والمشركون وعباد الأوثان من أهل الملل، وكذا من يقول عن القرآن إنه مخلوق، فهذا يجعله من قول البشر، كالمعتزلة والجهمية الذين يقولون: بأن القرآن مخلوق، شابهوا الكفار في ذلك القول: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ من قال: إنه قول البشر فقد كفر، من قال: إن الرسول اخترعه فقد كفر، من قال: إن في القرآن شيء ليس من وحي الله ﷻ فقد كفر؛ ولذلك نقول: إن الرافضة المجرمين قاموا بتحريف كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليسوا من أهل الإسلام، الذين يقولون: إن القرآن أدخل فيه ما ليس منه بإجماع المسلمين ليسوا من أهل الإسلام، هذا الكتاب قد حفظه الله ﷻ، وهوكلام الله غير مخلوق، أنزله على رسوله ﷺ وحيًا، وجعل ﷻ كل الطرق مسدودة إلا بالإيمان به، فقولهم: إن هذا إلا قول البشر، كل طاعن في القرآن وطاعن في الرسول ﷺ طاعن في النبوة والرسالة، يروم بذلك إلى إبطال ما جاءت به الرسل، كما قص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علينا من قصة أعداء الرسل عمومًا بعد أن حاولوا الطعن في

التوحيد، وقالوا: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ٩ - ١٠]. هنا تبين أنه لا يمكن أن يشك عاقل في توحيد الله، وأن الله ﷻ لا يمكن أن يترك الناس سدى، فكان الطعن بعد ذلك في الرسالة: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، وهنا يظهر حقيقة الأمر أن الحقد والحسد هو الذي دفع الأمم المكذبة للرسل إلى التكذيب بالرسالة؛ لأنهم يرون أن الرسل بشرًا مثلهم؛ فلماذا اختصهم الله واختارهم واجتباهم دون الكبراء من القوم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١ - ٣٢].

فحقيقة الأمر محاولة الطعن بعد الطعن في التوحيد الطعن في شخصية الرسل، كما قال فرعون نفس الأمر عندما قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال ﷻ - أي على لسان موسى عليه السلام -: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ انهارت حجج فرعون وانهارت شبهاته أمام هذه الحجج القاطعة البيِّنة في الآفاق في خلق السماوات والأرض وفي الأنفس، كل من يتأمل هذا الخلق العظيم لابد وأن يقر بوجود الله ووحدانيته، فبدأ في الطعن في الرسالة، قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، واستمر موسى في بيان الحجج فقال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، فشلت كل شبهات فرعون فلجأ إلى البطش والتنكيل: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝٢٩﴾، وهو أيضًا ممن كفر بآيات الله وجحد هذه الآيات، وأنكر

إنزال الله ﷻ للوحي على رسله، وكذلك كان يزعم أن هذا سحر مفترى ما سمعوا به في آبائهم الأولين، تجد هذا سبيلاً متكررًا من أهل الكفر - والعياذ بالله - في محاولة الطعن في التوحيد ومحاولة الطعن في الرسالة، وتجد هذا الأمر ينطلي على كثير من الجهال من الكفار المقلدين، الذين يطعنون في بعثة الرسول ﷺ، وكما ذكرنا قبل بعض أهل البدع ما يريده الأعداء من القول بأن القرآن قول البشر حين قالوا: إنه مخلوق. وإن لم يصرحوا بأنه قول البشر، لكن هذا لازم كلامهم ومقتضى حالهم، فشابهوا أهل الجاهلية من الكفار من أهل الكتاب والأميين في هذا الاعتقاد الفاسد.

الْمسْألةُ الثّانِيةُ والْخمْسُون: الْقدْحُ فِي حِكْمةِ اللَّهِ تَعَالَى.

الشـــرح:

هناك نوع آخر من الكفر، والعياذ بالله، وهو القدح في حكمة الله ﷻ، وهذا في حقيقة الأمر نوع من فساد الاعتقاد في القضاء والقدر، وكذلك متعلق بالشرع، بالنظر إلى تعلقه بإنكار حكمة الله الكونية في القضاء والقدر كان يناسب أن يجعل مع المسائل الثلاثة والأربعين، والرابعة والأربعين، والخامسة والأربعين في جحود القدر والاحتجاج على الله به، ومعارضة شرع الله بقدره، فالقدح في حكمة الله ﷻ شبهة من يعارض شرع الله بقدره فالجبرية نفاة الحكمة والتعليل، لكن الحقيقة أن إنكار الحكمة أو القدح في حكمة الله ﷻ، ليس فقط في الجبرية، وإنما هو أيضًا يشمل فيمن قدح في شرع الله ﷻ، وهذا كثير جدًا في نفاة الحكمة والتعليل قديمًا وحديثًا، أول من قدح في حكمة الله ﷻ إبليس، حيث قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، يقدح في حكمة الله ﷻ فيما شرعه، ويقدح في حكمة الله فيما قدره، حتى قال: ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، فنفى أولاً حكمة الله في التشريع، وبعد ذلك في تقدير البلاء عليه بتقدير الكفر والإغواء عليه، فهو طاعن في حكمة الله ﷻ، حكمة الله نوعان، وكلا النوعين وقع الإنكار لهما من طوائف من الكفار، من الجبرية، ومن معارضي الشريعة؛ حكمة الله الكونية، وحكمة الله الشرعية.

حكمة الله الكونية المقصود بها: أن الله ﷻ جعل فيما يقدره من

المحبوب والمكروه حكمًا ومصالح في مجموع الأمر، حتى فيما يقدره ﷻ من الكفر والفسوق والعصيان، يجعل سبحانه فيها من أنواع المصالح والحكم والغايات المحمودة التي يستحق الحمد عليها ﷻ ويعرفها أهل الإيمان، ويعبدون الله ﷻ بمقتضى إثبات هذه الحكم ما يعلم به أهل الإيمان صفة الحكمة من صفاته ﷻ، واسم الحكيم من أسمائه ﷻ، فهو ﷻ لم يقدر شيئًا عبثًا، وهو ﷻ لم يجعل شيئًا بلا حكمة وغاية محمودة، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، الذي يقدح في حكمة الله يقدح في حمده، الذي ينكر حكمة الله فيما يقدره ينكر كثيرًا من الآيات التي بيّن الله ﷻ فيها، لماذا خلق هذه المخلوقات كما قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام: ١١٢ - ١١٣].

تعليل واضح وبين في تقدير إيحاء الشياطين بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا، وهذا في حكمة الله لكي تنجذب قلوب من لا يؤمن بالآخرة إلى هذا الباطل، وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون، فيستحقوا عقوبة الله ﷻ لهم، فإن الله لا يعاقب أحدًا ولا يعذب أحدًا دون جريرة منه، ودون عمل منه، وكذلك قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣]، فعلل ﷻ ما قدره من جعل أكابر المجرمين في كل قرية، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ

﴿ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال: ٣٦ - ٣٧]، ليميز الله؛ فبيّن لماذا قدر ذلك. يجتمع الباطل بعضه على بعض، حتى يُلقى بعد ذلك في جنهم، وقد خسر من اتبع الباطل.

وقال ﷻ: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠ - ١٤٢].

فبين سبحانه حكمته في الابتلاء بالأمر المكروه، وهو قتل المؤمنين وتسليط الكافرين عليهم، جعل من وراء ذلك حكمًا بالغة كما قال ﷻ: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ﴾، فالله ﷻ بين أنواعًا من الحكم في كتابه معللة بـ(اللام) وبـ(حتى) وبـ(كي) و(من أجل)، فدل ذلك على أن أفعاله ﷻ وتقديراته لها حكم وعلل ومقاصد وأمور تترتب عليها المصالح وأنواع العبودية لله ﷻ التي يحبها، إنما قدر الله ضدها لتظهر هذه الأنواع من العبودية.

النوع الثاني من الحكمة: حكمة الله ﷻ فيما شرّع، كما يعرف ذلك أهل الإيمان أن الشريعة متضمنة لأنواع الحكم، متضمنة لأنواع مصالح العباد؛ كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١]، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا

﴿كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقال ﷻ في الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وكل العبادات ذكر الله لها حكمًا ومقاصد، وذكر سبحانه في التشريعات في تحريم الربا والفواحش والظلم من أنواع الحكم ومصالح العباد ما لا يغفله عاقل أو عنده شيء من العلم والإدراك، فإنكار حكمة الله ﷻ في القدر وإنكار حكمة الله في الشرع كلاهما من أوصاف المشركين والكافرين وأهل الجاهلية، وقد وجد هذا في نفاة الحكمة والتعليل من الجبرية، وفي نفاة الحكم والمصالح من منكري القياس من الجامدين، شابهوا أهل الجاهلية في الذين طعنوا في حكمة الله.

كما ذكرنا إبليس أول من طعن في حكمة الله ﷻ، ويوجد من يطعن في قدر الله ﷻ، حين يتهم الله بالظلم فيما يفعله بهم وفيما يشرعه لهم، فكم من مُتهِم لربه بسوء الظن فيما فعله الله به وبغيره؛ كما قال ﷻ عن أهل الجاهلية: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وذلك أنهم يتهمون الرب بأنه ظلمهم حين قدر عليهم ما يكرهون، أو حين حرمهم بعض ما يستحقون أن يُحرموا بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، وهذا كما تعلم موجود في أناس ينتسبون إلى الإسلام، بعضهم يقول: لماذا يا رب فعلت بي كذا؟ أنا لا أستحق كل هذا، أنا أعمل الصالحات، كل هذا أصابني رغم أنني صالح، ورغم أني لا أسيء، وهذا كثير عليّ، وهذا كافر زنديق قد قال: «قدر أحمق الخطا سحقت هامتي خطاه»، وغير ذلك من الكفر - والعياذ بالله - في أنواع الطعن في حكمة الله ﷻ.

وأما في التشريع فكل منكري الشريعة من أعداء هذه الشريعة، وكما ذكرنا من العلمانيين من يطعن في التشريعات الإسلامية ممن يقول: إنها اعتداء على حقوق الإنسان، من أنها ظلمت المرأة، من أنها تناسب العصور الوسطى الجاهلية، من أنها لا تناسب القرن الحادي والعشرين وكانوا يقولون في الزمن الماضي القرن العشرين، وأنها لا تواكب النهضة الإنسانية في العلوم والمعارف، وأنه لابد من التخلي عن هذه التقاليد البالية، وإلى يومنا هذا ما زال يقول هؤلاء أنواع الكفر والنفاق في الطعن في شرع الله، والظاهرية نفاة القياس بالكلية لهم نصيب من الطعن في حكمة الله ﷻ حين نفوا العلل، وإن لم يكن هذا بالقدر الذي اتصف به هؤلاء الجاهليون في إنكار حكمة الله، فإنهم يثبتون الحكمة إجمالاً، لكن يقولون: أحكام الله لا تعلل، يعني: الأحكام الشرعية، وهذا بلا شك انحراف عن شرع الله ﷻ، ولم يزل أصحاب رسول الله ﷺيثبتون الحكم ويستنبطون بناءً عليها العلل؛ لأن العلل هي الأوصاف المؤثرة التي يرتبط بها الحكم، فهذا الأوصاف المؤثرة إنما تعرف بالنظر إلى الحكم التي اقتضتها الشريعة، وعلقت على هذه الأوصاف المحصلة لهذه الحكم الأحكام الشرعية، فالبحث عن هذه الأوصاف المؤثرة هو القول بالقياس، وكذا إثبات الأحكام به خلافًا لمن أنكر ذلك.

الْمسْألةُ الثّالِثةُ والْخمْسُون: إِعْمالُ الْحِيلِ الظّاهِرةِ والْباطِنةِ فِي دفْعِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى عنْهُم: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ [آل عمران: ٥٤]، **وَقَوْلِهِ:** ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ . . . [آل عمران: ٧٢].

الـشـــــرح:

إعمال الحيل الظاهرة والباطنة هذا تجده في الكفار من أهل الكتاب والمشركين، كما حاول اليهود والرومان مع المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ في إبطال ما جاء به، ومحاولة قتله وإطفاء نور الوحي الذي أنزله الله ﷻ عليه؛ ليستمروا على ما هم عليه من أنواع الكفر؛ وأكل أموال الناس بالباطل، وظلم الناس وإفساد دينهم ودنياهم، والترأس عليهم بغير الحق، فحاولوا ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين، فهم يريدون دفع ما جاءت به الرسل، وهذه الآية الأولى في أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أبطل مكرهم ورفع عيسى ﷺ، فلم يمكنهم من صلبه، ولا من قتله، قال ﷻ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ﴾، فكان أهل الإسلام فوق الكافرين ظهور الحجة والبيان إلى يوم القيامة، وكذلك ظهور القوة والسنان - بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بعد مداولات بينهم خاتمتها نزول المسيح ﷺ؛ ليظهر الله ﷻ أهل الإسلام به على أهل كل ملة على الإطلاق؛ ليعم الإسلام الأرض كلها.

هذا أمر يوجد في كل زمان، يوجد في أنواع المكر بالليل والنهار للصد عن سبيل الله، كم من المخططات تنفق وتبذل وتعد لصرف الناس عن الإسلام، وإبعادهم عن الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكم من الحروب تُقام وكم من البلاد تحتل، وكم من الجيوش تجيش لصرف الناس عن الإسلام، يسمونه التطرف ويسمونه الإرهاب ويسمونه الرجعية ويسمونه بغير ذلك؛ ليصرفوا الناس عن الالتزام بهذا الدين، وهناك مكر ظاهر ومحاولات لقتل الدعاة وقتل المجاهدين وإسكات الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ومنع الدعاة من أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، تجده في أرجاء الأرض كلها، ومخططات كانت في الماضي تكون مكتومة، وأصبحت اليوم ظاهرة معلنة، إعمال الحيل الظاهرة والباطنة، كانوا يخططون سرًا، فصاروا يخططون علنًا في نشر المذاهب المنحرفة كأدعياء النبوة، فتجد الاحتلال الغربي لبلاد الإسلام أنشأ فيهم من يدعي النبوة؛ كالقادياني والبهاء والباب، هؤلاء الذين ادعوا النبوة وحاولوا صرف الناس عن هذا الدين، وإلى يومنا هذا يحاولون الطعن في نبوة محمد ﷺوختم النبوة، وقنواتهم ومواقعهم الخبيثة التي تحاول الطعن في القرآن، وتنشر الشبهات، كل ذلك من محاولة دفع ما جاء به الرسول ﷺ، وأولياؤهم من المنافقين كذلك يحاولون بكل طريق الصد عن سبيل الله وتخويف الناس من الالتزام بشرع الله سبحانه وتعالى، ومما ذكره الشيخ الآية الثانية قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢﴾، طائفة من اليهود قالت لبعضها في محاولة للصد عن سبيل الله ﷻ: أعلنوا الإيمان أول النهار، ثم في آخر النهار، أعلنوا الرجوع

ليتشكك المسلمون. ويقول ضعاف الإيمان: إن هؤلاء أهل العلم من أهل الكتاب ما رجعوا عن هذا الدين إلا لأنهم وجدوا فيه من النقص والعيب والخلل ما دفعهم إلى الرجوع، فكانت خطة اليهود في هذا أن يدخل أناس الدين ثم يخرجون منه، وهذا تجده يقع بعينه في زماننا، أناس يدخلون في الدين ثم بعد ذلك يرجعون مرة أخرى، والعجب أن أناسًا ينتسبون إلى الإسلام يقررون أحقية ذلك الأمر، فهذه المحكمة الدستورية في بعض البلاد الإسلامية تقرر أحقية المرتد الذي كان نصرانيًا فأسلم ثم ارتد عن الإسلام في أن يكتب دينه الأصلي في خانة الديانة، بعد أن كانت وزارة الداخلية ممتنعة عن إثبات ذلك، تقول: لابد أن يقتل، لا نعترف بالمرتد. قالوا: بل هذا من حقه؛ لأن الشريعة الإسلامية وإن أهدرت دم المرتد إلا أن القوانين الوضعية لم تعمل بذلك، وأن الدستور ينص على حرية العقيدة؛ فلذلك من حقه ذلك، ولم يقولوا فقط اكتبوه، بل قالوا: من حقه، والعياذ بالله.

تجد هذا الأمر يحدث في محاولة لزعزعة المسلمين عن دينهم، يدخل أناس الدين ثم يرجعون عنه، والعياذ بالله.

الْمسْألةُ الرّابِعةُ والْخمْسُون: الْإِقْرارُ بِالْحقِّ؛ لِيتوصّلُوا بِهِ إِلَى دفْعِهِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيةِ.

الشـــرح:

قال: (**الْمسْألةُ الرّابِعةُ والْخمْسُون: الْإِقْرارُ بِالْحقِّ؛ لِيتوصّلُوا بِهِ إِلى دفْعِهِ، كما قال فِي الْآيةِ**)، وهذا أنهم ما أقروا وآمنوا وجه النهار إلا ليأخذوا بعض ضعاف الإيمان آخره معهم، واكفروا آخره لعل المسلمين يرجعون عن دينهم؛ لأنهم حينئذٍ يشكون؛ ولذلك كان حسم الشرع لأمر الردة أعنف من كل حكم شديد لأهل الكفر غير المرتدين، فأهل الإسلام مجمعون على أن المرتد يُقتل، النزاع عندهم فقط في المرأة، هل تقتل أو تحبس حتى تموت مع أن النص عام، وهناك نص خاص في «**أيُّما رجُلٍ ارْتدّ عنِ الْإِسْلامِ فادْعُهُ، فإِنْ تاب فاقْبلْ مِنْهُ، وإِنْ لمْ يتُبْ فاضْرِبْ عُنُقهُ، وأيُّما امْرأةٍ ارْتدّتْ عنِ الْإِسْلامِ فادْعُها، فإِنْ تابتْ فاقْبلْ مِنْها، وإِنْ أبتْ فاسْتتِبْها**»، والحديث حسنه ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]، وعموم قول النبي ﷺ: «**منْ بدّل دِينهُ فاقْتُلُوهُ**»[(٢)]، يدل على لزوم قتل المرتد، وأنه مهدر الدم لا يمكن أن يترك ليهدم هذا الدين؛ لأنه يطعن في الدين، فهو من أئمة الكفر، والعياذ بالله، فنقول: هذا الحسم في معاملة المرتدين؛ لأجل ألا يتمكن هؤلاء الذين يريدون هدم الدين

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١١٩)، وابن حبان (١٠/ ٣٢٧)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٥٣)، وفي مسند الشاميين (٤/ ٣٧٢)، وقال الحافظ في الفتح (وَسَنَدُهُ حَسَنٌ وَهُوَ نَصٌّ فِي مَوْضِعِ النِّزَاعِ فَيَجِبُ الْمَصِيرُ إِلَيْهِ «١٢/ ٢٧٢ فتح).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٢٢).

بذلك، والإقرار بالحق ليتوصلوا به إلى دفعه هو سبيلهم وسبيل كثير من الناس، يقر بظاهر الشريعة ويعمل الحيل لمحاولة إبطالها .

الْمسْألةُ الْخامِسةُ والْخمْسُون: التّعصُّبُ لِلْمذْهبِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣].

الشـــرح:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**الْمسْألةُ الْخامِسةُ والْخمْسُون: التّعصُّبُ لِلْمذْهبِ، كقوْلِهِ تعالى:** ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣]، وهذا من كفرهم وضلالهم، تسلل إلى أناس من أهل الإسلام شيء منه، وتشبه به في أن يتعصب للمذهب لا يقبل من الحق إلا ما وافق أهل مذهبه، فكل دليل من آية أو حديث يخالف ما عليه مذهبه، فهو إما ضعيف أو مؤول أو منسوخ، لابد وأن يجد له مسدًّا يسده به ولا يعمل به.

قضية التعصب للمذهب والطائفة والجماعة التي ينتمي إليها الإنسان قضية قديمة في الأمم، والعصبية الجاهلية، حمية الجاهلية، قد ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**منْ قُتِل تحْت رايةٍ عِمِّيّةٍ، يدْعُو عصبِيّةً، أوْ ينْصُرُ عصبِيّةً، فقِتْلةٌ جاهِلِيّةٌ**»[1]، فبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقيقة هذه العصبية أنها راية عمية لا يرى الإنسان الحق من الباطل، لا يعرف الخطأ من الصواب، وإنما يقلد ويتبع طائفته وينصرها بنفسه ولسانه وماله وبكل ما يقدر عليه؛ لأنه ينتمي إليها، فيريد أن يظهرها ولو كانت على الباطل، وقد جاء الإسلام بأن

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، و(١٨٥٠) من حديث جندب بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الولاء والنصرة والمتابعة إنما تكون على الدين، على الحق، على الوحي المنزل من عند الله ﷻ، ليس على مجرد الانتساب إلى مذهب معين، أو بلد معين، أو طائفة معينة، أو جماعة معينة، لابد أن نزن كل الأمور بميزان الكتاب والسنة المنزل من عند الله ﷻ.

أهل الكتاب قالوا: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، وقالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١]، وهم في حقيقة الأمر لا يؤمنون بما أنزل عليهم، ولا يقبلون إلا ما يوافق أهواءهم شابهم أناس ينتسبون إلى الإسلام، فكانت قضية التعصب للطائفة التي ينتمي إليها الإنسان بداية من التعصب للبدع المضلة، وانتهاءً بالتعصب للمذاهب والشيوخ والبلدان دون نظر إلى الدليل، كلما ازداد التقليد عمقًا كلما ازداد الجهل وازداد التعصب، التعصب المذموم مبني على الجهالة، لا يقلد إلا الجاهل، ولا يتعصب على ذلك التقليد إلا من هو أجهل كذلك، فأن يرى الإنسان الحق مع طائفته أيًّا من كانت، ومع شيخه أيًّا من كان، ومع الجماعة التي ينتمي إليها أيًا ما كانت، فلا شك أن هذا هو التعصب المذموم طالما لا يرجع إلى الدليل، ولو رُبي على اتباع الدليل دونما اتباع الشيخ أو الإمام ودونما اتباع المذهب والطائفة، لما حدث هذا التعصب المذموم، ولا كانت هذه الرايات العمية التي صارت بعد فيما هو أسوأ من ذلك، أعني: كان الناس يتعصبون لمذاهب أئمة من أهل الدين، وذكرهم الحسن والثناء عليهم في الأمة كلها، ثم صار التعصب بعد ذلك للأحزاب الجاهلية ورايات الجاهلية دون دين الله ﷻ، ودون حتى إلى من ينتسب إلى

الدين، فصار التعصب للقوميات: العربية، والتركية، والفارسية، والزنجية وغير ذلك من القوميات.

وكذلك التعصب للبلدان؛ هذا مصري، وهذا سعودي، وهذا عراقي، وهذا سوري، وهذا فلسطيني، وتشرّب المسلمون للأسف عادات أهل الجاهلية من أهل أوروبا، الذين بنوا دولهم الحديثة على المعاني القومية والنزعات العرقية، دون نظر إلى من المحق ومن المبطل، تشرب كثير من المسلمين ذلك فتفرقت أمتهم.

كان التعصب أحد أسباب فرقة الأمة واختلافها، وحدث بسبب ذلك ما أدى إلى الضعف والاختلاف الذي أدى إلى تسلط الأعداء، ولو كان أهل الإسلام التزموا ما قال النبي ﷺ عند الاختلاف حيث لم يأمر باتباع رجل بعينه، وإنما قال: «**فعليْكُمْ بِسُنّتِي وسُنّةِ الخُلفاءِ الرّاشِدِين المهْدِيِّين، وإِيّاكُمْ ومُحْدثاتِ الأُمُورِ، فإِنّ كُل بِدْعةٍ ضلالةٌ**»[(١)]، والخلفاء الراشدون هي التطبيق العملي لسنة الرسول ﷺ، فالطريقة التي يفهمون بها النصوص، والتي علموها للأمة من تقديم كلام الله وكلام رسوله ﷺ على كلام كل أحد، والرجوع عند التنازع إلى نصوص الكتاب والسنة، هذه الطريقة هي الطريقة المرضية، هي الطريقة التي يحبها الله ﷻ، وهي التي سار عليها الأئمة والعلماء، كلهم يقولون: «**إذا صحّ الْحدِيثُ فهُو مذْهبِي**»[(٢)]، أو كلمة مماثلة لها في المعنى، قال الحُميْدِيُّ: «**روى الشّافِعِيُّ يوْماً حدِيْثاً، فقُلْتُ: أتأْخُذُ**

---

(١) سبق تخريجه (ص ٢٩٥).

(٢) انظر: (ص١١٧).

بِهِ؟ فقال: رأيتنِي خرجْتُ مِنْ كنِيْسةٍ، أوْ عليّ زِنّارٌ، حتّى إِذا سمِعْتُ عنْ رسُوْلِ اللهِ ﷺ حدِيْثاً لا أقولُ بِهِ»[١].

انظر كيف جعل من يروي حديثًا أو يعرف حكمًا لرسول الله ﷺ ثم لا يقول به، أولى أن يكون نصرانيًا أو يهوديًا، فكيف بمن يعرض عن كتاب الله ﷻ نصًّا، ويقدم عليه زبالات الأفكار وآراء شيوخ الضلال الذين ليسوا منتسبين إلى الإسلام أصلاً، وإنما هم قوم كفار يطعنون في الدين، فيقدم هؤلاء آراءهم وزبالة أذهانهم على نصوص الكتاب، فضلاً عن السنة؟!

فهذه الحزبية البغيضة التي جعلها الله ﷻ حزبية الشيطان: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

فهذه القضية مجمع عليها بين أهل الإسلام، قال الإمام الشافعي أيضًا: «**أجمع المسلمون على أن من استبانت له السنة لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس**»[٢]، وقال الإمام أحمد ؒ: «**عجِبْتُ لِقوم عرفُوا الإسناد وصِحتهُ، يذْهبُون إلى رأْي سُفْيان، واللّهُ تعالى يقُولُ:** ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] **أتدْرِي ما الفِتْنةُ؟ الفِتْنةُ الشِّرْكُ، لعلهُ إذا رد بعض قولِهِ أنْ يقع في قلْبِهِ شيء مِن الزيْغِ فيهْلِك**»[٣] وقال الإمام مالك: «**كل يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر وأشار**

---

(١) سبق تخريجه (ص ٤٥٧).

(٢) انظر: (ص ١١٧).

(٣) سبق تخريجه (ص ١٢١).

إلى قبر رسول الله ﷺ»، وقال الإمام أبو حنيفة: «**دعوا قولي لقول رسول ﷺ فسئل عن أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: دعوا قولي لقول أصحاب رسول الله ﷺ، ثم سئل عن التابعين، فقال: هم رجال ونحن رجال**»(١).

فهذه القصة المشهورة عنه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما لعروة، لما ناقشه في متعة الحج، فقال: «**إن رسول الله ﷺ أمر بالمتعة، فيقول له عروة رضي الله عنه: وأبُو بكْرٍ وعُمرُ كانا ينْهِيانِ عنْها، فيقُولُ ابْنُ عباسٍ رضي الله عنهما: «يُوشِكُ أنْ تنْزِل عليْكُمْ حِجارةً مِن السّماءِ، أقُولُ قال رسُولُ اللهِ، وتقُولُون قال أبُو بكْرٍ وعُمر!**»(٢).

فانظر كيف مثّل الإمام أحمد رحمه الله في مخالفة من خالف الحديث الصحيح في مسألة ما، ولعلها تكون مسألة إخراج القيمة في زكاة الفطر، فإن سفيان هو الذي يقول بجواز إخراج القيمة، ويتعجب الإمام أحمد، وممن يقدم رأي سفيان وهو أمير المؤمنين في الحديث وأحد أئمة الدين يرجع إليهم في معرفته، ومع ذلك ضرب المثل وجعل من قدم قول سفيان على الحديث يُخشى أن تصيبه فتنة، فكيف بمن سار يقدم آراء الجهال والزنادقة والمنافقين، ليس على نصوص الحديث، بل على نصوص الكتاب والسنة وإجماع أهل العلم، ويقولون عن زنادقتهم، بل وأقوال الكفار أنها الحق ويتعصبون لها، ويذمون من خالفها ويطعنون في عقله ودينه وأمانته، نسأل الله العافية.

---

(١) انظر: (ص ١١٧).

(٢) سبق تخريجه (ص ١٢١).

وتأمل كيف قال الشيخ الإمام: (**التّعصُّبُ لِلْمذْهبِ**)، ولم يقل التمذهب فإن الإنسان يمكنه أن يتعلم على عالم واحد، لا يلزمه التنقل، ولكن بشرط أنه إذا استبانت له السنة لم يدع السنة لقول أحد من الناس، إذا استبانت له السنة التزم بها، ولم ينصر المذهب الذي عرف مخالفته للحق، والعلماء المنصفون تجدهم في كتبهم يذكرون آراء مذاهبهم ومشايخهم، ثم يقولون: والصواب فلان وفلان لصحة الحديث، والصحيح ما قاله الأئمة الآخرون لصحة الحديث، وهذا من الإنصاف الذي علمنا إياه هؤلاء العلماء، وكونهم قد تمذهبوا بمذهب، أي: تعلموا عليه، تفقهوا على أصوله وفروعه لا يلزم من ذلك أن يكونوا متعصبين التعصب المذموم، فهناك طرفان ووسط في هذه القضية، هناك طرف يوجب على الناس التمذهب، ويلزمهم بأنه لابد أن يتبعوا عالم بعينه، وهذا في حقيقة الأمر قد أدى إلى ما نراه بعد ذلك من أن تكون أقوال الأئمة في المذاهب وأقوال المتأخرين من أئمة المذاهب كأنها هي الدين دون نظر إلى الدليل، وبعد أن ضعف أمر التقليد شيئًا ما في نفوس أتباعه مع استقرار أتباعه، صارت كل هذه المذاهب هي الدين ينتقي كل واحد منها ما يشاء، فتارة يأخذ بهذا ويبحث عن آخر دون رجوع إلى الدليل، فيلفق بين المذاهب لاتباع الرخص.

وهذا ليس لاتباع الرخص الشرعية، ولكن اتباع الرخص المذهبية، يبحث عن الأسهل في المذاهب، هذا في الحقيقة ثمرة ما أوجبه هؤلاء المتأخرون من أنه يلزم كل إنسان أن يكون له مذهب معين من المذاهب الأربعة المشهورة، لا يجوز أن يخرج عنها.

وطائفة أخرى وطرف آخر قد حرم التمذهب أصلاً، ومنع أن يكون

الإنسان منتسب إلى مذهب أو متعلمًا أو متفقهًا على مذهب معين، وهذا أيضًا غلو، فلا يلزم أو المبتدئ ولا العامي ولا المستفتي أن يُنوِّع في كل مرة، لا يجوز له أن يسأل هذا كل مرة، هذا غير صحيح، قد كان السلف ﷺ لا يمنعون سائلاً من أن يسأل نفس العالم في كل مرة أو أن يسأل غيره، من تيسر له من أهل العلم من أهل الذكر، سأله، قال الله ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، فلا يلزم أن يكون الإنسان كل مرة متنقلاً يسأل هذا العالم مرة وذاك العالم مرة، حتى يكون غير متعصب، وكما ذكرنا في أمر السؤال والاستفتاء، كذلك في أمر التعلم يمكنه أن يتعلم على مذهب يعرف ما فيه ويعرف أدلته، ولا يكون عالمًا إلا إذا عرف الأدلة وعرف الترجيح بينها، وعرف مصادر الأحكام، والموازنة وطرق الجمع والترجيح بين الأدلة.

فلذلك نقول: إن تحريم التمذهب ومنعه أيضًا طرف غير صحيح، لا يلزم الإنسان أن يمتنع من أخذ كتب المذاهب، وبعض هؤلاء الغلاة قالوا: إنه يجب أن تحرق هذه الكتب المذهبية للتخلص من العصبية، وهؤلاء كالذين قتلوا المريض ليخلصوه من المرض.

أما الوسط فهو إننا نجيز التمذهب ونمنع التعصب، فالشيخ ؒ كان دقيق العبارة حيث قال: (**التّعصُّبُ لِلْمذْهبِ**)، فهذا من ميراث أهل الجاهلية؛ أن ينصر مذهبه بالباطل، ولا يوجد - بحمد الله - فيمن ينتسب إلى الإسلام من يرى لإمامه وشيخ مذهبه حق تبديل الشريعة أو التعديل على أحكام ورسوله ﷺ، هذا لا يوجد - بحمد الله - فيمن ينتسب إلى الإسلام وعنده شيء من الدين، إنما وجد ذلك في الأزمنة المتأخرة عندما سيطر التخريب

الغربي والاحتلال الغربي على عقول طوائف، جعلت في نفوس هؤلاء جواز التحلل من الشريعة وجواز أن يبدل الناس أحكام الدين، وهذا لا يقوله أحد من أئمة المذاهب، رغم وجود التعصب في المتأخرين، إنما يقول المتعصبون من هؤلاء أتباع المذاهب: شيخنا عالم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهو أعلم من غيره، فلو كان هناك دليل يخالف ما قاله، فلابد أن يكون هذا الدليل إما منسوخًا بدليل آخر لم يبلغنا، أو أنه مؤول بدليل آخر، أو أن يكون الحديث ضعيفًا أو نحو ذلك، ولم يقولوا: إن الإمام يعدل الشرع أو أنه يقدّم كلامه على كلام رسول الله ﷺ، بل يقولون: بالتأكيد هناك أمر خفي لم نطلع عليه نحن، اطلع عليه الإمام فقال هذا القول، وينسبون ذلك إلى الشرع، لا يختلفون في ذلك، ينسبون أقوال أئمتهم إلى أنهم اطلعوا على الشريعة، لا أنهم بدلوا الشريعة وغيروا الشريعة، فهذا لم يقع قط مع أن هذا مذموم، أعني أن القول بأن: «كل دليل ليس عليه أئمتنا فهو إما ضعيف أو مؤول أو منسوخ»، فهذا القول قول منكر وباطل وضعيف، ولكن لا يصل إلى حد تبديل الشريعة ونسبة الأئمة أو يعطوهم حق التغيير على شرع الله ﷻ، إنما هذا في العلمانيين وأمثالهم ممن جعل أحكام الشريعة مردها إلى الناس؛ إن وافقوا عليها صارت شريعة ملزمة، وإن لم يوافقوا عليها فمن حقهم أن يبدلوا، نعوذ بالله من الكفر والنفاق.

فالتعصب المذهبي المذموم أحد أسباب فرقة الأمة، ولابد وأن يتجنبه المسلمون، فإيجاب التمذهب وإيجاب التعصب وإلزام الناس بمذهب بعينه أمر من ميراث الجاهلية التي يجب أن تُحارب، ويجب أن نعظم عند الناس: قال الله، قال رسوله ﷺ، قال الصحابة ﭫ، وأن ما أجمع عليه

العلماء فهو الذي يلتزمه كل أحد.

نقول: تقدم الكتاب وتقديم السنة، والإجماع القديم للصحابة والتابعين وتابعيهم ﭬ، هذا الذي يمكن ضبطه، فهذه الأمور هي مرد الأشياء والاختلافات، كل اختلاف يرد إليها؛ حتى يجتمع المسلمون بإذن الله ﻷ

لابد أن يتعلم الناس أن ما قاله الرسول ﷺ لا يُعارض بقول أحد كائنًا من كان؛ أما أن نأتي فنستبدل الأئمة الأربعة بأئمة آخرين فهذا أصبح موجودًا عند طوائف من المتأخرين، يتعصبون لبعض المشايخ، كل طائفة تتعصب لشيخها، ويقولون: قال شيخنا بكذا، أو أفتى بكذا. فانتهى الأمر كأن هذا الأمر لا يحتمل خلاف ما قاله الشيخ، وكُتُب مصنفة كثيرة كلها تجمع أقوال المشايخ، وكأنها هي الأدلة، يقول الدليل ثم يذكر قول الشيخ، وما صنعوا شيئًا، تركوا الأئمة الأربعة وهم على العين والرأس، وتركوا أئمة الحديث وهم على العين والرأس، وجعلوا يذكرون أقوال المشايخ الفضلاء من المتأخرين، وجعلوا مثل هذا الأمر هو وسيلة الترجيح، عندما تختلف الآراء طائفة تقول: نقدم ما قاله الشيخان مثلاً ابن باز ~، والعثيمين ~ معًا، ثم ما رجحه ابن باز ~ وحده، ثم ما رجحه العثيمين ~ وحده، وكأن هذه قضية هي التي يقرب بها الترجيح، مثل هذا لا ينبغي أن يكون مفتيًا ولا ينبغي أن يرجح بين الأقوال، ولا يقول هذا هو الراجح؛ إما أن يتبع الدليل، وإما أن يقدر على معرفة الراجح من المرجوح، وإما أن يتوقف عن الترجيح ويكل ذلك إلى غيره؛ أما أن يكون الترجيح لما اجتمعا عليه، وهم عالمان من علماء الأمة لا يصلان إلى مرتبة مالك والشافعي مثلاً، لو قالوا: نأخذ ما قاله أحمد والشافعي متفقين ثم نرجح بما قاله أحمد ثم

الشافعي، لكان أولى بكثير من أن يجعل ذلك للمتأخرين، الذين يخطئون ويصيبون، ولم يكن لهم ما كان للمتقدمين من الفضائل والمنازل بلا شك، مع علمنا بفضل الجميع، وإقرارنا لهم بالإمامة في الدين، ولكن لابد وأن نعلم أن التعصب المذموم يقع في كثير ممن يزعم أنه ليس بمتعصب، ويزعم أنه يرجح بالأدلة، وعندما تنظر في ترجيحاته ليس عنده إلا أن الشيخ الفلاني قال كذا، أن الإمام فلان قد قال كذا. إذًا، كل من خالفه ضال، وكل من خالفه مبتدع، وكل من خالفه منحرف، ونسأل الله العافية.

كل هذا من ميراث الجاهلية التي لابد من الحذر منها، فضلاً عن أن يكون هذا في طلاب العلم، فبعض الناس قد يرجح ما يقوله شيخه، الشيخ ياسر قال: كذا، فيكون هذا هو الراجح. الشيخ فلان قال كذا، فيكون هذا هو الراجح. هذا كلام منكر، أنت لا تعرف الترجيح والأدلة، توقّف عن ذلك، يمكنك أن تنقل، لكن لا تتعصب لهذا الشيخ ولا لغيره، ولا تتعصب لضده، فهناك من يتعصب مع طائفته، وهناك من يتعصب ضد طائفة بعينها، فكل من ينتسب إلى هذه الطائفة فهو المذموم، وكل ما تقوله الطائفة هو المذموم والباطل، وهذا خطر عظيم يقع فيه كثير من المنتسبين إلى الاتجاهات الإسلامية المعاصرة، فعندما نشأ التعصب للجماعات، وصار كل أتباع جماعة ينتصرون لجماعتهم، وجدت عصبية مضادة، جعلوا علامة الباطل: الانتساب إلى جماعة أو أخرى، بمجرد أن فلانًا ينتسب إلى جماعة بعينها، فمثلاً: إنسان ينتسب إلى الإخوان، إذًا هذا فعل الإخوان، إذًا هذا باطل، فهذا تعصب مذموم أيضًا؛ لأنه لابد وأن يُعلم أن كل طائفة من المسلمين عندها من الحق، وعندها من الخطأ وعندها من الصواب، وقد تكون بعض

الطوائف عندها من البدع، لكن لا يعني ذلك أن مجرد الانتساب إليها كاف بالحكم على كل فرد من أفرادها بأنه ضال مبتدع، خصوصًا إذا لم تتبنّ أصلاً كليًا مخالفًا لشرع الله ﷻ أو لإجماع أهل السنة والجماعة، وهو طبعًا بلا شك أن إجماع أهل السنة والجماعة دليل من أدلة الشرع.

المقصود: أن بعض الناس يعلل إنكاره لبعض الأشياء بأنه من فعل الجماعة الفلانية، ويقول: طالما أنهم هم الذين فعلوه فإنه منكر. هذا كلام باطل، ولابد أن توزن كل الأعمال والأقوال بميزان الشريعة، كما أن التعصب للمذهب وللطائفة وللجماعة أمر مذموم منكر، ليس كل ما تقوله طائفتك وجماعتك يكون حقًا لمجرد أنهم رأوه، ولا يقوله شيخك وإمامك والذي علمك يكون حقًا لأجل أنه قاله، بل هذا مرده إلى اتباع الدليل، فكذلك ليس مجرد أن فلانًا ينتسب إلى طائفة بعينها يكون مبطلاً، ويكون كل كلامه منكرًا، وأن فلانًا بمجرد انتسابه إلى طائفة بعينها، فلابد أن يُبغض، ولابد أن يُحارب، ولابد أن يُبعد، هذا كلام منكر، هذا هو التعصب الذي يؤدي إلى فرقة الأمة، ولابد أن يعلم كل طلاب العلم أن ميزان العدل والإنصاف هو: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٩]، وندرك وجود الاختلاف السائغ وغير السائغ، فقد اتفق الصحابة في مسائل اختلفوا فيها على عدم إنكار بعضهم على بعض فيها، كما اتفقوا على الإنكار على أهل البدع بأنواعهم المختلفة؛ فأنكروا على الخوارج، وأنكروا على غلاة الرافضة، وأنكروا على القدرية الذين ظهروا في عصر الصحابة ﵃، أنكروا على من قال بقول الخوارج وقتلوهم، ومدحوا عليًا ﵁ على قتالهم، وأنكروا قول السبئية الذين ألّهوا عليًا،

وامتدحوه على قتلهم، وإن خالفوه في كيفية القتل، وذموا كذلك القدرية نفاة القدر الذين نشئوا في آخر عصر الصحابة.

فهذا يدلنا على أنهم حين اختلفوا في كثير من المسائل التي ليس عليها نص من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس جلي، وإنما كان فيها اجتهاد ظهر من ذلك أن هناك نوع من الاختلاف يسع الأمة؛ ولذلك نقول: يسعنا ما وسع السلف، ولا يسعنا ما لم يسعهم، فما أجمعوا عليه فنحن لا يسعنا أن نخالفه إذا ثبت الإجماع الصحيح، فضلاً عن ثبوت نص الكتاب أو نص السنة، فالعبرة بوجود البينات: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، فالذين اختلفوا بعد البينات، وهي نصوص الكتاب ونصوص السنة، وإجماع السلف، والقياس الجلي على هذه الثلاثة من خالفها واختلف فيها بعد ما جاءته، فهو الذي له العذاب العظيم؛ وأما إذا لم يكن في الأمر بينات، كأن تكون نصوص الكتاب ليست نصًا في موضع الاستدلال، تحتمل عدة وجوه للتفسير، وكذا الحديث إذا كان يحتمل تفسيرات متعددة، أو في الباب مجموعة من الأحاديث تحتمل طرقًا في الجمع، أو بعضها يختلف العلماء في تصحيحه وتضعيفه ونحو ذلك، فمثل هذا اختلاف يسعنا كما وسع السلف رضي الله عنهم، طالما المسألة ليست إجماعًا، وليس فيها قياس جلي ولا نص من الكتاب أو السنة، فهو لم يخالف البينات، فإذًا تحت طائلة الوعيد الذي ذكره الله عز وجل في الآية وحذرنا منه؛ لذلك قضية التعصب المذهبي قضية قديمة حديثة لها أثرها الخطير في الأمة ولها ضررها الكبير، وليس فقط في المذاهب الأربعة المعروفة، بل هذا الأمر وارد أن يقع - كما ذكرنا -

بالتعصب للشيوخ أو ضد الشيوخ كما قد يتعصب أقوام مثلاً لمجرد اسم الشيخ محمد بن عبد الوهاب ﵀، فهناك طوائف بمجرد أنه يوجد هذا الاسم، يقولون: هذا وهابي، مذموم عندهم، كافر يستحق القتل، أو خوارج يستحقون العقوبة، وهذا كثير صُد به عن سبيل الله لمجرد الانتساب لطائفة بعينها وأنه تعلم على طريقتهم، فيذمونه أعظم الذم، كما ذكرنا هذا تعصب ضد مذهب معين، والتعصب للشيخ، أو التعصب للطائفة والجماعة أو التعصب للبلد الذي ينتمي إليه، كل هذا من ميراث الجاهلية، نسأل الله أن يعافي المسلمين من ذلك.

الْمسْألةُ السّادِسةُ والْخمْسُون: تسْمِيةُ اتِّباعِ الْإِسْلامِ شِرْكًا، كَمَا ذَكَرَهُ فِي قوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٩] الآية.

الشـــرح:

الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أراد أن يستخرج مِن قول أهل الكتاب الذين نزلت فيهم هذه الآيات كما قال المفسرون: (**إنّ هذِهِ الْآية نزلتْ فِي قوْمٍ مِنْ أهْلِ الْكِتابِ قالُوا لِلنّبِيِّ** ﷺ: **أتدْعُونا إلى عِبادتِك؟**)[1]، والعياذ بالله، يريدون صرف الناس عن اتباع رسول الله ﷺ بالاتهام الباطل، يقولون: إنما يريد محمد ﷺ أن نعبده. والعياذ بالله، كما يتهمون الأنبياء من قبل بأنهم يريدون أن تكون لهم الكبرياء في الأرض، وقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾، اتهام النيات، والتهم الكاذبة التي لا يستطيعون إثبات شيء منها يصرفون بها الناس من الغوغاء عن اتباع الحق، كما كان أهل الكتاب يقولون ذلك يحاولون صرف الناس عن الإسلام، فقد وجد في المتأخرين من يحاول صرف الناس عن دعوة التوحيد بادعاء أنها بدعة ضلالة، وأنها كفر، وأنها عقيدة الخوارج، كذا قالوا عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب في دعوته، قالوا: إنه أتى بدين جديد، وإنه كفر الأمة كلها، وإنه على عقيدة الخوارج، وتجد الرافضة والصوفية خصوصًا يكفرون كل من ينتسب إلى الشيخ، وهذا اتهام في الحقيقة بأنهم مشركون وكفار، وهذا خطر عظيم

(١) انظر: تفسير الطبري (٥/ ٥٢٤)، وزاد المسير (١/ ٢٩٨)، وابن كثير (٢/ ٦٦).

وظلم بيِّن، ويزعمون أن هذا المذهب مذهب خامس، وإنه يريد أن يترك الناس مذاهب العلماء المتقدمين إلى هذا المذهب، مع أن الشيخ لم يسن مذهبًا معينًا، وإنما كان في الفقه والفروع يتبع مذهب الإمام أحمد في الجملة دون تعصب؛ وأما في مسائل التوحيد فكان يبينها دائمًا بالأدلة، فالتهمة بأنه يكفر الأمة من الباطل، وهو بريء من ذلك، يقول: (**وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم، الذي على عبد القادر، والصنم الذي على قبر أحمد البدوي، وأمثالهما، لأجل جهلهم، وعدم من ينبههم، فكيف نكفر من لم يشرك بالله إذا لم يهاجر إلينا، أو لم يكفر ويقاتل؟**: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦][1]، قولهم: «**إنا نكفر كل من بعد المائة الخامسة وكل من لم يكفر غيره من المسلمين، ويقاتِل معنا ضدهم فهو كافر**»[2]، يزعمون ذلك، وهذا كله من البهتان الذي يصدون به عن سبيل الله.

والشيخ له رسائل متعددة في هذا، ويستكمل بهذه الجملة: (**وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم، الذي على عبد القادر، والصنم الذي على قبر أحمد البدوي، وأمثالهما، لأجل جهلهم، وعدم من ينبههم، فكيف نكفر من لم يشرك بالله إذا لم يهاجر إلينا، أو لم يكفر ويقاتل؟**: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]. لأنهم كانوا يقولون: إن الشيخ يكفر من لم يكفر المسلمين، ويكفر من لم يقاتل لهؤلاء المسلمين، كل هذا من البهتان الذي يصدون به عن دين الله، ويسمون اتباع التوحيد واتباع ما جاء به الرسول ﷺ واتباع الإسلام الحق، يسمون ذلك شركًا، كما يسمونه في زماننا إرهابًا

(١) انظر: الدرر السنية (١/ ١٠٤).
(٢) انظر: الدرر السنية (١٠/ ١٣، ١٢٨).

وتطرفًا ووهابية وغير ذلك؛ حتى يصرفوا الناس عن الإسلام الحق؛ ليقعوا في أنواع الضلالات والبدع، والعياذ بالله، فهذا في حقيقة الأمر شبه ما كان أهل الكتاب يزعمونه من أن اتباع رسول الله ﷺ عبادة له، ويحاولون صرف الناس عن اتباع الإسلام بهذه الشبهات الباطلة، قال الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ . . . ، ما كان يمكن أن يقع ذلك، آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة، فكيف يأمر الناس بعبادته من دون الله؟!

وهذا وإن كان خصوص نزوله ما ذكروه عن رسول الله ﷺ، فهو يعم أيضًا عيسى ﷺ في تبرئة الله له مما قاله النصارى واليهود الذين قالوا: (**إنما صلبناه أو سعينا في صلبه؛ لأجل أنه كان يدعو الناس إلى عبادته**)، وهذا من الكذب، فإن عيسى ﵇ لم يدعو الناس إلى عبادته، والنصارى الذين يعبدونه كذبوا في ذلك، وإنما ألّهه من لم يكن من أتباعه حقًا، وهو لم يصلب بحمد الله ﷻ، ونزهه الله عن ذلك ونجاه، ورفعه ورفع من اتبعه من أهل التوحيد بمحمد ﷺ؛ لأن دعوة عيسى الحقيقية إنما ثبتت في العالم ووجدت في الأرض بدعوة محمد ﷺ: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥]، فالآية تشمل كل من آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة لم يكن أبدًا ليقول للناس: كونوا عبادًا لي من دون الله، قال: ﴿وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾: أي: النبي يأمرهم بأن يكونوا ربانيين، ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾، فهو يعلم ويعمل ويُعلِّم، هذا هو العالم الرباني: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾، وهذا صريح في هذه الآية الكريمة أن من اتخذ الملائكة والنبيين أربابًا مشرك بالله ﷻ: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ

أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾؛ لأن بعض الغلاة من أهل الطرق ونحوهم يقولون: إنما أتت الآيات في عبادة الأوثان؛ وأما الأنبياء فليسوا من هذا الباب مع أن دعاء الأنبياء ودعاء الأولياء شرك؛ لأنه يتخذهم أربابًا من دون الله، ومن اتخذ النبي أو الولي أو الملك ربًا من دون الله، فقد كفر بالله ﷻ، فالشرك بالله ﷻ شرك، سواء كان المعبود وثنًا، أو صنمًا، أو حجرًا، أو ملكًا، أو نبيًا أو وليًا، فليست العبرة بمن هو المعبود من دون الله، إنما هي القضية في صرف العبادة لأحد دون الله ﷻ.

فهذه التهم الباطلة التي يُتهم بها أهل الحق هي من ميراث الجاهلية، الذي ورثه أهل البدع والضلال وأهل الزندقة والنفاق؛ ليصدوا عن سبيل الله بصرف الناس عن اتباع أهل الحق بالتهم الباطلة الجائرة؛ من أنهم يتهمون من اتبع الإسلام الحق بأنه مشرك، أو أنه يريد الرياسة، وأن يعبده الناس من دون الله، وأن يتفضل على الناس.

الْمسْألةُ السّابِعةُ والْخمْسُون والثّامِنةُ والْخمْسُون: تحْرِيفُ الْكَلِمِ عَنْ مواضِعِهِ، وَلَيُّ الْألْسِنةِ بِالْكِتَابِ.

الشرح:

هاتان المسألتان مما ذكره الله ﷻ عن فعل أهل الكتاب؛ وأما المشركون فهم لا يقرون بالكتاب أصلاً، أهل الكتاب من اليهود والنصارى ذكر الله عنهم أنواع التحريف واللّيِّ(١)، وهي ثلاثة أنواع، ضمها في المسألتين.

النوع الأول من التحريف: تحريف الكتابة؛ كما قال ﷻ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩]، ومن ينظر في كتب أهل الكتاب، يجد فيها العجب من الاختلاف والتناقض، الذي لا يشك معه ناظر فيها أن فيها من الباطل الذي كتبه أهل الكتاب بأيديهم وأدخلوه في كتاب الله، في زعمهم في ذكر التوراة التي أنزلت على موسى، ذكر أخبار بعد موسى عليه، وذكر وفاة موسى وكيف وهو الذي أنزلت عليه التوراة؛ وأما الاختلافات الكثيرة بينها وبين بعضها البعض فمشهور في كتب المقارنة، وما تختلف فيه الطبعات والترجمات، يتغير سنويًا بين الشرق

(١) قال ابن منظور: (وتَحْرِيفُ الكَلِم عَنْ مواضِعِه: تَغْيِيرُهُ. وَالتَّحْرِيفُ فِي الْقُرْآنِ وَالْكَلِمَةِ: تَغْيِيرُ الحرفِ عَنْ مَعْنَاهُ وَالْكَلِمَةُ عَنْ مَعْنَاهَا وَهِيَ قَرِيبَةُ الشَّبَهِ كَمَا كَانَتِ الْيَهُودُ تُغَيِّرُ مَعانيَ التَّوْرَاةِ بالأَشباه، فوصَفَهم اللَّهُ بِفِعْلِهِمْ فَقَالَ تَعَالَى: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ). انظر: لسان العرب (٩/ ٤٣)، ومختار الصحاح (ص٥٥).

والغرب وبين زمان ومكان، بين النُّسخِ التي في البلاد وبعضها، ما كان أيام الصحابة تجده قد غُيِّر، قد قرأه الصحابة ﷺ، كما قرأ عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، وذكر كعب الأحبار من التابعين أخبارًا لو بحثت عنها الآن لما وجدتها بهذه الطريقة، وشيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ والإمام ابن القيم ﷺ ينقلان في زمانهما من كتب أهل الكتاب، وتجد غيره في زماننا، بل إلى عهود قريبة النُّسخ الأجنبية التي ينقل عنها بعض المناظرين، كالشيخ أحمد ديدات ﷺ مثلاً تجد النُّسخ العربية ليس فيها هذه الأقوال، تجد اختلافات كثيرة جدًا.

وقد حدثني بعض الإخوة الذين اطلعوا على نسخ ليست قديمة جدًا، ولكن اكتشفت حديثًا من الأناجيل في العهود المتقدمة منذ نحو ستة عشرة قرنًا، أن الصفحة الواحدة تختلف أكثر من ثلاثين اختلافًا في كل صفحة تقريبًا عن الأناجيل المعاصرة، فهذا مما يؤكد أنهم أدخلوا في كتاب الله ما ليس منه، فضلاً أن النصارى يعتقدون أن ما كتبه الرسل، رسل المسيح، يعنون الذين يزعمون أنهم أرسلوا إلى الآفاق من الحواريين وتابعي الحواريين وغيرهم، وكذلك كتابات بولس المسمى (بولس الرسول)، وهو في الحقيقة رسول الشيطان، أدخلوه أيضًا ضمن الكتاب المقدس - في زعمهم - على اختلافات بينهم في هذه الرسائل، لكن يكثر فيهم جدًا ذلك؛ ولذا تكثر التناقضات بين العهد القديم والعهد الجديد، وبين النسخ المختلفة في ذلك، فهذا تحريف الكتابة، وهذا النوع - بفضل الله ﷻ - عصم الله منه كتابه، وإن وقعت محاولات لتحريف الكتابة، حاولها بعض المرتدين وبعض الكفار، وروجوا نسخًا فيها أنواع من التحريف في القرآن العظيم،

ولكن بفضل الله لا تنتشر، وتُكتشف وتُعلم ويُحذر منها، ويظل القرآن مبذولاً لكل من يطلبه صحيحًا دون حرف واحد من تحريف الكتاب.

حتى لو وجدت نسخًا فيها تزوير أو تحريف، أو حتى أخطاء مطبعية أحيانًا، فهذا الأمر واقع لكن لا ينتشر، وفي أي مكان في العالم لو بحث إنسان عن القرآن كما أنزله الله ﷻ، كما جاء به محمد ﷺ، لوجده من غير عناء؛ أما أن تقول: أريد نسخة صحيحة من الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى، فهذا دونه خرطُ القتاد، دونه ما لا يدرك في هذه الدنيا إلى نزول عيسى ﷺ، وكذلك التوراة التي أنزلت على موسى ﷺ لا تجد نسخة متيقنة وهم ينقلون أخبارًا عجيبة في ضياع هذه الكتب وفي حصول الترجمات المختلفة المتناقضة التي يُجهل من ترجمها، ويضيع الأصل ويبقى المترجم ويكون هو الأصل بعد ذلك، من أشياء عجيبة ما حدثت حتى في الأحاديث الضعيفة المنسوبة إلى رسول الله ﷺ.

ووقع بعض أهل البدع الشركية المنتسبون إلى الإسلام في ذلك من الرافضة، غلاة الرافضة، الذين زعموا تحريف القرآن، وزعموا أن هناك سورًا لم تذكر في القرآن العظيم، وزعموا أنه وقع تبديل في ذلك، وهؤلاء قوم كفار بلا نزاع بين أهل الإسلام، أن من زعم تحريف القرآن فليس من أهل الإسلام أصلاً.

أما ما يذكره الشيعة عن مصحف فاطمة رضي الله عنها، والعياذ بالله من اعتقادهم ذلك، فمن كان يعتقد أن جبريل عليه السلام أملاه على فاطمة، وأنه بحجم هذا المصحف المعروف وزيادة، وأنه يتضمن أحكامًا، فهذا الاعتقاد ردة عن الإسلام؛ لأنه اعتقاد وحي بعد النبي ﷺ ولو كان لفاطمة رضي الله عنها.

وأما ما يقولون أنه من كلام فاطمة فكذب وزور عليها وباطل لا شك فيه، ومجرد تسميته بمصحف فاطمة وأن فيه خلاف المصحف المعتاد عقيدة كفرية كذلك، نعوذ بالله من ذلك.

لكن بفضل الله لا يجرؤ أحد أن يعلن ذلك وسط المسلمين، ولا يجد آذانًا صاغية في ذلك، بخلاف ما حدث في كتب أهل الكتاب.

النوع الثاني من التحريف: تحريف الكتاب عن مواضعه في أمر الكتابة بنسبة المعاني المختلفة، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١﴾ [المائدة: ٤١].

ذكر الله ﷻ أن ما فعله المنافقون أو ما يفعلونه وأهل الكتاب من المسارعة في الكفر بتحريف الكلم عن مواضعه، مما لا يحزن رسول الله ﷺ ولا أهل الإيمان، ينبغي ألا يحزنهم؛ لأنه مفضوح، عاقبته إلى الخسران والبوار، لا أثر له ولا قيمة.

سبب نزول هذه الآيات معلوم، وهو أن اليهود زعموا أن في كتابهم في عقوبة الزاني الجلد والتحميم بدلاً من الرجم، مع أنهم لم يغيروا لفظ الكتاب، لم يغيروا حروف الكتاب، ولكن زعموا أن أحكامه ليست كذلك،

وهذا النوع أكثر انتشارًا، فهو تحريف معنى، يقولون: هذه الآيات لم تنزل في ذلك، وهذا عندما تتأمل معنى تحريف الكلم عن مواضعه، الكلام يُجعل على جانب وعلى حرف ويُترك ما نزل فيه بعيدًا عنه، فيقولون في الزاني: الجلد والتحميم، نوع عقوبة تُشبه العقوبة الشرعية من جهة أنها عقوبة، ولكن لم ينزلوا حكم الرجم الموجود في التوراة على واقعه، وهو إذا زنا المحصن كما في الحديث: «**أنّ الْيهُود جاءُوا إلى رسُولِ اللهِ ﷺ، فذكرُوا لهُ أنّ رجُلًا مِنْهُمْ وامْرأةً زنيا فقال لهُمْ رسُولُ اللهِ ﷺ: ما تجِدُون فِي التّوْراةِ فِي شأْنِ الرّجْمِ فقالُوا: نفْضحُهُمْ ويُجْلدُون فقال عبد اللهِ بْنُ سلامٍ: كذبْتُمْ إنّ فِيها الرّجْم فأتوْا بِالتّوْراةِ فنشرُوها، فوضع أحدُهُمْ يدهُ على آيةِ الرّجْمِ، فقرأ ما قبْلها وما بعْدها، فقال له عبد اللهِ بْنُ سلامٍ: ارْفعْ يدك فرفع يدهُ، فإذا فِيها آيةُ الرّجْمِ فقالُوا: صدق يا مُحمّدُ فِيها آيةُ الرّجْمِ فأمر بِهِما رسُولُ اللهِ ﷺ، فرُجِما**». **قال عبد اللهِ بْنُ عُمر** رضي الله عنهما: «**فرأيْتُ الرّجُل يجْنأُ على الْمرْأةِ، يقِيها الْحِجارة**»(١)، فالرسول ﷺ علمه الله وأوحى إليه أن التوراة فيها الرجم، ما زال مكتوبًا فيها، ولكن قد تصالحوا على خلافه، واتفقوا على ترك هذا الحكم، كما يفعل أعداء الإسلام من الذين قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ من المنافقين، أعني: في محاولة كتمان الآيات التي لا تعجبهم، مع أنها موجودة في المصحف، ولكن يضعون أيديهم عليها أو يضعون أغطية عليها، أو يحاولون صرف الناس عنها، وضع الرجل يده على آية الرجم، وقرأ ما قبلها وما بعدها.

يقولون اقرأ في التوراة، اقرأ في القرآن، لكن لا دخل لهم بالآيات التي

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٢٧).

لاتعجبهم مثلاً في تكفير اليهود والنصارى، في الجهاد في سبيل الله، كأنهم لا يعرفونها وإذا ألزموا بها حرفوها، قالوا: ليست في هؤلاء، كما قال هؤلاء القوم من اليهود في الرجم. فلم يستطيعوا أن ينكروا، وإقرارهم ذلك لم يمنع وصفهم بأنهم يحرفون الكلم من بعد مواضعه، كما ذكرنا حرفوا الكلم، كما تجدهم لو أتيتهم بالآيات البينة: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، يقولون: لا ليس في هؤلاء النصارى الآن، هؤلاء غير هؤلاء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١] يقولون: أنتم تفهمونها خطأ، هذا فقط فيمن حارب المسلمين. مع أن الآيات نزلت بعمومها، ونزلت آيات مماثلة فيمن لم يقاتِل أصلاً، أنبياء لم يقاتِلوا ولم يُقاتلوا، قال ﷻ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، وهذا سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يشرع له القتال أصلاً، حتى تقولوا فيمن قاتل ولم يقاتل.

لكن يحرفون الكلم عن مواضعه، يأتون بآيات مثلاً نزلت في العدل والبر والإحسان إلى الكفار الذين لم يقاتلوننا في الدين، فيضعوها في الموالاة، والعياذ بالله؛ كما قال ﷻ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، ولم يقل: أن تولوهم، وإنما قال: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾، البر: تحسن إلى من لم يقاتلنا في الدين، تطعمه إذا جاع وتكسوه إذا عري، تزوره إذا مرض، يمكن ذلك، والقسط: العدل، تحكم معه بشرع الله، فيضعون ذلك في الموالاة، إذًا

نحبهم، إذًا نطيعهم، إذًا نتابعهم، نتشبه بهم، ونسأل الله العافية.

فعجبًا لهم! يحرفون الكلم فعلاً كما قال ﷻ: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، ومن بعد مواضعه، يقولون: كيف تمنعون أن نترحم على الكفار، وأن نستغفر لهم، سبحان الله! هذا المنع هو نص القرآن الكريم: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣ - ١١٤].

نصوص واضحة جدًا، ويأتي بنص آخر يحرفه عن موضعه ويقول: ربنا يقول: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ﴾، وكل شيء هذه تشمل حتى إبليس، فهل تقول أيضًا: إبليس رحمه الله وغفر له، وتشمل فرعون وأبا لهب وأبا جهل، وهؤلاء كلهم أشياء. ولا يكمل الآية: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧].

فاليهود والنصارى الذين يكذبون الرسول ﷺ، ويكذبون القرآن، ويشركون بالله، ويتخذون أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، يُقال

عنهم: ينبغي أن نترحم عليهم، وأنهم أشياء، والراحمون يرحمهم الله.

فهل هناك استدلال بهذه الطريقة؟! ويأتون بالنصف الثاني من الآية ولا يأتون بالنصف الأول منها في قوله ﷻ: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]، فلكي لا يحزنوا اليهود لا يأتون بسيرة النصف الأول من الآية الكريمة، ولا يكملون الآية التي تبين من هم الذين أقرب مودة؛ كما قال الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٣].

فهل هناك بيان أوضح من ذلك؟! يصرحون بالإيمان بالقرآن عند سماعه وهؤلاء يسمعون القرآن ليل ونهار ومع ذلك يكذبونه، والعياذ بالله، وهم من الذين أشركوا؛ لأن الله قال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ﴾ [المائدة: ٧٣]، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ﴾ [المائدة: ١٧].

دفاع مستميت يقولون: من الذي قال إن اليهود والنصارى كفار، هم مؤمنون، هم أهل كتاب، وكأن أهل كتاب تساوي مؤمن، نعوذ بالله مِن ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة: ٦]، فأين هم من ذلك؟!

وأحدهم خرج يقول: إن عصاة الموحدين مخلدون في النار، واليهود

والنصارى ليسوا بكفار، والعياذ بالله، واسمه داعية إسلامي ويفتي الناس، نسأل الله العافية، وهو في الحقيقة يدعو إلى التهود والتنصر إذًا.

وآخرون يدعون إلى إلغاء الردة؛ فإن هذا زمان قد مضى وولى وانتهى، نسأل الله العافية، تحريف للكلم عن مواضعه؛ وأما فيما يتعلق بالسنة، فهي من الوحي المنزل، فتحريفهم بذلك بوضع الأحاديث الموضوعة وبتكذيب الأحاديث الصحيحة وبوضعها في غير موضعها، فمن ذلك كثير جدًا، وبترك تحكيم شرع الله، والزعم بأن هذا إقامة للدين، فيزعمون أنهم يقيمون الشرع.

لو قلت: إنكم تحكمون بغير ما أنزل الله، قالوا: وكيف ذلك؟! نحن نطبق الدين، ونحن نطالب بالدين الصحيح، ونطبق الدين الصحيح، ويعرضون عن كل الأحكام التي شرعها الله؛ في الربا، في الحرب والسلم في وضع النساء، حتى العجب أن أقوامًا من شدة كفرهم - والعياذ بالله - يطعنون في أحكام الله في القرآن من غير أن يشير إلى الآية، الذين يطعنون في حكم الدية بنص القرآن قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٨ - ١٧٩].

فيأتي أحد هؤلاء الزنادقة ويقول: إن تشريع الدية يؤدي إلى تجرئة الناس على القتل، والعياذ بالله.

أأنتم أعلم، أم الله أعلم بمصالح العباد؟! والله غباء وجهل؛ لأن وضع الأمر في يد القاضي الذي لا علاقة بالقتيل ولا يتأثر بفقده، ولا عنده من الرغبة في الثأر له مثل ما عند أولياء القتيل الذين تضرروا، فإذا عفوا هم فما دخلك أنت أن تمتنع من العفو.

يقول: إن تشريع الدية يؤدي إلى تجرئة الناس على القتل، الله يقول في هذا التشريع الذي شرعه بعد أن ذكر التخفيف: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وأنتم لا تطبقون القصاص، أنتم تختارون أنواعًا من القتل بعينها هي التي توجبون فيها القتل وليس قصاصًا، وإنما شنقًا أو رميًا بالرصاص إذا كان عسكريًا؛ وأما القصاص الذي شرعه الله بأن يُفعل به كما فعل بمن اعتدى عليه، وكذلك في قوله: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ﴾، فأنتم لا تطبقون ذلك وترونه وحشية؛ قطع الأطراف، والإعدام أصلاً عندهم مناف لحقوق الإنسان في الغرب؛ وأما هنا فيقولون: لن نقبل هذا التشريع، لن نسمح بأن ينتشر مبدأ: «الذي تعرف ديّته اقتله»، والعياذ بالله.

وهل هذا مبدأ؟! وهل هذا كلام الله ﷻ؟! فالطعن في تشريع الدية طعن في القرآن، طعن في نص القرآن، وكذلك يقول: إن هذا يؤدي إلى عدم المساواة؛ لأن الأغنياء سوف يدفعون الدية والفقراء لن يجدوا الدية فيُقام عليهم القصاص، عجب!

شرع الله ﷻ يُتهم بأنه لا يؤدي إلى المساواة، وأنتم - كما ذكرتم - تخالفونه وتزعمون بعد ذلك أنكم مسلمون. تحريف للكلم عن مواضعه،

عندما يقولون: نحن نلتزم بأحكام الشريعة، ودستورنا وقوانينا مستمدة من الشريعة الإسلامية، وعندما تقع مصادمات صريحة يقولون: هذا غير مطبق، كما قال اليهود تمامًا: الجلد والتحميم، إن لم تؤتوه فاحذروا.

فعندما رفع البعض قضية من أجل امتناع وزارة الداخلية عن تسجيل ديانة المرتد عن الإسلام إذا عاد إلى ملته الأولى، كان نصرانيًا ثم أسلم، ثم رجع إلى النصرانية، وأراد أن يُغير خانة الديانة مكتوب فيها مسلم، فأراد أن يردها إلى مسيحي، فرفضت وزارة الداخلية، فرفع قضية على وزارة الداخلية، ورفعت المحكمة الدستورية العليا، والمحكمة الدستورية العليا قالت: إن من حقه أن يُكتب مسيحي مرة ثانية؛ لأنه وإن كانت الشريعة الإسلامية قد أهدرت دم المرتد وأوجبت قتله، إلا أن القوانين الوضعية المعمول بها لا تعمل بذلك، والدستور قد نص على حرية الاعتقاد، فلابد مِن العمل بالقانون والدستور، والعياذ بالله، وبالتالي فمن حقه ذلك.

اضرب بالشريعة عرض الحائط عند المعارضة، ويزعم أن هذا مِن مقتضى الدستور ومن مقتضى القانون نسأل الله العافية.

وهذا أمر ظاهر جلي في التحريف؛ لأنه يقر بلفظ الكتاب، ويقر بأن الشريعة الإسلامية قالت ذلك، ثم يترك هذا الأمر، والعياذ بالله، ويحرف الكلم؛ لأن هذا كما قال ربنا ﷻ عن اليهود الذين بدلوا حكم الرجم، فسماهم يحرفون الكلم عن مواضعه، والعجب أنه ذكر ﷻ أمر المنافقين في ذلك قبل أهل الكتاب: ﴿لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ﴾ [المائدة: ٤١]؛ لأن هذا يقع من المنافقين أكثر، وأخطر وأضر على الأمة ممن قالوا آمنا بأفواههم

ولم تؤمن قلوبهم، والله قد وصفهم في كل المواطن المتعلقة بهذا الباب العظيم بالكفر والشرك والنفاق، ويأتي بعد ذلك من يقول: قضية الحكم بما أنزل الله ليست من التوحيد أصلاً، نسأل الله العافية، هذا ممن يحرف الكلم عن مواضعه؛ لأن الله ﷻ قد ذكر: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾، فهذه نزلت في أمثال هؤلاء وفيمن فعل فعلهم، فيحرفون ذلك ويقولون: بل نزلت فيمن جحد فقط، مع أن هذا في الحقيقة يتضمن جحودًا ولابد، لا يمكن أن يكون مصدقًا بأن هذا كلام الله الواجب التطبيق اللازم للعباد، ثم يعامله هذه المعاملة، فحقيقة الأمر هذا يستلزم الاستحلال بلا شك؛ لأنه حين يوجب خلاف شرع الله ﷻ، فإنه لا يمكن أن يعتقد صحته في حقيقة الأمر؛ ولذلك ضم العلماء هذه الأنواع ضمن الكفر الاعتقادي في الحقيقة، وإن زعم أنه يقر لفظ الكتاب، فتحريف الكلم عن مواضعه منتشر انتشارًا خطيرًا فيمن يبتعد عن شرع الله ﷻ، وإن أقر باللفظ، وكذلك كثير جدًا من الأحكام الثابتة في السنة التي لا تعجب أهل الرأي وأهل الزندقة والنفاق، فإنهم يحرفونها ويبتعدون عن إثباتها؛ لأنها لا تعجبهم، والعياذ بالله، وهذا نوع من التحريف، تحريف المعنى.

وأما النوع الثالث: فهو تحريف اللسان، ما ذكره الله في ليِّ الألسنة: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: ٧٨].

أهل الكتاب كانوا يقرءون كلامًا يوهمون عوامهم وغير أتباع ملتهم

كذلك بأنه من الكتاب الذي أنزل عليهم، وبحمد الله هذا عصم الله ﷻ القرآن منه وحفظه من أن يقع فيه شيء من ذلك، لو غلط إنسان في حرف من القرآن، لوجد الآلاف من أطفال المسلمين فضلاً عن رجالهم يردونه، وقد حفظ الله القرآن ويسره للذكر، فهو محفوظ بحيث لا يستطيع أحد أن يغير شيئًا من ذلك، ولكن نسبة معانٍ غير صحيحة ووضع أحاديث باطلة تذكر أنها عن رسول الله ﷺ مبينة للكتاب وليست كذلك، فإنما جاء به الرسول ﷺ مبيِّن للكتاب وهو منه في نهاية الأمر؛ لأن الله قال في كتابه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [الحشر: ٧]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾، فالذين يأتون بالأحاديث المكذوبة والموضوعة ويرجون الباطل وينسبونه إلى الشرع ويقولون: هذا من الدين، كأهل البدع عمومًا وكل من خالف سنة الرسول ﷺ؛ لهوى في نفسه، فهو داخل في نوع من هذا؛ وأما من يحرف بلسانهم الكتاب صراحة متعمدًا، كمن يزعم مثلاً أنه لا ينبغي أن نقرأ «قل» في: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾. . . .، ويقرؤها: (هو الله أحد) دون قل، فهذا من الردة عن الإسلام ولايقبله مسلم على وجه الأرض بفضل الله ﷻ.

الْمسْألةُ التّاسِعةُ والْخمْسُون: تلْقِيبُ أهْلِ الْهُدى والصّوابِ بِالصّابِئةِ والْحشوِيّةِ.

الشرح:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (**الْمسْألةُ التّاسِعةُ والْخمْسُون: تلْقِيبُ أهْلِ الْهُدى والصّوابِ بِالصّابِئةِ والْحشوِيّةِ**)، هو جاء بمسألة قديمة وحديثة، أعني بالمسألة القديمة: اتهام المشركين رسول الله ﷺ وأصحابه بأنهم صبأوا، بأنهم صباة جمع صابئ؛ لأنه ترك دين آبائه، وكانوا يسمون من ترك دين آبائه صابئًا؛ فلأجل ذلك سموهم بالصباة، وكانوا ينفرون جدًا ممن ترك دين آبائه، فسموهم بهذا الاسم لينفروا الناس عنهم، كما قالوا لثمامة بن أثال لما جاء يعتمر بعد إسلامه، كما في الحديث: «**. . . .فبشّرهُ رسُولُ اللهِ ﷺ وأمرهُ أنْ يعْتمِر، فلمّا قدِم مكّة قال لهُ قائِلٌ: أصبوْت، فقال: لا، ولكِنِّي أسْلمْتُ مع رسُولِ اللهِ ﷺ**»[1].

وهذا يدلك على ما كانوا يستعلمونه من ألفاظ تنفر الناس عن أهل الحق، وجاء بلفظ من المتأخرين من أهل البدع النفاة المعطلة الذين يسمون أهل السنة بـ(الحشوية)[2]، الذين يجسمون في الأسماء والصفات، حشوية عندهم كأنهم يثبتون التجسيم والحشو، فيجعلون من يثبت الصفات

(١) أخرجه مسلم (١٧٦٤).

(٢) انظر: كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن لفظ (الحشوية) في: النبوات (١/ ٣٣١)، ومجموع الفتاوى (٣/ ١٨٥، ٤/ ١٤٤، ١٤٨، ٦/ ٤١، ١٢/ ١٧٦، ٢٢/ ٣٦٦)، ودرء تعارض العقل والنقل (٧/ ٣٥١، ٨/ ٤٩)، ومنهاج السنة (٢/ ٥٢٠).

حشويًّا، هذه طريقة الجهمية والمعتزلة والأشاعرة كذلك طائفة منهم يسمون من يثبت صفات الرب ﷻ من إثبات العينين وإثبات الوجه وإثبات القدم والساق، وغير ذلك من صفات الذات والأفعال، يقولون: هم مجسمة حشوية، وهذا للتنفير، أهل السنة لا يقولون بالتمثيل ولا التشبيه، ولا يقولون بأن الرب ﷻ يشبه المخلوقات، ولا يثبتون أن أفعاله أو صفاته تشبه أفعال أو صفات المخلوقين، بل يقولون كما قال ﷻ في كتابه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، يقولون كما قال ﷻ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، فالله ليس له مثيل ﷻ، ولا كفء ولا ند، ولا شبيه ولا سمي: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

هذا اعتقاد أهل السنة، لكن لا يستطيعون تنفير الناس عن هذا الاعتقاد؛ لأنه اعتقاد موافق للفطرة، فإثبات الصفات من غير تشبيه ولا تمثيل لا يختلف فيه العقلاء، ولكنهم يحاولون أن يكذبوا على أهل السنة ويقولون: هم مشبهة، هم ممثلة، هم حشوية؛ لكي ينفروا الناس عنهم، فهذه الألقاب المنكرة طريقتهم فيها طريقة المشركين الذين قالوا عن النبي ﷺ والمسلمين الصابئة، الصباة، وحديثًا قالوا: الإرهابيون، المتطرفون، المتزمتون، الرجعيون، وصفوهم بهذه الأوصاف؛ لينفروا الناس عنهم، هذا الوصف أصبح يتكرر لكل من يلتحي، لكل من تحتجب، دون أن يمسك سلاحًا، دون أن يسفك دمًا، بمجرد أن يظهر شعارًا من شعارات الإسلام فإنه يُسمى (إرهابيًا).

أتذكر مرة منذ نحو خمسة عشرة عامًا أو عشرين عامًا، كنا في إحدى القرى نمر بسيارة مع بعض الإخوة، فإذا ببعض الأطفال أول ما رأوا الإخوة

الملتحين، قالوا: يا إرهابيين يا ولاد كذا، والعياذ بالله، لماذا؟!

لأن الإعلام يصنع ذلك، مع أن الإخوة لا يمسكون سلاحًا ولا حتى سكينًا، ولا تكلموا بشيء على الإطلاق، ولكن الأولاد يعبرون عن ما تعلموه، أن صورة هذا الملتحي هو الإرهابي الذي يستحق السب والشتم، وأنه سفاك الدماء، والعياذ بالله.

هذا المجرم الألماني الذي قتل الأخت المسلمة إنما قال لها: أنتِ إرهابية، لماذا؟! كيف أرهبته؟!

إنما ارتدت حجابها فقط، فكيف يُقال ذلك عنها؟! هذا نوع من التنفير، الإعلام العالمي هو الذي رسخ في ذهنه ذلك، مع العصبية الخبيثة التي عندهم، والإعلام الذي في الدول الإسلامية هذا أيضًا رسخ هذه المعاني في الناس، أن الحجاب واللحية وإظهار شعائر الإسلام هو نوع من الإرهاب - والعياذ بالله - ونوع من التكفير، وغير ذلك من الألفاظ التي يحاولون بها دائمًا إبعاد الناس عن الحق، وأصبح في كثير من الأزمنة، وإن تغيرت مع بداية الصحوة، ولكن يُحاول إعادتها مرة أخرى، التنفير من أصحاب الدعوة بأنهم وهابيون، وهذا كان كثيرًا بعد زمن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، حتى إن كثيرًا من البلاد كان إذا عرف أن هذا الكتاب من مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ لم يُقبل نهائيًا، بل ربما طرد وقتل صاحبه؛ لأنه ممن يكفر المسلمين، وممن يعتقد اعتقاد الخوارج، وممن يسفك الدماء بالباطل، يظنون ذلك، وكثير من محاولات الدعاة إلى الله في نشر الدعوة أن يُكتب اسم الشيخ مختلفًا، يُكتب أحيانًا: تأليف محمد بن سليمان التميمي، وهو أصلاً الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ هو محمد

بن سليمان بن عبد الوهاب، وهو من قبيلة تميم، فكانوا يكتبون ذلك فتنتشر الكتب، والقصص كثيرة في أنهم ينزعون الغلاف ثم يعطون الكتاب للناس فيقتنعون بكل ما فيه، ويقولون: هذا آيات وأحاديث، خصوصًا (كتاب التوحيد)، ويدرسونه للناس، ثم يُقال لهم بعد حين: إن هذا تأليف الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وما زال إلى يومنا هذا في كثير من بلاد العالم الإسلامي التي لم تنتشر فيها الدعوة، كل أخ مُلْتحٍ يُتهم بأنه وهابي؛ لأن الناس ما زالوا على ما كانوا عليه قبل ذلك بسبب الطرق الصوفية، يُقال: هؤلاء الوهابية. يحاولون تخويفهم بذلك، وكل من عُرِف أنه يأتي بكتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهو وهابي لابد من محاربته، دول الاتحاد السوفيتي القديم والدول التي انفصلت عنه كثير جدًا فيها هذا الأمر، واتهامهم بذلك للتنفير.

وأما في الشيعة في إيران والعراق ونحوها فالتهمة بالوهابي من أخطر التهم، كما أن يتسمى بعمر وأبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يستحق القتل مباشرة عندهم، نسأل الله العافية، وهم قد قتلوا بالأمس القريب بضعة عشرة رجلاً من أهل السنة بزعم أنهم من الإرهابيين المخربين، نسأل الله أن يعافي المسلمين في كل مكان.

فالتلقيب بالألفاظ؛ تلقيب أهل الهدى بالألفاظ المنفرة والألقاب التي تبعد الناس عنهم، طريقة قديمة هي من طريقة المشركين زمن النبي ﷺ وما بعده مِن أهل البدع مع أهل السنة والجماعة، فهذه - والعياذ بالله - من طرق أهل الباطل المضمحلة بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْمَسْأَلَةُ السِّتُّون: افْتِراءُ الْكذِبِ عَلَى اللَّهِ.

الـشـــرح:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**الْمسْألتانِ السِّتُّون والْحادِيةُ والسِّتُّون: افْتِراءُ الْكذِبِ على اللهِ، والتّكْذِيبُ بِالْحقِّ**) هذه المسألة ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن أهل الكتاب في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: ٧٨].

وقد سبق الكلام على تحريف الكلم عن مواضعه، وليّ الألسنة بالكتاب وهذه تكملة الآية؛ لأن الله ذمهم على كل هذه الأشياء؛ أنهم يلوون ألسنتهم بالكتاب وهو نوع تحريف ووضع للكتاب في غير موضعه، وادعاء ما ليس من الكتاب أنه من الكتاب، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله، فهو افتراء الكذب على الله، وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]، الذين يفترون على الله الكذب، يقولون في دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما ليس فيه، يقولون عن دين الله عَزَّ وَجَلَّ ما ليس فيه، فهذا افتراء الكذب على الله عَزَّ وَجَلَّ، أهل الكتاب لهم النصيب الأكبر من ذلك؛ إذ أنهم ادعوا أن الدين الذي جاء به الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - هو ما يقولونه وما يدعونه، وينسبون إلى الأنبياء ما لم يقولوه، والأنبياء يبلغون عن الله عَزَّ وَجَلَّ، فحرفوا كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا من افتراء الكذب على الله عَزَّ وَجَلَّ، بدلوا الكتب التي بأيديهم، زادوا ونقصوا

وغيروا، فكل ذلك مما يفترون به على الله الكذب، يزعمون أنهم أهل الحق، وأنهم أبناء الله وأحباؤه وهذا من افتراء الكذب على الله ﷻ.

واليهود والنصارى يزعمون عن أنبيائهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - أنهم خصوهم بالجنة؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، فهؤلاء يزعمون أنهم ناجون، وأن الله سبحانه وتعالى خصهم بالهداية، وهذا كله من افتراء الكذب على الله سبحانه وتعالى، من شابههم من أهل البدع والضلال والنفاق المنتسبين إلى هذه الأمة داخلون أيضًا في هذا الوصف بدرجات متفاوتة، فكل من يفتي بالباطل وينسب ذلك إلى الدين من أهل البدع ومن أهل النفاق، ويقول في الدين: إن الله شرع فيه كذا وكذا من الضلالات التي يقولونها دون مستند من شرع الله، أو بتحريف الكلم عن مواضعه؛ أن يضع الآيات في غير موضعها، فهذا من افتراء الكذب على الله سبحانه وتعالى، فجميع أهل البدع لهم نصيب؛ لأنهم يقولون مثلاً: الدين فيه إنكار أسماء الله وصفاته وتعطيلها، الدين فيه التقرب إلى الله ببناء المساجد على القبور، الدين فيه القول بالجبر والقول بنفي القدر، كل فريق يقول ذلك، وعند طائفة أخرى يقولون: الدين فيه أن الله سبحانه وتعالى يخلد عصاة الموحدين في النار، فضلاً عما زاد على ذلك من البلايا والمحن، مما يصل إلى الكفر والشرك ممن يدعو غير الله سبحانه وتعالى، ولا شك أن في هذه الأشياء فيها من الشرك والكفر ما هو من الكذب على الله، فمن يعتقد أن الله سبحانه وتعالى أمر عباده بأن يتخذوا بينهم وبينه وسائط يتوكلون عليهم، ويدعونهم، ويطوفون بقبورهم، وينذرون لهم، يقربونهم إلى الله بذلك؛ فهذا يفتري على الله الكذب،

وكذلك من زعم أن الله ﷻ اختار لصحبة نبيه ﷺ الكفار والمنافقين - أسوأ خلق الله من الطواغيت -، مكنهم من صحبته حيًّا ومن مرافقته في قبره ميتًّا ومن التمكن من أمته ومن كتابه ومن سنته من بعده، وهم أعدى أعداء الله ﷻ، طيلة خمسة وعشرين سنة يبدلون الدين ويحرفونه، فهذا مفتر على الله الكذب، أعني: الرافضة الذين يتهمون الصحابة بذلك، يزعمون أن رسول الله ﷺ اختار لوزارته في حياته الطواغيت - والعياذ بالله - الكفار المنافقين، وأنهم بعد وفاته تمكنوا من تبديل دينه، حتى جعلوا كل الناس يكفرون إلا عددًا معدودًا على الأصابع ممن بقي على دينه، وأن الدين تم تحريفه وتبديله، نعوذ بالله، هل من افتراء الكذب على الله أكثر من ذلك فيمن ينتسب إلى الإسلام؟!

الذين يعتقدون أن شرع الله ﷻ أن يتولى اليهود والنصارى وأن يحبهم ويودهم، ويسوي بينهم وبين أهل الإسلام، ويقول: هذا هو الدين، ومن قال غير ذلك فهو متطرف، وهو خارج عن العقيدة الصحيحة، خارج عن صحيح الدين، يفتري على الله الكذب، يفتري على الله الكذب حين يزعم أن الله أذن لهم في مناصرة الكفار واتخاذهم أحباء وأصدقاء وأولياء، ويتبعهم على ما هم عليه من الكفر والضلال، والعياذ بالله.

ما أكثر من يفتري على الله الكذب! كل عالم مبطل، كل عالم سوء يفتي بالباطل في عقيدة أو في عبادة أو في معاملة أو في سلوك فهو يفتري على الله الكذب؛ لأنه يخبر عن الله ﷻ، فالذين يحللون المحرمات، الذين يحرمون الربا ويقولون: هذا من شرع الله، لا يصرحون بالربا، ولكن يقولون: إن المعاملات التي في حقيقتها ربوية عند أهل العلم ليست من

الربا؛ فهذا من افتراء الكذب على الله ﷻ.

وكذلك في أنواع مظاهر موافقة الكفار - والعياذ بالله - في فصل الدين عن الدولة، وعدم تطبيق شرع الله ﷻ، واعتبار أن هذا الأمر من الأمور اليسيرة أو أنه مجرد معصية، ويقررونه على ذلك، ويأمرون الناس باتباعهم فهذا - والعياذ بالله - الذي يزعم أن هذا من شرع الله، وأن الله أمرنا بأن نتبع ونطيع ولو حدث ذلك، فهذا - والعياذ بالله - من افتراء الكذب على الله ﷻ.

الذين يقررون أعداء الإسلام في بلاد الإسلام، ويزعمون أن الله ﷻ أمر بأن نفي لهم بالعهود التي أعطاهم إياها، المنافقون من أذنابهم، ويقولون: شرع الله ﷻ أن يُترك جهادهم؛ لأن من تولوا أمر المسلمين في هذه البلاد، قرروا عدم مقاتلة الأعداء وإقرار المحتل على احتلاله، نعوذ بالله، هذا ينسب ذلك إلى الدين، يفتري على الله الكذب، نسأل الله العافية.

أنواع من افتراء الكذب على الله حين يُنسب إلى دين الله ما ليس منه، فهذا مشابهة لأهل الجاهلية من أهل الكتاب في ذلك، ومن المشركين كذلك من كانوا يفترون على الله الكذب حيث قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨].

فهؤلاء يفترون على الله الكذب، وهم لا يفلحون، ودرجة عدم الفلاح على قدر درجة افتراء الكذب على الله، وإن تمتعوا في الدنيا فمتاع قليل، ينالون متاعًا قليلاً في الدنيا، ثم مأواهم النار بما كانوا يكسبون.

فمن أخطر الأمور أن يقضي الإنسان بالباطل، أو أن يفتي بالباطل خلاف شرع الله، وينسب ذلك إلى دين الله ﷻ.

الْمسْألةُ الْحادِيةُ والسِّتُّون: التّكْذِيبُ بِالْحقِّ.

الـشـــرح:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**الْمسْألةُ الْحادِيةُ والسِّتُّون: التّكْذِيبُ بِالْحقِّ**)، كذب أهل الكتاب وكذب المشركون بالحق الذي جاءهم به النبي ﷺ؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ [ق: ٥]، فيشمل هذا الكفار من أهل الكتاب ومن المشركين، فكلهم كذبوا بالحق؛ كذبوا بكتاب الله، وكذبوا برسول الله ﷺ، وكذبوا بما جاء به الرسول ﷺ من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهم في ذلك مختلفون أمرهم مريج، أمرهم مختلط، تارة يقولون: ساحر، تارة يقولون: كاهن، تارة يقولون: كذاب، يحاولون البحث عن أي تهمة يصرفون بها الناس عن تصديق رسول الله ﷺ، والتكذيب بالحق صفة مشتركة بين كل أهل الجاهلية ومن يشابههم ممن ينتسب إلى الإسلام كذلك، حين يكذبون بسنة رسول الله ﷺ وبما عليه إجماع أهل السنة، فإنه هو الحق، والتكذيب به من صفات أهل البدع والضلال الذين لا يقبلون ما دلت عليه أدلة الكتاب والسنة مما يخالف بدعهم وضلالاتهم، فكل طائفة مبتدعة عندها درجة من التكذيب بالحق، وإن لم تصل إلى التصريح بذلك، من صرح بالتكذيب بالقرآن العظيم كالمرتدين بأنواعهم المختلفة، فلا شك في خروجهم عن ملة الإسلام أصلاً، وهم من أهل الجاهلية الكفار.

وأما من شابه أهل الجاهلية ممن ينتسب إلى الإسلام، فله نصيب بقدر تكذيبه بدلالات الآيات وصحة الأحاديث ودلالات هذه الأحاديث، فأهل

البدع يكذبون أحيانًا بالأحاديث الصحيحة الصريحة، مثل: نفاة الصفات ينكرون أحاديث كثيرة مثل نزول الرب سبحانه إلى السماء الدنيا، يقولون: أخبار آحاد لا نقبلها نردها، فهذا نوع من التكذيب بالحق؛ وأما نصوص الكتاب الدالة على إثبات الصفات فإنهم كذلك يردون دلالاتها، لا يردون الآية نصًّا، ولكن يحرفونها، مثل: استوى، يقولون: استولى، ويثيرون الشبهات عند الجهال بأن هذا يقتضي التجسيم، ويقتضي أن من يقول بذلك يكون حشويًّا، ويكون مشبهًا وممثلاً إلى غير ذلك من التهم الباطلة التي سبق بيان بعضها، في (**الْمسْألةِ التّاسِعةِ والْخمْسُون: تلْقِيبُ أهْلِ الْهُدى والصّوابِ بِالصّابِئةِ والْحشوِيّةِ**)، لا شك أن تكذيبهم بدلالات الآيات نوع من التكذيب بالحق، وكذلك تجد القدرية يردون ويكذبون الأدلة، مقتضى الآيات الدالة على إثبات القدر، والجبرية في الحقيقة يردون الأدلة أو مقتضى الأدلة من الآيات الدالة على إثبات قدرة الإنسان ومشيئته ومسئوليته عن عمله وأنه عامل لأعماله فاعل لها حقيقة، فكذلك أهل الباطل من الرافضة يكذبون بالحق، يكذبون بمقتضى الآيات الدالة على فضل أصحاب رسول الله ﷺ، وائتلافهم مع رسول الله ﷺ ومع أهل بيته، وغير ذلك من الأدلة الدالة على سبقهم، وسبق المهاجرين والأنصار، وأنهم من المحسنين، ومدح من اتبعهم على ما هم عليه، يكذبون بمقتضى هذه الأدلة، فضلاً عن التكذيب بالأحاديث الصحيحة.

كل أهل البدع والضلال إما يكذبون دلالات القرآن، وإما يكذبون أحاديث الرسول ﷺ، ومنهم من يؤول الأحاديث ويضعها في غير موضعها ويحرفها عن مواضعها إذا كان يقبل ظاهرها، فعنده أن الأصل عقيدته

الفاسدة، وكل ما خالفه فإما مؤول، أو مردود، أو يُكذب، فهذه طريقة أهل البدع والضلال.

أهل السنة والجماعة لا يكذبون بشيء من الحق، يقبلونه بما يدل عليه، يقبلون الآيات وتفسيرها ودلالاتها، ويقبلون أحاديث رسول الله ﷺ الصحيحة الثابتة، سواءً ما كان منها متواترًا، أو ما كان منها من خبر الآحاد، سواءً كان في العقيدة، أو في العمل، أو في السلوك، يقبلون كل ذلك ولا يكذبون بشيء منها؛ فلذلك نقول: إن أهل البدع وأهل النفاق لهم نصيب كبير من التكذيب بالحق، أهل النفاق أعظم تكذيبًا للحق، والعياذ بالله، وأعظم ردًّا، كل العقلانيين الذين يردون الأحاديث الصحيحة؛ لأنها تخالف عقولهم، لهم نصيب من التكذيب بالحق، الذين يقدمون الآراء وتقليد الرجال، بل تقليد الشرق والغرب على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لهم نصيب من التكذيب الحق، الذين يطعنون في شريعة الإسلام ويرونها لا تصلح لهذا الزمان أو لغيره من الأزمنة لهم نصيب من ذلك أيضًا، يكذبون بأنها حق، يقولون: بل الحق في خلافها، كمن يدعي مثلاً أن تشريع القصاص نوع من الظلم؛ لأنه يؤدي إلى عدم التسوية بين الأغنياء والفقراء، أو أنه سيؤدي إلى تجرئة الناس على القتل إذا قبلوا الدية في تشريع الدية في العفو، إذا عفا أولياء القتيل، هذا الكلام يدل على جهالة عظيمة وتكذيب بالحق، ومن يقول مثلاً: إن من حق كل إنسان أن يختار ملته التي يريد، ولو كان بالردة عن الإسلام أو بالطعن في الإسلام وفي دين الله ﷻ وفي الرسول ﷺ، ويقول: هذا من حقه، فهذا من التكذيب بالحق، والعياذ بالله؛ لأنهم يقولون الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة باطل.

الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة من أن الدين عند الله الإسلام: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، وما دل عليه قول النبي ﷺ: «**مَنْ بدّل دِينهُ فاقْتُلُوهُ**»[(١)]، الأمثلة أكثر من أن نحصيها فيمن يكذب بالحق من أهل الكتاب ومن المشركين ومن المنافقين ومن أهل البدع، لكن على درجات مختلفة متفاوتة، نسأل الله العافية.

---

(١) سبق تخريجه (ص ٤٦٥).

الْمسْألةُ الثّانِيةُ والسِّتُّون: كَوْنُهُمْ إِذَا غُلِبُوا بِالْحُجّةِ فزِعُوا إِلَى الشّكْوى لِلْمُلُوكِ، كَمَا قَالُوا: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

الْمسائِلُ الثّالِثةُ والرّابِعةُ والْخامِسةُ والسّادِسةُ والسّابِعةُ والسِّتُّون: رمْيُهُمْ أهْل الْحقِ بِالصِّفاتِ الذّمِيمةِ رمْيُهُمْ إِيّاهُمْ بِالْفسادِ فِي الْأرْضِ كَمَا فِي الْآيةِ، وبِانْتِقاصِ دِينِ الْملِكِ وآلِهتهُ، وتبْدِيلِ الدِّينِ

الـشـــرح:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**الْمسْألةُ الثّانِيةُ والسِّتُّون: كوْنُهُمْ إذا غُلِبُوا بالحُجّةِ فزِعُوا إِلى الشّكْوى لِلْمُلُوكِ؛ كما قالُوا**: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٧])، **وقال فِي الْمسْألِةِ الثّالِثةِ والسِّتِّين: رمْيُهُمْ إِيّاهُمْ بِالْفسادِ فِي الْأرْضِ كما فِي الْآيةِ، وقال فِي الرّابِعةِ والسِّتِّين: رمْيُهُمْ إِيّاهُم بِانْتِقاصِ آلِهةِ الْملِكِ كما قال تعالى عنْهُمْ**: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، **وكما قال تعالى عنْ فِرْعوْن**: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦] **فِي انْتِقاصِ دِينِ الْملِكِ، وفِي الْمسْألِةِ الْخامِسةِ والسِّتِّين: رمْيُهُمْ إِيّاهُم بِانْتِقاصِ آلِهةِ الْملِكِ فِي الْآيةِ**: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾، **وفِي السّادِسةِ والسِّتِّين: رمْيُهُمْ إِيّاهُمْ بِتبدِيلِ الدِّينِ، كما قال تعالى عنْ فِرْعوْن**: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾، **وفِي السّابِعةِ والسِّتِّين: رمْيُهُمْ إِيّاهُمْ بِانْتِقاصِ الْملِكِ، كقوْلِهِمْ**: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾).

هذه في الحقيقة سبيل الكفار المشركين من قوم فرعون، فعلوا ذلك مع موسى، كما ذكر هذه الفوائد في هذه الآية الكريمة وما يشبهها، والحقيقة أن عامة أهل الضلال - والعياذ بالله - من أهل الجاهلية يسيرون على نفس الطريق، إذا غلبوا بالحجة كما غلب قوم فرعون بالحجة حين آمن السحرة، حين رأوا الآية أولاً ثم سجد السحرة ثانيًا، فكان ما كان من ادعاء فرعون أن هذا مكر مكروه في المدينة؛ ليخرجوا منها أهلها، وتوعدهم وأنفذ وعيده بقتل هؤلاء السحرة، وتصليبهم في جذوع النخل، وتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ومع ذلك لا يزال هناك من قوم فرعون بعد أن ظهرت لهم الحجة يحثون فرعون الملك على أن يبطش بموسى ﷺ.

كم من ظالم يسير على نفس الطريق، كم من مبتدع ضال يسير على نفس الطريق، إذا أعيته الحجة لجأ إلى الحكام، ويقول: إن هؤلاء يفسدون في الأرض، إن هؤلاء يخالفون ما أنتم عليه، إن هؤلاء يريدون خلعكم وإزالتكم، وإنهم من الخوارج الذين يريدون تخريب البلاد ونحو ذلك.

مباشرة الشكوى إلى الملوك؛ الشكوى إلى أهل السلطان ليبطشوا بأهل الحق؛ لأنهم لا حجة عندهم ولا طريق لديهم لإقناع الناس، الناس ينفرون منهم ولا يقبلون كلامهم، ويرون بطلان كلامهم، فتجد هؤلاء يحسدون أهل الإيمان وأهل العلم وأهل الطاعة على ما رزقهم الله ﷻ من حجة مقبولة في الناس، فيسعون إلى الملوك ليبطشوا بهؤلاء وينزلوا بهم أنواع العقوبات فهذه من طريقة أهل الجاهلية، يغلبون في الحجج، لا بينة لديهم، لكنهم يستعينون بأهل الظلم من أهل السلطان وأهل الظلم وأهل القوة؛ حتى يبطشوا بالمؤمنين؛ حتى يبطشوا بالملتزمين الصادقين، ويحثونهم دائمًا على

البطش بهم، مع أن كل منصف يعلم أنه لابد وأن يكون مع من وافقه ومن خالفه من أهل الإسلام مراعيًا لحرمة دمه وماله وعرضه وبشرته، لا يسعى في أذيته بغير حق، ولو اختلف معه في قول من الأقوال، فكيف إذا كان في الحقيقة يخالفه فيما دل عليه الكتاب والسنة، المبتدع يترك ما دل عليه الكتاب والسنة، وأهل الحق يريدون إقامة الكتاب والسنة.

الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ كان يعاني معاناة شديدة من مثل هذه النوعية، عندما يدعونهم إلى الحق ويبين لهم الأدلة على حرمة الشرك وعبادة القبور ودعاء الأموات، يوشون ويبلغون الحكام، وصل الأمر إلى ما نعلمه، كانت البدايات في الأمراء الصغار وحكام البلدات الصغيرة، حتى كان يُطلب من جميع البلاد إلى أن وفق له حاكم الدرعية، فهداه الله عَزَّ وَجَلَّ على يديه، لكن كم من مبتدع ضال حذر منه، وكان يقول عنه: إنه من الخوارج، وإنه يدعي النبوة، وإنه يكفر المسلمين بالعموم، وإنه يكفر كل من بعد المائة الثالثة، وغير ذلك من الأكاذيب التي وصلت في النهاية إلى الخليفة العثماني، حتى سيّر جيوش محمد علي وإبراهيم باشا للقضاء على الدعوة بسبب الوشايات، بماذا؟! بأنهم خالفوا ما عليه السلطان، وأنهم خالفوا ما عليه جماعة العلماء، وأنهم يريدون الإفساد في الأرض.

وهذا الأمر أنت تجده في واقع الحال، عندما يُتهم أهل الطاعة وأهل الدعوة وأهل الجهاد في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنهم من المفسدين في الأرض.

أنت تجد هذا يستعمله من يوافقون أعداء الإسلام، تجد بلاد الإسلام في كثير منها أعداء الإسلام قد احتلوها وأقاموا فيها من يواليهم وينتسب إلى الإسلام، في كل مرة حدث ذلك، منذ أن بدأ الاحتلال الغربي لبلاد

الإسلام أيام الفرنسيين والإنجليز كانوا يقيمون حكامًا تابعين لهم، من أيام الثورة الفرنسية أقاموا مجموعة من شيوخ الأزهر يديرون شئون البلاد، الشيوخ المحترمون رفضوا أن يدخلوا في هذه اللجنة، لكن كان هناك من وافق وصار يحكم البلاد باسم (نابليون)، ثم بعد ذلك (كليبر)، ثم دخل أحدهم في الإسلام بعد ذلك، وهو (مينوا) وتزوج امرأة مصرية، وكل ذلك لكي يخدع الناس، ويوجد من يتابعهم على تبديل الدين في الحقيقة، وهذا الأمر في حقيقته وقف له العلماء، ومع ذلك كانوا يتهمون من يقف في وجه ذلك بأنه من المفسدين في الأرض. وأنت تجد اليوم من أعظم التهم في بلاد المسلمين السعي لمقاتلة الكفار المحتلِين، مع أن الكل يُقر أنهم محتلون، والله من العجب الذي أقرأنيه بعض الإخوة: أن رجلاً يكتب كتابًا في أن العراق ليست أرض جهاد في سبيل الله، لماذا؟!

يقول: لأن أهل الحل والعقد قد اتفقوا مع المحتل، وأنهم قد عقدوا معه معاهدات أمان، والعياذ بالله، أي أمان هذا والجيوش تحتل بلاد الإسلام بالحديد والنار، ويأتي بالنصوص في وجوب الوفاء بالعهد وحرمة الخيانة وحرمة الغدر وحرمة الفساد في الأرض، فيكون الجهاد في سبيل ومقاتلة الكفار المحتلين فساد في الأرض، والعياذ بالله.

وكذلك في فلسطين كم من زنديق في الحقيقة - وأنا والله أقول: زنادقة، منافقون، وإن تدثروا باسم الدين والدعوة، بل واسم السلفية، والعياذ بالله - يزعمون أن ما يريده اليهود يجب أن يتم من خلال أوليائهم - والعياذ بالله - ممن ينفذ مخططاتهم تمامًا، والكل يعلم كم تُبذل الأوقات والأعمار من أجل إقامة الباطل الذي يريده اليهود، وأن من يقاوم ذلك فهو

من الخوارج، وهو من المفسدين في الأرض، وهو ممن لا يراعي المصلحة ولا المفسدة، وهو ممن يخالف ولاة الأمور، من الذي ولاهم؟! اليهود هم الذين ولوهم، والعياذ بالله، والأمريكان ولوهم؛ هؤلاء في أفغانستان، في العراق، وفي فلسطين، وفي القوقاز، تجد في كل مكان يوجد من يتولى أعداء الله ﷻ، ويتهم من يريد إقامة الدين؛ إما بدعوة، وإما بعلم، وإما بجهاد، بأن هذا كله ليس من الدين، بل هذا فساد في الأرض، يقولون: يذرونكم ويتركونكم، سوف يخالفون ما أنتم عليه ويفسدون في الأرض، هكذا الشكوى إلى الملوك ورمي المؤمنين بأنهم يفسدون في الأرض، والعياذ بالله.

﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، فأصبح موسى - والعياذ بالله - مفسدًا في الأرض، موازين فرعونية والعياذ بالله، موازين عجيبة، نوعية عجيبة من البشر، لكنها موجودة في الحقيقة، الشيخ محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله، علام جاء الجنود المصريون لهدم هذه الدعوة أيام إبراهيم باشا ومحمد علي؛ لأن الجنود مقتنعون بأن هذا رجل مفسد بدّل عقيدة الناس، في الحقيقة بدل عقيدة الشرك، ولكنهم لا يدرون، خدعوا، وجاءوا يقاتلون الخوارج، وكانوا يجاهدون في سبيل الله في ظنهم، ونسأل الله العافية، وهدمت فعلاً الدرعية وقتل من قتل، وأسر من أسر، وانتهك الحرمات، وسفكت دماء كثيرة جدًا في هدم الدولة السعودية الأولى التي أقيمت في عهد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ودمرت بعد وفاته، في الحقيقة من أجل الخداع الذي حصل، ومن خلال اتهام هؤلاء

بأنهم يفسدون في الأرض، أنها كانت في الحقيقة دعوة صلاح، دعوة إصلاحية لا يزال أثرها - بفضل الله ﷻ - في أرجاء العالم الإسلامي، وإعادة الناس إلى الكتاب والسنة، ونحن نرى كيف أن عامة استدلالات الشيخ رحمه الله كلها استنباط من الكتاب ومن السنة، وكلام واضح وظاهر وجلي، ومع هذا كان ذلك تهمة عظيمة، وإلى يومنا هذا لا يزال تهمة، فإذا أرادوا أن يتهموا أحدًا، قالوا: إنه وهابي، ولا تزال هذه تهمة مشهورة، وبالتالي فهو من الخوارج ومن الزنادقة، وحسب التهم المختلفة في كل بلد، وهناك من ينادي بتطبيق عقوبة المفسدين في الأرض عليهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف ونفيهم من الأرض، ووالله هذا حاصل، هذه تهم جاهزة لكل من يدعو إلى الله ﷻ، ويدعو إلى تحكيم الشرع، ويدعو إلى الولاء لله والعداء من أجله، والولاء والبراء بتطبيق ذلك في الدين، ومحاربة أعداء الإسلام وإقامة الجهاد في سبيل الله، كل ذلك عندهم يعد من الفساد في الأرض، ويوجد من يحث الفراعنة على ذلك، ويوجد من يحث الملوك أو يخدعونهم على ذلك، وهذا الذي أدى إلى ضياع كثير من الحق عند كثير من الناس، وإن كان - بإذن الله - يذهب كما ذهب مكر هؤلاء، الذين حثوا فرعون على ألا يترك موسى وقومه ليفسدوا في الأرض

ثم رميهم إياهم بانتقاص دين الملك، كانوا يقولون عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته: إنها تنتقص دين الدولة؛ لأن دين الدولة عندهم هو الصوفية، وتعظيم الأولياء، وهؤلاء ينتقصون آلهة الملك، لا يعظمون أهل البيت، التهمة اليوم في إيران كذلك كما فيمن قتل من أهل السنة منذ أيام، كانت تهمتهم ماذا؟! الإفساد في الأرض، فأهل البدع يتهمون أهل السنة

بأنهم لا يحترمون أهل البيت، لماذا؟

لأن أهل السنة لا يرون عبادة أهل البيت، لا يرون الطواف بقبورهم، لا يرون السجود لهذه القبور، لا يرون التمسح بهذه الأضرحة، لا يرون الحج إليها مشروعًا، فهؤلاء إذًا وهابية كفار لابد من قتلهم؛ لأنهم ينتقصون آلهة الملك، ينتقصون دين الملك، دين الملك عندهم هو هذا المذهب الباطل الملعون، والعياذ بالله، فمن ينتقصه كذلك.

الصوفية يغرون الناس دائمًا بأهل السنة، يقولون: هؤلاء المتطرفون الذين لابد من الأخذ عليهم بأيد من حديد، ولابد من التنكيل بهم لنمنعهم من الإفساد في الأرض، ويغرون أهل السلطان بذلك، يقولون: سيغيرون الدين، ما هو الدين؟ الدين الذي عندهم الذي فيه تعظيم الأولياء والموالد والغلو فيهم، والحلف بهم والنذر لهم، وأعاجيب تسمعها.

يقولون: الوهابية سيطرت على الحكومة؛ ولذلك ألغت مولد السيدة زينب، وهم ألغوه في الحقيقة لأجل أنفلونزا الخنازير، فيقولون: هذا دليل على تغلغل الوهابية في الحكومة، أن السلفية والوهابية توغلت حتى وصلت أيديها إلى ذلك، وطبعًا بالقطع واليقين هذه خزعبلات ودماء، الذين يريدون هذه الموالد هم الأمريكان، الأمريكان يؤكدون على عمل الموالد، السفير الأمريكي له حضور سنوي منذ حوالي ست سنوات إلى الآن، لابد أن يحضر الحضرة، والقيادات الصوفية تلتقي مع السفيرة الأمريكية ومع المبعوثين الأمريكيين، ويقولون: إن الرؤية الصوفية تتفق مع الرؤية الأمريكية في محاربة الإرهاب، ونسأل الله العافية، حاجات غريبة يسمعها الإنسان ويراها فعلاً ماثلة أمامه، أنهم يتهمون أهل الحق بأنهم

يريدون تغيير الدين، ينتقصون الدين الذي أنتم عليه، وخصوصًا إذا كان مثلاً في أشياء باطلة، مثل: عدم تطبيق الشرع، يقولون: هؤلاء يريدون أن يغيروا القوانين، ولا يحترمون الدستور، وهؤلاء يريدون الخروج على النظام، هذا الدين الذي يدينون به؛ لأن الدين يشمل النظام: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦]، فيقولون عنهم: هؤلاء يريدون أن يبدلوا النظام ويغيروه، حتى لو كان باطلاً، فأهل الحق لا يتبرءون من تهمة تغيير الدين الباطل، هي تهمة شرف عندهم؛ ولذلك الرمي بالفساد في الأرض تهمة باطلة بالقطع واليقين، والرمي بانتقاص دين الملك تهمة صحيحة، نعم هو ينتقص دين الملك، ولكن هم يستعملون ذلك لتحفيز الملك على أهل الحق، وإذا كان دين الملك باطلاً فنحن لا نتبرأ من أن ننتقصه، ولا يجوز لنا أن نقول: لا، لا، نحن لا ننتقص دين الملك.

إذا كان دين الملك باطلاً أو إذا كان عنده شيء من الباطل، كما ذكرنا هي درجات متفاوتة، يعني: إذا كان الأمر أنه يدين بدين الإسلام، لكن عنده بدع وضلالات وعنده منكرات، فلابد من أن لا نتبرأ من إنكار هذه المنكرات، ولانقول: هذه التهمة نحن ننفيها مثل انتقاص دين الملك، فإذا كان هناك شيء يستحق الانتقاص فلابد أن يُنتقص، إذا كان هناك شيء يستحق أن يُبطل ويجب أن يُبطل، فلابد أن نقول: إنه باطل، وكذلك انتقاص آلهة الملك، والآلهة - كما ذكرنا - عند الرافضة وعند الصوفية هم الأولياء وآل البيت، يعبدونهم من دون الله، فيقولون: هؤلاء لا يحبون آل البيت، هؤلاء يعادون آل البيت، أعداء آل البيت، بالكذب والزور، نحن نعادي تأليه آل البيت، نحن ننتقص تأليه أهل البيت وتأليه الأولياء، ولكن لا نعادي أولياء الله ﷻ،

ولانعادي أهل بيت رسول الله ﷺ، وكذلك قضية تغيير الدين، رميهم إياهم بتبديل الدين، هذه تهمة في الحقيقة لابد وأن نثبتها، الدين الباطل، نعني: أنه إذا قيل للمؤمن: أتريد أن تبدل الدين الكافر، الدين الذي يخالف دين الإسلام؟ فلا يقل: أنا لا أريد أن أبدل الدين، أنا متابع لهذا الدين، لا يجوز ذلك، تهمة هي في الحقيقة محفز لأهل الباطل، ولكن لا ينفيها أهل الحق، الرسول ﷺ عاب دينهم وسب آلهتهم وسفه أحلامهم، وهذه كانت القضية الأساسية التي أدت إلى معاداة رسول الله ﷺ من أهل الجاهلية، وإلا فلو كان يعبد الله ويتركهم على ما هم عليه لما كان هناك نوع من المنازعة، ولتركوه، فإنهم يقرون بعبادة الله، يقولون: نعم، عبادة الله أمر حسن، ولكن القضية أنه قال: إنه لا إله إلا الله، أن الدين الذي أنتم عليه دين باطل، لكم دينكم ولي دين: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾، هذه القضية لابد أن ننتبه لها؛ لأن بعض الناس وبعض الدعاة حتى إلى الله إذا اتهموا بشيء يبادرون إلى نفيه؛ كما قال فرعون: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، فيقولون: لا، نحن لا نريد أن نبدل الدين، هذا الواقع نحن نريد أن نثبته، يُقال لهم: أنتم تريدون أن تغيروا هذا الواقع؟ فيقولون: لا، من قال إننا نريد أن نغير هذا الواقع، نحن مقرون، بل نحن نريد أن نحافظ على هذا الواقع، نحن نريد أن نحافظ على هذه الإنجازات العظيمة التي قام بها فرعون، أو أن يظهر في الأرض الفساد، نحن ننكر بلا شك أننا نفسد في الأرض، ولكن لا يسعنا أن نقول: إننا لا نريد تغيير الباطل، لا نريد تغيير

الشرك، لما يقولون: أنت متهم بأنك تدعو إلى تطبيق الشريعة! فيقول: لا، أنا لا أدعو إلى تطبيق الشريعة، لا يمكن أن يكون الأمر كذلك، وللأسف كان يقال لبعض الإخوة، وللأسف وقع فيه البعض، ويمكن طبعًا التماس الأعذار تحت الإكراه، لما يقول له: أنت متهم بتكفير اليهود والنصارى، فبعض الناس قد يقول: لا، أنا لا أكفر اليهود والنصارى، والعياذ بالله، وبعض الإخوة قال لهم: أنا لم أكفرهم، ربنا الذي كفرهم، والآخر يلقم حجرًا ويسكت، فينكسف حتى أن يكتب في محضر التحقيق أنه ذكر شيئًا، لكن جرأته أنه يتهم بذلك، والعياذ بالله، كونه يقول: أنت متهم بذلك، هذه وحدها ردة عن الإسلام، الذي يقول: أنت متهم بتكفير اليهود والنصارى، يعني: جعل تكفير اليهود والنصارى تهمة يُحارب عليها الإنسان، ويجازي عليها القانون، ويحبس من أجلها، هذا - والعياذ بالله - ردة عن الإسلام، نسأل الله العافية، فأنت لمّا تُتهم بذلك، لا تقل: لا، أنا لم أقل ذلك، فهذا يمكن أن يكون في مقام الإكراه، ولكن ليس في مقام الدعوة إلى الله، أن يخرج إنسان ويقول: من الذي قال: إننا نكفر اليهود والنصارى، نحن لسنا متطرفين، هذه أفعال المتطرفين؟!

كما نُسب إلى بعض الدعاة أنهم يدعون إلى نصرة المجاهدين في غزة - أيام حرب غزة -، وقالوا: إن معاونة أعداء الإسلام كفر ومناصرتهم كفر، وأتوا بفتاوى علماء سابقين، وبعضهم لم يكن قد اطلع على أي فتوى فبادر بالتكذيب، وقال: لا، هذه ليست طريقتنا، نحن أبرياء من هذه الفتوى، ونحن أبرياء من هذا القول، وليست هذه طريقتنا، وليس هذا منهجنا، ما الذي تتبرأ منه؟! أنك تقول: إن الناس يقولون: يجب مناصرة

المسلمين، يحرم مناصرة الكفار، ومناصرة الكفار على المسلمين من الموالاة التي حكم الله ﷻ على من فعلها بالكفر: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٢]، فبعد هذه الآيات تقول أنت: لا، لا، أنا لا أقول ذلك، هذا كلام الله ﷻ، قضية خطيرة والله العظيم؛ ولذلك هذا الرمي وسيلة لكي يجعل ناسًا كثيرين جدًا يتركون الالتزام، يقول: أنت متهم بكذا، فيقول: لا، لستُ متهمًا بذلك.

الواجب أن تنظر أولاً هذا الكلام الذي يُقال الذي تُرمى به يستحق أن تثبته أو تنفيه بناءً على شرع الله ﷻ، وليس مجرد أنك تريد تغيير هذا النظام الواقع، أو أنك تريد تغيير هذا الواقع الأليم أنك تنفي ذلك، بل تقول: بل أنا أحرص على تثبيته وأنا تابع له، وأنا موافق عليه، ليس هذا أبدًا بطريقة صالحة للدعوة إلى الله ﷻ، وكذا بانتقاص الملك، بانتقاص الذات الملكية وهذه تهمة قديمة من أيام فرعون «ويذرك»، سيتركك، يترك تعظيمك، يترك توقيرك، وهذه تهمة، ويأتي أناس يفلون الكتب ليخرجوا منها شيئًا، ويقولون: انظر، أرأيت، ها هو يقول، هذا دليل على أنه يريد أن يخرج على الإمام، هذا دليل على أنه يريد أن يخرج على الملك، والمهم أن الناس عاجزة عن كل شيء، بقي لهم ثلاثون أو خمس وثلاثون سنة، ولا يستطيعون عمل شيء، ولا خرجوا، ولا حملوا سلاح، ولا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا، ومع ذلك يقولون تهم مستمرة في انتقاص الملك من أجل التحذير وإبعاد المسلمين عن اتباع الحق، نسأل الله العافية.

مسألة أهل الجاهلية تمامًا مثل مسألة أعوان فرعون فرعون مع فرعون ضد موسى ﷺ، ومثل ما اتهم به الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ وأصحابه في كل هذه التهم، فالشيخ كأنه يضع نفسه في مثل هذه التهم؛ لأنهم قالوا عنه: إنه يريد الخلافة والخروج على السلطان العثماني، مع أن الشيخ عمره ما تكلم في قضية الخلافة أصلاً، هو كان يتكلم عن دعوة التوحيد، الشيخ كان يرى أن إقامة الدين مقدمة على رعاية حق الدولة، ولا شك في ذلك، فالدولة كانت تحمي الصوفية أو مهملة لهذا الباب بالكلية، والجزيرة العربية كانت مُهملة أو شديدة الإهمال من الدولة العثمانية؛ لأنه لم يكن هناك بترول ولا شيء، فكانت الدولة مهملة تمام الإهمال لهذا الجانب، وتترك كل الصوفية وكل المبتدعين إلى درجة إنكار البعث، إنكار اليوم الآخر في الأعراب، وترك الصلوات وترك إقامة الحدود، وبلاد مهملة بالكلية، والحقيقة أنهم عندما قاموا قاموا للدفاع عن الصوفية، فلا شك أن إقامة الدين مقدمة على حق الحاكم، حق الدولة في الطاعة، مع أنه لم ينازع السلطان العثماني أمره، بمعنى: أنه لم يطمع إلى أن يكون خليفة أو أن يقيم دولة مستقلة، وإنما سعى إلى إقامة الدين ونصرته بالسيف رَحِمَهُ اللَّهُ، بعد أن أقام الحجة على الناس بالبيان، وظل الناس يعاندون ويمتنعون من إقامة الحق، وكان يسر الله ﷻ له من ينصره بالسيف، فقاتل فعلاً في إقامة الحق دون أن يكوِّن دولة مخالفة لدولة السلطان العثماني، ولكن كان الأمر -كما ذكرنا- فيه نوع من التفريط الشديد، وهذا أمر معلوم عبر التاريخ أن إقامة الدين أمر حق واجب، وما أمكن الإنسان منه وجب عليه أن يقيمه؛ لأنه بإذن من الله ﷻ، فلا يحتاج إلى إذن أحد سواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكن الذي يمنع

منه الإفساد، يمنع منه سفك دماء المعصومين بغير حق، وهذا لم يقع من الشيخ ﵀.

فكان ما اتهمت به دعوته ﵀ موافقًا تمامًا لما ذكره في هذه المسائل الخمس أو الست في أنه ينتقص الباب العالي، أنه يريد أن يبدل الدين وينشر مذهب الخوارج، ويريد أن يدعي النبوة، أنه ينتقص أولياء الله الصالحين وأهل البيت، وأنه يطعن فيهم، وينتقص الأئمة الأربعة، ويريد تأسيس مذهب خامس ونحو ذلك، أنه ينتقص الطريقة التي عليها الدولة؛ لأنه ينتقص الصوفية ويطعن فيها، أن هذا مفسد في الأرض يسفك الدماء، ويقيم الحدود بغير إذن ونحو ذلك، كل هذا كان شكاوى متكررة أدت إلى تهييج الدولة العثمانية على الشيخ ﵀، ثم مات الشيخ قبل أن تبدأ الحرب، لكن بعد ذلك مع ضعف فيمن ولي الأمر من بعده، ومن بعد محمد بن سعود ﵀ حصل أن تسلطت القوات التي أرسلها محمد علي على هؤلاء، بسبب الذنوب والمعاصي بلا شك.

ووقعت سجالات متعددة، ولكن كانت التهم ما زالت موجودة، وما زالت منتشرة في معظم أرجاء العالم الإسلامي إلى يومنا هذا.

يعني: الوهابية عبارة عن تهمة ما زالت في أكثر البلاد، ولو قيل: وهابي. عند بعض الناس يساوي كافرًا، فما زال الأمر كذلك في كثير من الأماكن، فرحم الله الشيخ وغفر له، ولكنها سنة الله في كل سائر على الحق أنه سوف يتهم بمثل هذه التهم، ويُحرض عليه أهل السلطان، ويُتهم بانتقاصهم، ويُتهم بانتقاص طريقتهم وانتقاص سادتهم ومُعظِّميهم.

من التهم العجيبة في تركيا: انتقاص كمال أتاتورك، فانتقاص كمال أتاتورك عبارة عن تهمة يمكن أن تصل إلى الإعدام، لو أحد انتقص كمال أتاتورك ينتقص دين الملك، ينتقص العلمانية، في تركيا تهمة جاهزة، الحزب الحاكم تبرأ من أصوله الدينية، قال: نحن نقر بالعلمانية، نحن لسنا حزب ديني، لماذا؟

لأن التهمة جاهزة، انتقاص العلمانية، انتقاص دين الملك، انتقاص الملك نفسه، تهمة عقوبتها الإبعاد التام والسجن، والدعوة إلى الشريعة الإسلامية، تهمة رسمية في القانون التركي، من يثبت عليه الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، يُعاقب بالسجن ثمان سنوات، ومن يعمل في ذلك من خلال جماعة، يُعاقب بالسجن مدى الحياة، هذا شيء رسمي في القانون التركي.

من يحفظ أولاده القرآن زيادة على المقررات المقررة في المدارس، يعاقب بالسجن ثلاث سنوات، والعياذ بالله.

الذي ينتقص هذه الديانة - العلمانية - فلابد أن ينال السجن، أحد المشايخ الدعاة الأفاضل دخل السجن مدة طويلة بتهمة انتقاص أم كمال أتاتورك، الشيخ سيد العفاني حفظه الله كتب في كتاب عن أم كمال أتاتورك أنها كانت منتسبة إلى طائفة دينية غير مسلمة، فقالوا له: أنت متهم بانتقاص أم كمال أتاتورك، هذا في بلادنا نحن، نسأل الله العافية، وهل أم كمال أتاتورك جاءت ترفع قضية عليه؟!

ولكن عجب من العجاب يسمعه الإنسان، ولولا أن الإنسان سمعه

مباشرة لما صدقه، كما في موضوع: أنت متهم بتكفير أهل الملتين، لولا أني سمعته من الإخوة الذين سمعوه مباشرة لما صدقتُ أن شخصًا مسلمًا واسمه محمد وأحمد ومحمود يقول لمسلم آخر: أنت متهم بتكفير أهل الملتين؛ اليهود والنصارى.

الْمسْألةُ الثّامِنةُ والسِّتُّون: دعْواهُمُ الْعمَلُ بِمَا عِنْدهُمْ مِنَ الْحقِّ، كَقَوْلِهِ: ﴿نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ [البقرة: ٩١]، مَعَ ترْكِهِمْ إِيّاهُ.

الشرح:

أخبر الله ﷻ عن اليهود أنهم إذا قيل لهم: ﴿ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ﴾ [البقرة: ٩١]، فهم زعموا الإيمان بما أنزل عليهم من التوراة، وجعلوا ذلك سببًا لكفرهم بما أنزل الله بعدها، مع أن ما أنزل الله من الوحي يصدق بعضه بعضًا، ومع أنهم لم يُخبروا في التوراة أن الله ﷻ لا يُنزل بعدها كتابًا، ولا ينسخ شرائعها بشريعة أخرى، ولم يخبروا أن موسى آخر الرسل، أو أنه لا رسول بعده يأتي بمثل ما أتى به، فهذا الذي ابتدعوه من تركهم الإيمان بما أنزل الله ﷻ بعد التوراة من الكتب كالإنجيل والقرآن، هذا الذي ادعوه من أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم كذب، ليس عندهم إيمان صحيح بما أنزل عليهم؛ لأنهم تركوا الإيمان بما أوجبه عليهم كتابهم، فإن الله ﷻ قد أخذ العهد على جميع الرسل أن يأخذوا عهد الله وميثاقه على أممهم أن يؤمنوا بالرسول إذا بعث: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨١﴾ [آل عمران: ٨١].

وقال ﷻ: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ

﴿ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧]، فكيف يزعمون الإيمان بالتوراة وبما أنزل عليهم، وهم يكفرون بما أمرهم الله في التوراة أن يؤمنوا به؟! فهذا أمر ظاهر التناقض، كما قال ﷻ عندما أبى اليهود التزام حكم الرجم، وأتوا إلى النبي ﷺ يرجون التخفيف وترك حكم الرجم ليحتجوا به عند الله، يقولوا: حكم بالجلد والتحميم بدلاً من الرجم نبي، فقال ﷻ: ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٤٣]، هم لا يعتقدون أن محمدًا ﷺ تلزمهم شريعته - في زعمهم - ؛ ولذا أبوا أن يتبعوه، ومنهم من كان يصدقه، ومنهم من كان يكذبه، فكيف يزعمون أنهم آمنوا بالتوراة، وفي التوراة الرجم، وهم أبوا أن يطبقوا ذلك، فكم من الناس يزعم أنه يؤمن بالقرآن ويؤمن بما أنزل الله عليه وهو يترك ذلك.

فكثير من أهل البدع وأهل النفاق وأهل الضلال ممن ينتسب إلى الإسلام فعل مثل ما فعل اليهود، حين زعموا الإيمان بما في أيديهم من الكتاب ومن السنة، ثم هم يتركون ذلك، وهذا قد يُسمى كفرًا في بعض الأحيان؛ كما قال ﷻ: ﴿وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ﴾ [البقرة: ٨٥]، فسمى تركهم لما أمروا به من عصمة دمائهم وتحريم قتال بعضهم لبعض، لمّا تركوا ذلك سمى الله تركهم للكتاب كفرًا مع أن الكتاب ما زال بأيديهم.

وأنت تجد في أهل النفاق ممن يأبون شرع الله، لو قلت لهم: أنتم كفرتم

بكتاب الله، أنتم تركتم الدين، لهاجوا عليك وماجوا، حتى من يتنكر للإسلام صراحة، ويزعم أنه دين مخترع، حين قالوا له: كفرت، قال: أ نتم تكفيريون وأنتم إرهابيون، مع أنه يكفر بالإسلام صراحة، ويصرح بأنه اخترعه عبد المطلب، والعياذ بالله، ونحو ذلك، فلما قال له الناس: كفرت، قال: لم أكفر، بل أنتم تكفيريون، وهذا دأبكم وأنتم تريدون دمي ونحو ذلك.

وآخر أيضًا كان يتهم القرآن بالخطأ ويقول: إن فيه أخطاء صراحة، وعندما حكمت محكمة بكفره وردته عن الإسلام، محكمة وضعية حكمت بأنه مرتد عن الإسلام، قال: هؤلاء أيضًا تكفيريون وإرهابيون، والعياذ بالله.

فكم من المنافقين يزعم الإيمان بكتاب الله ﷻ، بما أنزل عليه، وهو في الحقيقة يتركه ولا يلتزم به، ويغضب إذا قيل له: أنت كافر، أو أنت كفرت، أو أنت منافق، بل يقول: بل أنا مؤمن، وهو يأبى ولا يزال يأبى أن يمتثل حكم القرآن وحكم الرسول ﷺ، وأنت تجد هذا - كما ذكرنا - في أهل النفاق ممن يرفض شرع الله ﷻ، ولا يريد تطبيقه والعمل به، وتجده في أهل البدع ممن يسمع آيات الله ﷻ في التوحيد وفي الاتباع لرسول الله ﷺ فيما جاء به، ثم هو يأبى ذلك تقليدًا لمشايخ السوء.

كم من آيات التوحيد يسمعها من يدعو المقبورين من دون الله، كم يسمعون قول الله: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ [يونس: ١٠٦ - ١٠٧].

وكم سمعوا قول الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤]، وكم سمعوا قول الله ﷻ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦ - ٥٧].

ومع ذلك يصرون على دعاء الأموات بعد سماع هذه الآيات وتعظيمهم فيما يزعمون للقرآن، ويقولون: إن هؤلاء يملكون الضر والنفع، ويسألونهم قضاء الحاجات وكشف الكربات، ورفع الضر عنهم، ونعوذ بالله من ذلك.

ويهددون من يمنعهم من ذلك بأنه سوف يصيبهم لعنات هؤلاء الأولياء، وأن سرهم بينهم وبين الله سوف يصيبه بأنواع المصائب والمحن، وأن الولي الفلاني انتقم ممن لم يحضر المولد، وانتقم ممن آذى من يحضر المولد، وأنزل البأس بمن طعن في ولاية فلان، وغير ذلك من الخرافات والخزعبلات، والعياذ بالله، وكم ترى من أهل البدع من يزعم تعظيم القرآن، فإذا جاءت الآيات التي تخالف عقيدته الفاسدة، فإنه يأبى أن يمتثل لها، فترى أهل البدع مثلاً من الخوارج والمعتزلة، يتركون الامتثال لقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ١١٦] يأبون أن يكون هناك شيء هو من الشرك، وشيء هو دون ذلك في مشيئة الله، بل يقولون: الكل مخلد في النار، ولا مغفرة لمن مات مصرًا على معصية الله الكبيرة.

وتجد القدرية النفاة يسمعون قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ويأبون أن يعترفوا أن أفعال العباد داخلة في هذا، ويسمعون قول الله ﷻ: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا﴾ [النساء: ١٥٥]، أي: على قلوبهم، ويأبون أن يعترفوا بذلك، ويقولون: بل البشر هم الذين يخلقون أفعالهم، ولا سلطان لله ﷻ على أفعال العباد الاختيارية.

وتجد الجبرية يسمعون قول الله ﷻ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] فيأبون أن يعترفوا للإنسان بمشيئة، ويسمعون قول الله ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟﴾ [المائدة: ٣٤]، وقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، فيأبون أن يعترفوا للبشر بقدرة أو استطاعة كما لم يعترفوا لهم بمشيئة، وهكذا.

تجد المرجئة يسمعون قول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، ثم يأبون أن يقولوا: إن الإيمان قول وعمل، وتجد كل أهل بدعة يزعمون الإيمان بما عندهم من الحق من الكتاب المنزل، ثم هم يأبون الانقياد ولا يلتزمون به، بل يتركونه ولا يعملون به، فهذه من مشابهة أهل البدع والنفاق المنتسبين لهذه الأمة لأهل الكتاب الذين قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾، فـ ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ كلام غير صحيح، لو كانوا مؤمنين لآمنوا بما وراءه من الحق، ولو كان هؤلاء مؤمنين بالقرآن، لطبقوا شريعته ولأعلوا شأنه، ولعملوا بهذا الدين الذي أنزله الله في العقيدة وفي العبادة وفي العمل، وفيما يخص الفرد وفيما يخص الأمة، وفي التشريعات المختلفة،

وإلا فالإيمان ليس مجرد إعلان كلام، ليس مجرد كلام يقال، دون أن يكون هناك امتثال وتطبيق في حياة البشر.

الْمسْألةُ التّاسِعةُ والسِّتُّون والسّبْعُون: الزِّيادةُ فِي الْعِبادةِ كفِعْلِهِمْ يوْم عاشُوراء، ونقْصُهُم مِنْها كترْكِ الوُقُوفِ بِعَرَفَاتٍ.

الشـــرح:

قال ﷺ: (**الْمسْألةُ التّاسِعةُ: الزِّيادةُ فِي الْعِبادةِ كفِعْلِهِمْ يوْم عاشُوراء**)، أظن - والله أعلى وأعلم - أنه قصد ﷺ ما ورد في الحديث الصحيح أن عاشوراء كانت تعظمه قريش في الجاهية، كان تعظيمهم ليس بالصيام طبعًا، أعني: أنه كان شيئًا زائدًا على ذلك، أنهم كانوا يفعلون احتفالات معينة في يوم عاشوراء، كانت قريش تعظم عاشوراء في الجاهلية، «**لمّا قدِم النّبِيُّ ﷺ المدِينة وجد اليهُود يصُومُون عاشُوراء، فسُئِلُوا عنْ ذلِك، فقالُوا: هذا اليوْمُ الّذِي أظْفر اللّهُ فِيهِ مُوسى، وبنِي إِسْرائِيل على فِرْعوْن، ونحْنُ نصُومُهُ تعْظِيمًا لهُ، فقال رسُولُ اللّهِ ﷺ: نحْنُ أوْلى بِمُوسى مِنْكُمْ، ثُمّ أمر بِصوْمِهِ**»[(١)]، لكن يظهر أن قريشًا كانت تفعل أفعالاً أخرى في يوم عاشوراء زيادة على الصيام، تحتفل بهذا اليوم احتفالاً لم يرد، والعبادة المشروعة هي الصيام، زادوا عليه احتفالات أخرى، كما يفعل كثير من الناس في أن يزيدوا على العبادة التي شرعها الله ﷻ، وهذا كله من جنس البدع، وذلك أن الله ﷻ إذا شرع لنا أمرًا لا يجوز لنا أن نزيد عليه ولا ننقص منه إلا أن يأذن لنا الشرع، فليس لنا أن نخصص أيامًا باحتفالات بطريقة معينة، فمثل ما وقع فيه المشركون من زيادة على ما شرعه الله من صيام عاشوراء الذي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٤٣)، ومسلم (١١٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

صامه موسى عليه السلام، ويظهر أن قريشًا كانت تفعل ذلك من عند نفسها، هل كان قد تسرب إليهم معرفة فضل عاشوراء من اليهود من أهل الكتاب، أم أنهم كانوا يعظمون لأجل أمر آخر؟! الله أعلم، لكن الذي يظهر أن الرسول ﷺ سأل لماذا تعظم يهود عاشوراء، فدل ذلك على أنه لم يكن عند قريش علم بسبب تعظيمه، إنما شيء صنعوه من عند أنفسهم، فالزيادة في العبادة على ما شرع الله ﷻ نوع من البدعة، فهي الطريقة المخترعة التي تشبه الطريقة الشرعية ويكون لها أصل، لكن يقصد صاحبها مزيد التقرب إلى الله بما ابتدعه من الدين، فالبدع سواء كانت أصلية حقيقية أو إضافية، أصلية ليس لهذه البدعة أصل، أو إضافية لها أصل، لكن زادوا فيه، كما يفعل كثير من الناس مثلاً في ليلة النصف من شعبان، فليلة النصف من شعبان ثبت لها فضل، والأحاديث في فضلها كثيرة، لا تقل عن رتبة الحسن إن شاء الله، ومن أهل العلم من صححها في فضل ليلة النصف من شعبان[1]، لكن هذا لا يقتضي أن يكون هناك صلاة جماعة مثلاً في ليلة

---

(١) ليلة النصف من شعبان، والأحاديث الواردة فيها جاءت عن جمع من الصحابة بألفاظ متقاربة، منها: حديث عائشة رضي الله عنها. أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْزِلُ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَغْفِرُ لِأَكْثَرَ مِنْ عَدَدِ شَعَرِ غَنَمِ كَلْبٍ**».

أخرجه الترمذي (٧٣٩)، وابن ماجه (١٣٨٩)، والإمام أحمد في المسند (٦/ ٢٣٨)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٠٨)، وابن راهويه في مسنده (٢/ ٣٢٧، ٣/ ٩٧٩)، وعبد بن حميد في مسنده (ص٤٣٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٧٩).

وقال الترمذي عقب تخريجه: (حديث عائشة رضي الله عنها لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث الحجاج، وسمعت محمدًا -يعني البخاري- يضعف هذا الحديث، وقال يحيى بن أبي كثير: لم يسمع من عروة، والحجاج بن أرطأة لم يسمع من يحيى بن أبي كثير) =

النصف من شعبان تسمى صلاة ليلة النصف من شعبان، ولا دعاء معين يحفظه الناس يقال هذا دعاء ليلة النصف من شعبان، ولا صلاة الرغائب التي ابتدعها الصوفية أيضًا في ليلة النصف من شعبان بكيفية معينة، يقرءون في الركعة الأولى كذا وفي الثانية كذا، أو يصلون عدد ركعات كذا، فهذا كله زيادة في العبادة تخرجها إلى حيز البدعة، وكثير من الناس يخترع أعيادًا ويزيد في تعظيم الأيام التي شُرع تعظيمها على ما شرع الله ﷻ، فمثلاً: قد شرع النبي ﷺ صيام يوم الاثنين؛ لأنه يوم مولده ﷺ، كان يصومه، وقال: «**قال: وسُئِل عنْ صوْمِ يوْمِ الِاثْنيْنِ؟ قال: ذاك يوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ، ويوْمٌ بُعِثْتُ - أوْ أُنْزِل عليّ فِيهِ**»[1]، وأخبر ﷺ أنه يوم ترفع فيه الأعمال إلى الله فيحب أن يرفع عمله وهو صائم[2]، فجمع جملة من الفضائل ليوم الاثنين، فشرع

= وانظر كلام الحافظ ابن رجب عليه في لطائف المعارف (ص١٥٢). وفي الباب من حديث أبي بكر، وعلي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأبي موسى الأشعري، وكثير ابن مرة الحضرمي، وأبي ثعلبة ﷺ أجمعين.

(١) أخرجه مسلم (١١٦٢) من حديث أبي قتادة الأنصاري ﷺ.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (٣٦/ ٨٥) «**وَلَمْ يَكُنْ يَصُومُ مِنْ شَهْرٍ مِنَ الشُّهُورِ مَا يَصُومُ مِنْ شَعْبَانَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تَصُومُ لَا تَكَادُ أَنْ تُفْطِرَ، وَتُفْطِرَ حَتَّى لَا تَكَادَ أَنْ تَصُومَ إِلَّا يَوْمَيْنِ إِنْ دَخَلَا فِي صِيَامِكَ وَإِلَّا صُمْتَهُمَا قَالَ: «أَيُّ يَوْمَيْنِ؟» قَالَ: قُلْتُ: يَوْمُ الِاثْنَيْنِ، وَيَوْمُ الْخَمِيسِ. قَالَ: ذَانِكَ يَوْمَانِ تُعْرَضُ فِيهِمَا الْأَعْمَالُ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ**». و أخرجه أبو نعيم في الحلية(٩/ ١٨)، والضياء في المختارة (١٣٥٦، ١٣١٩، ١٣٢٠، ١٣٥٨)، والبزار في مسنده (٢٦١٧) والنسائي (٤/ ٢٠١)، وابن عدي في الكامل (٢/ ٩١٥)، وعبد الرزاق (٧٩١٧)، وابن أبي شيبة (٣/ ١٠٣)، والدارمي في الرد على الجهمية (ص ٢٩)، والبغوي في (٤٨، ٤٩)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٧٧١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٨٢١).

تعظيمه بالصيام، لا زيادة على ذلك، لا نعظمه بأكثر من ذلك، كأن نعقد مثلاً احتفالاً كل يوم اثنين، نعلق الزينات، طبعًا هذا أمر يشق، فنريد أن نبين كيف انتقل إلى أمر آخر، نعلق الزينات، ونسقي المشروبات، ونطعم الطعام، ونعمل احتفالاً كل يوم اثنين، فوجدوا أن ذلك لا يحتملونه، فنقلوا هذا إلى يوم الثاني عشر من ربيع الأول، فقالوا: نفعل ذلك مرة في السنة، وتركوا يوم الاثنين، وجعلوا التعظيم ليوم المولد المشهور عند المصريين وغيرهم، ولكن المصريين أكثر بكثير، فكثير جدًا من الشعوب الإسلامية لاتعرف يوم الثاني عشر من ربيع الأول، لكن هؤلاء جعلوا يوم الثاني عشر من ربيع الأول يوم عيد، سواء كان يوم اثنين، أو ثلاثاء، أو أربعاء، لابد أن يأكلوا فيه لحومًا أو طيورًا، ولابد وأن يكون موسمًا يوزعون فيه الطعام والشراب على الناس، وتعقد فيه الاحتفالات، ويُتكلم فيه عن المولد، ويتكلم فيه عن فضل النبي ﷺ، ويُجعل يوم عيد، كل هذا من البدع.

بل حقيقة نقل الاحتفال بالمولد من يوم الاثنين إلى يوم الثاني عشر من ربيع الأول بدعة حقيقية، ليست بدعة إضافية؛ أما البدعة الإضافية هي أن يُجعل يوم الاثنين يوم احتفال بأكل وشرب وتوسعة ونحو ذلك، إنما الذي شرع هو الصيام، فمن يحتفل بالمولد كل أسبوع بالصيام فاحتفاله مشروع، (يحتفل) يعني: يهتم بيوم الاثنين أكثر من غيره؛ أما أن يسقى شربات مثلاً كل يوم اثنين، أن يطعم الطعام، لازم كل يوم اثنين يأكلون لحمًا أو غير ذلك مما لم يتعودوا عليه فهذا زيادة في العبادة؛ أما أن ينقل الاحتفال إلى يوم آخر يجعله سنويًا بدلاً من أن يكون أسبوعيًا أو شهريًا فهذا احتفال بدعي،

وهي طريقة مخترعة في الدين.

وكليلة الإسراء والمعراج، فإنها ليلة فاضلة، ليلة أسري برسول الله ﷺ ولم يرد دليل قط على أنها تكرر كل سنة أو كل شهر أو كل أسبوع، إنما أسري برسول الله ﷺ في ليلة فاضلة، لكن هل ذكراها في كل سنة فاضل كذلك، كليلة القدر مثلاً، ليلة القدر هي ليلة من ليالي العشر الأواخر من رمضان لها فضل عظيم كل عام، ليلة أنزل القرآن فيها وفي كل سنة التمسها النبي ﷺ، فدل ذلك على أن ليلة القدر مستمر فضلها في كل سنة ليلة قدر، بخلاف أن نخترع ليلة الإسراء والمعراج من كل عام.

البعض قد يقول: أنتم لا تحبون الرسول، نعوذ بالله؛ لأنكم لا تحتفلون بالإسراء والمعراج، لا تعظمون ذكرى الإسراء والمعراج.

هذا كلام باطل، بالإضافة إلى أنه لا تلازم بين هذه الاحتفالات البدعية التي هي زيادة في الحقيقة في العبادات وفي الاحتفالات والتعظيم، كما كانت قريش تعظم عاشوراء بأشياء غير العبادات المشروعة، فكان هذا الأمر زيادة، فكذلك هذا الذي احتفلوا به من تعظيم ليالي معينة، لم يرد استمرار تعظيمها، ولم يرد فضل معين لها متكرر كل سنة، كما ذكرنا بالإضافة إلى أنه لم يثبت بإسناد صحيح أن ليلة السابع والعشرين من رجب هي ليلة الإسراء والمعراج، ولم يرد حديث ثابت في ذلك، وإن كان هذا هو المشهور، ولكن أقوال: هناك ليلة السابع والعشرين من رجب، وهناك قول بأنها كانت في شهر ربيع الأول، وهناك أقوال غير ذلك، وليس هناك على واحد منها دليل صحيح يُعتمد عليه.

فهذا في الحقيقة زيادة في العبادة، وكذا هناك جمل من البدع في شهر رجب يفعلها كثير من أهل البدع، زيادة في العبادات، نعم شهر رجب شرع تعظيمه كشهر حرام، نعظمه فلا نسفك فيه دمًا حرامًا، ونحذر على أنفسنا من أن نظلم فيه أنفسنا، وغير ذلك من أنواع العبادات المخترعة ليس مشروعًا، غير ذلك من العبادات التي يخترعها الناس كما ذكرنا، ويصلون أيضًا صلاة الغائب وهذه يجعلونها مرات كثيرة، وكذلك يحتفلون بأول رجب بطريقة معينة، كل هذا زيادة في العبادة، لا يشرع لنا أن نزيد في العبادات ما لم يرد به كتاب ولا سنة، ولم يفعله الصحابة ﷺ، كما أن من زاد ركعة خامسة في صلاة الظهر مثلاً أو رابعة في المغرب، ويقول: أنا أريد الخير، الصلاة خير، وأنا أريد أن أزيد، نقول: ما حكم صلاتك؟ صلاتك باطلة، مع أنك إنما تريد الخير، ليس هذا هو الخير، الاجتماع بطريقة معينة على أذكار أو على عبادات معينة لم يرد بها دليل، ولم يرد فيها ترغيب، فهذا كله من الزيادة في العبادة التي تدخل في حيز البدعة، كما في الحديث: «**كُنّا نجْلِسُ على بابِ عبد اللّهِ بْنِ مسْعُودٍ ﷺ، قبْل صلاةِ الْغداةِ، فإذا خرج، مشيْنا معهُ إِلى الْمسْجِدِ، فجاءنا أبُو مُوسى الْأشْعرِيُّ ﷺ فقال: أخرج إِليْكُمْ أبُو عبد الرّحْمنِ قُلْنا: لا، بعْدُ. فجلس معنا حتّى خرج، فلمّا خرج، قُمْنا إِليْهِ جمِيعًا، فقال لهُ أبُو مُوسى: يا أبا عبد الرّحْمنِ إِنِّي رأيْتُ فِي الْمسْجِدِ آنِفًا أمْرًا أنْكرْتُهُ ولمْ أر - والْحمْدُ لِلّهِ - إِلّا خيْرًا. قال: فما هُو؟ فقال: إِنْ عِشْت فستراهُ. قال: رأيْتُ فِي الْمسْجِدِ قوْمًا حِلقًا جُلُوسًا ينْتظِرُون الصّلاة فِي كُلِّ حلْقةٍ رجُلٌ، وفِي أيْدِيهِمْ حصًا، فيقُولُ: كبِّرُوا مِائةً، فيُكبِّرُون مِائةً، فيقُولُ: هلِّلُوا مِائةً، فيُهلِّلُون مِائةً، ويقُولُ: سبِّحُوا مِائةً، فيُسبِّحُون مِائةً، قال: فماذا**

قُلْت لهُمْ؟ قال: ما قُلْتُ لهُمْ شيْئًا انْتِظار رأْيِك أوِ انْتظار أمْرِك. قال: أفلا أمرْتهُمْ أنْ يعُدُّوا سيِّئاتِهِمْ، وضمِنْت لهُمْ أنْ لا يضِيع مِنْ حسناتِهِمْ، ثُمّ مضى ومضيْنا معهُ حتّى أتى حلْقةً مِنْ تِلْك الْحِلقِ، فوقف عليْهِمْ، فقال: ما هذا الّذِي أراكُمْ تصْنعُون؟ قالُوا: يا أبا عبد الرّحْمنِ حصًا نعُدُّ بِهِ التّكْبِير والتّهْلِيل والتّسْبِيح. قال: فعُدُّوا سيِّئاتِكُمْ، فأنا ضامِنٌ أنْ لا يضِيع مِنْ حسناتِكُمْ شيْءٌ ويْحكُمْ يا أُمّة مُحمّدٍ، ما أسْرع هلكتكُمْ هؤُلاءِ صحابةُ نبِيِّكُمْ ﷺ مُتوافِرُون، وهذِهِ ثِيابُهُ لمْ تبْل، وآنِيتُهُ لمْ تُكْسرْ، والّذِي نفْسِي بِيدِهِ، إِنّكُمْ لعلى مِلّةٍ هِي أهْدى مِنْ مِلّةِ مُحمّدٍ ﷺ أوْ مُفْتتِحُو بابِ ضلالةٍ. قالُوا: واللّهِ يا أبا عبد الرّحْمنِ، ما أردْنا إِلّا الْخيْر. قال: وكمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخيْرِ لنْ يُصِيبهُ، إِنّ رسُول اللّهِ ﷺ حدّثنا أنّ قوْمًا يقْرءُون الْقُرْآن لا يُجاوِزُ تراقِيهُمْ، وايْمُ اللّهِ ما أدْرِي لعلّ أكْثرهُمْ مِنْكُمْ، ثُمّ تولّى عنْهُمْ. فقال عمْرُو بْنُ سلمة: رأيْنا عامّة أُولئِك الْحِلقِ يُطاعِنُونا يوْم النّهْروانِ مع الْخوارِجِ»[1].

حثهم على اتباع أصحاب رسول الله ﷺ أبر هذه الأمة قلوبًا وأكثرها علمًا وأقلها تكلفًا، فلماذا قال لهم ذلك؟ لأنهم ابتدعوا كيفية معينة، رجل على رأسهم، بين أيديهم حصى، يمتثلون أمره، ولم يشرع ذلك، إنما شرع أن نذكر الله ﷻ كل منا بما تيسر له، وليس بهذه الطريقة المبتدعة.

ثم اخترعت الحضرات بعد ذلك، رجل ينشد والباقون يستمعون ويدندنون، ثم يهزون، ثم بعد ذلك يقومون فيرقصون، ثم يسقطون على الأرض، ويقولون: هذه حضرة، يقولون: حضرات الذكر، حلق الذكر،

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٢٠٤)، وبحشل في تاريخ واسط (ص١٩٨، ١٩٩).

وليست كذلك، ليست هذه حلق الذكر المشروع، إنما حلق الذكر المشروع ما كان من طلب العلم، ما كان من مجالس يُذكر فيها الله ﷻ كما كان يفعل الصحابة ﭫ، نعم يمكن أن نجلس نسبح كما نجلس بعد صلاة الفجر، الناس في المسجد يجلسون، ولو جلسوا حلقة وكل منهم يذكر الله، وربما تناقشوا في العلم، فكل ذلك من ذكر الله ﷻ، وهذه حلق الذكر المأمور بها، وليس البدع المنكرة التي تعود كثير من الناس عليها، وظنوا أنهم يريدون الخير، وتجد هذه المسألة في قضايا العبادات، خصوصًا عند كثير من الناس محاولات لهدم حواجز التفرقة بين السنة والبدعة، ويحاولون تحسين البدع للناس، ويقولون بتجويزها، ويريدون أن يجعلوا كل ما اخترعه الناس من العبادات الباطلة التي اخترعوها لا بأس بها طالما يريد صاحبها الخير.

لذلك نقول: لابد وأن نحذر خصوصًا في باب العقائد والعبادات أن نزيد شيئًا على ما جاء به النبي ﷺ، وهذا باب البدع الأصلي؛ لأن الأصل في العبادات والعقائد التوقيف، لا نتعبد لله إلا بما شرع؛ وأما المعاملات فالأصل فيها الإباحة، وإنما تدخل البدع فيها من باب التأصيل والإلزام؛ أن يجعل معاملات معينة كأنها نصوص شرعية، أو يضع قواعد معينة لمعاملات يلتزم بها الناس كأنها النصوص الشرعية، فهذا هو الخطر في باب المعاملات: كـ(المكوس) المسماة في زماننا بـ(الضرائب) و(الجمارك)؛ ولذلك لا تجد أحدًا من الناس يسأل مثلاً: ما حكم قطع الطريق؟ لا أحد يسأل عن ذلك، ولايمكن أن يأتي سؤال كهذا، أو هل يجوز التهرب من

قطاع الطرق؟! لا أحد يسأل في ذلك، ولكن يسألون: هل يجوز العمل في الجمارك؟ هل يجوز التهرب من الضرائب؟ لماذا؟ لأنها جعلت شريعة كأنها أمر لازم للناس، كما ألزمهم الشرع بالزكاة الواجبة والنفقات الواجبة، فجعلت كشريعة ملزمة، فمن هنا تدخل البدع في المعاملات، لكن عمومًا الأصل في البدع أبواب العبادات بالزيادة فيها عما شرع الله ﷻ، وبأنواع سوف تأتي في المسائل الآتية أو في العقائد التي لا تعرف إلا من خلال النصوص، فمن يخترع عقيدة دائمًا سوف يكون مناقضًا لما جاء به النبي ﷺ؛ كبدع نفي الأسماء والصفات، بدع علم الكلام، بدع الفلسفة، بدع نفي القدر، إخراج العمل عن الإيمان بدعة المرجئة، الحكم بتخليد مرتكب الكبير في النار، الحكم بتكفير مرتكب الكبير، التعبد بسب صحابة رسول الله ﷺ، سب الصحابة أصلاً كبيرة من الكبائر؛ أما أن يتعبد لله بها كالرافضة فهم شر أهل البدع - والعياذ بالله - فهذا من أعظم الأمور خطرًا.

لذلك نقول: إن باب التعبد لله بما لم يشرع الزيادة في العبادة من فعل أهل الجاهلية، والله أعلم.

قال المسألة السبعون: (**ونقْصُهُم مِنْها، كترْكِ الوُقُوفِ بِعرفاتٍ**). نعم النقص من العبادات تعبدًا كذلك، ترك أنواع من العبادات تعبدًا بزعمهم أن ذلك يكون أقرب إلى مرضاة الله؛ هو من فعل أهل الجاهلية، ماذا صنعت قريش في عرفات؟ كانت قريش في الجاهلية تسمى (الحمس)، كما في الحديث: «**كانتْ قُريْشٌ ومنْ دان دِينها يقِفُون بِالْمُزْدلِفةِ، وكانُوا يُسمّوْن الحُمْس، وكان سائِرُ العربِ يقِفُون بِعرفاتٍ، فلمّا جاء الإِسْلامُ أمر اللّهُ**

نبيّهُ ﷺ أنْ يأْتِي عرفاتٍ، ثُمّ يقِف بِها، ثُمّ يُفِيض مِنْها» فذلِك قوْلُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]»[١]، وكانوا يقولون في الحج: نحن أهل حرم الله، فلا نخرج إلى الحرم، فيوم عرفة يوم التاسع من ذي الحجة، كانوا يتركون كل الناس يقفون بعرفة، وهو إرث إبراهيم عليه السلام؛ وأما قريش ومن كان على شاكلتها من الحمس، فيقولون: نحن نقف بمزدلفة، نقف بالمشعر الحرام؛ لأن المشعر الحرام هو من الأرض الحرام من الحرم، الأرض المحرمة التي حرمها الله ﷻ يوم خلق السموات والأرض، لا يعضد شوكها، لا يقطع شوكها، لا يُصاد صيدها، لا يحل حمل السلاح فيها، مكة وما حولها من المشاعر وأجزاء من الأرض لها حدود معروفة، حدود معالم الحرم، فكانت قريش بدلاً من أن تذهب إلى عرفة يوم عرفة، عرفة ليست من الحرم، عرفة خارج الأرض الحرام، هي من المشاعر، لكن ليست من الأرض الحرام، فمزدلفة من الأرض الحرام، الفاصل بين عرفة ومزدلفة حدود الحرم، فكان الناس يقفون بعرفات يوم التاسع من ذي الحجة، وقريش تقف في مزدلفة، ورسول الله ﷺ عندما حج قبل هجرته ﷺ، كان يقف مع الناس بعرفة، حتى رآه جبير بن مطعم قال: **«أضْللْتُ بعِيرًا لِي، فذهبْتُ أطْلُبُهُ يوْم عرفة، فرأيْتُ رسُول اللهِ ﷺ واقِفًا مع النّاسِ بِعرفة، فقُلْتُ: واللهِ، إِنّ هذا لمِن الْحُمْسِ، فما شأْنُهُ هاهُنا؟ وكانتْ قُريْشٌ تُعدُّ مِن الْحُمْسِ»**[٢] يعني: يرى هذا أمرًا مستنكرًا، كيف هو من قريش ويقف مع الناس في عرفات؟!

(١) أخرجه البخاري (٤٥٢٠)، ومسلم (١١١٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم (١٢٢٠).

أنزل الله ﷻ في ذلك: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩] وقال: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨]، فالله ﷻ شرع لنا الوقوف بمزدلفة بعد عرفات وليس يوم عرفة.

فهم كان حجهم باطلاً، يتعبدون بذلك ويرون أنهم يتقربون إلى الله؛ لأنهم أهل حرم الله، فكان هذا من نقصهم في العبادة.

وأنت تجد كثيرًا من الناس يخترعون أنواعًا من الرخص في العبادات، ويرون ذلك من باب التيسير ومن باب التخفيف؛ افعل ولا حرج، قالها النبي ﷺ، لكن في مسائل معينة، ليس افعل ولا حرج معناه: أن تترك المبيت بمزدلفة، أن تترك المبيت بمنى وأنت قادر على ذلك، هناك أعذار، ولكن لايُلحق بها من ليس له عذر، وكذلك هناك حدود لهذه الأعذار، فالناس يتركون أنواعًا من العبادات مثل ما كان يفعل أهل الجاهلية، ويرون أن ذلك من تيسير الدين، نقول مثلاً: الرجال البالغون ليس لهم عذر في ترك المبيت بمزدلفة والنزول بها وذكر الله عندها الذي ذكره الله في القرآن، وليس فقط في سنة الرسول ﷺ حيث قال الله ﷻ: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وبيّن النبي ﷺ بسنته مشروعيته المبيت بمزدلفة إلى طلوع الفجر، ورخص ﷺ للنساء في أن ينصرفن بعد غياب القمر، وتجد الناس لا يبقون في مزدلفة حتى قدر صلاة المغرب والعشاء، وربما يذهبون مباشرة إلى منى بعد الإفاضة من عرفات، وبعضهم يترك المبيت بمزدلفة ويقول: يكفينا مرور، ولا ينزل يذكر الله، ثم يذهبون به إلى منى مباشرة، ويرون أن ذلك من التيسير والناس تفتي بذلك،

ورجال ونساء والكل يترخص بما ليس له رخصة، حتى النساء إنما ينفرن من مزدلفة بعد أن يغيب القمر، وهو يغيب في الثلث الأخير من الليل تقريبًا، وبعض أهل العلم يقول: بعد نصف الليل، لكن على أي الأحوال ليس بمجرد أن يمر بها يكفيه ذلك، وكثير من الناس يرى أن هذا من الشريعة ومن الدين بالتيسير والتخفيف.

المبيت بمنى أمر به النبي ﷺ، فنقول: من كان له عذر مثل عذر الرعاة والسقاة، فنعم؛ الرعاء الذين يرعون الإبل، فيكون له عذر؛ أما أن يترك الناس المبيت بمنى؛ لأجل أنهم لا يطيقون المبيت بخيام بدلاً من الفنادق، أو أنهم لابد لهم من أسِرّة بدلاً من الفرش أو نحو ذلك؛ لأنهم يريدون الانصراف سريعًا.

يرمون في غير وقت الرمي مثلاً ممن يبيح الرمي في النهار، ويقولون: هذه رخص، رخص بماذا؟ بأدلة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، لا، بل عندهم الرخص هي تتبع أقوال العلماء، يبحثون في كتب الفقه وينقبون حتى يأتوا بعالم قال بهذا القول أو إمام قال بذلك، وكثير جدًا من مسائل متعلقة بالعبادت والمعاملات يفعلون هذا الأمر، يتركون ما شرع الله ﷻ؛ لأجل أن عالمًا أفتى بذلك، وهذا في الحقيقة من النقص في العبادات التي شرعها الله سبحانه وتعالى، فضلاً عمن يترك ذلك ولا يرى على نفسه بأسًا، نسأل الله العافية، فلايجوز للمسلم إلا أن يمتثل الأدلة، يمتثل ما دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة، وليس أنه يتتبع زلات العلماء أو الرخص، وإنما يتتبع الرخص التي رخص فيها الشرع، التي رخص فيها رسول الله ﷺ، كالذي نسي أو جهل

ترتيب أعمال يوم النحر، كما في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أنّ رسُول اللّهِ ﷺ وقف فِي حجّةِ الوداعِ بِمِنًى لِلنّاسِ يسْألُونهُ، فجاءهُ رجُلٌ فقال: لمْ أشْعُرْ فحلقْتُ قبْل أنْ أذْبح؟ فقال: اذْبحْ ولا حرج، فجاء آخرُ فقال: لمْ أشْعُرْ فنحرْتُ قبْل أنْ أرْمِي؟ قال: ارْمِ ولا حرج، فما سُئِل النّبِيُّ ﷺ عنْ شيْءٍ قُدِّم ولا أُخِّر إِلّا قال: افْعلْ ولا حرج»(١)، مثلاً هذه ترتيب الأعمال يوم النحر رخص الرسول ﷺ للمرء الذي يجهل أو ينسى أن يفعل ما جهله أو نسيه بلا ترتيب، ويكون في ذلك معذورًا.

نقول: من كان كذلك معذور في شيء من الأعذار، فليأخذ بهذه الرخص التي شرعها رسول الله ﷺ ولا يترك أشياء من العبادة بزعم أن هذا تيسير، التيسير في التزام الشرع، في التزام السنة، وليس في أننا نخترع من عند أنفسنا تيسيرًا، كم من الناس تسمع منه هذه الكلمة، إذا قلت له: التزم بما أوجب الله ﷻ عليك من الصلاة في الجماعة، يقول لك: الدين يسير، بل تجد من يترك الصلاة في وقتها، فتقول له: كيف تترك الصلاة وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣]، فيقول لك: الدين يسر يا عم، أنا سأصليهم آخر النهار، وآخر النهار ربما لا يصلي، ويترك الصلاة.

المرأة المتبرجة تقول لها: الحجاب. فتقول: الدين يسر. ونسأل الله العافية.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٣، ١٢٤، ١٧٣٦، ١٧٣٧، ٦٦٦٥)، ومسلم (١٣٠٦) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

في هذه الأمثلة كثيرة جدًا يحتجون بالدين، يحتجون بأن الدين يسر، ويتركون ما أوجب الله ﷻ عليهم من أنواع العبادات وأنواع المعاملات كذلك، فيتركون ذلك بزعم أن الدين قد أتى بالتيسير، إذا قيل لهم: إن الربا حرام، قالوا: متشددون، المشايخ قد أفتوا بأن فوائد البنوك جائزة. بأي دليل؟ لا بحث عن أدلة، لا نظر في الأدلة، إنما الأمر أن يبحث الإنسان عما يريده، وهو ما يسهل عليه، ولو كان بترك الواجبات وفعل المحرمات بزعم أن الدين يسر، هذا انتشر كثيرًا في الناس بتحللهم، إذا قلت لهم: المعازف محرمة، قالوا أيضًا: متشدد، والدين قد يسر الله فيه. كأن كلمة الدين يسر أصبحت مفتاحًا عندهم لترك الواجبات وفعل المحرمات.

نعم، الدين الذي جاء به النبي ﷺ هو يسر، تعرف الدين فيكون فيه اليسر، وليس أن تستسهل وتبحث عن السهل، فيكون هذا السهل هو الدين، فليس الأمر كذلك، إنما اعرف الأمر فتعرف اليسر من خلاله.

الْمسْألةُ الْواحِدةُ والسّبْعُونَ: ترْكُهُمُ الْواجِب وَرَعًا.

الشـــرح:

قال رَحِمَهُ اللهُ: (**الْمسْألةُ الْواحِدةُ والسّبْعُون: ترْكُهُمُ الْواجِب ورعًا**)، وهذا من أعجب الأمور، فإن الإنسان يترك المكروه مثلاً ورعًا؛ أما أن تترك الواجب ورعًا فهذا من الخلل، ما الذي قصده الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بذلك؟

الذي قصده الشيخ بذلك - والله أعلى وأعلم - مثاله ما كانت قريش أيضًا تفعله وتلزم العرب به، والعرب كانوا يلتزمون بهذا الأمر من ستر العورة، والطواف بالبيت مستور العورة، وستر العورة واجب في الطواف، فكانوا يقولون: لا نطوف في ثياب عصينا فيها الله. فإذا جاء للطواف نزعوا ثيابهم، وطافوا بالبيت عراة، إلا أن يتفضل على أحد منهم قرشي فيعطيه ثوبه ويطوف فيه، فإن لم يجد طاف بالبيت عاريًا، وكانت تفعل النساء ذلك، والعياذ بالله، وربما وضعت شيئًا على فرجها فقط وتطوف، مثل النساء في شواطئ العراة، يفعلون ذلك عند بيت الله الحرام، وتطوف بهذا الشكل، وطبعًا هي تضع شيئًا يسيرًا على الفرج، فربما أثناء الطواف ظهر الفرج، فتقول مبررة فجورها وفسادها[(١)]:

الْيـوْم يـبْـدُو بـعْـضُـهُ أوْ كُـلُّـهُ فـمـا بـدا مِـنْـهُ فـلا أُحِـلُّـهُ

تقول: ليس بمهم يظهر الفرج كله أو يظهر بعضه، والذي يظهر منه أنا لا أحل لأحد أن ينظر إليه، وطبعًا الجميع ينظر إليها هكذا، والعياذ بالله،

---

(١) سبق عزوه (ص٣٨٤).

وهل لها أن تمشي عارية، وتقول: لا أحل لأحد أن ينظر إلي، وتكون بهذا قد عملت الذي عليها؟! والعياذ بالله.

فهذا خلل وخبل، وهذا الكلام نشأ من ماذا؟ من الورع، يترك الواجب عليه ورعًا، يفعلون ذلك بظنهم أنهم يتقربون إلى الله ﷻ بذلك، وهذا من أعظم الخلل في الفهم، فالواجب على الإنسان أن يترك الحرام تورعًا واجبًا، وأن يترك المكروه تورعًا مستحبًا، أو يترك ما فيه شبهة؛ أما أن يترك ما أوجبه الله ﷻ عليه فهذا من أعظم الضلال، والعياذ بالله، وهذا قد يقع فيه كثير من أهل البدع والضلال يتركون ما أوجب الله عليهم من التوحيد ومن الاتباع للسنة، ويزعمون أنهم يتورعون مثلاً عن مخالفة الأولياء.

مثلاً: بعض مشايخ السوء يحكي أنه في سنة من السنوات تخلف عن مولد السيد البدوي، فحصل له من أنواع الضرر والأذى في نفسه وماله وولده ما تاب به إلى الله ﷻ، وجعل بعد ذلك لا يتخلف قط عن المولد.

الواجب عليه ألا يذهب إلى هذا المكان، الواجب عليه ألا يشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، فإذا به يترك ما أوجبه الله عليه ثم يفعل هذا الأمر البدعي المحرم، خوفًا من أن يكون مقصرًا في حق أهل البيت وفي حق أولياء الله الصالحين. أنتم ترون ما فعله الصوفية في هذه السنة عندما ألغي مولد السيدة زينب، قاتلوا من أجل ذلك، سيارات الشرطة تحملهم بعيدًا - منعوها من أجل أنفلونزا الخنازير - وهم يأبون، لماذا؟ لأنهم خائفون أن يكونوا مقصرين في حق آل البيت، مع أن الواجب ألا يذهب الإنسان إلى هذه الأماكن، فهذا الذي فعلوه شابهوا فيه أهل الجاهلية، يجعل الذي اخترعه من العبادات الباطلة التي يلزمه أن يتركها، يجعلها شرعة لازمة

يخاف أن يتركها فيتورع، مثل ما ذكرنا من أن واحدًا - على سبيل المثال - يعين في جمع الأموال وجبايتها من الناس بغير حق، وجمع الضرائب والجمارك التي ما أنزل الله بها من سلطان، فيتورع ويشدد على الناس، ويقول: أنا لازم أعطيه نصيبه كاملاً. يقول له: خفف عني قليلاً، اتق الله ﷻ، هذه أموال أنا أحتاج إليها. فيقول له: لا، كيف أفعل ذلك؟! فيأبى حتى التخفيف، في حين الواجب عليه أن يمتنع عن أموال المسلمين، أن يخفف عن المسلمين، أن يقلل الشر عنهم، فيتورع عن ذلك، ويقول: لا، أنا ألتزم بالقانون، أنا ألتزم بالقواعد.

مثلاً: تجد قضاة يشددون جدًا في الالتزام بالقانون الوضعي الذي أوجب الله ﷻ عليهم تركه وعدم العمل به، ولو عرض أي أسباب للتخفيف مثل ما هو في زماننا عندما ذكروا أمر الدية في حادثة مشهورة، اتهم فيها رجل غني مشهور بقتل مجرمة من المجرمات، فنانة من الفنانات، وحكم عليه بالإعدام، فنادى البعض بأن شرع الدية يمكن أن يكون سببًا للتخفيف، فإذا بالبعض يقول: لن يطبق هذا المبدأ (الذي تعرف ديته اقتله)، لن يسود هذا المبدأ، شرع الدية يجرئ الناس على القتل، والعياذ بالله، شرع الدية يؤدي إلى عدم المساواة، يعني: هل أنت تتورع عما نص الله عليه في كتابه ﷻ؟!

القاضي عليه أن يحكم بتخيير أولياء القتيل المقتول عمدًا بين القصاص وبين الدية أو بين العفو، فهو بخير النظرين، بخير أحد هذه الثلاثة؛ إما أن يقتص إذا ثبت القتل عمدًا بأدلة وببينات واعتراف، وليس بمجرد احتمال ولا حتى بمجرد الأمر بالقتل لمن ليس مكرِهًا غيره، الغرض المقصود أن

مثل هذا البعض يتورع عن شيء جعله الله مشروعًا، بل واجب أن يعرض على أولياء المقتول تشريع هذا الأمر؛ التخيير بين القصاص وبين الدية وبين العفو، فيزعم ويقول: لا، هذا لا يمكن أبدًا، نحن نأخذ الحق ممن عليه الحق، ولا نفرط في ذلك، ويشدد في هذه المسألة جدًا، والعياذ بالله، من أين يشدد؟! هذا في الحقيقة اعتراض على شرع الله، حقيقته كفر بالله ﷻ؛ لأنه يتهم ما نص الله عليه في القرآن بأنه يؤدي إلى عدم المساواة، وأنه يجرئ الناس على القتل، هل الله ﷻ يشرِّع ما يُجرأ الناس على القتل؟! قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨]، فسماه الله تخفيفًا، فمن عفي له لابد أن يؤدي الدية إذا كانوا تصالحوا على ذلك أو أسقط القصاص بذلك، ثم تزعم أنت أن التشدد واجب في هذا الباب ولا يجوز هذا التشريع، فهذا - والعياذ بالله - من أعظم الافتراء والكذب، ومن أعظم الاعتراض على شرع الله سبحانه وتعالى، ترك ما أوجبه الله سبحانه وتعالى بزعم أنه يتورع عن الظلم، أو أنه يتورع عن عدم المساواة، وأنه حريص على ألا يجرئ الناس على القتل، هذه بعض الأمثلة لمن يترك الواجب تورعًا.

ومن ضمن أمثلة هذه المسألة أيضًا: أن بعض من يعتقد في الأولياء، أن الله قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، فيقول: أنا أدعو ربنا! أنا لستُ أهلاً لأن أدعو الله، لكن أنا أسأل الولي؛ لأنه واسطة بيني وبين الله، والله ﷻ أمرك أن تدعوه، أتترك الواجب متورعًا بزعم أنك تتهم نفسك بأنك لست أهلاً لأن تدعو الله، والله ﷻ أمر عباده جميعًا برهم وفاجرهم بأن يدعونه؟!.

الْمسْألةُ الثّانِيةُ والسّبْعُون والثّالِثةُ والسّبْعُون: تعبُّدُهُمْ بِتركِ أكْلِ الطّيِّباتِ مِن الرِّزْقِ، وترْكِ زِيْنةِ اللهِ الّتِي أخْرج لِعِبادِهِ: قال اللهُ ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: ٣٢].

الشـــرح:

قال ؒ: (**الْمسْألةُ الثّانِيةُ والسّبْعُون والثّالِثةُ والسّبْعُون: تعبُّدُهُمْ بِتركِ أكْلِ الطّيِّباتِ مِن الرِّزْقِ، وترْكِ زِيْنةِ اللهِ الّتِي أخْرج لِعِبادِهِ: قال اللهُ ﷻ:** ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢])، فهم قد حرموا ما منّ الله به على عباده من الزينة التي شرعها لهم من ستر العورات، كما سبق نزلت الآيات قبلها فيما كان يفعله المشركون من الطواف بالبيت عراة، قال ﷻ: ﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ﴾ [الأعراف: ٣١-٣٢]، وقال قبلها ﷻ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨]، كانت الفاحشة هي أن يطوفوا بالبيت عراة، وجدوا عليها آباءهم باختراعاتهم وضلالاتهم وزعموا أن الله أمرهم بها، يتقربون إلى الله بالفواحش بزعم أنهم يستحيون أن يطوفوا بالبيت في ثياب عصوا فيها الله، فيأتون بما هو أفظع، فيطوفون بالبيت عراة، تبدو

فروجهم وعوراتهم والعياذ بالله، ولا يستترون فحرموا ما أحله الله ﷻ، بل أمر عباده به من الزينة، اللباس من الزينة، كما امتن الله على عباده فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ﴾ [الأعراف: ٢٦-٢٧].

فاللباس من الزينة التي امتن الله بها على عباده، وترك هذا اللباس والعياذ بالله من ترك الزينة التي شرعها الله ﷻ لعباده وامتن عليهم بها، وأفظع من تركها مجردًا تركها تعبدًا، فمن تعبد بالعري كان أفظع ممن تعرى، ولا يريد بذلك إلا الشهوة، فالتعبد بالمعاصي أغلظ من فعل المعصية نفسها، يتقرب إلى الله بفعل ما يكرهه والعياذ بالله، إذا كان من جنس الطاعات، لكن على سبيل الابتداع في الدين كان مذمومًا؛ فكيف إذا كان بفعل المحرمات والمنكرات، وبتحريم الطيبات التي أحلها الله ﷻ لعباده؟! فهذا والعياذ بالله أعظم جُرمًا وأغلظ ذنبًا عند الله تعالى، وهو من صفة أهل الجاهلية؛ يتعبدون بترك الطيبات، ويتعبدون بترك الزينة التي أخرج الله لعباده، ومن ضمن ذلك الثياب الحسنة، المؤمن ليس عنده شيء من ذلك، لا يحرم الطيبات، ولا يترك الزينة التي أخرجها الله لعباده من الثياب الحسنة الطيبة، ولا يلتزم شارة معينة لا يتركها في أمر الثياب، ولا يكشف عورتها ويزعم أنه بذلك يكون أقرب بأي شبهة كانت كمن زعموا أنهم لا يطوفون بالبيت في ثياب عصوا فيها الله، أو كهؤلاء الذين يرون أن أمر الثياب وأمر العورات أمر غير مهم، أمر ستر العورات أمر لا حرج في تركه! نعوذ بالله من ذلك.

وقع أهل الكتاب أيضًا في ترك الطيبات تعبدًا كما قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧]، فذكر الله أن الرهبانية مبتدعة ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾، رهبان حبسوا أنفسهم في الصحارى والقفار في الأديرة، وزعموا أنهم تركوا الدنيا لله ﷻ، ووصف الله فعلهم بأنه بدعة، وأنه ما كتب الرهبانية عليهم، ولا شرعها لهم، لكن فرض عليهم وكتب عليهم أن يبتغوا رضوان الله ﷻ، أن يخلصوا له، وظنوا أنهم يمكنهم أن يصلوا إلى رضوانه بأي شيء ابتدعوه واخترعوه من عند أنفسهم طالما قصدوا أن يبتغوا رضوان الله، وهذا من سوء الفهم، وهو قد تسرب إلى كثير من أهل الإسلام، هذا أصح ما قيل في الآية أعني أن قول الله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾: أن الاستثناء هنا استثناء منقطع، إلا بمعنى لكن، لكن ابتغاء رضوان الله: أي لكن فرضنا عليهم ابتغاء رضوان الله، ما فرض الله عليهم ولا كتب عليهم الرهبانية، وهذا التفسير تتوافق فيه أوائل الآية مع أوسطها مع آخرها، وبعض الناس يقول: لما التزموا الرهبانية صارت فرضًا عليهم فعاقبهم الله سبحانه بأن جعلها مكتوبة عليهم ليبتغوا بها رضوان الله، والصحيح ما ذكرنا أن أمرًا لم يشرعه الله قط حتى سماه في كتابه بدعة: ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾، فالصحيح أنه لا يفرض على الناس طالما لم يكتبه الله، طالما هو بدعة فلم يكتبه الله قط.

وإنما يُتصور ذلك في زمن الوحي، أعني أنه يكون أمر لم يحرم فيحرم من أجل مسألة إنسان، لم يكن واجبًا فيُوجب من أجل مسألة إنسان، هذا يمكن

أن يقع، كما جاء عن سعْدِ بْنِ أَبِي وقّاصٍ ﵁، أنّ النّبِيّ ﷺ قال: «**إِنّ أعْظم الْمُسْلِمِين فِي الْمُسْلِمِين جُرْمًا، منْ سأل عنْ شيْءٍ لمْ يُحرّمْ على الْمُسْلِمِين، فحُرِّم عليْهِمْ مِنْ أجْلِ مسْألتِهِ**»[(١)]، وكما قال النبي ﷺ حين سألوه عن الحج في حديث أبِي هُريْرة ﵁، قال: «**خطبنا رسُولُ اللهِ ﷺ، فقال: أيُّها النّاسُ قدْ فرض اللهُ عليْكُمُ الْحجّ، فحُجُّوا، فقال رجُلٌ: أكُلّ عامٍ يا رسُول اللهِ؟ فسكت حتّى قالها ثلاثًا، فقال رسُولُ اللهِ ﷺ: «لوْ قُلْتُ: نعمْ لوجبتْ، ولما اسْتطعْتُمْ»، ثُمّ قال: ذرُونِي ما تركْتُكُمْ، فإِنّما هلك منْ كان قبْلكُمْ بِكثْرةِ سُؤالِهِمْ واخْتِلافِهِمْ على أنْبِيائِهِمْ، فإِذا أمرْتُكُمْ بِشيْءٍ فأْتُوا مِنْهُ ما اسْتطعْتُمْ، وإِذا نهيْتُكُمْ عنْ شيْءٍ فدعُوهُ**»[(٢)]، فهذا أعني في زمن الوحي يمكن أن يكون أمر من الأمور لم يفرض إلا من أجل المسألة، ولكن بعد فرضه لا يُسمى بدعة، ومعلوم أن الرهبانية إنما كانت بعد زمن المسيح ﷺ، يعني بعد زمن التشريع، ولذلك نقول: إذا وصفت بأنها بدعة، فهي لم تكتب عليهم في زمن التشريع أصلاً، وإنما حدثت بعد ذلك، فإذًا ما كتبناها عليهم: استثناء منقطع، يعني تمت الجملة، ما كتبنا عليهم الرهبانية، إلا ابتغاء رضوان الله: أي لكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله.

الله فرض عليهم أن يبتغوا رضوانه بالعمل بطاعته، لا بأن يحرموا ما أحل الله لهم، فكان هذا الأمر من سيما أهل الجاهلية من أهل الكتاب الذين حرموا ما أحل الله لهم، ووافقوا المشركين في تحريم الطيبات كذلك، فالمشركون كما ذكرنا تعبدوا لله ﷻ بترك الزينة، بترك ستر العورات وتحريم

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨)، واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧)، واللفظ له.

الطيبات من الرزق، ظنًا منهم أن ذلك يرضي الله تعالى، ومن أمره؛ فنفى الله سبحانه وتعالى هذين الأمرين: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٣٢]، الله جعلها للمؤمنين لينتفعوا بها في عمارة الأرض بعبادة الله عز وجل، وتكون خالصة لهم يوم القيامة لا يشركهم فيها غيرهم؛ لأن الكفار لا خير لهم في الآخرة، وذم الله عز وجل من حرم الطيبات من أهل الكتاب، بقوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ فدلت الآيات عن أهل الكتاب والآيات عن المشركين، دلت على تحريم التعبد بترك الطيبات، وترك الزينة التي أخبر الله عز وجل أنه أخرجها للناس، ثم جاءت السنة النبوية تؤكد على هذا المعنى، قال النبي ﷺ للنفر الذين جاءوا إلى بيوت النبي ﷺ فسألوا عن عبادته، فكأنهم تقالوها، كما في حديث أنس رضي الله عنه: «**جاء ثلاثةُ رهْطٍ إلى بُيُوتِ أزْواجِ النّبِيِّ ﷺ، يسْألُون عنْ عِبادةِ النّبِيِّ ﷺ، فلمّا أُخْبِرُوا كأنّهُمْ تقالُّوها، فقالُوا: وأيْن نحْنُ مِن النّبِيِّ ﷺ؟ قدْ غُفِر لهُ ما تقدّم مِنْ ذنْبِهِ وما تأخّر، قال أحدُهُمْ: أمّا أنا فإِنِّي أُصلِّي اللّيْل أبدًا، وقال آخرُ: أنا أصُومُ الدّهْر ولا أُفْطِرُ، وقال آخرُ: أنا أعْتزِلُ النِّساء فلا أتزوّجُ أبدًا، فجاء رسُولُ اللّهِ ﷺ إِليْهِمْ، فقال: أنْتُمُ الّذِين قُلْتُمْ كذا وكذا، أما واللّهِ إِنِّي لأخْشاكُمْ لِلّهِ وأتْقاكُمْ لهُ، لكِنِّي أصُومُ وأُفْطِرُ، وأُصلِّي وأرْقُدُ، وأتزوّجُ النِّساء، فمنْ رغِب عنْ سُنّتِي فليْس مِنِّي**»(١) سألوا عن عبادة النبي ﷺ فرأوا أنها قليلة على خلاف ما كانوا يظنون، كانوا يظنون أنه لا ينام الليل قط، أنه لا يفطر قط، فلما علموا أن الرسول ﷺ على غير ذلك تقالوا العبادة، قالوا: هذه عبادة قليلة، فكان جواب وساوسهم في ذلك الوقت

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

الذي أزالها النبي ﷺ بعد ذلك أن الله ﷻ قد غفر لنبيه ﷺ ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ أي فلا يحتاج إلى تلك العبادات، فألزموا أنفسهم بزيادة عما يفعله النبي ﷺ «**قال أحدُهُمْ: أمّا أنا فإِنِّي أُصلِّي اللّيْل أبدًا، وقال آخرُ: أنا أصُومُ الدّهْر ولا أُفْطِرُ، وقال آخرُ: أنا أعْتزِلُ النِّساء فلا أتزوّجُ أبدًا**»، فلما بلغ النبي ﷺ أمرهم قال ﷺ: «**أما واللّهِ إِنِّي لأخْشاكُمْ لِلّهِ وأتْقاكُمْ لهُ، لكِنِّي أصُومُ وأُفْطِرُ، وأُصلِّي وأرْقُدُ، وأتزوّجُ النِّساء، فمنْ رغِب عنْ سُنّتِي فليْس مِنِّي**»، وهذا من أعظم التشديد في الرغبة عن طريقة النبي ﷺ، «**فليْس مِنِّي**»: ليس على منهجي وطريقتي، وهذا تشديد ربما يُفهم منه أنه يؤول إلى ما هو خروج عن الدين بعد ذلك إذا ظلت البدعة مع صاحبها تتجارى به حتى يحلل ما أجمع المسلمون على تحريمه أو يحرم ما أجمع المسلمون على حله أو علم أن الله أنزل حله في الكتاب، فكان هدي النبي ﷺ مخالفًا لمن حرم الطيبات أو تعبد بترك الطيبات أو تعبد بترك الزينة التي أخرج الله لعباده كما ذكرنا من الثياب الحسنة التي تستر العورات، وقد سمى الله ﷻ الثياب في كتابه زينة فقال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١]، على أحد وجهي التفسير أن الزينة هي الثياب، وعلى القول الآخر: أنها الوجه والكفين، لكن الثياب من الزينة التي أخرجها الله ﷻ لعباده.

المقصود: أن أهل الكتاب والمشركين تعبدوا بترك الطيبات، وبترك الزينة، ووجد في المسلمين من يتشبه بهم في ذلك، وخصوصًا في الطرق الصوفية، فصار تركهم لأنواع من الثياب والتزامهم بخرقة مِن الصوف يلتزمونها شعارًا لهم حتى صار اسمهم صوفية على أصح الأقوال في النسبة أنهم ينتسبون إلى لبس الصوف، اختيارًا للخشن من الثياب، وقد لبس

النبي ﷺ أنواعًا من الثياب، من القطن والكتان والصوف والوبر، وغير ذلك.. ولم يلتزم ﷺ نوعًا واحدًا من الثياب حتى يصير شعارًا له ﷺ، ولأصحابه رضي الله عنهم.

فلذلك نقول: إن ترك الثياب الحسنة لاختيار الخشن فقط، هو نوع من التشبه بمن سبق من أهل الجاهلية، وكذلك التعبد بترك الطيبات من الرزق، فحرموا على أنفسهم أنواعًا من الأطعمة والأشربة أو تعبدوا بتركها دون تحريم، لكن منعوا أنفسهم منها، ووجد فيهم من يصوم ولا يفطر، ويوجد فيهم من يقوم ولا ينام، وتسرب شيء من ذلك إلى كتب التهذيب وإلى كتب المواعظ، حتى تجد في أحوال بعض من تنقل أخبارهم أن فلانًا صلى الفجر بوضوء العشاء كذا عامًا عشرين عامًا أو نحو ذلك.. وهذا خلاف هدي النبي ﷺ الذي يقول: «**وأُصلِّي وأرْقُدُ**»، وأما فلان فصام سنين متتابعة لا يفطر إلا أيام العيدين، ووجد في بعض المذاهب أن ذلك مشروع ومستحب طالما أفطر أيام الأعياد، وهذا في الحقيقة ليس بمشروع، وكما ذكرنا وجد من يمتنع عن بعض أنواع من الثياب تقربًا إلى الله؛ فلا يلبس الثياب الناعمة، ولابد أن يختار الخشن، والأمر ليس كذلك، فالأمر كما وصف الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾؛ فكيف بعد ذلك يفعل المؤمن شيئًا من ذلك؟!

هذه من البدع والتقرب إلى الله بذلك من الضلال. نسأل الله العافية.

فَهْرَس المَوْضُوعَات

تم بحمد الله الجزء الأول، ويليه الجزء الثاني ويبدأ بالمسألة الرابعة والسبعون

شَرْحُ مَسَائِلِ الْجَاهِلِيَّةِ

الَّتِي خَالَفَ فِيهَا رسُولُ اللَّهِ ﷺ أهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ

لِشَيْخِ الْإِسْلامِ

مُحمّدِ بْنِ عبد الوهّابِ بْنِ سُليْمان بْنِ عليٍّ آل مُشرّفٍ التّمِيْمِيِّ

أجْزل اللَّهُ لَهُ الْمثُوبة وَالْمغْفِرة

الشّرْحُ لِفضِيلةِ الشّيْخِ الدُّكْتُورِ

ياسِرِ بْنِ حُسيْنِ بْنِ محْمُودٍ بُرْهامِي

غفر اللَّهُ لَهُ ولِوالِديْهِ وَلأهْلِ بيْتِهِ

تحْقِيْقُ وعِنايةُ

عادِلِ بْنِ مُحمّدٍ مُرْسِي رِفاعِي

غفر اللَّهُ لَهُ ولِوالِديْهِ ولأهْلِ بيْتِهِ ولِمشايِخِهِ

الجزء الثاني

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الْمسْألةُ الرّابعةُ والسّبْعُون: دعْوتُهُمْ النّاس إِلَى الضّلالِ بِغيْرِ عِلْمٍ؛ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام: ١١٩].

الْمسْألةُ الْخامِسةُ والسّبْعُون: دعْوتُهُمْ إِيّاهُمْ إِلَى الكُفْرِ، مَعَ العِلْمِ ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

الشــــرح:

فهذان النوعان: دعوة الناس إلى الضلال بغير علم، وهذه أكثر في النصارى الضالين؛ وأما اليهود فدعوتهم: يدعون الناس إلى الكفر وهم يعلمون: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]. فتجد في أهل الكتاب من يدعو إلى الضلال وإلى الكفر والشرك، وهو يظن نفسه على الهدى، وكما ذكرنا «**الْمغْضُوبُ عليْهِمُ: الْيهُودُ، والضّالُّون: النّصارى**»(١)، كما قال رسول الله ﷺ.

(١) سبق تخريجه (١/ ١٥٥).

فالدعوة إلى الضلال والدعوة إلى الكفر بعلم وبغير علم صفة أهل الكتاب من أهل الجاهلية، والمسلمون لابد وأن يحذروا على أنفسهم من ذلك، فلابد أن يكون من يدعو الناس يدعوهم إلى الحق، ولابد وأن يكون ذلك بعلم، ولا يدعو بجهل أبدًا، ولا يدعو إلى ما لا يعلم، بل يدعو بعلم إلى الحق، يدعو إلى الحق وهو يعلم: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

فلابد في الدعوة أن تكون على بينات، لا يجوز أن تكون دعوة إلى مجهول، إلى باطل، إلى ضلال، نعوذ بالله من ذلك، وكثير من الناس ممن ينتسب إلى الإسلام فيه شبه من اليهود وشبه من النصارى، من فسد من علمائنا فهو أشبه باليهود، ومن فسد من عبادنا فهو أشبه بالنصارى، على حسب درجة المخالفة لشرع الله ﷻ، فكان من فسد من علماء المسلمين، ممن يدعو الناس إلى باطل، وهو يعلم، وهذا أيضًا واقع في رؤوس الضلال من البدع المكفرة - والعياذ بالله - من الزنادقة والمنافقين، الذين يأبون دين الله ﷻ ويرفضون الإسلام، ويدعون الناس إلى الكفر، وهم يعلمون حقيقة الأمر، من أمثال: الفلاسفة، وغلاة الرافضة، والحلولية والاتحادية، فهذه الفرق - والعياذ بالله - الخارجة من الملة، الذين يدعون الناس إلى أنواع من الكفر، وهم يعلمون حقيقة دعوتهم، أشبه اليهود المغضوب عليهم.

وأما من كان من العباد الجهال المبتدعين السائرين في طريق التقليد الأعمى، الذي قد يصل إلى الشرك، والعياذ بالله، فهو من الذين يدعون الناس إلى الضلال بغير علم، هؤلاء الضالون الذين يدعون إلى أنواع

الضلال بغير علم، فلابد وأن يكون الإنسان في طريقه إلى الله على علم وعلى عمل؛ على علم يدرك به الحق من الباطل، والسنة من البدعة، والفساد من الصلاح، لابد وأن يكون على علم، ثم لابد أن يكون عاملاً بعلمه داعيًا له، داعيًا إلى الله ﷻ على بصيرة، وليس مجرد إنسان منقاد يسير في الباطل، أو أنه يعلم الحق ولكن يدعو إلى خلافه ويعمل بخلافه، لابد وأن يكون على بينة من أمره يدعو إلى الحق ويلتزم به كذلك، وليس أنه يدعو إلى ضلال بغير علم، أو أنه يضل بغير علم، أو أنه يعلم الحق ثم يعرض عنه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: ٢٢].

فكلا الصفتين مذموم؛ الدعوة إلى الضلال بغير علم، وكذلك الدعوة إلى الضلال والكفر وهو يعلم، فكل ذلك مذموم، على حسب درجة المشابهة يكون حكم الإنسان ممن ينتسب إلى أهل الإسلام، فإذا شابههم في الدعوة إلى كفر يظن نفسه على الحق، وقد قامت عليه الحجة ببلوغ الأدلة القطعية، فهذا قد أشبه النصارى شبهًا تامًا، وصار من الضالين؛ وأما من كان داعيًا إلى الكفر، وهو يعلم بطلان ما هو عليه ويعتقد ذلك، ولكنه يدعو إلى الكفر رغبة في الدنيا، فهذا كذلك حكمه حكم اليهود المغضوب عليهم؛ أما أهل الصراط المستقيم فهم الذين يلتزمون بالحق على بصيرة، يعلمون الحق ويشهدون به ويعملون به ويدعون إليه ويدعون به، هذا هو الواجب على كل مسلم، أن يسير في حياته على بينة: ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

الْمسْألةُ السّادِسةُ والسّبْعُون: الْمكْرُ الكُبّارُ، كفِعْلِ قوْمِ نُوحٍ؛ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴿٢٢﴾﴾ [نوح: ٢٢].

الشــــرح:

قال عن نوح عليه السلام يصف به قومه، والمكر الكبار: هو المكر الكبير، فهذا هو تخطيط السوء للنبي عليه السلام وأتباعه، ولم يزل أهل الكفر والنفاق وأهل البدع يمكرون بالليل والنهار للصد عن سبيل الله ﷻ، وصد الناس عن أهل الحق؛ أما اليهود والنصارى فقد ذكر الله ﷻ مكر اليهود بعيسى ﷺ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، مكروا به وأرادوا صلبه وقتله؛ فرفعه الله ﷻ ونجاه من شرهم، واضطهدوا أتباعه وأعوانه، وكان من مكرهم كذلك ما أدخلوا بعضهم في دين النصارى حيلة ليفسده، كما فعل بولس المسمى ببولس الرسول، الذي دخل في دين النصرانية ليفسده، وقد فعل، أفسده على كثير ممن ينتسب إلى المسيح، ويظن أنه يتبعه، مع أن المسيح عليه السلام لم يأت بما قال هذا الرجل، كل هذا من المكر السيئ، وكذلك مكرهم حين صرفوا الناس عن دعوة التوحيد، وعظموا التثليث وعظموا الصليب، وأوجبوا هذا الاعتقاد على الناس في مجامعهم التي اجتمعوا فيها، وأنكروا ما خالف هذه العقيدة الفاسدة، واضطهدوا أهلها، وأحرقوا من الأناجيل التي تتضمن خلاف عقيدتهم عشرات، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والمشركون مكروا برسول الله ﷺ؛ ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، والله سبحانه وتعالى خير الماكرين نجاه مِن شرهم، وجعل مكرهم بأنفسهم: ﴿وَمَا يَمۡكُرُونَ

﴿إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣]. وكذلك لا يزال في كل جيل وفي كل قرية أكابر المجرمين: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأنعام: ١٢٣].

فهذا دليل على أن هذا المكر الكبير من أكابر المجرمين أمر مستمر، لا يزال أهل الظلم والطغيان والكفر والعدوان يمكرون بأهل الإسلام، والمكر هو التدبير في الخفاء، وكثيرًا ما يستعمل في معنى السوء ومعنى الظلم والعدوان، وقد يستعمل في معنى التدبير بالخير؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٤]، لكن لابد من قرينة، فكان هذا المكر مستمرًا؛ ولذلك لابد أن يعلم أهل الإيمان حقيقة ما يدبره لهم الأعداء، ولابد وأن يحذروا من هذا المكر السيئ، والله ﷻ بيّن لهم عاقبة هذا المكر السيئ أنه يضمحل ويبور، وأنه يحيق بأهله، إذا أحسن المؤمنون التوكل على الله ﷻ، فكل تخطيط يعده أعداء الإسلام لصرف الناس عن هذا الدين، هم والكفار والمنافقون يعدون الخطط لصرف الناس عن هذا الدين، لابد وأن نتوكل على الله ﷻ في دفعه، ولابد وأن نأخذ أسباب المقدور عليها المتاحة للمسلمين في إبطال هذا المكر؛ مِن الردود الصحيحة بالأدلة الثابتة على شبهاتهم، مِن إظهار الحقيقة لما يقولون وما يعتقدون، وهذا أمر إذا كُشِف للناس انصرفوا عنهم، وكذلك من ثبات المؤمنين على دينهم، وعلمهم وعملهم بالدين من أعظم ما يؤدي إلى ثباتهم واضمحلال هذا المكر الذي قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠]. فنتوكل على الله ﷻ، ونثبت على ديننا، ونثبت على ما علمنا وعلى ما نعمل به وعلى ما ندعو إليه من طاعة

الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ، والحذر كل الحذر من البدع والمنكرات، التي في حقيقة الأمر هي من هذا المكر الكبار.

لو نظرنا إلى رؤوس البدع الكبرى، التي خالف أصحابها أهل السنة، لوجدنا أن من ورائها هذا المكر الكُبّار، انظر إلى أول ما وقع من الفتن في واقعة مقتل عثمان رضي الله عنه وما تبعها من الفتن بين الصحابة رضي الله عنهم، تجد من ورائها تخطيطًا يهوديًّا ومجوسيًّا، وعبد الله بن سبأ ذاك اليهودي الذي دخل في الإسلام ونافق نفاقًا ظاهرًا، حتى كان أحد المحرضين على قتل عثمان، وأحد رؤوس المنشبين للقتال بين الصحابة بعد أن أوشكوا على الاتفاق، ثم كان آخر أمره أو آخر فظائعه أن ادعى عليًّا رضي الله عنه هو الإله، وطلبه علي رضي الله عنه فما أدركه، وأدرك بعض أتباعه الذين عرفوا في التاريخ بالسبئية الذين يُؤلِّهون علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويقولون: إنه هو الله، وإنه ناسوت ولاهوت - كاعتقاد النصارى في المسيح - وأن اللاهوت حل في الناسوت، وأنه الذي يُعذِّب بالنار، نعوذ بالله، حتى حرقهم علي رضي الله عنه بالنار[(١)].

فانظر إلى هؤلاء الذين كانوا سبب أكبر انحراف عقدي عبر التاريخ، وهو

---

(١) هو عبد الله بن سبأ الذي يُنسب إليه السبئية، وهم الغلاة من الرافضة، أصله من أهل اليمن، كان يهوديًا وأظهر الإسلام وطاف بلاد المسلمين ليلفتهم عن طاعة الأئمة ويدخل بينهم الشر، وكان يقول لعلي رضي الله عنه: أنت الإله، فنفاه إلى المدائن، فلما قُتل علي رضي الله عنه زعم عبد الله بن سبأ أنه لم يمت، وأن ابن ملجم إنما قتل شيطانا تصور بصورة علي، وأن عليًا في السحاب، وأن الرعد صوته، والبرق سوطه، وأنه ينزل إلى الأرض ويملؤها عدلاً، وأتباعه حين يسمعون صوت الرعد يقولون: السلام عليك يا أمير المؤمنين!! انظر: تاريخ دمشق (٢٩/ ٣)، ووفيات الأعيان (٤/ ٣١٠)، والوافي بالوفيات (١٧/ ١٠٠)، والتعريفات (ص١٥٥).

انحراف فرقة الرافضة، كيف كان أصلهم؟ هؤلاء السبئية. كيف كان أصل هؤلاء الرافضة؟ كان أصلهم ممن يمكر بالمسلمين مكرًا كبارًا.

وكذلك إذا نظرت إلى رأس الخوارج، هذا الرجل الذي نافق، وقال للنبي ﷺ: «**اتّقِ اللّه يا مُحمّدُ**» كما في الحديث: «**بعث عليٌّ** رضي الله عنه، **إلى النّبيِّ** ﷺ **بِذُهيْبةٍ فقسمها بيْن الأرْبعةِ الأقْرعِ بْنِ حابِسٍ الحنْظلِيِّ، ثُمّ المُجاشِعِيِّ، وعُييْنة بْنِ بدْرٍ الفزارِيِّ، وزيْدٍ الطّائِيِّ، ثُمّ أحدِ بنِي نبْهان، وعلْقمة بْنِ عُلاثة العامِرِيِّ، ثُمّ أحدِ بنِي كِلابٍ، فغضِبتْ قُريْشٌ، والأنْصارُ، قالُوا: يُعْطِي صنادِيد أهْلِ نجْدٍ ويدعُنا، قال: إِنّما أتألّفُهُمْ. فأقْبل رجُلٌ غائِرُ العيْنيْنِ، مُشْرِفُ الوجْنتيْنِ، ناتِئُ الجبِينِ، كثُّ اللِّحْيةِ محْلُوقٌ، فقال: اتّقِ اللّه يا مُحمّدُ فقال: منْ يُطِعِ اللّه إذا عصيْتُ؟ أيأْمنُنِي اللّهُ على أهْلِ الأرْضِ فلا تأْمنُونِي، فسألهُ رجُلٌ قتْلهُ، - أحْسِبُهُ خالِد بْن الولِيدِ - فمنعهُ، فلمّا ولّى قال: إِنّ مِنْ ضِئْضِئِ هذا، أوْ: فِي عقِبِ هذا قوْمًا يقْرءُون القُرْآن لا يُجاوِزُ حناجِرهُمْ، يمْرُقُون مِن الدِّينِ مُرُوق السّهْمِ مِن الرّمِيّةِ، يقْتُلُون أهْل الإِسْلامِ ويدعُون أهْل الأوْثانِ، لئِنْ أنا أدْركْتُهُمْ لأقْتُلنّهُمْ قتْل عادٍ**»[١]، فهذا مكر في الحقيقة، هؤلاء المنافقون إنما دخلوا في الإسلام رغم عدم إيمانهم به، فدخلوا ليفسدوا في الأرض، والعياذ بالله.

الجهم بن صفوان[٢]، والجعد بن درهم[٣]، هذان اللذان أيضًا أخذا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٤، ٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

(٢) سبقت ترجمته (١/ ٤٠٦).

(٣) هو مؤسس مذهب التعطيل، وهو من أهل الشام كان مؤدبًا لمروان الحمار، آخر خلفاء بين أمية، قتله خالد القسري في يوم الأضحى سنة أربع وعشرين ومائة، وقال: =

شبهات التعطيل من اليهود - والعياذ بالله - الذين حاولوا إفساد عقيدة أهل الإسلام من خلال نشر فكر تعطيل الصفات، ومن خلال نشر أسوأ الاعتقادات.

فالجعد والجهم كانا ينفيان الصفات، وكانا يقولان بالجبر، ويقولان بالإرجاء الغالي، يبحثون عن أفسد العقائد، أكثرها تدميرًا للأمة، ويتبنونها مع أنها متناقضة، فانظر إلى هذا الخطر العظيم.

وكذلك بشر المريسي رأس المعتزلة(١)، ولهم أقوال فظيعة منقولة عنهم

= أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضحّ بالجعد بن درهم؛ فإنه قال: إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلّم موسى تكليمًا، ونزل فقتله، وكان من أبرز تلاميذه: الجهم بن صفوان، وبه عُرف مذهب التعطيل. انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٣٣)، والبداية والنهاية (٩/ ٣٥٠)، والكامل في التاريخ (٤/ ٤٦٦)، وشرح النونية لابن عيسى (١/ ٥٠، ٥١).

(١) هو بشر بن غياث بن أبي كريمة العدوي مولاهم البغدادي المريسي، من موالي آل زيد بن الخطاب ﷺ، كان من كبار الفقهاء، أخذ عن القاضي أبي يوسف، وروى عن حماد بن سلمة وسفيان بن عيينة، ونظر في الكلام فغلب عليه، وانسلخ من الورع والتقوى، وجرد القول بخلق القرآن ودعا إليه، حتى كان عين الجهمية في عصره وعالمهم، فمقته أهل العلم وكفره عدة، ولم يدرك جهم بن صفوان بل تلقف مقالاته من أتباعه، مات في آخر سنة ثماني عشرة ومائتين وقد قارب الثمانين، فهو بشر الشر، وبشر الحافي بشر الخير؛ كما أن أحمد بن حنبل هو أحمد السنة، وأحمد بن أبي دؤاد هو أحمد البدعة. انتهى من كلام الذهبي.
ورد عليه الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في كتابه القيم الذي كان يوصي به شيخ الإسلام ابن تيمية، والمسمى: (نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد)، وهو مطبوع، وهو حقيق بالعناية والمراجعة، وسيأتي (ص١٠٢). =

الله أعلم بها، هؤلاء الذين كانوا يخططون لإفساد عقائد المسلمين، ويحاولون بالمكر الكبار صد الناس عن سبيل الله ﷻ.

ومِن مظاهر ذلك ما وقع من الباطنية، الذين تدثروا بدثار الرافضة، وحقيقتهم الكفر بهذا الدين بالكلية، كما قال الغزالي عنهم: «**ظاهِرُهُمُ الرّفْضُ، وباطِنُهُمُ الْكُفْرُ الْمحْضُ**»(١).

فنشروا أفسد الاعتقادات، وأسسوا دولة حكمت نحو الثلاثة قرون تنشر الفساد في الأرض، المعروفة في التاريخ باسم «الدولة الفاطمية»، ونشروا مذهب الرافضة؛ لأنه أقرب المذاهب إليهم وأيسرها في نشر الخرافات والضلالات والعقائد الفاسدة(٢).

لما أزال صلاح الدين رَحِمَهُ اللَّهُ دولتهم، بعد أن مكنه الله ﷻ من أرض مصر، وألغيت هذه الخلافة المزعومة، وأعاد إلى مصر إظهار كتب الحديث والسنة ومذاهب الفقهاء الأئمة من أهل السنة - كالأئمة الأربعة - بعد أن

= انظر: تاريخ بغداد (٧/ ٥٦)، والأنساب (٥/ ٢٦٧)، والوافي بالوفيات (١٠/ ٩٤)، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ١٩٩، ٢٠٠)، والبداية والنهاية (١٠/ ٢٨١).

(١) انظر: رسائل السنة والشيعة لرشيد رضا (ص ٢٣٦)، وفضائح الباطنية (ص ١٩).

(٢) وهي الدولة التي تسمَّت باسم الفاطميين؛ نسبة لآل البيت، وأنى لهم ذلك ومؤسسها يهودي (عبد الله بن ميمون القداح) وهي دولة إسماعيلية، ومنها انبثقت الدرزية الملحدة بأمر إمامها الحاكم بأمر الله الفاطمي، وملكت في مصر حتى أباد شوكتهم الملك المجاهد صلاح الدين الأيوبي. انظر: انظر في عقائدهم ونشأتهم: أخبار ملوك بني عبيد (ص: ٩٤)، والفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة (ص ٣٥)، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة (١/ ١٢١)، وهذه مفاهيمنا لشيخنا العلامة صالح بن عبد العزيز بن محمد ابن إبراهيم آل الشيخ (ص ١٠٤).

كانت كتب الحديث - كالبخاري ومسلم وغيرهما - محرمة، ودراسة مذاهب أهل السنة ممنوعة، فعاد ذلك بفضل الله ﷻ.

وحاول هؤلاء الباطنية - وهم من المنافقين والعياذ بالله - الدخول إلى المسلمين - بعد سقوط هذه الدولة - بغزو من كثير من رجال التصوف الفلسفي، وكلهم أتوا من الغرب، موضع نشأة الدولة الباطنية المسماة بالفاطمية، فأتى إلى مصر الكثيرون مباشرة بعد سقوط الدولة، القرن الذي يلي سقوط الدولة الباطنية تجد فيه - في معظمه - وفيات رؤوس الاتحادية والحلولية؛ كابن سبعين، وابن عربي، والسهروردي، وكذلك تجد الشاذلي وتجد الدسوقي، وتجد ابن الفارض، في نفس التاريخ تقريبًا كلهم في زمن واحد بعد سقوط الدولة الباطنية، سارعوا، ومعظمهم أتى إلى مصر كمحاولة لإعادة الفكر الخبيث الباطني إلى هذه البلاد بعد أن أنقذها الله ﷻ منهم، وهذا كله من المكر والتدبير في الخفاء.

ولو نظرت إلى ما وقع في العصر الحديث من التدبير في الخفاء للعلمانية لكي تتمكن بما وقع من إزالة دولة الخلافة الإسلامية المسماة بـ «الدولة العثمانية»، وإسقاط الخلافة إلى غير رجعة إلى الآن، ولا حول ولا قوة إلا بالله، أطول فترة في التاريخ بقي المسلمون بلا خليفة حتى بالاسم منذ سقوط الخلافة العثمانية على يد كمال أتاتورك، تجد مكرًا خبيثًا وتدبيرًا فظيعًا لإسقاط التزام المسلمين بالإسلام بعد إسقاط دولتهم، أن يجعل بطلاً قوميًا يلتف حوله الترك؛ لأنه الذي طرد قوات الحلفاء من بعض البلاد التركية، وهو في الحقيقة قد اتفق معهم على أن ينسحبوا، وهم يمكنون له بعد ذلك، فجيوش الحلفاء كانت منتصرة انتصارًا تامًا، فتنسحب من أمامه

وتترك له أزمير؛ حتى يصبح بطلاً يُشبّه بخالد بن الوليد، يقال له: يا خالد الترك، جدد خالد العرب.

ثم بعد أن يلتف حوله كثير من الناس ويعجبون به، ينقلب أشد انقلاب على المسلمين، ويطعن في القرآن، ويقول: لا نؤسس دولتنا على كتاب يبحث في التين والزيتون. ويحرم الشريعة الإسلامية، ويجرمها أعظم تجريم، وإلى يومنا هذا ما زالت القوانين التي سنّها في محاربة الشريعة قائمة، من تحريم الدعوة إلى تطبيق الشريعة، وأن من دعا إليها يُعاقب بالسجن ثماني سنوات، وإذا كان ضمن جماعة سجن مدى الحياة، وقتل من أجل القبعة والعمامة أناس.

وتحريم استعمال اللغة العربية في الأذان وفي الأمور الأخرى، حتى وصل به الحال إلى تحريم تعليم الأولاد القرآن وتجريم تعليم الأولاد القرآن زيادة على ما تقرره الدولة، وهي دولة علمانية خبيثة فرض على الناس جميعًا فصل الدين عن الحياة كلها، ولابد وإلى يومنا هذا أن يُقرر علمانية الدولة، وأن من تكلم عن دعوة إلى الدين، فلابد أن يُحاكم ويفصل ويُبعد ويسجن، إلى يومنا هذا.

هناك من قضى في سجون كمال أتاتورك من الدعاة - على اختلاف أنواعهم - أكثر من خمسين عامًا؛ لأجل دعوتهم إلى عودة الناس إلى الدين، ولو كان بأي معنى من المعاني، وانتشر هذا بعد ذلك.

والمخططات والمكر الكبّار في تمرير مبادئ الغرب من خلال العلمانية هو كله من المكر والتدبير في الخفاء، في إظهار أناس في صورة أبطال

يلتف الناس حولهم، ثم بعد ذلك يكونون هم الأداة لمحاربة دين الله ﷻ.

فأهل البدع والعلمانيون وأهل النفاق دائمًا كانوا يمكرون بأهل الحق، مسيرة طويلة في الحقيقة من قوم نوح عليه السلام إلى ما شاء الله ﷻ من التخطيط الخبيث بالسوء في الخفاء لأهل الإسلام؛ لخداعهم وصرفهم عن دينهم.

علاج هذا - كما ذكرنا - بالعلم والعمل وإدراك حقائق هذا المكر، حتى لاينطلي على المسلمين؛ لأن كثيرًا ممن لا يحسن معرفة الواقع، ولم يحسن في الحقيقة معرفة الشرع؛ لأن معرفة أدلة الشرع ترشد الإنسان أن يعرف ما يدور حوله، فحتى لا يُجعل الولي عدوًّا والعدو وليًّا كما يقع من الكثيرين، فمن ثمرة هذا المكر الكبار أن يُخدع أناس منتسبون إلى الدين، حتى يكون جُلُّ عدائهم لأهل الإسلام، وحياتهم مسخرة في الهجوم على الدعاة والعلماء والناصحين للأمة، ويتركون دائمًا أعداء الإسلام من المنافقين والكافرين واليهود والنصارى، بل يرسخون للموالاة لهم بأسماء أخر، نسأل الله العافية، كل ذلك من المكر الخطير، الذي لو علم من يروج له خطورة ما يفعل، لكان عليه أن يبادر بالتوبة إلى الله، هو عليه أن يبادر بالتوبة إلى الله على أي حال، لو علم الخطر العظيم يمرره للأمة الإسلامية، لعلم أي جريمة يرتكبها بجهله بواقع الحال، كما يجهل أدلة الشرع في مسائل الاختلاف بين المسلمين وبين أعدائهم من أهل الغرب من اليهود والنصارى والملحدين أعداء الملل كلها، فهذا المكر لابد من الحذر منه بالعلم النافع والعمل الصالح والدعوة على بصيرة إلى الله ﷻ وفهم الواقع الذي يحيط بنا؛ حتى يدرك المسلمون خصال النفاق التي يتدثر بها

أعداء الدين، وقد بينها القرآن أعظم بيان، وهناك من يُغمض عينيه عنها، حتى صار النفاق لا يتكلم عنه أحد إلا من رحم الله ﷻ.

والنفاق أصلاً هو من المكر الكبار، أصل النفاق بإعلان الإسلام وإبطان الكفر، ثم بالخصال الأخرى، هو كله من المكر الكبار.

الْمسْألةُ السّابِعةُ والسّبْعُون: إنَّ أئِمّتهم: إمَّا عَالِمٌ فاجرٌ، وَإمَّا عَابدٌ جَاهلٌ، كَمَا فِي قوْلِهِ: ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [البقرة: ٧٥ - ٧٨].

الـشـــرح:

هذه الآيات الكريمة تبين ما عليه اليهود الذين خالفوا رسول الله ﷺ، فقد كان أئمة هؤلاء اليهود بين من يعرف كلام الله وعالم ثم يحرفه، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، أي: الذي هو عندهم في التوراة، ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، فهؤلاء قد عقلوا صفته، علموا صفة رسول الله ﷺ في التوراة، وعلموا أنه هو الذي بشر به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ثم حرفوا هذا الكلام بعد فهمهم وبعد علمهم وإدراكهم أنه المقصود ﷺ بهذه الإشارات، حرفوه وغيروا معانيه؛ حتى لا يدرك الناس حقيقة ما دلت عليه التوراة من التبشير برسول الله ﷺ، وكذا في الإنجيل، بل هذا الذي في الإنجيل أكثر، التحريف فيه أكثر؛ لكي يخرجوا أي نص فيه دلالة على النبي ﷺ - بشر فيه عيسى عليه السلام - عن معانيه بتحريفات واضحة، من أوضح ذلك: اسم «أحمد» الذي ورد في الأناجيل في الحقيقة، لكن غُيِّر من خلال الترجمة، فعندهم في الأناجيل

أن المسيح قال: (**لأنّهُ إنْ لمْ أنْطلِقْ لا يأْتِيكُمُ الْمُعزِّي، ولكِنْ إنْ ذهبْتُ أُرْسِلُهُ إلِيْكُمْ**)[١]، هذه الكلمة معناها (الفارقليط) باللغة اللاتينية القديمة، أو (البارقليط) التي حرفت في الترجمة العربية إلى كلمة (المعزي)، مع أن أصل معناها كثير الحمد، صيغة أفعل التفضيل من الحمد التي هي كلمة أحمد، كما نص عليه القرآن عن عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. فغيرت في حرف واحد إلى كلمة أخرى (الفارقليط) حتى تعرب إلى (المعزي)، فحملوه على روح القدس، وهكذا صنع اليهود بالنصوص، التي لا تكاد يخطئ أحد يفهمها في أن المقصود النبي ﷺ، فكانوا يفعلون ذلك، هؤلاء هم العلماء الفجار الذين قال الله فيهم: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ - أي: بما علمتموه من بشارة النبي ﷺ في التوراة - ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. يسمون التوراة فتحًا، لكنهم لا يطبقونها ولا يعملون بها، قال سبحانه وتعالى ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾، هذا النوع الأول: العالم الفاجر، وهو منتشر انتشارًا كبيرًا فيمن ينتسب إلى الإسلام، يحرف الأدلة عن مواضعها؛ نصرة للبدع ونصرة للضلالة، وكم من أناس يرفضون الآيات الواضحة الصريحة في القضايا الكبرى ويحرفونها؛ لكي تستمر البدع والضلالات من الجهمية والقدرية والجبرية والمرجئة والخوارج، يتركون الأدلة التي هي من أوضح الأمور دلالة على عقيدة أهل السنة والجماعة في المسائل المختلفة، فيحرفونها وهم يعلمون، وفي زماننا تجد

---

(١) انظر: انجيل يوحنا (١٦).

كذلك - فيما يتعلق بقضايا تطبيق شرع الله ﷻ، وعدم موالاة اليهود والنصارى - تحريفًا للأدلة حتى تخرج عن وجهها، وقد ذكرنا أمثلة كثيرة من هذا النوع، ممن ينتسب إلى العلم يخرج الأدلة عن حقيقتها في نوع من تحريف المعنى؛ لكي لا يفهم الناس المسائل الواجب عليهم أن يفهموها؛ من عدم موالاة اليهود والنصارى والكافرين، ومن إقامة شرع الله ﷻ وتحكيمه، وغير ذلك من المسائل التي فيها اختلاف بين أهل الإسلام وبين أهل الغرب، فيما يتعلق بقضايا الدين والمنهج تجد أناسًا من علماء السوء - والعياذ بالله - يحرفون الكلم عن مواضعه.

وكذلك فيما يتعلق بالخرافات والخزعبلات، المبنية على التصوف والتشيع ورد الأدلة الصحيحة، تجد هذه الفرق - والعياذ بالله - رغم أن كثيرًا من أئمتهم ورؤوسهم يعلمون صحة الأدلة، يشغبون حولها، حتى يترك الناس أوضح الأدلة، ألم تر إلى من يزعم أنه يُستحب بناء المساجد على القبور، وقد علم حديث النبي ﷺ المتفق على صحته: «**لعْنةُ اللّهِ على اليهُودِ والنّصارى، اتّخذُوا قُبُور أنْبِيائِهِمْ مساجِد. يُحذِّرُ ما صنعُوا لوْلا ذلِك أُبْرِز قبْرُهُ، غيْر أنّهُ خشِي أنّ يُتّخذ مسْجِدًا**»[1].

وقوله ﷺ: «**ألا وإِنّ منْ كان قبْلكُمْ كانُوا يتّخِذُون قُبُور أنْبِيائِهِمْ مساجِد، ألا فلا تتّخِذُوا الْقُبُور مساجِد، إِنّي أنْهاكُمْ عنْ ذلِك**»[2]، فيحرفون هذه الأدلة، ويقولون: بل هذه منسوخة. من الذي نسخها والرسول ﷺ قد قالها قبل أن يموت مباشرة؟!

---

(١) سبق تخريجه (١/ ١٧٦).

(٢) سبق تخريجه (١/ ١٧٦).

ويحتجون بالأحاديث الضعيفة والباطلة على أن الصحابة بنوا على قبور الصالحين مساجد، وهذا كذب ومنكر، لا شك في بطلانه، ومع ذلك تجدهم يحتجون على ذلك، ويذكرون الحكايات والخزعبلات؛ ليروجوا على الناس هذه البدع والضلالات، وما أكثر ما تسمع في هذه الأبواب كلها عمومًا وخصوصًا، تسمع تحريف للكلم عن مواضعه من رؤوس الضلال؛ وأما اليهود والنصارى فلا يزالون يحاولون إثارة الشبهات على المسلمين بمحاولة تحريف الآيات عن مواضعها، مع أنهم ليس لهم أن يتكلموا في القرآن، ولكن يثيرون الشبه، ويحاولون ضرب القرآن بعضه ببعض، والجهل هو الخطر العظيم، الذي يهدد المسلمين في هذه الشبهات، فهؤلاء رؤوس الفجار، علماء السوء، الذين علموا ولم ينتفعوا بعلمهم.

أما النوع الثاني - الذي ذكره - فهو مستنبط مِن الآية من قوله ﷻ: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾. ﴿أُمِّيُّونَ﴾: لا يعلمون من التوراة إلا القراءة، «أماني»: إلا قراءة، لا يفهمون منها شيئًا، ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾: لا يعرفون وجوه الدلالة من الآيات التي يقرءونها، يعظمون الكتاب لفظًا، وهم يأخذون عقيدتهم من الظنون الكاذبة، التي قالها مشايخ السوء وأئمة الضلال العلماء الفجار.

فذكر الله ﷻ أولاً الفريق الذي ذكر أنهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه، وذكر الباقين وهم الأميون الجهال، الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، تمنى بمعنى: قرأ؛ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، يعني: إلا إذا قرأ ألقى الشيطان في قراءته.

فهؤلاء لا يعلمون الكتاب إلا أماني، إلا قراءة، وأنت تجد أناسًا كثيرين يعظمون القرآن جدًا، يقرءونه كثيرًا، ولا يعرفون وجوه الدلالة ولا معاني العقيدة الصحيحة ولا العبادة الصحيحة، ولا يعلمون شيئًا مما دل عليه القرآن، يقرءون القرآن، يضعونه في المجالس، تجده يحسن القراءة وإخراج الحروف من مخارجها وتجويده على أحسن الوجوه، ثم هو يقع في الشرك ويقع في الضلال والبدع، والعياذ بالله، ويقرأ الآيات ولا يفهم منها شيئًا على الإطلاق؛ لذلك هذا النوع هو العابد الجاهل؛ لأنه يأخذ عقيدته من الظنون الكاذبة، وفي نفس الوقت يترك الفهم لكتاب الله ﷻ، ولا يعلمه إلا قراءة فقط، وأجد خطرًا عظيمًا في تحول القرآن لدى كثير من الناس إلى مجرد قراءة، والاهتمام بأنواع القراءات ووجوه القراءات المختلفة، مع الجهل التام بمعاني القرآن ودلالة القرآن على العقيدة وعلى العبادة وعلى المعاملات، تجد الناس يقرءون الأدلة بمنتهى الوضوح لمن يعقل، ولكنهم يصرون على خلاف الحق، تجد أعداء الإسلام يستغلون هذا النوع من الناس، ويلبسون به على باقي الأمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وخصوصًا أنه يظهر في صورة العابد؛ إنسان قارئ للقرآن، إنسان كثير الصلاة، وهو لا يستدل، ولا يعلمه إلا قراءة، إلا مجرد حروف يرددها ولا يفهم منها شيئًا

نجد خطرًا كبيرًا أن يتحول القرآن عندنا إلا ما صار إليه أهل الكتاب من أن يكون الكثير منا ممن لا يعلمون الكتاب إلا أماني؛ وأما العقائد فيأخذونها من الظنون؛ ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

فمثلاً: لو أن الإنسان نظر إلى قضايا مثل أن أحدًا لا يملك النفع والضر إلا الله، كم تكررت في القرآن، كم تكرر في كتاب الله ﷻ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن

دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧]، وقال ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤].

هذا الأمر تكرر مرات عديدة، ومع ذلك تجد الكثيرين ممن يحسن القراءة لا يفهم شيئًا على الإطلاق من هذه الآيات، ويظل يعتقد أن الولي الفلاني هو المسئول عن هذا الربع من العالم، والولي الآخر مسئول عن الربع الآخر، والعالم أربعة أرباع بين أربعة أولياء، وأن أهل البيت هم الذين يحرسون الكرة الأرضية، وأن مصر تحرسها أولياء الله الصالحين.

ووالله أنا منذ أيام قرأت كتابًا عجيبًا ألفه بعض هؤلاء الشيوخ، أن مصر محروسة ببركة أولياء الله الصالحين المدفونين فيها من أهل بيت رسول الله ﷺ.

محاولات لخداع الناس، وتجده ربما يتقن القراءة تمامًا ولا يعي شيئًا، ويحبذ الزيارة لهذه الأضرحة، وأن البركة في زيارتها ونحو ذلك. كم من الناس يُخدع ولا يزال يُخدع بمثل هذا الضلال - نعوذ بالله من ذلك - بسبب أنه لا يفهم ما يقرأ، نسأل الله العافية. العبادة على جهل سبب عظيم من أعظم أسباب الانحراف في الدين، والحقيقة أن الأئمة الضلال

- كما قال النبي ﷺ: «وَإِنَّما أَخَافُ عَلَى أُمّتِي الْأَئِمّة الْمُضِلِّين»[١].

يشمل هذين النوعين: العالم الفاجر، والعابد الجاهل.

والعالم الفاجر: كثير انتشاره في اليهود، وهم المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ويعرضون عنه.

والعابد الجاهل: منتشر في النصارى، الذين هم ضالون، والعياذ بالله ويوجد فيهم النوعان كما ذكرنا، فكما قال عبد الله بن المبارك رحمه الله في بيان خطر هذين النوعين مع ملوك السوء[٢]:

رأيْتُ الذُّنُوب تُمِيتُ الْقُلُوب ... وقَدْ يُورِثُ الذُّلّ إِدْمانُها
وتَرْكُ الذُّنُوبِ حياةُ الْقُلُوبِ ... وخيْرٌ لِنفْسِك عِصْيانُها
وهلْ أفْسد الدِّين إِلّا المُلُوكُ ... وأحْبارُ سُوءٍ ورُهْبانُها

نعم هذا من أعظم أسباب فساد الدين، هذان النوعان: عالم منافق عليم اللسان، وعابد جاهل يحبه الناس من أجل عبادته، ومن أجل أنه يقرأ الكتاب، ولكن لا يفهمه ولا يعمل به؛ لذلك لابد أن نؤكد على أهمية تعلُّم الكتاب فهمًا واستدلالاً، وكثرة الاستدلال بالآيات القرآنية وبالأحاديث النبوية، وليست مجرد أن تصبح عبارة عن أمور شكلية تفتتح بها المجالس ولا دخل للناس بمعانيها، تُقام عليها المسابقات، ومن يسلِّم الجوائز

---

(١) أصله في مسلم (٢٨٨٩)، وأخرجه بهذه الزيادة: أبو داود (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، وأحمد (٥/ ٢٧٨) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) سبق عزوه (١/ ٧٣).

هم الذين يحرمون العمل بالكتاب، ويمنعون العمل به والدعوة إليه وبيان ما فيه من الأحكام، يصبح الكتاب عبارة عن هدية تُهدى للناس ليقبلوه في المناسبات، وهو أعظم الناس حربًا عليه، يرى أن أحكامه هذه لا تصلح لهذا الزمان ولا للأزمنة الماضية، بل إنها أمور مخترعة باطلة، والحرب عليها أعظم ما يكون لكل ما تحمله هذه الكلمة من معان، حرب شديدة، وهو إنما يريد أن يرسخ في الناس أن القرآن نحن نقرأه ولا يلزمنا أكثر من ذلك، فهذا تجد فيه شبهًا من هؤلاء الذين ذكر الله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾، جمعوا بين مجرد تلاوة الكتاب دون فهم؛ وأما العقيدة فعقيدة فاسدة مبنية على الظنون، لابد أن نبتعد عن ذلك، لابد أن نتعلم القرآن وأن نفهم القرآن، نتدبر القرآن، نتدبر أحاديث الرسول ﷺ، ونفهمها ونعمل بها، وتكون هي مصدر التلقي في العقيدة والعبادة والخلق والسلوك ونظام حياة الأمة، الأمة في كثير جدًا من أبنائها في عقيدتها يأخذونها من المتكلمين، وفي عبادتها وفي معاملاتها يأخذونها من المقلدين، وفي التهذيب والتزكية والإصلاح وإحسان الخلق يأخذونها من المتصوفة المبتدعين، وفي نظام الحياة وقوانين المجتمعات والدول يأخذونها من المنافقين أذناب الغرب، بل من القوانين الغربية مباشرة، والناس كلهم يقولون: إن القرآن نحن نُعظِّمُه، لو قلت له: أنت بهذا تخالف القرآن، لأنكر عليك وقال لك: كيف وأنا أحفظ القرآن من أوله إلى آخره.

وربما كان بعضهم ممن يفتن المسلمين عن دينهم، فتجده حافظًا للقرآن

من أوله إلى آخره، وربما قام به في التراويح، وربما قام به قيام الليل، ماذا يصنع؟!

رب قارئ للقرآن والقرآن يلعنه! والعياذ بالله؛ لأنه يجهل ما يقول، أو أنه يعرفه ثم يحرفه، فالمغضوب عليهم والضالون ما يزال يوجد من يتشبه بهم في أمة الإسلام، نسأل الله ﷻ العفو والعافية.

فهذا في الحقيقة يرجع إلى أنواع الأئمة المضلين الذين قال فيهم النبي ﷺ: «**وإنّما أخافُ على أُمّتِي الْأئِمّة الْمُضِلِّين**»، وهما هذان النوعان: العالم الفاجر، والعابد الجاهل، وملوك السوء كذلك لأنهم أئمة؛ لأن الناس تبعًا لملوكهم وقادتهم وأمرائهم، فانظر إلى هذا الأمر، وانظر ممن تتبع، وانظر كيف تكون قراءتك للقرآن وفهمك له؛ حتى لا تحرف الكلم عن مواضعه بالبدع والضلالات وأنواع النفاق؛ وحتى لا تأخذ العقيدة من الظنون دون الأدلة البينة من الكتاب والسنة؟!

لابد أن نعيد إلى الكتاب والسنة منزلتهما الحقيقية الواجبة، من أن يكونا هما مصدر الاستدلال والتشريع، ليس كما جعلت في الزمن الماضي، كما يقول ابن القيم: «الكتاب والسنة في زماننا كالخليفة ليس له من الأمر إلا الخطبة والسكة». أيام ابن القيم رحمه الله مع أنها أيام كان فيها خير كثير، لكن الخليفة ماذا كان له؟ وقت ما يأتي ذكره في الخطبة يدعون له بالتأييد والنصرة، والسكة يعني عند سك النقود أو طبعها، وعند صناعة الدراهم والدنانير يكتبون عليها صكت في عهد الخليفة الفلاني، في حين أن المتحكم في الأمر أيام ابن القيم هم المماليك، سلاطين المماليك، الخليفة

نفسه لا دخل له بشيء نهائيًا، خلافة صورية كحال ملكة إنجلترا الآن، هي الملكة واسمها الملكة، ولكن المتحكم رئيس الوزراء، هذه هي تلك الأنظمة، أنظمة سياسية بهذه الطريقة، النظام في هذا العهد كان كذلك.

فكان في ذلك الزمان أصلاً عند طلاب العلم والمشايخ في ذلك الوقت الكتاب والسنة عندهم يُقال عنهما: نعم الكتاب والسنة معظمان، مثل الخليفة يُقال عنه ذلك وليس له الأمر والنهي.

تأتي له بآية أو بحديث تستدل به، فيرد ذلك، ويقول لك: لا، الكتاب الفلاني فيه الشيء الفلاني، وهذه روح للأسف الشديد بدأت تنتشر، حتى في طلاب العلم المعاصرين ممن ينتسب إلى السلف وممن ينتسب إلى العلم، فتجد كتب مؤلفة كاملة، فتذهب تبحث فيها عن آية أو حديث، فلا تجد إلا العالم الفلاني قال كذا، كأن قول العالم أصبح هو الحجة، والابتعاد تمامًا عن الاحتجاج بالآيات والأحاديث، والآيات تكون في منتهى الوضوح والبيان.

كما ذكرنا في قضايا الخرافات في اعتقاد الضر والنفع لغير الله ﷻ كعباد القبور، وكذا في أدلة وجوب تحكيم الشريعة ولزوم المرجعية إلى الكتاب والسنة تجد أناسًا أعرضوا عن كل ذلك؛ لأن الشيخ الفلاني أفتى بغير هذا؛ ولأن العالم الفلاني قال بغير هذا، كتب تؤلف على هذه المناهج المنحرفة ويزعم أنه ناصر للكتاب والسنة، وهو أمي لا يعلم من الكتاب إلا القراءة، ويتبرك بالأحاديث، أو يهتم على سبيل المثال بإسنادها دون البحث عن متنها، فأين الفهم لما دل عليه هذا الحديث؟!

فيركز الكلام كله على علوم غير المقصود من الحديث نفسه، ويقول: نحن من أهل الحديث. وليسوا من أهل الحديث، أهل الحديث هم الذين يفهمونه ويعملون به ويستدلون به، وليس فقط أنهم يتكلمون على الرجال دون أن يكون لهم دخل بفقه الحديث ومعانيه ودلالاته.

خطر عظيم هذا الذي يحدث للصحوة الإسلامية في وقتنا الحاضر، تكرار لما وصلت إليه الأمة - للأسف الشديد - في عصور الانحطاط، عندما ابتعدت في كل مجالات العلوم عما جعله الله مصدرًا للهدى والنور من الوحي المنزل، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أن تصبح - كما ذكرنا - العقائد مأخوذة من علم الكلام، والعبادات والمعاملات من كلام المقلدين من أتباع المذاهب، الذين لا يعرفون أدلة ولا دخل لهم بها، والتهذيب من كلام الصوفية البعيد عن الفهم الذي يصلح لأنواع من الفهوم المختلفة، التي تؤدي إلى انحراف في العقائد بعد ذلك وفي نظم الحياة وفي أنظمة المجتمع من الغرب وقوانينه ومبادئه ودساتيره، فحصل هذا الخلل العظيم.

من يحاول تمرير هذا الأمر إلى داخل من ينتسب إلى الالتزام، ويحاول إدخاله مرة أخرى بعد أن طُرد هو إما عالم فاجر، وإما عابد جاهل، وإما من سلاطين السوء، نسأل الله أن يعافينا من ذلك كله.

الْمسْألةُ الثّامِنةُ والسّبْعُون: دعْواهُمْ أنّهُمْ أوْلِياءُ اللهِ مِنْ دُونِ النّاسِ.

الشرح:

هذا ذكره الله ﷻ عن اليهود في قوله ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾ [الجمعة: ٦ - ٧].

فذكر الله ﷻ عن اليهود أنهم يدعون أنهم أولياء الله من دون الناس، وهذا أمر مشهور عن اليهود إلى يومنا هذا، أنهم يقولون عن أنفسهم أنهم شعب الله المختار، وأن سائر الأمم كالكلاب لهم أو عبيد العبيد لهم، بل من زور وجهل النصارى أنهم يدعون أن امرأة طلبت من المسيح أن يدعو لها أن يعلمها شيئًا أو نحو ذلك، فقال لها: ليس حسنًا أن يؤخذ خبز الأولاد أو خبز البنين ويرمى للكلاب. فقالت: والكلاب أيضًا لها نصيب. فقال: ما أعظم إيمانك! فدعا لها أو قبل منها ذلك. فمن يقبل أن يكون كلبًا عند اليهود، فهو الذي يكون مقبولاً، والعياذ بالله، نسأل الله العافية، هذا من تكبر اليهود وجبروتهم، وإنما اصطفاهم الله ﷻ على العالمين بإرسال الرسل، اتباعهم لرسل الله، فمن أبى ذلك وكذب الرسل أو قتلهم أو سعى في قتلهم أو عاداهم، فهو - والعياذ بالله - كافر ليس من المصطفين، إنما من اصطفاهم الله ﷻ من آمنوا بالله ورسله، فهذه من العقائد الفاسدة التي ما زال اليهود يتكبرون بها على العالم، ولا يزال كثير ممن ينتسب إلى النصرانية يعتقد لزوم علو اليهود كذلك، بل في الحقيقة ما يحدث من تحالف بين اليهود

والنصارى في زماننا على المسلمين، عند طائفة من النصارى في الغرب مرده إلى مثل هذا الاعتقاد، وهو أن علو بني إسرائيل مقدمة لعودة المسيح، وهذه عقيدة الكثير من الرؤساء المتعصبين للصليبية، الذين يخوضون أو خاضوا في الحقيقة حروبًا ضد أهل الإسلام؛ لأجل إنفاذ هذه العقيدة، وهذا أمر معلوم، نسأل الله العافية.

وكله مرده إلى هذا الاعتقاد الفاسد، وهو أن اليهود هم أولياء الله من دون الناس، غرهم أن الله ﷻ قد ذكر اصطفاءهم في كتابهم وفي القرآن العظيم، لكن هو اصطفاء مشروط بالتزام حقيقة الإيمان، بأن الله فضلهم بما ذكر الله على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]. فإنما كان ذلك بجعل الأنبياء وإيتائهم التوراة وأورثهم الكتاب، فلما أبوا أن يمتثلوا ما أمر الله وصفهم الله ﷻ بالفاسقين، لما أبوا أن يدخلوا الأرض المقدسة وقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، ودعا موسى عليه السلام فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ

﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، ومنهم من كفر؛ كما قال ﷻ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة: ٧٨ - ٨١].

فوصفهم الله بالكفر والفسق، فدل ذلك على أن التزام الأوصاف التي استحقوا بها الاجتباء هو سبب أو شرط هذا الاجتباء، بدون هذه الأوصاف لايكونون من المصطفين الذين اصطفاهم الله على العالمين، وهذه الأمة قد نقل الله ﷻ ما كان للأمم السابقة من الشرف والرفعة والاصطفاء؛ كما قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال ﷻ: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧].

فجعل الله الاجتباء للأمة، خير أمة أخرجت للناس، الأمة الإسلامية، أمة محمد ﷺ، ولكن بشرط أن يكونوا من المتقين الذين يؤتون الزكاة، والزكاة هنا زكاة القلوب بتوحيد الله ﷻ وتطهيرها من الشرك وأمراض القلب من الكبر والعلو والرياء والسمعة والحقد والحسد، ولا شك أن تطهر القلب بذلك يؤدي إلى أداء الزكاة الواجبة: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ - الإيمان بآيات الله - ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾. فاتباع الرسول ﷺ واتباع سنته شرط في هذا الاجتباء وهذا الاصطفاء وهذه الولاية، فأما أن يظن إنسان أنه من أولياء الله الصالحين لمجرد النسب أو لمجرد الانتساب إلى طريقة أو إلى شيخ أو إلى مذهب أو إلى إمام، فهذه من مشابهة أهل الكتاب، الذين ادعوا أنهم أولياء لله من دون الناس، فترى كثيرًا من الفرق المنحرفة الضالة تدّعِي لنفسها أنها دون غيرها أو هم أولياء الله ﷻ، مع انحرافها، وإنما ولاية الله ﷻ لمن آمن واتقى، لا تحصل أصلاً إلا لهؤلاء: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣].

إذًا، ليست مجرد انتساب إلى طائفة معينة، ولو كان حتى انتسابًا إلى آل بيت النبي ﷺ، فإن أهل بيت النبي ﷺ لهم فضيلة ومزية عظيمة بلا شك، ولكن لابد وأن يمتثلوا باتباعه ﷺ، أهل البيت لا يجتمعون على ضلال، ولن يفترقوا كطائفة عن كتاب الله، أعني: لا يزال منهم من يقوم بالحق، كما أن الأمة لا يزال فيها من يقوم بالحق، فقد قال النبي ﷺ: «**ياأيها النّاسُ إِنِّي**

تركْتُ فِيكُمْ ما إنْ أخذْتُمْ بِهِ لنْ تضِلُّوا: كِتاب اللّهِ، وعِتْرتِي أهْل بيْتِي»[١]، وليس معنى ذلك أن العصمة للعترة، لأهل البيت، وإنما معناه أنه لا يزال يوجد فيهم من يقوم بالكتاب، ولا يجتمعون جميعًا على مفارقة الكتاب أبدًا: «**إنّهُما لنْ يفْترِقا حتّى يرِدا عليّ الْحوْض**»، فالرسول ﷺ جعل ثقلاً في أهل بيته، ومع ذلك فقد قال ﷺ: «**إنّ آل أبِي فُلانٍ ليْسُوا لِي بِأوْلِياء، إنّما أوْلِيّائِي الْمُتقون**»[٢]، وقال ﷺ: «**ومنْ أبطأ بِهِ عملُهُ، لمْ يُسْرِعْ بِهِ نسبُهُ**»[٣]، وقال لفاطمة بنته رضي الله عنها، ونسل النبي ﷺ وعترته كلهم منها، لم يوجد من بناته الأخريات من بقي له نسل، وإنما العترة أهل بيت النبي ﷺ، أولاد فاطمة من علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وخصوصًا الحسن والحسين رضي الله عنهما، ومع ذلك فقد قال لها: «**يا فاطِمةُ بِنْتَ مُحمّدٍ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللّهِ شيْئًا**»[٤]، فإذا كان النبي ﷺ يقول ذلك لسيدة نساء العالمين، سيدة نساء المؤمنين، فاطمة بنت محمد ﷺ، فكيف بمن بعُد عن ذلك؟!

ولذلك نقول: إنه لا يكفي الانتساب ولو لأشرف الطوائف، وكذلك قد قال النبي ﷺ للمهاجرين والأنصار، الذين مدحهم الله سبحانه وتعالى لما تنادوا بدعوى الجاهلية، فقال هذا: «**إنّك امْرُؤٌ فِيك جاهِلِيّةٌ**»[٥]، وقال لأصحابه

---

(١) سبق تخريجه (١/ ٣٤٤).
(٢) سبق تخريجه (١/ ٢٦٥).
(٣) سبق تخريجه (١/ ٢٦٥).
(٤) سبق تخريجه (١/ ٢٦٥).
(٥) أخرجه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١)عَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ رضي الله عنه.

الفضلاء حين تنادوا: «**وقال الأنْصارِيُّ: يا للْأنْصارِ، وقال المُهاجِرِيُّ: يا للْمُهاجِرِين، فَخَرجَ النّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «مَا بَالُ دعْوى الْجاهِلِيّةِ؟!.. دعُوهَا فَإِنَّها مُنْتِنةٌ**»(١).

إذاً، الانتساب إلى أشرف الطوائف، التي مدحها الله في الكتاب والسنة لا يكفي في تحقيق الولاية حتى يكون الإنسان مؤمنًا تقيًا، فلو انتسب الإنسان إلى أهل السنة، وهم أشرف الطوائف من جهة الاعتقاد والمنهج، وهم الجماعة التي قال عنها النبي ﷺ إنها الفرقة الناجية، ولكن هل يكفي الانتساب دون أن يحقق التقوى، دون أن يحقق الإيمان الذي ليس هو مجرد معرفة نظرية؟!

لذلك نقول: أبعد الناس عن دعوى الولاية من كانوا من أهل البدع مفارقين لحقائق الإيمان، التي بعث بها النبي ﷺ، فهم على عقيدة فاسدة؛ كالجهمية، والقدرية، والرافضة، والجبرية، والمرجئة، والخوارج، وأمثالهم، هؤلاء أبعد الناس عن أن يكونوا أولياء لله من دون الناس، فكذلك من انتسب إلى أهل الإيمان لكنه لم يتق الله. إذًا، قضية الولاية ليست مجرد دعوى، وليست مجرد انتساب، وليست مجرد اسم يرفعه الإنسان، وقد انتشر هذا في كثير من الناس، يشعر أنه طالما انتمى إلى جماعة معينة أو طائفة معينة أو نسب معين أو مذهب معين، فإنه ناج بمجرد الانتساب، فهذا خلل عظيم، ولا بد أن يعرف أن الانتساب إلى السلف كذلك لا يكفي فيه الانتساب، بل لابد أن يتحقق علمًا وعملاً بمنهجهم، أن

---

(١) سبق تخريجه (١/ ٢٠).

يحقق الإيمان والتقوى، وإلا فقد وقع من ادعى ولاية الله ﷻ دون أن يلتزم بشروط هذه الولاية في مشابهة من سبق من أهل الكتاب، الذين ادعوا أنهم أولياء لله من دون الناس، دون أن يتصفوا بالشروط التي جعلها الله ﷻ في تحقيق الولاية، وأشد هؤلاء بعدًا من انتسب إلى فرق بدعية ومن انتسب إلى طرق منحرفة، وعامة الطرق الصوفية على بدع وضلال، يظنون أنفسهم أنهم الأولياء، وأن مقبوريهم هم الأولياء، ويدعون الولاية لهم، يقولون: نحن أتباع أولياء الله الصالحين، وليس عندهم من أولياء إلا تحت القباب، ليس عندهم من ولاية لله إلا من دفن في مسجد تحت قبة يزوره الناس، ويعملون له مولدًا، ويجعلون من يخالف ذلك معاديًا لأولياء أو معاديًا لأهل البيت، وهذا من الزور والباطل والكذب؛ لأن أولياء الله هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، ليسوا أهل البدع والضلال ولا أهل الفسق والفجور، حتى ولو انتسب إلى أشرف الأسماء كما ذكرنا: «**ومنْ أبطأ بِهِ عملُهُ، لمْ يُسْرِعْ بِهِ نسبُهُ**»[(١)]، فكيف بمجرد انتسابه دون أن يكون له نسب حقيقي؟!

نقول إذًا: قضية ولاية الله يبحث كل إنسان عن صفات هذه الولاية في نفسه أحققها أم لا، الإيمان والتقوى، الإيمان والعمل، الذين آمنوا وعملوا الصالحات، الإيمان بيّنه النبي ﷺ بأركانه كلها، وبيّن تفاصيل كل ركن منها في عقيدة واضحة جلية، ولفظة الإيمان أعمق من لفظة العقيدة وأشمل، فإنها تشمل أحوال القلب وأعماله كذلك، وليس مجرد قول اللسان أو اعتقاد القلب ومعرفته، هذا جزء أساسي أن يكون على عقيدة صحيحة، ولكن الإيمان أعمق من ذلك، حال القلب وإيمانه، بل الإيمان

(١) سبق تخريجه (١/ ٢٦٥).

يدخل فيه العمل، والتقوى تدخل في الإيمان، ولكن إذا اقترنت كان ذلك تأكيدًا، التقوى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾، على أن إيمانهم قد تحول في حياتهم العملية إلى سلوك وواقع يعيش به الإنسان في حياته، يتقي الله، كما قال طلْقُ بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «**تقوى الله: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله**»[2]، يعمل بطاعة الله عَزَّ وَجَلَّ ويستعد للقائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويزهد في دار الدنيا ويرغب في دار الآخرة، وهكذا يكون اهتمامه وعمله، إرادته وقصده، مع علمه وفهمه وتصوره، كل ذلك مبني على ما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما شرعه الله عَزَّ وَجَلَّ.

فهذا خطر يغفل عنه كثير من الناس ادِّعاء الولاية، ويظن أنه بانتسابه لجماعة معينة ناج عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا مشابهة لأهل الجاهلية.

---

(١) هو طلق بن حبيب العنزي، البصري، زاهد كبير من العلماء العاملين، حدث عن ابن عباس، وابن الزبير، وجندب بن سفيان، وجابر بن عبد الله، والأحنف بن قيس، وأنس، وعدة، وروى عنه منصور، والأعمش، وسليمان التيمي، وعوف الأعرابي، ومصعب بن شيبة، وجماعة، قال ابن الأعرابي: «كان يقال: فقه الحسن، وورع ابن سيرين، وحلم مسلم بن يسار، وعبادة طلق»، انظر: الطبقات الكبرى (٧/ ٢٢٧)، وصفة الصفوة (٣/ ٢٥٨)، وسير أعلام النبلاء(٤/ ٦٠١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٦٤)، وهناد في الزهد (١/ ٢٩٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٤٦)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٦٤)، والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ٣٥١).

الْمسْألةُ التّاسِعةُ والسّبْعُون: دعْواهُمْ محبّة اللّهِ، مَعْ ترْكِهِمْ شرْعهُ، فطالبهُمْ اللّهُ بِقوْلِهِ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣١ - ٣٢].

الشـــرح:

دعوى محبة الله ﷻ في اليهود والنصارى والمشركين، وكل أهل الملل يدعون أنهم يحبون الله، قال الله ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: ١٨]، ادعوا لأنفسهم أكثر من مجرد أنهم يحبون الله، بل زعموا أنهم أحباء الله زيادة، وهذا يلزم منه أن يكونوا محبين لله، وهذا الزعم لابد له من تحقيق، لابد من إثبات وأدلة، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾. إذًا، كيف يصل الإنسان إلى درجة المحبوبية وأن يكون محبوبًا؟ أن يحب الله ثم أن يتبع الرسول ﷺ، ادعى قوم محبة الله فابتلاهم الله بهذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾(١)، مع كونهم قد تركوا شرعه، لم يتبعوا رسوله ﷺ، هؤلاء القوم من اليهود ومن النصارى ومن كل أهل الملل، الذين يدعون حب الله ولا يلتزمون بالشرع، دعواهم باطلة، وكذبهم الله ﷻ وأظهر كذبهم حينُ امتُحِنوا فلم يتّبعوا رسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾. إذًا، اتباع الرسول ﷺ شرط في حقيقة

---

(١) انظر: مدارج السالكين شرح منازل السائرين (٣/ ٢٠-٢٣).

المحبة، لا يكون محبًّا من خالف هدي الرسول ﷺ، أهل البدع لهم نصيب من مشابهة أهل الكتاب في هذه الدعوى، أنهم يفعلون ذلك حبًّا لله، وكم من فاسق وفاجر ومبتدع وضال يزعم أنه يحب الله ﷻ، وفي نفس الوقت يستمر على بدعته ويستمر على فسقه وفجوره، وما أحسن ما قال الإمام عبد الله بن المبارك:

تَعْصِي الْإِلَه وَأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ ... لَعَمْرِي هَذَا فِي القِيَاسِ شَنِيعُ

لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

فهذا كلام حسن، هو في الحقيقة كأنه تفسير لقول الله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، واتِّباع الرسول ﷺ مع حب الله ينقل الإنسان إلى درجة المحبوبية، يوصله إلى أن يكون محبوبًا عند الله ﷻ، واتِّباع الرسول ﷺ في العقيدة والعمل، في الأخلاق والسلوك في العبادة والمعاملة، في الظاهر والباطن، وليس يقتصر على جانب من جوانب الحياة، أو من جوانب الالتزام بالدين، بل يتبع الرسول ﷺ في كل الشئون، وليس اتباع الرسول ﷺ بمجرد إعلان التبرك بقراءة أحاديثه أو الغلو في شخصه ﷺ، حتى يقال هذا محب للرسول ﷺ، بل اتِّباع الرسول لابد أن يكون في جميع الأمور كما ذكرنا؛ في الإيمان والإسلام والإحسان في الاعتقاد، في العمل، في العبادة، في المعاملة، في الظاهر والباطن، ليس كما يحلو للبعض أن يقول: المهم الباطن ولا يهم الظاهر، أو كما يقع فيه البعض من أن يهتم بالظاهر ويظن أنه سُنِّي بمجرد أنه قد أظهر بعض مظاهر الالتزام بالسنة، ثم هو في سلوكه وخُلُقِهِ وفي باطنه وحال قلبه ليس مُتّبِعًا

للنبي ﷺ، لا يكون هذا اتِّباعًا حتى يحقق الاتباع في جميع الأمور، فهذا هو اللازم لنا؛ حتى لا نقع في مشابهة هؤلاء الذين ادّعُوا محبة الله، مع تركهم شرعه واتِّباع نبيه ﷺ.

الْمسألةُ الثّمانُون: تمنِّيهِمْ الْأمانِيّ الْكَاذِبة، كَقَوْلِهِمْ: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾، **وقولهم:** ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾.

الشـــرح:

ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تمني اليهود هذا أو الغرور الذي غرُّوا أنفسهم به، مع تكذيبهم للرسول ﷺ في موضعين، فقال ﷻ: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَوَيۡلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ۝٧٩ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ [البقرة: ٧٨ - ٨٠].

انظر لما بدّلوا الشرع، وحرّفوا الكتاب، وكتبوا من عند أنفسهم أباطيل نسبوها إلى دين الله ﷻ، وقالوا: هو من عند الله. وادّعوا أن ذلك مما أنزله الله في دينهم، ما الذي غرهم في ذلك؟ استهانتهم في هذا الأمر العظيم.

وذلك أنهم زعموا أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، وأن ذلك الذنب العظيم الذي هو كفر - والعياذ بالله - إنما هو كما يظن بعض الناس في كثير من الذنوب أنه إنما هو من المعاصي التي يُعاقب عليها مدة ثم يخرج، وورد في تفسيرها أيضًا أنهم قالوا: إننا نبقى في النار أيامًا معدودة ثم تخلفوننا فيها، يعني - يخاطبون المسلمين -: أنهم سوف يخلفهم المسلمون في النار، فكذبهم الله بقول: ﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ

أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٨٠ – ٨١].

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾، هذه السيئة هي الكفر والشرك؛ لأن الخطيئة المحيطة هي التي تحبط جميع الأعمال بما فيها أصل التوحيد هي الشرك والكفر، وليس من كسب سيئة أي سيئة مطلقًا، وإنما كما قال ﷻ: ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

إذًا، لم ينفعهم هذا التمني الباطل، والذي افتروه بالكذب أنهم لن يبقوا في النار إلا أيامًا معدودة، وانظر إلى جرأتهم أنهم يعلمون أنهم يخالفون الشرع، وأنهم تركوا ما أمرهم الله به، وأنهم يستحقون دخول النار، ولكن يهونون الأمر، كما ترى في كثير من الناس في زماننا يهونون ما يقعون فيه من الكفر، ويقولون: هو فقط معاصي، هذا من باب المعاصي فقط. مع أنه من الكفر، والعياذ بالله، لا ينفعهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنهم كانوا يظنونه معصية، وأنهم سوف يبقون أيامًا في النار معدودة أو مدة محدودة ثم يخرجون منها، لا ينفعهم ذلك إذ كان هو عند الله ﷻ مخلد في النار، إذا كان كفرًا من السيئات المحبطة للأعمال والخطايا التي تحيط بالإنسان من جميع جوانبه فهذا هو في النار مخلد فيها، وإن زعم أنه يبقى في النار أيامًا معدودة.

أرأيت أن هذه الصفة قد وقع فيها في زماننا من يرتكب أنواع الكفر، وهو يعلم أنها منهي عنها، يظن أن ذلك لا يخلد، يقول: سندخل النار، سندخل النار، ولكن سنخرج بعد ذلك، وهو يرتكب الكفر، والعياذ بالله، ويرتكب

ما هو من جنس ما فعله اليهود من أنهم بدّلوا الدين ونسبوا إلى الله ﷻ ما ليس من دينه ولا من شرعه، وقالوا: هذا من عند الله. ويقولون: هذا هو الدين الصحيح، وهذا هو الذي جاء به الرسول. وهو ليس من عند الله، بل يقولون الأكاذيب الباطلة في العقائد وفي الأعمال، حتى ربما زعموا للناس أن الرسول جاء بأن الملل متساوية، وأن اليهود والنصارى سيدخلون الجنة، وأنه لا فرق بيننا وبينهم، وما أكثر ما يقال من ذلك الكفر - والعياذ بالله - من موالاة هؤلاء، ومن هذا الجنس أيضًا ما يكون من تبديل الشرع، وأن يأبى الإنسان ويعترض على حكم الله؛ كما قال ﷻ في سورة آل عمران: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران: ٢٣ - ٢٤]. والله لو تأملت لوجدت هذا المرض موجودًا في أمة الإسلام فيمن ينتسب إلى الإسلام، يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم يقولون: لا نلتزم بهذا الكتاب، لانلتزم بالحكم بما أنزل الله، لن نلتزم بهذه الشريعة، ويقولون: هذا كفر دون كفر، هي معصية من المعاصي، لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودات، أليست حقيقة كفر دون كفر أنها معصية تمسه النار مدة ثم يخرج منها؟ هذا الذي جعلوه في غير موضعه، نحن نقر أن هناك معاص وذنوب يبقى الناس الذين ارتكبوها في النار أيامًا أو سنين أو مدة ثم يخرجون، نحن لا ننكر وجود هذا الأمر، ولكن هل يقع ذلك على كل أمر من الأمور؟ الله قد نفى أن يكون ما فعله هؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب، من أنهم يُدْعوْن إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون، أن يكون ذلك عقوبته أيام معدودة في النار،

بل جعل سبحانه ذلك من الافتراء، غرهم في دينهم ما كانوا يفترون، نعم والله قد غر أناسًا في دينهم ما كانوا يفترون، حين جعلوا أن من دُعي إلى كتاب الله ليحكم بينه، فقال: لا ألتزم بحكم الكتاب، ولا أتّبع الكتاب، ولا أرضى بحكم الكتاب. ويظل على إعراضه - والعياذ بالله - أن ذلك مجرد عاص لله ﷻ، سوف يعذب أيامًا في النار ثم بعد ذلك يخرج، نعوذ بالله، هذا الذي يقع من كثير ممن ينتسب إلى العلم والدين مشابهًا أهل الجاهلية، مشابهًا اليهود الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب، وأعرضوا وأبوا أن يتحاكموا إلى كتاب الله في الموضعين اللذين ذكر فيهما: «لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة» أو «معدودات». تجد الافتراء على الله ﷻ في هذين الموضعين، يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند الله؛ كما وصف الله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]. إلا أماني: يعني إلا قراءة. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]. وقد شرحنا من قبل - في هذه المسألة - أن من ينسب إلى كتاب الله وإلى شرع الله وإلى دين الله ما ليس منه، فهو مشابه لهؤلاء، قال: ﷻ ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، هذه القضية قضية خطيرة، وما أكثر من يدندن حولها في زماننا؛ ليجعلها بدلاً من أن تكون شركًا وكفرًا، وهو نسبة ما ليس من الدين إلى الدين، وهو يعلم، وافتراء الكذب على الله أو رفض التحاكم إلى كتاب الله ﷻ والإعراض عن ذلك يجعلها من باب المعاصي، وقد وصفها الله في كل المواضع في الكتاب بأنها من الشرك والكفر، نعم هناك نوع يسمى كذلك، وهو كفر دون

كفر، ولكن ليس هو الأصل، إنما هو من جنس المعاصي والذنوب، حاول بعض أهل البدع أن يلحقوه بالنوع الأول من أجل مشابهته له، وقد قال فيه ابن عباس رضي الله عنهما: «**كُفْرٌ دُون كُفْرٌ**»[(١)]، وليس معنى ذلك أن كل من تحاكم إلى غير شرع الله، أو أبى ورفض، أو أعرض عن التحاكم إلى شرع الله، يكون عاصيًا فقط، إنما هذا نوع - كما ذكرنا - فيه من الكفر الأكبر، وهو الأصل، وفيه من الكفر الأصغر، وهو الفرع أو الاستثناء الملحق به.

لذلك نقول: تمنيهم الأماني الكاذبة، الذين يرتكبون الكفريات، ويقولون: سوف نعذب قليلاً في النار. يسبون الله، ويسبون الدين، ويسبون الرسول ﷺ، ويستهزءون بالقرآن، ويقولون: كلنا سوف ندخل النار، لابد أن نعذب قليلاً ثم نخرج منها. والعياذ بالله، هذا والله حاصل، وهناك ممن يفتي الناس بالباطل، ويغرهم بالأماني الكاذبة من يفتيهم بأن من يسب الله صراحة باسمه سبحانه وتعالى إنما هو عاص فقط، ونسأل الله العافية، أهل ضلال وبدع، وأهل جهل ومنكر، بل في حقيقة الأمر من جنس هؤلاء اليهود، الذين يقولون: لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة.

يُسب الله سبحانه وتعالى عند بعض المفتين الجهلة، والعياذ بالله، الناس يسبون الله الذي خلق سبحانه وتعالى، ويقول هؤلاء: إنما تجري على ألسنتهم، إنما يقولون ذلك عند الغضب ونحو ذلك، هل كانوا مجانين؟! تجري على ألسنتهم ماذا؟! الإنسان لا يحاسب على ما يتكلم به، حتى إذا قال كفرًا لم يؤاخذ بذلك، والعياذ بالله، إنما كنا نخوض ونلعب، هذا حال عجيب لكنه يقع

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٢)، والبيهقي في السنن (٨/ ٢٠).

فعلاً؛ لأن النبي ﷺ قال: «**لتتّبِعُنَّ سنن منْ قبْلكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وذِراعًا بِذِراعٍ، حتّى لوْ سلكُوا جُحْر ضبٍّ لسلكْتُمُوهُ، قُلْنا يا رسُولَ اللّهِ: اليهُودَ، والنّصارى قَالَ: فمنْ؟**»[(١)]، غرهم في دينهم ما كانوا يفترون، افتراء الكذب على الله أن يدّعِي أن دين الله أنه ليس فيه أن من سب الله ﷻ كان كافرًا، أو من سب الرسول ﷺ وسب القرآن واستهزأ بالقرآن يكون كافرًا، يقول: لا، ليس بكافر، بل هو عاص، بل هي من عادات الناس، بل هم طالما أنهم لم يقصدوا أن يخرجوا من الملة، فلا يخرجون منها. وهل اليهود كانوا قصدوا أن يخرجوا من الملة؟! بل هم - اليهود - يؤكدون أنهم على الملة؛ لأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة - في ظنهم - على تقدير شفاعة سيدنا موسى عليه السلام، وشفاعة سيدنا عيسى عليه السلام بالنسبة النصارى سوف تدركهم، ولو كانوا كفارًا، والعياذ بالله، هم كفار عند الله ﷻ، كونهم لا يعتقدون أنهم كفار، لا يغني عنهم شيئًا، قد قالها المنافقون الذين أنزل الله فيهم: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾، فماذا قالوا؟ قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث حديث الركب، ولم نقصد أن نكفر، والعياذ بالله، فقال الله لهم: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

فيُفتح لهم الباب في أنه يمكنهم أن يتوبوا إلى الله حتى يعفو عنهم، وليس أن هذا ليس من الكفر، وأن نقرر الأوضاع الباطلة - والعياذ بالله - من أنواع الكفر والشرك، وأن نحذف الشرك والكفر من كل شيء، وليس معنى

(١) سبق تخريجه (١/ ٢٩).

ذلك أننا نقول: يبقى كل شيء كفر وشرك، لا، فأهل الباطل والبدع من الخوارج يجعلون الذنوب والمعاصي كفر وشرك مخرج من الملة، ضلال مبين، لكن لابد وأن نعرف كل شيء بدليله من الكتاب والسنة، لا لكي نرد على الخوارج ومن يكفر بالباطل نخرج الذنوب المكفرة والمكفرات والشركيات من حقيقتها، هذا من فعل أهل الكتاب؛ لأنهم غرهم في دينهم ما كانوا يفترون، أنهم تمنوا الأماني الكاذبة، فهؤلاء الذين يسبون الله ويسبون دينه، ويظنون أنهم بذلك إنما هي معصية خفيفة أو أحيانًا في المجاملات، القصة التي ذكرها الشيخ أحمد شاكر عن والده رَحِمَهُ اللهُ عندما خطب رجل في حضرة أحد الملوك - أظن الملك فؤاد الأول، أو أظن السلطان حسين على ما أذكر - فجاءه أحد العميان فرحب به واستقبله، فخطب خطبة يمدح الملك فيها، فقال: «جاءه الأعمى فما عبس ولا تولى» والعياذ بالله. فقام الشيخ محمد شاكر والد الشيخ أحمد شاكر، محدث الديار المصرية رَحِمَهُ اللهُ، فأمر الناس بأن يصلوا جمعتهم ظهرًا؛ لأن خطيبهم قد كفر؛ لأنه عرّض بالرسول ﷺ وطعن فيه عندما قال: إن هذا الملك أحسن تصرفًا من النبي ﷺ؛ لأن الله قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾، فقال هذا: جاءه الأعمى فما عبس ولا تولى. يعني: تريد أن هذا الملك الذي تجامله أحسن تصرفًا خيرًا من الرسول ﷺ، وحتى أرسل للسلطان أن يعيد صلاة الجماعة، وأعادها السلطان وقبِل ذلك؛ لأنه أخبره أن الخطيب ارتد عن الإسلام، والعياذ بالله، وقد أذل الله هذا الخطيب بعد ذلك ذلاً عظيمًا، وصار بعد ذلك يتكفف الناس، ونسأل الله العافية.

فمثل هذا الظن الكاذب أن الإنسان ممكن فعلاً أن يتكلم بالكلمة من

سخط الله لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في النار سبعين خريفًا، وهو يظنها مما لا تمسه النار إلا أيامًا معدودة، وهو مخلد في النار، غرهم في دينهم ما كانوا يفترون، نعوذ بالله.

لذلك كل شيء لابد أن يكون له دليل، وليس الناس تُقسّم على ما تختار، فيقول أحدهم: هذا من الكفر. وآخر يقول: لا ليس من الكفر. كما يريد أن يجعل الزنادقة والمنافقون الكفر شيء لا وجود له في الدنيا، لا اليهود كفار، ولا النصارى كفار، ولا منافقين، ولا أحد أصلاً - كأن الكفر هذه كلمة تكون في الهواء ليس لها وجود -؛ حتى تتمزق عقيدة التوحيد، والعياذ بالله.

والمثال الثاني الذي ذكره: قولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ﴾، فاليهود يقولون: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا. والنصارى يقولون: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًا. والمسلمون هم الذين وصف الله ﷻ حقيقة إيمانهم وإسلامهم بما قال ﷻ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾. ممن كان من اليهود، وممن كان من النصارى، وممن كان من المسلمين بعد ذلك، لابد من إسلام الوجه والإحسان في عبادة الله من الإخلاص والاتباع للرسول ﷺ، وإنما نعني من كان مؤمنًا من اليهود أو من أسلم وجهه لله وهو محسن من اليهود والنصارى ممن كان في زمن الأنبياء السابقين، لا نعني أنه يوجد الآن بعد أن يبلغهم خبر

الرسول ﷺ من يمكن أن يكون مؤمنًا أو مسلمًا، بل بلغه خبر الرسول ﷺ وبلغته رسالته أنه يدعو إلى (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، فأبى أن يلتزم بذلك، فهو مخلد في النار، كافر في الدنيا مخلد في النار في الآخرة، ليس بمؤمن ولا بمسلم ولا بناج عند الله بإجماع المسلمين، وإن شك في ذلك من شك.

فعقيدة اليهود أنه لا أحد من أهل الملل ناج إلا من كان يهوديًا، والنصارى مقتضى عقيدتهم أنه لا خلاص إلا بالمسيح؛ ولذلك فهم لا يستطيعون أن يردوا أبدًا على الأجيال من أول آدم عليه السلام حتى المسيح، كيف يخلصون من الخطيئة؟ فهم لم يقبلوا المسيح مصلوبًا، لم يكن هناك صلب أساسًا، ولا الكتب السابقة جاءت بذلك ولا شيء، وهم عندهم لا نجاة إلا بالمخلّص المصلوب. وماذا عن الأمم السابقة؟ والأمم اللاحقة التي لن تقبل هذه الخرافة، والعياذ بالله؟ فيكون هؤلاء من الهالكين؛ لأنهم لم يقبلوا الخلاص المزعوم.

فهم يصرون أنه مهما عملت من الصالحات، ولو عبدت الله ﷻ، ونفذت الوصايا العشر، ونفذت كل وصايا المسيح، ثم لم تقبل المسيح مُخلِّصًا مصلوبًا من أجلك، لم ينفعك شيء، هذا هو اعتقادهم الفاسد، طيب والأمم والأنبياء الذين جاءوا قبل ذلك ماذا سيفعلون، وهم لم يقولوا للناس هذا الكلام، ولا قالوا لهم: يوجد أقنوم لابد أن تؤمنوا به من أقانيم الرب، يُصلب من أجلكم؛ حتى يطهركم من خطاياكم؟ لا موسى قال ذلك، ولا إبراهيم قال ذلك، ولا داود ولا سليمان ولا أحد من الأنبياء قال ذلك قط، والكتاب موجود، أخرجوا أي شيء من ذلك، قولوا أي شيء في مسألة أنه

لابد من يسوع المسيح المُخلِّص المصلوب من أجلك.

نحن عندنا أن هناك إيمان سابق، اليهود - كما قلنا - حصروا الإيمان في اليهود، والنصارى حصروه في طائفتهم، مع أنهم من تناقضهم يقرون بالأنبياء السابقين، فكيف وهم لم يقبلوا المخلص على ما تزعمون؟! أهل الإسلام يقولون: كان هناك مؤمنون من أول آدم وحتى عهد محمد ﷺ، صحيح كانوا قلة في آخر الزمان، لكن إلى آخر الزمان - بفضل الله ﷻ - يوجد مؤمنون؛ هناك مؤمنون من اليهود، ومؤمنون من النصارى، ومؤمنون من الصابئين، ومؤمنون من الذين آمنوا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢]. فهذه حقيقة فعلاً، تجد أنه لا أحد يقول بهذه الحقيقة غير أهل الإسلام، فنحن عندنا نعترف أنه كان هناك مؤمنون مع سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومؤمنون مع سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومؤمنون مع سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبعد ذلك إلى أن بعث النبي ﷺ، فمن صدق منهم النبي ﷺ كان من هذه الأمة، وكان مؤمنًا كواحد من هذه الأمة بفضل الله ﷻ، فالمؤمنون هم الذين يدخلون الجنة، لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، لكن ليس أن أحدًا يبلغه خبر رسول من الرسل فيكذبه فيكون مؤمنًا، من قال ذلك كان مكذِّبًا للقرآن العظيم؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١]. فمن فرّق بين بعض الرسل وقال: نؤمن ببعض - موسى أو عيسى - ونكفر ببعض - نكفر

بمحمد -، وبعد ذلك يقول أحد عنهم إنهم مؤمنون، فهذا كافر بالقرآن العظيم، يكون كذب القرآن، هذا إذا كانوا موحدين، فكيف وهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم؟! وقالوا: عزير ابن الله، وقالوا: المسيح ابن الله، قد قالوا أنواع الكفر المتعددة، والعياذ بالله، ومع ذلك يقولون: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى.

كل فرقة من الفرق المنحرفة تقول: لن ينجو إلا نحن. فإن قيل: أنتم أيضًا - أهل السنة - تقولون ذلك، فأهل السنة يقولون: كلها في النار إلا واحدة. فنقول: لسنا نحن الذين نقول ذلك، الرسول ﷺ هو الذي قال: «**لتفْترقنّ أُمّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وسبْعِين فِرْقةً فواحِدةٌ فِي الْجنّةِ وثِنْتانِ وسبْعُون فِي النّارِ**». قِيل يا رسُول اللّهِ منْ هُمْ قال «**الْجَمَاعةُ**»، وفي الرواية الأخرى قال: «**منْ كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ وأصْحَابِي**»[1].

فنقول كما قال ربنا ﷻ: ﴿**بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ**﴾. ما أساس أهل السنة والجماعة؟ ﴿**بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾**﴾، لابد من الإسلام والإحسان، لابد من أن تحقق الإسلام والإيمان والإحسان الذي جاء به النبي ﷺ، ليس بمجرد الانتساب لا أن تقول: أنا سُنِّي أو أنا منتسب لمنهج أهل السنة، فتكون ناجيًا، لا، بل أين عملك؟ لابد أن تُحسن، لابد أن تتقي الله، لابد أن تكون مسلمًا وجهتك لله ﷻ.

---

(١) سبق تخريجه (١/ ٦٠).

الْمسْأَلَةُ الْحَادِيَةُ والثّمانُون: اتِّخاذُ قُبُور أنْبِيائِهِمْ وصالِحِيهِمْ مساجِد.

الـشـــرح:

هذا مما استفاض، أو قل تواتر عن النبي ﷺ التحذير منه، وبيان أن أهل الكتاب من قبلنا كانوا يتخذون قبور الأنبياء والصالحين مساجد، ونهى هو ﷺ عن ذلك، خطب أصحابه في مرض موته قبل أن يموت بخمس، وقال في خطبته - حديث سمرة رضي الله عنه -: «**أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كانُوا يتّخِذُون قُبُور أنْبِيائِهِمْ مَسَاجِد، ألا فلا تتّخِذُوا الْقُبُور مساجِد، أنّي أنْهاكُمْ عنْ ذلِك**»[1] وفي سياق مرضه ﷺ وفي سياق الموت كان عليه خميصة يغطي بها وجهه فإذا اغتم كشفها، فقال وهو على هذه الحال: «**لعْنةُ اللّهِ علَى اليهُودِ والنّصارى، اتّخذُوا قُبُور أنْبِيائِهِمْ مَسَاجِد. يُحذِّرُ ما صنعُوا لَوْلَا ذلِكَ أُبْرِز قبْرُهُ، غيْر أنّهُ خشِي أنّ يُتّخذ مسْجِدًا**»[2].

وكذلك قال ﷺ: «**إِنَّ مِنْ شِرَارِ الْخلْقِ مَنْ تُدْرِكُهُمْ السّاعةُ وَهُمْ أحْياءُ، والّذِين اتّخذُوا الْقُبُور مساجِد**»[3].

وقال ﷺ لما ذكرت له أم حبيبة وأم سلمة رضي الله عنهما كنيسة رأتاها بأرض الحبشة، وذكرتا ما فيها من الصور، فقال: «**أُولئِكِ إِذا مات فِيهِمُ العبْدُ**

---

(١) سبق تخريجه (١/ ١٧٦).

(٢) سبق تخريجه (١/ ١٧٦).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٥)، وابن حبان (٦٨٤٧).

الصّالِحُ، أوِ الرّجُلُ الصّالِحُ، بنوْا على قبْرِهِ مسْجِدًا، وصوّرُوا فِيهِ تِلْك الصُّور، أُولئِكِ شِرَارُ الخلْقِ عِنْدَ اللَّهِ»[١].

وهذه الأحاديث كلها في الصحيح، ولعْن ﷺ من فعل ذلك يدل على غلظ تحريم هذا الأمر، ولا يُقال: إن هذا فيمن كان يعبد الصالحين، بل إنما ذكر النبي ﷺ من اتخذها مساجد يعبد فيها الله، لكن عند قبورهم؛ وذلك لأن هذا العمل البدعي المحرم ذريعة إلى عبادة غير الله ﷻ، ولقد وقع من هؤلاء الذين اتخذوا القبور مساجد، وصوروا فيها الصور أن عبدت الأوثان والصور من دون الله ﷻ أو مع الله ﷻ، وقال النبي ﷺ: «**اللّهُمّ لا تجْعلْ قبْرِي وثنًا يُعْبدُ، اشْتدّ غضبُ اللَّهِ عَلَى قوْمٍ اتّخذُوا قُبُور أنْبيائِهِمْ مَسَاجِد**»[٢].

قوله: «**اللّهُمّ لا تجْعلْ قبْرِي وثنًا يُعْبدُ**»، يدل على أن هناك من يعبد الأوثان التي على القبور، فإنما يدعو ﷺ من شيء يُخاف منه، وبيّن الذريعة المؤدية إلى صيرورة القبر وما عليه من الآثار (**وثنًا يُعبد**)، بيّن الأسباب المؤدية إلى ذلك، وهو قوله: «**اللّهُمّ لا تجْعلْ قبْرِي وثنًا يُعْبدُ، اشْتدّ غضبُ اللهِ على قوْمٍ اتّخذُوا قُبُور أنْبِيائِهِمْ مساجِد**».

فعلمنا من ذلك أن اتخاذ القبور مساجد يؤدي إلى صيرورتها أوثانًا تعبد من دون الله، فدل ذلك على أن النهي عام، سواءً قصد التبرك بعبادة الله عندها، أو قصد تعظيم البقعة من أجل دفن الصالحين فيها، أو غير ذلك

---

(١) سبق تخريجه (١/ ١٨٣).
(٢) سبق تخريجه (١/ ١٧٦).

من الأسباب؛ لأن الأحاديث عامة، ولا أفضل ولا أكثر بركة من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فدل ذلك على خطورة اتخاذ القبور مساجد، وأن هذا من الكبائر، وبعض المتقدمين من أهل العلم قد أطلق الكراهة، والمظنون بالعلماء أنهم قصدوا الكراهة الشرعية التي تشمل المحرم والمكروه، فلقد قال ﷻ بعد أن ذكر الشرك والعقوق وقتل النفس بغير حق، وغير ذلك من الأحكام العظيمة الغليظة من أول الشرك فما بعده -: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨]، فهذه الكراهة كراهة بالشرع ولا يلزم منها الكراهة الاصطلاحية التي هي خلاف الأولى، وإنما هي: الشرك مكروه عند الله كرهه الله، وعقوق الوالدين مكروه كرهه الله، وقتل النفس وفعل الزنا وظلم اليتيم وغير ذلك، كل ذلك مكروه تحريمًا، ليس أنه مكروه بمعنى التنزيه؛ فلذلك نقول: من قال من أهل العلم: أكره أن يُتخذ القبر مسجدًا، أخشى عليه الفتنة وعلى من بعده، إنما قصد بذلك الكراهة الشرعية(١)، كما ورد عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإنما نهى رسول الله ﷺ عن ذلك سدًا لذريعة الشرك، كما فهمه الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: «**أخشى عليه - يعني على من اتخذ القبر - وعلى من بعده الفتنة**». وليس لأجل نجاسة الآدمي بعد موته، ولا لأن صديد الموتى يختلط بالتربة ونحو ذلك، فإن هذا ليس بصحيح أصلاً، وليس هذا صارفًا يصلح لأن يجعل هو علة النهي، حتى إذا وضع شيء طاهر زالت العلة، العلة باقية على أي الأحوال، والنبي ﷺ حين حذر من اتخاذ قبور الأنبياء

---

(١) انظر: فتح المجيد (ص٢٣٢).

مساجد، بالقطع واليقين أن أبدان الأنبياء لا تتنجس، فهي طاهرة أحياءً وأمواتًا، وإذا كان المؤمن الذي ليس بنبي طاهر حيًا وميتًا، بل الصحيح أن الإنسان كإنسان لا ينجس بالموت، والله أعلى وأعلم.

فعلى أي الأحوال المؤمن لا ينجس بحال، كما قال النبي ﷺ: «**إِنّ الْمُسْلِم لا ينْجُسُ**»(١).

فإذًا، بدن المؤمن ولو مات لا يزال طاهرًا، كما ذكرنا بالإجماع أن الأنبياء أبدانهم طاهرة في الحياة وبعد الوفاة؛ لذلك لا يجوز التعليل بذلك؛ لأن النص ورد في قبور الأنبياء التي لا يُتصور فيها النجاسة، والأمر عام في حديث أم سلمة وأم حبيبة بين قبر أو قبرين أو ثلاثة، بل ظاهر حديث أم سلمة وأم حبيبة أنه في قبر واحد؛ لأن بعض المتأخرين قال: لا تسمى مقبرة إلا إذا كانت فيها ثلاثة قبور؛ وأما ما هو أقل من ذلك فلا يُعتبر، فلقد قال النبي ﷺ: «**أُولئِكِ إِذا مات فِيهِمُ العبْدُ الصّالِحُ، أوِ الرّجُلُ الصّالِحُ، بنوْا على قبْرِهِ مسْجِدًا، وصوّرُوا فِيهِ تِلْك الصُّور، أُولئِكِ شِرَارُ الخلْقِ عِنْد اللّهِ**»(٢)، فدل ذلك على أنه لا فرق بين أن يكون قبر أو قبرين أو ثلاثة؛ لذلك العلة في هذا هو خوف تعظيم الميت تعظيمًا فوق ما شرع له، وارتباط الناس به، وخصوصًا مع اندثار العلم وانتشار الجهل يكثر في الناس الخلل في باب

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٣)، ومسلم (٣٧١) عَنْ أبي هُرَيْرَة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ولفظه: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَقِيَهُ فِي بَعْضِ طَرِيقِ الْمَدِينَةِ وَهُوَ جُنُبٌ، فَانْخَنَسْتُ مِنْهُ، فَذَهَبَ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: كُنْتُ جُنُبًا فَكَرِهْتُ أَنْ أُجَالِسَكَ وَأَنَا عَلَى غَيْرِ طَهَارَةٍ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ إِنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَنْجُسُ**».

(٢) سبق تخريجه (١/ ١٨٣).

الاعتقاد، ويكثر عندهم الغلو في الصالحين، ولقد قال النبي ﷺ: «**إِيّاكُمْ والْغُلُوّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلكُمُ الْغُلُوُّ**»[(١)] إذًا، العلة في منع اتخاذ القبور مساجد هو خوف الغلو في الصالحين من الجهال ومن يجري مجراهم، هم أنفسهم بعد حين بعد اتخاذهم القبور مساجد يغالون فيمن اتخذوهم، وينسبون إليهم أنواع الكرامات، التي تتحول تدريجيًا إلى كون هؤلاء يتصفون بصفات الربوبية والألوهية، بزعم أن هذه كرامات، فيقولون: من كراماته أنه يجيب من دعاه، ومن كراماته: أنه يسمع كل من يناديه ولو في أقاصي البلاد، ولو في الصين. ويثبتون له السمع المحيط، والبصر المحيط، والقدرة التامة، والشفاعة الشركية التي يزعمونها، حتى قال قائلهم ناسبًا ذلك إلى الله ﷻ: الملك مُلكي وصرفتُ فيه البدوي. نعوذ بالله، يفترون على الله الكذب، فيقولون: هذه من كرامات الأولياء، وكل هذا من الضلال المبين سببه بداية الغلو وسببه اتخاذ القبور مساجد؛ لذلك نقول: إنما انتشر هذا الأمر بعد ما سيطرت دول البدع والضلال والانحراف من الدولة العبيدية المسماة في التاريخ بالفاطمية، وهي بريئة من فاطمة ﵂ وفاطمة بريئة منها، انتشرت بدعة اتخاذ القبور مساجد عندهم، وصارت بعد ذلك ذريعة من ذرائع الشرك، والعياذ بالله من ذلك، وهذا أمر ملحوظ في كل مكان انتشرت فيه هذه البدعة، تجد أنواع العبادات تُصرف لغير الله ﷻ عند هذه القبور، فهم ينذورن لها، ويحلفون بها، ويطوفون حولها، ويسجدون حولها، ويتضرعون حولها، ويشتكون أعداءهم إليها، ويتمسحون بحديدها ويتبركون بآثارها، ويحتفلون بالموالد حولها؛ حتى تُضاهى بموسم الحج،

---

(١) سبق تخريجه (١/ ١٥٥).

ويُقال عند الغلاة منهم: هذا حج الخاصة، وحج الكعبة حج العامة، والعياذ بالله، وهذا كله من أضل الضلال، والعياذ بالله، بل جعل زيارة الأولياء المزعومين وبعضهم ليس بِوليّ، ومنهم من ليس بموجود أصلاً في القبر، يُسمى باسمه وليس له وجود، فجعْل زيارة هؤلاء في موالدهم أعظم مِن حج بيت الله الحرام هو كفر بالله ﷻ.

وكما ذكرنا: النذر والطواف والذبح والدعاء والتضرع لهم، كل ذلك من الشرك؛ لأنه دعاء غير الله، صرف العبادة لغير الله، ولقد نصت الآيات الأدلة في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ على أن هذا شرك: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣-١٤]، وقال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ [يونس: ١٠٧].

والآيات في دعاء الله ﷻ وترك دعاء من دونه، ووصم من دعا غير الله بالشرك من أكثر الآيات بيانًا في القرآن العظيم، وهذا كله مُشاهد في هذه القبور المتخذ عليها المساجد، تبدأ بِنِيّةِ عبادة الله، ثم تتحول بوسوسة الشيطان إلى عبادة غير الله من أصحاب هذه القبور، التي تسمى المساجد باسمهم؛ لذلك كان هذا من فعل أهل الجاهلية، ولقد نصت السنة على أن هذا من فعل اليهود والنصارى، والقرآن قد ذكر في قصة أصحاب الكهف أن هذا فعل من ظهروا عليهم، قال الله ﷻ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١]، وبعض الجهلة والمقلدين والمغرضين

من أهل البدع يحتج بهذه الآية على جواز اتخاذ القبور مساجد، تاركًا الأحاديث الصحيحة، بل ضاربًا بها عرض الحائط، لا يعبأ بها ولا يتلفت إليها، بل يزعم أحيانًا ضعفها وأحيانًا نسخها إذا عجز عن الجواب عنها، باحتجاج بأن الله أقر الذين عثروا على أصحاب الكهف على اتخاذ المسجد عليهم بعد أن ماتوا، وهذا من أبطل الباطل، فنقول: شرعنا إنما يثبت بالكتاب والسنة، فمن قال إن الله رضي ذلك وأقره ﷻ؟! وما مدح الذين اتخذوا هذا الأمر، وإنما قال: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾، والغلبة عند أهل الكتاب في الغالب إنما تكون للأحبار والرهبان الذين ذمهم الله ﷻ - وليس لأهل العلم - وإن كانوا منتسبين إلى الأنبياء، فنقول: لمْ يقل ﷻ: قال الذين آمنوا، قال الذين أوتوا العلم، وإنما قال: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾. وبيّن الرسول ﷺ أن من فعل ذلك ملعون، فكيف يُقال: إن ذلك أقره القرآن؟![(١)]

فنقول: قول بعض أهل العلم (**مكروه**)، إنما قصد به الكراهة الشرعية الاحتجاج بالآية ليس له وجه على الإطلاق؛ لأنه لم يُقرّ؛ لأن الوحي كتاب وسنة، والسنة جاءت بلعن من فعل ذلك، فدل على أنه لا يجوز أن يُقتدى بهؤلاء بعد أن أتى شرعنا بخلافه، بل وشرعهم لم يأت أصلاً بذلك؛ لأنه لو كان شرعهم باتخاذ القبور مساجد، لما لعنوا على ذلك، ولما كانوا شرار الخلق عند الله ﷻ؛ لأن ذلك جائز في شريعتهم، فالشريعة واحدة في هذا الباب وهو النهي عن الغلو، قال النبي ﷺ: «**إِيّاكُمْ والْغُلُوّ فِي الدِّينِ، فإنّما**

---

(١) انظر: (١/ ١٩٠).

أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ»[١].

يعودون فيحتجون بقبر النبي ﷺ من أنه في مسجده، فنقول: مات النبي ﷺ ومسجده ليس به قبر على الإطلاق، ودفن ﷺ بحجرة عائشة رضي الله عنها بيته ﷺ؛ لأن الأنبياء يدفنون حيث قبضوا، فتم التشريع على ذلك، فكيف يكون فعل أناس بعد عهده ﷺ في عصر التابعين ناسخًا لنهيه ﷺ؟! ومن يملك أن يزعم نسخ شيء من الكتاب أو السنة بفعل بعض الأمة، فإن هذا خلل عظيم، فالله ﷻ هو الذي ينسخ، والرسول ﷺ هو الذي يبين النسخ، فكيف يدعي من يدعي أن هناك نسخ في هذه الأمور العظيمة، التي لم يرد قط ما يخالفها، بل إن رسول الله ﷺ أبلغ بها الناس في مرض موته، وقبل أن يموت بخمس، فكيف يمكن أن تكون هذه منسوخة؟! فليست بمنسوخة وأما إدخال القبر في المسجد فتم تحت ضرورة التوسعة، وفي حقيقة الأمر بنوا حول القبر جدارًا خماسيًا يمنع من استقبال القبر للصلاة، وبالتالي اتسع المسجد من حول القبر، ولم يتخذ القبر مسجدًا، لم يدخل الناس إلى القبر في حياة عائشة رضي الله عنها للصلاة في الحجرة، وإنما كانوا يصلون في المسجد، ثم يأتون فيسألون أم المؤمنين رضي الله عنها عما شاءوا، وما استأذن أحد قط على عائشة رضي الله عنها ليدخل ليصلي بجوار قبر النبي ﷺ، ولم ينقل حرف واحد من ذلك؛ ولذلك نقول: إن المسجد اتسع من حول القبر، وبني حول القبر جدار خماسي بشكل خماسي رأس مثلثه عكس اتجاه القبلة؛ حتى لا يتمكن أحد من أن يستقبل القبر مباشرة بالصلاة.

(١) سبق تخريجه (١/ ١٥٥).

فتبين بذلك حرص من فعل ذلك، من وسع المسجد من حول القبر، ألا يستقبل الناس القبر، ولا أن يدخلوا إلى القبر ليصلوا فيه، فلا يقال إذًا: من صلى في مسجد الرسول ﷺ على حاله الذي هو عليه الآن، أنه قد اتخذ القبر مسجدًا، إلا من نوى ذلك، وهذا أمر ليس بظاهر، ولا يُطلع عليه وذنبه على من نواه، أعني: أنه يأتي إلى المسجد يصلي؛ لأجل وجود القبر، كما أن البعض يرى أن فضيلة المسجد لأن الرسول ﷺ قد دفن فيه، وهذا من جهلهم وضلالهم، فإن المسجد له فضيلته في حياة الرسول ﷺ ثابتة، فلا تزداد بعد وفاته ﷺ بتوسعة المسجد من حول القبر؛ لذلك نقول: إن مسجد الرسول ﷺ لا يمكن نقله؛ لأن الفضيلة فيه حيث هو في مكانه، ولا يمكن نبش قبر النبي ﷺ بحال من الأحوال ولا نقل جثمانه منه؛ ولأن الأنبياء يدفنون حيث قبضوا، واتسع المسجد من جميع الجهات، وبقيت هذه الجهة تحتاج إلى التوسعة فوسعوا من حوله، ومن هنا بقي المسجد في الحقيقة ليس به قبر، وإنما هو متسع من حول القبر، كما قد نشبه: في بعض المساجد يوجد مثلاً مدخل لسلم داخلي قد يكون متصلاً بالمنزل، يتسع المسجد من جهات، ويبقى هذا خاصًا بأهل المنزل المجاور ويكون خارجًا عن الوقف، يعني: الناس بنوا مسجدًا، وهذا المسجد كان هناك سلم مثلاً بجواره في بيت أو منزل مجاور، ثم اتسع المسجد في الدور الأول أو الثاني، وبقي هذا السلم لاستعمال أهل العقار، وهو في الحقيقة خارج المسجد، فحكمه أنه خارج عن الوقف؛ ولذلك الجزء الخاص بقبر النبي ﷺ خارج عن وقف المسجد، وإنما هو قبر النبي ﷺ.

لا يُتخذ القبر مسجدًا إلا بأحد هذه الأمور الآتية:

أولاً: أن يُبنى عنده بناء لأجله، فلو أن المسجد قد بُني ابتداءً وكان بينه وبين المقابر فاصل، واحتاج إلى التوسعة، فاتسع حتى اقترب من المقابر، ولكن ينبغي أن يظل هناك فاصل، نقول: هذا المسجد لم يُبنى من أجل القبور، وبالتالي فهذا البناء ليس من اتخاذ القبور مساجد، لكن من قصدوا إلى قبر رجل صالح وبنوا بجواره، سواء في قبلته، أو في عكس اتجاه القبلة، أو حوله، أو فوقه، بأي طريقة كانت، ليس فقط أن اتخاذ القبر مسجدًا أن يأتي عنده قدر أربعة أذرع في ثلاثة أذرع، ويقول: هذا فقط هو المسجد! وهل من عاقل يقول: إن الكنيسة التي رأتها أم حبيبة وأم سلمة ﵄[(١)] كانت على قدر قبر الرجل الصالح ثلاثة أذرع في أربعة أذرع؟! الكنيسة عظيمة رأتاها بأرض الحبشة، وكانت فيها صور، والنبي ﷺ بيّن أنهم بنوا على قبره مسجدًا، ليس أنه يقصد الثلاثة أذرع في أربعة أذرع، وهذا ليس بمعتاد أن يكون كنيسة ولامعبدًا ولا شيئًا على الإطلاق؛ لأن بعض الذين يريدون إضحاك الناس عليهم أو يقع ذلك، يقولون: إنما ينهى عن هذا الموضع فقط إذا بنى على قدر القبر؛ أما إذا بنى حوله يمينًا وشمالاً فلا بأس، والعجب أن يُظن أن هذا من أهل العلم، مع أن النبي ﷺ نهى عن ذلك، كما ينهاهم عن شيء لا يتسع لقدر رجل أو رجلين يصليان، ويقال: هذا هو المنهي عنه فقط. لا، بل كل ما بني عند القبر؛ أمامه أو خلفه، حوله أو بجواره، عن يمينه أو شماله لأجل معنى القبر، فهو من اتخاذ القبور مساجد.

---

(١) كما في الحديث الذي سبق تخريجه (١/ ١٨٣).

ثانيًا: القصد بالصلاة إلى القبر من اتخاذ القبور مساجد، نهى الرسول ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد، وقال: «**لا تُصلُّوا إلى الْقُبُورِ، ولا تجْلِسُوا عليْها**»[1]، فهذا يشمل من صلى فوقها، ويشمل من صلاها إليها، وبعض المتأخرين أيضًا يحصر الصورة في هذا، يقول: إنما يُنهى عن الصلاة في المسجد الذي به قبر إذا كان في القبلة فقط. وهذا باطل أيضًا، بل حتى ولو كان في مؤخرة المسجد أو حتى بجواره، فإن بناء المكان للصلاة عند القبر لأجل معنى الرجل الصالح فداخل في النهي؛ لأن الحديث عام: اتخذوا القبور مساجد، قال: بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور، فتشمل ما بُني في أي جزء من أجزاء المسجد، وليس أنهم بنوا عليه ذلك القدر فقط، والكنيسة طبعًا كبيرة جدًا، فالقبر الذي سيبنى سيكون جزءًا صغيرًا جدًا منها، والباقي عن يمينه أو شماله، والرسول لم يستفسر، ولم يقل: أكان في القبلة؟ أكان في غيرها؟ بل قال: أولئك شرار الخلق عند الله.

فدل ذلك على أن هذه الصورة صورة أغلظ؛ لأنها يجتمع فيها المعنيان، وخوف الفتنة فيها أشد، أعني: أن يكون القبر في القبلة، أو أن يصلي على المقبرة مباشرة، هذا أغلظ، لكن من اتخذ القبر مسجدًا بوجود بناء عنده لأجل القبر، فسواء كان في القبلة، أو لغير القبلة، فهو داخل في النهي.

وصورة ثالثة: وهو قصد الصلاة، أن يقصد أن يصلي عنده، أن يأتي ليصلي بجواره تبركًا وتعظيمًا، مع أن بعض المتأخرين ممن ينتسب إلى أهل

(١) أخرجه مسلم (٩٧٢) من حديث أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه.

العلم نص على مشروعية ذلك، وهو باطل بلا شك، فإنه كل بقعة تقصد بالصلاة فهي قد اتخذت مسجدًا؛ لأن الرسول ﷺ قال: «**وجُعِلتْ لِي الْأَرْضُ مسْجِدًا وطهُورًا**»(١). لولا ما ورد من الأدلة من أن من لم يقصد الصلاة إلى القبر، ووقع دون علم منه مثلاً بوجود القبر، أو جعل القبر خلفه تخلصًا من ذلك ولم يقصد الصلاة عنده، لقلنا: قد اتخذه مسجدًا. لكن ثبت أن أنس رضي الله عنه صلى إلى قبر: «**بيْنما أنسٌ يُصلِّي إلى قبْرٍ، ناداهُ عُمرُ الْقبْر الْقبْر، فظنّ أنّهُ يعْنِي الْقمر، فلمّا رأى أنّهُ يعْنِي الْقبْر، جاز الْقبْر وصلّى**»(٢)، فتخطى أنس رضي الله عنه حتى جعل القبر خلفه، فصلى.

فدل ذلك أن من لم يعلم بوجود القبر فصلاته صحيحة؛ لأنه لم يقطع صلاته، وأقره عمر رضي الله عنه على ذلك، وهما صحابيان لا نعلم لهما مخالف في ذلك، وأنه حين لا يكون قاصدًا للصلاة إلى القبر، فلو صلى خلفه فقد زالت عنه العلل كلها في هذه المسألة، وبالتالي لو صلى دون قصد منه، كما يقع في كثير من المساجد التي تكون قريبة من المقابر، والناس إنما

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١)، بلفظ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**». واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٦١٠)، والبغوي في شرح السنة (٢/ ٤١١)، وبوب له البخاري (١/ ٥٢٤ فتح) (بَابٌ: هَلْ تُنْبَشُ قُبُورُ مُشْرِكِي الجَاهِلِيَّةِ، وَيُتَّخَذُ مَكَانُهَا مَسَاجِدَ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**لَعَنَ اللَّهُ اليَهُودَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**». وَرَأَى عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يُصَلِّي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: القَبْرَ القَبْرَ، وَلَمْ يَأْمُرْهُ بِالإِعَادَةِ».

يقصدونها للصلاة فيها صلاة الفريضة ثم صلاة الجنازة لقربها من المقابر، فهذه المسجد مع وجود فاصل، سواء جدار، أو ممر صغير أو كبير، فكلما زاد كلما كان أبعد عن الشبهة، لكن يوجد ممر ولو صغير، والناس لا يقصدون هذا المسجد من أجل القبر، فهذه لا يُنهى عنها.

وكذلك من كان سائرًا مثلاً قريبًا من المقابر، ليس في وسط المقابر، وصلى في الطريق المجاور، فهو ليس ممن اتخذ القبور مساجد، والله أعلى وأعلم.

فهذه المسألة مما كثر اللغط حوله وكثر الاستدلال الباطل، كما ذكرنا يستدلون بفعل أناس من عصر التابعين، لم يقصدوا ما أراد هؤلاء من اتخاذ القبور مساجد، والصورة التي فعلوها هي توسعة مسجد النبي ﷺ من حول القبر، مع أخذ الاحتياطات ببناء الجدار الخماسي كما ذكرنا، حتى لا يستقبل الناس القبر.

يبقى احتجاج بعض المعاصرين بأن أثرًا ورد عن الزهري أن أبا بصير لما مات اتخذ بعض الصحابة قبره مسجدًا، وهذا حديث ضعيف مرسل، لا تثبت به حجة من جهة الإسناد[1]، ثم لو ثبت لما كان فيه حجة؛ لأنه لابد أن يكون الرسول ﷺ قد اطلع على ذلك فأقره، حتى يقال: قد تعارض هذا مع ما ثبت من نهي رسول الله ﷺ عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، فنبحث عن المرجح عند ذلك، نقول: الترجيح سوف يكون بالقطع للأحاديث المستفيضة، التي يعني يبلغ الصحيح منها أكثر من عشرة أحاديث

(١) سبق تخريجه (١/ ١٨٩).

عن نحو ثلاثة عشر صحابيًا، ممن ثبت عنه ما روى عن النبي ﷺ من تحريم اتخاذ القبور مساجد[١].

فلو كان هذا الأثر صحيحًا، وعُلم أن النبي ﷺ أقر من اتخذ على قبر أبي بصير رضي الله عنه مسجدًا، لكان الترجيح بعد ذلك؛ لأنه إذا لم يمكن الجمع لجأنا إلى الترجيح، والترجيح هنا بكثرة الأحاديث الثابتة.

ولو زعموا النسخ، نقول: أي شيء نسخ نهي النبي ﷺ، وهو في مرض موته، قبل أن يموت بخمس، وأبو بصير إنما مات قبل فتح مكة؛ فلذلك نقول: لو لكان حديث اتخاذ المسجد على قبر أبي بصير لكان منسوخًا للنهي عن ذلك.

كيف وهو لم يثبت؟! وكيف وهو لم يطلع النبي ﷺ عليه؟! فأي شيء أعجب من أن يحتج بهذا على مثل هذا الذي ذكروه؟!

كيف تترك الأحاديث الصحيحة إلا للتقليد الأعمى، وإلا للتعصب للرأي والمذهب حول هذه المسألة الخطيرة، أن أسلافهم كانوا يصلون في المساجد التي بها قبور؟!

الشيخ الفلاني كان يصلي في المساجد التي بها قبور، والشيخ الفلاني أوصى عند موته أن يُجعل مسجد عند قبره، وفعل ذلك بالفعل، فأي احتجاج في هذا؟! وأي حجة بعد كلام النبي ﷺ؟!

لذلك القضية قضية خطيرة، وهي ذريعة للشرك - ونسأل الله العافية -،

---

(١) راجع (١/ ١٧٦، ١٨٣).

وأنواع الشرك واقعة بالفعل حول هذه المساجد التي بنيت على القبور.

يبقى أن نتكلم عن حكم الصلاة في المساجد التي بُنيت على القبور، نقول: هذا النهي هل يقتضي الفساد مطلقًا كما هو مذهب الحنابلة، أم هو يقتضي التحريم، ولا يلزم منه الفساد كما هو مذهب من يقول بانفكاك الجهة؟

الذي يظهر - والله أعلى وأعلم - أن هذه الأحاديث هي من باب سد الذريعة، ذريعة الشرك، ولا شك في لزوم سد ذريعة الشرك، وأن الشرع قد حمى حِمى التوحيد؛ ولذلك نقول: إن من لم يقصد تعظيم القبر بالصلاة عنده، فهذا لم يقع في هذا الشرك الذي قد نهي عنه، وإنما صلى صلاة يُنهى عنها تحريمًا؛ لأجل ألا يكون هناك ذريعة بعد ذلك في التعظيم والغلو.

لذلك نقول: الذي يظهر - والله أعلى وأعلم - أن من صلى كذلك أثِم، أن من صلى في المسجد الذي بُني على القبر أو صلى إلى القبر دون نية التعظيم، وإنما حضر لأنه كان مارًا، أو ليحضر مجلس علم يظن أن من عنده علم لا يجده في غير هذا المكان، فهذا لا تبطل صلاته وإن أثم، ومن لم يكن يعلم بوجود القبر، فصلاته صحيحة دون إثم؛ لأن الإثم مرتبط بالتمكن من العلم أو من العلم بوجود النهي أو بوجود النهي في هذا الأمر الواقع، يعني: بوجود النهي شرعًا ووجود المنهي عنه في الواقع؛ وأما إذا كان يقصد تعظيم القبر بالصلاة عنده، فهذا عين المحاداة لله ولرسوله ﷺ، هذا من أجله نهى عنه الرسول ﷺ، وهو واقع في بدايات هذا الشرك، والعياذ بالله، يبدأ بالشرك الأصغر، ثم يتعاظم حتى ربما وصل إلى الأكبر،

فنقول: إن الصحيح في هذه المسألة أن من قصد المسجد لأجل القبر، كمن يسافر ويشد الرحل ليصلي في مسجد الولي الفلاني متبركًا بذلك قاصدًا أن الصلاة هناك أفضل، فهذا صلاته باطلة، والله أعلى وأعلم.

لكن مسألة بطلان الصلاة وصحة الصلاة مسألة اجتهادية، ومن العلماء من يطلق بطلان الصلاة مطلقًا، وهم أكثر الحنابلة، وإن كان بعضهم يشترط أن يكون هناك أمور على الأقل، حتى يقال إنها مقبرة، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة في المقبرة والحمام(١).

والصحيح أنه لا فرق بين أن يكون هناك قبر واحد أو اثنين أو ثلاثة كما رجح ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وبيّن الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ حكم هذه المساجد، ماذا يجب أن يُفعل بها؟ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وعلى هذا: فيُهْدمُ الْمسْجِدُ إذا بُنِي على قبْرٍ، كما يُنْبشُ الْميِّتُ إذا دُفِن فِي الْمسْجِدِ، نصّ على ذلِك الْإِمامُ أحْمدُ وغيْرُهُ، فلا يجْتمِعُ فِي دِينِ الْإِسْلامِ مسْجِدٌ وقبْرٌ، بلْ أيُّهُما طرأ على الْآخرِ منع مِنْهُ، وكان الْحُكْمُ لِلسّابِقِ، فلوْ وُضِعا معًا لمْ يجُزْ، ولا يصِحُّ هذا الْوقْفُ، ولا يجُوزُ، ولا تصِحُّ الصّلاةُ فِي هذا الْمسْجِدِ؛ لِنهْيِ رسُولِ اللّهِ ﷺ عنْ ذلِك ولعْنِهِ منِ اتّخذ الْقبْر مسْجِدًا أوْ أوْقد عليْهِ سِراجًا، فهذا دِينُ الْإِسْلامِ الّذِي بعث اللّهُ بِهِ رسُولهُ ونبِيّهُ، وغُرْبتُهُ بيْن النّاسِ كما ترى**)(٢) فقال: (**وكان**

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٤٩٢)، والترمذي (٣١٧)، وابن ماجه (٧٤٥) والدارمي (١٤٣٠) وأحمد (٣٠٨/١٨)، والبيهقي في السنن (١/ ٤٣٤، ٢/ ٤٣٥)، وابن خزيمة (٧٩٢)، وصححه الحاكم (١/ ٢٥١)، ووافقه الذهبي. «**الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدٌ إِلَّا الْمَقْبَرَةَ وَالْحَمَّامَ**».
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٠١).

الْحُكْمُ لِلسّابِقِ)، فإن كانت المقبرة أو القبر سابقًا وجب إزالة المسجد، وهذا هو الصحيح؛ لأن هذه المقبرة تصير وقفًا على من دُفِن بها، مقبرة له، لايجوز أن تُغيّر عن وصفها، ولا يجوز نبش هذا القبر ولا تحويله عن مكانه إلا لضرورة، ولا ضرورة لوجود هذا المسجد في هذا الموقع، بل يُبنى بعيدًا عنه في أي مكان آخر، وبالتالي فهذا المسجد بني في مكان لا يجوز البناء فيه، فيجب إزالة هذا المسجد؛ وأما إذا كان المسجد هو الذي بني أولاً فيجب إزالة القبر؛ لأن هذا الميت قد دُفن في موضع لا يجوز فيه الدفن، فالمسجد ليس بمقبرة، لا يجوز الدفن في المساجد، ولا يجوز أن يزال جزء من المسجد عن وصفه كمسجد، كوقف لله ﷻ للصلاة فيه، حتى يجعل مقبرة يمنع من الصلاة فيها وعندها، فهذا تعطيل لمنافع المسجد الموقوف لأجل هذه المنافع وهي الصلاة؛ فلذلك يجب إزالة هذا القبر الذي دُفن صاحبه فيه داخل المسجد؛ لأنه دفن في مكان لا يجوز أن يُدفن فيه، فيجب إخراجه ونقله إلى مقابر المسلمين، ونبشه في هذه الحالة للضرورة واجب، حتى يزال الوصف المحرم الذي حصل بسبب وجود هذا القبر داخل المسجد؛ وأما إذا لم يُعلم أيهما أسبق؟ فإما أن يُزال المسجد، وإما أن يزال القبر، والله أعلى وأعلم، فأي ذلك أجزأ، يمكن أن يزال القبر وينقل إلى مقابر المسلمين، أو أن يمنع من الصلاة في المسجد لوجود مساجد أخرى، وعلى أي الأحوال كما قال ابن القيم رحمه الله: (**فلا يجْتمِعُ فِي دِينِ الْإِسْلامِ مسْجِدٌ وقبْرٌ**)[1].

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٠١).

وإنما حصل ذلك في بلاد العالم الإسلامي لما انتشرت البدع ولما انتشرت الرافضة، ودول الرفض التي قامت بنشر فكرة اتخاذ القبور مساجد، كما ذكرنا الدولة الباطنية.

ومِن أعجب ما عندهم في أمر مسجد الحسين رضي الله عنه أن هناك ثلاثة أضرحة باسم الحسين؛ ضريح في دمشق، وضريح في القاهرة، وضريح في كربلاء حيث دفن الحسين رضي الله عنه حيث قتل[1]، فالعجب أنهم يدعون ويخترعون القصص المكذوبة التي لا دليل عليها، التي لو صحت لكان واجبًا إزالة المقام الذي دفن فيه الرأس، أعني: أن الرأس نُقلت بعد أن قطعت من جسده ونقلت إلى دمشق ثم نقلت بعد ذلك إلى القاهرة، والقاهرة إنما بنيت بعد موت الحسين وقتله رضي الله عنه بأكثر أو بنحو الثلاث مائة سنة، أو بنحو المائتين والخمسين سنة أو زيادة على ذلك، فكيف يُقال: إن هذا المشهد... يعني جاءوا برأس الحسين! من أين لهم أن هذا رأس الحسين؟!

ولذلك نقول: كثير جدًا من هذه المقامات والأضرحة ليس بها شيء أصلاً، وقد أخبرني بعض الإخوة مباشرة أن مسجده الذي كان به قبر واحتاجوا لترميمه أنهم وجدوا به عظام بعض الحيوانات عندما فتحوا القبر، وأصرت وزارة الأوقاف على إعادة الضريح بعد أن أزيل عظم الحيوان هذا ودفن بعيدًا، ومع ذلك أصروا على إقامة الضريح، وهذا لا يمنع من كون هذا المسجد لا يُصلى فيه، حتى لو أزيل القبر في الحقيقة وبقي الضريح؛ لأن هذا الضريح هو الوثن الذي يُعبد، وكما قال النبي ﷺ: «**اللّهُمّ لا تجْعلْ**

---

(١) راجع (١/ ١٨٦).

قبْرِي وثنًا يُعْبدُ»(١)، والعلة في النهي عن ذلك خوف التعظيم والغلو والشرك وهو حاصل بوجود الضريح، ولو لم تكن عظام الميت داخل هذا الضريح.

نسأل الله العافية، نسأل الله أن يعافي المسلمين من هذا البلاء الذي انتشر وعم، ونسأل الله ﷻ أن يعلمنا ويفقهنا في ديننا، وأن نلتزم بطاعة ربنا وسنة نبينا ﷺ.

---

(١) سبق تخريجه (١/ ١٧٦).

الْمسْأَلَةُ الثّانِيةُ والثّمانُون: اتِّخاذُ آثارِ أنْبِيائِهِمْ مَسَاجِد كَمَا ذُكِرَ عَنْ عُمَر.

الشـــــرح:

الفرق بين هذه المسألة والتي قبلها أن اتخاذ القبور مساجد مختص بالقبر ؛ وأما هنا فالآثار بمعنى الأماكن التي نزل فيها الأنبياء أو سكنوها ، وهذا نوع تعظيم للبقعة ، وقد يقصد صاحبه الذي اتخذه ، أعني : قد يقصد التبرك بذلك وأصل التبرك طلب البركة من ملابسة أو مصاحبة أو ملامسة شيء ورد به الدليل ، هذا التبرك الشرعي[(١)] ، أن يُطلب الخير من مصاحبة وملامسة وملابسة مثل هذا الشيء ، وإنما ورد الدليل بآثار الأنبياء كما قال ﷻ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢٤٨]. وثبت أن الصحابة ﭫ كانوا يتبركون بآثار النبي ﷺ ، كما ثبت أنهم كانوا ما تنخم نخامة إلا سقطت في كف أحدهم ، فمسح بها وجهه ويديه ، وما توضأ وضوءًا إلا كادوا يقتتلون على وضوئه[(٢)] ، وثبت أنه فرّق شعره ﷺ بين

(١) انظر : لسان العرب (١٠/ ٣٩٧)، والمعجم الوسيط (١/ ٥١)، والمصباح المنير (ص٢٩).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري(٢٧٣١ ، ٤١٧٨ ، ٤١٨٠) من حديث المسور ابن مخرمة ، ومروان بن الحكم ، يزيد أحدهما على صاحبه قالا : «. . . **ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ النَّبِيَّ ﷺ بِعَيْنِهِ ، قَالَ : فَوَاللهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا** =

أبي طلحة والنصف بين أصحابه(١)، وثبت أن بعض الصحابة ﷺ طلب ثياب النبي ﷺ لتكون كفنًا له، فكانت كفنه(٢)، وكل هذا أقره النبي ﷺ، وثبت أن أم سليم ﷺ كانت تجمع عرق النبي ﷺ ويجعلونها للاستشفاء به كدواء(٣)، فكل هذا مما ورد به الدليل، ولم يرد الدليل على التبرك بالأماكن التي نزل فيها الرسول ﷺ، وإنما ورد نزوله ﷺ بأماكن هي فيها فضيلة في

= يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمُوا، خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ. فَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ، وَاللهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا ﷺ».

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٧١)، ومسلم (١٣٠٥)، واللفظ لمسلم من حديث أنس بن مالك ﷺ: «لَمَّا رَمَى رَسُولُ اللهِ ﷺ الْجَمْرَةَ وَنَحَرَ نُسُكَهُ وَحَلَقَ نَاوَلَ الْحَالِقَ شِقَّهُ الْأَيْمَنَ فَحَلَقَهُ، ثُمَّ دَعَا أَبَا طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيَّ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، ثُمَّ نَاوَلَهُ الشِّقَّ الْأَيْسَرَ، فَقَالَ: احْلِقْ فَحَلَقَهُ، فَأَعْطَاهُ أَبَا طَلْحَةَ، فَقَالَ: اقْسِمْهُ بَيْنَ النَّاسِ».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٢٧٧، ٢٠٩٣، ٥٨١٠) عَنْ سَهْلٍ ﷺ: «أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتِ النَّبِيَّ ﷺ بِبُرْدَةٍ مَنْسُوجَةٍ، فِيهَا حَاشِيَتُهَا، أَتَدْرُونَ مَا البُرْدَةُ؟ قَالُوا: الشَّمْلَةُ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: نَسَجْتُهَا بِيَدِي فَجِئْتُ لِأَكْسُوَكَهَا، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَإِنَّهَا إِزَارُهُ، فَحَسَّنَهَا فُلاَنٌ، فَقَالَ: اكْسُنِيهَا، مَا أَحْسَنَهَا، قَالَ القَوْمُ: مَا أَحْسَنْتَ، لَبِسَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلْتَهُ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ لاَ يَرُدُّ، قَالَ: إِنِّي وَاللَّهِ، مَا سَأَلْتُهُ لِأَلْبَسَهُ، إِنَّمَا سَأَلْتُهُ لِتَكُونَ كَفَنِي، قَالَ سَهْلٌ: فَكَانَتْ كَفَنَهُ».

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٢٨١)، ومسلم (٢٣٣٢) من حديث أنس ﷺ: «أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ كَانَتْ تَبْسُطُ لِلنَّبِيِّ ﷺ نِطَعًا، فَيَقِيلُ عِنْدَهَا عَلَى ذَلِكَ النِّطَعِ، قَالَ: فَإِذَا نَامَ النَّبِيُّ ﷺ أَخَذَتْ مِنْ عَرَقِهِ وَشَعَرِهِ، فَجَمَعَتْهُ فِي قَارُورَةٍ، ثُمَّ جَمَعَتْهُ فِي سُكٍّ قَالَ: فَلَمَّا حَضَرَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ الوَفَاةُ، أَوْصَى إِلَيَّ أَنْ يُجْعَلَ فِي حَنُوطِهِ مِنْ ذَلِكَ السُّكِّ، قَالَ: فَجُعِلَ فِي حَنُوطِهِ».

حد ذاتها، والأمر مستمر، ليس لمجرد نزوله ﷺ نزولاً عارضًا، وإنما نزولاً مقصودًا، كما نزل بذي الحليفة ميقات أهل المدينة وصلى هناك؛ لأن جبريل عليه السلام أتاه كما قال عمر رضي الله عنه: «**قال: سمِعْتُ رسُول اللّهِ ﷺ يقُولُ: وهُو بِالْعقِيقِ أتانِي آتٍ مِنْ ربِّي، فقال: صلِّ فِي هذا الْوادِي الْمُباركِ، وقُلْ: عُمْرةٌ فِي حجّةٍ**»(١).

واختلف العلماء من الصحابة رضي الله عنهم فمن بعدهم في نزوله ﷺ في خيف بني كنانة المعروف بالمُحصّب بعد حجه ﷺ ليلة نفر من منى، فنزل بالمحصب ﷺ، المكان الذي تقاسموا فيه على الكفر، فاختلف الصحابة رضي الله عنهم، منهم من قال: هو سنة؛ لأن الرسول ﷺ قصد هذا المنزل، ومنهم من قال: إنما هو منزل نزله رسول الله ﷺ في طريقه(٢)، فمن قال ذلك لم ير مشروعًا أن ينزل الحاج أو المعتمر بهذا المكان بعد انصرافه من الحج، ومن رأى أنه كان مقصودًا؛ لأجل أن يعلن شعار الإسلام في المكان الذي اجتمعوا فيه على الكفر، ويشكر نعمة الله سبحانه وتعالى بمن منّ عليه من النصر والتمكين، حتى في الأماكن الذي اجتمعوا فيها على حرب رسول الله ﷺ والمسلمين حين اجتمعوا على أمر المقاطعة، مقاطعة بني هاشم وبني المطلب من أجل نصرتهم لرسول الله ﷺ، فهذا يدلك على أن المنازل المعتادة لم يرها الصحابة رضي الله عنهم سنة، الذين قالوا: هذا منزل نزله دون قصد، قالوا: ليس بسنة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٣٤، ٢٣٣٧، ٧٣٤٣).

(٢) انظر نيل الأوطار (٥/ ١٠١) قال الشوكاني رحمه الله: (وَقَدْ نَقَلَ ابْنُ الْمُنْذِرِ الْخِلَافُ فِي اسْتِحْبَابِ نُزُولِ الْمُحَصَّبِ مَعَ الِاتِّفَاقِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ الْمَنَاسِكِ).

فدل على أنهم يتفقون على أن الأماكن التي نزل بها ﷺ لا يقصد النزول فيها لا فضيلة لها في حد ذاتها، وإنما نزل منزلاً يستريح فيه ونحو ذلك لا يشرع أن يُتخذ مسجدًا، ولاحتى أن يُنزل فيه، وإن كان ابن عمر رضي الله عنهما يجتهد في بعض هذه الأمور، وكان رضي الله عنه ينزل حيث نزل رسول الله ﷺ، وربما حاد عن بعض الطريق، فسئل عن ذلك، فقال: رأيت رسول الله ﷺ حاد في هذا الموضع، ولربما لم ينقل لنا الراوي أن هذا موضع حاد إليه النبي ﷺ لشيء فيه؛ ولذلك فعله ابن عمر رضي الله عنهما، فربما كان مثل هذا في المحصب مثلاً، فهذا أمر معروف أنه يشرع أن ينزل به على الراجح من أقوال العلماء، وكذلك يستحب أن يقف الرجل في عرفات بالصخرات أو قريبًا منها؛ لأن النبي ﷺ عندما وقف بعرفة بعد خطبته وصلاته الظهر والعصر بنمرة، سار حتى وقف بهذا المكان، وقال: «**وقفْتُ ها هُنا وعرفةُ كُلُّها موْقِفٌ**»(١).

مع أنه مكان بعيد، فدل على أنه مقصود، قصده النبي ﷺ، فلعل هذا المكان الذي حاد إليه ابن عمر رضي الله عنهما من هذا، وربما كان اجتهادًا من ابن عمر رضي الله عنهما خالفه فيه في أصل المسألة من هو أعلم منه، أبوه رضي الله عنه، كما روى الطحاوي وابن وضّاح وغيرهما كما في (الاعتصام) للشاطبي عنْ معْرُورِ بْنِ سُويْدٍ الْأسدِيِّ؛ قال: (**وافيْتُ الْموْسِم مع أمِيرِ الْمُؤْمِنِين عُمر بْنِ الْخطّابِ** رضي الله عنه، **فلمّا انْصرفْنا إِلى الْمدِينةِ؛ انْصرفْتُ معهُ، فلمّا صلّى لنا صلاة الْغداةِ فقرأ فِيها**: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ [الفيل: ١]، و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١]،

(١) أخرجه البخاري (١٥٦٨)، ومسلم (١٢١٨) من حديث جابر رضي الله عنه.

ثُمّ رأى ناسًا يذْهبُون مذْهبًا، فقال: أيْن يذْهبُ هؤُلاءِ؟ قالُوا: يأْتُون مسْجِدًا هاهُنا صلّى فِيهِ رسُولُ اللّهِ ﷺ، فقال: إِنّما هلك منْ كان قبْلكُمْ بِهذا؛ يتّبِعُون آثار أنْبِيائِهِمْ، فاتّخذُوها كنائِس وبِيعًا، منْ أدْركتْهُ الصّلاةُ فِي شيْءٍ مِنْ هذِهِ الْمساجِدِ الّتِي صلّى فِيها رسُولُ اللّهِ ﷺ؛ فلْيُصلِّ فِيها، وإِلّا؛ فَلَا يتعمّدْها)[1].

وهذا ظاهر جدًا في النهي عن ذلك، إنما جعله سببًا لهلاك من قبلنا أنهم تبركوا بما لم يشرع التبرك به، أنهم قصدوا الصلاة في أماكن لم يقصد رسول الله ﷺ تعظيمها بالصلاة فيها أو تكريمها أو طلب البركة فيها، بخلاف الأماكن التي كان يقصدها قصدًا، فهذا يعرف من سيرته ﷺ وسنته فإنه مثلاً كان يأتي قباء كل سبت ماشيًا وراكبًا فيصلي هناك، فهذا دليل على فضل مسجد قباء؛ ولذا نقصده بالصلاة، وقال ﷺ: «**منْ خرج حتّى يأْتِي هذا الْمسْجِد - يعْنِي مسْجِد قُباءٍ - فيُصلِّي فِيهِ كان كعدْلِ عُمْرةٍ**»[2] فدل ذلك على فضيلة البقعة.

كما ذكرنا النزول في وادي العقيق، الذي هو ذو الحليفة، ذهابًا وإيابًا، فينبغي أن يقصد بذلك لثبوت الدليل فيه، وكما ذكرنا نحن إذا نزلنا في منزل نزل فيه الرسول ﷺ لا لغرض ولا لقصد أن يؤدي عبادة في هذا المكان ولا أمر بذلك، فهذا مخالفة لسنته ﷺ، إذا قصدنا نحن منزلاً لم يقصده ﷺ

(١) انظر: الاعتصام (١/ ٤٤٨)، والبدع لابن وضاح (ص ٨٧، برقم ١٠٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥/ ٣٥٨)، والترمذي (٣٢٤)، وابن ماجه (١٤١١، ١٤١٢)، والحاكم (٣/ ١٢)، والبخاري في التاريخ الكبير (١/ ٩٦)، والطبراني في الكبير (٥٥٥٨، ٥٥٥٩، ٥٥٦٠، ٥٥٦١، ٥٥٦٢).

بعبادة، وإنما كان منزلاً نزله، وكذلك ما كان أقل من ذلك، أعني: أن الرسول ﷺ قد صلى في مكان قاصدًا التبرك به، أو أن يُتخذ مسجدًا للناس بعد ذلك، كما في حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه: «**أَنّ النّبِيّ ﷺ أتاهُ فِي منْزِلِهِ، فقال: أيْن تُحِبُّ أنْ أُصلِّي لك مِنْ بيْتِك؟ قال: فأشرْتُ لهُ إِلى مكانٍ فكبّر النّبِيُّ ﷺ، وصففْنا خلْفهُ، فصلّى ركْعتيْنِ**»(١) وهذا عندما أراد أن يتخذ مسجدًا في بيته لأجل أنه ضعف بصره، وشق عليه أن يأتي رسول الله ﷺ والسيول تحول بينه وبينه، فقال: أين تحب أن تصلي في بيتك؟ ذلك ليتخذه مسجدًا، فهذا قصده النبي ﷺ بما دل عليه الدليل؛ وأما ما لم يقصده ﷺ فإذا قصدناه نحن نكون قد خالفناه.

نقول: أشد من ذلك في المخالفة أن يكون مثلاً قد نزل ليبول ﷺ أو ليجلس لا ليصلي، فينزل بعض الناس يتبركون بهذا المكان، وربما قصد بعضهم أن ينزل فيبول في نفس المكان، وهذه الأفعال الجبلية التي فعلها النبي ﷺ لحكم الجبلة، لا يظهر فيها قصد التشريع للأمة، وهم معلوم من سيرته وسنته وطريقة أصحابه وفقهائهم رضي الله عنهم في متابعته، فهذه الأفعال الجبلية التي فعها النبي ﷺ بحكم الجبلة، لا يقال إنه يستحب أن يُقتضى به فيها، فلا يقال: إن الإنسان يتبول أو يتغوط اقتداء بالنبي ﷺ الذي كان يفعل ذلك، ولا أنه مثلاً كان يقوم ويقعد؛ لأن الرسول كان يقعد أو يقوم، وإنما جُبِل الإنسان على القعود والقيام والمشي وقضاء الحاجة، وليس لأنه يفعل ذلك اقتداءً بالرسول ﷺ.

(١) أخرجه البخاري (٤٢٤، ٤٢٥، ٦٦٧، ٦٨٦، ٨٤٠، ١١٨٦، ٥٤٠١)، ومسلم (٣٣)

الأفعال الجبلية بحكم الجبلة تدل على الإباحة، وهي في الأصل كذلك لأنها جبل الله الناس عليها، إلا ما نهى عنه الشرع منها، مثل: قعدة معينة، أو جلسة معينة، أو ضجعة معينة، أو نومة معينة، مثل: أن ينام على بطنه يُنهى عن ذلك، أن يجلس متكئًا على ألية يده اليسر خلف الظهر يُنهى عن ذلك، فإذا ثبت قعودًا معينًا في الصلاة يقعد مثله؛ لأن هذه أفعال ظهر فيها قصد التشريع؛ فلذلك نقول: التبرك بالآثار مطلقًا ليس بصحيح، لا يشرع باتفاق أهل السنة التبرك بمكان - مثلاً - مشى فيه رسول الله ﷺ لأجل أنه مشى، مسه قدمه مثلاً، وانتهى أثر ذلك، فالصحابة رضي الله عنهم ما ورد عنهم قط أنهم كانوا يتمسحون مثلاً بأرض حجرته ﷺ تبركًا بذلك، إنما قصدوا أن يأخذوا ثيابه، أن يأخذوا عرقه، أن يأخذوا شعره، هذا هو الذي قصدوه، فالرسول ﷺ كان يمشي في حجرته بلا شك، ويكاد يكون كل شبر في حجرة عائشة رضي الله عنها أو معظمه قد مشى ﷺ فيه، فهل كان الصحابة رضي الله عنهم، أو حتى عائشة رضي الله عنها وهي في الداخل كانت تتبرك بذلك أو تتمسح بذلك أو أنها تصلي هناك لأجل ذلك؟ إنما كانت تصلي لأجل أن هذه الحجرة بيتها، ولم يكن أحد من الصحابة أو التابعين يأتي إلى الحجرة ليصلي فيها تبركًا بأن الرسول ﷺ دفن هناك، ولا أن الرسول ﷺ عاش هناك وتلامست أجزاء بدنه مع أرض هذه الحجرة، فهذا مما لم يفعله الصحابة رضي الله عنهم، وأقصى ما ورد في ذلك عن بعض الصحابة رضي الله عنهم في ذلك التبرك بالمنبر، وهو يمسح مكان جلوسه ﷺ، مع أن عامتهم لم ير ذلك[(١)]، فأكثر ما يقال في مثل هذه

---

(١) انظر: قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة) ضمن مجموع الفتاوى (١/ ١٣٧)، وذكر هذا القاضي عياض في الشفا (٢/ ٨٥، ٨٦).

المسألة أن هذا مما يسوغ فيه الاجتهاد، مع أن فاعله ليس على الصحيح في هذه المسألة، حتى لو كان من الصحابة ﷺ، فإن كبارهم وفقهاءهم كعمر ﷺ نهوا عن ذلك، وعدُّوه من ضمن أسباب هلاك من كان قبلنا، فمثل هذا الذي لم يرد به دليل من التبرك بأماكن نزل بها ﷺ، أو أنه مشى عليها، أو جلس عليها أو نحو ذلك، التبرك بهذا غير مشروع، وهذا يدلنا على أن التبرك عند الصحابة ﷺ لابد أن يكون له دليل، وأن ما لم يرد به الدليل فالأصل فيه المنع، نعم لأن التبرك طلب البركة، من هذا الأمر المصاحب أو الملامس، وهذا الأمر لا يعرف بالعقل ولا بالقياس، وإنما يعرف بالدليل الشرعي؛ لأنه سبب غيبي لحصول الخير ليس سببًا ظاهرًا، ليس يُعرف بجبلة الناس وعادتهم أنهم يشعرون بالري إذا شربوا الماء، أو يشعرون بالشبع إذا أكلوا الطعام، أو يعافون من مرضهم إذا أخذوا دواءً معلومًا لمرض معلوم، هذا الذي يعرف بالتجربة أو بالسنة الكونية القدرية أو العادة ونحو ذلك، فنقول: إن الأصل عندهم المنع من التبرك إلا بما ورد به الدليل، لماذا؟

عمر ﷺ جعل ذلك من أسباب هلاك من قبلنا، قال: «**إنّما أهْلك منْ كان قبْلكُمْ بِأشْباهِ هذِهِ يتّبِعُون آثار أنْبِيائِهِمْ، فاتّخذُوها كنائِس وبِيعًا**»[(١)].

إذًا، لا يشرع أن تجعل أماكن الأنبياء التي نزلوها دون قصد للعبادة فيها، يجعلها الناس آثارًا يتبرك بالتعبد فيها أو بمصاحبتها أو بملامستها وملابستها لذلك قلنا: إن ترك الصحابة ﷺ للتبرك بآثار الصالحين منهم المقطوع

---

(١) انظر: البدع لابن وضاح (ص ٨٧، برقم ١٠٠)، وشرح مشكل الآثار (١٢/ ٥٤٤).

بصلاحهم رضي الله عنهم؛ كالخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وباقي العشرة المبشرين بالجنة، وأهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، وغيرهم ممن نزل القرآن بصلاحهم وفضلهم، ومع ذلك ما اقتسموا شعورهم، ولا أخذوا عرقهم، ولا تبركوا بوضوئهم، ببقايا الماء الذين توضئوا به، ولا قصدوا لمس ثيابهم أو لُبس ثيابهم تبركًا؛ لذلك نقول: إذا كان الأمر كذلك لم يكن التبرك بآثار الصالحين مشروعًا، وإن قاله بعض أهل العلم، أقصى ما يقال في ذلك: إنه مما يسوغ فيه الاجتهاد، مع أن الصحيح المنع منه، وأنه لا يشرع.

وأما ما لم يرد ولا شيء عن الصحابة ولا التابعين ولا أهل العلم، مثل: التبرك بالأحجار والأشجار، والحديد الذي على القبور، ونحو ذلك، يقصد لأجل التبرك، فهذا أشد وأشد في المنع والابتداع، فهو من البدع التي هي ذرائع الشرك، فينهى عن ذلك نهيًا شديدًا، خاصة أنه من سبيل المشركين الذين عظموا الأشجار والأحجار، حتى عبدوها من دون الله، فاتخاذ آثار الأنبياء مساجد، أي: الأماكن التي نزلوا فيها، هو من فعل أهل الجاهلية، من فعل اليهود والنصارى، اتخذوها كنائس وبيعًا، فكان بدعة ضلالة منكرة، وغلوا في تلك الأماكن ونسبوا لها الفضائل، وأكثر من يعرف عنهم مثل هذه الأفعال في أمتنا الرافضة والصوفية، فتجدهم في كثير مِن الأماكن يقدسونها كما يقولون: العتبات المقدسة في النجف الأشرف. أماكن قتل أهل بيت النبي ﷺ يرونها عتبات مقدسة، ويرون الحج إلى هذه المشاهد، وقصدها بالعبادات ربما فاق الحج إلى بيت الله الحرام، نعوذ بالله من ذلك، ويؤدون عند قبور هؤلاء ما يفعلونه بالكعبة، نسأل الله العافية من الطواف والتمسح بها، بل زادوا، فالكعبة لا يُتمسح إلا بالحجر الأسود

والركن اليماني، لا يمس إلا الحجر الأسود والركن اليماني، وهؤلاء زادوا في ذلك فصاروا يمسون كل هذه الأضرحة ويتبركون بها، ويجعلون أماكن نزول الصالحين مساجد، يرون أن ذلك من الفضائل، وتجد هذا في المتأخرين أيضًا من المنتسبين إلى التصوف عندهم شيء كثير من ذلك، ويعظمون الأماكن التي نزل بها الصالحون ويجعلونها مزارات، وهذا أمر غير مشروع، وفي زماننا قد جعل ناس مزارات كثيرة في مكة والمدينة لأجل نزول النبي ﷺ بها؛ كمكان مولده ﷺ، وغار حراء، من ذهب إلى هناك لينظر هذه الأماكن دون قصد التبرك، ودون قصد الصلاة هناك، ودون قصد التعظيم، فهذا أمر من المباحات لا من المستحبات ولا الواجبات، ليس من دائرة التشريع في عبادة معينة، ولكن - مثلاً - أراد أن ينظر وأن يتأمل، فمثل هذا مثل أن يسير في الأرض لينظر في خلق الله ﷻ دون قصد لأمر معين، فأما إذا قصد هذه كمزارات تجعل سنة، يصلون في مساجد متعددة، يقولون: مسجد القبلتين، مسجد كذا . . . يسمون مساجد معينة، جعلوها مزارات، حتى اشتهر ذلك في المدينة خصوصًا، مساجد معينة يذهبون إلى الصلاة عندها قاصدين، كلهم يزور المدينة، يقولون: إننا نذهب للمزارات؛ أما المشروع منها فزيارة مسجد قباء وزيارة شهداء أحد؛ لأن الرسول ﷺ كان يزورهم وصلى عليهم، فيستحب زيارة القبور، وكذا زيارة البقيع والسلام على من بها من الأموات والدعاء لهم، لا طلب الدعاء منهم ولا عمل النياحة حول قبورهم كما يفعل الرافضة، فإن كل ذلك من المنكرات، نسأل الله العافية.

الْمسْألةُ الثّالِثةُ والثّمانُون: اتِّخاذُ السُّرُجِ على الْقبُورِ.

الشرح:

كما في الحديث: «**لعن رسُولُ اللّهِ ﷺ زوّاراتِ الْقبُورِ، والْمُتّخِذِين عليْها الْمساجِد، والسُّرُج**»[(١)]، مع أن بعض أهل العلم ضعّف لفظ (السرج)، الشيخ الألباني رحمه الله ذكر أن هذا اللفظ ضعيف، وإنما الصحيح: «**والْمُتّخِذِين عليْها الْمساجِد**»، ولكن الذي يظهر أن الحديث قد حسنه جماعة من أهل العلم، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وغيره من العلماء[(٢)]، وعلى أي الأحوال فاتخاذ المصابيح على القبور تعظيمًا لها، توقد السرج وهو المصباح الذي ينير، وكذا ما يجعل من نيران أو نحو ذلك حول القبور أو حولها تعظيمًا للقبور، وهذا يكثر في قبور الصالحين، ومنهم من ينذر زيتًا لقبر فلان، فإنما كانوا يوقدون المصابيح والسرج في الأزمنة الماضية بالزيت، فينذرون الزيت للمصابيح التي على قبر فلان والسرج التي على مرقد فلان، فهذا كله من البدع والضلالات، حتى ولو لم يثبت الحديث، فإن كل بدعة ضلالة، وتعظيم القبور بإيقاد السرج عليها من فعل أهل الجاهلية كذلك، واليهود والنصارى عندهم من ذلك شيء كثير يعظمون قبور من يظنون بهم الصلاح ويوقدون عليها السرج، فنهى رسول الله ﷺ، بل لعن

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٩، ٢٨٧، ٣٢٤، ٣٣٧) وأبو داود (٣٢٣٦) والترمذي (٣٢٠) والنسائي (٤/ ٩٤) وابن ماجه (١٥٧٥).

(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٣٣٤، ٢/ ١٨٦)، والفتاوى الكبرى (٣/ ٥٢)، ومجموع الفتاوى (٤/ ٥٢٣، ٢٤/ ٢٤٨).

من فعل ذلك، وعلى أي الأحوال فالبدعة الضلالة لا يجوز لأحد أن يفعلها، فإيقاد سرج على قبر معين داخل في البدعة، فضلاً عن النهي الوارد في هذا الحديث عنه، فهو وارد على أمر ثبت أصله، أعني: أن الحكم الشرعي ثبت أنه لا يجوز وضع السرج وإيقاد السرج على القبور؛ لأنه بدعة ضلالة، فالحديث الوارد في لعن من فعل ذلك يدل على أنه من الكبائر، إن صح هذا اللفظ، والله أعلى وأعلم، وإن لم يصح فالأصل ثابت كحكم شرعي أنه لا يجوز إيقاد السرج على القبور.

وقد حدثت في زماننا مسألة أخرى، وذلك أن بعض أهل الفسق والفجور قد اتخذوا أماكن المقابر أمكنة لفعل الفساد والفجور من حقن المخدرات وفعل الفواحش، والعياذ بالله، وهذا من أفظع ما يمكن، ففي بعض أماكن القبور احتاج الناس إلى إضاءة المكان لمنع هؤلاء الفساق من فعل هذه الأفعال فيما بين القبور، وهذا ليس هو المقصود باتخاذ السرج على القبور وإنما المقصود تعظيم القبور باتخاذ السرج عليها، فهذا هو المحرم؛ ولذلك لا يمنع من وجود إضاءة حول المقابر أو في وسطها أو في الطرق التي فيما بين القبور؛ لأجل ألا تفعل المنكرات في هذه الأماكن استتارًا بالظلام، فلا يمنع من مثل هذا، إنما الذي يُمنع منه ما يفعل عند قبور الصالحين من وضع الأنوار العالية والمصابيح المضيئة بالليل والنهار، سواء كانت بشيء يُشعل بنار، أو شيء من المصابيح الحديثة كالكهرباء وغيرها. فوجود المصابيح حول قبر معين نوع تعظيم له، وهذا التعظيم سبب من أسباب الغلو الذي يؤدي في النهاية إلى أن تعبد هذه القبور من دون الله، وربما أطفئوا أنوار المسجد كلها وأبقوا الأنوار التي على القبر؛

لتكون مهيأة لكل من يأتي للزيارة في أي وقت من ليل أو نهار، ولا تزال قبور من يسميهم الناس بالأولياء، مثل: البدوي والدسوقي وغيرهما، الأنوار والسرج التي عليها مستمرة بالليل والنهار، ترغيبًا في زيارتها والحضور عندها وفعل الضلالات والمنكرات التي تفعل في هذه الأماكن.

الْمسْأَلَةُ الرّابِعةُ والثَّمَانُونَ: اتِّخاذُ الْقُبُورِ أعْيادًا.

الشــــرح:

العيد اسم لما يُعتاد فعله زمانًا أو مكانًا[١]؛ ولذا جاء في الحديث عنْ ثابِتِ بْنِ الضّحاكِ ﵁ قال: «**نذر رجُلٌ على عهْدِ رسُولِ اللّهِ ﷺ أنْ ينْحر بِبُوانة فسأل النّبِيُّ ﷺ: فهلْ كان فِيها وثنٌ مِنْ أوْثانِ الْجاهِلِيّةِ يُعْبدُ؟ قالُوا: لا. قال: فهلْ كان فِيها عِيدٌ مِنْ أعْيادِهِمْ؟ قالُوا: لا. فقال رسُولُ اللّهِ ﷺ: أوْفِ بِنذْرِك فإِنّهُ لا وفاء لِنذْرٍ في معْصِيةِ اللّهِ ولا فِيما لا يمْلِكُ ابْنُ آدم**»[٢].

فدل على أنه لو كان قصد البقعة للنذر لأجل أنه كان فيها وثن من أوثان الجاهلية، لكان منهي عنه ونذر معصية؛ لأنه إنما نذر تعظيم البقعة التي فيها الوثن؛ لأنه لا وجه لتخصيص البقعة بالنذر مع وجود صنم سابق ووثن سابق إلا أنه يريد أن يعظم هذه البقعة.

وكذلك لو أنه كان فيها عيد من أعياد الجاهلية، عيد من أعياد المشركين وهذا هو المقصود أن أهل الجاهلية اتخذوا أماكن قبور السابقين من الصالحين أعيادًا، اتخاذ القبور أعيادًا؛ أن يعتادوا فعل أشياء معينة في أزمنة معينة عند القبور، وأوضح مثال على ذلك: الموالد، فإنها أعياد زمانية ومكانية، وربما غيروا الأزمنة ولم يغيروا المكان مراعاة لتعظيم البقعة، وعند قبر الرجل الصالح يجتمعون، وربما لم يكن صالحًا، واعتادوا أفعالاً

(١) راجع (١/ ١٨٩).
(٢) أخرجه أبو داود (٣٣١٣).

معينة غالبها من اللهو واللعب، وكثير منها من الفساد والفجور، وقليل منها من الذكر والعبادة، وكل ذلك بدع وضلالات، وأكثر ما يبتدعون من العبادات والأوراد التي ما أنزل الله بها من سلطان، فهم بين بدعة في العبادة أو فساد في الأخلاق أو منكرات تفعل، وكل ذلك داخل في اتخاذ القبور أعيادًا، ولقد قال النبي ﷺ: «**ولا تجْعلُوا قبْرِي عِيدًا**»(١)، وقال: «**اللّهُمّ لا تجْعلْ قبْرِي وثنًا يُعْبدُ، اشْتدّ غضبُ اللَّهِ عَلَى قوْمٍ اتّخذُوا قُبُور أنْبِيائِهِمْ مَسَاجِد**»(٢)، فنهى عن اتخاذ قبره عيدًا، بمعنى: شيء يُعتاد عنده، شيء يعتاد فعله عند القبر.

رأى بعض أهل بيت النبي ﷺ رجلاً يدخل رأسه في فرجة في جدار حجرته ﷺ فيدعو، فذكر له هذا الحديث على مقال فيه، وقال: «**ما أنْتُمْ ومنْ بِالأنْدلُسِ إِلا سواء**»(٣)، فعندما جعل القبر يعتاد أن يُدعى عنده، يدخل

---

(١) سبق تخريجه (١/ ١٨٨).

(٢) سبق تخريجه (١/ ١٧٦).

(٣) أخرجه إسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي ﷺ (ص٤٠) من مراسيل الحسن بن علي، وابن أبي شيبة (٢/ ١٥٠، ٣/ ٣٠)، وعبد الرزاق (٣/ ٥٧٦).
وقد ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٦٠) وعزاه إلى سنن سعيد بن منصور، وقال: (فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث، لاسيما وقد احتج به من أرسله، وذلك يقتضي ثبوته عنده لو لم يكن روي من وجوه مسندة غير هذين، فكيف وقد تقدم مسندًا؟!).
وقال سعيد بن منصور في سننه: حدثنا عبد العزيز بن محمد أخبرني سهيل بن أبي سهل قال: رآني الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما عند القبر، فناداني، وهو في بيت فاطمة رضي الله عنها يتعشى، فقال: هلم إلى العشاء. فقلت: لا أريده. فقال: ما لي رأيتك عند القبر؟ =

رأسه في فرجة في الجدار ليدعو عند القبر كما يظن، فهذا جعله من اتخاذ القبر عيدًا، وهذا كلام أهل العلم، فإنهم ذكروا أن زائر قبر النبي ﷺ يستقبل القبر بالسلام، فإذا أراد أن يدعو فالأئمة الأربعة على أنه يستقبل القبلة ويستدبر القبر، أو يجعله عن يمينه إن كان في مكان آخر، لكن يجعل القبر خلفه ويستقبل القبلة؛ لأنه إذا سلم على النبي ﷺ من جهة مقدمة المسجد، فإنه إذا أراد أن يدعو فيجعل ظهره للقبر، ويستقبل القبلة إذا أراد ذلك، ولم يقل أحد منهم أنه يستقبل القبر بالدعاء ويستدبر القبلة، فهذا فعل من يتخذ القبر عيدًا، ومن ضمن ذلك ما ذكره أهل العلم من أنه لا يشرع لكل من دخل المسجد في كل مرة أن يقصد القبر للسلام، فإن هذا ليس من هدي السلف رضي الله عنهم لا من الصحابة ولا من بعدهم، حتى ولو كان قادمًا من سفر، ليس كل مرة يقول: أذهب فأسلم على الرسول ﷺ؛ لأن الصحابة هم الذين نأخذ عنهم مثل هذه الأمور، وما ثبت شيء من ذلك عن أحد منهم، إنما ثبت عن ابن عمر رضي الله عنهما: «**كان ابْنُ عُمر إذا قدِم مِنْ سفرٍ، أتى قبْر النّبِيِّ ﷺ، فقال: السّلامُ عليْك يا رسُول اللّهِ، السّلامُ عليْك يا أبا بكْرٍ، السّلامُ عليْك يا أبتاهُ**»[1].

= فقلت: سلمت على النبي ﷺ. فقال: إذا دخلت المسجد، فسلم. ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ مقابر، وَصَلُّوا عَلِيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي، لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا، مَا أَنْتُمْ وَمَنْ بِالأَنْدَلُسِ إِلَا سَوَاء**».

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٦٦)، وأبو يعلى (١/ ١٠٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٤٥، ٦/ ٥٢)، وفي الصغرى (٢/ ٢١٠)، وفي الكبرى (٥/ ٤٠٢، ٤٠٣)، وابن أبي شيبة (١/ ٤٢٤، ٣/ ٢٨).

فهذا الذي أخذنا منه مشروعية زيارة قبر النبي ﷺ وصاحبيه عندما يقدم الإنسان من سفر، عندما يكون مسافرًا إلى المدينة ليصلي في مسجد رسول الله ﷺ، إذا كان قاصدًا المدينة لأجل عبادة فيقصد المسجد لا يقصد القبر؛ ولذا لا يبدأ بالقبر وإنما يبدأ بالمسجد؛ لأن هذا هو المقصود، ثم بعد ذلك يزور القبر تبعًا لزيارة المسجد، ولا ينهى عن زيارة قبر النبي ﷺ في الزيارة الشرعية، كما شنع المبتدعون على شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقالوا: يُحرِّم زيارة قبر النبي ﷺ ويجعلها من الشرك. وليس كذلك، وإنما ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنه لا يشرع أن يجعل القبر عيدًا، ولا يشرع أن يقصد بالسفر قبر الرسول ﷺ؛ لأن قبره غير مسجده، وإنما – كما ذكرنا في المرة السابقة – اتسع المسجد من حول القبر، وظل القبر والبقعة التي حوله ليست مقصودة بالصلاة، فإذا كان يسافر من أجل زيارة القبر، فقد دخل في النهي الذي قال النبي ﷺ فيه: «**لا تُشدُّ الرِّحالُ إلّا إلى ثلاثةِ مساجِد: المسْجِدِ الحرامِ، ومسْجِدِ الرّسُولِ ﷺ، ومسْجِدِ الأقْصى**»[1]، فلا تشد الرحال إلا إلى هذه المساجد، لا يقصد بالسفر لأجل العبادة إلا مسجد النبي ﷺ والمسجد الحرام والمسجد الأقصى؛ وأما زيارة القبور، قبور الصالحين، خصوصًا وليس هناك من سبب للزيارة للصالحين إلا نوع تعظيم؛ لذلك فهي داخلة في النهي؛ لأنه إنما يتبرك بهذه الزيارة، ويقصد تعظيم أصحاب القبور بذلك، وهذا أمر لا ينفك عنه من قصد هذه القبور للزيارة وسافر من أجلها.

فأما من كان قصد المسجد ثم زار القبر تبعًا لذلك، فهذا لم يتخذ القبر

(١) سبق تخريجه (١/ ١٨٨).

عيدًا، ولم يفعل ما لم يُنه عنه، وإنما زار القبور زيارة شرعية، ولم يخاطب النبي ﷺ بما لم يشرع، كما يقول بعضهم: إنه يستحب أن يقول: جئتك مستغفرًا لذنبي مستشفعًا بك إلى ربي، ويتلو قول الله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]. فهذا ليس بحجة عند أهل العلم، ولو ذكره بعضهم، كقصة العتبي المشهورة، التي تذكر في الكتب، حتى ذكرها ابن كثير رحمه الله، ولكن ذكرها لا مستدلاً بها على أن ذلك مشروع في زيارة قبر النبي ﷺ، وإنما ذكر هذه القصة المشهورة، وربما لم يسعفه الوقت للتعليق عليها، ولم يذكرها كدليل وليست بدليل؛ لأنها رؤية منامية: أن هذا العتبي رأى رجلاً أعرابيًا جاء إلى القبر، فذكر بعض أبيات الشعر المشهورة[(١)]:

يا خيْر منْ دُفِنتْ بِالْقاعِ أعْظُمُهُ ... فطاب مِنْ طِيبِهِنّ القاعُ والأكمُ

نفْسِي الْفِداءُ لِقبْرٍ أنْت ساكِنُه ... فِيهِ العفافُ وفِيهِ الْجُودُ والْكرمُ

فقال هذه الأبيات ثم قال: إن الله ﷻ قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٢١)، واقتضاء الصراط المستقيم (ص٣٩٧)، وكشف القناع (٢/ ٥١٥)، والمجموع (٨/ ٢٠٢)، والمغني لابن قدامة (٣/ ٢٩٨)، وإعانة الطالبين (٢/ ٣١٥). وانظر: هذه الأبيات في ديوان البرعي عبد الرحيم بن أحمد بن علي البرعي اليماني. شاعر متصوف (ص ٣٢٤). وانظر بطلان قصة العتبي في: تفسير ابن كثير تحقيق السلامة (٢/ ٣٤٨)، والسلسلة الصحيحة للعلامة الألباني رحمه الله (٦/ ١٠٣٥)، وهذه مفاهيمنا لشيخنا العلامة صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ - حفظه الله- (ص ٧٦).
وقد فند شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذه القصة في كتبه، وخاصة كتاب التوسل والوسيلة (ص ١٦١)، واقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٢٨٩).

جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ الآية، وقد جئتك مستغفرًا لذنبي مستشفعًا بك إلى ربي، فنام العتبي وغلبته عيناه فرأى النبي ﷺ في المنام، فقال: اِلْحقْ بالأعرابي فقل له: إن الله قد غفر لك. فالقصة بلا إسناد، والمنامات لا يحتج بها، ولا يُعرف هذا العتبي في أهل العلم، وإن ذكرها من ذكرها من أهل السير والمفسرين، فإن هذا لا يشرع لأن الرسول ﷺ إنما يقصد في حياته ليطلب منه الدعاء؛ وأما بعد وفاته فطلب الدعاء والاستشفاع به في قبره ﷺ ليس بمشروع، لم يفعله الصحابة الكرام ﷺ ولا التابعون ولا أهل العلم الكبار، وإنما ذكر هذه الصيغة فيما يستحب عند زيارة قبر النبي ﷺ المتأخرون من أتباع المذاهب الذين لم يحققوا المذاهب، وإن كانوا مشهورين في العلم، ولكن هذا أمر لابد فيه من دليل، وإذا عدم فالمشروعية معدومة، إذا عدم الدليل لم يكن هذا مشروعًا ولا مستحبًا، وطلب الدعاء والاستشفاع بالرسول ﷺ بعد وفاته في الحقيقة من ذرائع الغلو فيه ﷺ، وهو من التوسل البدعي عند أهل العلم، ولم يقل بذلك أحد من المتقدمين من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، والآثار التي وردت في مثل ذلك كلها ضعيفة أو باطلة، لا يصح منها شيء، ومن هنا نقول: هذا النوع من اتخاذ القبر عيدًا الذي ثبت عنه النهي؛ ولذا نقول: المشروع أن يزور الزيارة الشرعية، إذا أتى من السفر سلم على النبي ﷺ وصاحبيه، وصلى عليه ﷺ وانصرف.

ولا يشرع شيء أكثر من ذلك، ولا يشرع دعاء معين أكثر من الصلاة والسلام على الرسول ﷺ وصاحبيه بالنسبة للسلام، كما فعل ابن عمر رضي الله عنهما لا نزيد على ذلك، ولا نبتدع في ديننا ما لم يرد به شيء من الدليل، فاتخاذ

القبور عيدًا زمانًا أو مكانًا ؛ زمانًا بتعظيم زمن معين يُجعل للقبر كالموالد، أو مكانًا وهي كذلك تشمل أفعالاً معينة تُعتاد عندها ، ومن ذلك المسألة الخامسة والثمانين وهي الذبح عند القبور.

الْمسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ وَالثّمانُون: الذّبْحُ عِنْدَ الْقُبُورِ.

الـشـــرح:

أيضًا، من عادات الجاهلية وآثارها الشركية في أن الذبح عندها تعظيم لها، وقد قال النبي ﷺ لمن نذر أن ينحر إبلاً بـ «بوانة»: «**فهلْ كان فِيها وثنٌ مِنْ أوْثانِ الْجاهِلِيّةِ يُعْبدُ؟**»[(١)]، فدل ذلك على أن النحر عند الأوثان كان من عادات أهل الجاهلية، وقد قال ﷺ: «**اللّهُمّ لا تجْعلْ قبْرِي وثنًا يُعْبدُ، اشْتدّ غضبُ اللهِ على قوْمٍ اتّخذُوا قُبُور أنْبِيائِهِمْ مساجِد**»[(٢)]، فدل ذلك على أن اتخاذ القبور مساجد يصيرها بعد حين أوثانًا تعبد من دون الله، والذبح عندها تعظيم لها وذريعة إلى عبادتها من دون الله، وإن كان يقصد بالذبح التقرب إلى الولي وتعظيمه بالذبح له، فهذا ملعون فاعله، قال النبي ﷺ: «**لعن اللّهُ منْ ذبح لِغيْرِ اللّهِ**»[(٣)]، وهذا من الشرك الأكبر؛ لأنه صرف عبادة لغير الله، أن يذبح للولي تعظيمًا له، متقربًا له بالذبح، يرى أنه يرضيه بأن يذبح له، فإن كان عند قبره زاد في ذلك، وكان مثل الذبح على النصب، فهذا الذبح عند الأوثان، الحديد الذي على القبر يصير وثنًا يعبد، القبر

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٣١٣) عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَاكِ رضي الله عنه قَالَ: «**نَذَرَ رَجُلٌ على عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَنْحَرَ بِبُوَانَةَ فَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ: فَهَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟ قَالُوا: لاَ. قَالَ: فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟ قَالُوا: لاَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوْفِ بِنَذْرِكَ فَإِنَّهُ لاَ وَفَاءَ لِنَذْرٍ في مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَلاَ فِيمَا لاَ يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ**».

(٢) سبق تخريجه (١/ ١٧٦).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٧٨) من حديث علي رضي الله عنه.

يمكن أن يصير وثنًا بنص حديث النبي ﷺ، إذا كانت تصرف له العبادات، الذبح عندها لله ﷻ نذر، لو نذر ذلك فهو نذر في معصية الله؛ ولذا من نذر أن يذبح عند البدوي، ويقول: أنا أريد أن أطعم زوار البدوي، أو عزم أن يذبح عند أبي العباس، يقول: أطعم الفقراء الذين هناك. تعظيم البقعة بالذبح عندها هو نوع من أفعال الجاهلية، وهو معصية لله ﷻ وذريعة إلى الشرك؛ لأنه غلو، وقد قال النبي ﷺ: «**إِيّاكُمْ والْغُلُوّ فِي الدِّينِ، فإنّما أهْلك منْ كان قبْلكُمُ الْغُلُوُّ**»(١) ذرائع الشرك الأكبر هي من الشرك الأصغر؛ لأنها تؤدي إليه؛ لذلك خطر عظيم أن يذبح عند القبر، ولو كان لله؛ فأما إذا ذبح لغير الله فهو شرك أكبر، والعياذ بالله، وصرف للعبادة لغير الله طالما قصد تعظيم صاحب القبر بإراقة الدم له والذبح له؛ ليرضيه بذلك ويتقرب إليه بذلك، ولا يتصور الذبح لميت بمعنى الإكرام له، إنما يُذبح للحي إكرامًا له، نعم لا يُقصد إراقة الدم، إنما يذبح للضيف مثلاً؛ لأنه يريد أن يطعمه، ويرى أن الذبح أعظم في الإكرام؛ لأن اللحم يكون أطيب ونحو هذا، هذا هو المقصود، وليس أنه يعظم الإنسان بأن يذبح أو يريق الدم من أجله، إنما هو يريد أن يكرمه بالطعام الذي يُعد ناضجًا في وقته ونحو هذا، كما ذبح إبراهيم ﵇ لأضيافه، والذبح مشهور عند العرب، عندما ينزل بهم ضيف، حتى يعد الطعام للضيوف، وكذا ما يذبح للكبار والسلاطين قد يقصد به التعظيم بإراقة الدم، فهذا - والعياذ بالله - من الشرك؛ وأما ما كان تكريمًا من أجل أن يأكل الطعام ناضجًا كما ذكرنا، قد ذبح اليوم فيكون أطيب، فهذا لا يُنهى عنه، ولا يدخل في هذا الباب.

---

(١) سبق تخريجه (١/ ١٧٣).

لا يُتصور هذا في حق الميت، في حق المقبور، بل لا يُتصور في الذبح للميت إلا التعظيم، ونعوذ بالله من ذلك؛ ولذا نص العلماء على أنه إذا ذبح للميت معظمًا له كان ذلك من الشرك، إن كان فاعله مسلمًا صار بهذا الفعل مرتدًا كما ذكر النووي رَحِمَهُ اللَّهُ، وهذه ذبيحة لا تحل(١).

أما إذا ذبح عند القبر فقط - فكما ذكرنا - كان هذا من عادات الجاهلية يذبحون عند الأوثان وفي مكان الأعياد، فكل ذلك من معصية الله، كما دل عليه حديث الرجل الذي نذر أن ينحر إبلاً بـ «بوانة»(٢).

(١) انظر: شرح النووى على مسلم (١٣/ ١٤١) قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَمَّا الذبح لِغَيْرِ اللَّهِ فَالْمُرَادُ بِهِ أَنْ يَذْبَحَ بِاسْمِ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَنْ ذَبَحَ لِلصَّنَمِ أَوِ الصليب أو لموسى أولعيسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا أَوْ لِلْكَعْبَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فكل هذا حرام ولاتحل هَذِهِ الذَّبِيحَةُ سَوَاءٌ كَانَ الذَّابِحُ مُسْلِمًا أَوْ نَصْرَانِيًّا أَوْ يَهُودِيًّا نَصَّ عَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ وَاتَّفَقَ عَلَيْهِ أَصْحَابُنَا فَإِنْ قَصَدَ مَعَ ذَلِكَ تَعْظِيمَ الْمَذْبُوحِ لَهُ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْعِبَادَةَ لَهُ كَانَ ذَلِكَ كُفْرًا فَإِنْ كَانَ الذَّابِحُ مُسْلِمًا قَبْلَ ذَلِكَ صَارَ بِالذَّبْحِ مُرْتَدًّا).

(٢) سبق تخريجه (ص ٩٠).

الْمسْألةُ السّادِسةُ والثّمانُون: التّبرُكُ بِآثارِ الْمُعظّمِين، كدارِ النّدوةِ، وافْتِخارِ منْ كانتْ تحْت يدهُ بِذلِك، كما قِيل لِحكِيمِ بْنِ حِزامٍ: بِعْت مكْرُمة قُريْشٍ؟! فقال: ذهبتْ الْمكارِمُ إِلّا التّقْوى[١]

الشــــرح:

التبرك بآثار المعظمين، بآثار من كان عظيمًا في الجاهلية عند قومه، فالتبرك طلب البركة، كما سبق بيانه، وإنما يشرع التبرك أي طلب البركة، وهي الخير الكثير مما جعل الله ﷻ فيه هذه البركة، مثل: التبرك بشرب ماء زمزم، كما قال النبي ﷺ: «**إِنّها مُباركةٌ، إِنّها طعامُ طُعْمٍ**»[٢].

والتبرك بآثار الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه عليهم أجمعين، ومما قد يُلحق بهذا الباب أن النبي ﷺ كان يكشف ذراعيه عند أول نزول المطر حتى يتساقط عليه المطر، ويقول: «**إِنّهُ حدِيثُ عهْدٍ بِربِّهِ**»[٣]، فمثل هذا الذي ورد به الدليل، أن تطلب البركة، أو يطلب الخير من مصاحبة أو ملابسة أمر معين دل عليه الشرع؛ وأما طلب البركة بما لم يرد فيه دليل شرعي - والبركة الخير الكثير - أمر غيبي، والتبرك عبادة من العبادات، فلا يجوز لمسلم أن يخترع من ذلك ويبتدع شيئًا ما أنزل الله به من سلطان، فاعتقاد أن شيئًا معينًا

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ١١٦)، والروض الأنف (٢/ ٣٦)، والسيرة الحلبية (١/ ٢٥)

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٧٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٨٩٨) من حديث أنس رضي الله عنه: «**أَصَابَنَا وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَطَرٌ، قَالَ: فَحَسَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَوْبَهُ، حَتَّى أَصَابَهُ مِنَ الْمَطَرِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ لِمَ صَنَعْتَ هَذَا؟ قَالَ: لِأَنَّهُ حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ تَعَالَى**».

فيه بركة دون خبر صحيح ودون دليل صحيح سالم عن معارض، لا يجوز لأحد أن يعمل به، ثم هو بعد ذلك هذا التبرك غير المشروع على مراتب:

المرتبة الأولى: ما هو شرك أكبر، والعياذ بالله، مثل: أن يعتقد أن هذا الشيء مصدر الخير بعينه، وأنه ينفع وأنه يضر من ترك التبرك به بذاته أو مع الله ﷻ، فهذا الاعتقاد يجعل صاحبه مشركًا بالله ﷻ في ربوبيته، ثم تبركه يقع عبادة لهذا الشيء، فهو يعتقد فيه النفع والضر؛ نفع من تلبس به، وضر من تخاذل عن ذلك أو أعرض عنه، سيصرف هذه العبادة لغير الله - سبحانه - مع اعتقاده ذلك فيكون شركًا في الربوبية والإلهية، مثل: تبرك المشركين باللات والعزى، على أحد الوجهين في تفسير[(١)]، لماذا عظم المشركون اللات؟ ورد عن ابن عباس رضي الله عنه أن الصخرة التي كانوا يعظمونها أصل تعظيمها قال: «**كان اللّاتُ رجُلًا يلُتُّ سوِيق الحاجِّ**»[(٢)]، فسمي: اللاتّ، بتشديد التاء على قراءة ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾[(٣)]، يصنع لهم الطعام للحجاج، فلما مات عظموا تلك الصخرة، حتى صارت تعبد من دون الله ﷻ، والمشهور أن اللات بتخفيف التاء مؤنث من اسم الله ﷻ، والسياق سياق الآيات في سورة النجم يدل على ذلك: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾. اشتقوا أسماء مؤنثة من أسماء الله ﷻ، «**اشْتقُوا اللّات مِن الإِلهِ،**

(١) انظر: ابن جرير في تفسيره (٢٧/ ٥٨، ٥٩).
(٢) أخرجه البخاري (٤٨٥٩).
(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٥٨)، والحجة في القراءات العشر (ص٣٦٦).

والعُزّى مِن العزِيز»(١)، وزعموا أنها ترمز للملائكة، فعظموا هذه الصخور والأشجار؛ لأنها عندهم ترمز للملائكة التي هي بنات الله، واشتقوا لها أسماء مؤنثة من أسماء الله.

والعزى كانت شجرة عليها أستار، الظاهر أنهم كانوا يتبركون بها، وعمومًا عقائد أهل الجاهلية وأهل الملل الوثنية والملل المحرفة تتداخل فيها الأمور، ولا يدرى على وجه الجزم بداية الأمر تخترع الأساطير والروايات حول هذه الآلهة والأصنام والأوثان وغيرها مما يعظمونها ويتبركون به، فلامانع من أن تعتقد طائفة ذلك وطائفة اعتقادًا آخر، فكل منهم على ضلال وشرك، وقضية التبرك بآثار المعظمين السابقين قضية تكاد تكون مشتركة بين كل أهل الوثنية مما لم يرد به دليل كما ذكرنا.

نقول: إن التبرك غير المشروع أحد أنواعه أو مراتبه الثلاث مرتبة الشرك الأكبر، وهو أن يعتقد في الحجر والشجر والآثار أنها تنفع بذاتها مع الله أو من دونه، وأنه يطلب منها بتبركه الخير، فهذا شرك في الربوبية وشرك في الإلهية.

والنوع الثاني: هو أن يعتقد أن الخير من الله ﷻ، وحده لا شريك له، ولكنه يصرف التبرك لهذه الأشياء بزعم أنها سبب، أن الله قد جعلها سببًا لنيل البركة والخير الكثير، فهذا كذب على الله ﷻ وعلى شرعه، ثم هو كذب على قدره؛ لأنه ليس هذا الأمر من جهة تجربة أو من جهة أمر ظاهر كسائر الأسباب أو سائر ما يطلب به الخير من الأسباب الظاهر، كمن

(١) سبق تخريجه (١/ ٣٨).

يتناول دواء للشفاء من مرض معين، وهو معتقد أنه سبب، وأن الشفاء من الله ﷻ، نقول: هذا الأمر لا يعرف بالتجربة، والمقصود بالتجربة أو الأمر القدري الكوني أو السنة الكونية أن يكون أمرًا ظاهرًا لكل أحد يدركه المسلم والكافر؛ وأما الحكايات المصنوعة المختلقة حول بركة القبر الفلاني، والخيرات حول الولي الفلاني، وأن من نال شيئًا من آثار فلان حصل له من الخير كذا وكذا . . . وأن من أهمله حصل له من المصائب كذا وكذا، كما يتناقل الناس حكايات من هذا الباب في أوارق يتناولونها، وأن من كتبها حصل له المكاسب العظيمة، ومن أهملها وضيعها أصيب في بدنه وماله وفقد أولاده وثروته، كل هذه من الخزعبلات، قصص مخترعة لا يبحث أحد عن أسانيدها، وإنما تنتشر في الجهال انتشار النار في الهشيم.

لذا نقول: إن هذا النوع من التبرك رغم أنه لا يعتقد أن الله ﷻ له شريك في الضر والنفع، ولا أنه يطلب من هذه الأشياء مباشرة أو معتقدًا فيها، فهذا ذريعة إلى الشرك، هذا النوع وهو أن يعتقد أن هذه الأشياء التي ما أنزل الله بها من سلطان سبب للبركة كذب على الشرع، وكذب على القدر، وذريعة إلى الشرك، وكل ما كان كذبًا على الله في شرعه، وكذبًا عليه في سنته القدرية الكونية، وتتابع الناس على اعتقاد أمر معين فيه، يترتب عليه دائمًا مِن الفساد والفتن ما لا يعلمه إلا الله، فكان ذريعة إلى الشرك الأكبر، فهو معدود ضمن الشرك الأصغر، ولقد قال النبي ﷺ لمن قال له من الصحابة حدثاء العهد بالشرك لما رأوا المشركين، وهم يعلقون أسلحتهم بسدرة يتبركون بها، شجرة سدر يقال لها ذات أنواط، كما في حديث أَبِي واقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه قال: «**خرجْنا مع رسُولِ اللّهِ ﷺ إلى حُنيْنٍ ونحْنُ حُدثاءُ عهْدٍ بِكُفْرٍ، ولِلْمُشْرِكِين**

سِدْرةٌ يعْكُفُون عِنْدها وينُوطُون بها أسْلِحتهُمْ يُقالُ لها: ذاتُ أنْواطٍ. قال: فمررْنا بِالسِّدْرةِ فقُلْنا: يا رسُول اللّهِ اجْعلْ لنا ذات أنْواطٍ كما لهم ذاتُ أنْواطٍ فقال رسول اللّهِ ﷺ: اللّهُ أكْبرُ إنّها السُّننُ قُلْتُمْ والّذِي نفْسِي بِيدِهِ كما قالتْ بنُو إسْرائِيل: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] لترْكبُنّ سنن منْ كان قبْلكُمْ»[1]. على أحد الوجهين في تفسير هذا الحديث؛ لأن من العلماء من يجعل ما طلبوه من الشرك الأكبر، وإنما منع من تكفيرهم أنهم كانوا حدثاء عهد بشرك فعذروا بجهلهم، ومن أهل العلم من يجعله من الشرك الأصغر؛ لأن الصحابة ما كانوا ليطلبوا أو ليعتقدوا أن غير الله ينفع ويضر، مع أن ظاهر الحديث أنهم وقعوا فيما هو شرك أكبر، منع من تكفيرهم أنهم كانوا حدثاء عهد بشرك، لم يعرفوا تحريم ذلك؛ لأن الرسول ﷺ سوى بين قولهم وبين من قالوا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾، ولا شك في أن هذه الكلمة كفر صريح.

نقول: التبرك بأشياء لا دليل عليها - مما أجمع العلماء على أنه لا يشرع التبرك به - كذب على الشرع، وكذب على القدر، فهو ذريعة إلى الشرك، فهو شرك أصغر، حتى ولو لم يعتقد أنها تنفع وتضر، هذا الذي اعتقد أنها تنفع وتضر من دون الله أو مع الله شرك أكبر، وهذا الذي اعتقد أنها سبب شرك أصغر.

يبقى النوع الثالث: وهو المختلف فيه، الذي قال بعض أهل العلم بمشروعيته وجوازه، وهو التبرك بآثار الصالحين غير الأنبياء، فهذا الذي

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٨٠).

وقع فيه الاختلاف بين أهل السنة، وإن كان الصحيح أو قل الصواب أن التبرك بغير آثار الأنبياء غير مشروع، وأنه لا يصح التبرك بآثار الصالحين؛ لأن الصحابة ﷺ تركوا ذلك مع من قطع بصلاحهم؛ كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وباقي العشرة، وأهل بدر، وأهل بيعة الرضوان ﷺ، ولم يتبركوا بآثارهم، وهو كالإجماع منهم، لا يعرف عنهم النقل المخالف وهذا مع وجود المقتضي وانتفاء الموانع يدل على أن تركهم مقصود، فلقد كانت آثار النبي ﷺ فيهم يتبركون بها، فلم يكونوا ليغفلوا عن هذا الفضل العظيم في التبرك بآثار خلفائه الراشدين، لو كان هناك فضل، كما زعمتم أيها المجوزون أن التبرك بآثار الصالحين مشروع[1].

فلذلك نقول: الصحيح أن ذلك كالإجماع منهم، مع وجود المقتضي وانتفاء الموانع يدل على مشروعية الترك، على لزوم ترك هذا التبرك بآثار الصالحين، وأن فعله بدعة على الصحيح من أقوال أهل العلم، وإن كان من أهل العلم من يقول: إن هذا التبرك دل عليه التبرك بآثار النبي ﷺ والأصل عدم الخصوصية، ونحن إنما نحتج على الخصوصية بالرسول ﷺ بأن الصحابة لم يفعلوا ذلك كإجماع منهم بغير النبي ﷺ، ولو فعلوا لنقل، فإذ لم يُنقل حرف واحد منهم عن التبرك بآثار بعضهم بعضًا، كان ذلك دليلاً على أن خوف الغلو في الصالحين، وأن خطر التبرك بما لم يرد به الدليل أو قياس مع الفارق، أن يقيس غير النبي على النبي، يؤدي إلى خطر وغلو وتجاوز في الحدود؛ لذلك نقول: هذا يدل على أنهم خصوا ذلك بآثار النبي ﷺ، فتركهم لهذا الأمر كالإجماع مع وجود المقتضي، وهو الرغبة

(١) انظر: الاعتصام (١/ ٢٩٣).

في الخير والبركة، وانتفاء الموانع حيث كان الصالحون قائمين وسطهم، يعيشون ويروحون ويجيئون، فتركوا ذلك قاصدين للترك غير غافلين عن معنى التبرك، فدل ذلك على أن الترك هو السنة، وأن الفعل بدعة، لكن نثبت الخلاف في هذا.

أما التبرك بآثار أهل الجاهلية كما ذكر ﷺ هذا الأثر الذي كان في افتخار الناس بدار الندوة، التي كان المشركون يقولون: أي الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًا، فهو مجتمعهم الذي كانوا يجلسون فيه ويتفاخرون به، كانت دار الندوة لحكيم بن حزام رضي الله عنه، وكان أحد كبار قريش في الجاهلية، وهو - كما ذكروا - عاش مائة وعشرين سنة، ستين في الجاهلية وستين في الإسلام، فذكر ابن عبد البر عن مصعب قال: جاء الإسلام ودار الندوة بدار حكيم بن حزام، فباعها بعد ما مات معاوية بمائة ألف درهم، فقال له ابن هبيرة: «**بِعْت مكْرُمة قُرَيْشٍ؟! فقال: ذهبتْ الْمكارِمُ إِلّا التّقْوى**»[1]، فكانوا يرون الفخر في ذلك، وترك الصحابة رضي الله عنهم الافتخار بمثل ذلك.

وفي زماننا مِن هذا الأمر التبرك بآثار المعظمين من الكفار من الفراعنة وأشباههم، فهم يفتخرون بأن مصر أم الدنيا بها الأهرامات وبها أبو الهول وبها المقابر العظيمة للفراعنة، نعوذ بالله، هذا افتخار بباطل وبشرك وكفر وضلال، لا يجوز لمسلم أن يفتخر به، أن يفتخر بأن آثار أجدادنا الفراعنة - كما يقولون - بقيت سبعة آلاف سنة، فديار ثمود أشد بقاء منهم ومن آثارهم، لا شك أن ثمود قبل الفراعنة، كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿يَٰقَوۡمِ

---

(١) سبق عزوه (ص ٩٣).

إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ * مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ . فكان بين ثمود وبين الفراعنة قرون، فالافتخار بآثار هؤلاء الكفار الذين سجلوا شركهم على جدران معابدهم وبيوتهم، وملَؤُوها بالتماثيل المنحوتة والمرسومة والمحفورة، وكلها تدل على أنواع الكفر والشرك الذي كانوا عليه، فهذا إله السماء، وذاك إله النبات، وذاك إله المطر، والعجب أن أناسًا منهم جعلوا إله السماء عندهم حارس السماء (حورس) شعارًا لهم على طائرتهم في كل مكان تُحلق فيه، والعياذ بالله، فصار هذا الشعار الذي يدل على فساد الاعتقاد لمن اتخذه، كما أنه صار شعار شبابهم في الجامعات، فكل الأسر تسمى أسرة حورس، والعياذ بالله، وللأسف يخرج كثير من الشباب تحت هذا الشعار الشركي الكفري افتخارًا بأجدادهم الفراعنة، الذين هم أهون على الله من الجعلان، وآثار تدميرهم ظاهرة وملكهم الزائل يدل على فما فعله الله ﷻ بهم، مع أن الآثار تدل على أن ملكهم كان ملكًا شديدًا، كان ذا أوتاد ثابتة في الأرض، فأمر الله بإزالته ونزل بهم الدمار، وذلوا وهانوا بعد عزهم الذي كانوا به ظاهرين في الأرض، وهكذا – أيضًا – كل من يتفاخر بمآثر الجاهلية، ويطلب الخير من ذلك، ويتعظم بذلك، داخل في مشابهة أهل الجاهلية فيما كانوا فيه.

فلذلك لا يجوز للمسلم أن يتبرك بآثار المعظمين، ولا أن يفتخر بأن تحت يده شيء من ذلك، ولا أن يعين على شيء من ذلك، فالغرب مولع اليوم بتتبع الآثار، آثار الفراعنة، ويشتري تماثيل آلهتهم بأغلى الأثمان، حتى صارت تماثيل الفراعنة أغلى عندهم من تماثيل اليونان والرومان، التي هي كثيرة عندهم على نفس النمط من الكفر والشرك، فيوجد من يتعاون

معهم على ذلك بالحفر والتنقيب وبيع هذه التماثيل المحرمة التي تدل على الشرك، وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «**إِنّ اللّه ورسُولهُ حرّم بيْع الْخمْرِ، والْميْتةِ، والْخِنْزِيرِ، والْأصْنامِ**»[(١)]، وهي أصنام بلا شك، تركها مدفونة هو الأولى، هو الواجب، كما أن الشيطان إنما توصل إلى الشرك في العرب بأن أوحى إلى عمرو بن لحي أن ائتي إلى جدة، فاحفر في أماكن تجد أصنامًا مُعدة، فحفر فاستخرج ودًّا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا، استخرج تماثيل آلهة قوم نوح وبثها في قبائل العرب، فصارت تعبد من دون الله[(٢)]، فسبحان الله! منذ أن جاءت الحملة الفرنسية واستخرجت تماثيل الفراعنة وحفرت ونقبت، وقد كانت قبل ذلك مدفونة؛ لذلك يتعجب كثير من الناس نتيجة ظنهم أن هذه الآثار كانت من أيام الصحابة ﷺ كذلك، فهذا غير صحيح، وإنما الحملة الفرنسية هي التي استخرجت معظم هذه الآثار، وحفرت ونقبت، فلم يكن الصحابة ليتركوا هذه الأوثان منصوبة قائمة، لكن وقع ذلك بعد ما حدث هذا الغزو الغربي العسكري والفكري، ثم وجد في زماننا من يعبد هذه الأصنام بالفعل منهم، وهناك طوائف تأتي من الغرب من أوروبا وأمريكا إلى الهرم الأكبر؛ لتمارس طقوس العبادة لهذه الأوثان، ويعظمون الفراعنة جدًا لأجل أنهم يرون أن هناك قوى خفية كانوا يتعاملون معها، ومسألة «لعنة الفراعنة» عند الكثيرين من العوام والخواص ثابتة، أن من حاول فتح هذه الأماكن أصابته لعنتهم، والعياذ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٣٦)، ومسلم (١٥٨١) من حديث جابر ﷺ.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٧٧)، والسيرة النبوية لابن كثير (١/ ٦٢)، والرحيق المختوم (ص٢٧).

بالله، وهي كلمة كفرية شركية كذلك تدل على تعظيم هؤلاء الأسلاف الكفار، نعوذ بالله من حالهم؛ لذلك لا يجوز أن يفتخر إنسان بأن عنده شيء من ذلك، وإنما غلت أسعار تماثيل الآثار لأجل الافتخار بأن عندهم شيء من ذلك، يشترون تمثالاً حجريًا لا يساوي قروشًا قليلة في منفعته؛ لأن منفعته الوحيدة شرعًا هي أن يُكسر، ويستعمل كردم في الأماكن التي يحتاج فيها إلى حجارة مكسورة، هذا هو قيمته شرعًا؛ وأما هم فيجعلون لهذا التمثال الحجري - ولو لم يكن من الذهب ولا من الفضة ولا من المعادن - ملايين الجنيهات، ومن وقع على ذلك كانت له ثروة، لأجل ماذا؟! لأجل أن يفتخر أحدهم أن عندي من تماثيل الفراعنة كذا وكذا؛ ولأجل أن تفتخر متاحفهم بأن عندنا من التماثيل كذا وكذا، وتاريخ هذا التمثال كذان ونسأل الله العافية، وهي في الحقيقة تماثيل آلهة أو ملوك طواغيت عبدوا الناس لغير الله، فكيف يفتخر مسلم أو يعين مسلم على افتخار كافر بمثل ذلك؟! فهذا كله من صنع أهل الجاهلية، فإذا كان حكيم بن حزام قد أنكر على من أنكر عليه أنه باع مكرمة قريش على أنه افتخر بدار الندوة مجرد مكان كانوا يجتمعون فيه، لكن لما كانت هذه الدار مما افتخرت به قريش في الجاهلية، ويقولون: أي الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًا، كان ذلك من مسائل الجاهلية التي ينبغي ويجب أن يفارقها المسلم؛ ولذا قال: «**ذهبتْ الْمكارِمُ إِلّا التّقْوى**»، وما أحسن ما قال وأفقه ما كان فيه الصحابة رضي الله عنهم! ما أفقه الصحابة رضي الله عنهم! حيث علموا حقيقة ما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم، حين قال صلى الله عليه وسلم: «**ياأيها النّاسُ، ألا إِنّ ربّكُمْ واحِدٌ، وإِنّ أباكُمْ واحِدٌ، ألا لا فضْل لِعربِيٍّ على عجمِيٍّ، ولا لِعجمِيٍّ على عربِيٍّ، ولا أحْمر**

على أسْود، ولا أسْود على أحْمر، إِلّا بِالتّقْوى»[(١)].

لذلك نقول: هذه التجارة الخاسرة التي يحاول البعض إحيائها أو التكسب منها، ولو أتت بملايين فهي خاسرة؛ لأنها بيع محرم يعين على الافتخار بمآثر الجاهلية وآثار المعظمين الكفار، نعوذ بالله من حالهم.

ومن هذه المسألة أيضًا: الغلو والتبرك بآثار من يظنهم أتباعهم وأذنابهم صالحين، فالصوفية عندهم من التبرك بآثار من يصفونهم بالصلاح وهم من شر أهل البدع أو عندهم من البدع والضلالات، ولو سلمنا لما كانت آثارهم فيها بركة على الصحيح، لو سلمنا صلاحهم، فضلاً عن التبرك بما ليس من الآثار، أعني: بما وضع على قبورهم، إذا كان لا يشرع التبرك بالحديد الذي على قبر النبي ﷺ، ولا يشرع التبرك بالأرض التي مشى عليه النبي ﷺ، ولا يشرع التبرك بما جلس عليه النبي ﷺ إلا شيئًا كان يلبسه، شيئًا من آثار جسده ﷺ هذا الذي فيه البركة؛ وأما غير ذلك فلا يشرع التبرك، فكيف بمن دونه ﷺ؟!

وما يفعلونه عند قبور أوليائهم ومساكنهم وملابسهم يدل على غلوهم في ذلك غلوًا شديدًا، فتبركهم داخل في النوعين الأولين، لا في النوع الثالث المختلف فيه والراجح أنه بدعة، تبركهم داخل في النوع الشركي، شرك أكبر أو شرك أصغر؛ لذلك نقول: التبرك بآثار المعظمين من المشركين ولو من المسلمين لا يصح ولا يجوز، بل هذا من فعل أهل الجاهلية.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٨/ ٤٧٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٣٢)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٠٠).

الْمسْألَةُ السَّابِعَةُ والثّمانُون حَتَّى التِّسْعِين: الْفخْرُ بِالْأحْسابِ، الطّعْنُ فِي الْأنْساب، الاسْتِسْقاءُ بِالْأنْواءِ، النِّياحةُ عَلَى الْميِّتِ.

الشـــرح:

وهذا نص حديث النبي ﷺ: «**أرْبعٌ فِي أُمّتِي مِنْ أمْرِ الْجاهِلِيّةِ لا يتْرُكُونهُنّ: الْفخْرُ فِي الأحْسابِ، والطّعْنُ فِي الأنْسابِ، والإسْتِسْقاءُ بِالنُّجُومِ، والنِّياحةُ**»، وقال: «**النّائِحةُ إِذا لمْ تتُبْ قبْل موْتِها، تُقامُ يوْم الْقِيامةِ وعليْها سِرْبالٌ مِنْ قطِرانٍ، ودِرْعٌ مِنْ جربٍ**»(١)، تلبس ثوبًا من الجرب، تحك جسمها بسبب نياحتها، الفخر بالأحساب: مآثر الآباء والأجداد، حسب فلان، يعني: مآثر أجداده، يفتخر بأن أجداده كانوا يطعمون الطعام، أو كانوا سدنة البيت، أو كانوا سدنة الأوثان، وكما ذكرنا الفخر بالأحساب في زماننا من يفتخر بالفراعنة، فهذا خبل وخطر على عقيدة فاعله؛ أما من يقول: لو تعارضت الفرعونية مع الإسلامية قدمنا الفرعونية، كزنادقة ومنافقي العلمانيين المصرحين بهذه الزندقة، فهذا نفاق بيِّن وردة عما منّ الله به علينا من هذا الدين، يقول: نقدم الفرعونية. وهذا النسب الخبيث الذي قال النبي ﷺ: «**منْ تعزّى بِعزاءِ الْجاهِلِيّةِ، فأعِضُّوهُ بِهنِ أبِيهِ، ولا تكْنُوا**»(٢)، أي قولوا له: اعضض هنَّ أبيك، والهن اسم للذكر، من

---

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٣٥/ ١٥٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٦٣)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٧٥، ٩٧٦)، وفي الكبرى (٨٨٦٥)، والطحاوي في شرح مشكل =

الأسماء الصريحة عند العرب، فيقال له: اعضض ذكر أبيك، سب وشتم؛ لأجل إهانته وتحقيره، لما تفاخر بآبائه وأجداده، وقال: «**إنّ اللّه تعالى أذْهب عنْكُمْ عُبِّيّة الْجاهِلِيّةِ وفخْرها بِالْآباءِ، النّاسُ رجُلانِ: مُؤْمِنٌ تقِيٌّ، وفاجِرٌ شقِيٌّ، أنْتُمْ بنُو آدم وآدمُ مِنْ تُرابٍ، ليدعنّ رِجالٌ فخْرهُمْ بِأقْوامٍ، إِنّما هُمْ فحْمٌ مِنْ فحْمِ جهنّم، أوْ ليكُونُنّ أهْون على اللّهِ مِن الْجِعْلانِ الّتِي تدْفعُ بِأنْفِها النّتِن**»[(١)]، يجعلهم الله أهون عليه من الخنافس والحشرات، التي لا يعبأ الناس في قتلها وإزالتها، فالنبي ﷺ أشار إلى إهانة من فعل ذلك، والمعتاد في مثل هذا الأمر أن يكون صاحبه إنما يفتخر بأفعال الآباء والأجداد دون أن يصوِّب ملتهم، فأما من صوب ملتهم - كما ذكرنا - من يقول يقدم الفرعونية على الإسلام، ويرى أن هذه الحضارة كانت أعظم من حضارة الإسلام ومما جاء به الإسلام، فهذا كفر، نعوذ بالله من ذلك، وكما وردت بعض أشعار عن زنادقة يفتخرون بما فعل آباؤهم مثلاً بالمسلمين في غزوة أحد، عندما قتل بعض أهل بيت النبي ﷺ قيلت أشعار في ذلك، الله أعلم بمن نسبت إليهن أن ذلك ثأر ما فعل المسلمون، ما فعل بنو هاشم، يعني: الرسول ﷺ، ومن معه من الصحابة بآبائهم يوم بدر، فأخذ بثأرهم بمن قتل من أهل بيته ﷺ. قال عبد اللهِ بْنُ الزّبعْرى

= الآثار (٣٢٠٤، ٣٢٠٧)، والطبراني في الكبير (٥٣٢)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٧٥٦)، والبغوي (٣٥٤١)، والضياء في المختارة (١٢٤٤)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٣٣).

(١) أخرجه أبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥)، وقال: حديث حسن، وأحمد في المسند (٢/ ٣٦١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فِي يوْمِ أُحُدٍ[١]:

لـيْت أشْيـاخِـي بِـبـدْرٍ شـهِـدُوا　　　جـذع الْخزْرجِ مِـنْ وقْـعِ الأسـلْ
حِـين حـكّـتْ بِـقُـبـاءٍ بـرْكـهـا　　　واسْـتـحرّ الْقـتْـلُ فِي عـبد الأشْلْ
ثـمّ خـفّـوا عِـنْـد ذاكُـمْ رُقّـصًـا　　　رقـص الْحفّـانِ يـعْـلُـو فِي الْجبـلْ
فـقـتـلْـنـا الضِّـعْـف مِـنْ أشْـرافِـهِـمْ　　　وعـدلْـنـا مـيْـل بـدْرٍ فـاعْـتـدلْ

فمثل هذا يكون فخرًا بالأحساب كفرًا، والعياذ بالله، لكن المعتاد أن هذا في الأمة، فيكون شركًا أصغر على ظاهر الحديث؛ لأنه قال: «**أرْبعٌ فِي أُمّتِي مِنْ أمْرِ الْجاهِلِيّةِ لا يتْرُكُونهُنّ..**»[٢]. فدل ذلك على أنه موجود مع بقاء انتسابه إلى الأمة، فما كان من ذلك شركًا أكبر فيكون دليلاً على أنه كان من الأمة قبل أن يفعل شيئًا من ذلك، أو أنه من الأمة انتسابًا نفاقًا ورياءً وليس منها في الحقيقة؛ وأما المعتاد فهو أن هذا من الشرك الأصغر والجاهلية التي لا تنافي أصل الدين، لكن تنافي كماله الواجب، فإن لفظ الجاهلية - كما سبق بيانه - يشمل ما كان كفرًا وما كان معصية، فهذا النوع من المعاصي والذنوب، والظاهر أنه من الكبائر - والعياذ بالله - الفخر بالأحساب.

والثاني: الطعن في الأنساب، وهذا منتشر انتشارًا خطيرًا، كان في الجاهلية الشعراء إذا أرادوا أن يهينوا أحدًا طعنوا في نسبه، وشببوا به وبأمه،

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ١٣٧)، وعيون الأثر (٢/ ٤٧)، والسيرة النبوية لابن كثير (٣/ ١١٠)، والروض الأنف (٦/ ١٠٥).

(٢) سبق تخريجه (ص ١٠٤).

واتهموه بأنه ابن فاحشة وزنا، وفي زماننا هذا صار هذا الأمر معلومًا معهودًا عند الفساق، فأيسر شيء عندهم أن يقولوا: فلان ابن حرام. وربما قصدوا بذلك أنه ماهر جدًا، نعوذ بالله، وهذا من أمر الجاهلية، وربما قصدوا بذلك ما يصرحون به في شتائمهم من فلان ابن زنا وأن أمه زانية، فالسباب عندهم عادته يتضمن الطعن في النسب، وهذا السباب الصريح الذي قد يحيِّ به بعض الفسقة والفجرة والعصاة بعضهم بعضًا في أول النهار، يا ابن فلانة الزانية، بالألفاظ القبيحة المنكرة ونحو هذا، ويتضاحكون بذلك مما يوجب حد القذف، إلا أن يأتي بأربعة من الشهود العدول يشهدون بأنها قد زنت أمام أعينهم، وأنّى له بذلك، وربما كانت أمه قد ماتت، وربما أبوه قد مات؟!

ويجعلون هذا الأمر - والعياذ بالله - عادة لهم يتضاحكون بها ويتسامرون بها، نعوذ بالله من ذلك، وهذا من عظائم الذنوب، وقد قال ﷻ ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١٥]. فما يفعله الفساق في ذلك هو من أمر الجاهلية، الطعن في الأنساب، ومن ذلك ما قد يفعله بعض الآباء من نفي نسب أبنائهم لمجرد الشك، ويقول: إن هذا لا أدري هو ابني أو ليس ابني، لمجرد وجود شبه مخالف، لمجرد وجود شكل مخالف، كما كان أهل الجاهلية يطعنون في نسب أسامة بن زيد من أبيه رضي الله عنهما؛ لأن أسامة رضي الله عنه كان شديد السواد وأباه زيد بن حارثة رضي الله عنه كان أبيض، والحقيقة أن هذا بيّنه النبي ﷺ، فقال لرجل لما عرض بنفي ولده لاختلاف لونه، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه: «**أنّ رجُلًا أتى النّبِيّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رسُولَ اللَّهِ، وُلِدلِي غُلامٌ أَسْودُ، فَقَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟ قَالَ: نَعمْ، قَالَ: ما أَلْوانُها؟ قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: هَلْ فِيها مِنْ أَوْرق؟ قَالَ: نعمْ، قَالَ: فأَنّى ذلِك؟ قَالَ: لعلّهُ نزعهُ عِرْقٌ،**

قال: **فلعلّ ابْنك هذا نزعهُ عِرْقٌ**»(١)، يعني: كان هناك أحد آباء هذا الجمل أو أجداده بهذا اللون، فأتى به بشيء من هذا، فقال ﷺ: فكذلك يعني قل عن ابنك لعله نزعه عرق. فهذا يمكن أن يقع، وهو ثابت علميًا؛ فلذلك الطعن في النسب لمجرد الشك دون اليقين أمر عظيم الخطر.

وأما الاستسقاء بالأنواء، وهي النجوم، فقد كان من اعتقادات أهل الجاهلية أن النجوم هي التي تنزل المطر، وما زال أناس في زماننا يعتقدون ذلك، وأكثر من يعتقد في ذلك في شرق آسيا، فملل البوذيين والكونفشيوس والمشركين الوثنيون يقولون: هذا عام النجم الفلاني، وهذا متميز بكذا، وهذا تنزل به الأمطار بكذا، والصينيون خصوصًا عندهم من العقائد الفاسدة في ذلك، والهندوس كذلك، يعني: من الخزعبلات والأساطير ما الله أعلم به، يعتقدون أن النجوم هي التي تنزل المطر، واليونان القدماء والرومان والفراعنة كانوا أيضًا يعتقدون في ذلك، والمشركون من قريش أخذوا وضاهئوا هؤلاء، فكان الاستسقاء بالأنواء والنجوم على ذلك.

من اعتقد أن النجم ينزل المطر وينشئه مع الله أو من دون الله، فهو شرك أكبر، فمن قال: مطرنا بنوء كذا وكذا. معتقدًا ذلك الاعتقاد، فهو كافر بالله مؤمن بالكوكب؛ كما في الصحيح: «**صلّى لنا رسُولُ اللّهِ ﷺ صلاة الصُّبْحِ بِالْحُديْبِيةِ على إِثْرِ سماءٍ كانتْ مِن اللّيْلةِ، فلمّا انْصرف أقْبل على النّاسِ فقال: «أتدْرُون ماذا قال ربُّكُمْ؟. قالُوا: اللّهُ ورسُولُهُ أعْلمُ. قال: «أصْبح مِنْ عِبادِي مُؤْمِنٌ بِى وكافِرٌ، فأمّا منْ قال: مُطِرْنا بِفضْلِ اللّهِ ورحْمتِهِ،**

(١) أخرجه البخاري (٥٣٠٥، ٦٨٤٧، ٧٣١٤)، ومسلم (١٥٠٠).

فذلِك مُؤْمِنٌ بِي وكافِرٌ بِالْكوْكبِ، وأمّا منْ قال: مُطِرْنا بِنوْءِ كذا وكذا، فذلِك كافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكوْكبِ»(١).

إن اعتقد أنه ينزل المطر وينشئه فهذا كفر أكبر - كما ذكرنا - إن كان مع الله أو من دونه، على سبيل الشركة أو الاستقلال بنزول المطر.

وأما إن اعتقد أن الله جعل النجم سببًا لنزول المطر، فهو يؤثر بإذن الله، أن الله ينزل المطر، ولكن جعل النجم سببًا، فهذا شرك أصغر؛ لأنه كذب على الشرع وعلى القدر كما أوضحنا.

وكل مسائل الأسباب تكون كذلك، لابد أن يكون السبب إما شرعيًا بدليل من الشرع، أو كونيًا دلت عليه السنة الكونية بالتجربة؛ فأما إذا لم يعرف ذلك فادعاء أن شيئًا ما سبب لشيء آخر دون دليل كذب على الشرع وعلى القدر، وهو ذريعة إلى الشرك، ومشابهة لأهل الشرك في ألفاظهم فيكون شركًا أصغر؛ وأما من اعتقد أن الله ينزل المطر، ولكن النوء علامة - وهي درجة أقل - ليست سببًا، ليس أن النوء يؤثر بإذن الله أو أنه سبب لنزول المطر بتقدير الله، لا، يقول: مجرد علامة، أنه جرت العادة بأن الوقت الفلاني ينزل المطر عند ظهور النجم الفلاني، فهذا قد قال بعض أهل العلم بأنه مكروه فقط، والصحيح أن ظاهر الحديث بأنه: «**وأمّا منْ قال: مُطِرْنا بِنوْءِ كذا وكذا، فذلِك كافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكوْكبِ**»، فهذا صريح في أن هذا الكفر لا يجوز، ولو كان شركًا لفظيًا، ولو كان شركًا أصغر، فلا يجوز مشابهة

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦، ١٠٣٨، ٤١٤٧، ٧٥٠٣)، ومسلم (٧١) عَنْ زَيْد بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه.

المشركين في ذلك بحال من الأحوال؛ ولذلك من قال: إنه علامة، فالصحيح أن ذلك كراهة تحريم، وليس مجرد كراهة تنزيه كما قال البعض، ولفظ النوة التي يستعملها الناس اليوم أظن أن أصلها من النوء، وإن كان الناس لا يرون ذلك ابتداءً، فينبغي تغيير اللفظ، ولكن إن قصدوا بالنوة الريح فاسمها عندهم مجرد اسم بالريح التي تأتي في تاريخ معين، مع اعتقاد المسلم الجازم بأنه لا يعلم الغيب إلا الله، لم يكن ذلك داخلاً في هذا الباب، لكن لا ينبغي مشابهة لفظ المشركين، الناس عندهم اليوم لا يعرفون أن النوة أصلها من النوء، وإنما يقصدون بالنوة الريح الشديدة المطيرة أو غير المطيرة، يسمونها نوة كذا، نوة عيد الميلاد، نوة الحسوم، لأوقات معينة جرت العادة بأنها قريبة من هذه الأوقات، لو اعتقد المسلم أن الله الذي ينزل المطر، وأنه لا يعلم متى ينزل الغيث إلا الله، ولا أن تصريف الرياح يعلمه أحد قبل وقوعه إلا أن الأسباب الظاهرة، إلا أن التجربة أدت إلى أننا نتوقع هبوب الرياح في موعد معين، فمثل هذا إن تكلم بلفظ نوة ويقصد بها الريح لا النجم، لم يكن ذلك داخلاً في الاستسقاء بالأنواء.

وأما إذا قصد النوء النجم، فهذا مشابهة لأهل الجاهلية، والتشبه بالقوم يجعل الإنسان منهم، وقد قال النبي ﷺ: «**مَنْ تشبّه بِقوْمٍ فهُو مِنْهُمْ**»(١)؛ لذا نقول: إن الصحيح أنه مكروه كراهة تحريم.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٣١)، وأحمد (٩/ ١٢٦)، والبزار (٧/ ٣٦٨)، والطبراني في الأوسط (٨/ ١٧٩)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٧١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤١٧) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١/ ٢١٣).

إذًا، الاستسقاء بالأنواء على ثلاثة مراتب:

المرتبة الأولى: مرتبة الشرك الأكبر، وهو أن يعتقد أنها تنشئ المطر وتنزله من دون الله أو مع الله، من قبل نفسها.

المرتبة الثانية: أن يعتقد أنها سبب، جعلها الله سببًا، فهذا شرك أصغر.

المرتبة الثالثة: المختلف فيه في الاستسقاء بالأنواء، أنه إذا قال: مطرنا بنوء كذا وكذا. على سبيل العلامة والتوقيت، فهذا مختلف في أنه مكروه تحريمًا أو تنزيهًا، والصحيح التحريم.

وأما النياحة فهو الصياح على الميت، بتعديد مناقبه وآثاره، والدعاء بالويل والثبور، يا ويلي! يا خرابي! يا لهفي! يا أسدي! يا كسبي! ونحو ذلك ... من لنا بعد! الصياح والبكاء ورفع الصوت والتكلم بالكلام المنكر عند الموت، كل هذا من النياحة على الميت المحرم، بل كبيرة من الكبائر؛ لأن النبي ﷺ قال: «**النّائِحةُ إِذا لمْ تتُبْ قبْل موْتِها، تُقامُ يوْم الْقِيامةِ وعليْها سِرْبالٌ مِنْ قطِرانٍ، ودِرْعٌ مِنْ جربٍ**»(١)، القطران يزداد اشتعالاً في النار، والجرب يحك جسمها، كما لطمت خدها وشقت جيبها، وهذا من الجاهلية قال النبي ﷺ: «**ليْس مِنّا منْ ضرب الخُدُود، وشقّ الجُيُوب، ودعا بِدعْوى الجاهِلِيّةِ**»(٢).

---

(١) سبق تخريجه (ص ١٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩٤)، ومسلم (١٠٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

دعوى الجاهلية كما ذكرنا: يا خرابي! يا ويلي! يا هلاكي! يا كسبي! يا حافظي! يقولون ذلك للميت، فرفع الصوت بالبكاء عمومًا لا يجوز، الذي يجوز الدمع، دمع العين، كما قال النبي ﷺ: «**إِنّ العيْن تدْمعُ، والقلْب يحْزنُ، ولا نقُولُ إِلّا ما يرْضى ربُّنا، وإِنّا بِفِراقِك يا إِبْراهِيمُ لمحْزُونُون**»[(١)]، إبراهيم ابن النبي ﷺ لما مات.

فالنياحة - والعياذ بالله - من عظائم الذنوب التي يجب التوبة منها، سواء كانت مجاملة، أو تألمًا بالميت، (مجاملة) التي تسمى الإسعاد، أن فلانة أسعدتني في الجاهلية، يعني: خدمتني عند وجود ميت لي فصاحت معي فناحت، فتريد أن تسعدهم، عندهم الميت اليوم، فتذهب تنوح وتصوت معهم، وهذه كانت مهنة منذ حوالي خمسين سنة، كانت مهنة اسمها النّدّابة، كانت مهنة تأخذ عليها أجرة، تذهب تُبكي من لا يبكي، تظل تنوح وتجعل المنديل هكذا، وتشده يمينًا وشمالاً، والعياذ بالله، لكن الحمد لله قلّ ذلك كمهنة، ولكن بقي كمجاملة، وبقي كتألم، يعني: أصحاب الميت يتألمون، والنساء غالبًا ما يفعلون مثل هذا الأمر، ونسأل الله العافية، ومِن النساء من تجامل في هذا الباب كما ذكرنا، وكله من كبائر الذنوب، نسأل الله العافية.

إذا تكلموا بالكفر أثناء النياحة مما فيه سب للقدر واعتراض عليه، فذلك - والعياذ بالله - من الكفر، قد يتكلمون بكفر اختيارًا، يسبون الله ﷻ الذي فعل بهم ذلك، ويسبون قدره، ويتهمونه بالظلم، وربما صرحوا بذلك تلفُّظًا، فهذا كفر، والعياذ بالله، نسأل الله العافية.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

الْمسْألةُ الْواحِدةُ والتِّسْعُون: إنّ أجلّ فضائِلِهُمْ الْبغْيُ، وقدْ ذكر اللهُ فِيهِ ما ذكر.

الشـــرح:

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وذكر الله ﷻ عن آل فرعون، قال: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يونس: ٩٠]، عدوانًا وتجاوزًا، وذكر الله ﷻ عن أهل الكتاب، قال: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الجاثية: ١٧].

فالبغي من أعظم أمراض الأمم خصوصًا بعد تمكنها، ذكره الله ﷻ عن المشركين، وذكره ﷻ عن المنحرفين الملحدين الكافرين من أهل الكتاب، فهذا البغي، أن يبغي بعض الناس على بعض، وأن يعتدوا عليهم، وأن يتجاوزوا الحدود، فالبغي هو تجاوز الحدود، والله ﷻ شرع شرائع وحد حدودًا وبيّن حقوق العباد بعضهم على بعض، فالحسد والرغبة في العلو هي من أعظم الأمراض التي تؤدي إلى البغي والعدوان، وهذا الذي حرمه الله ﷻ فيما حرم من كبائر الإثم ونهى عنه ﷻ، وهذا البغي سبب تفرق الأمة وسبب اختلافها وتباغض أفرادها، وكل طرف يريد أن يأخذ حق أخيه،

فالمؤمن الصادق لايبغي على أخيه المؤمن، كما قال ﷺ: «**وإنّ الله أوْحى إِليّ أنْ تواضعُوا حتّى لا يفْخر أحدٌ على أحدٍ، ولا يبْغِي أحدٌ على أحدٍ**»[(١)]، فهذا الأمر وهو تجاوز الحدود، أن يتمنى الإنسان أن يأخذ ما في يد أخيه، وأن يحسده على نعمة الله ﷻ، وأن يجاوز في البطش والتنكيل بمن خالفه، فهذا ليس من صفات أهل الإيمان، ولم تزل هذه الأمراض موجودة في الأمم، والعجب أنهم يفتخرون بتسلطهم على الآخرين وبغيهم، وأنهم إذا بطشوا بمن خالفهم بطشوا جبارين، وإلى يومنا هذا لا يزال الطغاة يفتخرون ويعدون من فضائلهم أنهم يبطشون بمن خالفهم، وأنهم يبغون على من يخالفهم فيما هم فيه أو ينازعهم فيما هم فيه، ولو نظرت إلى الأمم الغربية، وكيف أنها بغت على الشعوب المستضعفة، وأخذت بلادها وثرواتها وأذلت أهلها، وهم يعدون ذلك من مفاخرهم، ويسمون ما يفعلونه استعمارًا، وصارت هذه الكلمة بعد رفض الناس لها من كراهيتهم علامة على الاحتلال، وإن كان أصلها من التعمير، لكن في حقيقة الأمر هم بغوا واعتدوا، ويفتخرون ببغيهم وعدوانهم ويسمونه تعميرًا وإرشادًا للأمم، والعجب أن أناسًا من المنافقين يرون ما يفعله الأعداء فعلاً من البغي والعدوان من المفاخر، يرون ذلك من الفضائل.

فتجد من يقول: من الذي علّم الأمم الديمقراطية؟ ومن علّمهم الحرية؟ ومن منع الإرهاب والتطرف من أن يسيطر على المجتمعات؟ ويضرب أمثلة في ذلك بالبلاد التي احتلها الغرب؛ في فلسطين، وفي

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار أخي بني المجاشعي رضي الله عنه.

العراق، وفي أفغانستان، وهذا ممن ينتسب إلى الإسلام، فلو تصور أن الأعداء يرون هذا من فضائلهم، فهذا من أجل جهلهم وضلالهم، فكيف يتصور أن يوجد في الأمم المغلوبة المهزومة المستضعفة المستذلة من يجعل البغي والعدوان واحتلال البلاد من فضائل الغرب، ومن فضائل الأعداء أنهم أخرجونا واستنقذونا؟!

وتجد دعاة التنوير الكاذب، وهم دعاة الظلام في الحقيقة الذين يريدون التخلص من دين الإسلام بالكلية، ويطعنون فيه بالليل والنهار في أصوله وفروعه، في كلياته وجزئياته، يرون هذه الأمور، يرون أن الحملات الغربية على بلادنا كانت تنويرًا، ولا يزال يوجد في بلادنا من يرى الحملة الفرنسية سببًا للتنوير، وأن الأمة إنما خرجت من الظلام إلى عهود الإصلاح عندما أتى الغرب واحتل هذه البلاد، وكذا الاحتلال الإنجليزي عند أقوام هو الذي أخرج هذه الأمة إلى التعليم النافع وإلى التقدم والحضارة والمدنية، وأن اتباع هؤلاء البغاة المعتدين هو في الحقيقة من الفضائل المستحسنة، سبحان الله! الله ﷻ ذم هؤلاء المتكبرين الذين كانوا يفتخرون بالطغيان على من خالفهم، وبيّن ﷻ عاقبة البغي، وأنه سبحانه يدمر أهله وأصحابه، ويفرق كلمتهم، وينزل بهم بأسه على ما صنعوا، وهؤلاء في زماننا يرون العدوان والبغي مأثرة ومفخرة من المفاخر التي يرونها سببًا لإصلاح الأمة وتنويرها، وذلك بالتخلص من مبادئ دينها وأصوله وفروعه في حقيقة الأمر عندهم، هذا الذي ابتلي به المسلمون في زماننا هو من أمور الجاهلية، ونسأل الله العافية.

فالبغي وتجاوز الحدود التي شرعها الله ﷻ هذا هو الذي حرمه الله

وأنزل فيه ما أنزل وجعله من أغلظ المحرمات، فالمسلمون في جهادهم في سبيل الله لا يبغون في الأرض بغير الحق ولا يتكبرون فيها، وإنما ينشرون العدل والعلم النافع في الأمم، ويستخرجونهم من الظلمات إلى النور، كما قال ربعي رضي الله عنه لرستم ملك الفرس، لما سأله عن سبب قدومهم: «**فقال: ما جاء بِكُمْ؟قال: اللّهُ ابْتعثنا، واللّهُ جاء بِنا لِنُخْرِج منْ شاء مِنْ عِبادةِ الْعِبادِ إِلى عِبادةِ اللّهِ، ومِنْ ضِيقِ الدُّنْيا إِلى سِعتِها، ومِنْ جوْرِ الأدْيانِ إِلى عدْلِ الإِسْلامِ، فأرْسلنا بِدِينِهِ إِلى خلْقِهِ لِندْعُوهُمْ إِليْهِ، فمنْ قبِل مِنّا ذلِك قبِلْنا ذلِك مِنْهُ ورجعْنا عنْهُ، وتركْناهُ وأرْضهُ يلِيها دُوننا، ومنْ أبى قاتلْناهُ أبدًا، حتّى نُفْضِي إِلى موْعُودِ اللّهِ**»[(١)].

هكذا كان الصحابة رضي الله عنهم يخرجون الناس - كما بين الله سبحانه وتعالى - من الظلمات إلى النور، وهم يقاتلون في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، ناشرين لما بعث به نبيهم ﷺ من الكتاب الذي أوحى الله فيه إليه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، وما رضوا أبدًا بالبغي والعدوان، حتى على الأمم المغلوبة المهزومة، وما رضوا بأن يظلم هؤلاء المغلوبين، بل كلٌّ يأخذ حقه، ولا يستعبد الناس بغير حق، وحتى من كان استرق أو أسر أو قهر، فإنه يُعامل معاملة حسنة، حتى أوصى النبي ﷺ بملك اليمين مرات عديدة، حتى كان آخر ما قال من وصاياه وهو في مرض موته: «**الصّلاة الصّلاة، وما ملكتْ أيْمانُكُمْ**»[(٢)].

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٥٣٠)، والبداية والنهاية (٧/ ٤٦)، وحياة الصحابة (١/ ٢٥٨)
(٢) أخرجه أحمد (٤٤/ ٨٤)، والنسائي في الكبرى (٧٠٩٨)، وأبو يعلى (٦٩٣٦)، =

فالبغي هو من مفاخر أهل الجاهلية، يرون أن قوة بطشهم وشدة بغيهم يعدون ذلك إرهابًا، ويعدون ذلك من فضائلهم، وكانت العرب في أشعارها تفتخر بظلم قبيلتها مثلاً لغيرها، ويرون ذلك مما يتمدحون به، ويذكرون بطشهم لمن خالفهم، ولو تأملت في زماننا الكفار والمنافقين والعتاة المجرمين من الملأ المتكبرين، يذكرون أيضًا من فضائلهم أنهم يعتدون على الناس، ولو نظرت مثلاً إلى اليهود كيف أن من كان يعتدي على المسلمين في مذابح تأسيس الدولة اليهودية المجرمة فعندهم مِن المقدمين، فعامة رؤساء بلادهم ورؤساء وزرائهم وعامة حكامهم هم الذين اشتركوا في البغي والعدوان، وقادوا عصابات القتل والظلم والعدوان التي مارسوها ضد المستضعفين من المسلمين قبل وبعد تأسيس دولتهم، وهم يفتخرون بذلك ويجعلونه سببًا للتقدم عندهم؛ لكي يكون رئيسًا أو كبيرًا أنه بالفعل يسفك الدماء أكثر، وما زالت استطلاعات الرأي في بلادهم أن من شارك في قتل المسلمين أكثر ومن توعدهم أكثر ينتخبونه، تظهر استطلاعات الرأي أنه مقدم عندهم وينتخبونه في الانتخابات؛ لأنهم يودون من يظلم الناس، وعند الأمريكان شخصية راعي البقر الذي يقتل الهنود ويقتل الشعوب المستضعفة الأخرى، هو الشخصية المفضلة عندهم، ولا يزالون يفتخرون بهذا البغي والعدوان.

= والبيهقي في الدلائل(٧/ ٢٠٥)، والنسائي في الكبرى (٧٠٩٧، ٧٠٩٩)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٢٠٣) عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ عَامَّةُ وَصِيَّةِ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ: «**الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ. حَتَّى جَعَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ يُلَجْلِجُهَا فِي صَدْرِهِ، وَمَا يَفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ**».

وكما ذكرنا المسلمون في جهادهم وإعلائهم لكلمة الله، حتى مع الأمم المغلوبة المستضعفة، لم يكن ذلك إلا لمصلحتهم؛ ولذلك ما نشروا القتل وسفك الدماء وانتهاك الأعراض والحرمات؛ وإنما نشروا العلم والعدل ودخلت الأمم في دين الله أفواجًا مختارة لهذا الدين، خرجوا من نير واستعباد أمثالهم ممن ينتسب إلى ملتهم إلى سعة الإسلام وعدله ورحمته، ومن يتأمل تاريخ المسلمين في فتحهم مصر مثلاً، وكيف أن النصارى من أهل البلاد سارع أكثرهم في الدخول في الإسلام بعد أن رأى عدل المسلمين وكذا ما كانوا يعانونه على أيدي من ينتسبون إلى ملتهم ممن خالفهم في المذهب، فقد كان مذهب الأقباط في مصر يختلف عن مذهب الملكانية أو الكاثوليك الرومان، الذين يحتلون البلاد في ذلك الوقت، وأذاقوهم سوء العذاب، ولما جاء المسلمون خلصوهم بالفعل، وهم الذين سجلوا ذلك في كتب تاريخهم، فكان البغي والعدوان هو السمة المميزة لأهل الكتاب وللمشركين، والعجب أن يفتخرون بذلك ويعدونه من فضائلهم، وأعجب منه أن يوجد فيمن ينتسب إلى الإسلام من يرى فعلاً أن بغيهم وعدوانهم مصلحة وخير للمسلمين، وأنه كان الذي ينبغي أن يقع ويحدث، ويودون استمرار هذا الاحتلال والبغي والظلم والعدوان، ويبرئونه، وما أعجب من هذا الأمر هو ما شهد الأعداء به في آخر ظلم تعرض له المسلمون في غزة، القاضي الذي يحقق عندهم يهودي الديانة، وعضو في مجلس أمناء جامعتهم في عاصمة إسرائيل، ولكن عندما كلف بالتحقيق في مذابح غزة، وأصدر تقريرًا يؤكد على أن اليهود ارتكبوا مجازر فظيعة في غزة، كان الذي

يمنع من ظهور هذا التقرير أناس ينتسبون إلى أهل فلسطين، بل وإلى أهل الإسلام!

ويقرر ذلك، ويزعم أنه إنما يفعل ذلك من أجل السلام، فسبحان الله! البغي عندهم أمر مطلوب محثوث عليه مأمور به، وكانوا يأمرونهم بذلك، ويرشدونهم إلى كيفية قتل من أرادوا قتلهم من المسلمين، ويوصونهم بأنهم لابد أن يبطشوا، ولابد أن يدخلوا البلاد ولابد أن يدمروها، ونسأل الله العافية.

وهذا البغي - والعياذ بالله - عاقبته أسوأ العواقب، ووالله إن البغي هو أمر ليس مختصًا بالكفار، كما ذكرنا في عامة مسائل الجاهلية أنه يوجد فيمن ينتسب إلى الإسلام وإلى المسلمين من يقع في شيء من هذه الجاهلية ليست كل الجاهلية تكون كفرًا، لكنها منها ما يكون كفرًا، ومنها ما يكون دون ذلك؛ ولذلك نقول: إن من بغى على غيره، هناك من إذا تمكن، ولو كان هو مستضعفًا بالنسبة إلى غيره، لكن يوجد من يكون كذلك إذا كان فوق غيره، ولو كان هو ضعيف القوة بالنسبة إلى غيره، لكن إذا كان يتعامل مع من هو أضعف منه، فإنه يبغي عليه، فيسلط الله ﷻ عليه من يظلمه ويذله ويهينه جزاءً بما بغى على إخوانه وبغى على أهل دينه ووطنه كذلك، نسأل الله العافية.

لذلك حرم الله البغي، وذكر سوء عاقبته في كتابه، وأنه سبب اختلاف الكلمة وذهاب القوة، وأنه سبب لزوال الملك؛ لأن الله ﷻ ينتصر للمظلوم المبغي عليه، ويجيب دعوته، وهو ﷻ أقسم بعزته وجلاله أن ينصر المظلوم ولو بعد حين.

الْمسْألةُ الثّانِيـةُ والتِّسْعُون: إِنّ أجلّ فضائِلهُمُ الفخْرُ ولوْ بِحقٍّ، فنُهِي عنْهُ.

الـشـــرح:

لا تفاخروا . . النهي عن التكبر والتفاخر ، قال الله ﷻ : ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الحديد: ٢٠]، فلما ذكر الله ﷻ تحقير الحياة الدنيا ، وذكر من صفاتها أنها فيها التفاخر : ﴿أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾ ، وذكر أنها متاع الغرور ، المتاع الذي يُغر به من غُر ، متاع زائل سريع الزوال يغر به من خدع ، أمر الله ﷻ بعد أن بين هذا الذي لا ينبغي أن يُتفاخر ويتسابق فيه ، بيّن لزوم المسابقة إلى الجنة وإلى المغفرة من الله : ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ [الحديد: ٢١]. من عادة أهل الجاهلية ذكر الفخر ، وكان هذا من أشعارهم التي يذكرونها في المجامع ؛ ولذا أمر الله المؤمنين أن يذكروا الله أكثر من ذكر المشركين لآبائهم ، قال ﷻ : ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٠٠]. فكانوا من شدة فخرهم بالآباء وبالأجداد وبالقبيلة وبالقوم كانوا يذكرون ذكرًا كثيرًا ، فأمر الله ﷻ المؤمنين أن يتركوا ذلك ، وأن لا يفتخر بعضهم على بعض ، ولا يبغي بعضهم على بعض ، بل يتسابقوا إلى ذكر الله

ويقضوا أوقاتهم في ذكر الله: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾.

وقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال النبي ﷺ: «**ياأيها النّاسُ، أَلَا إِنَّ ربّكُمْ وَاحِدٌ، وإِنّ أباكُمْ واحِدٌ، أَلَا لا فضْل لِعربِيٍّ عَلَى عجمِيٍّ، وَلَا لِعجمِيٍّ عَلَى عربِيٍّ، وَلَا أحْمر عَلَى أسْود، وَلَا أسْود عَلَى أحْمر، إِلَّا بِالتّقْوى**»(١)، فالافتخار وعدّ المناقب للنفس وللقوم وللآباء والأجداد هو من عادات أهل الجاهلية، التي نهى الله ﷻ في كتابه ونهى رسوله ﷺ في سنته عنها، فالذي يفتخر بنفسه والذي يفتخر بآبائه هو يزكيها ويمدحها، وقد قال ﷻ: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢]؛ ولذا قال النبي ﷺ: «**أنا سيّدُ ولدِ آدم يوْم الْقِيامةِ ولا فخْر**»، وقال: «**وَأَنَا أوّلُ مَنْ تنْشقُّ عنْهُ الأرْضُ وَلَا فخْر**»(٢)، فإنه لا يفتخر ﷺ بذلك، وإنما يقول ذلك من أجل أن يعلم الناس العقيدة الواجب اعتقادها فيه ﷺ ضمن الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر، وليس أنه يفتخر بهذه الأمور؛ ولذلك كان الافتخار ولو بأشياء من الحق مذمومًا؛ لأنه تزكية للنفس، وعادات أهل الجاهلية أن يتفاخروا ويتباهوا كعادات المشركين، وفي زماننا لا يزال هذا

---

(١) سبق تخريجه (ص ١٠٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة ﵁، وليس فيه «**وَلَا فَخْرَ**»، وأخرجه بهذا اللفظ الترمذي (٣١٤٨)، وحسنه، وابن ماجه (٤٣٠٨)، وأحمد في المسند (٤/ ٣٣٠) من حديث أبي سعيد ﵁، وجاء من حديث ابن عباس، وجابر بن عبد الله، وابن مسعود، وواثلة بن الأسقع، وأنس، وعائشة، وعبد الله بن سلام، ﷺ أجمعين.

الأمر، وهو الافتخار وعد المناقب، ولو كانت بالباطل، من سمات كثير ممن ينتسب إلى الإسلام ومن المسلمين، فإذا كان الافتخار بحق منهي عنه، فكيف بمن يفتخر بالباطل؟!

كمن يفتخر بالفراعنة ومجدهم وتاريخهم، وهم عُبّاد أوثان، عبدوا غير الله ﷻ؛ من الآلهة المنحوتة، ومن الملوك، والكبراء، والسادة، الذين عبدوه من دون الله وسموهم آلهة، فكيف يغفل المؤمن عن هذه القبائح ويفتخر بأمثال هؤلاء؟!

من كان كذلك كان عند الله أهون من الجعلان، وذلك أن الله ﷻ جعل الناس لا يتفاخرون ولا يتفاضلون إلا بتقواه، ومن تقوى الله ﷻ أن لا تزكي نفسك، وألا تفتخر بأعمالك، وألا تفتخر بآبائك وأجدادك؛ وإنما تعمل لوجه الله سبحانه وتعالى، لا تريد علوًا في الأرض ولا فسادًا.

الْمسْأَلَةُ الثّالِثَةُ والتِّسْعُون: أَنَّ تعصُّب الْإِنْسانِ لِطَائِفتِهِ عَلَى الْحقِّ والْباطِلِ أمْرٌ لابُدّ مِنْهُ عنْدهُمْ، فَذَكَرَ اللَّهُ فِيهِ مَا ذَكَرَ.

الشـــرح:

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]، كان عندهم هذه النعرة الجاهلية، وحذر منها النبي ﷺ حين قال: «**ما بالُ دعْوى الْجاهِلِيّةِ؟! . . . دعُوها فإِنّها مُنْتِنةٌ**»[١]، تعصب الإنسان لطائفته على الحق أو الباطل، لمجرد أنه انتسب إلى طائفة ما، ولو كانت طائفة شريفة، لكن أن يغضب لها وينتصر لها، ويقاتل من أجلها، فذلك من الجاهلية، لما كسع غلام من المهاجرين غلامًا من الأنصار، أو غلام من الأنصار غلامًا من المهاجرين، فنادى المهاجري: يا للمهاجرين! ونادى الأنصاري: يا للأنصار! فاجتمع المهاجرون والأنصار بينهما، حتى وقع بينهما قتال بالجريد والنعال ونحو ذلك، فأدركهم النبي ﷺ: «**ما بالُ دعْوى الْجاهِلِيّةِ؟! . . . دعُوها فإِنّها مُنْتِنةٌ**»، دعوا دعوى الجاهلية فإنها منتنة، كان ذلك من الأسس التي يقاتلون عليها وتناصرون عليها، قال النبي ﷺ: «**منْ قُتِل تحْت رايةٍ عِمِّيّةٍ، يدْعُو عصبِيّةً، أوْ ينْصُرُ عصبِيّةً، فقِتْلةٌ جاهِلِيّةٌ**»[٢].

فكان تعصبهم لطوائفهم وقبائلهم وعائلتهم أمر مقرر، يرون ذلك أمرًا

---

(١) سبق تخريجه (١/ ٢٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، و(١٨٥٠) من حديث جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

حسنًا جميلاً، يرون الولاء على القومية والوطنية هي من الفضائل عندهم والأمور المحمودة التي لابد منها، وفي زماننا ظهرت هذه النعرات أيضًا من أناس تشربوا روح الغرب في التعصب للأوطان، وجعلوا هذه أعظم الروابط التي يُبنى عليها المجتمع، أن الرابطة القومية ثم بعدها أقل وأصغر وأدنى منها هي رابطة الوطنية، بعد أن كانت قومية لكل من يسكن أو كل من ينتسب لجنسية أو قومية معينة، كما ذكروا القومية التركية، والقومية الفارسية، والقومية العربية، فهذا الذي تشربه هؤلاء، ثم بعد ذلك انقسم هؤلاء أجزاء، فالعربية انقسمت إلى مصرية، ومغاربية، وحجازية، وسعودية، وعراقية، وشامية، ويمنية، وكلٌّ مستعد للقتال على ذلك، ويرون أن التمدح بذلك والتعصب له أمر محمود، لو أن الإنسان لم يكن عنده هذه الحمية الوطنية، فإنه مذموم عندهم، وليس عنده وطنية، وليس عنده قومية، ويرون ذلك مذمة، ولو كان قومه على الباطل، بل لو كانوا على الشرك، فهم يرون أنه لا فرق بين مصري ومصري، ولو كان أحدهما مسلمًا والآخر كافرًا، ليس عندهم تفاضل بناءً على الدين، وينصون على ذلك، وأن المواطنين سواء، طالما أنهم أهل وطن واحد، ضاربين بكتاب الله ﷻ الذي قال الله فيه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥]، وقال ﷻ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ۝٢٨﴾ [ص: ٢٨]، وقال ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾ [الجاثية: ٢١].

فأول من نادى بالقومية العربية - كما يقول الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ - كان

أبو جهل، الذي جمع الناس من أجل أن محمدًا أتاهم بما لا يعرفون، وأنه سب آباءهم، وسفه أحلامهم، وطعن في دينهم، وعاب آلهتهم، وضلّل وكفّر آباءهم، فكان التعصب للآباء التعصب للطائفة هو المعيار الذي يبنون عليه ميزان الولاء والبراء، يتبرءون ممن خالف طائفتهم، وكذلك يتعصبون لطائفتهم ويتناصرون عليها ويقاتلون من أجلها، وحرم الله ﷻ ذلك، وسماها النبي ﷺ دعوى الجاهلية، وقال «**مَنْ تعزّى بِعزاءِ الْجاهِلِيّةِ، فأعِضُّوهُ بِهنِ أبِيهِ، ولا تكْنُوا**»[1]، فهذا الذي أمر به النبي ﷺ من إهانة من دعا إلى الجاهلية ومن التعصب للطائفة على الحق والباطل، لابد وأن يكون معيار النصرة والحب والطاعة والمتابعة، وهي معاني الولاء، والصداقة والقيام بالأمر طاعة لله ﷻ؛ أما من كان وقع في معصية فلابد أن نبغضه على معصيته، وأن نخالفه فيها، وأن ننهاه عنها، ولا يكون الميزان عندنا أنه ينتمي إلى طائفتنا، فنسكت عن مثالبه أو أنه خارج طائفتنا، فنفضحه ونذكر مثالبه وأخطاءه، ودب التعصب إلى أهل الإسلام بهذه الطريقة أيضًا فيما يتعلق بالمذاهب والفرق، فحصل ما حصل وفي زماننا في الجماعات المختلفة، حتى ولو كان أصل الاجتماع أمرًا حسنًا، كما ذكرنا في المهاجرين والأنصار، كان أصل ما اجتمع عليه هؤلاء ووصفوا به معان حسنة جميلة، هؤلاء بالهجرة وهؤلاء بالنصرة، لكن لما صار التناصر على مجرد الاسم دون أن يكون هناك بحث عمن المحق ممن المبطل، كانت دعوى جاهلية.

---

(١) سبق تخريجه (ص ١٠٤).

لذلك نقول: كان تعلم التلامذة من العلماء أمرًا مشروعًا مطلوبًا، وكان التعصب أمرًا مذمومًا، فاتباع الناس لعلمائهم كان ضمن طاعة أولي الأمر، لكن تحول هذا الأمر بعد حين إلى تعصب للمذهب، وانتصار له على أي حال، وتقديم لآراء الرجال على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، حتى قال قائل هؤلاء وأحد مقدميهم: «**كل حديث ليس عليه أئمتنا فهو؛ إما ضعيف، أو مؤول، أو منسوخ**»، مبدئيًا دون أن نبحث، لا يمكن أن نفارق ما عليه الأئمة وما عليه المذهب، ولابد أن نرجح ما هو مرجح عند المتقدمين، ومهما كان من بحث، مهما كان من أدلة، مهما كان من نظر، فهو تابع لهذه القاعدة، وهو اتباع الطائفة.

لذلك نقول: كان التعصب للمذاهب من هذه الجاهلية التي تسربت إلينا، نقول: نحن في أمر انتساب الإنسان إلى طائفة إلى مذهب كأن يتعلم، هل كان محرمًا أن يتعلم الناس من الإمام مالك أو من الإمام أبي حنيفة، أو أن يكون لهم تلامذة، أو أن يكون هناك من يتتبعون أقوال الشافعي يتعلمون منها، وكذا الإمام أحمد؟

نقول: هذا ليس بمذموم، وإنما المذموم ما حصل بعد ذلك، هذا الذي حذر منه الأئمة من أن يتعصب الناس لأقوالهم؛ ولذا سألهم أتباعهم: إذا صح الحديث بخلاف قولك، فقال أبو حنيفة: «**دعوا قولي لقول رسول الله ﷺ**»، وقال: «**دعوا قولي لقول أصحاب رسول الله ﷺ**». وقال: الشافعي رحمه الله: «**إذا صحّ الْحدِيثُ فهُو مذْهبِي**»؛ ولذلك قال كثير من أئمة الشافعية بأقوال نص الشافعي على خلافها، لما علموا صحة أحاديث ثبتت وقالوا: هذا مذهب الشافعي، جزموا بأن هذا مذهب الشافعي خلاف

قوله؛ لأنه قال: «**إذا صحّ الْحدِيثُ فهُو مذْهبِي**»؛ لذلك أفتوا بأن الحديث هو مذهبه، وعلموا صحة الحديث فأفتوا بذلك.

وقال الإمام أحمد: «**لا تُقلِّدْنِي ولا تُقلِّدْ مالِكًا، ولا الشّافِعِيّ، ولا الثّوْرِيّ، وتعلّمْ كما تعلّمْنا فكان يقُولُ لِمنْ قلّدهُ: حرامٌ على الرّجُلِ أنْ يُقلِّد فِي دِينِهِ الرِّجال، وقال: لا تُقلِّدْ فِي دِينِك الرِّجال، فإِنّهُمْ لنْ يسْلمُوا مِنْ أنْ يغْلطُوا**»[١]، فهذا الذي هو أمر به العلماء، وهكذا كان الصحابة يربون التابعين، عندما قال ابن عباس رضي الله عنه لعروة في أمر التمتع: «**يُوشِكُ أنْ تنْزِل عليْكُمْ حِجارةٌ مِنَ السّماءِ، أقُولُ قَالَ رسُولُ اللَّهِ، وتقُولُونَ قَالَ أبُو بكْرٍ وعُمر؟**»[٢].

وأما أمر الفرق والمذاهب الاعتقادية فالتعصب لها أقبح، فهؤلاء معتزلة وهؤلاء خوارج وهؤلاء أشاعرة، والواجب أن يكون الإنسان من أهل السنة والجماعة، والتعصب للحق ليس تعصبًا مذمومًا، لكن لا يعني ذلك أن يكون الإنسان في مسائل ليس عنده دليل عليها في بعض مسائل الفروع في الاعتقاد، قد يكون هذا أمرًا معلومًا، قد يختلف العلماء في بعض مسائل فرعية، في مسائل الاعتقاد، الشيخ فلان قد أفتى بكذا، أو الإمام الفلاني قد قال بكذا، فيجعله البعض حجة، كأنه نص كتاب أو سنة أو إجماعًا.

فالتعصب بهذه الطريقة أمر مذموم أيضًا، ولو كان ذلك لإمام عالم جليل، وهذا فيما يتعلق بالمسائل الاعتقادية، والتعصب للمذاهب في المسائل

(١) انظر هذه الآثار في: (١/ ١١٧، ١٢٧).
(٢) سبق تخريجه (١/ ١٢١).

الفقهية، وكلا الأمرين لا يصح، وإن كان أكثر المسائل الكبرى في مسائل العقيدة والعمل مجمع عليها بين أهل السنة، وكما ذكرنا الانتصار لمذهب أهل السنة المجمع هو احتجاج بدليل، وهو دليل الإجماع، ثم إن الأمة وأهل السنة ما أجمعوا على أمر من عند أنفسهم، بل كل مسألة قالوا فيها بقول وأجمعوا على صحته، كان عندهم الأدلة من الكتاب والسنة على ذلك؛ لأن الأمة - بفضل الله ﷻ - لا يوجد فيها من ينسب إلى نفسه أن كلامه تشريع، أو أن الترجيح يكون بكلامه، أو أن من حقه أو من حق غيره أن يقول كلامًا بلا دليل يصبح دينًا، إنما أجمعوا على أنه ليس لأحد أن يقول بغير حجة، بل لابد وأن يحتج على كلامه ويُحتج بكلامه ولا يُحتج به، وإنما هو الذي يحتج بالكلام، هو الذي يذكر حجته على الكلام، والحجة: قال الله وقال الرسول ﷺ.

والجماعات الإسلامية المعاصرة أيضًا كان لها نصيب من ذلك، ولا نعني بذلك أن كل ما كان من اجتماع على إقامة شيء من الحق أو الدعوة أو العلم أو الجهاد أو الحسبة، أن ذلك كله مستنكر بسبب وجود التعصب، لكن نقول كما لابد أن نعرف حقيقة الأمر، وهو أن هناك من تعصب بالفعل، وكلما قل العلم زاد التعصب، وكلما كثر العلم قل التعصب، وإنما التعصب المذموم، العصبية الجاهلية أن يكون منتصرًا بالحق أو بالباطل للطائفة التي ينتمي إليها للجماعة التي ينتمي إليها، يغض الطرف عن كل المثالب التي تذكر، ويذكر الفضائل فيفتخر، وهذا الذي يؤدي إلى البغي، فهذه المسائل الثلاثة: البغي، والفخر، والتعصب، كلها في الغالب متلازمة طائفة أو جماعة معينة يتناصر أفرادها، ابتدءوا الأمر بحق ثم تدسس الجهل

إليهم، فافتخر بعضهم على بعض، بما يؤدونه من الطاعات أو ما اجتمعوا عليه من الخيرات، فكان هذا أمرًا مذمومًا؛ لأن الافتخار ولو بحق لا يجوز، فأدّى ذلك إلى أن يبغوا على غيرهم ممن خالف طريقتهم، وربما أدّى ذلك إلى أن يقتتلوا، وأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: ٩].

كما ذكرنا سبب نزول هذه الآيات كما وقع بين المهاجرين والأنصار، والله أعلى وأعلم، فكان التعصب والافتخار بما عليه طائفته، التعصب للطائفة ثم الافتخار بذلك سببًا للبغي، وهذا الذي أوجب الله أن يُرد الباغي عن بغيه ولو بقتاله: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

بعض الناس ذكر في علاج التعصب، علاج التعصب المذموم، أنه لابد من إلقاء هذه التجمعات كلها جانبًا والتخلص منها، فبعضهم في أمر المذهبية اقترح أن تقترح كتب المذاهب، وأن تلغى الاستفادة منها بالكلية، ورأى أنها سبب ضرر على الأمة، والبعض عمم الأمر في أمر الفرق، حتى قال: إن أهل السنة فرقة من الفرق، فلماذا تأخذون كلامهم، وتجعلون عقيدتهم هي الملزمة؟! والشيعة هم مثل أهل السنة والخوارج والإباضية والزيدية، كلها فرق محترمة، ومن شاء أن يأخذ أي فرقة منها يتبعها ويقلدها دينه، فلا بأس. فجعلوا هذا مثل المذاهب وأجازوا التعصب لهذا الأمر.

فنقول: هذا كلام باطل، لا يجوز أبدًا، كما أن إلغاء المذهبية بالكلية

وإحراق كتب المذاهب يحرمنا تراثًا هائلاً من علم العلماء النافع الذي يبين علوم الكتاب والسنة، ويعين طلاب العلم على تفريع المسائل واستخراجها من أدلتها وكيفية الاستدلال والترجيح والجمع بين النصوص واستعمال الأقيسة الصحيحة ورد غير الصحيحة، كل ذلك تراث هائل وعظيم أساء وأخطأ واختل كلامه وفهمه من أمر بهدم المذاهب لأجل التعصب المذهبي وكذلك من سوّى بين أهل السنة وأهل البدعة وقال: كلها فرق لا ننتسب إلى أحد منها، وكذلك من طالب الجماعات الإسلامية بأن تلغي فكرة الاجتماع أصلاً وأن لا تجتمع على شيء، ولو كان حتى تعاونًا على البر والتقوى، وجعل كل اجتماع من الناس في زمن الغربة الشديدة اجتماعًا محرمًا وعصبية جاهلية وسماها حزبية وجعلها مذمومة، كما ذكرنا التحزب لما كان عليه رسول الله ﷺأمر لازم: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥ - ٥٦].

لذلك نقول: الالتزام بمنهج أهل السنة ليس تعصبًا مذمومًا، والتعاون على البر والتقوى ليس من الحزبية المذمومة، كما يقول البعض وينادي في زماننا بأن كل تجمع من التجمعات الإسلامية مذموم، ويفتخر بأنه لا ينتمي إلى جماعة أصلاً وأنه لا يتسمى بغير اسم الإسلام! كلام ظاهره حسن، ولكن في الحقيقة ليست حقيقته حسنة؛ لأن التسمي باسم الإسلام من يرى لنفسه بديلاً عنه فإنه على خطر عظيم، ولكن هل كل تسمية بغير اسم الإسلام تعني أنها بديل عن اسم الإسلام، حتى يُقال هذا الكلام؟! هل

مجرد التسمي باسم حسن يدل على معنى واجب في الشرع يعني أن يكون الإنسان متعصبًا؟!

الرسول ﷺ لم يلغ اسم المهاجرين ولا اسم الأنصار، ولكن أمر بأن نترك دعوى الجاهلية، وحذرنا وحرم دعوى الجاهلية من التناصر بالباطل، هذه الجاهلية المذمومة أن تنتصر لطائفتك بالحق أو بالباطل، وكذا تجد مثل هذا الأمر، حتى عند من يسمون أنفسهم أنهم ليسوا أتباع جماعة معينة ربما تعصبوا لشيخهم فصاروا جماعة في حقيقة الأمر متعصبين لآرائه وأقواله، وهذا واقع وحاصل فعلاً، هناك من يرى أقوال شيخه لا تحتمل حتى الخلاف السائغ.

وهذا فيمن يطلب الحديث وينتسب إلى بعض الأفاضل المعاصرين تجد تعصبًا عجيبًا، حتى في الآراء الشاذة التي ذهب إليها شيخه، ومن تتلمذ على يديه شر ممن تعصب للأئمة الكبار؛ كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد مثلاً رحمهم الله، فيوجد في زماننا من يستبدل التعصب للجماعات بالتعصب للأشخاص، ونحن لا نرضى تعصبًا للجماعات ولا للأشخاص

ولكن نقول: إن هذا الأمر علاجه بتعميق الولاء على الكتاب والسنة، وليس بهدم التجمع على البر والتقوى والاجتماع على طاعة الله، خصوصًا في زمن ضاعت فروض الكفايات وضاعت فيه فروض الأعيان، والمسلمون بلا خلافة منذ أكثر من ثمانين سنة، بل أكثر من تسعين سنة، اقترب المسلمون الآن على نحو القرن من الزمان بلا خلافة تجمعهم، ولا أحد يبحث عن مستضعفيهم، ولا أحد يدفع عن حوزتهم، ولا يسعى

إلى تحرير بلادهم إلا آحاد من الناس، فمن فعل ذلك كان عند هؤلاء القوم مذمومًا، من جاهدوا الأعداء بعد سقوط دولة الخلافة واحتلال بلاد المسلمين، ووُجِدت جماعات خارج عن سلطان الأعداء تحاول أن تدفع عن بلاد المسلمين، وهناك جماعات تحاول أن تعلم المسلمين، وهناك جماعات تحارب البدع، والبعض يجعل ذلك كله تعصبًا مذمومًا، عجبًا لهؤلاء!.

نقول: ليس التعاون على البر والتقوى والاجتماع على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وإقامة ما أمر الله به من فروض الكفايات تعصبًا في الجملة، وهنا مقامان: مقام التسمية، ومقام العمل والاجتماع والتعاون، هناك من يُحرِّم التسمية، فنقول: لم يُحرِّم النبي ﷺ التسمية بالمهاجرين والأنصار، ولم يزل أهل العلم يذكرون انتساب الناس إلى بلادهم ومذاهبهم وشيوخهم دون أن يكون في ذلك تعصبًا، وليس أن فلانًا المصري أو البغدادي أو المكي أو المدني... لم يروا في ذلك حرمة، ولا رأوا في ذلك بديلاً عن اسم الإسلام، ولا قالوا لمن تسمى بهذا الاسم: نحن لا نرضى بغير اسم الإسلام بديلاً.

ومن قال: إن هذا بديل عن اسم الإسلام، حتى تقول هذا الكلام السخيف الجاهل، أنك تجعل من تسمى بدون تعصب لبلده أن ذلك يكون بديلاً عن اسم الإسلام أو بعد ذلك عندما قالوا مثلاً: إن فلانًا شافعي، وفلانًا مالكيًا.. ألم نزل نقول هذا عن أهل العلم؟ ونقول: فلان الحنبلي، ابن رجب الحنبلي مثلاً، والنووي الشافعي، وابن عبد البر المالكي، ونحو هذا من الأسماء، وابن أبي العز الحنفي صاحب شرح العقيدة الطحاوية،

هذا الكلام أكان تعصبًا؟ أكان مجرد التسمي بهذه المذاهب والمشايخ الأفاضل والأئمة مع لزوم اتباع الدليل ومع ترجيح ما ثبت في الكتاب والسنة، أكان هذا تعصبًا مذمومًا في مقام التسمية؟ كما ذكرنا لم يلغ النبي ﷺ اسم المهاجرين والأنصار، ولم يلغ اسم البلاد لأجل أن اسم الإسلام كاف، نقول: وما التعارض بين هذا وذاك؟ هل هناك تعارض بين أن يُسمى الإنسان أنه من أهل السنة، أو أنه من أتباع السلف أو أنه ممن يتبع أهل العلم يكون ذلك بديلاً عن اسم الإسلام؟ كلام فاسد في أمر التسمية، هذا الذي يجعل هذه الأسماء بديلاً عن اسم الإسلام، هذا هو التعصب، هذا هو المذموم، هو الذي يتناصر على اسم الإسلام هو القائم بالحق، والذي يتناصر على اسم الطائفة دون بحث في الحق والباطل هو التعصب المذموم.

أما المقام الثاني: فهو في مقام العمل والتعاون الحقيقي، فهناك من يُحرِّم الاجتماع ويرى أن الاجتماع بدعة، وبعضهم اخترع أمرًا جديدًا وقال: لابد أن يكون اجتماعًا رسميًا بإذن من تغلبوا على البلاد، وإلا كان اجتماعًا مُحرّمًا، حتى ولو كان من تغلب على بلاد من بلاد المسلمين في حقيقة الأمر مواليًا لأعداء الإسلام بكل معنى الكلمة من الموالاة والنصرة والطاعة والمتابعة التامة، والحرص على مصلحة الكفار وأذية المسلمين، وغير ذلك من المعاني، معاني التحريف والتبديل للشرع والموالاة لأعداء الإسلام، يشترطون موافقة هؤلاء على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، فصاروا فراعنة في المذهب ممن يشترط الإذن للإمام، نسأل الله العافية، وهذا من أبطل الباطل، أفكلما احتل الكفار بلاد المسلمين، وأقاموا في

بلادهم ممن يواليهم رأسًا عليهم، صار هذا أمرًا لازمًا للمسلمين أن يرجعوا إلى هذا، وهذا - ولا حول ولا قوة إلا بالله - يقول به البعض بالفعل، حتى في البلاد التي احتلت، ويصرحون بأنها محتلة، حتى قالوا بأن المسلمين - مثل العراق وأفغانستان - يجب عليهم أن يتبعوا الحكومات التي أقامها الاحتلال الغربي، حتى في أي مكان في بلاد لم يزل الشيوعيون هم الذين يحكمونها، وما زالت أسماؤهم أسماء الإسلام، ولا يقيمون إسلامًا ولا إيمانًا ولا إحسانًا، ولا أخلاقًا ولا شريعة ولا جهادًا ولا حسبة ولا تعليمًا للناس، ولا يقيمون إلا الانحراف والعلمانية القبيحة والشيوعية القذرة، ومع ذلك يوجد من يقول: بل لابد أن يستأذن ولاة الأمور في ذلك، سبحان الله! أغفلوا أن الله ﷻ إنما أمر بطاعة من تولوا الأمور إذا كانت من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، قال الله ﷻ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾، فجعلها تابعة وليست مطلقة، وقال النبي ﷺ: «**إِنْ أُمِّر عليْكُمْ عبْدٌ مُجدّعٌ - حسِبْتُها قالتْ - أسْودُ، يقُودُكُمْ بِكِتابِ اللَّهِ تَعالَى، فاسْمعُوا لَهُ وأطِيعُوا. .**»[1]، فتجدهم يكرهون هذا القيد ولا يتحدثون عنه ولا يذكرونه في أحاديثهم ولا في كلامهم؛ وإنما يريدون تعبيد الناس وجعلهم سامعين مطيعين، ولو كان هؤلاء من الدعاة على أبواب جهنم، ولا يذكرون: «يقودكم بكتاب الله»، وهذا أمر عجيب!.

ولقد قال النبي ﷺ أرسل عليهم أميرًا - كما في سنن أبي داود بإسناد حسن - فلم يقم ببعض ما أمر به النبي ﷺ، كما في الحديث: «**بعث رسُولُ**

(١) سبق تخريجه (١/ ٩٦).

اللهِ ﷺ سرِيّةً، فسلّحْتُ رجُلًا سيْفًا. قال: فلمّا رجع، قال: ما رأيْتُ مِثْل ما لامنا رسُولُ اللهِ ﷺ قال: أعجزْتُمْ إِذْ بعثْتُ رجُلًا، فلمْ يمْضِ لِأمْرِي أنْ تجْعلُوا مكانهُ منْ يمْضِي لِأمْرِي؟»[1]، فالنبي ﷺ أمرنا أن نقوم بأمره حيث كان هناك قدرة على القيام بأمره ﷺ، وليس العبرة بأن فلانًا أمّره الرسول فهو من حقه أن يفعل ما يريد ويترك ما يريد، كما يظن البعض، عندما يتكلم العلماء في أن إقامة الحدود والقصاص ونحو ذلك من خصائص ولي الأمر، نعم فالبعض يقول: أنت مالك، ليس لك دخل بذلك، فنقول: هذا أمر خطير جدًا، نعم لا يجوز أن تجعل فوضى، ولا أن يقوم الناس بأن يقتصوا بأنفسهم، وأن يقيموا الحدود بأنفسهم، ولكن هل يعني ذلك أن هذا حق له، من حقه أن يفعله ومن حقه أن يتركه، دون أن يؤمر بإقامة حدود الله وإقامة القصاص وإقامة الحقوق والحدود التي شرعها الله، فهو يوجه الكلام دائمًا إلى الناس: لا تفعلوا بأنفسكم. ولا يوجه الكلام إلى من ضيع الأمر الواجب، ومن ترك إقامة الشرع، ومن بدل الشرع في الحقيقة وأتى بشرع آخر، ولا ينصحه بإقامة ما وجب عليه، ويقول للناس فقط: لا، ليس عليكم أن تفعلوا هذا، إنما هو وظيفة ولي الأمر. وظيفته إذا كان قادرًا عليها، يجب أن نعينه عليها، وإلا فالأمر بعد ذلك لكل من استطاع أن يقيم شرع الله بمراعاة المصلحة وترك المفسدة، فإنه لا يؤمر بدفع فساد بفساد أكبر منه، ولا تحصل مصالح بتفويت مصالح أعظم منها، بل لابد من

(١) أخرجه أحمد (٢٨/ ٢١٩)، وأبو داود (٢٦٢٧)، والحاكم (٢/ ١٢٥)، وابن خزيمة (٣/ ٣٢٢)، وابن حبان (١١/ ٤٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٢٧٠)، وفي الكبرى (٤/ ٥١٥).

مراعاة المصالح والمفاسد في ذلك، لكن ليس لأجل أن الأمر مرجعه إلى رغبة ولي الأمر في أن يقيم أو أن يترك أو أن يفعل أو أن يذر، بل إنما الأمر واجب عليه أن يفعل وواجب عليه أن يقيم.

لذلك نقول: إن أمر التعاون على البر والتقوى أمر لازم للمسلمين، ولا يجوز أن يجعل أمر التعاون مطلوب فيه إذن من يحاربون الدين في حقيقة الأمر في كثير من بلاد المسلمين، وأن يظن أن غير ذلك هو مخالفة للكتاب والسنة، ولقد قال العلماء بأن من تغلب على أمر المسلمين فيكون خليفة وتثبت الإمامة له بذلك، شرطه - كما ذكروا - أن يكون صالحًا للإمامة، أن يكون مقيمًا للدين، كما ذكروا، فأمر الإمامة والولاية إنما يثبت بإقامة الدين وسياسية الدنيا بالدين، شرعًا لابد أن يكون شورى بين المسلمين أو بولاية عهد لمن يصلح، ولكن قد يقع نوع من المخالفة لهذه السنة بأن يتغلب ويقهر رجل من المسلمين بسيفه على غيره، فيتسلط ويتمكن من ذلك، فإذا كان صالحًا للإمامة كما يقول العلماء: وإذا تغلب صالح للإمامة وثبتت طاعته، ثبتت له الولاية بذلك. لابد أن يكون منفذًا لمقاصد الإمامة والولاية، وهو إقامة الدين وسياسة الدنيا بالدين، وليس مجرد أنه تغلب، لماذا ألغيتم كلمة صالح، وجعلتم أن كل من تسلط كذلك؟ والعلماء يضربون مثالاً على ذلك: فعبد الملك بن مروان عندما قتل عبد الله بن الزبير ﵁، وكان أمير المؤمنين ﵁، وهو لا شك أفضل من كل من خالفه، لا وجه للمقارنة بينه وبين عبد الملك وبين الحجاج ولا غيره، ونحو ذلك ممن تسلط عليه فقتله وقتل أصحابه ونزع منه الملك، لكن لما استقرت الكلمة لعبد الملك بن مروان، وكان مقيمًا للجهاد وللحدود وناشرًا للسنة والعلم، مع أنه كان فيه

نوع دخن - نوع بغي - وعدوان بتمكينه الحجاج من الظلم والفساد، واتفق العلماء - رغم أن الحجاج كان متوليًا - على أنه المذموم المطعون فيه بكلام النبي ﷺ، وكان متوليًا مِن قِبل الخليفة، واتفق العلماء على أن قول النبي ﷺ: «**أنّ فِي ثقِيفٍ كذّابًا ومُبِيرًا**»(١) أن المبير هو الحجاج المهلك، ولم يزل مذمومًا؛ ولذلك من يغالون في يزيد والحجاج وأمثاله ممن تولوا الأمر بالقهر عند أهل السنة مذمومون؛ ولذلك اتفقوا على ذم من قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما، رغم أن الحسين رضي الله عنه قد خرج وقاتل بالفعل، ورغب في أن يبايع بالملك، وكان ما فعله خطأ، ومع ذلك فهذا لا يبرر قتله ولا يبرر العدوان عليه وعلى أهل البيت، وكذلك يرون أن عبد الله بن الزبير قتل مظلومًا رضي الله عنه، بل كان هو أمير المؤمنين، لكن لما كان من قام مقامه في الجملة قائمًا بأمر الدين - رغم دخن - ثبتت له الإمامة.

لذلك نقول: لابد من إقامة الدين وسياسة الدنيا بالدين، فأما من يمنع الاجتماع لأجل علاج التعصب، نقول: هذا عجب، هذا يقتل المريض. وأما من يمنع التسمية من أجل منع التعصب فكذلك يسلك سبيلاً غير سبيل الرسول ﷺ، الواجب تعريف معنى التعصب، وهو - كما ذكر الشيخ - أن يتعصب الإنسان لطائفته على الحق والباطل، هذا الذي سماه الرسول أمرًا منتنًا يجب الحذر منه، تعظيم الولاء على الكتاب والسنة، وتعظيم الحب والنصرة على مبادئ الدين وعلى نصوص الشرع وعلى محبة كل المسلمين

(١) أخرجه مسلم (٢٢٩) (٢٥٤٥)، قالت أسماء رضي الله عنها: «**أَمَا إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَدَّثَنَا، أَنَّ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابًا وَمُبِيرًا، فَأَمَّا الْكَذَّابُ فَرَأَيْنَاهُ، وَأَمَّا الْمُبِيرُ فَلَا إِخَالُكَ إِلَّا إِيَّاهُ، قَالَ: فَقَامَ عَنْهَا وَلَمْ يُرَاجِعْهَا**».

والنصح لهم، والسعي لإعلاء شأنهم في كل مكان، هذا الذي إذا عظمناه في نفوس الناس كان علاجًا لأمر التعصب، وليس أننا نلغي كل طائفة أو نلغي كل تسمِّي أو نلغي كل اجتماع، ونعتبر أن كل هذا حزبية مذمومة، كلام باطل وفاسد لا دليل عليه من كتاب ولا سنة، ونسأل الله العفو والعافية.

الْمسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ والتِّسْعُون: أَنَّ مِنْ دِينِهِمْ أخْذ الرّجُلِ بِجرِيمةِ غيْرِهِ، فأنْزلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

الشرح:

هذا الأمر من أمور الجاهلية موجود عند أهل الكتاب، بل هو في صلب عقيدتهم، والعياذ بالله، خصوصًا النصارى، وموجود عند أهل الشرك وتوارثه أهل الظلم والعدوان من المنتسبين إلى هذه الأمة؛ فأما ما كان عند أهل الشرك فإن الثأر عندهم كان يتضمن أن يقتلوا الرجل بالمرأة والحر بالعبد، لا يلتزمون في ذلك بالقصاص الذي شرعه الله، يقتلون الكبير عند القوم الآخرين الذين اعتدوا عليهم، ويزيدون في الاعتداء، ويجهلون فوق جهل الجاهلين، وعند أهل الكتاب كان من صلب عقيدة النصارى أن الخطيئة موروثة، وأن كل بني البشر قد ورثوا خطيئة أبيهم آدم، وأنهم لا خلاص لهم إلا بذبيحة إلهية كما زعموا، وأصل عقيدة الصلب والفداء التي بُنِي عليها اعتقادهم، ومن أجلها تصوروا مسألة تجسد الإله في صورة إنسانية لكي يصلب لفداء خطايا البشر، أصل ذلك قضية وراثة الخطيئة، وأن الخطيئة في الإنسان قد ورثت له، وأن الله ﷻ سخط على جميع جنس البشر من أجل خطيئة أبيهم آدم عليه السلام، مع أن القاعدة القرآنية العظيمة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في هذه الآية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، مع الإيمان بأن الله ﷻ هو الغفور الرحيم، وأنه هو التواب الرحيم، وهذا يوجد عندهم في الكتب المتقدمة في التوراة والإنجيل وفي الزبور في وصف الله سبحانه وتعالى بقبول التوبة وبالمغفرة، ومع ذلك فهم يمنعون هذا الأمر في أمر وراثة الخطيئة

كما ذكرنا، فهذا من عقائدهم الفاسدة التي بُنِي عليها الاعتقاد بأسره، نعوذ بالله من ذلك؛ وأما اليهود فزعموا أن الرب قد شرع لهم أن من خالفهم، من خالف بني إسرائيل، اجتاحوا قريته ودمروها بمن فيها، لا يتركون فيها صغيرًا ولا كبيرًا إذا خالفهم بعض أهلها، بل ولا يراعون في ذلك حرمة شيخ فانٍ ولا صغير ولا امرأة، بل يبيدون من انتسب إلى من خالفهم في أمر من الأمور، وهم يطبقون ذلك في واقع أنهم يبيدون من خالفهم من الأمم، ومن حاربهم لا يراعون صغيرًا ولا كبيرًا ولا أحدًا، نسأل الله العافية.

بل يتلذذون بقتل الأطفال، ويفتخرون ببقر بطون النساء، نعوذ بالله من ذلك، تاريخهم شاهد بهذا الأمر، فاليهود والنصارى والمشركون عندهم من ظلم العباد ومن أخذ الرجل بجريمة غيره ما كان عند أهل الشرك في الجاهلية، وللأسف ورث كثير من المسلمين هذا الأمر عن سلفهم من أهل الجاهلية، فوقعوا في أمور محرمة عظيمة الخطر في أمر الأخذ بالثأر ومعاقبة المجموع، حتى صار من أمثلة الظالمين: (أن السيئة تعم والحسنة تخص)، صار مثلاً مضروبًا يستدلون به في كثير من المواطن على العقوبة الجماعية كما يسمونها، لمجرد أن البعض قد ارتكب شيئًا، وهو لا يعرف الوصول إليه بعينه، فيعمم العقوبة ليصل العقاب إلى الجاني، ولو ظلم في ذلك عشرات النفوس أو مئات النفوس، وهذا أمر أيضًا يطبقونه في المعاملة مع طوائف مختلفة، إذا كانت الطائفة قد ارتكب بعض أفرادها جرمًا، يعممون العقوبة على الجميع، وينزلون بالطائفة كلها بأسهم، نعوذ بالله من ذلك.

وفي بعض بلادنا من عادات الأخذ بالثأر أنهم لا يعبئون بمن ارتكب

الجريمة، ولكن يبحثون عن أكبر رأس في العائلة لإغاظة أفرادها، فيقتلونه ولو كان بريئًا تام البراءة، لا يعبئون بهذا ولو كان رجلاً صالحًا عابدًا، ولو كان ينكر على من يرتكب الجرائم، فينزلون به بأسهم وعقوبتهم التي لا يستحقها، ولا يعتمدون في الثأر على ثبوت البينات وعلى ثبوت حكم القصاص ومراعاة أحكامه، بل عندهم التعيير لمن لم يأخذ بالثأر على طريقتهم، فلو ثبت مثلاً أن بعض من ليس له وضع اجتماعي قتل أو ارتكب جريمة من الجرائم في حق البعض، فهم لا يعدون في عرف مجتمعهم الجاهل أنه قد أخذ بالثأر إذا قتل هذا القاتل، وإنما لابد أن يقتص قصاصًا غير عادل، أو ليس بالقصاص في الحقيقة، بل يبحث عن كبير القوم ومشهورهم وغنيهم وصاحب أمرهم فيقتله، ولو لم يكن أمر، ولو لم يكن حث، ولو لم يكن رضي، ولو لم يكن ارتكب شيئًا من الجريمة، فيعيرون من لم يفعل ذلك، ولا تبرد نار ثأرهم بمثل هذا الأمر، وهذا الذي يؤدي إلى سفك المزيد من الدماء المحرمة بين عائلات وقبائل، ولا يزال هذا الأمر منتشرًا في الصعيد وفي الأعراب وفي كثير من البلاد، يرون الثأر أن يكون إنما بالقدر الذي يوجع الآخرين، ولو لم يكن الإنسان قد ارتكب الجريمة؛ وأما في شرع الله ﷻ فلا يعاقب إلا من جنى، لا يجني والد على ولده، ولا يجني ولد على والد، من ارتكب جريمة من الجرائم قتل أو قطع الطريق أو غير ذلك، لا يؤخذ غيره بجريرته، ولا يجوز تعميم العقوبة؛ ولذا كان من قواعد أهل الإسلام في محاربة أهل البغي، أنه لا يجوز أن يستعمل معهم في القتال ما يعم إتلافه مما يؤدي إلى قتل النساء والصبيان، وإذا أسر أحد من هؤلاء فلا يعاقب بشيء من العقوبة، وإنما أجاز بعضهم حبسهم

نكاية في أهل الحرب، والجمهور يمنعون من أسر نساء أهل البغي أو من أسر أبناءهم الصغار، وإنما يأخذون من قاتل فقط؛ وأما من ترك القتال فيمتنع من قتله فلا يزفف على جريح ولا يقتل أسير، هذا عند جمهور أهل العلم، وهذا كله مراعاة لأنه ترك فعل المحرم، فلابد أن يترك ولا يعاقب باستمراره على ذلك.

وأما إذا كانت الطائفة متعاونة فهم قد اشتركوا في جرم، فعند ذلك - كقطاع الطرق مثلاً - يعاقبون جميعهم الردء والمباشر سواء في ارتكاب الجريمة، وهذا من العدل والإنصاف، وبعض أهل العلم يفرق بين الردء والمباشر، حتى في قطاع الطرق، وإن كان عند أكثرهم أن المعاون والمباشر سواء، طالما أنهم اشتركوا في الجريمة، وهذا من محاسن هذه الشريعة العظيمة، وفي أمر القتل والقصاص لابد فيه من البينات أو من القسامة، لا يثبت الأمر هكذا بمجرد الشبهة، ولا يجوز القتل بمجرد السماع، ولا يجوز إلا أن يشهد العدول أو يكون الاعتراف بحصول الجريمة، والشرع قد أكد في إثبات الجرائم على إثبات البينات، لابد من البينة، لا يمكن أن يؤخذ إنسان بجريرة غيره، فضلاً أنه يؤخذ بغير ثبوت التهمة عليه؛ كما قال النبي ﷺ: «**الْبيِّنةُ على منِ ادّعى، والْيمِينُ على منْ أنْكر**»[1]. ولا يعطى الرجال

---

(١) أخرجه الترمذي (١٣٤٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال أبو عِيسَى هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَالعَمَلُ على هذا عِنْدَ أَهْلِ العِلمِ من أَصْحَابِ النبي ﷺ وَغَيْرِهِمْ: أَنَّ البَيِّنَةَ على المُدَّعِي وَاليَمِينَ على المُدَّعَى عليه. كما أخرجه البيهقي (٨/ ١٢٣)، وابن عساكر (٧/ ٢٦)، والدارقطني (٣/ ١١١) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، بلفظ: «**البَيِّنَةُ عَلى مَنِ ادَّعَى وَاليَمِينُ عَلى مَنْ أَنْكَرَ إِلاَّ فِي القَسَامَةِ**».

بدعواهم، ولا بد من إثبات الأدلة التي تثبت وقوع الجريمة في حق الشخص نفسه، فأتى الإسلام - بفضل الله ﷻ - بما يُعرِّف كل عاقلة أنه العدل الذي شرعه الله ﷻ.

فما ينتشر - في زماننا من أمور الجاهلية في هذا الباب - من عقوبة جماعية لبعض الناس على جريمة ارتكبها البعض أو من عقوبة لغير الجاني، لابد وأن يهجر، وأن يحارب، وأن ينهى عنه في بلاد المسلمين.

وقد يظن البعض أن أمر أسر النساء والصبيان أخذ لهم بجريرة غيرهم، فيقول: وما ذنب الأطفال أن يسبوا إذا كان الآباء هم الذين قد ارتكبوا الكفر، وما ذنب النساء وهن تابعات؟ نقول: أما البالغون فلا شك أن هذا من محاسن الإسلام، أعني: أن أسر هؤلاء النساء وسبيهن هو في حقيقة الأمر من أجل الكفر الذي كانوا عليه، ولو ثبت إسلام إنسان قبل أن يقع في الأسر لم يجر عليه رق قط؛ لأنه ثبتت حريته مسلمًا، فلا يجري عليه الرق قط.

وأما الأطفال فسبيهم في حقيقة الأمر إنقاذًا لهم من براثن الكفر، الذي يُراد لهم أن يُنشئوا عليه، فهذا من رحمة الله بهم، مع حصول التنكيل بالكبار لأنه يحصل لهم من أنواع الخير من الوجود تحت سلطان المسلمين، ولو كانوا رقيقًا مملوكين ما لا يمكن أن يحصل لهم ولو بقوا أحرارًا في سلطان آبائهم ومجتمعاتهم الجاهلية الظالمة، التي تفرض عليهم أنواع الكفر والشبهات والضلالات، وتمنعهم من رؤية نور الحق، وكما رأينا في حسن معاملة الإسلام في الرقيق وفيما أمر الله به من الاقتداء برسول الله ﷺ فيما

كان يعامل به مماليكه، حتى لربما استهان بعض هؤلاء المماليك ببعض الأوامر من أجل الأمن من العقوبة، فإذا كان هذا النبي ﷺ يختاره زيد بن حارثة رضي الله عنه، وهو قبل أن يبعث ﷺ، ويظل كابن له لما عرف أبوه، زيد بن حارثة كان قد أسر في الجاهلية صغيرًا فاشترته خديجة رضي الله عنها ووهبته للنبي ﷺ فكان مملوكًا للنبي ﷺ، «**ولمّا بلغ زيْدًا قوْلُ أبِيهِ بكيْت على زيْدٍ ولمْ أدْرِ ما فعلْ. الْأبْيات. قال بِحيْثُ يسْمعُهُ الرّكْبانُ: فبلغ أباهُ قوْلُهُ فجاء هُو وعمّهُ كعْبٌ حتّى وقفا على رسُولِ اللهِ ﷺ بِمكّة وذلِك قبْل الْإِسْلامِ فقالا لهُ يا بْن عبد المُطّلِبِ، يا بْن سيِّدِ قوْمِهِ أنْتُمْ جِيرانُ اللهِ وتفُكّون الْعانِي وتُطْعِمُون الْجائِع وقدْ جِئْناكُمْ فِي ابْنِنا عبْدِك، لِتُحْسِن إلْيْنا فِي فِدائِهِ فقال أوغيْرُ ذلِك؟ فقالا: وما هُو؟ فقال أدْعُوهُ وأُخيِّرُهُ فإِنْ اخْتاركُما فذاك وإِنْ اخْتارنِي فواللهِ ما أنا بِالّذِي أخْتارُ على منْ اخْتارنِي أحدًا، فقالا لهُ قدْ زِدْت على النّصْفِ فدعاهُ رسُولُ اللهِ ﷺ فلمّا جاء قال مِنْ هذانِ؟ فقال هذا أبِي حارِثةُ بْنُ شراحِيل وهذا عمّي: كعْبُ بْنُ شراحِيل، فقال: قدْ خيّرْتُك إنْ شِئْت ذهبْت معهُما، وإِنْ شِئْت أقمْت معِي، فقال بلْ أُقِيمُ معك، فقال لهُ أبُوهُ يا زيْدُ أتخْتارُ الْعُبُودِيّة على الْحُرِّيّةِ وعلى أبِيك وأُمِّك وبلدِك وقوْمِك؟ فقال إنِّي قدْ رأيْت مِنْ هذا الرّجُلِ شيْئًا، وما أنا بِالّذِي أُفارِقُهُ أبدًا فعِنْد ذلِك أخذ رسُولُ اللهِ ﷺ بِيدِهِ وقام بِهِ إلى الْملإِ مِنْ قُريْشٍ، فقال: اشْهدُوا أنّ هذا ابْنِي، وارِثًا وموْرُوثًا، فطابتْ نفْسُ أبِيهِ عِنْد ذلِك وكان يُدْعى: زيْد بْنِ مُحمّدٍ حتّى أنْزل اللهُ تعالى:** ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٥]»(١).

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٤٨)، والسيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٤٨١)، وزاد المعاد (٣/ ١٨).

كان هذا قبل بعثته ﷺ، كان يسمى زيد بن محمد وكان كذلك في أول الإسلام، حتى أنزل الله ﷻ: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، فسمي باسمه الذي كان عليه زيد بن حارثة، وعلمنا كيف أن كثيرًا جدًا من أهل العلم الكبار المقدمين كانوا رقيقًا مملوكين، يعني: لو كانوا بقوا في تربية آبائهم وأمهاتهم الكفار، لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه، فهذا سعيد بن جبير مولى ابن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما، ونافع مولى ابن عمر رضي الله عنهما، عن هؤلاء أُخِذ العلم، وأمثالهم كثير وأضعاف هؤلاء ممن كانت له المنزلة والذكر الحسن في الأمة الإسلامية، وكانوا موالي، لو كان هؤلاء بقوا في تربية آبائهم وأمهاتهم، هل كانوا يصلون إلى ما وصلوا إليه من المنزلة العالية الرفيعة التي وصلوا إليها؟!

عامة من نسمع ومن نأخذ عنهم العلم والحديث كانوا في وقت من الأوقات، بل كثير جدًا منهم كانوا مماليك، وهذا من فضل الله عليهم؛ لذلك نقول: إن أسر النساء والذرية ليس أخذًا بجريرة الآخرين، بل مع الإحسان التام الذي يحصل للرقيق أن الرسول ﷺ أوصى بهم، قال: «**الصّلاة الصّلاة، وما ملكتْ أيْمانُكُمْ**»[1]، وأداء حقوقهم - كما هو معلوم - أن الوصية بذلك متأكدة في الشرع ما جعل الرق في ظل النظام الإسلامي أنفع لهؤلاء بكثير من أن يكونوا أحرارًا في مجتمعاتهم الجاهلية، وهذا والله أمر ملحوظ، فإن الشعوب الجاهلة الواقعة تحت سلطان طواغيتها تظلم ظلمًا فظيعًا، وهي تظن أنها في طريقة مثلى، نسأل الله العافية، وهذا ليس إلا إصلاحًا مطلوبًا ومقصودًا في الأمم، وليس أخذًا لهؤلاء بجريرة

---

(١) سبق تخريجه (ص ١١٦).

الآخرين، مع ما فيه من النكاية بقلوب الكفار إذا رأوا ذلك، فيحصل الخير من جميع الجهات، والله أعلى وأعلم.

فشرع الله كله عدل ومصلحة، ولا يؤخذ إنسان فيه بجريرة غيره، ولا تزر وازرة وزر أخرى، لا تحمل حاملة أثقالاً حمل نفس أخرى لا في الدنيا ولا في الآخرة، والآية عامة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، والوازرة هي التي تحمل ثقلاً، النفس التي تحمل ثقلاً، فلا يحمل أحد عن أحد في الدنيا والآخرة جريرته، والبعض قد يرى أيضًا أن دفع الدية على العاقلة هو من هذا الباب، إلزام العاقلة بدفع الدية أخذ بجريمة الآخرين، وليس كذلك، فهذا باب الخطأ ليس فيه جريمة، وإنما الأمر فيه مواساة؛ لأنه وقع خطأً، القتل الخطأ وقع بغير قصد، وتحميله للجاني وأنه ليس بمجرم، ولكن وقعت منه جناية على غيره بدون قصد، فتحميله يذهب بماله، ويعجزه عن أن يكون فردًا صالحًا في المجتمع لو أخذ كل ماله أو ألزم بأداء الحق الذي عليه طيلة عمره، ولو أهدر حق القتيل أو حق الذي حصلت عليه الجناية خطأً، لضاعت الحقوق، فكان من أعدل الأمور أن تكلف عاقلة الجاني؛ لتحمل الدية معه مشاركة معه ومواساة في أمر لم يقصد فيه أن يرتكب جريمة أو أن يخالف شرع الله سبحانه وتعالى.

من هنا قلنا: إنه ليس في الإسلام تحمل أحد جريمة أحد، ولا أن يؤخذ أحد بجناية أحد، والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم.

الْمسْأَلَةُ الْخامِسَةُ والتِّسْعُون: تعْيِيرُ الرّجُلِ بِمَا فِي غيْرِهِ، فَقَالَ: أعيّرْتهُ بِأُمِّهِ؟! إِنّك امْرُؤٌ فِيكَ جاهِلِيّةٌ»[١] .

الشرح:

القصة معلومة عندما وقعت خصومة بين أبي ذر رضي الله عنه وبين أحد المسلمين كانت أمه سوداء، فقال له أبو ذر رضي الله عنه: يا ابن السوداء، فقال له النبي ﷺ: «**إنّك امْرُؤٌ فِيك جاهِلِيّةٌ**» فقال يا رسُول اللّهِ أعلى كِبرِ سِنِّي؟! قال: «**نعمْ**».

فهذا الذي ذكره النبي ﷺ هو التعيير بالألوان وبالآباء والأمهات، نسأل الله العافية، وهذا موجود في أهل الجاهلية من أهل الكتاب ومن المشركين وانتقل إلى كثير من المسلمين، فتجد السب بالآباء والأمهات والتعيير ببعض العيوب التي ليست في الإنسان، ولكن في عائلته أو في بعض أقاربه، هذا من ميراث الجاهلية التي لابد من التحذير منها، وإن كانت هذه الجاهلية تجامع الإسلام كما سبقت مسائل كثيرة، كثير منها تكون مع وجود الإسلام ولا يلزم منها الكفر، وقد شرحنا هذه المسألة في أول الكتاب عندما ذكرنا أن من الجاهلية ما يكون كفرًا ومن الجاهلية ما يكون معصية، فالتعيير بالصفات الخلقية عند الآباء والأمهات أو عند القوم، كما قد يحدث من أهل الجاهلية في زماننا عندما يعممون مثلاً الحكم على أهل بلد، فيقولون مثلاً: أنتم المصريون فيكم كذا وكذا... فيرد الآخرون: وأنتم الجزائريون فيكم كذا وكذا. كما هو حاصل ومعلوم من المعارك التي تعد - نسأل الله العافية - في

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦١).

المباريات القادمة التي يعدون لها أنواعًا من الأسلحة والمعدات للانتقام، ويحرقون الأعلام كأنهم في معركة، ويتهمون الشعوب بأسرها بأن عندهم كذا وكذ، يعيرون الرجل بما ليس فيه، بما في غيره، ويقولون: أنتم تفعلون. ويرد الآخرون: أنتم تفعلون. نسأل الله العافية. وهكذا تجد في كثير من الناس في داخل المجتمع الواحد، تجد من يسميهم الناس: الفلاحين والصعايدة، فتجد هؤلاء يسبون هؤلاء، يقولون: عندكم أنتم من الصفات كذا وكذا... كثير جدًا من النكات الخبيثة التي تجعل على طائفة بعينها؛ ليسخر الناس منها، ويغتاظ من ينتسب إلى الطائفة أو إلى أهل بلد معين، حتى يُتهم هؤلاء بأنهم عندهم جهل، أو عندهم غباوة، أو عندهم دياثة، أو عندهم أنواعٌ من التهم ليست في هذا الشخص الذي يتهمونه بذلك، يقول: من أين أنت؟ يقول: من البلد الفلاني. فيقول: آه فيكم كذا وكذا وكذا... نسأل الله العافية.

هذا كله من الجاهلية الموروثة عن أهل الجاهلية، التي لابد من محاربتها وإذا كان تعيير الرجل بما فيه مذموم إذا لم يرد الشرع بالإذن في ذلك، كما قال النبي ﷺ: «**إِذا زنتْ أمةُ أحدِكُمْ، فتبيّن زِناها، فلْيجْلِدْها الحدّ، ولا يُثرِّبْ عليْها، ثُمّ إِنْ زنتْ فلْيجْلِدْها الحدّ، ولا يُثرِّبْ، ثُمّ إِنْ زنتِ الثّالِثة فتبيّن زِناها فلْيبِعْها ولوْ بِحبْلٍ مِنْ شعرٍ**»(١)، لا يثرب عليها، يعني: لا يلومها ولا يعيب عليها ولا يعاتبها، الحد هو المشروع فقط، لا يجوز أن يسبها ولا أن يشتمها بما قد فعلت، مع أنها قد زنت، فكيف بالسب واللعن

(١) أخرجه البخاري (٢٢٣٤)، ومسلم (١٧٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والطعن بما ليس في الإنسان، بل إنما هو في غيره؟! فإذا كان منهيًا عنه فيما أتاه الإنسان، وهو من صفاته، وكذلك ما كان من صفاته مما لا يملكه؛ كطول، أو قصر، أو لون جسم، أو لون بشرة، فإذا كان الإنسان منهيًا عن أن يعير أحدا بشيء هو فيه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾، فالهماز: هو الذي يعيب الناس، فكيف إذا كان يعيب أحدًا بما ليس فيه، ولكن يعيبه بما فعله غيره أو بما هو من صفات غيره؟! كل ذلك بعضه أقبح من بعض، والعياذ بالله من ذلك.

فلا يجوز للمسلم أن يعمم حكمًا معينًا على طائفة أو على أهل بلد، ويعامل الناس جميعًا بذلك، الذين ينتسبون إلى هذه البلدة أو إلى هذه الطائفة أو إلى هذا الشعب أو إلى هذا اللون، ويعتبر أن كلهم قد فعلوا هذا الأمر، أو أن عندهم هذه المثالب، أو عندهم هذه العيوب، نسأل الله العافية.

الْمسْألةُ السّادِسةُ والتِّسْعُون: الافْتِخارُ بِولايةِ البيْتِ، فذمّهُمْ اللّهُ بِقوْلِهِ: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧].

الـشـــرح:

كان المشركون يقولون: نحن سدنة بيت الله، ويرون أن لهم فضلاً على سائر العرب بكونهم هم الذين يتولون أمر الكعبة المشرفة، وقد أخذوها بالوارثة عن أبيهم إبراهيم وإسماعيل - عليهم الصلاة والسلام - في قريش لكن لم يقوموا بالحق الذي أوجبه الله ﷻ من تعظيم البيت الحرام، وأعظم ما بني له هذا البيت عبادة الله وحده لا شريك له، بل هو إنما طهر لأجل ذلك: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، شرع الله ﷻ أن لا يشرك به ﷻ، خصوصًا حول هذا البيت، فكانوا مستكبرين بالحرم، كانوا مستكبرين به وفيه، يرون أنفسهم أهلاً له، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٤ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةًۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فكانوا يفعلون في البيت الحرام وحوله ما لا يليق بهذا البيت العظيم، وكان صلاتهم عنده التصفيق والصفير، وكانوا يهجرون عبادة الله ﷻ عنده، وينشغلون بالتصفيق والصفير - بالمكاء والتصدية - حول البيت الحرام، فضلاً عن عبادة الأوثان، فهم مستكبرون بالحرم وفيه، مستكبرون به على العرب مع أنهم لا يؤدون حقه، هجروا ما جعله الله ﷻ له من عبادته وحده لا شريك له، أشركوا بالله وتركوا ما أوجبه الله من العبادة؛ من الصلاة وأنواع العبادات، والتوحيد الذي هو المقصود الأعظم، والعبادات كلها مقصودها التوحيد،

فهجروا ذلك واشتغلوا بالمكاء والتصدية حال سمرهم، جعلوا هذا لهوًا ولعبًا، والعياذ بالله، فكان هذا حالهم الذي ذمهم الله عليه، وهذا أمر حاصل لكثير من الناس ممن يقوم على البيت أو غيره من الولايات، يفتخر بها على الناس دون أن يقوم بحقها، فكثير ممن يعيش حول الحرمين الشريفين، وربما انتسب إلى القيام بخدمتها أو القيام بخدمة الحجاج والعمار ونحو ذلك، ممن لا يؤدي حق الله سبحانه، وإنما يستكبر بكونه من سكان الحرم أو ممن يعيش فيه، وفي نفس الوقت يقضي عمره ووقته في أنواع اللهو اللعب، ولا يؤدي ما أوجبه الله ﷻ عليه، بل يهجر عبادة الله التي افترضها على عباده، وهذا من ميراث أهل الجاهلية، نسأل الله العافية، فالولايات المختلفة كذلك، إذا شرفك الله ﷻ بأن جعلك تتولى أمرًا من أمور المسلمين فيما يتعلق بعبادتهم التي شرعها الله ﷻ لهم، لا تتكبر بذلك، بل أنت خادم من خدامهم، بل معين لهم على ما فرض الله وشرع لهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يجوز لك أن تتكبر بهذا الذي كلفت به، ولا أن يكون هذا سببًا لافتخارك عليهم بغير الحق، فالافتخار بأمر الولايات الشرعية وبالقيام بما أمر الله به يؤدي بالإنسان إلى أن يهجر إلى ما جعل فيه من طاعة الله، وإنما يشغله الفخر والكبر عن أن يكون مؤديًا لوظيفته التي جعله الله ﷻ فيها، فينشغل عنها ويهجر طاعة الله فيها، ويجعل وظيفته نوعًا من اللهو واللعب، يتلذذ بكونه فوق الناس أو أنه في محل ولاية عليهم، أو غير ذلك مما يفتخر به ويتكبر به على الخلق، فلا يجوز للمسلم أن يفتخر بما جعله الله فيه من الولايات ومن الطاعات، بل يكون أوجب عليه أن يؤدي حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذا المكان أو في هذه الوظيفة أو في هذه الولاية، لا يعتدي على الخلق بالكبر والفخر،

ولا يتعالى عليهم، ولا يكون همه اللهو واللعب، الذي يريده الكفار، وكانوا يفعلونه حول بيت الله الحرام من المكاء والتصدية، والله أعلى وأعلم.

الْمسْألةُ السّابِعةُ والتِّسْعُون: الافْتِخارُ بِكوْنِهِمْ ذُرِّية الأنْبِياءِ، فأتى اللّهُ بِقوْلِهِ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٤].

الشـــرح:

هذا واقع في أهل الكتاب من بني إسرائيل، يرون أنفسهم أبناء يعقوب عليه السلام وأنهم المختارون، شعب الله المختار، وواقع أيضًا في قريش، التي كانت تفتخر على العرب في الجاهلية أنها من نسل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، والافتخار حاصل بين هؤلاء وهؤلاء، وبين كل طائفة وغيرهم، فاليهود يفتخرون على العرب بأنهم من نسل إبراهيم من ابنه إسحاق، الذي هو ابن الحرة، وإسماعيل ابن أم الولد، ابن المملوكة، ويرون هذا الأمر سببًا للافتخار، ويرون أنفسهم قد اختارهم الله دون غيرهم من الأمم، ليس لأجل العبادة والقيام بالدين، بل لأجل أنهم ذرية الأنبياء فقط، مع أن الخلق جميعًا ذرية آدم عليه السلام، وهو نبي مكلم(١)، ثم هم بعد ذلك - أعني خلق البشر - ثم هم بعد نوح عليه السلام من ذرية نوح عليه السلام، فهم ذرية الأنبياء، ووجد

(١) كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه: «... قُلْتُ: فَأَيُّ الْأَنْبِيَاءِ كَانَ أَوَّلَ؟ قَالَ: آدَمُ " قُلْتُ: أَوَنَبِيٌّ كَانَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: نَعَمْ نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ " قُلْتُ: فَكَمِ الْمُرْسَلُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ، جَمًّا غَفِيرًا». أخرجه أحمد في المسند (٣٥/ ٤٣٢)، والبخاري في تاريخه (١/ ٢٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢٦٥)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٧٦)، والبزار في مسنده (٩/ ٤٢٦، ٤٢٧)، والطيالسي في مسنده (ص٦٥)، والطبراني في الكبير (٧٨٧١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٤٨).

منهم الكفار، ووجد منهم المنافقون، ووجد منهم الظلمة والفسقة؛ كما قال الله ﷻ: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾، نعم سيكون من ذرية إبراهيم أئمة، ولكن لم يدخل في هذا العهد الظالمون؛ ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، عهد الله لم ينل ولم يشمل الظالمين، الظالمون خارجون عن الإمامة في الدين، لا يجوز توليتهم الولايات، ولا يجوز قبول شهادتهم، ولا يجوز أن تقبل رواياتهم؛ لأنهم ظلمة، فلا ينفعهم انتسابهم للأنبياء ولا أنهم من ذرية الأنبياء؛ كما قال النبي ﷺ: «**إنّ آل أبِي فُلانٍ ليْسُوا لِي بِأوْلِياء، إنّما أوْلِيّائِي الْمُتقون**»[(١)]، فلم يتول من كان من أهله وقرابته ليس على طاعة الله ﷻ، فهذه ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ﴾، يعني: من مضى، فهذا يشمل الكلام على بني إسرائيل، وسياق الآيات فيهم؛ لأنهم إنما كانوا يفتخرون بأنبيائهم؛ إبراهيم وإسحاق ويعقوب، والعرب يشاركونهم في إبراهيم عليه السلام، ومع ذلك فليس هذا بسبب مجرد للتفضيل وللترجيح، بل لابد من العمل؛ كما قال النبي ﷺ «**ومنْ أبطأ بِهِ عملُهُ، لمْ يُسْرِعْ بِهِ نسبُهُ**»[(٢)]، وقال: «**يا فاطِمةُ بِنْت مُحمّدٍ لا أُغْنِي عنْكِ مِن اللهِ شيْئًا**»[(٣)]، النبي ﷺ يقول ذلك للقريب والبعيد.

وهذا يدل على أن كون الإنسان من ذرية الأنبياء، كما يفعل البعض في زماننا يقول: أنا من أهل البيت، وكأن هذا علامة على أنه لابد وأن يكون من الصالحين! وعامة أهل البدع والضلال في محاولتهم لترويج بدعهم

---

(١) سبق تخريجه (١/ ٢٦٥).

(٢) سبق تخريجه (١/ ٢٦٥).

(٣) سبق تخريجه (١/ ٢٦٥).

وضلالهم ومنكراتهم على عامة الناس انتسبوا إلى أهل البيت، حتى بنو عبيد القداح، الزنادقة المجرمون الذين أرادوا أن يفرضوا زندقتهم على المسلمين، وقد أقاموا دولة خبيثة انتسبوا إلى فاطمة، حتى سماهم عامة الناس الفاطميين، نسبة إلى فاطمة الزهراء ﵂، وحتى كلمة الزهراء هذه لم ترد في السنة، وإنما انتسبوا إلى ذلك لترويج ضلالهم على الناس، وتجد حتى من كان آتيًا من أبعد بلاد المغرب ينتسب إلى أهل البيت؛ لكي يثبت شرفًا يفتخر به على الناس، وإن لم يكن يعمل بعمل رسول الله ﷺ وأهل بيته في زمنه ﷺ وبعد ذلك، أهل البيت لهم منزلة عظيمة، ولا شك أننا نعرف قدرهم، وقد قال النبي ﷺ: «**ياأيها النّاسُ إِنِّي تركْتُ فِيكُمْ ما إِنْ أخذْتُمْ بِهِ لنْ تضِلُّوا: كِتاب اللّهِ، وعِتْرتِي أهْل بيْتِي**»(١)، وهذا من أوضح الأدلة على أنه لا يزال في أهل البيت من يكون على الحق، وأن أهل البيت في مجموعهم لا يفارقون الكتاب، بل سيظل طائفة منهم مع الكتاب على الدوام، ومن هنا رجح كثير من أهل السنة، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀، ونقل ذلك عن طائفة من العلماء ومن الحنابلة، أن إجماع أهل البيت حجة، ليس كما يظن بعض الجهلة أن هذا قول الشيعة فقط، وهذا كلام باطل غير صحيح، هذا قول طائفة من أهل السنة، وإن لم يكن مشهورًا، لكن عليه الدليل، لكن كما ذكرنا أن النبي ﷺ قال: «**أيُّها النّاسُ فإِنّما أنا بشرٌ يُوشِكُ أنْ يأْتِي رسُولُ ربِّى فأُجِيب وأنا تارِكٌ فِيكُمْ ثقليْنِ أوّلُهُما كِتابُ اللّهِ فِيهِ الْهُدى والنُّورُ فخُذُوا بِكِتابِ اللّهِ واسْتمْسِكُوا بِهِ...**»، ثم قال في

---

(١) سبق تخريجه (١/ ٣٤٤).

آخر كلامه: «**وأهْل بيْتي أُذكِّرُكُمُ الله فِي أهْلِ بيْتِي**»[(١)].

الثقل الأول: الكتاب، والثقل الثاني: أهل البيت، فدل ذلك على تعظيم منزلتهم، لكن لا يعني ذلك أن كل من كان من أهل البيت يكون ناجيًا عند الله، أو يكون على الحق، أو يكون معصومًا كما يعتقد الشيعة في أئمتهم يرون فيهم العصمة، ويعتقدون فيهم أنهم لهم سلطان على الكون وعلى غيرهم، وهذا كله من الباطل والكذب والزور، الذي لم يقله أحد من أئمة أهل البيت من أول علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وفاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فمن بعدهم من ذريتهم؛ فلذلك نقول: لا يكفي أن يكون الإنسان من أهل البيت، حتى يكون ذلك مقتضيًا لصحة ما يقول أو لاستحقاقه لكل ما يدعي، وقد كان - في التاريخ - من أهل البيت، أو من يقول إنه ينتسب إلى أهل البيت من ينطبق عليه ما انطبق على أبي طالب وأبي لهب عمي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن قال عنهم: «**إنّ آل أبِي فُلانٍ ليْسُوا لِي بِأوْلِياء، إنّما أوْلِيّائِي الْمُتقون**»[(٢)].

ولذلك نقول: قد كان بعض من أفسد في الإسلام مفسدة عظيمة ممن ينتسب إلى أن يكون من أهل البيت، حتى ولو كان فميراثه هذا النسب لا يعفيه من العمل، ولا يلقي عنه تبعة أوزاره أنه من آل بيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو من نسله أو ذريته، فإنه إن لم يأت بالعمل الصالح لم يكن من أهل البيت، ولو كان من الذرية؛ كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾، فإذا علمنا رجلاً نافق وأعان الكفار على المسلمين، حتى مكن

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨) من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٢) سبق تخريجه (١/ ٢٦٥).

الكفار من بلاد المسلمين واحتلوها، وكان يعاونهم ويعمل جاسوسًا لهم ونحو ذلك، ويقول: إنه من أهل البيت، هل يعفيه ذلك؟! نقول: هو من الذرية وليس من أهل البيت، كما كان أبو طالب عمًّا للنبي ﷺ، وأبو لهب عمًّا للنبي ﷺ، ولم يغن الرسول ﷺ عنهما من الله شيئًا، بل على الصحيح، بل الصواب أن أبوي النبي ﷺ لم يستطع ﷺ أن ينقدهما من النار، وإنما قال للرجل الذي قال: أين أبي؟ قال: إن أباك في النار، كما في الحديث: «**أنّ رجُلًا قَالَ: يا رسُولَ اللَّهِ، أيْن أبِي؟ قَالَ: فِي النّارِ، فَلمَّا قفّى دَعَاهُ، فَقَالَ: إِنّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ**»(١)، وكذلك استأذن في أن يستغفر لأمه فلم يأذن الله ﷻ له(٢)، فإذا كان هذا في أبويه ﷺ، فكيف بمن دون ذلك، بل هو أبعد عن الرسول ﷺ؟!

ولذلك هذه القضية خطيرة جدًا عند الصوفية، والانتساب إلى آل البيت عندهم كأنه جواز للمرور إلى قلوب الخلق مطلقًا، دون نظر إلى عمل وإلى عقيدة وإلى فهم لهذا الدين وتطبيق له، هذا كله من الجهالة الخطيرة التي يُغر بها كثير من الناس، بأنه يفتخر بأنه من ذرية الأنبياء، دون أن يعمل بمثل عملهم، ولا أن يسير على طريقهم، فيُقال لهم: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٣) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي**».

الْمسْألةُ الثّامِنةُ والتِّسْعُون: الافْتِخارُ بِالصّنائِعِ، كفِعْلِ أهْلِ الرِّحْلتيْنِ على أهْلِ الْحرْثِ.

الشـــرح:

الافتخار بالمهنة كل ذلك من التفاخر بالدنيا، الذي ذمه الله سُبْحَانَهُ بقوله ﷻ ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾.

فالافتخار بالمهن والصناعات التي عليها الإنسان، كما كان أهل الجاهلية من المشركين يفتخرون بأنهم من التجار الذين يرحلون رحلتين في السنة؛ رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، يفتخرون على أهل الزرع، يرون أن الفلاحين والزراع دونهم في المنزلة، ومما يدل على ذلك في الحديث في صحيح مسلم في قصة قتل أبي جهل: «**قال رسُولُ اللّهِ ﷺ يوْم بدْرٍ: منْ ينْظُرُ ما صنع أبُو جهْلٍ، فانْطلق ابْنُ مسْعُودٍ، فوجدهُ قدْ ضربهُ ابْنا عفْراء حتّى برد، فقال: آنْت أبا جهْلٍ؟ قال ابْنُ عُليّة، قال سُليْمانُ: هكذا قالها أنسٌ، قال: أنْت أبا جهْلٍ؟ قال: وهلْ فوْق رجُلٍ قتلْتُمُوهُ. قال سُليْمانُ أوْ قال: قتلهُ قوْمُهُ قال: وقال أبُو مِجْلزٍ: قال أبُو جهْلٍ فلوْ غيْرُ أكّارٍ قتلنِي**»(١) والعياذ بالله، إلى آخر رمق في عمره أبو جهل يبحث عمن قتله، ويقول: لو أن غير زارع أو فلاح أو من أهل الحرث؛ لأن الذين قتلوه من شباب أهل

(١) أخرجه البخاري (٤٠٢٠)، ومسلم (١٨٠٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

المدينة من الأنصار أهل حرث، أهل زراعة، فيقول: لو أن غير أكار قتلني! يعني: يريد أن يفتخر مثلاً أن تاجرًا أو مثلاً فارسًا مهنته مهنة مختلفة قتله؛ لكي يرى نفسه بذلك في منزلة أعلى، نعوذ بالله، قد قال الله ﷻ لعباده جميعًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾. ولا يزال التفاخر بالصنائع والمهن منتشرًا في كثير من أهل الإسلام، ممن ينتسب إلى الدين، بل وإلى الطاعة والدعوة أحيانًا يفتخر بمهنة نفسه أو بمهنة أهله، ويرى أن هذه المهن أعلى قدرًا، ولو قلنا إن هذا صار عرفًا أشد من الافتخار بالمال عند الناس اليوم لما كان بعيدًا عن الصواب، بل هو أكثر بلا شك، الذي يعمل في مهنة من المهن التي يسمونها مهنا شريفة، ويرى نفسه له فضل على غيره من أصحاب المهن، ولربما امتنعوا من تزويج مثلًا طبيبة أو صيدلانية أو مهندسة من رجل صالح، إذا كانت مهنته يرونها مهنة من المهن الأقل شأنًا من صانع مثلاً أو نحو ذلك.

الأمر قد تعمق في المجتمع إلى درجة شديدة، حتى لو كان ذا مال، حتى ولو كان ذا منصب، لكن القضية عندهم في الشهادة التي يحصل عليها، والمهنة التي يعمل فيها، فمثل هذا عند الناس صار مقدمًا على المال، وصار مقدمًا على المنصب، وربما صار مقدمًا على الجمال في بعض الأحيان، وكم من أصحاب مهن يشترطون يقولون: أنا أبحث عن امرأة حاصلة على الشهادة الفلانية. ويترك مسكينات الأخوات، اللاتي يؤثرن ترك التعلم للعلوم الدنيوية من أجل الاختلاط المنكر، ومن أجل الفواحش في الطرقات والمنكرات في الجامعات، نقول فعلاً من يقبل أن يتزوج امرأة

حافظة للقرآن، إذا لم يكن معها شهادة، نادر من يقبل ذلك، ولو قبل هو لما قبل أهله، ولما قبلت أمه ولما قبل أبوه، يسألونه ماذا معها من الشهادات؟!

أقول: معظم الفتيات يدخلن الجامعة لا لتعلم علم نافع ولا لعمل حتى تحتاجه المرأة، كلها شهادات لا قيمة لها في واقع الحياة إلا أنها تتزوج بها، ونسأل الله العافية، وكثير جدًا من الطلبة كذلك يأخذون شهادات لا يعملون بها، يأخذ بكالريوس من كلية معينة ويشتغل في محل معين، واحد بياع لو قال لهم في الزواج: أنا أعمل بياع، لقالوا له: لا ينفع. ولو قال لهم: معي شهادة بكالوريوس تجارة مثلا. يقولون: تفضل! هذا أمر عندهم أصبح مستقرًا. نسأل الله العافية، وهو من ميراث الجاهلية في الحقيقة، الافتخار بالمهن والصناعات، وإن تفاوتت في الأزمنة، يعني: في الماضي كانوا يفتخرون بمهنة تاجر، وأما الآن فمهنة تاجر عندنا أنقص من كثير من المهنة الأخرى، حتى ولو كانت مهنة يتعرض فيها الإنسان لأكل الحرام وللظلم والفساد، فلو كانت مهمته ظلم الناس لكان هذا عندهم شيئًا مقدمًا، أو على سبيل المثال: كان حاسبًا للربا، لكن في بنك مرموق، لكن هذا أيضًا مقدمًا عند الناس - نسأل الله العافية - ولو كان يعمل بالحرام.

لذلك نقول: الناس في الإسلام لا يتفاوتون إلا بالتقوى؛ ولذا كان الصحيح من كلام أهل العلم في مسألة الكفاءة بين الرجل والمرأة في الزواج، أن الكفاءة معتبرة في الدين فقط مع الحرية، الدين والحرية، وقلنا الحرية؛ لحديث بريرة ﵂ أن النبي ﷺ خيرها لما اعتقت، خيرها بين أن تستمر مع مغيث ﵁ في زواجها منه، أم تطلق، فاختارت نفسها، فجعل

لها النبي ﷺ ذلك(١)، فهذا دليل على أن الحرة تحت عبد أنه ليس كفئًا لها، وأنها ملكت نفسها بالعتق.

فابتداء ذلك... أن الحرة لا يفرض عليها وليها عبدًا، وإذا اختارت هي أن تتزوج عبدًا فلوليها أن يعترض؛ وأما الكفاءة المعتبرة في الأصل فهي الكفاءة في الدين، ألّا يكون فاسقًا ولا مجلودًا في حد ولا شاربًا لخمر، ولا مبتدعًا ضالاً، فهذا الذي يمتنع من تزويجه، حتى لو أرادته المرأة، فإذا اعترض الأولياء أو أحد منهم امتنع النكاح، ولم يكن لها حق في أن تتزوج بمن تريده إذا لم يكن كفئًا لها في الدين، إذا كان مشهورًا مثلاً بترك الصلاة، أو كان مشهورًا بشرب الخمر والمخدرات، أو إذا كان مشهورًا ببدعة؛ كرافضي مثلاً، أو رجلاً من الخوارج الإباضية، أو مبتدع في مسائل الاعتقاد كالجبرية، والصوفية، والقدرية، وممن كان عنده فساد عقدي أو فساد عملي يصر عليه، فهنا ليس من حقها أن يزوجها وليها بمن شاءت، وإن لم يرض هو؛ أما إذا كان كفئًا لها، رجلاً تقيًّا صالحًا لا يعرف عنه فسق ولا فساد، وهو من أهل السنة، فلو أن وليها امتنع من التزويج لأجل المهنة أو لأجل المال أو لأجل النسب، وأرادت هي، فعليه أن يزوجها، إن عضلها سقطت ولايته، إن عضلها ومنعها من التزويج سقطت ولايته، وانتقلت إلى الولي

(١) أخرجه البخاري (٥٢٨٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كَانَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ مُغِيثٌ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعبَّاسٍ: يَا عَبَّاسُ، أَلاَ تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَوْ رَاجَعْتِهِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ، قَالَتْ: لاَ حَاجَةَ لِي فِيهِ».

الأبعد أو إلى السلطان أو من يقوم مقامه على قولين لأهل العلم: هل تنتقل مباشرة إلى السلطان، أم تنتقل إلى الولي الأبعد، فإذا حدث شجار انتقل الأمر إلى السلطان؟ والأقرب أن تنتقل إلى الولي الأبعد لسقوط ولاية الأقرب في هذه الحالة، إذا تقدم كفء لها، وكانت هي ترتضيه، وتريد الزواج منه بكرًا كانت أو ثيبًا، فامتنع الولي من التزويج لسبب غير شرعي، كما ذكرنا إذا قلنا ليست الصناعات معتبرة في الكفاءة، فليس له أن يقول: إني أمتنع ولن أزوجها. إذا امتنع وهي ترغب ترفع أمرها إلى القاضي، إذا كانت في مكان فيه قاض مسلم، أو تسقط ولايته تلقائيًّا وتنتقل إلى الأبعد، فإن لم تجد وليًا فالسلطان وليّ من لا وليّ له، وإذا غاب السلطان قام مقامه أحد من أهل العلم والدين يعرف شروط الكفاءة ونحو ذلك، وإن كان بعض أهل العلم يعتبر الكفاءة في اليسار - أي: المال - وفي النسب وفي المهن، لكن هذا مما لا دليل عليه في كتاب ولا في سنة، وقد قال ﷻ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾. وكما ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الافتخار بالصنائع من فعل أهل الجاهلية، والافتخار نفسه نوع من الأمراض القلبية التي نبعت من الكبر والإعجاب بالنفس، فأدت إلى الافتخار على الخلق، فكيف إذا كان هذا الافتخار بشيء زائل من أعراض الدنيا، لا ينبغي أن يفتخر الإنسان به؟! هذا أقبح وأقبح.

الْمسْألةُ التّاسِعةُ والتِّسْعُون: عظمةُ الدُّنْيا فِي قُلُوبِهِمْ، كقوْلِهِمْ: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

الشرح:

مشركو قريش يعرفون قدر القرآن، ويعرفون أنه معجز، لا يستطيعون أن يقبلوا تحديه، ولا أن يأتوا بمثله، وأثره في نفوسهم كان جليًّا واضحًا لا يستطيعون إنكاره، ولكن المشكلة أنهم كانوا يعظمون أهل الرياسة فيهم وأهل المال وأهل الدنيا، فقالوا مقترحين على الله ﷻ متحكِّمين عليه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ قال الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، أمة واحدة، أي: على الكفر.

فلو جعل الله ﷻ لكل من يكفر لبيوته سقفًا من فضة ومعارج عليها يظهرون، ولبيوتهم أبوابًا وسررًا عليها يتكئون وزخرفًا، لكفر الناس كلهم، تخيل أن هذا الأمر لو حدث لكفر كل الناس، إذا كانت الدنيا مقسمة في هذه الحياة بين المؤمنين والكفار، ولكن لما كان الكفار أكثر نصيبًا، كم من الناس يتابعهم على باطلهم، ويتولاهم على كفرهم من أجل أنهم أصحاب

مال وأصحاب سلطان وأصحاب رفاهية. كم من الناس في زماننا أمنيتهم الكبرى أن يعيشوا حياة الأوروبيين، وأن يسافر أحدهم إلى بعض تلك البلاد؛ ليعود بالمال. عظموا هذه الشعوب وهذه البلاد تعظيما هائلاً، حتى لربما عرضوا أنفسهم للأخطار الهائلة وللموت، من أجل أن يصلوا بطريقة مهينة إلى بلدة من تلك البلاد، انظر ماذا يصنع كثير من الشباب في محاولة السفر إلى بلاد الكفر، من أوروبا وأمريكا؟! وكم تدفع من أموال هائلة من أجل إدخالهم لهذه البلاد. أمله أن يذهب هناك ليعمل غاسل صحون، غاسل أطباق أو ماسح أحذية أو سائق لسيارة، وهذه هي المهن العالية هناك إلا من رحم الله، فيعمل حتى لو كان يتضمن ذلك إعانة على محرم من شرب الخمر وأكل خنزير وأكل ميتة، وإعانة على المحرمات من نقل هؤلاء الكفرة المجرمين إلى أماكن فسادهم وفسقهم وفجورهم وكفرهم، ومع ذلك ما أكثر من يطلب ذلك؛ لأن الدنيا قد عظمت في قلوبهم.

فهذا هدي وطريقة أهل الجاهلية من المشركين الذين يعظمون الدنيا فصار أمثال أبي جهل، وأبي سفيان، وابن عبد ياليل، من ثقيف من الطائف، يقترحون على الله ﷻ، أو يطلبون ويتحكمون أن ينزل الله ﷻ القرآن على أحد من هؤلاء، على رجل من أهل مكة أو رجل من أهل الطائف من العظماء، أنه كان ينبغي أن يكون القرآن - وهو كتاب عظيم القدر - عندهم، يتحكمون على الله ﷻ ويطلبون أن يكون قد نزل على أحد عظماء القريتين؛ مكة، والطائف، فأنزل الله ﷻ هذه الآيات(١)، فهذا لابد أن يتخلص

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٢٠/ ٥٨٠)، وزاد المسير (٤/ ٧٦)، وابن كثير (٧/ ٢٢٥).

المؤمنون منه، وأن يجعلوا الدنيا في موضعها، كجناح بعوضة كما قال النبي ﷺ، بل لاتساوي ذلك، قال ﷺ: «**لوْ كانتِ الدُّنْيا تعْدِلُ عِنْد اللّهِ جَنَاحَ بعُوضةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَة مَاءٍ**»(١)، لو كانت تساوي جناح بعوضة.. لما ليس فقط أخذ الكفار هذه الأموال الهائلة وأنواع الرفاهية والسلطان والملك والأرض، بل لو كانت تساوي الدنيا جناح بعوضة لما أعطى الله الكافر منها شربة ماء فقط، فضلاً عما زاد على ذلك، لكن لأجل أنها أدنى من ذلك عنده ﷻ أعطاهم إياهم، ولولا هوان الدنيا على الله لما أبقى فيها إبليس طول بقائها: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾. فلهوان الدنيا على الله ﷻ مد في عمر إبليس مدة بقاء الدنيا إلى يوم القيامة إلى يوم يبعثون، يظل إبليس حيًّا إلى يوم القيامة، فهذا دليل على هوان الدنيا عند الله ﷻ، فتعظيم الدنيا حتى يقترح الإنسان في الدعوة إلى الله ﷻ أنه لا بد أن يكون الداعي إلى الله في مهنة معينة ووظيفة معينة وهيئة معينة، ولا ينظر إلى الكلام، إذا كان الناس في هيئة معينة قُبل كلامهم، وإذا لم يأتوا في هذه الهيئة أو أتوا في هيئة رثة أو نحو ذلك، لم يقبل كلامهم، وقالوا: لولا قال هذا الكلام رجل من الناس كبير! فهم يقبلون إذا كان القائل كبيرًا، ويردون الحق إذا كان القائل به ليس من العظماء في ظنهم، وهذا الذي أدى بفرعون إلى الكفر والهلاك - والعياذ بالله -: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾. انظر كان يقارن بين نفسه وبين موسى عليه السلام! ولم يلتفت إلى ما

(١) سبق تخريجه (١/ ٣٠٦).

أعطى الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من الصفات العظيمة وإلى ما ابتلي به فرعون في نفسه من الصفات المنكرة القبيحة، التي تؤهله لمنازل الكافرين في الدركات السفلى في النار، والعياذ بالله، لم ينتبه إلى ذلك، كان حسده إلى موسى ظاهرًا جليًّا، كان يرى أنه لو نزل كتاب أو كانت رسالة، لكانت ينبغي أن تنزل عليه هو! وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾. فكان تكبرهم بزعمهم أنه لو كان الإسلام خيرًا لكنا نحن أسبق إليه؛ لأننا نحن أولى بالخير، فإذ لم نسبق إليه فليس بخير! يجعلون الحكم على الدنيا، على أنهم أهل رياسة وملك، طالما كان من أهل المال وأهل الملك فهذا هو الذي يعرف به الحق من الباطل عند هؤلاء القوم، والعياذ بالله؛ لعظمة الدنيا في قلوبهم؛ لذلك قالوا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾، نعوذ بالله.

وهذا أيضًا مذكور في كل من يعظم الدنيا، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قصة صاحب الجنتين الذي قال لصاحبه وهو يحاوره: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، فهو مفتخر بماله، معظم لنفسه من أجل المال، نعوذ بالله من ذلك.

وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنه فيما قال لصاحبه وهو يحاوره: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾. أيضًا، تحكم على الله، فعظمت الدنيا في قلبه، قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾، بالمال يشتري في ظنه الجنة! أن المال مقتضٍ لكي يدخل الجنة؛ لأنه عظيم، وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن الإنسان المبتلى المفتون: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾، أنه طالما كان في الدنيا مكرمًا، يعني: ذا مال، ولم ينظر إلى أن الكرامة في طاعة الله، وإنما

الكرامة في أنه ربنا أكرمه، يعني: أعطاه من الدنيا، أعطاه منزلة أو مالاً، والعياذ بالله، فيقول: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ نعوذ بالله، وكما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾، فأدى به ذلك إلى أن يتكبر على شرع الله ﷻ، ويتكبر على نبيه موسى عليه السلام، فهذه المسألة مرض خطير عند أكثر أهل الدنيا، من شر فتنة الغنى التي تقع للناس ومن شر فتنة الملك أن يُعظّم الإنسان الدنيا، وأيضًا من شر فتنة الفقر، من أشر الفتن في الفقر أن يرى نفسه مهانًا لأجل أن الدنيا ليست في يده؛ ولأن الله ﷻ لم يعطه منها إلا اليسير: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾. فهذا الميزان ميزان باطل، تعظيم الدنيا في القلوب خطر عظيم، هو من ميراث أهل الجاهلية، إنما نعظم ما عظمه الله، ونحقر ما حقره الله، وما صغره ﷻ وإن كان عند الناس عظيمًا؛ ولذلك لا نزن الحق بالرجال، ولكن نزن الرجال بالحق، لا نزن الحق أو الباطل بمن قاله، نقول: هل قال هذا القول فلان أو فلان أو فلان؟. فإذا كانوا قد قالوه فهو الحق، وآخرون يرون أنهم طالما ليسوا من أهل الدنيا فليس بحق، لا، بل نعلم الحق ونزن به الرجال، وكل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، فالأمر مبني على موافقة الشرع، لا على حصول منصب دنيوي أو حصول تعظيم عند الناس بشيء من الدنيا.

الْمسْألةُ الْمِائةُ: التّحكُّمُ عَلَى اللَّهِ، كَمَا فِي الآيَةِ السّابِقةِ.

الشــــرح:

التحكم على الله والاقتراح على الله، وأنه كان ينبغي أن يحدث كذا . . وكان لا ينبغي أن يحدث كذا . . . يضعون أنفسهم في موضع الربوبية، يختارون الرسل وما كان ينبغي أن يكون، كما ذكرنا من حال فرعون، وهو أيضًا موجود عند الجهال من بني إسرائيل عندما قالوا لنبي لهم: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ﴾ انظر ماذا قالوا؟ ﴿قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ﴾. ما الذي جعلهم يرون أنفسهم أحق بالملك من طالوت ﷺ؟ يرون ذلك لأنهم أكثر مالاً، فهذا الذي ينبغي أن يكون به الملك، لم يلتفتوا إلى العلم، ولم يتلفتوا إلى الجسم، لم يلتفتوا إلى القدرة على الجهاد في البسطة في الجسم، ولم يلتفتوا إلى القدرة على قيادة الأمة وتوجيهها بالبسطة في العلم، فكان عندهم جهالة فيما أهملوا وفيما اعتبروا، هم اعتبروا ما ألغاه الشرع، وألغوا ما اعتبره الشرع: ﴿قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ﴾، تنافس غير محمود، تنافس مذموم، نحن أحق بالملك منه؛ لأجل أنهم أصحاب أموال، فهذا اعتبار لما ألغاه الشرع؛ وأما الإلغاء لما اعتبره أنهم لم يذكروا العلم، ولم يذكروا

بسطة الجسم التي يُحتاج إليها في الجهاد، والتي هي ضرورية للقائد المجاهد؛ لأنه يُحتاج في المواقف المختلفة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾. فالتحكم على الله أنه كان ينبغي أن يكون كذا، أو أن يكون كذا له صور متعددة، يعني: وقع من أهل الكتاب، ووقع من المشركين، وكثير من الناس المنتسبين إلى الإسلام يقع منهم شيءٌ من ذلك، وأشدهم - والعياذ بالله - هم العلمانيون الذين يعارضون شرع الله، يتحكمون على الله فيما شرع، كان ينبغي أن لا يكون كذا، وكان ينبغي أن يكون كذا، وبعضهم يتجرأ ويقول: هذه الأحكام غير مناسبة لهذا الزمان ولهذه الأمم، وهي فرضت في أزمان ماضية. هذا أحسن أحوالهم، كانت مناسبة في ذلك الزمن؛ أما الآن فلا ينبغي أن يكون الحكم الشرعي كذا، وزاد ضلالهم وجهلهم حتى اخترعوا قوانين من قبل أنفسهم تحكمًا على عباد الله ﷻ، وزعموا أنها أولى بالتطبيق والتنفيذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فحدث ما حدث، وكل ذلك نابع من هذه الصفات المنكرة؛ من التحكم على الله ﷻ، من الاقتراح عليه في الأمور القدرية الكونية أو في الأمور الشرعية الدينية، كل ذلك ليس من أخلاق ولا أحوال أهل الإسلام، أهل الإسلام يتقبلون حكم الله بالقبول والتسليم والانقياد التام؛ أما أعداء الإسلام من الكفار والمنافقين فيتحكمون على الله، يؤثرون أحكامهم في الأمور الكونية القدرية وفي الأمور الشرعية، حتى قالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾. يتحكمون ويطلبون أن الرسالة كانت تنبغي أن تكون لغير محمد ﷺ، وكل ذلك من الضلال المبين.

الْمسْألةُ الْحادِيةُ بعْد الْمِائةِ: ازْدِراءُ الفُقراءِ، فَأَتَاهُمْ بِقوْلِهِ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢].

الــشـــــرح:

هذه المسألة نابعة من التي قبلها، والتي قبلها من عظمة الدنيا في القلوب؛ ولذلك كان هذا التحقير للفقراء لأجل أن الدنيا عظيمة عندهم؛ فلذلك احتقروا الفقراء، كما قال قوم نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾، وقال ﷻ عنهم أنهم قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾. فهذا النظر إلى الناس باعتبار مالهم هو راجع إلى الافتخار بالصنائع، إلى عظمة الدنيا في القلوب، إلى التحكم على الله سبحانه وتعالى، يقول المشركون عن المسلمين المؤمنين: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾، أي: منّ عليهم بالإيمان، أنتم تقولون هؤلاء المؤمنون هم أعلى الناس قدرًا، فهؤلاء لأجل فقرهم ومهنهم وأن بعضهم من العبيد يكونون أعلى منا! هذا ظن الكافرين، والعياذ بالله، فتنوا بحالهم ومالهم وسلطانهم، فأنزل الله ﷻ على رسوله ﷺ هذه الآيات - في موضعين - ناهيًا إياه عن طرد المؤمنين؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾، ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ لست الذي تحاسبهم، ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾، لست مسئولاً عن هداية الخلق، حتى تطلب الثواب من أحد دون الله سبحانه وتعالى، فإذا كنت تطلب الأجر من الناس في الدنيا، فعند ذلك لن يعطيك

الفقراء أجرك فتطردهم بحثًا عن طلب الأجر من الأغنياء، لو فعلت ذلك فأنت من الظالمين، أنت حسابك على الله، لا تأخذ شيئًا من الناس، الفقراء لن يستطيعوا أن يعطوك، والأغنياء هم الذين يستطيعون أن يعطوك، فإذا فعلت هذا الذي يطلبه الأغنياء من طرد الفقراء كنت من الظالمين؛ لأن هذا خلاف ما وعده الله ﷻ من أن حسابه على الله، ليس يأخذ من الناس أجرًا، والداعي إلى الله لابد أن يكون كذلك، لا يأخذ من الناس أجرًا، فلا يشترط أهل الدنيا طرد الضعفاء وطرد الفقراء، حتى يجلسوا هم إلى الداعي، وهذا أمر موجود، تجد كثيرًا من الناس يقول: أنا لا أحضر الدروس؛ لأن المستوى الاجتماعي لمن يحضرها ليس جيدًا، وهناك من يسمي نفسه ويقول: إنه فقيه الأغنياء أو مفتي الأغنياء؛ لأنه إنما يحدث طبقات معينة من الناس؛ لأن هؤلاء الأغنياء لا يريدون أن يجلسوا مع إخوانهم الفقراء في مكان واحد، وإنما يريدون التزامًا يناسبهم أو فتاوى أو دينًا على قدر وجاهتهم، وحتى دخل هذا الأمر إلى عبادات من العبادات، حتى في الحج وأيضًا في بعض المساجد، فتجد تهيئة معينة لعلية القوم كما يزعمون، وهذا من الخطر العظيم؛ لأن ازدراء عباد الله وتحقير المؤمنين هو من أعظم الشر، قال النبي ﷺ: «**بِحسْبِ امْرِىءٍ مِن الشّرّ أنْ يحْقِر أخاهُ الْمُسْلِم، كُلّ الْمُسْلِمِ على الْمُسْلِمِ حرامٌ، دمُهُ ومالُهُ وعِرْضُهُ**»(١)، فلا يجوز للمسلم أن يحتقر أخاه، وخصوصًا الدعاة إلى الله ﷻ، إياهم أن ينظروا نظرة نقص إلى الفقراء أو رغبة في البعد عنهم، فإن هذا علامة على الفساد والظلم الذي يكون في أخلاق هؤلاء الذين اختاروا صحبة الأغنياء على مجالسة الفقراء،

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بل الفقراء دائمًا هم أكثر الناس قبولاً للخير، كما قال هرقل لما سأل أبو سفيان: «**وسألْتُك: أشْرافُ النّاسِ يتّبِعُونهُ أمْ ضُعفاؤُهُمْ؟ فزعمْت أنّ ضُعفاءهُم اتّبعُوهُ، وهُمْ أتْباعُ الرُّسُلِ**»(١).

وكم قال النبي ﷺ: «**اطّلعْتُ فِي الجنّةِ فرأيْتُ أكْثر أهْلِها الفُقراء**»(٢)، فهذا يدل على منزلة الفقراء المؤمنين عند الله ﷻ، ومدحهم الله ﷻ في مواطن من كتابه، فكيف إذًا يحتقرهم إنسان؟! قال النبي ﷺ: «**بِحسْبِ امْرِىءٍ مِن الشّرّ أنْ يحْقِر أخاهُ الْمُسْلِم، كُلّ الْمُسْلِمِ على الْمُسْلِمِ حرامٌ، دمُهُ ومالُهُ وعِرْضُهُ**»(٣) فازدراء الفقراء من هذا الباب خطير، ولا يسمح بأن يدخل في الدعوة إلى الله، إذا دخل ازدراء الفقراء في الدعوة إلى الله أفسدها، إذا سمحنا بأن يقسم الناس إلى منازل بناء على الغنى والفقر، فيقدم أصحاب الأموال وأصحاب القصور وأصحاب الولائم في الدعوة من أجل ما معهم من أموال، ويهمل الفقراء والمستضعفين؛ لكان هذا نذير خطر عظيم، بل نذير هدم هذه الدعوة، وليعلم الداعي أن حسابه على الله، الناس لا يعطونه شيئًا، إنما يقبل على الأغنياء دون الفقراء من كان يريد شيئًا من الدنيا، من كان يريد شيئا من دنيا الأغنياء، فهو يرى أن حسابه عليهم، يريد أن ينال منهم منصبًا أو جاهًا أو مالاً، ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾، فهو ليس يرى نفسه في مقام النبي ﷺ وارثًا هذا المقام عنه في أنه ليس له عند الناس شيء يريد أخذه منهم، وأنه يُعلِّمهم مجانًا كما عُلِّم مجانًا، ولم يطلب من الناس أجرًا.

---

(١) سبق تخريجه (١/ ١٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤١)، ومسلم (٢٧٣٧).

(٣) سبق تخريجه الصفحة السابقة.

فإذا رأى نفسه يريد أن يأخذ من الناس وأن يأخذ من دنياهم، فليس هو في مقام ورثة النبي ﷺ أو ورثة الأنبياء، ورثة الأنبياء يرون أنفسهم: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾، نحن إنما نأخذ أجرنا من الله، لا نطلب شيئًا من عند غيره، وأجر الفقراء أيضًا عند الله ﷻ لسنا الذين نوزع جنة ولا نارًا، الله ﷻ هو الذي كما قسم الأرزاق في الدنيا، فكذلك هو يُنزل منازل يوم القيامة.

أما من يوزع أرزاق الآخرة؛ أن فلانًا في رحاب الله، أن فلانًا مغفور له، أن فلانًا له المنازل العظيمة، وأنه الشيخ الكبير والإمام العظيم، والأمير العادل، لماذا؟ لأجل أنه له مالٌ أو أن له سلطانًا أو أن له وظيفة، فهذا يوزع الآخرة من عند نفسه، ويجعل المنازل من عند نفسه لا على شرع الله ﷻ، هذا لم يجعل نفسه في مقام الأنبياء، الذين حالهم ما وصف الله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. فإذا جعل نفسه في هذا المقام، في مقام أنه لا يطلب من الناس شيئًا، وإنما حسابه على الله، وحساب الناس أيضًا هو عند الله ﷻ، حسابه على الله وحساب الناس على الله ﷻ، فعند ذلك سيزول من ذهنه تعظيم الأغنياء وازدراء الفقراء؛ لأن الأمر بيد الله ﷻ والأمور كلها من عنده.

وأهل الملك والسلطان والأغنياء قد يعطون من يفتيهم على أهوائهم، فيعطون من يوافقهم في الفتاوى الباطلة، يعطونه مراكز وأموالاً وقصورًا، وشهرة وجاها ومنزلة، ونسأل الله العافية، هذا الذي يطلب منهم هو الذي

يجُرُّ على نفسه الفساد، ويحكم على نفسه بأنه ليس من ورثة الأنبياء، نسأل الله العافية.

الذي يغير الدين من أجل شيء من الدنيا - والعياذ بالله - هو من جنس الأحبار والرهبان، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل؛ لأنهم لم يقيموا أنفسهم في مقام: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾، قضية عظيمة الأهمية والله.

الْمسْألةُ الثّانِيةُ بعْد الْمِائةِ: رمْيُهُمْ أتْباع الرُّسُلِ بِعَدَمِ الإِخْلاصِ، وَطَلَبِ الدُّنْيا، فَأَجَابهُمْ بِقوْلِهِ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٥٢]، **وَأَمْثَالُهَا.**

الـشـــرح:

يقولون: هؤلاء الفقراء يريدون أن يتعززوا بك، يقولون: هؤلاء الملتزمون إنما التزموا لأجل أن الالتزام يعوض النقص الذي عندهم، حتى يثق الناس فيهم فيعطونهم الأموال، وحتى هذه الفتاة التي تحجبت، تحجبت حتى تداري قبح هيئتها؛ لأنها لا تستطيع أن تشتري الملابس الغالية، وأدوات التجميل المناسبة؛ لكي تتبرج كما تبرجت الأخريات، والعياذ بالله. يتهمون الفقراء ويتهمون أتباع الرسل بأنهم ما اتبعوا الرسل إلا لينالوا حظًا من الدنيا، يرفعوا به خسيستهم، والعياذ بالله، بل اتهموا الرسل بذلك الكفار اتهموا الرسل: بأنكم إنما تريدون أن تتفضلوا علينا، كما قال قوم فرعون لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾، وفي الحقيقة هذا مرضهم هم، فهم يستحلون لأنفسهم أن يطلبوا الكبرياء في الأرض، ويقول فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾... عجبًا! هو الذي يدّعي أن موسى تُهْمته أنه يريد الرئاسة، وأنه يريد أن يأخذ منه هذا الملك، ويقولون: هؤلاء يريدون الرئاسة، هؤلاء يريدون أن يترأسوا على

الناس. وماذا تصنعون أنتم وأبناؤكم وأحفادكم وإخوانكم وأشباهكم؟! أنتم تتمسكون بها غاية التمسك، فلماذا جعلتموها تهمة؟! إذا كانت تهمة فأنتم أولى الناس بها؛ وكما قال قوم نوح: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ فلماذا أنتم تتفضلون على الفقراء وتقولون: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾، وقالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾. لماذا تتفضلون عليهم؟! أليست هذه تهمة؟!

فكذلك هم يقولون عن الفقراء، عن أتباع الرسل أنهم لا يريدون وجه الله ﷻ، وأقسموا كذلك: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾. من أين أقسمتم أن هؤلاء ليسوا مخلصين في اتباع الدين، إنما هم أهل طلب رئاسة وأهل دنيا؟! وسبحان الله! تهمة متكررة عبر العصور من أهل الجاهلية لأهل الإيمان وأتباع الرسل وأتباع السنة وأتباع الدين الحق، يتهمونهم في نياتهم، الله أعلم بالنيات، يقولون: أنتم تريدون الشهرة؛ لأجل ذلك فعلتم ما فعلتم من مخالفة الناس، أنتم تريدون الأموال، حتى يقولوا عنكم متدينين فيعطونكم الأموال ويثقون فيكم ونحو ذلك، وأنتم تأخذون أموال الناس تأكلونها بالباطل، وأنتم الذين تأكلون الحرام بالليل والنهار، وتمصون دماء الشعوب، وتأخذون حقوقهم. ومع ذلك يتهمون المسلمين وأهل الإيمان وأهل الالتزام وأهل الدين، بهذه التُّهم العجيبة!

فكان طلبهم أن يطرد هؤلاء الفقراء، لماذا؟ لأنهم ليسوا مخلصين! أأنتم مخلصون إذًا؟! أأنتم تريدون وجه الله ﷻ؟!

مدح الله المؤمنين بأن وصفهم بأنهم يريدون وجهه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، وقال في سورة الكهف: ﴿وَلَا تَعْدُ

عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾، هذه صفات الكافرين، صفات المؤمنين أن مدحهم الله بأنهم يريدون وجه الله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ﴾ وقال في سورة الأنعام: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

فسبحان الله! موازين الجاهلية واحدة عبر العصور، ونسأل الله ﷻ أن يعيذنا من الجاهلية ومن أهلها وأصحابها.

الْمسْألةُ الثّالِثةُ بعْد الْمِائةِ: الْكُفْرُ بالْملائِكةِ.

الشـــرح:

أنواع الكفر بالملائكة متعددة تعرف بمطالعة ما ذكره الله عن المشركين، ومطالعة ما تكلم به الكفار من الأنواع المختلفة، والملائكة مخلوقات من مخلوقات الله ﷻ[(١)]، خلقهم الله ﷻ من النور؛ كما قال النبي ﷺ: «**خُلِقتِ الْملائِكةُ مِنْ نُورٍ، وخُلِق الْجانُّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ، وخُلِق آدمُ مِمّا وُصِف لكُمْ**»[(٢)]، أو كما قال ﷺ. أي: خلق من الطين من الحمأ المسنون، فالملائكة مخلوقات لله ﷻ وصفهم الله ﷻ بصفات عظيمة، فقال: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾، وقال ﷻ: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾، وقال ﷻ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ۝٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ۝٢٨ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩﴾.
فكان من عقائد المشركين أنهم جعلوا بين الله وبين الجِنة نسبًا، فقالوا:

---

(١) الملائكة في اللغة: جمع لـ(مَلأَك)، و(ملأك) قال العلماء: إنها مقلوبة من (مَأْلَك)، وأصل (مألك) مصدر فيه معنى (الألوكة)، وهي الرسالة، فمادة (ألك) في الرسالة، و(أَلَكَ فلانًا بكذا) يعني: أرسله بكذا، فمادة الملائكة وألك والألوكة كلها في الرسالة.
انظر: مادة: (أ ل ك) في النهاية في غريب الأثر (١/ ٦١)، ولسان العرب (١/ ٥٣٥)، (١٠/ ٣٩٣)، وتاج العروس (٢٧/ ٤٨)، ومادة (لأك) في لسان العرب (١٠/ ٤٨٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

تزوج الله من الجن، فأنجب الملائكة الذين هم بنات الله، فهذا قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وقال ﷻ عن عقائد المشركين: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

فتبين بذلك أن هذا من كفرهم بالملائكة أنهم جعلوهم بنات لله، وعبدوهم من دون الله، عبدوهم مع الله ﷻ حين اشتقوا الأسماء المؤنثة من أسماء الله ﷻ وسموا بها أنصابهم، التي هي عندهم رموز للملائكة، قال الله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾. فكانت عقائد المشركين فيما يتعلق بالملائكة أنهم اتخذوهم أربابًا وآلهة من دون الله، وزعموا أنهم بنات لله ﷻ، ويشابههم في الكفر النصارى الذين قالوا عن الروح القدس: إنه إله مسجود له، معبود وممجد، وقالوا عنه: إنه الأقنوم الثالث الذي انبثق من الآب. وجعلوا الثلاثة - أقنوم الآب والابن والروح القدس - شيئًا واحدًا وإلهًا واحدًا، كذبوا وأشركوا بالله ﷻ بذلك، وكفروا بالملائكة حيث وصفوهم بغير ما وصفهم الله ﷻ به، وبغير الحق الذي جاءت به الرسل، فالروح القدس ملك من ملائكة الله

هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ روح الطهر، منسوب إلى القدس وهو الطهر أو منسوب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فهو الروح المنسوب إلى الله تشريفًا، كما قال: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ فهو منسوب إلى الله، فهو روح الله، ليس أنه حياة أو صفة من صفاته أوصورة من صوره، بل هذا من الكفر بالملائكة كما أنه من الكفر بالله، بل الروح القدس روح نسبت إلى الله تشريفًا وتكريمًا، فهذا من أنواع الكفر، وقد قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًاۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾، فمن اتخذ الملائكة أو النبيين أربابا فقد كفر، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾، نزلت في عيسى وعزير والملائكة، ونزلت أيضًا في الجن الذين أسلموا[(١)]، في كل من عبد من دون الله وهو لا يرضى بذلك، بل هو يعبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واعتقد المشركون لهؤلاء الأنداد، الذين سموهم بأسماء مؤنثة من أسماء الله على أنها الملائكة، اعتقدوا لها الشفاعة الشركية؛ ولذا أبطل الله عَزَّ وَجَلَّ اعتقادهم ذلك في قوله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾، لا يعملون عملاً حتى يأمرهم الله، وحتى يسمعوا قوله لهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أو يعرفوا قوله لهم: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾، فهم لا يعملون أبدًا بخلاف شرع الله، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فهم لا يسبقون ربهم بالقول، لا يعملون عملاً قبل أن يأمرهم، وإذا أمرهم نفذوا، وهم بأمره يعملون، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، فهو يعلم

---

(١) راجع (١/ ٣٩).

كل شيء عنهم سبحانه وتعالى ويملكه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾: وهذه كقوله: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾، فهي تبين أنهم لا يشفعون أصلاً إلا لمن ارتضاه الله، فلا شفاعة تنفع إلا شفاعة في أهل التوحيد والإيمان، لا في أهل الشرك والكفران.

وهذا كله يدل على فساد عقيدة المشركين، ولو زعموا أنهم يحبون الملائكة أو يعظمونهم، طالما قالوا عنهم خلاف الحق، وكذبوا ما جاءت به الرسل عن الملائكة عليهم السلام، وجعلوهم أربابًا وأندادًا من دون الله سبحانه وتعالى، فكل هذا داخل في الكفر، كفر النصارى حين ألّهُوا الروح القدس وكفر المشركين من عباد الأوثان حين ألّهُوا الملائكة، وكفر اليهود كان أغلظ، كان غليظًا، كان كفرًا عظيمًا، وذلك بكراهيتهم للملائكة ومعادتهم لهم، وإن صدقوا بوجودهم، وإن لم يتخذوهم آلهة، ولكن معاداة الملائكة من الكفر، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾. فكفر اليهود كان بسبب أنهم أبغضوا جبريل عليه السلام، وكرهوا ما يأتي به من قبل الله عز وجل، جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألوه عن أسئلة لا يعلمها إلا نبي أو رجل أو رجلان، وهما الرجل والرجلان، لا يعلم هذه الأسئلة بعدهما إلا نبي، فأجابهم النبي صلى الله عليه وسلم بما أرادوا[(١)]، فقالوا: نشهد أنك نبي. فمن

---

(١) أخرجه مسلم (٣١٥) من حديث ثوبان رضي الله عنه، وفيه: «... **وَجِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ** =

يأتيك من الملائكة؟ فقال: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ. فقالا: ذاك عدوك من الملائكة، لو كان ميكائيل لاتبعناك، إنه ملك يأتي بالعذاب والخسف، وغير ذلك(١).
فكفروا بجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وكفروا بالرسول ﷺ إذ أبوا متابعته، فإن كراهية الحق وبغضه تقتضي الكفر ويحصل بها الكفر، وإن كان الإنسان مصدقًا، فإنهم أبغضوا الرسول ﷺ وأبغضوا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأبغضوا القرآن الوحي المنزل من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكفروا بذلك، وخصوصًا حينما صرحوا بذلك بألسنتهم فكفروا بقلوبهم وألسنتهم حين عادوا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وحين عادوا محمدًا ﷺ، فحصل منهم الكفر بالملائكة والكفر بالرسل صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين، ومن عادى ملكًا من الملائكة، فقد عادى الذي أرسلهم بأمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما أن من كذب رسولاً واحدًا أو عاداه، فقد كذب المرسلين، وكذب المرسِل سبحانه وعاداه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومن صور الكفر أو من أنواع الكفر بالملائكة، وإن كان الفلاسفة لا يثبتون وجود الملائكة في حقيقة الأمر، ولا يدينون بما قالت به الرسل، وإن كان هناك ممن انتسب إلى الإسلام، ممن يعتقد عقيدة الفلاسفة، ممن حاول أن يصبغ عقيدته بالأسماء الإسلامية التي وردت في الكتاب والسنة،

= لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ رَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ. قَالَ: يَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟ قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ. قَالَ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنِ الْوَلَدِ؟ قَالَ: مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ، وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا، فَعَلَا مَنِيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَةِ، أَذْكَرَا بِإِذْنِ اللهِ، وَإِذَا عَلَا مَنِيُّ الْمَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ، آنَثَا بِإِذْنِ اللهِ. قَالَ الْيَهُودِيُّ: لَقَدْ صَدَقْتَ، وَإِنَّكَ لَنَبِيٌّ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَذَهَبَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَقَدْ سَأَلَنِي هَذَا عَنِ الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ، وَمَا لِي عِلْمٌ بِشَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى أَتَانِيَ اللهُ بِهِ».

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٢٨٣)، وابن كثير (١/ ٣٣٥)، والقرطبي (٢/ ٣٦).

مع بقاء العقيدة الباطلة على ما هي عليه، فكان هذا أيضًا من الكفر بالملائكة، إذ هو في الحقيقة إنكار وجودهم وحقيقتهم، في زماننا صار الملحدون ينكرون وجود الملائكة أصلا؛ لأنهم ينكرون ما وراء الطبيعة بالكلية، يعنون بالطبيعة الأمر المحسوس المشاهد، كما أنهم يعرفون كم من أمور لا يعرفونها ولا يشاهدونها ولا يدركونها بالحواس المعروفة ويقرون بأنه لابد أن يوجد شيء من ذلك.

فقد اتسعت معارف الإنسان، حتى صار يدرك أن ما يعرفه عن الكون كل ما يراه لا يتجاوز واحدًا بالمائة من حقيقته في الاتساع، مع أن هذا الواحد في المائة وهو القدر الهائل المشاهد هو فوق طاقة الإنسان أن يعرف عنه شيئًا في الحقيقة إلا أنه شيء موجود، فهذه المجرات الهائلة ما علم الناس عنها، وكم فيها من نجوم وكواكب وسيارات وثوابت، وهذا المشاهد كله الذي هو ملايين المجرات هو واحد بالمائة من الكون على قولهم، وعلى ما علموا من الدراسات، التي تدل على أن هناك شيء غائب لا نعرفه، فكيف يتجرأ إنسان بعد ذلك على الإنكار ويقول: لا شيء اسمه الملائكة؟! هل فتشت في الكون كله، حتى تدرك أنه لا يوجد شيء اسمه الملائكة؟! العقل إن لم يدلك على وجودهم بصدق الرسل، الذين أخبروا بوجودهم، وبالآثار التي تدل عليهم، وبكرامات الصالحين، الذين شاهدوا هؤلاء الملائكة وظهرت لهم عيانًا، نقول: العقل إن لم يدل على وجودهم فأقل أحواله أن يجهل ويقول: أنا لا أدري ولا أعلم؛ أما أن يجزم بالنفي فهذا كله من الضلال؛ أما في الزمن الماضي فقد كان الفلاسفة لا يتبجحون بالمخالفة والإنكار علنا، وإنما يقولون إن الوجود المطلق -الوجود الذي يسمونه (الوجود الواجب)-

الذي هو في الحقيقة منزه عن الاسم والصفة والذات والفعل والإرادة وأي شيء، وإنما هو وجود مجرد، الوجود المجرد هذا الذي يسمونه (واجب الوجود)، الذي حاول المنتسبين منهم إلى الإسلام أن يقول هذا هو الله عند المسلمين، وليس بشيء؛ لأنهم لا يثبتون ذاتًا لله ﷻ ولا اسمًا ولا صفة ولا فعلاً، ولا كلامًا ولا أمرًا ولا نهيًا ولا تشريعًا، وإنما وجود مطلق، ليس هذا هو الإله عند المسلمين بالقطع واليقين.

هم يقولون: هذا الوجود القديم الأزلي قد فاض منه أزلاً أيضًا، مثل ما يفيض من الشمس من ضوئها عدة فيوضات؛ أولها: العقل الكلي، أو العقل الفعال، وهذا الذي زعم المنتسبون إلى الإسلام منهم - كابن سينا - أنه الروح القدس، وزعموا أن الوحي هو الانكشاف أو زوال الحجب ما بين العقل الكلي أو العقل الفعال وما بين عقل النبي الجزئي، والأنبياء أذكياء فتزال عنهم الحجب، فعندهم أن النبوة مكتسبة، وهذا كله من الكفر بالملائكة في حقيقة الأمر، وزعموا أن الملائكة بعد ذلك هي العقول العشرة التي فاضت من العقل الكلي، كل هذا من ضلالات الفلاسفة وكفرهم بالملائكة في حقيقة الأمر، فتسمية من انتسب إلى الإسلام - والإسلام من كلامهم بريء - من انتسب إلى الإسلام منهم كالفارابي وابن سينا وأمثالهم - هذه العقائد الفاسدة أنها هي الملائكة أو ما يسمونهم العقول العشرة أو نحو ذلك هي الملائكة، كلام باطل وكذب وزور، وكذا تجد عند أهل السحر والخيالات والخزعبلات والخرافات من ذلك ما يسمونه بتحضير الأرواح، وربما زعموا أن الملائكة هي التي تحضر عندهم، وإنما تأتيهم الشياطين، والعياذ بالله، ويزعمون أن الأرواح الطيبة يستطيعون أن يسخروها وأن

يستخدموها - والعياذ بالله - في أمورهم. وكل هذا من الضلال المبين، فالملائكة ليست مسخرة لأحد من هؤلاء، والملائكة إنما هي في طاعة الله ﷻ وامتثال أوامره، ولم يخبرنا ربنا ﷻ ولا رسوله ﷺ قط أن الملائكة تسخر لأحد أو تستخدم لأحد، وإنما أقصى ما ورد في ذلك أن البشر يمكن أن يروا الملائكة، كما ثبت في الصحيح: «**كان رجُلٌ يقْرأُ سُورة الكهْفِ، وإِلى جانِبِهِ حِصانٌ مرْبُوطٌ بِشطنيْنِ، فتغشّتْهُ سحابةٌ، فجعلتْ تدْنُو وتدْنُو وجعل فرسُهُ ينْفِرُ، فلمّا أصْبح أتى النّبِيّ ﷺ فذكر ذلِك لهُ فقال: تِلْك السّكِينةُ تنزّلتْ بِالقُرْآنِ**»[١].

وقد رأى الصحابة ﭫ جبريل ﵇ في صورة رجل أعرابي جاء يسأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان[٢]، ورأى كثير منهم جبريل ﵇ أيضًا في صورة دحية بن خليفة الكلبي ﵁ الذي كان كثيرًا ما يأتي جبريل ﵇ في صورته[٣]، فالمقصود أن البشر يمكن أن يروا الملائكة، لكن لا يجوز أن يعتقد أحد أن الملائكة مسخرة لخدمة أحد، أو أن أحدًا يمكنه أن يسخر الملائكة، فكل هذه من بقايا الفلسفة الخبيثة، ومن بقايا خزعبلات

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١١)، ومسلم (٧٩٥) من حديث البراء بن عازب ﵁.

(٢) كما في حديث جبريل ﵇، سبق تخريجه (١/ ٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٣٤)، ومسلم (٢٤٥١) من حديث سلمان ﵁: «**قَالَ: وَأُنْبِئْتُ أَنَّ جِبْرِيلَ ﵇، أَتَى نَبِيَّ اللهِ ﷺ، وَعِنْدَهُ أُمُّ سَلَمَةَ، قَالَ: فَجَعَلَ يَتَحَدَّثُ، ثُمَّ قَامَ فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ لِأُمِّ سَلَمَةَ: مَنْ هَذَا؟ أَوْ كَمَا قَالَ: قَالَتْ: هَذَا دِحْيَةُ، قَالَ: فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: ايْمُ اللهِ مَا حَسِبْتُهُ إِلَّا إِيَّاهُ، حَتَّى سَمِعْتُ خُطْبَةَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ - يُخْبِرُ خَبَرَنَا**». وانظر: ما أخرجه النسائي في المجتبى (٨/ ١٠١)، وفي الكبرى (٦/ ٥٢٨)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ٢١٠)، والبزار في مسنده (٩/ ٤١٩) من حديث أبي هريرة وأبي ذر ﭭ.

أهل الكتاب وخرافاتهم التي هي في حقيقة الأمر كفر بالملائكة، ومخالفة ما جاءت به الرسل عن الملائكة الكرام كفر على أحواله المختلفة، فمن يعتقد أن الملائكة تعصي الله ﷻ، وتفسد في الأرض، وتعمل بالسحر ونحو ذلك فهذا مخالف لما جاءت به الرسل صلوات الله وسلامه عليم أجمعين؛ وأما ما ذكر الله ﷻ عن الملكين ببابل هاروت وماروت، وتعليمهم للسحر، فهذا ابتلاء ابتلى الله به عباده، ولا ندري حقيقة قصتهما إلا أنهما ببابل على قراءة الجمهور: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾، وإلا فالقراءة الأخرى: (على الملِكين). وقد اختلف العلماء في ذلك اختلافًا كثيرًا[1]، إلا أن ظاهر قراءتنا أنهما ملكان ببابل يعلمان الناس أشياء من جنس السحر بعد تحذيره، وقد ذكر الله أنهما فتنة، فهما ابتلاء ابتلى الله به عباده، لا يتعلم أحد منهم إلا بعد أن يحذروه: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، فتعلم ذلك من الكفر، تعلم هذا السحر من الكفر، فليست الملائكة في مجموعها وجملتها بمن يفعل السحر أو يحضر عند وجوده أو نحو ذلك، كما يظن من يحضرون الأرواح أو يسمون ذلك، وغالب الظن أنه تحضر الشياطين هذه المجالس المليئة بالمنكرات، التي يجب على المسلمين التحذير والحذر منها، فهذا ضمن الكفر بالملائكة، وقد تسربت عقائد الكفر إلى بعض المنتسبين إلى الإسلام كما ذكرنا في أمر الفلاسفة والمتصوفة، فكثير من المتصوفة يعتقدون عقائد الفلاسفة في الملائكة، وكثير ممن يقول بوحدة الوجود من المتصوفة يعتقدون نفس اعتقاد النصارى، ولكن في عموم الكون، في الملائكة،

---

(١) راجع (١/ ٢٤٥).

النصارى يعتقدون أن الروح القدس أقنوم من أقانيم الرب، صورة من صوره، فهؤلاء من ضمن اعتقادهم ذلك، وفرق الرافضة عندهم من ذلك كثير، وهناك من المتصوفة الفلسفية من يقولون بأنهم يوحى إليهم إذا كان عندهم من الذكاء وصفاء النفس ونحو هذا، والعجب أن بعض من كان مقدمًا ممن تكلم في التهذيب والسلوك قد وقع في شيء من ذلك، كما قال الإمام أبو بكر بن العربي عن الشيخ أبي حامد الغزالي: «**إن أبا حامد دخل في بطن الفلسفة فلم يستطع أن يخرج منها**»، وتجد آثار ذلك في تفسير أبي حامد - غفر الله له - لقصة الخضر وموسى، فهو يتكلم بالكلام الفلسفي العجيب، الذي ما دل عليه شيء من الكتاب أو السنة، فهو يقول: إن العقل الكلي هو جبريل، وإن الوحي إلى الأنبياء هو زوال الحجب بين العقل الكلي والعقل الجزئي، عقل الرسول، وأن النفس الكلي هو اللوح المحفوظ، فهو الفيض الثاني بعد العقل الكلي عند الفلاسفة، إن أول فيض حدث هو العقل الكلي ثم بعد ذلك النفس الكلي، وفاض من العقل الكلي عشرة عقول، وفاض من النفس الكلي تسعة نفوس، ثم نفوس كثيرة بعد ذلك إلى أن صارت النفوس الجزئية، نفوس البشر، فهو يقول: إن الإلهام والكشف، الذي كان الخضر قد أُعْطِيهُ هو، هذا الوحي إلى غير الأنبياء بزوال الحجب بين النفس الكلي وبين النفس الجزئي، التي هي نفس الولي، وبهذا هذا الولي تنطق نفسه عن اللوح المحفوظ، وهذا - والعياذ بالله - من الضلال المبين.

ولذلك تجد عند هؤلاء أن الأولياء عندهم من علم الغيب والاطلاع على اللوح المحفوظ وعلى كل ما في الغيوب، ما لا يوجد عند غيرهم، بل بعضهم زاد الأمر حتى جعل الأولياء أفضل من الأنبياء، والرافضة عندهم

من ذلك نسبة (**علم الجفر**)[١]، وهو علم يدعون فيه علم الغيب لأئمتهم، ويزعمون أنهم كذلك يعلمون كل ما في الوجود، وكل الغيبيات يطلعون عليها، نعوذ بالله من الضلال، كل هذا من الكفر بالملائكة، ونعوذ بالله، بعض ذلك من الكفر البواح الذي لا خفاء فيه، وبعضه مما يلزم منه الكفر، أو مما قد يخفى على البعض، فيحتاج إلى إقامة الحجة إذا كان قد خفي على أناس من أهل العلم والفقه في الدين، فعلى غيرهم يكون أخفى، ومن يعتقد أن الملائكة تساعد الله ﷻ على تدبير الكون هو كذلك من اتخاذ الملائكة أربابًا، فالملائكة إنما الله ﷻ أعطاهم القوة والقدرة، وليس أنهم هم الذين يعاونون الله، الله ﷻ مستغن عن الخلق جميعًا، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له القوة جميعًا، وله الأمر جميعًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإنما هو الذي أقدر الملائكة وأعطاهم العلم والقوة والقدرة، وهم لا علم إلا ما علمهم الله، ولا قوة لهم إلا ما قواهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

المقصود مما ذكرنا أن هناك من عقائد الكفر وعقائد الفلاسفة فيما يتعلق بالملائكة ما تسرب إلى بعض الفرق الإسلامية المنحرفة، فوقع ذلك فوجب الحذر منه، ووجب تصحيح الاعتقاد بما جاء به النبي ﷺ في أمر الملائكة بمطالعة أدلة الكتاب والسنة وفهمها على فهم أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم من سلف الأمة، فإن هذا هو الذي يجنب الإنسان الوقوع في هذه المخالفات، والله أعلى وأعلم.

---

(١) راجع (١/١٧٨).

الْمسْألةُ الرّابِعةُ بعْد الْمِائةِ: الْكُفْرُ بِالرُّسُلِ.

الشرح:

والكفر بالرسل واقع عند عُبّاد الأوثان من المشركين، وواقع عند اليهود وواقع عند النصارى، فالرسول ﷺ خالف هؤلاء جميعًا، فجاء بالإيمان بالرسل كلهم؛ فأما المشركون فكانوا يكذبون الرسل، ويكذبون الرسالة جملة، قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

وذكر الله ﷻ كفرهم كذلك في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾، فكان من كفرهم أنهم كفروا بما أوتي موسى قبل أن يأتي ويبعث رسول الله ﷺ، فكذلك اليهود ذكر الله ﷻ عنهم تكذيبهم بالرسل وكفرهم بهم وقتلهم، وكفر اليهود يشمل التكذيب والمعاداة: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فاليهود قتلوا الأنبياء، كذبوا فريقًا منهم وعادوا وقتلوا فريقًا منهم، ومعاداة الأنبياء كفر، وبغضهم كفر، حتى وإن صدقهم، كحُيَيِّ بن أخْطب الذي قال

عن النبي ﷺ إنه هو النبي الموعود، وقال بعد ذلك: «**عداوتُهُ واللّهِ ما بقِيتُ**»[١]، فمعاداة الأنبياء ولو صدقهم كفر، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾. وأما النصارى فكذبوا محمدًا ﷺ وكفروا بعيسى عليه السلام أيضًا؛ لأنهم اعتقدوا أنه الإله، وهذا كفر به؛ لأنهم أبوا أن يجعلوه كما جعله الله ﷻ رسولاً، فالكفر في الإفراط وفي التفريط، فمن جعل رسولاً من الرسل إلهًا فقد كفر: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝٨٠﴾. إذًا، من قال عن النبي أنه رب أو إله، أو جعل له صفات، أو جعل له حقوق الإله، كهذا الذي تسرب إلى أهل الإسلام أو المنتسبين إلى الإسلام من عقائد الوثنية، ممن يعتقد في الرسول أو في غيره من الرسل أو الأولياء أنه يدبر الكون مع الله أو من دون الله أو أن الله ترك له تدبير الكون، فهذا مما تسرب من عقائد أهل الشرك والكفر، والعياذ بالله.

ومن يعتقد أن الرسول يعلم الغيب، ومن يعتقد أن الرسول يملك الشفاعة وأنه يشفع لكل من كان متوسلاً به أو محبًّا له، حتى ولو كان مشركًا، والعياذ بالله، وهذا كله خلاف ما جاء به النبي ﷺ، من أن الشفاعة لا تكون إلا لمن ارتضى الله سبحانه.

كما ذكرنا أن من يعتقد أن الملائكة تساعد الله ﷻ، فهذا من ميراث أهل

---

(١) سبق عزوه (١/ ٢٠٥).

الجاهلية، فكذلك من يعتقد أن الرسل تدبر الأمر، وأن الله ملّكهُم أمور الدنيا والآخرة، النصارى يعتقدون ذلك في المسيح فكان كفرًا، ومن المسلمين من يعتقد مثل ذلك في النبي ﷺ، حتى قال شاعرهم[(١)]:

يَا أَكْرَمَ الخَلْقِ مَا لِي منْ ألُوذُ بِهِ سِواك عِنْدَ حُلُولِ الحادِثِ العمِمِ

إنْ لَمْ يَكُنْ فِي مِعَادِي آخِذا بِيدِي فـضْـلا وإلَّا فـقُـلْ يَـا زلّـة الْـقَـدَمِ

فَإنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيا وَضَرَّتها وَمِنْ عُلُومِك عِلْمُ اللّوحِ وَالْقَلَمِ

فالدنيا والآخرة عنده من جُودِ النبي ﷺ، كيف ذلك والله ﷻ هو المالك لكل ما في هذا الكون؟! ورسول الله ﷺ يقول لفاطمة بنته ﵂: «**يَا فَاطِمةُ بِنْتَ مُحمّدٍ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شيْئًا**»[(٢)].

لذلك نقول: من رفع الرسل فوق منزلتهم، فقد كفر، بمعنى: أنه عبدهم من دون الله واتخذهم أربابًا وآلهة، ومن قصّر في حقهم فكذبهم وعاداهم، فقد كفر، فهذا من أنواع الكفر، وتكذيب رسول واحد تكذيب لجميع الرسل، وخصوصًا إذا كان خاتمهم، إذا كان الذي يكذبونه هو خاتمهم محمد ﷺ، قال النبي ﷺ: «**والذي نفْسُ مُحمّدٍ بِيدِهِ لا يسْمعُ بي أحدٌ مِنْ هذِهِ الأُمّةِ يهودي ولا نصراني ثُمّ يمُوتُ ولمْ يُؤْمِنْ بالذي أُرْسِلْتُ بِهِ إلاّ كان مِنْ أصْحابِ النّارِ**»[(٣)]، نعوذ بالله من النار، فأنواع الكفر بالرسل

---

(١) انظر: ديوان البوصيري (ص٢٥٢).

(٢) سبق تخريجه (١/ ٢٦٥).

(٣) أخرجه مسلم (١٥٣).

في أهل الكتاب وفي الأميين عباد الأوثان، كانت أنواعًا مختلفة متعددة، ولها ميراث حصل عند أهل البدع والضلال، نسأل الله ﷻ أن يعافينا من ذلك كله.

الْمسْألةُ الْخامِسةُ بعْد الْمِائةِ: الْكُفْرُ بالْكُتُبِ.

الـشـــرح:

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

فذكر الله ﷻ عن مشركي قريش أنهم ينكرون إنزال الكتاب أصلاً، ينكرون أن يكون الله ﷻ أنزل أي شيء من الكتب على رسله: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ﴾، وكان عامتهم يعتقدون فضيلة اليهود لأجل الكتاب المنزل، وهذا من تناقضهم وتضارب أقوالهم، فهم يرون أن التوراة مُنزلة، ويعظمون أهلها لأجلها، وهم في نفس الوقت يقولون: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ﴾؛ ليتوصلوا إلى نفي الوحي إلى رسول الله ﷺ والتكذيب بالقرآن العظيم.

وذكر الله سبحانه وتعالى أن بني إسرائيل كانوا يكذبون الرسل، ومقتضى ذلك أنهم كفروا بما أنزل الله ﷻ على أنبيائه من الوحي.

ومعلوم أن اليهود يكذبون بالإنجيل وبالمسيح عليه السلام، ويكفرون بالقرآن، ويكفرون بمحمد ﷺ، والنصارى يكفرون بالقرآن، ويكفرون بمحمد ﷺ، فتبين بذلك أن أهل الكتاب وأن المشركين كذلك هم يكفرون بكتب الله سبحانه وتعالى وينكرونها ويكذبون بها، وهذا من الكفر الذي لا خفاء فيه.

وقد قال الله سبحانه وتعالى مبينًا نوعًا آخر من أنواع الكفر بالكتب في فعل بني

إسرائيل، ولعل هذا أشبه أن يقع فيمن ينتسب إلى الإسلام وفيمن ورث من أهل الجاهلية هذه الخصلة، وهي قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾. فبين الله ﷻ من كفر أهل الكتاب أنهم كانوا يكفرون ببعض الكتاب، وإن أقروا بالبعض الآخر، فكان عدم تطبيقهم لما أنزله الله ﷻ في كتابه، ورؤيتهم أنهم ملتزمون بالدين، رغم عدم التزامهم بالكتاب، وأنهم يظنون أنفسهم قد آمنوا لوجود بعض الإيمان، نقول: قد حكم الله ﷻ عليهم بالكفر، فمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، من عمل ببعض الكتاب وأبى أن يعمل بالبعض، أو جحد البعض، أو بدله وتركه وراءه ظِهْرِيًّا، ورأى أنه يسعه الخروج عن الكتاب، فهذا ليس بمؤمن بالكتاب، وهذا حاصل، فقالوا: آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم من هذه الأمة، وهذا ميراث خطير في الكفر بالكتب؛ كما قال الله ﷻ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾. فالله ﷻ وصف طائفة من المنافقين بأنهم يحرفون الكلم من

بعد مواضعه، كما فعل اليهود حين أبوا أن ينفذوا أحكام الله ﷻ، وقد نزلت الآيات فيمن بدل حكم الرجم في التوراة على الزنا، بدله إلى الجلد والتحميم؛ لكثرة الزنا فيهم، فأخبر الله ﷻ أنه سيوجد من هذه الأمة من يتبع على ذلك ويقبله، والعياذ بالله، ويرضى بمثل ما رضي به اليهود من التبديل، وهذا سماه الله تحريفًا للكلم من بعد مواضعه، مع أن الآية نزلت في اليهود إلا أن الله بدأ بذكر الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وذلك أن خطرهم في الأمة أكبر، وهو - كما ذكرنا - نوع من الكفر بالكتاب، وإن ظل اللفظ موجودًا؛ ولأن أحدًا لا يستطيع أن يبدل حروف كلام الله ﷻ في القرآن العظيم، لا يستطيع أن يحرف الكلم، بمعنى: تحريف الكتابة كما وقع في الكتب المتقدمة، وإنما يمكن أن يقع التحريف والكفر بآيات الله ﷻ والكفر بالكتاب مع بقاء اللفظ، ومع بقاء الادعاء بالإيمان بالكتاب.

لذلك نقول: هذا هو الميراث الخطير الذي ورثه أهل البدع والضلال، الذين أبوا تطبيق شرع الله ﷻ، وحكموا بغير ما أنزل الله، واتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، والُوهُم على ما هم عليه، فكان هذا كفرا بالكتاب، وإن تسموا باسم الإيمان، وإن زعموا تعظيم القرآن، وإن زعموا التزامهم بالإسلام، إلا أن هذا الأمر في الحقيقة نوع من الكفر بالكتاب؛ لأن الله قال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾، فهذا نوع من الكفر موروث في هذه الأمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وشابهوا من كان قبلهم من اليهود الذين كفروا ببعض الكتاب، ولا شك أن هذا يفتح لنا بيان أبواب خطيرة في هذا الباب، أعني: أن يقر الإنسان باللفظ، ويعزل الكتاب عن الحكم، مع

أن الله أنزله ليحكم بين الناس؛ كما قال ﷻ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾. فالله أنزل الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه بما أنزله ﷻ فيه، فمن يأبى أن يُحكِّم الشرع الذي أنزله الله في الكتاب، وإن زعم أنه يؤمن بالكتاب، فهذا نوع من أنواع الكفر بالكتاب، الذي يأبى أن يقبل شرع الله ﷻ الذي أنزله في كتابه، وكم من أحكام قطعية ثابتة مجمع عليها، ثابتة بنص الكتاب، ومع ذلك ما أكثر من يطعن فيها، وما أكثر من يأباها ويرفضها، فهذا وإن أقر بلسانه أو بحروفها فليس بمؤمن بها.

فلابد في الإيمان من تصديق وانقياد وقبول، من لم يقبل الكتاب لم يؤمن بالكتاب، بل لم يُحكِّم الكتاب إجمالاً أو تفصيلاً، أعني في الإجمال: أن من الناس من يقول: هذا الكتاب المنزل على محمد ﷺ لا يصلح لهذا الزمان، وهذا من الكفر البواح الذي لا خفاء فيه، وهناك من تكلم وهو قدوة العلمانيين جميعًا في عالمنا المعاصر حين قال أتاتورك: كيف نبني دولتنا الحديثة على كتاب يبحث في التين والزيتون؟!

وكثيرون تجرءوا حتى قالوا: إن القرآن يجب إعادة النظر في آياته. وهذا من الكفر البواح، وإن ظلوا ينتسبون إلى الدين، ويقولون: بل نحن نقر ونؤمن بالقرآن، ولكن كذا وكذا، يحاولون تمييع المسألة.

فكما ذكرنا هذا نوع من الكفر بالكتاب، هؤلاء العلمانيون الذين يريدون عزل الكتاب إجمالاً هؤلاء كفروا بالكتاب؛ وأما تفصيلاً، فأعني بذلك: أن هناك من لا تعجبه بعض أحكام الكتاب، فهو يقبل أحكام الكتاب على سبيل المثال في الأخلاق أو في العبادات، وأما ما كان من أمور العقائد،

أو ما كان من أمور الأحكام التفصيلية، فقد يقبل بعضها ويأبى بعضها، فهذا إذا علم كتاب الله ﷻ وما نزل فيه، فأبى أن يحكمه في هذه المسألة بخصوصها، لم يكن مؤمنًا، ولم يكن مسلمًا في الحقيقة، إنما هو بين النفاق والكفر، والعياذ بالله من ذلك.

حتى ولو كان يقبله إجمالاً، لكن في مسألة ما علم حكم الكتاب فيها فأبى أن يقبله، رفض أن يطبقه ويعمل به، وقال: هذا يؤدي إلى خراب دنيانا، هذا يؤدي إلى مفاسد، نعوذ بالله، كلام الله تطبيقه لا يمكن أن يأتي بفساد، بل هو الصلاح بعينه.

لذلك نقول: إن أنواع الكفر بالكتاب موجودة في أناس من المنافقين، وإن كانوا ينتسبون إلى الإسلام، ويزعمون أنهم يؤمنون بالقرآن العظيم؛ لذلك نقول: هذا من الكفر بالكتب الذي ورث عن أهل الكتاب، والعياذ بالله من ذلك، كما أنه ورث عمن أبى قبول القرآن، ممن كان من المشركين الذين أنكروا شيئا على بشر، نسأل الله العافية.

الواجب في الإيمان بالكتب في معالجة أو في مقاومة ومجاهدة هذا الكفر: أن نعظم كتاب الله، وأن نصدق بكل ما فيه، ونلتزم بكل ما فيه من الشرائع، فلابد من تصديق، ولابد من التزام، ولابد من أن نسعى لإعلاء كلمة الله، مقصودنا التي شرّع بها شرائعه، فهو شرعه ﷻ، لابد أن نسعى لإعلاء كلمة الله ﷻ، وأن نؤمن بالكتاب كله، وأصبح في زماننا من يجعل من آمن بشيء من الكتاب، ولو آمن بمسألة وكفر بمائة مسألة، يقولون: لا يكفر إلا إذا ترك الكتاب كله. وعجبًا! هل كان هذا عند المشركين؟!

المشركون كان عندهم من الإقرار ببعض ما تضمنه الكتاب من أن الله خالق السماوات والأرض: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، أفكان ذلك إيمانا مقبولاً؟! نعوذ بالله من هذا.

لذلك نقول: لابد أن يكون هناك تصديق للخبر، والتزام بالأمر، واجتناب للنهي، وقبول للحكم، وتحكيم للكتاب في مواطن النزاع، وهذا الذي يتحقق به الإيمان بالكتاب العظيم، والله أعلى وأعلم.

الْمسْألةُ السّادِسَةُ بَعْدَ الْمِائةِ: الْإِعْراضُ عَمَّا جَاءَ عَنِ اللَّهِ.

الـشــــرح:

قال الله ﷻ : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ، فالإعراض عما أنزله الله ﷻ من الآيات إعراضًا كليّا يقتضي كفر من فعل ذلك؛ لأنه لا أظلم منه؛ ولذا عدّ الشيخ الإمام رحمه الله في نواقض لا إله إلا الله: (**الناقض العاشر: الإعراض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به**)(١).

هذا الإعراض الكلي، الإعراض بأن يبلغه الدين تبلغه الآيات، فيأبى أن يتفكر فيها، ويأبى أن يتفهمها ويتعلمها، يصم آذانه عنها، يضعون أصابعهم في آذانهم، يستغشون ثيابهم، هؤلاء قد قامت عليهم الحجة، ولا ينفعهم إعراضهم بأنهم كانوا يجهلون هذه الأمور، طالما أنه جهل ناشئ عن إعراض عن آيات الله، عما أنزل الله، عما جاء عن الله، فهذا الجهل ليس يعذر صاحبه، طالما كان متمكنا من العلم، وتركه معرضًا عنه بعد أن بيّن له، لكنه لم يفهمه؛ لأنه لا يريد أن يتفهم؛ كما قال الله ﷻ : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ ، فوصل إعراضهم إلى أنهم وإن استمعوا القرآن قلوبهم معرضة لم يفهموا شيئًا، والعبرة بالسماع وسلامة الآلة وأنه باللسان الذي يتكلمون به ليبين لهم، فإذا أعرضوا بعد ذلك عن فهمه وعن

---

(١) انظر: نواقض الإسلام ضمن مجموع الدرر السنية (٢/ ٣٦٢).

الإيمان به، فإنهم - والعياذ بالله - يكونون كفارًا، ولا ينفعهم أنهم جهلوا. الجهل الذي نتكلم عنه دائمًا في قضية العذر هو الجهل الناشئ عن عدم البلاغ؛ أما الجهل الناشئ عن الإعراض عن الحجة بعد قيامها؛ لذا لم يفهمها لأنه معرض فلا عذر لصاحبه، وقد قال ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾، وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾، فتبين بذلك أن الكفار لا يعلمون، وكذلك قال الله عن المنافقين: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾، وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. فليس عدم العلم دائمًا بعذر إلا ما كان ناشئًا عن عدم بلوغ الآيات، عدم بلوغ الحجج؛ أما من بلغته الحجج والآيات فأعرض عنها فلذلك لم يفهمها، فهو متوعد على جهله الذي تسبب فيه، فهذا الإعراض عما جاء عن الله وقع - كما ذكرنا - من المشركين عباد الأوثان، الذين كانوا يعرضون عن القرآن إعراضًا تامًا، ولا يريدون سماعه، ولا يقبلونه إلى أن تاب الله على من تاب منهم فأقْبل إلى القرآن.

وكما ذكرنا إعراض أهل الكتاب عما جاء إلى رسول الله ﷺ هو من هذا الإعراض، إعراض بالكلية، وهذا ينطبق على من أعرض عن حجة أقيمت عليه من كتاب الله ﷻ ومن سنة رسوله ﷺ، فإنه وإن كان لا يفهم، لكن بعد قيام الحجة التي يفهمها مثله مسئول عن قوله وفعله واعتقاده؛ لذلك نقول: فرق بين فهم الحجة وبين قيام الحجة، العبرة أن تبين الحجة باللسان الذي يتكلم به الإنسان: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أما

أنه بعد البيان يقع الفهم فقد قال ﷻ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ سماع الفهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، فهذا نوع من الإعراض، حتى بعد حصول الفهم الذي ذكر الله ﷻ، وهناك قبله إعراض؛ لأنهم لم يفهموا، ولم يكن ذلك عذرًا لهم.

لذلك نقول: الإعراض الذي هو كفر إعراض بالكلية عن دين الله ﷻ، لا يتعلمه ولا يعمل به ولا يلتفت إليه، كإعراض اليهود والنصارى المقلدين لكبرائهم وسادتهم، وإعراض المشركين عن القرآن كذلك تقليدًا للآباء والأجداد، وكإعراض قوم نوح عما أوحاه الله ﷻ إليه: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾. ليس هذا الإعراض عذرًا، وليس الجهل الناشئ عنه عذرًا، وليس عدم الفهم الناشئ عنه عذرًا، طالما قد بين لهم بلسانهم، وإنما يكون عذرًا لمن لم يبين له، لمن لم تأته آيات الله، هذا الإعراض بالكلية عن الدين، والإعراض عن الكتاب وعن الرسول ﷺ.

نوع ثان في مسألة تفصيلية: تأتيه الحجة البينة، يُبيّن له بالتفصيل في مسألة خالف فيها ما جاء عن الرسول، فيظل على معتقده وتقليده لسادته وكبرائه في هذه المسألة؛ لأنه لا يحسن الظن بمن بلغه إياها، ويظنه من الجهال، أو يظنه من الخوارج، أو يظنه من المتعصبين أو من المتشددين أو غير ذلك مما يُلهيه الهوى والشيطان عن النظر في الدليل، والمسألة تكون مما يكفر فيه؛ لأنها من القواطع في دين الله ﷻ، على سبيل المثال: من يعتقد أن للكون أقطابًا يُدعوْن من دون الله ﷻ من أولياء الله الصالحين أو من أهل البيت، ممن يدبرون الكون من دون الله أو مع الله أو بإذن من الله،

حتى لو اعتقد ذلك، فهو يدعوهم ويتوكل عليهم، ويسألهم قضاء الحاجات وكشف الكربات، فإذا تليت عليه الآيات قال: أنت أعلم أم الشيخ الفلاني إمامنا لم يكن يقول ذلك. ولا يلتفت أصلاً إلى حجة ولا ينتبه إلى تدبر ولا يفهم، وهو يظن نفسه على الحق والدين، ويظن نفسه أفضل من هؤلاء المحجوبين، وما أكثر من تقام عليه الحجج من أهل البدع، وهو لا يلتفت إليها معرضًا، والعياذ بالله، وكما ذكرنا يكون الاعتقاد الذي يعتقده يتضمن التكذيب بالقرآن، تتلى عليه آيات الله ﷻ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾، تجده لا يلتفت، يقول: محجوبون هؤلاء الذين لا يعرفون حقيقة الأولياء، يقولون هؤلاء العلماء الأفاضل يقولون بالأقطاب والأولياء والنجباء، ومع ذلك هؤلاء الخوارج يكفروننا على ذلك دون حجة، وإنما لأجل التقليد.

مثال آخر: نقول الذين يسوُّون بين الملل، ويرون أن أهل الملل كلهم يصلون إلى الله ﷻ، وأن الإسلام واليهودية والنصرانية وغيرها من الملل كلها مقبولة عند الله، ولو عبدوا غير الله؛ فمنهم من يقرر صحة عبادتهم لله نظرًا إلى القدر، ومنهم من يصحح عبادتهم لغير الله نظرًا إلى وحدة الوجود، وأن المعبود واحد في الحقيقة، وأن الناس إنما قصدوا أن يعبدوا إلهًا واحدًا، وإن تعددت صوره وأشكاله، وإن بدا في صورة التعدد[١].

الـرّبُ عـبْـدٌ والْـعـبْـدُ ربٌ فيا لـيْـت شِـعْـرِي مـنْ الْمُكـلـفُ

---

(١) سبق عزوه (١/ ٤٠١).

إِنْ قُلْتُ عَبْدٌ فَذاك ربٌ وإِنْ قُلْتُ ربٌ أنّى يُكلفُ؟!

وما أكثر ما ينتشر هذا في الصوفية وغيرهم! وطوائف الباطنية بأسرهم يعتقدون هذا الاعتقاد الكفري، والعياذ بالله، ومنهم من يجوِّز عبادة غير الله من باب السماحة بزعمهم، وهذا المنتشر في زماننا أن الإسلام يتسم بالسماحة، فكل الأديان إذًا لا بأس بها، ولا اعتراض ولا تكفير، كأن هذا اللفظ وهو لفظ (الكفر) لفظ لا يجوز أن يستعمل في حق أحد.

وكم قامت قيامتهم أو قائمتهم عندما يُقال مثلاً عن اليهود والنصارى: كفار، وربما اتهموا من قال ذلك بأنه قد ارتكب جريمة، وقد حكيتُ لكم أن من الناس من كان يقال له في بعض القضايا: إنك متهم بتكفير أهل الملتين؛ اليهود والنصارى. هكذا صراحة، وتتلى عليهم آيات الله بالليل والنهار، ومنهم من يبلغها للناس ويفسرها ويكتب في تفسيرها، ثم إذا قيل له: أنت كتبت وقلت: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ﴾، ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ﴾، كتبت تفسيرها، فيقول: هذه نزلت في الذين كانوا زمن النبي ﷺ؛ أما الآن فهم يقولون باسم الإله الواحد، والعياذ بالله، وهذا والله إعراض ولو كان في مسألة واحدة، طالما كان يعلم الآيات ويعرف قول الله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، ويعلم أنهم يقولون: إن المسيح هو الله، وأنهم يعبدون من دون الله ومع الله ﷻ، ويقولون: إن الله ثلاثة أقانيم، ويعرف أنهم يكذبون محمدًا ﷺ ويكذبون القرآن العظيم، ومع ذلك يقول: هم مؤمنون، ونرجو أن يجمعنا الله يوم القيامة معًا في الجنة، والأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين، ويربت على كتف أحد

هؤلاء الطواغيت الكفار، والعياذ بالله.

فهذا إعراض عن حجج الله ﷻ - والعياذ بالله - وعن آياته، ويُذكّر بآيات الله فيصر معرضًا على ذلك، هذا من الإعراض الذي هو كفر، نعوذ بالله من ذلك.

ولو كان يظن نفسه على الحق والهدى، كما ذكرت الأنواع كثير فيمن يتكلم في تسوية الملل، أو في جواز دعاء وعبادة وصرف العبادات لغير الله، أو في استباحة المحرمات، والعياذ بالله، واستجازة مخالفة دين الله وشرع الله سبحانه، ويرى نفسه محقًّا، نعوذ بالله من ذلك، هذا معرض عن دين الله ﷻ، كما ذكرت هناك من يعرض بالكلية كمقلدي اليهود والنصارى وأهل الملل، لم يبحثوا عن دين الإسلام ولا عن أدلة صدق الرسول ﷺ، رضوا بتقليد الكبراء والسادة في تكذيب الرسول ﷺ والقرآن، وترك دين الإسلام، فهذا إعراض، كفر ناقل عن الملة.

وهناك من يعرض في مسألة، تأتيه الآيات فيكذب بها، أو يعرض عنها ويظن نفسه على الحق في ذلك، ونعوذ بالله من ذلك: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

هناك نوع آخر من الإعراض دون ذلك، وهو ألا يتعلم بعض مسائل الدين التي وجبت عليه، فله نصيب من الإعراض ويعرض الله ﷻ عنه، لكنه لم يعرض عن الدين بالكلية، ولم يرتكب كفرًا، ولم تتلى عليه الآيات، لكنه لم يتعلمها، الآيات إنما حكمت بأن أظلم الخلق هو الذي ذُكِّر بآيات ربه ثم أعرض عنها؛ أما من لم يُذكّر بآيات الله فلا يزال، قد

يكون مقصرًا في طلب العلم، وقد لا يكون مقصرا، نحن نتكلم عن المعرض الذي قد كان يمكنه أن يتعلم فلم يتعلم، لكن لم تبلغه الآيات ولم تبلغه الحجج، يأثم بترك ما وجب عليه، ولا يخرج من الملة بالكلية، كما في حديث أَبِي واقِدٍ اللّيْثِيِّ في الثلاثة نفر الذين دخلوا إلى مجلسه ﷺ: «**أنّ رسُول اللّهِ ﷺ بيْنما هُو جالِسٌ فِي المسْجِدِ والنّاسُ معهُ إِذْ أقْبل ثلاثةُ نفرٍ، فأقْبل اثْنانِ إِلى رسُولِ اللّهِ ﷺ وذهب واحِدٌ، قال: فوقفا على رسُولِ اللّهِ ﷺ، فأمّا أحدُهُما: فرأى فُرْجةً فِي الحلْقةِ فجلس فِيها، وأمّا الآخرُ: فجلس خلْفهُمْ، وأمّا الثّالِثُ: فأدْبر ذاهِبًا، فلمّا فرغ رسُولُ اللّهِ ﷺ قال: ألا أُخْبِرُكُمْ عنِ النّفرِ الثّلاثةِ؟ أمّا أحدُهُمْ فأوى إِلى اللّهِ فآواهُ اللّهُ، وأمّا الآخرُ فاسْتحْيا فاسْتحْيا اللّهُ مِنْهُ، وأمّا الآخرُ فأعْرض فأعْرض اللّهُ عنْهُ**»[١]، هذا نوع من الإعراض وقد أعرض الله عنه، ولم يكن ذلك الرجل كافرًا إذ ترك مجلس العلم الذي كان فيه النبي ﷺ، وكم من مقصر في طلب هذه الفريضة.

قال النبي ﷺ: «**طلبُ الْعِلْمِ فرِيضةٌ على كُلِّ مُسْلِمٍ**»[٢]، لكن لايلزم ممن

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦)، ومسلم (٢١٧٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤)، وأبو يعلى في مسنده (٥/ ٢٢٣)، والبزار في مسنده (١/ ١٧٢)، والطبراني في الأوسط (١/ ٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٢٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ. قال السخاوي: «وهو مع طرقه الكثيرة قد ضعفه أحمد، والبيهقي، وغيرهما، ولكن يُروى عن جماعة من الصحابة؛ كجابر، وابن عباس، وابن عمر، وابن مسعود، وعلي، وأبي سعيد الخدري ﷺ ومعناه صحيح، فقد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض ومتعين على كل امرئ في خاصة نفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية، إذا قام به قائم سقط فرضه على أهل ذلك الموضع» اهـ. =

أعرض عن هذا الفرض الواجب أن يكون كافرًا بكل مسألة جهلها، تقصيره لا يلزم منه مع كونه متمكنًا لو سأل لوصل، لكن لم يُذكر بالآيات، لم يعلم بهذه الآيات التي من بلغته كان كافرًا، الحجة التي يُكفر منكرها إذا لم تبلغ إنسانًا، هذه الحجة الرسالية التي يُكفر منكرها إذا لم تبلغ إنسانًا فظل على جهله، فهذا جهل ناشئ عن عدم بلاغ، وإن كان فيه قدر من الإعراض، لكن ليس بالإعراض الذي يخرجه من الملة.

نحب أن نبين هذا؛ لأن كثيرًا من الناس يجعل كل من أعرض عن طلب العلم كافرًا إذا جهل أمرًا من أمور الدين، أو بعضهم يجعله من أمور الاعتقاد، وإن كان الأمر متفاوتًا، فلابد أن نعلم أنواع الإعراض. قد ذكرنا إعراضًا ذمه النبي ﷺ، وسماه إعراضًا، ولم يحكم على صاحبه بالكفر، بل تركه، وظل يعيش في المجتمع المسلم مذمومًا على تقصيره في طلب العلم، وقد قال ﷻ عمن أعرض عن قول الحق في شهادته: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾، ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ﴾، فهذا نوع إعراض أن يسكت عن قول الحق وعن العدل الواجب الذي يعلمه، وترك الباطل ينتشر، وهو نوع من الإعراض الذي هو معصية، والواجب أن يقول الحق الذي يعلمه من دين الله ﷻ، وهذا يحصل من الشهود والحكام والقضاة ومن الدعاة، فإن البعض قد يعرض عن مسائل من الدين لا يتكلم

= انظر: مجمع الزوائد (١/ ١١٩، ١٢٠)، ومصباح الزجاجة (١/ ٣٠)، والعجالة في الأحاديث المسلسلة (ص١٠٧)، وكشف الخفاء (١/ ١٥٤).

فيها، وهي مما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ؛ لأنها لا ترضي السادة والكبراء، ونعوذ بالله؛ ولأنها أحيانًا لا ترضي الكفار، والكفار يراعي خاطرهم أكثر مما يراعي رضا الله ﷻ ورضا رسوله ﷺ، فهذا - كما ذكرنا - نوع من الإعراض، لكن متى يكون كفرًا؟ من ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها؛ إما إعراضًا كليًّا إجماليًّا، ترك الدين بالكلية وهو يرى نفسه على الحق، أو أنه أقيمت عليه الحجة بالآيات البينات والحجج الواضحات، فأعرض عن فهمها وأعرض عن سماعها؛ لأنه - كما ذكرنا - يظن قائلها ليس أهلاً لذلك، ولا اعتبار لمثل هذا الأمر.

كثير من الناس يخطئ في مسألة العذر بعدم البلاغ، ويظن أنه لابد وأن يكون المبلِّغ مقبولاً عند المبلَّغ، وأنه يكون عالمًا في ظنه، فإذا لم يظنه عالمًا لم تكن الحجة قد قامت، وهذا لا دليل عليه من كتاب ولا سنة، العبرة بأن يكون البيان قد حصل، ذُكِّر، أيًّا من ذكّره.

لو أن إنسانًا على سبيل المثال ممن يقول بمساواة الملل، وسمع من مذياع، الذي حكمه عند الفقهاء المتأخرين أنه في حكم الببغاء، ليس حكمه أنه مما مثلًا تصح إمامته، لو شغلت مذياعًا على قراءة لم يكن هذا المذياع كافيًا في أن تكون مأمومًا، لا يصح أن يكون إمامًا.

نقول: تُليت عليه فسمع قول الله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، فقد قامت عليه الحجة، وإن كنتُ أنا لا أعلم هل قامت، أم لم تقم؟ ويمكنني في بعض المسائل أن أتوقف عن الحكم بتكفيره؛ لأني لا أستطيع أن أجزم بأنه قد بلغته الحجة، قد أقيمت عليه، قد أزيلت الشبهة، أم لا؟

لكن هو عند الله ﷻ قد قامت عليه، قد بُيِّن له بلسان قومه، وهو معرض عنها، لا يريد أن يفهمها، قد قامت عليه الحجة.

لذلك نقول: ذُكِّر، أكونه يتهم المُبلِّغ بأنه مقصر أو متطرف أو إرهابي أو خوارج، لا عبرة بمثل هذا الظن، فكم كان المشركون يتهمون الرسول - والرسل جميعًا - بأنه كاهن، ساحر، مجنون، ما يُعد ذلك، كانوا يقولون: نقبل هذا الكلام لو صدر من الكبار، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، هذا إعراض، لا يكون هذا عذرًا عند الله سبحانه وتعالى.

الخلل في هذا الباب خطير، والخطر الكبير ليس في هذه الدنيا، الخطر الكبير أن أناسًا كثيرين قد وقعوا في النفاق الأكبر وأحيانًا الكفر الأكبر، وهم عندنا لا نحكم عليهم بذلك؛ لأننا لا ندري أقامت عليهم الحجة، أم لا؟ وتكون الحجة قد قامت، فما ينفعهم أننا نحكم بإسلامهم، وهم عند الله ﷻ في الدرك الأسفل من النار، وهم عند الله من الكافرين، قد حكم النبي ﷺ بإسلام أناس ورّثهُم وورّث منهم، وأثبت أنكحتهم، وصلى عليهم، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ﴾. هناك طوائف من المنافقين لم يعلمهم النبي ﷺ، ومع ذلك لم ينفعهم عند الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾.

إذًا، لا ينفعهم أننا نعاملهم كمسلمين، وهم عند الله ﷻ من الكافرين، فهذا هو الخطر الكبير.

لذلك الإعراض عن دين الله ﷻ، هو طبعًا بلا شك الإعراض الجزئي

الذي ينشأ عن تقصير في طلب العلم، خطر كبير جدًا، وإن لم يكن كفرًا، ويؤدي غالبًا إلى الكفر، والعياذ بالله؛ لأنه بالتدريج يعرض ويعرض. . حتى تقوم عليه الحجة في مرة من المرات ويفهمها، أو تكون بينت له بلسان قومه فيستمر على الإعراض، ويكون قد انتقل إلى الجانب الآخر وهو لا يدري ولا يشعر، ويرى نفسه محقًا، كما رأى الأحبار والرهبان الذين كذبوا محمدًا ﷺ أنهم محقون، وكما رأى أبو جهل الذي قال: «**اللّهُمّ أقْطعنا لِلرّحِمِ، وآتانا بِما لا يُعْرفُ، فأحِنْهُ الْغداة**»[1]، والعياذ بالله، يعني: اقتله هذا الصباح، واجعل حينه الآن، حتى تنتهي حياته، هذا شيء عجيب جدًا! ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، لماذا؟

لأن الرسول غير مقبول عندهم، يريدون شخصًا آخر، نعوذ بالله من ذلك فهذا الإعراض عن دين الله ﷻ خطر عظيم وخطر كبير، لكن لا تجعل أن من لم يحضر الدرس فهو كافر، من لم يقرأ الكتاب الذي ألفناه فهو كافر، لا، هذا خلل كبير جدًا وأمر فعلاً عظيم بين طرفين ووسط، الحق بين طرفين، غال ومفرط ومقصر، ولا يصح أن نسوي بين الناس ولا أن نُفرِّط، ولا يجوز أن نُفْرِط ونغالي في هذا الباب.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٩/ ٦٥)، والنسائي في الكبرى (١١١٣٧)، والحاكم (٢/ ٣٥٧)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٥٥)، وانظر: سيرة ابن هشام (٢/ ١٩٦)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٧٤)، والروض الأنف (٥/ ٩٠)، والسيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٤٣١).

الْمسْألةُ السّابِعةُ بعْد الْمِائةِ: الْكُفْرُ بالْيوْمِ الْآخِرِ.

الشــــرح:

قال الله ﷻ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾.

كان أهل الشرك من عباد الأوثان يثبتون المبدأ وينكرون المعاد، كما وصف الله ﷻ قولهم في غير موضع، يثبتون أن الله ﷻ ابتدأ خلق الخلق: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾، ولكنهم ينكرون إعادته بعد الموت، كما بين الله ﷻ كفرهم في الآية التي ذكرنا: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾. فمن أنكر بعث الأجساد فهو كافر، فمن أنكر إحياء الموتى فهو كافر بنص الآية، قال الله ﷻ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾، فذكر الله ﷻ أمر المعاد مستدلاً بالمبدأ: ﴿وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ﴾، فخلق الإنسان الأول وخلق كل المخلوقات دليل على الخلق الثاني: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾، وقال ﷻ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٣٣﴾﴾ وإنكار البعث والجزاء والحساب هو ادعاء أن الخلق خلقوا سدى ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾. ذكر الله ﷻ أن من زعم أنه لا يُحاسب ولا يؤاخذ ولا ثواب ولا عقاب، فهو الذي يقول: إنه خلق سدى. واستدل على بطلان ذلك بخلقه أول مرة: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

وافق أهل الشرك من عباد الأوثان في إنكار المعاد عامة الفلاسفة من اليونان، ومن جرى مجراهم ممن يثبتون بقاء الأرواح دون بعث الأجساد، وقد وافقهم في ذلك من انتسب إلى الإسلام من المتفلسفة: كابن سينا، وهذه المسألة، مسألة إنكار معاد الأبدان، أحد المسائل التي كفّر فيها الغزالي رَحِمَهُ اللهُ ابن سينا ومن وافقه من الفلاسفة في هذه المسألة، إنكار بعث الأجساد، إنكار معاد الأبدان، وعامة الملحدين في زماننا من أهل إنكار وجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إنكار المبدأ أو الذين يثبتون المبدأ، ولكن ينكرون المعاد، من أهل أوروبا وأمريكا والشرق والغرب ممن ينكرون البعث قد تأثروا في ذلك بالفلاسفة المتقدمين، وآثروا اتباع الشهوات دون أن يفكروا في أمر الثواب والعقاب، وحقيقة إنكار بعثة الرسل وإنكار تشريع الشرائع، التي تتسم بها الحضارة الغربية، والتي تبنى مناهج حياتها، التي تحاول فرضها على الناس من عدم الرجوع إلى ما جاءت به الرسل جملة، وإن انتسبوا إلى النصرانية، لكن لا يعبئون بشيء مما أتت به هذه الشريعة، ولا يلتفتون إلّا إلى شهواتهم، مبنى ذلك على إنكار البعث، والزنادقة والمنافقون ممن انتسبوا إلى الإسلام ممن يوافقهم على ذلك فهم على نفس الطريق؛ لأن إنكار تشريع الشرائع، لابد وأن يكون مبنيًّا على إنكار البعث؛ لأنه إذا لم يكن هناك ثواب ولا عقاب فلا معنى لوجود تشريع وأمر ونهي، وكل هؤلاء؛ من يثبت وجود الله عَزَّ وَجَلَّ، أي: يثبت المبدأ، ومن لا يثبته كالقائلين بأن الكون وجد مصادفة أو كان قديمًا وتطور، وليس أن هناك خالق ابتدأ خلقه، فكل هؤلاء مشتركون في الكفر باليوم الآخر، والعياذ بالله.

وكذلك أهل التناسخ، تناسخ الأرواح، من أهل الملل الشرقية الكافرة؛

كالهندوسية والبوذية وغيرها ، ممن يعتقد أن أمر الآخرة مبني على أحوال الروح في كل دورة من دوراتها ، فإن كان محسنًا جعلت روحه في حال أعلى ومن كان مسيئًا جعلت روحه في حال أخس، فيقولون بتناسخ الأرواح، فتارة يكون الإنسان إنسانًا ، وتارة يكون ملكًا ، وتارة يكون قطة، وتارة يكون جمادًا أو حيوانا أخس من ذلك أو حشرة ، على حسب أحواله وهكذا بلا بداية ولا نهاية ، فلا يزال الأمر عندهم عبارة عن تناسخ للأرواح ، أن الروح تجعل في بدن آخر ، إذا كانت مسيئة يكون البدن حاله أدنى من حال البدن الذي كانت عليه قبل الإساءة أو في الطور الأول، وإذا كانت محسنة تخلصت من هذا البدن إلى ما هو أعلى منه ، إلى أن تنتهي بالاتحاد مع الإله الأكبر عندهم، ونعوذ بالله من ضلالاتهم وكفرهم، وكل هؤلاء ينكرون البعث، ينكرون اليوم الآخر ، ولو نظرت إلى العالم حولك، لوجدت أن أكثر الأمم ما زالت على هذه العقائد الكفرية ، تنكر البعث أو تثبت خلق الإنسان سدى، أنه خلق بلا ثواب ولا عقاب وأنه خلق هملاً ، ممن يثبت منهم الخلق.

ومنهم من لا يثبت البداية أصلاً ، بل يجعلها على طريقة الفلاسفة أن المادة أزلية ليس لها بداية وأنها لا تخلق من عدم ولا تستحدث، وإنما تفيض من طاقة إلى مادة أو من مادة إلى غيرها ، حتى تتشكل في هذه الصور تنظر إلى العقائد الفلسفية التي تطرح على الناس ، تجد أن قضية إنكار اليوم الآخر مستكنة في قلوب هؤلاء وظاهرة كذلك ، وسلوكياتهم وأعمالهم مبنية على إنكار اليوم الآخر ، على الكفر باليوم الآخر ، وإنكار بعث الله للأجساد، وهم يرون انعدام الموتى فيظنون أن هذا أمر أبدي بلا نهاية ،

أعني: أن انعدام الأبدان وتحولها إلى التراب لن يعاد الأمر مرة ثانية، سوف تظل كذلك رميمًا إلى الأبد، نعوذ بالله من الضلال.

وكل هذا خرص وتخمين؛ إذ لم يطلع أحد على ما في المستقبل، وإنما كل وجُل احتجاجهم أن آباءهم لم يبعثوا، وهل أخبرتهم الرسل أن البعث إنما يكون في هذه الدنيا، حتى يُقال: لم نر أحدًا من آبائنا قد بعث؟!

ومن أدراكم وما أخبركم أن الأمر يستمر إلى ما لا نهاية؟! مع أن العقل السديد والعلم الحديث يثبت أنه لابد وأن تنتهي هذه الحياة؛ وذلك لأن الطاقة في الكون لابد لها - مهما كانت تطول - من نهاية، هذه الطاقة مثلاً التي يبنى عليها أو التي تحتاجها الكائنات مصدرها من الشمس ومن غيرها من الشموس والنجوم وسوف تظل هكذا حتى تضمحل ولابد، كما وقع لأمثلة كثيرة من نجوم قبل ذلك وشموس اضمحلت، فلابد من اضمحلال هذه الحياة وانتهائها، ليس أن تستمر إلى ما لا نهاية، فمن أخبركم بما تزعمون أن العقل يدل على إنكار البعث؟ ما دليلكم؟ لا دليل عندكم على ذلك، ولم تُطلعوا على شيء، وابتداء الخلق دليل على إعادته، وتنوع أنواع المخلوقات من حال إلى آخر دليل على قدرة الله ﷻ على تقليب هذه الكائنات من حال إلى حال، قال ﷻ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. وأكثر الله ﷻ في كتابه من الاستدلال على البعث والنشور بإحياء الأرض بعد موتها، وهو أمر

مشهود محسوس ويتكرر كثيرًا أمام أعين الناس، تكون الأرض الميتة: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾، فهي أرض كانت ميتة لا نبت فيها، ومادتها كانت مادة ميتة، تراب وماء، ليس فيها حياة، ثم تحولت بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من خلال هذه المادة الحية التي جعلت فيها، تحولت هذه المادة بعينها إلى ذلك النبات، وصارت في هذا النبات الحي مادة حية، بعد أن كانت ميتة حسًّا وعلمًا، يعني: أمرًا مشاهدًا واقعًا أمام الناس، فهي تحيا بالنبات، والحيوان يحيا به، وتتحول هذه المادة الميتة إلى مادة حية، فقدرة الله جَلَّ في إحياء الأرض بعد موتها أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه كذلك يحيي الأجساد يوم القيامة، كذلك النشور، فكما أحيا الله الأرض بعد موتها بالماء الذي ينزله من السماء، كذلك يأمر الله جَلَّ السماء يوم القيامة بين النفختين أن تمطر فتنبت أجساد الناس تحت التراب، ثم تعاد الأرواح إلى الأجساد؛ لتحيا من جديد حياة كاملة[1]، فالكفر باليوم الآخر

---

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نونيته:

وإذَا أرَادَ الـلـــهُ إخــرَاجَ الــوَرَى ... بَـعـدَ المَمَـاتِ إلـى المَعَـادِ الـثَّـانِـي
ألـقَـى عَـلَـى الأرضِ الـتـي هُـم تحتهـا ... والـلـهُ مُـقـتَـدِرٌ وذُو سُـلـطَـانِ
مَـطَـرًا غَـلـيـظًـا أبـيـضًـا مُـتَـتَـابِـعًـا ... عَـشـرًا وَعَـشـرًا بَـعـدَهَـا عَـشـرَانِ
فَـتَـظَـلُّ تَـنـبُـتُ مـنـهُ أجـسَـامُ الـوَرَى ... وَلُحُومُـهُـم كَـمَـنَـابِـتِ الـرَّيـحَـانِ
حَـتَّــى إذَا مــا الأمُّ حَــانَ وِلادُهَــا ... وتمـخَّـضَـت فَـنِـفَـاسُـهَـا مُـتَـدَانِ
أوحَـى لَـهَـا ربُّ الـسَّـمـا فـتَـشـقَّـقَـت ... فَـبَـدَا الجَنِـيـنُ كَـأكـمَـلِ الـشُّـبَّـانِ

انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (١/ ١٠٧).

قضية خطيرة من أعظم مظاهر الكفر في الأمم، حتى من أقر بوجود الله منهم، لكن من أنكر بعثه فأنكر بعثة الرسل أو أنكر تشريعات الرسل التي أتوا بها، كان ذلك من أفظع وأكثر أنواع الكفر انتشارًا، نعوذ بالله من ذلك.

وقد كان يوجد في بعض المنتسبين إلى الإسلام وهم أهل النفاق والزندقة من ينكر البعث، كما ذكرنا من وافق الفلاسفة في القول بمعاد الأرواح دون الأبدان، والحقيقة أن هذا القول هو إنكار للبعث وإنكار لليوم الآخر بالكلية، فكل هذا يدلنا على أهمية هذه المسألة وشدة خطرها، وقد أكثر النبي ﷺ في أحاديثه من اقتران الإيمان بالله وباليوم الآخر، فكان من أكثر ما يقول لأصحابه: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليفعل كذا، أو لا يفعل كذا، **«منْ كان يُؤْمِنُ بِالله واليومِ الآخر فلْيَقُلْ خيْرًا أو ليصْمُتْ، ومنْ كان يُؤْمِنُ بِالله والْيوْمِ الآخِرِ فلْيُكْرِمْ جارهُ، ومنْ كان يُؤْمِنُ بِالله والْيوْمِ الآخِرِ فلْيُكْرِمْ ضيْفهُ»**[1]، **«لا يحِلُّ لِامْرأةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ والْيوْمِ الْآخِرِ، تُسافِرُ مسِيرة يوْمٍ إِلّا مَعَ ذِي مَحْرمٍ»**[2]، **«...ومنْ كان يُؤْمِنُ بِاللهِ والْيوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يخْلُونّ بِامْرأةٍ ليْس معها ذُو محْرمٍ مِنْها»**[3]، وغير ذلك كثير جدًا في اقتران الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، وهو دليل على أن من لم يؤمن

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (١٣٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٠١)، والدارمي (٢٠٩٢)، والنسائي في المجتبى (١/ ١٩٨)، وفي الكبرى (٦٧٤١)، وأحمد (٢٣/ ١٩)، والحاكم (٤/ ٢٨٨، ١/ ١٦٢)، والبيهقي في الشعب (٥٥٩٦)، وابن خزيمة (٢٤٩)، والطبراني في الأوسط (٢٥٣١)، وفي الكبير (١١/ ١٩١)، وأبو يعلى (١٩٢٥).

باليوم الآخر لم يؤمن بالله، والإيمان باليوم الآخر إيمان بقدرة الله ﷻ على الإحياء وقدرته على البعث والنشور، على أن يبعث الناس وأن ينشرهم ﷻ بأمره، فمن كذب ذلك كان مكذبًا بصفات الله وأسمائه الحسنى الدالة على قدرته وكمال علمه ﷻ، فيكون كافرًا بالله ﷻ، فكل من كفر باليوم الآخر فهو مشرك بالله ﷻ كافر به؛ كما قال الله ﷻ في قصة صاحب الجنتين: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾. فتبين بذلك أن من قال إنه لا يظن أن الساعة قائمة، فقد كفر بالذي خلقه من تراب، كفر بالله ﷻ مع أنه يقول: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾. فهو يثبت وجود الله ﷻ، ولكنه ينكر أو يشك في البعث وفي أن يرد الناس إلى الله؛ ليحاسبهم على أعمالهم، فهذا مما انتشر في أهل الجاهلية، من أهل الكتاب الذين ألحدوا وتزندقوا وتركوا ما بعثت به الرسل.

الْمسْأَلَةُ الثّامِنَةُ بَعْدَ الْمِائةِ: التّكْذِيبُ بِلِقَاءِ اللّهِ.

الشــــرح:

وهذا التكذيب بلقاء الله ﷻ حاصل ممن انتسب إلى أهل الكتاب وكذّب ببعض أمور الآخرة، مثل: إنكار رؤية الله ﷻ، وإنكار تكليمه ﷻ لعباده يوم القيامة، فإن هذا نوع من الكفر باليوم الآخر، وإن كان هناك إجمال في الإقرار به، لكن في التفاصيل التي جاءت بها الرسل هناك من يكذب بعض ما جاءت به الرسل، فمن أنكر أن المؤمنين يرون ربهم ﷻ، فقد كذب بلقاء الله[1]، والصحيح أن كل خلق الله يلقون ربهم ﷻ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾، والصحيح من أقوال أهل العلم في مسألة رؤية الكفار والمنافقين لربهم يوم القيامة أنهم يرونه، لكن رؤية العبد الآبق لسيده الغاضب عليه، المنفي رؤية التكريم[2]، وهم يحصل لهم حجاب بعد ذلك فلا يرونه ﷻ مكرمًا لهم، ولا يتلذذون برؤيته ويتنعمون بلقائه، ولكنهم يرونه رؤية العبد

---

(١) أن أهل السنة والجماعة أثبتوا الرؤية بحق، والرؤية تكون بالعينين، وهذه الرؤية جاءت فيها آيات كثيرة، وأحاديث متواترة عنه ﷺ، وأجمع أهل التفسير من الصحابة والتابعين على القول بالرؤية، ولم ينكرها أحد من السلف الصالح رضي الله عنهم. انظر: تفسير الطبري (٢٩/ ١٩٢)، وتفسير البغوي (٨/ ٢٨٤)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٥١). وانظر: حاشية ابن القيم (١٣/ ٣٩)، وبيان تلبيس الجهمية (١/ ٣٥٠)، والروح لابن القيم (١/ ٢٦٣).

(٢) انظر قول أهل السنة في الرؤية في: مجموع الفتاوى (٦/ ٤٨٥)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص٢١٢)، والتوحيد لابن خزيمة (ص١٧٦-١٧٧).

الذي أبق من سيده، يتمنى أن تسوى به الأرض ولا يكتم الله حديثًا، قال ﷻ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾، وفي الصحيح أن العبد يلقى ربه فيقول الله ﷻ له: «**أيْ فُلْ ألَمْ أُكْرِمْك، وأُسوِّدْك، وأُزوِّجْك، وأُسخِّرْ لك الْخيْل والْإِبِل، وأذرْك ترْأسُ وترْبعُ؟ فيقُولُ: بلى، قال: فيقُولُ: أفظننْت أنّك مُلاقِيّ؟ فيقُولُ: لا، فيقُولُ: فإِنِّي أنْساك كما نسِيتنِي، ثُمّ يلْقى الثّانِي فيقُولُ: أيْ فُلْ ألمْ أُكْرِمْك، وأُسوِّدْك، وأُزوِّجْك، وأُسخِّرْ لك الْخيْل والْإِبِل، وأذرْك ترْأسُ، وترْبعُ، فيقُولُ: بلى، أيْ ربِّ فيقُولُ: أفظننْت أنّك مُلاقِيّ؟ فيقُولُ: لا، فيقُولُ: فإِنِّي أنْساك كما نسِيتنِي**» أي فل. أي: يا فلان: وترأس: تصبح رئيسًا، وتربع: يعني تأخذ المرباع، وهو ربع الغنيمة التي كانت تعطى لقائد القبيلة. وقد سئل النبي ﷺ قبل ذلك: «**قالُوا: يا رسُول اللهِ هلْ نرى ربّنا يوْم الْقِيامةِ؟ قال: هلْ تُضارُّون فِي رُؤْيةِ الشّمْسِ فِي الظّهِيرةِ، ليْستْ فِي سحابةٍ؟ قالُوا: لا، قال: فهلْ تُضارُّون فِي رُؤْيةِ الْقمرِ ليْلة الْبدْرِ، ليْس فِي سحابةٍ؟ قالُوا: لا، قال: فوالّذِي نفْسِي بِيدِهِ لا تُضارُّون فِي رُؤْيةِ ربِّكُمْ، إِلّا كما تُضارُّون فِي رُؤْيةِ أحدِهِما، قال: فيلْقى الْعبْد، فيقُولُ: أيْ فُلْ ألمْ أُكْرِمْك، وأُسوِّدْك، وأُزوِّجْك، وأُسخِّرْ لك الْخيْل والْإِبِل، وأذرْك ترْأسُ وترْبعُ؟**»[1]، وهذا الحديث يدل على أن الكفار الذين ينكرون لقاء الله ﷻ أنهم الذين ينكرون رؤيته ﷻ؛ ولذلك قلنا: إن الصحيح أن الكل يرى ربه ﷻ، ثم يحجب عن

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الكفار والمنافقين، وظاهر أحاديث الشفاعة الطويلة التي رواها الأئمة في كتبهم[(١)]، من ضمنها أن الرب ﷻ يأتي الأمة فيها منافقوها في صورة غير صورته التي يعرفونها[(٢)]، فهذا دليل على أن المنافقين يرون ربهم، ثم يحجب بعد ذلك كما يحجب عن الكافرين، قال ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾. وإن كانت المسألة فيها خلاف سائغ، أعني: أن رؤية الكفار والمنافقين لربهم يوم القيامة هل هي ثابتة، أم لا؟ فيها خلاف سائغ، ولكن الصحيح أن هذا من معنى لقاء الله، فيترتب أو نفهم من ذلك أن من أنكر رؤية الله ﷻ لأهل الإيمان يوم القيامة وفي العرصات وفي الجنة، فهو لم يؤمن بلقاء الله ﷻ، وكذب بلقاء الله ﷻ، فهذا حاصل لكثير من أهل البدع ممن أنكر ما ثبتت به الأدلة من رؤية الناس لربهم يوم القيامة أو لرؤية المؤمنين

---

(١) حديث الشفاعة ورد بعدة ألفاظ، منها: ما رواه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم [٣٢٢(١٩٣)]، و[٣٢٦(١٩٢)] بلفظ أتمّ، من حديث أنس بن مالك ﷺ. ورواه البخاري (٤٧١٢) ومسلم [٣٢٧(١٩٤)]، من حديث أبي هريرة ﷺ. ورواه البخاري (٧٤٣٩) ومسلم [٣٠٢(١٨٣)]، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩١٩)، ومسلم (١٨٣) «**قَالَ: فَيَأْتِيهِمُ الجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، فَلاَ يُكَلِّمُهُ إِلَّا الأَنْبِيَاءُ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: السَّاقُ، فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدَ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا**». وانظرمبحث الشفاعة في: شرح الطحاوية لابن أبي العز (٢٥٢)، وباب الشفاعة في كتاب التوحيد (ص٢٣٥) من تيسير العزيز الحميد، والواسطية مع شرحها لشيخنا العلامة الشيخ صالح الفوزان- حفظه الله تعالى - (ص٥٦)، وكتاب التمهيد لشرح كتاب التوحيد (ص٢١٠) لشيخنا العلامة صالح آل الشيخ - حفظه الله تعالى -.

لربهم يوم القيامة، من أنكر رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، فهو مبتدع ضال، بل حقيقة قوله الكفر؛ لأنه من التكذيب بلقاء الله ﷻ؛ وأما أقوال أهل العلم في المسألة - فكما ذكرنا - هناك ثلاثة أقوال[1]:

القول الأول: أنه يراه جميع أهل الموقف مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم، ثم يحجب عن الكفار والمنافقين.

القول الثاني: أنه يراه المؤمنون والمنافقون فقط، ولا يراه المشركون والكفار.

القول الثالث: أنه إنما يراه أهل الإيمان فقط، وكل هذا - كما ذكرنا - في أمر الإيمان بلقاء الله ﷻ.

(١) راجع (٢/ ٢١٩).

الْمسْألةُ التّاسِعةُ بَعْدَ الْمِائةِ: التّكْذِيبُ ببعْضِ مَا أخْبرتْ بِهِ الرُّسُلُ عَنِ الْيوْمِ الْآخِرِ، كَمَا فِي قوْلِهِ: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ [الكهف: ١٠٥]، **ومِنْها: التّكْذِيبُ بقوْلِهِ:** ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، **وقوْلِهِ:** ﴿لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، **وقوْلِهِ:** ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

الشـــرح:

هذا كما ذكرنا في المسألة السابقة: هناك من يكذب ببعض أمور اليوم الآخر، وهذا حاصل في الأمة، الأمة المنتسبة إلى رسول الله ﷺ، أهل الإسلام يوجد من يكذب بآيات الله، وقد ثبت عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في قول الله ﷻ: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥﴾، فعنْ مُصْعبِ بْنِ سعْدٍ، قال: «**سألْتُ أبِي:** ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣﴾ [الكهف: ١٠٣]: **هُمُ الحرُورِيّةُ؟ قال: «لا هُمُ اليهُودُ والنّصارى، أمّا اليهُودُ فكذّبُوا مُحمّدًا ﷺ، وأمّا النّصارى فكفرُوا بِالْجنّةِ وقالُوا: لا طعام فِيها ولا شراب، والحرُورِيّةُ الّذِين ينْقُضُون عهْد اللّهِ مِنْ بعْدِ مِيثاقِهِ، وكان سعْدٌ يُسمِّيهِمُ الفاسِقِين»**[1]، (الذين كفروا بآيات ربهم) اليهود الذين كذبوا القرآن وكذبوا الرسول ﷺ، والنصارى

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٢٨).

كفروا بلقاء الله حين قالوا عن الجنة: ليس فيها طعام ولا شراب. فهذا دليل على أن من التكذيب بلقاء الله التكذيب ببعض ما أخبرت به الرسل عن اليوم الآخر، أن الكفر باليوم الآخر يشمل التكذيب ببعض التفاصيل التي ثبتت عن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فمن قال: إن الجنة ليست فيها طعام ولا شراب، فقد كفر باليوم الآخر، كفر بلقاء الله ﷻ، ومن كفر برسول من الرسل وكذب القرآن، فقد كفر بآيات الله ﷻ.

قال: (**ومِنْها التّكْذِيبُ بِقولِهِ**: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾.

يقصد بذلك من يجعلون الملك للأولياء ممن يقول مثلًا كذبًا وافتراء على الله بالباطل والكذب، يقول: إن الله قد قال: الملك ملكي وصرفت فيه البدوي. نعوذ بالله، وهذا من الضلال والشرك والكفر، وهم يزعمون كذلك أن الشفعاء يشفعون لهم عند الله ﷻ، كما تشفع الوزراء عند الملوك، وهذه الشفاعة الشركية التي أبطلها القرآن، وأثبت أن يوم الدين لا مُلك فيه لأحد ولا مِلك فيه لأحد إلا لله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، ﴿ملك يوم الدين﴾، ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾، ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾، فهذه الآيات كلها تثبت أن الأمر لله، وهؤلاء الذين ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾، ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، فهؤلاء الذين أثبتوا هذه الشفاعة الشركية قد كذبوا بأن الله مالك يوم الدين وحده لا شريك له، فوقعوا في التكذيب بشيء مما أخبرت به الرسل، فكان هذا من أنواع الكفر باليوم الآخر.

وكذلِك قوْلِهِ: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ﴾.

لأنهم أثبتوا الشفاعة الشركية، وأثبتوا أن أوثانهم تشفع لهم لو وُجد بعث، فهذا دليل على ما كانوا يعتقدونه من أن لو وجد بعث فأوثانهم تشفع لهم وآلهتهم تشفع لهم، وأبطل الله ﷻ كل ذلك، فالأوثان ومن يعبد من دون الله، حتى الملائكة والأنبياء والصالحون، فإنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله، وهم أهل التوحيد والإخلاص، لا من يعبد غير الله ﷻ ويشرك به؛ كما قال النبي ﷺ لما سأله أبو هريرة رضي الله عنه: «**يا رسُول اللّهِ منْ أسْعدُ النّاسِ بِشفاعتِك يوْم القِيامةِ؟ قال رسُولُ اللّهِ ﷺ: لقدْ ظننْتُ يا أبا هُريْرة أنْ لا يسْألُنِي عنْ هذا الحدِيثِ أحدٌ أوّلُ مِنْك لِما رأيْتُ مِنْ حِرْصِك على الحدِيثِ أسْعدُ النّاسِ بِشفاعتِي يوْم القِيامةِ، منْ قال لا إله إلّا اللّهُ، خالِصًا مِنْ قلْبِهِ، أوْ نفْسِهِ**»(١)، فهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، فالشفاعة الشرعية فيمن ارتضى الله أن يشفع فيه بعد الاستئذان، ولا يكون ذلك في أهل الشرك، ولا أن أحدًا يملك الشفاعة على الله، بل هو ﷻ له الشفاعة جميعًا: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾، فهؤلاء الذين اتخذوا شافعين اتخذوهم آلهة يعتقدون أنها تشفع لهم عند الله إذا عبدوها، هؤلاء كذبوا ببعض التفاصيل التي أخبرت به الرسل عن اليوم الآخر، وهو كما كان منتشرًا في المشركين عباد الأوثان، فقد وقع من ذلك فيمن ينتسب إلى أمة الإسلام ممن يثبت شفاعة الأولياء كشفاعة آلهة المشركين، يعتقدون أنهم يملكون الشفاعة، وأن الأولياء يشفعون فيمن تولاهم، ولو كان

(١) أخرجه البخاري (٩٩).

مشركًا، والعياذ بالله، وغلاتهم قد يصرحون بذلك، وأنهم يستطيعون حماية أتباعهم من النار، والعياذ بالله من ذلك.

وقد قالوا أقوالا منكرة فظيعة في أن بعضهم ينصب خيمته على جهنم فلا يدخلها أحد من أتباعه، أو يمنع كل أتباعه وتلامذته من أن يدخلوا النار، ومنهم من يقول: بل ينصب خيمته فيمنع كل أحد من أن يدخلها وغير ذلك، فهو تكذيب ببعض ما جاء به الرسول ﷺ من أن يوم القيامة يوم لا بيع فيه ولا خلة، وهي المحبة الشديدة، لا يملك أحد لأحد شيئًا ولا شفاعة؛ لا شفاعة باطلة، شفاعة شركية، لا شفاعة بغير إذن من الله، لا شفاعة فيمن أشرك بالله ﷻ، لأن الشفاعة إنما تكون بعد الإذن لمن أذن الله أن يشفع فيمن أذن الله أن يُشفع فيه، فهذه كلها تنافي الشفاعة الشركية.

وكذلِك قوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾، يقصد بذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾، وإلا هنا بمعنى لكن، فالاستثناء منقطع، لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة، لا الملائكة تملك الشفاعة، ولا الأنبياء ولا الأولياء يملكون الشفاعة، لكن يشفع عند الله من شهد بالحق بلا إله إلا الله، وهم يعلمون ما تدل عليه هذه الكلمة، وهم يعلمون حقيقة الوحدانية، ويعلمون أن الله ﷻ هو ﷻ الذي يملك الشفاعة جميعًا، ويجعلها لمن شاء سبحانه، لا يشفع خير الخلق محمد ﷺ وهو يعلم أنه ذو الشفاعة، أنها مقامه المحمود الذي يبعثه الله، لا يبدأ بالشفاعة، كما في الحديث: «**فأنْطلِقُ فآتِي تحْت العرْشِ، فأقعُ ساجِدًا لِربِّي ﷻ، ثُمّ يفْتحُ اللّهُ عليّ مِنْ محامِدِهِ وحُسْنِ الثّناءِ عليْهِ شيْئًا، لمْ يفْتحْهُ على أحدٍ قبْلِي، ثُمّ يُقالُ: يا مُحمّدُ ارْفعْ**

رأْسك سلْ تُعْطهْ، واشْفعْ تُشفّعْ فأرْفعُ رأْسِي»[١]، فهذا الذي يحدث قبل أن يشفع النبي ﷺ، لا يشفع إلا في أهل التوحيد، لا يشفع إلا بعد الإذن، لا يشفع إلا من أذن الله أن يشفع، أول الشافعين محمد ﷺ، لا يتقدم أحد قبله من الأنبياء والرسل، كلٌّ يقول: نفسي نفسي. حتى إذا جاءوا إلى النبي ﷺ يقول: «**فأقُولُ: أنا لها، فأسْتأْذِنُ على ربِّي، فيُؤْذنُ لِي، ويُلْهِمُنِي محامِد أحْمدُهُ بِها لا تحْضُرُنِي الآن، فأحْمدُهُ بِتِلْك المحامِدِ، وأخِرُّ لهُ ساجِدًا، فيقُولُ: يا مُحمّدُ ارْفعْ رأْسك، وقُلْ يُسْمعْ لك، وسلْ تُعْط، واشْفعْ تُشفّعْ**»[٢]، ولا يبدأ بالشفاعة حتى يستأذن، فإذا أذن له شفع ﷺ في أمته في أهل التوحيد والإخلاص، فـ(إلا من شهد بالحق) ليس هذا معناه: أن من شهد بالحق يملك الشفاعة، بل لله الشفاعة جميعًا، الشفاعة التي تملك على الله شفاعة باطلة، الذين يظنون أن هناك من يملك الشفاعة على الله يمكن أن يشفع دون أذن من الله، هؤلاء يعتقدون شفاعة أبطلها القرآن ونفاها، وإنما من شهد بالحق وهم يعلمون، يشفعون بعد الإذن لا يملكون الشفاعة، لا يملك أحد الشفاعة من دون الله، فمن أثبت شفاعة شركية يملكها الولي أو النبي على الله ﷻ، يملكها عليه، يعني: يشفع لمن لم يرتضِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فقد كذب ببعض ما أخبر به الرسول ﷺ عن اليوم الآخر، فهذا يكون كفرًا، والعياذ بالله، وإن كان بعض ذلك يحتاج إلى البيان وإقامة الحجة قبل أن يُكفّر الشخص القائل بهذه العقائد الفاسدة، وهذا في الجملة

---

(١) كما في حديث الشفاعة الذي رواه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٨١٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كما ذكرنا، هناك من يكذب بتفاصيل، وهناك أهل الكتاب الذين كفروا بالجنة، النصارى الذين كفروا بالجنة فقالوا: ليس فيها طعام ولا شراب، وكذلك من يجري مجراهم من زنادقة المسلمين ومنافقيهم ممن يقول: نعم نحن لسنا نتمتع بنعيم حسي في الجنة، فكل هذا من الكفر، والعياذ بالله، وكذلك الذين ينكرون عذاب الله ﷻ الحسي بأهل النار هم كذبوا ببعض ما أخبر به الرسول ﷺ، فمن كذب بعض ما أخبرت به الرسل؛ كأمر رؤية الله، وكأمر الشفاعة، وكأمر أن أحدًا لايملك مع الله ﷻ يوم القيامة شيئًا، من كذب أن الله ﷻ هو مالك يوم الدين، لا يملك أحد معه من الأمر شيئًا، فهؤلاء كذبوا ببعض ما جاءت به الرسل عن اليوم الآخر، فكان هذا من الكفر بلقاء الله ﷻ، نعوذ بالله من ذلك.

الْمسْألةُ الْعاشِرةُ بَعْدَ الْمِائةِ: قَتْلُ الَّذِينَ يأْمُرون بِالْقِسْطِ مِنَ النّاسِ.

الشـــرح:

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وقع هذا الأمر من أهل الكتاب، ووقع من المشركين، وقع من أهل الكتاب كما قتلوا النبيين؛ كما ذكر الله ﷻ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾، وهم يقتلون أتباعهم الذين ورثوهم والذين بلغوا عنهم دعوة الحق بالأولى، وقد وقع من هؤلاء ممن ينتسب إلى أهل الكتاب من قتل أولياء الله الصالحين، كما قص الله ﷻ في قصة أصحاب الأخدود، والمشهور أن من فعل بهم ذلك كان ينتسب إلى أهل الكتاب، وقد قتل الموحدين منهم، وتاريخ أهل الكتاب أيضًا يشهد بذلك فقد قتلوا الموحدين من أتباع المسيح ﷺ، حتى لم يعد لهم وجود إلا غبر وبقايا قليلة في القفار والأديرة والصوامع والبيع، بعيدًا عن الناس، وتسلط على الناس من يشرك بالله ﷻ ويدعو إلى تألية المسيح وإلى التثليث، فقد وقع من أهل الكتاب قتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، ووقع من المشركين؛ كما قال ﷻ عن قوم فرعون: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾، وقال ﷻ: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ

مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾، وقال ﷻ في قصة مؤمن آل يس: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾، (من بعده) دل ذلك على أنهم قتلوه، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أنهم قاموا إليه بعد دعوته إياهم إلى الله ﷻ فداسوه بالأقدام، حتى قتلوه، والعياذ بالله[(١)]

فقتل الدعاة إلى الله ﷻ والآمرين بالقسط من الناس لم يزل في الأمم الكافرة من أهل الكتاب ومن المشركين، وقد ورثه الظلمة والمنافقون والزنادقة في هذه الأمة، وكلٌّ له نصيبه في ذلك، فالذين يحاربون الدعاة إلى الله ﷻ ويتهددونهم بالقتل، ويقتلون من قدروا عليه منهم أو من رأوا المصلحة في قتله، وهي المفسدة المحضة، هؤلاء ورثة الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، ومن كان يقتلهم لأجل دعوتهم إلى القسط وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، فهذا محارب لله ﷻ ولرسله، فهو كافر، والعياذ بالله، ومن يقتلهم لأجل ملك أو سلطان، كما وقع من الحجاج بن يوسف الثقفي المبير الذي قتل من خلق الله ﷻ من أهل العلم من قتل، وكان منهم سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكما وقع من يزيد عندما أرسل مسرف بن عقبة الذي كان اسمه مسلم فسماه العلماء مسرفًا لكثرة قتله في أهل المدينة، أرسله إلى المدينة لما خلعوا بيعة يزيد وأمرهم باستباحة المدينة ثلاثًا، فقتل من خلق الله ما لا يحصيه إلا الله، فأذابه الله ﷻ بعد أيام قليلة من استباحة المدينة،

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٢٠/ ٥٠٨)، والقرطبي (١٥/ ١٩).

وأهلك أيضًا من أمره بذلك، فماتوا جميعًا خلال أشهر من استباحة المدينة[١].

نقول: من فعل ذلك لأجل الدنيا والملك والجاه والسلطان، فهذا ظالم فاسق عليه من الله ﷻ من أنواع العقوبة بقدر ما ظلم، وإن كان لا يخرج من الملة؛ لأنه يتأول، ولا يقتل من أجل الدعوة إلى القسط، من قتل لأجل الدعوة إلى التوحيد، من قتل من يأمر بشرع الله ﷻ والعدل الذي أنزله والعقيدة الصحيحة التي جاءت بها الرسل، فهذا لا يكون مسلمًا؛ وأما من قتل لأجل دنيا يصيبها، وإن كان المقتول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويأمر بالقسط ويدعو إلى الله، فهو ظالم قد ارتكب جرمًا عظيمًا، وإن كان لا يخرج من الملة إذا فعل؛ لأنه انتهك هذه الحرمات غير معاند لشرع الله ﷻ ولا مستكبر عليه ولا آبٍ له ولا محارب له، إنما الذي يحارب شرع الله ﷻ والقسط الذين أنزله، فهذا هو الذي يكفر، والعياذ بالله.

نجد هذا الأمر قد وقع في المنتسبين لهذه الأمة ممن طلب الدنيا، وهو أكثر في العصور المتقدمة؛ وأما بعد أن ظهر النفاق، ونجم منذ أزمنة طويلة عندما نشأت الفرق الضالة المنحرفة كالباطنية، وأسسوا دولاً لهم، فصاروا يقتلون من يدعو إلى دعوة التوحيد وإلى الإيمان بالله وأسمائه وصفاته على ما جاء به الرسول ﷺ، وقد قتل الفاطميون - المعروفون بهذا الاسم أعني في التاريخ [٢]- من خلق الله من دعاة السنة ما لا يحصيهم إلا الله،

---

(١) انظر وقعة الحرة في: تاريخ الطبري (٥/ ٤٨٧)، والمعرفة والتاريخ (٣/ ٣٢٥ - ٣٢٨) والكامل (٣/ ٢١١)، والبداية والنهاية (٦/ ٢٦٢).

(٢) سبق التعريف بهم (٢/ ١٣).

ولا شك أن هذا من أعظم الجرائم، وهو داخل في قتل الذين يأمرون بالقسط من الناس من أجل أنهم يأمرون بالقسط؛ لأنهم يقاومون ويحاربون دعوتهم الباطلة، فقتلوهم من أجل نشر السنة؛ ليمنعوا نشر السنة؛ ليمنعوا نشر الدين الحق، وهذا حاصل في كل الدول المنحرفة التي أقيمت على خلاف شرع الله ﷻ، وقع فيها قتْل الذين يأمرون بالقسط من الناس.

ومن ضمن ذلك ما وقع أيام دولة التتر عندما سيطروا على بلاد المسلمين وكان فيهم من الرافضة المنتسبين إلى هذه المذاهب المنحرفة، من أمْرِهم باستباحة دماء المسلمين وقتْلهم؛ لأنهم يدعون إلى مخالفة مذهبهم، والعياذ بالله من ذلك، فهذا قتل الذين يأمرون بالقسط من الناس من قبل أهل البدع ومن قبل أهل النفاق والزندقة، وقد وقع في العصور المتأخرة من ذلك ما لا يعلمه إلا الله، طبعًا بلا شك وقع من الكفار في دعاة المسلمين في البلاد التي أرادوا احتلالها، فكانوا يبدءون بأهل العلم ويقتلونهم، ويحرمون الدعوة إلى الله ﷻ؛ ليتمكنوا من نشر كفرهم وفسادهم، ووقع كذلك من المنافقين أمثال كمال أتاتورك، فقد قتل من علماء المسلمين بدولة الخلافة - في أثناء القضاء على هذه الدولة - ما لا يعلمه إلا الله، وكان يقتل كل من يدعو إلى شرع الله، بل سن قانونًا بذلك وبالحبس والسجن، وأن كل من يدع إلى تطبيق الشرع يعاقب أزجر العقوبات، ووصل الحال إلى أن صار من يفتِ بتحريم القبعة ولزوم لبس العامة أو نحوها بدلاً منها يقتل ويُعدم، وقد وقع كذلك في البلاد التي احتلها الروس والشيوعيون من قتْل الذين يأمرون بالقسط من الناس ومن قتْل الدعاة لأجل دعوتهم إلى الله، فقتلوا أعدادًا هائلة من المسلمين، ولا يزال هذا الميراث

موجودًا في كل من يحارب الدعوة إلى الله ﷻ، ويحارب الذين يأمرون بالقسط والدعوة إلى تحقيق الشرع الذي أنزله الله ﷻ، فهذا ميراث هؤلاء وأولئك الكفار من أهل الكتاب والمشركين هم سلفهم في هذا الباب، والناس يتفاوتون في قدر هذا الأمر، الناس يتفاوتون في قدر ميراثهم لهذا الأمر المنكر، وهو قتل الذين يأمرون بالقسط من الناس.

ولقد واجه الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله من ذلك في دعوته، عندما كان يدعو إلى توحيد الله ﷻ، وكان هناك من يحث على قتله ويأمر بقتل أتباعه كذلك، وقد حدث من ذلك ما حدث عندما شوهت صورة دعوته، حتى أرسل محمد علي جيوشًا كثيفة لاجتثاث هذه الدعوة، وقتل من قتل حتى دمرت الدرعية عاصمة الدولة في ذلك الوقت؛ من أجل إيقاف دعوة التوحيد، وهي دعوة القسط الذي أنزله الله ﷻ، تمكنوا من ذلك مدة، ثم جعل الله ﷻ العاقبة لأهل التوحيد والإيمان مرات عديدة، ووقع سجال بين الفريقين، وكما ذكرنا لا يزال هذا الأمر قائمًا في كل مكان تظهر فيه دعوة الحق مستضعفة، وفي ظل دول كافرة أو منافقة يظهر فيها الكفر والنفاق تجد قتل الدعاة إلى الله، وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس - وكما ذكرنا - يكون على درجتين: درجة الكفر الأكبر إذا كان يقتله لأجل دعوة الحق؛ لأجل أنه يدعو إلى الدين، ودرجة أخرى: هي درجة الكبيرة والمعصية والفسق، وهي إذا كان يقتله لأجل أنه ينازعه ملكه، وإن كان يأمر بالقسط ولا يقتله لأجل القسط، وإنما لأنه يرى فيه تهديدًا لملكه، نعوذ بالله من ذلك.

فلذلك نقول: يجب على كل مسلم أن يأمر بما أمر الله ﷻ به من القسط والعدل، ويحرم أن يعادي من يأمر بالقسط والعدل، من عادى المسلم لإسلامه ومن عادى المطيع لطاعته، فإنه معاد لله ولرسوله ﷺ، يكون فيه الكفر والنفاق؛ وأما من عاداه لأجل دنيا دون أن يكون محاربًا لما يدعو إليه، وإنما حاربه وخالفه لأجل ما يظن أنه ينافسه فيه من الدنيا، فهذه معصية من المعاصي، ولا يعني ذلك أن الإنسان إذا ارتكب الكفر لأجل الدنيا لا يكون كافرًا، كما يظن البعض ممن يقول: إذا ارتكب الإنسان شركًا أو كفرًا من أجل الدنيا لا يكون كافرًا، وهذا خلل عظيم، ولقد قال النبي ﷺ: «**بادِرُوا بِالْأَعْمالِ فِتنًا كقِطعِ اللّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرّجُلُ مُؤْمِنًا ويُمْسِي كافِرًا، أوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا ويُصْبِحُ كافِرًا، يبِيعُ دِينهُ بِعرضٍ مِن الدُّنْيا**»(١)، فهذا دليل على أن من باع دينه بعرض من الدنيا كان كافرًا، لو وصل به الأمر إلى الكفر.

ولكن كما ذكرنا: من قتل إنسانًا لعداوة شخصية، وكان من صفته أنه يأمر بالقسط، فهذا داخل في هذا المنكر، وله نصيب من ذلك، لكن لا يكون كافرًا؛ أما من رأى أن في الأمر بالقسط وفي الدعوة إلى الله خطرًا على ملكه يقتضي محاربة ذلك، رأى أن في التزام الناس بالإسلام خطرًا على ملكه أو على سلطانه أو على ما حصله من ماله، وأنه لابد أن يصرف الناس عن الدين؛ حتى يبقى له ملكه وسلطانه، فهذا - والعياذ بالله - خارج عن ملة الإسلام، وتجد هذا كثيرًا فيمن يوالي أعداء الله ﷻ، الذين يقاتلون المسلمين من أجل السيطرة على بلادهم ومن أجل إبطال دينهم، ويرون في

(١) أخرجه مسلم (١١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بقاء الدين مانعًا من السيطرة على الناس وعلى ثروات البلاد وخطرًا على وجودهم في هذه البلاد، فيسخرون من يفتن الناس عن الدين ويصرفهم عن القسط والعدل الذي شرعه الله ﷻ، وينتدب لذلك أناسًا يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، فهؤلاء بلاشك قد باعوا دينهم بعرض من الدنيا فهناك فرق بين من يطلب الدنيا، ويرتكب الكبائر والمحرمات، وهو عالم بذلك، وبين من يبيع دينه لأجل الدنيا، يرتكب الكفر لأجل الدنيا، يحارب الدين ويحارب شرع الله ﷻ لأجل الدنيا، فهذا إذا باع دينه بعرض من الدنيا لم يكن مسلمًا، نعوذ بالله من ذلك.

وقد يكون البعض متأوِّلاً كما وقع - مثل ما ذكرنا - في شأن الحجاج، فإنه قد يكون متأولاً من أمور الدين في قتله من يقتلهم، فيمنع ذلك من تكفيره، كما على ذلك عامة أهل العلم أنهم لم يكفروا الحجاج، وإن كان قد وجد من علماء التابعين من كفره؛ لأجل عدوانه وانتهاكه لحرمات المسلمين العظيمة، ليس لأجل المعاصي، لكنهم رأوا فيما فعل حربًا على الدين، لكن عامة علماء المسلمين يرونه متأوِّلاً، وإن قتل العلماء والصالحين؛ لأنه إنما يقتلهم متأولاً أنهم خرجوا على إمامه الذي قد ثبتت بيعته، فهذا يمنع من تكفيره، نعوذ بالله من ذلك.

الخلاصة: أن هذه المسألة من مسائل الجاهلية يوجد فيها ما هو شرك أكبر، ويوجد فيها ما هو معصية وفسق وكبيرة من الكبائر في قتل الذين يأمرون بالقسط من الناس.

الْمسْألةُ الْحادِية عشْرة والثّانِية عشْرة بَعْدَ الْمِائةِ: الْإيمانُ بِالْجِبْتِ والطّاغُوتِ، تفْضِيلُ دِينِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.

الشــــرح:

قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

أما الإيمان بالجبت والطاغوت فقد ذكر الله ﷻ هذا عن اليهود: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾. قال غير واحد من السلف: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان(١)، وذلك إيمانهم عملهم بهذا الأمر، عملهم بالسحر، فاليهود والنصارى مشتغلون بالسحر اشتغالاً عظيمًا، وهذا نوع من الإيمان به، وإن كانوا يذمونه في كتبهم وفي كلامهم، لكنهم يشتغلون به اشتغالاً عظيمًا، وقد قال ﷻ عن كفر من كفر من أهل الكتاب: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ

(١) انظر: تفسير الطبري [(٥/ ١٣٤، ١٣٥، ٤١٧) برقم (٥٨٣٤، ٥٨٣٥)]، والمحرر الوجيز (١/ ٣٣٨)، وتفسير ابن أبي حاتم [(٢/ ٤٩٥، ٣/ ٩٧٥)].

مَا لَهُۥ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾، فذكر الله ﷻ تعليم أهل الكتاب للناس السحر، وما أنزل على الملكين ببابل من هذا النوع، وذكر في هذه الآية إيمانهم بالجبت، وهو السحر، والعياذ بالله، مع أنهم يعتقدون بطلانه، ولكن سمى ذلك إيمانًا، فالذي يعمل بشيء ويصر عليه يكون مؤمنا به، وإن تكلم لسانه بخلاف عمله وحاله، والعبرة بعمله وحاله، فإذا كان هذا المرتكب كفرًا كان كافرًا، والعياذ بالله، وإن كان ينكر ذلك الكفر بلسانه، فإن من فعل الكفر أو قاله حتى ولو قال: هو حرام أو هو كفر، لكن كان فاعلاً له وكان قائلاً به، كان كذلك مؤمنًا بهذا الكفر، مؤمنًا بالطاغوت، والطاغوت المذكور في الآيات: الشيطان.

وكذا رؤوس الطواغيت الأخرى، ونحن نعلم بالقطع أن أهل الكتاب يذمون الشيطان، فالطاغوت الشيطان، أهل الكتاب لا يقولون: نحن نعبده، وإنما يؤمنون به باتباع أمره، إنما يؤمنون به بالتزام الكفر الذي يأمر به من تكذيب محمد ﷺ. جاء نفر من المشركين إلى أحبار يهود ليسألوهم عن محمد ﷺ، ويسألوهم عن دينهم: أدينهم خير، أم دين محمد ﷺ؟ فقال لهم أحبار يهود: بل دينكم خير من دينه، حقدًا وحسدًا لرسول الله ﷺ وللمؤمنين معه على ما آتاهم الله من فضله، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾[1].

---

(١) روى ابن أبي حاتم عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: «جَاءَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ وَكَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ إِلَى =

فكان ما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من إيمانهم بالسحر وعملهم به، وكما ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (**كتاب التوحيد**) كيف كان إيمانهم بالجبت والطاغوت[(١)]: هل كان على اعتقاد قلب؟ لا، لم يكونوا يعتقدون أن الشيطان يستحق أن يعبد، ولا كانوا يعتقدون أن محمدًا ﷺ كاذب، بل كانوا يصدقونه في باطنهم، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وإن فريقًا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون، لم يكن ذلك عن اعتقاد قلب، وإنما كان عملاً بالسحر وتصديقًا به، واتباعًا للشيطان في الكفر، وتفضيلاً لدين المشركين عباد الأوثان على دين أهل الإسلام، على ما بعث به النبي ﷺ، فهذا من مسائل الكفر التي ارتكبوها، والعياذ بالله من ذلك.

وهذا نستفيد منه عدة أمور، منها ما ذكرنا: من أنه إذا كان الإنسان قد ارتكب شركًا أو كفرًا وهو يعتقد حرمة ذلك، لا يكون له عذر في عدم تكفيره أنه يعلم أنه محرم، كما يدندن بعض المعاصرين على أن استحلال الكفر شرط في تكفير فاعله أو قائله، حتى قالوا: إن هذا الذي يرتكب سب الله ﷻ وسب رسوله ﷺ لا يستحل ذلك، فلا نكفره حتى يستحله بقلبه.

= أَهْلِ مَكَّةَ، فَقَالُوا لَهُمْ: أَنْتُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ وَأَهْلُ الْعِلْمِ، فَأَخْبِرُونَا عَنَّا وَعَنْ مُحَمَّدٍ، فَقَالُوا: مَا أَنْتُمْ وَمَا مُحَمَّدٌ؟ فَقَالُوا: نَحْنُ نَصِلُ الأَرْحَامَ وَنَنْحَرُ الْكَوْمَاءَ، وَنَسْقِي الْمَاءَ عَلَى اللَّبَنِ، وَنَفُكُّ الْعُنَاةَ، وَنَسْقِي الْحَجِيجَ، وَمُحَمَّدٌ صُنْبُورٌ، قَطَعَ أَرْحَامَنَا وَاتَّبَعَهُ سُرَّاقُ الْحَجِيجِ بَنُوا غَفَّارٍ، فَنَحْنُ خَيْرٌ أَمْ هُوَ؟ قَالُوا: أَنْتُمْ خَيْرٌ وَأَهْدَى سَبِيلًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ۝٥١﴾ [النساء: ٥١] انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٩٧٤)، ونقله عنه ابن كثير (٢/ ٣٣٠).

(١) انظر كتاب التوحيد مع شرحه فتح المجيد (ص ٢٦٤).

وهذا من كلام شر أهل البدع، والعياذ بالله، فإن المكفرات لا يشترط فيها الاستحلال، وإنما الاستحلال يشترط في التكفير في ارتكاب الذنوب، أعني: أن من ارتكب ذنبًا دون الكفر ودون الشرك، وهو مستحل له بعد أن قامت عليه الحجة، كان كافرًا؛ وأما إذا ارتكبه من غير استحلال مع اعتراف بالذنب، كان عاصيًا فاسقًا، وهذا الذي اشترطه العلماء في أننا (**ولا نُكفِّرُ أحدًا مِنْ أهْلِ الْقِبْلةِ بِذنْبٍ ما لمْ يسْتحِلّهُ**)(١)، هو في الذنوب التي دون الشرك، ومن سوّى بين الشرك وما دونه في ذلك، فهو جاهل؛ لأن الله سبحانه وتعالى فرق بينهما في كتابه، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. فمن كفر بالذنوب مطلقًا كان من الخوارج، ومن كفر بها إذا استحلها الإنسان كان من أهل السنة، ومن لم يكفر بالمكفرات والشركيات إلا إذا استحلها الإنسان كان من المرجئة، فهذا القول الذي يجعل استحلال القلب شرطًا في المكفرات، شرطًا في التكفير بالمكفرات هو من جنس هذا الذي نزلت الآية ببطلانه ببيان ما عليه أهل الكتاب وذمهم عليه؛ لأن الآية ذمت من يؤمنون بالجبت والطاغوت، وهم يذمون الجبت والطاغوت، وهم يعتقدون بطلان الجبت وبطلان الطاغوت، ومع ذلك فعلوا فسمى الله فعلهم إيمانًا، وهم في أنفسهم يعتقدون أن دين الإسلام أفضل من دين المشركين، ويعتقدون أن محمدًا رسول الله، ومع ذلك لما نطقوا بهذا الكفر لعنهم الله عز وجل وحكم بكفرهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾؛ لأنهم قالوا للذين كفروا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾.

(١) انظر: الطحاوية مع شرحها لابن أبي العز (١/ ٣١٦).

لذلك نقول: المكفرات والشركيات إنما يُشترط في تعيين الكفر والشرك لمن قام بها فعلاً أو قولاً أو اعتقادًا استيفاء الشروط وانتفاء الموانع؛ من إقامة الحجة، وإزالة الشبهة، ونفي التأويل، ونفي الإكراه، ونحو ذلك من الشروط، الشروط التي ليس من ضمنها اعتقاد حل هذا الذي ارتكبه من الكفر، نقول: قال النبي ﷺ: «**إنّ اللّه وضع عنْ أُمّتِي الْخطأ والنّسْيان وما اسْتُكْرِهُوا عليْهِ**»[1]، وقال ﷺ: «**رُفِع الْقلمُ عنْ ثلاثةٍ: عنِ النّائِمِ حتّى يسْتيْقِظ، وعنِ الصّغِيرِ حتّى يكْبر، وعنِ الْمجْنُونِ حتّى يعْقِل، أوْ يُفِيق**»[2]، وقال ﷻ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾، فهذه الأعذار هي التي يعذر من ارتكب كفرًا أو شركًا وهي قائمة به، يعذر فلا يُكفر من كان مجنونًا، من كان مكرهًا، من كان لم تبلغه الحجة، من كان صبيًّا دون البلوغ، من كان مخطئًا غير قاصد أن يتكلم بهذا الكلام، وإنما أراد أن ينطق بلفظ فنطق غيره، أراد أن يقول: اللهم أنت ربي وأنا عبدك، فقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، من كان ناسيا لأمر من الشريعة فأنكره؛ هذا الذي يمتنع تكفيره من أجل هذه الأدلة؛ وأما أن يُقال في المكفرات والشركيات إنه لابد أن يكون معتقدًا حلها بقلبه،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٥)، وابن حبان في صحيحه (١٦/ ٢٠٢)، والطبراني في الكبير (١١٢٧٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢١٦)، والدارقطني في سننه (٤/ ١٧٠)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٥٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤١/ ٢٢٤)، والدارمي (٢٢٩٦)، والنسائي في المجتبى (٦/ ١٥٦)، وفي الكبرى (٥٦٢٥)، وابن ماجه (٢٠٤١)، وابن الجارود (١٤٨)، وابن المنذر في الأوسط (٢٣٢٧)، والطحاوي في شرح معاني الآثار(٢/ ٧٤)، وفي شرح مشكل الآثار (٣٩٨٧)، وأبو يعلى (٤٤٠٠)، وابن حبان (١٤٢)، والحاكم (٢/ ٥٩)، والبيهقي في السنن (٦/ ٨٤، ٢٠٦، ٨ / ٤١، ١٠/ ٤١٧)، وفي الشعب (٨٧).

فهذا لم يقله أحد من أهل العلم، ولم يأت به دليل من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، وإنما قال العلماء: «**ولا نُكفِّرُ أحدًا مِنْ أهْلِ الْقِبْلةِ بِذنْبٍ ما لمْ يسْتحِلّهُ**» في المعاصي والذنوب التي هي دون الشرك، فهذه لا يكفر مرتكبها إلا إذا استحلها؛ وأما أن يطبق هذا الشرط، شرط الاستحلال، على من ارتكب الشرك والكفر، وقد قامت عليه الحجة وثبتت عليه الأدلة، وكان مكلفًا عاقلاً بالغًا غير مُكره، وكان مستيقظًا، وكما ذكرنا ليس هناك مانع من موانع التكفير وقد استوفيت الشروط، فهذا ليس من كلام أهل السنة: أن يُمتنع من تكفيره حتى يقول: أنا أستحل ذلك.

من سجد لصنم بغير مانع من هذه الموانع التي ذكرنا، الشروط التي تُشترط هي عكس هذه الموانع المذكورة في الأحاديث، في حديث: «**رُفِع الْقلمُ عنْ ثلاثةٍ: عنِ النّائِمِ حتّى يسْتيْقِظ، وعنِ الصّغِيرِ حتّى يكْبر، وعنِ الْمجْنُونِ حتّى يعْقِل، أوْ يُفِيق**»، وقال ﷺ: «**إِنّ اللّه وضع عنْ أُمّتِي الْخطأ والنِّسْيان وما اسْتُكْرِهُوا عليْهِ**»، وقول الله ﷻ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾، وهو يشمل الجهل والتأويل، الجهل الناشئ عن عدم البلاغ، فهذه الأعذار الثمانية التي تمنع التكفير، أو الموانع من موانع التكفير ليس من ضمنها عند أحد من أهل العلم أن يكون غير مستحل، فمن سب الله أو سجد لصنم أو رمى بالمصحف على الأرض ويقول: أنا أعلم أن هذا حرام، أنا مخطئ، أنا مذنب في ذلك، لا يكون ذلك عذرًا، بل يكون كافرًا حتى يتوب إلى الله ﷻ.

لذلك نقول: هذا من فوائد هذه المسألة، وهي وصف الرب ﷻ لهؤلاء من أهل الكتاب بأنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت، وقد قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن

يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾، فنحن أمرنا أن نكفر بالطاغوت لا أن نؤمن به، فمن آمن بالطاغوت بأن اتبعه، بأن قال ما يقوله الطاغوت، ووافقه على ما يدعيه من صفات الإلهية أو حقوق الربوبية، ولو بلسانه ولو بعمله دون اعتقاد قلب، طالما أنه فعل كفرًا أو قال كفرًا، فهو كافر، وإن كان لا يقصد ذلك بقلبه، يعني: لا يظن أنه يخرج بذلك من الملة، أو أنه يقول: إنه يفعل ذلك، وهو غير مستحل. ليس الاستحلال شرطًا في المكفرات، الاستحلال شرط في التكفير بذنوب، وليس في التكفير بالمكفرات.

وكم من معتقد أنه على الباطل وهو يحارب دين الله ﷻ، وقد قال ﷻ عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾، فهم في أنفسهم كانوا يعتقدون أنفسهم على الباطل، ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾، استيقنوا بآيات الله ومع ذلك كانوا ناطقين بالكفر فاعلين له، ولذلك كانوا كفارًا، وهذا لا يختلف فيه أهل السنة والجماعة، وإنما الخلاف فيمن ينكر عمل القلب من المرجئة، ويشترط التكذيب بالقلب أو التكذيب باللسان، وهذا بدعة ضلالة منكرة.

قوله ﷻ: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾، قد ورث هذا القول من قول أهل الكتاب، من قول الطواغيت من اليهود الأحبار الذين يعلمون صدق النبي ﷺ وفضيلة دينه، ومع ذلك يفضلون عبادة الأوثان على عبادة الرحمن وعلى ما بعث به النبي ﷺ، قد ورثه الكفار والمنافقون في الأزمنة المتأخرة كذلك، فالذين يحاربون دعوة التوحيد، ويقولون عن عبادة غير الله ﷻ؛ من عبادة القبور،

أو عبادة الأموات، أو عبادة الكبراء والسادة، وموالاة الكفار ونحو ذلك: إن هذه الملة خير من ملة الموحدين، يفضلون مثلاً من يقول بوحدة الوجود ويمدحونه ويثنون عليه، ويجعلونه قطبًا أكبر وكبريتًا أحمر، وأنه فوق العلماء والدعاة، ويفضلون هذه الملة المنحرفة القائلين مثلاً بوحدة الوجود على من يدعو إلى توحيد الله ﷻ لعداوة بينهم وبين دعاة التوحيد، فهؤلاء قد ورثوا هذا الذي قاله أحبار يهود، لما قالوا للمشركين عباد الأوثان: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾، وكذلك تجد هذا في الكفار في زماننا الذين ينتسبون إلى أهل الكتاب، فتجدهم يفضلون دين عبدة الأوثان والأبقار، ويتحالفون معهم ضد أهل الإسلام، واليهود والنصارى يفعلون ذلك كثيرًا، ويبحثون عن كل أهل الملل المنحرفة، ويتحالفون معهم ويتوالون مع بعضهم على حرب المسلمين، ويذمون أهل الإسلام أعظم الذم، وتجد المنافقين كذلك، يقولون للذين كفروا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾. يمدحون دين اليهود والنصارى، بل ودين عباد الأوثان من البوذيين والهندوس، ويذمون أهل التوحيد وأهل الدعوة إلى الالتزام بالإسلام أعظم الذم، وتجدهم يحاربونهم معهم، يتحالفون مع الملحدين، مع الشيوعيين، مع عباد الأوثان، مع عباد الأبقار، الهندوس وغيرهم ضد أهل التوحيد، تجد هذا في أهل الكتاب، وتجده في المنافقين، تجد من يفضل دين الكفر على دين الإسلام، ووالله يوجد أيضًا في ذلك من ينتسب إلى الدين وإلى الدعوة، حتى وجد من بعضهم من يزعم أن اليهود والنصارى ليسوا بكفار، وأن تكفيرهم غير جائز، وأن مرتكب الكبيرة من المسلمين مخلد في النار، فيجمع بين الضلالات، والعياذ بالله، هكذا

يفضل دين الذين كفروا على دين المؤمنين، يفضل دين المشركين على دين المسلمين؛ لأن دين المسلمين من ارتكب فيه الكبائر، يعني: بزعمه من كان مسلمًا وارتكب الكبائر كان مخلدًا في النار؛ وأما اليهود والنصارى فليسوا بكفار أصلاً، فهذا دعوة إلى الكفر، والعياذ بالله، تفضيل دين المشركين على دين المسلمين، نعوذ بالله من ذلك، فهذا ميراث ورثه هؤلاء من رؤوسهم في الكفر من رؤوس الطواغيت الذين أرادوا لحقدهم وحسدهم لرسول الله ﷺ، حقدهم على الرسول وعلى المؤمنين وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، فإنهم ذموا دين الإسلام، كما تجدهم يذمون دين الإسلام اليوم ويقولون: هو الإرهاب، ويقولون: هو التطرف، وفي نفس الوقت يمتدحون اللادينيين، بل ويعطون الجوائز للملحدين الطاعنين في الدين، تجد هذا والله أمرًا عجيبًا، يكافئون من يحارب الإسلام ويطعن فيه ويذمه، ويحاربون أهل الإسلام بكل ما استطاعوا، وهذا تفضيل لدين المشركين على دين المسلمين، وهؤلاء هم الذين قد آمنوا بالطاغوت، وكل من وافق طاغوتًا من الطواغيت، ليس فقط الشيطان، الشيطان طاغوت هو رأس الطواغيت؛ لأنه يدعو إلى عبادة غير الله، لكن نقول: كل من وافق طاغوتًا من الطواغيت؛ من ساحر، أو كاهن، أو حاكم بغير ما أنزل الله، أو مبدل لشرع الله، أو معبود من دون الله وهو راض بتلك العبادة، فهو يوافقه على ما يدعيه فله مشابهة، وله نصيب من هذا الميراث، وهو مؤمن بالطاغوت، وإن اعتقد في قلبه أن هذا الطاغوت باطل وكذب وزور، أو أنه لا يستحق شيئًا من ذلك، فليس ارتكاب الكفر نطقًا أو اعتقادًا أو فعلاً، ليس يكفيه أن يقول أو أن يعرف أنه باطل أو أنه مخالف لما جاءت به

الرسل، لا يكون ذلك عذرًا عند الله ﷻ، نعوذ بالله من الإيمان بالجبت والطاغوت، ونعوذ بالله من موالاة الكافرين، ونسأل الله ﷻ أن يثبتنا على دينه إلى الممات.

الْمسْألةُ الثّالِثة عشْرة والرّابِعة عشْرة بَعْدَ الْمِائةِ: لبْسُ الْحقِّ بِالباطِلِ، كِتْمانُ الْحقِّ مَعَ الْعِلْمِ بِهِ.

الشــــرح:

قال الله ﷻ عن أهل الكتاب: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾، لبس الحق بالباطل، مزج الحق بالباطل خطة شيطانية إبليسية قديمة قِدم الشرك في البشرية، ما مر الشرك ولا الباطل على الناس إلا بمزجه بشيء من الحق ولبسه بشيء من الحق؛ لأن الله فطر العباد فطر قلوبهم على الميل للحق وكراهية الباطل، فالحق طيب مقبول والباطل خبيث مردود لا تقبله النفوس ولا تميل إليه، بل تبغضه وتكرهه، ولا يستطيع أن يمرره الشيطان إلى قلوب الناس إلا من خلال مزجه بشيء من الحق يقبلون من أجله الباطل، ويمر الباطل عليهم كما يوضع الدواء المر في وسط كبسولة أو قرص يغلف بشيء من السكر؛ حتى تستطيع النفوس أن تبتلعه وتقبله، ولو نظرنا إلى ما حدث للأبوين آدم وحواء - عليهما السلام -، لعلمنا أن لبس الحق بالباطل هو سبب بلاء البشرية، قال ﷻ عن إبليس: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖ﴾، كان الأمر بتناول الشجرة المحرمة لا يُقبل ولا يصلح، وقد علم آدم أن ربه نهاه عن هذه الشجرة وإبليس يعلم ذلك، فقال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾، ترغيب في نفع غير حقيقي وغير متصور في مخالفة الأمر، ولكن الذي حدث أن ذلك غير مقبول، فلجأ إبليس إلى

القسم الذي ظاهره تعظيم اسم الله ﷻ؛ ليستعين بهذا على مخالفة أمر الله ﷻ، يظهر التعظيم لأمر الله، وفي بعض الآثار أن آدم عليه السلام قال: «**ما حسبْتُ أنّ أحدًا يحْلِفُ بِك كاذِبًا**»[1]، كما قالت الجِنّة: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾، وقد كذب الإنس وكذب الجن - الكفار منهم - على الله ﷻ، فلما قاسمهما إني لكما لمن الناصحين، غرهما؛ ولذلك لا يصح أن يقال في هذا المقام: من غرنا بالله اغتررنا به. ليس هذا هو مقام هذه الكلمة؛ لأن من علمت أنه لبس الحق بالباطل يريد أن يغرك، فلا تقبل غروره، وإنما قالها ابن عمر رضي الله عنهما كما روي أنه كان يعتق من يواظب على الصلاة من عبيده[2]، من يظهر المحافظة على الفرائض والنوافل ونحو ذلك فكان بعض هؤلاء العبيد يظهرون العبادة ويظهرون الإكثار من الصلوات، فيقولون لابن عمر: هؤلاء ليسوا كذلك. فيقول: من غرنا بالله اغتررنا به. يعني: أمرنا أن نقبل الظاهر، وليس علينا النقب عن البواطن؛ وأما من علمت أنه لبس الحق بالباطل، فهذا هو الخطر أن تقبل حاله مجملاً على ما هو فيه على ما تضمنه من الباطل، ولقد ذكر الله ﷻ أيضًا في قصة قوم نوح عليه السلام ما لبس الشيطان به عليهم، قال ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ١١١)، وزاد المسير (٢/ ١٠٨)، وابن كثير (٣/ ٣٩٨).

(٢) انظر: أسد الغابة (٣/ ٢٣٩)، وتاريخ دمشق (٣١/ ١٣٣)، والطبقات لابن سعد (٤/ ١٢٦) قال: (أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ خُنَيْسٍ عَنْ عبد العزيز بن أبي رواد قال: أخبرني نَافِعٌ أَنَّ عبد اللَّهِ بْنَ عُمَرَ كَانَ إِذَا رَأَى مِنْ رَقِيقِهِ امْرَأً يُعْجِبُهُ أَعْتَقَهُ فَكَانَ رَقِيقُهُ قَدْ عَرَفُوا ذَلِكَ مِنْهُ. قَالَ نَافِعٌ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ غِلْمَانِهِ رُبَّمَا شَمَّرَ وَلَزِمَ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَآهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ الْحَسَنَةِ أَعْتَقَهُ. فَيَقُولُ لَهُ أَصْحَابُهُ: وَاللَّهِ يَا أَبَا عبد الرَّحْمَنِ مَا هُمْ إِلا يَخْدَعُونَكَ. قَالَ فَيَقُولُ عبد اللَّهِ: فَيَقُولُ عبد اللَّهِ: مَنْ خَدَعَنَا بِاللَّهِ انْخَدَعْنَا لَهُ).

وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ كان هؤلاء من الصالحين في قوم نوح عليه السلام، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**أسْماءُ رِجالٍ صالِحِين مِنْ قوْمِ نُوحٍ، فلمّا هلكُوا أوْحى الشّيْطانُ إِلى قوْمِهِمْ أنِ انْصِبُوا إِلى مجالِسِهِمُ الّتِي كانُوا يجْلِسُون أنْصابًا وسمُّوها بِأسْمائِهِمْ، ففعلُوا، فلمْ تُعْبدْ، حتّى إِذا هلك أُولئِك وتنسّخ العِلْمُ عُبِدتْ**»[1]، فكان أول شرك وقع على ظهر الأرض بسبب مزج الحق بالباطل، فالحق هو حب الصالحين، فالناس تحب الصالحين، أحبوا ودًّا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا، علماء أجلاء، لبس الشيطان هذه المحبة بالغلو المحرم، حتى صنعوا التماثيل التذكارية، ولم يبدأ معهم بعبادة التماثيل أو الأصنام، وانتظر حتى هلك ومات تلامذة العلماء، فأوحى إلى تلامذة التلامذة ومن أتوا بعد ذلك، لما تفرغت عقولهم من العلم، نسي العلم ونسخ وأزيل، لما فرغت قلوبهم من العلم وحلت محلها الخرافات والتقليد الأعمى والحب الجارف الغالي في الصالحين؛ قال لهم: إنهم كانوا يستسقون بهم فيسقون إنهم يصرفون لهم العبادة فينتفعون، فعبدت، ثم صارت تسمى آلهة صراحة.

وتأمل ما عند أهل الكتاب: ما الذي مرر عليهم الباطل؟

الذي مرر عليهم الباطل مزجه بالحق، الذي مزج حب الأنبياء واتباع المرسلين، هذا أمر حق مزجه بمخالفة ما جاء به، فالنصارى يحبون المسيح - فيما يظنون - حبًّا جمًّا ويعظمونه، أدخل الشيطان مع هذا الحب

---

(١) سبق تخريجه (١/ ٤٠).

الغلو، كما قال النبي ﷺ: «**إِيّاكُمْ والْغُلُوّ فِي الدِّينِ، فإنّما أهْلك منْ كان قبْلكُمُ الْغُلُوُّ**»(١)، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾، دل ذلك على أن الغلو واقع فيهم، وقال ﷺ: «**لَا تُطْرُونِي، كما أطْرتْ النّصارى ابْن مرْيَم، فإنّما أَنَا عبْدُهُ، فقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ**»(٢)، ومن هنا لابد أن نحذر من هذه المسألة حذرًا شديدًا، سبب ضلال الأمم وانحراف الأمم هو مزج الحق بالباطل، لبس الحق بالباطل، وذلك أن الشيطان يمرر الباطل إلى القلوب من خلال شيء من الحق يكون معه؛ ولذلك ما أخطر أن يقول البعض: ننظر إلى الحق الذي عند الناس، ونسكت عن باطلهم، ونتكلم في القدر المشترك، هذا مزج الحق بالباطل حقيقة الذين يقولون: حينما نتكلم عن حوار الأديان نتكلم عن القدر المشترك، الواجب أن تتكلم عن القدر المفارق، وليس القدر المشترك، القدر المشترك هذا هو الذي يمزج بسببه الحق بالباطل، فعندما يقال مثلاً: إن الملل تحرم الزنا، أو أن اليهودي والنصراني يقولون بوجود الله، فهل هذا مبرر لكي يكونوا هم على حق جملة؟ وهم يؤمنون بالأنبياء والكتب جملة، لكنهم غلوا في الأنبياء، حتى رفعوهم إلى منزلة الألوهية، وادعوا فيهم الربوبية، وادعوا لله ﷻ الصاحبة والولد، فكان هذا الباطل الذي مزج بحق محبة الأنبياء واتباعهم سببًا لكفر من كفر، والعياذ بالله من ذلك.

ولذلك نقول: لابد أن يفرق وأن يميز بين الحق والباطل، وأن يكفر بالطاغوت ويكفر بما يعبد من دون الله، ولو كان عند قائله شيء من الحق،

(١) سبق تخريجه (١/ ١٧٣).

(٢) سبق تخريجه (١/ ١٥٥).

لا نقول: ننظر إلى الحق الذي عندهم ونسكت على باطلهم، بل ربما وصل الحال بالبعض إلى أن يلبسوا على الناس تلبيسًا عظيمًا، حتى قال بعضهم مُعرِّضًا أو متأولاً، والعياذ بالله من ذلك، ينطق الكفر البواح حين يقول مثلاً في مجال الاعتذار للنصارى عن من دافع عن الدين ووصف أحوالهم بالكفر، فيقول: إننا نحترم العقيدة المسيحية ونؤمن بها إيمانًا شديدًا. هذا والعياذ بالله من الكفر البواح، لأن حتى ولو قال: إننا نعتقد أن العقيدة المسيحية هي عقيدة المسيح عليه السلام أنه لا إله إلا الله وأن عيسى رسول الله. فمن يقول ذلك؟ أنت تخاطب من يقول: إن الله ثالث ثلاثة، ومن يقول: إن الله هو المسيح ابن مريم. فأنت تلبس الحق بالباطل عندما تقول: إن الحق الذي جاء به المسيح نحن نقبله، ولكن أنت تخاطب من يكفر بما جاء به المسيح، ويكذب ما جاء به المسيح من أنه عبد الله ورسوله، فكيف تقول إنك تحترم هذه العقيدة؟! بل تؤمن بها، إذا آمنت بها كفرت بالقرآن العظيم، من آمن بهذه العقيدة المشار إليها بالألف واللام التي هي للعهد عند الناس، ما هي العقيدة المسيحية في ظنهم؟ هل عقيدة المسيح التي جاء بها القرآن، أم التي يقررون فيها الأقانيم الثلاثة وبنوة المسيح للرب وانبثاق الابن من أبيه، مولودًا من أبيه قبل كل الدهور، إلهًا من إله؟ ونعوذ بالله من ذلك.

أيقول ذلك مسلم يؤمن بالله والقرآن والنبي ﷺ؟! لبس الحق بالباطل أمر خطير، ويؤدي إلى انحراف الأمم الذين ذمهم الله ﷻ بقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾. يلبسون الحق بالباطل؛ لأن الكتاب عندهم مليء بالتوحيد، لبسوا هذا الحق بأشياء من الكذب والباطل والتحريف، وحين عجزوا أدخلوا في دينهم أمورًا ليست في الكتاب

الذي بين أيديهم، جعلوها ملزمة للناس، لو تأملت أقوال المسيح في الإنجيل وما قبله من كلام الأنبياء في التوراة التي بين أيديهم إلى يومنا هذا، التوراة والإنجيل إلى يومنا هذا مليئة بأنواع التوحيد، التي لا يشك عاقل في أن دعوة الرسل قائمة أساسًا على التوحيد، يكفي أن الوصايا العشر التي أوصى بها موسى عليه السلام من الرب ﷻ، والتي هي ما زالت محفوظة عندهم يقررونها، الوصية الأولى التي هي أول الكل: الرب إلهنا رب واحد، رب إبراهيم وإسحاق ويعقوب. ولما سأل المسيح عن أي الوصايا هي أول الكل؟ هل نقض هذا الناموس؟ هل نقض هذا الوحي وقال لهم: أن تعترفوا بالخطيئة وأنه لابد لكم من فداء إلهي، ذبيحة إلهية، تصلب من أجلكم، ومن لم يقبل عقيدة الخلاص من خلال المسيح المصلوب يكون كافرًا مخلدًا في النار؟! وهل قال: إن الله ثلاثة أقانيم فلابد أن تعتقدوا ذلك؟! لا والله، عندهم في الإنجيل أنهم قالوا: (**أيّةُ وصِيّةٍ هِي أوّلُ الْكُلِّ؟فأجابهُ يسُوعُ: إِنّ أوّل كُلِّ الْوصايا هِي: اسْمعْ يا إِسْرائِيلُ. الرّبُّ إِلهُنا ربٌّ واحِدٌ. وتُحِبُّ الرّبّ إِلهك مِنْ كُلِّ قلْبِك، ومِنْ كُلِّ نفْسِك، ومِنْ كُلِّ فِكْرِك، ومِنْ كُلِّ قُدْرتِك. هذِهِ هِي الْوصِيّةُ الأُولى**)، يعني: لم يغير شيئًا، كما هو في التوراة، (**الرّبُّ إِلهُنا ربٌّ واحِدٌ. وتُحِبُّ الرّبّ إِلهك مِنْ كُلِّ قلْبِك، ومِنْ كُلِّ نفْسِك، ومِنْ كُلِّ فِكْرِك**)[١]، وهذا قرره المسيح مرات عديدة، ولا يمكن أن ينكره لا اليهود ولا النصارى أن العقيدة الأولى والمسألة الكبرى، التي جاء بها الأنبياء جميعًا وفي كتبهم، هي مسألة التوحيد ومعرفة الله ﷻ بالوحدانية ربًّا وإلهًا، ينقلون عن المسيح نصًّا واضحًا أن المسيح يقول لله ﷻ: (**وهذِهِ هِي**

(١) انظر: انجيل لوقا (١٠).

الْحياةُ الأبدِيّةُ: أنْ يعْرِفُوك أنْت الإله الْحقِيقِيّ وحْدك، ويسُوع الْمسِيح الّذِي أرْسلْته)(١)، وهذا في إنجيل يوحنا بالنص، لا إله إلا الله عيسى رسول الله، كلام واضح لا يحتمل غير ذلك، وتفرقة بين الله وبين المسيح، هو الذي يقرر ذلك ويقول له الشيطان: (**فأجابهُ يسُوعُ وقال: اذْهبْ يا شيْطانُ! إِنّهُ مكْتُوبٌ: لِلرّبِّ إِلهِك تسْجُدُ وإِيّاهُ وحْدهُ تعْبُدُ)**(٢) أي كلام أوضح من ذلك؟ من الذي ينادي بهذه العقيدة؟

هذا كله لُبِس بـ: «في البدء كان الكلمة، وكان الكلمة عند الله، وكان الكلمة الله»! انظر للكلام العجيب المركب من جمل فعلاً ركيكة لا تحتمل إلا أن تكون مفبركة، وفي الحقيقة لا تدل على العقيدة الفاسدة في التثليث دلالة صريحة رغم أنها مخترعة (في البدء كان الكلمة) كلام الله ﷻ صفة من صفاته، ونحن نقر بذلك، ولم يزل الله متكلمًا إذا شاء، (وكان الكلمة عند الله، وكان الكلمة الله)، كلام متناقض في الحقيقة، ومع ذلك فنحن نقول: عيسى كلمة الله، ولكن ليس أن عيسى هو ذات الكلمة، كان عيسى بكلمة من الله، انظر هذا أوضح نص عندهم في التثليث، وهو ليس بواضح، وقال: عمِّدوا الناس باسم الأب والابن والروح القدس. لم يقل إله واحد في الحقيقة في نص الإنجيل، وإنما زيدت هذه في العقائد الفاسدة، وإلا لو كانت هذه النصوص موجودة، فلماذا احتاجوا إلى أن يعقدوا مجمعًا؛ حتى يقرورا فيه عقيدة الإيمان، كما يسمونها: (عقيدة الإيمان المسيحية)، أو

---

(١) انظر: انجيل يوحنا الاصحاح (١٧).

(٢) انظر: انجيل لوقا (٤).

يسمونه: (قانون الإيمان المسيحي)، الذي نصوا عليها في مجمع نيقية، التي نصوا فيها على التثليث وعلى ألوهية المسيح، وعلى ألوهية الروح القدس، وعلى قضية الانبثاق والولادة، وعلى قضية الصلب كذلك، لو كانت نصوصًا موجودة لما لجئوا إلى ذلك، ولما اختلف فيها من اختلف، حتى كانت الأكثرية على توحيد الله ﷻ، لكن كما ذكرنا لبسوا الحق بالباطل، أصبح دين النصرانية كما يقول (بابا الفاتيكان) من قريب: (**إن الديانة المسيحية المبنية على تعاليم المسيح والفلسفة اليونانية**). كلام واضح في أن هناك خلط بين تعاليم المسيح وبين الفلسفة اليونانية، ونصوص قانون الإيمان المسيحي تؤكد ذلك تأكيدًا صريحًا، يقول هذا القانون: (نؤمن بإله واحد خالق الكل، ضابط ما يرى وما لا يرى، ونؤمن بأقنوم الابن المولود من أبيه قبل كل الدهور إله من إله، مساو لأبيه في الجوهر..)، من جوهر أبيه كلمة (جوهر) هذه ليست من كلام المسيح في الإنجيل ولا في كلام الرسل قبله في التوراة ولا في كتب الرسل قبل ذلك أو بعد ذلك نهائيًّا، كلمة (جوهر) هذه إنما كانت في كلام الفلاسفة اليونانيين، وكذا قضية الانبثاق، يقول: المولود من أبيه قبل كل الدهور، كلمة (المولود من أبيه قبل كل الدهور) تناقض واضح، هو من عقيدة الانبثاق والوجود المطلق الذي فاض منه أنواع من الوجودات عند الفلسفة اليونانية القديمة، ويؤكدون هذا؛ ولذلك الفلاسفة اليونان لا يعتقدون بأن العالم محدث؛ لأنهم يقولون بالانبثاق، ففكرة الانبثاق هذه فكرة موجودة عند الفلسفة اليونانية: أنه يوجد وجود مطلق فاض منه العقل الكلي، ثم فاض منه عشرة عقول، ثم فاض من ذلك عقول البشر الجزئية، ثم في سلسلة من الفيوض بعد العقل الكلي،

النفس الكلي، ثلاثة أيضًا: وجود مطلق وعقل ونفس، هي نفس التثليث موجود عند اليونان، وتجد يقولون: العقل هذا هو الكلمة، هو الكلام المعبر عن العقل، والنفس هي الروح القدس؛ لذلك تجد هذا التثليث هو أصلاً من عقيدة اليونان، عند اليونان واجب الوجود فاض منه العقل الكلي وفاض منه النفس الكلي، صوفية المسلمين المنتسبين للإسلام الذين هم ملحدون في الحقيقة، يقولون: أصلاً العقل الكلي هو جبريل الذي يحمل الكلمة الذي يأتي بالوحي، والنفس الكلي هو الروح القدس. يحاولون أن يلبسوا العقيدة اليونانية أسماء إسلامية لكي يروجوها على الناس، والعياذ بالله؛ ولذلك تجد أن الصوفية المتفلسفة يتعلقون كثيرًا بمثل هذه المصطلحات؛ ولذلك يقولون بأن روح الولي يمكن بالشفافية أن تصل إلى ما يصل إليه وحي النبي؛ لأن هذا فيض من جهة أخرى، كما أن العقل الفعال أو العقل الكلي الذي فاض من واجب الوجود هو جبريل، الذي يتكلم على لسان الأنبياء بالكلام الذي يقوله الله، هي الكلمة أيضًا، فالنفس الكلي الذي فاض من واجب الوجود أيضًا فاض منه الفيض الثاني الذي هو انبثق منه، كنص النصارى بالضبط، ويقولون: الروح القدس المنبثق من الآب. يُحددون، فهذا دليل على أنهم لا يمكن أن يكونوا ثلاثة متساويين، ولا يمكن أن يكونوا ثلاث شخصيات للإله، فهذا تحديد، هذا مولود من الأب، وهذا مولود من الأب. نفس عقيدة الفلاسفة تمامًا، وكما ذكرت نفس عقيدة منحرفة الفلاسفة الزنادقة من المنتسبين للإسلام، يقولون: الروح القدس هذا لما الإنسان روحه تتطهر، يحصل نوع من الشفافية؛ حتى يصبح ما في اللوح المحفوظ منقوشًا في قلب الولي فيخبر بكل شيء؛ ولذلك

الغلو في الأولياء موجود عند هؤلاء، كما ذكرتُ تشابه كبير جدًا، وتشابه موجود عند الهنود ونحو ذلك، قضية الانبثاق هذه مما لمسوه؛ ولذلك صدق من قال: إن هذه ليست تعاليم المسيح قط.

تعاليم المسيح عندهم في أنه لابد أن تتطهر، ومن ضربك على خدك الأيمن أدِرْ له خدك الأيسر، ومن سخرك ميلاً فسر معه ميلين، ومن نازعك ثوبك فأعطه رداءك، وهكذا. تعاليم المسيح أن تكونوا طيبين ولا تؤذون الناس، وتتحملوا أذاهم، وصلوا وصوموا؛ وأما الفلسفة اليونانية فهي مصدر العقيدة.

فلبس الحق بالباطل كان من أخطر ما أدى إلى انحراف الأمم، فمن لبس الحق بالباطل عند المشركين من عباد الأوثان، كانوا يقولون في تلبيتهم كما قال ابن عباس ﵄: «**كان الْمُشْرِكُون يقُولُون: لبّيْك لا شرِيك لك، قال: فيقُولُ رسُولُ اللهِ ﷺ: ويْلكُمْ، قدْ قدْ، فيقُولُون: إِلّا شرِيكًا هُو لك، تمْلِكُهُ وما ملك**»[1]، يأتون بهذه الجملة الفظيعة.

يقول لهم النبي ﷺ: «**قدْ قدْ**». يعني: اكتفوا بلبيك لا شريك لك لبيك، تأتي تتأمل (لبيك لا شريك لك لبيك) كيف تمشي مع إلا شريكًا هو لك ملكته وما ملك؟! لبس الحق بالباطل، هذه نقطة متناقضة مع (لا شريك لك)، تناقض بيِّن، كما لبس عليهم الشيطان في أمر الغرانيق، أسمعهم شيئًا لم يتكلم به الرسول، مع أن الذي بعده ينقضه، كما في: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾. حبهم لأوثانهم

(١) أخرجه مسلم (١١٨٥).

أدى إلى أن يتوهموا أو يسمعهم الشيطان ويلقي في أسماعهم أن هذه هي تلك الغرانيق العلى، إن صحت القصة، والقصة عند الكثيرين باطلة، لكن قد يكون لها أصل في كون المشركين يسمعون باطلاً لم يقله النبي ﷺ، يلقيه الشيطان في أسماعهم أثناء قراءة النبي ﷺ، والله أعلى وأعلم(١).

---

(١) هذه رواية باطلة لا أصل لها كما ذكر ذلك المحققون مثل ابن العربي والقاضي عياض وغيرهم. سئل ابن إسحاق- جامع السيرة النبوية- عن هذه القصة، فقال: هذا من وضع الزنادقة، وصنف في ذلك كتابا.

وقال الإمام البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، ورواتها مطعون عليهم، وليس في الصحاح ولا التصانيف الحديثية شيء مما ذكروه، فوجب اطّراحه، ولذا نزهت كتابي عن ذكره فيه.

وقال الحافظ ابن كثير (٥/ ٤٤١): وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح.

وقال العلامة الآلوسي في روح البيان (١٧/ ١٨٢) ما ملخصه: قال أبو منصور الماتريدي: هذا الخبر من إيحاء الشيطان إلى أوليائه الزنادقة، والرسالة بريئة من هذه الرواية.

وقال القاضي عياض: يكفيك أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواة ثقة بسند سليم متصل.

وقال العلامة الآلوسي: ويكفي في ردها قول الله تعالى في وصف القرآن لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ا. هـ.

وقال الإمام الشوكاني في فتح القدير(٣/ ٥٤٦): قال إمام الأئمة ابن خزيمة: إن هذه القصة من وضع الزنادقة.

وقال القاضي عياض في الشفا: إن الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه، لا قصدا ولا عمدا ولا سهوا ولا غلطا.

وقد جمع الألباني ﵀ رسالة في ذلك وسماها (نصب المجانيق في نسف قصة الغرانيق) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٦٠٤)، وزاد المسير (٣/ ٢٤٤)، وابن كثير (٥/ ٤٤١).

المقصود: أن لُبس الحق بالباطل المستمر موجود، حب إبراهيم ﷺ وتعظيم إبراهيم ﷺ، وتعظيم الكعبة، وحب وتعظيم أمر إسماعيل ﷺ، لُبس بأن إبراهيم وإسماعيل ﷺ كانا يستقسمان بالأزلام، دخل النبي ﷺ الكعبة فوجد فيها صورة إبراهيم وإسماعيل ﷺ يستقسمان بالأزلام، فقال ﷺ: «**قاتلهُمُ اللّهُ، لقدْ علِمُوا: ما اسْتقْسما بِها قطُّ**»[(١)].

انظر الكذب والباطل لكي يُروّج على الناس أن إبراهيم وإسماعيل ﷺ كانا يفعلان ذلك؛ ولذلك قضية خطيرة جدًا لُبس الحق بالباطل، لابد أن يحذر أهل الإسلام من لُبس الحق بالباطل، كما وقع أهل البدع في هذا الأمر، انظر إلى كثرة قراءة الخوارج للقرآن، كثرة صلاتهم، وكثرة صيامهم، كل هذا من الحق، لكن لم يعرفوا حقيقته الباطنة، ظاهر فقط لبسوه بالغلو الذي أتوا به في تكفير المسلمين وانتهاك حرماتهم وسفك دمائهم، وانظر إلى الرافضة كان الحق الذي عندهم حب آل بيت النبي ﷺ، ولكن هل حب أهل البيت يعني بغض أصحاب محمد ﷺ؟!

لماذا أوقعتم العداوة بين من كانوا متحابين في الله ﷻ، وكان علي رضي الله عنه طوال فترة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم وزير صدق لهم، مؤيد لهم، يزوج بنته أم كلثوم شقيقة الحسن والحسين رضي الله عنهما، ابنة فاطمة رضي الله عنها لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، أترون أن عليًا رضي الله عنه يزوج ابنته بنت فاطمة رضي الله عنها حفيدة

(١) أخرجه البخاري (٤٢٨٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ، أَبَى أَنْ يَدْخُلَ البَيْتَ وَفِيهِ الآلِهَةُ، فَأَمَرَ بِهَا فَأُخْرِجَتْ، فَأُخْرِجَ صُورَةُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ فِي أَيْدِيهِمَا مِنَ الأَزْلاَمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: قَاتَلَهُمُ اللَّهُ، لَقَدْ عَلِمُوا: مَا اسْتَقْسَمَا بِهَا قَطُّ، ثُمَّ دَخَلَ البَيْتَ، فَكَبَّرَ فِي نَوَاحِي البَيْتِ، وَخَرَجَ وَلَمْ يُصَلِّ فِيهِ**».

النبي ﷺ برجل في اعتقاده كافر، والعياذ بالله؟!

أيرضى؟ حتى تلد له، ويمكِّن رجلاً مرتدًا يزعمون أنه - والعياذ بالله - فيه داء قوم لوط، ونعوذ بالله من ذلك، يعني: يُمكِّنه من ابنته العفيفة الطاهرة حفيدة النبي ﷺ؟! ما أقبح هذا الاعتقاد! كفر فظيع - والعياذ بالله - أن يُغالى في أهل البيت ويصل بهم الحال إلى عبادة أهل البيت من أجل التلبيس، كما ذكرنا حقيقة الأمر علي رضي الله عنه يسمي أبناءه: أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ويكرر التسمية - يعني الذي يموت منهم - وجاءه مولود آخر، عنده الأكبر والأصغر يسميهم بأسماء الصحابة رضي الله عنهم، وخصوصًا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما. أكان علي في كل ذلك يداري ويداهن ولا يتكلم بحرف مما يعلمه من أنه الوصي، وأن هؤلاء قد كفروا حين أبوا أن ينفذوا وصية رسول الله ﷺ؟! سبحان الله! حب علي رضي الله عنه فرض، ونحن ندين الله بحب علي، وحب أهل بيت النبي ﷺ فرض، ونحن نحبهم في الله عز وجل لقرابة النبي ﷺ ونعرف قدرهم، ونقدم حبهم على حب قرابتنا، ونحبهم أشد من حب قرابتنا؛ ولذلك لأن الله فرض ذلك؛ ولأن ذلك علامة على حب النبي ﷺ، لكن لا نغالي فيهم ولا ننصب عداوة بينهم وبين أصحاب محمد ﷺ، لا نجعل هذا اللبس سببًا للغلو فيهم، الحق حب آل البيت والباطل الغلو فيهم، لبسوا الحق بالباطل، حتى تجرأ عبد الله بن سبأ[1]، وقال: إن عليًّا هو الله. فأراده فطلبه علي فلم يدركه، وأدرك أتباعه فحرقهم بالنار لما أبوا أن يرجعوا عن هذه الفرية العظيمة والكفر البواح.

(١) سبقت ترجمته (٢/ ١٠).

المختار الثقفي ما الذي وصل به الحال إلى أن يصبح ذا أتباع؟ شيء من الحق، الانتصار للحسين رضي الله عنه بعد قتله، المختار الثقفي كما ذكرتُ لكم قبل ذلك، قال النبي ﷺ: «**أنّ فِي ثقِيفٍ كذّابًا ومُبِيرًا**»[١]، الكذاب هو المختار بن عبيدة الثقفي، والمبير - المهلك القاتل سفاك الدماء -: الحجاج بين يوسف الثقفي، فهذا الرجل، المختار الثقفي، بداية أمره لم يكن الكفر الذي قال به، ولا ادعاء النبوة، وإنما كان الانتصار من قتلة الحسين رضي الله عنه، وحب الحسين رضي الله عنه وتعظيم قدر أهل البيت، فالتّف حوله جماعات، وبالفعل تمكن من قتل جماعة ممن شارك في قتل الحسين رضي الله عنه، وهنا عظُم قدره عند الناس، فبدأ يستخف بعقولهم، ويدعي خوارق للعادات، ثم ادعى بعد ذلك أن جبريل يأتيه، والعياذ بالله، ووصل به الحال إلى ادِّعاء الوحي، فكان - والعياذ بالله - هذا الكذاب الذي قُتِل - بحمد الله - زنديقًا منافقًا، فكان هذا الأمر كما ذكرتُ لبس الحق بالباطل أن يأخذ جانبًا من الحق، ويلبس معه شيئًا من الباطل، ويتضمن غالبًا كتم الحق المضاد لهذا الباطل، يعني: هؤلاء النصارى أترونهم يذكرون لأتباعهم النصوص التي نذكرها؟! هي موجودة في الأناجيل، محاولات إخفائها حتى لا يسمعها هؤلاء، عوامهم لا يسمعون ليلاً ونهارًا إلا باسم الآب والابن والروح القدس إله واحد، ربنا إلهنا يسوع المسيح، ألا توجد مرة واحدة يسمعونهم ويقرءون عليهم ما قاله المسيح: «للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد»، أنه كان يصلي هناك، أنه كان يسجد هناك، صلاتهم للعجب ليس فيها سجود! فلماذا لا تسجدون كما كان يسجد المسيح؟! الإنجيل يتضمن أن المسيح كان يسجد وأنتم

---

(١) سبق تخريجه (٢/ ١٣٧).

لا تسجدون، إنما في الحقيقة تسجدون للأساقفة والبطارقة والقساوسة والباباوات، وهذا من مظهر الوثنية والشرك، والعياذ بالله، لا يسجدون لله كما كان يسجد المسيح؛ لذلك يحصل كتمان للحق، كما كتموا صفة النبي ﷺ، كتموا بعثته ﷺ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا به، يقولون: سيبعث نبي نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين، والعياذ بالله من ذلك، فكتمان الحق لماذا؟ لأنه لو ظهر الحق كاملاً لترك الناس الباطل الذي لبسوه بالحق؛ لذلك لابد أن نعلم خطر هذا الأمر.

أهل البدع من أهل الإسلام عندهم نفس القضية في كل طائفة من الطوائف تغلو في جانب، تقول حقًّا على سبيل المثال: الجهمية معطلة النصوص بما يتمسكون؟ يتمسكون بالتنزيه، يقولون: الله ﷻ ليس كمثله شيء، هذا حق أليس كذلك؟ هل هذا يدل على أن الله ليس له سمع وبصر، ليس له يدان تليقان بجلاله؟! ما الذي يمنع من ذلك؟! هؤلاء الذين يتكلمون في الصفات اليوم على عقيدة الجهمية، ليس حتى على عقيدة الأشاعرة الذين ينكرون أن يكون لله سمع وبصر وقدرة، وينكرون أن يكون لله ﷻ يدان وقدم وساق، ويقولون: هذا تشبيه. يتمسكون بالتنزيه، هذا التنزيه حق، فكتموا ماذا؟ كتموا شيئًا من الحق وأتوا بشيء من الباطل ليلبسوا به الحق. الحق هو التنزيه، ولكن لبسوا معه التعطيل، قالوا: لا يكون مُنزِّهًا إلا من نفى صفات الرب، وإلا من قال: ليس له سمع ولا بصر ولا يدان. لماذا؟!

ألا تثبت لله ذاتًا؟ نعم، نثبت لله ذاتًا يقولون ذلك. فهل للبشر ذوات؟ نعم، للبشر ذوات يقولون ذلك. هل ذات الرب تشبه ذات المخلوقين؟

يقولون: لا تشبه. فكيف أثبتم ذاتًا وذاتًا مع عدم المشابهة؟ يقولون: هذا ليس بمناف. فلماذا لا تثبتون سمعًا ليس كالسمع وبصرًا ليس كالبصر ويدين ليست كاليدين؟! ما الفرق بين هذا وذاك؟!

إن الله كان سميعًا بصيرًا، وقال ﷻ عن الإنسان: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ هل هذا استلزم التشبيه عندكم في التسمية؟ أنتم تثبتون لله أسماء، ولكن لا تثبتون الصفات، وهل إثبات الأسماء اقتضى إثبات التشبيه؟ قالوا: لا، بل إثبات أن الله هو السميع البصير ليس كالسميع البصير في حق الإنسان، فاجعلوا السمع والبصر الإلهي ليس كالسمع والبصر في حق الإنسان، واجعلوا عيني الرب ﷻ ليست كعيني الإنسان، ما الفرق؟ لماذا تجعلون هذا تشبيهًا وهذا ليس بتشبيه؟ لذلك نقول: الذي حدث أنهم كتموا ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، أظهروا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؛ إما لفظًا، وإما حقيقة، فإما أن يسكتوا عنها ولا يذكرونها؛ لأنها تؤدي إلى هدم عقيدتهم الفاسدة، فغلّبوا جانب التنزيه حتى وصلوا إلى التعطيل، وجعلوا الباطل الذي هو التعطيل ونفي الصفات ملازمًا للتنزيه، وأهل السنة يقولون: بتنزيه بلا تعطيل، نثبت أن الله ليس كمثله شيء، مع كونه ﷻ متصف بكل صفات الكمال التي هو أعلم بها ﷻ، هو ﷻ الذي قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾. أترون أن الله يقول في كتابه الذي أنزله للبشر كفرًا؟! لأن إثبات اليدين لله لو كان لله يدان كما تقولون فهذا يقتضي أنه كالبشر، حتى يقول جاهلهم وهو لا يعرف، حتى حجج الفلاسفة الذين يتكلم بعقيدتهم، يقول: إذا كان له سمع وبصر ويد، فمن الذي خلقها له. عجب والله! وهل يثبت أهل السنة سمعًا وبصرًا ويدين مخلوقة؟ هل قالوا ذلك؟!

إنما يثبتون صفات لله ﷻ لائقة بجلاله ﷻ، ليست مخلوقة له، حتى يقول: من الذي خلقها له؟ فإذًا، لو قلت لله ﷻ حياة، وهو الحي الذي لا يموت، أتقول: من الذي خلق له هذه الحياة؟! أ لِأَجْل أن البشر أحياء أو الكائنات تحيا، والله ﷻ هو الحي الذي لا يموت، فيلزم من ذلك أن حياته مخلوقة؟! عجباً! ولا حتى حجج الفلاسفة ولا كلام الأشاعرة، ليس إلا كلام المعتزلة الخبيث، وحججهم حتى ليست هي التي يحتج بها، لا يعرف أن يأتي بالحجج، والعياذ بالله، ذاك الرجل المبتدع الضال الذي يتكلم في القنوات الفضائية عن تعطيل الأسماء والصفات، عن تعطيل صفات الرب ﷻ، ويجعل من يثبت صفات الرب مشبه وممثل، كما ذكرتُ يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون، والعياذ بالله، يعلمون النصوص. الذي أثبت السمع والبصر واليدين القرآن الكريم، وأثبت العينين: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾، الذي أثبت الرضا والفرح وأن الله يفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه، وأن الله قد رضي عن المؤمنين إذ يبايعون رسول الله ﷺ تحت الشجرة، الرسول ﷺ هو الذي أثبت ذلك، والقرآن أثبت ذلك، فأنت تكتم هذه النصوص وتحرفها، وكما ذكرنا كل طائفة تتمسك بشيء من الحق تكتم شيئًا من الحق وتأتي بباطل.

كما ذكرنا الخوارج يأتون بنصوص الوعيد: لعن الله من فعل كذا، من فعل كذا فجزاؤه جهنم، مثلاً من المعاصي والذنوب، ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾، فأين النصوص التي فيها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾، ماذا يصنعون في هذه النصوص؟ يكتمون معانيها وإن تكلموا بألفاظها، لا يرضون بذلك.

أين نصوص الشفاعة المتواترة؟ يكذبون بها لأنها لا توافق باطلهم، فهم كذبوا بالحق، لبسوا الحق بالباطل، كتموا شيئًا من الحق ليمرروا الباطل، فالشيء من الحق عند الخوارج نصوص الوعيد، لبسوا إليها خلود عصاة الموحدين في النار، لزوم تكفير هؤلاء العصاة؛ لأجل أنهم متوعدون بالنار، ولا يلزم من ذلك، كتموا الحق وكذبوا به؛ كتمان أحاديث الشفاعة المتواترة، وكتمان نصوص الرجاء التي فيها فضل (لا إله إلا الله)، وهكذا كل طائفة من الطوائف المبتدعة التي تجد عندها شيئًا من الحق.

المرجئة تمسكوا بنصوص الرجاء وأحاديث فضل (لا إله إلا الله)، وأهملوا نصوص الوعيد، كتموا نصوص الوعيد، ولبسوا بهذا الحق الذي جاءوا به وهو فضل (لا إله إلا الله) ما اعتقدوه من الباطل من أنه: (لا يضر مع الإيمان معصية)، أين في كتاب الله: (لا يضر مع الإيمان معصية)؟! أين في كتاب الله: أن من أتى بـ (لا إله إلا الله) لا يمكن أن يدخل النار أبدًا؟! أين هذا؟! الذي في كتاب الله ﷻ المؤمن الكامل الإيمان الذي آمن وعمل الصالحات يدخل الجنة، ولكن من عمل السيئات كما أنه لا يخلد في النار، فهو قد يدخلها ويعذب فيها ثم يخرج منها؛ كما دلت عليه آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾، ودلت عليه أحاديث الشفاعة المستفيضة المتواترة في خروج عصاة الموحدين من النار[1]، وهي تدل على أنهم قد دخلوها، فكيف تردون هذه الأحاديث؟! أحاديث الشفاعة هذه يردها الخوارج ويردها المرجئة.

---

(١) راجع (٢/ ٢٢٥).

كذلك القدرية لبسوا الحق بالباطل، يأتون بأدلة على إثبات أفعال العباد، وأن العباد فاعلون: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾، إثبات مشيئة للعباد، وإثبات قدرة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، فقالوا: القرآن يثبت مشيئة للعباد واستطاعة وقدرة وأفعال يفعلها العباد، فهذا دليل على أن الله لا دخل له بأفعالنا، فهذا لبس الحق بالباطل، ورد الأمر بالإيمان بالقدر، وجعل أن كون العباد فاعلين دليل على أن الله لا يقدر على أفعال العباد ولا يخلق أفعال العباد ولا مشيئة له فيها، كلام باطل، كتموا النصوص التي تدل على خلاف ما يذكرون؛ إما لفظًا، وإما معنى، قال الله ﷻ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾. فأثبت مشيئة العباد، وأثبت فوقها مشيئة الرب، وأن مشيئة العباد تابعة لمشيئة الرب، كتموا الحق وهم يعلمون، ولبسوا مكان هذا الحق المكتوم شيئًا من الباطل، وهو نفي القدر، نفي خلق أفعال العباد، نفي قدرة الله على أفعال العباد، نفي مشيئة الله لأفعال العباد.

الجبرية الغلاة في القدر أخذوا نصوص المشيئة الإلهية: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، هذا حق عندهم لبسوا معه الباطل: أننا لا دخل لنا بأفعالنا، أن البشر لا قدرة لهم ولا مشيئة، كتموا الحق الذي يدل على إثبات مشيئة العباد وفعل العباد لأفعالهم؛ حتى يقولوا بالجبر الباطل الذي هو أن العباد لا يقدرون على شيء، أن الله إنما يفعل بهم ثم يعذبهم على فعله بهم، نعوذ بالله، وقالوا: العباد ليسوا فاعلين أصلاً، وبعضهم يقول: لا حقيقة ولا مجازًا، وبعضهم يقول: فاعلون مجازًا فقط،

لا يفعلون حقيقة، مجازًا مثل: سقطت الورقة، تحركت المروحة، فالمروحة ليست فاعلاً، الحقيقة أنها حُركت لما ضغط على الزر. (مات الرجل) هذا فعل مجازي، لكن (ضرب الرجل أخاه) هل هذه مثل (مات الرجل)؟! هل هي مثل (سقطت الورقة)، ومثل (هاجت الريح)؟! طبعًا لا، لا قطعًا ويقينا. هذا الفعل الاختياري من البشر بمشيئة من العباد. وأهل السنة ماذا يصنعون؟

يجمعون الحق الذي عند هؤلاء والحق الذي عند هؤلاء ويكونون في الوسط؛ لذلك هم قالوا: تنزيه بلا تعطيل، إثبات بلا تمثيل في باب الأسماء والصفات.

وقالوا: بأن عصاة الموحدين منهم من يدخل النار، ولكن لا يخلدون فيها، لا يُكفّرون ولكن إيمانهم ناقص، يستحقون معه الوعيد، وفي القضاء والقدر يقولون بأننا فاعلون لأفعالنا، والله خالق تلك الأفعال، لنا مشيئة وقدرة، والله ﷻ هو الخالق لهذه القدرة والمشيئة. أمر واضح بيِّن العقل السليم يقبله، وهم - كما ذكرنا - أخذوا الحق الذي عند هؤلاء وتركوا الباطل، وأخذوا الحق الذي عند هؤلاء وتركوا الباطل، فاجتمع الحق عند أهل السنة فصاروا وسطًا في فرق الأمة كما أن الأمة وسط بين الملل، أهل الإسلام ماذا يصنعون في الأنبياء؟ يؤمنون بكل الأنبياء ولا يغالون فيهم، يعني: أخذوا الحق الذي عند اليهود في شأن المسيح وهو أن المسيح ليس بإله ولا ابن إله، وتركوا الباطل الذي عندهم وهو أن المسيح ابن زنا، والعياذ بالله، وأن أمه قالوا عنها بهتانًا عظيمًا. تركنا ذلك وأخذنا الحق الذي عند النصارى وهو أن المسيح له قدر عظيم نحبه ونجله، وهو رسول من عند الله،

وإن كانوا هم لا يقرون بذلك، وإن كانت نصوص الإنجيل تقول ذلك، وتركنا الباطل الذي عندهم من الغلو فيه، وأنه إله أو ابن إله، أو أنه أحد الأقانيم الثلاثة، هكذا الواجب ألا نترك شيئًا من الحق، نجمع الحق، نقبل الحق كله، ونقول به كله، ولا نكتم الحق، ولا نلبس به شيئًا من الباطل.

هذه القضية عظيمة الأهمية في كل مجالات الدين في الحقيقة؛ لأن لبس الحق بالباطل هو من أخطر أسباب الانحراف، لا يتمكن مبطل من إمرار باطله إلا بتلبيس هذا الباطل بشيء من الحق، ولا يتمكن من ذلك إلا بكتمان شيء من الحق الذي يخالف ذلك الباطل، وأهل الإيمان وأهل العلم وأهل السنة يقبلون الحق كله، ولا يكتمون شيئًا منه، ويجمعون الحق الذي عند هؤلاء مع الذي عند هؤلاء، ولا يمنعهم وجود باطل عند هؤلاء من أن يقبلوا الحق الذي عندهم، ولا يمنعهم وجود باطل عند أولئك من أن يقبلوا الحق الذي عندهم، فيقبلون الحق من كل من قال به، حتى ولو عنده باطل آخر، نرفض الباطل ونأباه، ونكفر بما يعبد من دون الله، ونكذب ما خالف الرسل، ونقبل ما وافق الرسل وما وافق الحق.

الْمسْألةُ الْخامِسة عشْرة بَعْدَ الْمِائةِ: قاعِدةُ الضّلالِ، وَهِيَ: الْقوْلُ عَلَى اللَّهِ بِغيْرِ عِلْمٍ.

الشرح:

أصل الضلال في العالم أن يتكلم الناس على الله ﷻ، أن يقولوا على الله ما لا يعلمون؛ كما قال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وهذا يدل على أن القول على الله بغير علم ربما كان أعظم من الشرك، لهذا الترتيب، فحرم الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق، وهذا من الكبائر، والشرك بالله ﷻ أكبر الكبائر، قال: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وعد بعض أهل العلم القول على الله بغير علم من أشد أنواع الشرك، وهو في الحقيقة كذلك إذا كان يتضمن كفرًا وشركًا، وتكذيبًا لما جاءت به الرسل عن الله سبحانه وتعالى وعن أسمائه وصفاته أو عن أمره ونهيه وتشريعه، فإن من قال على الله ﷻ بغير علم لم يكن ضره مقتصرًا على نفسه، بل كان ضرره يعم من حوله من الناس ومن بعده كذلك، وهل حُرِّف دين الأنبياء، حرفه اليهود والنصارى، إلا من قول من قال على الله بغير علم، وتركوا ما أنزله الله في الكتب المنزلة، واحتكموا إلى آراء الرجال الذين تكلموا على الله بغير علم، ومعظم هذا الأمر إنما ينبع من التقليد الأعمى ومن دخول العلوم غير الإسلامية إلى المسلمين، حين يحصل لبس الحق بالباطل وكتمان الحق الذي يخالف ذلك الباطل الذي لبسوه بالحق ليمرروا به ذلك الباطل، فالتقليد للأحبار والرهبان واتباعهم إياهم فيما افتروا على

الله الكذب، وفيما حللوا وحرموا وأشركوا بالله ﷻ أمر معلوم عند أهل الكتاب، وقد قال ﷻ في وصفهم كما وصف المشركين بأنهم يقولون على الله ما لا يعلمون؛ كما قال ﷻ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾، فهذه في المشركين، وقال ﷻ في أهل الكتاب: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾، فعلمنا أنهم إنما ضلوا وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سواء السبيل، علمنا بذلك أن سبب القول على الله بغير علم اتباع هؤلاء الذين ضلوا وأضلوا وهؤلاء الذين قالوا على الله بغير علم، ومن يتأمل ما بأيدي اليهود والنصارى اليوم من الكتب وما يعتقدونه من العقائد، يعلم كيف حصل الانحراف، فإن كتبهم تتضمن قضية التوحيد كأول القضايا وضوحًا وظهورًا، ومع ذلك فإنما يقدمون على هذه الكتب القوانين التي سنّها الأحبار والرهبان، وهؤلاء - كما ذكرنا - أخذوا ذلك من مصادر أخرى غير الوحي المنزل لقلة علمهم، ونسبوا ذلك

إلى الله، فهذه الملة النصرانية أوضح دليل على ذلك، هذه الملة والديانة اليوم أصحابها يعترفون أنها جمع بين ما جاء به المسيح أو تعاليم المسيح وبين الفلسفة اليونانية وقوانينهم تؤكد ذلك، وهم تركوا كتابهم واتبعوا ما قاله هؤلاء، كما ذكرنا شيئًا مما لبسوا فيه الحق بالباطل في المرة السابقة.

فكان قولهم على الله بغير علم حين نسبوا له الصاحبة والولد ونسبوا أنه ثالث ثلاثة، وإن حاولوا الجمع بين النقيضين حين قالوا: نحن لا نقول بالتثليث، وهم يقولون به قطعًا ويقينًا، ويقولون بأن المسيح هو الله، هذا بلا نزاع بين طوائفهم على ذلك، ويقولون: هو ابنه؛ ولذلك وقعوا في التناقض، مثل ما ذكر في **الْمسْألةُ السّادِسةُ عشْرٍ بعْد الْمِائةِ: التّناقُضُ الْواضِحُ، لِما كذّبُوا بِالْحقِّ؛ كما قال تعالى:** ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [ق: ٥].

يعني: مضطرب.

الْمسْألةُ السّادِسة عشْرة بَعْدَ الْمِائةِ: التّناقُضُ الْواضِحُ، لِمَا كذّبُوا بِالْحقِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [ق: ٥].

الشـــرح:

اختلط عليهم الأمر فصاروا لا يعرفون حقًّا من باطل، فالتزموا التناقض: كيف يكون هو الإله وهو في نفس الوقت غيره؟ ويقررون ذلك، فأنت إذا تأملت نصوص كلامهم التي قرروها أنهم يقولون بالأقانيم الثلاثة؛ لأنها لا يمكن فهمها في الحقيقة، إنما يعجزون عنها. أقول: قريبًا من شخصيات ثلاثة للإله، وأنه تبدى وتجسد في أشكال مختلفة، هذه الصورة الثلاثة، يحاولون تقريب ذلك إلى عوامهم بتعدد الصفات؛ لأن العقل البشري لا يقبل تعدد الذوات، مع كونها ذات واحدة، وهذا تناقض بيِّن، ولكن ماذا عساهم يفعلون في الصفات الأخرى، التي لم يجلعوا كل واحدة منها أقنومًا، وهم يقرون بتعدد صفات الرب غير صفة الكلام وغير صفة الحياة، كما يحاولون الزعم بأن الله وحياته وكلامه هي الأقانيم الثلاثة، وهذا باطل، ويحاولون أن يقولوا: إن الكلام هو الله، وتجسد هذا الكلام في صورة المسيح كما يزعمون عن يوحنا أنه قال: «**في البدء كان الكلمة وكان الكلمة عند الله وكان الكلمة الله**»، وهذا أوضح دليل على ألوهية المسيح لديهم، منسوب إلى يوحنا الصياد - يزعمون ذلك -، مع أن هذا الكلام متناقض، كان الكلمة عند الله وكان الكلمة الله، ثم يزعمون أن الكلمة ليست إلا كلمة واحدة،

لماذا؟ أليس الله قد تكلم بكلام كثير؟! فلماذا صارت واحدة فقط منها هي هذا الأقنوم وأنتم تقولون: إن المسيح قد قال: «**ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، ولكن بكل كلمة خرجت من فم الرب**». فهناك كلمات كثيرة، وكلمات الله عندهم لا تفنى، والإنجيل عندهم يزعمون أنه كلمة الله والتوراة كذلك، واليهود يقولون ذلك، فلماذا لم تصِرْ كل كلمة من هذه الكلمات أقنومًا ولا يقال بالتثليث إذًا، بل بعشرات الأقانيم وعشرات الآلهة؟ وهم ينصون على أن الأقنوم الثاني مساو للأول في الجوهر، حين يقولون عن أقنوم الابن إنه من جوهر أبيه، مولود من أبيه قبل كل الدهور إله من إله مساو له في الجوهر، إذًا هما جوهران، ذاتان، كلام وضّاح لا يحتمل، ويقولون: «**إله من إله**»، إذًا هما إلهان، لا يحتمل غير ذلك، ثم يجمعون ذلك إلى التناقض، يلتزمون التناقض حين يقولون في النهاية إله واحد. عجب والله!

ثم إنه كيف يكون في حال يختلف عن حاله الآخر؟ أيذهب علمه؟ ينقلون عن المسيح نقلاً واضحًا صريحًا: «أما وقت الساعة فلا يعلمها أحد في الأرض ولا في السموات، ولا الملائكة في السموات ولا الابن، لا يعلمها إلا الآب» عجباً! كيف يكون هو نفسه شخصيًا الذي تجسد وهو الإله الواحد كما تزعمون، ثم بعد ذلك لا يعلم وقت الساعة وهو ابن، وإنما يعلمها وهو آب، مما يؤكد أن هذا الكلام متناقض، فالتزموه التزامًا لا يعرفون التخلص منه، عندما يضيق بهم الأمر يقولون: «لا نفهم حكمة الله.. هكذا هي.. فلتكن كذلك غير مفهومة، حتى يُمْتلأ الإنسان بروح القدس فعند ذلك

يفهم». أما امتلأ إنسان قط بروح القدس عندكم حتى يُفهِم الناس هذه المعضلات؟! ومع ذلك فأنتم تقولون: إذا امتلأ بروح القدس، ألا يصلح أن يكون أقنومًا؟! فهذا روح القدس قد امتلأ به - كما تزعمون - الحواريون وامتلأ به كتاب الأناجيل من بعدهم، والرسل أصحاب الرسائل، رسل المسيح، امتلئوا بروح القدس، فكل هؤلاء ينبغي أن يكونوا آلهة وأقانيم، قد حل فيهم، تناقض عجيب الشكل، ومع ذلك لا يفكر في الأمر أحد، وإنما تنقل هكذا، التقليد واتباع العلوم الباطلة التي أخذوها من غير الوحي، وهذا حاصل وخطر عظيم أيضًا في هذه الأمة، فلو تأملت أهل البدع من أهل الضلال، تجد القول على الله بغير علم أصل ضلالهم فيما يتعلق بالأسماء والصفات، وكذلك في القضاء والقدر، وكذلك في النبوات، أصول الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة وبين الأشاعرة وبين المتكلمين هي هذه المسألة، أعني: مسألة القول على الله بغير علم، لماذا؟ لأنهم يأتون بعلوم ليست من علوم أهل الإسلام، مخالفة للوحي جعلوها هي القاعدة، هي الأصل، سموها علومًا عقلية، سموها أدلة قطعية، هم فيها أنفسهم مختلفون اختلافًا أوضح من شمس النهار، ومع ذلك يجعلون ذلك أمرًا قطعيًّا. علم الكلام السخيف الذي ما دخل في عقيدة إلا أفسدها، حين أدخلوه بعد القرون الثلاثة الخيرية، التي ما علم أحد من أهل العلم أن واحدًا من هؤلاء الأئمة، ممن مدحهم النبي ﷺ من الصحابة ﷺ فالتابعين فمن بعدهم، تكلم في مسائل الاعتقاد بعلم الكلام، ولا أدخل الفلسفة في هذا الباب، وعدوا من تكلم بعلم الكلام مستحق للعقوبة، كما قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**حُكْمِي فِي أَهْلِ الْكلامِ أنْ يُضْربُوا بِالْجرِيدِ والنِّعالِ، ويُطاف بِهِمْ فِي الْقبائِلِ**

والْعشائِرِ ويُقال: هذا جزاءُ منْ ترك الْكِتاب والسُّنّة وأقْبل على الْكلامِ»[(١)]،
فصار علم الكلام عند المتأخرين قاعدة الإيمان، هو الذي تؤخذ منه العقيدة وصار الكلام بطريقة المتكلمين هو الذي تُتناول به عقيدة أهل الإسلام في مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم، مما أدى إلى الانحراف العظيم والانفصال بين الوحي وبين الواقع الذي يعيش به؛ لأنهم عزلوا نصوص الكتاب والسنة عن أن تكون مرجعًا وقالوا على الله بغير علم، وتحكموا على الله ﷻ، فقالوا: لا يجوز أن تكون له يد، ولا يجوز أن يكون له سمع، ولا يجوز أن يكون له بصر، ولا يجوز أن يضحك، ولا يجوز أن يرضى، ولا يجوز أن يرحم، والعياذ بالله، حتى الرحمة جعلوها ضعف وخور لا يصح أن يوصف بها الرب ﷻ، قالوا على الله بغير علم، من أين أتيتم بأن هذا لا يجوز؟ من أين قلتم إن هذا لا يصح في حق الله ﷻ، وقد نزل في القرآن وتكلم به ونطق به الرسول ﷺ، فكيف تزعمون أن هذا تجسيم أو تجسيد أو أنه كفر وشرك كما تزعمون؟! هذا كله سببه - كما ذكرنا - هذه العلوم الدخيلة التي في الحقيقة ليست علمًا، هي قول على الله بغير علم، والتقليد لمن أحسنوا بهم الظن، التقليد كما وقع في ذلك اليهود والنصارى عندما قلدوا أحبارهم ورهبانهم، ودخلت هذه العلوم فأفسدت عليهم اعتقادهم، والأهواء عضدت هذا الأمر فصار التناقض البين؛ ولذا تجد أهل البدع عندهم من التناقض من جنس ما عند أهل الكتاب، كما ذكرنا من قبل

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٩)، وقال الذهبي عقبه: «لعل هذا متواترًا عن الإمام» وانظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز (ص٧٢).

يثبتون بعض الصفات وينفون البعض الآخر، أو يثبتون الذات وينفون الصفات، مع أنه يلزمهم فيه الصفات التي أثبتوها ما يلزمهم في الصفات التي نفوها، ويلزمهم في الذات ما يلزمهم في الصفات؛ لأن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات، كما أثبتم ذاتًا لله ﷻ ليس كذوات المخلوقين، فلماذا لم تقولوا: له سمع ليس كسمع المخلوقين وبصر ليس كبصر المخلوقين؟ ولماذا أثبتم أنه سميع بصير دون أن تثبتوا له سمعًا وبصرًا، في حين قلتم: لو أثبتنا سمعًا وبصرًا لكان مخلوقًا، فلابد له من خالق؟! نعوذ بالله، كيف ذلك؟ لماذا لم تقولوا: إن اسم السميع واسم البصير، وإن سمى الله به الإنسان: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، لا يلزم من ذلك أن يكون سميعًا كالسميع سبحانه ولا بصيرًا كالبصير سبحانه ولا أن ذات الرب تشبه ذوات المخلوقين؟ فلماذا إذًا نفيتم باقي الصفات الأخرى؟ لماذا نفيتم الصفات وأثبتم الأسماء، مع أن إثبات الأسماء لا يقتضي التشبيه، فكذلك إثبات الصفات يكون إثباتًا بلا تشبيه، بلا تمثيل، ويكون تنزيهًا بلا تعطيل، ننفي ما نفى الله عن نفسه من غير أن نعطل صفات الحق سبحانه؟ وكما ذكرنا سبب ذلك التقليد الأعمى العلوم الدخيلة التي دخلت على أهل الإسلام، فأفسدت عليهم قضية المرجعية، وهي أن لا يمكن أن نتكلم على الله إلا بما أنزله، نؤمن بكل ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ.

إذًا، مرجعية أهل الإسلام إلى ما نزل في الوحي هذا هو العلم الذي أنزله الله، لا نقول على الله بغير علم، لا نتكلم على الله ﷻ ما لا نعلم، هذا كان في قضية الكلام عن الرب ﷻ وأسمائه وصفاته وقضائه وقدره، علم الكلام

هو الذي أفسد على الناس ذلك، ثم كانت القضية بعد ذلك فيما يتعلق بالتشريع التشريعات المخالفة لشرع الله التي أدى التقليد الأعمى، ثم بعد ذلك الزندقة والتبعية لأعداء الإسلام في نبذ التشريع الإسلامي بالكلية، وقالوا على الله ﷻ بغير علم، فبدأ الأمر بالتقليد الأعمى للأئمة والتخريج على أقوالهم، ومعاملة نصوصهم كأنها أدلة من الكتاب والسنة، بل مقدمة عليها حاكمة على النصوص، جعلوا نصوص العلماء حاكمة على نصوص الكتاب والسنة، فصاروا يؤولون ويفسرون ويحرفون في الحقيقة بسبب تقليدهم لأئمتهم، يحرفون النصوص حتى ما نشئوا عليه من المذاهب، هذا أدى إلى نفرة الناس عن الأدلة وعدم تعظيمهم للعلم، حتى وجد بعد ذلك من رأى تلك التناقضات بين الآراء المختلفة والمذاهب المتناقضة، بلا ترجيح مرجح إلا أن هذا قد قاله فلان وذاك قد قاله فلان، فتجرءوا على نصوص الشريعة وزعموا أن الشريعة هي كل هذا التناقض والاختلاف، فيسعنا إذًا أن نترك ذلك كله، فنشأت أجيال الوضعيين الذين وضعوا بآرائهم ما هو تقليد للغرب في أمر الله ونهيه، وجعلوا ذلك تشريعًا ملزمًا يضاهئون به أحكام الكتاب والسنة، فكان قولاً على الله بغير علم حين ألزموا الناس بذلك، وحين زعموا أن الدين يأمر بالتزام ذلك، وإن كانوا في النهاية يريدون أن يقولوا: بل لا دخل للدين في شيء من حياة الناس، نسأل الله العافية، كما قالوا: لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين. فكان هذا القول على الله ﷻ بغير علم هو مقدمة الزندقة والنفاق الأكبر، والعياذ بالله، كان هذا الذي حدث بسبب التقليد الأعمى وبسبب المصادر غير النقية، المصادر غير الإسلامية، التي أدخلت في العلوم فصار القول على الله ﷻ بغير علم، ثم ما

كان بعده من التزام التناقض؛ لأنهم كذبوا بالأدلة، كذبوا بالحق الذي بعث به النبي ﷺ.

تجد أهل البدع يكثر عندهم الخرافات، تكثر الأحاديث الضعيفة والموضوعة، تجد كتبهم مشحونة بالحكايات بلا سند، بلا دليل، الأمر الفلاني حلال مشروع؛ لأن الشيخ الفلاني رأى في المنام كذا؛ ولأن الإمام الفلاني وقع في إلهامه كذا؛ ولأن الإمام الفلاني كان يفعل كذا، تجد هذا أوسع ما يكون عند الصوفية وعند الرافضة، وهو عند الرافضة أشد؛ لأنهم من أكذب الناس على الله، ولو تأمل متأمل مجموع ما عندهم من العقائد والتشريعات العملية، لعلم أن هذا في جملته دين آخر غير ما بعث به النبي ﷺ، والخرافات مبنية على بعضها البعض، فأنت تجد أن أعظم كتب الرافضة مثلاً (الكافي) علام بني؟ على زعم رجل أنه دخل السرداب، فجلس مع الإمام المهدي فأملاه هذا الكتاب، فصارت هذه الخرافة مصدرًا للتشريع عندهم، كل الحكايات المنقولة عن جعفر الصادق وعن أبيه محمد الباقر وعن الأئمة كلها عندهم مقدمة على ما يجدونه عندهم من نصوص الكتاب والسنة، بل السنة عندهم مهجورة لا يعتبرون أو يعتدون بأحاديث أهل السنة كلها؛ لأنهم عندهم نواصب، فحرموا أنفسهم من مصدر الوحي، وزعموا أن الله سبحانه وتعالى حين أمر العباد بطاعة رسوله ﷺ أمرهم بأمر من الخيال أو المحال لا يمكن الوصول إليه؛ لأن السنة قد ضيعت حين كفر حملتها - بزعمهم ظلمًا وزورًا - حين كفروا الصحابة رضي الله عنهم، فعند ذلك لم يعد هناك مجال للاحتجاج بنصوص الكتاب والسنة؛ لذلك نقول: المناهج المنحرفة خطر عظيم، وهي أصلها قاعدة الضلال: القول على الله عز وجل بغير علم، أن

تقولوا على الله ما لا تعلمون، تحاجون فيما ليس لكم به علم، والمصادر غير الإسلامية التي أدخلوها في الدين وهي ليست منه، والتقليد الأعمى للكبراء والسادة وهو أعظم أسباب انحراف الناس عن دين الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين، قال ﷻ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾، لما كذبوا بالحق وصار عندهم أشياء من الباطل لبسوا بها الحق وكتموا الحق، التبس الأمر، اختلط، مريج: مضطرب، يقولون القول ونقيضه، ويلتزمون التناقض، كما ذكرنا ذلك في اليهود والنصارى، وأهل البدع لهم نصيب بقدر بدعهم في الاضطراب والتناقض، نسأل الله العافية.

الْمسْألةُ السّابِعة عشْرة بعْد الْمِائةِ: الْإِيمانُ بِبعْضِ الْمُنزّلِ دُونَ بعْضٍ.

الشـــرح:

كما قال ﷻ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾، فهذه الآيات، وكذا قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، فهم كفروا ببعض الكتاب، أولاً الكتاب الذي في أيديهم آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه حين حرفوه عن مواضعه، وحين لم يعملوا به وتركوه بالكلية، فكان هذا التحريف للكم عن مواضعه وعدم العمل به هو انعدام الإيمان بهذا الجزء المنزل، ثم كان هناك عدم إيمان ببعض الكتب التي أنزلها الله، فاليهود كفروا بالإنجيل وكفروا بالقرآن، والنصارى كفروا بالقرآن الذي أنزله الله، وهم في حقيقة أمرهم كفار بالتوراة والإنجيل والقرآن؛ لأنهم لا يحكمون النصوص، ولكن يحكمون الآراء، وقد قال ﷻ عن الذين آمنوا ببعض

الرسل وكفروا ببعض: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ﴾، وأجمع العلماء على أن من كفر بآية من كتاب الله ﷻ، فهو كافر بالله وبكتبه كلها؛ ولذلك نقول: اليهود والنصارى لم يؤمنوا بالتوراة ولا بالإنجيل، وقد قال ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ﴾ وقال في الآية قبلها: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِۚ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فبين ﷻ أنهم ليسوا مؤمنين بالتوراة: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنهم لم يحكموا التوراة فيما كان من خلاف بينهم وفيما ارتكبوه من أمور لم يحكموا التوراة فيها، كيف يحكمون النبي ﷺ وهم لا يؤمنون به؟! وذلك دليل على تناقضهم وعلى أنهم يؤمنون ببعض المنزل دون بعض؛ أما المؤمنون الصادقون فهم يؤمنون بكل كتب الله، الإجمال فيما علموه إجمالاً دون تفصيل، والتفصيل فيما علموه إجمالاً وتفصيلاً، المؤمنون يؤمنون بما أنزله الله ﷻ إجمالاً في الكتب المتقدمة كما نؤمن بالتوراة التي أنزلها الله على موسى، وبالإنجيل الذي أنزله الله على عيسى، وبالزبور الذي أنزله الله على داود، وبصحف إبراهيم وموسى، وإن كنا لا ندري على وجه التفصيل كل ما في هذه الكتب، لكن نعلم بعض ذلك فنؤمن به مما أوحاه الله إلى نبيه ﷺ، كما قال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ

بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ﴾، فنحن نؤمن بهذا التفصيل؛ وكما قال ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾، فما كان في سورة الأعلى من المعاني كان موجودًا في الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى، أو﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾، هذا في الصحف الأولى، وأما ما لا نعلمه فنؤمن به إجمالاً.

وهذه الكتب التي بين أيدي أهل الكتاب اليوم نعلم أنها أقسام، فمنها ما نؤمن بأنه حق، وإن لم يلزم أنه حق بلفظه، لكن حق بمعناه، وهو ما جاء القرآن مصدقًا له من توحيد الله والإيمان برسالة رسله الكرام، وما وافق كتاب الله ﷻ وصدقه فهو حق لا نشك فيه ونؤمن به، ثم قسم آخر نعلم كذبه وزوره وبطلانه، مثل: صلب المسيح، فإن هذا وإن ورد فيما بين أيدي أهل الكتاب من الكتب، لكن قد قال ﷻ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ﴾، وكذا في كل أمر خالف التوحيد وخالف ما جاء به الرسول ﷺ مما لا يمكن أن يكون منسوخًا من الأخبار مثلاً، فكل خبر يخالف ما جاء به الرسول نعلم أنه ليس من الوحي المنزل.

وأما ما كان غير ذلك فنسكت لا نصدق ولا نكذب؛ لا نصدق بشيء ربما كان باطلاً فنكون قد صدقنا بباطل، أو نكذب بشيء ربما كان حقًّا فنكون قد كذبنا بحق؛ لذلك نقول: أهل الإيمان يؤمنون بالكتاب المنزل كله إجمالاً فيما علم إجمالاً، وتفصيلاً فيما علم تفصيلاً، والقرآن هو المعلوم بالتفصيل كلمة كلمة وحرفًا حرفًا من لدن محمد ﷺ إلى زماننا هذا، وهذا كله معلوم بالضرورة عند أهل الإسلام، لا يفرقون بين بعض الرسل وبعض ولا بين

بعض الكتب وبعض، عندهم إيمان كامل بكل ما أنزله الله وبكل من أرسله الله ﷻ من الرسل، وهذا قاعدة الإيمان عند أهل السنة وعند أهل الإسلام (لا نفرق بين أحد من رسله)، هذا الإيمان ببعض المنزل دون بعض هل وقع فيه من ينتسب إلى الإسلام اتباعًا للجاهلية التي كان عليها من سبق من أهل الكتاب؟

نقول: نعم، قد وقع ذلك من أهل البدع حين يتمسكون بجانب من النصوص، ويتركون جانبًا آخر يخالف بدعتهم، وهذا مرده إلى لبس الحق بالباطل وإلى كتمان الحق مع العلم به وإلى القول على الله ﷻ بغير علم.

الْمسْألةُ الثّامِنة عشْرة بَعْدَ الْمِائةِ: التّفْرِيقُ بيْن الرُّسُلِ.

الشـــرح:

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٥٢﴾.

بيّن الله سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين وجوب الإيمان بجميع رسل الله سبحانه وتعالى والإيمان بمن أرسلهم، فإذا وقع التفريق في ذلك بأن آمن ببعض الرسل وكفر ببعض الرسل، أو آمن برسول وكفر بمن أرسله، بمعنى أنه جعل لله شريكًا، أو جعل له صاحبة أو ولدًا، أو زعم أن هناك شفعاء دون إذنه، فقد كفر به، فلا ينفعه تصديق واتباعه للرسول، فضلاً أن يكون إيمانه بالرسول مختلطًا بباطل، كمن يؤمن بالرسول على أنه ابن لله أو أنه صورة من صوره أو أن الإله قد حل فيه، فهذا قد كفر بالذي أرسله، فمن فرق بين الله ورسله فهو كافر بالله ﷻ حقًا، وكذلك من أقر بالله سبحانه وتعالى ربًّا خالقًا لهذا العالم، لكنه كفر بالرسل، سواء ببعضهم أو كلهم، كما هو حال كثير من الفلاسفة مثبتي البداء أن الله خلق العالم، يعتقدون أن الله بدأ خلق العالم، لكنهم لا يؤمنون بالرسل على أنهم رسل، لا يرون تشريعًا نزل من عنده سبحانه وتعالى، أقصى أمرهم أن يقروا بوجود خالق لهذا الكون، لكن لا يرون له أمرًا ولا نهيًا ولا تشريعًا، فهذا كله من التفريق بين رسل الله ﷻ وبين الله ورسله، وهذا وقع في

المشركين وفي أهل الكتاب، وأهل الكتاب أُلْصِق بهم أمر التفريق بين الرسل، ذلك أن كل فريق منهم يؤمن بالرسول الذي يتبعه ويكفر بما وراءه، فاليهود آمنوا بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وكفروا بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وكفروا بمحمد ﷺ، وإيمانهم بالرسل بين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مختلط، يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، وفريقًا كذبوا وفريقًا يقتلون، إذا جاءهم الرسول بما لا تهوى أنفسهم، فإيمانهم بداود إنما كان بعد ما أعطاه الله ﷻ الملك، ومع ذلك نسبوا إليه من الفظائع ما يقدح في إيمانهم؛ وأما الرسل فيما بين موسى وداود وبين داود وعيسى فكما ذكر الله ﷻ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

وأما النصارى فكفرهم بالرسل مضاعف؛ لأنهم فرقوا بين الله ورسله، رغم أنهم يؤمنون بالرسل قبل المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلا أنهم كفروا بمحمد ﷺ، وإيمانهم بالمسيح مدخول، إيمانهم بالمسيح ليس إيمانًا صحيحًا؛ لأنهم آمنوا به على أنه ولد لله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، وعامتهم يقرون بأنه الإله وأن الله قد تجسد فيه، يقولون بالاتحاد بينه وبين الله، ومنهم من يقول بالحلول أن الإله قد حل بهذا البدن، بدن المسيح؛ ولذا كلهم يجزم ويعتقد أن المسيح هو الله، أعني: الفرق المعاصرة الموجودة؛ أما وجود الموحدين فقد كان وجودهم حاصلاً إلى زمن محمد ﷺ، لكن كانوا قلة مضطهدين، الأغلب الأعم الفرق الكبرى كلها تعتقد ألوهية المسيح؛ لذلك نقول: كان إيمانهم بالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ مدخولاً، آمنوا به على أنه ابن لله، وعلى أنه هو الله، وعلى أن الله ثالث ثلاثة، فكانوا يفرقون بين الله وبين رسله، ولم يؤمنوا بدعوة المسيح التي جاء بها من أن (لا إله إلا الله وأن عيسى رسول

الله)، فهم لم يؤمنوا بذلك، بل أطروا عيسى ابن مريم فوق منزلته، بالغوا في مدحه حتى جعلوه إلهًا يعبد من دون الله ومع الله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا؛ ولذا قال النبي ﷺ: «**لا تُطْرُوني، كما أطْرتْ النّصارى ابْن مرْيم، فإنّما أنا عبْدُهُ، فقُولُوا عبد اللّهِ، ورسُولُهُ**»[1]، أضافوا إلى ذلك الكفر بمحمد ﷺ، فهذا كله تفريق بين الرسل، آمنوا ببعض وكفروا ببعض، قال الله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ١٥١﴾.

وهذه المسألة من أعظم المسائل، أعني: مسألة أنه لا يصح إيمان بالله ﷻ إلا بالإيمان برسله، ولا يصح إيمان بالرسل إلا بالإيمان بالله بلا شريك وإلا بالإيمان بالرسل جميعًا، ولقد ذكر الله ﷻ عن الأقوام المختلفة أنهم كذبوا المرسلين، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٠٥﴾، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وإنما كذبوا رسولهم، وهذا حق لا شك فيه، فمن كذب رسولاً واحدًا فقد كذب جميع الرسل، لا ينفعه إيمانه ببعض الرسل وكفره بالبعض الآخر، كما لا ينفعه إقراره بوجوده الله لو كفر بالرسل جميعًا، أو قال: لم يحملوا شريعة إلى أهل الأرض، أو ظن أنهم مصلحون اجتماعيون، فإن هذا ليس إيمانًا بالرسل، هناك من يمدح محمدًا ﷺ ويصفه بالعظمة، ويرى أن أمر النبوة إنما هو أمر مكتسب، خليط بين الذكاء والقدرة على التخيل والتصور والقدرة على التخييل للناس، وهذا اعتقاد الفلاسفة الذين كفرهم العلماء، هذا الذي يعتقد أن الأذكياء من العالم يمكن أن يكونوا أنبياء؛ ولذا لم يعتقدوا بختم

---

(١) سبق تخريجه (١/١٥٦).

النبوة لأن الذكاء لا ينقطع، ومن لم يعتقد أن محمدًا ﷺ خاتم النبيين، فهو كافر؛ ولذا كانت الفرق التي تتدعي النبوة لأحد بعد النبي ﷺ؛ كالقاديانية المشهورين بالأحمدية، وكذا البابية والبهائية فهم كفار بلا نزاع بين المسلمين.

نقول: الإيمان بالله ﷻ لابد فيه من التوحيد ولابد فيه من الإيمان بالرسل جميعًا، وخصوصًا خاتمهم محمد ﷺ الذي قال: «**والذي نفْسُ مُحمّدٍ بِيدِهِ، لا يسْمعُ بي أحدٌ مِنْ هذِهِ الأُمّةِ يهودي ولا نصراني، ثُمّ يمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بَالذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلاّ كَانَ مِنْ أصْحابِ النّارِ**»(١)، وهذا نص قاطع في هذه المسألة.

ولما كان الإيمان ببعض الكتب المنزلة والكفر ببعض كفرًا، فكذلك بلا شك الإيمان ببعض الرسل دون بعض، أو الإيمان ببعض دعوتهم ورد بعض، فمن ظن أن دعوة الرسل إلى التثليث، أو أن دعوة الرسل إلى الشرك بالله ﷻ، فهذا لم يؤمن بالرسل ولم يتبعهم ولم يؤمن بالله ﷻ، فالذي يفرق بين الله ورسله حين يؤمن بالله - أو هكذا يزعم - وهو كافر بالرسل، أو يؤمن بالرسل وهو مشرك بالله أو يدعي له ما لا يجوز، فقد فرق بين الله ورسله، وكذا من قال: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ﴾.

مع أن القضية محسومة عند أهل الإسلام من قديم، إلا أن أصحاب زمالة الأديان ووحدة الأديان في زماننا وفي الأزمنة السابقة؛ من الباطنية الفرق

(١) سبق تخريجه (٢/ ١٩١).

الضالة المنحرفة أصحاب وحدة الوجود وأصحاب مساواة الملل، حاولوا في الماضي ولا يزالون يحاولون في المستقبل في هذه القضية، حتى قال قائلهم: الخلاف مع اليهود والنصارى في أمر النبوة، وهو لا يقتضي كفرهم، نعوذ بالله من الكفر.

من سوغ للناس تكذيب محمدٍ ﷺ، أو حتى ترْك اتباعه ولو كان مصدقًا به، لكن سوغ للناس ولو لآحاد من الناس الخروج عما جاء به محمد ﷺ فقد فرق بين الرسل، فهو كافر حقًّا، لا يختلف المسلمون في ذلك، والقضية قضية خطيرة، خصوصًا عندما تصبح هذه الدعوة دعوة عالمية، دعوة مساواة الملل وحوار الأديان وغير ذلك، التي لا يقصدون بها محاورة أهل الكفر ليدخلوا في الإسلام، بل إنما يبحثون عن القدر المشترك - كما زعموا - مع السكوت عن غيره؛ حتى تنشأ أجيال لا تعرف أن من خالف دين الإسلام فهو كافر، يأبون وصف الآخرين بالكفر، بل يقولون: الآخرون أو الآخر؛ حتى يهونوا هذه المسألة، وحتى توجد أمم أو أجيال قادمة لا تعرف أن الإسلام هو الحق دون ما سواه؛ لذا نقول: القضية بلا شك خطيرة، قضية التفريق بين الرسل، وينبغي أن تبين للناس، خصوصًا مع كثرة الإلحاح على مسألة وحدة الأديان وزمالة الأديان ومساواة الملل في وسائل الإعلام وفي خطابات الكبار والرؤساء، حتى رؤساء الدول الغربية إنما يدندنون حول هذه المسألة، مسألة مساواة الملل، ونعوذ بالله من ذلك، وجب التنبيه والتأكيد على أن من كفر بمحمد ﷺ كيف يكون مؤمنًا بحال؟! لابد من بيان هذا الأمر، ومن تدبر هذه المسألة علِم أن الحجة قائمة بهذه المسألة على كل من بلغته: (لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ)؛ لأن هذا من المعلوم من الدين

بالضرورة أن الرسول ﷺ أرسل إلى كافة الخلق، وأنه جاء بذلك وعليه أمة الإسلام، فمن سوغ لأحد وجوّز له أن ينجو عند الله، وهو يكفر ويكذب محمدًا ﷺ، فهو شاك على أقل تقدير فيما يقول: أشهد أن محمدًا رسول الله. كيف تشهد أنه رسول الله، وفي نفس الوقت تصحح مذهب ودين وملة، أو تسوغ ملة من يقول: هو رجل كذاب أو ساحر أو ليس برسول أو ليس بنبي؟! فمن فعل ذلك فهو كافر بإجماع المسلمين، لا نزاع في هذه المسألة.

وكما ذكرتُ الحجة فيها قائمة ببلوغ أن محمدًا رسول الله ﷺ، فمن قال وهو يعلم عقيدة النصارى واليهود - والنصارى خصوصًا - في عبادة غير الله؛ لأن كثيرًا من الناس لا يدري شرك اليهود إلا بالتلازم أعني أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا حين اتبعوهم في تبديل الشرع، وطائفة منهم هي التي تقول عزير ابن الله وليس كلهم، فهناك قد يتلبس الأمر على البعض ويظن أن اليهود موحدون، والحقيقة أنهم مشركون بتكذيبهم محمدًا ﷺ وبتكذيبهم القرآن.

نقول: من علم أن من دين اليهود والنصارى تكذيب محمد ﷺ ثم صحح مِلّتهم، كان ناقضًا للشهادة، كان ناقضًا لما أتى به من شهادة أن محمدًا رسول الله، وبالتالي يكون قد نقض شهادة لا إله إلا الله؛ لأنه بذلك قد فرق بين الله ورسله، ومن كان يعلم ويعرف أن من عقيدة النصارى عبادة المسيح من دون الله أو مع الله أو على أنه صورة من صور الإله، وهو يعلم أنهم يقولون: إنه ابن الله: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾، وكذا أنهم يقولون: إنه ثالث ثلاثة، ثم صحح ملتهم وجوز عقيدتهم، فهو مشرك

بالله ﷻ كافر بمجرد ذلك؛ لأن الحجة مقامة عليه بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

الذي يُتصور من الجهل في ذلك أن لا يكون يظن أن النصارى يعبدون المسيح، أو يظن أنهم لا يكذبون محمدًا ﷺ، وإنما يقولون: هو رسول إلى العرب مثلاً، فيُبين له الأمر، يُبين له حالهم، وأن رسول الله ﷺ أرسل إلى الناس كافة، فإذا بُيِّن له فأصر على عدم تكفيرهم كان كافرًا، نعوذ بالله من ذلك.

وكذا تتلى عليه الآيات البينات، لو قال مثلاً: هم مخطئون وليس بكفار. تتلى عليه الآيات: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾، وكذا: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، تتلى عليه الآيات فإن أصر بعد ذلك أنهم ليسوا مشركين ولا كافرين، لم يكن مسلمًا.

وهذه القضية من أعظم القضايا فتنة في زماننا؛ لأن كثيرًا من الناس يُروّج عليه هذا الأمر، ومن أيام الاحتلال الغربي لبلاد المسلمين وهم يمهدون الطريق نحو هذه العقيدة الفاسدة، والحقيقة - كما ذكرتُ - أنه وجد في الإسلام فرق تنتسب إلى الدين وهي تنتحل هذه النِّحْلة الكفرية بلا نزاع،

فأصحاب وحدة الوجود، أصحاب ابن عربي، ابن عربي قد صرح وكذا ابن الفارض في تائيته وكذا باقي القائلين بوحدة الوجود كصدر الدين القونوي وجلال الدين الرومي وأمثالهم، كلهم يصرحون بأن الملل متساوية، وأن من يعبد الوثن كمن يعبد الصليب كمن يعبد الله الواحد الأحد، وأن أتباع كل الملل يسوغ لهم أن يبقوا على ما هم عليه، والعياذ بالله؛ ولذا تجد ترحيبًا هائلاً من الغربيين من المستشرقين وكذا من الهيئات الرسمية بفكر ابن عربي وابن الفارض، وجلال الدين الرومي، وصدر الدين القونوي، وأمثالهم من يصرح بوحدة الأديان والملل.

وهم مصرون على تكذيب محمد ﷺ، وتكذيب ما جاء به من أنه لا يُعبد إلا الله، نعوذ بالله من ذلك، يعني: يصححون ملتهم رغم علمهم بتكذيبهم محمد ﷺ؛ لذلك نقول: هذا من مسائل الجاهلية الخطيرة؛ أما المشركون الذين بعث فيهم محمد ﷺ - عباد الأوثان - ففرقوا بين الله ورسله فأقروا بوجود الله سبحانه خالق السماوات والأرض وفرقوا بينه وبين رسله فلم يوجبوا اتباع الرسل، وإنما أوجبوا اتباع الكبراء والسادة؛ كما قال ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾، وفي القصة المشهورة في إسلام أبي سفيان أنه قال: **(فذهبْتُ بِهِ إلى رحْلِي، فبات عِنْدِي، فلمّا أصْبح غدوْتُ بِهِ إلى رسُولِ اللّهِ ﷺ، فلمّا رآهُ رسُولُ اللّهِ ﷺ، قال: ويْحك يا أبا سُفْيان، ألمْ يأْنِ لك أنْ تعْلم أنّهُ لا إله إلّا اللّهُ؟ قال: بِأبِي أنْت وأُمِّي، ما أحْلمك وأكْرمك وأوْصلك، واللّهِ لقدْ ظننْتُ أنْ لوْ كان مع اللّهِ إلهٌ غيْرُهُ لقدْ أغْنى عنِّي شيْئًا بعْدُ، قال: ويْحك يا أبا سُفْيان! ألمْ يأْنِ لك أنْ تعْلم أنِّي رسُولُ اللّهِ؟ قال: بِأبِي أنْت وأُمِّي، ما أحْلمك وأكْرمك**

وأَوْصلك! أمّا هذِهِ واللّهِ فإنّ فِي النّفْسِ مِنْها حتّى الْآن شيْئًا. فقال لهُ الْعبّاسُ: ويْحك! أسْلِمْ واشْهدْ أنْ لا إله إلّا اللّهُ، وأنّ مُحمّدًا رسُولُ اللّهِ قبْل أنْ تُضْرب عُنُقُك. قال: فشهِد شهادة الْحقِّ، فأسْلم)[(١)]. فأسلم وقد حسن إسلامه بعد ذلك، ولكن المقصود أنهم كانوا يقرون بوجود الله وأنه الذي يتصرف في الكون ويدبره: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾.

فهذا دليل على إقرارهم بربوبية الله أو ببعض معاني الربوبية، لكنهم أبوا أن يوحدوه إلهًا معبودًا لا شريك له، وأبوا أن يتابعوا محمدًا ﷺ، حتى دعوا: «**اللّهُمّ أقطعنا لِلرّحِمِ، وآتانا بِما لا يُعْرفُ، فأحِنْهُ الْغداة**»[(٢)]، يدعون الله أن يفصل بينهم وبين محمد ﷺ، حتى قال ﷻ: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، من عتوهم وكفرهم يزعمون أنهم مستيقنون بعدم نبوته ﷺ، لدرجة أنهم يدعون لو كان هذا هو الحق من عند الله ﷻ أن يمطرهم الله بحجارة من عنده أو يأتيهم بعذاب أليم، فأمطر علينا حجارة من السماء، يدعون على أنفسهم كأنهم مستيقنون تمام اليقين أن محمدًا ﷺ لم يأت من عند الله، فهذا تفريق بين الله ورسله.

وقد ورث هذا الميراث كل الفرق الضالة المنحرفة التي وصلت إلى

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤٠٣)، والروض الأنف (٧/ ٢١٢)، ودلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٣٤).

(٢) سبق تخريجه (٢/ ٢٠٩).

الشرك بالله، فإن ميراث الكافرين موروث لدى من أشرك بالله ﷻ، وهذا وإن زعم الإيمان بمحمد ﷺ، لكنه عبد غير الله مع الله؛ أشرك بالله، صرف له العبادة، دعاه، أو استغاث به، أو استنصره، أو طلب منه قضاء الحاجات وكشف الكربات، ودعا له الشفعاء من دونه، فهذا هو الذي ورث عقيدة المشركين، وكذا من غلا في النبي ﷺ حتى جعله لله ندًا، فإنه قد ورث ميراث النصارى في عدم إيمانهم بالمسيح عبدًا ورسولاً، وقد قال ﷺ: «**لَا تُطْرُونِي، كَمَا أطْرتْ النّصارى ابْن مرْيم، فإِنَّمَا أَنَا عبْدُهُ، فقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ**»[1]، فهو لا يرضى برفعه فوق منزلته التي جعله الله ﷻ فيها، فالذين غلوا فيه وجعلوا له تدبير الكون وجعلوه ﷺ يشارك الله ﷻ في علمه حتى قال قائلهم[2]:

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي منْ أَلُوذُ بِهِ ... سِواكَ عِنْدَ حُلُولِ الحادِثِ العمِمِ

إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مِعَادِي آخِذا بِيدِي ... فضْلا وإِلَّا فقُلْ يَا زلَّة الْقَدَمِ

فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيا وضرَّتها ... ومنْ عُلُومِك عِلْمُ اللّوحِ والقلمِ

من علوم الرسول: علم اللوح والقلم، ومن جود الرسول: الدنيا وضرتها، وهي الآخرة، فسبحان الله! ما بقي لله إذا كانت الدنيا والآخرة من عطاء رسول الله ﷺ يعطيها لمن شاء، فماذا يبقى لله ﷻ؟! وإذا كان علم اللوح والقلم، علم الغيب الذي استأثر الله به، بل وتفاصيل كل ما يقع؛ من قطرة ماء تنزل من السماء، أو نقطة في بحر، أو ورقة في غابة من الغابات،

---

(١) سبق تخريجه (١/ ١٥٥).

(٢) سبق عزوه (٢/ ١٩١).

أو خاطر يخطر في بال عبد من العباد عبر السنين، أن كل ذلك من علوم رسول الله ﷺ، نعوذ بالله من الغلو، وأي غلو فوق هذا؟!

نقول: هذا الميراث، ميراث الجاهلية، الذي ورثه أهل الغلو وأهل البدع الذين تابعوا من سبقهم في التفريق بين الرسل والتفريق بين الله ورسله، نعوذ بالله من الضلال.

الْمسْألةُ التّاسِعة عشْرة بَعْدَ الْمِائَةِ: مُخالفتُهُمْ فِيمَا ليْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ.

الـشـــرح:

المجادلة بالباطل حتى وهو لا يعلم، لكن يريد أن يكون له مشاركة في الجدال، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

انتحل اليهود والنصارى إبراهيم عليه السلام، كلٌّ منهم يدعي أنه من طائفتهم، مع كونهم يحصرون الهداية في طائفتهم، فلا يصح عند اليهود أن يوصف بالهداية إلا من كان يهوديًّا، ولد يهوديًّا من أم يهودية، حصروا الهداية في ذلك؛ وأما النصارى فيزعمون أنه لا يهتدي ولا ينجو إلا من قبل المسيح مصلوبًا مخلّصًا؛ فأين هذا في دعوة إبراهيم الذي تنتحلونه وتنتسبون إليه حتى زعمتم أنه على ملتكم، زعم اليهود أنه على ملة اليهود، كيف وما أنزلت التوراة إلا بعد إبراهيم؟! والنصارى يزعمون أنه على طريقتهم، كيف وعيسى ما أرسل إلا بعد إبراهيم بزمان وما أنزل الإنجيل إلا من بعده؟!

وقد يظن البعض أننا حين نقول: إن إبراهيم كان مسلمًا ترد علينا نفس الشبهة: فقد كان الإسلام بعد ذلك.

نقول: بل الإسلام دين جميع الأنبياء، الإسلام معناه: الاستسلام

والانقياد التام لأمر الله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾. وأما الإسلام الخاص، أعني: التزام هذه الشريعة التي بعث بها محمد ﷺ، فهذا بعد بعثته ﷺ يستحيل أن يوجد من يتدين بهذا الدين بالإسلام إلا بمتابعته ﷺ؛ أما قبل بعثته فقد كان يمكن أن يوجد يهودي مسلم، ونصراني مسلم، وصابئ مسلم؛ لأن الله ﷻ ذكر ذلك عن هؤلاء، وقد وجد ذلك، يمكن أن يوجد، وقد كان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حنيفًا مسلما، وما كان من المشركين.

فمن كان موحدًا من أهل الملل قبل أن تبلغه دعوة محمد ﷺ، من كان مؤمنًا بالله واليوم الآخر وعمل صالحا، فهذا له أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وهل هناك أنبياء دعوا إلى مسمى غير الإسلام؟

الظاهر أن هناك أسماء بالإضافة إلى اسم الإسلام، كقول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ﴾، ولكن هذا لا ينافي اسم الإسلام؛ لأنهم دعوا إليه اسمًا وحقيقة، بالإضافة إلى وصف اختصوا به، وذلك كما قال ﷻ: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ﴾ وهم موحدون لأنهم كما وصف الله هؤلاء: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ﴾.

لكن اسم الإسلام أصبح خاصًا بهذه الشريعة بعد بعثته ﷺ، أعني: أنه لا يصح أن يكون هناك مسلم لا يتدين باتباع محمد ﷺ؛ أما قبل بعثته فيمكن

كأن لم تبلغه رسالته ﷺ، ولو أمكن وجود موحد من أهل الكتاب لم يسمع برسالة محمد ﷺ، لقلنا: نعم هذا إنسان ناج عند الله، كما قال النبي ﷺ في الثلاثة الذين لهم أجرهم مرتين: «**رجُلٌ مِنْ أهْلِ الْكِتابِ آمن بِنبِيِّهِ، وأدْرك النّبِيّ ﷺ فآمن بِهِ واتّبعهُ وصدّقهُ**»(١).

وفي الحقيقة هناك عدد محدود جدًا من فرق النصارى يقول بعدم ألوهية المسيح، لكن مسألة تكذيب محمد ﷺ واردة عليهم أو حتى عدم متابعته، لو صدقوه أنه رسول الله، لكن لم يلتزموا اتباعه، كما جاء حبران من أحبار اليهود وسألا النبي ﷺ: «**. . . وجِئْتُ أسْألُك عنْ شيْءٍ لا يعْلمُهُ أحدٌ مِنْ أهْلِ الْأرْضِ إِلّا نبِيٌّ أوْ رجُلٌ أوْ رجُلانِ. قال: ينْفعُك إِنْ حدّثْتُك؟ قال: أسْمعُ بِأُذُنيّ**». فأجابهما النبي ﷺ: «**فقبّلا يديْهِ ورِجْليْهِ وقالا: نشْهدُ أنّك نبِيٌّ، قال: فما يمْنعُكُما أنْ تُسْلِما؟ قالا: إِنّ داوُد دعا اللّه، أنْ لا يزال فِي ذُرِّيّتِهِ نبِيٌّ، وإِنّا نخافُ إِنْ أسْلمْنا أنْ تقْتُلنا اليهُودُ**»(٢).

ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر في مناظرته مع طوائف من أهل الكتاب أنه ألزمهم بأنكم لو قلتم: إن محمدًا ﷺ كاذب، لكان ذلك فيه نفي وجود الرب أصلاً، وليس شركًا به؛ لأنه يؤيده بأنواع التأييد وينصره على من تزعمون أنهم أولياء

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤)، واللفظ لمسلم: «**ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللهِ تَعَالَى وَحَقَّ سَيِّدِهِ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ فَغَذَّاهَا، فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا، ثُمَّ أَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ أَدَبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ**».

(٢) أخرجه بهذه الزيادة الترمذي (٣١٤٤)، والطيالسي (٢/ ٤٨٣)، والطبراني في الكبير (٨/ ٦٩)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٨٧)، وأصله في مسلم (٣١٥).

الله، ويجري على يديه خوارق العادات، ويصدقه في كل خبر يخبر به عنه، فلو كان هذا كله كذبًا للزم عدم وجود إله لهذا العالم، وإلا كان إلهًا مضلاً للناس. فقالوا: نحن لا نقول إنه ليس برسول حاشا وكلا - هذا ابن القيم يحكي قولاً عن أناس في زمنه - ولكن نقول: إنه رسول إلى العرب(١).

وهذا متناقض، لو صدقتم أنه هو رسول من عند الله أيًّا ما كان، هو قد أخبر فيما أوحاه الله إليه، صدقتم هذا الكتاب الذي أنزله الله عليه وقلتم هذا كتاب حق تحتجُّون بآياته، وقد قال الله فيه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وكذا قال النبي ﷺ: «**وبُعِثْتُ إلى النّاسِ عامّةً**»(٢)، فالقرآن ينص على أن محمدًا ﷺ رسول إلى الناس كافة، رسول إلى الناس جميعًا، فلو صدقتموه ولم تتبعوه كنتم كفارًا، حتى ولو زعمتم أنكم تنتظرون نبيًّا آخر، أو تنتظرون نزول المسيح أو غير ذلك، مع أن عندهم من أنواع الكفر أنواع متعددة، كل طائفة منها لها من أنواع الكفر أنواع متعددة،

---

(١) قال ﷺ: (فَقَالَتِ الْيَهُودُ: وَأَنْتُمْ أَيْضًا مَخْدُوعُونَ، أَتَرَوْنَ أَنَّهُ آمَنَ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْقُوَّادِ وَمِنْ رُؤَسَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ؟ فَقَالَ لَهُمْ بَعْضُ أَكَابِرِهِمْ: أَتَرَوْنَ كِتَابَكُمْ يَحْكُمُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ مِنْهُ؟ فَقَالُوا لَهُ: اكْشِفِ الْكُتُبَ تَرَى أَنَّهُ لَا يَجِيءُ مِنْ جِلْجَالَ نَبِيٌّ. فَمَا قَالَتِ الْيَهُودُ ذَلِكَ إِلَّا وَقَدْ أَنْزَلَ نَفْسَهُ بِالْمَنْزِلَةِ الَّتِي أَنْزَلَهُ بِهَا رَبُّهُ وَمَالِكُهُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَلَوْ عَلِمَتْ مِنْ دَعْوَاهُ الْإِلَهِيَّةِ لَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ وَأَنْكَرَتْهُ عَلَيْهِ، وَكَانَ أَعْظَمَ أَسْبَابِ التَّنْفِيرِ عَنْ طَاعَتِهِ، لِأَنَّ كَذِبَهُ كَانَ يُعْلَمُ بِالْحِسِّ وَالْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ وَاتِّفَاقِ الْأَنْبِيَاءِ). انظر: هداية الحيارى (٢/ ٤٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١)، بلفظ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**». واللفظ للبخاري.

فالمخالفة فيما ليس لهم به علم، المجادلة بالباطل، هذا ظاهر جدًا عند اليهود وعند النصارى، وذلك أنهم يزعمون أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى، فما شأن الأنبياء قبل ذلك؟! ما شأن كل من جاء قبل موسى؟! ولا شك أن الكتاب الذي بين أيديهم يشهد لأنبياء الله بالنجاة، ويشهد لمن تبعهم بالنجاة، فكيف تقولون: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى؟!

كيف تزعمون أن اليهود بني إسرائيل فقط هم شعب الله المختار دون غيرهم، وأن الله لم يصطف أحدًا، وأنه لابد أن يولد يهوديًّا ويحصرون؟! ولذلك الديانة اليهودية أقل ديانة تنتشر، لا يمكن أن يتهود الإنسان، ممنوع التهود عندهم، الذي لم يولد يهوديًا أغلق عليه الباب، والعياذ بالله.

هم ستة ملايين لا يزيدون، في العالم كله لا يزيدون عن عشرة ملايين؛ لأنهم يمنعون الدخول، ليس عندهم أنه يمكن أن يكون هناك إنسان يأخذ من خبز الأولاد، لا يوجد كلب يأخذ من خبز الأولاد، كما زعموا بالكذب والزور.

والعجب أن النصارى يصدقونهم على ذلك، لكنهم فتحوا الباب للكلاب لمن أقر بأنه من الكلاب، حكيت لكم قبل ذلك أنهم يزعمون أن امرأة جريت وراء المسيح ليدعو لابنها بالشفاء، فقال: ليس حسنًا أن يأخذ خبز البنين ويرمى للكلاب، فقالت: يا سيدي، الكلاب أيضًا تأكل مما يلقيه إليها سادتها. فقال: ما أعظم إيمانك يا امرأة! اذهبي فقد شفي ابنك.

فالذي يقر بأنه كلب يأخذ من الذي يعطيه له اليهود، الذي يقر بذلك فهو

مؤمن إيمان عظيم، يكون تابع لليهود، كلب عندهم ينفذ ما يريدون، فهذا هو المقبول ويمر عندهم، والعياذ بالله.

ولذلك الإنسان يتعجب كيف يوالي النصارى اليهود هذه الموالاة العجيبة وحرص عظيم على كل مصلحتهم، وهم يكذبون نبيهم ويقولون: ابن زنا، والعياذ بالله، يعني: الواحد لا يقدر أن يتكلم بهذه الكلمات، والعياذ بالله؛ لأن الله قال: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾، ويزعمون أنه كاذب، ويزعمون أنه صلب لأجل أنه ادعى الألوهية فيجب أن يصلب، كما حكم بذلك الكتاب، لابد أن يقتل وأنهم فعلوا ذلك به.

ومع ذلك يتبعونهم هذا الاتباع، يكذبون نبيهم ويكذبون كتابهم، ويتهمون أمه بالفاحشة، والعياذ بالله، ومع ذلك كالكلاب عندهم! عقيدة عجيبة، لكن تفسرها هذه القصة، أنهم من ألقى إليهم السادة بشيء، وأنهم كالكلاب عندهم فهؤلاء يكونون مقبولين عند الرب، وأظن أن الأمر أعمق من ذلك في التبعية لأجل الرياسة والملك الذي يحركه اليهود، وإلا فالباب لا يحتمل عقائد تقبل بدرجة من درجات العقل أبدًا، ليس هناك عقائد مقبولة، وإنما هي كما ذكرت: ملك ورياسة وجاه، اليهود مسيطرون على مفاتيحه في ظنهم، فلابد من رعاية مصالحهم، والعياذ بالله، نسأل الله العافية.

وعند النصارى المحافظين في هذا الزمان وعلى رأسهم بوش القديم الرئيس السابق، كان يقولون: إن نزول المسيح مرتبط بسيطرة اليهود على العالم. هذا وإن كان في الحقيقة كلام غير محتمل، فكيف يسيطر اليهود على العالم وهم يكذبون المسيح؟!

نسأل الله العافية، فكل هذا في المخالفة بما ليس لهم به علم - كما ذكرنا - منطبق على اليهود والنصارى في أوضح المقامات كما ذكرت، يعني: لا يقبل عقل سليم أبدًا أن كل الرسل قبل مجمع نيقية الأول - لا نقول قبل الإنجيل - الذين يزعمون أن نجاة الناس إنما هي بالصلب، إنما هذا الذي قرره مجمع نيقية الأول بعد ثلاثمائة وبضعة عشر سنة من المسيح أو في القرن الرابع الميلادي بعد أكثر من ثلاثمائة سنة؛ أما قبل ذلك فماذا كانت الدعوة؟! الأناجيل المكتشفة مسجلة بتواريخ قبل مجمع نيقية الأول في بحيرة طبرية وفي غيرها لا علاقة لها بقصة الصلب، لا تذكر قصة الصلب كقضية الفداء، إنما تذكر تعاليم المسيح فقط، تعاليم المسامحة والعفو مع التأكيد على التوحيد، وأناجيل مكتوبة قبل هذا المجمع العجيب، هو الذي جعل له كل الصلاحيات في تقرير العقيدة، في تقرير ما هو الكتاب المقدس، في إلغاء ما ليس بمقدس عندهم؛ لأن هذا المجمع كان معروضًا عليه أو كان في ذلك الزمن نحو سبعين إنجيلاً اختار منها أربعة فقط وألغى الباقي، فماذا كان شأن الأمم السابقة قبل هذا المجمع، وقبل تقرير هذه العقيدة، وعلى الأقل قبل مجيء المسيح، وليس هناك حرف عن أن الصلب فداء وأنه لا فداء بدون ذلك؟! يجادلون فيما ليس لهم به علم، ينتحلون إبراهيم عليه السلام وينتسبون إليه، وهم لا يفقهون أن هذا الأمر حجة عليهم بلا شك؛ لأن إبراهيم عليه السلام أنتم تتبعونه أو تقولون: إنكم تتبعونه ولم يكن عنده شيء من ذلك: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

أما الكفار من قريش فهذا من كذبهم وافترائهم أيضًا يفترون على الله الكذب ويجادلون فيما ليس لهم به علم، كما بين النبي ﷺ في قوله عنهم عندما رأى صورة إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام داخل الكعبة، فقال: «**قاتلهُمُ اللّهُ، لقدْ علِمُوا: ما اسْتقْسما بِها قطُّ**»[(١)].

ومع ذلك كانوا يجادلون كثيرًا بالباطل دون علم، ومن كان من أهل الجهالة والضلالة من هذه الأمة من أهل البدع والانحراف ورث هذه الضلالات، ويخالف فيما ليس له به علم، ويجادل بالباطل مدافعًا عن البدع، فالخرافات والخزعبلات والأحاديث الضعيفة والمكذوبة التي يبني عليها أهل البدع - خصوصًا من الرافضة ومن الصوفية - عقيدتهم وأعمالهم، هذا من المجادلة والمخالفة فيما ليس لهم به علم، مجرد حكاية يجدونها في كتاب يبنون عليها أنواع الضلال والغلو في الأئمة والغلو في المقبورين، يحكون الحكايات العجيبة، من أين لكم علم بهذا؟! إنما هذا ميراث ورثوه ممن سبقهم من المشركين ومن أهل الكتاب، وسبحان الله كم يجادل بالباطل وفيما ليس له به علم أقوام من هذه الفرق كلها، وكل على قدر نصيبه فيما ورث من الباطل.

نسأل الله ﷻ أن يعافي المسلمين من كل بلاء، وأن ينجينا من شر الجهل والضلال.

---

(١) سبق تخريجه (٢/ ٢٥٥).

الْمسْألةُ الْعُشْرُون بَعْدَ الْمِائةِ: دعْواهُمْ اتِّباع السّلفِ مَعَ التّصْرِيحِ بِمُخالفتِهِمْ.

الشرح:

أهل الكتاب والمشركون كلٌّ منهم يدعي أنه يعظم سلفه من الأنبياء وأتباعهم، ويدعي أنه يتبعهم، واليهود معلوم أنهم يزعمون اتباع موسى ﷺ مع كونهم يكذبون بما أخبر به موسى وبما أوحى الله إلى موسى في التوراة من بعثة محمد ﷺ؛ كما قال ﷻ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. فالله ﷻ أوحى إلى موسى ﷺ وأخبره ببعثة محمد ﷺ وذكر وصفه في التوراة، وكما وصف الله ﷻ أتباعه ﷺ، فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، هذه الآيات تدل على أن من ادعى متابعة موسى والتوراة، ومن ادعى متابعة المسيح والإنجيل، ثم هو يكفر بمحمد ﷺ، فهو كاذب في دعواه في كونه يتبع أسلافه المؤمنين الذين مدحهم الله ﷻ وأثنى عليهم،

كما أن النصارى يزعمون اتّباع الحواريين ويعظمونهم، بل يغالون فيهم، وأخبر الله سبحانه وتعالى عن الحواريين قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾، فهم مع تصريحهم بمخالفتهم يدعون متابعتهم، وهذا من أعظم التناقض، هذا الذي استوجب لهم ألا يلحقهم الله بالمؤمنين من أسلافهم، وأنه لا ينفعهم ادعاء المتابعة، وأن الإيمان بما أنزل الله عز وجل إلى جميع أنبيائه ورسله وما أوحى إليهم من كتبه شرط في صحة متابعة الأنبياء، كُلٌّ لا يكون متبعًا للأنبياء ولا لأصحاب الأنبياء من كذّب نبيًا واحدًا ومن كفر بكتاب أنزل الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك كان من كذب المسيح عليه السلام من اليهود وكذب بالإنجيل كان كافرًا، باء بغضب من الله، ومن كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم منهم، باء بغضب على غضب، كما وصف الله سبحانه وتعالى، فنحو قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾، هي فيمن سلف من المؤمنين والنصارى وكذا الصابئين الذين يوحدون الله سبحانه وتعالى، وإن لم تعرف لهم شريعة، لكنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويوحدونه سبحانه وتعالى.

المقصود: أن هذه فيمن آمن بالأنبياء ولم يبلغه خبر من تأخر منهم؛ فلذلك لم ينسب إليه، ما زال يسمى من الذين هادوا؛ لأنه لم يبلغه خبر رسالة المسيح، وما زال يسمى من النصارى؛ لأنه لم يبلغه خبر بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، أو كمن كان من اليهود بلغه كذب النصارى على المسيح من أنهم يدعون أنه جاء لأنه ابن الله وأنه هو الله وأنه ثالث ثلاثة؛ فمن كذب بهذا لم يكذب المسيح، وإنما الذي كذب المسيح هو من كذب رسالته، وكذب أنه جاء بالإنجيل من

عند الله ﷻ، من كذب أنه عبد الله ورسوله، واليهود يكذبون بذلك؛ فلذلك باءوا بغضب على غضب.

فنقول: من لم يبلغه خبر المسيح من اليهود، فكان موحدًا على شريعة موسى عليه السلام، ومن بعده من الأنبياء كان مقبولاً؛ أما من كان يعلم خبر المسيح ويعرف ما جاء به من عند الله ثم يكفر به، فليس متبعًا لموسى ولا لأتباع موسى، وكذا من النصارى ومن اليهود ومن الصابئين من بلغه خبر محمد ﷺ ورسالته، وأنه يدعو الناس إلى توحيد الله ﷻ، وأنه رسول من عند الله فكذب بذلك، فهذا لم يتبع موسى، ولم يتبع عيسى، وليس من أتباع موسى ولا من أتباع عيسى.

وأما مشركو العرب فكان عندهم من هذه المسألة أنهم يزعمون اتباع إبراهيم وإسماعيل، ويتشرفون بالانتساب إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ومع ذلك فقد خالفوا فيما ابتدعوا من الشرك، خالفوا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حين صوروهما يستقسمان بالأزلام، وهم يعلمون أنهما ما استقسما بها قط، كما أخبر بذلك النبي ﷺ(١).

لذلك هذا المرض مرض عضال خطير، وهو الاكتفاء بالادعاء، والظن أن ذلك الانتساب إلى من سبق من الأئمة والسلف كاف في تحقيق النجاة، وهذا قد تسرب إلى طوائف، كما ذكرنا كان من صفة أهل الكتاب والمشركين، ولم ينفعهم عند الله ﷻ، فقد تسرب هذا المرض إلى المتأخرين من هذه الأمة من أهل البدع والضلال والنفاق، ممن زعم متابعة

---

(١) سبق تخريجه (٢/ ٢٥٥).

السلف وزعم أنه على طريقهم، مع كونه يصرح بمخالفتهم، وبعضهم ينسب إليهم ما لم يقولوه، ولنضرب على ذلك مثالاً في قضية الأسماء والصفات من المعتزلة والأشاعرة، ممن يدّعُوا المتابعة لأصحاب النبي ﷺ، مع كونهم ينقلون عنهم أنهم ما تكلموا قط في تأويل الصفات، ويقولون: طريقة السلف أسلم، وهي ترك التأويل، وأحيانًا يكذبون في نقلهم ويقولون: هم يقولون بتفويض المعنى، يقولون بأن السلف يفوضون معاني الكلام، بحيث أن أسماء الله وصفاته ليست إلا حروفًا مجهولة المعنى، كلمات مبهمة كالكلام الأعجمي لا يفهم منه معنى على الإطلاق، ويزعمون أن هذا مذهب السلف وهم يعلمون أن السلف قد تكلموا في تفسير أسماء الله وصفاته، وتكلموا في إثبات هذه الأسماء الحسنى والصفات العلى وأفعال الله ﷻ، لم يتكلموا قط في تحريفها باسم التأويل، ولم يتكلموا قط في تفويضها بالتجهيل، إنما فوض السلف الكيفية ولم يفوضوا المعنى، فكم من منتسب إلى هؤلاء ويزعم أنه من أهل السنة وأنه تابع للأئمة، ومع ذلك يخالفهم. فالكل ينتحل الأئمة الأربعة وينتحل أئمة الحديث، ينتحل الانتساب إليهم، ينتحلهم بمعنى: يدعي متابعتهم، مع كونه يجد في كتب السنة وفي كلام الأئمة ما يثبت منهج السلف في إثبات الأسماء والصفات كل ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، فإذًا لم تنفعهم هذه النسبة.

مثال آخر: في ادعاء الرافضة متابعة أئمة أهل البيت، وهم يدعون أنهم يحبونهم ويتابعونهم، وكم من نقول صحيحة هم الذين أثبتوه ليس فقط أهل السنة هم الذين يثبتونها، بل كتاب مثلاً يعتمدونه اعتمادًا تامًا، كتاب (نهج

البلاغة) المنسوب إلى علي بن أبي طالب ﵁، مع كونه ليس صحيح الإسناد إليه، ولكن هم يثبتونه، فيه من الحكم العظيمة والمواعظ الجسيمة بالإضافة إلى بعض المخالفات، لكن في الجملة فيه معان جيدة، وهذا الكتاب مليء بحب الصحابة والخلفاء الأربعة الراشدين ومعرفة فضلهم ﵃ مليء بنصوص كثيرة جدًا، فهم ينسبون ذلك لعلي بن أبي طالب، ومع ذلك يخرجون عما قاله علي ﵁ بزعمهم، وكذا ينتحلون وينتسبون إلى جعفر الصادق ومحمد الباقر من الأئمة، وهم ينتسبون أصلاً ويسمون جعفرية من أجل انتسابهم إلى جعفر ﵁، والآثار التي تنقل عندهم وعند أهل السنة عن جعفر ﵁ في حب الصحابة ﵃، وخصوصًا الخلفاء الثلاثة: أبي بكر وعمر وعثمان ﵃، يقولون: جاءت نصوص في فضل الصحابة عن الأئمة تقية. كأن هؤلاء حتى مع خاصتهم يستعملون التقية، وهذا كلام باطل منكر، لكن هم يدعون متابعة من سلف من أئمة البيت، ومع ذلك يخالفونهم ويصرحون بمخالفتهم، وهذا من العجب!

وكذا من كان من الصوفية الذين ينتحلون مذهب أهل السنة، بل يقولون: نحن أهل السنة والجماعة. كما يُسمع الآن مثلاً ببعض الجماعات التي تسمى بأهل السنة والجماعة، وهي على منهج الصوفية، يقولون: نحن أهل السنة والجماعة، وهم يخالفون أهل السنة، يخالفونهم في العقيدة بالغلو في الصالحين، هل كان عند الصحابة ﵃ والتابعين وتابعيهم ما عند هؤلاء من الإشارات أو التصريحات بوحدة الوجودة أو بالحلول، أن الله ﷻ يحل في مخلوقاته؟!

هل قال أحد منهم مثلاً: (سبحاني سبحاني ما أعظم شاني)، كما تنقلون عن أئمتكم المبطلين؟!.

هل قال أحد من الصحابة والتابعين وأئمة السنة: لا إله إلا الله ما في الجبة إلا الله كما تنقلون عن أئمتكم؟! وتعتبرون من قال ذلك من الأئمة الكبار المظلومين في التاريخ كالحلاج مثلاً، ويعتبرون قتله على الزندقة مأساة ظالمة ظلمًا عظيمًا، وأنه قتل شهيدًا على أنه يصرح بالحلول، ويقول: لا إله إلا الله ما في الجبة إلا الله.

والأئمة الذين يقولون بوحدة الوجود ويصرحون بوحدة الملل هل تنقلون شيئًا عن الصحابة رضي الله عنهم في ذلك؟!

هل كان الصحابة رضي الله عنهم يبنون المساجد على القبور ويرفعون القبور، مع أنكم تقطعون وتجزمون أن الصحابة رضي الله عنهم إلى زمن تدوين الفقه.. الصحابة والتابعين ومن تبعهم لم ينقل عنهم حرف واحد في بناء المساجد على القبور، ولا في تعظيم القبور، ولا في الطواف بها، ولا في وضع صناديق النذور حولها أو عندها، ولا في السجود لها، ولا في دعائها، جزمًا ويقينا لا يستطيعون أن ينقلوا حرفًا واحدًا من ذلك بإسناد صحيح، وإنما هي حكايات مخترعة أتوا بها من عند أنفسهم، كما كونهم يزعمون وينتحلون الانتساب إلى السلف رضوان الله عليهم.

وفي زماننا هذا أيضًا هناك من ينتسب إلى السلف ويخالف منهجهم مخالفة بينة في أمر الشريعة، ويدعي أن منهج السلف هو الموافقة على ظلم الظالمين ومتابعة ومداهنة الخارجين عن شرع الله سبحانه وتعالى، بل هناك من يزعم

مثلاً أن قضية تحكيم الشريعة، وأن من حكم بغير ما أنزل الله على جهة التبديل للشرع والمنازعة لحكم الله ﷻ وحكم رسوله ﷺ، وإلزام الناس بمخالفة شرع الله ﷻ وتحريم الرجوع إلى الشريعة على الناس، وأن من فعل ذلك عوقب وجرم، ومن دعا إلى ذلك عوقب وجرم في كثير من البلاد يصرحون بذلك، أن من دعا إلى تطبيق الشريعة يُعاقب بالسجن، في تركيا مثلاً هناك قانون ينص على أن من دعا إلى تطبيق الشريعة الإسلامية يُعاقب بالسجن ثماني سنوات، وإذا كان ضمن طائفة أو جماعة عوقب بالسجن مدى الحياة.

وسبحان الله! هناك من يقول: إن طريقة السلف أنهم يقرون مثل هذه الأمور أو لا ينكرونها، أو يقولون: هي كفر دون كفر. ويزعمون أن هذا كلام السلف، وهو كلام باطل قطعًا ويقينًا، ويثبتون الولاية لمن يحارب الدين بأنواع المحاربة، بما هو معلوم في المشارق والمغارب في كثير من البلدان يصرحون بمحاربة الدين، ويمنعون منه، ويصفونه بأن من التقاليد البالية ونحو ذلك، ومع ذلك يصفونهم بأعظم الأوصاف من الفخامة والسيادة والولاية، وربما سموهم: أمراء المؤمنين، وهم يسمعون كلامهم في الطعن فيما جاء به رسول الله ﷺ من الكتاب ومن السنة، ويزعمون بعد ذلك أن هذه طريقة السلف، ويتهمون من خالفهم بأنهم من الخوارج، وأنهم من المتطرفين وغير ذلك، وهذا كلام عجيب! مع كونهم إذا نقل الإجماع على أن السلف ﷺ، وأهل العلم متفقون على أن من خالف الشرع على سبيل الإلزام بمخالفة الشرع، كما قال ابن كثير ﷺ بعد أن ذكر سخافات الياسق: (**فمنْ ترك الشّرْع الْمُحْكم الْمُنزّل على مُحمّدِ بْنِ عبد اللّهِ خاتمِ**

الْأَنْبِياءِ، وتحاكم إِلى غيْرِهِ مِن الشّرائِعِ الْمنْسُوخةِ كفر، فكيْف بِمنْ تحاكم إِلى الياسا وقدّمها عليْهِ؟ منْ فعل ذلِك كفر بِإِجْماعِ الْمُسْلِمِين)[1].

إذا قيل لهم ذلك قالوا: هذا ليس صحيحًا، وهذا كلام مخالف لما يدعون من انتسابهم للسلف بلا شك، والسلف ﷺ ما شهد أحد منهم قط هذا الذي ابتدع في أزمنة التتار، ثم في أزمنة من بعدهم ممن يخالف شرع الله ﷻ، ما سمعوا ولا رأوا قط من يحكم بغير ما أنزل الله على جهة الإلزام بخلاف الشرع، وذلك من جنس من يقول: إنّ ضرب الوالدين ليس منهيًّا عنه أو هو ليس منصوصًا عليه، ولذلك إذا قلت له: قد قال الله ﷻ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾، فكيف بالضرب الذي هو أغلظ؟! يقول: هذا ليس منصوصًا عليه، هذا المنصوص عليه فقط هو: ألا تقل لهما أف، ولكن الضرب ليس من ذلك، فهذا من العجب!

فالذي يقول: إن قول ابن عباس رضي الله عنهما في الحكم بغير ما أنزل الله: **كفر دون كفر**، ويعمم هذا على جميع أنواع الحكم بغير ما أنزل الله، فهو مبتدع في حقيقة الأمر، مخالف لإجماع أهل العلم هذه المسألة.

قول ابن عباس رضي الله عنهما على العين والرأس ونحن نقول به، ولكن فيما قال فيه ابن عباس رضي الله عنهما ذلك، في نحو ما قال ابن عباس رضي الله عنهما ذلك، لا فيما خالفه بالقطع واليقين، وليس في زمن ابن عباس رضي الله عنهما ولا بعده بقرون متطاولة من كان يجعل الفرنجة أو شريعة اليهود أو شريعة النصارى أو شريعة الوثنيين

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٣/ ١٣٩).

شريعة ملزمة لأهل الإسلام؛ يحرم عليهم التقاضي إلى شرع الله، ويلزم القضاة والحكام وغيرهم بالتزام ما خالف الشرع، ويُعاقِب من التزم الشرع في ذلك، لو أن قاضيًا حكم على مجرم ثبتت جريمته بالبينة الشرعية بحد من حدود الله ﷻ، حاكموه وعزلوه، ووقائعهم في ذلك كثيرة، هل وجد هذا في زمن ابن عباس رضي الله عنهما فضلاً عمن بعده، حتى يقال هذا من هذا النوع، هذا من جنس قياس من قالوا: إنما البيع مثل الربا - والعياذ بالله - لمجرد وجود مكسب، لمجرد وجود تشابه من جهة ما، لمجرد الاشتراك في الاسم، في أن هذا يحقق مكسبًا لصاحبه أو مشابهة له في وجه من الوجوه.

لذلك نقول: هذه المسألة من جهة الحكم العام، أعني: لا من جهة الفتوى، من جهة الفتوى أن فلانًا بعينه هذا قد كفر أو لم يكفر، هذه مسألة اجتهادية مبناها على استيفاء الشروط وانتفاء الموانع، بناء على مناقشة أهل العلم أو أهل القضاء الشرعي - حين يوجد أو إذا وجد - لهذا الذي اتُهم بكفر أو ردة، وينظر في إزالة الشبهة عنه واستيفاء الشروط وانتفاء الموانع، وقد يجد البعض هذا الأمر قد انطبق وقد يجد البعض غير ذلك، بعد أن تتم هذه الأمور عند ذلك يكون الباب فيه اجتهاد؛ وأما إذا كان الذين يؤصل للمسألة، الذي يدّعي الانتساب للسلف ويجعل أن كل حكم بغير ما أنزل الله هو من هذا النوع، كفر دون كفر فقط، فهذا كلام باطل منكر، ولو في حكم واحد، أعني: لو أن إنسانًا - على سبيل المثال - رأى أن الزنا ليس بجريمة ويصرح بذلك، أقول هذا الكلام مثلاً طلبته الدول الأوروبية من تركيا أن تسنه في قوانينها، وأن تصرح بأن الزنا ليس جريمة، هذا نوع واحد فقط، هذا مقتضاها الاستحلال بلا شك ومنع العقوبة بالكلية، كانت تركيا عندها

من العهد الأتاتوركي بقايا من أن الزنا بدون تصريح والزنا من المرأة المتزوجة، طبعًا الزنا عندهم منقسم إلى بغاء مقنن، كما كان هو موجودًا في الدول المصرية قبل الثورة، كان هناك شيء اسمه البغاء، مهنة رسمية ولها دفاتر ومحاضر في الشرطة، وبيوت دعارة مقننة مسموح لها بممارسة البغاء، يتم الكشف على البغايا دوريًّا، حتى يمنع من انتشار الأمراض ونحو ذلك، فكان هذا الأمر رسميًّا، هذا الأمر كان موجودًا في الأتراك، والزنا في القانون الفرنسي القديم قبل العهود المعاصرة، والتي أخذت منها معظم قوانين الدول التي كان يحتلها الغرب في فترات الاحتلال، تنص على أن الزنا هو زنا المرأة المتزوجة فقط، قبل تغير الفكر الأوروبي إلى اعتبار أن بدن المرأة من حقها وحدها، لا سلطان لأحد عليها، كانوا يرون أنها إن كانت متزوجة فللزوج حق؛ ولذا الزنا في ذلك القانون كان يعاقب عليها بالسجن من ستة أشهر إلى سنتين، وظل هذا إلى عهد قريب في عهد الحكومة التركية الحالية، ولكن شرط انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي كان إلغاء هذا القانون؛ لأن أوروبا بأسرها لا تعترف أصلاً بأن الزنا جريمة، لا من متزوجة ولا من غير متزوجة، بل ترى أن معاشرة الرجل لامرأته بغير رضاها اغتصاب، مثل اغتصاب الرجل الأجنبي للمرأة، رجل اغتصب امرأة يعاقب رجل اغتصب زوجته يعاقب كذلك بنفس الجريمة، هذا عندهم شيء واحد، فالبرلمان التركي أقر هذا الأمر وألغى تجريم الزنا من القانون التركي، نقول: هذه مسألة واحدة، يقول: الزنا ليس جريمة، الزنا مباح في هذه البلاد بالتراضي بين الطرفين، من متزوج وغير متزوج، فهذا الكلام لا شك أنه من جهة النوع كفر ناقل عن الملة، لا يشك في ذلك مسلم، في حقيقة الأمر مثل

هذا الكلام المجادلة فيه من أعظم المجادلة بالباطل، وهو استحلال وزيادة أحيانًا في بعض النقاط.

التسوية بين الذكر والأنثى في الميراث في آخر تعديل لقانون الأحوال الشخصية في تونس الذي صدر منذ سنوات قليلة موافقة لتوصيات مؤتمرات المرأة والسكان التي تنظمها الأمم المتحدة، والتي فرضت على كل الدول الموقعة على هذه الاتفاقيات الالتزام بسن التشريعات المناسبة، التي تحقق قرارات هذه المؤتمرات الناصة على مساواة الرجل بالمرأة، آخر تعديل للقانون التونسي، وقد كان منذ قديم، منذ أكثر من ثلاثين أو أربعين سنة قد نص على مساواة الرجل والمرأة في الميراث، وأن الذكر يرث مثل الأنثى، وقد كان بعض البقايا في قانون الأحوال الشخصية متمثلاً في اعتبار ذمة الزوجين المالية منفصلة، وأن الزوجة بعد طلاقها من زوجها لا ترثه كالقوانين الأوروبية، أوروبا تعطي المرأة التي ظلت مع زوجها مدة معينة أنه إذا مات بعد الطلاق ولو بعد سنين تشاركه في ماله، وأنه إذا طلقها قاسمته الثروة، مع أن الذمة المالية منفصلة في شريعة الإسلام بالقطع واليقين، كل منهما له ماله الخاص، وبعد الطلاق لا يوجد رابطة بينهما إلا فترة العدة، إن كان الطلاق رجعيًّا، فكان بعد البقايا من هذه القوانين التي تعدها أوروبا هضم للمرأة، فكان التعديل الأخير الذي قال من سنّه وأقره: إنه قد آن لتونس أن تترك التقاليد البالية التي كانت تكبل وضع المرأة وتهضم حقوقها، وقد سبقنا قبل ذلك في هدم هذه التقاليد عندما سننّا المساواة بين الذكر والأنثى، نقول: هذا الحكم فقط - مساواة الذكر بالأنثى - توريث من لا يستحق الإرث بهذه الطريقة، وهو يعلم قطعًا ويقينًا أن الشريعة الإسلامية ليس فيها

شيء من ذلك، بل هي تخالف ذلك قطعًا ويقينًا، وأنها تورث بالقرآن للذكر مثل حظ الأنثيين في الأبناء، فإذا كان الأمر كذلك في هذه المسألة طالما صارت حكمًا عامًا، فهذا - والعياذ بالله - مناقض لكتاب الله ﷻ وجحد له في الحقيقة، ولا يصدر إلا من مكذب للقرآن العظيم أو مجوِّز ومستبيح، بل موجب كما ذكرنا، هذا أغلظ من جنس الضرب بالنسبة إلى أف، الذي يوجب خلاف الشريعة يخالف أشد ممن يجيز مخالفتها ويبيح مخالفتها، والنصوص القانونية والدستورية التي تتناول هذه المسائل وغيرها من مخالفة الشريعة تنص على الجواز وعدمه، يقولون: «لا يجوز محاكمة الزانية إلا بناء على دعوى زوجها، وإذا عاشرها بعد علمه بالزنا سقط حقه في المطالبة بإقامة الدعوى القانونية، ويسقط حقه كذلك إذا زنا في منزل الزوجية» فهذا نص يقول: لا يجوز، ويقول: (تعاقب بمدة لا تزيد على سنتين ولا تقل عن ستة أشهر، وللزوج أن يوقف تنفيذ العقوبة في أي وقت).

كلام في منتهى الوضوح أنه يتبنى وجهة النظر الغربية في أن الحق هنا حق شخصي فقط، ليس هناك حق لله ﷻ، أو ما يسمونه في التشريعات المعاصرة حق المجتمع لما يقول: كل من واقع أنثى بغير رضاها، وسِنّها يزيد على الثامنة عشر - وكان قبل ذلك ستة عشر - فهذا يعاقب بالأشغال الشاقة المؤبدة، وإذا كان باختطاف فيعاقب بالإعدام.

مسألة كل من واقع أنثى، لم يقل زنى؛ لأن الزنا عندهم وضع معين، وهذا النص القانوني يعتمد عليه المحامون الذين يدافعون في قضايا الاغتصاب إذا أثبتوا أن هذا الفعل قد وقع بالتراضي، من قال بها واعتقدها وصححها وألزم الناس بها، الذي هو أغلظ هذه الأمور كما يقول سماحة الشيخ محمد بن

إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ، فهذا من الكفر الناقل عن الملة بلا شك[(١)].

وكما ذكرت قد يكون هناك من هو مكره أو جاهل، أو قد يكون هناك من هو متأول، فهذه موانع التكفير، ليست من موانع التكفير أنه يكون يقول: أنا أستحل هذا الأمر، حتى يقول ويأتي آخر ليضيف، وهكذا يستمر بهم الحال، حتى يصلوا إلى إبليس، فلا يتم القول بكفر أبدًا، ولا إبليس شخصيًّا، والعياذ بالله.

فمن يقول مثلاً: إنه لابد وأن يكون مستحلًّا للحكم بغير ما أنزل الله.

نقول: فإذا زاد على الاستحلال الإيجاب؟! إذا كان يوجب على الناس مخالفة شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويلزمهم بذلك في التشريع العام ويسن معاقبة من يخالف، فهذا ليس مما نقل عن السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويتمسك بمن قال: إنه لابد أن يكون مستحلًّا.

نقول: نعم، هذا الذي ألزم الناس بخلاف شرع الله مستحل وزيادة، وإنما نقول ذلك من جهة الحكم العام، أعني: النوع؛ وأما بالنسبة للشخص المعين فلابد من استيفاء الشروط وانتفاء الموانع، كما هو معلوم، لكن أصل المسألة تأصيلها، يدّعون اتباع السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهم يخالفونهم ويصرحون

---

(١) انظر: فتاوى ورسائل سماحة محمد بن إبراهيم الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، (١٢/ ٢٨٤، رقم ٤٠٦٥) قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (إن من الكفر الإكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الامين على قلب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين لقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

بمخالفتهم في مثل هذه الأمور، ويزعمون أنهم هم الأولى بهذه المتابعة، وهذا أيضًا متكرر في كثير من الأمور، يزعمون اتباع السلف في أخلاقهم وفي دعوتهم، وهم يخالفون مخالفة بينة، لا يكفيك الانتساب، لا يكفيك أن تكون منتسبًا إلى السلف، وأنت تخالفهم، وأنت سلوكك أو قولك أو دعوتك أو منهجك يخالف ما ثبت عن السلف ﷺ، ولا يصلح وجود بعض المشابهة أو الموافقة فيما تقول وفيما يقول السلف في إثبات وصف السلفية لكل من انتسب إلى ذلك، حتى ولو خالف في غيرها وأكثر منها في أمور غير التي وافق فيها، بل وأكثر منها وأخطر وأجل فيما يدّعي، فمثلاً من يوافق السلف - على سبيل المثال - في قِصر القميص، ولكنه يخالفهم في أسلوب الذم والتجريح والطعن في الناس بلا بينة، والاتهام بالتهم الباطلة، فنقول: هل موافقتك في تقصير القميص تكفي في إثبات انتسابك للسلف، وأنت تخالفهم في طعن الناس في دينهم وأعراضهم وسبهم ولعنهم، وغير ذلك مما نهى عنه السلف ﷺ.

هذه جملة من مخالفات من تسرب إليه ذلك المرض من أهل البدع ومن أهل المخالفات للسلف ﷺ، مع الدعوى بأنهم يتبعون السلف ﷺ.

الْمسْألةُ الْحادِيةُ والْعِشْرون بَعْدَ الْمِائةِ: صَدُّهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ منْ آمن بِهِ.

الـشــــرح:

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾، فبين سبحانه أن أهل الكتاب يصدون عن سبيل الله من آمن به، يريدون صرف الناس عن دين الله ﷻ، وهذا الصد عن سبيل الله قد يكون مباشرًا بالنهي عن الدخول في الإسلام والأمر بضد الإسلام، وهو الكفر، بالدخول في أي ملة خلاف ملة الإسلام، وفتنة من آمن بالله ﷻ واتبع هذا الدين، فيكون بالقول ويكون بالفعل صدًّا مباشرًا عن الإسلام، فكل محاولة لصرف الناس عن دين الله ﷻ ونهيهم عن الدخول في هذا الدين أو أمرهم بالخروج منه، فإن ذلك من الصدِّ عن سبيل الله، وهو من الكفر الظاهر، نعوذ بالله من ذلك.

وقد ذكر الله ﷻ أنواعًا من الكفار من المشركين من الأمم السابقة ممن صدوا عن سبيل الله؛ كما قال ﷻ عن شعيب عليه السلام: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يبغون السبيل عوجا، فهم يصدون عن سبيل الله بأن قعدوا على كل طريق يأتي الناس منه ليصلوا إلى شعيب عليه السلام، يحذرونهم ويتوعدونهم بالعقوبات إذا آمنوا بشعيب عليه السلام، وهكذا كان المشركون أيضًا في زمن رسول الله ﷺ يصدون عن سبيل الله ﷻ بالتحذير من الدخول في هذا الدين، وبإنفاق الأموال في حرب المسلمين؛ كما

قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

فكان التحذير من اتباع رسول الله ﷺ ديدن المشركين، كان المشركون يسيرون خلف رسول الله ﷺ يتهمونه بأنه الصابئ، وأنه الساحر، وأنه يفرق بين المرء وزوجه، وبين الرجل وأبيه، وبين الرجل وابنه، وبين الأخ وأخيه، وأنه أتاهم بما لا يعرفون، يسيرون خلفه يحذرون منه، وهذا كله من الصدِّ عن سبيل الله، يحذرون من لم يدخل في الدين حتى لا يدخل، ويخوفون من دخل حتى يخرج منه، وذكر الله ﷻ قصة أصحاب الأخدود الذين فتنوا الناس عن دين الحق، وحفروا لهم الأخاديد وأوقدوا فيها النيران، وأمروا الناس: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها. فاقتحم الناس وفعلوا، وهذا من أعظم الصد عن سبيل الله، وذكر سبحانه وتعالى حال فرعون في صده عن سبيل الله ﷻ وقتله السحرة؛ لأنهم آمنوا بموسى ﷺ، أمنوا بالله رب العالمين، وآمنوا بنبيه ورسوله موسى ﷺ، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم أجمعين؛ ليصد الناس عن سبيل الله.

وفي هذا الزمان، بل وفي كل زمان رؤوس الكفر يصدون عن سبيل الله سبحانه وتعالى بأن يسعوا إلى صرف الناس عن دين الإسلام وتشويه صورة هذا الدين، كما فعل من سبقهم، يريدون صرف الناس عن الدين بتشويه صورة الإسلام وصورة المسلمين، وإثارة الشبهات المضلة حول هذا الدين، وإغواء الناس بالشهوات؛ حتى يرغبوهم في تركه واتباع دين سواه، والصد عن سبيل الله

يشمل كل هذه الصور من الشبهات والشهوات التي غرض أصحابها صرف الناس عن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، والمنافقون يصدون عن سبيل الله ﷻ بالقول والفعل، كما فعل من سبقهم، وذلك رغم أنهم دخلوا في هذا الدين ظاهرًا، إلا أنهم يريدون صرف الناس عنه وإيقاع الخصومة والعداوة بين أبناء هذا الدين؛ ليتمكنوا من صرفهم عنه، وبالفعل إذا تمكنوا من مكان ما وأرض ما، ساموا الناس سوء العذاب؛ ليصرفوهم عن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وكل هذا من الصد عن سبيل الله مباشرة، النوع المباشر. وأهل البدع يصدون الناس عن السنة، ويصدون الناس عن اتباع سلف الأمة، ويشوهون صورة من التزم طريق الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان.

فالتحذير من العقائد الصحيحة التي عليها أهل الإيمان، أهل السنة والجماعة، التحذير من هذه العقائد الصحيحة والحث على العقائد الباطلة والفاسدة هو من الصد عن سبيل الله ﷻ، ودعاة العلمانية الذين يريدون فصل الدين عن الحياة وعن الدولة على الأخص، هؤلاء أيضًا يصدون عن سبيل الله، وإذا تمكنوا من بعض المسلمين صدوهم بالفعل بأنواع الأذى والتعذيب والاضطهاد والقتل والسجن الذي يمارسونه لصرف الناس عن دين الله سبحانه وتعالى، وما القرارات الظالمة التي تمنع مظاهر الالتزام بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ؛ كاللحية، والنقاب، وفي بعض البلاد يصل الأمر إلى الصلوات، النهي عن الصلاة في المساجد، وربما تخريب هذه المساجد كما يفعل اليهود وكما يفعل من والاهم، بأن يكره امتلاء المساجد بالمصلين ويفرح إذا قل العدد فيها وخربت وصارت مهجورة لا يعرفها أحد، كل هذا من صور الصد عن سبيل الله سبحانه وتعالى، وهو صد مباشر كما ذكرنا؛ لأنهم ينهون

عن الطاعة مباشرة، وإن كان المنافقون يتدثرون بأن بعض هذه الأشياء ليست طاعة، وإن كانت الأدلة - حتى التي أجراها الله على ألسنتهم - تؤكد بطلان ما يزعمون، وأنهم يعلمون أحقية ما يصدون الناس عنه، وكذلك صرف الناس وصدهم عن التحاكم إلى شرع الله ﷻ وعقوبة من يدعو إلى ذلك وعقوبة من يحاول تطبيق ذلك، حتى لو كان بعيدًا عن أيديهم وسلطانهم، لكنهم يسعون إلى معاقبة كل من سولت له نفسه أن يفكر في إقامة شرع الله ﷻ، فلابد وأن يقع هؤلاء جميعًا ضمن من صدوا عن سبيل الله ﷻ.

وهناك صور أخرى دون الصورة المباشرة بيّن الله ﷻ نوعًا من الصد عن سبيل الله في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾﴾، من فعل ذلك فله العذاب العظيم؛ لأنه حين حلف كاذبًا فإنه ساع في تشكيك الناس في أحقية أدلة الشرع، الشرع قد أقام الأمور على البينة وعلى الأيْمان في مواطن مختلفة وعلى الاعتراف كذلك، فإذا سعى إنسان باليمين الكاذبة، اليمين الغموس، في أن يأخذ حقًّا لمسلم أو لغيره بيمين فاجرة هو فيها كاذب، فهذا يشكك الناس في أحقية أدلة الشريعة، يجعلهم لا يثقون في التحاكم إلى الشرع، وربما لجئوا إلى السياسات الجائرة؛ لأنهم يرون الناس يحلفون فيستحقون، وهذا صد عن سبيل الله، وإن لم يكن صاحبه كافرًا.

راسل أحد أمراء عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وهو يحيى بن يحيى الغساني، **(ولي الموصل لعمر بن عبد العزيز: الحرب، والخراج، والقضاء، وكان محدثا متفقها فصيحا بليغا، قال: ولاني عمر الموصل، فوجدتها من أكثر**

بلاد الله تعالى سرفا ونقبا، وكتبت إليه أعلمه حال البلد، وأسأله: آخذ بالظنة فأضربهم على التهمة، أو آخذهم بالبينة وما جرت عليه السنة؟ فكتب إلي: أن خذ الناس بالبينة وما جرت عليه السنة، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله تعالى. قال يحيى: ففعلت ذلك، فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد، وأقلها سرفا وتقبل)[١].

فكم من الناس يفقه مثل فقه عمر ﵀، وهو أن الأمور إذا أقيمت بشرع الله ﷻ فهذا هو الصلاح، ولا يمكن صلاح بغير هذا، لكن كثير من الناس يقول: لو طبقنا الشريعة، لو طبقنا الشرع لأكل الناس بعضهم أموال بعض؛ لأنهم ربما لا يتمكنون من البينات فيحلفون فيستحقون، فلابد أن نعامل الناس بالسياسات التي يتعامل بها أهل الظلم؛ حتى يتمكنوا من أخذ الحقوق. يظنون أن هذا حق، يظنون أن هذا وسيلة للوصول إلى الحق، وهذا فيه من أنواع الظلم والفساد ما لا يعلمه إلا الله، ومن فساد الرعية والراعي بعد ذلك أضعاف أضعاف ما يظنون من الصلاح.

فكان ما ذكر الله ﷿ من الصد عن سبيل الله من خلال اليمين الكاذبة، التي هي في حقيقة الأمر كبيرة من الكبائر، ربما لم تصل إلى الكفر، ولكن هذا نوع من الصد عن سبيل الله؛ لأن سبيل الله هو شرعه وما أمر به، واجتناب ما عنه نهى ﷻ ورسوله ﷺ، فمن فعل بفعله ما يؤدي إلى انصراف الناس عن الطاعة وعن إقامة الحدود والحقوق التي شرعها الله ﷻ، فهذا صد عن سبيل الله ﷻ.

(١) انظر: إكمال تهذيب الكمال (١٢/ ٣٨٦).

وكذا اختلاف المسلمين فيه نوع من الصد عن سبيل الله، وذلك أن الناس إذا رأوا أهل الطاعة يختلفون ورأوهم متفرقين أوزاعًا، يقول قائلهم: لو كان هؤلاء على حق، لاجتمعت كلمتهم. فربما تركوا الحق ومن خالفه شبهة لديهم بسبب الاختلاف الواقع، وهذا أمر مشهود معلوم، مع أن كثيرًا من أمور الاختلاف قد لا يكون الأمر فيها واضحًا للطرفين، وربما كان هناك نوع من التعدي من بعض الناس دون البعض الآخر، ومع ذلك فهذا نوع من الصد عن سبيل الله، وإن لم يكن مباشرًا، وإن لم يصل إلى درجة الكفر، لكنه من أحوال أهل الجاهلية في التفرق والاختلاف، الذي ينشأ عنه انصراف الناس عن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

ولذلك دخل في ذلك أهل البدع جميعًا؛ الاعتقادية منها والعملية؛ لأنهم حين خالفوا الحق أظهروا صورة الالتزام بالدين عند الناس بالصورة المختلف فيها، فلا يدري الناس من الحق من المبطل؛ لأن ليس عندهم علم بالبينات، فيترتب على ذلك انصراف الكثيرين عن الالتزام، وفي زماننا كم يترك كثير من الناس الالتزام بالدين بالكلية من أجل أن الإسلاميين قد اختلفوا، وهذا الاختلاف في الحقيقة يتحمل وزره أهل البدع والضلال وأهل الشهوات كذلك وأهل التنافس على الدنيا، فإن التنافس على الدنيا فيه من الصد عن سبيل الله ﷻ؛ لأن الناس يتركون طاعة الله، يقولون: هؤلاء الذين تأمروننا أن نتبعهم يقتل بعضهم بعضًا، ويسفك بعضهم دماء بعض، وينتهك بعضهم حرمات بعض، ويتنافسون على المال والجاه والنساء وغير ذلك. فيتركون الالتزام بالكلية، نسأل الله العافية.

لذلك نقول: هذا يدخل في الصد عن سبيل الله، وإن لم يقصد صاحبه الصد، وإن لم يقصد من فعله أن يكفر الناس بالدين وأن يخرجوا منه، ولكن له نصيب من حال أهل الجاهلية، وكل محاولة لصرف الناس عن دين الله ﷻ مباشرة تدخل في النوع الأول، وكل فعل أو قول يترتب عليه تشكيك الناس في الالتزام بالدين أو صرفهم عن إقامة حقوقه وحدوده، هو أيضًا من الصد عن سبيل الله، وإن لم يبلغ ما بلغ النوع الأول، إلا أن يقصده صاحبه الذي فعله، يقصد صرف الناس عن دين الله ﷻ.

ولذلك نقول: إن هذا الأمر لابد أن يحذر كل واحد منا على نفسه، ربما صد عن سبيل الله وهو لا يشعر، وربما ظن نفسه يقيم الدين، ولكنه إذا حث الناس على أمر مخالف لشرع الله، فهذا يستلزم بالضرورة صدهم عن سبيل الله ﷻ؛ لأنه إذا أمرهم بأمر يخالف الشرع، فقد نهاهم عن موافقته، هذا يستلزم أنه صدهم عن سبيل الله ﷻ الذي يحبه ﷻ ويرتضيه، فلابد أن يكون الإنسان على علم بما شرعه الله ﷻ، وعلى التزام به عمليًّا وخلقيًّا وسلوكيًّا؛ لأنه إذا خالف قوله عمله كان صدًّا عن سبيل الله ﷻ، لابد أن يكون على علم بمواطن الشبهات والبدع والضلالات، التي يترتب عليها انصراف الناس عن الدين، وقد وصف الله ﷻ المنافقين فقال: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٦٧﴾، فهذا النوع من الصد عن سبيل الله، الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وكذا فعل المنكر علانية وترك الواجب علانية، ومنع إقامة حدود الله ﷻ علانية، كل ذلك من الصد عن سبيل الله من آمن به، وما أكثر أنواع الصد عن سبيل الله ﷻ ومحاولة

صرف الناس عن الالتزام بالدين.

وهذا يبين خطر هذه المسألة، ويبين كثرة انتشارها في العالم منذ أزمنة بعيدة، وصاحب هذا الصد عن سبيل الله من أوجب الناس عقوبة، وأن يُلحق بأمثاله ممن صد عن سبيل الله ﷻ ممن سبق.

الْمسْألةُ الثّانِيةُ والْعِشْرون بَعْدَ الْمِائَةِ: مُودّتُهُمْ الْكُفَرَ وَالْكافِرِينَ.

الشــــرح:

قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

هذا وقع من اليهود حين أحبوا المشركين من قريش وغيرها ممن خالف النبي ﷺ، وأظهروا مودتهم لهم وأظهروا حبهم لما هم عليه، وتفضيلاً لباطلهم وشركهم رغم علمهم كراهية في الإسلام، وكذلك وقع مثل هذا الأمر من رؤوس النفاق؛ كما قال ﷻ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، فبين ﷻ أنه لا يجتمع الإيمان مع مودة الكافرين ولو كانوا من أقرب الأقربين: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وهل الدين إلا الحب والبغض؟ قال النبي ﷺ: «**أَوْثق عُرى الْإِيمانِ أنْ تُحِبّ فِي اللهِ، وتُبْغِض فِي اللهِ**»(١)،

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠/ ٤٨٨)، والطبراني في الصغير (١/ ٣٧٢)، وفي الأوسط (٤/ ٢٧٦) وفي الكبير (١٠/ ٢٢٠)، والطيالسي (٢/ ١١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٠٤، ١٠٥)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٧٠، ١٧٢، ٧/ ٨٠).

فضد ذلك نقض لعرى الإيمان، فمن أحب الكافرين وأبغض المؤمنين، فذلك من علامات نفاقه، وإذا صرح بذلك كان كافرًا، إذا صرح أنه يحب الكافرين لكفرهم أو رغم كفرهم، يقول: ولا يضر أنهم كفار، أو كذبوا الله ورسوله أو أشركوا بالله، لا يضر ذلك فنحبهم رغم كفرهم، لا أثر لدينهم في أمر المودة والمحبة، فهذا يناقض القرآن صراحة، والعياذ بالله من ذلك، وينقض هذه العروة التي هي أوثق عرى الإيمان، ولم يتبرأ من هؤلاء الكافرين الذين وجب عليه أن يبغض كفرهم وأن يبغضهم؛ كما قال ﷻ:
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾.

فبين الله ﷻ حرمة الإسرار بالمودة للكفار، فضلاً عن إظهارها، ولو كان ذلك ليس نابعًا من حب الكفر، وإنما يظهر ذلك لحماية أهل أو ولد أو حفظ مال عندما يظهر مودة الكفار لمصلحة دنيوية، فبين الله أن من فعل ذلك فقد ضل سواء السبيل، وبين الأسوة الحسنة في هذا المقام في إبراهيم والذين

معه الذين تبرءوا من قومهم وصرحوا بالعداوة والبغضاء أبدًا، حتى غاية واحدة لا يصلح أن يوجد غيرها: ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ ولم يجعل الأسوة في قول إبراهيم لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾؛ لأن ذلك إنما كان عن موعدة وعدها إياها، فلما تبين له أنه عدو لله حين مات على الكفر، تبرأ منه، إن إبراهيم لأواه حليم، كما وصفه الله ﷻ.

فتبين بهذا أن هذا المقام، مقام الحب والبغض، هو أوثق عرى الإيمان، ولابد أن ننتبه فيه إلى أربعة أنواع من المسائل:

- مسألة حب الكافرين.
- وبغض المؤمنين.
- وحب المؤمنين.
- وبغض الكافرين.

فالأولى والثانية من علامات الكفر والنفاق، أعني: مسألة حب الكافرين كما ذكرنا من أحب كفرهم أو أحبهم على كفرهم من أجل كفرهم، مثل من يحب أعداء الإسلام ممن يخالف دين الله ﷻ من أهل الغرب مثلاً من أجل أنهم عندهم التحلل من الشريعة، وهو يود أن يكون التحلل من الشريعة سمة أهل بلده، يحبهم لأنهم تخلصوا من الالتزام من الدين، يحبهم لأنهم تركوا مرجعية الشرع، يقول: هذا هو التقدم، هذا هو الحضارة، يحبهم لأنهم ألغوا الحدود الشرعية، وألغوا الجهاد، وألغوا الحب والبغض على أساس الدين، يرى فيما شرعه الغرب من التساوي في ادعاء مساواة الملل يراه هو

التقدم، يحبهم لأنهم تركوا شرع الله وتركوا دين الله ﷻ، وكثير من الناس يحب الكفر الذي هم عليه لشهوة دنيوية أو لشبهة باطلة، إذا أشرب في قلبه حب الشرك كما قال ﷻ عن بني إسرائيل: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾، فقد يُشرب الإنسان حب الشرك، وإن لم يفعله، وإن لم يصر على ما كانوا عليه، قد كان حب عبادة العجول، عبادة الآلهة، من دون الله مشربة في قلوب طوائف من بني إسرائيل، أشربوا حب ذلك، كما ظهر منهم في قولهم لموسى عندما رأوا من يعكفون على أصنام لهم: ﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، كثير من الناس يتمنى التحلل من الدين، وربما لم يتمكن من أجل روابط اجتماعية أو أوضاع أو أنه سوف يفقد مكانة ومنزلة، ولكنه في حقيقة الأمر يكره هذا الدين، ويحب الكافرين على كفرهم، ويسمي الدين خزعبلات وخرافات القرون الوسطى، وشريعة الغاب ونحو ذلك، تظهر في فلتات اللسان، ولولا أنه في وسط مجتمع مسلم ينادي عليه بالكفر لو صرح، فهو ما زال يتسمى باسم الإسلام، ولكنه في الحقيقة يصرح بحب الكفر وحب الكافرين، ويعظمه ويرضى به، ويرى أنه لا فرق بين الحق وبين الباطل، بين الدين الذي جاء به الرسول ﷺ وبين دين من كذبه وخالفه وأشرك بالله، ودعا لله صاحبة أو ولدًا، وادعى أن الله - سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرًا - هو شخص بعينه، يعبد من دونه أو يُعبد على أنه هو الله؛ كما قال الله ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾، وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، فهناك من يصرح بحبه لهذه الملل ومساواته لها بالإسلام، فهذا في النوع الأول من علامات الكفر والنفاق، وقد قال النبي ﷺ لعبد الله بن أُبيّ رأس المنافقين: «**أهْلكك حُبُّ**

يهُود»[١]، فحب الكفر وحب الكافرين لكفرهم أو رغم كفرهم - وهذه درجة أقل - يحبهم ويقول - لأجل أمر آخر - : أنا لا أحب ما هم عليه، ولكن الذي هم عليه أمر خاص بهم، لا يعني عندي أن أبغض أحدًا أو أكرهه من أجل عقيدته، وهذا أكثر انتشارًا بكثير من النوع الأول، كثير من الناس يقول: إن العقيدة أمر شخصي للإنسان، الحب والبغض اختيار لنا، ليس لأحد أن يأمرنا بأن نحب أحدًا أو نكره أحدًا، نحن الذين نختار، وربما فضلوا واختاروا حب أقربائهم وأهل وطنهم وأهل لسانهم وقومهم من أجل هذه الروابط دون المؤمنين، فلا يحبون المؤمنين البعيدين عنهم أو الذين ليسوا من أهل وطنهم أو قومهم، فهذا - والعياذ بالله - من علامات النفاق أيضًا.

وهذا خطر عظيم انتشر انتشار النار في الهشيم، الذين يحبون الكفار ويقولون: لا نعبأ ولا نهتم بأنهم قد كفروا، هذا شأن شخصي وحرية شخصية، والحب والبغض ليس مبنيًّا على الدين، ويجعلون كره الناس لأجل كفرهم وشركهم أمرًا من ازدراء الأديان، كما يقولون تهمة وجريمة. يجعلونها تهمة وجريمة، ويجعلون أن وصف دين ما بأنه كفر وباطل وضلال سبٌّ يوجب العقاب، ولو كان هذا عليه من الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ المئات من الأدلة، وقد حكيت لكم من كان يتهم غيره ويقول: أنت متهم بتكفير أهل الملتين من اليهود والنصارى، ونعوذ بالله، صارت تهمة أن يكون مبغضًا لأهل ملة من الملل ولا يكون محبًّا لهم، رغم أنهم يظهرون الكفر والتكذيب للرسول ﷺ وللقرآن العظيم، ويظهرون الشرك بالله.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٦١٤)، والبغوي (٢/ ٣٧٦)، وابن كثير (٤/ ١٩٥).

هذه المسألة الأولى: مودة الكافرين، ومودة الكفر وحبه.

أما المسألة الثانية: فهي بغض المؤمنين، قد قال النبي ﷺ: «**آيةُ الإيمانِ حُبُّ الأنْصارِ، وآيةُ النِّفاقِ بُغْضُ الأنْصارِ**»(١)، وقد قال علي رضي الله عنه: «**والّذِي فلق الْحبّة، وبرأ النّسمة، إِنّهُ لعهْدُ النّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﷺ إِليّ: أنْ لا يُحِبّنِي إِلّا مُؤْمِنٌ، ولا يُبْغِضنِي إِلّا مُنافِقٌ**»(٢). فمن أبغض المؤمنين لإيمانهم، وأبغض المطيع لطاعته، وأبغض المصلي لصلاته، وأبغض المحجبة لحجابها، وأبغض الصائم لصيامه، وأبغض قارئ القرآن لقراءته، فهذا مبغض لدين الله، كره ما أنزل الله، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾، فذكر الله ﷻ أنهم ارتدوا. لماذا؟ لأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله: سنطيعكم في بعض الأمر. فكيف بمن أطاعهم في الأمر كله؟! والعياذ بالله.

وقال ﷻ عن الكفار: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾، فمن كره شرع الله ﷻ، كره إقامة الدين، صار يكره ما أمر الله ﷻ به ورسوله ﷺ، كان كافرًا منافقًا على حسب ما يُظهر، وطبعًا هذا الأمر بعد أن تصله الأدلة، ويعلم أن هذا مما جاء به النبي ﷺ، بخلاف جاهل لا يدري أن هذا مما أمر الله به فربما أبغضه لجهله، ولكن هذا أصلاً من خصال النفاق،

(١) أخرجه البخاري (١٧)، ومسلم (٧٤).
(٢) أخرجه مسلم (٧٨).

سوف يفترق الحال في النوع والعين عند وجود جهل أو تأويل، لكن حقيقة الأمر أن من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ، فقد كفر شيئًا مما أنزله الله من الوحي، وإنما يطبق على الشخص المعين بعد استيفاء الشروط وانتفاء الموانع، لكن كون إنسان مثلاً يبغض الرجم، كما هو حال أهل أوروبا ومن يوافقهم من المنافقين يصفون هذه العقوبات الشرعية بأنها اعتداء على حقوق الإنسان، ومن الناس من يوافقهم على ذلك ويقول: هذا كان في القرون الوسطى ونحو ذلك. وقد علمت أن بعض المسلمين كان يُمتحن من أجل الحصول على جنسية بعض هذه الدول الغربية، يأتون له بصور بعض مثلاً من يُرجم أو يجلد، ويقولون: ما رأيك في هذا؟ أترى بمثل هذا؟! فإن قال: إنه يعتقد صحة ذلك، لم يعطوه أبدًا ما يريد، وإن وافقهم وقال: إنه لا يرض بمثل هذا مجرد الرضا أو أنه يكره مثل هذا، فإنهم يوافقون على اعتباره من بني جنسهم وإعطائه الجنسية، رغم أن كل الأوراق تكون سليمة قبل ذلك، لكن يبحث هذا الكافر عن من يبغض ما شرعه الله ﷻ، ومن يبغض ما جاء به النبي ﷺ، أمر الجهاد مثلاً قد وصف الله ﷻ المنافقين بكراهية الجهاد، فقال ﷻ: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. بلغ حال الناس في زماننا أن صاروا يكرهون الجهاد من غيرهم، ليس لأجل الأموال والأنفس التي تتعرض للخطر، فهم لا يريدون إنفاق الأموال ولا تعريض نفوسهم للقتل أو الجرح، وإنما ربما يكونون متعاطفين مع المسلمين بالخارج؛ كما قال ﷻ: ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾، عندهم نوع من التعاطف مع المسلمين، إن انتصروا فهذا

يسعدنا، ووصل الحال إلى ما هو أسوأ من ذلك، هؤلاء أصبحوا يكرهون من ينصر الدين في أي مكان، يكرهون إقامة ما أمر الله به من الجهاد في أي موضع من العالم، ويتعاونون ضد من يقوم بذلك، يكرهون أن يُجاهد غيرهم بالمال أو بالنفس، فهذه أعظم الجرائم مقدمة على غيرها موالاة لأعداء الله ﷻ.

نقول: من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول أو أبغض مؤمنًا لإيمانه أو مسلمًا لإسلامه أو مطيعًا لطاعته، فهذا مبغض لما جاء به الرسول ﷺ، فيكون هذا كفرًا ونفاقًا، نعوذ بالله من ذلك.

أما الواجب فهو المسألة الثالثة والرابعة، أعني: إذا هدمنا هذا الباطل مِن مودة الكافرين، فمن نحب؟ قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾، فنحن نتولى، نحب، من أخص معاني الولاء الحب، كما أن من أخص معاني البراء البغض، فالواجب أن نحب الله، حب العبادة، ونفرد الله ﷻ بحب العبادة، وأن نحب الرسول ﷺ في الله ﷻ؛ لأن الله أمر بحبه، وأن نحب المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، فهذا هو أوثق عرى الإيمان، قال ﷻ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، فهذه الولاية تقتضي الحب، وقال النبي ﷺ: «**ثلاثٌ منْ كُنّ فِيهِ وجد بِهِنّ حلاوة الإِيمانِ: أنْ يكُون اللّهُ ورسُولُهُ أحبّ إِليْهِ مِمّا سِواهُما، وأنْ يُحِبّ المرْء لا يُحِبُّهُ إِلّا لِلّهِ، وأنْ يكْره أنْ يعُود فِي الكُفْرِ كما يكْرهُ أنْ يُقْذف فِي النّارِ**»[(١)]. وفِي رِوايةٍ: «**لا يجِدُ أحدٌ حلاوة**

(١) أخرجه البخاري (١٦، ٢١)، ومسلم (٤٣).

الإيمانِ حتّى. . . » إِلى آخِرِهِ[١].

تضمن هذا الحديث هاتين المسألتين: من نحب؟ نحب الله ورسوله والمؤمنين. ومن نكره؟ نكره الكفر والكافرين، هذه سمة أهل الإيمان؛ كما قال الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ﴾، صفات سوف تجدها ظاهرة جلية في الكفار والمنافقين وفي المؤمنين، التفاوت والتباين، سوف تجد في صفات الكافرين والمنافقين حب الكفر والكافرين، وبغض الإيمان والمؤمنين، وبغض الإسلام وما جاء به النبي ﷺ، ومن قام بذلك، ومن عمل بذلك ونادى به.

وسوف تجد في صفات أهل الإيمان حب المؤمنين وبغض الكافرين، وهذا أمر قلبي في الأصل يظهر في الأقوال والأعمال، والنصرة تتفرع على مسألة المحبة؛ لأن الإنسان إنما يتولى وينصر من تولاهم بقلبه، فإذا نصر المؤمنين، نصر الدين، فهذا هو المؤمن، وإذا نصر الكافرين ونصر الكفر ونصر النفاق، فهو بين كافر ومنافق؛ كما وصف الله ﷻ: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ إلى آخر الآيات.

وهذا كله يدلنا على هذه المعاني العظيمة التي صارت غائبة عن أكثر من

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٤١).

يتكلم في مسألة الحب والبغض، ومسألة الولاء والعداء، لابد أن نكون على بينة من أمرنا، وأن نحذر من مسالك أهل الجاهلية، الذين كان حبهم وبغضهم على غير دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

بعض النسخ فيها: «**مودّتُهُمْ الْكُفْر والْكافِرِين**»، وهذه سبق شرحها، و«**مودّتُهُمْ لِكُفْرِ منْ آمن**»: ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صفة اليهود في هذه المسألة في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾. مودتهم لكفر من آمن، ودوا أن يكفر المؤمنون، وهذا دليل على عدم حبهم لله عَزَّ وَجَلَّ، هذا دليل على أنهم لا يدينون دين الحق طاعة لله ولرسله، وإلا فلا شك أن كل مؤمن يحب ظهور الدين، ويحب انتشار الإسلام، ويحب علو كلمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويحب دخول الناس في هذا الدين؛ لأن هذا من مقتضى حبه لله عَزَّ وَجَلَّ، كيف يتصور أن يحب المؤمن ربه، ثم هو يكره أن يدخل الناس في طاعته ودينه؟! وكيف يكره أن يؤمنوا؟! وكيف يود أن يكفر من آمن؟! ليس هذا ممكنًا، لا يحصل حب الكفر ممن آمن وثبت له حكم الإيمان والإسلام إلا من إنسان ناظر لنفسه معجب بنفسه يريد أن يتفضل على الناس، وعلم أن الناس يفضلون أهل الدين فأراد أن يتميز هو بهذا الأمر، حتى ولو كان ذلك مسخطًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حقيقة الأمر بيّنها القرآن، أن هذا الأمر من أهل الكتاب هو بسبب الحسد، الحسد في الدين، حسد المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله؛ كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، ولا شك أن هذا أمر ظاهر في اليهود والنصارى، بل وفي المشركين، يحقدون ويحسدون، يحقدون على أهل

الإسلام ما آتاهم الله من فضل بعثته محمدًا ﷺ، وما آتى الله محمدًا من الكتاب العظيم، والوحي الشامل الكامل الذي جعل الله ﷻ الحجج على صدقه كالماء والهواء كثرة وسهولة؛ يعرفها كل أحد، وجعله أكثر الأنبياء تابعًا، وهو سبحانه وتعالى أيده بأنواع التأييد، فيحسدون أهل الإسلام ويحسدون نبي الإسلام على كل ذلك حسدًا من عند أنفسهم، رغم أنه قد تبين لهم الحق، المؤمن يحب هذا الدين، ويحب علوه وظهوره وانتشاره، ويبغض الكفر والكافرين، ويرجو أن يدخل الناس في الدين ويحب ذلك؛ أما من يرغب في بقاء الكفار على كفرهم، ومن يرغب في أن يكفر أهل الإيمان والإسلام وأن يصيروا إلى الردة ويتحايلون على ذلك، كما وصف الله سبحانه وتعالى اليهود أيضًا: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فهم يحتالون ويمكرون؛ حتى يرجع المسلمون عن دينهم، وهم يحبون بقاء الكفار على الكفر كما وصف الله ﷻ حالهم في قولهم للكفار، قال ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾، يظنون أنهم بذلك يتميزون، وأنهم بذلك يكونون هم شعب الله المختار دون غيرهم، وهذا عين الضلال، والعياذ بالله، فكيف يودون أن يكونوا وحدهم هم شعب المختار؟! كيف يختارهم الله وهم يكرهون انتشار التوحيد، بل ويسعون إلى نشر الكفر، ولا يرون أن يدخل أحد في هذا الدين؟! اليهود أخص الناس بهذا، والعياذ بالله؛ لأنهم لا يرون أن هذا الدين قد جعل لأحد غيرهم؛ وأما باقي الأمم فإنما خلقت في صورة البشر تكريمًا لبني إسرائيل ألا يخدمهم من هو في صورة البهائم، يرون أن الأمم قد خلقت لكي تكون

عبيد العبيد لهم، ولكن لكي يخدم الناس في صورة بشر أفضل أو أكرم لهم من أن يخدموهم في صورة البهائم؛ أما هم فهم كالكلاب، وقد سبق أن ذكرنا ما ينسبونه كذبًا وزورًا للمسيح، والعجب أن النصارى يصدقونهم أن امرأة قالت للمسيح أو أنها طلبت أن يدعو لابنها أن يشفى هذا الولد أو البنت، فقال لها: ليس حسنًا أن يؤخذ خبز البنين ويُرمى للكلاب. فقالت: يا سيدي، والكلاب أيضًا لهم نصيب مما يلقيه لها سادتها. فقال: ما أعظم إيمانك يا امرأة! اذهبي فقد شفي ابنك أو قضيت حاجتك.

القصة موجودة في الإنجيل عندهم، ونسأل الله العافية، ولكن انظر إلى تلك العصبية الجاهلية المتأصلة في اليهود أنهم يرون أنفسهم هم البنين، وأن باقي الأمم هم الكلاب، وليس حسنًا أن يؤخذ خبز البنين ويلقى للكلاب، وننزه المسيح ونجزم أنه ما قال ذلك، وهذا إنما نابع من قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾، هذا الدين الذي خلق الله ﷻ الخلق من أجله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ كيف يُقال: إنه خبز البنين فقط؟!

إنه إنما هو لأجل البنين، لا ينبغي أن يرمى لغير إسرائيلي أو لغير من كان من غير اليهود، نعوذ بالله من ذلك، الله ﷻ خلق الخلق ليعبدوه وبالإلهية يفردوه؛ فلذلك رأى بنو إسرائيل عصبية وجاهلية وكبرًا في أنفسهم أن دينهم لا يصح أن يدخل فيه أحد، مع أن دين التوحيد هو الدين الذي جاءت به كل الرسل قبل بني إسرائيل، قبل إسرائيل نفسه، كلهم كانوا على التوحيد، فكيف يتصور أن هذا الدين، التوحيد، لا يدخل فيه إلا من كان من بني إسرائيل؟!

فاليهود لا يرون أنه يمكن أن يتهود أحد، لابد أن يولد يهوديًّا من أم يهودية، يرون ذلك كبرًا وعلوًّا، لما جاء الإسلام بهذا الخير العظيم، وفتح الباب أمام الأحمر والأسود لكي يدخلوا في رحمة الله ﷻ بهذا الدين، حسدوا المؤمنين، والشرائع التي جاء بها محمد ﷺ لا يمكن أن تُقارن بأي شريعة سبقت، فضلاً عن الشرائع التي وضعها الناس بآرائهم بغير مستند من شريعة الله، ثم كان ما أيده الله ﷻ به من المعجزات الباهرات؛ العقلية، والحسية، والمعنوية، بكل أنواع الدلائل، فدخل الناس في دين الله أفواجًا شرقوا بذلك ورأوا أن الاصطفاء والاجتباء في هذه الأمة أعظم؛ كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ﴾، رأوا أن الأمة التي كانوا يلفظونها قد صارت خير الأمم فحسدوا، شرقوا، لم يسع لديهم أن تكون أمة العرب ومن تابعها على هذا الدين، أمة الإسلام خيرًا منهم، وهم يخصون أنفسهم بهذا الدين، ولذلك ارتأوا وكادوا أن يحرفوا الملل الأخرى وأن يدخلوا الناس في أنواع الكفر، قديمًا فعلوا ذلك، بولس المسمى ببولس الرسول الذي حرف النصرانية الحقة، الإسلام في الحقيقة الذي جاء به عيسى ﷺ، حتى صار الديانة التي يدين بها عامة النصارى المنتسبين إليه ديانة ممسوخة، تجمع بين المتناقضات بما لا سبيل إلى الجمع بينه بحال من الأحوال ولا سبيل إلى فهمه، بل كل من يفهم كلامهم يجزم بأنه متناقض، وأنهم جمعوا بين المتناقضات؛ بين محاولة الانتساب للمسيح الداعي إلى التوحيد المحض وأنه رسول الله، وبين تأليهه وبين زعم أنه جاء ليصلب من أجل خلاص العالم، تناقضات عجيبة الشكل، لا يتصور أن تكون أبدًا نزلت من عند

الله ﷻ، والاختلافات هم يعجزون عن حلها، حتى في الكتب التي بين أيديهم، كل ذلك بسبب رجل يهودي الأصل يريد أن يضل الناس، وحاولوا كذلك مع أهل الإسلام، عبد الله بن سبأ يهودي حاول - بعد أن أظهر الدخول في الإسلام - محاولات متعددة بدأت أولاً في التفرقة بين الصحابة ﭫ وإشعال نار الفتنة، والسبئية أتباع عبد الله بن سبأ كانوا هم وقود الفتنة التي وقعت بين الصحابة، الذين أشعلوا النار، واتفقوا - بعد أن كاد الصحابة على الاجتماع - على أن يقتل كل فريق من ينتشر في الفريقين، وأن يقتل كل فريق من بجواره من الناس وينادي غدر الفريق الآخر، بعد أن علموا أن الصحابة إذا اجتمعوا واتفقوا سوف يصلون إلى مكرهم ويوقفونهم عن هذا الكيد ويبطلونه وتعود الكلمة واحدة، اجتمع هذا الرجل الخبيث مع أعوانه وأمرهم أن ينقسموا في العسكرين: عسكر طلحة والزبير، وعسكر علي، بعد أن كانت المراسلة بين الطرفين قد وصلت إلى نتائج عظيمة، واتفقوا على ما كان يراه علي من تسكين الأمور والاجتماع على الخليفة المبايع عليه أمير المؤمنين، ثم النظر بعد ذلك في قتلة عثمان، فهم الذين كانوا ضمن الثوار، عبد الله بن سبأ وأتباعه ضمن الثوار الذين قتلوا عثمان ﭬ مظلومًا شهيدًا، ثم بعد ذلك اتفق عبد الله بن سبأ - كما ذكرنا - أن ينقسم أتباعه فريقين: فريق في عسكر طلحة والزبير ﭭ، وفريق في عسكر علي ﭬ، فيقتل كل طائفة منهم من بجوارهم من المسلمين، وينادون الذين في عسكر علي ﭬ: غدر طلحة وغدر الزبير ﭭ، والذين في عسكر طلحة والزبير ﭭ يقولون: غدر علي ﭬ، وعلي وطلحة والزبير ﭫ يستحيل أن يكونوا من أهل الغدر.

وقع ذلك وأنشب القتال بالليل، فكانت وقعة الجمل المؤلمة التي قتل فيها الآلاف من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم بسبب هؤلاء، ثم كانت فتنة عبد الله ابن سبأ أعظم من ذلك عندما حاول نفس محاولة بولس الرسول، رسول الشيطان - أنا أسميه بما يسمونه ليعرف وليس إلا رسولاً للشيطان بالفعل - حاول نفس المحاولة في تأليه غير الله عز وجل فادعى عبد الله بن سبأ أن عليًّا هو الله، لمس غلوًّا من أتباع علي رضي الله عنه في حب علي، كرد فعل لمن يناقضه ويخالفه، وشعروا بأنه قد ظُلم في كثير من الأمور ولم يعط حقه، فحصل نوع من الغلو فكانوا متشيعين له، فلمس هذا الغلو فأعلن أول بدعة مكفرة بإجماع أهل الإسلام، مع كون صاحبها ينتسب إلى الإسلام، وإن كانت بدعة الخوارج قبل ذلك، إلا أن الخوارج لم يكفرهم علي رضي الله عنه؛ أما السبئية أوحى إليهم شيطانهم ورئيسهم عبد الله بن سبأ بأن عليًّا هو الله، وأنه قد حل في ذات علي، وهذا الذي عندما بلغ عليًّا رضي الله عنه لم يستطع أن يتحمل مثل هذا، فطلب عبد الله بن سبأ، هذا الذي قال بألوهيته، وهو الذي يريده ويطلبه، فهرب منه عبد الله بن سبأ، وأدرك أتباعه فأمسك بهم فدعاهم إلى التوبة، وقال: ويْحكُم أنا عبْد مثلكم. وأنه يعبد الله عز وجل، فأبوا إلا أن يعتقدوا أنه هو الله. فقال: أُحْرِقكم بالنار. فقالوا: أنت إذًا الله؛ لأن الرسول قال: «**لا يُعذِّبُ بِالنّارِ، إِلّا ربُّ النّارِ**»[(١)]، فحرقهم علي رضي الله عنه، نسي وغفل عن أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن التحريق بالنار، أو بعد أن ذكر بهذا رأى أمرًا فظيعًا،

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٧٣)، وأحمد (٢٥/ ١٢١)، وسعيد بن منصور في سننه (٢/ ٢٨٥) والطبراني في الكبير (٣/ ١٥٨، ١٦٠)، والبيهقي في السنن (٩/ ٧٢)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤/ ٣٣٩)، وأبو يعلى (٣/ ١٠٥)، وعبد الرزاق (٥/ ٢١٤).

حتى قال ابن عباس رضي الله عنهما لما بلغه تحريق علي لهؤلاء الشيعة الغلاة المؤلِّهين له، قال: لو كنت مكانه لأمرت بقتلهم ولم آمر بحرقهم؛ لأن النبي ﷺ قال: «**لا يُعذِّبُ بِالنّارِ، إلّا ربُّ النّارِ**»، فقال علي رضي الله عنه مستحسنًا رأي ابن عباس معتبرًا أن ما وقع منه كان زلة من الزلات بسبب شدة نكارة ما وجد، فقال: ويح ابن عباس لبحاث عن الهنات. اعتبرها هنة، اعتبرها زلة من الزلات(١) وقال(٢):

لمّا رأيْتُ الأمْر أمْرًا مُنكرًا ... أجّجتُ نارِي ودعوتُ قَنْبَرا

(قنبرًا) هذا كان غلامه، عبده الذي أمره أن يوقد النار التي أدخل فيها هؤلاء السبئية، وظلت هذه البدعة بعد ذلك موجودة وإن لم تكن منتشرة، لم تقبل الانتشار في وسط أهل الإسلام كما انتشرت بدعة بولس الكفرية في وسط النصارى؛ لأن الإسلام - بفضل الله - قد حفظه الله ﷻ بحفظ كتابه وبوجود الطائفة المؤمنة الظاهرة على الحق، لا يضرها من خالفها أو خذلها، حتى تقوم الساعة، ولم يقبل ذلك إلا المخذولون، وهم موجودون في زمننا، وتجدهم أشد أعداء الإسلام، أشد من اليهود والنصارى، الطائفة العلوية النُّصيْرِيّة، الذين يؤلهون علي بن أبي طالب، وهم كفار نوعًا وعينًا، ودائمًا فتش عنهم في أسوأ الجرائم، وسوف تجد علاقة بينهم وبين اليهود

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٢٢)، وفيه: «أُتِيَ عَلِيٌّ رضي الله عنه، بِزَنَادِقَةٍ فَأَحْرَقَهُمْ، فَبَلَغَ ذَلِكَ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أُحْرِقْهُمْ، لِنَهْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: لاَ تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ، وَلَقَتَلْتُهُمْ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ».

(٢) انظر: تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة (ص٧٣)، والتمهيد لابن عبد البر (٥/ ٣١٨) وتاريخ دمشق لابن عساكر (٤٣/ ٤٧٦).

وثيقة، ولا يزال في زماننا اشتراط أن يكون كبار قادة الجيش في تركيا من الطائفة العلوية، والحزب الحاكم في سوريا أيضًا من الطائفة العلوية، رغم أن من يترأس هذه البلاد لابد أن يكون سنيًّا في الظاهر، فأعلنوا التزامهم بالمنهج السني، ولكن في حقيقة الأمر لا يزالون على ما هم عليه، لما مات رئيسهم السابق دفنوه في جبل العلويين؛ لأنهم على طريقتهم، مازال قادة الجيش السوري لابد وأن يكونوا من هذه الطائفة، ونسأل الله العافية.

ومن هؤلاء الباطنية الذين يظهرون أنهم مسلمون أو من أهل السنة تبدو وتلمح أنواع كفرهم البواح، أما سمعتم منذ أيام تصريحات لمفتيهم - والعياذ بالله - يفتيهم بكفر فظيع، نعوذ بالله من ذلك، يقول في تصريحات عجيبة تلقفتها الصحف ووكالات الأنباء: لو أن محمَّدا أمرني أن أكفر باليهودية والنصرانية لكفرت به. والعياذ بالله، هذا من الكفر البواح الذي لا خفاء فيه، وهو زندقة فوق زندقة، نفاق أكبر، ردة عن الإسلام بلا تردد، يعني: كيف ينسب ذلك إلى الإسلام، فضلاً عن أن ينسب إلى السنة؟!

لكن هذه الطائفة طائفة عجيبة، كما ذكرنا هم أعوان اليهود، والعياذ بالله، اليهود هم الذين اصطنعوا هذه البدعة الكفرية، والعياذ بالله.

المقصود: أن اليهود هذه الصفة صفة دائمة فيهم، محاولة جر الناس إلى الشرك والكفر، وتحريف الملل، وتحريف الشرائع الإلهية؛ حتى يعتقد الناس العقائد الكفرية، نجحوا مع النصارى نجاحًا كبيرًا باهرًا، بالنسبة إلى ما يريدون أعني، وضيقوا على أهل التوحيد المسالك، حتى صار أهل التوحيد في النصارى كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، حتى قبل بعثة

النبي ﷺ لم يعد هناك أمل في انتصار أهل التوحيد إلا ببعثته ﷺ، قال النبي ﷺ: «**وإِنّ اللّه نظر إِلى أهْلِ الْأرْضِ، فمقتهُمْ عربهُمْ وعجمهُمْ إِلّا بقايا مِنْ أهْلِ الْكِتابِ**»(١).

لم يجد شيخ سلمان رضي الله عنه ذلك الراهب الموحد أحدًا يرشده، يرشد سلمان رضي الله عنه أن يكون معه على نفس الدين، يقول: لا أعلم أحدًا بقي على هذا الدين غيري، ولكن قد قرب زمان نبي مهاجره بيثرب أو كما أوصى سلمان، فذهب سلمان إلى المدينة ليلقى النبي ﷺ بعد ذلك بفضل الله ﷻ(٢).

حاصروا أهل التوحيد وصار ظهور أهل التوحيد مستحيلاً إلا ببعثة النبي ﷺ، قال الله ﷻ: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾، أيدناهم ببعثة محمد ﷺ، أصبحوا ظاهرين به، لولا ما بعث الله محمدًا ﷺ لما كان للتوحيد وجود ولا قائمة في العالم، لضاع دين الأنبياء جميعًا، الله أحيا دين الأنبياء في العالم ببعثة محمد ﷺ؛ أما اليهود فحريصون تمام الحرص على نشر الشرك، ولو تأملت المذاهب الكفرية التي تنتشر في العالم من إنكار وجود الله، ومن الإباحية، ومن الشيوعية.

نظرية داروين التي أخرجت كثيرًا من البشر إلى الإلحاد المحض بإنكار وجود الله، (داروين) هذا معروف أنه يهودي، وهم - كما ذكرنا - يستحلون

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢١٤)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٨٢)، وودلائل النبوة للأصبهاني (١/ ٢٥٨)، والسيرة النبوية لابن كثير (١/ ٢٩٦).

أن يكفروا العالم، أن يجعلوا الناس يكفرون بالله، ويودون أن يكفر الناس وألا يوجد من يوحد الله، حسدا من عند أنفسهم كبرًا وعلوًّا، والعياذ بالله.

(ماركس) مؤسس الشيوعية الملحدة و(لِينِين) الذي قاد الثورة الشيوعية البلشفية، التي أهلكت من البشر ما يربو على عشرين مليونًا، غير الذين قتلوا في الحروب، عامة المقتولين من المسلمين، نسأل الله العافية.

و(ستالين) هذا القائد الفظيع الذي سفك من الدماء ما لا يعلمه إلا الله، كل هؤلاء رؤساء الدولة الشيوعية، ومؤسسو والعياذ بالله.

(فرويد) ذلك العالم النفسي الذي ينسبون إليه الطب النفسي الحديث الذي يقول: إن الجنس هو المحرك الأساسي لدى البشر، وأن الشهوة الجنسية الإرادة المحركة لكل تصرفات البشر. تصور خبيث للغاية، هذا أيضًا يهودي، عُد مِن وراء الجرائم المتعددة اليهود في إضلال البشرية.

الوجودية التي لا تعترف إلا بالمحسوس وتنكر الغيب بالكلية، وبالتالي تنكر وجود الله، مذاهب منتشرة في وسط أوروبا انتشارًا ضخمًا جدًا، (جان بول سارتر) مؤسس هذا المذهب، يهودي أيضًا، كمية هائلة من الكفر - والعياذ بالله - اليهود ينشرونها، نعوذ بالله منهم ومن شرهم.

نقول: هذا لماذا؟! بأنهم يودون أن يكْفر العالم، أن يبقوا بعيدًا في غياهب الوثنية، بعيدًا عن التوحيد، لا يرون ذلك عيبًا، بل يرون ذلك أمرًا حسنًا، نعوذ بالله. قارن بين هؤلاء وبين خير أمة أخرجت للناس، بين من يدعو إلى الله ﷻ الأحمر والأبيض والأسود، لا فرق بين أحد من البشر إلا بناء على توحيد الله ﷻ، كل البشر لهم أهلية الدخول في هذا الدين،

ولهم أهلية التقدم فيه، ولو كان عبدًا حبشيًا، ولو كان مولى، إذا فقه في كتاب الله وعلم سنة رسول الله ﷺ، ويكفي أن تعلم أن من أئمة الدين عند أهل الإسلام بلال الحبشي، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي، إلى جانب أبي بكر رضي الله عنه، وهو أفضلهم بلا شك، وهو عربي، لا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح، تعلم أن من الموالي الذين صاروا أئمة في الدين: الحسن البصري، سعيد بن جبير، مجاهد، عكرمة، كانوا عبيدًا، كانوا موالي أو آباؤهم، تحولوا إلى أئمة من أئمة المسلمين، ليس لهم نسب شريف، ومع ذلك صاروا علماء وأئمة في الدين، الكل يجلهم إلى يومنا هذا، عمر رضي الله عنه عندما يستدعي بعض عماله فيسأله: كما روى مسلم عنْ عامِرِ ابْنِ واثِلة أبِي الطُّفيْلِ: «**أنّ نافِع بْن عبد الحارِثِ، لقِي عُمر بْن الْخطّابِ بِعُسْفان، وكان عُمرُ، اسْتعْملهُ على مكّة، فقال عُمرُ: منِ اسْتخْلفْت على أهْلِ الْوادِي؟ قال: اسْتخْلفْتُ عليْهِمْ ابْن أبْزى، قال: ومنِ ابْنُ أبْزى؟ قال: رجُلٌ مِنْ موالِينا، قال عُمرُ، فاسْتخْلفْت عليْهِمْ موْلًى، قال: إِنّهُ قارِئٌ لِكِتابِ اللّهِ تعالى، عالِمٌ بِالْفرائِضِ، قاضٍ، قال عُمرُ، أما إِنّ نبِيّكُمْ ﷺ قال: إِنّ اللّهَ يرْفعُ بِهذا الْكِتابِ أقْوامًا، ويضعُ بِهِ آخرِين**»[1]، إذا قارنّا يعني حب الصحابة رضي الله عنهم لدخول الناس في الإسلام ونشرهم لهذا الدين، بفضل الله دخل الناس بالملايين وإلى يومنا هذا بقوا، قارن بين هذا وبين الحقد اليهودي وبين صفات اليهود الإجرامية، وأضف إلى ذلك أن اليهود يودون لو كفر المؤمنون: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾، صفة إبليس، والعياذ بالله، وإبليس هو

---

(١) سبق تخريجه (١/ ١٤٦).

الذي أراد أن يخرج الأبوين ومكر بهما وخدعهما؛ حتى يخرجهما من الجنة، يريد أن يعصي الناس ربهم ويريد أن يكفروا، والعياذ بالله، وهو الذي خدع ابن آدم الذي قتل أخاه، وسول لقوم نوح عبادة الأوثان، كل هذا لأنه يريد أن يكفر الناس ويود أن لو كفر المؤمنون، تجد صفات اليهود صفات إبليس الحسد، والعياذ بالله، حتى ولو كانوا يعلمون الحق: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾، وقد أتى ﷻ بأمره بقتالهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون؛ وأما من كان مستضعفًا فهو يعمل بالعفو والصفح إلى أن يأذن الله بالفرج، لكن فليحذر على نفسه من موافقة هؤلاء الذين ودوا كفر المؤمنين، إذا كانوا يريدون كفر العالم فهم يريدون أيضًا كفر المؤمنين، يودون ويحبون كفر المؤمنين، نعوذ بالله من ذلك، كل مؤمن يكره أن يكفر أي أحد ولا يرضى أن يكفر أي أحد، وإن كان قد وقع من بعض أهل الإيمان أن يتمنى أو يدعو ببقاء كافر على كفر؛ لكي ينتقم الله ﷻ منه من شدة عداوته للدين، فهذا ليس كراهية لانتصار الدين، بل هو في حقيقة الأمر؛ لأنه يعلم أن هناك من البشر من لا يصلحون في حقيقة الأمر لهذا الدين، فمن شدة غيظه من بعض الكفار يدعو الله أن يكون هو من هذا الصنف لا رضا بالكفر ولا محبة له، ولكن لأنه ليس أهلاً للإيمان، فيدعو أن يجعله الله منهم، كما قال موسى عليه السلام وهارون في دعائهما على فرعون وملئه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾؛ لأنه علم أن هؤلاء ليسوا أهلاً للإيمان، فدعا عليهم بما أعلمه الله من شأنهم؛ لكي

يكون ذلك من أسباب هلاكهم وعذابهم في الدنيا والآخرة، وليس ذلك مودة للكفر، ولكن ضنًّا بالإيمان على أمثال هؤلاء الذين لا يصلحون له؛ وأما من لا نعلم عنه ذلك ولا ندري بوحي ولا بغيره أنه يموت على الكفر أو أنه مؤهل للكفر لطغيانه وجبروته، فهذا لا يمتنع أن ندعو له بالهداية، ونرجو له الخير، نسأل الله ﷻ أن يعافينا من كل بلاء.

فمن صفات الجاهلية أن يود أن أحدًا على الإيمان أن يرجع إلى الكفر، والعياذ بالله، وتجد هذا الأمر موجودًا في بعض أهل الضلال من الزنادقة والمنافقين، ممن يود لو ترك الناس الالتزام بالدين، يريدون نشر الفواحش، يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، يحبون أن يكون الناس في الكفر والزندقة، والعياذ بالله، كل داع لنشر الانحراف: البدعة، الضلالة، كل داع لنشر الكفر والنفاق، يريد أن ينصرف الناس عن هذا الدين عقيدة أو عبادة أو معاملة، له نصيب من هذه الصفة من صفات أهل الكتاب الذين يودون كفر من آمن، كل من يحب أن يعود الناس بعيدًا عن الالتزام، كما تجد أنهم يقلقون جدًا إذا كثر من يصلي، يقولون: أين أيام زمان حين كان الناس لا دخل لهم بالتدين، والناس كلهم كانوا على طريقتهم - والعياذ بالله - لا يلتزمون ولا يرجعون إلى مرجعية الكتاب والسنة ولا يقولون بما يسمونه تخلفًا، والعياذ بالله؟! يتحسرون إذا رأوا الحجاب منتشرًا، يقولون: أين أيام الحرية والتقدم عندما كانت الشواطئ مليئة بالفتيات المرتديات للباس البحر؟ والله قد قرأت ذلك في إحدى وكالات الأنباء تطير الخبر بأن الإسكندرية يتأسفون عليها، أصبح عامة البنات فيها محجبات، بعد أن كانت في أيام الماضي في الثلاثينات والأربعينات الشواطئ مليئة بالفتيات

الحسناوات يلبسن ملابس البحر وينزلن البحر مع الرجال، ويتحسرون على ضياع هذه الأيام، وأن الكثيرين قد ودعوا الإسكندرية بعد أن حزنوا على ذلك الانتشار للدعوة السلفية وغيرها من الدعوات المتطرفة، التي جعلت الحجاب هو صفة ملازمة لكثير من الفتيات. وسبحان الله! مع أن الحجاب الذي يكرهونه هذه الكراهية ليس هو الحجاب الشرعي في الحقيقة، صحيح - بفضل الله - تجد الآن معظم الفتيات قد غطين رؤوسهن، لكن ما زال التبرج موجودًا، نعم قد يظن بمن كشفت شعرها في زماننا هذا أنها ليست مسلمة في الأغلب الأعم، ومع ذلك لا يزال الأمر يحتاج إلى تغيير جذري في الحقيقة، لكن انظر إلى الحسد والحقد وكراهية التزام الناس بالدين، تجد كثيرين يتحسرون أن الناس الآن أصبحوا يقرءون الكتب الصفراء، وقد كانوا في الماضي يقرءون لـ «طه حسين» والفلاسفة الغربيين، وأنهم كانوا يتبعون الأفكار الغربية، ويتحررون في كل تعاملاتهم من التخلف والرجعية، كم كانت هذه الكلمات تقال منذ سنوات وإلى يومنا هذا، يحاولون بكل طريق صرف الناس عن الدين، من ميراث الجاهلية الذي ورثوه من إخوانهم اليهود، والعياذ بالله، وكما وصف الله أن المنافقين إخوان اليهود: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾، فهم إخوانهم فيما يريدونه بأهل الإسلام من البعد عن الدين، ومن ترك هذه العقيدة الحنيفية ومن ترك العبادة ومن ترك السلوك الإسلامي، يقلقهم أن يكثر الناس في الاعتكاف في رمضان، قلقون قلقًا شديدًا من كثرة من يصلي القيام، يقولون: ظاهرة خطيرة، ظاهرة لابد من دراستها. تجد العالم يحلل أن إقبال الناس على صلاة القيام في رمضان،

وأن هناك مساجد يحضرها عشرات الألوف وربما أكثر، ويقولون: إن هذا الأمر مزعج؛ لأن التمثيليات والأفلام التي كانت تجمع الناس في الماضي صارت تهجر الآن بسبب صلاة القيام، مع أن الأمر لم يصل بعد إلى ما يقولون، ولكن انظر إلى كراهيتهم لالتزام الناس بالدين، يكرهون الصلاة، يضيقون ذرعًا بأن الناس قد صار لهم ميل إلى توحيد الله ﷻ، ويبحثون في الأسباب التي تؤدي إلى امتثال الناس أمر الصلاة، والله بلغني عن بعض من كان في بعض المؤسسات أنهم كانوا - إذا كان في فترة الاختبار ينظرون من يصلي في المسجد، فإذا وجدوه يصلي في المسجد كان متعرضًا للفصل من هذه المؤسسة، وكذلك يجعلون الزيارة التي يقوم بها الأهل لهؤلاء شبه المحبوسين في الحقيقة في هذه المؤسسة، أنها تكون في وقت صلاة الجمعة حتى يترك الطلاب صلاة الجمعة، وحتى يترك الأهل صلاة الجمعة، وطول المدة، أثناء الصلاة، قبل المدة بنصف ساعة وبعد الجمعة بنصف ساعة الموسيقى تصدح في المكان؛ حتى لا يتمكن الناس من أن يصلوا، وقلق شديد، من يحافظ على صلاة الجماعة يوضع تحت المراقبة الشديدة، وربما أبعد وأعلن فشله بسبب ذلك، تجد عجبًا، نسأل الله العافية.

الرافضة يتميز بهذا الحقد والحسد على أهل السنة، وود أن يكفر أهل السنة ويخرجون عن سنيتهم وعن دينهم بالكلية، حقد وحسد غليظ وشديد، وهم فعلاً أشباه وأتباع عبد الله بن سبأ بدرجة ما؛ لأنه الذي أسس هذا الغلو في آل البيت، نسأل الله العافية، فكل هذا ميراث اليهود، ميراث الذين ودوا لو كفر أهل الإيمان.

الْمَسَائِلُ: مِنْ الثّالِثةِ والْعِشْرِينَ بعْد الْمِائةِ إِلَى الْخامِسةِ والْعِشْرِينَ

بَعْدَ الْمِائةِ: الْعِيَافَةُ، والطَّرْقُ، وَالطِّيَرةُ.

الـشـــرح:

ثبت الحديث في سنن النسائي بإسناد جيد أن رسول الله ﷺ قال: «**إنّ الْعِيافة، والطّرْق، والطِّيرة مِن الْجِبْتِ، قال عوْفٌ: الْعِيافةُ: زجْرُ الطّيْرِ، والطّرْقُ: الْخطُّ يُخطُّ فِي الْأرْضِ، والْجِبْتُ، قال الْحسنُ: رنّهُ الشّيْطانُ**»(١) وهذا الحديث يبين أنواعًا من ادعاء علم الغيب، أنواعًا من السحر والكهانة يستعملها أهل الدجل والفساد من السحرة والكهان، وأمثالهم ممن يدعون علم الغيب، ويستعملون ما يدّعونه ذلك في أعمال كهانتهم وسحرهم وخداعهم للناس، فنوع من ادعاء معرفة ما يترتب على أعمال العباد في المستقبل الْعِيافةُ(٢) أن يزجروا طيرًا - يهشه كما في اللغة الدارجة الطير - وينظر إلى أي اتجاه ذهب، فإن ذهب يمينًا تفاءل وتوقع أن يكون هذا الأمر ناجحًا، وربما دفعه ذلك إلى الاستمرار فيه والإقدام عليه؛ وأما إذا زجر الطير فانصرف الطير شمالاً تشاءم وانقطع عن الأمر، واعتبر ذلك علامة على أن الفساد سيحصل له إذا صار في هذا الأمر، وهذا نوع من التفاؤل والتشاؤم بالطيور، وهو من الطِّيرة، زجر الطير، وكذلك التفاؤل والتشاؤم

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٠٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٢٤)، وأحمد في المسند (٢٤/ ٢٠٨)، وابن حبان في صحيحه (١٣/ ٥٠٢).

(٢) الْعِيَافَةُ: زَجْرُ الطَّيْرِ، والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها، وهو من عادات العرب، وكثير من أشعارهم، يقال: عاف يعيف عيفًا. إذا زجر وحدس وظن. انظر: مادة (عيف) في: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٣٣٠)، ولسان العرب (٩/ ٢٦١).

بأسماء الطيور وأحوالها، وقد كثر في الناس التشاؤم بالبومة والغراب، وصوت البومة عندهم ميت يموت، وكذا صوت الغراب خراب يأتي على من سمع صوته عندهم، ويتفاءلون بالحمام ويقولون هو رمز السلام، وينسبون إلى الإسرائيليات، أو يأخذون من الإسرائيليات أشياء من ذلك أن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أرسل غرابًا ليعرف له ما حدث على الأرض فوقع على جيفة ولم يرجع، فأرسل حمامة فرجعت بغصن الزيتون، ومن هنا صار عندهم أن حمامة تحمل غصن زيتون هو رمز السلام، وكل هذا من الإسرائيليات وليس من دين الله عَزَّ وَجَلَّ، فالتفاؤل والتشاؤم بالطيور هو أصل الطيرة المذمومة، وإن كانت العيافة - كما ذكرنا - نوعًا خاصًّا منها، متعلق بكيفية اتجاه الطير إذا زجره يتجه يمينًا أو شمالاً؛ وأما الطِّيرة فهي التفاؤل أو التشاؤم عمومًا بأشياء ما أنزل الله بها من سلطان، لا يستثنى من ذلك إلا الفأل كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا عدْوى ولا طِيرة، ويُعْجِبُنِي الفأْلُ. قالُوا: وما الفأْلُ؟ قال: الكلِمةُ الطيِّبةُ»**(١)، والتفاؤل والتشاؤم بشخص بعينه إن لم يكن تفاؤلًا باسمه، فهو من الطيرة المحرمة، كما يقولون: فلان لما أتصبّح بوجهه لا يكون في اليوم بركة، وفلان لما أتصبّح بوجهه يكون الرزق واسعاً، لا، إلا أن يتفاءل بأن يكون الشخص الذي يأتي إليه في أول النهار اسمه حسن، فهذا الذي يمكن أن يتفاءل به.

الطيرة مأخوذ من الطيور - كما ذكرنا - من جهة موقع الطير واسمه وجهة تحركه، وكل ادعاء لعلم الغيب من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ادعاء كاذب باطل:

(١) أخرجه البخاري (٥٧٧٦)، ومسلم (٢٢٢٤).

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وقال ﷻ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾؛ ولذا كان التفاؤل والتشاؤم بالطيور مرده إلى شيء من الكهانة، وهو محاولة علم شيء من الغيب، بالإضافة إلى أثر ذلك في القلب، والله ﷻ لم يجعل هذه الأشياء التي يتفاءلون بها أو يتشاءمون بها أسبابًا، لا شرعًا ولا قدرًا، ونحن نعلم أن الأسباب نوعان:

النوع الأول: عرف دليله بالشرع، مثل: مداواة المرضى بالصدقة، مثل: شرب ماء زمزم؛ لحصول غذاء وشفاء، مثل: طلب سعة الرزق ببر الوالدين وطلب طول العمر بصلة الأرحام، أو كلاهما يعني، صلة الأرحام وبر الوالدين يزيد في العمر ويبارك الله به في الرزق، قال النبي ﷺ: «**منْ سرّهُ أنْ يُبْسط لهُ فِي رِزْقِهِ، أوْ يُنْسأ لهُ فِي أثرِهِ، فلْيصِلْ رحِمهُ**»(١)، وقال ﷺ في ماء زمزم: «**ماءُ زمْزم، لِما شُرِب لهُ**»(٢)، وقال: «**إِنّها مُباركةٌ، إِنّها طعامُ طُعْمٍ**»(٣)، . . . .
وفي الحديث: «**داوُوا مرْضاكُمْ بِالصّدقةِ**»(٤)، وهذا كله من الأخذ بالأسباب

(١) أخرجه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٠٦٢)، وأحمد (٢٣/ ١٤٠)، وابن أبي شيبة (٣/ ٢٧٣، ٥/ ٦٣)، والطبراني في الأوسط (١/ ١١٦، ٢٥٩، ٤/ ١٣٩، ٦/ ٢٩)، وابن عدي في الكامل (٤/ ١٤٥٥)، والبيهقي في السنن الصغرى (٢/ ٢٠٣)، وفي الكبرى (٥/ ٢٤١، ٣٣١) وفي الشعب (٦/ ٢٩، ٣٠)، والحاكم (١/ ٦٤٦)، وحسَّنه ابن القيم في زاد المعاد (٤/ ٣٩٣)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٢١٠).
(٣) سبق تخريجه (٢/ ٩٣).

الشرعية، الإيمان والتقوى سبب لحصول الخيرات والبركات: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾، فالتكذيب والفسوق والعصيان سبب لحصول البلايا والمحن والزلازل والفتن، وإن كان كثيرًا من الناس لا يفقه ذلك؛ لذلك نقول: هذه الأسباب أسباب شرعية للخير والشر؛ كما قال ﷻ: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾، الشر الذي يصيبكم ليس بسبب دعوة الرسل، بل سبب الشر هو معكم، كفركم وردكم لدعوة الرسل هو سبب لحصول الشر والسوء والفساد عليكم، وإن كان هذا كله من عند الله ﷻ خلقًا وإيجادًا، فهو من العباد تسببًا وكسبًا، ومن الله خلقًا وإيجادًا، طائركم معكم: بسبب ما عندكم من الكفر وما أنتم مقيمون عليه من تكذيب الرسل، وهو من الله خلقًا وإيجادًا؛ كما قال الله ﷻ عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾، فذكر الله ﷻ أن طائرهم عند الله، الشر الذي أصابهم وهم ينسبونه إلى التطير بموسى، هو من عند الله خلقًا وإيجادًا، لو تابوا إلى الله ﷻ لرفع العقوبات عنهم، ولكن أبوا واستكبروا فأنزل الله بهم بأسه ﷻ، وأنواع عقوبته متتابعة، ألا إنما طائرهم عند الله: ما أصابهم من الشر هو بقدر الله، ما أصابهم من أنواع النكال هو بأمر من عند الله ﷻ، فصح بذلك أن طائرهم معهم وطائرهم عند الله، ومثل هذه الآيات قوله ﷻ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ

---

(١) أخرجه البيهقي (٣/ ٥٣٦)، والطبراني في الدعاء (ص٣٥)، وفي الأوسط (٢/ ٢٧٤) وفي الكبير (١٠/ ١٢٨)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٠٤، ٤/ ٢٣٧).

﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾، مثل: تشاؤم المصريين بموسى ومن معه، قالوا: هذا بسبب المتطرفين وبشؤم موسى ومن على ملته، فكان هناك من العرب من إذا دخل في الإسلام فأصابته مصيبة يتطير بالدين، ويقول: هذا بسبب متابعتي لهذا الدين وتركي دين الآباء والأجداد وعبادة الأوثان فيعود إلى ذلك، وإذا أصيب بالخير إذا ولدت امرأته ذكرًا، وأنتجت إبله، وكان المطر كثيرًا والأرض فيها من الخصب، قال: هذا دين حسن. ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾، بسبب اتباع النبي ﷺ، اتباع هذا الدين، كانوا أحسن أو أقل شرًا من قوم فرعون؛ لأن قوم فرعون: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ﴾ يقولوا: ﴿لَنَا هَٰذِهِۦۖ﴾، يقولون: إن هذا بجهدنا، بعزة فرعون، بتخطيط هامان، بحسن إدارة أهل المملكة، ينسبون لأنفسهم الفضل؛ وأما عند الشر يتشاءمون بموسى ومن معه؛ وأما أهل الجاهلية فإن تصبهم حسنة يقولوا: هذه من عند الله، وإن تصبهم سيئة يقولوا: هذه من عندك، قال ﷻ: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ خلقا وإيجادا، ثم قال: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا * مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾، هو الذين منّ بها، وهو الذي أوجدها، وهو ﷻ الذي خلقها، ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾، الله قدرها عليك بسبب ذنبك، وهذا خطاب للمكلف وإن كان خطابًا للنبي ﷺ فبصفته إماما للناس، فما أصابك من سيئة فسبب نفسك وهو ﷻ الذي خلقها وقدرها.

فنقول: الطيرة بالإضافة إلى أن هذا طعن في أمر الأسباب، فالأسباب - كما ذكرنا - إما أسباب شرعية عرف دليلها بالشرع، كما ذكرنا أمثلة على ذلك، وأن الكفر والفسوق والعصيان سبب للبلايا والمحن، وأن الإيمان

والطاعة والتقوى سبب لحصول الخيرات بأدلة الشرع، هناك نوع آخر من الأسباب، وهو الأسباب القدرية الكونية التي تعرف بأن الله جعل هناك سنة ماضية تجري عليها أمور الخلق في جلب النفع ودفع الضر، فاقتضت حكمة الله ﷻ أنهم يدفع عطشهم بشرب الماء، ويدفع جوعهم بأكل الطعام، وأنهم يكتسبون الأموال بأنواع العمل المباح والمحرم أحيانًا، وأنهم يشفون من الأمراض بأخذ العلاج، وهو - كما ذكرنا - في أمر الأسباب الشرعية، هو كذلك في الأسباب الكونية.

النوع الثاني الأسباب الكونية: الله ﷻ أمر بأخذ الأسباب الحلال وترك الحرام، وجعل للعباد أرزاقًا هو الذي ﷻ يقدرها، وإن كان هذا بأسباب يأخذ العباد بها، فالواجب أن يأخذ الإنسان ما حل ويدع ما حرُم؛ كما قال النبي ﷺ: «**إنّ رُوح الْقُدُسِ نفث فِي رُوعِي أنّ نفْسًا لنْ تمُوت حتّى تسْتكْمِل رِزْقها، فاتّقُوا اللّه وأجْمِلُوا فِي الطّلبِ، ولا يحْمِلنّ أحدكُمُ اسْتِبْطاءُ الرِّزْقِ أنْ يطْلُبهُ بِمعْصِيةٍ، فإِنّ اللّه لا يُنالُ ما عِنْدهُ إِلّا بِطاعتِهِ**»(١).

هذه الأسباب الكونية منها الحلال - كما ذكرنا - ومنها المحرم، ومنها الواجب في أن يتناول الإنسان من الأسباب ما يحفظ حياته، فلا يجوز له

(١) روي بألفاظ متقاربة عن عدد من الصحابة، رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٧٩) والحاكم في المستدرك (٢/ ٥)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٨٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢٩٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، ورواه الطبراني في الكبير (٧٦٩٤)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ٤٣٥)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٧) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، ورواه البزار (٧/ ٣١٤، ٣١٥)، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٢٨٨) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

مثلاً أن يمتنع من الطعام والشراب حتى يهلك ويموت، أن يكون منتحرًا قاتلاً لنفسه، هذه سنة الله؛ ولذلك كان حرامًا أن يستعمل الإنسان مثل هذه الأسباب المحرمة.

فهذه قاعدة الأسباب؛ إما سبب شرعي، وإما سبب كوني قدري، كيف يعرف السبب الشرعي؟ بالدليل الشرعي.

كيف يعرف السبب الكوني القدري؟ بجريان العادة، بالتجربة كما نقول، لكن أن يدعي إنسان أن شيئًا من الأشياء سبب بلا دليل شرعي ولا جريان سنة كونية ولا جريان عادة اقتضتها حكمة الله سبحانه وتعالى في الكون، فهذا كذب على شرع الله وكذب على قدره، وهو ذريعة إلى الدرجة الأشد من الطيرة، أو في أنواع أخر من الأسباب متعلقة بقاعدة الأسباب، وهو أن يعتقد أن غير الله يملك الضر والنفع، أن الضر والنفع يكون من عند غير الله؛ فيكون مشركًا في الربوبية؛ لقول الله عز وجل: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾، وقال عز وجل: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾، وهذا أمر لابد أن يوقن به كل مسلم، هذا من مقتضى ربوبية الله سبحانه وتعالى أنه وحده مالك النفع والضر، فمن اعتقد مع الله عز وجل شريكًا يملك الضر والنفع؛ إما استقلالاً، أو مشاركة، أو على سبيل النيابة من الله، فإن ذلك كله من عقائد أهل الشرك، والعياذ بالله، مع أنهم إذا سئلوا أقروا بأن النفع والضر من عند الله، ولكن اتخذوا وسطاء يعبدونهم من دون الله لجلب نفع أو دفع ضر، وكان صرف العبادة لهؤلاء الوسطاء شركًا في الإلهية، كما كان اعتقاد أنهم يملكون النفع والضر شركًا في الربوبية

وفي الأسماء والصفات، في التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي؛ لذلك كانت الطيرة شركًا؛ إما شرك أصغر حين يعتقد في الأشياء أنها أسباب لعدم وجود دليل شرعي ولا قدري، ما العلاقة بين الحمامة وتوقف المعركة مثلاً؟! ما العلاقة بين البومة وبين موت الإنسان؟! ما العلاقة بين نعيق الغراب وخراب البيت؟! ما العلاقة بين رقم ثلاثة عشر وبين أن تكون الزيجة موفقة أو غير موفقة؟! ما العلاقة بين أن يعقد صفقة إذا وجدها تعقد مثلاً على ثلاثة عشر ألفا لم يمضها تشاءم بهذا الرقم، وإذا وجدها على رقم سبعة تفاءل وأمضى ذلك؟! ما العلاقة بين حدوة الحصان وجلب الحظ؟! ما العلاقة بين نجمة البحر - ذلك الكائن البحري - وبين حصول الرزق؟!

كل هذا لا سبب شرعي ولا سبب قدري كوني، ومن يدعي أنه جرب ذلك فهو إنما من جنس كلام الكهان، والعياذ بالله، ليس أمر التجربة بحاصل لواحد أو اثنين، إنما ذلك حينما يصير أمرًا عامًا، سنة ماضية في خلق الله ﷻ، كما ذكرنا مثلاً قرص الأسبرين يؤدي إلى زوال الصداع، أقراص خفض ضغط الدم، كل مرة نقيس الضغط لواحد نجده عاليًا، فيأخذ قرص من ذلك ينزل الضغط، هذه سنة الله.

عنده حرارة فنعطيه أقراصًا خافضة للحرارة أو حقنة خافضة للحرارة تنزل درجة الحرارة، هذه أمور سببية ظاهرة؛ أما ادعاء أن مثلاً نجمة البحر تنزل الحرارة، أو أن الحظاظة التي يلبسها الشباب تأتي بالنفع له أو تجلب الحظ له، أن الفلفل الأحمر يدفع الحسد، أن فردة الحذاء المعلقة في السيارة ترد العين وتلطم وجه من نظر إليه نظرة سيئة، خزعبلات، وكذا رسمة الكف عندما تدفع في عينه في ظنهم؛ لأجل أنه إذا نظر يجد الكف يخطبه فينظر في

الناحية الأخرى، والعياذ بالله، خزعبلات وخرافات اخترعها الناس، وللأسف لا تزال موجودة، التعاويذ الفرعونية التي انتشرت في زماننا، إحياء لتجارة بائرة في العاديات يسمونها، يجلسون بجوار معابد الفراعنة - والعياذ بالله - يروجون للتعاويذ الفرعونية، تضعها في السيارة والتاكسي للحفظ والصيانة، نعوذ بالله، والجعران الأزرق، فالفراعنة أصلاً مولعون بعبادة الحشرات والثعابين والعجول، يعني: جهالة فوق جهالة، وضلال فوق ضلال، فالحمد لله الذي عافانا.

وهناك منافع لبعض الأشياء التي وردت أدلة شرعية بها، من كونها فيها نفع، مثل قول النبي ﷺ مثلاً: «**عليْكُمْ بِالسّنا والسّنُّوتِ، فإنّ فِيهما شِفاءً مِنْ كُلِّ داءٍ إلّا السّام، قالُوا: يا رسُول اللّهِ وما السّامُ؟ قال: السّامُ: الْموْتُ**»(١) ورغب في التلبينة مثلاً(٢)، وقال عن الزيتون: «**عليْكُمْ بِهذِهِ الشّجرةِ الْمُباركةِ زيْتِ الزّيْتُونِ، فتداووْا بِهِ فإنّهُ مصحّةٌ مِن الْباسُورِ**»(٣).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٤٥٧)، والطبراني في مسند الشامين (١/ ٣١)، والحاكم (٤/ ٢٢٤)، والطب النبوي لأبي نعيم الأصبهاني (١/ ٢٨٣، ٢/ ٥٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٤١٧)، ومسلم (٢٢١٦) عَنْ عَائِشَةَ ﵂، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ: «**أَنَّهَا كَانَتْ إِذَا مَاتَ المَيِّتُ مِنْ أَهْلِهَا، فَاجْتَمَعَ لِذَلِكَ النِّسَاءُ، ثُمَّ تَفَرَّقْنَ إِلَّا أَهْلَهَا وَخَاصَّتَهَا، أَمَرَتْ بِبُرْمَةٍ مِنْ تَلْبِينَةٍ فَطُبِخَتْ، ثُمَّ صُنِعَ ثَرِيدٌ فَصُبَّتِ التَّلْبِينَةُ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَتْ: كُلْنَ مِنْهَا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: التَّلْبِينَةُ مُجِمَّةٌ لِفُؤَادِ المَرِيضِ، تَذْهَبُ بِبَعْضِ الحُزْنِ**».

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ٢١٠)، والكبير (١٧/ ٢٨١)، وفي مسند الشاميين (١/ ٥٠)، الطب النبوي للأصبهاني (٢/ ٤٨٣).

فمثل هذه الأمور ليست من هذا الباب، وثبتت منافعها الطبية فعلاً.

نقول: فالتطير كما قال النبي ﷺ: «**الطِّيرةُ شِرْكٌ، الطِّيرةُ شِرْكٌ، ثلاثًا، وما مِنّا إلّا، ولكِنّ اللّه يُذْهِبُهُ بِالتّوكُّلِ**»[(١)].

إما شرك أكبر إذا اعتقد أن الطيور أو الأرقام أو الحيوانات والحشرات تجلب نفعًا أو تدفع ضرًا بذاتها أو مع الله، فهذا شرك في الربوبية، وطلب الخير أو دفع الشر منها شرك في الإلهية، وهذا من أمور الجاهلية ولا تزال منتشرة في زماننا، كما ذكرت لكم مجموعة مما لا يزال كثير من الناس يستعمله، ونسأل الله العافية.

النوع الثاني: الطيرة تكون شركًا أصغر، إذا اعتقد أن النفع والضر من عند الله، ولكن هذه الأشياء قال: إنها أسباب أو حتى علامات، وكل ذلك ادعاء علم غيب وخرق لقاعدة الأسباب، أنها إما أسباب شرعية، وإما أسباب كونية، وكذب على الشرع وكذب على القدر، وكلاهما محرم، سبب وذريعة إلى الشرك الأكبر فيكون شركًا أصغر، فهذه في مسألة الطيرة، وأما قول ابن مسعود رضي الله عنه: «**وما مِنّا إلّا، ولكِنّ اللّه يُذْهِبُهُ بِالتّوكُّلِ**»، (**إلا**): أي إلا من تطير، فإنه لم يقصد التطير الشركي أنه يقع فيه الصحابة مثلاً، وإنما قصد أنه قد يقع في القلب نوع من ذلك بدرجة ما، فوقوع الخواطر في القلب لابد أن يقاومها الإنسان، فإذا قاومها وتوكل على الله ولم يمض أو يُرد بناء على ما رأى أو سمع، فإن ذلك لا يضره شرعًا، يذهبه الله عنه بالتوكل عليه

(١) أخرجه أبو داود (٣٩١٠)، والترمذي (١٦١٤)، وابن ماجه (٣٥٣٨)، وأحمد في المسند (١/ ٣٨٩)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٣١٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه

وتفويض الأمر إليه؛ ولذا كان المشروع ألا يبني الإنسان مضيه في أمر أو رد نفسه عنه على ما رأى من أمور يتطير بها الناس، قال النبي ﷺ: «**إِنّما الطِّيرةُ ما أَمْضاك، أَوْ ردّك**»[(١)].

وأما الفأل: الكلمة الطيبة، فهذا مستثنى من هذا الباب، هو يشبهه في الظاهر عند الكثيرين أنه يسمع الكلمة الطيبة فيستبشر، كان النبي ﷺ يحب أن يسمع الكلمة الطيبة، ويكره أن يسمع الاسم القبيح، ليس تشاؤمًا، ولكن لأنه يكره الأشياء القبيحة، كما هو في فطرة الإنسان السوي أن يرتاح إذا رأى منظراً جميلاً، ويكره المنظر السيئ، فهو يحب مثلاً اسم (سهل) ويكره اسم (صعب) ويكره اسم (حرب) ويحب (سلمى) و(سالم) ونحو ذلك، وكان يحب أن يسمع من ينادي غيره إذا خرج في سفره أو في طريقه: يا ناجح، أو يا راشد. هو في حقيقة الأمر ليس من باب الطيرة أصلاً، وإن أشبهه في الظاهر، فاستثناه لذلك النبي ﷺ، وقال: «**لَا عدْوى وَلَا طِيرة، وَيُعْجِبُنِي الفأْلُ. قالُوا: وَمَا الفأْلُ؟ قَالَ: الكلِمةُ الطيِّبةُ**»[(٢)]، وذلك لأن مرد ذلك إلى حسن الظن بالله، وهو أن الله ﷻ قدّر لنا أن نسمع الكلمة الطيبة ليعظم رجاؤنا في فضل الله عند سفرنا أو توجهنا أو عملنا أو نحو ذلك، راجين فضله ﷻ متوكلين عليه، دون أن يمضينا أو يردنا مجرد سماع كلمة أو رؤية طائر أو نحو ذلك، فهذا في باب الطيرة.

أما والطّرْقُ: فقد فسره (عوف) بأنه: «**الْخطُّ يُخطُّ فِي الْأرْضِ**»، نوع من

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢١٣) مِنْ حَدِيثِ الفَضْلِ بنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.
(٢) سبق تخريجه (٢/ ٣٤٦).

التكهن(١)، أشبه شيء به في زماننا قراءة الفنجان وضرب الودع على الرمال حتى تخط خطوطًا، ويتأمل بعد ذلك هذا العراف والكاهن هذه الخطوط، يقولون بالصوف أحيانًا وبالقطن وبالحصى، يرمي حصيات - كما ذكرتُ - الودع، ويدعي أن هذا سوف يكون له في المستقبل كذا من المال، كذا من الرئاسة، كذا من الوظيفة، يشرب - المطلوب أن يُعرف له الغيب - قهوة ثم يقلب الفنجان بعد أن يشرب، ثم بعد ذلك ينظر الناظر المتكهن في الخطوط التي حصلت من البن، فيفسرها، يقول له: أمامك سكة سفر، أمامك صرة فلوس، يدعي له أنواع من الأمور تحدث له، وهذا يصدقها وهو نوع من الكهانة، وكل ذلك من أحوال أهل الجاهلية التي كانت موجودة.

الخط يُخط في الأرض، يقول له: اعمل خطوطاً غشوائية، ثم يحلل هذه الخيوط بزعم أنه يعرف الغيب، وقد بيّن ﷺ في الحديث الصحيح: «**كان نبيٌّ مِن الْأنْبِياءِ يخُطُّ، فمنْ وافق خطّهُ فذاك**»(٢)، وهذا في الحقيقة نوع من التعجيز؛ لأننا لا نعرف من هو هذا النبي، لا اسمه ولا زمنه ولا مكانه ولا شريعته ولاشيئًا عنه إطلاقًا، ولا نعرف كيفية خطه، كان معجزة له بالوحي، علمه الله ﷻ أن جعل له علامات يعرف بها أشياء تكون معجزة له، كما أخبر النبي ﷺ بالوحي أنه سيفتح المسلمون بيت المقدس بعد موته، ثم يأتي فيهم طاعون يأخذ فيهم كقعاص الغنم(٣)، وأخبرهم أنهم سينفقون كنوز

---

(١) قال أبو السعادات: هو الضَّربُ بالحصَى الذي يفعله النساء. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١٢١).

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٣١٧٦) من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه، قَالَ: «**أَتَيْتُ النَّبِيَّ** ﷺ =

كسرى وقيصر في سبيل الله(١)، هذا وحي ألقاه الله في نفس النبي ﷺ.

إنه كان نبي من الأنبياء جعل الله له علامات يعرف بها أمور الغيب معجزة له بالطرق يطرقه، بالخط يخطه في الأرض، ولكن - كما ذكرنا - لا نعلم كيف كان يخط، ولا من ذاك النبي ولا زمنه، ولا ما تشريعاته، لا نعرف شيئًا على الإطلاق، فأصبح مستحيلاً أن نعرف هذا الطرق، فهذا - كما ذكرت - تعجيز، مثل قول ابن عباس رضي الله عنهما لنجد الحروري لما سأله عن قتل الغلمان، قال: فلا تقتل الغلمان، فإن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الغلمان إلا أن تعلم ما علم الخضر من الغلام. يعني: لما تعرف أن هذا الغلام إذا كبر سيكون كافرًا ويفعل كذا وكذا، فعند ذلك فاقتله، فهذا المقصود منه التعجيز؛ لأن هذا مستحيل أن تعرفه، فإياك أن تقتل أحدًا، كما نهي النبي ﷺ عن قتل الغلمان(٢)، فهذا من هذا الباب، والله أعلى وأعلم.

= فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَقَالَ: اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ المَقْدِسِ، ثُمَّ مُوْتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الغَنَمِ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ المَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا، ثُمَّ فِتْنَةٌ لاَ يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ العَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ، فَيَغْدِرُونَ فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا».

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣١٢٠)، ومسلم (٢٩١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلاَ كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلاَ قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١٨١٢) وفيه: «.. أَنَّ نَجْدَةَ، كَتَبَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ يَسْأَلُهُ، عَنْ خَمْسِ خِلَالٍ، فَقَالَ: ابْنُ عَبَّاسٍ: لَوْلَا أَنْ أَكْتُمَ عِلْمًا مَا كَتَبْتُ إِلَيْهِ، كَتَبَ إِلَيْهِ نَجْدَةُ: أَمَّا بَعْدُ، فَأَخْبِرْنِي هَلْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَغْزُو بِالنِّسَاءِ؟ وَهَلْ كَانَ يَضْرِبُ لَهُنَّ بِسَهْمٍ؟ وَهَلْ كَانَ يَقْتُلُ الصِّبْيَانَ؟ وَمَتَى يَنْقَضِي يُتْمُ الْيَتِيمِ؟ وَعَنِ الْخُمْسِ لِمَنْ هُوَ؟ =

وادعاء عم الغيب المطلق، مفاتيح الغيب الخمس التي لا يعلمها إلا الله، كفر بالله وتكذيب للقرآن وادعاء صفة من صفات الربوبية، وهو علم الغيب؛ وأما الغيب النسبي فيمكن أن يطلع عليه الجن، أعني: أمر قد وقع وحدث بالفعل، ليس من مفاتيح الغيب الخمس، من اطلع عليه عرفه، وقد يكون هناك من البشر من اطلع عليه ومن الجن من اطلع عليه، والبشر قد يبحثون بالأسباب الظاهرة، وهذا مشروع لهم فيما يجوز أن يُبحث عنه دون تجسس، كمقتول قتل ثم بحثوا عنه بالأسباب الظاهرة: أين كان؟ من قابله؟ أخذوا بصمات. كل هذا ليصلوا إلى القاتل، لم يصلوا إلى نتيجة، قيدت القضية ضد مقتول، هناك طائفة تذهب إلى من يفتح المندل، ويدعي الاتصال بالجن، وغالبًا ما يكون له قرين من الجن يعاونه بما يقدمه له من تقربات؛ أحيانًا من الشرك، وأحيانًا من المعاصي؛ حتى يدله على ذلك، يأتون بطفل صغير مثلاً ينومه أو يغمض عينيه ثم يستدعي ذلك الصاحب من الجن والرئي من الجن، غالبًا ما يتلبس بالصبي، ويأتي الجن بالأخبار والجن له اطلاع وسرعة حركة، فيصف الطفل أو يصف الجني على لسان الطفل أو المرأة الذي يسأل عنه فاتح المندل، الكاهن الذي يدعي ذلك، وكثيرًا ما يكاد يصف أشياء يبحثون عنها فيجدونها صحيحة؛ ولأن هذا من الغيب النسبي كما ذكرت، فهذا أمر محرم إلا أن يكون معه شرك أكبر، كمن

= فَكَتَبَ إِلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَتَبْتَ تَسْأَلُنِي هَلْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَغْزُو بِالنِّسَاءِ؟ " وَقَدْ كَانَ يَغْزُو بِهِنَّ، فَيُدَاوِينَ الْجَرْحَى، وَيُحْذَيْنَ مِنَ الْغَنِيمَةِ، وَأَمَّا بِسَهْمٍ فَلَمْ يَضْرِبْ لَهُنَّ، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَقْتُلُ الصِّبْيَانَ، فَلَا تَقْتُلِ الصِّبْيَانَ»، والحديث الذي أخرجه مسلم (١٧٣١، ١٧٤٤).

يتقرب إلى الجن بذبح أو سجود، أو بإهانة مصحف؛ حتى يأتي له بالخبر، يقول له: ماذا ترى؟ وهو مغمض عينيه ويقول: أرى فلان ابن فلان يجر الجاموسة المسروقة ويدخل بها الدار. فالجن يأتي بالخبر ويتمثل له، يمثِّل له الصورة، الجن قادر على التمثل في الصور، يقول له: المقتول موجود في دار فلان، فلان قتل هذه البنت الصغيرة وأخذ حلقها، والحلق موجود في المكان الفلاني، والبنت مدفونة تحت مترين في الغرفة الفلانية في الدار الفلانية. فذهبوا وبلغوا البوليس - وأنا أعرف القصة بهذا - بعد ما عجزوا فيها في بلد في كفر الزيات - فتح المندل هذا كان في بورسعيد - وبعد ذلك حضر البوليس وحفروا، فأخرجوا الجثة ووجدوا الحلق موجودًا بالفعل، مثل هذا من عمل الشيطان، ومن وسائل الكهان المحرمة.

فادعاء علم الغيب النسبي محرم إن كان يقترن بشرك أو كفر أكبر، كان كفرًا، والعياذ بالله.

فالأسباب المدعاة أنها أسباب لا شرعًا ولا قدرًا، وسؤال الجن عن الغيبيات، ولو كانت نسبية محرم وشرك أصغر؛ لأنه ذريعة إلى الأكبر، والتنويم المغناطيسي ليس تنويمًا، إنما هو استعانة بالجن للتلبس بهذا الشخص أو نوع من خداع الأبصار المحضة.

قول النبي ﷺ: «**إنّ الْعِيافة، والطّرْق، والطِّيرة مِن الْجِبْتِ**»، يعني: من عمل الشيطان، من صوت الشيطان، من رنة الشيطان، من أمر الشيطان، الجبت: هذا الشرك الذي يأمر به الشيطان من ادعاء صفات الرب سبحانه وتعالى لبعض المخلوقين من القدرة على الضر والنفع، أو من التسبب في ذلك كذبًا على

الله، على شرعه وقدره، أو من ادعاء علم الغيب، وكل ذلك من صوته وأمره ورنته، الصوت الذي يأمر به ويحث الناس على الفساد والكفر والمعاصي وأنواع الفسوق، نعوذ بالله من ذلك.

فكل هذه من مسائل الجاهلية التي ما زالت موجودة عند أهل الكتاب وعند من انتسب إلى الإسلام وعند المشركين، وكلما انتشرت علوم الكتاب والسنة، ذهبت هذه الخرافات والخزعبلات، وذهب أيضًا التسبب المحرم أخذ الأسباب المحرمة الباطلة في ادعاء معرفة الغيبيات أو في ادعاء جلب النفع ودفع الضر، وكلما قل نصيب الناس من علوم الكتاب والسنة، وكلما ازدادت البدع كلما ازدادت هذه الخرافات والضلالات وانتشرت في الناس.

الْمسْألةُ السّادِسةُ والْعِشْرون بَعْدَ الْمِائَةِ: الْكِهَانَةُ.

الـشـــرح:

الكهانة: ادعاء علم الغيب بأسباب ومقدمات يدعيها الكاهن أو المتكهن وهي تشمل ادعاء علم الغيب المطلق، الذي لم يقع ولا يعلمه إلا الله، وهو أمور المستقبل التي قال الله ﷻ عنها: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾، وقال ﷻ في بيان أمور مفاتيح الغيب الخمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾، وبيّن النبي ﷺ لجبريل عليه السلام في حديثه المشهور في الإسلام والإيمان والإحسان، قال: «**أَخْبِرْنِي عنِ السّاعةِ قال رسُولُ اللّهِ ﷺ: ما الْمسْئُولُ عنْها بِأعْلم مِن السّائِلِ هُنّ خمْسٌ لا يعْلمُهُنّ إِلّا اللّهُ**»[1]، فدل ذلك على أن علم الساعة مع الخمس الأخرى التي استأثر الله ﷻ بها، لا يعلمها إلا الله.

فالنوع الأول من الكهانة: ادعاء علم الغيب بهذه الأمور التي تشمل ما يحدث في غد.

والنوع الثاني من الكهانة: ادعاء علم غيب نسبي غاب عن بعض العباد وعلمه بعضهم، فإن علم البشر لا يحيط بالموجودات التي وقعت،

(١) حديث جبريل عليه السلام، سبق تخريجه (١/ ٨٤).

فعندما يضيع شيء أو يُسرق أو تضل دابة، فالبعض قد يلجأ إلى الكهان لمعرفة مكان الضالة والشيء المسروق، وهذا إذا كان بمقدمات ظاهرة كالبحث عن خط سير هذا الشيء المسروق أو البحث عمن لقي الإنسان المفقود أو نحو ذلك أو أخذ البصمات أو النظر فيمن دخل أو خرج أو نحو ذلك، فهي أسباب ظاهرة لا يحرم البحث عن هذه الأشياء من خلال هذه الوسائل، النوع الثاني: يأخذ وسائل مخالفة، أسباب يدعيها الكاهن من النظر في النجوم، من سؤال الجن، من ما يسمى بفتح المندل، مقدمات وأسباب يدعيها الكاهن، وقد يقال عنه: عراف، وقد يقال عنه: كاهن، وقد يقال عنه: رمال، يعني: من خلال الرمل والودع، يدعي أنه يعرف مكان الضالة والشيء المسروق ونحو ذلك، فهذا نوع من الكهانة أيضًا، وإن كان دون الأول، لكن هو داخل في ذلك، وقد قال النبي ﷺ: «**مَنْ أتى عرّافًا أَوْ كاهِنًا، فصدّقهُ بِما يقُولُ، فقدْ كفر بِما أُنْزِل على مُحمّدٍ ﷺ**»[(١)].

وهذا الحديث حمله أكثر العلماء على النوع الثاني، أعني: الغيب النسبي؛ ولذا منهم من قال: كفر دون كفر، ومنهم من قال: نتوقف في ذلك. والتوقف في حقيقة الأمر ليس قولاً ثانيًا، وإنما هو موافق للقول الأول، وهو

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد في المسند (٢/ ٤٢٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٩) وصححه، من حديث أبي هريرة ﵁. وأخرجه بنحوه أبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥)، وابن ماجه (٦٣٩)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٢٣)، والدارمي في سننه (١١٣٦). قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/ ٢١٧): (وله شاهد من حديث جابر وعمران بن حصين، أخرجهما البزار بسندين جيدين)، وأخرجه أبو يعلى (٩/ ٢٨٠) بِسَنَدٍ جَيْدٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلُهُ مَوْقُوفًا.

كفر دون كفر، ولكن لا يريد التقليل من شأن هذا الذنب العظيم، فيأمر بترك الحديث على ما ذكر من باب الزجر والتخويف، كما كره طائفة من السلف فيما ورد عن النبي ﷺ: من فعل كذا، فليس منا أو فأنا بريء منه، أو برأ من الله أو نحو ذلك، يأمرون أن تترك على ظاهرها ولا يقال: ليس على طريقتنا ولا برأ من فعله ونحو ذلك؛ حتى يكون لها الزجر الذي أراده النبي ﷺ بإطلاقه هذا الأمر؛ لذلك نقول: في الحقيقة ليس هذا بقولين، وإنما هما قول واحد، ولكن أراد أحدهما ألا يفتح باب التهوين من وعيد الكهانة في حس السامعين، فأمر أن تطلق ولا تفسر إلا أن تتلى الأحاديث: قال ﷺ: **«منْ أتى عرّافًا أوْ كاهِنًا، فصدّقهُ بِما يقُولُ، فقدْ كفر بِما أُنْزِل على مُحمّدٍ ﷺ»** وفي الحديث الآخر: **«منْ أتى عرّافًا، فسألهُ عنْ شيْءٍ، فصدّقهُ، لمْ تُقْبلْ لهُ صلاةُ أرْبعِين يوْمًا»**[1].

وهذا ظاهر جدًا في عدم التكفير، مع كونه من أعظم الكبائر، فهو دليل على أن المقصود بـ«**فقدْ كفر بِما أُنْزِل على مُحمّدٍ ﷺ**»، هو الكفر دون كفر؛ لأن الكافر لا تقبل له صلاة لا أربعين ولا فوق الأربعين، لا تقبل له صلاة أبدًا ما دام في كفره: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، فدل ذلك على أن الكافر حابط العمل بالكلية، لا أيامًا ولا شهورًا ولا حتى سنين، الكافر حابط العمل مهما كان، فتقييد **«منْ أتى عرّافًا أوْ كاهِنًا، فصدّقهُ بِما يقُولُ، فقدْ كفر بِما أُنْزِل على مُحمّدٍ ﷺ»** تقييد ذلك بقوله ﷺ: «**لمْ تُقْبلْ لهُ صلاةُ أرْبعِين يوْمًا**»، دليل على تحديد مدة

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٠) من طريق نافع عن صفية بنت أبي عبيد عن بعض أزواج النبي عن النبي ﷺ، وليس فيه: «**فَصَدَّقَهُ**».

معينة أن هذا ذنب كبير لم يبلغ درجة الشرك الأكبر، كونه ﷺ قد ذكر أربعين ليلة دليل على أنه لم يقصد الخروج من الملة، فتفسر تلك الرواية بهذه، والله أعلى وأعلم.

أما النوع الأول: أعني ادعاء علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، فهذا قد نص طوائف من العلماء على كفر من ادعاه، وقد نقل القرطبي: أن من جزم أن السماء تمطر غدًا، فهو كافر. وكذا من يقول: الساعة تقوم في اليوم الفلاني، فإن هذا مصادمة للقرآن العظيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ قال ﷻ: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾، وقال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، وآيات كثيرة تثبت أنه لا يعلم الغيب فيما يأتي إلا الله ﷻ، ومن زعم لمخلوق صفة الرب ﷻ، كان مشركًا - والعياذ بالله - في أسماء الله وصفاته، وهذا التفصيل هو الصحيح في هذا الباب، فإن كثيرًا من الشراح عندما يتكلم عن الأحاديث يذكر القولين: في أن هذا كفر دون كفر، أو أنه يُسكت عنه، ولا ينبه أن هذا في النوع الثاني من الكهانة فقط، أعني: في ادعاء علم الغيب النسبي الذي غاب عن البعض وعلمه الباقون، وليس في ادعاء ما لا يعلمه إلا الله، في ادعاء علم ما لا يعلمه إلا الله، وقد أخبر النبي ﷺ والأنبياء قبله عن أحداث في المستقبل، لكنها لم تخرجها عن كونها غيبًا، أخبروا بأمور هي معجزات للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؛ لتكون معجزة دالة على صدقهم، كما أنهم أخبروا بأمور غيبية في أحداث القيامة ما قبلها وما بعدها، وكل ذلك من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، فهل من اختلاف؟!

نقول: ليس هناك اختلاف بحمد الله ﷻ، فإن الرسل وإن أخبروا عن أمور غيبية كما ذكر ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ

ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾﴾، فهذا الاستثناء يدل على أن الرسل تخبر بأمور غيبية، لكن هل معنى ذلك: أن هذه الأمور الغيبية قد خرجت عن وصفها بكونها غيبًا؟ نقول: لا، فإن الرسل أخبروا بهذه الأمور الغيبية؛ إما مع بقاء شيء من الإجمال فيها، بحيث لا تخرج عن كونها مما لا يعلمه على وجه التفصيل الكامل من وقت الوقوع وكيفية الوقوع وغير ذلك من التفاصيل إلا الله، وهذا أمر معلوم في أشراط الساعة التي أخبر بها النبي ﷺ وفي قيامها وفيما يكون عليه أحوال الناس في الآخرة، وهذا أمر يجب الإيمان به ولا يسع أحدًا أن يكذبه، ولكن متى يقع ذلك؟ لا يعلم ذلك إلا الله. قد يرتب النبي ﷺ بعض الأمور، مثل مايقول: «**اعْدُدْ سِتًّا بيْن يدي السّاعةِ: موْتِي، ثُمّ فتْحُ بيْتِ المقْدِسِ، ثُمّ مُوْتانٌ يأْخُذُ فِيكُمْ كقُعاصِ الغنمِ**»(١) وهكذا. فذكر أشياء مرتبة، وليس في هذا إخراج لها عن كونها غيبًا، فإن الرسول ﷺ لم يخبر متى يموت ولا متى يفتح بيت المقدس، ولكن رتب فقط، فلا يزال هناك غيب؛ وأما ما أخبر به النبي ﷺ تفصيلاً مما يقع في المستقبل فقد أخبر بأشياء من ذلك، وكذا علم الملائكة بما يفعله العباد، فإنهم قد كتبوا بأمر الله ﷻ والإنسان جنين في بطن أمه ما يفعله العبد تفصيلاً من عمل، يقال له: «**ثُمّ يبْعثُ اللهُ ملكًا فيُؤْمرُ بِأرْبعِ كلِماتٍ، ويُقالُ لهُ: اكْتُبْ عملهُ ورِزْقهُ وأجلهُ وشقِيٌّ أوْ سعِيدٌ**»(٢)، فيكتبون عمل الإنسان والظاهر أنه

---

(١) سبق تخريجه (٢/ ٣٥٦).

(٢) سبق تخريجه (١/ ٤٢٤).

تفصيل، فكيف يقال: لا يعلمهن ملك مقرب ولا نبي مرسل، لا يعلمهن إلا الله؟!

نقول: هذه الأمور التفصيلية التي أخبر بها الرسول ﷺ والرسل قبله، ومن ضمنها ما يدخل في المفاتيح قطعًا، أعني: بأي أرض يموت فلان، وقد كان ﷺ يقول في ليلة بدر، أو في اليوم الذي قبلها: «**هذا مصْرعُ فُلانٍ غدًا، إِنْ شاء اللهُ، قال: فقال عُمرُ: فوالّذِي بعثهُ بِالْحقِّ ما أخْطئُوا الْحُدُود الّتِي حدّ رسُولُ اللهِ ﷺ**»(١).

نقول: هذا الأمر التفصيلي معلق على مشيئة الله ﷻ، إن شاء الله ﷻ أمضاه وإن شاء لم يمضه؛ ولهذا ظل هذا الأمر غيبًا كذلك، ظل ضمن وصف هذه الأشياء بأنها لا يعلمها إلا الله، المفاتيح الخمس، فالرسول ﷺ كان يقول: «**هذا مصْرعُ فُلانٍ غدًا، إِنْ شاء اللهُ**»، والملك يكتب ما أمره الله ﷻ أن يكتب، وهو معلق على مشيئة الله أن ينفذ هذا القضاء، فإن الكتاب كتابان: كتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب.

فهذا الكتاب الذي بأيدي الملائكة، مما فيه أعمال العباد تفصيلاً وذكر صفاتهم وأحوالهم، هي مما دخل في غير أم الكتاب؛ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**مِنْ أحدِ الْكِتابيْنِ هُما كِتابانِ يمْحُو اللّهُ ما يشاء مِنْ أحدِهِما** ﴿وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩] **أيْ جُمْلةُ الْكِتابِ**»(٢)، فهذا الذي يمكن فيه المحو ويمكن فيه الإثبات، أن يُمضى الأمر على ما كتب الله أول مرة،

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٩، ٢٨٧٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه (١/ ٤٢١).

ويمكن أن يُمحى لأن ذلك معلق بمشيئة الله ﷻ، أن يمضي هذا الذي أمر الملك بكتبه، والله أعلم.

مِن هنا كانت الكهانة في حقيقة الأمر ادعاء لصفة من صفات الربوبية؛ ولذا كان الكاهن والرّمّال والمنجم والعراف، كل منهم داخل في معنى الطواغيت، وإن كانت كلمة الطاغوت المأخوذة من الطغيان، فكل من طغى فهو طاغوت لا يلزم منها التكفير لمن فعل ذلك، فقد علمنا الخلاف في كفر الكاهن ومن صدّقه، فالكاهن الذي يدعي معرفة الغيب النسبي الذي وقع في جزء من الأرض أو جزء من العالم، ولم يدعِ الغيب المطلق فهو طاغوت، وإن لم يكن خارجًا من الملة؛ لأنه لم يدع صفة الرب ﷻ، الغيب مِن مثل معرفة الشيء المسروق والدابة الضالة ومعرفة مثلاً الإنسان المفقود أو نحو ذلك، هذا من الغيب الذي يمكن أن يطلع عليه البعض، ويمكن أن يكون الرِّئْي من الجن يبلغه به ونحو هذا، والكاهن الذي يدعي معرفة الغيب المطلق، ما يقع في المستقبل، إن كان جازمًا بما يقول، فقد كفر، وإن كان يقول ذلك على جهة الظن والتخمين، وإذا سئل واستفصل منه، أكد أنه يقول ذلك ظنًّا، ليس بمستيقن منه، فهذا لا يكفر وإن كان قد ارتكب كبيرة من الكبائر؛ لهذا قلنا: إن لفظ الطاغوت - وإن شمل هؤلاء - لا يلزم منه تكفير الشخص بعينه، وقد سبق كذلك في الكلام على السحرة والخلاف بين أهل العلم في: هل يكفر الساحر، أم لا؟ وذكرنا أن جماهير العلماء يفصلون في الحكم، وإن كان المشهور أن التفصيل قول الشافعي، لكن حقيقة الأمر أن أتباع المذاهب الأخرى يفصلون أيضًا[1]؛ فإن كان السحر بأدوية وتدخين،

(١) راجع (١/ ٢٤٣).

ولم يستحله صاحبه، لم يكن كافرًا، الذي عمله لم يكن كافرًا، وقد يكون مستحلاً له، أو قد يكون متضمنًا سحره شيئًا من الكفر؛ من عبادة الكواكب، وعبادة الشياطين، صرف العبادة لغير الله، وادعاء أن النجوم السيارة هي التي تتحكم في الكون، فهذا إما شرك في الربوبية، أو شرك في الإلهية، أو شرك في الأسماء والصفات، أو في الأنواع الثلاثة كلها؛ ولذلك قلنا: هناك إذًا اختلاف في أن الساحر كافر، أم لا؟ على نوع السحر المذكور.

نقول ذلك حتى نعلم أن الساحر والكاهن كلاهما من رؤوس الطواغيت، وكذا الحاكم الذي يحكم بغير ما أنزل الله، والذي يبدل شرع الله، والشيطان. إذا قلنا: هؤلاء رؤوس الطواغيت، لا يلزم أننا قد حكمنا بكفر العين لكل واحد ممن وقع منه ذلك، هذا نقوله في هذه المسألة أولاً، لكن كما ذكرنا مسألة أن الكهانة كبيرة من الكبائر على أي حال، وأن صاحبها العراف والكاهن والمنجم والرمال، كل هؤلاء حسب النوع الذي أتوا به، وحسب ادعائهم العلم، يمكن أن يقال: فيهم من هو كافر كفر أكبر، وفيهم من هو كافر كفر دون كفر، وكذا فيمن يأتيهم من الناس ويستفصلهم ويستخبرهم عن أمور الغيب، الغيب المطلق، مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله، أو الغيب النسبي عن مكان الضالة والشيء المسروق ونحو ذلك.

«**منْ أتى عرّافًا أوْ كاهِنًا، فصدّقهُ بِما يقُولُ، فقدْ كفر بِما أُنْزِل على مُحمّدٍ** ﷺ»[١]، يشمل النوعين، والله أعلى وأعلم. وإن كان المشهور حمله على النوع الذي هو غيب نسبي وعدم الحكم بكفره كفرًا ناقلاً عن الملة.

(١) سبق تخريجه (٢/ ٣٦٢).

أما الكهانة قبل بعثة النبي ﷺ فقد كان هناك قدر يُعرف فيما يقع في المستقبل، وهو في الحقيقة صار من جهة ما من الغيب النسبي، أعني: أن أحاديث النبي ﷺ في استراق الجن السمع، أن الله ﷻ إذا تكلم بالوحي سمع أهل السماء كسلسلة على صفوان فيصعقون - فيكون أول من يرفع رأسه جبريل - أو فيخرون لله سجدًا، يصيبهم الغشي، يتغشاهم من أمر الله ﷻ ما يتغشاهم من شدة الخوف من ربهم ﷻ، من شدة خوفهم من رب ﷻ يخافون أن يكون قد نزل أمر بإهلاك العالم أو القيامة أو نحو ذلك: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾، فيخرون لله سجدًا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام، فيوحي الله إليه من أمره ما شاء: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، زال الفزع عنهم، وعلموا أن القيامة لم تقم، ونزل جبريل عليه السلام بالأمر من عند الله، كما في حديث النّوّاسِ بْنِ سمْعان رضي الله عنه قال: «قال رسُول اللّه ﷺ: «**إذا أراد اللّهُ أنْ يُوحِي با لأمرِ تكلّم بِالْوحْيِ، أخذتْ السّماوات مِنْهُ رجْفةٌ - أوْ قال رعْدةٌ - شدِيدةٌ، خوْفًا مِنْ اللّهِ ﷻ، فإذا سمِع بِذلِك أهْل السّماوات صُعِقُوا وخرُّوا لِلّهِ سُجّدًا، فيكُون أوّل منْ يرْفع رأْسهُ جِبْرِيلُ، فيُكلِّمهُ اللّهُ مِنْ وحْيه بِما أراد، ثُمّ يمُرُّ جِبْرِيلُ على الْملائِكة، كُلّما مرّ بِسماءٍ سألهُ ملائِكتُها: ماذا قال ربّنا يا جِبْرِيلُ؟ فيقُول جِبْرِيلُ: قال: ﴿ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾** [سبأ: ٢٣]. **قال: فيقُولُون كُلّهمْ مِثْل ما قال جِبْرِيلُ. فينْتهِي جِبْرِيلُ بِالْوحْيِ إلى حيْثُ أمرهُ اللّه ﷻ**»[١]، فينزل جبريل بالوحي حيث شاء

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٢٧)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٣٦) وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٣٤٨)، والآجُري في الشريعة (٣٠٧)، والطبري في تفسيره (٢٢/ ٩١)، وابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير في تفسيره، وساقه بإسناده (٣/ ٥٣٨)، =

الله. وفِي الصّحِيحِ عنْ أبِي هُريْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النّبِي ﷺ قال: «**إذا قضى اللّهُ الأمْر فِي السّماءِ، ضربتِ الْملائِكةُ بِأجْنِحتِها خضعانًا لِقوْلِهِ، كأنّهُ سِلْسِلةٌ على صفْوانٍ ينْفُذُهُمْ ذلِك** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾، **فيسْمعُها مُسْترِقُ السّمْعِ، ومُسْترِقُ السّمْعِ هكذا بعْضُهُ فوْق بعْضٍ - وصفهُ سُفْيانُ بِكفِّهِ فحرّفها وبدّد بيْن أصابِعِهِ - فيسْمعُ الْكلِمة، فيُلْقِيها إِلى منْ تحْتهُ، ثُمّ يُلْقِيها الآخرُ إِلى منْ تحْتهُ، حتّى يُلْقِيها على لِسانِ السّاحِرِ أوِ الْكاهِنِ، فرُبّما أدْرك الشِّهابُ قبْل أنْ يُلْقِيها، ورُبّما ألْقاها قبْل أنْ يُدْرِكهُ، فيكْذِبُ معها مِائة كذْبةٍ، فيُقالُ: أليْس قدْ قال لنا يوْم كذا وكذا: كذا وكذا؛ فيُصدّقُ بِتِلْك الْكلِمةِ الّتِي سُمِعتْ مِن السّماءِ**»[1].

هذا كان الحال قبل بعثة النبي ﷺ، وهو كما وضح من الحديث أنه صار مما يظن، أنه صار مما يعلم أنه يقع لأجل كلام الملائكة بأن الله قد أوحى إلى جبريل أو إلى من شاء من عباده أمرًا يقع في المستقبل، ولكن هذا الأمر قد انتهى، قال تَعَالَىٰ عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ٩﴾، فأصبحوا لا يتسمعون أصلاً؛ لأن كل من استمع أصابه شهاب وأحرقه وأهلكه، حماية للوحي المنزل من عند الله على محمد ﷺ؛ لأن الله هو الذي تعهد بحفظ هذا الكتاب: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾، فمنع أن تناله الشياطين ولا شيئًا منه قبل أن يلقيه النبي ﷺ على الناس؛ ولأن الشرع الإسلامي قد جاء بإبطال الكهانة

= وأبونعيم في الحلية (٥/ ١٥٢)، والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٦٦)، والبغوي في تفسيره (٣/ ٥٥٧).

(١) أخرجه البخاري (٤٧٠١، ٤٨٠٠، ٧٤٨١).

وتحريمها، وأن الكهان من رؤوس الطواغيت، فظل هذا الأمر من حراسة السماء؛ لأن حكم الوحي المنزل من عند الله ﷻ القرآن باق إلى يوم القيامة.

ومن هنا قال من قال من أهل العلم كالقرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «**فإِنْ قِيل: إِنّ هذا الْقذْف إن كان لِأجْلِ النُّبُوّةِ، فلِم دام بعْد النّبِيِّ ﷺ؟ فالْجوابُ: أنّهُ دام بِدوامِ النُّبُوّةِ**»[١].

هذا هو الصحيح في هذه المسألة؛ لذلك قلنا: إن هذا الأمر، أعني: أن هناك كلام يُستمع من السماء مما يقع في الأرض لم يعد له وجود في زماننا، فليس إذًا بوسيلة، أعني: أن ادعاء سماع مسترقي السمع من الجن ليس وسيلة لمعرفة أحداث الغيب، لم يعد وسيلة كما كان في الماضي، قد يلقي كلمة وقد يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، ولكن الآن أصبح كل من يستمع يدركه الشهاب، كان قبل ذلك هناك حراسة للسماء، لكن زيد فيها حتى منعتهم من أصل السماع، فلم يعد هناك في ادعاء الغيب المطلق إلا التخمين والظن المحض، وإن كان كثير من الناس يخدع، لكن لا يجوز لمسلم أن يصدِّق أن كاهنًا يمكنه أن يعرف المستقبل بحال من الأحوال، وإن كانت هذه المسألة، أعني: أن كفر من صدق الكهان في معرفة المستقبل، مسألة كفر من صدق الكهان كفرًا ناقلاً عن الملة، هذه المسألة قد يجهلها البعض، فتحتاج إلى إقامة حجة قبل تكفير المعين، والله أعلى وأعلم.

فالكهانة باطلة شرعًا وكونًا وقدرًا، وادعاء أثر اللزوم في أحداث الأرض وفي صفات الناس ادعاء كاذب باطل لا أصل له، وقد قال النبي ﷺ: «**ليْس**

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٥/ ٦٦، ١٩/ ١٣).

مِنّا منْ تطيّر أوْ تُطُيِّر لهُ، أوْ تكهّن أوْ تُكُهِّن لهُ، أوْ سحر أوْ سُحِر لهُ»[(١)]، وكثير من الناس ما زال يدعي خصوصًا مع أوائل السنين، في أول رأس السنة هناك من يتكلم بما يقع من حوادث خلال هذه السنة، وهذه في حقيقته من النوع الذي هو كفر أكبر، فعلاً وتصديقًا، أو قولاً أو تصديقًا، القول بالكهانة ومن يصدقه بذلك، فيذهبون إلى من يسمونهم أهل الفلك أو المنجمين؛ ليدعوا أن حروبًا ستقام، وأن أرواحًا ستزهق، وأن فلانًا سيموت، وأن فلانًا سيصيبه كذا. وهذا كله من الكذب والظن والتخمين المحض، إذا وافق شيئًا قالوا: ألم يقل لنا الساحر الفلاني والكاهن الفلاني أنه سيقع كذا وكذا؟ بمجرد التخمين، والله أعلم.

لكن نقول: في مسألة تكفير المعين لابد من إقامة الحجة واستيفاء الشروط وانتفاء الموانع، خصوصًا مع كثرة الجهل في زماننا، لكن من علم الآية الكريمة: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾، ويعلم الآية الكريمة: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فهذا قد قامت عليه الحجة، لا يسعه أن يصدق الكهان ولا المنجمين ولا الرمالين ولا الذين يدعون علم الغيب بهذه الوسائل.

يبقى أن نقول أيضًا: إن من وسائل الكهانة في زماننا ما يسميه الناس (حظك اليوم) و(معرفة أبراج السماء)، وتقسيم السنة على هذه الأبراج وأن كل مولود يولد في يوم معين يكون له برج معين؛ فذاك في الدلو، وذاك في العذراء، وذاك في الجدي، ثم يكذب هؤلاء المنجمون ويقولون: من كانوا

---

(١) أخرجه البزار (٩/ ٥٢)، والطبراني في الأوسط (٤/ ٣٠٢).

مولودين في هذا اليوم، فسيحدث لهم كذا وكذا، ومن كانوا من أهل البرج الفلاني، فصفاتهم كذا وكذا وأحوالهم كذا وكذا وينتظرهم كذا وكذا، وكل هذا مما يعلم كل عاقل أنه من خداع الجهلاء ومن استغفال هؤلاء الذين لا علم لهم بدين ولا دنيا، إنما يرونهم في غفلة فيكذبون عليهم ذلك، نسأل الله العافية، وكما ذكرنا في المرة السابقة من قراءة الفنجان ووشوشة الودع والخط على الرمال، كما ذكرنا من هذا ما يكون من جهة الغيب النسبي، ومنه من جهة ادعاء علم الغيب المطلق الذي لا يعلمه إلا الله، ومن جزم بوقوعه ذلك في المستقبل في تاريخ معين، فقد كفر بتكذيبه القرآن العظيم، وما دون ذلك هو كفر دون كفر، نسأل الله العافية.

ويجب محاربة الكهان الذين هم أحد رؤوس الطواغيت ومنعهم من ذلك، ليس استفتاؤهم ولا الذهاب إليهم ولا نشر كلامهم إلا من يريد أن يكذبهم ويفضحهم ويبين بطلان كلامهم، وأنه لا يقع ما أخبروا به وإنما هم يخمنون، وإنما إن وافقوا شيئًا من الحق فبلا علم منهم، وإنما هو الظن: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾، فمن هذا الباب يمكن فضحهم وبيان حقيقتهم؛ أما من يأتيهم ليصدقهم وليستفهم منهم ويستخبرهم، فهذا لا يجوز بحال من الأحوال.

وأما عقوبة الكهان الدنيوية: إذا كان الكاهن ممن يدعي علم الغيب المطلق الذي لا يعلمه إلا الله، فهذا يستتاب، فإن تاب وإلا قتل مرتدًا؛ وأما إذا كان من جنس العرافين الذين يبحثون في مكان الشيء المسروق والشيء المفقود ونحو ذلك، فهذا إن لم يستحل هذا الذنب أو إن لم يقر على نفسه بكفر يفعله للجن حتى يخبروه بذلك، يعزر تعزيرًا بليغًا؛ فأما إذا وصف كفرًا

فقال: إنما أعلم هذه الأحداث إذا تقربت إلى الجن بشيء من الكفر، فيكون مرتدًا في هذه الحالة، فهذا يُكفر ويقتل في تلك الحال، ولكن إذا لم يكفر فينبغي أن يعزر تعزيرًا بليغًا.

والاستعانة بالجن منافية لقول النبي ﷺ: «... **إِذَا سأَلْت فاسْأَلِ اللَّه، وَإِذَا استعنْت فاسْتعِن باللَّهِ** ...»[(١)]، ولكن استعانته بالجن في معرفة الأمور التي هي من الغيب النسبي أمر لا يجوز ومحرم، ولكن لا يُخرج من الملة؛ وأما إذا كان يعتقد أن الجن يمكنهم معرفة ما يقع في المستقبل أيضًا؛ ولذلك هو يصدقهم ويستعين بهم ويستخبرهم عما يقع في المستقبل، فهذا أيضًا من الكفر الناقل عن الملة.

وإذا فعل الكاهن شيئًا مكفرًا؛ كالسجود للصنم، أو السجود للجن وعبادته، أو إلقاء المصحف في القاذورات أو كتابته بالنجاسات، أو الصلاة لغير القبلة، أو غير ذلك مما يكون كفرًا؛ تقربًا إلى الجن، فهذا يكفر إذا اعترف على نفسه بذلك، وليس كل كاهن يعترف على نفسه، وليس كل كاهن يقول أو يفعل ذلك، لا يلزم من أن بعض الكهان يفعلون ذلك أن كل الكهان لابد أن يتقربوا للجن بالكفر.

---

(١) سبق تخريجه (١/ ٢٣٨).

الْمسْألةُ السَّابِعَةُ والْعِشْرون بَعْدَ الْمِائةِ: التَّحَاكُمُ إِلَى الطَّاغُوتِ.

الـشــــرح:

قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

فبين سبحانه وتعالى أن الإيمان والإسلام مرتبطان بالتحاكم إلى ما جاء به النبي ﷺ وتحكيمه في كل موارد النزاع وقبول حكمه والانقياد له، ونفى الله ﷻ الإيمان عمن لم يتحاكم إلى رسول الله ﷺ، إلى ما جاء به من الشرع والوحي المنزل من عند الله الحكم العدل، سبحانه وبحمده، وبين سبحانه وتعالى أن من أراد التحاكم إلى الطاغوت مجرد الإرادة، فضلاً عن فعل ذلك هو من علامات النفاق: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾. والطاغوت مأخوذ من الطغيان وهو

مجاوزة الحد[١]، وطاغوت كل قوم هو متبوعهم ومعبودهم ومطاعهم، الذي يطيعونه ويتبعونه ويعبدونه على غير بصيرة من الله، الذين يخالفون ما جاءت به الرسل من عبادة الله وتوحيده ويتبعون رأسًا من رؤوسهم جاوزوا به الحد، رضي هو أم لم يرض، لكن إذا كان غير راض لم يسم هو طاغوتًا، ولكن هم جعلوه لله ندًّا، نقول: فهذا الذي جعلوه ندًّا لله ﷻ يتحاكمون إلى كلامه وإلى آرائه، دون مستند من شريعة الله، فهذه مجاوزة للحد، فالعبد حده أن يكون محكومًا بشرع الله ﷻ متحاكمًا إليه، لا يطلب الحكم من غير الله، إنما أنزل الله ﷻ الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، أنزل الله ﷻ الكتاب على رسله ليبين للناس ما اختلفوا فيه، فلا يجوز أن يتحاكم من انتسب إلى الإيمان، وزعم الإيمان بالله وبكتبه ورسله إلى شيء آخر خلاف شرع الله ﷻ، حد العبد أن يكون - إذا حكم - حاكمًا بما أنزل الله ﷻ، وإذا تحاكم وطلب الحكم، أن يكون متحاكمًا إلى ما أنزله الله على رسوله، فإذا جاوز العبد حده، سواء كان حاكمًا، أو محكومًا، وادعى الحاكم لنفسه أن له أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلاً أو بما يراه صوابًا من غير رجوع إلى شرع الله، فهذا طاغوت، وكذلك إذا ادعى المحكوم أن له أن يتحاكم إلى من يريد، دون أن يرجع إلى شرع الله ﷻ أو إلى من يحكم بغير شرع الله، فقد جاوز حده؛ ولذلك يكون قد جعل الذي يُتحاكم إليه دون شرع الله طاغوتًا.

وكل من حكم بغير شرع الله ﷻ فهذه الآية تدل على أنه يسمى طاغوتًا،

(١) انظر: تعريف ابن القيم رحمه الله للطاغوت في إعلام الموقعين (١/ ٥٣).

طغى وجاوز الحد، وقد أُمِر المؤمنون أن يكفروا بهذا الطاغوت الذي يحكم بغير الله شرع الله ﷻ، وذلك أن الإيمان يستلزم قبول شرع الله ﷻ والحكم به والتحاكم إليه؛ كما قال ﷻ مبينًا ضلال من ضل في هذه المسألة ممن سبق من أهل الكتاب، وممن ينتسب إلى الإسلام من المنافقين، ولكنهم على درب الكفار من أهل الكتاب يسيرون، قال ﷻ: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ الآيات إلى قوله ﷻ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. فإرادة التحاكم إلى الطاغوت هي حال أهل الجاهلية، وهناك من يريد ذلك من المنافقين، وتأمل أن الله – سبحانه – ذكرهم في الآية قبل ذكر الذين هادوا، مع أن سبب نزول الآية كان في الذين هادوا، كان في اليهود، وذلك كما ثبت في الصحيح

من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن اليهود أتوا إلى رسول الله ﷺ في رجل وامرأة زنيا[1] لما كثر الزنا في بني إسرائيل وفعله أشرافهم وأبوا أن يقيموا الحدود التي شرعها الله ومنها حد الرجم الذي في التوراة، وإلى يومنا هذا ما زال في التوراة والإنجيل ثابتًا، والقرآن قد نزل به وبينه الرسول ﷺ وفعله ولم ينسخه، ونسخت تلاوته وبقي حكمه.

نقول: لما كثر الزنا فيهم وأبوا أن يطبقوا حكم الرجم على الزاني والزانية، اصطلحوا فيما بينهم على عقوبة هي أدنى من عقوبة الرجم، بأن يسودوا وجوه الزانيين، ويطوفون بهما على حمارين مقلوبين، ويجلدوهما، فلما بعث النبي ﷺ قالوا لبعضهم مثل هذا لما وقعت واقعة الرجل والمرأة اليهوديين الذين زنيا، وشهد أربعة شهود أنهم رأوا فرجه في فرجها كالرشاء في البئر والميل في المكحلة، فقالوا: ائتوا هذا النبي فإنه قد بعث بالتخفيف فإن حكم لكم بالجلد فخذوه وقولوا: حكم به نبي - يرون أن ذلك يكون حجة عند الله، وهم يعلمون صدق النبي ﷺ -، وإن حكم لكم بالرجم فاحذروا، إن أصر على ما في التوراة فاحذروا ذلك، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**أنّ الْيهُود جاءُوا إلى رسُولِ اللهِ ﷺ، فذكرُوا لهُ أنّ رجُلًا مِنْهُمْ وامْرأةً زنيا فقال لهُمْ رسُولُ اللهِ ﷺ: ما تجِدُون فِي التّوْراةِ فِي شأْنِ الرّجْمِ فقالُوا: نفْضحُهُمْ ويُجْلدُون فقال عبد اللهِ بْنُ سلامٍ: كذبْتُمْ إِنّ فِيها الرّجْم فأتوْا بِالتّوْراةِ فنشرُوها، فوضع أحدُهُمْ يدهُ على آيةِ الرّجْمِ، فقرأ ما قبْلها وما بعْدها، فقال له عبد اللهِ بْنُ سلامٍ: ارْفعْ يدك فرفع يدهُ، فإِذا فِيها آيةُ الرّجْمِ فقالُوا: صدق**

(١) سبق تخريجه (١/ ٣٢٧).

يا مُحمّدُ فِيها آيةُ الرّجْمِ فأمر بِهِما رسُولُ اللهِ ﷺ، فرُجِما».

قال عبد اللهِ بْنُ عُمر رضي الله عنهما: «**فرأيْتُ الرّجُل يجْنأُ على الْمرْأةِ، يقِيها الْحِجارة**»[(١)]، وأنزل الله في ذلك: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾، ولم يذكر سبحانه وتعالى هذه المسألة في كتابه قط إلا بلفظ الكفر والشرك، وذلك مع الظلم والفسق، لم تذكر مجردة عن ذلك، والظلم - كما نعلم - منه الظلم الأكبر ومنه الظلم الأصغر، والفسق منه الفسق الأكبر ومنه الفسق الأصغر، وكذلك الكفر منه الكفر الأكبر ومنه الكفر الأصغر، لكن ما تكرر ذكره في القرآن مؤكدًا أنه من الكفر، فواجب حمله على الكفر الأكبر، وكذا الشرك حتى يتبين خلاف ذلك بالدليل؛ لأن الأكثر في الاستعمال في كتاب الله ﷻ، والأصل في الاستعمال هو إطلاق الكفر والشرك على ما كان من ذلك أكبر.

ولذلك نقول: هذه قضية عظيمة من أجلها بعثت الرسل، ومن أجلها أنزلت الكتب، فكيف تكون مسألة من مسائل الفروع كما يحب البعض أن يجعلها تباعًا لشهوات البعض ومداهنة في دين الله ﷻ؟! كما قال الله ﷻ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾، فإذا كان الكتاب قد أنزل ليحكم بين الناس، فكيف تقول: هذه مسألة فرعية؟!

أرسل الله الرسل من أجل ذلك، أنزل الله الكتب من أجل ذلك، وأنتم تجعلونها من مسائل الفروع، التي لا تضر صاحبها إلا كما تضره المعصية

---

(١) سبق تخريجه (١/ ٣٢٧).

التي من جنس سائر المعاصي والذنوب، قد سماها الله ﷻ كفرًا، وسمى من فعلها مشركًا؛ كما قال ﷻ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ وقال ﷻ: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾. وفي القراءة الأخرى وهي سبعية متواترة: (ولا تُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أحدًا)، وهي لا تحتمل إلا أمر الحكم، وسمى الله ﷻ من جعل مع الله شريكًا في الحكم يشرع للناس من دون الله، سماه شركًا: (ولا تُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أحدًا)، وقال في هذه الآيات الكريمة: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ﴾، فدل ذلك على خطر المنافقين في هذا الباب، وقال ﷻ لمن استحل الميتة بتأويل باطل يتبع فيه تشريع الشيطان بإباحتها، عندما قال المشركون للمسلمين: أتأكلون مما قتلتم - أي: ذبحتم - ولا تأكلون مما قتل الله بيده - يعنون الميتة - فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾، فمن اتبع تشريع الشيطان في إباحة الأكل من الميتة دون شرع الله ﷻ في تحريمها وأقر هذا كتشريع، فإنه يكون مشركًا، والعياذ بالله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، إن أطاعهم واتبعهم على ما بدلوا وغيروا من شرع الله.

وقال ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ

سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾، فسمى الله ﷻ ما فعلوه من اتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا، مع ادعائهم لله ﷻ الولد واتخاذهم المسيح ربًّا مع الله أو من دون الله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، سمى الله ﷻ ذلك إفكًا وكفرًا، وسماهم مشركين، وسماهم كافرين، وبين أن عداوتهم للدين الإسلامي من أجل أن يطفئوا هذا النور الذي أراد الله ﷻ أن يعم البشرية.

وهذه الآيات في سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾، ذكر غير واحد من المفسرين أنه كعب بن الأشرف؛ لأن بعض المنافقين من الأنصار كانوا قد تعودوا أن يتحاكموا في جاهليتهم إلى أحبار يهود، فكان كعب بن الأشرف من هؤلاء، قال الشعْبي: (**كان بيْن رجُلٍ مِن المنُافِقِين، ورجُلٍ مِن الْيهُودِ خُصُومةٌ، فقال الْيهُودِيُّ: نتحاكمُ إِلى مُحمّدٍ؛ لِأنّهُ عُرِف أنّهُ لا يأْخُذُ الرِّشْوة. وقال المُنافِقُ: نتحاكمُ إِلى الْيهُودِ؛ لِعِلْمِهِ أنّهُمْ يأْخُذُون الرِّشْوة، فاتّفقا على أنْ يأْتِيا كاهِنًا فِي جُهيْنة، فيتحاكما إِليهِ، قال: فنزلتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾** [النساء: ٦٠] **الآية**)(١).

وقِيل: (**نزلتْ فِي رجُليْنِ اخْتصما، فقال أحدُهُما: نترافعُ إِلى النّبِيِّ ﷺ، وقال الآخرُ: إِلى كعْبِ بْنِ الأشْرفِ، ثُمّ ترافعا إِلى عُمر، فذكر لهُ أحدُهُما**

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ١٩٠).

القِصّة، فقال للّذِي لمْ يرْض بِرسولِ اللهِ ﷺ: أكذلِك؟ قال: نعمْ. فضربهُ بِالسّيْفِ، فقتلهُ)[١].

فقد كان الكهان ورؤوس الكفر من طواغيت أهل الكتاب هم الذين يُتحاكم إليهم في الجاهلية، فكان هذا كله مما أمر أهل الإيمان أن يكفروا به، نعوذ بالله من الضلال، وذلك أن هؤلاء كانوا يرون ما يحكمون به من التشريعات المخالفة لشرع الله أمرًا سائغًا لا بأس به، وأغلظ من ذلك من يجعله أمرًا حتمًا لازمًا هو شر من الاستحلال، الذين يظنون أن قول أهل العلم في اشتراط الاستحلال في هذا الباب يقتصر على من قال: هو حلال أن نتحاكم إلى غير شرع الله، هو أجهل بكلام العلماء ممن لم يتكلم في هذه المسألة أصلاً؛ لأن الإيجاب أغلظ وأشد من الاستحلال، فمن جوّز مخالفة شرع الله ﷻ، ورأى أنه لا بأس بمخالفتها، مع كونه لا بأس باتباعها، فهل هو أهون أم أشد من الذي قال: بل لا يجوز ولن تفعلوا أن تتحاكموا إلى شرع الله، ولابد أن تتحاكموا إلى ما وضعه الناس بآرائهم من غير مستند من شريعة الله، والمقاومة الشديدة العنيفة التي قد تصل إلى الحرب والقتال في بلاد العالم من أجل عدم إقامة شرع الله ﷻ.

الكلام بين وواضح أن الذي أوجب على الناس وألزمهم بخلاف شرع الله ﷻ في التشريع العام، لا شك أنه أغلظ ممن أباح ذلك، فلو أن الناس في

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص١٠٧، ١٠٨)، والبغوي في معالم التنزيل (٢/ ٢٤٢، ٢٤٣) معلقًا من طريق الكلبي، عن أبي صالح باذام، عن ابن عباس رضي الله عنهما به وأخرج نحوه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٩٩٤) من طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود.

بعض هذه البلاد مثلاً التي خالفوا فيها شرع الله ﷻ: ورثوا الذكر مثل حظ الأنثيين، لكانت جريمة يُعاقب عليها.

وإذا ثبت عليه في بعض البلاد التي تسوي بين الذكر والأنثى، كانت هذه جريمة يعاقب عليها، وجعله ممنوعًا منه، بل ومحرمًا قانونًا ومجرمًا جريمة هي أشد في الحقيقة من كلمة المحرم، كلمة التجريم أعظم؛ لأنه يدل على لزوم العقوبة، فهناك أمور محرمة قد لا يوجد لها عقوبة دنيوية، فلو أكل إنسان خنزيرًا مثلاً في بيته، فهذا جريمة في دين الله ومحرم في شرع الله، وإن كنا لا نجد نصًا يعاقِب هذا الرجل الذي أكل لحم الخنزير ولم نطلع نحن على ذلك، ولكن نقول: هذا التجريم هو - والعياذ بالله - دليل على محاربة دين الله سبحانه وتعالى.

وقد حرموا الزواج الثاني وجعلوه جريمة أيضًا إذا تزوج بأكثر من واحدة؛ وأما إذا أثبت أنها خليلته وعشيقته، فهذا لا يعاقب وتثبت براءته ويُقال عنه: بريء لم يرتكب جرمًا.

ويحاربون فيما بقي من آثار التشريع الإسلامي في كثير من البلاد، حتى سعوا مثلاً إلى إلغاء تجريم الزنا بالكلية من قوانين بعض البلاد، التي كانت في زمن من الأزمان إسلامية، وأوروبا وأمريكا تتبع القوانين الوثنية التي وضعتها، والتي هي مستمدة من فلسفات إلحادية لا تعترف بملة ولا بدين في حقيقة الأمر، حتى بالتوراة والإنجيل، وإلا فكما ذكرنا أن التوراة تنص على رجم الزاني إلى يومنا هذا، والمسيح قد أقر رجم الزانية في حقيقة الأمر، وإن كان طالبهم بأن يكونوا جميعاً مطبقين لذلك، إن صح ما ينقلونه عن

المسيح، وإن كان يطالبهم بأن يقيموا الحدود على الشريف والوضيع، وليس أنه يقيم الحدود من يستحق أن تُقام عليه قبل أن يقيمها على الناس، فإنه قد قال في امرأة أتاه بها اليهود وزنت، فأرادوا أن يحكم فيها، فقال: «من كان منكم بلا خطيئة، فليرمها بحجر»، والخطيئة معروف عندهم استعمالها كثيرًا في معنى الزنا، فقال: «من كان منكم بلا خطيئة، فليرمها بحجر». إذًا، قد أقرهم أنهم يرجمونها إذا كانوا هم بلا تلك الخطيئة؛ وأما أن النصارى فحملوها على أنه الخطيئة عمومًا، وهذا من تحريفهم وجهلهم بمقاصد الشريعة، فإنهم يقرون بأن المسيح ما جاء لينقض الناموس، والناموس قد أقر برجم الزانية، فكيف بعد ذلك يقولون: إن هذه القوانين جائرة وتنافي حقوق الإنسان؟!

هذا لأنهم فعلاً تركوا هذا الدين بالكلية، تركوا دين المسيح بالكلية، واليهود تركوا دين موسى بالكلية، لم يعد يدافع عن هذه النظم الدينية الشرعية التي أنزلها الله وما نسخت وما زالت في شريعتنا كما كانت في شريعتهم، لا يدافع ولا يبحث عن إقامتها إلا المسلمون، فسبحان الله! مع أنها - كما ذكرنا - في التوراة والإنجيل، ولكنهم يأبون ذلك أشد الإباء؛ لأن التشريعات التي أخذت من أوروبا مبنية على الفلسفة الوثنية، فلسفة اليونان والرومان وإنكار وجود الله ﷻ، وفلسفة المعاصرين من أيام الثورة الفرنسية الإلحادية أيضًا، وكل ذلك بتوجيه اليهود الذين يريدون تحلل الأمم، مع أنهم هم قد تحللوا بالفعل.

وكذلك قطع يد السارق موجود في التوراة: «**وأن اقطعها هذه اليد التي سرقت قبل أن تأخذك إلى النار**». وقد قرأت خبرًا في الماضي عن رجل في

الأرجنتين وضع يده تحت القطار ليقطع يده، بعد أن قرأ في التوراة هذا الأمر، وقد كان قد سرق، فأراد أن يتخلص من يده قبل أن تقوده إلى النار.

فانظر إلى العجب الذي يكون في زماننا! من الذي يهاجم هذه الأمور ويصفها بأنها خلاف حقوق الإنسان، وأن هذه عقوبات من العصور الوسطى، ونحو ذلك على سبيل الانتقاص منها، نسأل الله العافية. وكيف وهذا في باب واحد وهو باب الثواب والعقاب؟! وأما القرآن فقد نزل عمومًا ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ليس فقط في قضية قانون العقوبات أو الجرائم التي تستحق العقوبة، وإنما الأمر أوسع من ذلك، يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه من العقائد والتصورات والأفهام، وهذا أول وأوجب ما يحكم فيه بين الناس بكتاب الله، فلا تؤخذ العقائد إلا من دين الله ﷻ، لا يؤخذ الفهم والتصور عن الوجود والبداية والنهاية، واستحقاق العبادة إلا من كتاب الله ﷻ وما أنزله على رسوله ﷺ؛ ولذلك في كل الأمور؛ في القضاء والقدر، في الإيمان والكفر، وفي الولاء والبراء، في أنواع العبادة، في أنواع الشرك، في الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، وسائر القضايا لابد أن يكون التحاكم فيها إلى شرع الله ﷻ.

كذلك فيما يختلف الناس فيه من الأعمال، فأهل البدع لِما ضاهوا أهل الشرك؟ لماذا كانت البدع هي السبيل الأول أو أول خطوة على طريق الكفر؟ بمعنى أن من أتى بها لم يبق بينه وبين الكفر إلا خطوة واحدة، أن يخطو خطوة واحدة فيقع في الكفر، ومن البدع ما يكفر؛ لأن قضية البدعة هي نوع من التشريع، مضاهاة في التشريع؛ ولذلك غلظ أمرها وكانت كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، فالتحاكم فيما اختلف الناس فيه ليس فقط في قضايا

العقوبات، لكن في قضايا العبادات، في قضايا المعاملات، في قضايا الأخلاق، لابد أن يرد إلى شرع الله ﷻ، في قضايا أحوال القلوب كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «**إن الهجرة النبوية إلى النبي ﷺ هي سفر النفس في كل مسألة من مسائل الإيمان، وحادثة من حوادث الأحكام، ومنزلة من منازل القلوب إلى معدن الهدى ومنبع النور، المتلقي من فم الصادق المصدوق ﷺ، فكل مسألة طلعت عليها شمس رسالته، وإلا فاقذف في بحر الظلمات، وكل شاهد عدله هذا المزكي ﷺ، وإلا فعده من أهل الريب والتهمات**»(١).

لذلك نقول: كذلك التحاكم إلى شرع الله ﷻ والحكم به فيما اختلف الناس فيه من نظم الحياة؛ في الإعلام، في التعليم، في السياسة، في الحرب، في السلم، في الاقتصاد، في نظام المال، في نظام الأسرة، في النظام الاجتماعي، في نظام الرياسة والملك والإمارة، وطرق إقامة الأئمة وعزلهم، وكل ما يتعلق بذلك، لماذا تحارب الأمم بعضها بعضًا؟ ولماذا تسالمها؟ وعلى أي المبادئ يبنى المجتمع وما يسوى فيه بين الناس وما يخالف فيه بينهم؟هذه القضايا كلها.

لابد وأن تكون نظم الحياة كلها فيما يختص بالفرد وفيما يختص بالأمة مأخوذة من شرع الله، مردودة من شرع الله، يُتحاكم فيها إلى شرع الله ﷻ، القضية أعظم وأعم من مجرد بعض القوانين في مواد العقوبات، القضية في مواد العقوبات هي من أظهر المخالفات، وإلا فهناك في أمور الاقتصاد في إلزام الناس بالربا، وأن من تأخر عن سداد دينه ألزم بفائدة، كل هذا من آثار

---

(١) انظر الرسالة التبوكية (ص ٢٣).

الجاهلية ومن آثار حكم الجاهلية ومن إرادة التحاكم إلى الطاغوت، وغير ذلك كثير في كل مناحي الحياة، إباحة الفجور والفسق والتصريح به ونحو ذلك، وكل هذا فيما يتعلق بالتشريع العام فيما يعم الأمة أو فيما يقرر كقواعد، هذا بلا شك من خالف فيه شرع الله ﷻ، وسن للناس تشريعًا عامًا يخالف دين الله ﷻ، فلا شك أن ذلك من الشرك بالله، ممن ادعى لنفسه هذا الحق الذي ليس بحق له أو لغيره، سواء كان هو الذي سن ذلك، أو ألزم الناس بتشريع غيره، كما يوجد في كثير من البلاد، سن هناك زنادقة منافقون كفار - والعياذ بالله - أحكامًا تحارب شرع الله ﷻ، وجاء من بعدهم يحافظون على ذلك محافظة تامة ويقاتلون من أجله، ويشنعون على من خالف ما ورثوه من طاغوتهم الذي جعلوه ربًّا لهم يعبدونه من دون الله ﷻ، هذه الأتاتوركية في تركيا - إلى يومنا هذا - طاغوت يعبد من دون الله، هذا الرجل كان طاغوتًا فظيعًا يحارب الإسلام نصًا وعلانية ولا يداري ذلك، من أتى بعده قد يدارون ولا يمكنهم أن يطعنوا في القرآن علانية، لكنه كان يطعن في القرآن علانية، كان يقول: «لا يمكن أن نبني تركيا الحديثة على كتاب يبحث في التين والزيتون». والعياذ بالله، وجعل قانونًا مصرِّحًا به: أن من يدع إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، يعاقب بالسجن ثمان سنوات. باللفظ، وليس أن مثلاً هناك متشددون في فهم الشريعة، متطرفون في تطبيقها، لا يفهمون الفهم الصحيح، لا، بل يقول: «من يدع إلى تطبيق الشريعة الإسلامية في القوانين، يعاقب بالسجن ثمان سنوات، وإذا كان هذا ضمن جماعة - هذا أخطر - يعاقب بالسجن مدى الحياة»، إلى أن يموت يظل في السجن.

وسن قوانين في منع الآباء والأمهات من تحفيظ أبنائهم القرآن أكثر مما هو مقرر في المدارس، جعل لهم مقررات معينة، إذا زادوا عليها الآباء والأمهات وحفّظوا الأولاد قرآنًا، عوقبوا بالحبس ثلاث سنوات ونحو ذلك. وقوانين موجودة بعضها حاول الزنادقة من أتباعها تطبيقها، وكل من يطعن في شخصه يكون مجرّمًا، وكل من يطعن في مبادئه ويصرح مثلاً بأن الدين يشمل الدولة، وأنه لابد وألا يفصل في الدين والسياسة ونحو ذلك، بمجردها تصبح جريمة، والعياذ بالله؛ لأنه دعا إلى عدم فصل الدين عن الدولة، أو دعا إلى إلزام الدولة بالرجوع إلى الدين، هذا عندهم جريمة مستقلة، والحقيقة أن هذا هو الذي قاد كثيرًا من دول العالم الإسلامي إلى نفس المجال، ولكن بدرجات متفاوتة؛ حتى يغر الناس بذلك، لكن الحقيقة أن هذا الباب باب واحد والذين يسيرون عليه، على طرق العلمانية التي أصحابها ومؤسسها في الغرب يعلمون تمام العلم، ويصرحون تمام التصريح بأنهم يرومون فصل الدين عن السياسة وعن الدولة وعن الحياة كلها، حصر الدين أن يكون علاقة شخصية لا دخل له بنواحي الحياة ولا يشكل في الناس أي جانب من جوانب حياتهم، هذا أمر خاص، التدين مسألة شخصية، من أراد أن يعبد بوذا فليعبد، من أراد أن يعبد الله فليعبد، من أراد أن يعبد الصليب فليعبد، كل ذلك عند هؤلاء القوم سواء، وأما نظم الحياة وأما التشريعات في كل المجالات فهي مردودة إلى ما يختاره الناس؛ إما بالأغلبية، وإما بما يقرره طائفة منهم، وإما بالاستفتاءات أو بالانتخابات على ما يقرروه، وهم يمتحنون المسلمين الذين يحاولون مشاركتهم في ديمقراطيتهم الزائفة، يمتحنونهم في هذه المسائل فيقولون: ما تقولون لو أن

صناديق الاقتراع أتت بإلغاء الشريعة الإسلامية بأنه لا يكون هناك ديانة للدولة، يُلغى أن الدولة دينها الإسلام، وأن الشريعة هي المصدر الرئيسي للتشريع أو حتى مصدر للتشريع؟! ماذا تقولون؟ هل تقبلون؟! يختبرونهم بالكفر، والعياذ بالله؛ لأن من قال: نقبل لو أن الناس اختاروا الكفر فلهم ذلك، نعوذ بالله، من قال: نعم أقبل ذلك كان كافرًا، والعياذ بالله، كان مكذبًا للقرآن.

الله ﷻ أنزل الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وقال ﷻ على لسان يوسف عليه السلام: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وهم يختبرونك في ذلك، يقولون: هل تقبل هذا الأمر وترضى به وتطبقه، أم لا؟!

هذا الخطر العظيم الذي لابد أن ينتبه له المسلمون، وإن كان هذا يكاد هم يجزمون ويقطعون أنه لا يمكن أن يقع، أن المسلمين لو طرح عليهم هل تريدون شرع الله ﷻ، هل سيقولون: لا نريده؟! والعياذ بالله، لا يمكن. أظن أن الكفار يقولون: نعم نريده؛ لأنهم يعلمون، كما قال اليهودي في الماضي: نتحاكم إلى محمد، وأنا أعلم كثيرًا من النصارى إذا وقعت خصومة بينهم وبين المسلمين، بل وبين بعضهم بعضًا، أحيانًا يطلبون الإخوة الأفاضل الدعاة للحكم بينهم، يقولون ذلك أنهم سوف يحكمون بالعدل، وربما لا يطلبون الذهاب إلى المحاكم، فكما قال اليهودي: «**نتحاكمُ إِلى مُحمّدٍ؛ لِأنّهُ عُرِف أنّهُ لا يأْخُذُ الرِّشْوة. وقال المُنافِقُ: نتحاكمُ إِلى الْيهُودِ؛ لِعِلْمِهِ أنّهُمْ يأْخُذُون الرِّشْوة**»[(١)]، والعياذ بالله، فسبحان الله ما أشبة الليلة بالبارحة!

---

(١) سبق تخريجه (٢/ ٣٨١).

النفاق كان قديمًا مستترًا وأصبح اليوم علانية، كما قال حذيفة رضي الله عنه ذلك بعد عصر النبوة مباشرة، والإسلام كان في أوج قوته، والمسلمون في أوجه قوتهم، ومع ذلك كان حذيفة يقول: إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ نعده بها من المنافقين. أسمعها من الواحد منكم في المجلس الواحد عشر مرات، فسبحان الله! كيف صار النفاق في ذلك العهد؟! عهود بلا شك، لا تظن أن هذا كان منعدمًا، لكن كان خطيرًا، أظهر البدع الكبرى الصحابة أدركوا من قال: إن عليًّا هو الله، وأدركوا من قال: لا قدر وأن الأمر أنف، وأدركوا من قتلوا أهل الإسلام وتركوا أهل الأوثان وكفروا خيرة أصحاب رسول الله ﷺ، أدرك الصحابة ذلك، وهم من المنافقين الذين حاولوا هدم الدين من الداخل، لكن الله سبحانه وتعالى حفظ هذا الدين، حفظ الكتاب وحفظ السنة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾، وهذه القضية احتاجت من أعداء الإسلام قرونًا طويلة، نحو ثلاثة عشر قرنًا وزيادة، حتى يحققوا في بلاد المسلمين ما يريدون، أعني: أن يكون في التطبيق العام، وإلا فقد فعلوا ذلك في بعض البلاد مدة من الزمن عندما تسلط التتار على بلاد المسلمين، وطبقوا فيها النظام التتري الذي أخذوه عن الياسق الذي وضعه جنكيز خان، لكن بسرعة غلب المسلمون التتار ودمجوهم في المجتمع الإسلامي، وذهب أثر ما صنعوا، لكن ما وقع هذا التبديل لشرع الله سبحانه وتعالى إلا بعد احتلال الغرب لمعظم بلاد الإسلام ونزول جيوشهم فيها وقهرهم للمسلمين، ثم انهزام دولة الخلافة في الحرب العالمية الأولى، وسقوط دولة الخلافة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وسقط معها التشريع الإسلامي في معظم البلاد، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وإمعانًا في إذلال المسلمين كانت أول التشريعات، كما ذكرت في تركيا فعلوا ذلك وحرموا وجرموا من يدعو إلى تطبيق الشريعة، لو نظرت إلى أول دستور وضع في مصر في سنة **١٩٢٢**م من بعد ثورة **١٩** كان أول دستور مصري ينص على الاستقلال عن إنجلترا، ينص على أن مصادر الأحكام أعلاها الأحكام الدستورية، ثم بعد ذلك القانون «مواد القانون التفصيلية»، فإن لم يجد القاضي شيئًا من ذلك حكم بالعرف، فإن لم يجد في العرف حكم بمبادئ الشريعة الإسلامية.

انظر إلى هذا الأمر الفظيع في التأخير والإهانة للمسلمين في شأن شريعتهم، يجعلونه بعد العرف، وقام أبو القانون المصري في ذلك الوقت يخاطب بعض المتدينين الذين ينكرون عليه مخالفة الشريعة، فقال: «أنا لم أجد شيئًا في الشريعة يوافق القانون الفرنسي إلا وضعته»، يعني أنه أخذ من الشريعة كل ما أمكن أن يأخذه، موافقًا للقانون الفرنسي الذي كان هو مصدر القانون المصري الأول في ذلك الوقت، ومصائب عظيمة حصلت للمسلمين في هذه القضية، وكما ذكرت القضية ليست قضية قانون فقط، القضية أعمق من ذلك وأعم من ذلك في كل ما اختلف فيه الناس؛ ولذلك لا يظن البعض أن نقتصر في قضية (الحكم بما أنزل الله) على مسألة العقوبات أو الحدود، هذا جانب من الجوانب، القضية - كما ذكرت - أولها وأعظمها أمور الاعتقاد، فلا يمكن أن يرضى أهل الإسلام بغير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حكمًا فيما يعتقده الناس، فيما يكون إيمانًا وما يكون كفرًا، وإلا فكم من الناس يصف الكفار بالمؤمنين، ويصف المؤمنين أحيانًا بأنهم كافرون من أجل إرضاء الآخرين، والمهادنة في دين الله سبحانه وتعالى،

وإلا فأنت لا تكاد تسمع في وصفهم للكفار أبدًا هذا الوصف، بل ينتفضون غضبًا إذا قيل عن اليهود والنصارى كفار، وجعل بعضهم - من باب المجاملة والمهادنة - من مات من الكفار في حروب أو غيرها أنهم شهداء أيضًا، من المسيحيين كما يقولون، كالشهداء من المسلمين، كلهم سواء.

وآخر يقول: إن مصيرنا في الدنيا واحد، وفي الآخرة واحد، والعبرة بالأعمال.

هذا من أخطر ما يمكن أن يكون فيه الحكم بما أنزل الله ﷻ، لابد أن نحكم بما أنزل الله في هذه المسائل، من الذي جعله الله كافرًا؟ ومن الذي جعله الله مؤمنًا؟ ومن الذي جعله رسول الله ﷺ مؤمنًا مسلمًا؟ وكيف عامل ﷺ من كذبه، وكذب القرآن، وأشرك بالله وجعل مع الله ﷻ آلهة ثلاثة أو أكثر أو أقل، جعل مع الله إلهًا آخر أو ادعى لله صاحبة أو ولدًا، أو قال: إن الله هو المسيح ابن مريم؟ هذا مما يحكم فيه، لابد أن يُحكم فيه بشرع الله ﷻ.

لذلك نقول: القضية قضية عظيمة الأهمية، هدم مرجعية الشريعة هي التي يرومها أعداء الإسلام، وهذه القضية عمي عنها البعض حتى صغرها جدًا؛ لأنه قد وقع مثلاً في بغض من نادى بها لأجل مخالفته في بعض الأمور، بعض الناس قد يكون نادى بهذه القضية، فأبغضه البعض لبعض المخالفات بينه وبينه أو لشحناء أو لغير ذلك أو حتى لبدع وقع فيها، فدفعته هذه البغضاء إلى أن يرد المسألة من أصلها، ويجعلها كلها من باب الفروع كما ذكرنا، وهذا والله خطر عظيم، وفتح الباب لفرض العلمانية ليس على

المجتمعات المسلمة فقط، بل على الصحوة الإسلامية نفسها، حين يُمتحن الناس - كما ذكرت - بقبول ما يخالف شرع الله ﷻ إذا كان رأي الأغلبية، والبعض الآخر يجعل هذا كله مقبولاً، طالما أنه وقع ممن يتولى الأمور في المسلمين.

ومن أعجب ما قرأه الإنسان أو سمعه أنه عندما يؤتى بنصوص الكتاب والسنة ونُقُول إجماع علماء الأمة، العلماء الذين نقلوا الإجماع على أن من تحاكم إلى غير شرع الله، وجعل أحكام الشريعة وراءه ظهريًّا أن ذلك من الكفر، والعلماء ينصون على ذلك، وينصون على تضليل من يجعل هذا من باب الكفر الأصغر؛ ككلام الشيخ أحمد شاكر، والشيخ محمود شاكر - رحمهما الله تعالى -، وأن من فعل ذلك فهو من أهل الضلالة، فيقول: إنما يقصدون العلمانيين لا يقصدون الحكام. عجبا والله! إذا فعل الحاكم شيئًا، يقول: قصد هؤلاء العلماء ليس الحكام، إذا فعل الناس مثلاً القانونيين شيئًا، كان كفرًا، وأما إذا فعله الحكام كان معصية، هل القضية فيما هي منزلة فلان هذا أو درجته، إذا كان هو الحاكم والرئيس فلابد أن يكون ذلك مقبولاً؟!

فيكون - كما في بعض البلاد - الأمر ربا والفتوى بأنه محرم، والفتوى بأنه ميسر، وأنه لا يجوز، فإذا فعله الملك أو قرره الملك أو ولي الأمر، فيقولون: هذا قرار ولي الأمر.

لابد أن يكون الحكم واحدًا، ليس الأمر لأن من فعله من الناس كان محجوجًا أو كان عليه العقوبة، ومن فعله من الحكام كان مبرأ أو كان واجب

الاتباع أيضًا؛ «**إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ**»(١)، نسأل الله العافية، فكيف بهذا الأمر العظيم؟! قضية عظيمة الخطر والله، لابد أن ننتبه لها.

بيّن الله سبحانه وتعالى المنافاة بين ادعاء الإيمان وبين إرادة التحاكم إلى الطاغوت – كما بينا في المرة السابقة – في قول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾، وهذا الطاغوت يشمل نوعين من الحكام: يشمل من بدل شرع الله سبحانه وتعالى، وإن نسب ذلك إلى الدين؛ كالأحبار والرهبان الذين نسبوا أنفسهم إلى دين موسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وبدلوا الدين ونسبوا تبديلهم ذلك إلى دين الله ﷻ، ورغم أن الناس يظنون أن هذا هو الدين الذي يلزمهم اتباعه، فذلك لم يغن عنهم من الله شيئًا، فمن رؤوس الطواغيت -كما ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في رؤوس الطواغيت الخمسة (٢)- أن الحاكم المبدل لشرع الله سبحانه وتعالى، بمعنى: الذي ينتسب إلى الشريعة، ولكنه يبدل هذه الشريعة ويغيرها، يأتي بأحكام أخرى وينسب ذلك إلى الدين، وهو يعلم أنه قد خالف في ذلك، ومن تحاكم إليه عالمًا بما فعله، مقرًا صحة الدين الذي اخترعه وابتدعه بدلاً من دين الله ﷻ، فقد عبده من دون الله، ولم يكفر بالطاغوت كما أمر الله ﷻ أن يُكفر به، وهذا منطبقًا تمام الانطباق على حال اليهود والنصارى مع أحبارهم ورهبانهم، وذلك أنهم غيروا دين الله سبحانه وتعالى، وجعلوا تشريعات من عند أنفسهم، حرموا فيها

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٢/ ٣٦١).

الحلال، وأحلوا فيها الحرام، والناس يعلمون ذلك ويقرونهم على هذا الادعاء وهذا الحق، فالكل مثلاً يعلم أن النصارى غيّروا تحريم الخنزير وإباحة الطلاق، وأن ذلك إنما قرروه في مجامع وليس بوحي جديد، هم لا ينسبون ما فعلوه إلى وحي، ولكن حين قرر كبراؤهم ذلك صار شريعة؛ لأنهم يرون أن للأحبار والرهبان أن يحرموا ويحللوا ويكون ذلك هو الدين، فذلك - والعياذ بالله - من الكفر، ومن فعله فقد عبدهم من دون الله كما بين النبي ﷺ؛ ولذلك كان كعب بن الأشرف ممن شملهم قول الله ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾.

والنوع الثاني من رؤوس الطواغيت في هذا المقام: هو من يأتي بشرع من عند نفسه، يحكم بغير ما أنزل الله، لا ينسبه إلى الدين، الحاكم بغير ما أنزل الله دون أن ينسب ذلك إلى الدين، فهو أيضًا طاغوت، وهو أشد من الذي قبله، فإن الذي قبله يدعي أن الله قد جعل له هذا الحق، حق التبديل والتغيير، كذبًا وزورًا، وهو افتراء كذب على الله ﷻ وتكذيب بالحق الذي أنزله من نحو قوله ﷻ: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾، فإذا كان الرسول ﷺ وكل الرسل كذلك لا يبدلون من تلقاء أنفسهم شيئًا مما أوحاه الله إليهم، فكيف يكون ذلك للأحبار والرهبان؟! شر منه من يقول: بل هذه الشريعة جملة، بل ما جاء به الأنبياء وما أنزل الله من الكتاب ليس بشيء، لا دخل لنا به، لا نلتزم به، لا يصح أن نبني أحكامنا عليه. فهذا مستكبر ومتعال على شرع الله ﷻ، آبٍ له، كفره من جنس كفر إبليس، والعياذ بالله، الذي يترك الشريعة وراءه ظهريًا، ويطعن فيها، ويجعلها بعيدة عن مناط التحكيم، يرى أنه لا ينبغي للناس في زمنه أو في أزمنة مضت أو في

المستقبل أن يبنوا أحكامهم على الوحي، وأن يبنوا تشريعاتهم على ما أوحى الله إلى الرسل، ويرى ذلك الذي يراه هو مقدمًا على ذلك، فهذا - والعياذ بالله - شر ممن ينسب ما يفعله إلى الدين أو إلى إذن الشرع؛ ولذلك لا يشترط في وصف هذا الإنسان بأنه طاغوت بأن ينسب ما يفعله إلى الدين، بل هذا أيضًا مما تشمله هذه الآية وغيرها من الآيات: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾، وعامة الأمم التي لا تتدين بشريعة سماوية يجعلون أمورهم إلى كبراء ورؤساء فيهم، يخترعون أحكامًا من عند أنفسهم ويجعلونها شريعة ملزمة للناس، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من السياسات والآراء التي ابتدعوها من تلقاء أنفسهم؛ كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، بيّن الله سبحانه وتعالى أن بدعة النسيء، التي ابتدعها العرب في الجاهلية، تأخير تحريم الأشهر الحرم عن موعدها إلى أشهر أخر بوضع زعمائهم وكبرائهم، مع علمهم بأن الله ﷻ حرم الأشهر الحرم المعروفة: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب مضر، ومع ذلك فكانوا يؤخرون إذا أخر كبراؤهم، مثل: عمرو بن لحي وغيره ممن كان يُنسأ، يؤخر تحريم الشهر الحرام، ويجعلون ذلك هو ديدنهم والتزامهم، وكما ذكرنا في أن قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾، أن هؤلاء الطواغيت كهان من جهينة، فكان الكهان أيضًا من ضمن هؤلاء الذين يحكمون بغير ما أنزل الله ويتركون ما شرع الله سبحانه وتعالى، وإن كانوا لا ينسبون ذلك إلى الدين، بل يرون أنفسهم أحرارًا في ذلك، يأخذون ما يريدون ويتركون ما لا يشتهون،

ولا يلتزمون بأمر أنزل الله ﷻ في شريعته، وهذا نوع موجود، مثل: الوضعيين المعاصرين، إن كان الأحبار والرهبان يبدلون وينسبون تبديلهم إلى الدين، فإن هؤلاء الوضعيين الذين وضعوا قوانين من عند أنفسهم ما نسبوها إلى الدين، بل صاروا ينظرون إلى تشريعات الإسلام على أنها تخلف ورجعية وتضييع لحقوق الإنسان، ونحو ذلك من الخرافات والضلالات التي ابتدعوها، فكفروا - والعياذ بالله - وضلوا وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل، فهذا كله من الطاغوت.

أما من حكم بحكم يخالف الشريعة متأولاً مجتهدًا في ذلك، فيُنظر، فإن كان حكم به بغير علم وقصر فيما يلزمه من البحث والاجتهاد إن كان مجتهدًا، والسؤال إن كان غير مجتهد، وإن كان لا يجوز للإنسان أن يحكم وهو على غير علم؛ لأن النبي ﷺ قال: «**القُضاةُ ثلاثةٌ: قاضِيانِ فِي النّارِ، وقاضٍ فِي الجنّةِ، رجُلٌ قضى بِغيْرِ الحقِّ فعلِم ذاك فذاك فِي النّارِ، وقاضٍ لا يعْلمُ فأهْلك حُقُوق النّاسِ فهُو فِي النّارِ، وقاضٍ قضى بِالحقِّ فذلِك فِي الجنّةِ**»[(١)].

فنقول: إذا قصر الإنسان في الاجتهاد أو في السؤال إذا كان لا يعلم فقال قولاً يخالف ما أنزله الله ﷻ بتأويل، فإن ذلك لا يدخل في وصف الطاغوت، وإن كان مقصرًا في حال، وغير مقصر إذا بذل كل ما عنده، إذا بذل كل وسعه فأخطأ، فقد قال النبي ﷺ: «**إِذا حكم الحاكِمُ فاجْتهد ثُمّ أصاب فلهُ أجْرانِ، وإِذا حكم فاجْتهد ثُمّ أخْطأ فلهُ أجْرٌ**»[(٢)]، فجعله مأجورًا

(١) سبق تخريجه (١/ ٨٥).
(٢) سبق تخريجه (١/ ٨٤).

مع أنه خالف ما أنزله الله ﷻ، فهذا نوع وإن كان في حقيقة الأمر مخالفًا لشرع الله، إلا أنه لما يقصد المخالفة ولم يقصد الخروج عن الشرع، لم يوصف بكونه طاغوتًا؛ ولذلك كان من يحكم بغير ما أنزل الله وإن دخل في مسمى الطاغوت، إلا أنه لابد أن يعرف أنه يشتمل على أقسام، فكما ذكرنا من اجتهد ولم يقصر فإنه لا يدخل في هذا الوصف أصلاً؛ وأما من قصر أو علم وخالف وإن كان لا يلزم الناس بخلاف شرع الله ﷻ، ولا يستحل مخالفة الشرع، ويعرف أنه قد أتى معصية حين خالف شرع الله ﷻ، هذا فيه نوع من الطغيان، وقد يوصف بأنه طاغوت كذلك، لكن لا يلزم من ذلك خروجه من الملة، نعلم بذلك أن هذا النوع الذي ذكره ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، قال: «**كُفْرٌ دُون كُفْرٌ، قال: ليس بالكفر الذي يذهبون إليه، كفر لا ينقل عن الملة**»[1]، ومثل ذلك عن طاوس وأبي مجلز وغيرهم من أصحاب ابن عباس رضي الله عنهما وغير واحد من السلف، وهذه الآثار عنهم رضي الله عنهم تدل على أن هذا النوع من الحكم الذي كان قد وقع من بعض الأمراء بعد عهد الخلافة الراشدة والملك العادل أو حتى في أثناء الملك العادل، لكن قد يكون وقع من بعض الأمراء ما يخالف شرع الله ﷻ، فقد كان الخوارج هم الذين يكفرون بمثل ذلك؛ ولذلك أنكر عليهم السلف رضي الله عنهم وذكروا أنهم إن فعلوا - أي الأمراء - إن فعلوا ما فعلوا فهم يعلمون أنهم قد عصوا، فهذا الكفر دون كفر، وليس فيه استحلال ولا إيجاب ولا رد لشرعه ﷻ، يقر على نفسه بالمعصية والخطأ من أجل هوى أو رشوة في حكم أو في أحكام ولو كثرت، ولكن كلما كثرت

(١) سبق تخريجه (٢/ ٤٤).

كلما اقترب من الكفر الأكبر؛ لأن الكفر الأصغر ذريعة إلى الأكبر ويقرب منه ويدني إليه، وربما غلب عليه فألقاه في الكفر الأكبر، والعياذ بالله؛ لأن الذي تعود على مخالفة الشرع ربما تجرأ على رده، والتكبر عليه وإبائه أو أمر الناس بطاعته في مخالفة الشرع وألزمهم بذلك، وربما يصل إلى الكفر من هذا الباب، نعوذ بالله من ذلك، الغرض المقصود أن هذا النوع من الحكم بغير ما أنزل الله، وهو نوع ثابت قد أثبته السلف ﷺ، داخل في عموم الآية، وإن كان يختلف درجة الحكم فيه، فهو طاغوت ولكن ليس بالذي كفر صاحبه كفرًا ينقل عن الملة، ولكن لابد وأن يكون أصل التزامه بالشريعة، وأصل التزامه بأحكام الله ﷻ، ونضرب على ذلك مثالاً في قاض أو حاكم يحكم في مسألة ما، يكون له هوى إلى أحد الطرفين، فيبطل مثلاً شهادة الشهود العدول ويزعم أنهم غير عدول، أو يوجه اليمين إلى غير من توجهت عليه اليمين، أو يدعي غير الحقيقة فيما حكم، يقبل شهود الزور وهو يعلم أنهم شهود زور، لا شك أن هذا حكم بغير ما أنزل الله، ومع ذلك فهذا الذي فعله يعلم أنها معصية، إن استحلها كفر، وإن لم يستحلها فإنه لم يخرج من الملة، وقد كفر كفرًا دون كفر، وفعل كبيرة من الكبائر، لها حكم الكبائر، وربما كانت أشد من الكبائر الأخرى، وأما من يأبى الشريعة، من يجحدها من أصلها، ويقول: لم يحرم الله هذه المحرمات، ولم يوجب هذه الواجبات، وليس من الدين أن يلزم الناس بتشريعات معينة، وهذا حاصل في بعض العلمانيين الذين يحاولون الجمع بين انتسابهم الكاذب ونفاقهم في انتسابهم إلى الإسلام، وبين ما يريدون من مخالفة أحكامه، فيقولون: إن الدين لا يشمل السياسة ولا الاقتصاد، ولا غير ذلك. وصرحوا ويصرحون

بأنه لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين، وأن الشرع إنما هو علاقة شخصية بين الإنسان وبين ربه، والدين ليس له علاقة بحياة الناس ونظم حياتهم وسياستهم واقتصادهم وتشريعاتهم، وهذا - والعياذ بالله - من جحود الشريعة، ونوع آخر هو الذي يقر بالشرع، ولكنه يحتقره ويجعله غير مناسب، منهم من يجعله - والعياذ بالله - دون ما اخترعه الناس من الأحكام مطلقًا، ومنهم من يجعله دون ما اخترعه الناس من الأحكام بالنسبة إلى زمانه، يقول: كان هذا مناسبًا في أزمنة العصور الوسطى، وأما في القرن الحادي والعشرين أو القرن العشرين أو غير ذلك، فهذه أحكام غير مناسبة. ومنهم من يقول: بل كانت في الماضي والحاضر ظلمًا للبشر ومنافاة للإنسانية ونحو ذلك، فهذا كفر أيضًا لا نزاع فيه، ومن يسوي بين حكم الله ﷻ وحكم الناس، هو أيضًا ممن يكفر بالله ﷻ، وينطبق عليه ما ذكر الله عن أهل النار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

وكذلك الذي يجوِّز مخالفة الشريعة، وأعظم منه من يوجب مخالفة الشريعة، ويحرمها ويجرمها، يحرم شرع الله ويجرم من يلتزم به، فهذا لا شك أنه في الكفر الناقل، سواء كان هذا مكتوبًا، أو معروفًا أمرًا عرفيًّا، كما في بعض القبائل من البدو أنهم يخيرون المتحاكم أحيانًا وأحيانًا لا يقبلون، يقولون: تقبلون شرعة الله، أم شرعة أولاد علي؟! يقول بعضهم مثلاً: إن شرع الله يوقعنا في الوحل، يجعل لنا مشاكل لا تنتهي، وشرع الله لا يحل المشاكل، ولو طبقنا الشرع لما حصلت لنا المصالح، والعياذ بالله. وكثير من الناس يكفر بمثل هذه الكلمات، وإن لم يكن قانونًا مكتوبًا، وإن كان بعضهم في العصر الحديث لما شاعت الكتابة صار يجمع شرعة قبيلته

وقومه ويدونها؛ حتى يلتزم بها رؤوس الطواغيت، الذين يجلسون في مجالس عرفية يحكمون بغير ما أنزل الله، ويطبقون هذه القوانين العرفية التي وضعوها ووضعها آباؤهم وأجدادهم، ويأكلون أموال الناس بالباطل، والعياذ بالله، وهم يعلمون مخالفتها للشرع، ومثل هذا - والعياذ بالله - من هذا النوع من الطواغيت الذين حكموا بغير ما أنزل الله على جهة الإلزام بخلاف الشريعة، وهذا كله من الكفر الأكبر؛ لذلك نقول: إن الطاغوت الذي وصل إلى أشد درجات الطغيان هو من حكم بخلاف شرع الله ﷻ على أحد هذه الوجوه من الجحود، أو التحقير لشرع الله ﷻ والتفضيل لغيره عليه، أو المساواة أو التجويز، وأشدها الإلزام، سواء كان مكتوبًا أو معروفًا عرفيًّا، فكل هذا طغيان أكبر وصاحبه طاغوتًا قد كفر بالله ﷻ؛ وأما من حكم بغير ما أنزل الله مع علمه بالمخالفة، ولم يكن من هذه الأنواع، وإنما خالف ما أنزله الله سبحانه، وهو يعلم أنه عاص لأجل هوى أو رشوة دون تأصيل وإلزام في التشريع العام لمخالفة الشريعة، فإن ذلك ينطبق عليه ما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**كُفْرٌ دُون كُفْرٌ**»[(١)]، ولم يكن في زمن ابن عباس ولا في زمن طاووس ولا في زمن أبي مجلز، ولا في زمن الصحابة رضي الله عنهم قط من ألزم الناس بتشريع يخالف شرع الله سبحانه وتعالى؛ كنحو مساواة الذكر بالأنثى في الميراث، وكنحو تحريم الطلاق إلا إذا أمر القاضي به، وكنحو تحريم تعدد الزوجات وتجريم ذلك، وكنحو إلغاء تجريم الزنا، واستباحة هذه المحرمات، والحقيقة أن القوانين الوضعية سواء كانت مكتوبة، أو عرفية، أو غير ذلك، هي في حقيقة الأمر تنص على أمر الاستجازة والإيجاب

(١) سبق تخريجه (٢/ ٤٤).

والتحريم والتجريم، هم لا يستحيون من ذلك، ويسمون ما عندهم فقهًا وفتوى وغير ذلك من الألفاظ المستعملة في الشرع، فيقولون: الفقه القانوني والفقه الدستوري، والفتوى المتعلقة بالقوانين ونحو ذلك. وهذا يدلك على أنهم فعلاً تركوا شرع الله ﷻ ورائهم ظهريًّا، وليس أنهم ممن يدين بالشرع ويخالفه لهوى يأتيه أو لرشوة أو لقرابة أو لكرسي يحافظ عليه، نسأل الله العافية.

فهذا من جهة أنواع الطواغيت المشمولة في هذه المسألة، قد يكون طاغوتًا وصل إلى الكفر، وقد يكون طاغية من الطغاة الذين ما زالوا في دائرة الإسلام، كالحجاج مثلاً كان طاغية ولم يكن خارجًا من الملة عند الجمهور، مع أن طائفة من التابعين ومن بعدهم حكموا على الحجاج بالكفر من أجل تبديل الشرع، وإن كان نوع التبديل هذا في حقيقة الأمر لم يكن كالذي عرف في أزمنة الاحتلال الغربي لبلاد المسلمين، ولم يقع مثل هذا في التاريخ إلا في عهد احتلال التتار لبلاد الإسلام، ولم يكن فيه منازعة ولا احتمال إلا بعد ما دخل التتار في الإسلام، أعني: أن التتار كانوا يتبعون الياسق الذي وضعه لهم جنكيز خان، وكانوا على الكفر كما كان ملكهم جنكيز خان وهولاكو ومن بعده، ثم بعد أن هزمهم المسلمون في عين جالوت دخلوا في الإسلام بعد ذلك وأظهروا التزامهم بهذا الدين، إلا أنهم بقوا يقاتلون على ملك جنكيز خان ويحكّمون الياسق في الناس والبلاد التي تحت سلطانهم، فكانت فتاوى أهل العلم كما ذكر ابن كثير رحمه الله في قوله ﷻ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ يقول: (**فمنْ ترك الشّرْع الْمُحْكم الْمُنزّل على مُحمّدِ بْنِ عبد اللّهِ خاتمِ الْأنْبياءِ، وتحاكم إِلى غيْرِهِ مِن الشّرائِعِ الْمنْسُوخةِ**

كفر، فكيْف بِمنْ تحاكم إلى الياسا وقدّمها عليْهِ؟ منْ فعل ذلِك كفر بِإِجْماعِ الْمُسْلِمِين)[١]، نقل الإجماع الواضح وهو لا نزاع فيه، وهو الذي نقل رَحِمَهُ اللَّهُ كلام ابن عباس في كفر دون كفر، ونقل كلام طاووس ونقل كلام أهل العلم، نعم لأن هذا أمر لم يقع قط لا في عهد الأمويين ولا العباسيين ولا غيرهم ممن يدين بهذا الدين، بدين الإسلام، أن يأتي أحد إلى شرع الله عَزَّ وَجَلَّ فيبدله تبديلاً عامًّا ويترك ما أنزل الله على رسوله ﷺ ويخترع من عند نفسه، فضلاً أن يكون متبعًا لأهل الكفر، والعياذ بالله، يتبع تشريعًا من وضع أهل الكفر، يلزم به المسلمين، نسأل الله العافية.

الخلاصة: أن اسم الطاغوت ينطبق على من ثبت فيه النوع الأكبر، وينطبق على من ثبت فيه النوع الأصغر، الكفر الأصغر، ولكن دون أن يحكم عليه بعينه بالكفر، كما قد ذكرنا أن من رؤوس الطواغيت الساحر والكاهن، وذكرنا الخلاف في كفر الساحر حسب نوع السحر الذي يفعله، وكذا الكاهن حسب نوع الكهانة التي يدعيها، فهناك كهان يدعون معرفة مكان الضالة والشيء المسروق، ولا يخرجون من الملة، وهم طواغيت طغوا وجاوزوا الحد، ولكن لم يخرجوا من الملة، وكلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في صفة الكفر بالطاغوت أنك تكفر أهلها، هذا في النوع الذي هو كفر ناقل عن الملة، وهذا من جهة النوع في الجملة؛ وأما من جهة التعيين، أعني: فلان بن فلان الشخص المعين الذي يلزم تكفيره واعتقاد كفره، إنما هو بعد استيفاء الشروط وانتفاء الموانع، وكما ذكرنا قد يكون

---

(١) سبق عزوه (٢/٣٠٦).

الإنسان حكم بخلاف شرع الله مجتهدًا مخطئًا، والخطأ من موانع التكفير، وقد يكون من موانع التفسيق ومن موانع التبديع، ومن موانع الحكم عليه بأنه عاص أصلاً حسب درجة اجتهاده، قد يكون مأجورًا، وهو قد حكم بخلاف الشرع، لكن كان مجتهدًا مخطئًا كما بين النبي ﷺ؛ لذلك نقول: ليس كل من وصف فعله بالكفر أو الفسق أو البدعة يكون كافرًا أو فاسقًا أو مبتدعًا، حتى تستوفى الشروط وتنتفي الموانع، فإذا استوفيت الشروط وانتفت الموانع، وهذا إنما يكون لأهل العلم أو القضاء الشرعي، فعند ذلك يحكم على شخص بعينه بالكفر، لا نعني بذلك أن هذا الأمر لا يقع في الوجود، كما يظن البعض أن أمر تكفير المعين أمر لا يمكن أن يتم أبدًا، ولكن نقول: ليس هذا مفتوحًا لكل أحد ولا فائدة منه في الأغلب إلا لمن خالطه أو تعامل معه، أعني: أن الحكم على شخص معين بالكفر إنما يحتاجه من يرثه أو يتوارث معه، أو يحكم بصحة نكاحه أو بطلان ذلك، أو الأحكام المتعلقة بحل المال ونحو هذا، في واقعنا هذا قد يقع للمخالطين لمن ارتكب هذه الأنواع، ويحتاج بالتأكيد إلى معرفة استيفاء الشروط وانتفاء الموانع، وهذه ليست في هذه المسألة فقط، بل في كثير من المسائل التي يقع فيها الحكم بالكفر، ويحتاج إلى ثبوت الردة على شخص بعينه، فإن امرأته قد تسأل هل نكاحها معه صحيح، أم لا؟ وورثته يسألون وقد يكون وليًّا شرعيًّا على بناته: هل تصح الولاية ويصح العقد، أم لا؟ هؤلاء يحتاجون بالتأكيد إلى معرفة التعيين، وهذا أمر - كما ذكرنا - مردود إلى أهل العلم، ومعلوم أن القضاء الشرعي في الأغلب الأعم من بلاد المسلمين غير موجود، فكيف الكلام لأهل العلم، وعند وجود القضاء الشرعي لابد أن ينظر في استيفاء الشروط

وانتفاء الموانع بعد المناظرة وبعد إقامة الحجة، ومعلوم أن هناك موانع للتكفير كثيرة قبل ثبوت الردة للشخص المعين، لا يزال - إذا كان مسلمًا قبل ذلك - حكم الإسلام يُعامل به، حتى يثبت عكسه، والله أعلى وأعلم.

فهذا في هذه المسألة المهمة، يبقى مسألة وهو أن الناس في زماننا يحتاجون بالتأكيد إلى أنواع من اللجوء إلى القضاء، وهو قضاء يحكم في مجمله بما يخالف الشريعة في مسائل كثيرة، سواء كانت قلة، أم كثرة، فالعبرة في أن هذا النوع من القضاء ليس بالقلة ولا بالكثرة؛ لأن البعض يقول: إنما يحكم بالكفر على من خالف الشريعة مطلقًا، بمعنى خالفها خلافًا تامًا؛ أما لو خالفها في بعض المسائل ووافقها في بعض المسائل، فلا يكفر، وهذا كلام باطل، فاليهود الذين أنزل الله فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ﴾، إنما خالفوا في أمر واحد وهو حكم الرجم في الزنا، جعلوا بدلا منه الجلد والتحميم، فكان كفرًا، والعياذ بالله، طالما جعلوه شريعة ملزمة، نعوذ بالله من حالهم؛ لذلك نقول: لو أن رجلاً في مسألة واحدة من مسائل الشريعة استحل مخالفة الشرع أو جحدها، وهي معلومة من الدين بالضرورة، أو أتى بشريعة بدلها يلزم الناس بها، فهذا كفر ناقل عن الملة، نقول مثالاً على ذلك: من قال كما هو مُطالب مثلاً بصحة الزواج بين الرجلين في إثبات جواز المعاشرة بين رجل ورجل، والعياذ بالله، هذا حكم واحد فقط، من فعل قوم لوط، وهو مشروع عند الغرب، وعند من ينادي بمشابهتهم في ذلك أو إلغاء تجريم الزنا، كما هو واقع في بعض البلاد المسلمة أو المسماة بالإسلامية، التي تريد مصالح من الدخول

في كيانات غربية، يشترطون عليهم إلغاء تجريم الزنا، الموافقة على هذا القانون الواحد، لو كان واحدًا فقط يعني، فهم ينصون على أن الزنا ليس بجريمة طالما بتراضي الأطراف، والعياذ بالله، وليس بجريمة حتى ولو كانت متزوجة، وهذه البقايا التي كانت موجودة من أجل أمر الزواج، يرون أن بضع المرأة، فرج المرأة، حق شخصي لها، لا حق للزوج ولا لغيره، النظرة الأولى للقوانين الغربية كانت ترى أن الزنا إنما هو اعتداء على حق الرجل المتزوج، وبالتالي يعاقبون المرأة الزانية التي هي في تعريفهم المتزوجة التي زنت، وهذا حق للزوج مطلقًا، بمعنى: أنه هو الذي يملك وحده إقامة الدعوى، وهو الذي يملك إيقاف العقوبة، وإذا ثبت رضاه بما فعلت بمعاشرتها، ولو مرة واحدة بعد علمه، سقط حقه في ذلك، وكذلك يسقط حقه إذا زنا هو أيضًا في منزل الزوجية، فهذه نظرتهم، ثم تطورت نظرة الغربيين إلى أمر الزنا حتى جعلوا أمر فرج المرأة حقًّا شخصيًّا لها، لا دخل لأحد لا المجتمع ولا الزوج ولا أي إنسان، بما في ذلك مثلاً أنهم يعدون من ضمن المغتصبين الزوج إذا عاشر زوجته بغير رضاها، فهذا عندهم جريمة اغتصاب، ينفذ فيها القانون الخاص بالاغتصاب.

نقول: لو هذه مسألة واحدة، ومثلها مسألة تحريم تعدد الزوجات مطلقًا لا بتأويل، لا يقولون: لأن ذلك عندنا عرفيًّا نوع من الضرر؛ لأن النساء عندنا لا يرضين بذلك، وكأنهن اشترطن في أصل العقد فلهذا نمنع ذلك، بل يقولون: لا، تعدد الزوجات ممنوع ابتداءً، مطلقًا، مع علمهم بالآية؛ فهذا - ولو في مسألة واحدة - كفر ناقل عن الملة؛ فلذلك العبرة ليست بالقلة ولا بالكثرة، بل في نوع المسألة.

نقول: ماذا يصنع من يضطر إلى المطالبة بحقه أمام هذه المحاكم الوضعية التي فيها من هذا النوع، نقول: لابد أولاً من معرفة ما يوافق الشرع وما يخالفه من هذه الأمور التي يحكمون بها، حتى إذا وقف الإنسان أمام هذه المحاكم مضطرًا مكرهًا؛ لنيل حق له لا يستطيع أن يصل إليه إلا بذلك، فإنه لا يطالِب إلا بما يوافق الشرع، حتى وإن قال: إن بعض المواد القانونية عندهم توافق الشرع في كذا وكذا. فلابد أن يطالِب بما يوافق الشرع، لا يطالب بما يخالفه، وهذا بلا شك من أهم الأمور التي تكون مخرجًا لكثير من المسلمين الذين يوقفون ويضطرون لأخذ حقهم من خلال هذه المحاكم ومن خلال هذه القوانين، والمسلمون في عامة بلادهم لا يستطيعون التخلص من ذلك، فهناك أنواع من المقاضاة حتى وأنت تسير في الطريق، لو وقعت في مخالفة مرورية، فهناك قانون يحكمك، وسوف تقف أمام المرور لدفع الغرامة أو نحو ذلك، وهناك أحكام بالطلاق وأحكام بالزواج، وثبوت أحكام بالإرث.

وكل ذلك لابد وأن يكون مثبتًا في هذه المحاكم.

نقول: ما وافق الشرع من ذلك، وإن كان تولي هذه الأمور مخالفا للشرع، أعني: ضمن مخالفات أخرى للشرع لا يجوز؛ لأن الإنسان لا يجوز أن يتولى أمرًا فيه موافقة ومخالفة لشرع الله إلا أن يتمكن من ترك المخالفة، من يعمل في هذه الوظائف، سواء كان قاضيًا، أو محاميًّا، أو وكيلًا للدّيّانة كما يقولون، إن استطاع أن يأخذ ما يوافق الشرع ويترك ما يخالف الشرع، فهذا الذي يمكن أن يعمل ويطالب ويقضي في مثل هذا الموطن، وإن كان بعض المشايخ العلماء الأفاضل

المعاصرين قد نصوا على بطلان القضاء بمقتضى هذه القوانين، ولو وافق الشريعة، فإنما يوافق الشريعة اتفاقًا لا قصدًا، وإن كان هذا الأمر في الحقيقة بعد النصوص التي تنص في كثير من البلاد على أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع أن ذلك الكلام قد يكون فيه نظر.

نقول: ما وافق الشرع فهو حق، وما خالف الشرع فهو باطل، ومن طالب بالحق لا يكون متحاكمًا إلى الطاغوت، ومن طلب من أي إنسان مسلمًا كان أو كافرًا أن يحكم بما وافق شرع الله ﷻ، فهو لم يتحاكم إلى الطاغوت؛ ولذلك نقول: من طالب بإثبات حق شرعي مثل الميراث مثلاً، الذين يموت لهم ميت، فيقدمون طلبًا إلى المحكمة الوضعية التي تحكم بين الناس في بعض المسائل الأخرى وفي نفس المكان وفي نفس المشاكل بخلاف الشرع، لكنه طالبهم بما يوافق الشرع من إثبات الميراث بين فلان الميت وبين ورثته، وأن يقسم على وفق الشريعة، فمثل هذا أمر هو من الحق، لا يمكن أن يوصف من طالب به أنه متحاكم إلى الطاغوت، وإن كان الشخص الذي يقضي به هو في حد نفسه يحكم بغير ما أنزل الله في مسائل أخر، لكن في مثل هذا الموطن مطالبته بالحق أمر مشروع، وامرأة مثلاً يضارها ولا ينفق عليها ويضربها ويؤذيها، ومن حقها شرعًا في شرع الله أن تطلق، فإذا وقفت أمام القضاء وأثبتت الضرر الذي حصل لها، وطلبت الطلاق وحكم لها بالطلاق الموافق للشرع، فهذا حكم موافق لشرع الله لا بد من العمل به، ومن يبطل هذه المحاكم بالكلية كالشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ، فلابد أن يُرد الناس إلى أمر يتعاملون به في مثل هذا المقام، فنقول: من يُبطل ذلك ويمنعه بالكلية يرد الأمر إلى أهل العلم، وأهل العلم سوف يوافقون

وسوف يقبلون ما وافق الشرع من هذه الأحكام، فعاد الأمر إلى مسألة ما يوافق الشرع وما يخالفه، فما وافق الشرع لزم الحكم به ولزم اعتبار الحكم به؛ أما إذا خالف الشرع فلا اعتبار به كائنًا من كان، لا يجوز للقاضي أن يقضي به، ولا يجوز لممثل النيابة أن يطالب به، ولا يجوز للمحامي عن موكله أن يطالِب بأمر يخالف الشرع، مهما كان يعطيه من أمور دنيوية ومصالح أرضية، إنما هو يعلم أولاً ما يوافق الشرع وما يخالفه، ويطلب ما يوافق الشرع ولا يطالب بغيره، ولو كان القانون يتيح له مخالفة الشرع، فلا يجوز على سبيل المثال في قضية خصومة مالية أن يطالب أحد الأطراف بإلزام الطرف الآخر بالفوائد الربوية، وإن كان القانون يلزم بها، فالمحامي الذي يحكم بذلك ووكيل النيابة الذي يطالب بذلك والقاضي الذي يحكم بهذه الفوائد الربوية، كل هؤلاء داخلون في مسمى الظلم، والعياذ بالله.

لذلك نقول: هذا خطر عظيم، وإن كان مسألة التكفير للمعين، كما ذكرنا قد تكلمنا عن مسألة استيفاء الشروط وانتفاء الموانع، فقد يكون البعض متأولاً، يقول: أنا سأطلب ذلك ولن آخذه، أو سأطلب ذلك لأن فلانًا قد أغاظني، أو لأن فلانًا قد ماطلني أو غير ذلك، أيا ما كان، إذا كان هناك نوع من التأويل امتنع التكفير، ولكن قد يقع كثير من الناس في الكفر، وإن لم نحكم نحن بكفره، فما ينفعه عذرنا له، وهو عند الله من الكافرين، أعني: أننا قد نتوقف عن تكفير شخص بعينه، ونقول: نحن لم نعلم باستيفاء الشروط ولا انتفاء الموانع، ومع ذلك فهو عند الله ﷻ قد يكون غير معذور؛ لأن الحجة قد قامت عليه، أو لأن التأويل الذي تأوله غير معتبر، أو لأنه غير مكره، أو لأنه فعلاً قد استوفيت الشروط بأي طريقة كانت، ونحن لا نعلم،

فهل ينفعه عند الله أننا قد عذرناه، وهو عند الله غير معذور؟! وهذا كالمنافق الذي نحن نحكم بإسلامه، ومع ذلك فهو عند الله في الدرك الأسفل من النار؛ لذلك نقول: هذا خطر عظيم لابد أن ينتبه له من يتعامل في هذه المسألة، ونسأل الله العافية.

الْمسْألةُ الثّامِنةُ والْعِشْرون بَعْدَ الْمِائةِ: وَكَرَاهَةُ التّزْوِيجِ بِيْنَ الْعِيديْنِ.

الشـــرح:

في عامة النسخ: (**الْعِيديْنِ**)، أي: بين عيد الفطر وعيد الأضحى. وكثير من الناس يكره التزوج في شوال، وإلى يومنا هذا هناك من يكره التزوج في شوال، مع أن الرسول ﷺ قد تزوج عائشة رضي الله عنها في شوال وبنى بها في شوال؛ ولذلك كانت تستحب عائشة رضي الله عنها ذلك، وعلى أي الأحول فهو نوع عندهم من التشاؤم، كانوا يتشاءمون بالزواج بين العيدين، وبقيت رواسب جاهلية من أهل الجاهلية إلى الأزمنة المتأخرة، وإلى يومنا هذا هناك من يكره مثل ذلك من باب التشاؤم وأنهم يكرهون ذلك؛ حتى لا يقع فراق أو اختلاف بين الزوجين، وهو كله من مسائل الجاهلية التي يجب هجرانها وتركها، ولا يجوز أن يتشاءم الناس بأمر باختراعهم وابتداعهم، ولا طيرة أساسًا في شرع الله ﷻ؛ كما قال النبي ﷺ: «**الطِّيرةُ شِرْكٌ، الطِّيرةُ شِرْكٌ، ثلاثًا، وما مِنّا إِلّا، ولكِنّ اللّه يُذْهِبُهُ بِالتّوكُّلِ**»(١)، فلا يصح أن يُبنى عمل على ذلك، في بعض النسخ: «**كراهةُ التّزْوِيجِ بيْن الْعبْديْنِ**» وفسره بعضهم: بأنه يمنع التزويج بين العبيد لكي تبقى الأمة بلا زوج؛ لتستعمل في البغاء، وهذا من حال أهل الجاهلية؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾،

---

(١) سبق تخريجه (٢/ ٣٥٦).

قد كان في الجاهلية هذا النوع، أعني: البغاء بالإماء وأن يتكسب البعض من كسب فروج إمائه، وقد نهى رسول الله ﷺ عن مهر البغي[١]، حرم مهر البغي، وجعل هذا كسبًا محرمًا لا يجوز، وبقي مثل هذا في عصور بعد ذلك ككبيرة من الكبائر ومسألة من مسائل الجاهلية المنكرة، لكن أكثر النسخ - كما ذكرنا - على الضبط الأول: «**كراهةُ التّزْوِيجِ بيْن الْعِيدِيْنِ**»؛ أما بعد العبدين. . . فطبعًا سيكون بين العبد والأمة؛ لذلك الصحيح أنها بين العيدين.

انتهت مسائل الجاهلية التي ذكرها شيخ الإسلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ.

تم بحمد الله

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٢٣٧)، ومسلم (١٥٦٨)، واللفظ للبخاري «**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ ثَمَنِ الكَلْبِ، وَمَهْرِ البَغِيِّ، وَحُلْوَانِ الكَاهِنِ**».

فهرس المصادر والمراجع

* الإبانة الكبرى لابن بطة، الناشر: دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.

* الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم، المحقق: د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، الناشر: دار الراية - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١١-١٩٩١.

* الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، المؤلف: ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي، دراسة وتحقيق: معالي الأستاذ الدكتور عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الناشر: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

* الإحكام في أصول الأحكام، المؤلف: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، المحقق: الشيخ أحمد محمد شاكر، قدم له: الأستاذ الدكتور إحسان عباس، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت.

* الآداب الشرعية، أبو عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ.

* الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ.

* إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، أبو إبراهيم، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير (المتوفى: ١١٨٢هـ)، المحقق: صلاح الدين مقبول أحمد، الناشر: الدار السلفية - الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ .

* أسباب نزول القرآن، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، الناشر: دار الإصلاح - الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.

* الاستذكار، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢١ - ٢٠٠٠، عدد الأجزاء: ٩ .

* الاستقامة، شيخ الاسلام ابن تيمية تحقيق د. محمد رشاد سالم. مكتبة السنة، القاهرة ط٢، ١٤٠٩هـ.

* الاستيعاب، يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

* أسد الغابة في معرفة الصحابة، المؤلف: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير، المحقق: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى.

* الأسماء والصفات للبيهقي، مكتبة السوادي، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، عدد الأجزاء: ٢ .

* الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق علي البجاوي، دار الجيل، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

* أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية - عرض ونقد -، المؤلف: ناصر بن عبد الله بن علي القفاري، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.

* إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين (هو حاشية على فتح المعين بشرح قرة العين بمهمات الدين)، المؤلف: أبو بكر (المشهور بالبكري) بن محمد شطا الدمياطي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م.

* الاعتصام، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، المكتبة التجارية، مصر.

* الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

* اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، محمد بن عمر الرازي، تحقيق علي سامي النشار، دار الكتب العلمية بيروت، طبعة ١٤٠٢هـ.

* إعلام الموقعين عن رب العالمين، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق محمد محيي الدين، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ.

* إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية.

* اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٦٩هـ.

* الأم، للشافعي، دار المعرفة - بيروت، سنة النشر: ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م

* أمراض القلب وشفاؤها، لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، الناشر: المطبعة السلفية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٩٩هـ.

* الانتصار للصحب والآل من افتراءات السماوي الضال، المؤلف: إبراهيم بن عامر بن عليّ الرّحيلي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣م.

* الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ) الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

* الأنساب، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني تحقيق عبد الله عمر البارودي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

* البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة: ١٤٢٠هـ.

* البدء والتاريخ، المطهر بن طاهر المقدسي، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد.

* البداية والنهاية، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى ١٤٠٨، هـ - ١٩٨٨م.

* البدع، اسم المؤلف: أبو عبد الله محمد بن وضاح بن بزيع المرواني (المتوفى: ٢٨٦هـ). دار النشر: مكتبة ابن تيمية.

* بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم ابن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

* تاج العروس من جواهر القاموس، محبّ الدِّين أبو الفيض محمد بن مرتضي الزبيدي، دار الفكر، طبعة ١٤١٤هـ.

* تاريخ ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

* تاريخ الإسلام، شمس الدين الذهبي، تحقيق عمر تدمري، طبعة ١٤٠٩هـ.

* تاريخ الطبري، لأبي جعفر بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت.

* التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق السيد هاشم الندوي، دار الفكر، بيروت.

* تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٩٩٥م.

* تاريخ واسط، اسم المؤلف: أسلم بن سهل الرزاز الواسطي، دار النشر: عالم الكتب بيروت ١٤٠٦، الطبعة الأولى، تحقيق: كوركيس عواد.

* تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة، تحقيق محمد زهري النجار، دار الجيل، بيروت، طبعة ١٣٩٣هـ.

* تأويل مشكل القرآن، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المحقق: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

* التحفة العراقية في الأعمال القلبية، لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، الناشر: المطبعة السلفية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٩٩ .

* تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، حققه: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، الناشر: دار طيبة.

* ترتيب الأمالي الخميسية للشجري، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م.

* الترغيب والترهيب، عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ

* التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق محمد رضوان الداية دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

* التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

* تعظيم قدر الصلاة، محمد بن نصر المروزي، تحقيق عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

* تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا.

* تفسير ابن كثير، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤٠١هـ.

* تفسير البغوي، معالم التنزيل، تحقيق: محمد النمر، وعثمان صميرية وسليمان الحرش. دار طيبة، الرياض الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ.

* تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المؤلف: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨هـ.

* تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ٢٦ مجلد ٢٤ مجلد ومجلدان فهارس.

* تفسير القرطبي، طبعة دار الشعب، القاهرة، وطبعة دار الكتاب العربي، بيروت.

* تفسير عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

* تقريب التدمرية لابن عثيمين رحمه الله، دار ابن الجوزي الرياض الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

* تلبيس إبليس، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر، بيرزت، لبنان، الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

* تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير، لابن الجوزي، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، الطبعة: الأولى، **١٩٩٧**

* التمهيد لشرح كتاب التوحيد، صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار التوحيد، الرياض، الطبعة الأولى **١٤٢٣**هـ.

* التمهيد، يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف، المغرب، طبعة ١٣٨٧هـ.

* التنبيه والإشراف، للمسعودي، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي الناشر: دار الصاوي - القاهرة.

* تهذيب الكمال، يوسف أبو الحجاج المزي، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى **١٤٠٠**هـ.

* تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار القومية العربية، مصر.

* التوحيد وإثبات صفات الرب ﷻ، لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق عبد العزيز إبراهيم الشهوان، دار الرشد بالرياض، طبعة ١٤١٨هـ.

* تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبدالوهاب، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

* جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلِم، للإمام زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق طارق عوض الله، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية١٤٢٠هـ.

* جامع بيان العلم وفضله، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م.

* الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، الناشر: مكتبة المعارف - الرياض.

* جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية، المؤلف: أبو عبد الله شمس الدين بن محمد بن أشرف بن قيصر الأفغاني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: دار الصميعي (أصل هذا الكتاب رسالة دكتوراة من الجامعة الإسلامية)، الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م.

* الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: د. علي حسن ناصر، دار العاصمة الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

* الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار المعرفة - المغرب، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، عدد الأجزاء: ١

* حجة الوداع، المؤلف: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦ هـ)، المحقق: أبو صهيب الكرمي، الناشر: بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٩٩٨ .

* حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله ابن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

* الحماسة المغربية، مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب، أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجرّاوي التادلي (المتوفى: ٦٠٩هـ)، المحقق: محمد رضوان الداية، الناشر: دار الفكر المعاصر - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩١م، عدد الأجزاء: ٢

* حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحقيقة دعوته، د. سليمان بن عبد الرحمن الحقيل، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

* خواطر حول الوهابية، المؤلف: محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم، الناشر: دار التوحيد للتراث، الإسكندرية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م.

* الدر المنثور، عبد الرحمن بن جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٩٩٣م.

* درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، دار الكنوز الذهبية، الرياض طبعة ١٣٩١هـ

* الدعاء للطبراني، المحقق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٣.

* دلائل النبوة. الأصبهاني. دار طيبة. الرياض. ١٤٠٩هـ.

* دلائل النبوة للبيهقي محققا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٠٥هـ.

* ديوان ابن الفارض.

* ديوان البوصيري.

* ديوان المتنبي، أبو البقاء العكبري، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي. دار المعرفة بيروت.

* الرحيق المختوم، المؤلف: صفي الرحمن المباركفوري، الناشر: دار الهلال - بيروت (نفس طبعة وترقيم دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع)، الطبعة: الأولى.

* الرد على الجهمية والزنادقة، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: صبري بن سلامة شاهين، دار الثبات للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، عدد الأجزاء: ١

* الرد على الجهمية، عثمان بن سعيد الدارمي، تحقيق بدر بن عبد الله البدر، دار ابن الأثير، الكويت، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ.

* رسائل السنة والشيعة لرشيد رضا، الناشر: دار المنار، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧م.

* رسائل في العقيدة للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

* الرسالة التبوكية = زاد المهاجر إلى ربه، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: د. محمد جميل غازي، الناشر: مكتبة المدني - جدة.

* الروح، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٣٩٥هـ.

* الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، المؤلف: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: ٥٨١هـ)، المحقق: عمر عبد السلام السلامي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

* الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، المؤلف: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: ٥٨١هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

* روضة الطالبين وعمدة المفتين، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت - دمشق - عمان، الطبعة: الثالثة، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.

* روضة الناظر، لابن قدامة المقدسي، تحقيق عبد العزيز عبد الرحمن السعيد، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.

* زاد المسير، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ.

* زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، الطبعة الرابعة عشر ١٤٠٧هـ.

* الزهد، اسم المؤلف: أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشيباني أبو بكر، دار النشر: دار الريان للتراث - القاهرة - ١٤٠٨، الطبعة: الثانية، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد.

* الزهد الكبير للبيهقي، المحقق: عامر أحمد حيدر، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت.

* الطبعة: الثالثة، ١٩٩٦

* الزهد لأبي داود السجستاني، الناشر: دار المشكاة للنشر والتوزيع، حلوان، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.

* الزهد، هناد بن سري الكوفي، تحقيق عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، دار الخلفاء للكتاب، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

* السنة، اسم المؤلف: محمد بن نصر بن الحجاج المروزي أبو عبد الله دار النشر: مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ١٤٠٨، الطبعة: الأولى، تحقيق سالم أحمد السلفي.

* السنة لابن أبي عاصم، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

* السنة للخلال. دار الراية للنشر والتوزيع. الرياض.

* السنة، عبد الله بن أحمد بن حنبل، تحقيق محمد سعيد سالم القحطاني دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

* سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

* سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.

* سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.

* سنن البيهقي الكبرى،أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا. مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ.

* سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث، بيروت.

* سنن الدارقطني، تحقيق السيد عبد الله هاشم المدني، دار المعرفة، بيروت.

* سنن الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

* السنن الصغرى للبيهقي، تحقيق: محمد ضياء الرحمن الأعظمي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

* السنن الصغرى للنسائي (المجتبي)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

* السنن الكبرى للنسائي، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

* سنن سعيد بن منصور، المؤلف: أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني الجوزجاني، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: الدار السلفية - الهند، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م.

* سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة ١٤١٣هـ.

* السيرة النبوية - ابن هشام - مكتبة المنار - الأردن - ١٤٠٦هـ.

* السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، عام النشر: ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٦م.

* السيرة النبوية لابن إسحاق، دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

* شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

* شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي، تحقيق أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرياض، طبعة ١٤٠٢هـ.

* شرح السنة، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٦هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، عدد الأجزاء: ١٥

* شرح الشفا، المؤلف: علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى: ١٠١٤هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ.

* شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة١٣٩١هـ.

* شرح العقيدة الواسطية، الشيخ صالح بن فوزان الفوزان. مكتبة المعارف، الرياض.

* شرح القصيدة النونية، أحمد بن إبراهيم بن عيسى، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ.

* شرح الكوكب المنير، المؤلف: تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي المعروف بابن النجار الحنبلي (المتوفى: ٩٧٢هـ)، المحقق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، الناشر: مكتبة العبيكان، الطبعة: الطبعة الثانية ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

* شرح النووي على صحيح مسلم، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.

* شرح حديث جابر بن عبد الله ﵄ في صفة حجة النبي ﷺ، محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، دار المحدث للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ، عدد الأجزاء: ١

* شرح علل الترمذي، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق همام عبد الرحيم سعيد، مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

* شرح كشف الشبهات لمحمد بن إبراهيم آل الشيخ، طبع على نفقة محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

* شرح مشكل الآثار، المؤلف: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ، ١٤٩٤م.

* شرح معاني الآثار، المؤلف: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (المتوفى: ٣٢١هـ)، حققه وقدم له: (محمد زهري النجار - محمد سيد جاد الحق) من علماء الأزهر الشريف، راجعه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: د يوسف عبد الرحمن المرعشلي - الباحث بمركز خدمة السنة بالمدينة النبوية، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م.

* شرف أصحاب الحديث، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: د. محمد سعيد خطي اوغلي، الناشر: دار إحياء السنة النبوية - أنقرة.

* الشريعة، أبو بكر محمد بن الحسين الآجرى، مطابع الأشراف، لاهور.

* شعب الإيمان، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

* الشفا بتعريف حقوق المصطفى، المؤلف: عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل، الناشر: دار الفيحاء - عمان، الطبعة: الثانية - ١٤٠٧هـ.

* شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم، تحقيق محمد بدر الدين الحلبي، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٣٩٨هـ.

* الصارم المسلول على شاتم الرسول، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد عبد الله الحلواني ومحمد كبير شودري، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

* الصّارِمُ المُنْكِي في الرّدِّ على السُّبْكِي، المؤلف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي (المتوفى: ٧٤٤هـ)، تحقيق: عقيل بن محمد بن زيد المقطري اليماني، الناشر: مؤسسة الريان، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

* صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

* صحيح البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

* صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت.

* الصفدية، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق محمد رشاد سالم، الطبعة الثانية **١٤٠٦**هـ.

* الطب النبوي لأبي نعيم الأصبهاني، المحقق: مصطفى خضر دونمز التركي، الناشر: دار ابن حزم، الطبعة: الأولى، **٢٠٠٦**م.

* طبقات الأولياء للشعراني.

* طبقات الحنفية، عبد القادر بن أبي الوفاء، مير محمد كتب خانة، كراتشي.

* طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين بن عبد الله بن عبد الكافي السبكي تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر، الطبعة الثانية **١٤١٣**هـ.

* الطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.

* العجالة في الأحاديث المسلسلة، المؤلف: علم الدين أبو الفيض محمد ياسين بن محمد عيسى الفاداني المكي (المتوفى: **١٤١١**هـ)، الناشر دار البصائر - دمشق، الطبعة: الثانية، **١٩٨٥**.

* عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد، المؤلف: أحمد بن عبد الرحيم بن الشهيد وجيه الدين بن معظم بن منصور المعروف بـ «الشاه

ولي الله الدهلوي» (المتوفى: ١١٧٦هـ)، المحقق: محب الدين الخطيب، الناشر: المطبعة السلفية - القاهرة.

* عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي)، لفضيلة الشيخ الدكتور صالح بن عبد الله العبود - حفظه الله -

* العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ضمن مجموع الفتاوى.

* العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها، لشمس الدين الذهبي، تحقيق أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

* عمل اليوم والليلة لابن السني، المحقق: كوثر البرني، الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية ومؤسسة علوم القرآن - جدة / بيروت.

* عمل اليوم والليلة، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي الخرساني، تحقيق فاروق حمادة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ

* العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

* غاية الأماني في الرد على النبهاني، المؤلف: أبو المعالي محمود شكري بن عبد الله بن محمد بن أبي الثناء الألوسي (المتوفى: ١٣٤٢هـ)، المحقق: أبو عبد الله الداني بن منير آل زهوي، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

* غريب الحديث، حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، تحقيق عبد الكريم إبراهيم العزباوي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، طبعة ١٤٠٢هـ.

* الفتاوى الكبرى، لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحرّاني الدمشقي، قدّم له وعرّف به حسين محمد مخلوف، دارالمعرفة، بيروت، لبنان.

* فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، جمع وترتيب وتحقيق: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، الناشر: مطبعة الحكومة بمكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٣٩٩هـ.

* فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني تحقيق محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت.

* فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، اسم المؤلف: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار النشر: دار الفكر - بيروت.

* فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، تحقيق محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية، الطبعة السابعة ١٣٧٧هـ.

* فتح المغيث بشرح الفية الحديث للعراقي، للسخاوي، المحقق: علي حسين علي، الناشر: مكتبة السنة - مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

* فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، للحافظ زين الدين عبد الرحيم العراقي.

* الفرق بين الفرق، عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية **١٩٧٧**م.

* فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، المؤلف: د. غالب بن علي عواجي، الناشر: المكتبة العصرية الذهبية للطباعة والنشر والتسويق، جدة، الطبعة: الرابعة، **١٤٢٢** هـ - **٢٠٠١**م.

* الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: **٧٢٨**هـ)، حققه وخرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: مكتبة دار البيان، دمشق، عام النشر: **١٤٠٥** هـ - **١٩٨٥**م.

* فضائح الباطنية، أبو حامد محمد الغزالي، تحقيق عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت.

* فضائل الصحابة، الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى **١٤٠٣**هـ.

* فضل الصلاة على النبي ﷺ، المؤلف: القاضي أبو إسحاق إسماعيل ابن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الأزدي البصري ثم البغدادي المالكي الجهضمي، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الثالثة، **١٣٩٧**

* فقه الخلاف وأثره في القضاء على الإرهاب، د. يوسف بن عبد الله الشبيلي، الناشر: وزارة الأوقاف السعودية.

* الفقيه والمتفقه، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، الناشر: دار ابن الجوزي - السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢١هـ.

* الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، المؤلف: عبد الرحمن بن عبد الخالق اليوسف، الناشر: مكتبة ابن تيمية، الكويت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

* فوات الوفيات والذيل عليها، لمحمد بن شاكر الكتبي، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

* قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق عبد القادر الأرناؤط. ط الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء. الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ.

* القاموس المحيط والقابوس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

* القدر، أبو بكر جعفر بن محمد بن المستفاض، تحقيق عبد الله بن حمد المنصور، أضواء السلف، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

* القضاء والقدر، المؤلف: عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي، الناشر: دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة: الثالثة عشر، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.

* القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، المحقق: عبد الرحمن عبد الخالق، الناشر: دار القلم - الكويت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٦ .

* الكافي في فقه الإمام أحمد، لموفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي الحنبلي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ.

* الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، تحقيق: عبد الله القاضي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية١٤١٥هـ.

* الكامل في ضعفاء الرجال، اسم المؤلف: عبدالله بن عدي بن عبدالله بن محمد أبو أحمد الجرجاني، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٤٠٩ - ١٩٨٨، الطبعة: الثالثة، تحقيق: يحيى مختار غزاوي.

* كشاف القناع عن متن الإقناع، المؤلف: منصور بن يونس بن صلاح الدين ابن حسن بن إدريس البهوتى الحنبلى، الناشر: دار الكتب العلمية.

* كشف الخفاء ومزيل اللباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس إسماعيل بن محمد العجلوني، تحقيق أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ.

* كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله أبو طاهر القسطنطني، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٤١٣هـ.

* اللآلي البهية في شرح العقيدة الواسطية لشيخنا العلامة صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ -حفظه الله- .

* لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ، عدد الأجزاء: ١٥

* لسان الميزان، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق دائرة المعارف النظامية - الهند، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ.

* المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ - ١٩٨٦

* مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الريان للتراث، القاهرة، وبيروت.

* مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية.

* المجموع شرح المهذب، للنووي. دار الفكر بيروت ١٩٩٧م.

* مجموعة الرسائل والمسائل النجدية لبعض علماء نجد الأعلام (الجزء الثالث)، عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب آل الشيخ (المتوفى: ١٢٩٣هـ). دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى بمصر، ١٣٤٩هـ النشرة الثالثة، ١٤١٢هـ، عدد الأجزاء: ١

* المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي.

* مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

* مدارج السّالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق محمد حامد الفقِّي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ.

* مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى: ١٠١٤هـ)، دار الفكر بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، عدد الأجزاء: ٩

* مسائل الإمام أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله بن أحمد، المؤلف: عبد الله بن أحمد بن حنبل، المحقق: أحمد بن سالم المصري، دار التأصيل - دار المودة، سنة النشر: ١٤٢٨ - ٢٠٠٨، عدد المجلدات: ١، رقم الطبعة: ٣.

* مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة، المؤلف: ناصر بن عبد الله بن علي القفاري، دار النشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٨هـ.

* المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

* مسند ابن الجعد، الناشر: مؤسسة نادر - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ - ١٩٩٠.

* مسند أبي داود الطيالسي، لسليمان بن داود بن الجارود الطيالسي، دار المعرفة، بيروت.

* مسند أبي يعلى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

* مسند أحمد بن حنبل - النسخة المحققة بإشراف شعيب الأرناؤط. مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٩هـ.

* مسند إسحاق بن راهويه، تحقيق عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

* مسند البزار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، المدينة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

* مسند الشاميين، أبو القاسم الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

* المسوّدة في أصول الفقه، لآل تيمية، مجد الدين أبو البركات عبد السّلام بن عبد الله بن الخضر، شهاب الدّين أبو المحاسن عبد الحليم بن عبد السّلام، شيخ الإسلام تقيّ الدّين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، جمعها وبيّضها شهاب الدّين أبو العباس أحمد بن محمد الحرّاني الدّمشقي الحنبلي، حقّق أصوله وفصّله وضبط شكله وعلّق حواشيه محمد محي الدِّين، دار الكتاب العربي، بيروت.

* مشكل الآثار لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، طبعة دار الرسالة بيروت.

* مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، تحقيق محمد المنتقى الكشناوي دار الكتب العربية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

* مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

* مصنف عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

* المعارف، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة.

* المعجم الأوسط، أبو القاسم الطبراني، تحقيق طارق بن عوض الله وعبد المحسن ابن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، طبعة ١٤١٥هـ.

* المعجم الصغير، أبو القاسم الطبراني، تحقيق محمد شكور، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

* المعجم الكبير، أبو القاسم الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.

* معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة١٤٢٢هـ.

* معرفة الصحابة لأبي نعيم، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

* المغني لموفق الدين أبي محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي الدمشقي الحنبلي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى١٤٠٥هـ.

* مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

* المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي (المتوفى: ٩٠٢هـ)، المحقق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م، عدد الأجزاء: ١

* مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن علي الأشعري، تحقيق هلموت ريتر، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الثالثة.

* المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي، المؤلف: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، تحقيق: سيد كسروي حسن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

* الملل والنحل، للشهرستاني، الناشر: مؤسسة الحلبي.

* المنتظم لأبي الفرج بن الجوزي، دار صادر، بيروت.

* منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

* الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، المؤلف: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، الناشر: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٠هـ.

* موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، المؤلف أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي، الناشر: المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع القاهرة - مصر، النبلاء للكتاب، مراكش - المغرب، الطبعة: الأولى.

* موطأ الإمام مالك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، مصر.

* موقف ابن تيمية من الأشاعرة، تأليف: عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م.

* ميزان الاعتدال في نقد الرجال، شمس الدين الذهبي، تحقيق علي عوض، وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

* النبوات، لشيخ الإسلام ابن تيمية، المطبعة السلفية، القاهرة، طبعة ١٣٨٦هـ.

* النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة.

* نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر (مطبوع ملحقا بكتاب سبل السلام)، لابن حجر العسقلاني، دار الحديث - القاهرة، الطبعة: الخامسة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

* نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨م.

* النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، الناشر المكتبة العلمية، سنة النشر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، بيروت، عدد الأجزاء ٥ .

* نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، محمد بن علي الشوكاني، دار الجيل، بيروت.

* هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

* هذه مفاهيمنا لشيخنا العلامة صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، الناشر: إدارة المساجد والمشاريع الخيرية الرياض، الطبعة: الثانية **١٤٢٢**هـ - **٢٠٠١**م

* الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، طبعة **١٤٢٠**هـ.

* وفيات الأعيان وأنباء أبناء زمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان.

بيضاء

فَهْرَس المَوْضُوعَات

الموضوع	الصفحة